

تأليف
أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف
مُقرئٌ بالقراءات العشر وباحثٌ في الدراسات القرآنية والعلوم الشرعية واللغوية
مُدير مركز غراس الراسخين للدراسات القرآنية والعلوم الشرعية
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

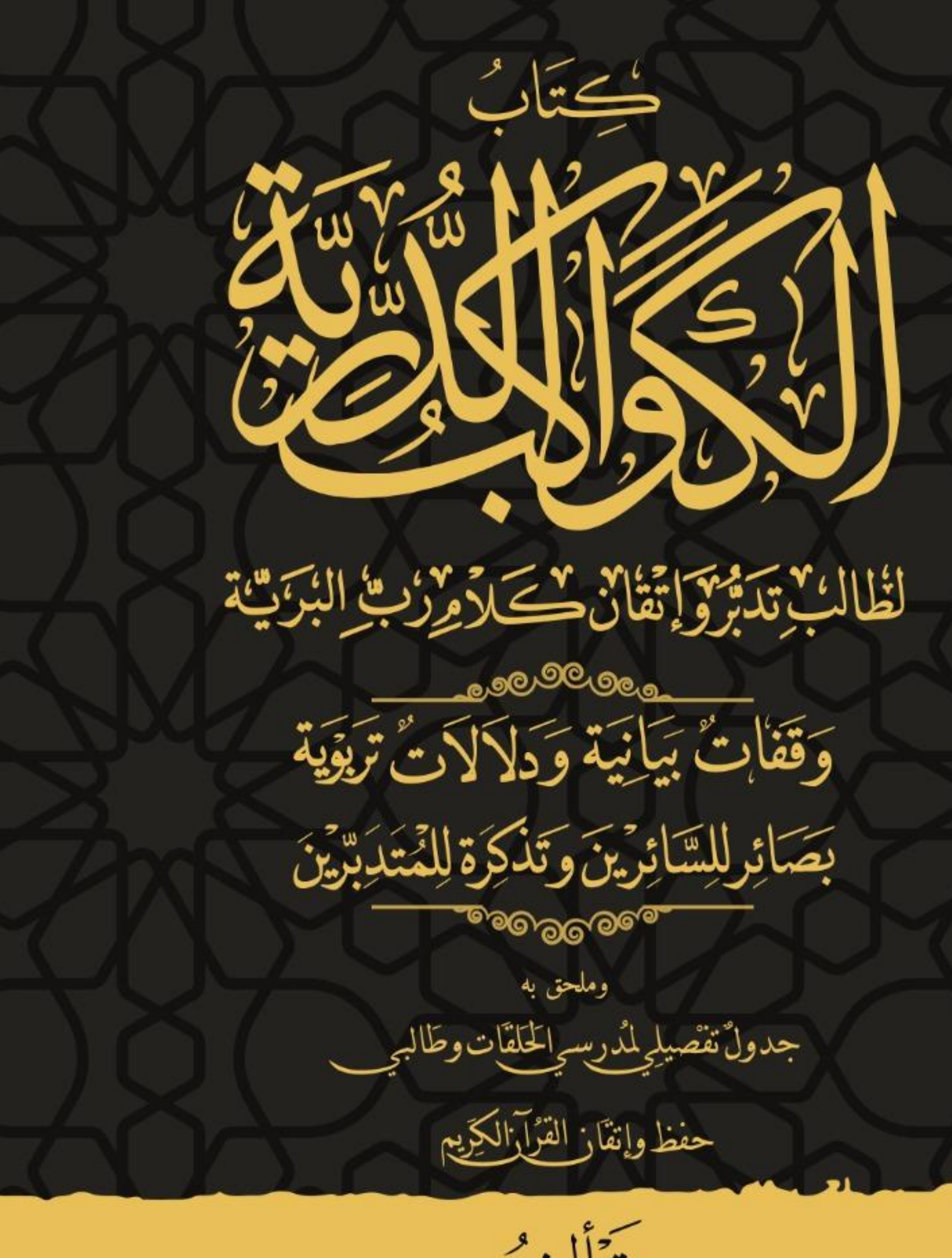


إننا اليوم لفي زمن كثرت فيه الفتن وتلاطمت فيه أمواج المحن واستحكمت فيه الشهوات وكثرت الشبهات وتعددت المشكلات والتحديات وكثر دعاة البدع والمنكرات وإنه لا خلاص من هذا كله ولا شد لأزر ولا رسوخ لقدم ولا أنس لنفس ولا تسلية لروح ولا تحقيق لوعد ولا أمن من عقاب ولا ثبوت لمعتقد ولا بقاء لذكر وأثر طيب إلا بأن يتجه المسلمون جميعا حكاما ومحكومين شعوبا ودولا شبابا وشيبا رجالا ونساء علماء وعامة اتجاها صحيحا بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم بقلوبهم وقوالبهم إلى كتاب الله؛ تلاوة وتدبرا وتعلما وتعليما وعملا وتطبيقا؛ فهو المعين العذب الذي لا ينضب مطلقا ولا يأسن أبدا والكنز الوافر الذي لا يزيده الإنفاق إلا جدة وكثرة ولا تكرار التلاوة إلا حلاوة وطلاوة؛ بيد أنه لا تمنح كنوزه إلا لمن أقبل عليه بقلبه وألقى إليه سمعه وهو شهيد

فيا أيها المكرم اترك نور الومضة يبرق في عقلك جديدا ويشرق في قلبك إيمانا وتجديدا ويجدد لك مع القرآن عهدا جديدا



مُقْرِئٌ بِالْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ وَبَاحِثٌ فِي الدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ
مُدِيرُ مَرْكَزِ غِرَاسِ الرَّاسِخِينَ لِلدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ



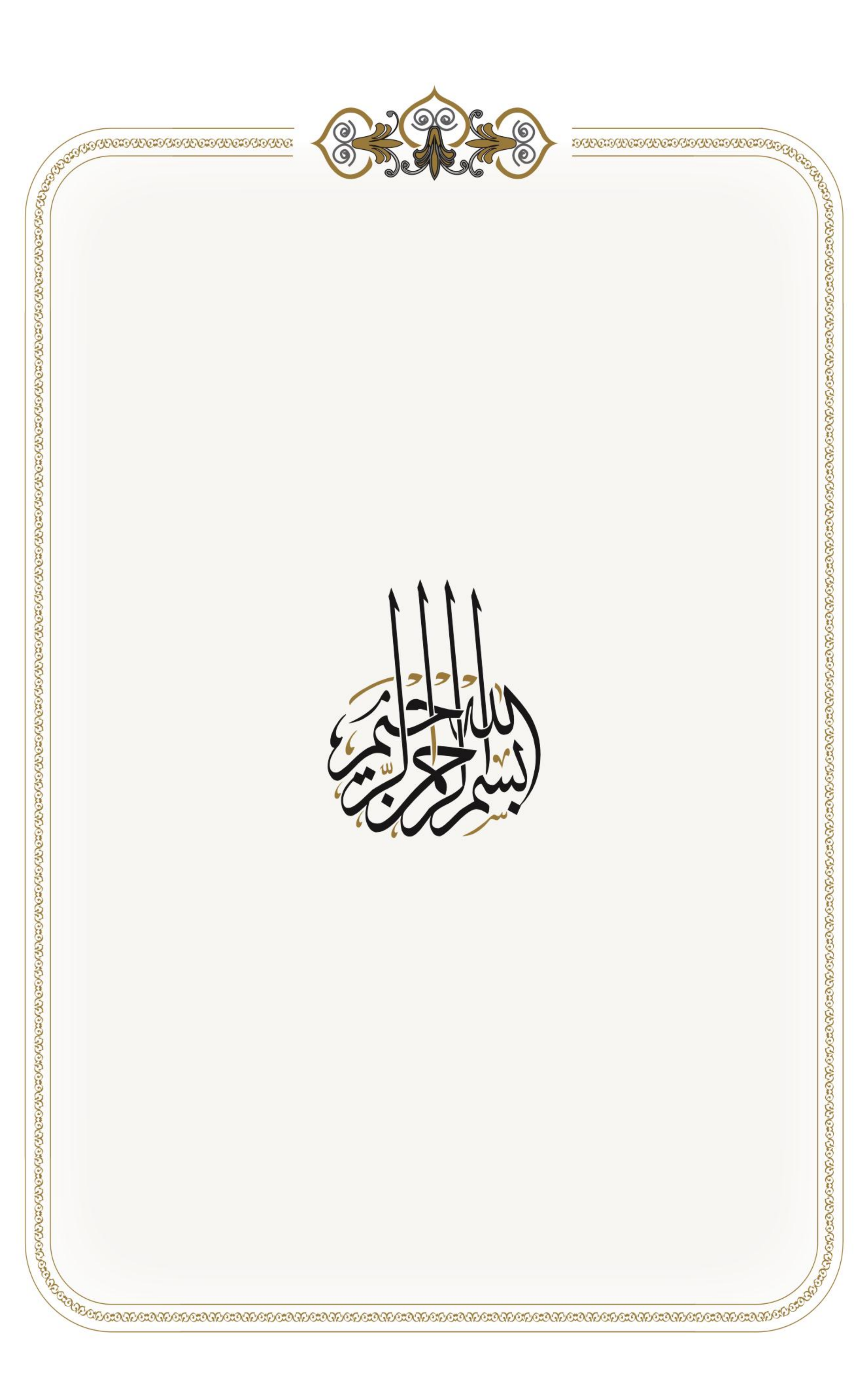
تأليف

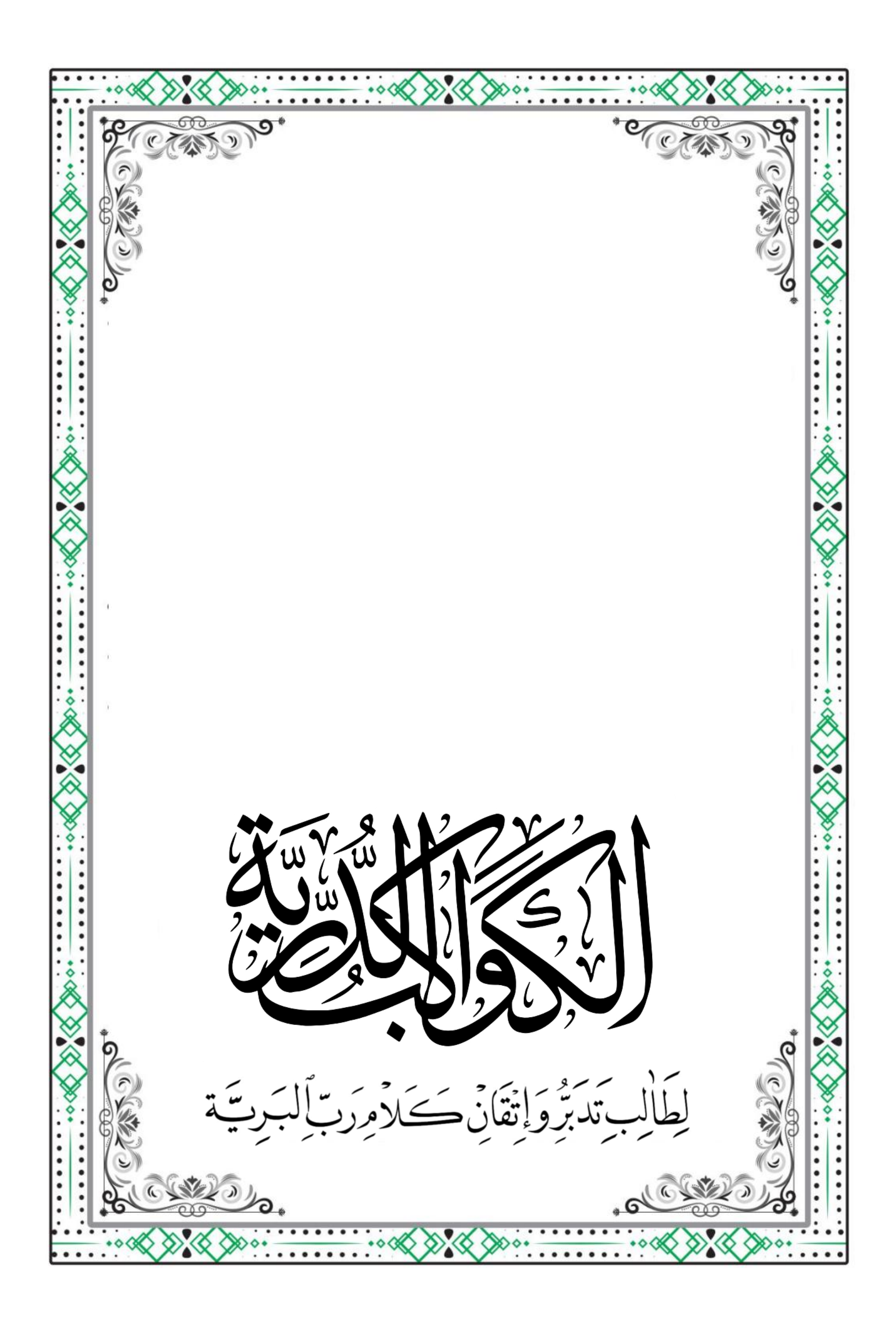
أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف

مقرئ بالقراءات العشر وباحث في الدراسات القرآنية والعلوم الشرعية واللغوية

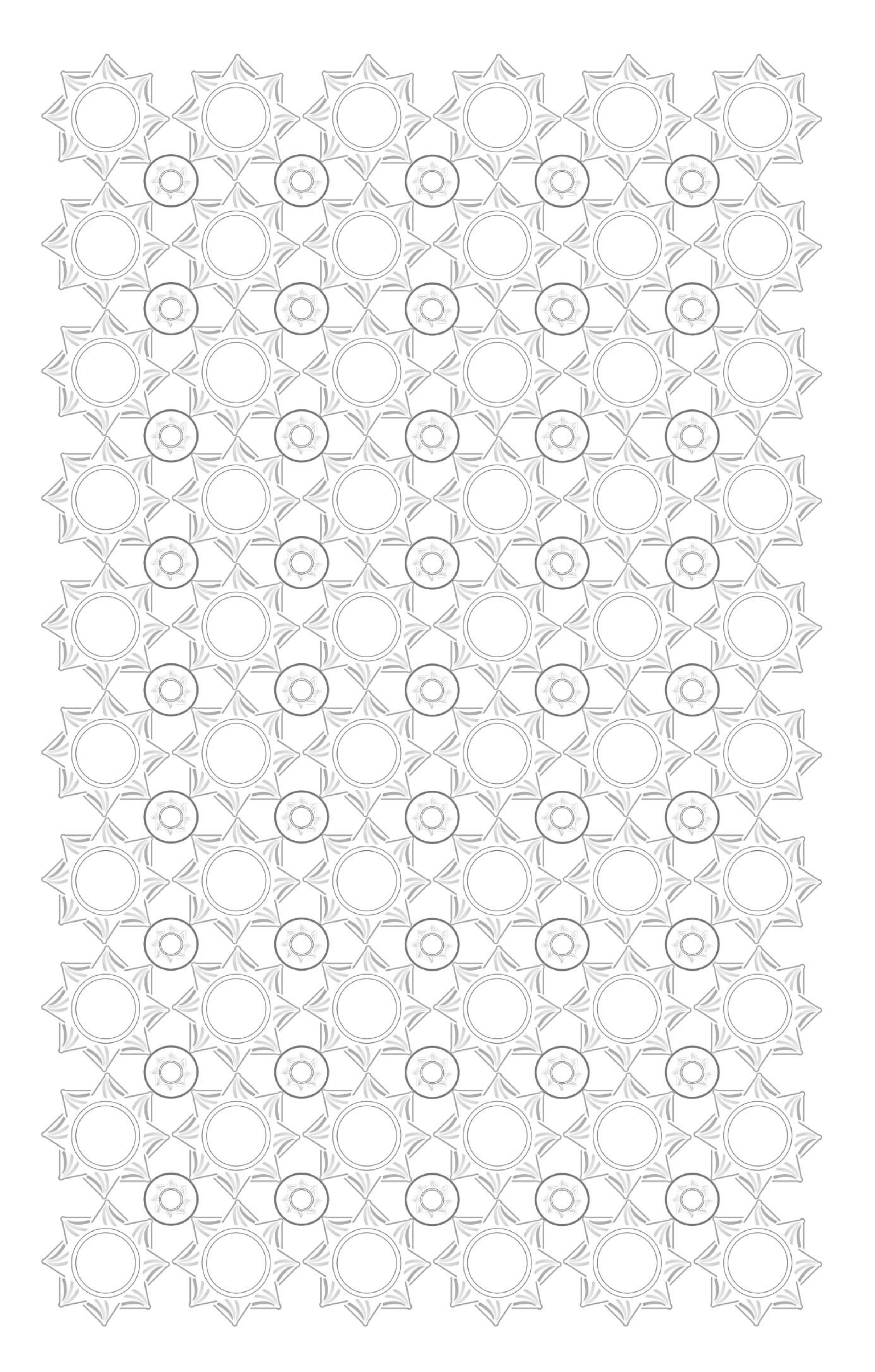
مدير مركز غراس الراسخين للدراسات القرآنية والعلوم الشرعية

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين


بسم الله الرحمن الرحيم



الكواكب الدرية
لطالب تدبر وإتقان كلام رب البرية





كتاب
الكواكب الدرية
لطالب تدبر وإتقان كلام رب البرية
وقفات بيانية ودلالات تربوية
بصائر للسائرين وتذكرة للمتدبرين
تأليف
أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف
مقرئ بالقراءات العشر وباحث في الدراسات القرآنية والعلوم الشرعية واللغوية
مدير مركز غراس الراسخين للدراسات القرآنية والعلوم الشرعية
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين



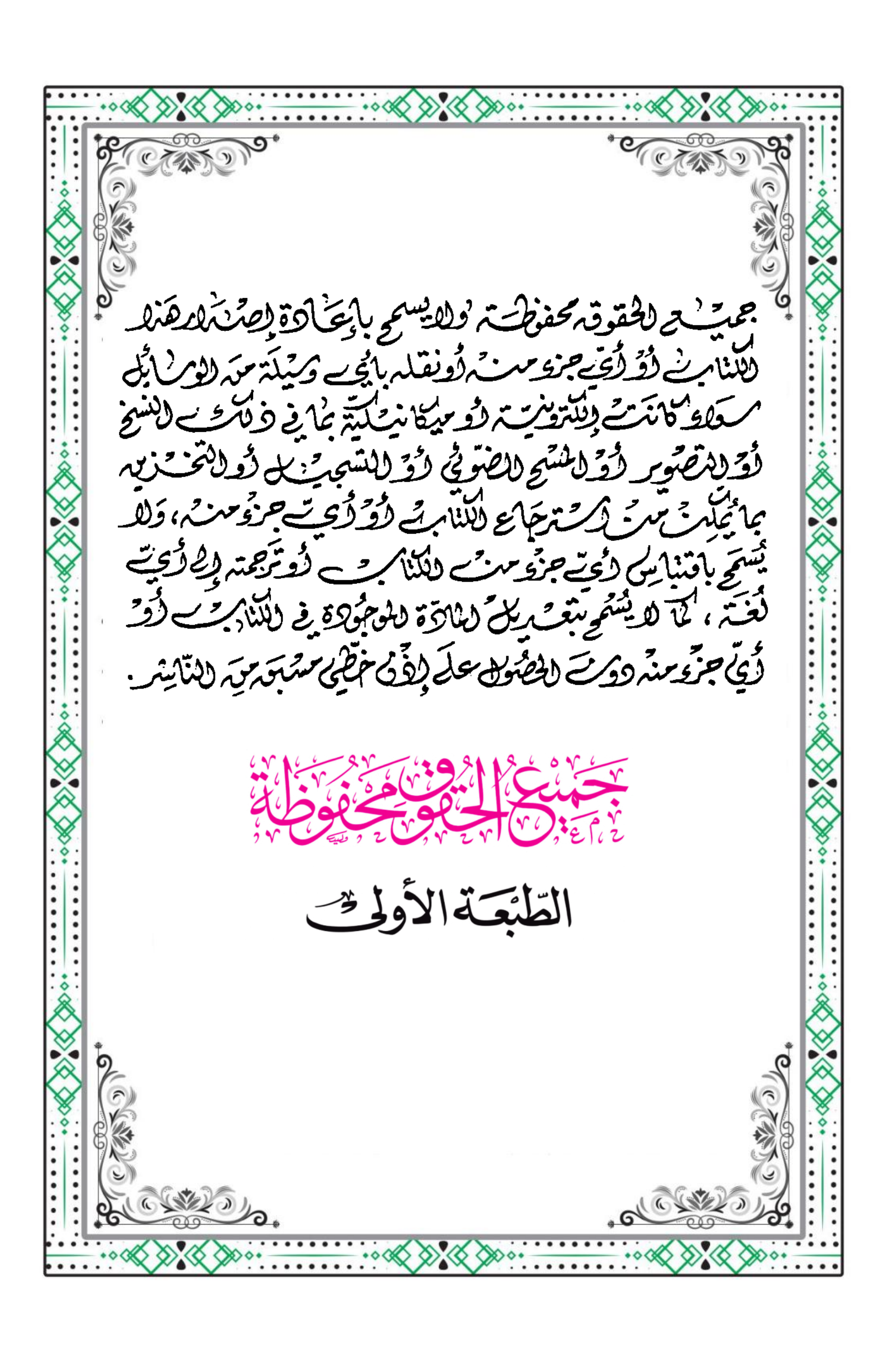


طبعة جديدة منقحة ومزيدة

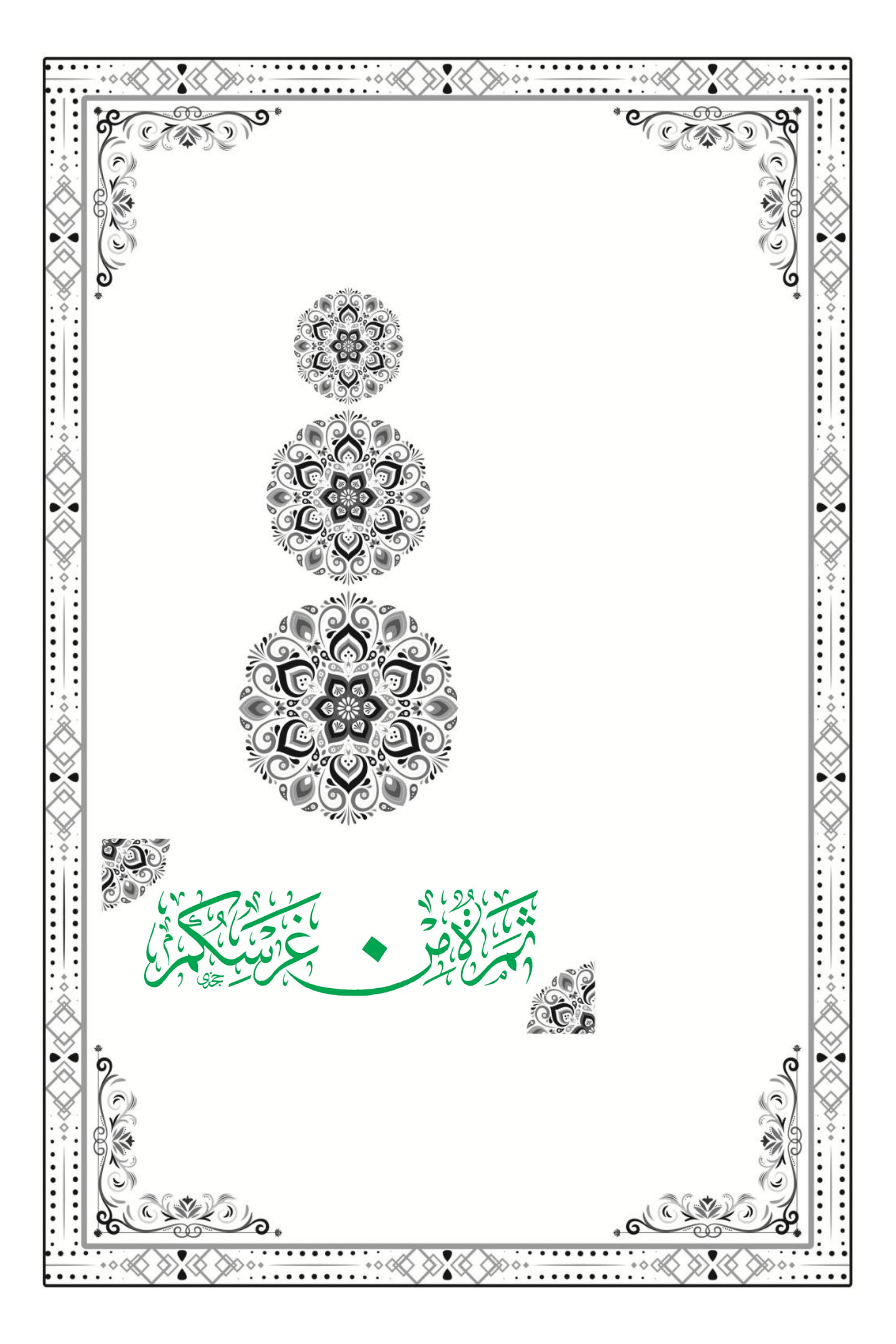
الطبعة الأولى للطبعة الجديدة

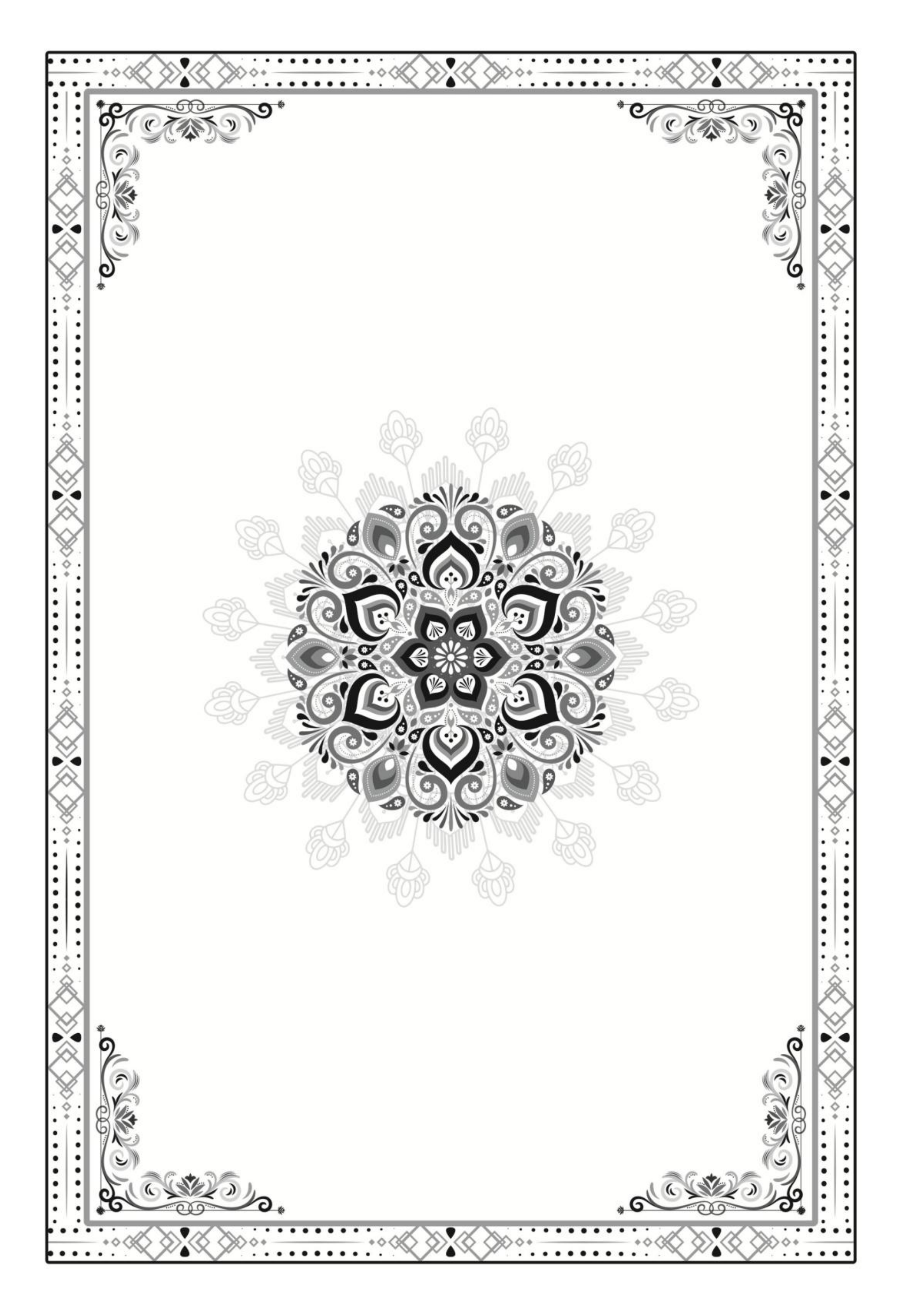
النسخة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



الطبعة الأولى

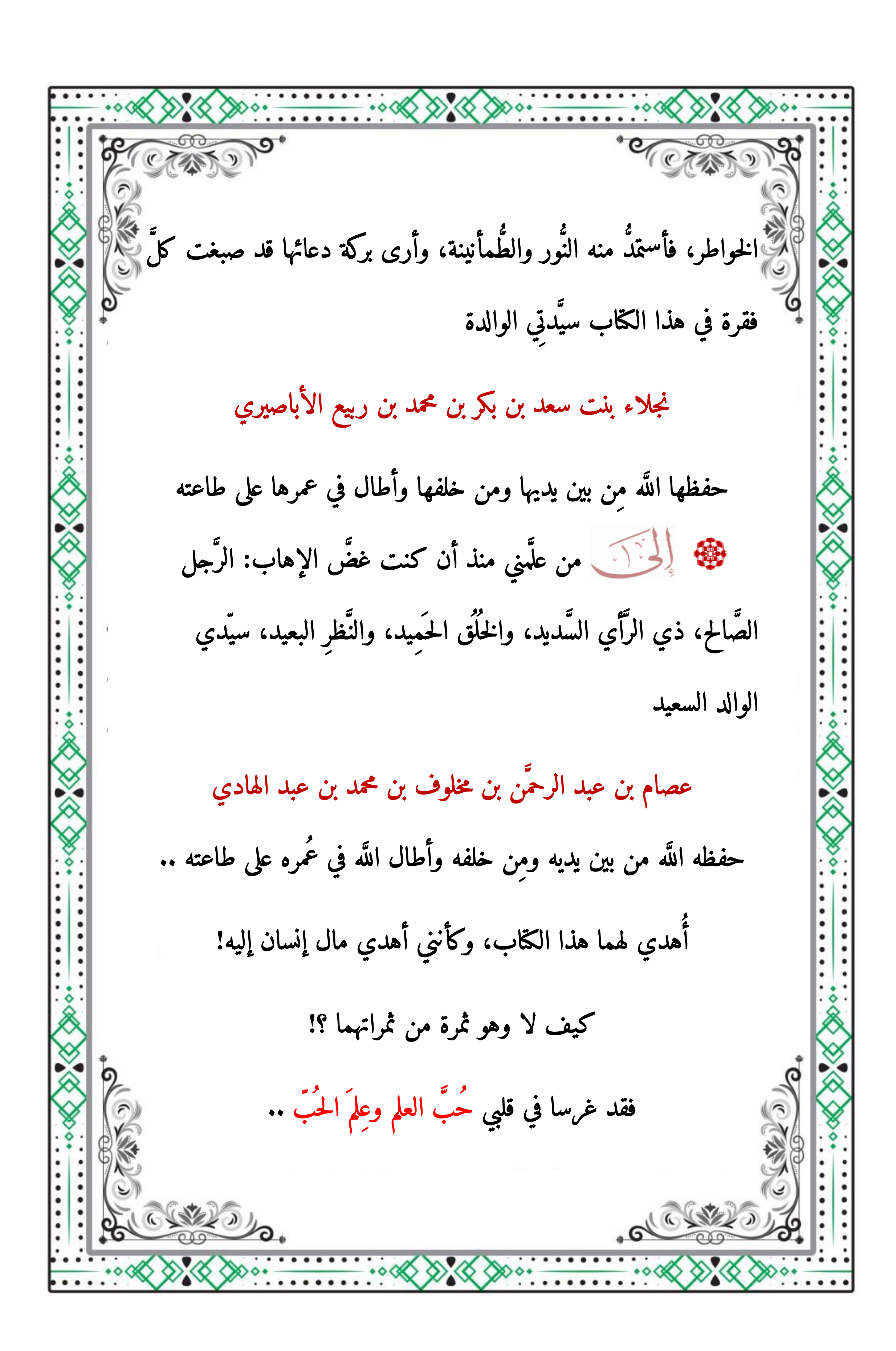

ثمرة من غرسكم





إهداء

إلى منبع النَّقاء، ومُتعة اللِّقاء، وجوهرة الصَّفاء، الشَّمس الَّتي تُشع رأفة وحناناً، والأمل المُشرق بالإيثار والإيمان، التي ترقب بصمت كلَّ ليلةٍ مصباح المكتبة ترجو سرعة انطفائه فينطفئ حيناً .. وتسبقه عيناها أحياناً مشفوعاً بوعد الحقّ من الإله الحق ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ ، الَّتي تحمل معي أثقال الهمّ وأوجاع الحلم .. صبرٌ على المكاره، وعطاءٌ لا ينضب حتَّى في الشَّدائد .. الصابرة المحتسبة على غربتي عنها في طلب العلم، الّتي طالما تعبت وسهرت من أجل أن تعلّمني كتاب الله تعالى وما ينفعني في أمر ديني ودنياي، حتّى إنّي والله لا أعرف كيف أكافئها، أجد محيَّاها في خاطري كلَّما أهمَّتني



الخواطر، فأستمدُّ منه النُّور والطُّمأنينة، وأرى بركة دعائها قد صبغت كلَّ فقرة في هذا الكتاب سيِّدتي الوالدة

نجلاء بنت سعد بن بكر بن محمد بن ربيع الأباصيري

حفظها الله مِن بين يديها ومن خلفها وأطال في عمرها على طاعته

❁ إلى من علَّمني منذ أن كنت غضَّ الإهاب: الرَّجل الصَّالح، ذي الرَّأي السَّديد، والخُلُق الحَمِيد، والنَّظرِ البعيد، سيِّدي الوالد السعيد

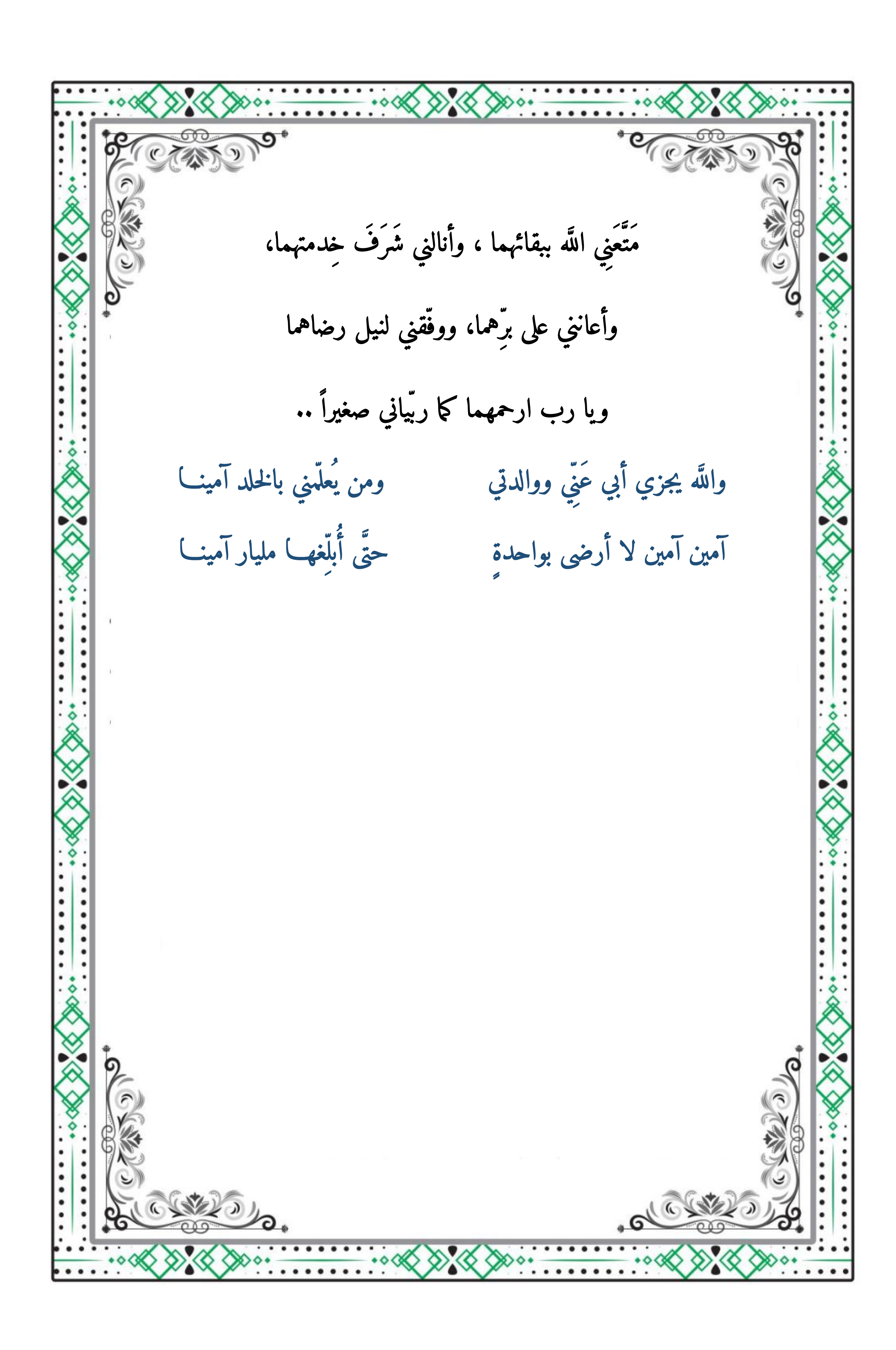
عصام بن عبد الرحمَّن بن مخلوف بن محمد بن عبد الهادي

حفظه الله من بين يديه ومِن خلفه وأطال الله في عُمره على طاعته ..

أُهدي لهما هذا الكتاب، وكأنني أهدي مال إنسان إليه!

كيف لا وهو ثمرة من ثمراتهما ؟!

فقد غرسا في قلبي حُبَّ العلم وعِلمَ الحُبّ ..



مَتَّعَنِي الله ببقائهما ، وأنالني شَرَفَ خِدمتهما،

وأعانني على برِّهما، ووفّقني لنيل رضاهما

ويا رب ارحمهما كما ربّياني صغيراً ..

والله يجزي أبي عَنِّي ووالدتي ومن يُعلّمني بالخلد آمينـا

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتَّى أُبلِّغهـا مليار آمينـا

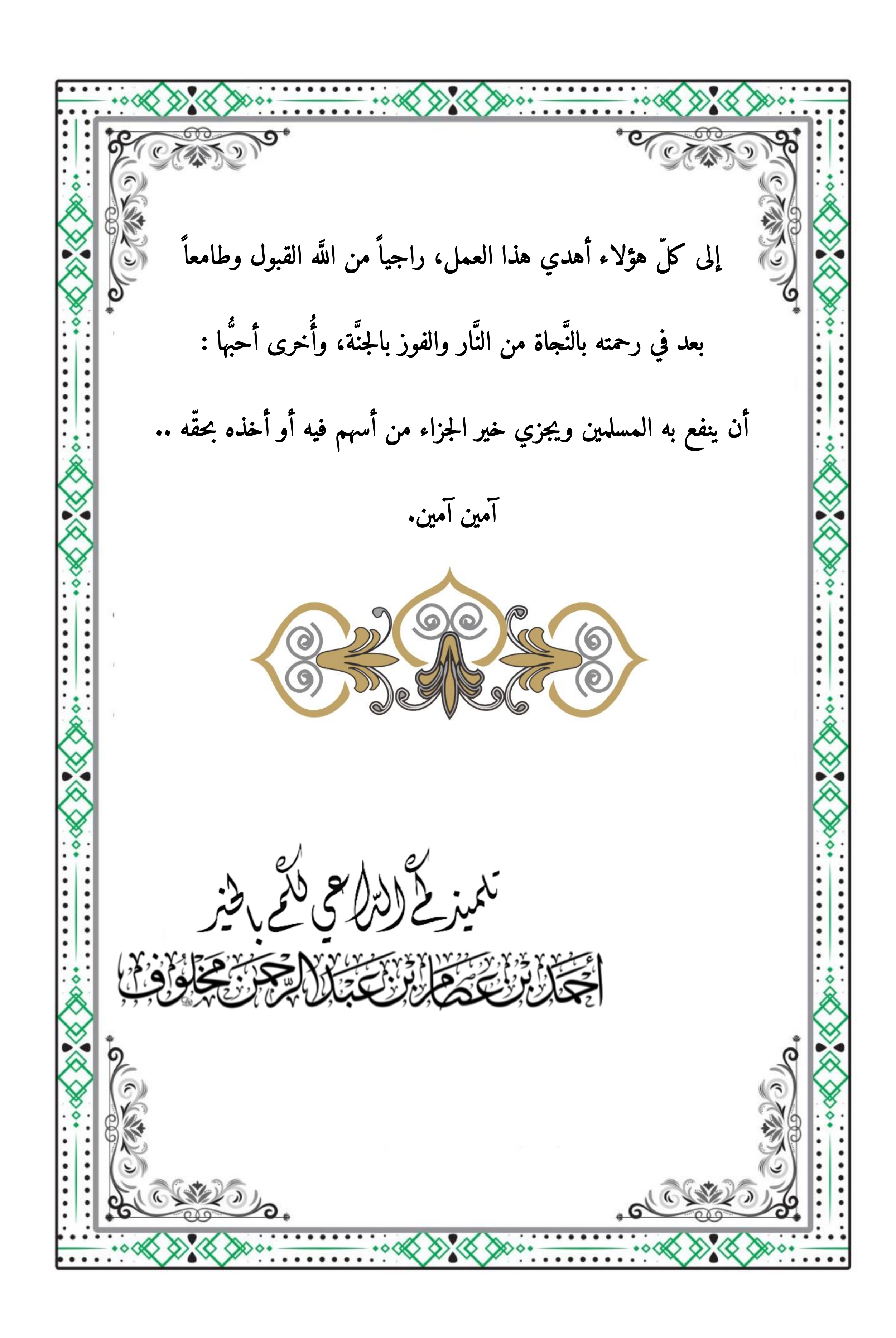


إهداءٌ إلى أشياخي العلماءِ الأجلّاءِ الّذين نهلتُ من علومهم وانتفعتُ من هديهم وسَمْتهم وأخلاقهم:

سائلًا المولى الكريم أن يجزيكم عنّي خير الجزاء، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتكم المباركة، فهذه ثمرةٌ من غرسكم المبارك

فاللّهمّ اجعل هذا العمل قرّة عينٍ لهم.

إلى كلّ عاملٍ أهمَّه أمر هذه الأمَّة ولم يقنط من رحمة الله بها، فتزوَّد بالبصيرة والتَّوكُّل، وشدَّ رحال العزائم، ثمَّ خرج يحدو ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ١١٠﴾



إلى كلّ هؤلاء أهدي هذا العمل، راجياً من الله القبول وطامعاً

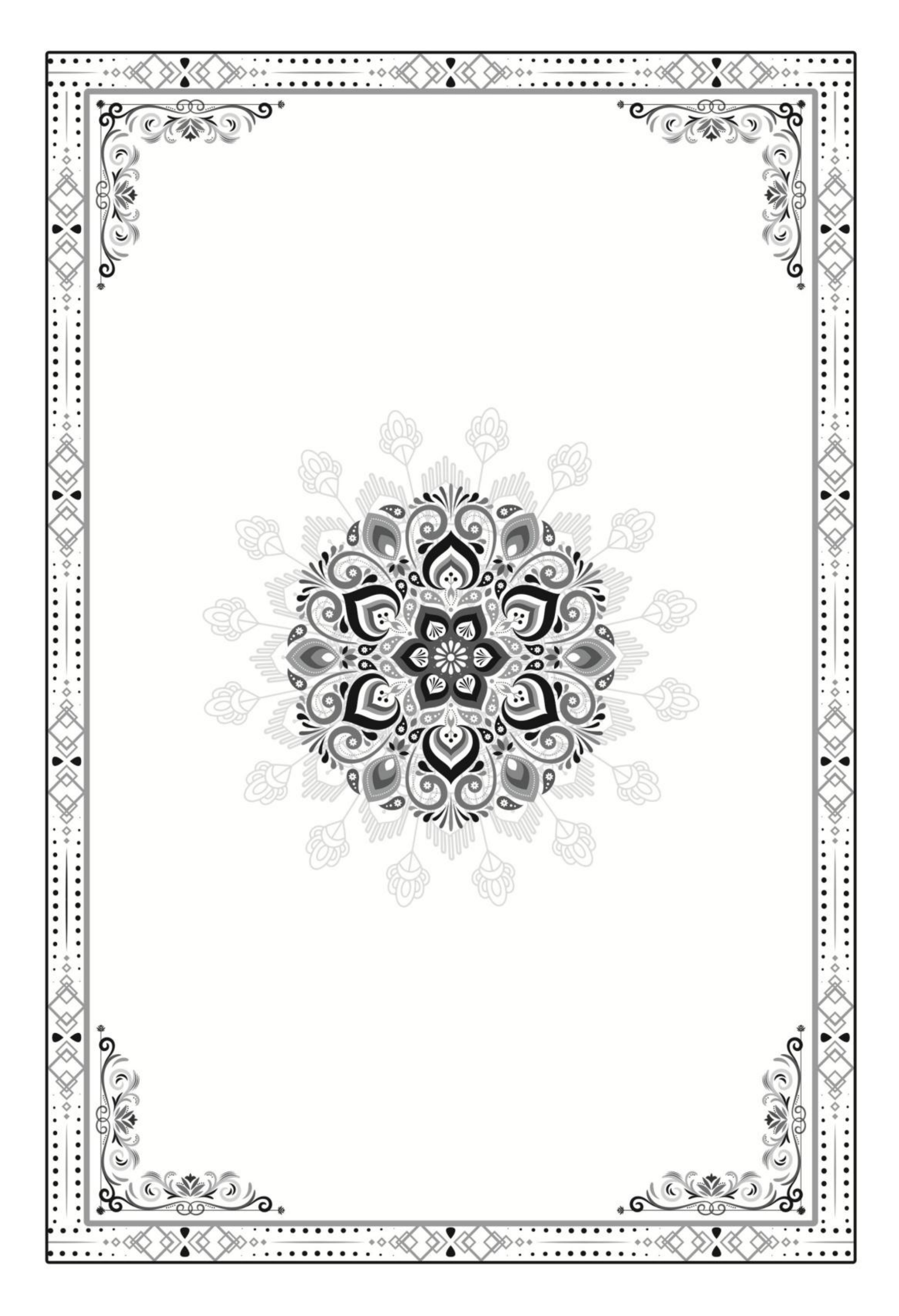
بعد في رحمته بالنَّجاة من النَّار والفوز بالجنَّة، وأُخرى أحبُّها :

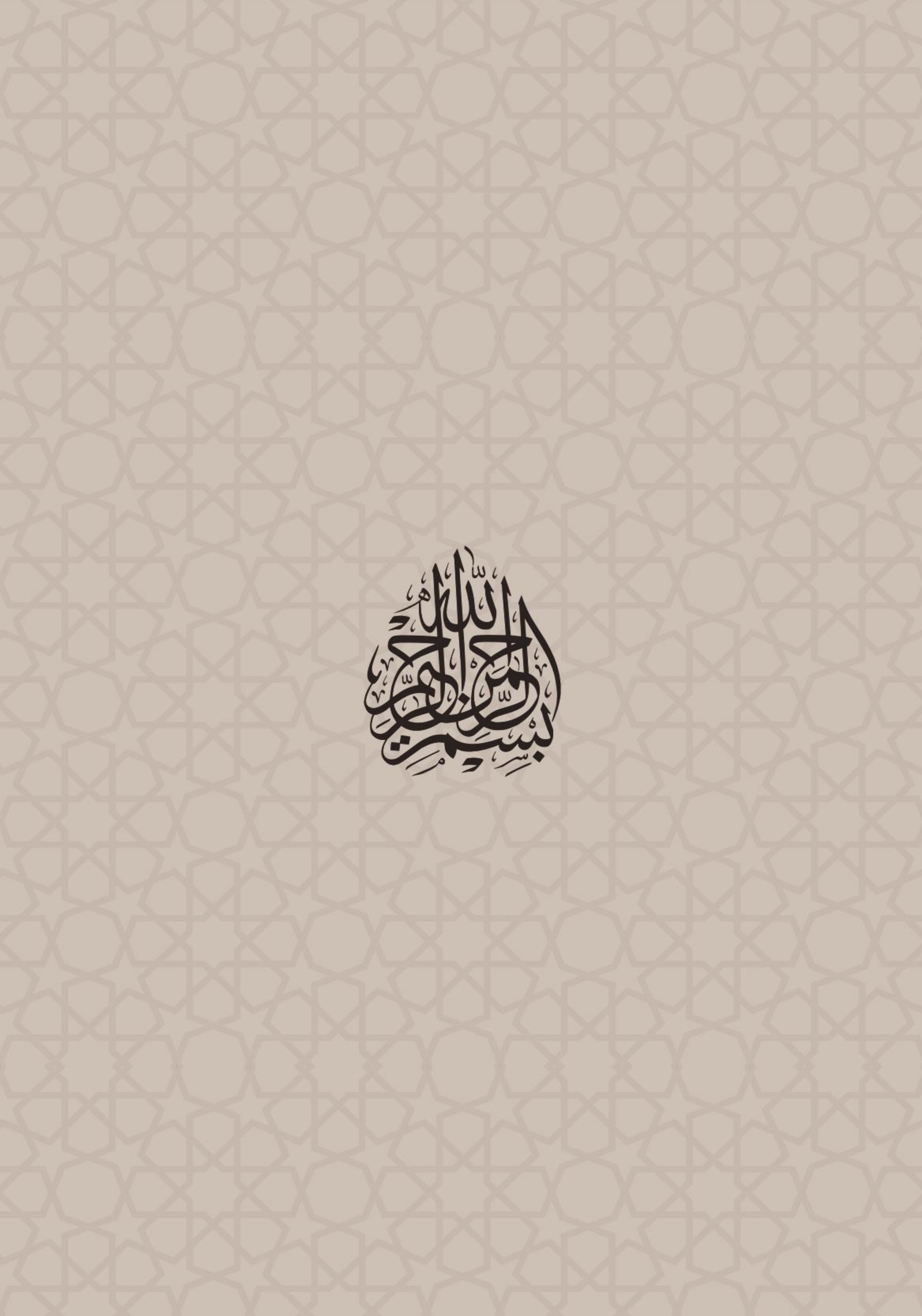
أن ينفع به المسلمين ويجزي خير الجزاء من أسهم فيه أو أخذه بحقّه ..

آمين آمين.

تلميذكم الداعي لكم بالخير

أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف

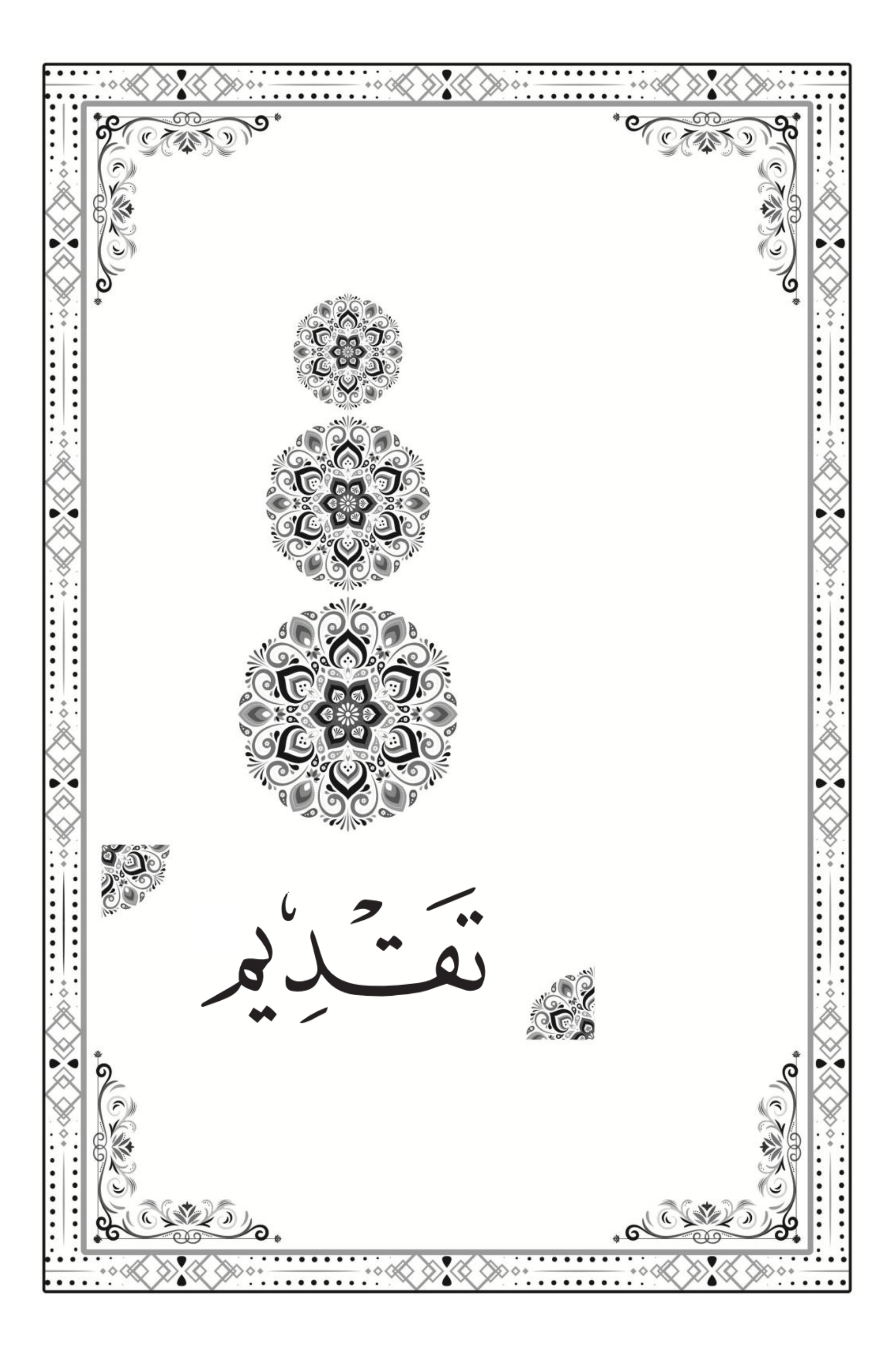



بسم الله الرحمن الرحيم

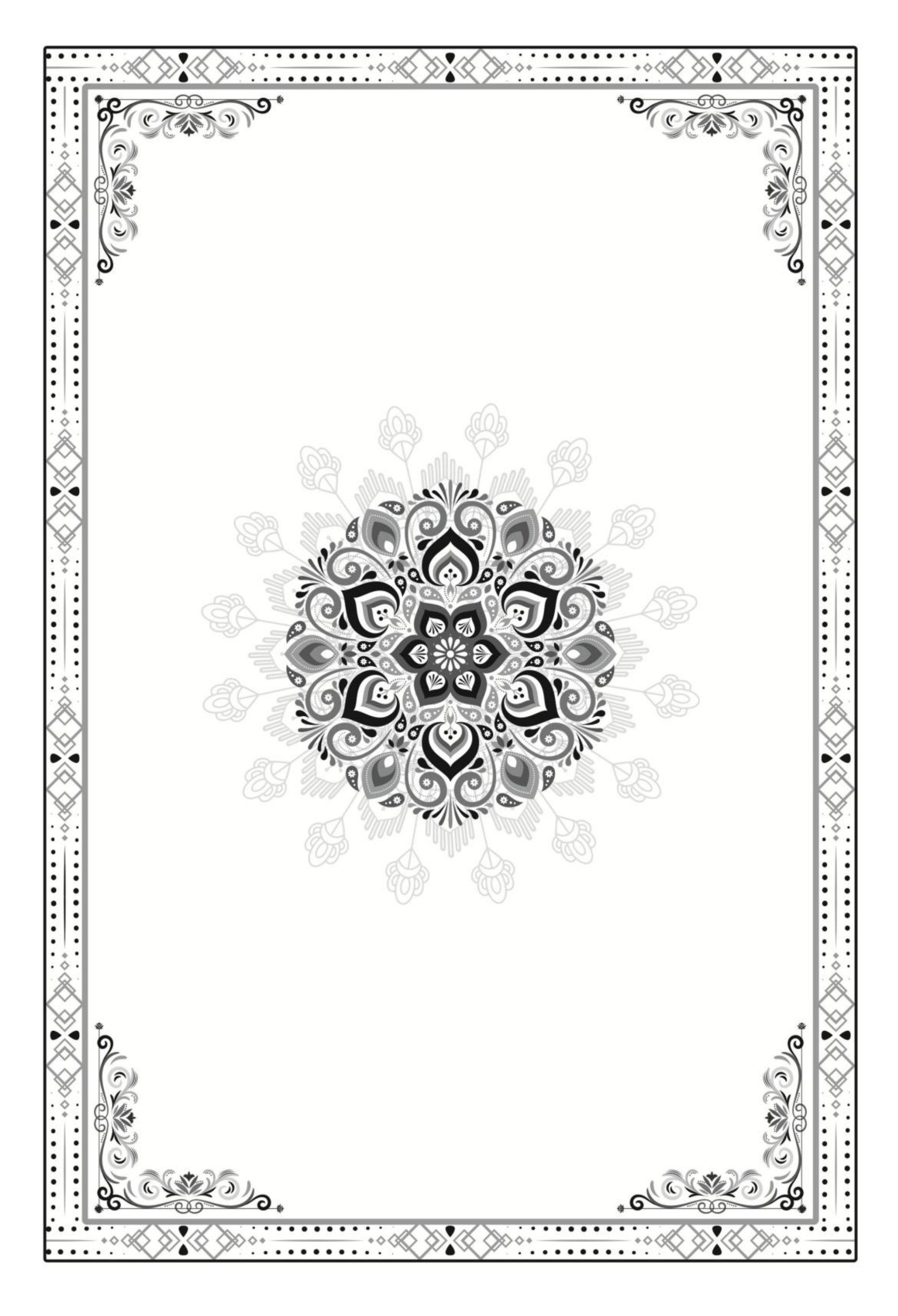



إهداء





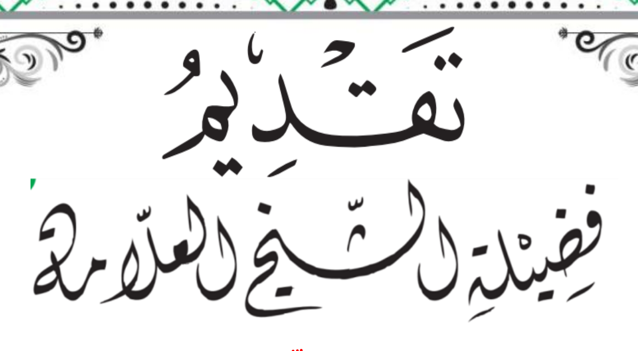
تَقْدِيمٌ



تَقدِيمُ

فِضيلةِ الشّيخِ العلّامة

د. عبد الله بن محمود الطّويل - عفا الله عنه -



الحمْدُ للهِ وَحدَه، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه، وبعدُ:

فقد أتحفني أخي الحبيب الفاضل الشّيخ: أبو اللّيث أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف حفظه الله بكتابه النّفيس: " الكَوَاكِبِ الدُّرّيَّة لِطَالبِ تَدَبُّرِ وَإِتْقَانِ كَلَامِ رَبِّ البَرِيَّة " الذي احتوى على أهمّ ما يتعلّق بتدبُّر القرآن الكريم وإتقانه، حيث جاء تبصرةً للمبتدي، وتذكرة للمنتهي، وقصدني في كتابةِ تقديةٍ، ولا يعلم أنّي كاسد البضاعة، قليل الحيلة، لكنّي أجبتُ طلبَه جرأةً منّي، لعلّي أفوزُ بشفاعةِ القرآنِ الكَريمِ يوم القيامة، فأقول - وبالله التّوفيق والتّسديد، ومنه العونُ والتّأييد:



يَقُــــولُ رَاجِى ٱلعَفْــــوِ عَبْــــدُ ٱللَّهِ
وَهْــــوَ ٱلطَّوِيـــــلُ حَامِـــــدًا لِّلَّهِ

أَلْحَمْــــــدُ لِلَّهِ ٱلْعَلِـــــيمِ ٱلْهَـــادِى
إِلَىٰ سَــــبِيلِ ٱلْحَـــــقِّ وَٱلرَّشَـــــادِ

ثُــــمَّ صَـــلَاةُ ٱللَّهِ مَـــا نَجْـــمٌ سَرَىٰ
عَلَى ٱلنَّـــبِيِّ ٱلْمُصْـــطَفَىٰ خَـــيْرِ ٱلْـــوَرَىٰ

وَآلِهِۦ وَصَـــــــحْبِهِۦ وَزَوْجِـــــــهِۦ
وَمَـــن تَـــلَا مُقْتَـــدِيًا بِنَهْجِـــهِۦ

فَـــٱللَّهُ جَـــلَّ وَعَـــلَا شَرَّفَنَـــا
وَبِٱلْكِتَـــابِ ٱلْمُجْتَـــبَىٰ عَرَّفَنَـــا

أَنــــزَلَهُ ٱللَّهُ مُنِـــيرًا هَادِيَـــا
وَأَحْسَـــنَ ٱلْحَـــدِيثِ نُـــورًا شَـــافِيَا

وَإِنَّـــهُۥ فِى ٱلْقَـــدْرِ ﴿غَـــيْرَ ذِى عِـــوَجْ﴾
كَلَامُ رَبِّنَـــا ٱلَّذِى يُحْـــيِي ٱلْمُهَـــجْ

وَبَعْـــدُ ذِى «ٱلْكَوَاكِـــبُ الدُّرِّيَّـــةْ»

أَنْعِـــم بِهَـــا مِـــنْ حُلَـــلٍ بَهِيَّـــةْ

لِـــــــكَىْ ﴿تَـــــــدَبَّرُواْ﴾ كَلَامَ ٱللَّهِ

وَتُتْقِنُـــــوا فَتُؤْمِنُـــــوا بِــــــٱللَّهِ

أَلَّفَـــهُ ٱلشَّـــيْخُ ٱلحَبِيـــبُ ٱلفَاضِـــلُ

أَحْمَـــدُ وَهْـــوَ ٱبْـــنُ عِصَـــامِ ٱلكَامِـــلُ

أَوْضَـــحَ فِيـــهِ مُعْظَـــمَ ٱلفَوَابِـــدِ

فَلْتَـــنْهَلَن مِّـــنْ أَطْيَـــبِ ٱلمَوَابِـــدِ

وَوَسْـــمُهُ «ٱلْكَوَاكِـــبُ» ٱعْلَـــمْ قَـــدْ رَشَـــدْ

حَيْـــثُ بَـــدَا فِى ٱلأُفْـــقِ نُـــورًا إِذْ قَصَـــدْ

أَلْفَيْتُـــهُۥ سِـــفْرًا لَّطِيفَـــا مَّاتِعَـــا

وَقَيِّمَـــــا وَّجَامِعَـــــا وَّمَانِعَـــــا

أَفَـــادَ فِيـــهِ وَأَجَـــادَ ٱلشَّـــرْحَا

حَـــتَّىٰ غَـــدَا لِلدَّارِسِـــينَ فَتْحَـــا

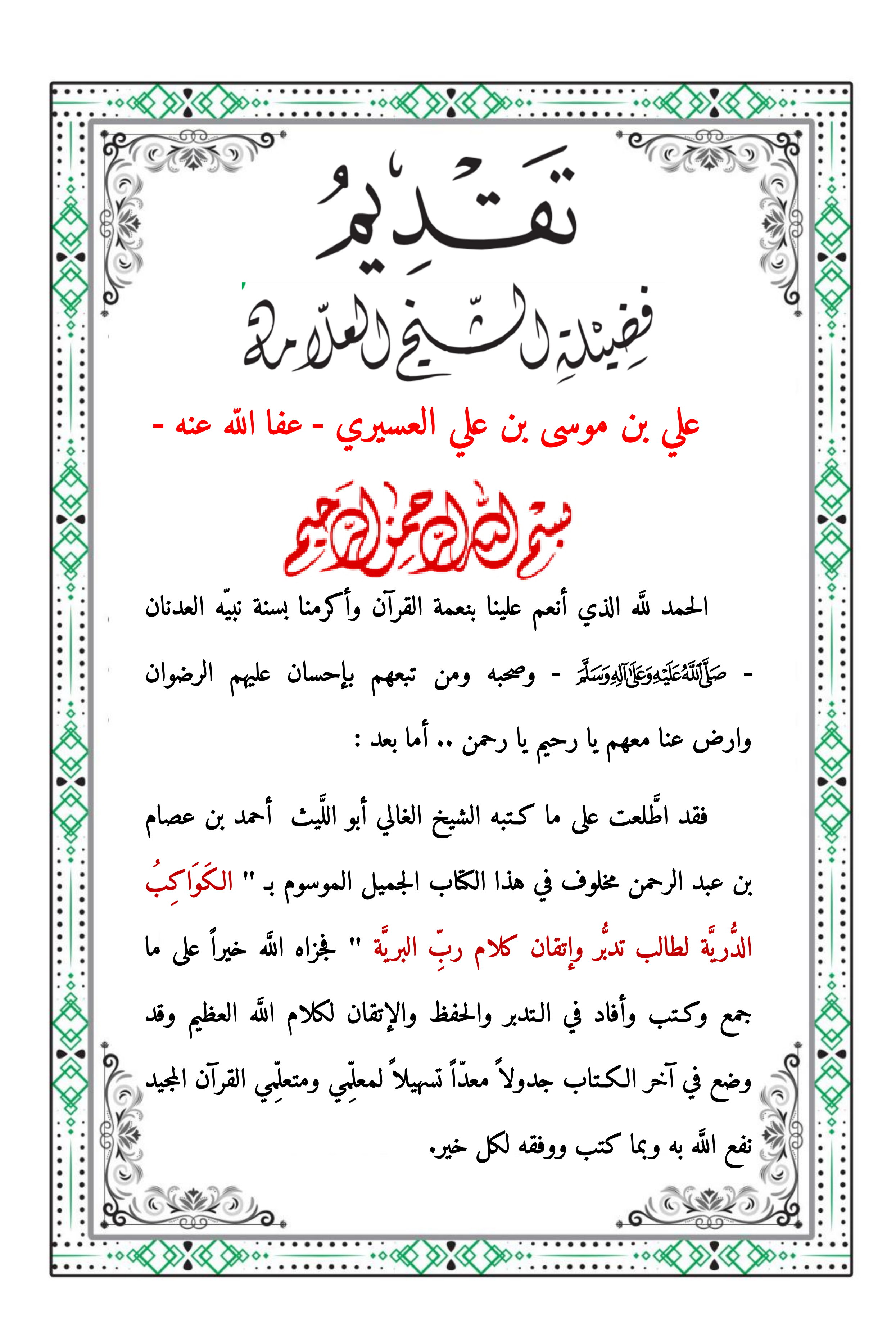
وَفَّقَـــــهُ ٱللَّهُ لِـــــكُلِّ خَـــــيْرِ

وَأَجْـــزَلَ ٱلعَطَـــاءَ دُونَ ضَـــيْرِ



وَٱلحَمْـــــدُ لِلْحَـــقِّ ٱلعَلِـــيمِ ٱلأَعْلَىٰ
نِعْـمَ ٱلكَـرِيمُ ٱلبَـرُّ قَـد تَجَـلَّىٰ
مُصَــلِّيًا عَلَى ٱلرَّسُــولِ ٱلمُصْــطَفَىٰ
وَآلِهِۦ وَصَــحْبِهِۦ ذَوِي ٱلوَفَـــا
وَنَسْــأَلُ ٱللَّهَ قَبُــولَ ٱلعَمَــلِ
لِي وَلَهُۥ فَإِنَّنَـــا فِي وَجَـــلِ

كَتَبَهُ: رَاجِي رَحْمَةِ رَبِّهِ ٱلجَلِيلْ
د. عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ مَحْمُودٍ ٱلطَّوِيلْ
مصر- الفيوم، الاثنين ٣ من ربيع الآخر ١٤٤٣هـ، ٨ من نوفمبر ٢٠٢١م.



تقديم

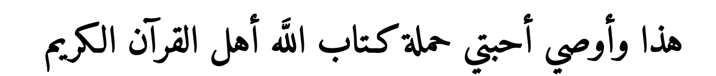
فضيلة الشيخ العلامة

علي بن موسى بن علي العسيري - عفا الله عنه -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة القرآن وأكرمنا بسنة نبيّه العدنان - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وصحبه ومن تبعهم بإحسان عليهم الرضوان وارض عنا معهم يا رحيم يا رحمن .. أما بعد :

فقد اطّلعت على ما كتبه الشيخ الغالي أبو اللَّيث أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف في هذا الكتاب الجميل الموسوم بـ " الكَوَاكِبُ الدُّرِيَّة لطالب تدبُّر وإتقان كلام ربِّ البريَّة " فجزاه اللَّه خيراً على ما جمع وكتب وأفاد في التدبر والحفظ والإتقان لكلام اللَّه العظيم وقد وضع في آخر الكتاب جدولاً معدّاً تسهيلاً لمعلّمي ومتعلِّمي القرآن المجيد نفع اللَّه به وبما كتب ووفقه لكل خير.


هذا وأوصي أحبتي حملة كتاب الله أهل القرآن الكريم

ومنهم أخي أحمد - صاحب هذا الكتاب- ومن نوى ومن سيحمل كتاب الله بإذن الله تعالى ، أوصيكم جميعاً ونفسي المقصّرة بتقوى الله - سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ - في السر والعلن ومراجعة هذا الكتاب العزيز وألّا يمرَّ يومٌ على أحدنا إلا وقد قرأ ورده من القرآن.

وصلَّى الله وسلَّم على خير خلقه وخاتم رسله وخليله ونبيّه وعبده محمد - عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - وجمعنا به في الفردوس الأعلى من الجنة ورزقنا الجبَّارُ ربُّ العزة النَّظر إلى وجهه الكريم وجعلنا من أهله وخاصَّته وقبضنا على ذلك .. آمين آمين.

كَتَبَهُ خَادِمُ القُرآنِ الكَرِيمِ

علي بن موسى بن علي العسيري

المجاز بالقراءات العشر من الشاطبية والدرة وحفص من الطبية

صباح يوم الأربعاء ٢٤/١١/١٤٤١هـ

د. مُطلَق بن جَاسِر بن مُطلَق الجَاسِر
العميد المساعد للشئون الطلابية
كلية الشريعة – جامعة الكويت



Dr.Mutlaq Aljasser
Assistant Dean for Student Affairs
College of Sharia - Kuwait University

التاريخ 12/ 4/ 1443هـ

الموافق 17/11/ 2021 م

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأجمعين

أما بعد،،

فإن شرفَ العلم بشرف متعلّقه، ولا شك أن أشرف الكلام كلامُ الله سبحانه وتعالى، والعلوم المتعلّقة بكلام الله تشرف بشرفه.

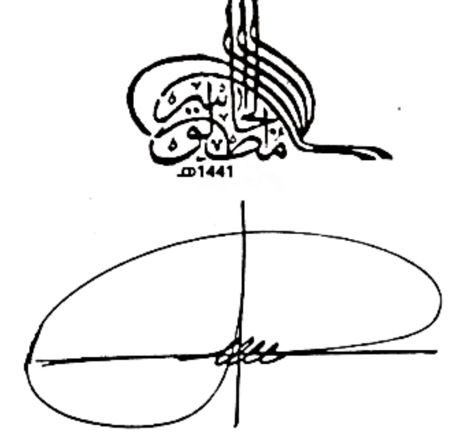
ومن هنا تأتي ميزة هذا الكتاب "الكواكب الدرية لطالب تدبّر وإتقان كلام رب البرية" للشيخ الفاضل أبي الليث أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف

فقد احتوى فوائد وقواعد تتعلق بكتاب الله تعالى.

فأسأل الله أن يبارك في هذا الكتاب وفي كاتبه وأن ينفع به

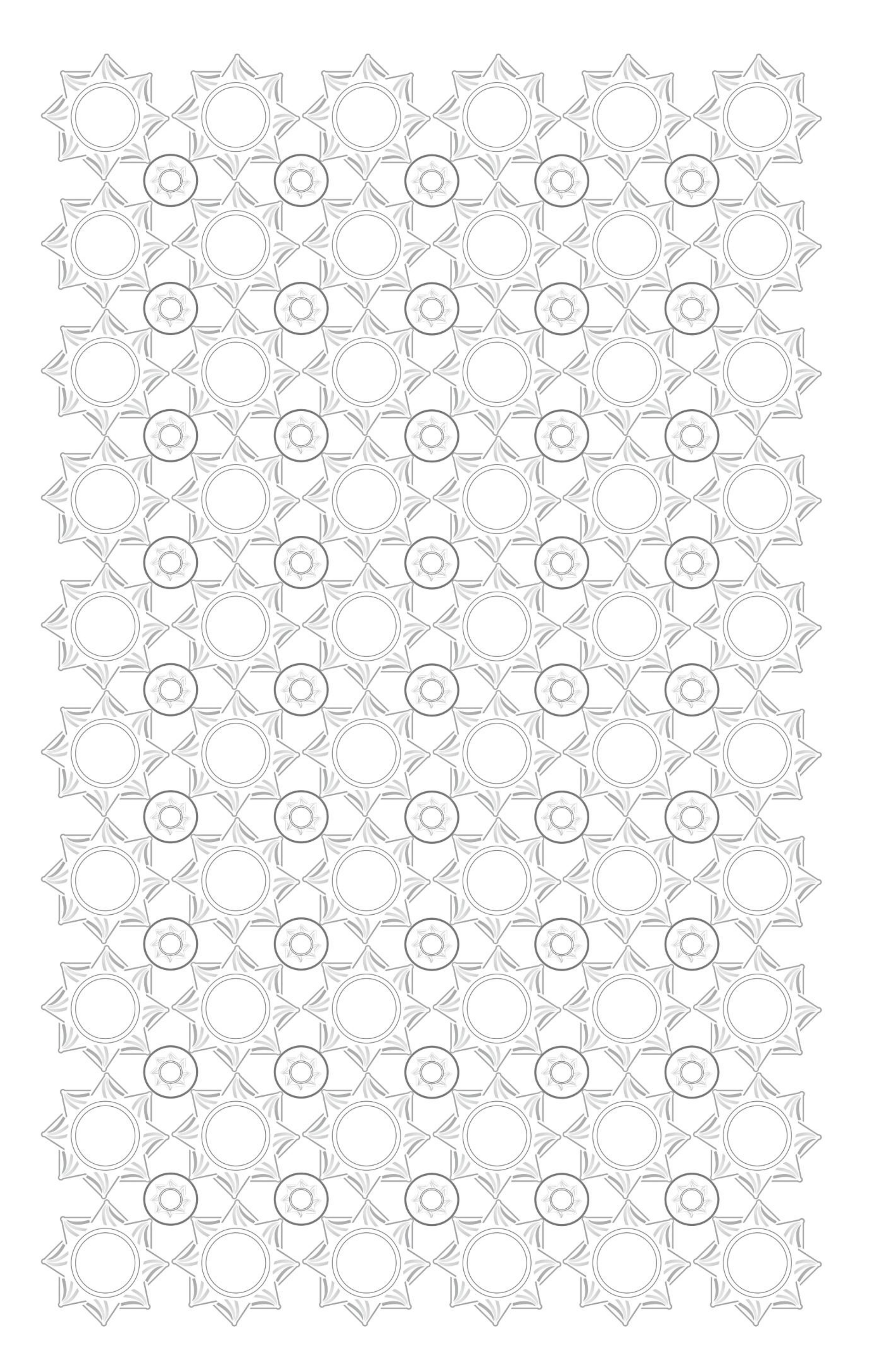
وكتبه فقير عفو ربه مطلق بن جاسر الجاسر.

في يوم الأربعاء 12 ربيع الآخر 1443هـ.

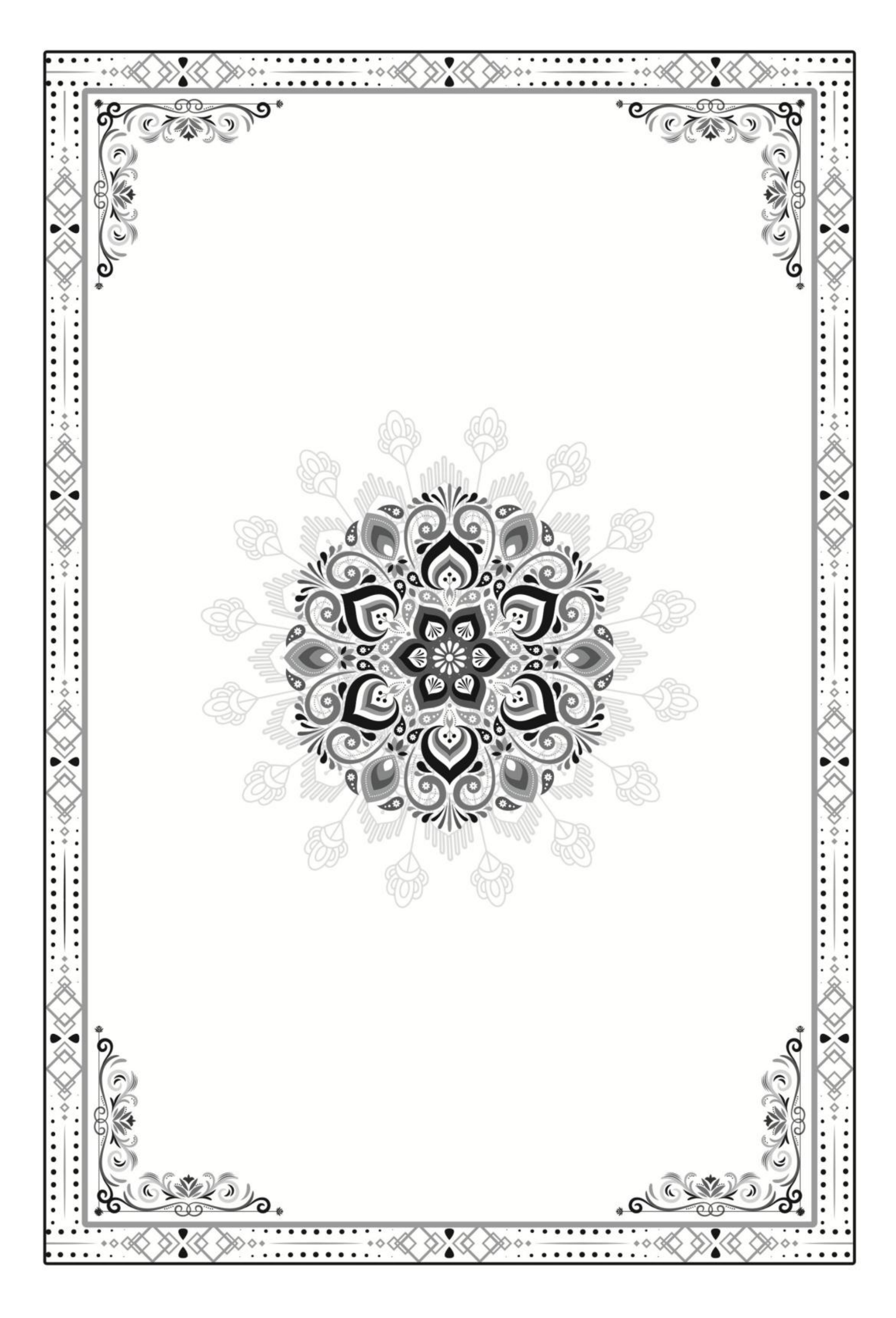


مدينة الكويت
Mutalq09@gmail.com

Kuwait City
Twitter: @Dr_Mutlaq




رسالة





الحمد للّه الخالقِ الَّذي به يحقق ما نريد، حيث بذكره يلينُ الحديد، ويظهر بالاضطراب بلا سكون أثرُ سرِّ الكاف والنُّون.

والصَّلاة والسَّلام على صاحب الخُلُق المكنون، وعلى آله وأصحابه حملة الشأن المصون.

وبعدُ،

ولدنا النَّجيب :

فقد قرأت ما دنا من فكري، وغاص في شِغاف قلبي من كِتابك، الكَواكِب الدُّريَّة فوجدت نفسي كمَن سما به اليقين، وانطوى أمَامَه عالمُ الزَّمان والمكان ليصبح أقربَ إلى روح الجنان.

وكَمَن حرَّكَهُ عُلو الهمّة فتحولَّت فيه الإرادةُ إلى قوةٍ زَوَى أمَامَها العالمُ الأكبرُ، فغدت تجُوبُ من طبقٍ إلى طبق تُعزّزُ روحَ الإيمان والعمل، وتهدّي من ثورة ترابِ الأرض لتنهضَ بنفخةِ اليقين.

ولدنَا الحبيب :

نفحاتٌ هي كلماتك، وعطاءٌ مغيّبٌ في صرير قلمك، أنوارٌ هي أفكارك، نتائجُ سَحَرٍ مبارك في ميقاتِ فَجرٍ قرآنه مشهود، والعابدُ فيه محمودٌ والفكرُ بالنَّفحات مَجدود.

كلماتٌ هي في مبناها سوادٌ محبّر، وفي معناها جَدَدٌ منوَّر، ثورةٌ على الدَّعةِ والرَّاحة، دَعَةٌ إلى العمل الجِد بروح المثابرة.

ولدنا الأريب صاحب الفكر الخصيب:

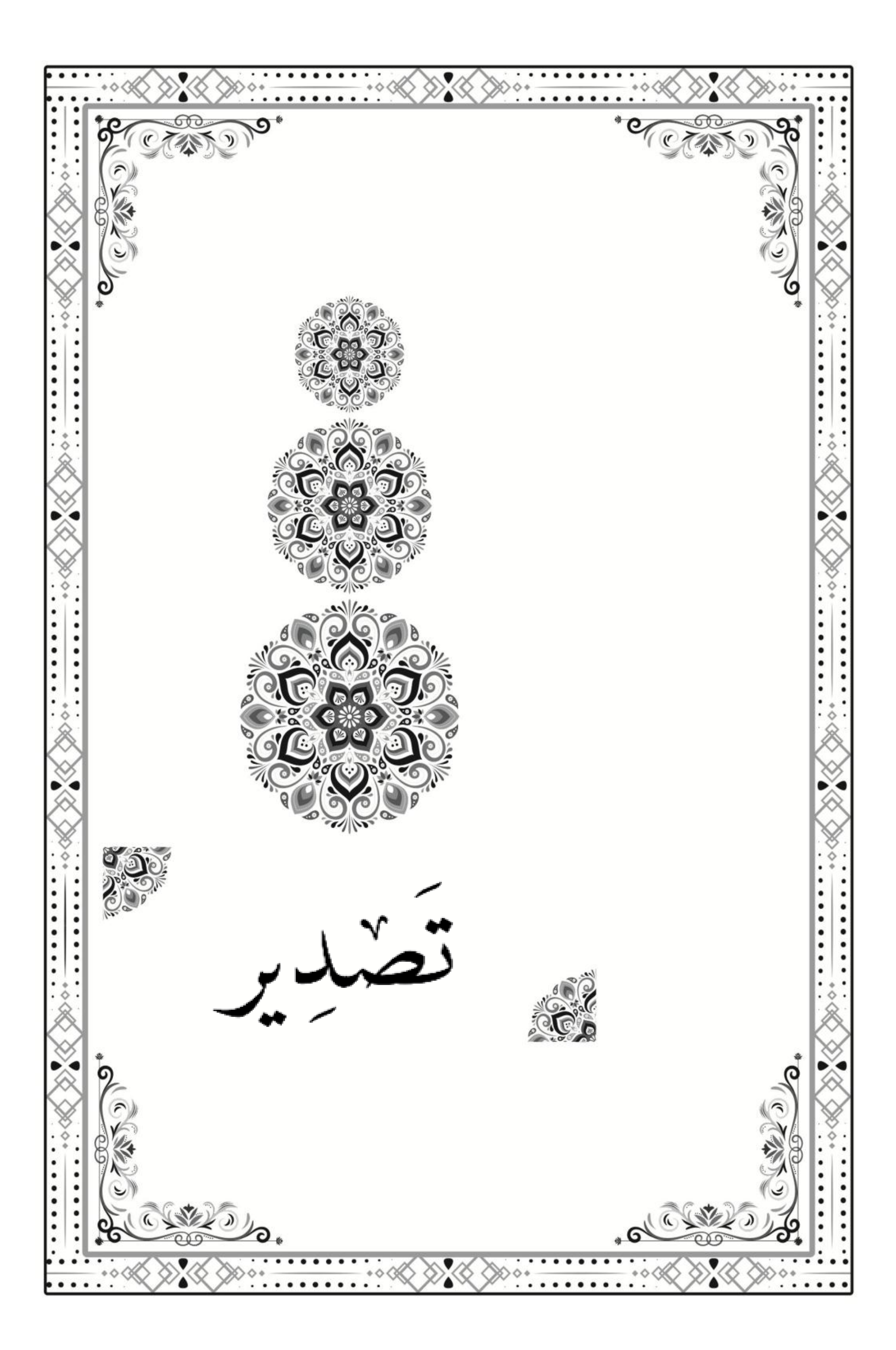
طوبى لك وحُسنُ مآب، وما ينتظرك عند الله مع الحُسنى من زيادة في الثَّواب، فيك تحقَّقت آمال الرَّبَّانيين، وشعرتُ أنا بالذَّات بأنَّ الله سبحانه جعلك عليَّ نعمةً سابغةً كي أبقى بعد وفاتي موصولَ العملِ النَّاجعِ بِصَدَقَتِك الجَارية وبِعملِك النَّافع وبدُعائك الصَّالح، كما أنعم عليّ بإخوتك وعلى الخصوص حملة العلمِ الشَّريفِ حتَّى فاض لسانِيَ ينوبُ عن ألسنتكم بقولي :

فاهنأ بطيبِ الذّكر يا أبتي   فخيرُ الذّكر علمٌ وأرفعُ التّيجان عِمَّة

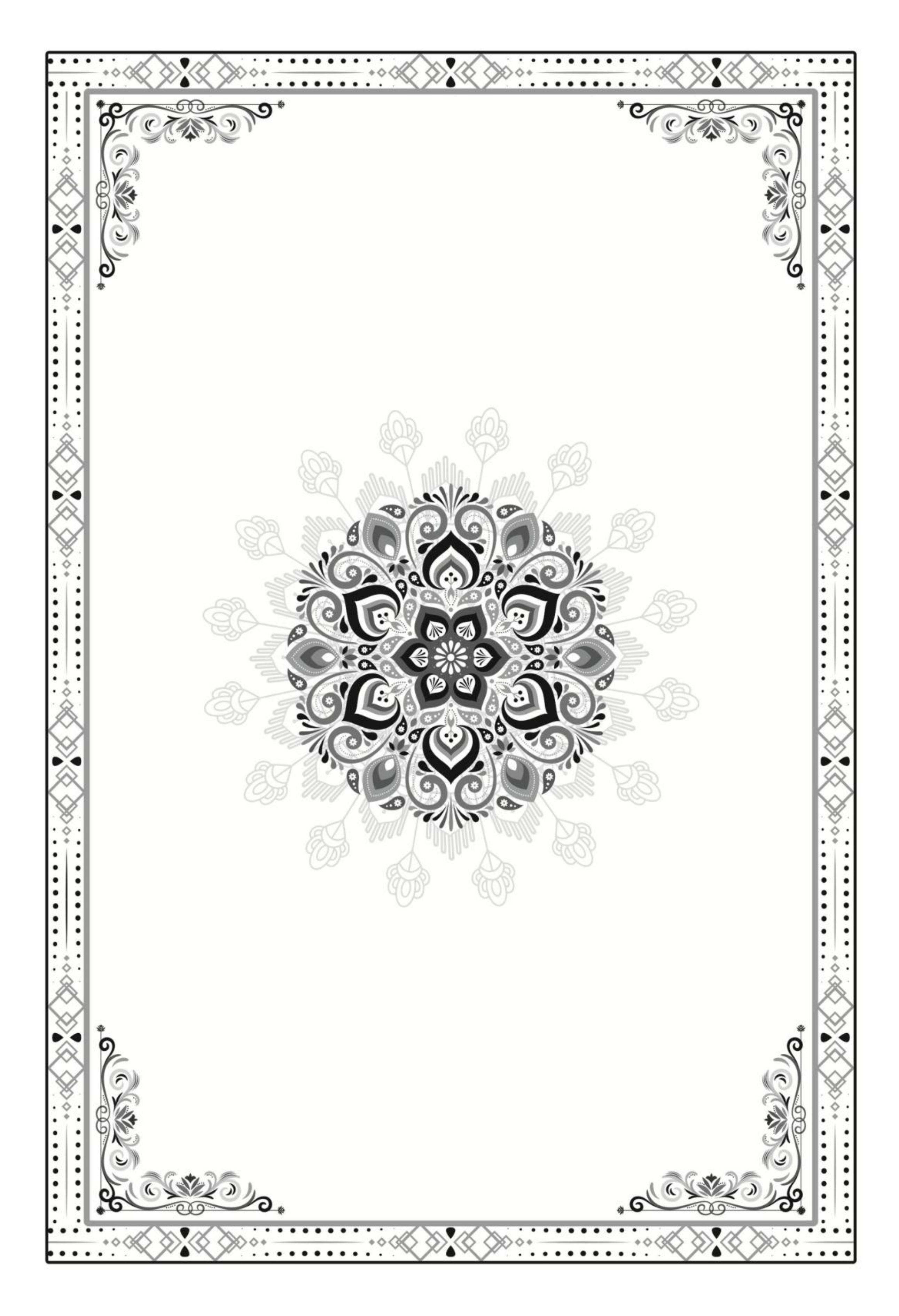
فالله تعالى أسأل أن يزيدك يقيناً وعلماً نافعاً، ويعلي ذكرك في العالمين، ويفتح عليك فتوح العارفين .




بسم الله الرحمن الرحيم



تَصْدِير



تَصْدِير

بِقَلَمِ رَئِيسِ التَّحرِير

الحمد لله علَّام الغيوب، المُطَّلع على أسرار القلوب، ذي العزَّة والكبرياء، والحلم والعلياء، مُسبغ أصناف الآلاء، ودافع نوازل البلاء، وجاعل العلماء ورثة الأنبياء، ومؤيدهم في حفظ سنة خاتم الأنبياء، وحماية حديثه من الكذب والافتراء، ومودعه في حفظ صدور الحفَّاظ الأتقياء، الحمد لله الذي خلقَ الإنسان وعلَّمه البيان، ووَهبَ له العقلَ؛ ليعقِلَ عن ربِّه ما شَرَعَه وأبَان، وأنزلَ القرآنَ تبصرةً للعُقول والأذهان، وأرسل رسولَه بالهُدى والبلاغ والتِّبيان، وقيَّض من عبادِه مَن نَظَم العِلمَ بِأفصحِ لسان، نحمدك اللّهمّ أن جعلت من وحيك المقدّس هدىً وموعظة وتبياناً لكلّ شيء، وحملت عبادك المؤمنين على عبادتك حقّ العبادة بإقامة وجوههم للدّين القيّم، فطرتك الّتي فطرت النّاس عليها، وفرضت عليهم فروضاً كثيرة، أجلها الإيمان تطهيراً لهم من الشّرك، والصلاة تنزيهاً لهم عن الكِبر، والزّكاة تسبيباً للرزق، والصّيام ابتلاء لإخلاص الخلق، والحج تقوية للدّين، والجهاد عزّاً للإسلام، والأمر

بالمعروف مصلحة للعامّة، والنّهي عن المنكر ردعاً للفساد، وصلة الرحم منماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم، كما شرعت لهم السّلام أماناً من المخاوف، والأمانات نظاماً للأمّة، أحمدُك حمداً يملأ الميزان.

وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، كل يوم هو في شان، يعلم السِّرَّ وأخفى، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّداً عبدُه ورسوله المبعوث إلى النَّاس كافَّة بالدَّليل والبرهان، ونصلي ونسلّم على عبدك ونبيّك خاتم رسلك الأمين الّذي بلّغ الدّعوة وأدّى الرّسالة، وكان حريصاً على المؤمنين رؤفاً بهم ورحيما، يدعوهم إلى الخير، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم، ويحثّهم على التّفقُّه في الدّين استكمالاً للمعرفة، والتزاماً بالإسلام، ووقوفاً عند حدوده، كما محض لهم النّصيحة بحملهم على التّمسُّك بالمصدرين الأساسين للشريعة الباقية الخالدة في قوله:" تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي"، الذى بصّر اللَّه به من العمى، وأقام به معالم الهدى، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدِكَ ورسولِك محمَّد، وعلى آله وأصحابه أولي النهى ومن تبعهم بإحسان، واجزِ عنّا إمامنا وحبيبنا ورسولنا خير خلقك أفضل الجزاء

وأكمله وأتمّه، واجعلنا له من التّابعين، وبه من المهتدين، ولسنّته من الحافظين، ولمنهج الله من المقيمين والمتمسّكين به إلى يوم الدّين.

فإنَّ التأسّي، والمتابعة، والاقتداء، بصاحب هذه الشّريعة الإسلاميّة المباركة الغرّاء، خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيّد ولد آدم أجمعين، نبيّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: هو رأس مال المسلم، اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، في مدارج الشّرع المطهّر، الكامن في الوحيين الشريفين.

وهذا - وأيم الله - عنوان محبّة العبد لربّه، ولُبابُه عبادة الله وتوحيده سبحانه وهو المقصود من خلق الله للثقلين، وهذا مدار دعوة كلّ نبيّ ورسول، وهذا مقتضى الشّهادتين في الإسلام: أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، وعلى هذا تدور رحى التشريع، ولهذا صارت سورة الفاتحة جامعة لمعاني القرآن الكريم. ثمّ هذه في آية واحدة منها: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ وهذا مقتضى أوّل أمر في كتاب الله في أوائل سورة البقرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ﴾ (البقرة ٢١)، وفي هذه الاية والآيتين بعدها مضمون الشّهادتين، وهذا مقتضى ما أمر

الله به، وقضى وأوجب، وألزم وحكم وهو خير الحاكمين، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، وهذا الأمر العظيم، هو فاتحة كتاب الله، وخاتمته، لإشعار المسلمين، بأنّ ما بين الدّفتين من آيات القرآن وسوره، هو لتحقيق عبوديّة العبد لربه، وتوحيده له، ذلك أنّ الله سبحانه افتتح كتابه بتوحيده في ألوهيته، وربوبيّته، في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وبتوحيده تعالى في أسمائه وصفاته في قوله عزّ شأنه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، وختم كتابه بذلك في سورة النّاس:﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، ومعلوم أنّ توحيد الله في أسمائه، وصفاته في هذه السّورة على طريق التّضمين والالتزام في نوعي التّوحيد المذكورين نصّاً، وهذا الاتباع والتّأسي للشرع المطهّر في أبواب الدّين كافّة هو الطّريق الموصل للعبد إلى رضوان الله، ونعيم جنّته، ومن تتبّع أسرار التّنزيل، وجد فيه من تعظيم أمر هذا الدّين عجبا.

أما بعد:

فإنّ علوم القرآن والثَّقافة العربيَّة والشَّرعيَّة مَيدانٌ خَصبٌ لكلِّ مُتعلِّم؛ إذا أراد أن يستزيدَ من الإحاطة بلُغته، ودينه، ومبادئ أمَّته؛ وحتَّى ينتشر هذا الوعي ويعمَّ، كان لابد من توفير المواد العلمَّية اللَّازمة له، ومن أهم تلك المواد: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة بنَّاءة جادَّة.

وإن تأصيل العلوم الشرعية، وتقديم الدراسات العلمية المركزة من أهم المهمات التي تعين على ضبط المنهجية التي تحكم مسار أي علم وتخصص؛ منعا للزلل، وتجنبا للشطط.

وإنَّ البحوث والدّراسات المتَّجهة لأصول العلوم وقواعده من أهمّ ما ينبغي أن يحرص عليه الباحثون الجادُّون، ومراكز البحوث والدّراسات المتخصّصة؛ إذ هي اشتغالٌ في صلب العلم ذاته، فالأصول والقواعد يتشكَّل منهما جوهرُ كلّ علم، وتعود إليهما كافَّة مسائله، فالبحث فيهما بحثٌ في بنية العلم وجوهره، وفي أسسه وكليَّاته.

ومع توسع مسارات العلوم الشرعية، وتعدد تخصصاتها، ولأجل تواصل المثقَّفين شرقاً وغرباً، وتنامي الشُّعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثَّقافي بين شعوب الأمَّتين العربيَّة والإسلاميَّة؛ كان لا بد من وجود دراسات في كل تخصص لتضبط أصوله، وتحكم فروعه، ومن ذلك ما يتصل بعلم تدبر القرآن الكريم، إذ تنامت لدينا فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التُّراثية، وطباعة ونشر الرَّسائل العلميَّة حتَّى أضحت أولويَّة عمليَّة في مَرْكَزِ غِرَاسِ الرَّاسِخِينَ لِلدِّرَاسَاتِ القُرآنِيَّةِ وَالعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ، والّذي يتشرف بالقيام ببعض الواجب تجاه هذا العلم العظيم عبر وسائل متنوعة، من أهمها: طباعة ونشر الدراسات العلمية المتخصصة التي تخدم هذا الهدف العلم، فهو بذلك يسعى لزرع الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، بشتَّى صنوفها، في النَّاشئة والمبتدئين، وفي الصِّغار والكبار على حدٍّ سواء.

وإن تذليل العلم وتقريبه إلى الناس من أهم المهمات، خصوصا ما يتصل بتقريب معاني كلام الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لعموم المسلمين.

ولئن كان تقريب العلم - الذي كتِب فيه كثيرا- مهما لأهل العصر، فإن العلم الذي لم يكتب فيه إلا نادرا أهم وأشد حاجة، ومن هنا جاء هذا السفر النفيس - المهم في مضمونه.

وما هذه الدراسة العلمية المتخصصة: الكَوَاكِبُ الدُّرِيَّةُ لِطَالِبِ تَدبُّرِ وإتقانِ كلامِ ربِّ البريّة "وقفات بيانيّة ودلالات تربويّة" "بصائر للسَّائرين وتذكرة للمتدبرين" للمقرئ/ أبو الليث أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف، المقرىء بالقراءات العشر والباحث بالدّراسات القرآنية والعلوم الشَّرعيَّة واللُّغويَّة والتي كتبها لطلاب العلم المهتمين بهذا الموضوع الذين أيقنوا بأن التدبر من أعظم مقاصد نزول القرآن الكريم، وأنه الطريق الأقصر لصلاح القلب، وزكاة النفس، والتلذذ بكلام الله جل جلاله، إلا لبنة من اللبنات التي تضاف في هذا النوع المتخصص من الدراسات.

وقد جَمعَ مَرکَزُ غِرَاسِ الرَّاسِخِينَ لِلدِّرَاسَاتِ القُرآنِيَّةِ وَالعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ طاقاته وإمكاناته العلميَّة والمادِّيَّة لتحقيق هذا الهدف السَّامي؛ فتيسَّر له - بفضل الله تعالى - إخراج هذا السفر النفيس، فكان له نصيب وافر من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل مصر

وخارجها، وذلك لما تميَّز به هذا السفر من أصالةٍ وقوَّةٍ، ووضوح منهجٍ، ومراعاةٍ لمصلحة المتدبر، وحاجته العلمية.

ومَرْكَزُ غِرَاسِ الرَّاسِخِينَ لِلدِّرَاسَاتِ القُرآنِيَّةِ وَالعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ إذ يقدم هذا الإصدار لقرَّائه، فإنَّه يتوجَّه بخالص الشكر والتَّقدير لجميع من ساهم وأعان على إصداره، وقد حصل هذا الإصدار على موافقة وتزكية العديد من المشايخ المتخصصين؛ سائلين اللَّه عزَّ وجلَّ أن يجعل فيه النَّفع والفائدة للجميع.

والحمد للَّه ربِّ العالمين

رَئِيسُ التَّحرِير


أفلا يتدبرون
القرآن

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لله على نعمائه، وشكرًا له على مزيد الآلاء، وصلاةً وسلامًا على سيدنا وحبيبنا محمد القائل: أدبني ربي فأحسن تأديبي، ورضي الله عن الصحابة الكرام، الذين لم يألوا جهدًا في خدمة القرآن، بل بذلوا وسعهم في تحقيق ما أمروا به، فجمعوه بعد شتات ونقلوه من الصدور إلى السطور، وهذا أمر ليس بالميسور، فجزاهم الله عن هذه الأمة خيرًا.

وبعد، فقد أكرمني الله تعالى حيث سخرني لخدمة القرآن وهذه -والحمد لله- الخدمة الثالثة التي تكشف للمريد آدابًا دقيقة، وفوائد مفيدة: تتعلق بحامل القرآن: فالله أسأل أن يحقق أمنيتي في خدمة هذا الكتاب، الصغير حجمه، العظيم قدره، فينال المكانة القصوى في القلوب، ومقربًا لي من علام الغيوب.

الفقير إليه تعالى

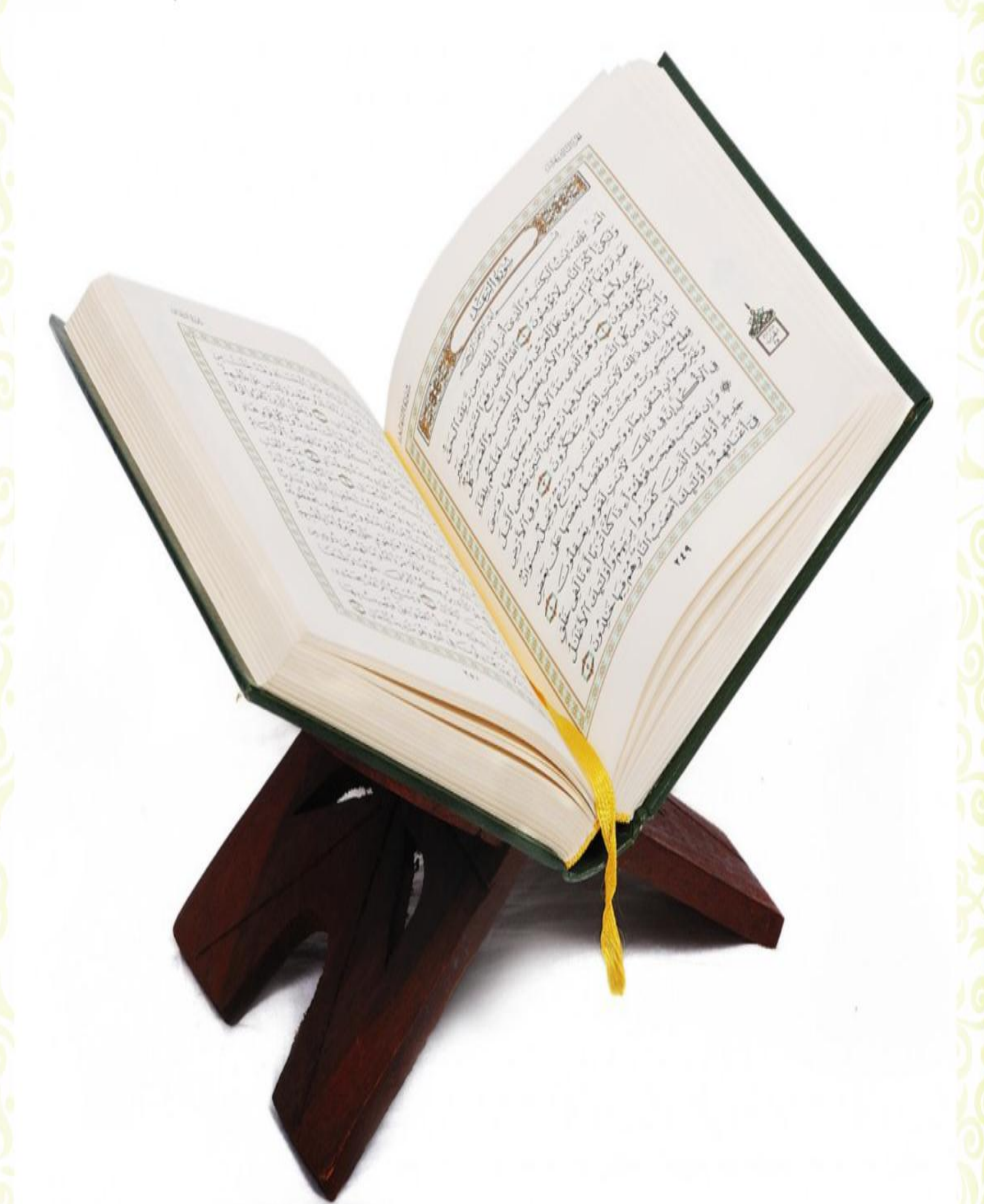


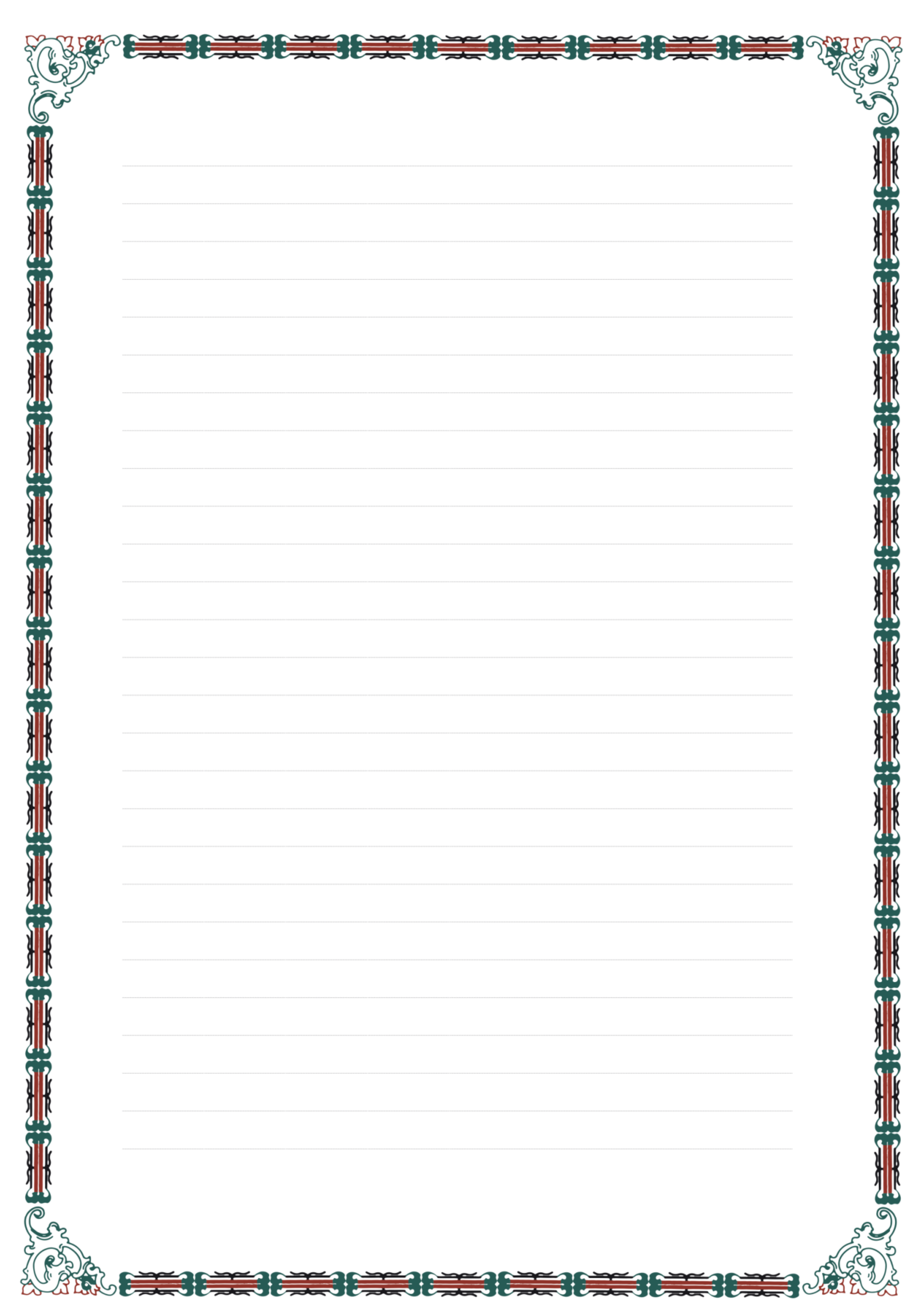


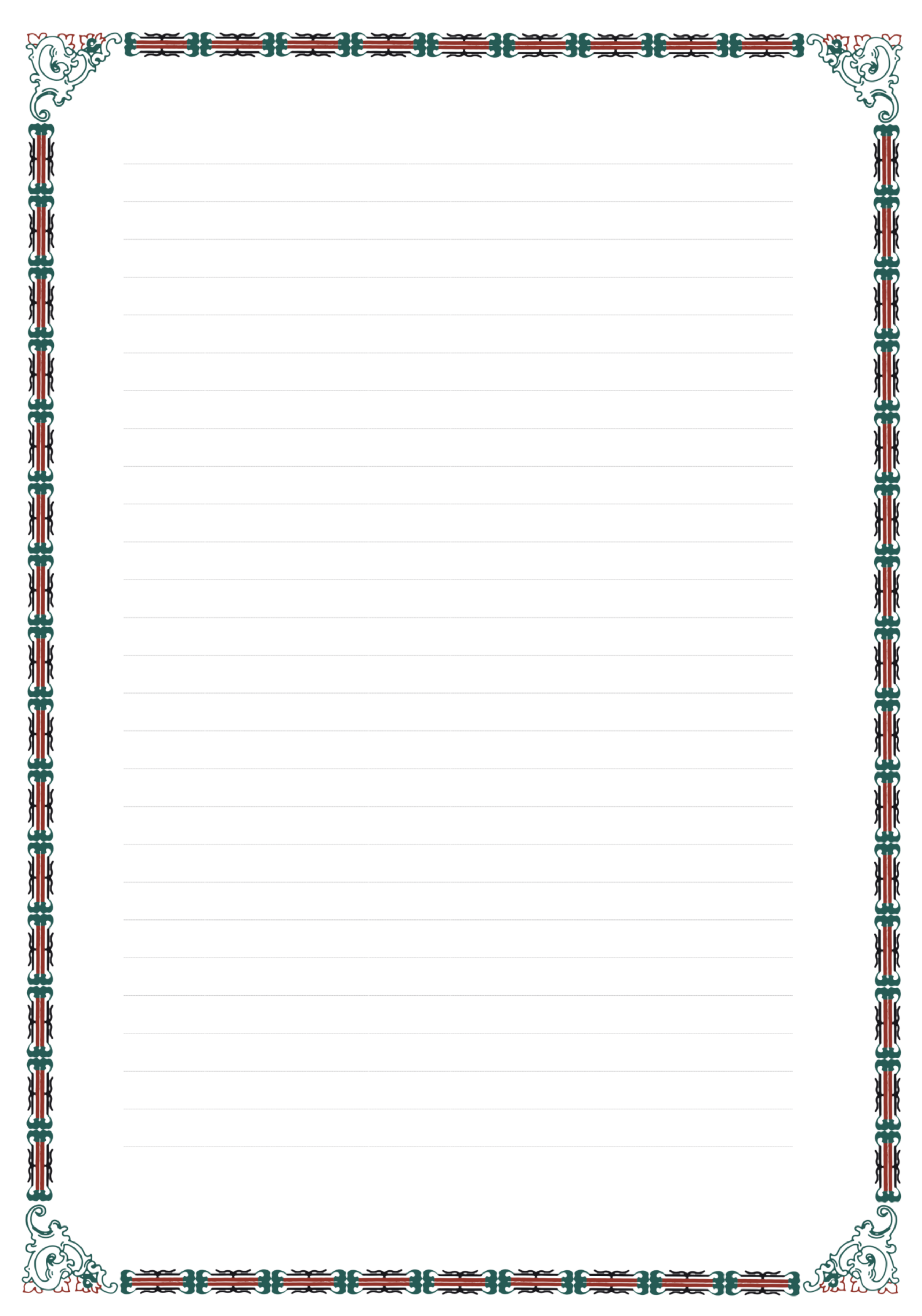
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

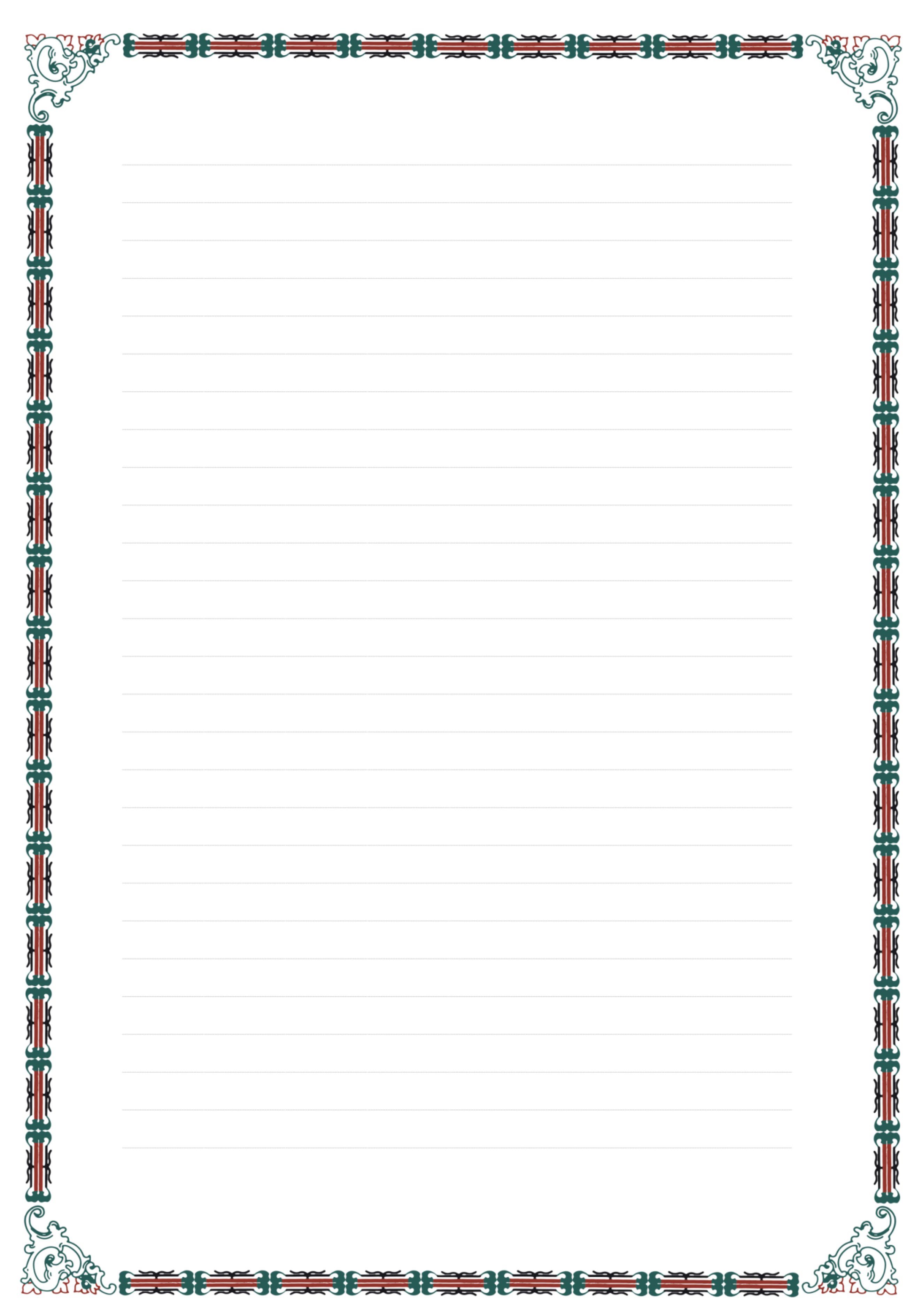
﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

[ص: ٢٩]



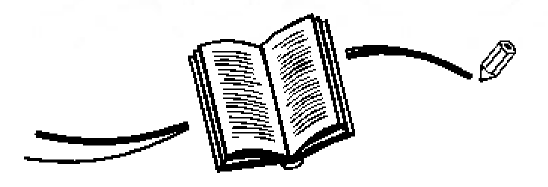






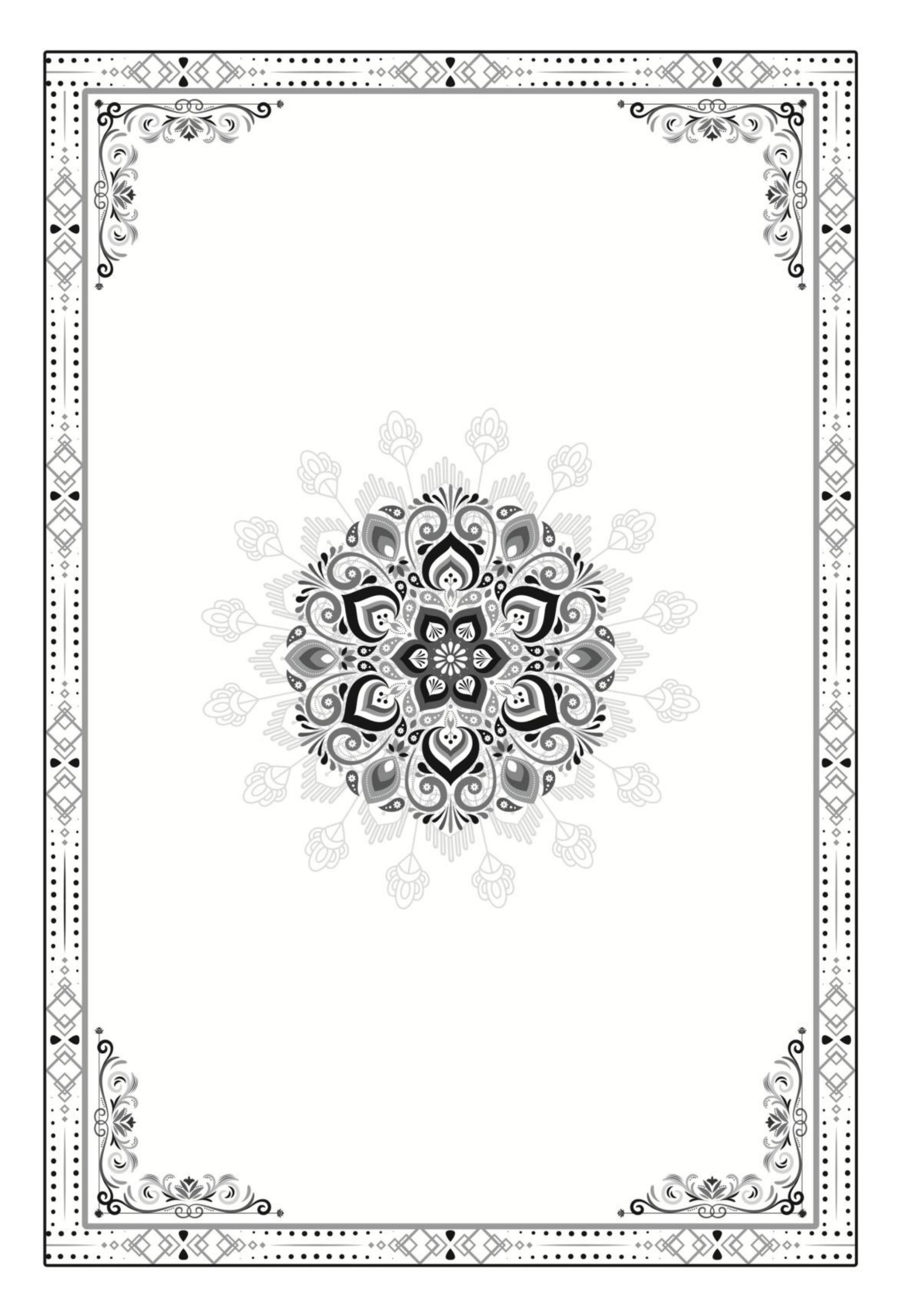
التدبر تجربة تخوضها، و نعيم تتذوقه،
و مهما أخبروك عنه
فلا بد أن تحياه بنفسك!

عَمْرو الشَّرْقَاوِي





مُقَدِّمَة



مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خَصَّنا بِنِعمٍ غِزَارٍ وأولانا، وجاد علينا بآلاء تترى وحبانا، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تفضَّل على عباده بمنَّةٍ لا تضاهى ولا تدانى، وهدانا سنَّة مباركة وقرآنا : هو النور المبين، وأعظم به كلاماً للمولى وبرهانا، أنزله هدىً للعالمين، وللحقِ تبصرة وتبيانا.

الحمد لله الجليل الكريم الوهّاب المنّان، منزل القرآن، أتمّ ما أنزل من كتاب، والجامع لزبدة ما في زبر الأولين، على خاتم النّبيين والمرسلين، محمد بن عبد الله الذي آتاه ربه الحكمة وفصل الخطاب، وجعله سيّد الأولين والآخرين، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين، وجعل القرآن الذي اصطفاه لخاتمة رسالاته كتاباً مُعجزاً في مبانيه

ومعانيه، لا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرّد، بحراً عظيماً زاخراً بالمعاني مع عذوبة تلاوةٍ، وقوّة تأثيرٍ، وحسن بيان.

الحمدُ للَّهِ الذي غرز الحِفظ في الأذهانِ، ورَكَّب آلَته في بني الإنسانِ، وميَّزهم به عن سائرِ الحيوانِ، وخصَّ هذه الأُمَّة بحِفظ أناجِيلها في صُدورها عن النِّسيانِ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ على نَبيِّنا محمدٍ المبعوثِ بالفُرقانِ، إلى جميع الثَّقَلَيْنِ مِن الإِنْس والجانّ، وعلى آله وأصحابِه وأتباعِه ما تَعاقَب المَلَوانِ، وانتَظم في الفَلَكِ الفَرْقَدانِ والحُرَّانِ، وانتَصب في الفَلاةِ السُّبَيْعانِ..

وبَعدُ: فالقُرآنُ الكريمُ هو حبْلُ اللهِ المَتينِ؛ مَن قَرأَه أو حَفِظَه، وعمِلَ بما فيه بِنِيَّةٍ صادقةٍ وقلْبٍ مُتيقِّنٍ، وجعَلَه إمامًا له؛ فإنَّ له جزاءً عظيمًا وخُصوصيةً عندَ اللَّهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وَلَقَدْ عُنِيَ المسلمون منذ فجر الإسلام، وانبثاق نور الهداية الإلهية على ربوع العالم، بالقرآن الكريم مصدر تلك الهداية، ومنبع ذلك الإشراق، عنايةً كبرى شملت جميع نواحيه، وأحاطت بكلّ ما يتصل به، وكان لها آثارها المباركة الطيبة في حياة الإنسان عامّة، والمسلمين

خاصّة، وأفاد منها العلم، وأفاد منها العقل، وأفاد منها الدين، وأفاد منها التشريع، وأفاد منها كلُّ مظهرٍ من مظاهرِ النشاط الفكري والعملي عرفه الناس في حياتهم المادية والروحية.

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية من آثار هذا النشاط العظيم، بل زخرت مكتبات أخرى في لغات أخرى وأمم أخرى، بكنوزٍ رائعةٍ يقف العقل أمامها حائرًا مشدوهًا، أمام هذه العظمة التي لا كفاء لها إلا الإقرار بالعجز والخضوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

ولعلّ مما يدلنا على مدى هذه العناية أنّ الذين فاتتهم القدرة على معالجة القرآن من كافة النواحي العلمية، لم يفُتْهم أن يضربوا بسهمٍ في نواحٍ أخرى، جعلوها مظهراً من مظاهر عنايتهم، وسبيلًا إلى نيل حظهم من رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وثوابه، فهذا يكتب القرآنَ بخطٍّ جميلٍ، وهذا يزخرف صفحاته وأوائل سوره، وهذا يرقم آياته، وهذا يطرز سجله وغلافه، وهذا يرصد الأموال لتحفيظه، والمكافأة على التبريز فيه، وما زالت المساجد إلى يومنا هذا محتفظة بمظهر من هذه المظاهر هي تلك المقارئ التي يجتمع فيها القرّاء يتبادلون فيها قراءته وتجويده والاستماع إليه.

لهذا كله أعتقد أني لا أتجاوز حدّ القصد والاعتدال إذا قلتُ: أنه لم يظفر كتاب من الكتب سماويًا كان أو أرضيًا في أيّة أمّة من الأمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدي المسلمين، ومَن شارك في علوم المسلمين.

ولعلّ هذا يفسر لنا جانبًا من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الكريم الذي تكفّل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بحفظه وتخليده في قوله:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ (الحجر:٩)، فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكلماته مكتوبة في المصحف، مقروءة بالألسنة، متعبَّدًا بها في المساجد والمحاريب؛ إنما الحفظ والخلود بهذه العظمة التي شغلت الناس، وملأت الدنيا، وكانت منارًا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر!

ومن فضل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ علينا في هذا العصر، أنّ الرَّكْبَ سائرٌ لم يقف، ولم يفتر، وأن هذا الروح الكريم ما يزال يسيطر على المسلمين، وينتقل فيهم من جيلٍ إلى جيلٍ، يورثه الآباء للأبناء، وسيظل كذلك -إن شاء الله- حتى يرث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.

وهؤلاء هم المسلمون، على تفرقّهم في البلاد والأقاليم، وتفرقّهم في السلطان والنفوذ، وضعفهم المادي أمام دول الغرب، وبالرغم مما غُمِرُوا به وغُزُوا من علوم متنوعة، وثقافات متعددة ذات ألوان مادية، وأدبية، واجتماعية، وتشريعية؛ لا يزالون يعتصمون بالقرآن، ويدينون بقدسية القرآن، ويتآزرون على خدمة القرآن.

وإنهم ليستشرفون جميعًا لمطلع ذلك اليوم الذي يعود فيه سلطان القرآن فيكون التشريع تشريع القرآن، والأخلاق أخلاق القرآن، والهدى هدى القرآن، ونرجو أن يكون قريبًا.

بلغ القرآن الغاية في الحسن والمجد، وحريّ بأتباعه أن يرتقوا إلى عَليائه؛ إيماناً به، وعملاً بهديه، حيث إنَّ الإيمان هو الحياة الحقيقية للإنسان، وبالمقابل فالكفر هو الموت الحقيقي، ولقد وصف القرآن الذين عاشوا على غير هديه بالموتى والعُمي، مع أنهم يأكلون ويشربون ويروحون ويغدون، فالحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة للَّه ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيميَّة مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب للَّه والرَّسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا،

وغيرُهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياةً أكملهم استجابة لدعوة الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لأن ما دعا إليه فيه الحياة، فمن فاته جزء من الحياة فليس فيه من الحياة إلا بحسب ما استجاب للرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فالإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهمّ والغمّ والخوف والفقر والذُّل دون حياة من هو معافى من ذلك.

والحياة الحقيقية حياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغيِّ والرشاد والهدى والضلال، فيختار الحقَّ على ضده، فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحبّ للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل، فشعوره وتمييزه وحبُّه ونِفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة.

إنّ أجلّ العلوم الّتي يدعو القرآن إلى اكتسابها علوم الدّين، لأنّها تهدي الإنسان إلى سبيل سعادته في دار البقاء الخالدة، مع هدايته إلى سبيل سعادته الأفضل في دار الفناء، دار الحياة الدُّنيا.

ويدعو القرآن أيضاً إلى اكتساب العلوم الّتي تخدم مطالب ولذّات النّاس في الحياة الدُّنيا، بشرط اقترانها بإدراك دلائل الإيمان فيها، وابتغاء الدَّار الآخرة فيما آتى الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان من آثارها وثمراتها النّافعات، مع الأخذ بنصيبه النّافع منها لمتاع الحياة الدُّنيا.

وهنا يرد سؤال يتطلب جواباً وهو: ما هي الحاجة الشّديدة الّتي تفرض على الإنسان أن يكون مُلمّاً بعلوم الدّين، وتجعلُ من مقتضيات حكمة الرّب الخالق، أن يوجّه للنّاس رسالات منه، يصطفي لحملها ولتبليغها للنّاس خِيرة من عباده، وهذه الرّسالات تتضمّن تعريفهم بالحقّ والصّراط المستقيم الّذي يحقق لهم إذا اتّبعوه واهتدوا بهديه سعادة الدُّنيا والآخرة؟

والجواب أنّ الإنسان في معظم أفراده، إذا لم يكن له هادٍ يهديه ويُحذره وينذره ويرغّبه حتّى يختار لنفسه الظّفر بسعادته في دنياه وفي أخراه، والنّجاة من عذاب الله فيها، فإنّ امتلاكه للوسائل والأسباب المُتاحة له في العاجلة، والّتي يشعُرُ بأنّها تهيئ له السّعادة في دنياه، يجعله يشعر بالاستغناء عن ربه، إذ لا يرى بعينيه أنّ كلّ أحداث الكون هي من تصاريفه جلّ جلاله، وهذا الشُّعور بالاستغناء يولّد لديه استعلاء

واستكبارا وطغيانا. ثمّ ينسى مع هذا الطّغيان الّذي تشبّعت به نفسه أنّه في حياة دنيا قصيرة عاجلة، وأنه عبد لربّه الخالق له، وأنّه في هذه الحياة ممتحن مبتلى، وأنّ الامتحان يستلزم المحاسبة والجزاء عقلاً، وقد جعل الله ذلك يومَ الدّين، حين يبعث الله الموتى، ويكون مصيرهم إلى حساب ربّهم وفصل قضائه وتنفيذ جزائه.

وقد أتى الجواب مشيراً إلى السبب الدّاعي إلى إرسال رسل وفي خاتمتهم محمّد بن عبد الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ليبلّغوا رسالات ربّهم لعباده، وهذا السّبب يشتمل على عنصرين:

العنصر الأوّل: أنّ الإنسان في الحياة الدُّنيا متى شعر باستغنائه بأسبابه الّتي أتاحها الله له طغى، فغطّى طغيانُه على بصيرته، فكفر بربّه، وجحد الحقّ، فظلم وبغى، وزيّن ظلمه وبغيه بزخرف القول، والدّعاوى الكاذبة الباطلة، وسخّر ما لديه من قوىً وأنصار، لتحقيق مطالب نفسه الجائرة الظّالمة الآثمة.

العنصر الثّاني: أنّ الإنسان لا يستطيع بنفسه إدراك الحياة الأخرى، وما فيها من حساب وفصل قضاء وتنفيذ جزاء، في دار النّعيم الجنّة، أو

في دار العذاب النّار، ولو أدرك بعقله ضرورة تحقُّق الجزاء، لكنّه لا يستطيع تصور عناصره وكيف يكون، فاحتاج إلى رسالة من الرَّبّ الخالق تبيّن له الدّار الآخرة وما أعدّ الله فيها من جزاء.

لقد هيّأ الله للإنسان الوسائل لاكتساب العلم، كالإدراك الحسّيّ للأشياء، والإدراك العقليّ القائم على استخدام الأصول الفكريّة الّتي فطره عليها، والّتي بها يستنبط ويستخرج من البواطن، عن طريق لوازم الأشياء الّتي يدرك بها الذّهن البواطن غير المدركة بالحسّ، كإدراك وجود نارٍ عند رؤية دخان صاعد في السّماء، وإدراك مرور حيّة على الأرض عند مشاهدة أثر حركة جسمها على الأرض.

إنّ نفس الإنسان بحاجة إلى زادٍ يغذّيها بالمعارف والعلوم، لتبقى لها حياةً معنويّةً متنامية، كما أنّ جسده بحاجة إلى الطّعام والشّراب والتّنفُّس، لاستمرار حياته إلى أجله، والقراءة وسيلة اقتباس المعارف المدوّنة الّتي سبق توصُّل النَّاس إليها بوسائلهم الحسّيّة والتّجريبيّة والعقليّة الاستنباطيّة والخبريّة البشريّة، أو سبق أن تنزّل بها وحيُ الله على أنبيائه ورسله السّابقين، ولمّا كان الهدف من القراءة تحصيل المعارف النّافعة، وأهمها المعارف الدّينيّة، الّتي تهدي النّاس إلى سعادتهم في

دنياهم وآخرتهم، كان لابدّ من ملاحظة الاستعانة بالله فيها، ومصاحبتها بالتّفكُّر بأسماء الله وصفاته الحسنى، إذ الكون كلُّه من آثارها، لاستبصار الحقّ، والتّوفيق للإيمان، ثمّ الارتقاء في درجاته ومراتبه، والتزام العمل بمقتضاه، إسلاماً وطاعةً لله في أوامره ونواهيه ونصائحه ووصاياه، وإرشاداته، فما من موضوع فكريّ إلّا له صلة باسم أو أكثر من أسماء الله الحسنى، إذ ما من شيء في الكون إلّا هو أثر من آثار اسم فأكثر من أسمائه جلّ جلاله.

لذا فإنّ الإنسان يتعلّم بحواسّه الظّاهرة المرئيّات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات الّتي أوجدها الله في كونه ومكّنه من استعمال حواسّه لمعرفتها، ويتعلّم بحواسّه الباطنة العواطف والإحساسات والمشاعر الدّاخليّة، كالحبّ والكراهية، والغضب والرّضا، واللّذة والألم، ولو لم يجعل الله لدى الإنسان الاستعداد للمعرفة، ولم يضعه في بيئة تجريبية تجعله يتذوّق هذه الإحساسات، لبقي صفحة بيضاء جاهلة، فما يكتسبه الإنسان من ذلك هو تعليم من الله لعلوم لم يكن على علم بها، وكان فضل الله عليك عظيما.

إنّ أول فقرات رسالة الرّسول محمّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ في هذا الدّين الخاتم، التّوجيه للانتفاع بوسائل تحصيل العلم الّذي يهدي إلى مصالح الدُّنيا والآخرة، وسعادة النَّاس فيهما، مع بيان حاجة الإنسان إلى هذه الرسالة، وبيان واقع أحوال النّاس تجاه مبادئ هذا الدّين وأحكامه وشرائعه، مقروناً بلمحاتٍ من التّرغيب والتّرهيب.

وممارس تدبُّر كتاب الله يُلاحظ أنّ أسلوب القرآن قائم على توزيع عناصر موضوع واحد في سور متعدّدة، فإذا جُمعت هذه العناصر تكامل منها الموضوع الكلّي المراد بيانه، وهذا الأسلوب مع التّكامل الدّقيق هو من عناصر إعجاز القرآن.

ومن فوائد هذا التّوزيع التّركيز على العنصر المختار في البيان الّذي يُساق فيه، مع التّذكير بأصل الموضوع الكُلّيّ المُوزَّع، والتّخلُّص من ركاكة التّكرير، وإبعاد المتدبّر عن الملل والسّأم فيما لو جمعت له كلّ العناصر حول موضوع واحدٍ في نصّ واحد.

يجب أن ينصبّ كلُّ اهتمام المتدبّر على معاني الكلمات القرآنية، الّتي تدلُّ عليها في لغة العرب إبَّانَ نزول القرآن. فإنّ ما يفهمه القارئ ممّا

يقرؤه يهديه وينفعه، ومن جهلٍ كثير يرفعه، ولكن عليه أن يتدبّر، ويتابع التّأمُّل والتّدبُّر، وليضع في حسابه أنّه مأجور، سواء أفهم أم لم يفهم، ففي كلّ حرفٍ من التنزيل يتلوه له به عشر حسنات.

ثمّ إنّه بمتابعة القراءة والتّدبُّر مع الاستعانة بربّه ينوّر الله بصيرته، فيفتح له أبواباً من الفهم، تشرق له منها معارف ربّانيّة، اشتمل عليها النّص القرآنيّ الموحى به.

فاقرأ أيُّها الإنسان ما نزل به وحي ربّك، وتدبّره، ثمّ اقرأ وتدبّر، فإنّك إذا وجّهت همّتك لفهم ما اشتمل عليه كلام ربّك، وصدقت عزيمتك، أكرمك ربُّك، فأشرقت عليك أنوار المعارف، واجعل من وسائلك أيُّها الإنسان القارئ لما نزل به الوحي من عند ربّك وسيلة القلم، فدوّن به واردات المعرفة الّتي ترد عليك عند قراءتك وتدبُّرك لكلام ربّك، فواردات المعارف شَرود، إذا لم تدوّنها بالقلم نسيتها، فضاعت، وقد يصعب أن تعود مرّة أخرى، فتخسر الوارد، إذ لم تقيّده بالقلم، فربُّك الّذي خلق، وأكرمك بوسائل المعرفة علّم بالقلم.

إنّ وارد المعرفة غيثٌ، والقلم ميزاب لهذا الغيث، والقرطاس هو الوعاء الّذي تجمع به غيث ربّك من المعارف، وبه يستقرّ العلم، ويُنقّح ويُصنّف.

إنَّ الربَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يمدّ القارئ دوماً بعطاءات ربوبيّته، وسيمدُّه بفيوض المعارف كلّما ازداد من القراءة طلباً للمعارف النَّافعة، وسيعطيه معارف زائدة على المعاني الّتي تدلُّ عليها المكتوبات الّتي يقرؤها، لأنّ فِقرات المعرفة الّتي يستفيدها القارئ من قراءاته تفتح له بمعونة الله وإلهامه وتوفيقه أبواباً ومسالك لاكتساب معارف أخرى، لا تدلُّ عليها المكتوبات، ولكن تجرُّ إليها السَّلاسل الفكريّة المترابطة الّتي يتابعها الذّهن، متى أمسك بحلقة من حلقاتها، ويكون هذا ضمن أنظمة الله السّببيّة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الأكرم من كلّ كريم، فلا يقتصر عطاؤه على حدود ما يطلب القارئ الوصول إليه من المعاني الّتي تدلُّ عليها الألفاظ المكتوبة، بل يزيده من كرمه العظيم فيوضاً من المعارف فوقها، على مقدار ما تستوعب آنيته الفكريّة.

وإنّه يرد في ذهن المتلقّي سؤال حول أصناف النّاس تجاه الرّسالة الرّبّانيّة، وكانت الإجابة التّلقائيّة الّتي يختارها أحسن الأدباء وأفضل المفكرين أن يقول: النّاس تجاه الرّسالة الرّبّانيّة المنزّلة أصناف أربعة:

الصنف الأوّل: مستجيب بنفسه متّبع، ويحمل همّ الدّعوة إلى هذه الرّسالة، وهداية النّاس إلى الاستجابة لها واتّباعها.

الصّنف الثّاني: مستجيب بنفسه متّبع، ولكنّه غير مهتمّ بالدّعوة إليها، وهداية النّاس إلى الاستجابة لها واتّباعها، ولا يقوم بهذه الوظيفة الشّريفة.

الصّنف الثّالث: مكذّب بهذه الرّسالة ومكذّب للرّسول المبلّغ لها، ومتولّ مدبر عنها رافض لاتّباع ما جاء فيها، لكنّه لا يحاربها ولا يقاومها، ولا يدعو النّاس إلى عدم الاستجابة لها.

الصّنف الرّابع: مكذّب يُعلن تولّيه وإدباره ورفضه اتّباع ما جاء فيها، ويعلن محاربته لها، وينهى النّاس عن اتّباعها والعمل بما جاء فيها، وقد يؤدي به هذا الموقف إلى اضطهاد دعاتها والمؤمنين بها، وهذا أخسُّ الأقسام وشرّهم.

فانظر يا رعاك الله فهاك صنفان منهما استجابا لدعوة الرّبّ الخالق، أمّا أحدهما فاهتدى بنفسه، وقبل نداء الدّعوة، لكنّه لم يكن داعياً هادياً، وأمّا الآخر فاهتدى بنفسه وحمل مهمّة دعوة غيره إلى أن يستجيب لنداء الدّعوة الرّبّانيّة، فمشى بين النّاس يأمر بالحقّ ويأمر بتقوى الله.

وصنفان منهما لم يستجيبا لدعوة الرّبّ الخالق، وكان داؤهما داء الطغيان النّفسي، الّذي ولّدهما في نفوسهما الشّعور بالاستغناء بما لديها من أسباب، عن خالقها ومسببها، والّذي يمدُّ بها، وهو القادر على سلبها متى شاء.

أمّا أحدهما فضلّ في نفسه، لكنّه لم يجعل من نفسه مُضلّاً، ينهى عن عبادة الله والإيمان به.

وأمّا الآخر فضلّ في نفسه، وحمل مهمّة إضلال النّاس ومنعهم عن الإيمان بالله وعبادته، فإذا رأى عبداً من عباد الله يصلي لربه نهاه عن الصلاة، ودعاه إلى الكفر، فهو بين الناس شيطان تضليل وإغواء،

وإمام من أئمة التّضليل، والفتنة عن دين الله، أو داع من دعاة الضّلال في الأرض.

ولقد ظهر لي أنّ الدعوة إلى القراءة هي المفتاح الأوّل الّذي يُفتح به باب العلم، وأنّ لفت النّظر إلى ربوبيّة الرّب الخالق هو المفتاح الأوّل الذّي يفتح به باب الدّين.

وظهر لي أنّ رفض الدّعوة الرّبّانيّة طغيان نفسي يولده الشُّعور بالاستغناء عمّا تشتمل عليه هذه الدّعوة الرّبّانيّة، أمّا من كان لديه الشُّعور بالحاجة لما تشتمل عليه فإنّه يستجيب ولا يرفض.

وموعظة الرافض تكون ببيان مسؤوليّته في هذه الحياة، وبأنّه سوف يحاسب ويُجازى على ما قدّم وأخّر يوم الدّين.

وظهر أنّ الذين يستجيبون صنفان: مهتد بنفسه، ومهتد بنفسه داع إلى الهداية.

وأنّ الّذين يرفضون صنفان أيضاً: ضالّ بنفسه، وضالّ داع إلى الضّلالة.

ولابدّ أن ندرك أنّ كلّ صنف من هؤلاء الأصناف الأربعة يقع في درجات أو دركات متفاوتات صاعدات أو نازلات.

فالمهتدون في أنفسهم على درجات، فمنهم السّابقون في الخيرات، ومنهم المقتصدون الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئا، ومنهم الظّالمون لأنفسهم بالمعاصي الّتي أسرفوا في ارتكابها.

والمهتدون الدّاعون إلى الهداية الآمرون بالتّقوى على درجات أيضاً، هداية في أنفسهم، وقياماً برسالة الدّعوة إلى الله.

والضّالّون المضلّون في دركات، فبعضهم أسوأ من بعض، وأخسّ وأحطّ في الدّركات، وأقبحهم وأشنعهم أئمة الضّلال في الأرض، ولا سيّما إذا كانوا يملكون قوّة وسلطانا، ومنازلهم يوم الدّين في الدّرك الأسفل من النّار.

والضّالّون في أنفسهم دون أن يحملوا مهمّات إضلال غيرهم، هم في دركات أيضاً، ودركاتهم تنحطّ بحسب شدّة ضلالهم، وممارساتهم للشّرور، وملاحظ مفهوماتهم وأنواع سلوكهم في الحياة، يدرك أنّ بعضهم أضلّ وأظلم من بعض.

القرآن العظيم كلام الله عز وجل، تكلم به حقيقة على ما يليق بجلال قدره وعظيم سلطانه، وهذا الكلام منه - جل وعلا - نزل بلسان عربي مبين، والكلام في هذا اللسان العربي إنما هو بحرف وصوت، والحروف على نوعين:

حروف مباني: أي يبنى منها الكلام، وهي ليست لها معنى في نفسها، ولكن لها دلالة بعد التركيب، مثل: الميم من محمد، والعين من سعد، والراء من عمر ونحو ذلك، ولا علاقة لنا بها في هذه المباحث.

حروف معاني: وهي التي تربط بين الكلمات لتعطي دلالة معينة يقصدها المتحدث، مثل: دلالة حرف «الباء» على الاستعانة في كلمة «بسم الله»، ودلالة حرف «اللام» على التعليل في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ﴾، ودلالة حرف «على» على الظرفية في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، وهذا المبحث له علاقة كبيرة جدا بموضوع الرسالة.

فحروف المباني تتكون منها الكلمات، وهذه الكلمات يربط بينها بحروف المعاني فتتكون الجمل، والجمل مع بعضها يتكون منها الكلام التام.

كذلك الحال في كتاب الله؛ فالآية تتكون من كلمات، وهذه الكلمات تربط بينها حروف المعاني فتتكون الجمل، والجمل مع بعضها تتكون منها الآيات.

وهذه الكلمات والحروف الرابطة والجمل والسياق قد اتصل بعضها ببعض على أكمل وجه، وأحكم عبارة، وأتم معنى، لا اختلاف ولا تناقض ولا اضطراب، وإنما هو محكم مبين فرقان مثاني، يصدق بعضه بعضا، جمع أنواع الإعجاز كلها، فهو معجز في نظمه، معجز في فصاحته، في حلاوة تكراره، في أخباره، في أسراره، في عقيدته، في دعوته، في تشريعه، في شفائه لأمراض الروح والبدن، في السكينة والطمأنينة والراحة والأنس به عند من يتلوه حق تلاوته، وغيرها كثير.

ولتعلم يا رعاك الله أنّ العلم الحق بالقرآن هو رأس الفضائل، فمن أدركه سبق سبقا عظيما، ومن فاته سُبِقَ سبقاً بعيدا.

ولا يخفى على أحد أنَّ علوم القرآن عظيمة الفائدة، ترجع على العبد بما يُقَوِّي إيمانه، ويزيد إيقانه، ويوسِّع مدارك علمه، ويعينه على العمل.

فمن تلك الفوائد : شَغْلُ النَّفسِ وعِمَارَةُ الوقت بالقرآن الكريم.

فإنَّ عمر الإنسان هو عمله، ولا يبقى للإنسان من أيَّامه ولياليه إلَّا ما أودعه فيها من ذَخَائر الأعمال الصَّالحة.

والإقبال على القرآن وعلومه يُعين الإنسان على شغل وقته ونفسه وعمارتها بالإقبال على القرآن الكريم.

ومنها : توثيق العبد صلته بالقرآن.

فإنَّ الآخذ في علوم القرآن تقوى صلته بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فهو يُقلِّبه أنواعاً، ويُصرِّفه أشتاتاً، ويرجع من أوَّله إلى آخره، ويستنبط ما يتعلق بهذا العلم ممَّا ورد في القرآن الكريم، ثم يُلحق به آخر، فتقوى صلةُ المتلقِّي علوم القرآن بالقرآن الكريم.

ومنها : تقوية العلم بالله ومعرفته.

فإنَّ القرآن كلام الله، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ (التوبة : ٦)، فالمقبل على القرآن الكريم تزيد معرفته بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وعلمه بربِّه.

ومنها : زيادة الإيمان، وترسيخ اليقين، وتزكية النفس.

كما قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ (التوبة: ١٢٤).

ومنها : الاطلاع على معارف القرآن وذخائره.

فإنَّ القرآن عظيم المنفعة، وفيه من أنواع العلوم والمعارف ما لا ينتهي إلى حدٍّ، وقد كان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا يُنشِد :

جَمِيعُ العِلْمِ فِي القُرآنِ لَكِنْ ... تَقَاصَرُ عَنْهُ أَفْهَامُ الرِّجَالِ

ومنها : العلم بِبَيَانِ القرآن، تدبراً، وتفسيراً، وتأويلاً.

وقد جعل محمَّد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (المدخل) علومَ القرآن مفتاح التفسير، لأنَّ المرء إذا اطَّلع على علوم القرآن، وأخذ منها بِطَرفٍ حسنٍ، أمكنه أن يتعاطى علمَ التَّفسير، وإن كان خِلْواً منها لم يرجع بكبيرِ فائدةٍ من التفسير.

وقد تأملت في أحوال أمة **محمد** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ **فوجدت** أنهم في موقفهم من كتاب الله على أقسام ثلاثة:

أ- قسم أعرض عن كتاب الله وهؤلاء خصماء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ يوم القيامة ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ (الفرقان)، وليس الحديث معه في هذه الرسالة.

ب- قسم يقرأ كتاب الله تعالى للتلاوة فقط، وأيضا هذا القسم له رسالة أخرى غير هذه.

جـ- قسم يراجع كتب التفسير، وله همة في فهم كتاب الله، لكنه يشعر بأنه ما زال بعيداً عن التدبر الحق لهذا الكتاب العظيم، ولذا كثيرا

ما ترد وتلح عليه تلك الأسئلة الثلاث، ولهذا وأمثاله ـ كثر الله من أمثاله ـ كانت هذه الرسالة.

وهذه الرسالة هي الثانية بعد أختها، كتبتها لأهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، رقمتها بل نقشتها لمّا وقفت من أحبتي على عمل يعوزه علم، وقراءة يعوزها فهم، ورأيت جهداً يعوزه تسديد، وسيرا على طريق يعوزه تعبيد.

وهي ثلاثة أثلاث: ثلث لله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ، ثم ثلث لأئمة أهل العلم، وثلث مِلاط بينهما، وقد كنت أخشى كثيرا أن يتوقف القلب قبل أن يجف القلم، لكن الله ـ بفضله ـ أمد بالعمر فأحمد الله على توفيقه.

ولعلك ـ أخي المبارك ـ عندما تعي مضمون هذه الرسالة ستجد (مفاتيح) جواب سهل واضح عن أسئلة ثلاثة أعيت العقول وأمرضت القلوب المؤمنة:

١- كيف فهم سلفنا هذا الكتاب المهيمن، وكيف كان حالهم بعد أن فهموه ؟

٢- لمَ نقرأ كتب التفسير ولا ندرك المعنى العظيم لآيات هذا القرآن العظيم، أي لم لا نستشعر إعجاز كلام الله حال قراءتنا له، مع يقيننا التام بأنه معجز ؟

٣- كيف يكون القرآن العظيم هادياً لنا وفيصلا بيننا في كل شؤوننا العقدية والتعبدية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسياسية والإعلامية والذاتية ونحوها ؟

أيها المؤمنون: في انبساط للقول وإسهاب، يقال: إن الحياة الاجتماعية والدينية، قبل تنزل الوحي المبارك في جزيرة العرب - بل العالم أجمع - كانت ممزقة الإهاب، مفترسة الجناب، من النور في يبابٍ، ومن الحضارة في تبابٍ، ديانتها: الشرك وعبادة الأوثان، وقانونها: الباطل وشرعة الغاب، إلى أن أرسل المولى - جلَّ شأنه - خير العباد في أطهر البلاد، بأعظم كتاب، وأعجز خطاب، يقول العزيز الوهاب:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ (النساء: ١٧٤- ١٧٥).

معشر المسلمين، إننا في هذا العصر قد أعرض كثيرٌ من الناس عن القرآن، ونأوا عنه، فمن تأمل حياة كثير منهم، وجد أنها لا تمت إلى القرآن بصلة - والعياذ بالله ! - فما أكثر المخالفات الموجودة، وما أعظم الواجبات المفقودة !!

أين المسلمون اليوم من هذا القرآن العظيم ؟! أين شباب الأمة من هذا الكتاب الكريم ؟! لقد استبدل كثير منهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! أين النساء من تعاليم القرآن التي تحثُّ على الحجاب، ولزوم الحياء، ولزوم الحشمة، وتحذِّر من التبرج والسفور والاختلاط ؟! بل أين تحكيم القرآن في جوانب الحياة كلِّها ؟؟!

الواقع والحقيقة - يا عباد الله- أنه صدق في هؤلاء وأولئك قوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفرقان:٣٠).

وهجر القرآن - كما قال العلامة ابن القيم، رَحِمَهُٱللَّهُ - : " يشمل هجر سماعه والإيمان به، وهجر الوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به،

وهجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، وهجر تفهمه ومعرفة ما أراد الله منه، وهجر الاستشفاء به من جميع أمراض القلوب " [١].

وكل أنواع الهجر هذه متحققة - ويا للأسف ! - في واقع الناس اليوم.

إن الذين يقرءون كتاب الله، ويصرون على مخالفته - بل قد يزيدون في دين الله ما ليس منه؛ من البدع والمحدثات - ليسوا بمؤمنين به على الحقيقة، وإن زعموا ذلك ألف مرة، وإن قرءوه في أعمارهم كلها ! أين الذين امتطوا صهوة التعامل بالمحرمات، وتلطخوا بارتكاب الفواحش والمنكرات وساقط القول والعمل؛ أين هم من الإيمان بالقرآن؟! أين الذين يتركون الواجبات، ويتساهلون في المأمورات؛ كالصلاة، والزكاة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى المساكين؛ أين هم من الإيمان بالقرآن؟!

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٨٢.

إن هؤلاء الذين يسمعون القرآن أو يقرءونه، ويعرضون عن تطبيقه، لهم نصيب من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ (طه: ١٢٤).

وبؤساً لهم حيث تشبهوا بمن قال الله فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ۝٤٦﴾ (النساء: ٤٦)!.

فإلى القرآن، إلى القرآن - يا عباد الله - ننهل من معينه، ونرتوي من نميره؛ لنحقق سعادة الدنيا والآخرة، آخذين بكتاب ربنا منهاجاً لحياتنا في جميع شؤوننا، وبهذا نسترد مجدنا التليد، وعزنا العتيد، وقدسنا الفقيد، فإن العجب كل العجب أن تكون القلوب - وهي مضغ من لحم ودم - أقسى من الجبال الرواسي، والحجارة القاسية!، فما بال القلوب لا تلين ولا تخشع عند سماع آيات كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝١٦﴾ (الحديد:١٦) فإن الرفعة والقيادة، والكرامة والريادة، والعزة والسيادة، في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة - إنما لحملة كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العاملين به -؛ وإن سعادة البشرية، وعز

الإنسانية، وصلاح البلاد والعباد - مرهون باتباع هذا الكتاب؛ فإن كان للأمة قائدا وإماما، نصب الأعين، وبين الأيدي، حصلت لها سعادة الدارين، ونجاة الحياتين، وإن كان خلف الظهور - والعياذ بالله ! - عمَّ الذل والشقاء في الأولى والأخرى، لو وقفت الأمة تحت راية القرآن، وتفيأت ظلال دوحة الفرقان، لسمت سماء المجد، وتبوأت مكانة العزة والشرف والقوة، ولو أنها حافظت عليه، وعملت بما فيه، أضاءت لها المسالك، وتفتحت لها المدارك، ولو تدبر المسلمون كتاب الله، ووقفوا عند آياته، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، لحققوا السعادة عاجلاً وآجلا.

إنها دعوة إلى المسلمين جميعاً - ولاسيما حملة كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أن يتدبروا كتاب الله، وأن يستلهموا ما فيه من العبر والعظات، وأن يقِفوا عند عجائبه؛ فتحرك به قلوبهم، فإنّما أنزل القرآن ليُتدبّر، والتَّدبر مفتاح التّذكّر، فهو منهج هداية، وإصلاح، وتدبُّره سبيل النّجاح والفلاح، قال الحسن البصريّ : " وإنّما تدبُّر آياته اتّباعه بعمله ".

يجب أن تربى الأجيال وتنشأ الأسر على هذا المنهج السليم؛ تأسياً بسلف هذه الأمة بإخلاص واحتساب، دون تصنُّع وتزلفٍ واحتراف،

وليتق الله من هضم كتاب الله، فساواه بغيره، ولاكه بلسانه، هذّاً وهذرمة، دون تدبر وتفكر.

ولابد من التذكير بما لهذا الكتاب من مكانة، وما يجب على الطلاب والمدرسين، وأولياء الأمور من مسئولية تجاه كتاب الله، تلاوة وتدبراً، وتطبيقاً وتربية، ليعمل الجميع قدر جهدهم على أن يكون لكتاب الله النصيب الأكبر، والحظ الأوفر من الأوقات، ففي ذلك الفضل العظيم، والخير العميم في الدنيا والآخرة.

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" مَثَلُ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كالأُتْرُجَّةِ: طَعْمُها طَيِّبٌ، ورِيحُها طَيِّبٌ، والذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كالتَّمْرَةِ: طَعْمُها طَيِّبٌ، ولا رِيحَ لَها، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحانَةِ: رِيحُها طَيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: طَعْمُها مُرٌّ، ولا رِيحَ لَها " [(٢)].

---

(٢) صحيح البخاري ٥٠٢٠.

وقال العيني: "اعلم أن هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة وصف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد، ثم إن كلام اللهِ المجيد له تأثيرٌ في باطِنِ العَبدِ وظاهِرِه، وإنَّ العِبادَ مُتفاوِتون في ذلك؛ فمنهم مَن له النصيبُ الأوفَرُ من ذلك التأثيرِ، وهو المؤمِنُ القارئُ، ومنهم مَن لا نصيبَ له ألبتَّةَ، وهو المنافِقُ الحقيقيُّ، ومنهم مَن تأثَّر ظاهِرُه دون باطِنِه، وهو المرائي، أو بالعَكسِ، وهو المؤمِنُ الذي لا يَقرَؤُه.

وإبراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ولا أحسن ولا أجمع من ذلك؛ لأن المشبهات والمشبه بها واردة على التقسيم الحاضر؛ لأن الناس إما مؤمن أو غير مؤمن، والثاني إما منافق صرف أو ملحق به، والأول إما مواظب عليها، فعلى هذا قس الأثمار المشبه بها، ووجه التشبيه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين طعم وريح، وقد ضرب النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال؛ فإنها من ثمرات النفوس فخص ما

يخرجه الشجر من الأترجة[٣] والتمر بالمؤمن، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق، تنبيهًا على علو شأن المؤمن وارتفاع علمه

---

(٣) **الأترجة:**




الأترجة:

تعتبر الأترجة واحدة من الأربعة أنواع الرئيسة من الحمضيات التي وجدت منذ القدم، والتي تفرعت منها الكثير من الأنواع التي نعرفها اليوم، مثل الليمون والبرتقال وغيرها، وتتميز هذه الفاكهة بقشرتها المتعرجة وبطبقة بيضاء سميكة تفصل القشرة عن اللب، ويمكن تناول اللب مع الطبقة البيضاء المحيطة، فكلاهما له فوائد عديدة ومذهلة.

يشبه لون الأترجة من الخارج لون ثمار الليمون، ويختلف شكلها كثيرًا من منطقة لأخرى، فمنها ما يبدو على هيئة الكف، ومنها ما يبدو على هيئة ثمار تشبه الليمون ولكنها أكبر حجمًا وهكذا، وتعتبر ثمار الأترجة غنية بفيتامين ج، والألياف، والكالسيوم، والحديد، والبيتاكاروتينات، والمنغنيز، والزنك، والبوتاسيوم، وفيتامين ب٦، وغيرها.

فوائد الأترجة :

إن فوائد الأترجة للصحة عديدة ومذهلة، إليك أهمها:

١. تعزيز عمل جهاز المناعة:

بسبب احتواء الأترجة على مستويات عالية من فيتامين ج، فإن تناولها يساعد على تقوية جهاز المناعة في الجسم وزيادة إنتاج كريات الدم البيضاء، والتي تعتبر خط الدفاع الأول في الجسم ضد الأمراض.

٢. محاربة السرطان:

من فوائد الأترجة أنها قد تساعد بفاعلية على الوقاية من الإصابة بمرض السرطان، خاصة سرطان الثدي، وذلك بسبب احتوائها على كميات كبيرة من مضادات الأكسدة الهامة التي تعمل على محاربة الجذور الحرة في الجسم.

٣. السيطرة على ضغط الدم:

يساعد محتوى الأترجة العالي من البوتاسيوم وفيتامين ج على تحسين مستويات ضغط الدم في الجسم وتخفيف الضغط عن الأوعية الدموية، وبالتالي فإن تناول الأترجة يساعد على تقليل فرص الإصابة بأمراض القلب والشرايين والجلطات.

٤. مسكن طبيعي للألم:

لفاكهة الأترجة خصائص مسكنة للألم، لذا تجد البعض يستخدم الأترجة كمسكن طبيعي للآلام المختلفة، إذ يستخدم عصير الأترجة أو زيت الأترجة العطري

ودوام ذلك، وتوقيفًا على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه"(٤).

لتسكين الألم المزمن، كما في حالات الصداع أو الالام الناتجة عن التهاب المفاصل.

٥. لصحة الجهاز الهضمي:

يساعد عصير الأترجة على موازنة مستويات الحموضة في القناة الهاضمة، كما يساعد كذلك على تحسين عملية الهضم عامة، والتخلص من المشاكل الهضمية المختلفة، مثل الإمساك والغثيان.

٦. لصحة القلب:

إن الحمضيات بكافة أنواعها، مثل الأترجة، مفيدة بشكل كبير في حماية القلب من الأمراض المختلفة، والتقليل من فرص الإصابة بالجلطة أو النوبة القلبية.

٧. تخفيف الالتهابات:

قد تتسبب الالتهابات المتكررة برد فعل سلبي من قبل الجسم، مثل الإصابة بأمراض مختلفة كأمراض القلب والسرطانات، وأحد أهم الأسباب وراء الالتهابات المتكررة في الجسم هو الشوارد الحرة، وتناول الأترجة الغنية بمضادات الأكسدة يساعد على محاربة هذه الشوارد وبالتالي تخفيف الالتهابات.

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، ٢٠/ ٣٨.

وفي هذا الحديثِ دَعوةٌ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقراءةِ القرآنِ، وحثٌّ على الانتفاعِ به ظاهِرًا وباطِنًا، ونفعِ النَّاسِ به، وقد ضَرَبَ فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلًا يُقسِّمُ فيه الناسَ وعَلاقتَهم بالقرآنِ إلى أربعةِ أقسامٍ:

القِسمُ الأولُ: هو المُؤمنُ الذي يَقرأُ القرآنَ ويَنتفعُ به، فيَعمَلُ بما يَقرأُ، ويَنفَعُ عِبادَ اللهِ، وهذا شبَّهه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بثَمَرةِ الأُتْرُجَّةِ، (الأُتْرُجَّة): ثمر شبه التفاحة، وهي بِضَمِّ الْهَمْزَة وَالرَّاء بَيْنهمَا مُثَنَّاة سَاكِنَة وَآخِره جِيم ثَقِيلَة، وَقَدْ تُخَفَّف. وَيُزَاد قَبْلهَا نُون سَاكِنَة، وَيُقَال بِحَذْفِ الْأَلِف مَعَ الْوَجْهَيْنِ فَتِلْكَ أَرْبَع لُغَات وَتَبْلُغ مَعَ التَّخْفِيف إِلَى ثَمَانِيَة. وهي من أحسن الثمار الشجرية وأنفسها عند العرب. فهو ثَمَرٌ جامعٌ لِطيبِ الطَّعْمِ والرَّائحةِ وحُسْنِ اللَّونِ، ومَنافِعُه كَثيرةٌ. ويُسَمَّى في بَعضِ البُلدانِ بالأُتْرُجِّ، وهو مِنَ الحِمْضيَّاتِ يُشبِهُ اللَّيمونَ، وحَجمُه أكبَرُ من البُرتقالِ، وقِشرتُه مُتَعَرِّجةٌ.

وأما **القِسمُ الثاني:** فهو المؤمنُ الذي طاب باطِنُه لثَباتِ الإيمانِ فيه، وقيامِه بالواجباتِ، غيرَ أنَّه لا يَقرأُ القرآنَ، باستثناءِ الواجبِ منه كالفاتحةِ، فشَبَّهُه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتَّمْرةِ، طَعْمُها حُلْوٌ، ولا رِيحَ

لها، فاشتمالُه على الإيمانِ كاشتمالِ التَّمرةِ على الحلاوةِ، بجامعِ أنَّ كِلَيهما أمرٌ باطنيٌّ، وعدمُ ظُهورِ رِيحٍ لها يَستريحُ الناسُ لشَمِّه، لعَدَمِ ظُهورِ قِراءةٍ منه يَستريحُ النَّاسُ بسَماعِها.

وأما **القسمُ الثالثُ**: فهو المُنافقُ الذي يَقرأُ القرآنَ، ولا يُصلِحُ قلْبَه بالإيمانِ، ولا يَعمَلُ به، ويَتظاهَرُ أمامَ الناسِ أنَّه مُؤمنٌ، فهو من حيث تَعطُّل باطنِه عنِ الإيمانِ واستراحة الناسِ بقراءتِه، مِثْلُ الرَّيحانةِ لها رائحةٌ طيِّبةٌ وطعْمُها مُرٌّ، فرِيحُها الطيِّبُ يُشبِهُ قِراءتَه، وطعْمُها المرُّ يُشبِهُ كُفرَه.

وأَمَّا **القِسمُ الرابعُ**: فهو المُنافقُ الذي لا يَقرأُ القُرآنَ، شبَّه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حيثُ تَعطُّلُ باطنِه عنِ الإيمانِ، وظاهرِه عن سائرِ المنافعِ، وتلبُّسُه بالمضارِّ، بالحنظلةِ، حيثُ إنَّها لا رائحةَ لها، وفيها ما فيها منَ المَذاقِ المُرِّ، فانعدامُ رِيحِها أشبهُ بانعدامِ رِيحِه لعدمِ قِراءتِه، ومَرارةُ طعْمِها شَبيهٌ بمَرارةِ كُفرِه.

وهذه التشبيهاتُ وارِدةٌ على التقسيمِ الحاصِرِ للنَّاسِ؛ لأنَّ النَّاسَ إمَّا مؤمِنٌ أو غيرُ مؤمِنٍ، والثَّاني إمَّا منافِقٌ صِرفٌ أو مُلحَقٌ به، والأَوَّلُ المؤمِنُ إمَّا مواظِبٌ على القراءةِ أو غيرُ مواظِبٍ عليها.

وقَولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقرأُ القُرآنَ» على صيغةِ المضارعِ ونَفْيِه في قَولِه: «لا يقرأُ» ليس المرادُ منهما حصولَها مرَّةً ونَفْيَها بالكُلِّيَّةِ، بل المرادُ منهما الاستمرارُ والدَّوامُ عليهما، وأنَّ القِراءةَ دأبُه وعادتُه، أو ليست عادةً له.

وفي الحَديثِ: فَضيلةُ حامِلِ القُرآنِ، وفَضْلُ القُرآنِ على غيرِه من الكلامِ.

وفيه: أنَّ المقصودَ مِن تلاوةِ القُرآنِ العَمَلُ، كما دَلَّ عليه قَولُه «ويَعمَل به»).

قال ابن حجر: قوله: (طَعمهَا طَيِّب وَرِيحهَا طَيِّب) قِيلَ: خَصَّ صِفَة الْإِيمَان بِالطَّعْمِ، وَصِفَة التِّلَاوَة بِالرِّيحِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَان أَلْزَم لِلْمُؤْمِنِ من الْقُرْآن؛ إِذْ يُمْكِن حُصُول الْإِيمَان بِدُونِ الْقِرَاءَة، وَكَذَلِكَ الطَّعْم أَلْزَم لِلْجَوْهَرِ من الرِّيح؛ فَقَدْ يَذْهَب رِيح الْجَوْهَر وَيَبْقَى طَعْمه.

ثُمَّ قِيلَ: الْحِكْمَة فِي تَخْصِيص الْأُتْرُجَّة بِالتَّمْثِيلِ دُون غَيْرهَا مِن الْفَاكِهَة الَّتِي تَجْمَع طِيب الطَّعْم وَالرِّيح كَالتُّفَّاحَةِ؛ لِأَنَّهُ يُتَدَاوَى بِقِشْرِهَا وَهُوَ مُفْرِح بِالْخَاصِّيَّةِ، وَيُسْتَخْرَج مِنْ حَبِّهَا دُهْن لَهُ مَنَافِع. وَقِيلَ: إِنَّ الْجِنّ لَا تَقْرَب الْبَيْت الَّذِي فِيهِ الْأُتْرُجّ فَنَاسَبَ أَنْ يُمَثِّل بِهِ الْقُرْآن الَّذِي لَا تَقْرَبهُ الشَّيَاطِين، وَغِلَاف حَبّه أَبْيَض فَيُنَاسِب قَلْب الْمُؤْمِن، وَفِيهَا أَيْضًا مِن الْمَزَايَا كِبْر جُرْمهَا وَحُسْن مَنْظَرهَا وَتَفْرِيح لَوْنهَا وَلِين مَلْمَسهَا، وَفِي أَكْلهَا مَعَ الِالْتِذَاذ طِيب نَكْهَة وَدِبَاغ مَعِدَة وَجَوْدَة هَضْم، وَلَهَا مَنَافِع أُخْرَى مَذْكُورَة فِي الْمُفْرَدَات(٥).

وقال ابن بطال: "معنى هذا الباب أن قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه، وكان عن نية التقرب إليه، وشبهه بالريحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق، ولا اتصل بالقلب، وهؤلاء هم الذين يمرقون من الدين"(٦).

---

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٩/٦٦-٦٧. وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، ٢٠/ ٣٨.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٥٣٦/١٣.

صدق وربي فإنَّ اتّباع الشهوات وهوى النَّفس يصدُّ الإنسان عن إدراك أظهر الحقائق، فإنّه لا يتبصّر في آيات الله إلّا من تفكّر فيها وتدبّر وجعلها سُلَّماً للافتكار والاعتبار، ومفتاح التّبصُّر والتّذكُّر إخلاص العبوديّة لله، وإنابة العبد لمولاه، وأنّى للمؤمن أن يحيد عن الصراط، وقد علم أنَّ الكتّاب حافظٌ لكلّ صغيرة وكبيرة من عمله؟!.

ما أجدر المسلم أن يكون كالأترجة كما يجدر به أن يكون كالنّخل؛ اعتزازاً وشموخاً، وعطاءً وجوداً، وقد شبه النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلم بها.

من فوائد الحديث:

١- فِي الْحَدِيث فَضِيلَة حَامِلِ الْقُرآن، وَأَنَّ الْمَقْصُود مِنْ تِلَاوَة الْقُرآن الْعَمَل بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ.

٢- وضَرْب الْمَثَل لِلتَّقْرِيبِ لِلْفَهْمِ.

٣- أن لتلاوة القرآن أثر على المؤمن؛ في زيادة إيمانه، وطمأنينة قلبه، وفي طيب نفسه، ورفعة قدره، وعلو منزلته.

٤- على المسلم أن يحرص على تلاوة كتاب الله، وتدبره، والعمل بما فيه، وأن يكون له ورد يومي من القران، لا يفرط فيه لتزكو به نفسه ، وتكثر به حسناته.

٥- أنه قد يقع من بعض المؤمنين انصراف عن تلاوة القران وسماعه وهذا من هجره، قال الإمام ابن القيم: (هجر القرآن أنواع):

" أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به، والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ (الفرقان :٣٠) وأن كان بعض الهجر أهون من بعض "[٧].

---

(٧) الفوائد، ١/ ٨٢ .

أهداف البحث:-

تتمَّل الأهداف الرئيسة في :

١- أن يتعرَّف على مفهوم التَّدبُّر وعلاقته بالمصطلحات القرآنية الأخرى.

٢- أن يتعرَّف على التَّدبُّر الصَّحيح في القرآن الكريم وثمراته وعوائق التَّدبُّر.

٣- أن يكون قادراً على البحث والكتابة وإنتاج مادة في التَّدبُّر بأسلوب علميّ.

٤- أن يستطيع استنتاج مناهج وأساليب العلماء في التَّدبُّر، ونقد الخاطئ.

٥- أن يتعرَّف على أساليب القرآن المعينة على التَّدبُّر.

٦- أن يتقن مهارات التَّدبُّر والمدارسة وأنواعها.

٧- أن يكون قادراً على ممارسة التربية من خلال المنهج القرآني.

٨- أن يمارس تدبُّر القرآن ويتدارسه مع غيره على بعض السُّور والآيات.

٩- تنمية ملكته وقدرته على التَّدبُّر وربط الحياة بمعاني الآيات المباشرة.

١٠- إبراز الأسس المعرفيَّة لتدبر كتاب الله.

١١- تيسير عمليَّة التَّدبُّر وجعلها في خطوات متدرِّجة.

١٢- بيان أسباب التَّدبُّر وطرق اكتسابه.

١٣- توعية المتربِّين بوسائل وأساليب تربية الأجيال على التَّدبُّر.

١٤- إذكاء الدّراسات في هذا الباب الجليل من العلم وتعبيد الطَّريق للمزيد منها.

١٥- استكشاف واقع الدراسات القرآنية في بابٍ من أجلّ أبوابها.

١٦- إثراء ساحة الدّراسات الشَّرعيَّة بأعمال منهجيَّة تُفيد الباحثين، بغضّ النَّظر عن تخصُّصاتهم والمجالات المعرفيَّة التي ينتسبون إليها.

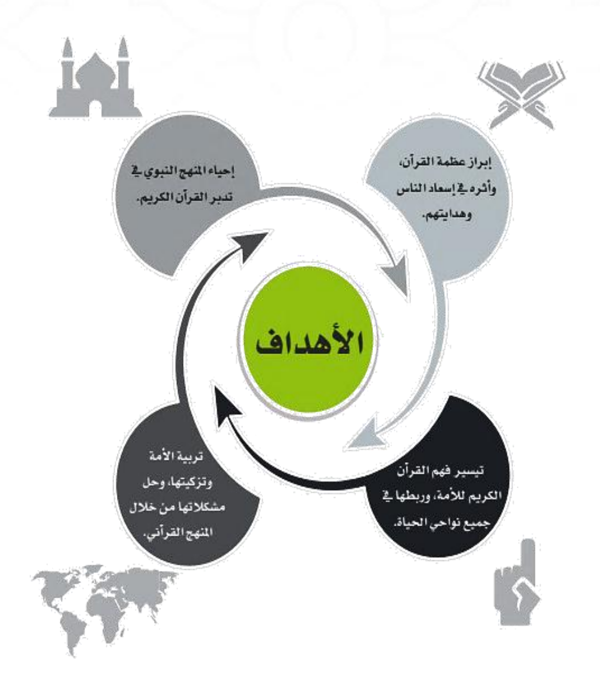
١٧- التركيز على تحليل بعض الجوانب المنهجيَّة العامَّة والنَّواحي الأسلوبيَّة، وتوصيف المادَّة المطروقة في هذه المؤلَّفات، ومدى قيمتها العلميَّة.

١٨- إبراز عظمة القرآن، وأثره في إسعاد النَّاس وهدايتهم.

١٩- إحياء المنهج النَّبوي في تدبُّر القرآن الكريم.

٢٠- تيسير فهم القرآن الكريم للأمَّة، وربطها في جميع نواحي الحياة.

٢١- تربية الأمَّة وتزكيتها، وحلّ مشكلاتها من خلال المنهج القرآني.



معلوم أنَّ بركات القرآن لا تنقطع وأنَّه أعظم البركات، كيف لا وهو كلام ربِّ العالمين. ومن بركات هذا القرآن أن التصنيف في فضله ونفعه وتدبره لا يتوقف، وذلك دليل على عظيم شأن التدبر، وجلالة قدره؛ إذ إنه الطريق لتعقُّل معاني القرآن، والاعتبار بأمثاله وزواجره، والتأدب بآدابه، والامتثال لأوامره، والاتعاظ بمواعظه، فهذه أوراق متناثرة كتبت في أزمان متباعدة، بعضها وليد بحث، والآخر وليد خاطرة، غايتها تشويق الأنام إلى كلام الملك العلَّام، كتاب الله المجيد ذي الذكر، الذي لا يأتيه الباطل من بيده ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

هذه رسالة إلى كل محب للكتاب ليزداد حباً، وإلى كل مبتعدٍ ليزداد قرباً.

حاولت عبر هذا الكتاب الذي سطرته لنفسي أولاً؛ ليكون باعثاً على تحقيق هذا المطلب، ثم لإخواني المسلمين؛ تواصيًا بالحق والصبر، محاولاً أن أشارك في تقريب القارئ من المشروع الحقيقي للأمة، مشروع تلاوة القرآن، تميماً لمقصد البعثة المحمدية ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ ﴾

جاء هذا الكتاب ليرفع عنا قشرة الجهل بأعظم كتاب، لكي يكون هادياً مع الهداة للدلالة على الكتاب المجيد.

وما غرض هذا الكتاب إلا بعث الشوق في نفس القارئ ليقبل على كتاب الله تعالى، وقد ذكرت فيه من كلام أهل العلم، وحال السلف الكرام ما يبعث الهمة، ويقرب المسافة بيننا وبين الكتاب المحفوظ.

ونحن في هذا الزمان أحوج ما نكون لهذا القرآن، إنَّ القرآن شفاء لما في الصدور، شفاءٌ لما في الصدور من شهوات وشبهات، ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك؛ بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة؛ ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه، ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي، بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد.

وإن أحق ما توهب له الأعمار كتاب اللَّه!

وفي مثل بليغ حق بليغ: أن نملة انطلقت في طريقها، عاقدة عزيمتها على حج بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أقصى الأرض! فقيل لها: كيف تدركين الحج وإنما أنت نملة؟ إنك ستموتين قطعاً قبل الوصول! قالت: إذن أموت على تلك الطريق! فلا تكن النملة أفطن منك.

ذلك هو القرآن: النور الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، الهداية التي تنزل القلب لتحييه، وتزيل عنه الران.

فلنجعل القرآن رفيقاً لنا في جلواتنا وخلواتنا، ولننهل من معينه الصافي، ونوره الذي لا ينفد.

لنتمسك بالقرآن كما تمسك به أهل الإصلاح قبلنا، ولنفتح به قلوب الناس، ليكن جهادنا به، ودعوتنا به، وبصرنا به.

إن الإبصار لا نيابة لأحد فيه عن أحد، ولن يحدثك عن القرآن مثل القرآن، وإنما الناس واصفون، ودالُّون، فإن أردت أن تبصر فهلمَّ بنفسك.

افتح كتاب اللَّه، واجعله أنسك، وقلبه لا تمل، فإن اللَّه لا يمل حتى تمل!

ابحث عن الدواء الذي طالما أردته في القرآن، واصبر.

القرآن وراء كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار السماوات والأرض ، وحقيقة الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرهاً نحو نهايتها.

فتدبر ... إنَّ فيه كل ما تريد.

ألست تريد أن تكون من أهل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟

إذن، عليك بالقرآن، اجعله صاحبك ورفيقك طول حياتك، تكن من أهل اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن القرآن لهو بحق مشروع العمر، وبرنامج العبد في سيره إلى الله حتى يلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما كان تنجيم القرآن، وتصريف آياته على مدى ثلاث وعشرين سنة، إلا خدمة لهذا المقصد الرباني الحكيم!

فلتخل أيها السالك بكتاب ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ظلمة الليل، ولتقرأ ما تحفظه، ولتثور القرآن، لتكن من الأمة القائمة التي تتلو كتاب ربها

آناء الليل، فتسجد لمن هذا الكلام كلامه، فتقترب! فمن لم يكابد حقائق القرآن لهيباً يحرِّق باطن الإثم من نفسه، فلا حظَّ له من نوره!، وليس المقصود أن تدرك الهدف كله، لكن يكفيك أن تموت وأنت على الطريق! فالقرآن راحة لقلبك، وسكون لنفسك في زمان القلق، السكينة المفقودة!

إنَّ نور القرآن لا يمتد شعاعه إلى الآخرين ولا يشتعل حقيقة ؛ إلا باشتعال قلب حامل كلماته وتحرك قلب العبد المؤمن به، وتوهجه بحقائقه الإيمانية الملتهبة! نعم ! واشتعل له وجدانه ! وتهيأ كيانه كله للاشتغال ! فالقرآن كتاب عزيز له أسراره لا تظهر إلا بطول المصاحبة، فكلما ازدادت صحبة المرء مع القرآن ازداد معرفة بأسراره، وآياته وبيناته، ومن أصغى إلى كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ بعقله، وتدبره بقلبه وجد فيه من الحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب أعظم إلانة للقلب، واستدراراً للدمع، وإحضاراً للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن، وسماعه، فمن أحب القرآن فليبشر .

فيا شباب الأمة وأشبالها، هذا كتاب الله ينادي، وهذه الأمة تستغيث!

فمن ذا يبادر لحمل الرسالة ؟ من ذا يكون في طليعة السفراء الربانيين، الحاملين لرسالات هذا الدين، إلى جموع التائهين والمحتارين هنا وهناك ؟

من يفتح صدره لنور القرآن، فيقدح به أشواق العلم بالله والمعرفة به ؟ عساه ينال شرف الخدمة في صفوف الإغاثة القرآنية، والإنقاذ لملايين الغرقى في مستنقعات الشهوات والشبهات ؟

من يمد إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يداً غير مرتعشة، فيبايعه على أخذ الكتاب بقوة ؟ ويقبض على جمر هذا الإرث الدعوي العظيم: رسالات القرآن، فدونكم رسالات القرآن فمن يتلقاها ؟

من يقول: أنا لها يا رسول الله! فيقوم بحقها ويفي بعهدها ثم ينخرط في مسلك بلاغات الوحي، سيراً على أثر الأنبياء والصديقين : ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ (الأحزاب : ٣٩).

فما أشدها من حسرة ! وما أعظمها من غبنة ! على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ! ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه! فهل من عبد - حق عبد لله عَزَّوَجَلَّ - يجعل حياته وقفاً على دين الله، يتلقى كلمات الله، ويبلغ رسالاته! عسى أن يحقق بولاية الله، فيفتح الله له، وعلى يديه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ ﴾ (الطلاق:٣).

إنَّ تتابع الإنتاج المعرفيّ واستمراره وكثرة التأليف في مناحي المعرفة المختلفة يستلزم وقفاتٍ جادَّةٍ أمام هذا النتاج المتنوع تُعنى بتقييمه، وتحرير أسسه ومناهجه، وبيان إشكالاته وميزاته، وتتبع جذوره ومنابته، والصلة بين جديده وقديمه وطارفه وتليده، وتحديد مواطن الاتفاق والافتراق، والتَكرار والابتكار ... إلخ، وإنَّ استمرار الإنتاج المعرفيّ في حقل من الحقول المعرفيَّة دون أمثال هذه الوقفات مُؤذنٌ بانحرافٍ منهجيّ ينتج عنه كثرةُ الأخطاء وتراكمها، وغلبة التَّقليد، وضعف التَّجديد، وانغلاق آفاق التَّطوير والإبداع.

ولا سبيل إلى الخلاص من كلِّ هذا إلا عبر النَّقد المنهجيّ الذي هو أعظم أداةٍ لتحرير المعارف وتنقيحها، وتثوير العلوم وتحقيقها،

واستيضاح مكامن قوّتها ومواطن ضعفها، والإحاطة بعناصر الخلل والقصور الكامنة فيها وأسبابها؛ ولذا كان النَّقد المنهجيّ من أهمّ الأدوات الَّتي تحرر بها مسائل العلوم، وتجدد قضاياها؛ بدون النَّقد تبقى الأفكار غائمة والمسائل معتمة، ويفشو التَّقليد ويتوقَّف التجديد.

إنَّ بعض العلوم الشَّرعيَّة قد تحقَّق لها النُّضج في أصولها الضابطة لكليَّاتها، وقواعدها الكليَّة المقنِّنة لجزئياتها، فاستبانت أصولها وتحررت، وقُنِّنت قواعدها ورُكِّبت، وصار لها إطار نظري تأصيليّ يضبط الممارسة التَّطبيقية لها ويقنّنها عبر تلك الأصول والقواعد، ولا يكاد يخفى على منصف ما يقوم به كثير من المحبين لكتاب الله من الاهتمام بتدبر القرآن، سواء كان ذلك بعقد المؤتمرات أو الدورات والمحاضرات العلميَّة، أو الكتابات المتعددة حول التدبر الذي هو الهدف الرئيس من إنزال القرآن.

ولكن الملاحظ على كثير من هذه الجهود - وهي مباركة إن شاء الله - عدم وجود منهج تعليمي ينشأ عنه وجود متخصصين في هذا الباب العظيم إلا النذر اليسير.

ولعلَّ هذا الجهد الذي بين يديك يكون نواة لمناهج تعليمية متخصصة تضبط التدبر وتعين على إيجاد أساتذة وباحثين متخصصين، يكملون بناء المسيرة ويحيون التدبر في نفوس الناس بطريقة علمية منهجيَّة منضبطة.

وقد تمَّ بناؤه بناء على جرد الموجود في المكتبة الإسلامية من بحوث ومقالات وبرامج ومؤتمرات وملتقيات علميَّة بشأن تدبر القرآن الكريم، مع اعتبار الأسس المنهجيَّة العلميَّة لبناء المناهج التعليمية، وتلبية طلب كثير من المتخصصين فالحاجة ماسَّة لنشره استعنَّا بالله على ذلك.

ثم إن الحديث عن العلم والتحصيل لابدَّ وأن يكون متداخل الأسباب متواشج الأنساب، فليس من فصول هذا الكتاب فصلٌ إلا وقد يدخله نُتفٌ من فصول أُخَر على قدر ما بينها من سبب وانتساب، وإني لأرجو أن تعمَّ بذلك جدواه، وينكشف مغزاه، ويكون القارىء به أشدّ انتفاعا.

وختاماً : فإن الكمال عزيز وبلوغه صعب المنال، وهذه محاولة بشر، أراد بها الخير له ولأمته ولإخوانه في طريق الدَّعوة إلى الله وخدمة

كتاب الله، وعمل البشر لا يخلو من أخطاء وزلل، فما كان في هذا العمل من خير وصواب فمن توفيق الله وحده، وما كان من خطأ وزلل فمن أنفسنا والشيطان، وإني أحب أن يعلم القارئ الكريم أن هذا اجتهاد يحتمل التغيير والتبديل، ومن وجد الشيخ الناصح، فليتمسك به، ففيه غنية وكفاية، وليصرف نظره عن هذه البرامج إلا أن يكون من باب المعرفة والاطلاع والاستزادة من العلم.

وأحث طالب التدبر وعلم التفسير على العناية بعلوم الآلة وخاصة علوم العربية، فإنه بحسب تضلعه منها يكون فهمه لكتب التَّدبُّر والتفسير، وانتفاعه بما فيها.

وكم رأيت من طلاب علم ! يشعر الواحد منهم أنه قد امتلك ناصية العلم الذي يزعم أنّه متخصص فيه، وهو لا يتقن كتاباً من كتب اللغة، فيذهب كل هذا عنه عند أول إشكال وسؤال حقيقي يتعرض له، فيجد فهمه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد جهله يلوح أمام ناظريه، فمنهم موفق يرجع فيتعلم، ومنهم مكابر يتمادى في غيه فاقصد البحر وخل القنوات، وأعني بهذا أنه لابد لك من العناية بالتعرف على منهج السلف، ومن سار على منهجهم من

خلال التطبيقات العملية التي يقومون بها في كتبهم، وأنصح قارىء هذا الكتاب بالإخلاص لله عند القراءة وبالعمل عند التِّلاوة، وأوصيه بما أوصى به شيخٌ أبا بكر بن عيَّاش : " يا بُنَيَّ خلِّص رقبتك في الدُّنيا من رقِ الآخرة، فإنَّ أسير الآخرة غير مفكوك أبداً " فأنت أيُّها الأخ الكريم تحمل في هذه الدُّنيا رقبة واحدة، إحرص على فِكاكها بين يديِّ الله عَزَّوَجَلَّ ولا يكون ذلك إلَّا بالاعتصام بكتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذ لا يُصلح القلب إلَّا كلام الرَّب، وتقرَّب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولن تتقرب إليه بشيء أحبَّ إليه من كلامه.

وأخيراً، فإن في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ آية عجيبة، تدلك على الطريق كيف يبدأ، وكيف ينتهي؛ تدبر قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾

تمسيك بالكتاب أولاً: وهو الأخذ ببلاغاته بقوة، وإقامة للصلاة ثانياً: وهو إحسان أدائها والسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ عبر مواقيتها، ثم انطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾، تلك إذن المدارج الأولى للسالكين.

لا تحسبن طريق العلم ميسوراً لأهل التكاسل، بل إنه لن يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإن العلم الشرعي ليس حمىً مستباحاً يرتع فيه كل بطَّال إنما يصلح للأبطال، وقديماً قال الإمام ابن معطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبعد فالعلم جليـــل القدر ... وفي قليـله نفــــاذ العمر

فابدأ بما هو الأهم فالأهم ... فالحازم البادئ فيما يستتم

فإن من يتقن بعض الفن ... يضطر للبـاقي ولا يستغني

كثيرة هي الكتب التي تحدثت عن القرآن، وعظمته، وأهمية تدبره، وقد جاء هذا الكتاب تتميماً لبعض هذه المحاولات فهذا كتابي ، حاولت أن أقيم ما فيه من عوج، وليس لي من تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، واختيار المرء قطعة من عقله تدلُّ على تخلُّفه أو فضله، ولقد كتبته راغباً فيمن ينظر فيه أن يترحم عليَّ، ويعطف جيد دعائه إليَّ، فذلك ما لا كلفة فيه عليه، ولا ضرر يرجع به إليه فربما انتفعت بدعوته، وفزت بما قد أَمِنَ هو من معرَّته، فلينظر الناظر فيه بعين الرضا، فما هو إلا ومضة مشوقة، أراد صاحبها أن يبعث في نفسك دافعاً للإقبال على كتاب ربك سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وبحمده، فإن انتفعت

به، فالحمد للَّه، وهذا من توفيقه ومنِّه، وإن أَمَلَّك فدعك منه، وأقبل أنت على كتاب الله محباً طالباً للهدى والنور.

هذا وقد تلطفت إلى قلبك بحثّي إياك على حظِّك من فنون من القول، وضروب من الوصايا، وأرجو أن يكون صوابي عندك متقبَّلا، وخطئي فيها عندك متأوَّلا، لا لأنّي أهلٌ لذلك، ولكن لأنك حقيق به، وله خليق..

هذا، ودونك البحر فانهل، وعن دعوة أخيك لا تغفل، والحمد لله المحمود في كل حال، والصلاة والسلام على نبيه والآل.

هنا انتهى ما أردت، وبقيت أنت مع كتاب الله مقبلاً عليه، باحثاً عنه، معيداً لمركزيته في حياتك، وفقنا اللَّه وإياك لما يحب ويرضى.

وأختم مقدمتي بالشكر للَّه تعالى أولاً وآخراً، ثم أثنِّي بالشكر الجزيل لكل من نمَّى في قلبي حب كتاب اللَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وساهم في إخراج هذا الكتاب بهذه الحلَّة، وفي مقدمتهم مشايخي النبلاء، راجياً من اللَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يجزيهم عني خير الجزاء وأسبغه وأحسنه وأوفاه.

واللَّه الصمد الذي لا إله إلا هو الحي القيوم نسأله أن يتولانا برحمته ويهيأ لنا من أمرنا رشداً، وأن يقربنا من كتابه، ويجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، وأن يوفقنا لفهم كتابه، وإحسان تلاوته ومحبته، وأن لا يسلبنا حلاوته والانتفاع به، وأن يجعله ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وأن يجعله شفيعاً لنا، وأن يجد قارئه ما يمكن أن يكون قد مرّ على خاطره، وسأل عنه حول القرآن وما يتعلق به، إنه الصمد الكريم، البر الرحيم ويجعل ثواب هذا الكتاب لوالديَّ، ومشايخي، ولجميع المسلمين، وإني لأرجو ممن قرأه ألا يبخل عليَّ بنصح إن رآه، فإن النصيحة من الدين، وإني لها - إن شاء الله- لممتثل، وأرجو من أهل العلم أن يسامحوا ما وقع فيه من خلل، فإنه لغيرهم، ومثل هذا يعفى عنه إن شاء الله تعالى، وإني بنصحهم مسترشد.

وَيشتمل هذا الكتاب على عشرة أبواب :

الفهرس الإجمالي:

الباب العاشر : جدول تفصيلي لمدرسي الحلقات وطالبي حفظ وإتقان القرآن الكريم.

إنَّه لا يفتقر كثير من طلبة العلم إلى برنامج ينظّم مسيرهم، أو خطّة تدرّج تلقّيهم، غير أنَّ الصِّناعة العلميَّة ليست متعلّقة بذلك فحسب، بل هي مرتهنة قبل ذلك بسداد بصيرة طالب العلم وارتياض ملكاته بالعلوم والمعارف، فإنَّ سداد البصيرة وارتياض الملكات ذريعة إلى تحقيق العلم وحُسن التَّصرف فيه .. وحسن التَّصرفِّ في العلم هو إكسير التحقيق وجوهر الصّناعة العلميّة.

ولأنَّ العلم بتنُّوع أبحاثه وتشعُّب مسائله يحتاج من طالبه ليرتاض به أن يكون واعياً في تحصيله قبل أن يخطو بأقدام مشاريعه بعيداً على غير هدىً من الرأي وبيّنةٍ من الأمر، فقد أردفت آخره معارج ومواعظ علميّة منهجية وتربويّة بَعَضُ الفَوَائِدِ وَالنُّكَاتِ العِلمِيَّةِ للارتقاء بمستوى طالب العلم الشّرعيّ متوجهاً بسانح خاطري وبارحه إلى تصفح جملة من علائق الوعي التحصيلي، بعيدا عن الإغراق في رسوم الخطط ومباني البرامج، فجاءت ناظمة ما هداني إليه التأمل في هذا الباب، ودلتني عليه المطالعة، وساعفتني به يد المباحثة، مصدَّرة بالحب، مختومة بالدمع،

مضمَّنة القول في متعلقات التحصيل العلمي، من النظر في وسائل العلم، وغاياته، وأجناسه، ومدارج تحصيله، بما يمثِّل مجموعه مقدمة في الوعي، ومبتدأً لارتياض العلوم .. مُذاكِراً بها إخواني من طلبة العلم، رجاء الظَّفر بما يحصل به للنفس ارتياح، وللعقل ارتياض، والله وحده المؤمل، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

والحمد لله ربّ العالمين

اللهم انفع بهذا الكتاب:

واضعه، وقارئه، وسامعه، وناشره

آمين يارب العالمين

كتبه وجلاً، وحرره خجلاً

الفقير إلى ربه

أحمد بن عصام بن عبد الرحمن مخلوف

مقرئ بالقراءات العشر وباحث في الدراسات القرآنية والعلوم الشرعية واللغوية

مدير مركز غراس الراسخين للدراسات القرآنية والعلوم الشرعية

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

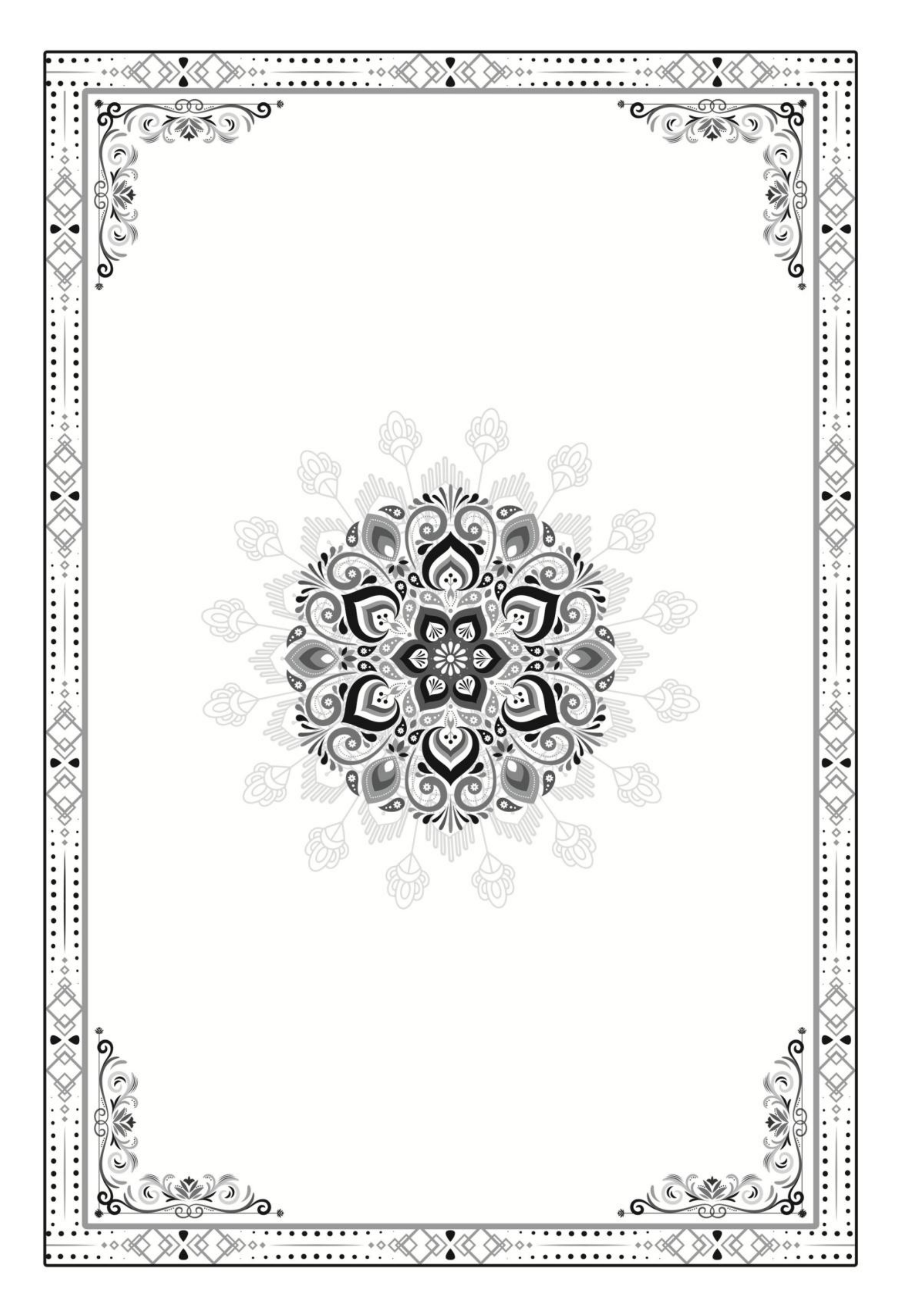
غرة ذي القعدة ١٤٤١هـ.

ahmdbnsambnbdalrhmnmkhlwf@gmail.com





الباب الأوّل



البَابُ الأَوَّل

فَضْلُ

تَدَبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ





فَضْلُ تَدَبُّرِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

ما تقولون في فضل كتاب أنقذ الله به أمة من جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، دأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأوثان والحجارة، وديدنهم توارث العداوات والأحقاد، لا تعرف من الحق رسماً. نحلتها ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها، من آراء منحرفة، ونحل مخترعة، وملل مبتدعة، فأنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليهم هذا الكتاب فأنقذهم منها به، وانتشلهم به من أوحالها.

ما تقولون في فضل كتاب ختم الله به الكتب، وأنزل على نبي ختم به الأنبياء، وبدين ختمت به الأديان.

ما تقولون في فضل كتاب فتحت به أمصار، وجثت عنده الركب، ونهل من منهله العلماء، وشرب من مشربه الأدباء، وخشعت لهيمنته الأبصار، وذلت له القلوب، وقام بتلاوته العابدون، والراكعون، والساجدون.

ذلكم القرآن الكريم: (كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه)[٨].

ذلكم القرآن الكريم: كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناط به كل سعادة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

ذلكم القرآن الكريم: حجة الرسول الدامغة، وآيته الكبرى شاهدة برسالته، وناطقة بنبوته.

ذلكم القرآن الكريم: كتاب الإسلام في عقائده وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه وأخباره، وهدايته ودلالته.

---

(٨) (الموافقات) الشاطبي (٣/٣٤٦).

ذلكم القرآن الكريم: أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمحجة البيضاء التي لا يزغ عنها إلا هالك ... وإنَّ ذوق حلاوة القرآن على قدر طهارة القلب وزكاء النَّفس؛ فمن تطهَّر ذاق أكثر.

كتاب الله يهدي للَّتي هي أقوم في الأقوال والأعمال والأحوال، وهو موافق للعقل الصحيح والفطر المستقيمة، فكلّما ازداد إقبال العبد عليه؛ زاد عقله، وتفتَّق ذهنه، وقوي حفظه وفهمه؛ وإنَّ من الأدويةِ النَّافعةِ لإذهاب النِّسيان كثرةُ ذِكرِ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ فإنَّ العبدَ إذا لازم ذكرَ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولَهَجَ به لسانُه؛ كان ذلك من أعظم ما يَنفي عنه داءَ النِّسيانِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال:﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴿٢٤﴾﴾ (الكهف: ٢٤)، فلذة مناجاة اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والأنس به لمن أقبل على الله بصدق وإخلاص هي لذة يجدها المؤمن في قلبه وجوداً يُحس به، فما تلذذ المتلذذون بمثل مناجاة الرب جَلَّ جَلَالُهُ، وأعظم ذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ: قراءة القرآن، فمِن جزاء قارئه: أن يوفقه الله إلى تنمية قُدَره العقلية، فالقرآنُ كلامُ الله لا أعلى ولا أحلى من إجرائه على الألسنة، وقديماً قيل: كلامُ الملوكِ مُلوكُ الكلام فكيف بكلام ملِكِ

الملوك جَلَّجَلَالُهُ، فالقلوب في وحشةٍ ما لم تأنس بالله وذكره، فانفوا عنها وحشتها بتعريفها بربِّها والإكثار من ذكره، فالقلب وعاءٌ مغطًى، والأعضاء تستخرج ما فيه، فما يبدو منها من خيرٍ أو شرٍّ يكشف عن مكنون قلب صاحبها، فأغيثوا قلوبكم بذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ،ولا تحبسوا عنها ماء الحياة، فصدور الخلق أوعيةٌ، وقيمتها على قدر ما يُستودع فيها، وأعظم ودائع الصَّدر: القرآن، قال اللهجَلَّجَلَالُهُ: ﴿بَل هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فى صُدورِ الّذينَ أوتُوا العِلمَ﴾، وقراءةُ القرآن بريدُ الأُنسِ باللهسُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن لا حظَّ له من القرآن فاته حظّ عظيمٌ من راحة روحِه..

وإنَّ تلاوة القرآن إنَّما هي إقامة لحجة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على المرء، حيث بلغه كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ووقف على آياته وتوجيهاته، ولا تزال تلك الحجة قائمة عليه حتَّى يستجيب لأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكامن في آياته، ولن يصل إلى دلالات تلك الآيات ويعرف مضامينها حتى يشغل عقله بتدبر تلك الآيات، ويُعمل ذهنه لاستشراف معانيها ومعرفة أبعادها ومراميها، وتتبع حكمة الله في آياته وكلماته.

ومن خلال ذلك التأمل يشعر المرء بلذة التِّلاوة وجمال القراءة، ويقف على إبداع النظم وبلاغته، وجمال التوجيه وبراعته، وجمال

المقاصد وحسنها، فما يملك إلا أن ينقاد إلى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه، وكونُ النظر في المصحف عند القراءةِ عبادةً يُرتَّبُ عليها الأجرُ قد رويت فيه أحاديثُ ضعافٌ لا تصح، لكنَّ القراءةَ في المصحف أفضلُ من القراءة بالحفظ؛ لعمل السلفِ بذلك، فإنه لم يُنقلْ عنهم خلافٌ، كما نصَّ عليه النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سِفْرِهِ النَّفيس (**التبيان في آداب حملة القرآن**)، فالقراءةُ في المصحف للحافظ أفضلُ من قراءته مِن حِفظه، كذلك يثاب المرء على استماع القرآن، ومن ازداد له استماعاً ازداد منه نوراً، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾، ويُروى عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (من استمع آية من كتابِ الله؛ كانت له نوراً يوم القيامة)..

ويتضح مما مضى أن القرآن لا تنفك تلاوته عن تدبر آياته، وتدبر الآيات يحمل النفس على الاستجابة والانقياد لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكل منها يأخذ بذيل سابقه، فالتلاوة نفود إلى التدبر، والتدبر يحمل على التَّذكر والاتّعاظ، والتَّذكر يحمل النفس على الاستجابة والانقياد، وهنا

يكمن مقصود الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في ذلك ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ (ص :٢٩).

وليس يخفى مقام التدبر وفضله، بل وضرورته لقارىء القرآن، لكننا بحاجة اليوم للخطوات العملية لإحياء ذلك الرابط في قلوب الناس وتربيتهم عليه، فما زلنا لم نوفِ التَّدبُّر حقَّه، مع أنَّه هو المقصود الأعظم من هذه الواجبات، قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٩١١هـ) : " وتسنُّ القراءة بالتَّدبُّر والتَّفهُّم؛ فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهمّ، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب" (٩)، وهو الفرق بين صدر هذه الأمة وآخرها.

قال محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " تدبُّر القرآن واتِّباعه هما فرق ما بين أوَّل الأمَّة وآخرها، وإنَّه لفرق هائلٌ؛ فعدم التَّدبُّر أفقدنا العلم، وعدم الاتِّباع أفقدنا العمل، وإنَّنا لا ننتعش من هذه الكبوة إلَّا بالرُّجوع إلى فهم القرآن واتِّباعه، ولا نفلح حتَّى نؤمن ونعمل الصالحات.

---

(٩) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢٨٣/١

إن فهم القرآن - كلام الله - ليس صعباً أو مستحيلاً، وليس في الإسلام فئة معيَّنة أو جماعة متخصصة بتفهيم القرآن للآخرين وتوضيح ما يرشد إليه من دلالات، لا يحق لغيرهم الغوص في معانيه؛ وإنما القرآن نفسه الكتاب المفتوح أمام الجميع، الممتع في قراءته وعرض بدائعه، وهو المدرسة التي من شروط الالتحاق بها أن يملك الإنسان أولاً وقبل امتلاك اللسان العربي، وقبل إتقان الألفاظ والعبارات - أن يحمل قلباً حيّاً - ، لديه آليات عمل فعّالة، فيتخرج الرَّبَّانيُّون من تلك المدرسة، كلٌ حسب تخصُّصِه العلميّ أو المهنيّ.

ولا يعني هذا أن ليس للعلماء المتخصصين دور في تذكير الناس وزيادة تفهيمهم لمعاني وأحكام القرآن، وإنما المقصود أنَّ هذا القرآن ميسرٌ للفهم، وكل مسلم يستطيع بما حباه الله من قلب وعقل أن يتحصَّل على معارف وكنوز القرآن، وأن يتأثر بإرشاداته وتوجيهاته.

يحيا البدنُ بلُقْمةٍ وماءٍ ويحيا القلبُ بالنُّورِ المُنْزلِ من السَّماءِ فأصلحْ قلبَك لِكيلا تُحرَمَ فهمَ القُرآن، فمَن امتلأَ قلبُهُ بالقُرآن فَهْمًا، وعِلمًا، وعَمَلًا، وقَبولًا، وانقيادًا، دلَّه القرآنُ إلى الجنَّة؛ فكان إمامَه، وقائدَه، إليها – جَعَلَنا اللهُ وإيَّاكم من أهلِها– ،وقد صحّ عن ابن مسعود

رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فيما رواه ابن أبي شيبة رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره أنه قال: (من أراد العلم فلْيُثوِّر القرآن فإن فيه علمَ الأولين والآخِرين).

وقال أيضا: «إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»(١٠).

قال شمر: تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه(١١).

فجميع العلم في القرآن لكن الناس تتفاوت فيه بحسب ما يفتح الله عليهم من الفهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فإذا أكثرت قراءة القرآن تَبَيَّن لك من المعاني مالم يظهرْ قبلُ، وكان العلّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ إذا أراد التفسير قرأ الوجه الواحد أكثر من مائة مرة! .. وقد سُئل الشيخ عبدالرحمن الدوسري -رَحِمَهُٱللَّهُ- عن آلة التفسير فقال: آلةُ التفسيرِ فَرحُ المُفسِّر بالقرآن.اهـ .

---

(١٠) حلية الأولياء ١/١٣١.

(١١) ينظر تفسير القرطبي ١/٤٤٦.

والفرح ينشأ من محبة القرآن وإجلالِه وإعظامِه، فمن لم تُحط به اللَّطائف الإلهيَّة؛ لم تنفعه الأسباب الماديَّة، فجاهد فيه يهدِك، وكن معه يكن معك، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.. فإذا قرأتَ القرآن مع فرحك زاده، وإذا قرأته مع حزنك أزاله، وإذا قلَّبت نظرك في جلاله وجماله، ووعيده ووعده، عظُم خوفك، وحسُن رجاؤك، وقوي حبُّك، أنت به الآمن بلا حرسٍ، والغنيُّ بلا مالٍ، تعلو على كلِّ متكبرٍ، وتلين مع كلِّ متواضع، فأهله أهل الله، وطوبى لمن والاه، فحرّكوا قلوبكم إليه، واجمعوا نفوسكم عليه؛ اغتناماً للأرباح، وتنشيطاً للأرواح، في قراءته وحفظه، وفهمه ودرسه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾﴾.

القرآن راحة الرُّوح، وروضة النَّفس، وربيع القلب، ونور الفؤاد، وحلاوة المنطق، وطيب الأنفاس ... قل فيه ما شئتَ فهو كلام الله، فلن تبلغ في وصفه مداه، واستمسك به فهو حبل الوصل به لمن ابتغاه؛ فبه تزكو النُّفوس، ويُدرك العمل، ويبدأ الإصلاح، ويُنال خير الدُّنيا والآخرة، وقد أُنزل على محمَّدٍ ﷺ ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾ ؛ تثبيتًا له حالًا، وتبشيرًا له مآلًا، فالخبر عن كونه

على الصِّراط المستقيم تحسينٌ لما هو عليه في الدُّنيا من الحال، وتعظيمٌ لما سيكون عليه في الآخرة من المآل، وهو خيرٌ له ولأُمَّته، ومن أعظم ما يُرسِّخ قدمك على الحق، ويُثبِّتُك عليه دوامُ لهجك بالقرآن تعلمًّا وتعليمًا، وقد ذَكَرَ اللَّهُ عَظَمةَ القرآن في قوله جَلَّجَلَالُهُ :﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، ثمَّ أتبعه الخبر عن نفسه بجملةٍ من أسمائه الحسنى، لا نظير لتتابعها في غير هذا الموضع من القرآن؛ لأنَّ جلالة المتكلِم تُعرِّف الخلق بجلالة ما تكلَّم به؛ فمن وقرت في قلبه معرفة الله عرف عظمة كلامه، وعرف ثِقله الذي يتصدَّع به الجبل من خشية الله؛ كما قال جَلَّجَلَالُهُ : ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾، واحتملته قلوب المؤمنين مع ثِقَلِه؛ لأنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ خفَّفه عليها بتيسيره، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾، وأيم الله إنَّ فيض الدَّمع لحضور خشية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القلب يغسل درنه، ويكشف عنه غفلته، فسفر القلب أرفع مقامًا من سفر القدم، الذي يمنع العبد طعامه وشرابه ونومته، وأشرف أسفاره سفره في مرابع القرآن والسُّنَّة، فمن هاله تراكض الخلق في سفر الأقدام؛ فليعجب من غفلة أكثرهم عن

سفر قلوبهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم، فما أسعد من بكت عيناه خشيةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإنَّ أفضل التِّجارة: التِّجارة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي أيسرها رأس مالٍ، وأكثرها أنواعًا، وأعظمها أرباحًا، وأدومها نفعًا في الدُّنيا والآخرة، فاتَّجروا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في فعل محبوباته؛ كالإيمان والصَّلاة والعلم والذِكر وقراءة القرآن والدُّعاء والجهاد والصَّبر، فالأيَّام غِربالٌ، والأحوال تُميِّز الأحكام، فطول المدَّة وحدوث الوقائع يُظهر كمائن النُّفوس، ويكشف حقائق المدسوس، فيتبين الحسن من القبيح، والحقُّ من الباطل، والسَّعيد من ثبَّته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الهدى، وجنَّبه الفتن وإنَّ من ترك ما تعسَّر أهمل ما تيسَّر، وإنَّما تبنى قوَّة النَّفس شيئًا فشيئًا بالإقدام على المعالي وإن شقت، فإذا أحجمت عمَّا يصعب عليها؛ لم تُفلح في حفظ ما وصل إليها، رُبَّ عِبرةٍ في عَبرةٍ، وربَّ عَبرةٍ من عِبرةٍ، فالعِبَر والعَبَرات تكون أحيانًا أبلغَ من العِبارات؛ فاعتبروا يا أُولي الأبصار واغتنموا حياتكم؛ بتكثير الحسنات قبل مماتكم، فقد ودَّ أهل القبور؛ لو قدروا على تسبيحةٍ تزيد في الأجور، وإنّ منزلة عمرك هي رتبة عملك، فقيمة الأعمار على قدر قيمة الأعمال، فإن اتَّسع لك الزَّمن،

وصحَّ منك البدن، فاغتنم فراغك وصحَّتك فيما تجد منفعته عاجلًا وآجلًا، فالزَّمن يذهب، والبدن يضعف، وأنت بما كنتَ عليه تُعرف:

إنَّما المرءُ حديثٌ بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى

،ومن كانت له غايةٌ يطلب الوصول إليها لم يلتفت وراءه، كي لا يضعف سيره، فتذهب قوته، فكم قيل لأحدنا - في أمر دنياه -: لا يَفُتْك كذا وكذا، فمن وجدته يقول لك - في أمر آخرتك-: لا يَفُتْك كذا وكذا، فالزمه، فإنَّه أتمُّ عقلًا، وأصدق نصحًا، فلا يفوتنَّكم هؤلاء، فإنَّهم العقلاء النَّاصحون، وأيم الله إن وجدنا بقلوبنا عُشر ما تذكره ألسنتُنا من حميد الأحوال وجميل المقامات فنحن سعداء، عاملني الله وإياكم بفضله ورحمته.

فضائل القرآن الكريم

فضل القرآن ومكانته لا يدانيه فضل، ولا تسموا إليه مكانة، فضائل كثيرة لاتعد ولاتحدّ، لست بصدد حصرها، فضائل عامة، وفضائل خاصة لبعض سوره وآياته، ولا شكَّ أنَّ النصوص الشرعية جاءت دالة على الاعتناء بالقرآن الكريم، اعتناء خاصاً بغرض الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه والمشي خلفه، من خلال اتباع منهج خاص في التعامل مع القرآن الكريم : تلاوة وتدبرا، وإنّ الوقوف على ما ورد في فضائل الآية أو السورة التي يراد تفسيرها من الأهمية بمكان لأنه يبين لك عن قدرها عند الذي أنزلها، فليست أم القرآن كغيرها، ولا السورة التي تعدل ثلث القرآن كالسورة التي لم يرد فضل خاص بها.

ولذا قلما مصنف جامع للأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة إلا ويكون من أبوابه كتاب أو أبواب في فضائل القرآن وسوره، فالبخاري في الصحيح وضع كتابا كاملاً في «فضائل القرآن»، وكذا مسلم في صحيحه وضع أبوابا في «فضائل القرآن»، لكنه في المطبوع ضُمّن في

كتاب «صلاة المسافرين»، وكذا الترمذي وضع كتاباً كاملا في «فضائل القرآن»، وغيرهم كثير.

وكذا من صنف في التفسير بالمأثور يذكرون مع تفسير كل سورة ما ورد في فضلها كابن جرير والبغوي وابن كثير وغيرهم، وللسيوطي كتاب حافل جامع أسماه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، بل هناك مصنفات كثيرة مستقلة في الباب[١٢]، لكن فيما ذكروه يوجد الصحيح والضعيف، ومن أجود المصنفات جمعا وتحقيقا:

---

(١٢) منها:

(أ) «فضائل القرآن» للفريابي جعفر بن محمد. مطبوع.

(ب) «فضائل القرآن» لأبي عبيد القاسم بن سلام. مطبوع.

(ج) «فضائل القرآن» لابن كثير. مطبوع عدة طبعات.

(د) «فضائل القرآن العظيم:» للضياء المقدسي. مطبوع.

(هـ) «لمحات الأنوار ونفحات الأزهار وري الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قاريء القرآن» للغافقي. مطبوع وهو كتاب كبير لكنه جمع ولم يفتش.

١) « موسوعة فضائل سور وآيات القرآن» للشيخ/ محمد بن رزق بن طرهوني، وهو كتاب مفيد.

٢) «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» (دراسة ونقد) لـ د. إبراهيم علي السيد. وأصله رسالة دكتوراه ثم طبعت، وهو كاف في الباب.

وأجود ما وقفت عليه في الباب هو هذا الأخير، لأنه توسط في حكمه على الأحاديث والآثار في باب الفضائل، فلم يتساهل في الموضوعات والمناكير لأنًّا في الفضائل كحال كثير من المتقدمين ممن ليس من أهل التمييز بين المطروح والمقبول.

وأيضا لم يتشدد كحال كثير ممن يشتغل بعلم التصحيح والتضعيف في هذا الزمان، ممن خالف طريقة أئمة المحدثين فأمر بطرح كل حديث ضعيف والاكتفاء بالصحيح أو الحسن، وزعم أن هذا هو المتعين لاغير، ولم يفرق بين الوارد في الفضائل والوارد في المسائل من الحلال والحرام، فأداه هذا إلى تغليط منهجهم أو مخالفة طريقتهم في هذا الفن الدقيق، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة قريبا بإذن الله.

ومع جودة هذا الكتاب وجليل فائدته، إلا أنه يؤخذ على المؤلف -وفقه الله- طريقته في دراسة أحوال الرجال، فإنه ينقل أقوال الأئمة في الراوي ويمر عليها مروراً عجلا ثم يحكم بما بدا له، ولا يدرسها دراسة فقيه بهذا الفن عالمٍ بدقائقه.

أكتفي هنا بذكر ومضات من فضائله العامة علَّ فيها المراد.

فَضَائلُ القُرآنِ الكَرِيمِ العَامَّة:

ورد في فضله وفضل أهله الكثير من النصوص الشرعية.

قال ابن برّي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في الدرر اللوامع:

وقد أتت في فضله آثار ليست تفي بحملها أسفار

أما فضائله العامة، فقد وردت في آيات عديدة وأحاديث كثيرة الإشارة إلى ذلك، ولاشك أن القرآن الكريم قد أشاد بكل الألفاظ والصيغ التي جاءت في إطار التدبُّر والتأمل، بما يفيد الأمر والترغيب فيه، فمن القرآن ننهل أصدق الأوصاف لفضله، وأوفاها لحقه، فمن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة:٢)، وهي أول جملة بعد الفاتحة يقرأها المسلم في القرآن، ولك أن تسيح في استكناه المراد بذلك.

ومن فضل القرآن في القرآن: أنَّ عد إنزاله في شهر مزية كبرى لهذا الشهر، فما ظنكم بالمنزل نفسه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ

ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ (البقرة: ١٨٥).

وعلق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الرحمة عند تلاوة القرآن بالاستماع إليه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ (الأعراف:٢٠٤).

ووصفه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالعظمة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ (الحجر: ٨٧)، وبالهداية: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ (الإسراء:٩).

وأقسم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ به: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣﴾ (يس:٢ ، ٣)، وأمر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بتلاوته: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾ (النمل: ٩١-٩٢).

وبتدبره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: ٢٤)، وذمَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذين لا يسجدون عند تلاوته: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾﴾ (الانشقاق: ٢١)، وشهد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له بالسلامة من العوج: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الزمر: ٢٨)، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ (الكهف: ١).

فمن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (يونس: ٥٧).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩)

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (الإسراء: ٩)

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ (فاطر: ٣٠،٢٩)

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ (ص: ٢٩).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ (الشورى: ٥٢).

وغير ذلك من الآيات الدالة على فضل القرآن الكريم.

بل إنه لكثرة فضائل القرآن تعددت أسماؤه وصفاته، وورد في القرآن كثير من ذلك، وسبق الحديث عن ذلك.

فهل رأيتم فضلاً أكبر من هذا، ومنزلة أعظم من هذه المنزلة، يتبوأ عليها القرآن مستحقاً.

هذا بعض فضل القرآن عند منزله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما فضائله التي جاءت على لسان مبلغه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكثيرة، فقد كانت للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع تدبر القرآن الكريم أحوال عالية وراقية، سجلتها سيرته العطرة وسنته الطاهرة ﷺ، كيف لا ؟! وهو القدوة والأسوة الحسنة للبشرية قاطبة وإلى يوم الدين، في جميع حركاته وسكناته، وبالخصوص في تعامله مع القرآن: تلاوة واستماعاً وتدبراً، ولم ترد أحاديث صريحة مرفوعة للنبي ﷺ تأمر بتدبر القرآن الكريم، ولكن هناك بعض الأحاديث التي تدل على اهتمامه ﷺ بسماع القرآن الكريم وتأثره به وترديده للكثير من الآيات القرآنية، من أجمعها الحديث الذي رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو

الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا:﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ (الجن: ١-٢)، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"[١٣]، وروى عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: " إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر

---

(١٣)رواه الترمذي (٢٩٠٦) وقال: إسناده مجهول وفي الحارث مقال. وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/٤٣): لا ينبغي أن يعول عليه. وقال المزي في ((تهذيب الكمال)): [فيه] أبو المختار الطائي قال علي بن المديني لا يعرف وقال أبو زرعة لا أعرفه.

حسنات، أما أني لا أقول: ألم حرف، وَلَكِنْ بِأَلِفٍ وَلَامٍ وَمِيمٍ" [١٤] .

وفي سنن الدارمي | وَمِنْ كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ. | بَابٌ : فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ. الجزء رقم :٤، الصفحة رقم:٢٠٨٣

٣٣٥٠ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ حَازِمٍ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، حَدَّثَنَا أَبُو سِنَانٍ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللَّهِ ، فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَصْفَرَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ، وَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ خَرِبٌ كَخَرَابِ الْبَيْتِ الَّذِي لَا سَاكِنَ لَهُ.

---

(١٤)رواه الدارمي في ((سننه)) (٣٣١٥)، قال الذهبي في ((ميزان الاعتدال)) (٦٦/١): [فيه] إبراهيم الهجري [ضعفه غير واحد]. وقال ابن كثير في ((فضائل القرآن)) (٤٦): غريب من هذا الوجه وإنما هو من كلام ابن مسعود ولكن له شاهد من وجه آخر. وروى الترمذي حديثاً بلفظ (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وصحح إسناده الإشبيلي في ((الأحكام الصغرى)) (٩٠١) - كما أشار لذلك في مقدمته -. وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)): صحيح.

تعظيم القرآن الكريم

أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، ففي سنن ابن ماجه | الْمُقَدِّمَةُ | بَابٌ : فَضْلُ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرآنَ وَعَلَّمَهُ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: " إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: " هُمْ أَهْلُ الْقُرآنِ : أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ ".

إنَّ ذكر الفضل والخير للتشويق أسلوب نبوي تربوي يحفز الهمم ويحرك النفوس، فعلى قدر قربك من كتاب اللَّه، تنال الخيرية بالقرب من اللَّه، فهذا القرآن أنزل لعموم الناس، لم يختص بجنس ولا لون، تتجلى عظمته بشمول فضله لأهله والعاملين به؛ فخصص لك وقتاً مع القرآن كل يوم؛ حفظاً أو تلاوة أو تدبرا، لتكون من أهل اللَّه وخاصته، واحرص على أن تكون رفقتك وجلساؤك من أهل القرآن، لتنال الخيرية والفضل.

القرآن شفيع لأصحابه يوم القيامة، ففي صحيح مسلم | كِتَابٌ: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعُ الصَّلَاةِ | بَابٌ : فَضْلُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ

.. حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: " اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ ".

قَالَ مُعَاوِيَةُ : بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ : السَّحَرَةُ.

(...) وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، أَخْبَرَنَا يَحْيَى - يَعْنِي ابْنَ حَسَّانَ - حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ، بِهَذَا الْإِسْنَادِ، مِثْلَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: وَكَأَنَّهُمَا فِي كِلَيْهِمَا. وَلَمْ يَذْكُرْ قَوْلَ مُعَاوِيَةَ : بَلَغَنِي.

القرآن صاحبٌ وفيٌّ، فأحسن صحبته في الدُّنيا، يحسن إليك في الآخرة بشفاعته لك، فالصحبة الحقيقية ليست ادِّعاءً، وإنما عملٌ وعطاء، وهي مع القرآن قراءةٌ وعمل؛ فاجعل لنفسك ورداً يومياً من

القرآن الكريم، وليكن لك في كلِّ يومٍ مجلسٌ ولقاءٌ مع القرآن، قراءةً ونظراً وتدبراً وعملاً، وأطل جلوسك مع القرآن، فطول جلوسك معه يورث المحبة والألفة.

إنَّ من إجلال اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **إكرام حامل القرآن،** ففي سنن أبي داود | أَوَّلُ كِتَابِ الْأَدَبِ | بَابٌ : فِي تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ ".

من تعظيم القرآن التَّوسُّط في الآخذ به دون غُلُوّ أو جفوّ، وإنَّ من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعظيم كلامه، ومن تعظيم كلامه إجلال حامله، والغلو والجفو مفسدٌ لهما، فعظِّم القرآن وارفعه إلى المكانة اللَّائقة به، واحرص على التَّوسط والاعتدال في أخذ القرآن وقراءته والعمل به، ولا تهجر القرآن وتلاوته، فإنَّ ذلك من الجفاء.

القرآن يرفع صاحبه، ففي صحيح مسلم | كِتَابُ : الْمَسَاجِدُ وَمَوَاضِعُ الصَّلَاةِ | بَابٌ : فَضْلُ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ وَيُعَلِّمُهُ

عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ : أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ : مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي ؟ فَقَالَ : ابْنَ أَبْزَى. قَالَ : وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى ؟ قَالَ : مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ : فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى ؟ قَالَ : إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ : أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ ".

(...) وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَا: أَخْبَرَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ وَاثِلَةَ اللَّيْثِيُّ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ الْخُزَاعِيَّ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ، بِمِثْلِ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ.

عظمة القرآن تتجلى في أنَّه رفعة لحامله والآخذ به في الدُّنيا والآخرة، فأنت ترفع من شأنك وتقوي من مكانتك عندما تكون مع القرآن؛ لأن ميزان القُوى الحقيقي في الأخذ بالقرآن، فكن مع القرآن

تكن في أمان، وليكن القرآن سُلَّم نجاحك ورقيّك في الدنيا والآخرة، والزم أهل القرآن وصاحبهم فهم أهل الرفعة.

السَّكينة تتنزَّل عند تلاوة القرآن، ففي صحيح البخاري | كِتَابٌ : فَضَائِلُ الْقُرآنِ | بَابُ فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ.

وفي صحيح مسلم | كِتَابٌ : الْمَسَاجِدُ وَمَوَاضِعُ الصَّلَاةِ | بَابٌ: نُزُولُ السَّكِينَةِ لِقِرَاءَةِ الْقُرآنِ

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو، وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ : " تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرآنِ ".

شعور قارئ القرآن بقرب الملائكة يعطيه الطمأنينة والسكينة ومعيَّة الرحمن، فالقرآن دواء وبلسم شاف للقلق والخوف من المستقبل، وقراءته في البيت سبب لطمأنينة وسكينة أهله؛ فليكن لك مع القرآن في بيتك وقت تخلو به، واعمر بيتك بالطمأنينة والوقار بقراءتك للقرآن.

عِظَمُ أَجرِ تلاوة القرآن، ففي سنن الترمذي | أَبْوَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ | بَابٌ : مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ مَالَهُ مِنَ الْأَجْرِ.

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ : الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ ". وَيُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَرَوَاهُ أَبُو الْأَحْوَصِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ بَعْضُهُمْ، وَوَقَفَهُ بَعْضُهُمْ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. سَمِعْت قُتَيْبَةَ بْنُ سَعِيدٍ يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ وُلِدَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ يُكْنَى أَبَا حَمْزَةَ.

من عظمة القرآن أنَّه كنز للحسنات، فللقارىء بكلِّ حرفٍ من كلام الله يتلوه حسنة مضاعفة وهذا من سعة رحمة الله، حيث يضاعف للعباد الأجر فضلاً منه وكرماً، فاقرأ القرآن، فقراءتك له زيادة في حسناتك، ولتستشعر أثناء قراءتك للقرآن أنك تجمع الحسنات.

من تعظيم القرآن ختمه بفقه، ففي سنن أبي داود |كِتَابُ الصَّلَاةِ | أَبْوَابُ قِرَاءَةِ الْقُرآنِ، وَتَحْزِيبِهِ، وَتَرْتِيلِهِ | بَابٌ : فِي كَمْ يُقْرَأُ الْقُرآنُ ؟

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهُ: "اقْرَأِ الْقُرآنَ فِي شَهْرٍ". قَالَ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: "اقْرَأْ فِي عِشْرِينَ". قَالَ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: "اقْرَأْ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ". قَالَ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: "اقْرَأْ فِي عَشْرٍ". قَالَ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: "اقْرَأْ فِي سَبْعٍ، وَلَا تَزِيدَنَّ عَلَى ذَلِكَ".

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَحَدِيثُ مُسْلِمٍ أَتَمُّ.

وفي صحيح البخاري |كِتَابٌ: فَضَائِلُ الْقُرآنِ| بَابٌ: فِي كَمْ يُقْرَأُ الْقُرآنُ ؟

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "اقْرَأِ الْقُرآنَ فِي شَهْرٍ". قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. حَتَّى قَالَ: "فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ ".

تتجلى شفقة النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ورفقته بأمته في هذا الأثر، فليحرص معلم القرآن على الشَّفقة بأخذه والرفق به، وإنَّ من تعظيم

القرآن ديمومة الاتصال به وعدم الانقطاع عنه، ومن كمال تعظيم القرآن فهم ألفاظه ومعانيه، وختمه في شهر وذلك أضعف الإيمان، فصاحب القرآن ذو همَّة عليَّة ونفس أبيَّة مع القرآن، فاحرص عند تلاوتك للقرآن على تدبره وفهم معانيه، وليكن لك ختمة معلومة على قدر استطاعتك.

فضيلة البيت الذي يُقرأُ فيه القرآن ثابتة بالآثار، ففي سنن الدارمي [وَمِنْ كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ. [بَابٌ: فَضْلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ.

أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْبَيْتَ لَيَتَّسِعُ عَلَى أَهْلِهِ، وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ؛ إِنْ يُقْرَأْ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ، وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ؛ إِنْ لَا يُقْرَأْ فِيهِ الْقُرْآنُ.

صدق وربي فقراءة القرآن في البيت تشرح الصدور وتوسع الدُّور، وعدم قراءة القرآن في البيت سبب لهجر الملائكة له، وحضور الشياطين فيه، ومحق البركة منه، فمن عظمة القرآن أنَّه سبب لحلول البركة والخير في البيوت، وحضور الملائكة فيها، فاجعل لك ورداً يومياً من القرآن؛ في البيت خاصَّة، واتَّجه إلى القرآن إذا رأيت باب المشكلات في بيتك

يزداد، فإنَّه العلاج، وأوص أهلك وولدك بقراءة القرآن في البيت، يتَّسع عليكم، وتحلُّ البركة فيه.

ومالنا والإطناب في فضل القرآن ليكفنا - وحسبنا ذلك قول الرسول ﷺ: " خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ "(١٥).

فكما فاض فضل القرآن فعمَّ الشهر الذي أنزل فيه فصار أفضل الشُّهور، والليلة التي أنزل فيها فصارت أفضل الليالي، فقد عمَّ فضله أيضاً على الناس فصار خيرهم من تعلمه وعلمه.

وتكلَّم النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإرشاد إلى تدبر القرآن، عما كان عليه السلف من أحوال فقال : " وقد كانت للسلف عادات مختلفة فيما يقرؤون كل يوم، بحسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم : فكان بعضهم يختم القرآن في كل شهر، وبعضهم في عشرين يوما، وبعضهم في عشرة أيام، وبعضهم أو أكثرهم في سبعة، وكثير منهم في ثلاثة ... والمختار أنه يستكثر منه ما يمكنه الدوام عليه، ولا يعتاد إلا ما يغلب على ظنه الدوام عليه في حال نشاطه وغيره، هذا إذا لم تكن له وظائف عامة أو خاصة

---

(١٥) رواه البخاري (٥٠٢٧).

يتعطل بإكثار القرآن عنها، فإن كانت له وظيفة عامة كولاية وتعليم ونحو ذلك، فليوظف لنفسه قراءة يمكنه المحافظة مع نشاطه وغيره، من غير إخلال بشيء من كمال تلك الوظيفة، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف"[١٦].

قال الشاطبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في إحدى نفائس منظوماته " حرز الأماني ووجه التهاني " الموسومة بـ " الشاطبية " :

ومن شغل القرآن عنه لسانه ينل أجر خير الذاكرين مكمَّلا

يسعى الإنسان في جميع شؤونه الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة، وغيرها من جوانب الحياة، ولا يوجد كتاب يفي بجميع هذه المتطلبات، ويهدي لأحسنها إلا القرآن الكريم، فمن كان معه القرآن العظيم فقد أُعطي أعظم نعمة، فلا يليق به أن يلتفت إلى متاع الدُّنيا، وهذا الاستغناء بالقرآن أعظم ما يحققه تدبر القرآن، فالتَّدبُّر من الأسباب الجالبة لمحبَّة الله تعالى، وهو من صفات أهل العلم، وبه تدرك

(١٦) شرح صحيح مسلم، للنووي ٤/١٧٠

لذة القرآن، وهو دواء القلب من أمراضه، ولقد صنَّف العلماء في الإعجاز التشريعي في القرآن ما يجلِّي هذا ويقرره.

مقاصد قراءة القرآن خمسة:

١. الثواب :

فكل حرف من القرآن في قراءته عشر حسنات، وتتنزل الرحمات، ويحصل الثبات، كل ذلك وغيره من الثواب العظيم.

٢. المناجاة:

أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة ﵁ ،أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أذِن اللَّه لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يجهر بالقرآن»(١٧)، ومعنى: «أذِن» أي: استمع. وأخرج ابن ماجه، عن فضالة بن عبيد، قال: قال رسول الله ﷺ: « للَّه أشد أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته»(١٨)، وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن البياضي أن رسول الله ﷺ خرج على الناس

---

(١٧) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٤٤) ،ومسلم (٧٩٢)

(١٨) سنن ابن ماجه (١٣٤٠)

وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: «إن المصلي يناجي ربه ﷻ فلينظر ما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن»[١٩]، وعن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: سألت سفيان الثوري، قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة أي شيء ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: «ينوي أنه يناجي ربه»[٢٠].

هذا الكتّاب الذي من قام يقرؤه   كأنما خاطب الرحمن بالكلم

٣. الشفاء:

في القرآن الشفاء من جميع الأمراض: البدنية، والنفسية، والمعنوية؛ كالسحر والعين والمس، وأمراض القلوب، كمرض الشبهات ومرض الشهوات؛ قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾، قال ابن كثير: «﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، أي: من الشبَه والشُّكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنَس، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾؛

---

(١٩) مسند أحمد بن حنبل (١٩٠٢٢)،وصححه أحمد شاكر.

(٢٠) تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، (ج: ١٩٩ /١).

أي: محصلٌ لها الهداية والرحمة من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وإنما ذلك للمؤمنين به، والمصدقين الموقنين بما فيه»[٢١].

٤. الازدياد في العلم:

والقرآن ينبوع العلوم، ومن كثرة علومه أفرد العلماء فنًّا خاصا ليتتبعها وهو (علوم القرآن)، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: « إذا أردتم العلم فانثروا هذا القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين» اهـ[٢٢]، وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: «تعلَّم عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما أتمَّها نحر جزورا»[٢٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «والمقصود أن القرآن من تدبَّره تدبُّراً تاماً تبين له اشتماله على بيان الأحكام، وأن

---

(٢١)تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٤/ ٢٧٤).

(٢٢)أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٠١٨)، بلفظ: «من أراد العلم فليقرأ القرآن،» والطبراني في الكبير (٨٦٦٦)، بلفظ: «من أراد العلم فليثور القرآن...» والبيهقي في شعب الإيمان، (٢/ ٣٣٢)،بلفظ: «من أراد العلم فعليه بالقرآن...».

(٢٣)أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٧) ،من طريق مالك بن أنس، عن نافع. وإسناده صحيح.

فيه من العلم ما لا يدركه أكثر الناس، وأنه يبين المشكلات، ويفصل النزاع بكمال دلالاته وبيانه إذا أعطي حقَّه، ولم تحرَّف كَلِمُه عن مواضعه»(٢٤).

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

فتدبَّرِ القرآنَ إن رُمت الهدى   فالعلمُ تحت تدبُّرِ القرآنِ

وقال السيوطي ﷫: « وإن كتابنا القرآن لهو مفجّر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء وأبان فيه كل هدي وغي... »(٢٥).

٥. العمل:

قال ﷻ : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧ ﴾ (الأعراف)، وهو الثمرة الكبرى من الكتاب، قال الحسن البصري﵀:«وإنما تدبُّر آياته: إتباعه بعمله»(٢٦).

---

(٢٤) جامع المسائل لابن تيمية، (٢٥٦/ ١٥٦).

(٢٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، (١٨/ ١).

(٢٦) شعب الإيمان، البيهقي، (٥٤١/ ٢).

وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: قالﷺ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمُه سورة (البقرة) و(آل عمران) وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق[٢٧]، أو كأنهما حِزقان [٢٨]من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»[٢٩]، وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ: «أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[٣٠].

---

(٢٧)شرق: الضوء وهو الشمس. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، (٢/١١٤٣).

(٢٨)الحِزْق والحَزِيقة: الجماعة من كل شيء. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، (١/ ٩٤٨).

(٢٩)أخرجه مسلم (٨٠٥٥٧).

(٣٠)أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢٣٤٨٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: (إسناده حسن).

قال الإمام البخاري ﵀: «باب قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾؛ قال ابن عباس: ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾، ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ اعمل به»(٣١).

وقال الحسن البصري ﵀: «والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلَّه، وما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل»(٣٢).

وهذه المقاصد الخمسة كلها تتحقق بتدبُّر كتاب الله.

---

(٣١) صحيح البخاري، الإمام البخاري، (١٦٣/٦).

(٣٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٤٣/٤).

جهود العلماء في بيان فضائل القرآن:

العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من السلف والخلف اهتموا بهذا الموضوع اهتماما كبيرا، وكتبوا فيه وجمعوا فيه النصوص التي وردت في فضل القرآن، ويمكن أن نذكر أهمها كدليل لمن يروم النهل من هذا المعين الصافي.

ولقد اشتملت هذه الكتب فوق ما ذكر في فضائل القرآن، الحديث عن آداب أهل القران وأخلاقه.

١- "فضائل القرآن" لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ت **٢٢٤**هـ، وهو من كبار أئمة الإسلام، وهذا الكتاب نفيس، وهو من أهم وأشهر الكتب في هذا الباب، ويعتبر من أقدم كتب فضائل القرآن، وهذا الكتاب اشتمل على الكثير من الآداب والأخلاق التي ينبغي على صاحب القرآن أن يتحلى بها، وبعض المؤلفين والباحثين يرى أن هذا الكتاب هو أول كتاب صُنِف في علوم القرآن بمعناه الاصطلاحي، وأنه أسبق من كتاب "**فهم القرآن**" للحارث **المحاسبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ت **٢٤٣**هـ، لأن أبا عبيد القاسم بن سلام متقدم، وهو من

مشايخ الإمام أحمد، وأجود الذين حققوا الكتاب مروان عطية وتقي الدين وطبعته دار ابن كثير.

٢- "**فضائل القرآن**" **لأحمد بن شعيب النسائي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ت **٣٠٣**هـ، ملأه بالروايات الحديثية التي تتحدث عن فضائل القرآن.

٣- "**لمحات الأنوار ونفحات الأزهار وِري الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قارئ القرآن**" تأليف **محمد بن عبدالواحد بن إبراهيم الغافقي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ت **٦١٩**هـ، وهو من أوسع الكتب، في ثلاث مجلدات، وحققه الدكتور **رفعت فوزي عبدالمطلب**، هذا الكتاب اشتمل على كثير من الروايات الصحيحة والحسنة والضعيفة والموضوعة، لكن المحقق والمؤلف نبه على ذلك، خاصة في الأحاديث التي وضعت في فضائل سور القرآن، لكنه اشتمل على كثير من آداب وأخلاق أهل القرآن.

٤- "**التذكار في أفضل الأذكار**" للإمام **محمد بن أحمد القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن، وهو كتاب مشهور عند أهل العلم، ومن ضمن ما ذكر فيه أربعين بابا في فضائل القرآن وأهله،

وخصص لآداب حملة القرآن عدة أبواب، وهذا الكتاب مطبوع أكثر من طبعة.

٥- " **جمال القراء وكمال الإقراء**" للإمام **علم الدين علي بن محمد السخاوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وهو كتاب مشهور ومعروف، وهو مجموعة من الكتب في علوم القرآن، ذكر في أحدها فصلا تحدث فيه عن فضل حامل القرآن وآداب معلمه ومتعلمه، والسخاوي يعتبر من المتقدمين ت **٦٤٣هـ.**

٦- " **كتاب فضائل القرآن**" للإمام **الحافظ أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ت **٧٧٤هـ** ، وهذا الكتاب نفيس، فهو اشتمل على الكثير من الآداب والأخلاق التي ينبغي على صاحب القرآن أن يتحلى بها.

ومن الكتب المعاصرة:

٧- " **فضائل سور القرآن الكريم والأحاديث والآثار**" للدكتور **إبراهيم علي السيد عيسى**، ذكر فيه أكثر من خمس مائة حديث في

فضائل القرآن وأهله، وتحدث عنها من الناحية الحديثية، وهو كتاب نفيس ومتميز.

٨- "سنن القرآن ومناهج المجودين" للدكتور **عبدالعزيز بن عبدالفتاح القاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وهذا الكتاب جدير بأن يعاد طباعته، لأنه للأسف أظنه قد انتهى من المكتبات، وهذا الكتاب ثمين جدا في بيان سنن القرَّاء وما ينبغي على قارئ القرآن أن يلتزمه في تلاوة القرآن وتعامله، وهو يندرج تحت آداب أهل القرآن.

٩- "السنن المتعلقة بالقرآن الكريم" للدكتور **أحمد بن العبد الكريم**، كتاب قيم في هذا الباب.

١٠- "شرح مختصر أخلاق حملة القرآن للآجري" للدكتور **خالد بن عثمان السبت**، وهو كتاب جيد، فهو قد جاء إلى كتاب الشيخ **الآجري "أخلاق حملة القرآن"**، فحاول أن يختصره، وشرحه شرحا جيدا في هذا الكتاب، وأصله دروس علمية ألقاها شيخنا في مسجده ثم طبعت.

١١- "فضائل القرآن الكريم" للدكتور **عبدالسلام بن صالح الجار الله**، طبعة الدار التدمرية، وهو **كتاب** قيم في فضائل القرآن وتأصيلها.

١٢- " **جَمَال القُرَّاء، فصول في آداب أهل القرآن الكريم** **" د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحُمَيْضِي**، الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم، ومشرف مُلتقَى المؤتمرات القرآنية، طبعة دار ابن الجوزي بالمملكة العربية السعودية، يهدف الكتّاب إلى عدّة أمور، أهمها:

١) بيان الآداب العِلْمِيّة والسلوكية المساعدة على تربية قُرَّاء القرآن الكريم على آدابه وأخلاقه.

٢) عَرْض ذلك بأسلوب علمي سهل وواضح، مع رَبْطه بالواقع المعاصر.

٣) معالجة الأخطاء العلمية والسلوكية التي يقع فيها بعضُ القرّاء.

٤) مساعدة المعاهد والمدارس والدُّور والمؤسسات القرآنية على سدِّ الفراغ الحاصل في هذا الباب، من خلال إعداد دراسةٍ محرَّرة وافية فيه.

وقد أشار المؤلف إلى أن هناك دراسات كثيرة في هذا الموضوع، وأن الشيء الجديد الذي تحاول هذه الدراسةُ أن تضيفه: جَمْع هذه

الآداب، وتحريرها، وعرضها بأسلوب سهل يناسب أهل العصر، بحيث تصلح أن تكون مقررًا دراسيًّا في المعاهد والمدارس القرآنية، ومرجعًا سهلًا يقتنيه أهل القرآن وحُفَّاظه.

يشتمل هذا الكتاب على: **مقدمةٍ**، **وتمهيدٍ**، **وستَّةِ فصولٍ**، **وخاتمةٍ**.

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وخطته.

التمهيد: عرَّف فيه بالمراد بـ(آداب حمَلة القرآن الكريم).

الفصل الأول: عَنوَن له بـ(آداب حمَلة القرآن الكريم؛ أهميتها، وجهود العلماء في بيانها)، وجعله في خمسة مباحث؛ عرَض فيها لأهمية الآداب والأخلاق ومنزلتها في الشريعة، ثم أهمية العمل بالقرآن والتأدُّب بآدابه، وبيّن جهود العلماء في بيان آداب حمَلة القرآن الكريم، وقارَن ذلك بحال قُرّاء اليوم، وختمه بوسائل تربية القرّاء على آداب حملة القرآن الكريم.

الفصل الثاني: جاء عن (فضائل القرآن الكريم وحمَلته)، وفيه خمسة مباحث؛ أسَّس خلالها لمنزلة القرآن الكريم، وفَضْل تلاوته

وحفظه، وذكَّر بفضائل أهله في الدنيا والآخرة، ثم ألقاب حملة القرآن الكريم وصفاتهم، وفضل استماعه وآدابه.

الفصل الثالث: (آداب تلاوة القرآن الكريم)، وفيه اثنا عشر مبحثًا، عرَّف فيها بآداب تلاوة القرآن الكريم وأنواعها، كـ(الطهارة، السواك وتطييب الفم، استقبال القبلة، الاستعاذة والبسملة، سجود التلاوة، السؤال والتعوُّذ والتسبيح، الخشوع والبكاء، تجويد القراءة، التغنّي والترتيل، رَفْع الصوت بالقراءة، مراعاة أحكام الوقف والابتداء، الدعاء عند الختم).

الفصل الرابع: (آداب المصحف)، وفيه ثمانية مباحث، عرّف فيها آداب المصحف، وعناية الأُمّة به، ثم تحدّث عن تجزئة المصحف وتحزيبه، وذيَّل ذلك بتعظيمه واحترامه، وعرَض لحُكم الطهارة لِمَسّه، وفَضْل النظر فيه والنهي عن هجره، وكذا حُكم القيام له وتقبيله وتحليته وتطييبه، ثم ختم بأدب التعامل مع المصاحف المسجَّلة والحاسوبية.

أمّا الفصل الخامس فجعله في (آداب مُتعلِّم القرآن الكريم)، وفيه ثمانية مباحث، بدأها بفضل تعلُّم القرآن الكريم والاجتماع لمدارسته،

وضرورة الإخلاص والحذر من إرادة الدنيا به، والأخذ عن الشيوخ الأجلّاء المتقنين، واحترام المعلم وتوقيره، ومراعاة آداب مجلس التعليم، ثم عرَض لأدب القارئ مع أقرانه، وخصّ إتقانَ التلاوة والحفظ بالتفصيل، وكيفيةَ تعاهد القرآن وتحزيبه والقيام به.

الفصل السادس: عن(تدبر القرآن الكريم وفهمه)، وفيه خمسة مباحث؛ شرح فيها أهمية تدبر القرآن الكريم وفضله، ووسائل التدبر وموانعه. ثم أهمية علم التفسير وفضله، وحذَّر من القول فيه بغير علم.

ثم الخاتمة: وفيها أهم النتائج مع التوصيات.

هذا، والناظر في أحوال القرّاء في هذا الزمن يجد منهم مَن لم يلتزم بآداب حملة القرآن؛ بل همُّه منصرف إلى إتمام الحفظ، أو إتقان التلاوة فحسب، وربما وقع بعضهم في مزالق لا تليق بحامل القرآن.

والشكوى من هذه القضية ليست وليدة هذا الزمن؛ فقد ثبت عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين عتابُ قرّاء زمانهم ووَعْظُهم، وقد عرض المؤلِّف لهذا.

ولذلك ينبغي لأهل العلم -لا سيما المهتمين بتعليم القرآن الكريم- أن يُولُوا هذه المسألة عناية كبيرة، ويجتهدوا في إيجاد الوسائل العلمية والتربوية التي تساعد في تربية قرّاء القرآن الكريم على آدابه وأخلاقه السامية، وقد أسهم هذا الكتاب في تقديم مادة جامعة بأسلوب علمي ميسَّر تخدم جوانب هذا الموضوع.

وقد أورد الأئمة المحدثون في كتب السنة أبوابا في فضائل القرآن وآداب حملته، وذكروا فيها عدداً من الأحاديث المسندة، والآثار عن الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، ومن هذه الكتب:

١- "**صحيح البخاري**"، أورد فيه كتابا بعنوان فضائل القرآن، ذكر تحته بعض الأحاديث الواردة في آداب أهل القرآن.

٢- "**صحيح مسلم**"، أورد فيه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، عدداً من الأحاديث الواردة في آداب أهل القرآن.

٣- "**سنن الترمذي**"، أورد فيها كتابا بعنوان فضائل القرآن.

وغيرها من كتب السنة، كالمعاجم والمسانيد وغيرها، فإنها قد اشتملت على الكثير من الأحاديث والآثار التي تناولت فضائل أهل

القرآن، وقد جمعت الكتب التي ذكرناها سابقا هذه الأحاديث والآثار من كتب السنة وغيرها.



معلوم أن شرف الشّيء بشرف مُتعلقه، ولما كان التَّدبُّر يتعلق بكتاب الله تعالى، صار من أشرف الأمور وأجلها وأفضلها.

يمكن أن نستبين أهمية التدبر من وجوه عدة منها:

١- أن اللَّه تعالى جعل ذلك مقصودًا من إنزاله؛ كما في قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: ٢٩] .

قال الشيخ محمد الأمين الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على هذه الآية: «وأمَّا كون تَدبُّر آياته، من حِكَم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بِالتَّحْضِيضِ على تَدبُّره، وتوبيخ من لم يتدبره؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] اهـ[٣٣].

٢- أن الله تعالى أنكر على من لم يتدبره؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على هذه الآية: «ومعلوم أن كلَّ من لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم- أي: تَصَفُّحِها وتَفَهُّمِها، وإدراك معانيها والعمل بها- فإنه مُعْرِض عنها، غير متدبِّر لها؛ فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى ربه من هجر

(٣٣) أضواء البيان (٣٤٥/٦).

قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتَفَهُّمَه وتَعَلُّمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس ، كما ثبت عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ في الصحيح، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ قال: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) [٣٤]، وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتَفَهُّمه والعمل به وبالسنة الثابتة المُبَيِّنة له، من أعظم المناكر وأشنعها، وإنْ ظن فاعلوه أنهم على هدى ... » [٣٥].

---

(٣٤) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٣٥) أضواء البيان (٧/٥٧).

٣- أنه لا سبيل إلى تحصيل المطالب العالية والكمالات إلا بالإقبال عليه وتدبره وتَفَهُّمه.

قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحقّ، وبتكميله لغيره في هذينِ الأمرين؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ٣ ﴾ [العصر: ١ - ٣]، أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّ كلَّ أحد خاسر إلا من كَمَّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكَمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحقُّ هو الإيمان والعمل، ولا يَتِمَّان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما-: كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه، فيما ينالُ به المطالب العالية، ويخلص بهِ من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتَفَهُّمه وتدبره، واستخراج كنوزه، وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه

الكفيل بمصالح العباد في المَعَاش والمعاد، والمُوصِل لهم إلى سبيل الرشاد» اهـ [٣٦].

٤- أنه الطريق إلى معرفة العبد لخالقه جل جلاله معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو الطريق إلى معرفة صراطه المستقيم الذي أمر العباد بسلوكه.

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تدبر كلامه، عرف الربَّ عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تَفَضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فَرْضِ عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذَّره مولاه الكريم، ورغب فيما رَغَّبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وَعَزَّ بلا عشيرة، وأَنِس بما يستوحش منه غيره، وكان هَمُّه عند التلاوة للسّورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلو؟! ولم يكن مراده: متى أختم السّورة؟! وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟! متى أزدجر؟

---

(٣٦) مدارج السَّالكين (١/٣٠).

متى أعتبر؟! لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة» اهـ .[٣٧]

٥- أن ذلك من النصيحة لكتاب الله تعالى.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وأما النصيحة لكتاب الله، فَشِدَّة حُبِّه وتعظيم قَدْرِه؛ إذ هو كلام الخالق، وشِدَّة الرغبة في فهمه، وشِدَّة العناية لتدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، أو يقوم به له بعد ما يفهمه، وكذلك الناصح من العباد يفهم وصية من ينصحه، وإن ورد عليه كتاب منه، عُني بفهمه؛ ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب ربه؛ يُعْنَى بفهمه ليقوم لله بما أمره به كما يُحِب ويرضى، ثم ينشر ما فهم في العباد ويديم دراسته بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه» اهـ [٣٨].

---

(٣٧) أخلاق أهل القرآن ص: ٣٦ - ٣٧ .

(٣٨) جامع العلوم والحكم (٢٢١/١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه قد عُلِم أنه من قرأ كتابًا في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك، فإنه لا بد أن يكون راغبًا في فهمه وتَصَوُّر معانيه، فكيف بمَنْ قرؤوا كتاب الله تعالى المُنزل إليهم الذي به هداهم الله، وبه عَرَّفَهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟! فمن المعلوم أن رغبتهم في فهمه وتصوُّرِ معانيه أعظم الرغبات، بل إذا سمع المتعلم من العالم حديثًا، فإنه يرغب في فهمه؛ فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلّغ عنه؟! بل من المعلوم أن رغبة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه؛ فإن معرفة الحروف بدون المعاني لا تُحَصِّل المقصود؛ إذ اللَّفظ إنما يُرَاد للمعنى» [٣٩].

قلت فإنّ إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنته بما جاء عن السلف، ثم الجمع بينهما لتحديد المعنى الكامل والصحيح للكلمة نفسها هو اللّبنة الأولى لمن يروم التّدبُّر والتّفسير.

---

(٣٩) مجموع الفتاوى (١٥٧/٥).

والبدء بهذا الأمر قبل ما نستقبل من مراحل التّدبُّر من الأهمية بمكان، بل لا يمكن أن يتضح معنى الآية بكل دلالاته إلا بها، وذلك أن المفردة هي الأصل الذي يبنى عليه ما بعده.

يقول الإمام الزركشي:

الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه، قالوا: وليس ذلك في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره؛ وهو كما قالوا؛ لأن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته(٤٠).

وعدم فهم دلالة الكلمة يؤدي إلى خطأ كبير في تأويل القرآن، وتدبُّره.

---

(٤٠) البرهان في علوم القرآن ٢/١٧٣.

إنّ الناظر في كلمات القرآن - من جهة الوضوح وعدمه - يمكنه جعلها على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: كلمات مشهورة واضحة المعنى والدلالة، مثل: الناس، الشمس، القمر، البحر، الشجر، السمع، البصر، النور، اليتيم، الفقير.

المرتبة الثانية: كلمات متداولة واضحة المعنى الظاهر، لكن من يتأمل هذه الكلمات في كتب التفسير ودواوين اللغة؛ سيجد أنها تنطوي على عدد من المعاني البديعة، التي لم تخطر له على بال، وهي معاني صحيحة دل عليها السياق، وقد جاء التصريح بها أو التلميح عنها في كتب التفسير بالمأثور، لكن لعدم ورود احتمال هذه المعاني أصالة في خاطره؛ فإن الناظر في تفسير السلف لا يتأمل هذه المعاني في كلامهم، بل قد ينكر على المحققين من المتأخرين الخوض في هذه المسائل، ومن جهل شيئا عاداه.

ومن أمثلة هذه الكلمات: تؤزهم، حرثكم، وشددنا أسرهم، فأجاءها المخاض، كورت، كشطت، كالدهان، الصمد، التغابن، رفرف، عبقري، أحقابا....

وهذا النوع من الكلمات هي التي لابد إن يقف المتدبر عندها طويلا كلبنة أولى في سيره نحو التّدبُّر الأمثل.

المرتبة الثالثة: كلمات غامضة بالنسبة لكثير من الناس، لا يدرك معناها إلا بمراجعة كتب التفسير واللغة، مثل: انكدرت، مقمحون، زرابي، الوتين، حمئة، الترائب، زنيم، أبا، قضبا، أمشاج، جد ربنا، سائحات، لكنود،.....

ومن هذه الكلمات - بعد المراجعة - ما يلحق بالمرتبة الأولى، ومنها ما يلحق بالثانية.

إذا تبين هذا فيبقى عندنا سؤال كبير، وهو كيف يصل طالب فهم وتدبُّر كتاب الله تعالى إلى معرفة دلالة الكلمة ؟

والجواب: أن معرفة دلالة الكلمة يكون بعرض الكلمات التي نتدبر آياتها على المراتب الثلاث السابقة، ومعرفة درجتها من الوضوح

والغموض، فعندما تمر بكلمة في كتاب الله، وتدرك أن فيها شيئا من الغموض، أو أنها توحي بأن البحث فيها قد يفيد في معرفة دلالة هذه الكلمة بشكل أكبر وأوضح؛ فعندها نرجع إلى المصادر التي تساعد في بيان هذه الدلالة إن وجدت، وهذه المصادر كثيرة متنوعة، لكني سأحصر البحث في مصادر محددة تغني الباحث في مراحله الأولى، فأقول:

نحتاج لفهم وتدبُّر كلمات الكتاب العزيز فهما شبه تام إلى ثلاثة مراجع:

كتاب في التفسير بالمأثور (تفسير ابن جرير أو ابن كثير أو الدر المنثور ونحوها).

تفسير لغوي بلاغي (تفسير التحرير والتنوير أو أبي السعود، البيضاوي ونحوها).

كتاب في اللغة (الصحاح للجوهري، مختار الصحاح، مفردات الراغب الأصفهاني).

مع الحذر من الأخطاء العقدية خصوصا في مسائل الأسماء والصفات لله عز وجل في «التحرير والتنوير»، وأبي السعود، والبيضاوي، ومفردات الراغب، وإن أشكل عليك أمر فقارن بتفسير السعدي أو بكتاب «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.

أما عن كيفية الاستفادة من هذه المصادر ؟ فعلى النحو التالي:

عندما نمر بكلمة في كتاب الله على الصفة السابقة، فإننا نعود أولا: إلى كتاب في التفسير بالمأثور، وسنجد أن المفسرين بالمأثور يأتون بكلام السلف في بيان المراد بهذه الكلمة، فدقق النظر فيه، ثم انظر - لزاماً - كتابا في التفسير اللغوي البلاغي فقد يذكر من المعاني ما يوضح كلام السلف، وينبه إلى ما كان خافيا عليك منه، وقد يضيف معاني صحيحة لم تأت صريحة فيما سبق، ثم قارن ذلك بكتاب في اللغة وليكن «الصحاح» مثلا، وهذه أمثلة توضح ما ذكر - أبدأها بالأيسر فهما:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ مريم.

لننظر أولا في تفسير بعض السلف:

قال مجاهد: عتيا، يعني نحول العظم.

وقال ابن زيد: العتي الذي قد عتا عن الولد فيما يرى نفسه لا يولد له.

ثم لِننظر في أصل الكلمة «عتيا»: هي مأخوذة من العتو وهو كل مبالغ فيه مما يذم أو يعاب، ويتجلى الأمر أكثر عندما نعود ـ مثلا ـ إلى كتاب «التحرير والتنوير» (٧٠/٨) فيبين أن كلمة «عتيا» و «عتيا» «تطلق على الشيء اليابس، إذاً فقد وقع لزكريا عليه السلام كبر في السن مبالغ فيه، حتى انحلت منه عظامه، ويبست يبوسا شديدا.

نخلص من هذا، أن زكريا تضرع إلى ربه بضعفه الشديد، حيث إنه (قد كبرت سنه، وبلغ به الكبر مبلغا يبس معه العظم)، فأصبح لا رطوبة ـ مطلقا ـ في بدنه ينتج منها ماء الولد، فكيف له مع ذلك بالولد ؟!.

المثال الثّاني: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ مريم.

كثير من الناس يفهم من الآية فهما سريعا، وهو أن مريم عليها السلام ابتعدت وخرجت عن قومها لتتفرغ لعبادة ربها أو لحاجة لها ونحو ذلك، وهذا فهم صحيح؛ لكن الآية تدل على أبلغ من هذا، وذلك أنا إذا تأملنا كلمة (انتبذت) نجد أن فيها معنى زائداً يدل على أن خروج مريم ليس خروجا عاديا، بل هو خروج شديد فيه طرح واعتزال ونبذ لقومها، وكأن أهلها وعشيرتها وقومها شيء منبوذ غير مرغوب فيه بالنسبة لها، أخذته وألقته بشدة بعيدا عنها تخلصا منه، وهذا يفهمه من تأمل الكلمة، وله أمثلة كثيرة في كتاب الله.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ مريم.

لو تأملنا كلمة «فأجاءها» لوجدنا أنها ليست (جاء)، وليست (ألجأ) بل هي كلمة دلت على ما تدل عليه هاتين الكلمتين جميعا بأبلغ وأوجز عبارة.

بيان ذلك: أن أصل (أجاء) هو (جاء)، ولو وردت الكلمة هكذا (جاء) لكان المعنى أن المخاض جاءها، وهذا ليس إلا جزء من المعنى فقط، فلما دخلت عليها همزة التعدية أضافت لها معنى آخر غير المجيء، وهو أن المخاض لما جاءها جاء بها إلى جذع النخلة، كالفرق بين: لجأ وألجأ، وذهب وأذهب، نام وأنام، سمع وأسمع، وغيرها كثير.

وهذا المجيء لم يكن على سبيل الاختيار وإنما على سبيل الاضرار كما دل عليه السياق.

والمراد أن المخاض لما جاءها ألجأها إلى جذع النخلة، ولذا جاء تفسير السلف لـ (فأجاءها) أي (ألجأها) وهذا من عظيم إدراكهم لمعاني القرآن.

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ مريم.

لننظر أولا في تفسير بعض السلف:

فعن ابن عباس قال: تغريهم إغراء.

وعن قتادة قال: تزعجهم إزعاجا في معصية الله.

وعندما نرجع إلى الصحاح في مادة « أزز» يقول لك:

الأزيز: صوت الرعد، وصوت غَليان القدر... والأز: التهييج والإغراء...

والأز: الاختلاط، وقد أززت الشيء أؤزه أزا، إذا ضممت بعضه على بعض.

فنجد أنها تطلق على أمور منها:

١- الصوت الشديد المضطرب.

٢- التهييج والإغراء.

٣- الاختلاط. وهناك معنى رابع ذكره صاحب «اللسان»: وهو الامتلاء، تقول العرب: أزَّ المجلس، إذا امتلأ وغص بالناس.

وهذه المعاني كلها مناسبة للسياق، وبتأملها يتجلى سر اختيار هذه الكلمة، فالشياطين:

أولا: تختلط بالكافرين والفاسقين وتتمكن منهم.

ثانيا: توسوس لهم وسوسة شديدة مزعجة، فتملأ قلوبهم بشبهاتهم وشهواتهم، ويكون هذا الصوت المزعج سببا في منعهم من سماع ما يعارضها، فلا يكون فيها محل لغيرهم.

ثالثا: تهيجهم وتدفعهم دفعا شديدا إلى المعاصي، بل وتقويهم وتعينهم عليها عياذاً بالله(٤١).

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦﴾الرحمن.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير قوله ﴿رَفۡرَفٍ﴾، وأشهرها قولان:

(٤١)إذا تبين لك ذلك فلا تعجب إن بلغك عن بعض شياطين الإنس أنه أوتي من القوة والتفنن في باطله أضعافا مضاعفة، كحال بعض الظلمة، وقد ذكر لي أن بعضهم يظل رافعا صوته بالمنكر من القول، واقفا على قدميه، يهز أردافه ست أو سبع ساعات أو أكثر من ذلك، فهذا من أز وإعانة الشياطين له، أعاذنا الله وذرياتنا وأحبابنا وإخواننا من ذلك.

١- أنها فضول المحابس[٤٢]، والبسط، جاء ذلك عن علي وابن عباس ومجاهد وغيرهم.

٢- أنها رياض الجنة، قال ابن جبير: الرفرف رياض الجنة، وبه قال أبو إسحاق.

وهناك أقوال أخرى في المعنى المراد بـ (الرفرف) في الآية الكريمة، أدعها لأبين مأخذ الأقوال السابقة، وأن معناها متقارب، ثم أيها أقرب إلى مراد الله عز وجل؟.

قال في «اللسان»: الرفرف كِسْرُ [أي ذيل] الخباء ونحوه.... وهو أيضا خرقة تخاط في أسفل السرادق والفسطاط ونحوه، وقال: والرفرف الشجر الناعم المسترسل....

وأيضا هناك أقوال أخرى في كتب اللغة لا أطيل بذكرها، ولكن بالتأمل فيما سبق ندرك أن (الرفرف) يطلق على ما كان طرفا أو فضلة في شيء، كالمسترسل من الخيام والبسط والأشجار، أو ساحات

---

(٤٢)المحابس: هي المفارش التي تبسط على وجه الفراش للنوم يقال لما زاد عن الفراش منها رفرف.

وحدائق القصور والمنازل، أو حركة أطراف جناحي الطائر، ومنه في هذا العصر «رفرف السيارة» ونحو ذلك.

نخلص من هذا: أن المقصود بـ (رفرف خضر) ما يلي:

١) ساحات وأفنية قصور أهل الجنة، فهي ترف وتهتز خضرة ونضرة، حتى أن أهل الجنة يتكئون على ما استرسل من أشجارها.

٢) أطراف البُسُط والفُرش المنثورة في بساتين ومجالس أهل الجنة.

٣) أسرة أهل الجنة، لأن الرفرفة تطلق أيضا على المفارش التي توضع فوق الأسرة، ويكون لها ما يتدلى من على جوانبها.

إذا تبين هذا، فقارن ذلك بما تقدم في نفس السورة في قوله تعالى:

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ ﴾الرحمن.

والله أعلم

وهذا مستلزم معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات.

هذا الأمر من الأهمية بمكان، ذلك أن كلمات القرآن العظيم إن فهم معناها ودلالتها، بقي معرفة دلالة (حروف المعاني) التي تربط بينها، ومعرفة دلالة هذه الحروف له سر عجيب في فهم معاني القرآن فهما دقيقا واسعا، يتبين معه سر بديعٍ عظمة كتاب الله، وسيجد من تذوق دلالة هذه الحروف الفرق الشاسع بين فهمه لآيات الكتاب قبل و بعد، وسيقع في قلبه من توقير وتعظيم كتاب الله ما لم يخطر له على بال، وأكبر من هذا؛ أن الخطأ في تحديد المعنى المراد للحرف في هذا السياق المعين قد يقلب المعنى المراد تاما، أو يضعف فهمك له، أو يخل ببلاغة وفصاحة هذا الكتاب المعجز.

ومن شواهد ذلك ما حكاه الخطاب في إعجاز القرآن[٤٣].

قال رجل: يا أبا العالية قوله تعالى في كتابه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ الماعون، ما هذا السّهو؟

قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف عن شفع أو وتر ؟

(٤٣) (ص٣٩).

قال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس كذلك، بل الذين سهو عن ميقاتها حتى تفوتهم، ألا ترى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ الماعون[٤٤].

ولذا أثر عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال «عن صلاتهم ساهون»، ولم يقل «في صلاتهم ساهون»[٤٥].

وقد تقدم الكلام أن الحروف في لغة العرب تنقسم إلى قسمين: حروف مباني وحروف معاني، وأن حروف المعاني هي الحروف التي تدل على معنى في غيرها، وتأتي رابطة بين الكلمات، لتعطي دلالة معينة يقصدها المتحدث، وتسمى أيضا حروف الربط، مثل: لام الاختصاص في قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾، ودلالة حرف «على» على الظرفية مع الاستعلاء في قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ

---

(٤٤) وليست للعلو المجرّد بمعنى "على" كما سيأتي بيانه.

(٤٥) تفسير ابن كثير ٤/٥٥٥.

قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ وسيأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل إن شاء الله.

ومع كثرة المؤلفات القديمة والحديثة في حروف المعاني إلا أني سأختار مرجعا واحدا فقط - تيسيراً وتسهيلا - وهو «معجم حروف المعاني في القرآن الكريم»، لأن المقصود هنا الوصول إلى المعرفة الأولية لمعاني هذه الحروف، لا التحقيق والتدقيق في المضائق، ولتوضيح ذلك، فإن معرفة دلالة حروف المعاني على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: إدراك المعاني المشهورة لكل حرف، مثل:

«ال»: في كتاب الله لها معنيان مشهوران عهدية أو جنسية، ولكل منهما أنواع.

«الفاء»: لها عدة معاني: السببية، الفصيحة، العاطفة، الجوابية،...

«الباء»: لها عدة معاني: الإلصاق، التبعيض، السببية، القسم،...

«في»: أصل معانيها الظرفية، وتأتي للتعليل، والاستعلاء، والمقايسة وهكذا... وهذا يكون بالمطالعة كما يكون أكثر بالممارسة.

الدرجة الثانية: إدراك المعنى المراد - تقريبا - لكل حرف بحسب موضعه، مثل:

«ال»: في قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ جنسية تفيد الاستغراق.

«الفاء»: في قوله (فَٱنۢبَجَسَتْ) فصيحة ـ تفصح عن محذوف ـ أي فضرب فَٱنۢبَجَسَتْ.

«الباء»: في قوله تعالى: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١) للاستعانة.

«في»: في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ العلو مع الظرفية[٤٦].

«عن»: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ للمجاوزة.

---

(٤٦) وليست للعلو المجرّد بمعنى "على" كما سيأتي بيانه.

الدرجة الثالثة: التحقيق عند اختلاف أقوال المحققين في المضايق لكي يحمل الكلام على أفصح الوجوه بلاغة وحكماً وإحكاما، ومن أمثلة ذلك:

- دلالة التعاقب بين «الواو» و «الفاء» في أوائل سورتي المرسلات والنازعات.

دلالة «الفاء» في قوله تعالى: ﴿۞فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾.

- دلالة «في» في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾.

والذي نطمح إليه هنا، هو إتقان الدرجة الثانية، أما الثالثة فدرجة تحتاج ـ بعد ما سبق ـ إلى كثير من الممارسة والمدارسة مع أهل الفن.

وينبغي أن يعلم أن الوقوف على معنى أو معاني الكلمة أسهل بكثير من الوقوف على دلالة حروف المعاني في كل موضع بحسبه، لا أقول ذلك تثبيطا، لكن حفزاً للأذهان، لتستعد لأمر قد يشق عليها في بادئ

الأمر، ذلك أن عددا ليس بالقليل من هذه الحروف لها عدد كبير من المعاني المتغايرة حينا والمتداخلة حينا آخر، ولا يحدد المعنى المراد إلا السياق، وحمل الكلام على أفصح الوجوه، مع عدم مخالفة ما تقرر في تفسير السلف الصالح لهذه الآيات.

كذا لابدّ من معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها، مثل دلالة الجملة الاسمية والفعلية وأثر التقديم والتأخير ونحو ذلك، فالجمل لها أثر في إدراك أكمل المعاني، ومعرفة أتم أوجه التفسير عند الكلام على تفسير كتاب الله عز وجل، لذلك فلابد أن يكون طالب العلم عارفا بدلالات الجمل من جهة علم البلاغة وبالأخص علم المعاني.

كذا فهم دلالة السياق من اللحاق والسباق، فدلالة السياق من الدلالات المهمة التي يكاد يطبق أهل التفسير على اعتبارها، وقد نص على أهمية دلالة السياق، وعلى اعتبارها من أهم الدلالات التي ينبغي للمفسر والمتدبّر أن يعتني بها جماعة من أهل العلم سلفاً وخلفا، منهم:

مسلم بن يسار[٤٧]فقال: «إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»[٤٨]، وكذا سليمان بن يسار[٤٩]، وصالح بن كيسان [٥٠]،وغيرهم من السلف.

ومن المفسرين ابن جرير، وابن عطية صاحب المحرر الوجيز، والقرطبي في تفسيره، والعز بن عبدالسلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم خصوصا في كتاب التبيان في أقسام القرآن وهو من أجود كتبه، وكذلك أبو السعود، وابن كثير، والرازي صاحب التفسير الكبير، والزركشي كما في البرهان، وكذلك الألوسي، والشوكاني، وصديق حسن خان، وغيرهم من أهل العلم.

---

(٤٧)البصري الفقيه الكبير، العالم العابد، إمام التابعين في زمانه.

(٤٨) تفسير ابن كثير ١/٧.

(٤٩)الفقيه الإمام عالم المدينة ومفتيها، كان هو وابن المسيب كفرسي رهان.

(٥٠)الإمام المشهور، سئل أحمد بن حنبل عن صالح بن كيسان؟ فقال: بخ بخ، تعظيما لشأنه.

ودلالة السياق إما أنها تخصص العام أو تقيد المطلق، وفي مقابل ذلك تطلق المقيد أو تعمم الخاص، أو أيضا ترجح عند اختلاف المفسرين، والأمثلة في هذا أكثر من أن تحصى، ولو أن طالب علم تفرغ لها، لجمع منها خيراً كثيرا.

كذا فهم موضوع السورة وما يتعلق به، والمقصود بموضوع السورة إذا أطلق هو: المعنى العام الذي أنزلت السورة من أجله، أو هو الموضوع الذي تدور عليه آيات سورة ما.

هذا هو المقصود بموضوع السورة، أو مقصود السورة، أو مقاصد السور، وهذا الاسم لهذا العلم لم يكن موجودا عند السلف بهذه التسمية، كشأن كثير من العلوم التي كانت ممارسة عند السلف، لكن لم تكن التسمية موجودة كعلم النحو والبلاغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث وغير ذلك، وإنما دليل من قال به هو الاستقراء والتتبع لطريقة الأئمة في تفسير كتاب الله[٥١]،وهذا العلم علم «موضوع السورة» لم

---

(٥١) ينظر محاضرة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: بعنوان «مقاصد السور» وأثره في فهم التفسير»، فهي فاتحة هذا الموضوع.

يطرق كثيرا في كتب التفسير لا المتقدمين ولا المتأخرين، ولهذا أسباب:

١- أن فيه نوع من الجرأة على تفسير كتاب الله جل وعلا، ولهذا أنكره جماعة من أهل العلم من المتأخرين لما في كثير منها من التكلف والبعد.

٢- أن كثيرا من كتب التفسير إنما تناولوا تفسير كتاب الله جل وعلا من خلال مدرسة تفسير الآية والكلمات، كما هو حال مدرسة أهل الأثر وأهل الرأي، أما الربط بين الآيات فلم يفرد له أحد ممن تقدم من الأئمة كتابا في التفسير.

ولهذا اختلف المفسرون فيه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا تناسب بين السورة والآيات مطلقاً أو غالبا، وهو قول جماعة من المتأخرين منهم الشوكاني كما في فتح القدير[٥٢] قال:

« اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة،

---

(٥٢) ٧٢/١.

بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته.

القول الثاني: أنه ما من آية أو سورة إلا ولها موضوع خاص بها ومناسبة بينها وبين التي قبلها، وهذا هو القول الذي نصره برهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ في كتابه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، واختاره السيوطي وغيره، ويظهر أنه اختيار ابن العربي -أيضاً- فقد ذكر في تفسيره أنه ألف كتاباً كبيرا في ذلك.

القول الثالث: أن ما من سورة في الأغلب إلا ولها موضوع تدور عليها، وكذلك الآيات، فالآية في الأعم الأغلب تكون متصلة بما قبلها وما بعدها، ولا يلزم أن يكون ذلك في كل آية وكل سورة، ولو كان؛ فالوقوف عليه في كل آية وسورة متعذر.

وهذا القول الثالث: هو القول الأقرب، وقرره الزركشي في كتابه «البرهان»، وهو مقتضى صنيع جماعة من المحققين من أهل العلم: كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، واستعمله الرازي في تفسيره، والطاهر بن عاشور في «التحريروالتنوير» وغيرهم.

لكن لابد لمن أراد أن يخوض في هذه المسالك من أمرين:

الأمر الأول: أن يكتفي بما ظهر له من الموضوع وتناسب الآيات من دون تكلف ولا تنطع، على خلاف ما جرى من البقاعي رحمه الله.

الأمر الثاني: أن يكون الخائض في هذه المسالك عالما بأقوال السلف في تفسير الآيات والسور التي يريد أن يستنبط لها مناسبة أو موضوعاً معيناً، وأن يكون مطلعاً عارفاً بعلوم البلاغة خصوصا علمَي «المعاني والبيان».

ومما يرجح هذا القول قوله تعالى ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ هود، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ النساء.

فهذه الآيات تدل على أن جميع آيات القرآن محكمة وأنه لا خلاف فيه، وهذا مدح لكتاب الله وكمال المدح إنما يتم إذا كانت الآيات متناسبة مع ما قبلها وبعدها غالبا.

وإذا كانت السورة في مجملها تحوي موضوعاً ، أو مقصوداً واحدا، أو عدة مقاصد تدور عليها، فإن هذا هو تام الأحكام وتام نفي الاضطراب والاختلاف.

ويدل على ذلك - أيضا - فعل السلف، فإن من تأمل كلامهم في التفسير وجد أنهم يعتبرون بمقاصد السور، ولذا قد لا يفهم المرء وجه تفسير السلف حتى يربط بين كلامهم وبين مقصود السورة التي أنزلت من أجله،بل نصوا على عدد من مقاصد السور، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كيف يمكن أن نستخرج المقصود العام للسورة ؟

وهذا يمكن بإحدى ثلاثة وسائل:

١- أن ينص العلماء من أهل التحقيق على أن مقصود السورة كذا وكذا.

كما نصوا على أن سورة الإخلاص في العلم الخبري، وهو توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية، وأن سورة الكافرون في بيان التوحيد العملي الطلبي وهو المسمى بتوحيد الألوهية، ونصوا على أن سورة النحل نزلت في النعم، وغيرها.

٢- أن يكون موضوع السورة ظاهرا من اسمها، أو من أولها أو بهما معا.

مثال ذلك: سورة القيامة: فمن اسمها ومن مطلعها مقصود السورة هو الكلام عن يوم القيامة، ولذا عندما تقرأ قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ فلابد أن تسأل نفسك

ما علاقة هذه الآيات بموضوع السورة ومقصدها فهذه الآيات لابد لها من رابط بما قبلها وبعدها؟

والجواب: أن في هذا إشارة إلى أن مثل هذه السورة لا ينبغي لأي عبد أن تمر عليه مروراً سريعا من دون تفكر في هذا اليوم العظيم وهو يوم القيامة، فمن قرأها فلا يستعجل بقراءتها فالأمر عظيم.

٣- الاستقراء: بالتأمل في آيات السورة، والاستقراء يكون نافعا عند الأصوليين إذا كان كاملاً أو أغلبيا، أما الاستقراء الجزئي فلا عبرة به.

ومثال ذلك: سورة الماعون: جاءت لتأمر بمكارم الأخلاق الواجبة على المؤمنين، وأن من انتقص شيئاً منها فقد ترك شيئا من واجبات الدين، وأن من اتصف بالصفات التي نهت عنها، فقد اتصف بصفات الذين يكذبون بيوم الدين.

ومثلها: سورة النحل، وطه، ومريم، والأنبياء.

كذا جمع الآيات التي تتكلم عن موضوع واحد في موضع واحد، وهو ما يسمى في المصطلح المعاصر بالتفسير الموضوعي، وهو الذي ألف فيه الإمام المفسر الفقيه اللغوي الأمين الشنقيطي « أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن».

والمقصود بهذه المرحلة أنه بعد ظهور دلالة السياق ومقصود السورة، ينتقل البحث إلى جمع الآيات من السور الأخرى التي تزيد في بيان معنى الآية أو السورة التي يراد تفسيرها، ليتبين بذلك الناسخ من المنسوخ والعام من الخاص والمطلق من المقيد والمجمل من المبين.

ويتبين كذلك كيف كانت عناية القرآن البالغة بالتذكير بتوحيد الربوبية، ثم يخلص منه إلى تقرير توحيد الألوهية، وأنه من أجله أرسلت الرسل؟

وكذا تفاصيل أحوال القيامة من الصعق والبعث والحشر والحساب والصراط، ثم الجنة والنار مما أكثر القرآن من ذكره تكراره ؟

وكذا كيف كان تدرج تشريع الفرائض والأحكام ؟

وكذا يتبين منهج الدعوة المحمدية بوضوح تام، مثل: ما الذي قدمه الله في كتابه وما الذي أخره، وكيف خاطبهم ؟ ومتى قاتلهم ؟ ومتى منع من قتالهم ؟

وغير ذلك كثير من المسائل الكبار.

واعلم يا رعاك الله أنّه من أتقن ما سبق من المراحل وضبطها فهو ـ بإذن مولاه ـ امتلأ ريا وحصل المقصود من معرفة منهج تعلم التفسير، وما بقي له مما يحتاج إليه في هذا الفن إلا النظر في المطولات من كتب علوم القرآن ومناهج المفسرين ونحو ذلك.

٦- أن تدبر القرآن من أَجَلّ الأعمال وأفضل التَّعَبُّدَات.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومن أعظم ما يُتَقَرَّب به إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكُّر وتدبر وتَفَهُّم؛ قال خَبَّاب بن الأرت لرجل: تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحبُّ إليه من كلامه»[٥٣] .

واعلم أن في عمليَّة التَّدبُّر، تجلّي حقائق وفوائد نفيسة، منها:

(٥٣) جامع العلوم والحكم (٢/٣٤٢).

١- أنَّ العبد يصل بالتّدبُّر إلى حقيقة اليقين والعلم بأن القرآن كلام اللّه، لأنَّه يراه يصدّق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصّة والإخبارات تعاد في القرآن في عدّة مواضع، كلُّها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضاً، صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكلّه حقّ وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات، الّتي لا يحسن شعرهم إلّا بها، وبذلك يعلم كمال القرآن، وأنَّه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور.

٢- أنَّ حقيقة التَّدبُّر تدبُّر القرآن تكشف لنا عن المعنى الحقيقي للدّين الإسلامي، وعلاقته بترقية الأمَّة نحو الأحسن والأجود والأتقن، في جميع المجالات الحيويَّة المتعلّقة بحياة النَّاس، فعمليّة التَّدبُّر للقرآن الكريم : في كلّيَّاته وجزئيَّاته، وفي أصوله وفروعه.

٣- أنَّ الدّين هو ما كلّف اللّه به الأمّة من مجموع العقائد، والأعمال، والشَّرائع، والنُّظم.

٤- أنَّ إكمال الدّين هو إكمال البيان المراد لله تعالى، الّذي اقتضت الحكمة تنجيمه، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد الّتي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام الّتي آخرها الحجّ بالقول والفعل، وبعد بيان شرائع المعاملات وأصول النّظام الإسلامي، بعد ذلك كلّه قد تمّ البيان المراد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بحيث صار مجموع التَّشريع الحاصل بالقرآن والسُّنَّة كافياً في هدي الأمَّة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدّين وافياً في كلّ وقت بما يحتاجه المسلمون.

فإنّه من تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرةً وخفيّةً، من حيث اللَّفظ ومن جهة المعنى، فقد أحكمت ألفاظه، وفصّلت معانيه، فكلّ من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً، ممّن فهم كلام العرب وتصاريف التَّعبير؛ فإنّه إن تأمّلت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكرّرت أم لا، وكلّما تكرّر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يملّ منه العلماء، فقد أخبر عن مغيّبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما

أخبر سواء بسواء، وأمر بكلّ خير، ونهى عن كلّ شرّ، إن أخذ وجاء بما تقشعرّ له الجبال وتتصدّع، فما بالك بالقلوب اللّيّنة؟! ، وإن وعد، أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوّق إلى دار السّلام، ومجاورة عرش الرّحمن، وإنه إن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنّواهي اشتملت على الأمر بكلّ معروف حسن نافع طيّب محبوب، والنّهي عن كلّ قبيح رذيل دنيء، ففهم القرآن يُعدّ معياراً لصحّة سلوك الإنسان المسلم مع ربّه ابتداء ثم مع باقي المخلوقات، إلّا أن فهم القرآن يتطلّب النّظر والتّدبُّر فيه؛ فكلّ يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه، يقرأه أحدهم فيفهم فيه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى غير الأول، وهكذا دواليك وهذا إن دل فإنما يدل على أن قائله حكيم، ملء القليل من اللّفظ الفوائد الغزار التي لا يحيط بكنهها إلا هو، فكلُّ كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمّة محدودة، خلا القرآن فهو الترياق مذ أنزله الله وسيظل الإكسير حتى يرث الله الأرض ومن عليها، مهما تجددت القضايا والمسائل هو الترياق ولا شيء سواه لما تطمح له البشرية في حضاراتها وارتقاءاتها في العقول مُعَالَجَةً تجعل له السّبق دائماً، وما بلغ ما بلغ إلا بما غرس به من بركة من رب العزة تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والتي

لا تظهر إلا بتدبره، فإن نحن أدركنا مدى تكاثر معانيه وبناء بعضها على بعض، استطعنا استثمار المعاني الزاهرة السابقة واللّاحقة في بيان عظمة هذا الكتاب والعمل به، ولاستطعنا الاستغناء به كما استغنى به أسلافنا فسادوا وأدّوا ما عليهم، فها هو بين أيدينا ونحن من يحتاج إلى تثوير معانيه واستفتاح كنوزه ولآلئه حتّى نكون أعظم أمَّة، أمّا حين يضيق فهمنا عن تدبُّر كلام الله واستخراج عظيم معانيه فهذا القعود عن تحصيل الثّراء هو النُّكوص والهجر للقرآن.

وجملة القول: فهذه الآيات القرآنيّة والنُّصوص الحديثيّة وما ثبت من ذلك في وقائع سير السَّلف الصَّالح؛ يدلُّ على أنّ تدبُّر القرآن، وتفهّمه، وتعلّمه، والعمل به أمر استُقرّ عليه في القرون الثّلاثة الأولى المشهود لها بالخيريّة، وهو لابُدّ منه للمسلمين في كلّ زمان ومكان، وأنّ ثواب قراءة التّرتيل والتّدبُّر أجلُّ وأرفع قدراً.

هذا غيض من فيض عن فضل القرآن الكريم عامة في الكتاب والسنة، فإذا كانت هذه فضائله العامة التي هي من خصائصه، وتلكم منزلته التي ارتضاها له ربنا جَلَّجَلَالُهُ، أفلا ينبغي أن نعضّ عليه بالنواجذ،

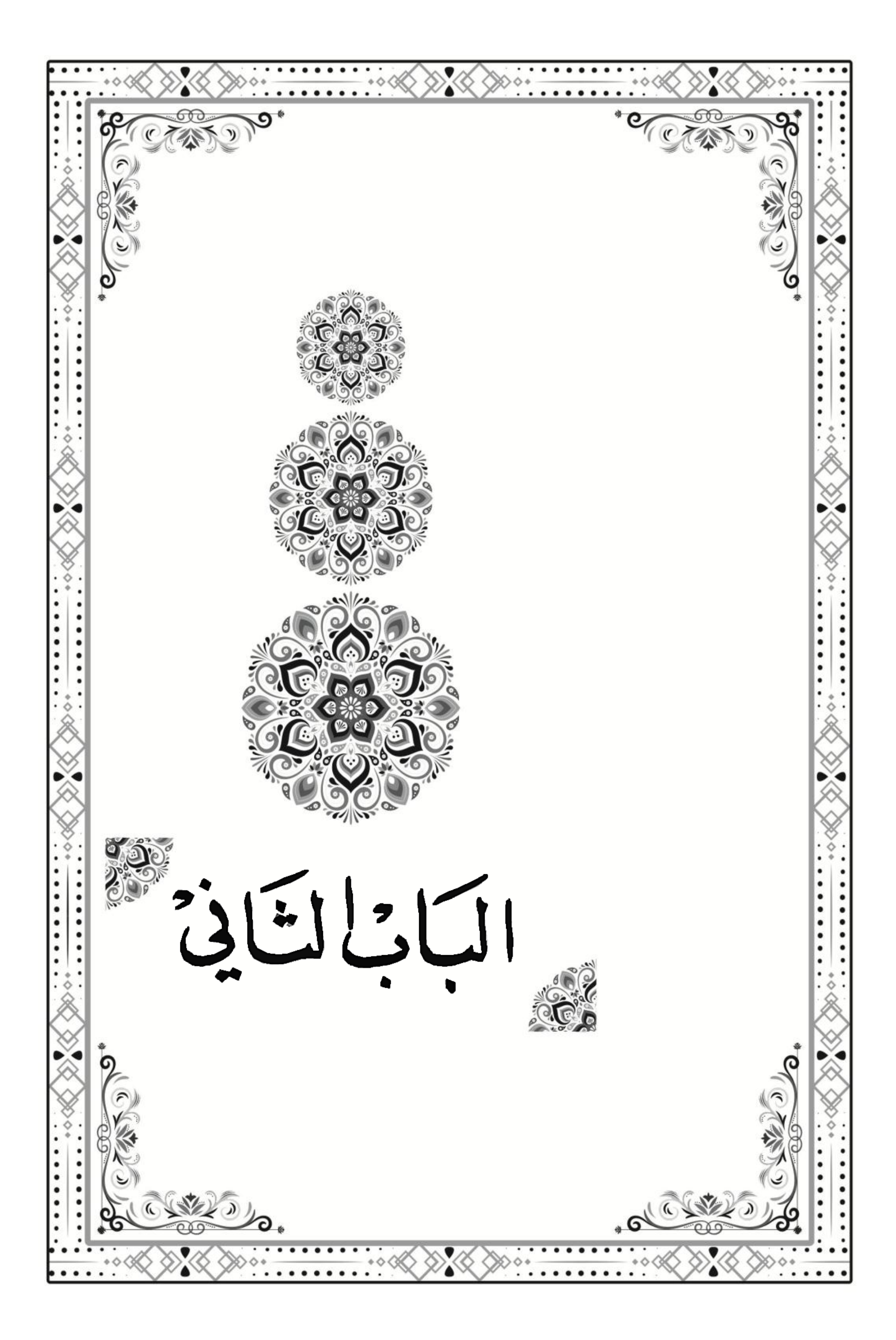
وأن نجعله منار سبيلنا، وقوام حياتنا، وزمام عقولنا، وربيع قلوبنا، وحكم ما بيننا، وموئل فكرنا، وعلاج سقامنا، وعصمة أمرنا.

بلى والله إن هذا لبعض حقه علينا، ندعوا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن ينقذ عباده به، ويعيدهم إليه عوداً حميداً، إنه سميع مجيب..

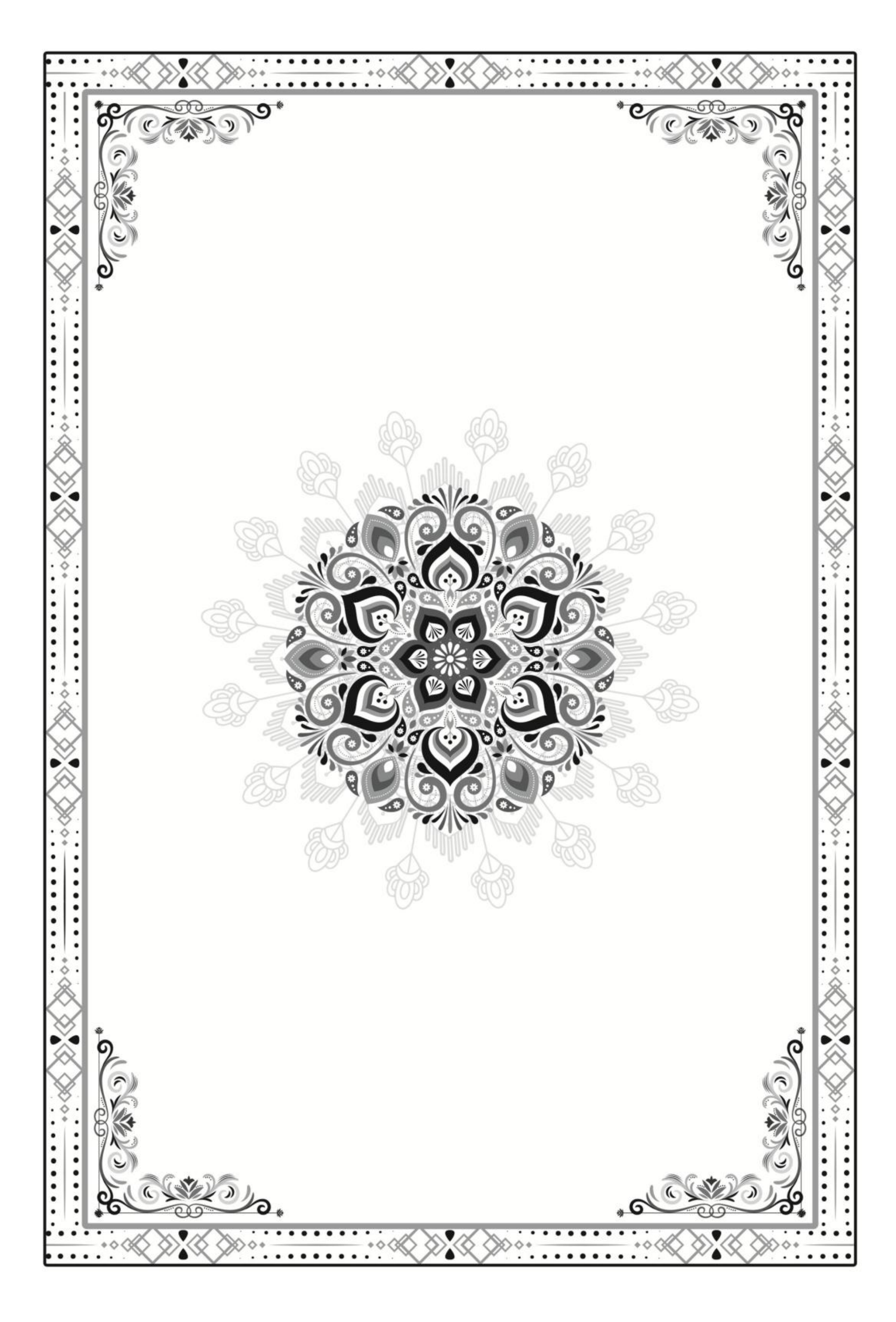
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ .







الباب الثاني



البَابُ الثَّانِي

مَفْهُومُ التَّدَبُّرِ

فِي ضَوْءِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ سَلَفِ الأُمَّةِ

تَحْرِيرٌ وَتَأْصِيلٌ



مَفْهُومُ التَّدَبُّرِ

فِي ضَوءِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ وَأَقوَالِ سَلَفِ الأُمَّةِ

تَحْرِيرٌ وَتَأْصِيلٌ

قد كانت لي عناية خاصة بهذا الموضوع منذ زمن ليس بالهين، وكان أكثر تلك العناية منصبا على التطبيق أكثر من التنظير، لكن لاح لي وأنا أكتب هذه الورقات، سؤال مفاده:

لماذا كل هذا الاهتمام بهذا الموضوع؟ هيئات، ومراكز، وأبحاث ، ودورات، وكتب، بينما لا نجد ما يماثل ذلك عند السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ، هل عندنا شيء ليس عند السابقين، هل فهمنا اختلف عن فهمهم؟

أسئلة قد تدور في ذهن من يتصدى لهذا الموضوع، ولعل من إجابات تلك الأسئلة:

أنهم قوم فهموا المراد، واهتموا بالتطبيق أكثر من التنظير.

أنهم فهموا التدبر بما يؤول إليه من عمل وسلوك، فقاموا بذلك، ونحن اشتغلنا بالتنظير.

ولكن هذا لا يعني أن نترك البحث والنَّظر، والتأليف، لكنه سؤال لابدَّ أن نستحضره ونحن نناقش هذا الموضوع، حتى لا نسرف في شيء على حساب شيء آخر.

إنَّ تحرير المصطلحات العلمية وضبطها من أهمِّ المسائل التي عني بها العلماء لضبط العلوم، وهي من الأمور المعرفية المهمة في العملية التعليمية، والتي ينبغي أن تُبيَّنَ للدارسين بوضوح، كي يعرفوا ما الأمر الذي سيدرسونه، وما الجوانب المتعلّقة به، وبالتالي يمكن قياس مدى استيعابهم لما درسوه، أمَّا إذا لم تكن تلك المصطلحات واضحةً فإنَّ ذلك سيؤثِّر على الأهداف والوسائل والتقويم، حيث إنها - المصطلحات العلمية وضبطها - عنوان ما يتميز به كل علم عمَّا سواه، والحقائق العلميَّة منها ما يكون متفقاً على مضمونه، كالمصطلحات الشَّرعيَّة في الغالب، من صلاة وزكاة وحج وإيمان وكفر وغيرها، ومنها ما يختلف العلماء فيه، فيقع لغير العارف بمرادهم الخلط والخطأ.

والكلمة التي ندرسها في هذا البحث هي من الحقائق التي يتَّفق العلماء على مضمونها وإن اختلفت العبارات، كذا فإنَّ تحديد المراد بالمصطلحات وما تحمله من مفاهيم ودَلالاتٍ من أوجب الواجبات وأولى الأولويَّات الَّتي يجب تجليتها عند الشروع في التَّقويم المنهجي لأي عملٍ علميّ؛ حتى يكون النَّظر مقيَّداً بما نصَّب البحث لنفسه من مفاهيم، وما حدَّد من مقاصد؛ فلا يقع لبسٌ في الفهم، أو خطأٌ في التَّصُّور، أو قسرٌ للبحث على مفهومٍ معيَّن، ولا شكَّ أن التَّعريف أجلى الوسائل الَّتي ترسم صورةً واضحةً للمصطلح وتحدد أُطُره وملامحه، وتبين جلاء مفهومه وتحرره؛ حيث إنَّ الرَّصد الزمني والتَّتبع التاريخي للموضوعات والقضايا العلميَّة يُعدُّ من أهمّ الأدوات المنهجيَّة الَّتي ينبغي توظيفها لفهم هذه الموضوعات والقضايا واستيعابها على نحوٍ دقيقٍ؛ ذلك أنَّ التاريخ يُعين على رسم خارطة هذه القضايا وتبيُّن مساراتها؛ فيرصد نشأتها الأولى ويبرز سماتها ويُجلي خصائصها، ويظهر ما طرأ عليها من إضافاتٍ أو تغييراتٍ، وما اعتراها من تطوُّراتٍ أو نقلاتٍ ومنعطفاتٍ ... إلخ مما لا تخفى فائدته وانعكاساته في حسن الفهم لهذه القضايا والتَّصدّي لدراستها وتبيُّن اللازم بشأنها.

ثمّ إنَّ الناظر إلى حال أكثر المسلمين مع دستورهم العظيم، ومصدر هدايتهم القويم، يجد أنهم قابلوا أنوار هداياته بالصدود والنكران، وحبال رحماته بالقطيعة والهجران .. ! إلا ما رحم اللَّه الكريم المنان.

وإنَّ من أشد ما يحرم المسلم من الانتفاع بنوره وضيائه: هجر تدبره: فإنه إنما أنزل لذلك، فتدبر القرآن الكريم وفهم معانيه: رابط أساس بين إقامة حروفه، وإقامة حدوده.

وقد اهتم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بأمر التدبر أيما اهتمام، وقصصهم في ذلك لا تخفى، وبرز في التأريخ الإسلامي، ومن بين أئمة وأعلام السلف والخلف من اعتنى واهتم بجانب تدبر القرآن الكريم.

إن التدبر لكتاب الله تعالى هو الغاية التي أنزل من أجلها قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩)، وحين نبتغي الوصول إلى مفهوم التدبر وحقيقته فلابد من الوقوف على الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم في تعاملهم مع القرآن وتلقيهم له، ذلك أن أعظم منهج لتدبر كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو منهجهم القويم، وقد كان من توفيق الله

سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن وفقني لإدراج هذا المبحث ليكون سلوة للمتلقي الأوّل للتدبر حول مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة وأحوالهم، والهدف منه تحرير مفهوم التدبر وتحقيقه لكونه من لوازم قارئ القرآن وواجباته، وليتميز عن المصطلحات القرآنية الأخرى، وليكون منطلقاً للمشروع المبارك الذي يهدف إلى إحياء التدبر في الأمة لربطها بكتاب الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ليكون منهج حياة وسبيل نجاة بإذن الله تعالى، وهو المأمول سبحانه في تحقيق ذلك.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى **قسمين**:

القسم الأول: الدّراسة النَّظرية: التَّأصيل والتَّحرير.

القسم الثاني: الدّراسة التَّطبيقية: التَّحليل والاستدلال.

أسأل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه، وأن يحقق فيها الحقّ والصّواب، وينفعني بها ومن بلغ إنه سميع قريب مجيب.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



القسم الأول: الدّراسة النَّظرية: التَّأصيل والتَّحرير



علم تدبُّر القرآن من العلوم المهمة، وتحقيقاً لأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بتدبُّره، وقياماً بحقِّ القرآن علينا، فقد أردت في هذا المبحث القيام بالتَّأصيل لهذا العلم؛ كتأصيل السابقين في التَّأليف، حيث جعلوا لكلِّ علم مبادئاً، فإنّه يحسن بطالب العلم قبل البدء بدراسة أي علم أن يكون متصوّراً تصوّراً إجماليّاً للعلم الّذي سيدرسه، ولتصوّر العلوم عموماً وضع العلماء مبادىء عشرة أساسيّة تُسمّى بمبادىء العلوم، ولكن بعض العلماء قد يكتفي بذكر بعض المبادىء في تعريفه بعلم من العلوم، دون التَّعرُّض لجميع المبادىء العشرة، ويحصل بمعرفتها تصوّر إجمالي لهذا العلم؛ وهي: (الحدُّ، والاسمُ، والموضوع، والمسائل، والثّمرة، والاستمداد، وحكم تعلّمه، والواضع له، والنّسبة، والفضل).

وقد نظم العلّامة الصَّبَّان رَحِمَهُٱللَّهُ هذه المبادىء، بقوله :

إنَّ مبَــــادِي كُلِّ فَنِّ عَشَرَهْ الحدُّ والموضُـــــوعُ ثمَّ الثَّمَرَهْ

وَفَضْـــــلُهُ، وَنِسْبَةٌ وَالوَاضع وَالاسْمُ الاسْتِمْدَادُ حُكمُ الشَّــارِعْ

مَسَائلٌ وَالبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفَى وَمَنْ دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

(٥٤)

ومن بين النَّاظمين لمبادىء العلوم المقَّري، حيث قال :

من رام فنَّـــاً فليقدّم أولا علماً بحده وموضوع تـــــلا

وواضع ونِسبَة ومـــــا استُمِدْ منه وفضـــــــله وحكم يُعتمدْ

واسم وما أفاد والمســــائل فتلك عشرٌ للمنى وســـــائل

وبعضهم فيها على البعض اقتصر ومن يكن يدري جميعها انتصر

(٥٥)

إذا عرفت هذه المبادئ على وجه الإجمال، فهاك تفصيلها.

---

(٥٤) ينظر : حاشية محمد علي الصّبّان على شرح شيخه الملوي للسلم المنورق (ص٣٥)

(٥٥) إضاءة الدجنة، أحمد المقَّري

المبدأ الأوّل : الحدّ :-

توطئة:

مفهوم التدبُّر عند اللغوين:

عند التأمل في هذه الكلمة (التَّدبر) نجد أنه يمكن أن يحدد مفهومها بالنظر إليها من زوايا عدة، هي المادة التي بنيت منها هذه الكلمة وهي (دبر) وذلك لأن كلمة(التدبر) مصدر للفعل (تدبَّر) وهو مزيد بالتاء وتضعيف العين، وهذه الزيادة لابد من استحضارها عند بيان مدلول هذه الكلمة، وذلك من خلال دراسة صيغة الكلمة (تَفَعَّلَ)؛ حيث إنَّ مجيء مصطلح التَّدبُّر على صيغة التَّفعُّل يفيد عدَّة أمور، **أهمها:-**

أوّلها: التَّكلُّف وبذل الجهد.

ثانيها: التَّدرُّج والتَّمهُّل.

ثالثها: التَّكثير والمبالغة، وحصول الفعل مرَّة بعد أخرى مع الصَّبر والتَّحملّ[(٥٦)].

---

(٥٦) يراجع: شرح شافية ابن الحاجب للشيخ محمد بن الحسن الإستراباذي ١٠٢/١، والخصائص لأبي الفتح عثمان بن جنّي ٢٦٤/٣.

وهذه أمور تقتضيها عمليّة التّدبّر أيضاً، فحتّى يؤتى أكله وثماره الطيبة، ينبغي للمتدبّر أن يبذل الجهد في التّأمل والتّفكُّر، ويتمّهل ولا يعجل، ويكّرر النّظر مرّة بعد مرّة، ويتجلّد بالصّبر ولا يملّ.

كما لابدَّ من التعرُّض للصّيغة التي وردت عليها الكلمة في القرآن، وهي الفعل المضارع(٥٧) (يتدبرون، يدبروا)، وسر اختصاص هذه الكلمة بالقرآن، دون (التأمل، والتفكر، والنظر) .

---

(٥٧) لم يرد التدبر في القرآن إلا على صيغة المضارع من الماضي الخماسي «تدبر» بالمعنى الذي قررناه، أما تدبير الأمر؛ فقد ورد فيه الفعل المضارع «يدبر» من الماضي الرباعي المضعف العين «دبر» على صيغة «فعل» التي تقتضي الكثرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس: ٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: ٣١] ، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلّٞ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد:٢]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٖ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ [السجدة:٥].

كما ورد اسم الفاعل «مدبر» من الماضي الرباعي «دبر» في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النازعات: ٥]، ففي هذه الآية أقسم المولى بالملائكة التي تدبر الأمر، وهو شئون الكون المختلفة.

وبذلك يتضح لنا من التعبير بتلك الصيغة أمور:

أولا: جاء التعبير بالمضارع «يدبر» (٤) مرات.

ثانيا: المدبر في هذه الآيات الأربع (أي الفاعل المحذوف) هو الله .

ثالثا: المدبر (أي: المفعول المذكور) في جميع الآيات هو الأمر، والأمر هنا ورد معرفا بـ(أل) التي تفيد الاستغراق الكلي لجميع أنواع الأمر، وهذا حق لا مرية فيه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: له أمر كل شيء .

رابعا: ورد اسم الفاعل «مدبر» من الماضي في موطن واحد فحسب، والفاعل المحذوف الملائكة، والمفعول المذكور هو لفظة الأمر المنكرة، وهنا مفارقة دقيقة: فالملائكة تدبر أمرا ما، والله يدبر الأمر كله.

نستنتج من هذا: أن الله وصف نفسه بأنه المدبر، وأنه يدبر أمور الخلائق كلها دون استثناء، فالله هو المدبر، والأمر هو المدبَّر، كما وصف الملائكة المقربين بذلك -أيضا-، ولكنهم يدبرون أمرا ما بإذنه لا يتجاوزونه، والعجيب: أن الذكر الحكيم استخدم الرباعي «أدبر» (٤) مرات، واسم الفاعل منه «مدبِر» (٨)مرات، والمصدر «إدبار» مرة واحدة، كما استخدم اسم الفاعل من «دبر» (٤)مرات، والجمع «دبر» (٥) مرات، وجمع الجمع: «أدبار» (١٣)مرة، في سياقات لاصلة لها بما نحن فيه، وكل هذا ينبئ عن أن القرآن الكريم يضع كل صيغة في مكانها الأشكل بها، وهذا من دلائل إعجازه في اختيار صيغه بما لا يسمح الوقت بالإفاضة فيه.

ثم إنَّ التَّدبُّر قد أصبح حقيقة عرفيَّة عند المفسرين، والمراد بها تدبُّر القرآن، فإذا أطلق التدبر عندهم فالمراد به أخص من المدلول العام للتدبر.

فأصل كلمة التدبر من الفعل الثُّلاثي (دَبَرَ) أو الرُّباعي (أَدْبَرَ) وهذا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]؛ كما في قراءة نافع، وحفص عن عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف العاشر، ﴿ واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] بالفعل الرباعي على وزن (أَكْرَمَ).

والقراءة الأخرى (والليل: إذ دَبَرَ) بالفعل الثلاثي على وزن (كَرَمَ) وهي قراءة الباقين من القراء: ابن كثير، وابن عامرٍ، والكسائي، وأبي جعفر، ورواية شعبة عن عاصمٍ.

أَصلُ التَّدبُّر لُغَةً: بالنظر والاطلاع في أقوال أهل اللغة نجد أنها تتلخص في أن أصل معنى التدبر مأخوذ من النظر في أدبار الشيء وعواقبه ونهاياته(٥٨).

---

(٥٨) انظر لسان العرب،٢٧٣/٤التعريفات للجرجاني ص ١٦٧، المعجم الوسيط ٢٦٩/١، مختار الصحاح ص٩٦.

ومن خلال هذه المحددات رأيت أن أطرق هذا الباب مسهباً إسهاباً غير ممل ولا مخل محاولاً كشف اللِّثام على النحو الآتي:

أولاً: دِلَالَةُ مُشتَقَّاتِ مَادَّةِ (التَّدَبُّرِ) فِي اللُّغَةِ:

بالنظر في معاجم اللغة نجد أن المادة الأصلية لكلمة التدبر هي: (د ب ر)، وهذه المادة تدل على معان عدة، هي:

١- الذَّهَابُ وَالانصِرَافُ وَالتَّولِّي:

يقول **الخليل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**ت١٧٠هـ**): «ويقال للقوم في الحرب: وَلُّوهم الدُّبُرَ والإدبار، والإدبار التولية نفسها ... وإدبار النجوم ، عند الصبح في آخر الليل إذا أدبرت مولية نحو المغرب»[٥٩].

ويؤيد هذا المعنى قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ (الأنفال : ١٦).

---

(٥٨)العين، الخليل بن أحد الفراهيدي، مادة (دبر) بتصرف.

وكما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ (الطور:٤٩) أي: عند ذهابها في آخر اللَّيل مع قرب قدوم الصُّبح.

ويقول **ابن سيده** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**ت ٤٥٨هـ**): «دبر الليل والنهار يدبر دبورا»[٦٠]، أي: ذهب وولى.

٢ - مُؤْخِرَةُ الشَّيءِ وَنِهَايَتَه:

لذا تذكر هذه المادة في مقابل القابل والقبل كثيرا، ويكنى بهما عن العضوين المعروفين، ويطلق "الدُّبُر" على الظَّهْر أيضاً كما هو معلوم.

وقد نصَّ على ذلك **الخليل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «دُبُر كُل شَيءٍ خلاف قُبُلِه ما خلا قولهم: جَعَلَ فلانٌ قولي دَبْرَ أُذُنِه؛ أي خلف أُذُنُه، ودُبُرَ أذنه»[٦١].

ويقول **ابن سيده** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "ودُبُرُ كل شيء: عَقِبُه ومؤخِّره، ودُبُر الشَّهر: آخره، يقال: جئتك دبر الشَّهر، وفي دُبُره، والجمع من كل ذلك أدبار... ودُبُر البيت مؤخره وزاويته[٦٢].

---

(٦٠) المخصص، ابن سيدة، باب فعلت وأفعلت، ٤٤٤.

(٦١) العين، مادة (دبر) .

ومن ذلك: الدُّبُر الذي يكنى به عن مؤخِّرة الإنسان ونحوه، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ (الأنفال :٥٠)، وذلك : "حين يتوفى الملائكة أرواح الكفَّار، فتنزعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه"[٦٣].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ (يوسف:٢٦-٢٧).

ومنه قيل للنحل: (الدَّبر)؛ لأنَّه يُعقب ما يُنتفع به[٦٤]، أو لأنَّ سلاحها في أدبارها[٦٥].

وهكذا قيل للمال الكثير: (الدِّبْر)؛ لأنَّه يبقى للأعقاب[٦٦].

---

(٦٢) المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن، علي بن إسماعيل بن سيده ٩/٣١٠ "دبر".

(٦٣) جامع البيان، للطبري (٣١٠هـ) ١٣/١٥.

(٦٤) ينظر: معاني القرآن للزَّجَّاج (٢/٨٢).

(٦٥) ينظر: المفردات ص: ١٦٥ (مادة: دبر).

وقد جمع **الزمخشري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت **٥٣٨هـ**) كثيرا من أقوالهم في ذلك، ومما ذكره قولهم: «قبَّح الله ما قَبُلَ منه وما دَبُرَ، والدلو بين قابل ودابر: بين من يقبل بها إلى البئر وبين من يُدبر بِها إلى الحوض، وما بقي في الكنانة إلا الدَّابر وهو آخر السهام، وقطع الله دابِرَهُ وَغابِرَهُ، أي آخِرَه وما بقي منه، وصكَّ دابرتَه؛ أي: عرقوبه»[٦٧].

٣- النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ وَأَوَاخِرِهَا: وقد يكون هذا من الدلالة المجازية المنقولة من الدلالة الحسية التي سبق ذكرها، يقول **الخليل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتَّدبير: نَظَرٌ في عَوَاقِبِ الأُمُورِ، وفلانٌ يَتَدَبَّرُ أعجازَ أمورٍ قد وَلَّت صدورُها»[٦٨]. أي: يتأمل فيها وينظر في عواقبها. ويقال: "استدبر فلان من أمره ما لم يستقبل، أي : نظر فيه مستدبراً فعرف من عاقبته ما لم يعرف من صدره، ويقال: تدبَّر: نظر في إدباره؛ أي: في عواقبه " [٦٩].

---

(٦٦) ينظر: معاني القرآن للزَّجَّاج (٨٢/٢).

(٦٧) أساس البلاغة، الزمخشري مادة (دبر) .

(٦٨) العين، مادة (دبر) .

(٦٩) العين ٣٣/٨ (دبر) بتصرف.

وقال **ابن منظور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " دبَّرَ الأمر وتدبَّره، أي: نظر في عاقبته. واستدبره: رأى في عاقبته ما لم ير من صدره، وعرف الأمر تدبراً، أي: بأخرة.

ويقول **الزبيدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت **١٢٠٥**هـ): «ويقال: عَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّرَا، أَي: بِأَخَرَةٍ.

قال **جَرِير**:

وَلَا تتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصِيبكُم وَلَاتعْرِفُونَ الأَمْرَ إِلَّا تَدَبُّرَا»[٧٠]

قال أَكْثَمُ بنُ صَيفيّ لبنيه : "يا بَنِيَّ، لا تتدبَّروا أعجاز أمور قد ولَّت صدورها" [٧١].

ولذا قيل: هو النظر في العواقب بمعرفة الخير، أو إجراء الأمور على علم العواقب[٧٢].

---

(٧٠) تاج العروس، مادة(دبر) .

(٧١) ينظر: تفسير الرَّازي (١٩٦/١٠)، تفسير النَّيسابوري (٤٥٥/٢)، اللّسان (٢٧٣/٤)، تاج العروس(٢٦٥/١١).

(٧٢) ينظر: التعريفات ص: ٥٦.

والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتَّدبر: التفكُّر فيه، وفلانٌ ما يدري قِبَال الأمر من دَباره، أي: أوَّله من آخره، ويقال: إنَّ فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لَهُدي لِوِجْهَةِ أمره، أي: لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره(٧٣).

وفي الحديث : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ " لو استقبلت من أمري ما استدبرت" (٧٤)، فأضاف التدبر إلى شأنه وأمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

٤- التَّقَاطُعُ والهِجرَانُ:

يقول **الخليل** رَحِمَهُ اللَّهُ : «والتَّدَابُر: المُصَارَمة والهجْران، وهو أن يُوَلِّي الرَّجُلُ صاحبَه دُبُرَه، ويُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِهِ» (٧٥)

---

(٧٣) لسان العرب ٢٦٨/٤، وينظر : تهذيب اللغة ٨٠/١٤ .

(٧٤) أخرجه البخاري في كتاب التمنّي، باب قول النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ " لو استقبلت من أمري ما استدبرت" ٧٧٢٦.

(٧٥) العين للخليل، مادة (دبر) .

قال **أبو عبيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " والتدابر: المُصَارمة والهجران، مأخوذ من أن يولِّي الرَّجل صاحبه دبره وقفاه، ويعرض عنه بوجهه وبهجره[٧٦].

وفي الحديث : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ... " [٧٧]

فالتدابر المعاداة، وقيل المقاطعة؛ لأنَّ كل واحد يولِّي صاحبه دبره [٧٨] وقيل: لا يذكر أحدكم صاحبه من خلفه[٧٩].

٥- التَّجَاوُزُ:

جاء في الأساس: «دبر السهمُ الهدفَ: جازه، وسقط وراءه»[٨٠].

---

(٧٦)العين للخليل، ٣٤/٨ مادة (دبر)، وتاج العروس ٢٦٥/١١ بتصرف .

(٧٧) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر ٢٥٥٨.

(٧٨) ينظر " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١١٦/١٦.

(٧٩) بصائر ذوي التمييز ٥٨٧/٢ (دبر) .

(٨٠)أساس البلاغة، مادة (دبر) .

٦- التَّتَبُّعُ وَالتَّعَقُّبُ:

يقول **الخليل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «والدابِرُ : التابع، ودَبَرَ يَدبُرُ دَبْرَا، أي: تَبَعَ الأَثَر، وقوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿والليلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] ؛ أي: ولَّى ليَذهَبَ ، ومَنْ قرأَ : دَبَرَ، أي: تَبعَ النَّهار،. واستَدْبَرَ فُلَانٌ فُلَاناً من حينه: أي حِينَ تولَّى تَبعَ أمرَهُ»[٨١].

وجاء عند **الأزهري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**٣٧٠هـ**):«قال: ويقال: عقَّبت الأمر، إذا تدبَّرته، قال: والتعقُّب: التدبُّر والنَّظر ثانيةً.

قال **طفيلٌ الغنوي**:

فَلَن يجِدَ الأقْوَامُ فِينا مَسبَّةً — إِذَا اسْتُدْبِرَت أَيَّامُنَا بِالتَّعَقُّبِ

يقول: إذا تعقبوا أيامنا لم يجدوا مَسَبَّةً»[٨٢]

---

(٨١) العين، مادة (دبر) .

(٨٢) تهذيب اللغة، الأزهري، مادة (عقب) .

٧- رِيحٌ خَاصَّةٌ:

تُسمَّى بالدَّبور، «وسميت دبورا؛ لأنها تجيء من دُبُرِ الكعبة»[٨٣]

وَهُناك معان أخرى يمكن استنباطها من إيرادهم التدبر تفسيراً لبعض الكلمات ، ومن ذلك:

٨ - الحَرثُ:

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (**الأساس**): «وحرثت القرآن: أطلت دراسته وتدبره»[٨٤]

٩- التَّطْفِيلُ:

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وطفلت الكلام ورشحته: تدبرته»[٨٥]

---

(٨٣) جمهرة اللغة، لبن دريد، مادة (دبر) .

(٨٤)أساس البلاغة، مادة (حرث) .

(٨٥)أساس البلاغة، مادة (طفل) .

١٠- الفَلْي:

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «فليت الشعر: تدبَّرته وفتشت في معانيه»[٨٦]

١١- الاقتِدَاحُ:

جاء في (**الأساس:**) «ومن المجاز: اقتدح الأمر: تدبره»[٨٧]

١٢- التَّعَقُّلُ:

«التعقل: التدبر، وتعقلت الشيء تدبرته»[٨٨]

العقل :هو الحجر والنهى، ضد الحمق، وأصل العقل : الإمساك والاستمساك، ومنه عقل لسانه أي : كفّه، والرَّجل العاقل : هو الجامع

---

(٨٦)أساس البلاغة ٣٥٩/١.

(٨٧) أساس البلاغة، مادة (قدح).

(٨٨) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية (دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت ، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ) (ج / ١ص ١٨٨).

لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير : إذا جمعت قوائمه، وقيل : العاقل : الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها.

والتعقل : هو التثبت في الأمور، وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورُّط في المهالك، أي يحبسه.

أو هو : القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل.

العلاقة بين التدبر والتعقل في أمرين :

أولهما : أن التعقل قائم في أصله اللغوي على المنع، ففيه معنىً يقضي بإدراك المعاني التي تعقل الإنسان وتمنعه من المخالفة، وهذا بخلاف التدبر فهو كما مرّ : تعقُّب للوصول إلى أدبار المعنى.

ثانيهما : التدبر طريق التعقل، وترددت جملة ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ ثمان مرات، ونلمح هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ (العنكبوت :٤٣)، والله أعلم.

١٣- التَّولِّي والذَّهاب:

ومن ذلك أنَّه " يقال للقوم في الحرب إذا فرَّوا: ولَّوهم الدُّبُر والأدبار. وأمَّا الإدبار فالتَّولية نفسها، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ (الطور:٤٩) عند الصبح في آخر الليل إذا أدبرت مولِّية نحو المغرب "[٨٩]. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦﴾ (الأنفال: ١٦).

وكما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ (الطور:٤٩) ،أي: عند ذهابها في آخر الليل مع قرب قدوم الصبح.

وكما ورد عند الخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ويقال للقوم في الحرب : وَلُّوهم الدُّبُرَ والإِدبار، والإدبار التولية نفسها ... [٩٠] . ومنه قولهم : " دَبَرَ بالشَّيء: ذهب به. ودَبَرَ الرجلُ: ولَّى وشَّيَّخَ " [٩١].

(٨٩) كتاب العين ٨/٣٢ (دبر) .

(٩٠)العين، الخليل بن أحد الفراهيدي، مادة (دبر) بتصرف.

(٩١) لسان العرب لابن منظور ٤/٢٦٨ "دبر".

ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿والَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] أي: ولَّى وذهب.

ومن خلال النظر في كل ما سبق نلحظ تقارب المعاني، وأنَّ جُلَّهَا يعود إلى عاقبة الشيء ومؤخرتِه، وقد كفانا **ابن فارس** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت **٣٩٥هـ**) مؤونة ردِّ تلك المعاني إلى معنىً كليٍّ بقوله: (دبر) الدال والباء والراء، أصل هذا الباب: أنَّ جُلَّهُ في قياسٍ واحد، وهو آخِرِ الشَّيء وخَلْفُه خلافُ قُبُلِهِ، وتشذُّ عنه كلماتٌ يسيرة نذكرُها، فمعظم الباب أنَّ الدُّبُرَ خِلَافُ القُبُلِ»[٩٢].

ووجَّهَ **ابن فارس** رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً من الأقوال وفقا للمعنى الذي ذكر فقال: « ... من ذلك: ودبَّرْتُ الحديثَ عن فُلَانٍ ، إذا حدَّثتَ به عنه، وهو من الباب؛ لأنَّ الآخِرِ المحدِّثَ يَدْبُرُ الأوَّلَ يجيءُ خَلْفَه... وقد دَبَرَ يَدْبُرُ دُبُوراً ، والدَّبَرَانُ: نجمٌ ، سمِّي بذلك؛ لأنه يَدْبُرُ الثُّرَيَّا ، ودابرتُ فُلَانَاً : عاديته، وفي الحديث: «لا تَدَابَرُوا»، وهو من الباب، وذلك أن

---

(٩٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م)، مادة (دبر).

يتْرُك كلَّ واحد منهما الإقبالَ على صاحبه بوجهه، والتدبير: أن يُدَبِّرَ الإنسان أمره، وذلك أنَّه يَنظُرُ إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه... والدَّابِر من القِدَاح: الذي لم يَخْرُج، وهو خلاف الفائز، وهو من الباب؛ لأنه وَلَّى صاحِبَه دُبُرَه. والدَّابر: التَّابع؛ يقال: دَبَرَ دُبُورا. وعلى ذلك يفسَّر قوله جلَّ ثناؤُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾[المدثر:٣٣]يقول: تَبعَ النَّهارَ .. وأما الكلمات الأُخَرُ، فَأُراها شاذَّةً عن الأصل الذي ذكرناه، وبعضُها صحيح»[٩٣].

وبهذا ندرك أنَّ دلالات هذه المادة يمكن أن ترشدنا إلى أنَّ (التدبُّر) يحتاج إلى: التتبُّع للوصول للغايات، وأواخر الأشياء.

وإنما أَورَدتُّ كلَّ ما يخص هذه المادة من معان من أجل الاستقصاء؛ ليمكننا بعد ذلك الخروج بمعنى مناسب لدلالة التدبُّر في القرآن، وفي نظري أن المعاني المذكورة تآزرت بصورة واضحة في دلالة أشرت إليها قبل قليل.

---

(٩٣) مقاييس اللغة، مادة (دبر) .

ومع هذا، فأنا لا أرى ما يدعو إلى التعمُّق في البحث اللغوي إلا للمختصين، أما عند مخاطبة الناس بهذا الموضوع، أو التأليف، فأرى أن يقصر الأمر على ما يفهمه الناس بسهولة، حتى لا نقيم حدوداً أو حواجز تضيق من مساحة التدبر الواسعة.

وفي رأيي أن عامة المسلمين يفهمون المعنى العام من مصطلح (تدبر القرآن)، ولهذا فلا أرى مناسبة للتَّوسُّع فيه على ما ذكر، إلا للبحوث المتخصصة، وهذا إحداها.



وعلاقته بمصطلحات
التأويل والاستنباط والفهم والتفسير

ثانياً: تحرير العلاقة والفروق الدلالية بين التدبر والمصطلحات القرآنية الأخرى وأيضا بعض مرادفاته من حيث اللغة:-

قد يبدو للوهلة الأولى أن بعضاً من المصطلحات والمفاهيم القريبة من معنى (التدبر) تتداخل معه وتلتبس به؛ كالاستنباط والتعقل والتّفكُّر ... والأمر بخلاف ذلك، حيث إنّ القرآن استعمل كلاً على حدة؛ وبما أنَّ التدبُّر لم يُذكر في القرآن إلا مع القرآن، فهذا يعني خصوصية لهذه الكلمة ليست لغيرها، مما يرى أنه بمعناها مثل: التفكُّر، والتَّأمُّل، والنَّظر، والتَّفسير، والتَّأويل، ولهذا رأيت أنَّ مما يمكن أن يُسهم في تجلية معنى التدبُّر وتحديد مفهومه بيان الفروق الدِّلاليَّة بينه وبين هذه الكلمات؛ لإدراك سر اختصاص كل منها بما اختص به لذا كان لزاماً أن نقف على أهم المعالم لكل مصطلح منها بعد معاناة طويلة

ومشقة مضنية في مراجعة ما كتِب حول تلك المصطلحات في كتب التفسير واللغة المختلفة، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها، والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وهذه المصطلحات القرآنية السالفة بينها حتما فوارق دقيقة، وإلا فعقلاً ومنطقاً لو كانت متحدة في معناها من كافة الوجوه؛ لاكتفى المولى عَزَّوَجَلَّ بأحدها عن الأخرى في الذكر الحكيم، هذا الكتاب المعجز الذي وضعت فيه كل لفظة بقسطاس مستقيم، وعلى ذلك فإن المقصود بالتدبر يختلف عن غيره من بقية المصطلحات، لكنه ليس اختلافا متضادا كالاختلاف بين القيام والجلوس، والنوم واليقظة، والمرض والصحة، والضحك والبكاء، فهذه الألفاظ لا يمكن أن تجتمع معانيها بأي وجه من الوجوه، عكس المفاهيم محل الدراسة، فهي وإن افترقت من وجه؛ فإنها قد تلتقي من وجه آخر مثل التقاء معاني الأفعال "حَصْحَصَ وظَهَرَ ، ونَتَقَ ورَفَعَ، وقَطَعَ وانْفَصَلَ" من وجه، وافتراقها من وجه آخر، وأؤكد على أنَّ

القرآن الكريم يجب أن يكون منطلقنا في بيان معاني هذه المصطلحات، بعيدا عن الأهواء والتحزبات والتعصبات لدى بعض المفسرين، واللغويين، والأصوليين الذين فسَّروا هذه المصطلحات وفق مذاهبهم ومناهجهم بعيدا عن دلالتها القرآنية منطوقا أو مفهوما، وإليك بيانه كما يلي:

التَدَبُّرُ وَالتَّفَكُّرُ:

التَّفكُّر : التَّأمُّل، يقال : فَكّر في الأمر فِكْراً أي : أعمل العقل فيه، ورتَّب بعض ما يُعلم ليصل به إلى مجهول.

والاسم : الفِكْرُ والفِكْرَةُ. والمصدر : الفَكْرُ بالفتح، وبابه نَصَر، ورجلٌ فِكّيرٌ بوزن سكّيت : كثير التَّفكُّر، وفكَّر في الأمر مبالغة في فكر، وهو أشيع في الاستعمال من فَكَرَ، وفكّر في المُشكِلة : أعمل عقله فيها ليتوصَّل إلى حلِّها[٩٤].

---

(٩٤) ينظر : مختار الصحاح ص٥١٧، ولسان العرب ٦٥/٥، والمعجم الوسيط ٦٩٨/٢ " فكر ".

وردت مادة (فكر) في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعاً[٩٥]، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر. وإنَّما جاءت في صيغ فعليّة، مثل : "فكَّر "، " يتفكرون "، " تتفكرون ".

وقد يأتي التَّفكير في القرآن بمعنى النَّظر العقلي والتَّأمُّل، والانتقال من المقدمات العلمية أو الظَّنيَّة إلى ما يترتب عليها من نتيجة علمية أو ظنية.

قال صاحب "المنار" رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واستعمال القرآن للتَّفكر والتَّفكير يدل على أنَّهما في العقليَّات المحضة أو في العقليَّات التي مبادئها حسيَّات ... وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله، ودلائل وجوده، ووحدانيَّته وحكمته ورحمته "[٩٦].

---

(٩٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٥٢٥ مادة ف ك ر.

(٩٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٩، ص٣٨٥.

وعند الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الفكر والنَّظر مسميان لمسمىً واحد، ف "النَّظر والفكر عبارة عن ترتيب مقدمات علميَّة أو ظنِّيَّة؛ ليتوصل بها إلى تحصيل علم أو ظنّ" (٩٧).

وقال الرَّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " النَّظر : تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التَّأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرؤية. يقال : نظرت فلم تنظر، أي : لم تتأمَّل ولم تتروَّ، وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ (يونس :١٠١) أي : تأمَّلوا "(٩٨).

ويقول **ابن سيده** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «الفَكْر ، والفِكْر: إعمال الخاطر في الشيء»(٩٩)، وجاء في القاموس :« الفِكْرُ - بالكسر، ويفتح:- إِعمالُ النَّظَرِ في الشَّيء»(١٠٠)، وجاء عند **ابن فارس** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «(فكر) الفاء

---

(٩٧) معالم أصول الدين، الرازي، ص٢٠.

(٩٨) مفردات غريب القرآن، الرَّاغب الأصفهاني، ص٤٩٩.

(٩٩) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة، مادة (فكر) .

(١٠٠) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة (فكر) .

والكاف والراء تردُّد القلب في الشيء، يقال: تفكرَّ إذا ردَّدَ قلبَه مُعتبِراً»[١٠١].

ظهر جليا من خلال عرض عبارات أهل العلم في التدبر بمعناه العام، أو الخاص، وما ذكره المفسرون عند تفسير الآيات المتعلقة بذلك- أن الكثيرين يفسرون التدبر بالتفكر؛ وذلك لما بينهما من المقاربة الشديدة، وقد فَرَّق بعضهم-كما سبق- بأن التدبر: تَصرف القلب بالنظر في العواقب، وأما التفكر: فتَصرفه بالنظر في الدلائل.

ومن ثمَّ يكون للتَّدبُّر معانٍ فكريَّة وروحيَّة، تتصل بمقامات التَّعبُّد، والتَّقرُّب إلى الله، واتصال أشواق الرُّوح به سبحانه، خلاف " التَّفكر " الذي يقترب في مهامه من مقاصد المعرفة واستكشاف الدلائل والأحكام؛ المستلزمة للتَّعبُّد والخضوع والاستسلام لله.

ومِمَّا سبق يتبيَّن أنَّ :

بينهما تقارب ولذا فقد يجتمعان في شيء واحد فيقال تفكَّر في الكلام وتفكَّر في الخلق، والفرق بينهما من وجهين:

---

(١٠١) مقاييس اللغة، مادة (فكر).

أولاً: أن التَّفكر أظهر في النَّظر في الآيات الكونية الواقعة والمشاهدة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يونس: ٢٤)، وهذا غالب استعمال القرآن.

وقد يأتي بمعنى التفكر في الآيات القرآنية كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل: ٤٤) كما يغلب على أيات التَّفكر أسلوب الحثّ؛ حيث تكرَّرت جملة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ في سبعة مواطن من آيات التفكر، فضلاً عن أربعة أخرى بصيغة الخطاب من مجموع ثمانية عشر موضعاً في القرآن، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّفكُّر يخاطب به الجميع، وهذا مماثلٌ للتَّدبُّر فهو خوطب به الجميع كما مرَّ.

- أما التَّدبر فهو أظهر في النظر في الآيات القرآنية كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

ثانياً: أن التَّدبر تصرُّف القلب بالنَّظر في العواقب ، والتَّفكر تصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّلائل .. وقد أبان **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين التَّدبر والتَّأمل والتَّفكر والنَّظر والتَّذكر والاعتبار والاستبصار فقال: " هذه معانٍ متقاربةٌ تجتمع في شيءٍ، وتتفرق في آخر: فيسمى تفكُّرا لأنه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده ".

ويسمى تذكراً لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه.

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتفكر يحصله والتذكر.

ويسمى نظراً لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه.

ويسمى تأملاً لأنه مراجعة للنَّظر كرَّة بعد كرَّة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

ويسمى اعتباراً وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبرة؛ إيذانا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به.

ويسمى تدبراً لأنه نظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها .. وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين.

ويسمى استبصاراً وهو استفعال من التَّبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة".

ويظهر من هذا: أنَّ **التَّفكُّر هو استخدام للعقل المشار إليه بالنظر والقلب**، ومن دلالته الوصول إلى الغايات، والاعتبار بالمشاهدات وما يماثلها من دلائل القدرة، لذا فإني أري أن الآيات أعمّ من كونها مسطورة، فهي منظورة ومسطورة، والتَّدبر يكون في آيات الكون، وفي الآيات المتلوَّة في آن واحد، ولا يمكن أن تفسَّر هذه بدون تلك ؛ لأن ذلك هو مجال، وقد أجاد **أبو هلال العسكري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين جعل جوهر

الفرق بين اللفظين يرجع إلى مقصد كل منهما (العواقب ، والدلائل)، بناء على الفرق المعجمي في دلالة كل منهما، فقال:

(الفرق بين التَّدبر والتَّفكُّر: أن التَّدبُّر: تصرُّف القلب بالنَّظر في العواقب، والتَّفكر: تصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّلائل). [١٠٢]

كما أنَّ التَّفكر يختلف عن التَّدبُّر من حيث تعلقه، وذلك لأنَّ متعلقه مختلف عن متعلق التدبر، حيث يكون التَّفكر في الآيات المتلوَّة والمشاهدة في الكون والنَّفس.

أمَّا التَّدبُّر فمتعلقه في المقام الأول الآيات المتلوَّة دون غيرها، فيختص التدبر بتحصيل الذكرى عن طريق النَّظر في الآيات القرآنية، بينما يختص التَّفكر بتحصيل الذكرى بالآيات الكونية. هذا هو الغالب، ولكن مع هذا يؤول أحدهما إلى الآخر، أي أنه توجد علاقة جدلية بينهما، فالتَّدبر للقرآن يقودك إلى التَّفكر في الوجود، والتَّفكر في الوجود يعود بك إلى تدبُّر القرآن، وهما في جميع الأحوال يثمران تذكراً للقلب وذكرى.

---

(١٠٢)الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري١٢١/١ .

علاوة على ذلك فالتَّدبر يتجاوز الحاضر إلى المستقبل؛ لأنه يعني النظر العقليّ إلى عواقب الأمور، والتَّفكر جولان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقلية عن طريق الدليل، والله أعلم.

من الملاحظ أنَّ غالبية آيات التَّفكُّر وردت في الآيات المكّيَّة، وهذه الكثرة تتوافق مع طبيعة وأهداف الدَّعوة المكيَّة في التَّركيز على تقرير مسائل التوحيد والنبوة والبعث وحقائق الوجود الأخروي، وبالمقابل ضرب الأفكار السائدة في المجتمع الجاهلي آنذاك، وبالتَّالي تأسيس منهج فكري منضبط صالح لبناء مقومات الشخصية الإنسانية وفق شريعة الخالق.

وبما أنَّ التفكير عمليَّة تنتج فكراً، فمن الضروري أن تقوم هذه العملية على عدّة عناصر تشترك وتتفاعل فيما بينها لاكتمال عمليَّة الإنتاج.

وبالنظر إلى ما سبق من تعريفات التفكير والرجوع إلى الآيات القرآنية؛ نستطيع أن نستنتج عناصر عملية التفكير، وهي:

العنصر الأول: الواقع: وينحصر في الأشياء والأمور الواقعة ضمن نطاق الحواس. والآيات القرآنية ذكرت الواقع باعتباره مجالاً وميداناً للتفكر.

العنصر الثَّاني: المعلومات السابقة: حيث تعد المعلومات السابقة الركن الأهم في عملية التفكير. فبموجبها يتحدد نوع الفكر المحكوم به على الواقع ودرجة صحته، وهي تُشكل القاعدة الفكرية لعملية التفكير وبناء العقليَّة وضبط السلوك.

العنصر الثالث: العقل: وهو مخزن المعلومات ومحلُّ تحليلها والتفاعل فيما بينها، والربط بينها وبين الواقع محلّ التفكّر. فالقرآن الكريم لا يذكر الأفئدة إلا معطوفة على السمع والأبصار. والذي يساعد على هذا الفهم حصر وظيفة السمع والبصر في نقل صورة المحسوس إلى العقل، والله أعلم.

العنصر الرابع: الحواس: وهي وسيلة نقل الإحساس بالواقع إلى العقل. وورد ذكر الحواس في كثير من الآيات القرآنية كأدوات إدخال صور المحسوسات إلى العقل.

وبناء على ما سبق تبيّن أن: " لمنظومة العقل آليات معينة تعمل معاً، لتحقق المفهوم الذي جاء في القرآن، فالتَّفكير والتَّقليب والتأمل وإمعان النَّظر والإنضاج وتوفير المعرفة والبحث عنها، جميعها آليات للعقل تعمل معاً في توازن دقيق وحركة دائمة، موضوعها هو الواقع، يشارك في إدراكه الحواس وقوة العقل والمعارف المكتسبة وقوى النفس المختلفة، جميعها تعمل معاً، فليس هناك جهة واحدة مسؤولة عن العقل دون أخرى، بل جميع قوى الإنسانية الداخلية تشارك جنباً إلى جنب في عملية العقل، فإن وصلت إلى غايتها فقد حصل العقل، وإلا فلا يخرج الإنسان عن كونه كالأنعام بل أضل سبيلا، فالكافرون والعاصون - مثلاً - لا يتحقق عندهم مفهوم العقل، بالرغم من أنهم يمارسون كثيراً من فعاليات التفكير، إلا أنهم لا تكتمل عندهم منظومة العقل، فوصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون.

فالعقل بهذا المعنى: وازعٌ يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف ".

في ضوء استقراء وتدبُّر الآيات القرآنية التي وردت فيها مشتقات "التعقل" و"التفكر"، أستطيع أن أستنتج بعض الملاحظات التي

تساعدنا على فهم العلاقة بين التَّعقُّل والتَّفكُّر في استعمال القرآن، ونجمل هذه الملاحظات بالآتي:

الفرق الجوهري من حيث المعنى اللغوي بين التَّفكير والتَّعقُّل : هو أنَّ

التَّعقل: ربط ومنع.

والتفكر: تقليب وترديد.

فالقدرة التفكيرية تختلف عن القدرة العقلية.

عملية التَّعقُّل خاصَّة، يتَّصف بها أهل العلم المنتج للإيمان الذين يتفكَّرون في الغاية من الخلق ويدركونها فقط، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ٤٣﴾ (العنكبوت:٤٣)، أمَّا الكفار الذين لا يدركون الغاية من الخلق؛ فصفة التَّعقُّل منفية عنهم ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٧١﴾ (البقرة:١٧١).

فعملية التفكر عامَّة يشترك بها جميع الناس الذين يملكون عوامل التَّفكير، كما أنَّ عملية التَّفكير قد تنتج حكماً عقليَّاً صائباً، وقد تنتج فكراً

منحرفاً خاطئاً، ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ (المدثر:١٨-٢٠)، أمَّا التعقل فلا ينتج إلا صواباً وحكمة.

إنَّ التَّعقُّل ليس هو التفكير والتدبر، وإنَّما هو نتيجة له. فقد يحصل تفكرٌ أو تدبرٌ ولا يحصل منه تعقل، ولا تعقل بدون تفكر أو تدبر، فعمليَّة عقل الشيء تأتي مع تفكير وتدبر له ولما يتعلق به، وكلٌّ منها لازم للوصول إلى الحكم العقلي الصحيح الذي يعد نتيجة للنظر والاعتبار في النص أو الخلق.

ولا يخفى أن الواقع في الاستعمال أوسع من ذلك؛ حيث صار يعبر بكل منهما من غير مراعاة لِمتَعلَّق النظر في كل لفظة، والله أعلم.

التَدَبُّرُ وَالنَّظَرُ:

جاء في «العين»: «تقول: نَظَرتُ إلى كذا وكذا من نَظَر العين، ونَظَر القلب»[١٠٣] وفي «المقاييس»: « (النون والظاء والراء) أصلٌ صحيح، يرجع فروعه إلى معنىً واحد، وهو تأمُّلُ الشَّيء ومعاينتُه، ثم يُستعار ويُتَّسَع فيه، فيقال: نظرت إلى الشَّيءِ أنظُر إليه، إذا عاينتَه» [١٠٤]

ويتضح من هذا: أنَّ عماد هذه الكلمة (النظر) هو المعاينة التي أداتها العين، وبذا يكون النظر أقرب للتفكر منه إلى التدبر، وأرى أن الاثنين (التفكر والنظر) أداتان يمكن أن يوصلا إلى القدرة على التدبر.

---

(١٠٣)العين، مادة (نظر).

(١٠٤)مقاييس اللغة، مادة (نظر).

التَدَبُّرُ وَالتَّأَمُّلُ:

يقول **الخليل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «التأمُّلُ: التَّثَبُّتُ في النَّظَرِ، قال:

تأمَّلْ خليلي هل تَرَى من ظَعَائنٍ تحمَّلْنَ بالعَلْيَاءِ من فَوْقِ جُرْثُمِ» [(١٠٥)]

وجاء في «القاموس المحيط»: «تأمَّلَ: تَلَبَّثَ في الأَمْرِ والنَّظَرِ»[(١٠٦)]، وقال **ابن فارس** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «(أمل) الهمزة والميم واللَّام أصلان: **الأوَّل**: التَّثبت والانتظار، **والثاني**: الحبْل من الرَّمل»[(١٠٧)]

ويتضح من هذا: أنَّ التَّأمُّل يدور حول التَّثبت والتَّلبث والانتظار، وعليه فالتَّأمل يعني: تدقيق النَّظر في الأمور بغرض التَّثبت والتَّحقق، أو الاتّعاظ والتَّذكر.

ومن هذا الوجه يختلف عن التدبر الذي يراد منه التَّتبُّع حتى الوصول إلى غاية المقصد.

---

(١٠٥) العين، مادة (أمل).

(١٠٦) القاموس المحيط، مادة (أمل) .

(١٠٧) مقاييس اللغة، مادة (أمل).

وقد عرَّفه **العسكريُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «التأمُّل هو: النظر المؤمل به معرفة ما يطلب ولايكون إلا في طول مدة، فكل تأمُّل نظر، وليس كل نظر تأمُّلاً»[108].

وقريب منه قول **المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «التأمُّل: تدبُّر الشيء وإعادة النظر فيه مرةً بعد أخرى ليتحقَّقَهُ»[109].

الفرق بين التدبر والتأمل في أمور ثلاثة:

الأول: التَّأمُّل أعمّ من التَّدبر، حيث عرَّفه **ابن القيم** بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبرها وتعقلها. بخلاف التدبر فهو الفكر الواصل إلى أواخر دلالات الكلام وأدبارها.

الثاني: أنَّ التَّدبر من عمل القلب وحده، ولا يشترط فيه الديمومة والاستمرار، بخلاف التَّأمُّل فهو يحتاج إلى طول وقت وتأن وتثبت في الأمور، وروعي فيه إدامة النَّظر، ومن ثمَّ فلا تكون النظرة الواحدة تأمُّلا.

---

(١٠٨) الفروق اللغوية ١/٥٤٣.

(١٠٩) التعاريف ١/١٥٦.

الثالث: أنَّ التأمل قد يحدث بالبصر وحده، أو بالبصر يعقبه التفكر، أما التدبر فيكون في دلالة ومآلات المعاني التي تؤثر بالبصيرة، والله أعلم.

التَّدبُّر والتَّفسير:

التفسير مأخوذ من (الفَسْر) ويعني: البيان وكشف ما غُطِّي، يقال: فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكسر، ويَفْسُرُه بالضم فَسْرَاً: أبانه، والتشديد أعمّ، وبه جاء القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ (الفرقان:٣٣) أي: بياناً وتفصيلاً[١١٠].

وعلى هذا فالمادة تدور في اللُّغة حول معنى (التوضيح والبيان)، هذا ويعرّف التَّفسير في أبسط تعاريفه بأنه: " علم يُعرف به فهْم كتاب الله المنزل على نبيّه محمد صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه" [١١١].

قال ابن فارس رَحِمَهُٱللَّهُ : « الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه»[١١٢]، وهذا يعني: أنَّ التفسير مبناه على الكشف والإيضاح، ويكون له مرتكز محدد كاللُّغة مثالاً، ولهذا نجد

---

(١١٠)يراجع : جامع البيان ٢٦٧/١٩، وتهذيب اللغة ٢٨٣/١٢، ولسان العرب ٥٥/٥، وتاج العروس ٣٢٤/١٣ (فسر).

(١١١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٣/١

(١١٢)مقاييس اللغة مادة(فسر).

العناية بذكر ما يدل على الإبانة والإيضاح في قول **الزَّمخشري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الأساس»: «وكذلك كلُّ ما ترجم عن حال شيء؛ فهو تفسيره»[(١١٣)].

الفرق بين التَّدبُّر والتَّفسير ظاهر من وجوه:

لابد أن ندرك أن التَّدبر غير التَّفسير، مع العلم أن بعض المعاصرين - منهم بالذات - من قد استعملها على سبيل الترادف. وهذا غير صحيح؛ إذ التفسير شيء والتدبر شيء آخر.

وهذا يتضح من خلال النقاط التالية:

أولاً: أن التفسير هو كشف المعنى المراد في الآيات، والتدبر هو ما وراء ذلك من إدراك مغزى الآيات ومقاصدها، واستخراج دلالاتها وهداياتها، والتفاعل معها، واعتقاد ما دلت عليه وامتثاله.

ثانياً: أن المفسّر غرضه العلم بالمعنى، والمتدبر غرضه الانتفاع والامتثال علماً وإيماناً، وعملاً وسلوكا؛ ولذا فإن التفسير يغذي القوة العلميّة، والتدبُّر يغذي القوة العلمية والإيمانية والعملية.

---

(١١٣) أساس البلاغة ١/٣٥١.

ثالثاً: أنَّ التَّدبر مأمور به عامة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، ولذلك خوطب به ابتداءً الكفَّار في آيات التَّدبُّر، والنَّاس فيه درجات بحسب رسوخ العلم والإيمان وقوة التَّفاعل والتَّأثُّر.

وأما التَّفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحسب الطَّاقة البشريَّة، ولذا فإنَّ النَّاس فيه درجات كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "التَّفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"؛ لأنَّ صناعة التَّفسير والاستنباط تخُصّ فئة محصورة، وهم: أهل الاجتهاد من العلماء ممن يفتون ويقضون في النَّوازل، وفي ذلك نزل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ (النساء :٨٣)، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ (التوبة:١٢٢).

أمّا التَّدبُّر فلعامَّة المخاطبين، قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر ١٧].

ومن هنا نخرج بخلاصة مفادها: أن المفسِّر عالم وفقيه مطَّلع على الحقائق القرآنية والأحكام الشرعية، ووظيفته: تبيينها للنَّاس، بينما المتدبر لا يعدو كونه متَّعظاً وواعظاً، وقد يجمع اللَّه بين الخيرين، على أنَّ العالم الحق لا يصح له إلا أن يكون عالماً ومُفسّراً ومُتدبّراً للقرآن.

ومن هنا يمكن أن نقول: كل مفسر أو عالم متدبر، وليس كل متدبر مفسر أو عالم.

رابعاً: أنَّ التَّدبُّر لا يحتاج إلى شروط إلا فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب، ولذلك قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر : ١٧]، أمَّا التَّفسير فله شروط ذكرها العلماء، لأنه من القول على اللَّه، ولذا تورَّع عنه بعض السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

ولذا يقال لا يعذر المسلم في التَّدبُّر ويعذر في التَّفسير.

خامساً: أنَّ التَّدبُّر واجب على كلّ حال، وأما التفسير فليس بواجب على كل حال بل هو واجب بحسب الحاجة إليه، ولذا جاء الأمر بالتدبر في كتاب الله دون التفسير.

سادساً: أنَّ التَّدبُّر هو الغاية من نزول القرآن لأنه باعث على الامتثال والعمل، وأما التفسير فهو وسيلة للتدبر، ولذا فيقال بأن التدبر أصل والتفسير فرع منه لأنَّ دائرة التَّدبُّر أوسع من دائرة التَّفسير، حيث إنَّ العلماء اشترطوا للمفسّر شروطاً وعلوماً لابدَّ أن يحصّلها حتَّى لا يُتقول على الله تعالى بغير علم، أما التَّدبر نخوطب به الجميع، كلّ حسب طاقته، لكن ينبغي أن ينضبط ليكون في أعلى درجات الصّحَّة والقبول، وبناء على هذا يكون التدبر أعم من التفسير.

فهذا يدل على وجود مؤشر للمعنى يوضح المراد من خلاله، ولهذا يكون التفسير - غالباً - قريباً ظاهراً مفهوماً، بخلاف التدبر، فقد يكون لطيفاً عميقاً، ولأجل هذا الملحظ نجد **المناوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «**التَّفسير**

لغة: الكشف والإظهار، **وشرعا:** توضيح معنى الآية وشأنها وقصَّتها والسبب الَّذي نزلت فيه، بلفظٍ يدلُّ عليه دلالة ظاهره»[(١١٤)]

الفروق بين التأويل والتفسير

١- ورد (التفسير) في الذكر الحكيم مصدرا من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين "فسَّر" [(١١٥)].

بخلاف التَّدبُّر، فقد ورد فعلاً مضارعاً من الفعل الماضي الخماسي (تدبَّر) فهو يختلف عنه من تلك الجهة.

٢- التَّفسير [(١١٦)] لفظة فريدة ووحيدة في القرآن الكريم مادة وصيغة كالاستنباط والتّفهيم، عكس التَّدبُّر فقد ورد في مواطن عديدة كما ذكرنا.

---

(١١٤) التعاريف ١٩٢/١ .

(١١٥) يتفق التَّأويل مع التَّفسير تماماً، فكل منهما ورد من الماضي الرُّباعي المضعَّف العين (التَّفسير) من "فسَّر"، و(التَّأويل) من "أوَّل".

(١١٦) التأويل عكس التَّفسير، فقد ورد في القرآن سبع عشرة مرة، وهذا يؤكد على أنَّ بينهما فروقاً في المعنى، أطال المفسّرون بذكرها، بصرف النّظر عن صحة ما فرّقوا به، مما لا مجال لذكره هنا.

٣- التَّفسير في القرآن وقع تمييزاً لأحسن[١١٧]، وفائدة التمييز إزالة الإبهام الكامن في اللّفظ المميز، والنّص على المراد منه، ولم يرد التَّدبُّر مطلقاً على هذا الوضع الإعرابي بل جاء فعلاً مضارعاً مسبوقاً بالاستفهام الإنكاري ثلاث مرات، مرتين في خطاب المنافقين، ومرة في خطاب الكافرين، وهو في هذه المواضع الثلاثة جاء منفيّاً بأداة النفي (لا) مع المنافقين مرتين، وبأداة النّفي والجزم والقلب (لم) مع الكافرين مرة واحدة، وجاء مسبوقاً بلام التّعليل مع المؤمنين مرة واحدة، وبذلك يختلف الموقع الإعرابي لكل منهما، ومن ثم اختلف الغرض من التعبير بهما؛ لأن الإعراب فرع المعنى، ولذا فقد أنكر على

---

(١١٧) يتفق التَّأويل مع التَّفسير في مجيئه على هذه الحالة الإعرابية تمييزاً لأحسن في موضعين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ (النساء: ٥٩) وقوله تعالى : ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ (الإسراء: ٣٥)، وهذا من التقاء التّأويل مع التّفسير من تلك الجهة.

المنافقين والكافرين عدم التَّدبُّر، وحثّهم عليه، وجعل العلّة من نزوله تدبر المؤمنين فيه. فالتّدبُّر صار كأنّه فرض لازم على هؤلاء، بخلاف التّفسير فليس كذلك كما يشير إليه الموقع الإعرابي.

٤- التّفسير استعمل في تلك الآية على حقيقته اللغوية [١١٨] من الكشف والبيان والإيضاح، والتّدبُّر استعمل كذلك في حقيقته اللغوية، فهما يتفقان من تلك الجهة.

ومن يتأمل في هذين التعريفين يجد بينهما تلازماً واضحاً، لأنّ التّفسير هو البيان والكشف عن المعنى، والتّدبر هو النظر في أدبار

---

(١١٨) يتفق التّأويل في آية آل عمران في معناه اللغوي - وهو الإرجاع وبيان العاقبة والمصير- مع التّفسير الّذي استعمل أيضاً في معناه الحقيقي، ولكن من خلال التّحليل البلاغي اتّضح لنا أنَّ التّأويل يختلف عن التّفسير من جهة أنَّ التّأويل هو الكشف عن المتشابهات الّتي تحتمل دلالات كثيرة، والتّفسير هو الكشف عن معنى اللّفظ حقيقة أو مجازا، أو هو الكشف عن معنى اللّفظ المحتمل معنىً واحداً.

والتّأويل هو الوقوف على حقائق الأمور وكيفياتها، وهذا لا يعلمه إلا المولى عَزَّوَجَلَّ ، بخلاف التّفسير؛ فهو الكشف عن شيء مغطّى يمكن الإحاطة به، وعلمه من خلال مقارنته بغيره، كتفسير القرآن بالقرآن.

الآيات القرآنية وعواقبها للوقوف على معانيها المكنونة فيها، فالتفسير على ذلك وسيلة، والتدبر غاية كما أبانت عنه آية سورة (ص) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ فتدبره هو الغاية من نزوله كي يتمثل به قولاً، وينتفع به سلوكاً وعملاً، ولن يتأتى الانتفاع والامتثال، والاتعاظ والاعتبار، وهي من مقاصد التّدبُّر إلا بعد فهم معانيه، فالمتدبر لابد أن يفهم معاني الألفاظ، وتتضح لديه دلالاتها حتى يتدبر في مكنوناتها وما يعقبها، وعلى ذلك فالتدبر يعد أصلاً للتفسير.

٥- الذي جاء بأحسن التّفسير - مقابل ما يأتي به الكفرة من زخرف القول وبهرجه - هو المولى عَزَّوَجَلَّ مصداقاً لقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾، فضمير العظمة في جئناك يدل على ذلك بوضوح[١١٩]، فالذي يكشف أحسن الكشف، ويبين عن الغرض أعظم البيان هو الله عَزَّوَجَلَّ فأسنده إليه

(١١٩) يتفق التّأويل مع التّفسير هنا في أنّ الذي يعلم تأويل المتشابهات على حقائقها وكنهها هو الله عَزَّوَجَلَّ في مقابل ما يدعيه الزائغون بأنّهم يعلمونها، والّذي جاء بأحسن التّفسير هو الله عَزَّوَجَلَّ في مقابل ما يأتي به كفار قريش من أمثلة وأباطيل فاسدة لتعجيزه.

وحده، ولم يسند لسواه، ولذا كان القرآن معجزا؛ لأنه أحسن نظما وبيانا وتفصيلاً وإيضاحا ومعنى مما يأتون به، أما الذي يأتي بالتدبر أو الذي يتدبر فهم هؤلاء الطوائف الثلاثة كما بينا، فبينهما اختلاف من تلك الجهة.

وهنا نتساءل: هل يجوز أن نسمي آخرين بهذه التسمية؟ أو بمعنى آخر هل يجوز أن نطلق على الذين يكشفون عن معاني القرآن مفسرين؟ نعم بالقياس على ذلك يجوز، شريطة أن يكون المفسر كاشفا الحق، موضحا له، مبينا عنه دامغا به الباطل، وما عدا ذلك لا يسمى مفسرا، وهذا الأمر هو ما جرى عليه معظم المفسرين، فما كان تفسيرهم للذكر الحكيم إلا لهذا الغرض النبيل، ومن هنا يفترق التفسير عن التدبر فالتدبر لعامة الناس، والتفسير قاصر على بعض الناس.

٦- الواقع عليه التفسير في الآية هو القرآن الكريم؛ لأن المعنى إلا جئناك يا محمد بالحق، وجئناك بالأمثلة المفسرة أحسن تفسير وإيضاح وبيان، وما ذاك إلا القرآن، والواقع عليه التدبر هو: القرآن مقرؤءا ومسموعا ومكتوبا كما مر، فهما يلتقيان من تلك الجهة.

التَّأويل :

وهو صرف الآية إلى معنى محتمل، يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط، فقد رُخّص فيه لأهل العلم.

وأمَّا التَّفسِير:

وهو الكلام في أسباب نزول الآية، وشأنها، وقصتها، فلا يجوز إلا بالسَّماع بعد ثبوته من طريق النَّقل.

وأصله في اللُّغة من الفَسر؛ وهو كشف ما غطي، وهو بيان المعاني المعقولة، فكل ما يعرف به الشيء ومعناه فهو تفسير وقد يقال: فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها تفسير.

وقيل: هو من التفسرة: وهو الدليل الذي ينزل فيه الطبيب فيكشف على علة المريض، فكذلك المفسر يكشف عن معنى الآية، وشأنها، وقصتها.

وأما التأويل:

فاشتقاقه من الأول وهو الرجوع إلى الأصل.

وهو: ردُّ الشيء إلى الغاية، والمراد منه بيان غايته المقصودة منه.

فالتَّأويل: بيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافق للفظ الآية.

والفرق بين التأويل والتفسير:

أن التفسير: يتوقف على النقل المسموع.

والتأويل: يتوقف على الفهم الصحيح.

وبهذا يتضح الفرق بينه وبين التَّفسير، فالتَّفسير هو الكشف عن معاني القرآن، ولا يلزم منه عميق تفكير، ولا نظر في العواقب ولا تأثُّر.

والتَّفسير أساس، والتَّدبُّر ثمرة، أو التفسير وسيلة، والتَّدبُّر غاية.

فغاية التفسير: فهم المعنى، وغاية المتدبر: الاهتداء.

والعامل بالقرآن: متدبرٌ، ولا يقال: إنَّه مفسر.

٧- وبناء على ما سبق ذكره يكون لدينا مصطلحان مستنبطان من التفسير:

الأول: المفسِّر أي: الذي يأتي بأحسن التفسير هو الله.

الثاني: المفسَّر أي: الواقع عليه التفسير هو القرآن الكريم، ويكون لدينا كذلك مصطلحان مستنبطان من التدبر:

الأول: المتدبرون هم الطوائف الثلاثة.

الثاني: المتدبَّر هو القرآن الكريم مقرؤءا ومسموعا ومكتوبا والله أعلم.

وسأضرب مثلاً على التفريق بين التَّفسير والتَّدبُّر في تطبيق عمليّ:

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ (القصص : ٢٧) .

تفسيرها: أن صاحب مَدْيَن يقول لموسى: إنه يريد أن يزوجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل لديه ثماني سنوات، ولو أكمل عشرا فهو فضل منه، ولن يشقَّ عليه في العمل، وسيجده من الصالحين إن شاء الله.

وأما تدبُّرها، فنقول: في هذه الآية **فوائد:**

١) ينبغي للعاقل استثمار الفرص، فصاحب مَدْيَن شيخٌ كبير، وليس عنده إلا البنات، فكان عليه اقتناص هذه الفرصة في توظيف موسى .

٢) جواز خطبة الرجل لمَوْليَّتِهِ الرجلَ الصالح: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾.

٣) اشتراط الولي للمرأة، فهو الذي يُنكحها، ولاتُنكِح نفسها: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾.

٤) الإشارة إلى عدم الجمع بين الأختين؛ لقوله:﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾.

٥) جواز النظر إلى المخطوبة، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ هَٰتَيْنِ﴾ وهو اسم إشارة للقريب.

٦) يجوز أن يكون المهر عملا، فقد استعمله في رعي الغنم عشر سنوات.

٧) جواز انتفاع الولي بمهر موليته، فقد رعى موسى غنم الأب.

٨) الحج موجود في شريعة من قبلنا، من قوله: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾.

٩) وهو عندهم سنوي أيضا؛ لأن معنى﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ ﴾: ثماني سنوات.

١٠) صاحب مدين رجل صالح؛ لأنه يحسب السنة بالطاعة: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾.

١١) عظم أمر الزواج؛ فهو من سنن الأنبياء، وقد اقتطع موسى لأجله عشر سنوات من عمره.

١٢) عدم المشقة على العمال؛ من قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾.

١٣) استحباب تعليق أعمال المستقبل بالمشيئة؛ من قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٤) عدم تزكية النفس؛ إذ قال:﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ ولم يقل: ستجدني من الصالحين.

١٥) حفظ الله أوليائه؛ فموسى خرج هارباً وحيداً، فرزقه الله زوجةً وبيتًا وعملاً.

وإليك مثال آخر من الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، يقول في الرسالة التبوكية:

«فصل في: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم، فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه، وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ (الذاريات:٢٤-٣٠) .

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتطلَّعت إلى معناها وتدبَّرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف، يأكلون

ويشربون، وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت الضيافة وحقوقها، وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة، وكيف تضمنت علَماً عظيماً من أعلام النُّبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردُّها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها، ثم أفصحت بوقوعه، وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمَّنت ذكر الإسلام والإيمان، والفرق بينهما، وتضمَّنت بقاء آيات الرب الدَّالة على توحيده، وصدق رسله، وعلى اليوم الآخر، وتضمَّنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأمَّا من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات، فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة إلى آخر ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ...» (١٢٠).

---

(١٢٠) الرسالة التَّبوكيَّة، ابن القيِّم، ص: ٦٣ ، ٦٤ .

الفرق بين التَّدبُّر والاستنباط:

أولاً : مفهوم الاستنباط:

هو الاستخراج، مأخوذ من (نبط)، ومعناه: استخراج الخفيّ، يقال: نَبَطَ الشيء نَبطاً ونُبُوطاً: ظهر بعد خفائه، واستنبط الفقيه: إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " وكلُّ مُستخرِج شيئاً كان مُستتراً عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب، فهو له مُستنبِط " اهـ[121].

وقال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ (النساء :٨٣) أي: يستخرجونه، وأصله من النَّبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أوّل ما تحفر[122].

---

(١٢١) تفسير الطَّبري (٥٧١/٨).

(١٢٢)معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٣/٢، وتهذيب اللغة للأزهري ٢٥٠/١٣، ومعجم مقاييس اللغة ٣٨١/٥، والمعجم الوسيط ٨٩٧/٢ مادة (دبر).

وبناء على ذلك، فإن الاستنباط من القرآن يكون بمعنى استخراج المعاني والأحكام وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك، وهذا يكون نتيجة للتدبر كما لا يخفى، وهو قدر زائد على مجرد فهم اللفظ والكشف عن معناه، والله أعلم.

قال الجوهريّ: "الاستنباط: كالاستخراج"(١٢٣)، ومعلوم أنّ ذلك قدر زائد على مجرّد فهم اللفظ، فإنّ ذلك ليس طريقُه الاستنباط، إذ موضوعات الألفاظ لا تُنال بالاستنباط، وإنّما تُنال به العلل والمعاني والأشباه والنّظائر ومقاصد المتكلم، والله سبحانه ذمّ من سمع ظاهراً مجرّداً فأذاعه وأفشاه، وحمد من استنبط من أولي العلم حقيقته ومعناه.

ويُوضّحه: أنّ الاستنباط استخراج الأمر الّذي من شأنه أن يخفى على غير مُستنبطه، ومنه: استنباط الماء من أرض البئر والعين، ومن هذا قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سئل: هل خصّكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بشيء دون النّاس؟ فقال: "لا، والّذي فلق الحبّة، وبرأ النّسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه"(١٢٤).

---

(١٢٣) انظر: الصّحاح (باب الطّاء، فصل النّون) (مادة: نبط) (١١٦٢/٣).

(١٢٤) أخرجه البخاري (١١١،٣٠٤٧،٦٩١٥).

وفي ضوء ما سبق يتبين أن الاستنباط يعني: استخراج المعاني الخفيَّة التي تدقُّ على الأفهام من النصوص، بعد جهد وتأمُّل واستعمال وجهٍ من وجوه الدّلالة عليه.

العلاقة بين الاستنباط والتدبر:

الاستنباط أخصُّ من التدبر وأدق منه، والتدبر أصلاً للاستنباط.

فأمَّا كونه أخصّ فلأنه خاص بالعلماء والمتخصّصين، بخلاف التَّدبُّر فهو عام بدليل مخاطبة الكفَّار والمنافقين وعموم المؤمنين به في آي القرآن؛ حيث خاطب المنافقين في (النساء:٨١)، و (محمد:٢٤)، وخاطب المشركين في (المؤمنون: ٦٦–٧٠)، وخاطب عموم المؤمنين في (ص:٢٩)، وسيأتي تفصيلها بإذن الله.

وأمَّا كونه أدق فلأنه يحتاج إلى جهد أكثر وتكلف ومعاناة فكرية أعظم؛ وذلك بناء على اشتقاقه واشتماله على الألف والسين والتاء الدالة على ذلك، بخلاف التَّدبُّر.

وأما كون التَّدبُّر أصلاً فلأنه متقدم عليه وسابق له، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره، والوقوف على معانيه ومراميه.

والناس في الفهم والاستنباط مراتب، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمقصود تفاوت النَّاس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام، أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمانه وإشارته ... وأخصّ من هذا وألطف ضمّه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النَّادر من أهل العلم ... [١٢٥].

نسأل الله تعالى أن نكون منهم أجمعين.

ومعلوم أنَّ هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللَّفظ وعمومه أو خصوصه، فإنّ هذا قدر مُشترك بين سائر من يعرف لغة العرب، وإنّما هذا فهم لوازم المعني ونظائره، ومُراد المُتكلِّم بكلامه، ومعرفة

---

(١٢٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٣٥٤، وتحرير مفهوم التدبر، د. فهد الوهبي ص ١٠٢ بتصرف

حدود كلامه، بحيث لا يدخل فيها غير المراد، ولا يخرج منها شيء من المراد ... "اهـ [١٢٦].

وعلى كل فإنه لا يقال في الفرق بين التدبر والاستنباط إلا كما قيل في الفرق بين التدبر والتفسير لأن غرض التفسير والاستنباط واحد هو فهم المعنى وما يدل عليه، فالتفسير في الفهم، والاستنباط في الدّلالات، وكلاهما من لوازم التدبر.

- ويضاف في الفرق بين التدبر والاستنباط أمور:

أولاً: بالنظر في أصلهما في اللغة يتبين الفرق بينهما، فالتدبر هو النظر إلى أدبار الشيء ونهاياته، وهذا يدخل فيه الدلالات والنهايات من الانتفاع والاهتداء، وأما الاستنباط فهو استخراج ما خفي، وهذا مقصور في الدلالات.

ثانياً: أنهما يجتمعان في إعمال الفكر والنظر والتأمل ويختلفان في الغرض، فغرض المستنبط العلم بدقائق المعاني والدلالات والهدايات، وغرض المتدبر يتجاوزه إلى قصد الانتفاع والامتثال والعمل.

---

(١٢٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/٣٩٧).

ثالثاً: أنه يشترط في التدبر قصد الانتفاع والامتثال بخلاف الاستنباط، وإنما يشترط فيه وجود ما يدل عليه في النص.

رابعاً: أن الاستنباط نتيجة للتدبر فهو فرع منه، وذلك أن التدبر هو الوقوف مع الآيات والتأمل فيها فينتج من ذلك الاستنباط.

العلاقة بين الفهم والتدبر:

قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وردت هذه الآية الكريمة في سورة الأنبياء المكية التي عالجت بعض موضوعات العقيدة الإسلامية، كما تحدثت عن قصص بعض الأنبياء؛ لتسليته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ ، وللتأسي بهم في احتمال أذى المشركين، والصبر عليهم.

وقد ابتدأ القصص في هذه السورة بذكر بعض ما حدث لأبي الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم تلاهما ذكر بعض ما حدث لنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم أعقب ذلك الحديث عن داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٩-٧٨]، فاستهلَّ الكلام عنهما بحادثة وقعت لهما حكاها بعض المفسرين بقوله: «تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته، فلم تُبق منه شيئا، فقضى بأن

يأخذ صاحب الزرع الغنم فخرج الرجلان على سليمان، وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه فقال: يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق بالجميع ! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض، فيصلحها، ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم، وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها، والأرض إلى ربها، فقال له داود وفقت يا بني، وقضى بينهما بذلك» (١٢٧).

وعلى ما حكته الآية السابقة، والآية التالية لها محل الشاهد، تكون الفاء في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ عطفت الجملة التي بعدها على جملة ﴿يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ في الآية السابقة، وصح عطف الجملة الماضوية على المضارعية لأن قوله ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ كما يقول أبو السعود: «في حكم

---

(١٢٧) تفسير الصّابوني ٨٥٥/٢، وانظر: القرطبي ٣٠٧/١١ - ٣٠٨، وتفسير أبي السعود ٧٩/٦، وروح المعاني ٦٠١/١١، وفتح البيان ١٧٥١/٦، وتفسير القاسمي ٦٠١/١١.

الماضي»[١٢٨]، وعبر عن الماضي بالمضارع استحضارا لهذه الصورة الجليلة في النفوس.

وعبر بالفاء دون غيرها؛ للإشارة إلى أن سليمان ألقى المولى في روعه فهم هذه القضية بأسرع وقت ممكن عند سماعه لها من الخصمين، فما أن علم سليمان بالقصة، وكان بالباب كما قيل فهَّمه الله لها في التو واللحظة ومن ثم فالتعبير بالفاء التي هي للترتيب مع التعقيب كان أوفق لتصوير هذا الأمر، والكشف عنه بدقة.

ولأجل أن الفاء وضعت هنا في الموضع الأليق بها، والذي لا يغني غيرها فيه غناءها استمد الرازي من التعبير بها حكما شرعيا فقال: «والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم، وذلك الحكم السابق إما أن يقال اتفقا فيه، أو اختلفا فيه، فإن اتفقا فيه لم يبق لقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ فائدة، وإن اختلفا فيه فذلك هو

(١٢٨) تفسير أبي السعود ٧٩/٦، وانظر: الفتوحات الإلهية ١٣٨/٣، وروح المعاني ٦٠١/١١.

المطلوب» [129]، وقد أكد النيسابوري على ذلك فقال: «والفاء للتعقيب فدل على أنه فهم حكما خلاف الأول» [130].

و«فهَّم» فعل ماض مضعف العين، والتضعيف أفاد التعدية إلى المفعول الثاني؛ لأن الثلاثي فَهِمَ يتعدى لواحد مثل: «فَهِمَ محمدٌ القضيةَ»، و «الفَهْمُ معرفتك الشيء بالقلب، فَهِمَه فَهْمًا وفَهَمًا وفَهامة عَلِمَه. الأخيرة عن سيبويه، وفَهِمْتُ الشيء: عَقَلْتُه وعرَفْته، وفَهَّمْت فلانا وأفْهَمْته» [131]، والفهم أيضا هو «حسن تصور المعنى، وجودة استعداد الذهن للاستنباط» [132].

وهذا كله داخل في طيات هذا اللفظ هنا لمن يتأمل، فسليمان علم المسألة المتنازع فيها، وعقلها بقلبه، وأحسن تصور معناها، واستنبط الحكم الصائب فيها بمجرد أن عرضت عليه.

---

(١٢٩) مفاتيح الغيب ١٦٥/٢١.

(١٣٠) تفسير النّيسابوري ٣٦/٥.

(١٣١) لسان العرب (ف. هـ. م) ٤٥٩/١٢.

(١٣٢) المعجم الوسيط ٧٣٠/٢، وانظر: مفردات الرّاغب ٤٠٠، وعمدة الحفّاظ ٣٠٠/٣.

وفي هذا دليل ساطع، وبرهان ناصع على أن القاضي لا يجب أن يحكم في قضية ما إلا إذا تصورها في ذهنه تصوُّرا تاما، وفهمها فهما حقيقيا، ثم يأتي الحكم فيها بعد الفهم العميق، والتصور الدقيق، وقديما قالوا: «الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، فالفهم مرحلة أولى ينبني عليها الحكم، فلما فهم سليمان هذه القضية، وتصورها في ذهنه التصور الأمثل جاء حكمه فيها مطابقا للصواب، وهذا يشير إلى أن داود لم يتصور القضية تصورا كاملا بالصورة نفسها التي تصورها سليمان، فجاء حكمه فيها صائبا، وليس عين الصواب.

وأوثر لفظ الفهم هنا على لفظ العلم؛ لأن الفهم إدراك كل: «خفي دقيق فهو أخص من العلم؛ لأن العلم نفس الإدراك، سواء كان خفيًّا أو جليا»[١٣٣].

وفي إيثار الفهم أيضا إعلاء من شأنه، وتأكيد على أنه الموصل الحقيقي للعلم؛ فالعلم بدون فهم يتخبط حامله في الضلالة، ويتعثر صاحبه في المتاهة، وفي ذلك يقول الشيخ حقي: «أصاب سليمان حقيقة

(١٣٣) الفروق في اللغة ٧٩.

المسألة المخصوصة بحسب نور الفهم لا بحسب قوة العلم»[١٣٤]،ولذا كان التعبير بالفهم أوفق في هذا المقام.

وعبر بصيغة فعل دون فَعِلَ؛ لأنه لو قال فَفَهِمَ لكان سليمان فهمها من نفسه دون وحي أو تعليم؛ وهذا بخلاف المراد؛ لأن السياق سياق امتنان وشكران.

كما عبر بصيغة فعَّل دون أفعل؛ لأن «فعَّل» أسلس وأعذب على اللسان عند التلفظ بها مع الضمائر، بخلاف «أفعل» فهي أثقل عند التلفظ بها مع الضمائر لمن يقارن بينهما؛ وأيضا؛ لأن أفعل لا تفيد الكثرة بخلاف فعل فهي تفيد التكثير مثل قطَّع وسبَّح إلخ، وفي هذا يقول ابن عاشور: «معنى قوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ أنه ألهمه وجها آخر في القضاء أرجح؛ لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدل على أن فهم سليمان في القضية كان أعمق، وذلك أنه أرفق بهما...»[١٣٥].

(١٣٤) تفسير حقّي ٥١٣/٩، بتصرف يسير.

(١٣٥) التحرير والتنوير ١١٨/١٧.

ولكن هذا لا ينفي عن داود الفهم التام بل الاختلاف هنا في النسبة فسليمان كان أكثر فهما لها، وأصاب شاكلة الصواب وعينه، وداود أصاب الصواب دون عينه، ومن ثم فهذا الفعل يدل على التفاوت والنسبية، وهذا من أسرار التعبير به هنا.

وإذا كان الأمر كذلك فما فضل سليمان على داود عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ في تلك القضية؟ أجاب الشيخ طنطاوي عن ذلك فقال: «وذلك لأن داود -كما يقول العلماء- قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب، أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير...»[١٣٦].

وهذا «يشير إلى رفعة درجة بعض المجتهدين على بعض، وأن الاعتبار -في الكبر والفضيلة- بالعلم، وفهم الأحكام، والمعاني والأسرار، لا بالسن فإنه فهم بالأحق والأصوب، وهو ابن صغير، وداود نبي مرسل كبير» [١٣٧].

---

(١٣٦) التفسير الوسيط ٢٣٥/٩، وانظر: تفسير القرطبي ٣٠٧/١١.

(١٣٧) روح البيان للشيخ حقي ٥٠٥/٥.

علاوة على أن هذا اللفظ من الألفاظ الفرائد التي لم ترد إلا في هذا الموطن مادة وصيغة فحسب، والألفاظ الفرائد -كما بينت في بحث سابق[١٣٨]- لها أسرار عامة تتمثل في تفرد الواقعة في حياة النبي، وتفردها في حياة الإنسانية، وتفرد موضعها في الذكر الحكيم، فهذه الحادثة لم تتكرر في تاريخ الإنسانية بهذه التفاصيل نفسها، ولم ترد في قصة نبي آخر غير داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وتفرد موضعها في الذكر الحكيم.

وكيفية تفهيم الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم تنص عليه الآية الكريمة، ولذا فهو يحتمل وجوها: إما أن يكون «بأن جعل الله له من فضل قوة الفهم ما أدرك به ذلك، وإما بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه وخصه به»[١٣٩]، ولا نجزم بصورة من هذه الصور؛ لأن السياق لا يحدد واحدة بعينها، وإن كنت أميل إلى أن الله ألقى ذلك في روعه، كما توحي به الفاء التي للتعقيب دون مهلة.

---

(١٣٨) انظر: من الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية ٢٠٠ - ٢٠٣.

(١٣٩) مفردات الراغب ٤٠٠، وانظر: عمدة الحفاظ ٣/٣٠٠.

و «نا» في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ فاعل يعود على لفظ الجلالة مما ينبئ عن أن التفهيم كان منة كبرى، ونعمة عظمى على سليمان تناسب معها التعبير بضمير العظمة، يقول القرطبي: «وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه»(١٤٠).

والضمير «ها» «في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ في محل نصب مفعول ثان، وأنث الضمير؛ لأنه «يعود إلى القضية المفهومة من الكلام أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم»(١٤١) كما في الآية السابقة في قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾.

والتعبير بالضمير هنا راجع إلى هذه القضية بذاتها، ولا يشمل غيرها بحال من الأحوال فقد تكون هناك قضايا غيرها فَهَّم الله فيها داود عين الحق، فالضمائر قطعا لا يستفاد منها التعميم في الحكم كما هو معلوم، يقول السعدي: «ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها» (١٤٢).

---

(١٤٠) تفسير القرطبي ١١/٣٠٧.

(١٤١) فتح البيان ٦/١٧٤،

(١٤٢) تفسير السعدي ٤٧٧.

﴿سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ مفعول أول للفعل «فهَّم»، وتقدير الكلام: «فَهَّم المولى عَزَّوَجَلَّ سليمان هذه القضية»، وقدم المفعول الأول على الثاني وكان من الممكن تأخيره والتعبير عنه بقوله: «ففهمنا سليمان الحكم»؛ للتركيز على أهمية تلك القضية لغرابتها؛ ولأن النظم على هذا أسلس، وأشد تمكنا.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ هذه الجملة معترضة بين السابقة واللاحقة، وفائدة الاعتراض «الاحتراس لدفع توهم أن حكم داود كان خطأ، أو جورا، وإنما كان حكم سليمان أصوب»(١٤٣).

﴿وَكُلًّا﴾ مفعول أول مقدم للفعل آتينا، وتقديم المفعول « كُلّاً» على «آتينا» «فيه تكريم عظيم لهما إذ تطرق الحديث عنهما أولا إلى الذهن، وفيه أيضا فخامة وقوة لا تجدها إذا تأخر هذا المفعول، ولهذا فقد(١٤٤) أتي متقدما على الفعل الذي بعده في جل مواضعه في الذكر الحكيم لتلك الخصوصية حسب المقتضى.

---

(١٤٣) التحرير والتنوير ١١٩/١٧، وانظر: نظم الدرر للبقاعي ١٠٠/٥.

(١٤٤) ذكر منصوباً (١٥) مرة، تقدم على معموله (١٣) مرّة. (المعجم المفهرس ٦١٨ ، ٦١٩).

«والتنوين في قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ عوض عن كلمة، أي: كل واحد منهما»[١٤٥]، أي: من داود وسليمان، وقيل: المعوض عنه عائد على جميع الأنبياء المذكورين في الآيات السابقة، يقول الطبري: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ «**وكلهم** من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أول هذه السورة»[١٤٦].

ومنشأ اختلاف التقدير راجع إلى أن استعمالات هذه اللفظة المنونة في القرآن الكريم جاء فيها المقدر عائدا على اثنين كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾[الأنعام:٨٤]، أو عائدا على أكثر من اثنين كما في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٦].

ولكنّ الراجح هنا أن المحذوف عائد على اثنين، وهما داود وسليمان عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ كما ينبئ السياق؛ لأن مطلع الآية السابقة كان

---

(١٤٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٨٣٩/٤.

(١٤٦) تفسير الطبري ٥٥/٩.

الكلام فيها عنهما صراحة في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ علاوة على أن الكلام قد تم قبل تلك الآية عن الأنبياء المذكورين قبلهما إبراهيم ولوط ونوح عليهم السلام كما تقدم.

والتنوين -علاوة على ما في طياته من حذف كلمة- يفيد التفخيم، فلو قال: وكل واحد آتينا لتلاشت تلك الفخامة والقوة والروعة، وهذا سر من أسرار التنوين في استعمالات تلك اللفظة.

﴿ءَاتَيْنَا﴾ آتى فعل ماض رباعي مزيد بحرف بعد فائه بمعنى: أعطينا، وفاعل ﴿ءَاتَيْنَا﴾ (نا) العظمة العائدة على المولى عَزَّوَجَلَّ، وإسناد إيتاء الحكمة والعلم إلى الله عَزَّوَجَلَّ بنون العظمة فيه دلالة على أن المؤتى، وهو الحكم والعلم كان هبة عظيمة من المولى عَزَّوَجَلَّ لهما، وفيه أيضا تأكيد على أنهما بلغا في ذلك الغاية، ووصلا النهاية.

﴿حُكْمًا﴾ مفعول به ثان للفعل آتينا، والحكم مصدر الفعل الثلاثي «حَكَمَ يحكُمُ حُكْمًا»، و «الحكْمُ: القضاء، وأصله المنع يقال «حَكَمْتُ»

عليه بكذا إذا منعته من خلافه، فلم يقدر على الخروج من ذلك... ومنه اشتقاق «الحِكْمَة»؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال»[١٤٧].

وإيثار الحكم على الحكمة؛ لأن «الحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة»[١٤٨].

وفي هذا إشارة إلى أن كلا منهما كان يحكم بالعدل، ويمنع من الظلم، وكلا منهما أيضا كان في قوله حكمة، ولذا عبر بالمصدر مبالغة في ذلك.

﴿وَعِلْمًاۚ﴾ الواو للعطف، وهو من قبيل عطف المفردات التي تقتضي التشريك في الحكم، وهو الإيتاء، وتقتضي المغايرة؛ لأن العلم بخلاف الحكم، أي «وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا «حكما» «أي: نبوة وإصابة في القول والعمل أي: فقها في الدين، وفهما سليما للأمور»[١٤٩].

---

(١٤٧) المصباح المنير ٥٦.

(١٤٨) مفردات الرّاغب ١٢٦، وانظر: عمدة الحفاظ ٥٠٩/١.

(١٤٩) التفسير الوسيط ٢٣٥/٩.

وقيل: آتيناه «حكما: وهو النبوة، وعلما: بأحكام الله»(١٥٠).

وقيل: «الحكم: القضاء، والعلم: الفتيا»(١٥١).

وقيل: « الحِكمة: وهو النبوءة، والعلم: أصالة الفهم»(١٥٢).

والمعني الأول هو الأرجح، ولا يرفضه سياق الكلام لمن يتأمل ويتدبر، يؤيد هذا أن هاتين اللفظتين وردتا مقترنتين معا في القرآن بتلك الهيئة (٤) مرات:

الأولى: في الحديث عن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف:٢٢].

والثانية: في الحديث عن لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ [الأنبياء:٧٤].

والثالثة: هنا.

---

(١٥٠) تفسير الطبري ٩/٥٥.

(١٥١) النكت والعيون ٣/٤٥٩.

(١٥٢) التحرير والتنوير ١٧/١١٥.

والرابعة: في الحديث عن موسى في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤]، وهذا المعنى الذي رجحناه لا ينفك عنهما.

وتنكير ﴿حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، للتعظيم، أي: كل واحد منهما وهبناه حكما وعلما عظيمين.

وذكرُ العلم مع الحكمة هنا فيه: «تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها وذلك؛ لأن الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير، والريح والجن، وإذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الأشياء، فما ظنك بغيرها﴾»(١٥٣).

ولما مدح فيما مضى داود وسليمان عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ معا شرع بعد ذلك في ذكر ما خص به كل واحد منهما من معجزات فبدأ بداود فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾، والواو يجوز أن تكون للعطف، عطفت جملة ﴿وَسَخَّرْنَا﴾، على جملة ففهمناها سليمان، وليست معطوفة على جملة ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾؛ لأنها

---

(١٥٣) مفاتيح الغيب ٢١/١٦٣.

اعتراضية كما مر، والعطف هنا للتوسط بين الكمالين على حسب قواعد البلاغيين حيث عطفت جملة خبرية لفظا ومعنى على خبرية لفظا ومعنى، والمسوغ للعطف هنا التناسب بين المسند إليه، والمسند فيهما، فالفاعل فيهما ضمير العظمة «نا» «يعود على المولى عَزَّوَجَلَّ ، والتفهيم في الأول واقع على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتسخير هنا حاصل لداود، فبينهما ارتباط قوي والتحام شديد سوغ العطف بالواو كما ترى، ويجوز أن تكون الواو استئنافية حيث استهل بعدها خبرا جديدا منقطعا عما قبله.

﴿وَسَخَّرْنَا﴾: (سخر): فعل ماض رباعي مضعف العين، وأصل التسخير القهر والتذليل، يقول ابن منظور: « **سَخَرَه** كلفه ما لا يريد وقهره، وكل مقهور مُدبَّر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك مسخَّر،... والتسخيرُ التذليل... وكل ما ذل وانقاد، أَو تهيأ لك على ما تريد فقد سُخِّر لك» (١٥٤).

---

(١٥٤) لسان العرب، مادة (س. خ. ر) ٣٥٣/٤ - ٣٥٤)، وانظر: مفردات الرّاغب ٢٣٢.

وهذا المعنى الأصلي هو المراد هنا فإن الله ساق الجبال إلى الغرض المذكور في الآية قهرا، وذللها لذلك تذليلا ومن إعجازات الذكر الحكيم في التعبير بهذا الفعل المضعف العين أنه أتى به في جميع مواضعه المذكور فيها (٢٢) مرة فعلا ماضيا، ولم يأت به مضارعا ولا أمرا البتة؛ لأن الماضي هو الأوفق بالمقام «ويمتنع فيه بلاغة وواقعا المضارع والأمر»[١٥٥] فتسخير هذه العوالم، وتلك الكائنات الكبرى من الجبال، والبحار والأنهار، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض من كل ما وقع عليه التسخير تم ومضى، وليس فيه إحداث جديد، وهذا من فضله على عباده.

ومن عجائب الذكر الحكيم أيضا أنه استخدم الفعل المشدد في جميع هذه المواضع دون الثلاثي «سخر» كما مر عند ابن منظور، وهذا الفعل هنا فوق كونه خاصا بهذا المعنى فطرة لغة فإنه يوحي بشدة التسخير، وفي التشديد كذلك علامة واضحة، وأمارة بينة على القوة الربانية التي لا يحدها حد، والجبروت الإلهي العظيم في ملكه وسلطانه، يؤكد ما قلناه صوت الخاء المشدد، فهو يعكس بنطقه الشديد هذا الجبروت، وتلك

---

(١٥٥) دراسات جديدة في إعجاز القرآن. د/ المطعني ٢١٠.

القوة الربانية بوضوح، ولذا لم يستعمل القرآن الثلاثي مطلقا بهذا المعنى، بل استعمل الثلاثي «سَخِر» في الذم وسوء الخلق كما في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾.

وضمير العظمة «نا» في سَخَّرْنَا فاعل، وقد اطرد في هذه الآية التعبير به دون غيره؛ تدليلا على أن هذه الهبات وتلك المعجزات التي وهب إياها داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ هي من لدن رب عظيم كريم اختصهما عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بها.

هذا، ومن يتأمل في فاعل سخَّر في جميع مواضعه في الذكر الحكيم يجد أنه لم يسند إلا لله ، وهذا طبعي؛ لأن ذلك لا يكون لسواه البتة، لكن قد تنوع هذا الفاعل ما بين ظاهر وضمير، وكل سياق يعبر فيه بما يقتضيه.

﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾، ﴿مَعَ﴾ كما يقول أبو السعود: «متعلقة بالتسخير، وقيل بالتسبيح، وهو بعيد»[١٥٦]، وهذا الذي استبعده أبو السعود هو ما

(١٥٦) تفسير أبي السعود ٦/٨٠، وانظر: تفسير البيضاوي ٢/٣٧.

وافق عليه ابن عاشور حيث يقول: و «مَعَ» ظرف متعلق بفعل ﴿يُسَبِّحْنَ﴾»[(١٥٧)].

وهذا هو الأولى، وعليه، فأصل العبارة: «وسخرنا الجبال يسبحن مع داود»، وقدم الظرف «على متعلقه للاهتمام به؛ لإظهار كرامة داود فيكون المعنى: أن داود كان إذا سبح بين الجبال سَمِعَ الجبالَ تسبح مثل تسبيحه»[(١٥٨)].

وهنا يثور سؤال لم قدم الظرف ﴿مَعَ دَاوُودَ﴾ على الجبال هنا، وفي سورة «ص» قدم الجبال على الظرف في قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ⑱﴾ [ص:١٨]؟

أجاب الألوسي عن ذلك بقوله: «وأخر الظرف المذكور عن الجبال (في ص،) وقدم في سورة الأنبياء فقيل: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ⑲﴾، قال بعض الفضلاء: لذكر داود

(١٥٧) التحرير والتنوير ١٧/١١٩.

(١٥٨) التحرير والتنوير ١٧/١١٩.

وسليمان ثمت [أي: في الأنبياء] فقدم مسارعة للتعيين، ولا كذلك هنا»[159] أي في «ص» فلم يسبق إلا ذكر داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وهنا سؤال آخر ذكره أبو حيان وأجاب عنه فقال: «جاء التركيب هنا حين ذكر تسخير الريح لسليمان باللام، وحين ذكر تسخير الجبال جاء بلفظ مع فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾، وكذا جاء: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠]، وقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾[ص:٣٦]، وذلك أنه لما اشتركا في التسبيح ناسب ذكر مع الدالة على الاصطحاب، ولما كانت الريح مُستخدمة لسليمان أضيفت إليه بلام التمليك؛ لأنها في طاعته وتحت أمره»[160].

وهو كلام جيد ودقيق في التفريق بين دلالة (مع)، واللام، وهذا من دقائق وخصائص التعبير القرآني الحكيم.

---

(١٥٩) روح المعاني دار إحياء التراث العربي ١٧٤/٢٣ في تفسير سورة ص.

(١٦٠) البحر المحيط ٣٣٢/٦.

﴿ٱلْجِبَالَ﴾: جمع جبل، والجبل: «اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عَظُم وطال من الأعلام والأطواد والشناخيب، وأما ما صغُر وانفرد فهو من القِنان والقُور والأَكَم»[١٦١]،وهذا اللفظ يحمل في طياته دلالة الثبات والرسوخ، وقد اعتبر هذا المعنى فيه «فاشتق منه بحسبه فقيل: فلان جبل لا يتزحزح تصورا لمعنى الثبات فيه، وجبله الله على كذا إشارة إلى ما ركب فيه من الطبع الذي يأبى على الناقل نقله، وفلان ذو جبلة، أي: غليظ الجسم» [١٦٢].

وآثر لفظة الجبال هنا؛ لأنها عنوان العظم والثقل، والرسوخ والصلابة فأومأ هذا بعظم النعمة، وجليل المنة على داود .

وأل هنا للعموم الاستغراقي بدلالة لفظة (مع)، أي: أن جميع الجبال كانت مسخرة له، فلو فرض وساح في كل الأرض شبرا شبرا لكانت جميع جبالها مسخرة له؛ لأن المعجزة كانت معه حسبما حل وسار كما تفيده المعية.

---

(١٦١) لسان العرب، مادة (ج ب ل) ١١/٩٦.

(١٦٢) مفردات الراغب ٨٤.

ويجوز أن تكون أل للعموم العرفي، والمقصود بالجبال الجبال المحيطة به، والأول أولى، وهو من تمام المنة، وعظيم النعمة.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾: جملة في محل نصب حال من الجبال، «بمعنى مسبحات، أو استئناف كأن قائلا قال: كيف سخرهن؟ فقال: يسبحن»[163]، والظاهر كما يتبادر من الكلام أن ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بجملة حالية من ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، «والعدول عن مسبحات مع أن الأصل في الحال الإفراد؛ للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال، نظير ما في قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيون كثِيرة إلى ضوء نار في يفاع تحرق»[164].

والمضارع ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ماضيه المضعف العين «سَبَّحَ» نظير سخَّر قبله «وأصل التَّسبِيح: التنزيه والتقديس، والتبرئة من النَّقائص... وقيل

(١٦٣)الكشّاف ٥٨٠/٢، وانظر: مفاتيح الغيب ١٧٢/٢١، وتفسير النيسابوري ٣٨/٥، والفتوحات الإلهية للجمل ١٧٤/٢٣، وروح المعاني ٦٠٦/١١.

(١٦٤) روح المعاني ١٧٤/٢٣ في تفسير آية سورة ص.

معناه: التَّسرُّع إليه والخِفَّة في طاعته، وقيل معناه: السُّرعة إلى هذه اللفظة»[١٦٥].

وقد اختلف المفسرون في كيفية تسبيح الجبال مع داود على وجوه شتى:

الأول: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ أي: «يصلين مع داود إذا صلى»[١٦٦].

الثاني: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، أي: يسرن معه إذا سار، يقول الزمخشري: «وقيل: كانت تسير معه حيث سار»[١٦٧]،والتسبيح على هذا الرأي «من السبح الذي هو السباحة

خرج اللفظ فيه على التكثير، ولو لم يقصد التكثير؛ لقيل: يَسْبَحْنَ فلما كَثُر قيل: يسبحن معه»[١٦٨]، وقد رفض الشهاب هذا الرأي

---

(١٦٥) النّهاية في غريب الحديث والأثر ٣٣١/٢، وانظر: لسان العرب، مادة (س ب ح) ٤٧١/٢.

(١٦٦) تفسير الطبري ٥٨/٩، وانظر: تفسير البغوي ٣٠٥/٤، والقرطبي ٣٢٠/١١، والبحر المحيط ٣٣١/٦، وتفسير الخازن ٣٠٥/٤.

(١٦٧) تفسير الكشّاف ٥٨٠/٢، والبيضاوي ٣٧/٢، والقرطبي ٣٢٠/١١، والبحر المحيط ٣٣١/٦.

نظرا؛ «لمخالفته للظاهر، والمشدد بهذا المعنى لم يذكره أهل اللغة»(١٦٩) وهو على حق.

الثالث: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ مجاز؛ لأن الجبال لا تنطق كما ينطق البشر، يقول الشوكاني: «وقال بالمجاز: جماعة آخرون، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبا من عظيم خلقها، وقدرة خالقها»(١٧٠).

وإلى هذا أيضا ذهبت المعتزلة، يقول الرازي: «وأما المعتزلة فقالوا: لو حصل الكلام من الجبل لحصل إما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه، والأول: محال؛ لأن بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة، وما لا يكون حيا عالمًا قادرا يستحيل منه الفعل، والثاني: أيضا محال؛ لأن المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام،

---

(١٦٨) تفسير الرازي ١٧٢/٢١، وانظر: اللباب ٥٥٨/١٣، وحاشية الشيخ زاده ٥٥/٦.

(١٦٩) حاشية الشهاب على البيضاوي ٤٦٢/٦، وانظر: روح المعاني ٦٠٦/١١.

(١٧٠) فتح القدير ٥٩١/٣، وانظر: تفسير البحر المحيط ٣٣١/٦، وروح المعاني ٦٠٦/١١.

فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل، فثبت أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره»(١٧١).

الرابع: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ على حقيقته من الترجيع بمعنى أن الجبال يقدسن الله كما يفعل البشر من النطق باللسان، وكيفية التسبيح بهذا المعنى حكاه أبو السعود بقوله: « ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي: يقدسن الله معه بصوت يتمثل له، أو يخلق الله تعالى فيها الكلام»(١٧٢).

والراجح: أن التسبيح هنا على حقيقته؛ لأنه من الأمور التي اختص المولى عَزَّوَجَلَّ بها داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكيفية لا نعلمها، وليس هنا دليل قاطع، أو قرينة مؤكدة تصرف لفظ التسبيح عن ظاهره، والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وهذا هو اللائق بمقام النعمة والامتنان «والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير مع داود تسبيح

---

(١٧١) تفسير الرازي ١٧١/٢١- ١٧٢.

(١٧٢) تفسير أبي السعود ٧٩/٦، وانظر: تفسير البيضاوي ٣٧/٢، وحاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٥٤/٦، وروح المعاني ٦٠٥/١١، وتفسير القاسمي ١٦٧/١١.

حقيقي؛ لأن الله يجعل لها إدراكات تسبح بها يعلمها هو ونحن لا نعلمها، كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٤] ... وقد ثبت في صحيح البخاري: أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سُمع له حنين، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إني لأعرف حجرا كان يسلم عليَّ في مكة قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»(١٧٣).

والغرض من تسبيح الجبال مع داود على هذا المعنى الحقيقي أمران:

---

(١٧٣) أضواء البيان ٨٤٠/٤، وانظر: البحر المحيط ٣٣١/٦، والفتوحات الإلهية للجمل ١٣٩/٣، وفتح البيان ١٧٧/٦، والتفسير الوسيط ٢٣٧/٩، ومفردات الراغب ٢٢٦- ٢٢٧، ولسان العرب، مادة (س. ب. ح) ٤٧٢/٢، وعمدة الحفاظ ١٩٠/٢.

الأول: أن داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان «إذا فتر يُسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه»(١٧٤).

الثاني: أن هذا كان معجزة لداود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وهنا ينبغي أن نؤكد على شيء دقيق جدا وهو أن المعجزة: «والمزية التي أعطاها الله تعالى لنبيه داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليست في تسبيح الجبال؛ لأن الجبال تسبّح معه ومع غيره، إنما الميزة في أنها تردّد معه، وتوافقه التسبيح وتجاوبه، فحين يقول داود: سبحان الله تردد وراءه الجبال: سبحان الله، وكأنهم جميعا (كورس) يردد نشيدا واحدا... وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولون في معجزات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه سبح الحصى في يده أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلي، فالحجر مسبّح في يد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١٧٤) تفسير البغوي ٣٠٥/٤، وانظر: تفسير الخازن ٣٠٥/٤، وتفسير الرازي ١٧١/٢١، والقرطبي ٣١٩/١١- ٣٢٠، وحاشية الشيخ زاده ٥٥/٦، واللباب ٥٥٨/١٣.

، وفي يد أبي جهل، إذن: قل: إن المعجزة هي أن رسول الله سمع تسبيح الحصى في يده»[١٧٥].

هذا، ويلاحظ هنا أن مفعول يسبحن محذوف، تقديره: يسبحن الله، وحذف المفعول؛ للعلم به وعدم تطرق الذهن لسواه، والحذف في القرآن يعتمد على لقانة السامع، وذكانة المخاطب، ومن ثم لا يذكر الأمر البدهي المعلوم بالضرورة، فضلا عن أن ذكر المفعول يجعل العبارة كزة ثقيلة لمن ينطقها ويرددها ويتدبر فيها.

﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ قرأ الجمهور بنصبها، وعلى هذه القراءة ففي الواو وجهان إعرابيان:

الأول: عاطفة عطفت لفظة الطير على الجبال.

الثاني: الواو بمعنى مع، والطير «مفعول معه، أي: يسبحن مع الطير»[١٧٦].

---

(١٧٥) تفسير الشعراوي ٩٦٠٦/١٥- ٩٦٠٧، وكلمة كورس في كلام الشيخ بمعنى: منظومة.

«وقرئ بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف أي والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير في يسبحن، وفيه ضعف؛ لعدم التأكيد والفصل»(١٧٧).

﴿وَٱلطَّيْرَۚ﴾ جمع طائر، وهو: «كل ذي جناح يسبح في الهواء»(١٧٨).

وأل في الطير للعموم الاستغراقي كما مر في الجبال، ويجوز أن تكون للعموم العرفي أي: الطيور المحيطة ببيئته التي يعيش فيها فإن لكل منطقة في العالم طيورا تشتهر بها، تتواءم مع طبيعة تلك البيئة، والراجح

---

(١٧٦) تفسير البحر المحيط ٣٣١/٦، وانظر: الكشاف ٥٨٠/٢، والرازي ١٧٢/٢١، وتفسير البيضاوي ٣٧/٢، وأبي السعود ٨٠/٦، والتحرير والتنوير ١١٩/١٧.

(١٧٧) تفسير أبي السعود ٨٠/٦، وانظر: البيضاوي ٣٧/٢، وتفسير البحر المحيط ٣٣١/٦، وحاشية الشيخ زاده ٥٦/٦، وحاشية الشهاب ٤٦٢/٦، روح المعاني ٦٠٦/١١.

(١٧٨) المفردات ٣٢٢، وانظر: عمدة الحفاظ ٤٩٨/٢، والمقاييس ٦٣٠، واللسان ٥٠٨/٤.

أن (أل) للعموم الاستغراقي، فلو فرض وانتقل إلى أي بقعة في العالم لسبحت معه طيورها، وهذا يعنى أن جميع أصناف الطيور الجارحة والوادعة كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يسمع تسبيحها، ويفهم لغتها؛ لأنها سُخرت له، وهذا من تمام المنة وكمال النعمة في سياق الامتنان والإنعام، وبهذا تتسق دلالة (أل) هنا مع دلالة (أل) في الجبال.

وتسبيح الطيور مع داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان معجزة له لم يشركه فيها كائن ما كان.

وكيفية تسبيح الطير هنا اختلف فيه على معنيين:

الأول: تسبيح حقيقي يقول الشيخ سيد طنطاوي: «وتسبيح الجبال والطير مع داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو تسبيح حقيقي»[١٧٩]،ولم يتعرض أحد من المفسرين لكيفية وطريقة هذا التسبيح الحقيقي إلا أنه مفهوم بطبيعة الحال؛ لأن الطيور من الكائنات الحية ولها أصوات تتميز بها، ولكن هل كان داود يسمع تسبيحها ويفهمه كما كان سليمان يفهم لغة الطير والنمال؟ أقول: نعم، هذا واضح جدا كما يفهم من سياق الامتنان.

---

(١٧٩) التفسير الوسيط ٩/٢٣٧.

الثاني: هو تسبيح مجازي، يقول الرازي: «أما الطير فلا امتناع في أن يصدر عنها الكلام، ولكن أجمعت الأمة على أن المكلفين إما الجن أو الإنس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ في العقل إلى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل في أن يؤمر وينهى، وإن لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها في الفهم بمنزلة المراهق، وأيضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول في الجبال»(١٨٠).

والراجح هو الأول: لما قدمناه من أدلة في الحديث عن الجبال، وليس هذا بغريب؛ لأن ذلك كان خاصية لداود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على وجه الإعجاز.

وهنا يثور سؤال: لماذا قدم المولى عَزَّوَجَلَّ تسبيح الجبال مع داود على تسبيح الطير معه؟ أجاب عن ذلك النيسابوري بقوله: «إنما

(١٨٠) تفسير الرازي ١٧٢/٢١، وانظر: اللباب ٥٥٨/١٣.

قدم تسبيح الجبال على الطير؛ لأن ذلك أدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، فإن الطير أقرب إلى الحيوان الناطق من الجماد»(١٨١).

هذا، وجملة ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ لم ترد على تلك البنية التركيبية في القرآن كله إلا هنا، ولكن ورد في معناها العام تراكيب أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ:١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ [ص: ١٩] وسياق كل آية يختلف عن غيرها، ولذا اختلف التركيب في كل واحدة.

﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝٧٩﴾«أي: من شأننا الفعل لأمثال هذه الأفاعيل، ولكل شيء نريده بما لنا من العظمة المحيطة، فلا تستكثروا علينا أمرا، وإن كان عندكم عجبا»(١٨٢).

---

(١٨١) تفسير النيسابوري ٣٨/٥، وانظر: الكشاف ٥٨٠/٢، والرازي ١٧٢/٢١، والبحر المحيط ٣٣١/٦، وروح البيان ٥٠٦/٥، وفتح البيان ١٧٧/٦، وتفسير القاسمي ١٦٥/١١.

(١٨٢) نظم الدرر للبقاعي ١٠١/٥.

والواو يجوز أن تكون عاطفة، والجملة بعدها معطوفة على جملة وسخرنا مع داود، وهذا العطف هو الذي سماه البلاغيون التوسط بين الكمالين، كما يجوز أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها حالية من الضمير في ﴿وَسَخَّرْنَا﴾.

كما يجوز أن تكون الواو للاعتراض كما مر في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ والجملة بعدها معترضة بين الخبر السابق عن داود، والخبر اللاحق عنه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٠] ،وفي ذلك يقول ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَكُنَّا﴾ معترضة بين الإخبار عما أوتيه داود»[١٨٣]، وهذا الأخير هو الراجح، والمتبادر من السياق.

﴿وَكُنَّا﴾ كان هنا ناقصة ناسخة، ولهذا الفعل في القرآن دلالات عديدة لا يتسع المقام لذكرها، ولكن ينبغي أن نؤكد على أن دلالة هذا الفعل تستغرق هنا الماضي والحاضر والمستقبل، أي: كنا فاعلين ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وهذا مفهوم عقلاً وبداهةً وعقيدة؛ لأن الحديث

(١٨٣) التحرير والتنوير ١٧/١٢٠.

هنا عن المولى عَزَّوَجَلَّ، وهذا أمر يقيني ثابت في حقه عَزَّوَجَلَّ، يقول ابن عاشور: «وفي اجتلاب فعل الكون إشارة إلى أن ذلك شأن ثابت لله من قبل، أي: وكنا قادرين على ذلك»(١٨٤).

وضمير العظمة «نَا» في محل رفع اسم كان، وعبر به؛ ليدل على أن العظيم لا تعجزه هذه الأشياء التي تعد من العجائب والغرائب في عرف البشر.

﴿فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ خبر كان، وهو جمع مذكر سالم مفرده فاعل، والمفرد فاعل جاء على صيغة اسم الفاعل من الثلاثي فعل، والتعبير بصيغة اسم الفاعل هنا يدل على الدوام والثبوت والاستمرار، أي: كنا فاعلين لتلك المعجزات في كل زمان قادرين عليها في كل وقت وحين، وهذا سر التعبير بتلك الصيغة بدلا من الصيغة الفعلية، لو قال: «وكنا فعلنا»، فهي لا تفيد ما تفيده تلك الصيغة بوضوح علاوة على ما في تلك اللفظة من تفخيم وتعظيم يتلاءم مع عظمة المولى عَزَّوَجَلَّ.

---

(١٨٤) تفسير الطبري ٥٨/٩، وانظر: التفسير الوسيط ٢٣٧/٩.

و﴿ فَٰعِلِينَ ﴾يعمل عمل الفعل الثلاثي «فَعَلَ»، فيرفع فاعلا وينصب مفعولا، وهنا حذف المفعول، والتقدير: وكنا فاعلين ذلك، وقد اختلف المفسرون في ماهية المحذوف على وجهين:

الأول: المحذوف هو تسخير الجبال والطير، يقول الطبري: «وكنا قد قضينا أنا فاعلو ذلك، ومسخرو الجبال والطير»(١٨٥).

الثاني: التفهيم وإيتاء الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير، يقول الخازن: « ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ يعني: ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير»(١٨٦).

وأرى أن الحذف هنا للتعميم، يدل على ذلك أن التفهيم وإيتاء الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير ذكرت قبل ذلك، فالمحذوف يعود عليها جميعها.

---

(١٨٥) تفسير الطبري ٩/٥٨، وانظر: التفسير الوسيط ٩/٢٣٧.

(١٨٦) تفسير البغوي على هامش الخازن ٤/٣٠٥، وانظر: تفسير الخازن ٤/٣٠٥، وفتح القدير ٣/٥٩١، وفتح البيان ٦/١٧٧.

والتعبير بلفظة: ﴿فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ دون عاملين له أسرار بلاغية دقيقة تتمثل في أن «العمل -كما قال بعض أهل العلم- يحتاج إلى تفكر ومقارنة بين الفعل والترك، وتقليب وجهات النظر في صوره، واختيار ما يهدي إليه النظر فيها، والله عَزَّوَجَلَّ لا يخفى عليه شيء، ولا تلتبس عليه الأمور **هذه واحدة.**

والثانية: أن العامل قد يعمل له غيره، والله غني عن العالمين.

والثالثة: أن العامل يعمل ليحصل على ثمرة عمله من خير، فهو فقير إليه، والله أغنى الأغنياء. لهذه المحظورات - والله أعلم- خلا القرآن من إسناد عمل، يعمل إلى أسماء الله الحسنى، تقديسا له وتنزيها، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد... أما «فَعَل «فقد أسندت إلى الله مرات، والسبب فيما نعتقد انتفاء الموانع التي لوحظت في «عَمِلَ» ومن أبرزها أن الفعل هو ما صدر عن الفاعل مباشرة دون واسطة، وأن أفعال الله صادرة عن قوة سلطانه، والفعل كما قال اللغويون: لا يحتاج إلى تفكير وطول نظر، بل الشأن فيه أن يصدر ابتداء، لذلك وغيره امتنع إسناد

عمل إلى الله، وجاز إسناد فعل إليه؛ لأنه من صفات الكمال والجلال والجمال»(١٨٧).

والمراد من قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ هنا اختلف فيه فقيل: «﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ أي: قادرين على أن نفعل هذا، وإن كان عجبا عندكم، وقيل: كنّا نفعل بالأنبياء مثل ذلك»(١٨٨).

وقيل: «﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ أي: فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن، والطير لمن نخصه بكرامتنا»(١٨٩).

ولكنَّ الشنقيطيّ رفض ما ذُكر سابقا عند الزمخشري وأبي حيان، وأبدى رأيا آخر فقال: «والظاهر أن قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ مؤكدا لقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾،

---

(١٨٧) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ١٣١ ، ١٣٥.

(١٨٨) الكشاف ٥٨٠/٢، وانظر: مفاتيح الغيب ١٧٣/٢١، وروح البيان للشيخ حقي ٥٠٦/٥.

(١٨٩) تفسير البحر المحيط ٣٣١/٦.

والموجب لهذا التأكيد: أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة...»[١٩٠].

والراجح: ما ذهب إليه الشنقيطي، فالجملة توكيد معنوي؛ «لإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه»[١٩١]، وهذا ما يتواءم مع كون هذه الجملة معترضة كما مر.

تكشف لنا من خلال التحليل للآية التي ورد فيها مصطلح التفهيم الآتي:

١- ورد الفهم في الذكر الحكيم بصيغة الماضي المضعف العين «فهَّم» وآثرت الآية الكريمة هذا الماضي الرباعي على الماضي الثلاثي (فَهِمَ)؛ لأن الثلاثي سيعكس المطلوب حيث يوحي بأن القضية قد فهمها سليمان من تلقاء نفسه، وهذا غير مراد؛ لأن المولى هو الذي فهَّمها له بأي طريقة من طرق التفهيم المجلاة.

---

(١٩٠) أضواء البيان للشنقيطي ٤/٨٤١.

(١٩١) التحرير والتنوير ١٧/١٢٠.

علاوة على أن الفهم مصدر الثلاثي (فَهِمَ) إنما يكون بالفطرة، فكل من كان عاقلا فهو يفهم ما حوله ويدركه على قدر علمه وعقله وسعة مداركه، وهذه قضية بدهية لا تعرض لها تلك الآية هنا.

كما آثرت الآية الكريمة «فهَّم» على أفهم؛ للدلالة على التكثير، أي: أن سليمان كان أكثر، وأعمق فهما لتلك القضية من أبيه داود .

فضلا عن سلاسة وعذوبة وقوة هذه اللفظة عند النطق بها مع الضمائر الواردة معها بخلاف أفهم.

أما التدبر فقد ورد بصيغة المضارع من الماضي الخماسي «تدبَّر»، وبهذا يتفقان في كون كل منهما وردا من الماضي غير الثلاثي، ولكنهما يختلفان في ثلاثة أمور:

الأول: الفعل الرباعي «فهَّم» تعدي لمفعولين، المفعول الأول سليمان والثاني القضية، وتقدير الكلام: «فهَّم الله سليمان القضية»، و «تدبَّر» تعدى لمفعول واحد هو: القرآن، والقول، وآيات الكتاب على اختلاف المواضع.

الثاني: الفعل الماضي الرباعي أفاد التكثير كما مضى، بخلاف «تدبَّر» الذي يدل على التتبع والتدرج، وليس على الكثرة.

الثالث: الفعل الماضي الرباعي «فهَّم» فعل فريد وحيد في القرآن الكريم مادة وصيغة عكس التدبر فقد ورد في مواطن عديدة كما ذكرنا.

٢- المُفهِّم في الآية، أي: الفاعل هو الله عَزَّوَجَلَّ ، وقد ورد الحديث عنه بضمير العظمة " نا "دلالة على أن هذا التفهيم لسليمان كان منَّة عظيمة من رب جليل عظيم، والفاعل في التدبر هم الطوائف الثلاثة، والحديث عنهم ورد بواو الجماعة لكل طائفة، وفرق بين المُفهِّم وهو الله عَزَّوَجَلَّ ، والمتدبرون وهم هذه الطوائف الثلاثة على اختلاف مشاربها .

٣- المفهّم، أي: الواقع عليه التفهيم في هذه الآية تمثل في شيئين:

الأول: سليمان فهو الذي وقع عليه التفهيم؛ لأنه مفعول أول للفعل «فهَّم»، والتفهيم بذلك وقع على الابن دون الأب، وفي هذا إشارة إلى أن هذا التفهيم كان منحة وهبة وامتنانا من المولى على عبده

سليمان ، وأنه لا يرتبط بصغر، أو كبر، أو أفضلية، وبالقياس فإن التفهيم من رب العالمين للقضايا الشائكة يقع كذلك على المؤمنين من عباده الصالحين الذين يمتن المولى عليهم بذلك.

الثاني: القضية المتنازع عليها هي التي وقع عليها التفهيم؛ لأنها مفعول ثان للفعل «فهَّم»، فالتفهيم وقع على أمر دنيوي مما يتصل بالزرع والحرث، وهي قضية حياتية تمس حياة الناس، ويلاحظ أنها كانت من الأمور العويصة، والقضايا الشائكة، والمسائل الخفية الدقيقة حيث حكم فيها داود بحكم خلاف الحكم الذي حكم به سليمان، ولذا كان التفهيم هنا بإلهام لسليمان؛ لأن رب العالمين نسبه لنفسه بنون العظمة في قوله: «ففهَّمناها»، وبهذا يعلم الفرق بين من فهمه الله في تلك القضية بعينها، ومن لم يقع عليه تفهيم الله لها، فمن فهمه الله صار أقدر على الإتيان بالحكم الصائب بعينه كما مر.

أما التدبر فقد وقع على القرآن الكريم بما فيه من أمور دنيوية وأخروية وعلى ذلك فالواقع عليه التدبر أشمل وأعم، والواقع عليه الفهم

أخص، لأن التدبر يقع على كل المعاني المستكنة في القرآن الكريم دنيوية وأخروية، والتفهيم اختص بالقضايا الشائكة والمسائل العويصة التي هي غاية في اللطف والخفاء.

وبينهما أيضا مغايرة من جهة أخرى، فالتدبر في القرآن واقع على العبارات والأساليب مقروءة ومسموعة ومكتوبة، والتفهيم واقع على قضية دنيوية حياتية.

وتبدو العلاقة في هذا القسم واضحة جدا بين التدبر والفهم؛ لأن مناط الفهم العقل والعلم والمعرفة، وهذه الأمور من الأساسيات التي يجب أن تتوافر في المتدبر؛ فالفهم يكون نتيجة للتدبر، وهل نتدبر شيئا إلا بعد فهمه ومعرفته، والوقوف على حقيقته اللغوية والمراد منه؟ فالمتدبر في الأمور يجب أن يتوافر فيه الفهم والمعرفة حتى يصل لما يريد من الحقائق.

وهكذا فقد استبان لنا من خلال الذكر الحكيم ذاته لا من كلام خارج عنه ما بين هذين المصطلحين من فروق وصلات، وهذا ما نؤكد

عليه مرارا في أن الذكر الحكيم يجب أن يكون غايتنا، ومنطلقنا في الكشف عن الفروق والصلات الكائنة بين المصطلحات التي استعملها لا من كلام خارج عنه من أي عالم لم يراع إبراز هذه الفروق من واقع النظم والتركيب والسياقات.

التدبر والتأويل:

قال **ابن فارس** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه»[١٩٢]، وهو بهذا يشير إلى دلالة النهاية والغاية، ويظهر ذلك بوضوح من قوله: « ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبتُهُ وما يؤُول إليه، وذلك قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٥٣ ﴾[الأعراف: ٥٣] يقول: ما يؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.

وقال **الأعشى**:

على أنَّهَا كانَت تأوَّلُ حُبَّهَا   تَأَوُّلُ رِبعِيِّ السِّقابِ فأصحبا

يُريد مرجعَه وعاقبتَه، وذلك مِن آل يَؤُول»[١٩٣].

ونصَّ **ابن منظور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٧١١هـ) على المآل والمرجع، وذكر معه التفسير فقال: « الأَوْلُ: الرجوع ، آل الشيءُ يَؤُول أَوْلاً ومآلاً

---

(١٩٢) مقاييس اللغة، مادة(أول).

(١٩٣) مقاييس اللغة، مادة(أول).

: رَجَعَ، وأوَّلَ إِليْهِ الشَّيءَ: رَجَعَهُ ... وأوَّلَ الكلامَ وتأَوَّلَه: دَبَّرَهُ وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله: فسَّرهُ»[١٩٤].

ولعلنا من خلال هذه المعطيات نستطيع القول بأنَّ التَّأويل يبحث فيما يؤول إليه الشَّيء، وإذا تعلَّق ذلك بالكلام كان المراد هو ما يؤُولُ إليه ذلك الكلام، أو هو الرجوع به إلى مآل آخر.

وبِهَذا يكون التَّأويل أقرب المعاني للتَّدبر؛ لاشتراكهما في الوصول للغاية والمآل، والمقصد، لكن قد يكون في التَّأويل من الخفاء في الدّلالة ما ليس في التدبُّر.

وقد اهتمَّ **أبو هلال العسكري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كغيره[١٩٥]- بإيراد بين التفسير والتأويل على وجه الخصوص [١٩٦]، وما ينبغي التنبه إليه في كلامه قوله في نهاية تلك النقول الكثيرة، والتفصيلات المتعددة: «أقول: لا يخْفَى أنَّ غاية ما يتحصَّل من هذه الأقاويل: ... أنَّ: التأويل

---

(١٩٤) لسان العرب، مادة(أول).

(١٩٥) كالمناوي في التعاريف ١/ ١٩٣.

(١٩٦) انظر: الفروق اللغوية ١/١٣٠.

له مزيَّة زائدةٌ على التفسير، ويرشد إليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧] ،حيث حصر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم التَّأويل في جنابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن رَسَخَ في العلم قدمُه، واستضاء في طريق التحقيق علمُه، وقع على عجائب ما أودع فيه من الأسرار، وأطلع على تفاصيل ما اشتمل عليه من الأحكام والآثار.

وأود أن أشير إلى أن أكثر أهل العلم يرون وجوب الوقوف على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ كما أن الواو في قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[آل عمران: ٧] هي (واو) الاستئناف، وليست واو العطف على رأي الأكثرية، وأظنُّ أنَّ هذا قول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن لم تخنّي الذَّاكرة، وأهل اللُّغة يعرفون هذا جيداً، فكوننا نستدلُّ على أن الرَّاسخين في العلم يعلمون المتشابه منه بهذه الآية في هذا الموطن لا يتنافى أو يتعارض مع ما قررته سابقاً، فقد يؤتي الله الرَّاسخين في العلم فهماً، لذلك استدللت بهذه الآية في هذا الموطن ولا أرى أنه به شيء، فاللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سبقها بقوله:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ [آل عمران: ٧] وقد أحببت أن أشير إلى هذا رجاء أن تعمّ الفائدة.

وقد دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، وقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأوِيل »، فلو لم يكن للتأويل مزيدُ فضلٍ لم يكن لتخصيص ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بذلك - مع جلالةِ قدره، وعظيم شأنه- مزيد فائدة».

ولعلَّ هذا ما يجعلنا نقول: إنَّ هناك علاقة بين التَّأويل والتَّدبُّر، يحكمها التقاؤهما في الغايات والمقاصد، وافتراقهما فيما يتعلَّق بالمكلفين ، فالتَّدبُّر مطلوب محثوث عليه، متاح لكلِّ الخلق ممن ملك الأداة، والتَّأويل محصورٌ في أهل الرُّسوخ أمثال حبر الأمَّة وترجمان القرآن، حتَّى لكأن التَّأويل يبحث فيما خفيت دلالته، وصعب على سائر الناس إدراك المراد منه.

وقد يرشد إلى ذلك تأمل الآيات التي ورد فيها لفظ التأويل، فهي جلها - أو كلها - مما خفيت دلالته، مثل الرؤيا، وما خفي من العلم في

قصة موسى- عَلَيْهِ السَّلَامُ- والعبد الصالح، لهذا ينبغي عدم الوقوف عند القول بأن التأويل هو التفسير فحسب، بل إن الدلالة الأخرى المتعلقة بالمآل فيها من العمق والبعد ما يحتاج إلى طول نظر من خلال الأسلوب القرآني، أما التأويل الحادث، وهو صرف اللَّفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، فهذا لا تدعمه اللغة.

وليس حديثنا هنا عن التَّأويل المذموم، وإنما عن دلالته اللُّغوية وربطها بوروده في القرآن، ومدح النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به، ولهذا يمكننا من خلال النَّظر في مواطنه في القرآن من جهة، واستقصاء ما انفرد به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أقوال من جهة، يمكننا من خلال ذلك أن ندرك بصورة أدق معنى التَّأويل، وسرّ اختصاص ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.

وبعد، فقد تبين لنا من عرضنا للفروق، والعلائق الكامنة بين هذه المصطلحات، أن القرآن الكريم يعبر بهذه المصطلحات تعبيرا غاية في الدقة والإتقان، ولا يمكن أن يحل غيرها محلها البتة، وإن تقاربت معها من وجه أو وجوه؛ لأن كل لفظة في القرآن الكريم بمنزلة شخص ذي

صفات وسمات، وطبائع تميزه عن غيره، ولا يمكن لشخص آخر مهما تقارب مع الأول في سماته الجسدية والعقلية أن يحل محله، ويكون نفسه، وهكذا ألفاظ الذكر الحكيم التي أنزلها رب العالمين بميزان دقيق، وقسطاس مستقيم.

ولذا يسمي القرآن من يتأمل فيه سماعا وقراءة وكتابة متدبرا، ومن يقف على متشابه القرآن يكون متأولا، ومن يتعرف على حقائق الأخبار، ويميز بينها يكون مستنبطاً، ومن عُلِّمَ الصواب في القضايا الشائكة يكون مُفَهَّما، ومن يكشف عن المعاني أحسن كشف وبيان وتفصيل يكون مُفسِّرا، فكل معنى اقتضى لفظة لا يمكن لغيرها أن تسد مسدها، وتؤدي مؤداها، ولو غربلنا اللغة كلها لن نجد لفظة أخرى تصلح أن توضع موضعها، وتحل محلها.

وغني عن البيان -كما تبين لنا- أن التدبر أعم من هذه المصطلحات وأنها كلها داخلة تحت عباءته، فيا لروعة هذا الذكر الحكيم الذي يعبر بألفاظ هي مناط إعجازه، بما لا يقدر الإنس والجن على أن يأتوا بها،

وهذا يدعونا إلى وجوب أن يكون القرآن الكريم هو منطلقنا وغايتنا في الكشف عن الفروق والصلات الكامنة بين ألفاظه المختلفة.

كما يدعونا إلى عدم التسليم بالتعاريف التي وضعها بعض المفسرين، وهي بعيدة عن الدلالة القرآنية المرادة منها.

ثالثاً: دلالة صيغة الكلمة (التدبُّر):

لصيغة الكلمة أثر في مدلولها، لهذا رأيت أن أسلط الضوء على صيغة هذه الكلمة من الناحية الصرفية ومن الناحية النحوية، وذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول: دلالة الصيغة الصرفية (تفعل) .

المطلب الثاني: دلالة الصيغة النحوية (صيغة المضارع) .

المطلب الأول: دلالة الصيغة الصرفية (تَفَعَّلَ):

معلوم أن (التَّدبُّر) هو مصدر الفعل (تدبَّر) ، وهو فعل مزيد، ومعاني الزّيادة تظهر في الفعل، ثم تنقل للمصدر، فالحديث عن المصدر سيكون من خلال الحديث عن الفعل، يقول **ابن سيده**: «وأمَّا مصدر

تفعَّلْت، فإنه التَفَعُّل، جاؤوا فيه بجميع ما في تفعُّل، وضمُّوا العَينَ ؛ لأنه ليس في الكلام اسمٌ على تفعُّلٍ»[١٩٧]

وبناءً على ذلك، فإنه لابد أن يكون لصيغة هذا الفعل على (تفعُّل) دون غيرها من الصيغ دلالة تميِّز بها، ويمكن لهذه الدلالة أن توضح المراد وتحدد المفهوم، وحتى يتم ذلك، فيحسن أن نعرف المعاني التي ذكرها الصرفيون لهذه الصيغة (تفعُّل)، (بزيادة التاء في أوله، وتضعيف العين) .

يقول **العكبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦١٦هـ) في «اللباب»: «وقد اطَّردت زيادةُ التَّاء في الفعلِ للمعاني، نحو تَفَّعَل وتَفَاعَل وافتعل، وفي مصادرها وفي مصدر فَعَّل نحو قطَّع تقْطِيعاً، فزيادةُ التَّاء والياء عوض من تَشْدِيدِ العينِ في الفعل؛ ليدل على التكثير والتوكيد»[١٩٨].

---

(١٩٧) المخصص ٤٠٩/٣.

(١٩٨) اللباب علل البناء والإعراب ٣١٢/١.

وبعد النظر فيما ذكره الصرفيون من دلالات صيغة (تفعَّل)[١٩٩]
، نستطيع القول: إنَّ كثيراً من المعاني الواردة مع هذه الصيغة مبني على المطاوعة، حيث إنها تلمح في أغلب المعاني المذكورة، وعادة ما ينص الصرفيون على ذلك، وسأشير إلى ذلك عند ذكر معاني الصيغة التي هي:

التَّكثير: (مطاوع) (فعَّل) نحو: كسَّرت الزجاج فتكسَّر.

النّسبة: (مطاوع) (فعَّل) نحو: قيَّسته فتقيس، أي نسبته إلى قيس.

الاتّخاذ: (مطاوع) (فعَّل)، ولا يأتي إلا متعدِّياً ، والاتخاذ يعني: اتخاذ فاعل الفعل، وجعله مفعول أصل الفعل، نحو: تسنم عليّ المجد، اتخذه سناما.

---

(١٩٩) ممن فصل في هذا الأمر الرضي في شرحه لشافية ابن الحاجب، انظر تفصيل ذلك في: شرح شافية ابن الحاجب١/١٠٤ .

التَّكلُّف: (مطاوع) (فعَّل)، وهو رغبة الفاعل، واجتهاده في حصول الفعل له حقيقة، نحو: تشجَّع، وتحلَّم، وتصَبَّر، وتجلَّد، وتكرَّم، وتنوَّه، تقول: تشَّجع المغامر، أي: كلَّف نفسه الشَّجاعة، ليتمّ حصولها.

التَّجنُّب: (مطاوع) (فعَّل)، وهو للدلالة على السَّلب، وترك الفعل والابتعاد عنه، نحو: تحرَّج محمدٌ، أي: ترك الحرج، وتأثَّم الرجل. بمعنى: ترك الإثم.

التدرُّج: (مطاوع) (فعَّل)، وهو العمل المتكرّر في مهلة، وهو بذا يؤول إلى معنى التَّكثير، وحصول الفعل مرة بعد أخرى، ويأتي للأمور الحسية والمعنوية.

مثال الحسّيَّة: جرعت المريض الدواء فتجرعه، أي: شربه جرعة بعد جرعة.

ومثال المعنويَّة: علّمت التلميذ المسألة فتعلمها، أي: علمها مرة بعد مرة.

التَّأصيل: (مطاوع) (فعَّل)، أي جعل الشيء ذا أصل حقيقة، أو تقديراً، فالحقيقة نحو: أصَّلته فتأصَّل، أي: صار ذا أصل، ومثال التَّقدير:

أهَّلته فتأهَّل؛ أي: صار ذا أهل، وقد يكون مطاوع «فعَّل» الذي معناه جعل الشيء نفس أصله حقيقة، أو تقديراً، مثال الحقيقة: تزبَّب العنب؛ أي صار زبيباً، والتقدير نحو: تكلَّل الشيء؛ أي: صار إكليلاً

بمعنى «استفْعَل»: وذلك فيما يتعلق بالطَّلب والاعتقاد؛ لأنهما مختصَّان بـ «استفْعَل»، فالطَّلب نحو: تنجزته؛ أي: استنجزته، بمعنى: طلبت نجازه، وهو الحضور والوفاء به، والاعتقاد: وهو تصورك الشيء أنه على صنعة أصله، نحو: تعظَّمته؛ أي: استعظمته، بمعنى: اعتقد فيه أنه عظيم.

بمعنى «فعَّل»، نحو: تظلَّمني؛ بمعنى: ظلمني، وتجهَّمت الرجل؛ بمعنى: جهمته؛ أي: كلحت في وجهه، ومنه حديث دعاء الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: «إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي»؛ أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

ولعلَّه اتَّضح من خلال هذا العرض لأهم معاني هذه الصيغة كيف أن المطاوعة كانت السمة الأظهر فيها ، والعامل المشترك بين أكثرها ، وحتى لو كانت المطاوعةُ واردةً في صيغٍ أخرى، فإن المعاني المذكورة مع هذه الصيغة، والبنية التي وردت عليها، تحدِّد نوع الدلالة

فيها، وتمنحها السمةَ المميزةَ لها، عن (تفاعل، وانفعل) على سبيل المثال.

وشيوع المطاوعة في هذه الصيغة عموماً يجعلنا نستحضر معناها في حديثنا عن التدبُّر، وإن لم يكن ذلك ظاهراً في الفعل(تدبَّر)؛ لأنه ليس مطاوعاً لـ(دبَّر)،ذلك أنَّ المطاوعة لا تكون عادة إلا بعد جهد ومشقة، حتى لكأن هذا المطاوع كان مستعصياً ثم لان وطاوع، والتدبُّر يحتاج إلى تعقب ونظر في العواقب إلى أن يحصل له مراده، وهذه بعض دلالات المطاوعة.

كما أننا إذا نظرنا إلى المعاني الأخرى الواردة، واستحضرنا معنى (التَّدبُّر) ومجاله وهو القرآن، عرفنا بعض السّمات والصّفات التي ينبغي للمتدبّر التحلّي بها، ويمكننا لحظُ ذلك من معنيين على وجه الخصوص هما: (التكلُّف) و(التَّدرُّج) المراد منه حصول الفعل مرَّة بعد مرَّةٍ ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ ، فالأول يشعر بضرورة بذل الجهد، والثاني يبيِّن ضرورةَ التَّدرُّج والتتبع مرحلة مرحلة، لسبر أغوار أسرار القرآن، ولعل هذا يلتقي بوضوح مع المعنى اللُّغوي لمادة (التَّدبُّر)، مما يمكِّننا من رسم معالم واضحة لمنهجية التَّدبُّر تمثَّل في: (الصَّبر، وبذل الجهد، والتَّدرُّج).

المطلب الثاني: دلالة الصيغة النحوية (صيغة المضارع):

الحديث هنا عن الصيغة التي وردت عليها المادة في القرآن، وبالنظر في تلك الصيغة نجد أن التَّدبُّر جاء في القرآن في أربعة مواضع هي:

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ (ص٢٩)

وعند تأمل هذه الآيات يمكن لمح الدلالات الآتية:

١- أنَّ هذه المادة (التَّدبُّر) لم تذكر في القرآن إلا مع القرآن، بينما ذكر مع غيره التَّفكر والتَّذكر والنَّظر، ولكل منها معناه الخاص به، على ما سبق بيانه.

٢- أنَّ الصيغة التي جاءت عليها هذه المادة هي (الفعل المضارع) بالفكِّ (يتدبَّرون) والإدغام (يدَّبَّروا)، وقد تنوع معها ما يدل على القرآن معها، فقد ورد لفظ (القرآن) معرَّفاً مرتين، وورد لفظ (القول) معرفاً مرة واحدة، وورد لفظ (آياته) معرفاً بالإضافة مرة واحدة.

ومن خلال كل هذا يمكننا إدراك معان أخرى يمكن أن تتكامل مع ما سبق، فصيغة الفعل - وخصوصا المضارع - لها دلالات لابد من استثمارها، وقد ألمح البلاغيون في دلالة المضارع في مقابل الاسم إلى بعض الفروق، ولعلّ أهمها: أنَّ المضارع يدلُّ على التَّجدد والحدوث، أو ما يمكن التَّعبير عنه بالاستمرار التَّجددي، والاسم يدلُّ على الثُّبوت، كما أنَّه يدلُّ على الحركة بخلاف دلالة الاسم على السكون غالبا، كما أنَّه أقدر من الاسم على استحضار الصُّورة، فإذا قلنا: فلان يركب، كان المضارع ناقلاً للصُّورة، ودالّاً على الحركة، وليس شرطاً أن يكون ذلك متجدّداً.

وإذا أردنا أن نستثمر كل هذا في دلالة المضارع الوارد معنا هنا، لأمكننا القول بأنَّ المراد هو الحثّ على التَّدبر بطريق الإنكار لضده

(عدم التدبر)، بأسلوب يشعر بضرورة تجدُّد ذلك كلَّما دعا له داعٍ، أو وجد له سبب.

وهذا الأمر يتناسب مع قضية التدبر، التي لا يتصور فيها أن الإنسان سيكون متدبِّرًا كلَّ وقته، لكن ينبغي أن يتحرك عنده هذا الهاجس كلما طرق سمعه القرآن، أو تحرَّك به لسانه، أو قرأته عيناه، وهذا يعني أن (التدبر) حدثٌ متجددٌ مع أسبابه ودواعيه.

فدلالة المضارع في الشواهد كلها مؤشر مهم على ضرورة الاستمرار المتجدد في هذا الشأن، ذلك أنَّ من أهم دلالات هذه الصيغة التَّجدُّد والحدوث.

ويحسن التنبيه إلى أنَّ التَّدبُّر لفظا أو معنى لا يختص بالقرآن إذ كلّ ما ورد لا يعدو أن يكون استعمالاً، والاستعمالات لا تتنافى بل تتآخى على اللَّفظ الواحد، ولا أرى محظوراً من استعمال اللَّفظ في غير القرآن، والكلام جار بنحو (تدبَّر أمره)، أي: نظر فيه.[٢٠٠]

(٢٠٠) [ينظر الفروق اللغوية للعسكري]

وإنه لمن المتقرر في القواعد أنَّ من أصعب الأعمال: تفسير الواضحات، ومن هذه الواضحات (التدبر)، ويحسن بالقارئ أن لا يُغفلَ معجماً يعنى بألفاظ القرآن ومفرداته، مثل «**مفردات ألفاظ القرآن**» **للرَّاغب الأصفهاني** (المتوفى سنة: ٥٠٣هـ)، شرح فعل (تَدَبَّر)، ومضارعه (يَتَدَبَّر)، ومصدره (تدبر).

فالتَّدبُّر في حقيقته مبادرة، واستجابة التَّدبُّر لأمر اللَّه، وليس فيه المعنى الممنوح مثل: (فهمته فتفهم)، (علمته فتعلَّم)، (وجهته فتوجَّه). وهو فعل يخاطب به الأمة كلها، ولا يختص بذلك أهل العلم، فكما أنَّ العالم مطلوب منه التَّدبُّر، وكذلك العامِيّ ومن لا يملك أدوات علميَّة تؤهّله يمكن أن يقع منه التَّدبُّر، وقد يصل إلى ما يصل إليه أهل العلم، وقد يفتح اللَّه عليه بسبب نور بصيرته ما لا يفتحه على العلماء.

أذكر أنَّ عامياًّ رأى شخصاً يجمع الناس حوله فيجتمعون، فقال: إن فلانا - يقصد هذا الذي يجمع الناس- يدعو إلى نفسه .. ولو أخلص دعوته لوُفِّق، أخذاً من قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

(يوسف:١٠٨)، وهذا معنى عزيز قد يغيب عن كثير من الدعاة والمشتغلين بالعلم.

ومن المهمّ أن لا نحصر معاني القرآن على معنى معين، كما يفعل بعض أهل اللغة؛ لأنَّ معاني القرآن أشمل وأكمل، ولذلك كلَّما نظرنا في تفسير القرآن خاصة «**تفسير ابن جرير الطبري**رَحِمَهُ ٱللَّهُ»؛ وأعظم مفسّر للقرآن هو **ابن جرير الطبري** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يجد في تفسيره معاني يفوق فيها من سبقه، أو من ألَّف مثله، فأرجو عدم حصر معاني القرآن على معنى معين، فالغاية من تدبر المؤمنين هي زيادة الإيمان، وفهم منهج القرآن، وتطبيق هذا المنهج سلوكا، وعملا في حياة المسلمين والغاية من تدبر المؤمنين كذلك الوقوف على حقائق الشريعة، وأحكامها، والكشف عن أسرار إعجاز الذكر الحكيم، واستخراج كنوزه، ودرره، والوقوف على مكنوناته، وما حواه من معان رشيدة، وأساليب إعجازية هي غاية في النهاية، وغير ذلك من الغايات حسب طبيعة كل متدبر، وما عساه أن يتدبر فيه.

وهنا نقول: إن التدبر -وهو النظر في أدبار الآيات والتأمل في أعقابها، والوقوف على أسرارها، وتفهم معانيها- لا بد أن يسبقه إلمام بعلوم اللغة العربية المختلفة، ومعرفة أساليب العرب، وطرائق تراكيبهم التي نزل بها القرآن، وغير ذلك من أدوات بمعنى أن تكون هناك ضوابط عقلية وشرعية ينطلق منها المتدبر في كتاب الله، وليس هذا فحسب بل يجب أن تكون هناك أسس يسير عليها كل متدبر في أي علم من العلوم، وقد تنبه علماؤنا، وأسلافنا القدماء رحمهم الله إلى ذلك فوضعوا شروطا للمفسر، وشروطا للمفتي الذي يجتهد في مسائل الدين فلابدكذلك من وجود الأدوات التي يدخل بها المتدبر إلى رحاب القرآن الكريم.

وهكذا فإن الغاية من تدبر المؤمنين تختلف عن الغاية من تدبر المنافقين والكفار كما مر، وقد نص الذكر الحكيم على الغاية من تدبر المنافقين، وترك للعقول أمر استنباط غاية التدبر لغيرهم من المؤمنين والكافرين كما أسلفنا.

وبعد، فنستنتج من هذا كله أن المخاطب بالتدبر في القرآن ثلاث طوائف طائفة المنافقين، وطائفة الكافرين، وطائفة المؤمنين، وأن الواقع عليه التدبر أيضا ثلاثة ألفاظ: لفظ القرآن، ولفظ القول، ولفظ آيات الكتاب.

وبين هذه الألفاظ الثلاثة علاقة قوية، وصلة شديدة ملتحمة كما ترى، وبهذا صار معنا ثلاثة مصطلحات مستنبطات من هذه الآيات الأربع:

الأول: المُتَدَبِّرون بصيغة اسم الفاعل، أو المخاطبون بالتدبر هم المنافقون والكافرون والمؤمنون.

الثاني: المتدبر: بصيغة اسم المفعول هو الذكر الحكيم مقروءا ومسموعا ومكتوبا، أي: بمختلف مسمياته، وعلى شتى صفاته.

الثالث: التدبر بصيغة المصدر، وهو عملية التدبر ذاتها.

وما دام التدبر مقصورا على القرآن الكريم مقروءا ومسموعا ومكتوبا فمتابعة للذكر الحكيم - ما دام القرآن هو منطلقنا في تحرير وتأصيل

المصطلحات - لا يجوز أن يطلق مصطلح التدبر على التفكر في الكون، والنفس الإنسانية؛ لأن القرآن لم يطلق التدبر على ذلك، بل أطلق عليه عبارات أخرى مثل: التفكر والنظر(٢٠١)،وما جاء على ألسنة علمائنا في

---

(٢٠١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾[الجاثية: ١٣] ،وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم: ٨] ،وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٤] ،وغير ذلك من الآيات كثير، فمن يتأمل في هذه الآيات يجد أن الواقع عليه التفكر في القرآن جاء متنوعا ومتعددا، فالتفكر وقع على الدلائل المنظورة من الكون، والنفس الإنسانية، والآيات المسطورة، وعلى ذلك؛ فمتعلق التفكر في القرآن أعمُّ من متعلق التدبُّر؛ لأنَّ التدبر لا يكون إلا في الآيات المسطورة فحسب، ومن ثم يجوز لنا أن نقول: تفكر في القرآن، وتدبر في القرآن؛ كما صرح بذلك القرآن، لكن لا يجوز أن نقول: تدبر في ملكوت السموات والأرض، والنفس الإنسانية؛ لأن التدبر لم يقع على شيء من ذلك البتة.

ومن هنا تبدو العلاقة بين التدبر والتفكر، ومن يتأمل كذلك في الآيات التي وقع عليها النظر يجد أن الواقع عليه النظر أيضًا جاء متنوعًا ومتعددًا، ما بين النظر في ملكوت السموات والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، وما بين النظر في عاقبة الذين سبقوا كفار قريش، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١ ﴾ [غافر: ٢١]، وما بين النظر إلى السماء كيف بنيت وزينت، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ ﴾[ق: ٦]، وغير ذلك، لكن لم يقع النظر على القرآن مطلقا.

وانطلاقا من كون القرآن الكريم هو منطلقنا في إطلاق المصطلحات المختلفة لا يجوز أن نقول: نظر في القرآن؛ لأن القرآن لم يصرح بذلك، وهكذا الحال في نظائر هذين اللفظين، نحو: التعقل والاستبصار والاعتبار، مما لا يسعنا الوقت للإطالة فيه.

هذا، وعلاقة النظر بالتدبر علاقة وثيقة؛ لأن المتدبر ينظر للمتدبر بأناة وتأمل حتى يصل إلى مراده من التدبر.

كتب التراث إنما هو من قبيل التسامح في العبارة فحسب، وليس هذا من مصطلحات القرآن الكريم، وإطلاقاته.

ولكن مما ينبغي التأكيد عليه هنا أننا يجوز لنا بالقياس العقلي أن نطلق التدبر على الحديث الشريف كتابة وقراءة وسماعا.

كما يجوز لنا أن نطلق التدبر على كلام العرب كله شعره ونثره، فمن أراد أن يفهم حقائق هذه الأقوال، ويقف على كنهها، ودرجات بلاغتها فعليه بالتدبر فيها على وفق أسس وقواعد التدبر الصحيحة، وهكذا نتوسع بالتدبر إلى جميع آفاقه، ومجالاته الرحبة.

كما يجوز لنا أن نطلق التدبر كذلك على سائر علوم المسلمين المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وليس هذا منا ابتعادا عما أصَّلناه من قبل، ولكنه قياس عليه، وهو قياس صحيح جدا إن شاء الله تعالى، فسائر علوم المسلمين المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، يجب أن تُقرأ وتدرس بكيفية التدبر ذاته في القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام العرب.

ولقد قام أسلافنا بالوفاء بحق التدبر في هذه الجوانب كلها فتركوا لنا تراثا تليدا خالدا في شتى العلوم والمعارف.

ولن تستطيع أمة الإسلام أن تنهض من كبوتها العابرة إلا بالعودة من جديد للتدبر، والتأمل في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب، وسائر العلوم المختلفة حتى تستعيد سالف المجد والحضارة، والفكر، والثقافة التي أنتجها أسلافنا القدماء حينما أعملوا عقولهم، وشحذوا أفكارهم، وانكبوا على كتاب الله وسنة نبيه، واستنبطوا هذا التراث العظيم المتنوع في شتى العلوم والمعارف الإنسانية، وكل هذا كان تلبية من علماء المسلمين، واستجابة واعية وانصياعا واضحا لما أمرهم به رب العالمين من التدبر فتدبروا، ومن التفكر فتفكروا، ومن النظر فنظروا واستبصروا.

وبعد، فلقد اتضح لكل ذي لب أن القرآن يسمي الأشياء بأسماء دقيقة عكس البشر فقد يتسامحون ويطلقون هذا على ذاك، وهذا ما

يجب التنبه له مما يدل على أننا لابد أن نسمي الأشياء بأسمائها القرآنية، وهو الاتجاه الأعز.

كما بان لنا أيضا الفرق الواضح بين كلام الرحمن وكلام الإنسان ففضل كلام الرحمن على كلام الإنسان كفضل الله على سائر خلقه، وكل ذلك ظواهر قرآنية تستحق البحث والدرس بأناة أكثر، وتدبر أعمق؛ لاستخراج الفروق الدقيقة، وإدراك العلاقات القائمة بينها؛ لأن ما ذكرناه كان بنظرة عجلى في هذا الجانب الغزير.

تدبر القرآن الكريم

بالنَّظر في مدلول كلمة التَّدبُّر في اللُّغة فإنَّنا سنحدّد مفهوم تدبُّر القرآن في النَّظر فيما وراء الآيات من المعاني والدّلالات والغايات.

ولكننا حيث نضع هذه الكلمة في إطار النصوص والآثار مع اعتبار المعنى اللُّغوي فإننا نجد أنَّها تمتد إلى ثلاثة أمور:

أولاً: اعتبار مقدمات التدبر، وهي تهيؤ وتفاعل القلب واللسان والجوارح، ويؤكده قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ (ق:٣٧) وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾(محمد:٢٤) فنصّ على القلوب حضوراً وإيماناً.

ثانياً: اعتبار عملية التدبر، ويؤكده قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ (النساء:٨٢)

وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ (المؤمنون:٦٨)، فعقب ذلك التدبر بما يدعو للتأمُّل والنَّظر في صدق ما دلَّت عليه.

ثالثاً: اعتبار الثّمار والنَّتائج، وهي العلم والإيمان والعمل، ويؤكده قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ :﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ ،وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام:١٥٥]، فصرح على التَّذكُّر والاتّباع، وهذا المعنى - أعني: اعتبار الثّمار والنَّتائج - متعلّق بالمعنى اللُّغوي من حيث أنَّه داخل في معنى العواقب والنّهايات، ولذا فلا بدَّ من اعتباره في مفهوم تدبُّر القرآن، وهو الجانب الذي ظهر في أقوال السلف وأحوالهم.

وقد أكد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لزوم التَّدبُّر لهذا الجانب فقال: «والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة

نزلت فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه» [٢٠٢].

(٢٠٢) مجموع الفتاوى٢/١٦.



وإنَّه ليجدر بالباحث قبل أن يتعرض للتعريف الاصطلاحيِّ أن ينبه على أنَّ مصطلح (التدبُّر) له مدلولان : مدلول عام ؛ يفيد : التَّفكُّر في عواقب الأمور كلِّها.

ومدلولٌ خاص؛ يُفَسّر بما يضاف إليه، كتدبُّر القرآن ونحوه، ومرادنا النوع الثاني لا الأول.

وتعدد فهم المفسرين للتدبر، ولكن مع تعدده يقترب بعضه من بعض؛ إذ تؤكد تعاريفهم كلها على : تأمل المعاني، وتبصُّر الآيات والأحكام، مع التَّأثُّر بنتيجة ذلك.

قال **الضَّحَّاك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٢هـ) في قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ (النساء : ٨٢) : النَّظر فيه.

قال **مقاتل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ) تدبُّر القرآن : هو التَّأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر في مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك.

قال **الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ) في قوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص:٢٩] " أي: ليتدبّروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به "[٢٠٣].

وقال **أبوبكر بن طاهر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٣٠هـ) :" تدبَّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسِرَّك بالإقبال عليه "[٢٠٤].

وقال **الماوَرْديّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٠هـ) : " أصل التَّدبُّر : الدُّبور، لأنَّه النَّظَرُ في عواقب الأمور.

وقال **السَّمعانيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٨٩هـ) : " التَّدبُّر: النظر في الأمر إلى آخره".

---

(٢٠٣) جامع البيان ١٩٠/٢١

(٢٠٤) حكاه عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣٨/١٩

وقال **الكرماني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ) : " التَّدبُّر : تصرُّف القلب بالنَّظر في العواقب " .

وقال **البغوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥١٦هـ): " والتدبُّر هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كلِّ شيء آخرُه " [٢٠٥].

وقال **الهروي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٥هـ): " أبنية التذكُّر ثلاثة أشياء : الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة " [٢٠٦].

وقال **الزمخشري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٨هـ): " تدبُّر الأمر : تأمُّله والنَّظر في إدباره، وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل.

تدبُّر الآيات : التَّفكُّر فيها، والتَّأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدبُر ظاهرها من التأويلات الصَّحيحة، والمعاني الحَسَنة.

فمعنى تدبر القرآن : تأمل معانيه وتبصر ما فيه " [٢٠٧].

---

(٢٠٥) معالم التنزيل ٦٦٧/١

(٢٠٦) منازل السائرين ص ٣٠، ونقله ابن القيم في مدارج السالكين ٤٤٢/١.

(٢٠٧) الكشاف للزمخشري ٥٤٠/١

وقال: «وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدبُر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يحْل منه بكثير طائل، وكان مثَلُه كمَثَل من له لِقحَة دَرُورٌ لا يحلبها، ومُهرة نَثُورٌ لا يستولدها»(٢٠٨).

وقال **ابن عطيَّة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٢هـ): " التَّدبُّر : النَّظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء " (٢٠٩).

وقال **الرَّازي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٠٦هـ): " التَّدبُّر عِبَارة عن النَّظر في عواقب الأمور وأدبارها.

وقال **القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): " تدبُّر القرآن : التفكر فيه وفي معانيه" (٢١٠).

وقال **البيضاويّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٨٥هـ): " التدبُّر : التَّأمُّل في معاني القرآن، والاستبصار بما فيه" .

---

(٢٠٨) الكشَّاف (٣/٣٧٢).

(٢٠٩) ينظر : المحرر الوجيز ٢/١٦١

(٢١٠) الجامع لأحكام القرطبي ٥/٢٩٠

وقال **النَّسَفي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " التَّدبُّر : التَّأمُّل والنَّظر في أدبار الأمور، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كلِّ تأمُّل.

وقال **الخازن** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤١هـ): " تدبُّر القرآن : هو تأمُّل معانيه، وتفكُّر في حكمه، وتبصُّر ما فيه من الآيات" (٢١١).

وعند **أبي حيان** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٤٥هـ): " التدبُّر : التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء" (٢١٢).

وعند **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): " تدبُّر القرآن : هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمعُ الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر" (٢١٣)

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً: تدبُّر الكلام: أن ينظر في أوَّله وآخره، ثمَّ يعيد نظره مرَّة بعد مرَّةٍ، ولهذا جاء على بناء التَّفعُّل؛ كالتَّجرُّع والتَّفهُّم والتَّبيُّن.

---

(٢١١) لباب التأويل في معاني التنزيل ١/٥٦٣

(٢١٢) البحر المحيط ٧/٣٧٩

(٢١٣) مدارج السالكين ١/٣٦٣

وفي التعريفات **للجرجاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨١٦هـ): " التَّدبر: عبارة عن النَّظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التَّفكر، إلا أن التَّفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتَّدبر تصرفه بالنَّظر في العواقب ".

وقال **ابن عادل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٨٠هـ): التَّدبُّر عبارة عن النَّظر في عواقب الأمور وأدبارها .

وقال **السيوطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩١١هـ): " وتسن القراءة بالتدبر والتفهم ... وصفة ذلك : أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمَّل الأوامر والنَّواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذّ، أو تنزيه نزّه وعظَّم، أو دعاء تضرع وطلب".[٢١٤]

وقال **الخطيب الشِّربينيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٧٧هـ): " التَّدبُّر : تصرُّف القلب في طلب معاني الأشياء ".

(٢١٤) الإتقان في علوم القرآن ١/٣٠٠ .

وقال **إسماعيل حقِّي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٢٧هـ): "التَّدبُّر: إحضار القلب للفهم".

وقال **الزبيدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٢٠٥هـ): " التدبُّر: التفكُّر، أي تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفةٍ ثالثة، ويقال: عَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّراً، أَي: بِأَخَرَةٍ "[٢١٥].

وقال **الشَّوكانيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٥٠هـ): " يُقَال تدبَّرتُ الشَّيء: تفكَّرتُ في عاقبته وتأمَّلته، ثمَّ استعُمِلَ فِي كلِّ تأمُّل".

وقال **الآلوسي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٧٠هـ): " وأصل التدبُّر: التأمُّل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمُّل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه"[٢١٦].

وقال **رشيد رضا** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٥٤هـ): " التَّدبُّر: هو النَّظر في أدبار الأمور وعواقبها، وتدبُّر الكلام هو النَّظر والتَّفكُّر في غاياته ومقاصده الَّتي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له.

---

(٢١٥) تاج العروس ١١/٢٦٥

(٢١٦) روح المعاني ٥/٩٢

وقال الشيخ **السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٠٧هـ): " تدبُّر القرآن : هو التَّأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه" (٢١٧).

وقال **ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): " والتَّدبُّر : إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له، وأصله أنَّه من النظر في دبر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للتأمل بادىء ذي بدء" (٢١٨).

وقال أيضاً : " التَّدبُّر : تعقُّب ظواهر الألفاظ ليُعلم ما يَدبُر ظواهرها من المعاني المكنونة والتَّأويلات الَّلائقة ".

وقال أيضاً : " والتدبُّر : التفكُّر والتأمُّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ، كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلَّما ازداد المتدبّر تدبُّراً، انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادىء النَّظر" (٢١٩).

---

(٢١٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ١٨٩

(٢١٨) التحرير والتنوير ١٨/٨٧

(٢١٩) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥٢

وقال **الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): " تدبُّر آيات هذا القرآن العظيم أي : تصفُّحها، وتفهُّمها، وإدراك معانيها، والعمل بها" (٢٢٠).

وقال **ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢١هـ): " التَّدبُّر : هو التَّأمُّل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فأتت الحكمةُ من إنزال القرآن، وصار مُجَرَّد ألفاظ لا تأثير لها.

وقال **عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢٥هـ): "التَّدبُّر هو : التفكُّر الشَّامل الواصل إلى أواخر دلالات الكَلِم ومراميه البعيدة "(٢٢١).

وقال **فريد الأنصاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٣٠هـ): " التَّدبُّر في الاصطلاح القرآني هو أنَّك إذ تقرأ الأيات وتتعلم وتدرس تنظر إلى مالآتها وعواقبها في النفس والمجتمع.

وقال **الدكتور أحمد آل سبالك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " أما المعنى الاصطلاحي لتدبُّر القرآن كما ورد في كتب التَّفسير فهو: التَّفكُّر في غايات القرآن

---

(٢٢٠) أضواء البيان ٢٥٧/٧

(٢٢١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله د. عبد الرحمن حسن الميداني ص ١٠

ومقاصده التي يرمي إليها، ويأتي ذلك بالتَّفهم والتَّأمُّل والتَّفكير في معاني الآيات ومبانيها ".

ويرى الشيخ **أ.د. ناصر العمر**: " أن المقصود بتدبر القرآن : التأمل والتفكر والنظر في مآلات الآيات ودلالاتها وآثارها، بحيث يتحقق التوافق بين اللّسان والقلب والعقل مما يؤدي إلى تحقيق الغايات التي أنزل القرآن لأجلها " (٢٢٢).

وقالت **أسماء الرويشد**: " التَّدبُّر : الفهم لما يُتلى من القرآن، مع حضور القلب وخشوع الجوارح، والعمل بمقتضاه ".

وقال **باسم السَّيِّد**: " التَّدبُّر : التَّأمُّل أو التَّفكُّر في معاني القرآن الكريم بقصد الاعتبار والاستبصار ".

---

(٢٢٢) ينظر : أفلا يتدبرون القرآن، أ.د. ناصر العمر ص١٥٥، وبرنامج الشريعة والحياة، قناة الجزيرة بتاريخ ٢٠١٣/٠٢/١٧ م، وينظر : حول التعريف: جامع البيان ١٩٠/٢١،ومعالم التنزيل ٦٦٧/١، ومدارج السالكين ٣٦٣/١

وقال **بسَّام القوابعة**: " تدبُّر القرآن : التَّأمُّل في معانيه من أجل فهم نصوصه فهماً صحيحاً، ثم استخراج أحكامه، وإنزالها على الواقع والعمل بها ".

وقال **محمود توفيق**: التَّدبُّر : العمل على تحقيق وتحديق النَّظر فيما يبلغه المعنى القرآنيّ المديد من درجات الهداية إلى الصِّراط المُستقيم.

وهذا نظرٌ لا يتناهى، فإنَّ المعنى القرآني له أصلٌ يبدأ منه، ولكنَّ منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العبَّاد، فصاحب القرآن الكريم في سفر دائم طالباً للمزيد من المعنى القرآني، فكلُّ تعقُّل وتفكُّر وتفقُّه وتفهُّم للبيان القرآني لا يحقّق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصّراط المستقيم لا يكون من تدبُّر القرآن الكريم في شيء.

وقال **خالد اللاحم**: " التَّدبُّر : هو التَّفكُّر والتأمُّل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه، وحكمه والمراد منه ".

وقال **خالد السبت**: " التَّدبُّر : النّظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعِبر والمقاصد، الأمر الذي يثمر العلوم النَّافعة والأعمال الزَّاكية ".

وقال **خبَّاب الحمد**: " التَّدبُّر : تقليب النَّظر البصري، والعيش الرُّوحي، لتأمُّل جملة قرآنية بما فيها من معانٍ ودلالات قد لا تتبدّى للناظر فيها من البداية، وتحقيق ذلك التأمل والتدبر بالعمل.

وقالت **الدكتورة رقيَّة العلواني**: " والتَّدبُّر : النَّظر إلى مغزى الآيات القرآنية، والتَّوصُّل إلى مقاصدها وأهدافها وما ترمي إليه عن طريق إعمال الفكر والتَّأمل، وبذل الجهد الذهني في فهم الآيات ".

وقال **سعد حنتوش**: " التَّدبُّر النَّظر والتَّوصُّل إلى مغزى الآيات القرآنية ومقاصدها وأهدافها وما ترمي إليه عن طريق إعمال الفكر والتَّأمُّل، وبذل الجهد الذِّهني في فهم الآيات ".

وقال **سعيد عبد العظيم**: التَّدبُّر : هو التَّفكُّر والتَّأمل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه، وحكمه، والمراد منه.

وقال **سلمان السنيدي**: " تدبُّر القرآن : هو تفهم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل في ضمنها، وما لا تتمُّ تلك المعاني إلا به، مما لم يُعرِّج اللَّفظ على ذكره من الإشارات والتَّنبيهات،

وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه "(٢٢٣).

وقال أيضاً: " تدبُّر القرآن : هو تفهُّم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدل عليه من الإشارات والتنبيهات؛ ليتَّعظ القلب، وتخشع النَّفس، وينشرح الصَّدر للعمل الصالح ".

وقال **عادل رفُّوش**: " التَّدبُّر : البحث في أدبار المعاني ونِكات الدِّلالات، وشفيف الاستنباطات ".

وقال **عبد القادر سليماني**: " تدبُّر القرآن : هو تفهُّم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدلُّ عليه آياته مطابقة، وما تدخل في ضمنها وما لا تتمُّ تلك المعاني إلَّا به، ممَّا لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه ".

وقال **عبد اللَّطيف التويجري**: " التَّدبُّر : النَّظر في آيات القرآن الكريم، والتَّفكُّر في معانيها؛ بقصد اتِّعاظ القلب، وامتثال الجوارح ".

---

(٢٢٣)تدبر القرآن ص ١١

وقال **عبد الله أبو المجد**: " التدبُّر : تفهم معاني آيات القرآن، وإعمال النَّظر في دقائق وأسرار تعبيراتها المختلفة، وما فيها من الحكم والمعارف؛ ليخشع القلب بذلك ويتأثر، وتنساق الجوارح للعمل والتطبيق ".

وقال **عبد المحسن المطيري**: "التدبُّر : هو عميق التَّفكر في معاني كلام الله تعالى، وإعمال النظر في عواقبها من تأثر قلب أو عمل جوارح"

وقال **د. عمر المقبل**: " التَّدبُّر تأمل الآيات للاهتداء بما دلَّت عليه علماً أو عملاً ".

وقال **عيادة الكبيسي**: " التَّدبُّر : تعقُّب ظواهر ألفاظ الآيات، والتَّفكر الشَّامل فيها بعد فهم معانيها، والتَّأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبّرِ ظواهرها من التَّأويلات الصحيحة اللائقة، والمعاني الحسنة المكنونة؛ لتكون منهج حياة للمتدبّر، تنظّم شؤونه العلميَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والرُّوحيَّة ".

وقال **فرج الزَّبيدي**: " التدبر : التفكر العميق والتأمل الشامل في الألفاظ والتراكيب اللغوية؛ للوقوف على نهايات ما تحتمله من المعاني بقصد الفهم والتطبيق ".

وقال **فهد الوهبي**: "التَّدبُّر: تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار".

وقال **فوَّاز زمرلي**: التَّدبُّر: الفهم لما يُتلى من القرآن، مع حضور القلب وخشوع الجوارح، للعمل بمقتضاه ".

وقال **مبارك المصري** : التَّدبُّر: التَّبصُّر الموصل إلى دلالات آيات القرآن، وما وراءها من حكم وأسرار، بقصد الانتفاع بها علماً وإيماناً وعملاً ".

وقال **مُحَمَّد الدويش**: "التَّدبُّر: التفكر باستخدام وسائل التفكير والتساؤل المنطقي للوصول إلى معانٍ جديدة، يحتملها النص القرآني، وفق قواعد اللغة العربية، وربط الجمل القرآنية بعضها ببعض، وربط السور القرآنية بعضها ببعض، وإضفاء تساؤلات مختلفة حول هذا الربط أو ذاك ".

وقال **مُحَمَّد آل عابد**: " التدبر : هو تفهم معاني ألفاظ القرآن، والتَّفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به ".

وقال محمَّد عمر بازمول: " التَّدبُّر : النَّظر والتَّفهم والتَّفكر في عاقبة ما تؤول إليه الأمور التي ذكرها اللَّه في القرآن الكريم، والاستفادة من ذلك في إيمان العبد، وظهور أثره في جوارحه ".

وقال د. محمد بن عبد اللَّه الرَّبيعة:" مفهوم التَّدبُّر الكامل هو: الوقوف عند الآيات، بتفاعل القلب واللسان والجوارح معها، والنَّظر والتَّأمُّل فيما تدلُّ عليه من المقاصد والمعاني والدلالات والهدايات، بقصد الانتفاع بها، إيماناً وعلماً وعملاً ".

وقال د. مساعد بن سليمان الطَّيَّار : " التَّدبُّر : إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن للوصول إلى معانيها، ثم النظر إلى ما فيها من الأحكام والمعارف والعلوم والعمل".

وقال ناصر القطامي: " التَّدبُّر : التَّفكُّر والتَّأمُّل في كلام اللَّه تعالى؛ لأجل فهمه، وإدراك معانيه وحكمه، وما يخفى من إشاراته وتنبيهاته؛ لينتفع القلب بذلك، فتحصل له الموعظة والاعتبار والخشوع والادِّكار ".

وقال **ناهض صبحي**، **وطلال خلف**: " التّدبُّر : هو التَّأمُّل والتَّفكُّر والنَّظر في مآلات الآيات ودلالاتها وآثارها، وهو في الحقيقة استخدام للعقل والفكر أثناء القراءة؛ ليتواطأ اللِّسان مع القلب، والعقل مع التَّفكير، وبهذا نصل إلى الغايات التي من أجلها أنزل القرآن، وهو ارتباط مباشر بين تلاوة الآية ودلالتها وآثارها دون دخول في تفاصيل الأحكام.

أبرز الملحوظات والإشكالات على التَّعاريف :

١- طول العبارة في بعض التَّعريفات:

الأصل في التَّعريفات أن تكون محرَّرة جامعة مانعة، يتميَّز بها الشيء المعرَّف عن غيره، وقد لوحظ في بعض التعريفات طول في عباراتها، واستطراد في ذكر كيفيات التدبر ولوازمه وثمراته على الفرد أو المجتمع، ومن أمثلة ذلك تعريف التَّدبُّر بأنَّه :

" هو التَّأمُّل والتَّفكُّر والنَّظر في مآلات الآيات ودلالاتها وآثارها، وهو في الحقيقة استخدام للعقل والفكر أثناء القراءة؛ ليتواطأ اللِّسان مع القلب، والعقل مع التفكير، وبهذا نصل إلى الغايات التي من أجلها أنزل القرآن، وهو ارتباط مباشر بين تلاوة الآية ودلالتها وآثارها دون دخول في تفاصيل الأحكام ".

" تعقُّب ظواهر ألفاظ الآيات، والتَّفكر الشَّامل فيها بعد فهم معانيها، والتَّأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبِّر ظواهرها من التَّأويلات الصَّحيحة اللَّائقة، والمعاني الحسنة المكنونة؛ لتكون منهج حياة للمتدبِّر، تنظِّم شؤونه العلميَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والرُّوحيَّة ".

"هو تفهُّم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدلُّ عليه آياته مطابقة، وما تدخل في ضمنها وما لا تتمُّ تلك المعاني إلَّا به، ممَّا لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه ".

وهذا التطويل في التعريف بالتدبر يُفوِّت الفائدة منه، بحيث يصعب حصره وتحديد المراد منه، ويكون الفهم له غير دقيق.

٢- التَّوسُّع في بيان معنى التَّدبُّر:

تنوعت عبارات المعاصرين في تعريفهم التَّدبُّر، وقد لوحظ في بعضها سعة في بيان حقيقته، وزيادة عن أصل معناه اللغوي وهو النَّظر في عواقب الأمور وأواخرها.

فمثلاً بعضهم يذكر في تعريف التَّدبُّر : استخراج الحِكَم والأحكام من الآيات، وإعمال النَّظر في دقائق وأسرار المعاني، وهذا بلا شك أمر زائد عن التَّأمل والتَّفكر في المعاني بقصد الاتّعاظ والاعتبار، وهو أقرب إلى معنى الاستنباط منه إلى التَّدبُّر، وبهذا التعريف لا تستطيع التفريق بين الاستنباط والتَّدبُّر، ومن أمثلة ذلك تعريف التَّدبُّر بأنَّه:

" التَّأمُّل في معانيه من أجل فهم نصوصه فهماً صحيحاً، ثم استخراج أحكامه، وإنزالها على الواقع والعمل بها ".

" تفهم معاني آيات القرآن، وإعمال النَّظر في دقائق وأسرار تعبيراتها المختلفة، وما فيها من الحكم والمعارف؛ ليخشع القلب بذلك ويتأثر، وتنساق الجوارح للعمل والتطبيق ".

" البحث في أدبار المعاني ونكات الدلالات، وشفيف الاستنباطات ".

ولا شكَّ في وجود الارتباط الوثيق بين الاستنباط والتَّدبر، فكلاهما يجتمعان في إعمال الفكر والنَّظر والتَّأمُّل؛ ولكنهما يختلفان في الغرض، فغرض المستنبط: العلم بدقائق المعاني والدلالات والهدايات، وهو خاصٌ بخواص العلماء، بينما غرض المتدبِّر هو الانتفاع والامتثال والعمل، وهو عامٌ لجميع الناس.

وإذا أجلت النظر في تعاريف المتقدمين فإنَّك لا تجدهم يذكرون في معنى التدبُّر استخراج الحِكَم والأحكام وأسرار ودقائق المعاني، وإنَّما عباراتهم تدور حول معناه اللغوي.

٣- الفرق بين تعاريف المتقدمين والمعاصرين للتدبر:

يلاحظ أن أغلب تعاريف المتقدمين غير خارجة عن المعنى اللغوي للتدبر، وهو النظر في أعقاب الأمور وأدبارها، وهي بهذا تعتبر تعريفات عامة لا تختص بتدبُّر القرآن الكريم، بل تشمل غيره من الكلام والأمور الحسية والمعنوية، ومن أمثلة ذلك :

١- تعريف **الماوَرْديّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٠هـ): " أصل التَّدبُّر : الدُّبور، لأنَّه النَّظَرُ في عواقب الأمور.

٢- تعريف **البغوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥١٦هـ): " والتدبُّر هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كلِّ شيء آخره " [٢٢٤].

بينما نجد أغلب تعاريف المعاصرين تفرِّق بين المعنى اللُّغوي للتَّدبُّر، وبين المعنى الاصطلاحي الخاص بالقرآن الكريم على اختلاف عبارات أصحابها وتنوعها، ومن أمثلة ذلك:

---

(٢٢٤) معالم التنزيل ١/٦٦٧

١- تعريف **مساعد الطَّيَّار**: " التَّدبُّر : إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن للوصول إلى معانيها، ثم النظر إلى ما فيها من الأحكام والمعارف والعلوم والعمل".

٢- تعريف **عبد اللَّطيف التويجري**: " التَّدبُّر : النَّظر في آيات القرآن الكريم، والتَّفكر في معانيها، بقصد اتِّعاظ القلب، وامتثال الجوارح ".

ومما سبق نستطيع أن نخلص بنتيجة وهي أن معنى التَّدبُّر عند المتقدمين من أهل العلم أوسع من معناه عند المتأخرين المعاصرين، لاشتماله على تدبر القرآن الكريم وغيره من الأمور الحسية والمعنوية، وهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لم يقصدوا وضع حدّ جامع مانع للتَّدبر، وإنَّما أرادوا بيان معناه.

طبعاً هذا بالنظر إلى الأعمّ الأغلب كما تقدَّم، وإلَّا فقد تجد من المتقدمين من يعرف التَّدبر بالمعنى الاصطلاحي الخاص بالقرآن الكريم، وفي المقابل قد تجد من المعاصرين من ينقل في التعريف الاصطلاحي المعنى اللُّغوي العام للتَّدبُّر، ومن أمثلة ذلك عند المتقدمين :

تعريف **الزمخشري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٨هـ): " تدبر الأمر : تأمله والنظر في إدباره، وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل.

تدبُّر الآيات : التَّفكُّر فيها، والتَّأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدبُر ظاهرها من التأويلات الصَّحيحة، والمعاني الحَسَنة ".

ومن أمثلة ذلك عند المعاصرين:

أنَّ بعضهم اعتمد في التعريف الاصطلاحي للتَّدبُّر بأنَّه: " عبارة عن النَّظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التَّفكُّر الذي يعني تصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّليل، والتدَّبُّر تصرُّفه بالنَّظر في العواقب " [٢٢٥]، وهذا تعريف لغوي، ذكره أبو هلال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ) في الفروق اللُّغوية، في الفرق بين التَّفكر والتَّدبر[٢٢٦]، ثم نقل عنه

(٢٢٥) انظر تدبر القرآن الكريم أعلام ومناهج: ص٢٢.

(٢٢٦) انظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، دار العلم والثَّقافة، ص٧٥.

الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ) في غرائب التَّفسير(٢٢٧)، وكذلك الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨١٦هـ) في التَّعريفات (٢٢٨).

أبرز الملحوظات والإشكالات على المؤلفات في دراستها للتعاريف:

١- كثرة النقل والتكرار في التعاريف:

يظهر للناظر في بعض هذه المؤلفات كثرة نقل تعاريف المتقدمين والمتأخرين للتَّدبُّر، وتكررها، وإن كان لا يخلو ذلك من فائدة؛ ولكن نقلها دون تحرير وتمحيص يشتت ذهن القارىء، ولا يستطيع حينها أن يخرج بتصوُّر دقيق لحقيقة التَّدبُّر؛ لاختلاف التَّعاريف وتنوعها، خاصة عند ذكر تعاريف المعاصرين، وأمَّا بالنسبة لتعاريف المتقدمين فالأمر فيه سهلٌ؛ لكون أغلبها تدور حول المعنى اللُّغوي

---

(٢٢٧) انظر غرائب التفسير وعجائب التأويل لتاج القراء الكرماني، (دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت)، (١/٣٠٠).

(٢٢٨) انظر التعريفات للجرجاني، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ، ص٥٤.

للتَّدبُّر، وقد اطلعت الدراسة على بعض المؤلفات التي نقلت أكثر من عشرين تعريفاً للتدبر.

٢- نقل العبارات التي ليست تعريفاً للتدبر:

قد لا يكون مراد صاحب العبارة أن يُعرف التَّدبُّر، وإنَّما ذكر صفته أو ما يتعلق به من الأمور المعينة على التَّدبُّر، ونحو ذلك، ثم جاء من بعده ونقل عبارته هذه على أنَّها تعريف للتَّدبُّر.

ومن أمثلة ذلك: أنَّ بعض المؤلفات نقلت كلام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩١١هـ) في صفة التَّدبُّر على أنَّه تعريف له، وهو قوله : " وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذّ، أو تنزيه نزّه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب".(٢٢٩)

---

(٢٢٩) الإتقان في علوم القرآن ١/٣٠٠.

ولا شكَّ في أن هذا لا يسمى تعريفاً للتَّدبُّر، وقد صرَّح السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه بأنَّه صفة له لا تعريفاً، وكلامه هذا ذكره في الإتقان قائلاً في بدايته : " وتسنُّ القراءة بالتَّدبُّر والتَّفهُّم ... وصفة ذلك أن ...".

وكذا ما نقلته بعض المؤلفات في تعريف التَّدبُّر بأنَّه: " العمل على تحقيق وتحديق النَّظر فيما يبلغه المعنى القرآنيّ المديد من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا نظرٌ لا يتناهى، فإنَّ المعنى القرآني له أصلٌ يبدأ منه، ولكنَّ منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العباد، فصاحب القرآن الكريم في سفر دائمٍ طالباً للمزيد من المعنى القرآنيّ، فكلُّ تعقُّل وتفكُّر وتفقُّه وتفهُّم للبيان القرآني لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم لا يكون من تدبُّر القرآن الكريم في شيء".

وهذا الكلام المنقول هو لمحمود توفيق سعد ذكره في كتابه العزف على أنوار الذكر؛ لبيان مفهوم التَّدبُّر عند بعض أهل العلم لا على أنَّه تعريف له(٢٣٠).

---

(٢٣٠) انظر العزف على أنوار الذكر: ص١٠.

ومن ذلك أيضاً ما نقلته بعض المؤلفات من عبارة أبي بكر بن طاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التَّدبُّر : " تدبَّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرُّك بالإقبال عليه "، وهذه العبارة ليست تعريفاً للتَّدبُّر، بل ذكرها أهل العلم عن أبي بكر بن طاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى :﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ (المزمل : ٤)، فالعبارة مرتبطة بهذه الآية وليس لها علاقة ببيان حقيقة التَّدبُّر.

٣- مدار أغلب التعاريف في المؤلفات:

هناك (٩) تسعة تعريفات للتدبُّر عند المتقدمين والمتأخرين يكثر تداولها وتناقلها في المؤلفات، وهي على النَّحو التَّالي مرتَّبة حسب كثرة ورودها :

١- تعريف **عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني** ورد في (١٨) مؤلفاً.

٢- تعريف **الزمخشري** الأول ورد في (١٠) مؤلفات.

٣- تعريف **الخازن** ورد في (٨) مؤلفات.

٤- تعريف **ابن القيِّم** الأول ورد في (٨)مؤلفات.

٥- تعريف **الألوسي** ورد في (٨) مؤلفات.

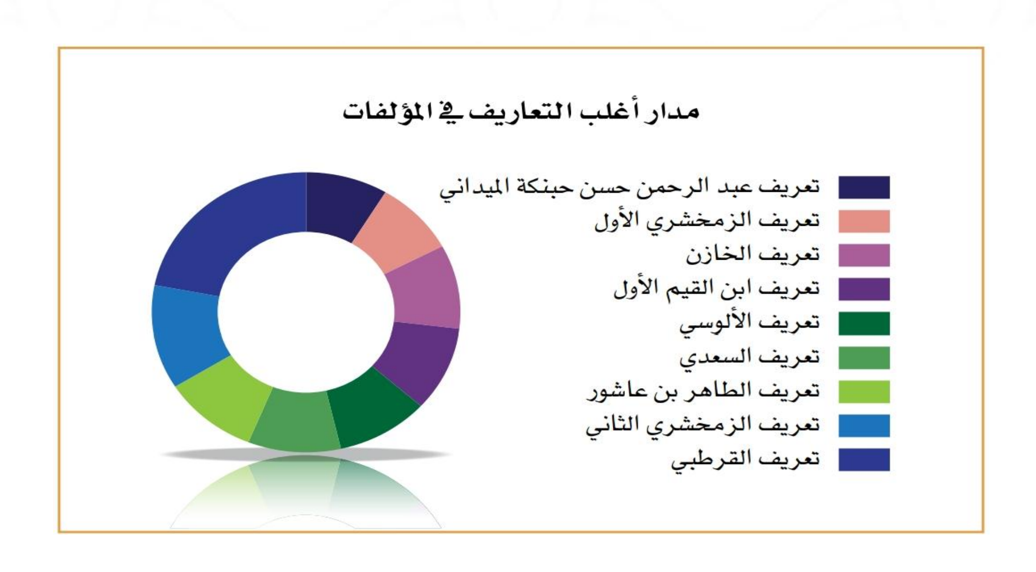
٦- تعريف **السعدي** ورد في (٨) مؤلفات.

٧- تعريف **الطَّاهر بن عاشور** ورد في (٨) مؤلفات.

٨- تعريف **الزمخشري** الثَّاني ورد في (٧) مؤلفات.

٩- تعريف **القرطبي** ورد في (٧) مؤلفات.

وعليه، فإنَّ أكثر التَّعريفات وُروداً في المؤلَّفات هو تعريف **الزَّمخشري** من المتقدمين، وتعريف **الميداني** من المتأخرين، وقد حاز تعريف **الميداني** الصَّدارة في التَّداول بين التَّعريفات، ولعلَّ سبب ذلك شهرة كتابه (قواعد التَّدبُّر الأمثل)، إضافة إلى أنه يعد من أقدم المؤلفات المعاصرة في فن التَّدبُّر، فأصبح عمدة لمن جاء بعده.



٤- اتفاق بعض التَّعريفات:

توجد بعض التعريفات للمعاصرين متفقة في العبارة، وليس فيها عزو ولا توثيق، وهي دائرة بين الابتكار الذاتي، أو النّقل عمن سبق، ولا تستطيع الدراسة أن تبيّن على جهة اليقين من أخذ عن الآخر؛ لا سيما وأن بعض الباحثين يتسامح كثيراً في توثيق وعزو ما ينقله، وقد بلغ عددها(٣) ثلاثة تعريفات، وهي على النَّحو الآتي:

أولاً: تعريف **رقيَّة طه العلواني**، **وسعد أحمد حنتوش** للتَّدبُّر بأنَّه: "النَّظر إلى مغزى الآيات القرآنية، والتوصل إلى مقاصدها وأهدافها، وما ترمي إليه عن طريق إعمال الفكر والتَّأمل، وبذل الجهد الذِّهني في فهم الآيات.

ثانياً: تعريف **سلمان السنيدي**، **ومحمَّد بكر آل عابد**، **وعبد القادر سليماني** للتَّدبُّر بأنه: " تفهُّم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به، مما لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه.

ثالثاً: تعريف **خالد اللَّاحم** وسعد **عبد العظيم** التَّدبُّر بأنَّه: " التَّفكُّر والتَّأمُّل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه وحكمه والمراد منه.

٥- عدم نسبة بعض المؤلفات التعاريف إلى أصحابها:

الغالب والأكثر في هذه المؤلفات هو نسبة التعاريف إلى قائليها، وبعضها تكتفي بذكر بعض التَّعاريف بدون نسبة ولا إحالةٍ إلى مصدر، وقد استطعت - بحمد الله تعالى - معرفة أصحاب تلك التعاريف ونسبتها إليهم.

ومن التعاريف التي يظهر الخطأ في نسبتها؛ تعريف **مقاتل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث لم نقف عليه في تفسيره، وهو متفق في اللَّفظ مع تعريف الشيخ **عبد الرحمن السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما جاء التنبيه عليه في بعض المؤلفات.

ويلاحظ في بعض التعريفات: أن التدبر لم يقتصر على عواقب الأمور فحسب، بل امتد ليشمل حقائقها، وأسبابها، ولواحقها، وغير ذلك على وجه الإطلاق.

فالتدبر عند **الألوسي** لم يقتصر على عواقب الأمور فحسب، بل امتد ليشمل حقائقها، وأسبابها، ولواحقها، وغير ذلك على وجه الإطلاق، وعلى هذا التعريف الواسع يكون مصطلح (التدبر) قد استُعمل في حقيقته اللغوية.

وعند النظر في حقيقته الشرعية فيكون معناه : **النَّظر والتَّوصُّل إلى مغزى الآيات القرآنية ومقاصدها وأهدافها وما ترمي إليه، عن طريق إعمال الفكر والتَّأمل وبذل الجهد الذهني في فهم الآيات.**

وعليه فيمكن لنا أن نحرر مفهوم تدبر القرآن بمعنى مختصر جامع شامل بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو:(**التَّدبُّر : هو الإقبال والوُقُوفُ الجادُّ مَعَ الآيَاتِ بغرض التَّأَمُّلِ فِيهَا، وَالتَّفَاعُلِ والتَّعايشِ مَعَهَا، لِلانْتِفَاعِ وَالِامتِثَالِ والاهتداء إيماناً بما دلَّت عليه علماً أو عملاً**).

وهذا التَّعريف هو ما توصلت إليه بعد نظر وتأمل دقيق في المعنى اللغوي، وفي الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف والآثار الواردة عنهم وأحوالهم، والاطّلاع على أقوال العلماء، والآثار الواردة

عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مستفيضة في الدّلالة على الأمور الثلاثة كما سأفصّل ذلك بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ..

ولنا مع هذا التعريف وقفتان:

الوقفة الأولى: بيان ما يشمله التعريف:

الوقوف عند الآيات يشمل ثلاثة أمور:

أولاً: الإقبال والتفاعل، وهو يمثل مقدمة التَّدبُّر، ويتحقق بثلاثة أمور:

١- بالقلب، وذلك بإحضار القلب إيمانا وتعظيماً وخضوعا للقرآن وللمتكلم به وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستحضاراً لمقاصد القرآن العامة، واستشعاراً بأنه هو المخاطب بهذه الآيات.

٢- باللسان، وذلك بتلاوة الآيات بترتيل وترسل، وتحزن وتباكي، وترديد للآية، وتفاعل معها بالسؤال والتعوذ والاستغفار عند المرور بما يناسب ذلك.

٣- بالسمع، وذلك بإلقاء السمع وإرعائه عند سماع القرآن.

وقد أشار لهذا المعنى واعتبره من التدبر عدد من العلماء:

فقال **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ.(٢٣١)

- وقال **أيضاً** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله".

- وقال **أيضاً**رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ،

---

(٢٣١) الفوائد ص٣.

وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يبغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وقال **السيوطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وتسن القراءة بالتدبر والتفهم ... وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذّ أو تنزيه نزّه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب".(٢٣٢)

---

(٢٣٢) الإتقان في علوم القرآن ١/١٢٧ .

ثانياً: النَّظر والتأمل، قوله: **(والتأمل فيها)**، يعني أنَّ التدبر لا يتأتى في الواضح البيّن، بل لابد أن يُسبق بشيء من النظر وإعمال الفكر والعقل لاستنباط المراد.

وهو يمثل عملية التدبر، لذلك نصصت عليه في التعريف، ويتحقق بإمعان النظر وإعمال العقل في عدة أمور:

١- إدراك مغزى الآيات ومقاصدها.

٢- تفهم معانيها.

٣- استخراج دلالاتها.

٤- تبين ما فيها من الآيات والعبر، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد.

وقد أشار لهذا المعنى واعتبره من التدبر عدد من العلماء، ولعلي أذكر بعض أقوال العلماء والمفسرين والباحثين في معنى التَّدبر بياناً وتأكيداً لما حررته، مع التوضيح والتعقيب:

– قال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل التدبر: النظر في عواقب الأمور، و التفكر في أدبارها، ثم استعمل في كل تفكر و تأمل، و يقال: "تدبرتُ

الشيءَ" أي: نظرت في عاقبته، و معنى تدبُّر القرآنِ تأَمُّلُ معانيه، و التفكر في حِكَمِهِ، و تبصُّرُ ما فيه من الآيات".[233]

- قال **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرُّع والتفهم والتبين" [234].

- قال **الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " إِنَّ التَّدبُّر هو التأمُّل؛ لفهم المعنى، يقال: "تدبرتُ الشيءَ": تفكرتُ في عاقبته، و تأملته، ثم استعمل في كل تأمُّل، و التدبير: أَنْ يدبر الإنسانُ أمْرَه، كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته".[235]

- قال **ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمعنى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ [النساء:٨٢] يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: **أحدهما:** أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبُّر

---

(٢٣٣) لباب التأويل في معاني التنزيل ١/٤٠٢.

(٢٣٤) مفتاح دار السعادة ١/١٨٣.

(٢٣٥) فتح القدير ١/٤٩١.

تفاصيله، **وثانيهما** أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن الذي جاء به صادق»[٢٣٦]

ثالثا: التذكر والاتباع، وهو يمثل: ثمرة التدبر، ويتحقق بأمرين:

١- التذكر علماً وإيماناً [٢٣٧]

٢- الاتباع عملاً وسلوكاً.

وتضمن التعريف له مع دخوله في الوقوف عند الآيات لأمور:

١- أنه الغاية المقصودة من التدبر.

٢- ليتميز به التدبر عن التفسير والاستنباط والفهم وغيرها من المصطلحات القرآنية الأخرى.

---

(٢٣٦) التحرير والتنوير ١/ ٩٩٤.

(٢٣٧)القول بأن التذكر يورث العلم، لأنه إذا تذكر الشيء المغفول عنه كان بمثابة العلم به، قال ابن القيم: «ويسمى تذكرا لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه.» مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٢، وأما الإيمان، فالمقصود به يقظة القلب وتصديقه بعد غفلته.

٣- أن يكون قصد القارئ والمتأمل في الآيات التذكر والاتباع ابتداءً وانتهاءً.

وقد أشار لهذا المعنى واعتبره من التدبر عدد من العلماء:

- فقال **السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " يأمر- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بتدبر كتابه، وهو التأمُّل في معانيه، و تحديق الفكر فيه، و في مبادئه و عواقبه، و لوازم ذلك" .[٢٣٨]

- وقال **الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " تدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها، و تفهمها، وإدراك معانيها، و العمل بها ".[٢٣٩]

- وقال **السنيدي**: " وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه".

- وقالت **الدكتورة رقيَّة العلواني**: " للتوصلِ إلى مقاصدِ الآياتِ وأهدافها وما ترمي إليه ".

---

(٢٣٨) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ١/١٨٩.

(٢٣٩) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/٤٢٩.

فنجد أنهم صرحوا بلزوم اقتران التدبر للعمل والانتفاع بمعنى أنه لابد أن يكون من قصد القارئ أصلاً، وهذا هو الذي يميز التدبر عن غيره من المصطلحات القرآنية.

ولكن هنا ملحظ مهم حول هذا التقييد وهو أن الأولى في التعريف أن يقال (للانتفاع والامتثال) أي بقصد الانتفاع والامتثال، والمقصود هو أن يكون قصد القارئ الانتفاع والامتثال ابتداءً مع مصاحبة هذا القصد حال القراءة إلى تحقق ذلك حال القراءة وبعدها، والأمور بمقاصدها.

الوقفة الثانية: وجه اعتبار لفظ الإقبال والوقوف عند الآيات، ولفظ الانتفاع.

اعتبار لفظ الوقوف، ولفظ التذكر والاتباع في المفهوم ظاهر من وجهين:

أولاً: أن لفظ الوقوف عند الآيات قد ورد وتكرر في استعمال السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وقد أحصيت في ذلك ثمانية مواضع، فهو بذلك لفظ معتبر ولاشك أن اعتبار مفهوم السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هو الأولى.

ومما ورد عنهم في ذلك:

في معنى الوقوف عند الآيات بالتفاعل معها:

١- روي عن عباد بن حمزة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: دخلت على أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطور:٢٧] ، قال: فوقَفَتْ عليها، فجعلتْ تستعيذ وتدعو»[٢٤٠].

٢- قال بعضهم: إني لأفتتح السورة، فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها، حتى يطلع الفجر»[٢٤١]

٣- روي عن ابن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «لا تهذوا القرآن كهذّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»[٢٤٢]

(٢٤٠) مصنف ابن أبي شيبة ٢/٢٥.

(٢٤١) فضائل القرآن لابن كثير ص٢٢٩ .

(٢٤٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/٢٦٠ ح ٢٠٤١.

٤- عن مجاهد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: عرضت المصحف على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيم نزلت وكيف كانت.(٢٤٣)

قال **القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قرأ مجاهد على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قراءة تفهم ووقوف عند كل آية»(٢٤٤).

٥- عن عبد الله بن مسلم بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبيه قال: «إذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»(٢٤٥)

---

(٢٤٣) أخرجه الدارمي ٢/٢٣٣ رقم ١١٧٦.

(٢٤٤) تفسير القرطبي ١/٣٦.

(٢٤٥)أخرجه البيهقي في الشعب ٢/٢٦٠ ح ٢٠٤١.

في معنى الوقوف الجادُّ عند الآيات للتعايش معها والانتفاع بها إيماناً وعلماً وعملاً، وهو الغالب في أقوال السلف وأحوالهم:

١- ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- : هيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- حتى همَّ به، فقال له أحد أصحابه: «يا أمير المؤمنين، إن الله عَزَّوَجَلَّ قال لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين»، قال: «فوالله ما جاوزها عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- حين تلاها عليه، وكان وقَّافا عند كتاب الله عَزَّوَجَلَّ»[٢٤٦]

٢- عن ابن عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا لَيُؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ ، فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ولقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ

---

(٢٤٦) أخرجه البخاري ١٥/٢٣٨رقم ٤٦٤٢.

ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه وينثره نثر الدقل»[(٢٤٧)]

فهذه الآثار كلها نصت على لفظ الوقوف بمعانيه الثلاث مما يؤكد صحة اعتباره في مفهوم التدبر.

ثانياً: بالنسبة للفظ الانتفاع، فقد صرح به القرآن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ ﴾ (عبس: ٤).

وقال **أبو حيان** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾ (المؤمنو:٦٨) قرعهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، ثم ثانياً بأن ما جاءهم جاء آباءهم الأولين»[(٢٤٨)].

(٢٤٧)أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح ٢٠١/١رقم٧٥٥.

(٢٤٧) البحر المحيط ٦٨٨/٢.

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ.

قوله : **(للاهتداء بما دلّت عليه)**؛لأن هذه هي الغاية من التدبر، ولأن الله تعالى وصف كتابه فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ (الإسراء:٩)، ولا يتأتى الوصول إلى جميع هذه الهدايات إلا بالتدبر.

قوله: **(علماً أوعملاً)**؛ لأن التدبر إذا خلا من إحدى هاتين الثمرتين فهو تدبر ناقص، وإنما عطفتُ بـ (أو)؛ لأن من الهدايات القرآنية ما يظهر فيه جانب العلم أكثر من ظهور العمل بمعناه الخاص؛ كالتدبر في الآيات التي تفصّل في النعيم أو العذاب الأخروين أو بعض الأحكام الفقهية، وكذلك وصف بعض الأمور الكونية[٢٤٩].

---

(٢٤٩) وإن كان ينبغي أن تورث تلك الآيات إجلالاً وتعظيماً لله تعالى، وهذا من أعمال القلوب.

ولا تخرج بقية التعاريف عن هذا الإطار وإن اختلفت العبارة فيما بينها.

وعلى هذا فإنَّ التَّدبُّر لا يخرج عن المعاني الآتية

١- نظر القلب وجمع الفكر فيه.

٢- إعمال النَّظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له.

٣- التَّأمُّل الذهني في معاني القرآن الكريم، وآياته، وأوامره، ونواهيه، ومبادئه، وعواقبه.

وكلُّ هذه المعاني حاضرة في أقوال أهل العلم.

ومن ثمَّ فإنَّ هذه الخصوصيَّة في معنى "التَّدبُّر" تكاد لا تبتعد عن : معنى النَّظر، أو التَّأمل القلبي أو العقلي، وجمع الفكر بهما إذا خصّصنا هنا النَّظر العقلي بالجانب الذّهني المحض، والنَّظر القلبي بالجانب الذّهني والرُّوحي معاً.

من خلال التَّأمُّل في مفهوم التَّدبُّر يتبيّن أنَّه ينبغي أن يتضمن عدَّة أمور:

الأوَّل: الاستماع، ثمَّ القراءة؛ نظراً أو حفظاً.

والثَّاني: معرفة المعاني، والتَّفسير جملةً.

والثَّالث: معرفة مراد اللَّه تعالى ومقاصد الآيات.

والرَّابع: حضور القلب، وتأثره وخشوعه.

والخامس: التَّطبيق؛ بانسياق الجوارح للعمل.

والسَّادس: الوصول للمعاني الكليَّة واللَّطائف الدَّقيقة.

واجتماع هذه الأمور السّتّة يمثّل أعلى درجات التَّدبُّر، وقد يتخلَّف شيء منها فيكون القاريء حينئذ متدبّراً ولكن على درجة ما، ولعلَّه يرقى إلى الكمال بالدُرْبة والمران - بإذن اللَّه تعالى - إذا صلحت نيَّته وصفا قلبه.

- أركان التدبر:

من خلال التَّأمُّل في التَّعريف السابق نستطيع أن نحرر منه أركان التدبر، وهي ثلاثة أركان باجتماعها يتحقق التَّدبُّر ويتميز عن غيره وهي:

١- حضور القلب واستشعاره[٢٥٠].

٢- النَّظر والتأمل في الآيات.

٣- قصد التذكر والاتباع.

ولو تأملنا حال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأحوال السلف في تلاوتهم للقرآن وتدبرهم له، لظهر لنا أن تمثلهم بهذا الركن ظاهر جلي مما يؤكد لنا اعتباره كركن لازم للتدبر، وربما عده البعض مما يعين على التدبر لا من أصل التدبر، والصحيح أنه تدبر باعتبار أنه يمثل

---

(٢٥٠) تخصيص حضور القلب واستشعاره ، دون تفاعل اللسان بالترتيل والترسل والتحزن، لأنّ التدبر لا يمكن حصوله بغير حضور القلب واستشعاره، بخلاف الترتيل والترسل فإنه ليس من لوازم التدبر وإن كان سبباً رئيسياً فيه كما يؤكده الأمر به صريحا في القرآن، وكما تؤكده الأحاديث والآثار، لكن التدبر قد يكون بغير تلاوة بل بتأمل أو استماع.

الجانب العملي بتحريك القلب والجوارح مع القراءة وهذا هو التدبر الباعث على الانتفاع.

شروط التَّدبر:

لا يخفى أنَّ التَّدبُّر قضيَّة نسبيَّة يتفاوت النَّاس فيها، بل تتفاوت لدى الشَّخص الواحد في أحواله المختلفة؛ وذلك للتَّفاوت الحاصل في مقدّماتها، وهذا أصلٌ ينبغي استحضاره عند الكلام على هذا المعنى الشَّريف.

لابد لتحصيل التّدبُّر من تحقق الشروط وانتفاء الموانع؛ فعندئذ يوجد السَّبب التَّام الّذي ينمي التَّدبُّر بإذن الله تعالى.

المعروف عند الأصوليين أن الشرط هو : ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، وإذا طبقنا هذا المعنى على شروط التدبر المذكورة في المؤلفات فسيظهر أن بعضها لا يصدق عليها وصف الشرط، وإنما هي أشبه بالوسائل والأسباب المعينة على التدبر، وحينها يتبين تسامح بعض المؤلفين وتوسعهم في تسميتها شروطا.

وعند إمعان النظر في بعض الشروط المذكورة في كتب التدبر يُلاحظ أنها شروط للاستنباط وليست للتدبر، وهذا الخلط بين المصطلحين سببه عدم تحرير مفهوم التدبر عند أصحاب تلك المؤلفات، وقد تقدم أن من المعاصرين من توسع في تعريف التدبر فأدخل فيه استخراج الحِكم والأحكام ودقائق أسرار المعاني، وإنَّ ضبط القواعد والأصول الكلية لكل فن يساعد على تصور المسائل والجزئيات المندرجة تحتها وإتقانها؛ ولهذا عني العلماء بها فصنفوا في ضوابط وقواعد الفقه وأصوله، والتفسير وأصوله، وغيرها من العلوم، وبما أنَّ التأليف في التَّدبر جاء متأخراً فاحتاج بعض المؤلفين المعاصرين إلى ذكر ضوابط وقواعد تعين على تدبر كتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على اختلاف بينهم في تحرير هذه الضوابط والقواعد، وهذا الخلاف فرع عن تحرير مفهوم التدبر عندهم، وإني سأحاول جاهداً وضع شروط بين يديك مما لا يستقيم التدبر إلا بها، وهي :

- فهم المعنى، ولا يكون إلا بمعرفة لغة العرب وأساليبها.
- ألا يكون المعنى مما استأثر الله بعلمه.
- تجرد العقل لمعرفة الحق.

- تهيؤ القلب لقبوله.
- أن يكون المتدبر حي القلب.
- أن يفعل المتدبر الأسباب المعينة على التدبر.
- أن يتجنب المتدبر الأمور التي تصرف عن التدبر.
- أن يكون المعنى المتدبر مفيداً.
- ألا يعد المُتَدَبَّر تفسيرا للآية مطلقاً، فيقصر معنى الآية عليه
- رفعة الهدف وصدقه.
- أن يراعي اللغة التي نزل بها القرآن،والمصطلحات التي استعملها.
- حسن القصد.
- صدق الطلب.

وقد جمعت هذه الشُّروط آية في كتاب اللَّه تعالى، وهي قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ (ق:٣٧)، وذلك أن إلقاء السَّمع لابد أن يكون معه الكلام مفهوماً لدى السَّامع، وإلا فإنّ الإصغاء للكلام الّذي لا يفهمه أصلاً، كالأعجمي، لا يحصل به المقصود.

ذكر حاصل أقوال المفسّرين في الآية:

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ (ق: ٣٧).

فسَّره الأكثر بالعقل، وبه قال ابن عبَّاس[٢٥١]، ومجاهد[٢٥٢]، وابن زيد[٢٥٣]، والفرَّاء[٢٥٤]، وابن جرير[٢٥٥]، والواحدي[٢٥٦]، وابن عطيَّة[٢٥٧]، والقرطبي[٢٥٨]، والشَّوكاني[٢٥٩]، وابن عاشور[٢٦٠].

---

(٢٥١) ينظر: البغوي (٢٢٢/٤)، تفسير الخازن (٢٣٩/٦).

(٢٥٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢٣/١٧)، ابن كثير (٤٠٩/٧).

(٢٥٣) ينظر: ابن جرير (٤٦٢/٢١).

(٢٥٤) معاني القرآن (٨٠/٣).

(٢٥٥) تفسير الطّبري (٢١/ ٤٦٢- ٤٦٣).

(٢٥٦) الوجيز للواحدي (١٠٢٥/٢).

(٢٥٧) المحرر الوجيز (٥٥/٨).

(٢٥٨) تفسير القرطبي (٢٣/١٧).

(٢٥٩) فتح القدير (١٠٦/٥).

(٢٦٠) التَّحرير والتَّنوير (٣٢٤/٢٦).

وفسَّره بعضهم بالقلب الحي، كما قال قتادة[٢٦١]، ومقاتل بن سليمان[٢٦٢]، أو الواعي[٢٦٣]، أو السَّليم[٢٦٤] الّذي يعقل به ويفهم ويتفكّر في حقائقه.

ولا منافاة بين هذه الأقوال؛ فإن المقصود بالقلب ما يحصل به العقل والوعي وحسن الإدراك، وذلك من أوصاف القلب الحي السّليم؛ ولذا عبر عنه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: أي: "لُبّ يعي به" اهـ[٢٦٥].

وذلك قلب المؤمن كما قال ابن أبي زمنين[٢٦٦].

---

(٢٦١) تفسير الطّبري (٤٦٢/٢١).

(٢٦٢) تفسير مقاتل (٢٧٣/٣).

(٢٦٣) الكشّاف (١١/٤)، تفسير الرّازي (١٨٢/٢٨)، البيضاوي (٩٤/٥)، النّيسابوري (١٧٩/٦)، تفسير ابن جزي (٦٦/٤)، البحر المحيط (١٢٨/٨)، روح المعاني (١٩١/٢٦).

(٢٦٤) تفسير أبي السعود (١٩٤/٥).

(٢٦٥) تفسير ابن كثير (٤٠٩/٧).

(٢٦٦) تفسير ابن أبي زمنين (٢٧٨/٤).

وقال ابن عطيّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن فسره بالعقل:" والمعنى: لمن كان له قلب واع ينتفع به "[(٢٦٧)].

فائدة:

قد يفهم من التنكير معنى الكمال، أي: القلب الكامل في الحياة والوعي والإدراك.

قال السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :" أي: قلب عظيم حي ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكّر بها وانتفع فارتفع "اهـ[(٢٦٨)].

ولا ريب أنَّ الاعتبار والتَّذكُّر والتَّدبُّر لا يتوقف على ذلك، ولكن يحصل منه لكل أحد بحسبه؛ ولهذا فسَّره بعضهم بأنَّ ذلك حاصلٌ لمن له قلب ما ولو كان غير كامل، "فكأنَّه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى لمن يصلح أن يُقال (له قلب).

وحينئذ فمن لا يتذكّر لا قلب له أصلاً"[(٢٦٩)].

---

(٢٦٧) المحرر الوجيز (٥٥/٨).

(٢٦٨) تفسير السعدي (ص ٩٥٩ - ٩٦٠).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ :" هذا مع أنّ النّاس متباينون في نفس عقلهم الأشياء من بين كامل وناقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك ... "(٢٧٠).

"فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، وإنّما سائر الأعضاء حَجَبَة له تُوصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتّى إن من فقد شيئاً من هذه الأعضاء، فإنّه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه ... وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب، أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب، فإنّه لا يعقل شيئاً، فمدار الأمر على القلب، وعند هذا تستبين الحكمة في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ (الحج:٤)، حتّى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السّوابق، فإنّ سياق الكلام هنا في أمور غائبة وحكمة معقولة من عواقب الأمور لا مجال لنظر العين فيها، ومثله قوله:﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ

---

(٢٦٩) تفسير الرّازي (١٨٢/٢٨). وينظر: تفسير أبي السعود (١٩٤/٥)، تفسير القاسمي (٥٥١٥/١٥).

(٢٧٠) مجموع الفتاوى (٣٠٩/٩).

﴿أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ (الفرقان :٤٤)، وتتبيّنُ حقيقةُ الأمر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ (ق:٣٧)[٢٧١].

قوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ (ق:٣٧)[٢٧٢].

والمراد به الإصغاء، كما قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢٧٣] وغيره[٢٧٤]، والمعنى: "صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة، وأثبته في سماعها، فذلك إلقاء له عليها"[٢٧٥].

---

(٢٧١) السَّابق (٩/ ٣١٠ - ٣١١).

(٢٧٢) ينظر: الوجيز للواحدي (١٠٢٥/٢)، تفسير البغوي (٢٢٢/٤)، تفسير القرطبي (٢٣/١٧)، تفسير الخازن (٢٣٩/٦)، تفسير ابن كثير (٤٠٩/٧)، تفسير أبي السعود (١٩٤/٥)، فتح القدير (١٠٦/٥)، روح المعاني (١٩١/٢٦)، تفسير السّعدي (ص٩٦٠).

(٢٧٣) تفسير الطبري (٤٦٣/١٩).

(٢٧٤) الكشَّاف (١١/٤)، تفسير البيضاوي (٩٤/٥)، تفسيرالنّيسابوري (١٧٩/٦)، تفسير أبي حيّان (٩٨/٨).

(٢٧٥) المحرر الوجيز (٥٥/٨).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:"أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقَّله بقلبه، وتفهَّمه بلُبِّه" اهـ[٢٧٦].

والتَّعبير بالإلقاء "مُستعار لشدة الإصغاء للقرآن ... كأن أسماعهم طُرحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه"[٢٧٧].

"أي: إلقاءً عظيماً بغاية إصغائه حتّى كأنّه يرمي بشيء ثقيل من عُلُو إلى سُفْل.

(السّمع) أي: الكامل الّذي قد جرّده عن الشّواغل من الحظوظ وغيرها ..." [٢٧٨].

وفي التَّفسير الكبير:" لأنّ من لا يسمع فكأنّه حفظ سمعه وأمسكه، فإذا أرسله، حصل الاستماع".[٢٧٩] اهـ.

قوله ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق:٣٧).

---

(٢٧٦) تفسير ابن كثير (٧/٤٠٩).

(٢٧٧) التّحرير والتّنوير (٢٦/٣٢٤).

(٢٧٨) نظم الدرر للبقاعي (١٨/٤٣٦).

(٢٧٩) تفسير الرّازي (٢٨/١٨٢).

أي: شاهد القلب، حاضر الذهن بكلّيته، ليس بغافل، ولا ساه، ولا يحدّث نفسه بغيره؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب.

هكذا فسره عامة أهل العلم سَلَفَاً وخَلَفَاً[٢٨٠].

وقيل غير ذلك[٢٨١].

ثمَّ إنَّ بناء المبالغة دال على أنَّه في غاية ما يكون من تصويب الفِكر، وجَمع الخاطر، فلا يغيب عنه شيء مما تُلي عليه وأُلقي إليه[٢٨٢].

---

(٢٨٠) ينظر في ذلك : تفسير مقاتل (٢٧٣/٣)، تفسير الطّبري (٤٦٣/٢١)، معاني القرآن للزّجّاج (٤٩/٥)، ابن أبي زمنين (٢٧٨/٢)، الوجيز للواحدي (١٠٢٥/٢)، تفسير البغوي (٢٢٢/٤)، الكشَّاف (١١/٤)، المحرر الوجيز مدارج السالكين(٥٦/٨)، نظم الدرر للبقاعي (٤٣٦/١٨)، تفسير القرطبي (٢٣/١٧)، تفسير البيضاوي (٢٣٢/٥)، تفسير الخازن (٢٣٩/٦)، تفسير ابن جزي (٦٦/٤)، البحر المحيط (٩٨/٨)، ابن كثير (٤٠٩/٧)، الدّر المنثور (١٣/ ٦٥٣ - ٦٥٤)، تفسير أبي السعود (١٦٤/٥)، فتح القدير (١٠٦/٥)، روح المعاني (١٩١/٢٦)، تفسير السعدي (ص٩٦٠).

(٢٨١) ينظر: ابن عاشور (٣٢٤/٢٦).

(٢٨٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤٣٦/١٨).

قال ابن عاشورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :"والشَّهيد: المُشاهد وصيغة المُبالغة فيه للدلالة على قوة المُشاهدة للمذكّر، أي: تحديق العين إليه للحرص على فهم مُراده، مما يُقارن كلامه من إشارة أو سحنة، فإنّ النّظر يُعين على الفهم. وقد جيء بهذه الجملة الحالية للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها، بحيث يكون صاحب الحال مُلقياً سمعه مُشاهداً. وهذه حالة المؤمن ... وإلقاء السّمع مع المشاهدة يُوقظ العقل للذكرى والاعتبار إن كان للعقل غَفلة[٢٨٣].

وظاهر كلام أكثر أهل العلم أن هذه الأوصاف جميعاً لموصوف واحد له قلب حي، مع إصغاء السّمع وحضور القلب مع ما يسمع.

---

(٢٨٣) التّحرير والتّنوير (٣٢٤/٢٦).

ويحتمل أن يكون ذلك لصنفين من النّاس:

الأوّل: صاحب القلب الحي الوقّاد الّذي يستخرج المعاني والعِبَر بتدبُّره وفكره.

الثّاني: من كان دونه، لكنه أصغى بسمعه وأحضر قلبه حال الاستماع، فإنَّه ينتفع بذلك وتذكر ويعتبر، فالتّذكُّر حاصل للكامل والنَّاقص، وإنّما يحول دونه الإعراض.

ولعلّ هذا القول أقرب إلى ظاهر الآية، والله تعالى أعلم[٢٨٤].

والحاصل: أنّه يحصل من التّذكُّر بقدر ما يتحقق من هذه الأوصاف، لأن الحُكم المُعلّق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

تنبيه: ليس بخاف على طالب العلم أنّ الذّكرى المُشار إليها في الآية لا تحصل إلا بالتَّدبُّر والتَّفكُّر، فهي نتيجة لذلك.

---

(٢٨٤) وممن ذهب إلى هذا: نظم الدرر للبقاعي (١٨/ ٤٣٦ - ٤٣٧)، والنّيسابوري (١٨٠/٦)، والسّعدي (ص٨٠٧)، وللاستزادة في محمل (أو) راجع: تفسير أبي السّعود (١٩٤/٥)، وروح المعاني (١٩٢/٢٦)، التّحرير والتّنوير (٣٢٤/٢٦).

مراتب التدبر:

يمكن تقسيم التدبر إلى مراتب قياسا على ما قسم به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا التفسير فقال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره».

فالتَّدبر على ثلاثة أوجه:

المرتبة الأولى: **تدبُّر العامَّة**، وهو الوقوف عند الآيات مع الفهم العام لها والتبصر بما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، والانتفاع بها تذكراً واتباعاً.

وصورة ذلك: أن يقرأ القرآن ويقف مع آياته متأملا في وعده ووعيده وأمره ونهيه، فيزداد بإيمانه وخشيته.

المرتبة الثانية: تدبُّر العلماء، وهو الوقوف عند الآيات مع الفهم لمعناها ودلالاتها، والتبصر بمقاصدها وهداياتها، والانتفاع بها إيمانا وعلماً.

وصورة ذلك: أن يقف مع آيات القرآن بإمعان النظر وإعمال العقل في مقاصدها ومعانيها ودلالاتها، وينتفع بها علماً وفهماً وخشية.

المرتبة الثالثة: تدبر العلماء الربانيين: وهو الوقوف عند الآيات مع الفهم لمعناها ودلالاتها ومقاصدها وهداياتها، والتبصر بما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، والانتفاع بها علماً وإيماناً وعملاً، وهذه المرتبة هي التي تمثلها السلف الصالح في تعاملهم مع القرآن، وهي التدبر الأمثل.

وصورة ذلك: حال السلف الصالح في تلقيهم مع القرآن الذين رزقوا العلم والعمل بالقرآن.

القسم الثاني (الدراسة التطبيقية): التحليل والاستدلال.

بعد أن تبين لنا مفهوم التدبر وما يتضمنه، والعلاقة بينه وبين المصطلحات الأخرى، ولتحقيق هذا المفهوم فإنني سأفصل القول في هذا القسم بذكر الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم مما يؤكد ذلك ويجليه، ليطمئن قلب القارئ، وليكون ذلك تطبيقاً عملياً بالأمثلة من أحوال السلف الصالح الذين هم أكمل الناس تمثلاً للتدبر الأمثل، فهم الأسوة والقدوة، ولا سبيل لتحقيق التدبر والانتفاع بالقرآن إلا باتباع منهجهم والاقتداء بهم، كما قال **مالك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

وسأورد الأدلة والشواهد حسب التعريف:

المحور الأول: تحليل لآيات التَّدبُّر في القرآن:

- حين نتأمَّل في آيات التَّدبُّر الواردة في القرآن يتجلَّى لنا مفهوم التَّدبُّر من وجوه:

أوَّلاً : سياق الآيات:

جميع آيات التَّدبُّر قد جاءت كلها معترضة في سياقات مختلفة أي: في غير سياق الحديث عن القرآن، وهذا يؤكد أنَّ الغرض هو الأمر بالوقوف عند الآيات الواردة فيها للإيمان والعلم والعمل، ويظهر ذلك بما يلي:

فقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾[النساء: ٨٢] ، وردت معترضة الأمر بطاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والاستجابة له والرجوع في الحكم إليه.

قال **ابن جرير** رَحِمَهُٱللَّهُ في معنى الآية : " أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتّباع أمرك ... "(٢٨٥).

وهذه الآية الكريمة وردت في سورة النساء(٢٨٦) المدنية التي عنيت -كما عنيت سائر السور المدنية- بالحديث عن الأحكام التشريعية،

---

(٢٨٥) جامع البيان ٥٦٧/٨.

كما عنيت كذلك بالحديث عن أهل الكتاب والمنافقين، فمن يتأمل مطلعها يجد أنها بدأت بالحديث عن حقوق الأيتام، وبخاصة اليتيمات في حجور الأولياء، كما كشفت عن حقوق المرأة عند عقد القران عليها، ثم ذكرت بالتفصيل أحكام المواريث، كما تحدثت عن المحرمات من النساء بمختلف أنواع التحريم نسبًا ورضاعًا ومصاهرةً، كما تناولت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وغير ذلك من أحكام.

ثم انتقلت للحديث عن أهل الكتاب، ثم تحدثت عن المنافقين من قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء:٦٥]، واستمرت في الحديث عنهم إلى نهاية الآية (٩١)،ومن ثم؛ فإن هذه الآية الكريمة التي معنا هنا وردت في سياق الحديث عن هؤلاء المنافقين كما سيتضح بعد بجلاء.

(٢٨٦)سميت بذلك؛ لأن جل الأحكام التشريعية الواردة فيها تتعلق بالنساء بوجه عام.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ذكرها ابن عادل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «ووجه النظم: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمَّا حكى أنواع مكر المنافقين وكيدهم؛ لأجل عدم اعتِقادهم صحة دعوى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ للرسالة، فلا جرم أمرهم الله تعالى بأن ينظروا ويتفكروا في الدلايل الدالة على صحة النبوة؛ فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ [٢٨٧]، فتدبر القرآن حق التدبر فيه أمارة قاطعة، وحجة ساطعة على صحة نبوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ اختلف في معناها: فقيل: هي: «استفهام بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٤﴾ [المائدة:٧٤] [٢٨٨]وقيل: هي للاستفهام الإنكاري، يقول أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا استفهام معناه الإنكار، أي: أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي، ولا يعرضون عنه، فإن في تدبره يظهر برهانه، ويسطع نوره، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه، ولم

---

(٢٨٧) تفسير اللّباب ٥١٩/٦، وانظر مفاتيح الغيب ٣٣٢/٩، وتفسير النّيسابوري ٤٥٥/٢.

(٢٨٨) حاشية زادة على البيضاوي ٣٧٠/٣.

يتأمله»[289]. وهذا الرأي هو الأرجح، والسياق القرآني يؤيده تماما؛ لأن هذه الآية الكريمة وردت في سياق الإنكار على هؤلاء المنافقين، أي: ما كان ينبغي حدوث ذلك منهم.

ومن يتأمل في دلالة هذا الاستفهام الإنكاري يلحظ مجيئه مصحوبًا أيضا بتوبيخهم على عدم التدبر، والتعجب من حالهم في استمرارهم على نفاقهم مع توافر أسباب الهداية لهم، وهو القرآن الذي يردده الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على مسامعهم، وبين ظهرانيهم ليل نهار، وهذا ما ذكره ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «الاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم مع توفر أسباب التدبير لديهم»[290].

والفاء في قوله: ﴿أَفَلَا﴾ اختلف في معناها على رأيين:

---

(٢٨٩) البحر المحيط ٣٠٥/٣، وفتح القدير للشّوكاني ٤٩١/١، دار الفكر

(٢٩٠) التحرير والتّنوير ١٣٧/٥، وانظر تفسير أبي السُّعود ٢٠٧/٢، والفتوحات الإلهيّة ٤٠٤/١.

الأول: عاطفة، عطفت الجملة التي بعدها على جملة محذوفة قبلها، وقد اختلف في تقدير هذه الجملة المحذوفة على وجهين حكاهما الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «والفاء للعطف على مقدَّر، أي: أيشكون في أن ما ذكر شهادة الله تعالى فلا يتدبرون القرآن... وقيل: المعنى: أيعرضون عن القرآن، فلا يتأملون فيه»(٢٩١).

وبذلك تكون جملة يتدبرون معطوفة بالفاء على جملة يعرضون أو يشكون المحذوفة.

الثاني: الفاء للتفريع على الكلام السابق، ولا حذف، يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفاء تفريع على الكلام السابق المتعلق بهؤلاء المنافقين...»(٢٩٢).

---

(٢٩١) روح المعاني ١٨٦/٤، وانظر: تفسير أبي السّعود ٢٠٧/٢، والفتوحات الإلهيّة ٤٠٤/١.

(٢٩٢) التّحرير والتّنوير ١٣٧/٥.

ومعنى التفريع -كما يفهم من كلام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ - : أن الفاء للاستئناف، استأنفت كلامًا جديدًا، لكنه ليس جديدًا منقطعًا عما سبق، بل جديد متصل به، مُتفرّع عنه.

وهذا الرأي الثاني هو ما أميل إليه هنا؛ لأني تتبعت هذه الفاء المسبوقة بهمزة الاستفهام، وبعدها لا النافية في القرآن، فوجدتها وردت (٤٥مرة)، ولم يتضح لي أنها عطفت الفعل بعدها على مقدر قبلها، وما لا يحتاج لتقدير أولى مما يحتاج.

وقوله: ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ فعل مضارع من الماضي الخماسي «تَدَبَّرَ»، وهو «مشتق من الدبر؛ أي: الظهر، اشتقوا من الدبر فعلا، فقالوا: تدبر: إذا نظر في دبر الأمر؛ أي: في غائبه، أو في عاقبته؛ فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة»[٢٩٣].

ولكننا نتساءل: هل يراد بهم المنافقون الذين كانوا في المدينة النبوية أيام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وبذلك تنحصر دلالتها فيهم فحسب؟ أم أن دلالتها تتسع لتشمل المنافقين في كل زمان ومكان؟

---

(٢٩٣) التّحرير والتّنوير ١٣٧/٥، وانظر: حاشية الشّهاب ١٤٥/٨.

أقول: إني أميل إلى الأخير؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والقرآن يخاطبهم في كل عصر ومصر، والحكمة من حث جميع المنافقين على التدبر فيه: «أن التدبر في القرآن يجعلهم يفكرون في عاقبة أمرهم، ويستيقظون من سباتهم الذي يملك عليهم نفوسهم، ويتجسد أمام بصائرهم ما سوف ينالهم من جزاء يوم القيامة»[٢٩٤].

«القرآن»: مفعول به تعدى إليه الفعل «يتدبر» بنفسه: «والقرآن في الأصل مصدر نحو كفران ورجحان... وقد خص بالكتاب المنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فصار له كالعلم، كما أن التوراة لِما أنزل على موسى والإنجيل على عيسى»[٢٩٥].

والقرآن مشتق «من قولك: ما قرأتِ الناقة سلى قط، أي: ما ضمت في رحمها ولدا»[٢٩٦]،فأصله من الضم والجمع؛ ولذا «قال بعض

---

(٢٩٤) زهرة التّفاسير للإمام محمد أبو زهرة ١٧٨١/٤.

(٢٩٥) مفردات الرّاغب ٤١٤.

(٢٩٦) زاد المسير لابن الجوزي ٨٧/٢، ويجوز أن يكون القرآن غير مشتق، يقول الزركشي:"قول الشّافعيّ هو اسم لكتاب الله، يعني أنه اسم علم غير مشتق،

العلماء: ليست تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين سائر كتب الله المنزلة لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩] »[٢٩٧].

وذكر في هذه الآية لفظة القرآن، وذكر في غيرها لفظة القول، والكتاب كما سيأتي؛ لأن المخاطبين بالتدبر هنا -كما مر- هم المنافقون، وهؤلاء كانوا يقرؤون القرآن في حضرة المسلمين، ويرددون آياته على ألسنتهم دون تدبر، بل كانوا يتمتمون بها مكرا ودهاء، فجاءت تلك اللفظة تعكس حالهم، وتحكي صنيعهم الظاهر.

ويجوز أن يكون اختيار تلك اللفظة راجعًا أيضا إلى أن هؤلاء المنافقين كانوا لا يكتبونه البتة، ولا يحفظونه في صدورهم مطلقا، وهذا يؤيده السياق الخارجي، فلم يعرف أن منافقًا عليم النفاق كلفه رسول

كما قاله جماعة من الأئمة" انظر البرهان للزركشي ٣٤٩/١، والرّاجح أنّه مشتق ثم صار علما بالغلبة.

(٢٩٧) عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسّمين الحلبي ٣٣٨/٣.

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بكتابة القرآن، فبان بهذا أن لفظة القرآن تحمل في طياتها معنى مغايرًا للفظة القول والكتاب، يؤكد ذلك: أن الكتاب عطف عليه في قوله تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ ﴾ [النمل:١]، والعطف يقتضي التغاير في الذات، أو في الصفات كما هو معلوم.

وتعريف القرآن بـ (أل) فيه إشارة إلى فخامته وعظمته، أي: هذا القرآن العظيم المنزل على خاتم المرسلين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ويجوز أن تكون (أل) للعهد، أي: هذا القرآن المعهود الذي تقرؤونه، كما يجوز أن تكون للعموم، أي: جميع القرآن الذي نزل عليهم حتى نزول تلك الآية، وهذا يعني: أن من يتدبر أقله - أو أكثره - لا يكون متدبرا له، فتدبره كله يحمي من الوقوع في توهم الاختلاف، وإلى ذلك أشار الإمام ابن تيمية بقوله: «ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبَّر لما تدبَّر»

هذا، ومن سمات تلك اللفظة: أن الذهن - عند ذكرها - يذهب إلى معناها تلقائيا، ولا يحتاج لأمارات، بخلاف غيرها من الألفاظ التي أطلقت على القرآن فتحتاج لقرائن من السياق لمعرفة المراد بها؛ لأنها تطلق عليه وعلى غيره.

وحضُّ المنافقين على تدبر القرآن يحتمل «معنيين:

أحدهما: أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق، وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبر هنا على المعنى الأول، أي: لو تأملوا وتدبروا هدى القرآن؛ لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام، وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلا أن المعنى الأول أشد ارتباطا بما حكي عنهم من أحوالهم»[٢٩٨]؛ أي: في الآيات السابقة، ولكني أقول: كلا المعنيين من غايات حث المنافقين على التدبر فيه.

---

(٢٩٨) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٠٧، وج ٤/٧٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ ؛ أي: «لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق، بعضه فصيح بليغ حسن، وبعضه مردود ركيك فاسد، فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة ثبت أنه من عند الله.

والمعنى: أفلا يتفكرون في القرآن، فيعرفوا بعدم التناقض فيه، وصدق ما يخبر به عن الغيوب أنه كلام الله ، وأن ما يكون من عند غير الله لا يخلو عن تناقض واختلاف، فلما كان القرآن ليس فيه تناقض واختلاف علم أنه من عند قادر على ما لا يقدرون عليه، عالم بما لا يعلمه سواه»[٢٩٩].

والواو في قوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون عاطفة عطفت ما بعدها على ما قبلها، ويجوز أن تكون حالية، ويترتب على كل معنى اختلاف في الدلالة المرادة، وإلى هذين الوجهين أشار ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقال: «قوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ إلخ، يجوز أن يكون عطفًا على الجملة الاستفهامية، فيكونوا أمروا بالتدبر في

---

(٢٩٩) تفسير الخازن ١/٥٦٤.

تفاصيله، وأعلموا بما يدل على أنه من عند الله، وذلك انتفاء الاختلاف منه، فيكون الأمر بالتدبر عامًا، وهذا جزئي من جزئيات التدبر ذُكر هنا انتهازا؛ لفرصة المناسبة لغمرهم بالاستدلال على صدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فيكون زائدا على الإنكار المسوق له الكلام، تعرض له؛ لأنه من المهم بالنسبة إليهم، إذ كانوا في شك من أمرهم.

وهذا الإعراب أليق بالمعنى الأول من معنيي التدبر هنا، ويجوز أن تكون الجملة حالا من القرآن، ويكون قيدا للتدبر، أي: ألا يتدبرون انتفاء الاختلاف منه، فيعلمون أنه من عند الله، وهذا أليق بالمعنى الثاني من معنيي التدبر.

ومما يستأنس به للإعراب الأول: عدم ذكر هذه الزيادة في الآية المماثلة لهذه من سورة القتال، وهي قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

﴿قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، وهذه دقائق من تفسير الآية أهملها جميع المفسرين»[٣٠٠].

ولكني أقول: عدم القطع بدلالة معينة للواو هو الأرجح، لأن لكل دلالة معنى مقصودًا كما رجحنا قبل في أن هذين المعنيين هما من غايات التدبر.

(لو) حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير جازمة، وجملة :﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ لا محل لها من الإعراب، فعل الشرط، و ﴿كَانَ﴾ هنا ناقصة ناسخة، واسمها محذوف تقديره: ولو كان القرآن، وحذف للعلم به، ولفهمه من السياق السابق بوضوح، حيث نص عليه في مطلع هذه الآية الكريمة.

وأصل التعبير بهذا الفعل «الدلالة على اقتران مضمون الجملة بالزمن الماضي نحو: كان زيد عالمًا، معناه: أنه اتصف بالعلم فيما مضى دلالة على الانقطاع»[٣٠١].

---

(٣٠٠) التّحرير والتّنوير ٥/١٣٨.

(٣٠١) عمدة الحفّاظ ٣/٥٠٩.

وهذا هو المعنى المراد هنا، فالانقطاع في معنى الفعل قائم، ولم يفقد هذا الأصل، أي: لو فرض حصول القرآن سلفًا من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا.

﴿مِنْ﴾ على أصلها للابتداء، أي: لو كان القرآن بداية من عند غير الله.

﴿عِندِ﴾ مجرورة بـ (من)، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف، تقديره: «كائنا» في محل نصب خبر كان، و﴿عِندِ﴾ ظرف مكان لا يتصرف بأكثر من جره بـ ﴿مِنْ﴾، وقال بعضهم: ﴿عِندِ﴾ لفظ موضوع للقرب، فتارة يستعمل في المكان، وتارة في الاعتقاد نحو: عندي كذا، وتارة في الزلفى والمنزلة، قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾[302]، وهي هنا على أصلها للظرفية المكانية.

وعبر هنا بـ ﴿عِندِ﴾، وكان من الممكن أن يقال: ولو كان من غير الله؛ لأن دلالة ﴿عِندِ﴾ بمفهوم المخالفة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك: أن هذا النمط الفريد من القول لا يقدر عليه غيره؛ لأنه من عند

---

(٣٠٢) عمدة الحفّاظ ٣/١٥٦، وانظر مفردات الرّاغب ٣٦٢.

الحضرة العلية الربانية، فضلا عن أن العندية أضفت بجرسها ظلالا قوية على هذا الأسلوب، كما يحسه كل متدبر متذوق لأسرار الكتاب الكريم.

قوله: ﴿غَيۡرِ ٱللَّهِ﴾: غيرمضاف لـ﴿عِندِ﴾، وذكر السمين لهذه اللفظة معاني عديدة منها أنها: «صفة بمعنى مغاير»(٣٠٣)،وهذا هو المعنى الذي يشير إليه السياق بوضوح تام، أي: لو كان القرآن من عند مغاير لله، إنسًا كان، جانا كان، لحصل فيه اختلاف كثير لما يعتور هذه المخلوقات من نقص، فكلامها يكون ناقصا كأشخاصها.

ولفظ الجلالة علم على المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يجسر كائن ما كان أن يتسمى به، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، وعبر به دون لفظ رب؛ لأن المقام هنا مقام الألوهية والعبودية والوحدانية، وليس مقام الربوبية التي تستخدم في سياق الإنعام والإحسان والإصلاح والملك والتربية وغير ذلك، يقول السمين: «كل موضع ذكر فيه لفظ الرب فلمناسبة ذلك المقام، ألا ترى حسن موقعه في قوله تعالى:

---

(٣٠٣) عمدة الحفّاظ ٣/٢٢٤، وانظر مفردات الرّاغب ٣٨١.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ حيث نبههم على استحقاق الحمد له بكونه مصلحهم ومالكهم، ومتولي مصالحهم»(٣٠٤).

وقوله: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾، أي: «لو ثبت فرضا أنه من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافا في المعنى أو اللفظ»(٣٠٥).

واللام في قوله: ﴿لَوَجَدُواْ﴾ واقعة في جواب الشرط، والجملة بعدها لا محل لها من الإعراب جواب شرط لو، والفعل وجد يستعمل على أضرب شتى، يقول الراغب: «الوجود أضرب: وجود بإحدى الحواس الخمس، نحو: وجدت زيدا، ووجدت طعمه، ووجدت صوته، ووجدت خشونته، ووجود بقوة الشهوة نحو: وجدت الشبع، ووجود بقوة الغضب، كوجود الحزن والسخط، ووجود بالعقل، أو بواسطة العقل، كمعرفة الله تعالى، ومعرفة النبوة...»(٣٠٦).

---

(٣٠٤) عمدة الحفّاظ ٦٤/٢.

(٣٠٥) حاشية الصّاوي على الجلالين ٣٢٨/٤.

(٣٠٦) مفردات الراغب ٥٤٩، وانظر عمدة الحفّاظ ٣٢٨/٤.

وهذا المعنى الأخير هو المراد، فعن طريق العقل الراجح السديد يعرف عدم وجود اختلاف في القرآن، وهذا يشير من طريق خفي إلى أن العقل يعد أداة - غيرمنصوص عليها- من أدوات الحكم على القرآن بأنه من عند الله.

وآثر التعبير بهذا الفعل دون غيره؛ لأن في دلالته إشارة إلى أن هذا القرآن لو كان من عند غير الله لعثروا فيه بيسر وسهولة على تناقض واختلاف؛ لأنهم أهل بصيرة نافذة في الكشف عن حقائق الكلام، ومراميه، وأنواع التراكيب المختلفة فيه، فلو كان من عند غير الله لاتضح عند المتدبرين ما فيه من اختلاف، فجاء الفعل وجد في مكانه تماما.

وواو الجماعة في ﴿لَوَجَدُواْ﴾ تعود على المنافقين المذكورين قبل بلا خلاف.

﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالماضي وجد، و(في) للظرفية على أصل معناها، والتعبير بـ(في) هنا جاء دقيقا جدا، أي: لو كان من عند غير الله لوجدوا الاختلاف مظروفًا في طياته، وهذا يشير من طريق

خفي إلى أن المتدبر إذا أراد أن يقف على كنه هذا الكلام يجب أن ينغل في طوايا تراكيبه، وأن يعمل عقله وقلبه في مكنونات أساليبه، فيسبر أغوارها، ويتعرف على خفاياها ويتأمل حقائقها، ويتبصر دقائقها، عندئذ يظهر له إن كان من عند الله أم لا، أما من ينظر فيه من المنافقين نظرة سريعة، ويقرأه بهذ وهذرمة، وبلا تمعن، فسيخيل إليه عقله المريض أن فيه اختلافا.

والضمير في﴿ فِيهِ﴾اختلف فيه، فقيل: « يحتمل أن يعود على القرآن وهو الظاهر»[٣٠٧]،وقيل: يعود على ما يخبر الله به رسوله مما يبيت المنافقون، كما ورد في الآية السابقة في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾[النساء:٨١].

---

(٣٠٧) الدر المصون للسمين الحلبي ٤/٥٠-٥١، وانظر: اللباب لابن عادل ٦/٥٢٠.

يقول ابن عطية: «ذهب الزَّجاج إلى أن معنى الآية: لوجدوا فيما نخبرك به مما يبيتون اختلافا»[(٣٠٨)].

والرأي الأول هو الجدير بالنظر؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور وهو القرآن، وهذا هو الظاهر الذي يتسق مع السياق.

وتقديم الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على مفعول وجد؛ للمسارعة بذكر القرآن الكريم بعود الضمير عليه؛ لأن النفوس مشرئبة إليه في المقام الأول.

قوله: ﴿ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾، ﴿ٱخۡتِلَٰفًا﴾ مفعول به للفعل وجد، وهو مصدر من الماضي الخماسي «اختلف»، و«الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله...»[(٣٠٩)].

وهذا الأخير هو المراد هنا، ولكن ليس المراد من اختلاف الأقوال «ما جاء في القرآن من اختلاف في تفسير وتأويل وقراءة،

---

(٣٠٨) المحرر الوجيز ١٨٨/٤، وانظر: البحر المحيط ٣٠٥/٣، واللباب ٥٢٠/٦، حيث ذكر الرأيين.

(٣٠٩) مفردات الراغب ١٥٧، وانظر: عمدة الحفّاظ ٦٠٥/١.

وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، فليس هو المقصود في الآية، بل هذه من علوم القرآن الدالة على اتساع معانيه، وإحكام مبانيه»(٣١٠).وإنما المراد من الاختلاف هنا: اختلاف التناقض في المعاني، والتفاوت في النظم والمباني، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري بقوله: ﴿ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾«لكان الكثير منه مختلفًا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغًا حد الإعجاز، وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته، وبعضه إخبارًا بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبارًا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء، وتناصر صحة معان، وصدق إخبار علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره»(٣١١).

---

(٣١٠) البحر المحيط ٣٠٥/٣، وانظر تفسير القرطبي ٢٩٠/٥.

(٣١١) الكشّاف ٥٤٦/١- ٥٤٧، وانظر: حاشية الشّهاب ٣١٦/٣، وتفسير الألوسي ١٨٧/٤.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد من الاختلاف «اختلافه مع أحوالهم: أي لوجدوا فيه اختلافا بين ما يذكره من أحوالهم، وبين الواقع، فليكتفوا بذلك في العلم بأنه من عند الله، إذ كان يصف ما في قلوبهم وصف المطلع على الغيوب، وهذا استدلال وجيز وعجيب قصد منه قطع معذرتهم في استمرار كفرهم»(٣١٢).

وأيد العلامة أبو السعود هذا الرأي الثاني بقوله بعد إيراده له: «هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم، وأما حمل الاختلاف على التناقض، وتفاوت النظم في البلاغة بأن كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه على معنى فاسد غير ملتئم، وبعضه بالغًا حدا الإعجاز، وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته كما جنح إليه الجمهور، فمما لا يساعده السباق ولا السياق»(٣١٣).

وأرى أن تنكير لفظ اختلاف هنا ينفي الاختلاف الفاسد بجميع أنواعه عن القرآن الكريم، والمعنى أنه لا يوجد فيه أدنى نوع من أنواع الاختلاف المذكورة قبل، بل هو على نهج واحد في البلاغة، ومرتبة

(٣١٢) التحرير والتنوير ١٣٨/٥، وانظر: تفسير أبي السعود ٢٠٨/٢.

(٣١٣) تفسير أبي السعود ٢٠٨/٢، وانظر: الفتوحات الإلهية ٤٠٤/١.

واحدة في الفصاحة ، وهو أيضا يطابق أحوال من يخبر عنهم بصدق تام، ومن ثم لا حاجة بنا لتأييد الرأي الأول أو الثاني؛ لأن الاختلاف يشملهما جميعا، وهذا بخلاف كلام البشر ففيه التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع «لا سيما إذا طال، وتعرض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحًا مطابقا للواقع إلا القليل النادر»(٣١٤).

﴿كَثِيرًا﴾ نعت لاختلاف، والكثرة في الأصل ضد القلة، وهما: «يستعملان في الكمية المنفصلة كالأعداد...»(٣١٥)، ولا يراد من الكثرة هنا ضدها، وهي القلة، بل الكثرة والقلة منتفيتان عن القرآن، فليس فيه اختلاف كثير، أو قليل بحال من الأحوال، «فإن قلت: إن قوله: ﴿ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ يدل بمفهومه على أن في القرآن اختلافا قليلا، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة مع أنه لا اختلاف فيه أصلا.

---

(٣١٤) فتح البيان للشيخ صديق خان ٣٢٨/٢، وانظر: فتح القدير للشوكاني ٤٩١/١، دار الفكر.

(٣١٥) مفردات الرّاغب ٤٤٣.

قلت: التقييد بالكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة، أي: لو كان من عند غير الله تعالى لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا فضلا عن القليل، لكنه من عند الله تعالى، فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل» (٣١٦).

أقول هذا؛ لأن منطوق هذه الجملة: أن القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، ومفهومها: أن القرآن لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا قليلا، وهذا غير مراد البتة لا عقلاً ولا مقامًا ولا سياقًا داخليًا أو خارجيا، فالكثرة هنا كما يقول الأصوليون: وصف لا مفهوم له، يؤكد هذا: أن القرآن لم يرد فيه المصدر «اختلافًا» مصحوبًا بهذا الوصف إلا هنا، إشارة إلى ذلك.

وهذا ما أكده ابن عاشور بقوله: «ووصف الاختلاف بالكثير في الطرف الممتنع وقوعه بمدلول (لو)؛ لِيعلم المتدبر أن انتفاء الاختلاف من أصله أكبر دليل على أنه من عند الله، وهذا القيد غير معتبر في الطرف المقابل لجواب (لو)، فلا يقدر ذلك الطرف مقيدا بقوله:

---

(٣١٦) تفسير الروح والريحان في روابي علوم القرآن ٢٣٥/٦، وانظر: الفتوحات الإلهية للجمل ٤٠٤/١، وحاشية الصّاوي على تفسير الجلالين ٤٦/٢.

﴿كَثِيرًا﴾، بل يقدر هكذا: لكنه من عند الله، فلا اختلاف فيه أصلا»[٣١٧].

وقيل: يجوز أن يكون ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول به أول، و ﴿ٱخۡتِلَٰفًا﴾ مفعول به ثان، بمعنى: مختلفا على صيغة اسم الفاعل، والتقدير: ولو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه كثيرا مختلفا.

قال الألوسي: «وكون المقصود من الآية إثبات القرآن كله وبعضه من الله تعالى، وحينئذ لا يمكن وصف الاختلاف بالكثرة؛ لأنه لا يكون الاختلاف حينئذ إلا بأن يكون البعض منه معجزًا، والبعض غير معجز، وهو اختلاف واحد، فلذا جعل (وجدوا) متعديا إلى مفعولين: أولهما: كثيرا، وثانيهما: اختلافًا، بمعنى مختلفا...»[٣١٨].

ولكني أرى أن الإعراب الأول هو المناسب والأليق، والاختلاف فيه على أصله من المصدرية؛ لأنه ينفي ذات الاختلاف في الطرف المقابل، وهذا أقوي كما قدمنا، وبخاصة أن الاعتراض

---

(٣١٧) التحرير والتنوير ١٣٨/٥.

(٣١٨) تفسير الألوسي ١٨٧/٤، ١٨٨، وانظر: حاشية الشهاب ٣١٦/٣.

سيظل قائما أيضا على الرأي الثاني، ويكون تقدير الكلام في الطرف المقابل: ولو كان القرآن من عند الله؛ لوجدوا فيه قليلاً مختلفا، حاشا وكلا.

ويبقى هنا سؤال مهم: ماذا لو وقع لأحد من المؤمنين المتقين اختلاف في القرآن؟

أجاب عن هذا أبو حيان، فقال: «قال ابن عطية: فإن عرضت لأحد شبهة، وظن اختلافًا، فالواجب أن يتهم نظره، ويسأل من هو أعلم منه، وما ذهب إليه بعض الزنادقة المعاندين من أن فيه أحكامًا مختلفة، وألفاظا غير مؤتلفة؛ فقد أبطل مقالتهم علماء الإسلام»(٣١٩).

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤]، وردت معترضة الأمر بالصدق في الاستجابة والإذعان وعدم التولي.

---

(٣١٩) البحر المحيط ٣/٣٠٥، وانظر: المحر الوجيز ٤/١٨٨، وتفسير الثّعالبي ١/٣٦٦.

وقد وردت هذه الآية في سورة «محمد» المدنية، التي ابتدأت بالحديث عن أحوال الكفار، ثم أحوال المؤمنين، حيث ذكرت ما أعده للمتقين في جنات النعيم، ثم تحدثت عن المنافقين من قوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد ٢٠-٢٥].

فكما ترى جاءت الآية التي معنا في طيات الحديث عن المنافقين؛ لأن الضمائر في هذه الآيات تعود عليهم بلا شك؛ ولأن ما ذكرته الآيات من نعوت وصفات هي لصيقة الصلة بالمنافقين، وهذا ما أكد عليه جل المفسرين.

ومن هنا فإن الإمام القرطبي جانبه الصواب في قوله: «وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار»[٣٢٠]؛ لأن المخاطبين بواو الجماعة في

---

(٣٢٠) تفسير القرطبي ٢٤٧/١٦.

قوله: ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ هم المنافقون نصا، كما يشير السياق السابق واللاحق كما قدمناه.

ووجه ارتباط هذه الآية بما قبلها حكاه الخازن، فقال: «هذه الآية محققة للآية المتقدمة، وذلك أن الله تعالى لما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾، فكان قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ كالتّهييج لهم على ترك ما هم فيه من الكفر الذي استحقوا بسببه اللعنة، أو كالتبكيت لهم على إصرارهم على الكفر»[(٣٢١)].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذا التركيب القرآني ورد بعينه في سورة النساء، وسبق الحديث عنه تفصيلا، فلا حاجة لإعادة القول فيه، لكن ينبغي أن نركز هنا على أمر دقيق جدا، وهو أن المخاطب بالتدبر في السورتين هم المنافقون، ولكن من يقارن بين السياقين في السورتين يجد بينهما اختلافًا واضحًا، حيث تحدث هناك عن المنافقين الذين يبيّتون للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ في صدورهم غير ما

---

(٣٢١) تفسير الخازن ١٨٢/٦، وانظر: الفتوحات الإلهيّة ١٥١/٤، وفتح البيان ٢٣/٩.

ينطقون به أمامه، وهنا تحدث عن كراهيتهم للقتال، وإفسادهم في الأرض، وتقطيعهم الأرحام، ومن ثم وجدنا توازنًا وتلاؤما، فاتحد المطلع والصدر من أجل اتحاد المخاطبين، واختلف العجز من أجل اختلاف السياقين، فلله در الذكر الحكيم، فهذا وأمثاله مما لا يعد ويحصى من مناط إعجازه.

وقوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ اختلف في دلالة ﴿أَمْ﴾ هنا على وجهين:

الأول: رأي جمهور المفسرين أن ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى (بل)، يقول ابن عاشور:

«وحرف ﴿أَمْ﴾ للإضراب الانتقالي، والمعنى: بل على قلوبهم أقفال، وهذا الذي سلكه جمهور المفسرين هو الجاري على كلام سيبويه في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا

ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ في سورة الزخرف [٥١-٥٢]، خلافا لما يوهمه، أو توهمه ابن هشام في «مغني اللبيب»» (٣٢٢).

وعلى هذا الرأي يكون بعد (أم) همزة استفهام محذوفة، والمعنى: بل أعلى قلوب أقفالها، وهذا ما يفهم جليا من أقوال بعض المفسرين، يقول الشيخ صديق حسن خان: «بل أعلى قلوب أقفالها، فهم لا يفهمون ولا يعقلون» (٣٢٣).

وهذه الهمزة المحذوفة على هذا الرأي خرجت عن معناها الحقيقي من السؤال عن المجهول إلى التقرير، يقول الزمخشري: «﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

---

(٣٢٢) التحرير والتنوير ١١٣/٢٦، وانظر: زاد المسير ١٩٣/٧، وتفسير القرطبي ٢٤٧/١٦، وتفسير البغوي ٢٨٧/٧، ومغني اللّبيب لابن هشام ٢٨٤،٢٨٥/١، والفتوحات الإلهية للجمل ١٥١/٤.

(٣٢٣) فتح البيان ٢٣/٩، وانظر: المحرر الوجيز ٧١/١٥، وفتح القدير ٣٨/٥، دار الفكر.

أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾، (أم) بمعنى (بل)، وهمزة التقرير؛ للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة، لا يتوصل إليها ذكر»[٣٢٤].

كما يجوز أن تكون هذه الهمزة للتوبيخ، يقول الصاوي: «أم منقطعة بمعنى بل، وهو انتقال من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر»[٣٢٥].

الثاني: (أم) ليست منقطعة بل هي (أم) المتصلة، والتي يسميها البلاغيون أم المعادلة الواقعة بين متساويين، يقول القونوي: «قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في قوة أوصل لهم القرآن، فلم يتأملوا حق التأمل، أم لم يصل لهم»[٣٢٦].

---

(٣٢٤) الكشّاف ٥٣٦/٣، وانظر: تفسير النّسفي ٢٢٦/٤، وتفسير البيضاوي ٢١٨/٢.

(٣٢٥) حاشية الصاوي ٣٠٥/٥، وروح البيان ٥١٨/٨، وتفسير الصّابوني ١٣٧٥/٣.

(٣٢٦) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ٣٥/١٨.

ويقول الألوسي: «أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم، أم لم يصل إليها، فتكون أم متصلة»[(٣٢٧)].

والراجح: أن (أم) منقطعة بمعنى (بل)، كما ذهب ابن عاشور، وثلة كبيرة من المفسرين؛ لأنها لو كانت متصلة؛ لاحتاجت إلى تقدير كلام بعدها يتلاءم مع ما قبلها وفق القاعدة المشهورة في (أم) المعادلة، وأيضا (بل) المنقطعة هنا لا تحتاج لتقدير كلام محذوف بعدها، وما لا يحتاج لتقدير أولى مما يحتاج.

﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾على قلوب جار ومجرور خبر مقدم، وأقفالها مبتدأ مؤخر، و﴿عَلَىٰ﴾هنا ليست على حقيقتها، بل هي للاستعلاء المجازي؛ لأن مجرورها القلوب ليس شيئًا حسيا يصلح محلا للاستعلاء الحقيقي.

وإنما عبر بها دون غيرها؛ ليبين أن هذه الأقفال قد استولت على تلك القلوب، وقهرتها، وسيطرت عليها، وتمكنت منها.

---

(٣٢٧) روح المعاني ١٦/٦٠٥، وانظر: اللباب ١٧/٤٥٨.

و﴿قُلُوبٍ﴾جمع قلب: «والمراد بهذه القلوب: قلوب هؤلاء المخاطبين» (٣٢٨)بتلك الآية لا يختلف أحد في ذلك.

وآثر التعبير بها هنا دون لفظة أفئدة؛ لأن أصل المادة تحمل في طياتها معنى التقلب والتحول، يقول ابن منظور: «القلب تحويل الشيء عن وجهه»(٣٢٩)،ويقول الأزهري:«سمي القلب قلبا لتقلبه»(٣٣٠)،بخلاف لفظة الأفئدة التي تحمل معاني الرقة والرهافة، وهذا غير مراد هنا، إذ القلب كما يقول العسكري: «الجارحة التي تتقلب بالأفكار والعزوم...، والأفئدة توصف بالرقة»(٣٣١).

فإيثار لفظة القلب عكس غلظة قلوبهم، وكشف عن بشاعة نفوسهم من إبطان الكفر، وإظهار الإيمان، وفيها أيضا إشارة إلى أن هؤلاء يجب أن يتحولوا عما هم فيه من عدم التدبر والتفكر، وعندئذ تصل

---

(٣٢٨) فتح القدير للشوكاني، دار الفكر العربي ٣٨/٥.

(٣٢٩) لسان العرب مادة (ق ل ب) ٦٨٥/١.

(٣٣٠) تهذيب اللّغة ١٧٣/٩، وانظر: مفردات الراغب ٤٢٦، وعمدة الحفّاظ ٣٨٧/٣.

(٣٣١) الفروق اللّغوية ١٥٥.

المواعظ سهلة طيعة إلى قلوبهم، علاوة على أن هذه المادة تفيد أيضا النظر في عواقب الأمور، «يقال: قلب الأمور: نظر في عواقبها، وفي التنزيل العزيز: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ »[٣٣٢]، وهذا المعنى أشد انسجاما مع التدبر المنفي عنهم، فالتدبر هو تقليب الأمور، والنظر في عواقبها، وهكذا وضعت تلك اللفظة في مكانها الأمثل بها.

وتنكير القلوب هنا ذكر فيه المفسرون أكثر من وجه، يقول أبو السعود: «وتنكير القلوب إما لتهويل حالها، وتفظيع شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكرة لا يعرف حالها، ولا يقادر قدرها في القساوة، وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم وهم المنافقون»[٣٣٣].

---

(٣٣٢) المعجم الوسيط ٤٢٢/٢.

(٣٣٣) تفسير أبي السعود ٩٩/٨، وانظر: الكشّاف ٥٣٦/٣، والبيضاوي ٢١٨/٢، والفتوحات الإلهيّة ١٥١/٤، وفتح البيان ٢٣/٩، وتفسير الألوسي ٦٠٥/١٦، وتفسير القاسمي ٢٥٩/١٥.

وقد زاد الرازي وجهًا ثالثا، وهو التنبيه على الإنكار الكامن في قلوب المنافقين فقال: «ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب، وذلك لأن القلب إذا كان عارفًا كان معروفا؛ لأن القلب خلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: «هذا ليس بإنسان هذا سبع»، ولذلك يقال: «هذا ليس بقلب هذا حجر»»(٣٣٤).

وكأن التنكير عكس هذا الإنكار الموجود في نفوسهم للإسلام، فتلاءم تنكير اللفظ مع هذا المعنى، وهو وجه جدير بالنظر والاعتبار، ولا يناقض الوجهين اللذين ذكرا من قبل.

وأضاف القرطبي سرًا رابعا، فقال: «وقال:﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾؛ لأنه لو قال: على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة، والمراد: أم على قلوب هؤلاء، وقلوب من كانوا بهذه الصفة»(٣٣٥).

---

(٣٣٤) مفاتيح الغيب ٢٨٦/٢٧، وانظر: اللباب ٤٥٨/١٧.

(٣٣٥) تفسير القرطبي ٢٤٧/١٦، وانظر: التفسير القيم لابن القيم ٤٣٩.

فالتنكير كما يفهم من هذا الحديث للعموم العرفي، أي: يدخل في التنكير قلوب هؤلاء المنافقين المخاطبين بالآية، وما كان على شاكلتهم في كل زمان ومكان، وهذا الوجه يتعارض مع الوجه الثاني عند أبي السعود من إرادة البعضية، ولكنه أقوى منه، ومن ثم؛ **فالراجح:** أن التنكير هنا للتفظيع والإنكار والعموم كل هذا لا يرفض؛ لأن النكات البلاغية لا تتزاحم ما دامت لا تتعارض.

«والأقفال: جمع قفل - بالضم- ، وهو الحديد الذي يغلق به الباب» [٣٣٦]،وهي هنا ليست على معناها الحقيقي الذي مر، بل وردت على سبيل الاستعارة؛ لأن القلوب البشرية لا توضع عليها أقفال كما توضع على الخزائن والصناديق، والأبواب الحديدية والخشبية، فالقرينة هنا عقلية حالية سياقية، على أن هذا المعنى الحقيقي غير مراد.

---

(٣٣٦) روح البيان ٥١٨/٨، وانظر: القاموس المحيط ٣٩/٤.

وقد اختلف المفسرون في نوع الاستعارة في تلك الآية، فمنهم من يرى أنها تمثيلية، يقول الألوسي: «﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها، وانكشاف الأمر لها»(٣٣٧).

يقصد الألوسي: أن في تلك العبارة استعارة تمثيلية، حيث شبه حال المنافقين في عدم وصول الهداية إليهم، وانكشاف الأمر لهم بالأبواب التي عليها أقفال تمنع ولوج من بالخارج إلى الداخل.

وروعة تلك الاستعارة: أنها جعلت القلب كما يقول ابن القيم: «بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل؛ فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن»(٣٣٨).

ومنهم من يرى أنها استعارة تصريحية، حيث استعار الأقفال للرَّين الذي على القلوب، يقول ابن عطية: «قوله تعالى:﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ

---

(٣٣٧) روح المعاني ٦٠٥/١٦، وانظر: مفردات الراغب ٤٢٤، وعمدة الحفّاظ ٣٨٥/٣، وتفسير الخازن ١٨٢/٦، وحاشية الشّهاب ٥٠٣/٨، وحاشية القونوي على البيضاوي ٣٥/١٨.

(٣٣٨) التفسير القيم ٤٣٩.

﴿٢٤﴾استعارة للرين الذي منعهم الإيمان»[٣٣٩]،وفائدة تلك الاستعارة المبالغة في عدم وصول الإيمان إلى القلوب؛ لما عليها من رين يمنع وصول الحق إليها، ونفاذ الحكمة والموعظة فيها، كما يمنع القفل الولوج إلى الداخل.

ومنهم من يرى أنها استعارة مكنِية، يقول ابن عاشور: «الأقفال: جمع قفل، وهو استعارة مكنية، إذ شبهت القلوب - أي:العقول- في عدم إدراكها المعاني بالأبواب، أو الصناديق المغلقة، والأقفال تخييل كالأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإِذا المنِية أنشبت أظفارها ألفيت كل تمِيمة لا تنفع»[٣٤٠]

(٣٣٩) المحرر الوجيز ٧١/١٥، وابن عطية هنا لم يصرح باسم الاستعارة؛ لأنّ هذا المصطلح ظهر بعده بزمن في كتب البلاغيين كما هو معلوم، وانظر: فتح البيان ٢٣/٩.

(٣٤٠) التحرير والتنوير ١١٤/٢٦، وانظر: نظم الدرر ١٧٠/٧، ولم يصرح بمسمّى الاستعارة.

وهذا الأخير هو الراجح؛ لأن الاستعارة هنا جسدت القلوب، وجعلتها كالأبواب يجري عليها ما يجري على الأبواب المغلقة بالأقفال، علاوة على أنها أكثر توضيحًا للمعنى، وأكثر تأكيدًا وقوة ومبالغة له.

وعلى كل؛ فالتعبير هنا جاء في غاية الحيوية والغنى والثراء؛ لأن كل هذه الأنواع من الاستعارات تحققت فيه، واحتملها كما ترى.

وهنا ملاحظة جدير بالنظر، وتزيد تلك الاستعارة قوة ومبالغة، فإن الذكر الحكيم لم يقل: «أم على قلوب أقفال» بتنكير أقفال كما فعل مع قلوب، بل أضاف الأقفال إلى ضميرها، وفي هذه الإضافة تأكيد على أن هذه الأقفال من نوع معين تتلاءم مع قلوب هؤلاء، وهي أقفال الكفر والعناد، فالأقفال المعهودة محسوسة، ولكن هذه أقفال معنوية معقولة تتناسب مع تلك القلوب، يقول ابن القيم «في قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى ضمير القلوب علم أن المراد بها ما

هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد: أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها»[٣٤١].

ويقول ابن عاشور: «وإضافة «أقفال» إلى ضمير «قلوب» نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب؛ أي: ملازمتها لها، فدل على أنها قاسية»[٣٤٢].

وهكذا فإن هذه الآية الكريمة قد نصت صراحة على أن القلوب المنغلقة الغليظة القاسية لا تتدبر الذكر الحكيم، وهذا يعني بمفهوم المخالفة: أن القلوب المنفتحة اللينة السليمة الخالية من الأهواء والأمراض هي التي تتدبر القرآن، وهذا لا يتحقق إلا في قلوب الخلَّص من المؤمنين، وبذلك تكون تلك الآية قد نصت على أداة التدبر الحقيقي، ووسيلته الصحيحة، وهي القلوب المفتوحة لا الغليظة القاسية، ولم يرد هذا الأمر في آيات التدبر إلا في هذا الموطن [٣٤٣].

---

(٣٤١) التفسير القيم ٤٣٩، وانظر فتح البيان للشيخ صديق خان ٢٣/٩.

(٣٤٢) التحرير والتنوير ١١٤/١.

(٣٤٣) وردت أدوات أخرى للتدبر في آيات أخرى مثل القشعريرة في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وقوله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾[المؤمنون: ٦٨]، وردت معترضة في سياق تخويف المكذبين المستكبرين بالعذاب، تقريعاً لهم على عدم التَّذكُّر والانتفاع بها، والأمر بالإيمان بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والاعتراف به وعدم الاستكبار، وهذا يؤكّد أنّ التَّدبُّر هو قصد التَّذكُّر والاتباع بالآيات.

ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾[الزمر: ٢٣]، ومثل انسكاب الدمع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: ٨٣]، ومثل الخرور سجدا وبكيا في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨]، وغير ذلك.

قال أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " قرعهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، ثمَّ ثانياً بأنَّ ما جاءهم جاء آباءهم الأوَّلين : أي إرسال الرُّسل ليس بدعاً ولا مستغرباً، بل أرسلت الرُّسل للأمم قبلهم، وعرفوا ذلك بالتَّواتر ونجاة من آمن، واستئصال من كذب(٣٤٤).

وردت هذه الآية الكريمة في سورة «المؤمنون» المكية التي تعنى -كباقي السور المكية- بتقرير الوحدانية وغيرها من الأمور التي تهتم بها السور المكية وهذه الآية التي نحن بصددها وردت في مقام الحديث الصريح عن كفار مكة، حيث ورد قبلها قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ [المؤمنون:٥٤].

واتفق المفسرون على أن الخطاب فيها للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، والمخاطبون هم كفار مكة، ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن المؤمنين، ثم عادت وتحدثت عن كفار مكة في قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۝٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ

---

(٣٤٤) البحر المحيط ٢٦٨/٨

﴿٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ٦٧﴾ [المؤمنون:٦٣-٦٧]، فالضمائر في هذه الآيات في قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾، ﴿هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾، ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، ﴿ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾، تعود كلها على كفار مكة الذين تحدثت عنهم السورة قبل ذلك كما بينا.

وكذلك الحال في الآية محل الدراسة وما بعدها في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾ [المؤمنون:٦٨-٧٠]، فإن الضمائر في قوله: ﴿يَدَّبَّرُوا۟﴾، ﴿جَآءَهُم﴾، ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾، ﴿يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ﴾.. إلخ، تعود على كفار مكة دون أدنى شك أو احتمال، كما هو واضح من الآيات السابقة واللاحقة التي جاءت الآية الكريمة محل الدراسة في سياقاتها.

ومناسبة تلك الآية لما قبلها حكاه البقاعي بقوله: «﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٦٨﴾ لما كانت الآيات (أي: المذكورة في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ [المؤمنون:٦٦] لمَا فيها من البلاغة المعجزة، والحكم المعجبة داعية إلى تقبلها بعد تأملها، وكانوا يعرضون عنها، ويفحشون في وصفها، تارة بالسحر، وأخرى بالشعر، وكرة بالكهانة، ومرة بغيرها، تسبب عن ذلك الإنكار عليهم، فقال: معرضًا عنهم، إيذانا بالغضب، مسندًا إلى الجمع الذي هو أولى بإلقاء السمع»[٣٤٥].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي على نحو ما مر في آية النساء ومحمد، فهو ينكر على كفار مكة عدم تدبرهم للقرآن الكريم الذي يلقى على مسامعهم ليل نهار، ويوبخهم على ذلك، أي: ما كان ينبغي وقوع هذا منهم، ويتعجب من حالهم في إعراضهم عن الهداية؛ لأن «مثل ما جاء به محمد رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه...»[٣٤٦].

والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ اختلف فيها على وجهين:

---

(٣٤٥) نظم الدرر البقاعي ٥/٢١١، وانظر: حاشية زاده ٦/١٧٣، والفتوحات الإلهيّة ٣/١٩٧.

(٣٤٦) في ظلا القرآن ٤/٢٤٧٤.

الأول: عاطفة، عطفت الجملة التي بعدها على جملة محذوفة قبلها تتفق مع السياق السابق لها، وفي هذا يقول أبو السعود: «والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام؛ أي: أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر، فلم يتدبروا القرآن»[(٣٤٧)].

الثاني: أنها استئنافية متفرعة عما قبلها، يقول ابن عاشور: «الفاء لتفريع الكلام على الكلام السابق، وهو قوله: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ۝٦٧﴾»[(٣٤٨)]، وهذا الأخير هو الراجح؛ لأن ما بعد الفاء متفرع عما قبلها، ومرتبط به أشد ارتباط كما يبدو بوضوح من تماسك تلك السياقات، واتصالها بلحمة شديدة لا ينفصم عراها.

---

(٣٤٧) تفسير أبي السعود ١٤٣/٦، وانظر: روح البيان ٦/ ٩٣- ٩٤، والفتوحات الإلهيّة ١٩٧/٣.

(٣٤٨) التحرير والتنوير ٨٧/١٨.

و«لَمْ» حرف نفي وجزم وقلب على ما هو معلوم، وعبر بها هنا دون لا النافية؛ لأن لا النافية لنفي الحال أو الاستقبال حسب السياق، والمراد هنا: نفي تدبرهم للقرآن نفيا حاسما جازما فيما مضى؛ ومن ثم عبر بـ (لم) التي تقلب المضارع إلى المضي، وهذه الأداة عكس «لمَّا» لا تتعرض لتوقع حدوث الفعل بعدها للمستقبل، لكن ورودها عقب الاستفهام الإنكاري يرجح أنها تنفي عنهم التدبر في الماضي، وتحضهم عليه حالة نزول الآية ومستقبلا، وهذا معنى يستشف بوضوح من السياق؛ لأن من ينكر على أحد عدم القيام بفعل ما، فهو يحضه على فعله حاضرا، ويحثه عليه مستقبلا، ولهذا أشار الشنقيطي فقال: «قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ يتضمن حضهم على تدبر هذا القول الذي هو القرآن العظيم»(٣٤٩).

وفي هذا دلالة أيضا - والله أعلم - إلى أن كفار مكة المخاطبين بتلك الآية سيتدبرون القرآن، وسيؤمنون به مستقبلا، وقد كان، بخلاف النفي بـ (لا) في آيتي النساء ومحمد التي تنفي عن المنافقين التدبر في

---

(٣٤٩) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٨٧٤/٥، والوسيط للشيخ طنطاوي ٥٠/١٠.

الحاضر فحسب، ولم نتعرض للمستقبل، وهذه خصيصة من خصائص التعبير في كل آية أظهرتها أداة الجزم هنا، وأداة النفي هناك.

﴿يَدَّبَّرُواْ﴾ أصله يتدبروا: «أدغمت التاء في الدال؛ لأن التاء قريبة المخرج من الدال، مخرج الدال بطرف اللسان، وأطراف الثنيتين، ومخرج التاء بطرف اللسان وأصول الثنيتين، فكل ما قرب مخرجه فافعل به هذا، ولا تقل في: «يتنزلون»، «ينزلون»؛ لأن النون ليست من حروف الثنايا كالتاء»[٣٥٠]،وسر الإدغام هنا حكاه الإمام البقاعي فقال: « ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي: المتلو عليهم بأن ينظروا في أدباره وعواقبه، ولو لم يبلغوا في نظرهم الغاية بما أشار إليه الإدغام، ليعلموا أنه موجب للإقبال والوصال، والوصف بأحسن المقال»[٣٥١].

وفي الإدغام - زيادة على ذلك - إشارة إلى أن كفار قريش كانت تضيق صدورهم، وتتغلق قلوبهم عند سماعه؛ لأنهم يعلمون في قرارة نفوسهم أنه حق، وأن كل ما يعيبون به على القرآن لا صحة له، فحكى

---

(٣٥٠) معاني القرآن للأخفش ١٠٦/١ - ١٠٧، وانظر: السراج المنير للشربيني ٥٨٥/٢.

(٣٥١) نظم الدرر للبقاعي ٢١١/٥ - ٢١٢.

الإدغام أحوالهم النفسية والشعورية، ومن ثم جاء التعبير بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ﴾ خاطفًا سريعا ذا نبرة شديدة بخلاف ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ في الحديث عن المنافقين من انفتاح الفم في النطق مع لا النافية، وكأنه يحثهم على التأمل فيه بروية، وهدأة مرة بعد مرة، أما كفار قريش فيكفيهم هنا أدنى تدبر للوصول للحق؛ لأنهم الموصوفون في القرآن باللسن واللدد، وسرعة الفهم والبديهة.

وواو الجماعة في قوله: ﴿يَدَّبَّرُواْ﴾ عائدة على كفار مكة حسبما هو واضح من الآية السابقة في قوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾، حيث كان كفار مكة يسمرون، ويذكرون القرآن بالهجر، فيقولون: هو سحر وشعر وكهانة.

﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ مفعول به، مصدر من الثلاثي قال، وهو يطلق على أوجه عديدة:

«**أظهرها:** أن يكون للمركب من الحروف المبرز بالنطق مفردا كان أو جملة، فالمفرد كقولك: «زيد»، و«خرج»، والمركب: زيد منطلق، وهل خرج عمرو، ونحو ذلك..

الثاني: يقال للمتصور في النفس قبل الإبراز باللفظ قول، فيقال: في نفسي قول لم أظهره، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾، فجعل ما في اعتقادهم قولا

الثالث: للاعتقاد نحو: فلان يقول بقول أبي حنيفة.

الرابع: يقال للدلالة على الشيء، نحو قول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قَطْنِي...»[٣٥٢].

والمراد هنا الأول؛ لأن القرآن قول مركب من حروف.. »إلخ ما ذكره الراغب، لكنه قول متحدى به، «وسمي القرآن قولا؛ لأنهم خوطبوا به»[٣٥٣] كما يقول القرطبي، أو كما يقول البقاعي: «عبر بالقول إشارة إلى أن من لم يتقبله ليس بأهل لفهم شيء من القول، بل هو في عداد البهائم»[٣٥٤].

---

(٣٥٢) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ٤٣٠، وانظر: عمدة الحفّاظ ٤٠٨/٣.

(٣٥٣) تفسير القرطبي ١٣٩/١٢.

(٣٥٤) نظم الدرر للبقاعي ٢١١/٥ - ٢١٢.

والتعبير بالقول هنا دون القرآن أو الكتاب؛ للإشارة إلى أن كفار قريش كانوا يسمعونه مقولا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والصحابة، ولم يكونوا يقرؤونه قراءة، أو يكتبونه كتابة، وفي التعبير به أيضا إشارة إلى أنهم كانوا يجعلونه في منزلة بقية الأقوال التي يستمعون إليها من البشر، فلا يلتفتون لمعانيه، ولا يدققون لما فيه.

ولعل في اختيار القول أيضا إشارة واضحة إلى أنهم أمة القول بمختلف فنونه وأغراضه: شعرًا، ونثرًا، ومثلاً، وحكمةً، فكيف لم يتدبروا هذا القول الذي جاء على وفق طرائقهم اللغوية، وسلائقهم البيانية، وهم من هم من أمراء الفصاحة وملوك البلاغة، وسلاطين البيان؟! كل هذا كامن في اختيار تلك اللفظة، ومن ثم فهي تحكي حالتهم، وتكشف عن سريرتهم، وتعكس ما كانوا عليه بدقة متناهية، ووضوح تام، ولذا فالتعبير بتلك اللفظة أدق وألصق بهذا السياق، ولا يمكن أن يحل غيرها محلها من نحو القرآن كما مضى، والكتاب كما سيأتي.

و(أل) في القول تفيد العموم العرفي، أي: القول الذي استمعوا إليه وليس مقصودا به القرآن كله؛ لأن القرآن كله لم يكن قد نزل بعد، وهذا القول قل أو كثر لو تدبروه كان كافيا في إيمانهم وعودتهم إلى

رحاب الحق؛ وقد انطبق هذا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في واقعة إيمانه، حين آمن بقراءة بعض آيات تلاها، فلو فعل الكفار مثلما فعل لعادوا لرشدهم، وآمنوا بربهم.

ويجوز أن تكون (أل) للعهد، أي: هذا القول المعهود الذي يستمعون إليه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والصحابة رضوان الله عليهم.

وبعد أن أنكر عليهم عدم تدبرهم للقرآن تلاه بالإنكار على عدم الإيمان، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، أي: أجاءهم رسولهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بشيء غريب مستبدع لم يأت آباءهم السابقين؟ كلا، ليس الأمر كذلك؛ لأن ما جاءهم به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يتفق - في أصوله وكلياته - مع ما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهما عليهم السلام، وفي هذا تقريع آخر لهم؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جاء لهدايتهم كبقية الرسل، ولم يكن بدعا في ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف:٩].

و﴿أَمْ﴾، في قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، منقطعة، بمعنى: بل، يقول أبو السعود: «﴿أَمْ﴾في قوله تعالى:﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾منقطعة، وما فيها من معنى (بل) للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر»[٣٥٥]،وأم المنقطعة هذه: «يلزمها تقدير استفهام بعدها لا محالة، فقوله: ﴿جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ﴾، تقديره: بل أجاءهم»[٣٥٦].

وحذف أداة الاستفهام في هذا الموضع جائز؛ لدلالة (أم) عليه، ولفهمها من السياق، ولأن ذكرها سيسبب ثقلا واضحا في الكلام.

والاستفهام المقدر هنا خرج عن حقيقته إلى الإنكار والاستبعاد، يقول أبو السعود: «والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع، أي: بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، حتى استبدعوه واستبعدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، يعني: أن مجيء

(٣٥٥) تفسير أبي السعود ١٤٣/٦، وانظر تفسير القرطبي ١٣٩/١٢، وفتح البيان ٢٩٧/٦.

(٣٥٦) التحرير والتنوير ٨٨/١٨.

الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنى إنكارها، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه؟»(٣٥٧).

وقيل: إن الاستفهام هنا، وفيما يلي تلك الآية للتقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعلمه، يقول الجمل: «قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ﴾، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾أم في المواضع الثلاثة مقدرة بـ (بل) الانتقالية، وهمزة الاستفهام التقريري، والتقدير: بل أجاءهم، بل ألم يعرفوا، بل أيقولون»(٣٥٨).

وعلى ذلك: فهذه الاستفهامات هنا خرجت عن حقيقتها من طلب معرفة المجهول إلى معنى من هذه المعاني المجازية التي أشرت إليها، وهذا عند البلاغيين المتأخرين يعد من قبيل المجاز المرسل لعلاقة اللزوم، وإلى هذا أشار ابن عاشور فقال: «وهذه الاستفهامات مستعملة

---

(٣٥٧) تفسير أبي السعود ١٤٣/٦، وانظر: روح البيان ٩٤/٦، وتفسير القاسمي ٢٣٨/١٢.

(٣٥٨) الفتوحات الإلهية ١٩٧/٣، وانظر: حاشية الشهاب ٥٩٢/٦، وحاشية الصاوي ١٧٠/٤.

في التخطئة على طريق المجاز المرسل؛ لأن اتضاح الخطأ يستلزم الشك في صدوره عن العقلاء، فيقتضي ذلك الشك السؤال عن وقوعه من العقلاء....»[(٣٥٩)].

وقوله: ﴿جَآءَهُم﴾ المجيء في اللغة: «كالإتيان، لكن المجيء أعم؛ لأن الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارا بالحصول، ويقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولمَا يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانا، أو عملاً، أو زمانا...»[(٣٦٠)].

والمجيء هنا مستعمل في المجيء في المعاني، وهو هنا ليس على حقيقته، بل «المجيء مجاز في الإخبار والتبليغ، وكذلك الإتيان»[(٣٦١)].

وهذا المجاز استعارة تبعية؛ لأنها جرت في الفعل كما يرى متأخرو البلاغيين، والتعبير عن التبليغ والإخبار وهما من المعنويات بالمجيء

---

(٣٥٩) التحرير والتنوير ١٨/٨٧، وانظر: حاشية الدّسوقي على شرح السّعد ١/١٩٣ ضمن شروح التّلخيص.

(٣٦٠) مفردات الراغب ١٠٢، وانظر: عمدة الحفّاظ ١/٤١٦.

(٣٦١) التحرير والتنوير ١٨/٨٨.

لتشخيص المعنويات، وإبرازها في صورة المحسوسات؛ لتثبيتها في الأفئدة والعقول.

والضمير «هُم» في ﴿جَآءَهُم﴾ يعود على كفار قريش، كما تؤكد السياقات.

و﴿مَّا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، وهي هنا فاعل جاء، وهي صادقة على دين، يقول ابن عاشور: «و﴿مَّا﴾ الموصولة صادقة على دين، والمعنى: أجاءهم دين لم يأت آباءهم الأولين، وهو الدين الداعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث»(٣٦٢)،وإسناد الفعل جاء للفاعل اسم الموصول ﴿مَّا﴾ قرينة واضحة على أن الفعل جاء مجازًا؛ لأن الدين لا يتأتى منه المجيء حقيقة.

وجملة: ﴿لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ صلة الموصول، والمراد من هذه الصلة قد يكون ظاهر معناها، بمعنى: أن الدين الذي أتى به الرسول الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ من توحيد الإله والبعث لم يكن لهم عهد به من قبل، وعلى هذا المعنى الظاهر «ففي الكلام تهكم بهم، إذ قد أنكروا

---

(٣٦٢) التحرير والتّنوير ١٨/٨٨.

دينًا جاءهم، ولم يسبق مجيئه لآبائهم، ووجه التهكم أن شأن كل رسول جاء بدين أن يكون دينه أُنُفا، ولو كان للقوم مثله؛ لكان مجيئه تحصيل حاصل.

وإن كان المراد من الصلة: أنه مخالف لما كان عليه آباؤهم؛ لأن ذلك من معنى: لم يأت آباءهم، كان الكلام مجرد تغليط؛ أي: لا اتجاه لكفرهم به؛ لأنه مخالف لما كان عليه آباؤهم، إذ لا يكون الدين إلا مخالفا للضلالة»[٣٦٣].

﴿يَأْتِ﴾: الإتيان هنا أيضا مجاز عن الإبلاغ على نحو ما سبق، فأصل الكلام: «أم بلغهم دين لم يبلغ آباءهم الأولين»، وإذا كان الأمر كذلك، فلم ذكر هنا الإتيان، وذكر قبل المجيء؟ أقول: لأن المجيء الأول مجيء بالذات؛ أي: أجاءهم الرسول بخبر وبلاغ ودين فأليق به المجيء، والثاني تكرار، فأليق به الإتيان؛ لأن الإتيان كما يقول الراغب: «مجيء

(٣٦٣) التحرير والتنوير ١٨/٨٨.

بسهولة»[٣٦٤]، فهو أخص من المجيء، وهكذا وضع كل لفظ في موضع لا يصلح فيه غيره.

﴿ءَابَآءَهُمُ﴾: آباء: مفعول يأت، والفاعل ضمير مستتر يعود على ما الموصولة التي هي فاعل جاء، والمعنى: بل أجاءهم دين أو بلاغ لم يأت هذا الدين أو البلاغ آباءهم الأولين.

وآباء: جمع تكسير مفرده أب، والأب في اللغة: «الوالد، ويسمى كل من كان سبباً في إيجاد شيء، أو إصلاحه، أو ظهوره: أبا، ولذلك يسمى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ أبا المؤمنين...»[٣٦٥].

وليس المراد بالآباء هنا آباء كفار قريش المخاطبين بالآية بداهة، بل المراد آباؤهم الأبعدون الذين ينتسبون إليهم، ولعل هذا يفسر سر استعمال الآباء هنا بدلا عن الوالدين التي تدل على الأب والأم المباشرين.

---

(٣٦٤) مفردات الراغب ٤، وانظر: عمدة الحفاظ ١/٥٧ - ٦٠، حيث أورد للإتيان معاني أخرى.

(٣٦٥) مفردات الراغب ٣.

والتعبير بالآباء جمع تكسير جاء في الذكر الحكيم (٦٤) مرة مرفوعًا ومنصوبا ومجرورا[٣٦٦]، وهو في هذه المواضع لم يكن المقصود به الأب المباشر، بل المقصود به يحدده سياقات الكلام المختلفة، فقد قصد به مثلًا: الآباء المباشرين في قوله تعالى:﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، كما أريد به الأب غير المباشر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:١٧٠]، فالسياق هو الذي يحدد المراد به، وهنا السياق يشير بوضوح إلى أن الآباء ليسوا هم الآباء المباشرين بل أجدادهم، ومن ثم فإن إطلاق الآباء على الأجداد قد يكون مستعملا في حقيقته؛ لأنه يجوز إطلاق الأب على الوالد المباشر، وعلى الجد، قال تعالى:﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِيۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٣﴾

---

(٣٦٦) المعجم المفهرس ٣ - ٤.

[البقرة:١٣٣] ،وإبراهيم لم يكن أبا يعقوب، بل كان جده، وقد يكون مجازا؛ لأنه لم يستعمل في الظاهر»(٣٦٧).

والضمير «هم» في آبائهم يعود على كفار قريش الذين يتحدث السياق القرآني عنهم بوضوح كما بينا.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جمع أول، و«الأول هو الذي يترتب عليه غيره، ويستعمل على أوجه:

أحدها: المتقدم بالزمان، كقولك: عبد الملك أولا، ثم منصور.

الثاني: المتقدم بالرياسة في الشيء، وكون غيره محتذيا به، نحو: الأمير أولا، ثم الوزير.

الثالث: المتقدم بالوضع والنسبة، كقولك للخارج من العراق: القادسية أولا ثم فيد، وتقول للخارج من مكة: فيد أولا، ثم القادسية.

الرابع: المتقدم بالنظام الصناعي، نحو أن يقال: الأساس أولا، ثم البناء»(٣٦٨).

---

(٣٦٧) عمدة الحفّاظ ١/٥٥.

(٣٦٨) مفردات الراغب ٢٧، وانظر عمدة الحفّاظ ١/١٥٦.

والمراد به هنا هو الوجه الأول، وهو التقدم بالزمان، والمعنى: أم جاءهم ما لم يأت آبائهم الأولين في الأزمنة الغابرة.

وقد اختلف المفسرون في تحديد آبائهم الأولين هنا على رأيين:

الأول: هم آباء كفار قريش من «إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان، ومضر وربيعة، وقس والحرث بن كعب، وأسد بن خزيمة وتميم بن مرة، وتبع وضبة بن أد»[٣٦٩].

الثاني: هم سلف الأمم السابقة: من نوح وإبراهيم وإسماعيل بوجه عام، يقول الثعالبي: «أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، أي: ليس ببِدع، بل قد جاء آباءهم الأولِين، وهم سالف الأمم الرسل؛ كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وغيرهم»[٣٧٠].

والراجح هنا: هم آباؤهم الذين كفار قريش من نسلهم وأصلابهم، كما مر في الوجه الأول، يؤكد هذا: أن الأولين - وصفًا لآباء - لا ينسحب إلا على أجدادهم الذين ينتسبون إليهم؛ لأنهم هم بالفعل

---

(٣٦٩) تفسير أبي السعود ١٤٣/٦، وانظر الكشاف ٣٦/٣، والبيضاوي ٥٥/٢.

(٣٧٠) تفسير الثّعالبي ٤٥٧/٢.

كذلك، أما ما عداهم من الأمم الأخرى؛ فإنهم - وإن كانوا أولين- لكنهم ليسوا آباءهم على موجب دلالة هذا اللفظ.

ومما يستأنس به لهذا: أن لفظ (الأولين) مقترنا بلفظ (آباء) ورد في الذكر الحكيم (٥) مرات، وأطلق في كل موضع على آباء المخاطبين المتحدث عنهم لم يتعداهم لغيرهم، كما يبدو من سياقات هذه المواضع في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون:٢٤]،وقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ [الشعراء:٢٦]،وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾ [القصص:٣٦]،وقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾ [الصافات:١٢٦]، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الدخان:٨].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾[ص: ٢٩]، وردت معترضة في سياق مخاصمة الكافرين في الحق الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر قصة

داود وسليمان عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ ورجوعهما للحق بعدما تبين وظهر وإنابتهما إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فنلحظ من ورود هذه الآيات الآمرة بالتدبر معترضة في سياق الحديث عن غير القرآن أن الغرض منها الأمر بالوقوف مع الآيات الواردة والتأمل فيها والتَّذكُّر والانتفاع بها، والامتثال لها مما يؤكد لنا أن التدبر هو الوقوف مع الآيات والتأمل فيها بغرض التَّذكُّر والاتّباع.

وردت هذه الآية الكريمة في سورة «ص» المكية في سياق عجيب، حيث تخللت الحديث عن داود وسليمان، فقد بدأ الحديث عنهما بقوله تعالى :﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص:١٧].

واستمرت الآيات الكريمة تحدث عنهما إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:١٨- ٢٦].

ثم استطردت فتحدثت عن خلق السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: ٢٧].

ثم بينت عدم استواء جزاء المتقين والفجار في قوله : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: ٢٨].

ثم وردت بعد ذلك الآية التي معنا محل الدراسة في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

ثم عاد الحديث من جديد عن داود وسليمان في قوله:﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٤٠﴾ حتى انتهى الحديث عن سليمان وحده في قوله

تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ [ص:٣٠ - ٤٠]، وهكذا جاء الحديث عن تلك الآية في سياق عجيب غريب كما ترى بوضوح.

ومجيء تلكم الآية في هذا السياق العجيب أطنب الإمام الرازي في ذكر سره بما لا مزيد عليه فليعد إليه القارئ الكريم خشية التطويل[٣٧١].

وإذا كان الأمر كذلك فإن ورود هذه الآية هنا يعد استئنافا معترضا، وفي هذا يقول ابن عاشور: «الجملة استئناف معترض، وفي هذا الاستئناف نظر إلى قوله في أول السورة ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾إعادة للتنويه بشأن القرآن كما سيعاد ذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾»[٣٧٢].

---

(٣٧١) مفاتيح الغيب ٢٥/٣٢٠ - ٣٢١، وانظر: تفسير النّيسابوري ٥/ ٥٩٢-٥٩٣، وتفسير ابن كثير ٤/٣٣، والتحرير والتنوير ٢٣/٢٥١.

(٣٧٢) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥١.

و﴿ كِتَٰبٌ ﴾ في قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾«يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هذا كتاب، وجملة ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ صفة كتاب، ويجوز أن يكون مبتدأ، وجملة ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ صفة كتاب، و﴿ مُبَٰرَكٞ ﴾ خبرا عن ﴿ كِتَٰبٌ ﴾»(٣٧٣).

والراجح: أن لفظة﴿ كِتَٰبٌ ﴾مبتدأ، وليس خبرا عن مبتدأ محذوف، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأنها موصوفة بجملة أنزلناه، علاوة على أن الكلام هنا سائغ بدون تقدير محذوف، وهذا ما رجحه ابن عاشور بقوله: «لا يجعل ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هذا كتاب، إذ ليس هذا بجز كبير من البلاغة»(٣٧٤).

---

(٣٧٣) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥١.

(٣٧٤) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥١.

والكتاب في الأصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتابا مبالغة، ويجوز أن يكون الكتاب في الأصل اسما للصحيفة مع المكتوب فيه...»[٣٧٥]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن الكريم، وسمي القرآن كتابا؛ «لما جمع فيه من الأخبار والقصص، والأحكام والمواعظ والأمثال، والأوامر والنواهي والزواجر، والإنذار والإعذار، والتحذير والبشارة إلى غير ذلك»[٣٧٦].

وهذا صحيح؛ لأن المادة تعني الضم والجمع، يقول الراغب: «الكتْبُ ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وكتبت البغلة: جمعت بين شفريها بحلقة»[٣٧٧].

وأطلق الكتاب في هذا السياق على القرآن؛ للإشارة إلى أن المؤمنين - الموجه لهم الخطاب في تلك الآية - هم المعنيون وحدهم

---

(٣٧٥) مفردات الراغب ٤٤٠.

(٣٧٦) عمدة الحفاظ ٤٣٥/٣، وانظر: البرهان للزركشيّ ٣٤٧/١.

(٣٧٧) مفردات الراغب ٤٤٠ بتصرف يسير.

بكتابته ليظل محفوظا أبد الدهر فلفظة الكتاب تبين عن جمعه في صدورهم وضمه لآياته في رقاعهم.

وعلى ذلك فإن إطلاق الكتاب على الذكر الحكيم له دلالة تغاير دلالة إطلاق القرآن عليه، بدليل أن المولى عطف الكتاب على القرآن في قوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النمل:١]، كما عطف القرآن على الكتاب في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر:١]،ومعلوم أن العطف يقتضي المغايرة في الذات أو المغايرة في الصفات، وهنا مغايرة في الصفات، فلو كان الكتاب بمعنى القرآن دون أدنى فرق ما عطفه عليه، فإذن حقيقة الذكر الحكيم في كونه قرآنًا غير حقيقته في كونه كتابا، فالأول منظور فيه إلى صفة القراءة، والثاني منظور فيه إلى كونه مكتوبا يستوضح منه كل شيء.

ويجوز أن يكون التعبير عن القرآن بالكتاب هنا أيضا؛ لأن تلك اللفظة تتلاءم مع لفظة ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ بعدها عكس لفظة القرآن التي تصاحبها ألفاظ أخرى مثل الإبانة وغيرها كما ورد في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر:١]، وقوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف:٢]، وقوله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجن:١]، فلم توصف لفظة قرآن إلا بنحو ما سبق، وكأن الكتاب في القرآن يخبر عنه بالبركة، عكس القرآن فهو يوصف بالإبانة، وبأنه عربي، وبأنه عجب، وهذا - والله أعلم- من أسرار التعبير بتلك اللفظة الشريفة هنا، والدليل على صحة ذلك أن القرآن لم يوصف بلفظة: ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ مطلقا بل هي مختصة بالكتاب حيث جاءت وصفا له في أكثر من آية كريمة كما سيأتي.

وتنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾ كما يقول ابن عاشور: «للتعظيم؛ لأن الكتاب معلوم فما كان تنكيره إلا لتعظيم شأنه» (٣٧٨).

وأرى أن التنكير لا يقتصر هنا على التعظيم بل يجوز أن يكون للنوعية أي: كتاب من نوع لا نظير ولا مثيل له بين الكتب السماوية أو الوضعية من شتى الوجوه، كما يجوز أن يكون التنكير للإفراد والوحدة أي: أنه كتاب فريد وحيد في نظمه وأسلوبه، وما احتواه من تشريعات

---

(٣٧٨) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥٢.

ومضامين لا توجد في غيره وهذه الدلالات كلها جائزة، والتنكير يوحي بها، ولا تناقض بينها، وهذا من ثراء القرآن، وعطائه في دلالات ألفاظه، والنكات البلاغية لا تتزاحم ما دامت لا تتعارض.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾أنزل: ماض مزيد بحرف من الثلاثي نزل، والفعل «نزل» لازم، وهو يتعدى لغيره: «بالحرف والهمزة والتضعيف فيقال: «نَزَلْتُ به»، و «أنزلتُه»، و «نزَّلته»»(٣٧٩).

والنزول كما يقول الراغب: «انحطاط من علو، يقال: نزل عن دابته ونزل في مكان كذا: حط رحله فيه... ونزل بكذا، وأنزله بمعنى»(٣٨٠)، وليس بمعنى كما يقول الراغب؛ لأن همزة أنزل جعلت الفعل متعديا إلى المفعول به بنفسه، ومن ثم فهنا فرق دلالي بينهما تمثل في الإشارة إلى أن الكتاب لم ينزل بنفسه بل أنزله رب العالمين على نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من فوق سبع سماوات،

---

(٣٧٩) المصباح المنير ٢٢٩.

(٣٨٠) مفردات الراغب ٥٠٩، وانظر: معجم المقاييس في اللّغة ١٠٢٢.

وهذا نظير قولنا: خرج الطالب، وأخرج الأستاذ الطالب فبينهما فرق ملحوظ.

وعبر هنا بالإنزال، وفي آيات أخر عبر بالتنزيل؛ لأن الإنزال يكون للنازل دفعة واحدة، والتنزيل يكون للنازل بالتدريج [٣٨١]؛ وهذا ما أكد عليه العسكري بقوله: «قال بعض المفسرين: الإنزال: دفعي، والتنزيل: للتدريج.

قلت: ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ حيث خص القرآن بالتنزيل، لنزوله منجما، والكتابين بالإنزال لنزولهما دفعة.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ فالمراد هنا مطلقا من غير اعتبار التنجيم، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، فإن المراد إنزاله إلى سماء الدنيا،

(٣٨١) أي: أن التنزيل لما فيه من تضعيف العين يفيد التكثير المتلائم مع التدريج.

ثم تنزيله منجما على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في ثلاث وعشرين»(٣٨٢)، ويؤيد هذا أن لفظة

تنزيل بما في نطق حروفها من مط وتطويل تحمل معنى المهلة والتدرج عكس ما في إنزال من سرعة.

وهناك فرق آخر بينهما لاح لي من استقصاء استعمالات هذين الفعلين في القرآن الكريم حيث وجدت الفعل المضعف (نَزَّلَ)(٣٨٣) ماضيًا ومضارعًا تعدى إلى المفعول «الكتاب» صراحة أكثر من مرة،

---

(٣٨٢)الفروق في اللغة للعسكري٢٩٣، وانظر: مفردات الراغب٥١، والكليات للكفوي ١٩٦، وقد عارض الحلبي هذا الرأي الذي ذهب إليه العسكري بقوله: «وقد اعترضت عليه بقوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢} فإنه أتى بصيغة : مع جملة دفعة واحدة من غير تفريق ولا تنجيم». انظر: عمدة الحفاظ ١٨٩/٤.

(٣٨٢) المعجم المفهرس ٦٩٤ - ٦٩٥.

والكتاب في هذه المواضع المراد به القرآن الكريم،كما تعدى إلى المفعول «القرآن» صراحة مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣﴾ [الإنسان:٢٣]، وتعدى «للذكر»، والمراد به: القرآن الكريم مرة واحدة في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، وتعدى للفرقان، والمراد به القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

كما وجدت الفعل «أنزل» تعدى إلى المفعول الكتاب مرات عديدة، والكتاب في هذه المواضع المراد به القرآن الكريم أيضًا، وتعدى إلى التوراة والإنجيل معا في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران:٣]، وتعدى للتوراة بمفردها في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة:٤٤]، وتعدى للقرآن في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا

عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه:٢]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر:٢١]، وتعدى للذكر في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:٤٤]، وتعدى إلى النور في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ [النساء:١٧٤]، وتعدى للآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٩٩﴾ [البقرة:٩٩]، وتعدى للبينات والهدى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة:١٥٩]، وتعدى للنور في قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾ [التغابن:٨] .

فمتعلق «أنزل»[٣٨٤] متنوع متعدد كما ترى، على عكس متعلق نزل فهو محصور كما مر، وعلى ذلك فإن متعلق الإنزال أكثر وأشمل في استخدامات القرآن، وهو مصداق لقول الراغب «الإنزال أعم من

---

(٣٨٤) المعجم المفهرس ٦٩٥ - ٦٩٧.

التنزيل»[٣٨٥]، فبان بهذا أن لكل صيغة في القرآن دلالاتها وسياقاتها ومتعلقاتها، وتنوع التعبير بهذه الصيغ في القرآن إنما هو لأسرار بلاغية، ونكات تعبيرية أدركها من أدركها، وغفل عنها من غفل؛ ولذا لا يصح أن يكون (أنزل)، و (نزَّل) بمعنى واحد، ولا يعني عدم إدراك الفروق بين هذه الصيغ المختلفة عدم وجودها.

والضمير «نَا» في أنزلناه فاعل، وهو يعود على المولى ، والتعبير بضمير العزة والعظمة فيه إيماء إلى عظمة هذا الكتاب وتفرده وأنه جنس فريد من الكلام لا يقدر عليه إلا الواحد العلام.

والهاء في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾في محل نصب مفعول به يعود على الكتاب بلا شك، وهذا يؤكد أن الهمزة للتعدية كما أومأنا، ومن ثم فليس أنزل بمعنى نزل.

وعبر عن الكتاب بالضمير؛ لأنه أليق بالسياق إذ مر ذكره صراحة قبل والكلام يكون ركيكا -حاشا وكلا - لو قال: «كتاب أنزلنا الكتاب إليك مبارك».

---

(٣٨٥) مفردات الراغب ٥١٠.

﴿إِلَيۡكَ﴾ حرف الجر «إلى» هنا على أصله من إفادة الانتهاء، والمعنى: انتهى نزول الكتاب إليك، وهذا يعني من طريق آخر أنه النبي الخاتم، وكتابه خاتم الكتب السماوية ونهايتها.

والضمير في ﴿إِلَيۡكَ﴾ يعود على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ نصًا، ويدخل فيه أمته تبعا، يقول الألوسي: «والخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ، وعلماء أمته على التغليب أي: لتتدبر أنت وعلماء أمتك»[(٣٨٦)]، ولكن تقييد الألوسي التدبر بعلماء الأمة دون سائر أفرادها لا يصح؛ لأن الكتاب أنزل ليتدبره الجميع، نعم علماء الأمة منوط بهم التدبر في المقام الأول، ولكن هذا لا ينفي تدبر غيرهم.

﴿مُبَٰرَكٞ﴾ على الرفع خبر لكتاب كما رجحنا وليس صفة؛ إذ «لا يجوز على المختار أن يكون نعتا ثانيا؛ لأنه لا يجوز عند الجمهور أن يتقدم النعت غير الصريح ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ على الصريح»[(٣٨٧)].

---

(٣٨٦) روح المعاني ١٥/٥٠٦.

(٣٨٧) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٧/١٩٨، وانظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٥/١٤٤، والفتوحات الإلهيّة للجمل ٣/٥٧٢.

والإخبار عن كتاب بـ ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ فيه تعظيم وتشريف لهذا الكتاب.

و﴿مُبَٰرَكٌ﴾اسم مفعول من الفعل الرباعي بارك أي: أن البركة اشتملت عليه، واحتوته من جميع الوجوه والجوانب، فهو مبارك بركة تامة شاملة في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وكل ما يتضمنه من علوم مختلفة.

والبركة هي: «ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦]، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البِركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير»[٣٨٨].

والمقصود بكون الذكر الحكيم مباركا، أي: أنه موضع للخيرات الإلهية الدينية والدنيوية المستقرة فيه، وهذا المعنى لا ينفك عن هذا اللفظ في كل سياقاته في الذكر الحكيم، سواء جاء مع القرآن كما هنا، أم مع البيت الحرام كما في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦] أم مع يحيى، كما في قوله

---

(٣٨٨) مفردات الراغب ٤١ - ٤٢، وانظر: روح البيان للشيخ حقي ٢٥/٨.

تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم:٣١] ،أم مع الماء كما في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: ٩].

والتنكير في هذا اللفظ للتكثير والتعظيم أي: بركاته كثيرة عميمة جدا، ونفعه جليل عظيم جدا، فآياته «إما مرشدة إلى خير، وإما صارفة عن شر وفساد، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل، ولا بركة أعظم من ذلك»(٣٨٩) ،ويجوز أن يكون للنوعية والإفراد، أي: بركاته من نوع مختلف لا نظير لها فريدة في بابها، كل ذلك لا يرفضه السياق العام لهذه اللفظة التي جاءت مقترنة بالكتاب في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم كله، فهي أمس به رحما، وألصق به صلة من غيره .

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾اللام في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾لام التعليل بمعنى كي، والتعبير بلام التعليل فيه نص قاطع على أن التدبر هو علة إنزاله، وبدونه سيفوت الغرض، والحكمة المقصودة من إنزاله، وهذا يعني أنه أنزل لكي نتدبر آياته، ونتبصر عظاته، ونهتدي بهديه، ونستخرج أحكامه،

---

(٣٨٩) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥١.

ونستكنه أسراره، ونتفهم معانيه، ونتمثل كل ما فيه، ولم ينزل ليقرأ بلا تدبر، أو ليتخذ زينة، أو يقرأ على الأموات، أو يعلق على صدور الحسناوات، وفي ذلك يقول ابن القيم: «وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر...»[٣٩٠].

وقرأ الجمهور ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بالياء، وأصله ليتدبروا قلبت التاء دالا، وأدغمت الدال في الدال لقرب مخرجيهما تخفيفا كما مر في آية «المؤمنون»، وفي قراءة أخرى قرئ ﴿لِّتَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بالتاء، وأصلها لتتدبروا بتاءين، حذفت إحداهما اختصارا على الخلاف الذي فيها، أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها وقد حكى الطبري القراءتين بقوله: «واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة القراء ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بالياء، يعني: ليتدبر هذا القرآن من أرسلناك إليه من قومك يا محمد، وقراءة أبو جعفر وعاصم ﴿لِّتَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بالتاء، بمعنى: لتتدبره أنت يا محمد وأتباعك،

---

(٣٩٠) مدارج السالكين لابن القيم ١/٤٥١.

وأولى القراءتين عندنا بالصواب في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب»(٣٩١).

والفرق بين القراءتين يتمثل في أن الخطاب في القراءة الأولى ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ موجه لمن أرسل إليهم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من قومه مؤمنين وكافرين كما صرح الطبري، وفي الثانية ﴿لِّتَدَّبَّرُوٓاْ﴾ الخطاب فيها للنبي والمؤمنين كما هو واضح من كلامه.

ولكني أرى أن المخاطب أي الفاعل واو الجماعة في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ هم المؤمنون بدليل كاف الخطاب في قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ أي أنزلناه إليك ولأمتك خاصة وبذلك يكون الخطاب للمؤمنين في القراءتين كما يشير سياق الآية كما مر.

والتعبير بالإدغام - على أي من القراءتين- يعكس دعوة المؤمنين إلى تدبر آيات هذا الكتاب بأقصى سرعة ودون تمهل؛ لاستخراج ثمراته المباركة ولآلئه المكنونة فيه، والتي لا تظهر إلا للمتدبر.

---

(٣٩١) تفسير الطّبري ٦٣٩/٢٩، ٦٤٠، وانظر: البيضاوي ١٦٤/٢، وروح المعاني ٢٥٦/١٥، والتّحرير والتنوير ٢٥٢/٢٣.

﴿ ءَايَٰتِهِۦ ﴾آيات مفعول به للفعل يتدبر، والضمير في آياته يعود على الكتاب أي: ليدبروا آيات الكتاب، فآيات الكتاب هنا هي التي وقع عليها التدبر.

والآيات جمع آية «والآية هي العلامة الظاهرة... وكل جملة من القرآن دالة على حكم آية، سورة كانت أو فصولا، أو فصلا من سورة، وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية، وعلى هذا اعتبار آيات السور...» [٣٩٢].

والمراد من الآية هنا: الجملة، أو الجمل من القرآن المتعارف عليها المسماة آية كما ذكره الراغب، والتعبير بآياته هنا يؤكد على أن الكتاب مقصود به القرآن الكريم؛ لأن الآيات لا تنسحب إلا عليه، ولم ترد منسوبة إلا إليه.

وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ لم يقل: ليدبروه وقال: ليدبروا آياته؟ أقول: في ذلك إشارة واضحة إلى أن من شان المؤمنين أن يتدبروه آية آية، وموضوعًا موضوعا، وسورة سورة حتى يصلوا لمنتهاه، ثم يعيدون

---

(٣٩٢) مفردات القرآن للرّاغب ٢٨ - ٢٩، وانظر: عمدة الحفّاظ ١/١٦٨.

الكرة مرة بعد مرة طيلة حياتهم، فيجب أن يكون هذا هجيرهم وديدنهم حتى تنكشف لهم أسراره.

وليس المقصود من آيات الكتاب هنا آيات بعينها بل يجب تدبر آيات القرآن جميعها من آيات العبادات، والمعاملات، والأخلاق، وأسرار الكون، والعقيدة، والتشريع، وغير ذلك، ولعل التعبير بالجمع هنا، وإضافته إلى ضمير الكتاب يؤكد على أن التدبر يكون في جميع الآيات على اختلاف أنواعها وقد أومأ إلى ذلك الألوسي حيث يقول: «أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع»(٣٩٣).

وهنا ملحوظة دقيقة: فإن لفظة آيات لم تذكر مع التدبر إلا هنا، فلم ترد في آية النساء ومحمد والمؤمنون، مما يؤكد على أن المخاطبين بالتدبر هنا هم المؤمنون كما مر؛ لأن هذه اللفظة أوثق صلة بهم.

ومعنى: «تدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة؛ لأن من

---

(٣٩٣) روح المعاني ١٥/٥٠٦، وانظر: روح البيان ٨/١٦٦.

اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها»(٣٩٤).

هذا، ومن يتدبر في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ ويقارنه بما ورد في سورة النساء ومحمد والمؤمنون يجد أن العبارات اختلفت في هذه الآية عن هذه الآيات الثلاث حيث عبر هنا بالتدبر مسبوقا بلام التعليل، وعبر عن القرآن بالكتاب، وأخبر عنه بكونه «مبارك»، ووجه الخطاب نصا للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، وهذا عكس ما في آية النساء ومحمد والمؤمنون تماما، فلم يرد فيها شيء مما ذكرت البتة، فتغايرت العبارات لتغاير السياقات، وتباين المخاطبين، وهذا كله يؤكد على أن المخاطب بالتدبر في تلك الآية هم المؤمنون.

ولما كان المخاطب بالتدبر في آيات الكتاب هم المؤمنون شرع يؤكد على أن هذا الأمر الجليل لا يدركه حق إدراكه، ولا يتذكره حق تذكره

---

(٣٩٤) الكشّاف ٣/٣٧٢ - ٣٧٣، وانظر: تفسير القاسمي ١٤/٩٧، والتحرير والتنوير ٢٣/٢٥٢.

إلا أولو الألباب فقال تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «أي: ليتعظ بآيات الكتاب، ويتدبرها حق التدبر أهل العقول الخالصة من الشوائب، وهم أهل البصيرة والبصائر من المؤمنين.

وعلى ذلك فالواو عطفت جملة ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ على جملة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ عطف جملة لها محل على جملة لها محل من الإعراب؛ لأن جملة ليدبروا متعلقة بأنزلناه، والعطف بالواو يقتضي التشريك في الحكم، وكأن المعنى: أنزل الله آيات الكتاب لغرضين: ليتدبر المؤمنون آياته، وليتذكر أولو الألباب عظاته فيصلون إلى شاطئ السلامة، وينعمون بالجنة جزاء وفاقا.

واللام في ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ لام التعليل، ويتذكر مضارع من الماضي الخماسي تذكر، وأصله من الثلاثي «ذكر»، و«الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال: لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل

الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ...»[٣٩٥].

والتذكر المراد هنا هو التذكر بالقلب واللسان، واستحضار المنسي إلى القلوب والأذهان أي: ليتذكر أولو الألباب آياته بقلوبهم، ويستحضرونها بألسنتهم فهذا ما يليق بهم.

وهذا الفعل على تلك الهيئة اللفظية ورد في القرآن الكريم ثماني مرات، إحداها هنا، وسبع مرات في سورة[الرعد:١٩]، و[طه:٤٤]، و[فاطر:٣٧]، و[الزمر:٩]، و[غافر:١٣] ،و[النازعات:٣٥]، و[الفجر:٢٣].

ومن دلائل الإعجاز هنا: أن الفعل يذَّكر[٣٩٦] وأصله «يتذكر» بقلب التاء ذالا، وإدغامها في الذال ورد أيضا ثماني مرات.

(٣٩٥) مفردات القرآن للراغب ١٨١، وانظر: عمدة الحفّاظ ٤٢/٢.

(٣٩٦) ناهيك عن﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، فقد وردت (٧) مرات، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ﴾، فقد وردت (٦) مرات، انظر: المعجم المفهرس ٢٧٢- ٢٧٣.

وفك الإدغام هنا فيه إشارة إلى أن من شأن أولي الألباب أن يتذكروا آياته بقلوبهم، ويستحضروها بألسنتهم بتدرج وتؤدة وعلى مهل كما يشير إليه السياق، ويدل عليه الخطاب للمؤمنين هنا، وعليه فالفيصل في فك الإدغام والإبقاء عليه يعود لسياقات كل لفظة كما أشرنا قبل، ومن يتأمل في تلك المواضع الأخرى يتضح له هذا جليا؛ لأن المكان لا يسعنا هنا لإيضاحه.

﴿أُوْلُواْ﴾ فاعل «يتذَّكر» ، وهي كلمة ملحقة بجمع المذكر السالم بمعنى أصحاب، وليس لتلك الكلمة مفرد من لفظها، بل مفردها (ذو) بمعنى صاحب، ومن خصائصها أنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مع الألباب والنهى والأبصار.

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جمع لب، و«اللب العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه كاللباب واللب من الشيء، وقيل: هو ما زكا من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا، ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولى الألباب نحو قوله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ

﴿أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٢٦٩﴾، ونحو ذلك من الآيات»[٣٩٧].

فالألباب ليست بمعنى العقول فحسب بل هي تحوي معنى العقل وزيادة، ومن ثم لا يصح أن توضع العقول هنا محل الألباب، وقد أدرك ذلك العسكري فقال: «اللب يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به، والعقل يفيد أنه يحصر معلومات الموصوف به، فهو مفارق له من هذا الوجه»[٣٩٨]،وهذا يؤكد على أن الخطاب هنا لأكابر أهل العلم من المؤمنين، فعقولهم هي الخالصة من الشوائب، الزكية المطهرة من كل ما يشينها.

هذا، ومن يتأمل استعمالات تلك اللفظة في الذكر الحكيم يجد أنه اقتصر على جمع التكسير ألباب، أما اللب مفردا فلم يأت مطلقا، وهنا مفارقة عجيبة فإن الذكر الحكيم لم يرد فيه البتة لفظ العقول جمعا، ولفظ العقل مفردا بل اقتصر على الماضي والمضارع، وهذا من إعجازه في

---

(٣٩٧)مفردات القرآن للراغب ٤٦٦، وانظر: عمدة الحفّاظ ٧/٢، ولسان العرب، مادة (لبب) ٧٢٩/١.

(٣٩٨) الفروق في اللغة ٧٦.

استخدام ألفاظه، وجموعه ومفرداته، ومختلف صياغاته، فقد يترك صيغا شهيرة في استعمالات الناس ويستبدلها بغيرها، وما ذاك إلا لأن كل لفظة فيه وضعت بقسطاس مستقيم لا يصح وضع غيرها موضعها.

والتعبير بأولي الألباب هنا فيه «تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ليسوا من أهل العقول، وأن التذكر من شأن المسلمين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فهم ممن تدبروا آياته فاستنبطوا من المعاني ما لم يعلموا» (٣٩٩).

وفي التعبير بأولي الألباب أيضا إشارة إلى أن «التدبر للفهم، والتذكر لوقوع الإجلال والخشية الخاص بأكابر أهل العلم... فعلم أن المقصود من كلام الحق التفكر والتذكر، والاتعاظ به لا حفظ الألفاظ فقط...»(٤٠٠).

---

(٣٩٩) التحرير والتّنوير ٢٥٣/٢٣.

(٤٠٠) روح البيان للشيخ حقي ٢٥/٨.

ثانياً : بيان المراد بالتَّدبُّر من آيات التَّدبُّر:

الآيات المذكورة كلّها معقبة - في نفس الآية - بما ينبيء عن مقصود التَّدبُّر، وهذا يبيّن - واللَّه أعلم - أنَّ المقصود بالتَّدبُّر التَّأمُّل في الآيات وما فيها من دلائل الصّدق والحقّ، وهذا يؤكد أنَّ التَّدبُّر هو الإقبال والوقوف الجادّ عند الآيات بغرض التَّأمُّل فيها، والتَّفاعل والتَّعايش معها، للانتفاع والامتثال والاهتداء إيماناً بما دلَّت عليه علماً أو عملاً.

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " المعنى : أيعرضون عن القرآن فلا يتأمَّلون فيه ليعلموا كونه من عند اللَّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بمشاهدة ما فيه من الشَّواهد الَّتي من جملتها هذا الوحي الصَّادق والنَّص النَّاطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه "[٤٠١].

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ (محمد :٢٤)، معقبة بقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ :﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد:٢٤]، وهذا يدل

(٤٠١) روح المعاني ٤/١٥٠.

على أنّ من لوازم التَّدبُّر إقبال القلب وحضوره مع القرآن وإيمانه به، وهو ما يتضمنه الوقوف عند الآيات كما ذكرت.

قال الشّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " فقد أنكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم إعراضهم عن تدبُّر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن ".

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] معقبة في نفس الآية بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وهي تدلّ على أنَّ من لوازم التَّدبُّر النَّظر والتَّأمُّل في الآيات الواردة وما دلّت عليه، وهو ما يتضمنه تعريف التَّدبُّر.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] عقبه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وهذا يؤكد أن من لوازم التدبر قصد التذكر والاتباع، لأنه غاية له، وبذلك دلت الآية على ما تقرر من تضمن التَّدبُّر لقصد التذكر والاتباع ، والله أعلم.

فظهر بذلك أنَّ الآيات الأربع مشتملة على مفهوم التَّدبُّر المتضمّنة لثلاثة أمور:

١- الإقبال والوقوف الجادّ عند الآيات بالقلب.

٢- النَّظر والتَّأمُّل فيما دلَّت عليه الآيات.

٣- قصد التَّذكُّر والاتّباع.

ثالثاً: صيغة الفعل الواردة في الآيات:-

جاءت صيغة الفعل في الآيات كلها بصيغة المضارع الدّالة على التَّجدد والاستمرار، وهنا يؤكد لنا أمور:

١- أنَّ التَّدبُّر مأمور به دائماً حال القراءة، ويؤكد ذلك ورود الاستفهام ولام الأمر.

٢- أنَّ التَّدبُّر لا نهاية له في الآيات، وأن القارىء لن يبلغ النّهاية فيه، وذلك لتوسّع المعاني والدلالات والهدايات في الآيات وتجددها.

رابعاً: اختلاف المأمور بتدبره في الآيات:

بالنَّظر في الآيات الأربع نجد الاختلاف في المأمور بتدبره

١- القرآن في آيتين من آيات التَّدبُّر السَّابق ذكرها.

٢- الآيات في آية واحدة.

٣- القول في آية واحدة.

٤- ونستطيع أن نستنبط من هذا الاختلاف أمور

١- أنّ آية النّساء والمؤمنون الواردة بلفظ تدبُّر القرآن، وتدبُّر القول ظاهر فيها أن المراد تدبره من حيث العلم بأنّه حق وبأنّه دال على الصواب، ولذلك عقبت إحدى الآيتين بقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ (النساء : ٨٢)، وعقبت الأخرى بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [المؤمنون: ٦٨]، والتّعبير بالقرآن - واللَّه أعلم - دال على أنّه من عند الله كما يؤكده ختام الآية، والتَّعبير بالقول دالٌ على أنَّه قول حق فيما تضمنه من الآيات والعبر، ويؤكده ختام الآية.

٢- أنَّ آية محمد الواردة بلفظ تدبُّر القرآن، ظاهر فيها أنَّ المراد الإيمان به والإقبال عليه وحضور القلب معه، ولذلك عقبت الآية بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤]، أنّ آية (ص) الواردة بلفظ تدبر الآيات، ظاهر فيها معنى تدبر دلالات الآيات

وهداياتها، ولذلك عقبت الآية بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وبالتَّأمل في هذه الألفاظ واختلافها نجد أنها دالة على مفهوم التَّدبُّر بأركانه الثّلاثة، أعني : حضور القلب، والتَّأمل في الدلالات، وقصد التَّذكُّر والاتباع، واللَّه أعلم.

المحور الثَّاني: أدلة الوقوف مع الآيات والتأمل فيها:

يؤكد تضمن التَّدبُّر للوقوف عند الآيات والتَّأمُّل فيها أدلة من القرآن والسُّنَّة وأقوال السَّلف وأحوالهم:

أولاً: الأدلة من القرآن:

القرآن دالّ على تضمن التَّدبُّر للوقوف عند الآيات والتَّأمُّل فيها، من وجوه عدة :

١- أنَّ القرآن مليء بالنصوص الآمرة بالنَّظر في الآيات والتَّفكر والتَّبصر والتَّذكر، ومنها:

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس ٦٧].

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾ [الرعد:٣].

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد ٤].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر٧٥].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه ٥٤].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم٢٢].

وفي أسلوب استفهامي يدعوا للوقوف مع الآيات والتأمل في مقاصدها:

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة ٤٤].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام ٥٠].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام ٨٠].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس٣].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص ٧٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

وقد تكررت هذه الآيات في مواضع كثيرة من القرآن، مما يؤكد أن الغرض هو الحث على الوقوف مع الآيات والتأمل والتفكر وإعمال

العقل والبصر والسمع فيها، والنظر في دلالاتها وهداياتها، والانتفاع بها والامتثال لها، وهذا هو التدبر.

٢- تكرر الآيات في بعض السور مما يؤكد أنها للحث على الوقوف مع الآيات والتأمل فيها، ومن ذلك مثلاً:

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧] تكررت هذه الآية في السورة أربع مرات، وتعدد تكرارها دال على أن المقصود الوقوف مع الآيات والقصص الواردة والتذكر بها ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾، وهي آية دالة دلالة صريحة على الحثّ على التدبر ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي للتَّذكر والانتفاع.

- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن١٣] تكررت هذه الآية واحداً وثلاثين مرة، وهي آية حاثَّة على الوقوف مع النّعم والآلاء الواردة في السُّورة وتأملها مما يبعث على الامتثال والإيمان.

٣- ورود القسم في ابتداء السور بالآيات الكونية وتعدده وتضمنه للتغيرات والأحوال التي تتضمنها الآيات الكونية المقسم بها فهذا التعدد وتضمينه للأحوال والتغيرات دال على الأمر بالوقوف مع هذه الآيات والتأمل فيها للانتفاع والإيمان.

٤- اعتبار علم الوقف والابتداء وهو علم عظيم غرضه التَّدبُّر.

قال الزَّركشيّ في البرهان رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " معرفة الوقف والابتداء : وهو فنّ جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة وبه تتبين معاني الآيات "(٤٠٢).

ثانياً: السنة وأقوال السلف وأحوالهم:

بالنَّظر في السنة النبوية وأقوال السلف وأحوالهم نجد أنها دالة على أنَّ التَّدبُّر هو الإقبال والوقوف الجادّ مع الآيات والتأمل فيها والتفاعل والتّعايش معها. ومما يشهد لذلك:

١- ما أخرجه النَّسائي وابن ماجة، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (قام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(٤٠٢) البرهان في علوم القرآن ١/٣٤٢.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨] (٤٠٣).

فهذا الترديد وقوف مع الآية وتأمل فيها في مشهدها العظيم.

٢- ما أخرجه مسلم عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال صليت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ.

٣- ما ورد عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مكث في تعلم سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مكث في تعلمها ثماني سنين !! (٤٠٤).

وهذا يدل على طول وقفوهم وتأملهم فيها بتعلم ما فيها والعمل به.

---

(٤٠٣) أخرجه النَّسائي ١٤٢١/٤ ح١٠١٨، وابن ماجه ٣٢٠/٤ ح١٤١١، وصحّحه الألباني في المشكاة رقم ١٢٠٥.

(٤٠٤) أخرجه البيهقيّ في الشُّعب ٢/٣٣١/١٩٥٧.

٤- روي عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (لا تهذُّوا القرآن كهذِّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب).

٥- قال بعضهم: إني لأفتتح السورة، فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها، حتى يطلع الفجر.

٦- روي عن عباد بن حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دخلت على أسماء رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ ﴾ [الطور: ٢٧]، قال: فوقَفَتْ عليها فجعلت تستعيذ وتدعو، فذهبتُ إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو ".

وشواهد ذلك كثيرة سيأتي بيانها فيما بعد بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

ثالثاً: اللغة:

- اللغة تدل على تضمن التدبر للوقوف مع الآيات والتأمل فيها من وجهين:

الأول: أن الوصول إلى أواخر الكلم ونهاياتها الذي هو أصل التدبر أمر يحتاج إلى وقوف مع الآيات وطول نظر وتأمل.

الثاني: مجيء التدبر على وزن التفعّل، وهو ما يحتاج إلى بذل جهد وإعمال عقل وإمعان نظر، وإلقاء سمع؛ للوصول إلى ما وراء الألفاظ من المقاصد والمعاني والدلالات والهدايات.

يقول **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين".

المحور الثَّالث : الأدلة على أنَّ الوقوف عند الآيات يشمل الإقبال والتَّفاعل بالقلب واللّسان والجوارح :

أوّلاً: الأدلة على أن الوقوف مع الآيات يكون بالقلب حضوراً وإيماناً وتعظيماً وإلقاء السمع، وإمعان النظر، وإعمال العقل، واستشعاراً بأنَّه المخاطب ظاهرة منها:

١- قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾[ق:٣٧]. فقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ دال على لزوم حضور القلب.

قال **السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾

أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضا ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى "(٤٠٥).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ دال على حضور السمع وإنصاته وإصغاؤه.

قال **ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " وقال **الضحاك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد"(٤٠٦).

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله).

---

(٤٠٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان ١/٨٠٧.

(٤٠٦) تفسير ابن كثير ٧/٤٠٩.

٢ – **قوله** سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ (محمد : ٢٤). فقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ يؤكد أنَّ التَّدبُّر يتضمّن حضور القلب، حيث جعل من موانع التَّدبُّر انغلاق القلوب، وهذا دليل كاف على تضمُّن التَّدبُّر لحضور القلب الذي هو من مقدّمات التّدبر، وهو من الوقوف عند الآيات بالقلب.

٣- قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠ ﴾

[يس: ٦٩ – ٧٠].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾ أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية"[٤٠٧].

(٤٠٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان ٦٩٨/١.

٤- قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ **:** " أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه "[٤٠٨].

٥- قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **:** " لا يجد طعمه ونفعه إلّا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقّه إلا الموقن "[٤٠٩].

٦- قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ **:** " إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم اللَّيل جملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنَّهار "[٤١٠].

٧- وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **:** " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلَّم به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ منه إليه،فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ

---

(٤٠٨) الدُّر المنثور ٦/٢٩٨.

(٤٠٩) صحيح البخاري ٢٤/٤١٠.

(٤١٠) التبيان في آداب حملة القرآن للنَّوويّ ص٢٨.

٨- وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند حديثه عما سماه التخصيص: " أن يقدر قارئ القرآن الكريم أنه المقصود بكل خطاب ورد فيه، فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك .. ".

٩- وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " ينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر).

ثانياً : الأدلّة على أنّ الوقوف عند الآيات يكون باللّسان ترتيلاً وترّسلاً وتحزُّناً وتكراراً وتفاعلاً بالسؤال والتّعوّذ عند مناسبة ذلك ما يلي :

١- قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ ﴾ (المزمل:٤) قال الرّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ الإسراع في القراءة يدلّ على عدم الوقوف على المعاني "(٤١١).

(٤١١) مفاتيح الغيب ١٥٤/٣٠.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ أي : اقرأه على تمهُّل، فإنَّه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : " كان يقرأ السُّورة فيرتّلها، حتّى تكون أطول من أطول منها ".

وفي صحيح البخاريّ، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّه سئل عن قراءة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فقال:" كانت مدّاً، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ﴾ يمد بسم اللَّه، ويمد الرَّحمن، ويمد الرَّحيم ".

وقال ابن جريج، عن ابن أبي مليكة عن أمّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أنَّها سُئلت عن قراءة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فقالت : " كان يقطّع قراءته آية آية، ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ (الفاتحة: ١-٢) رواه أحمد، وأبو داوود، والتّرمذيّ "(٤١٢).

---

(٤١٢)تفسير ابن كثير ٨/٢٥٠

٢- قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ ﴾ (الإسراء :١٠٦)، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(على مكث) : على تؤدة[٤١٣].

٣- كانت قراءة النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كما نعتتها أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت : "كانت قراءة رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مفسَّرة حرفاً حرفاً "[٤١٤].

٤- عن حفصة زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، أنها قالت: «كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقرأ في السورة، فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها» [٤١٥].

٥- ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا»[٤١٦].

---

(٤١٣)جامع البيان ٥٧٥/٧

(٤١٤)أخرجه التّرمذيّ وصححه ١٨٥/٥ ح٢٩٢٣.

(٤١٥) أخرجه مسلم ١٥١/٥، برقم ١٧٤٦.

٦- ما روي عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا»[(٤١٧)].

٧- أخرج مسلم عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «صليت مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً ، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ»[(٤١٨)].

٨- أخرج النسائي وابن ماجة عن أبي ذر قال: «قام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي قوله تعالى: ﴿إن

---

(٤١٦) أخرجه ابن ماجه(٤٢٤/١، رقم ١٣٣٧)، والبيهقّي في شعب الإيمان (٣٦٢/٢، رقم ٢٠٥١)، وأبو يعلى(٤٩/٢، رقم ٦٨٩)، وقال ابن كثير :"وفي الحديث كلام طويل يتعلّق بسنده" فضائل القرآن ١١٤/١.

(٤١٧) أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف (٤٩/٢، رقم ٦٨٩).

(٤١٨) أخرجه مسلم ١٦٦/٥ رقم ١٨٥٠.

﴿تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨]»(٤١٩).

٩- قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : (إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه).

١٠- ورد ذلك أيضا عن عدد من الصحابة والتابعين كعائشة وسعيد بن جبير والربيع بن خثيم وغيرهم.

وقال ابن القيّم : " هذه عادة السَّلف يردد أحدهم الآية حتّى يصبح " (٤٢٠).

قال أبو حامد الغزاليّ : " وإذا لم يتمكّن من التّدبُّر إلا بترديد فليردد "(٤٢١).

١١- قال ابن مسعودرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعلقمة وقد عجل في القراءة : " فداك أبي وأمّي رتّل؛ فإنه زين القرآن "(٤٢٢).

---

(٤١٩) أخرجه النَّسائي ١٤٢١/٤ ح١٠١٨، وابن ماجه ٣٢٠/٤ ح١٤١١.

(٤٢٠) مفتاح دار السَّعادة ٢٢٢/١.

(٤٢١) إحياء علوم الدّين ٩٢/١.

١٢- عن أبي جمرة قال: قلت لابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا :" إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث فقال: لأن اقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إليّ من أن أقرأ كما تقول "(٤٢٣).

قال الآجريرَحِمَهُٱللَّهُ **:** " القليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبره أحب إلى من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، فظاهر القرآن يدل على ذلك والسنة وأقوال أئمة المسلمين".

وقال ابن مفلحرَحِمَهُٱللَّهُ : " أقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة، وأكمله أن يرتل القراءة ويتوقف فيها ".

قال **الإمام الغزالي**رَحِمَهُٱللَّهُ : " البكاء مستحب مع القراءة .. وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره

---

(٤٢٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف ٢/٢٥٥، برقم ٨٧٢٤

(٤٢٣) أخرجه عبد الرَّزَّاق ٢/٤٨٩،رقم٤١٨٧.

حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب".

١٢- يقول إسحاق بن إبراهيم عن الفضيل بن عياض : " كانت قراءته حزينة شهيّة بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنَّة يردد فيها ويسأل "(٤٢٤).

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ [التين: ٨] فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠ ﴾ [القيامة: ٤٠] فليقل بلى ومن قرأ والمرسلات فبلغ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠ ﴾ [المرسلات: ٥٠] فليقل آمنا بالله).

عن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : قال: لمَّا نَزَلَتْ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ۞فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ

(٤٢٤) سير أعلام النبلاء ٢/٦٦٢.

رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦] قال رسولُ الله ﷺ: (اجْعلُوهَا فِي رُكوعِكم)، ولمَّا نَزَلَت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١] قال: (اجعلوها في سُجُودِكم) ..

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا وموقوفا (إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١] قال: سبحان ربي الأعلى).

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: لما قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن على أصحابه حتى فرغ، قال: (مالي أراكم سكوتا؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا. ما قرأت عليهم من مرة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾، إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد).

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه ذكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه.

روي عن عباد بن حمزة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: دخلت على أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، قال: فوقفت عليها فجعلت تستعيذ وتدعو، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو".

روي عن **الحسين الكرابيسي** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: بت مع الشافعي ليلة، فكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمئة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا بآية عذاب إلا تعوذ، وكأنما جمع له الرجاء والرهبة جميعاً..

يستفاد منه مشروعية التأمين بعد قراءة الإمام للفاتحة، فهو اقتداء وامتثال وهو من التدبر بلا شك؛ لأنه ناتج عن حضور القلب وفهم المعنى المقصود وهو سؤال الهداية.

المحور الرابع: الدَّليل على أنَّ التَّدبُّر شامل للتَّأمُّل فيما وراء النَّص:

والدليل على أن التدبر شامل للتأمل فيما وراء النص من إدراك المغزى، وفهم المعنى، واستخراج الدلالات والهدايات عدة أمور هي:

أولاً: إدراك مغزى الآيات:

لأن القرآن الكريم له مقاصد وغايات جاء لتحقيقها في حياة الأفراد والمجتمعات وهي غايات عامة، فلابد أن يكون من غرض المتدبر الوقوف على مقاصد الآيات وغاياتها ليدركها ويحققها في نفسه.

قال **د. أحمد آل سبالك**: " أما المعنى الاصطلاحي لتدبر القرآن كما ورد في كتب التفسير فهو التفكر في غايات القرآن ومقاصده التي يرمي إليها ".

وقالت **الدكتورة رقية العلواني**: "والتدبر إعمالُ الذهن والفكر للتوصلِ إلى مقاصدِ الآياتِ وأهدافها، وما ترمي إليه ".

ثانياً: فهم المعنى:

لأن التدبر يستلزم فَهْم معاني الآيات؛ كما يقول **ابن جرير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ - : " مُحال أنْ يُقَال لمن لا يَفهم ما يُقَال له، ولا يَعْقِل تأويلَه: "اعتبرْ بِما لا فَهْم لك به، ولا مَعْرفة مِن القيل والبيان"! إلا على معنى الأمْرِ بأنْ يَفْهَمه، ويفقهه، ثم يتدبره، و يعتبر به، فأَمَّا قَبْل ذلك فمستحيلٌ أَمْرُهُ بتدبُّره، و هو بمعناه جاهِلٌ " (٤٢٥).

قال **الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " إِنَّ التدبر هو التأمُّل؛ لفهم المعنى .. " (٤٢٦).

ثالثاً: استخراج دلالاتها وهداياتها: لأنها هي أواخر الكلم ونهاياته وهي المقصودة أصلاً، فلابد أن يتضمنها التدبر، وهي ما يسمى بالاستنباط الذي هو استخراج ما خفي من النص القرآني الظاهر المعنى (٤٢٧).

(٤٢٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٨٢/١.

(٤٢٦) فتح القدير ٩٩٤/١.

(٤٢٧) انظر منهج الاستنباط ص١٠٢.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " معنى ﴿ يتدبَّرون القرآن ﴾ يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق"(٤٢٨).

قال عبد الرحمن حبنكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " التدبر: هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة "(٤٢٩).

وقال د. أحمد آل سبالك: " والتدبر يعني ألا يقف القارئ على ظاهر المعنى بل يتطلب منه التفكر بعمق، والتأمل بإمعان إلى الجوهر وإدراك المعنى المقصود من حيث خصوصية المعنى مع شموله لجميع الظروف والأحوال ".

---

(٤٢٨) التحرير والتنوير ١/٩٩٤.

(٤٢٩) قواعد التَّدبُّر الأمثل ص١٠.

ومما يشهد لدخولها في التدبر ما استدل به **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله:

" فصل في ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه واكشف لي حجابه وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه قلت: سأضرب لك أمثالا تحتذي عليها وتجعلها إماما لك في هذا المقصد.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات ٢٤ - ٣٠].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال ذلك ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك، فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار:

- فكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم؟.

- وكيف جمعت الضيافة وحقوقها؟.

- وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة؟.

- وكيف تضمنت عَلَمًا عظيما من أعلام النبوة؟.

- وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة؟.

- وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه؟.

- وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة؟.

- وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.

- وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الأخر.

- وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة ..... "[(430)].

ثم فصل في بيانها بما لا حاجة لذكره هنا.

فظهر بذلك أن استخراج الدلالات وأسرار التعبير من التدبر، ولذلك قال في سياق كلامه: " فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على ... "

زاد المهاجر إلى ربه ص٦٣- ٦٨.

المحور الخامس: أدلة وشواهد التفاعل مع الآيات بقصد الانتفاع والامتثال بها إيماناً علماً وعملاً:

وهذا هو بيت القصيد ومحط الراحل وغاية المتدبر.

وإنما قلنا بتضمن التدبر لقصد الانتفاع والامتثال لأن الغاية من قراءة القرآن هي الانتفاع والامتثال والتَّذكُّر والاتّباع، والتدبر وسيلة لذلك فلابد أن يتضمنه التدبر الذي هو مقصد نزول القرآن.

أما قصد مجرد التلاوة، أو مجرد العلم بالمعنى دون قصد الانتفاع والامتثال فذلك أمر قاصر عن التدبر.

والانتفاع بها؛ أي: إيماناً وعلماً وعملاً

أما الإيمان به: فهو يشمل الإيمان والتصديق ابتداءً بأنه كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنزله هدى للناس، واستحضار مقاصده العامة، وأنه لا سبيل للنجاة إلا به، كما يقصد به ما تورثه القراءة من زيادة الإيمان والخشية، والتعظيم الباعث على الخضوع والانقياد، وهو أعظم غايات الانتفاع بالقرآن وثمراته، ويشهد لذلك:

١- قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (الأنفال:٢).

٢- قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾ (التَّوبة :١٢٤).

فتأمَّل التَّعبير في الآيتين بقوله ﴿زَادَتْهُمْ﴾ مما يدل على أن أعظم آثار القرآن هو الإيمان، وذلك لا يكون إلا بالتَّدبر، فالإيمان إذاً مقصد من مقاصد المتدبر للقرآن.

٣- قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

فتأمَّل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ ثم عقبها بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ مما يدل على أنَّ التلاوة المصاحبة للتَّدبُّر مؤدية للإيمان.

وأما التعظيم: فهو تعظيم الكلام وتعظيم المتكلم به وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، تعظيماً يبعث على الخضوع والانقياد والامتثال، تأمل كيف كان حال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند نزول القرآن عليه؟

فعن عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن الحارث بن هشام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سأل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ :(أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول)..

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: (كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربَّد له جِلده). (أي تغير بمثل القشعريرة).

فانظر كيف كان عظم أمر الوحي في نفس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .

وتأمل قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في وصف أهل القرآن:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر:٢٣].

فانظر كيف وصفهم بالقشعريرة من خشيتهم لربهم وتعظيمهم له وتعظيماً لكلامه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عند سماعه وقراءته، وذلك الذي بعثهم على الخضوع له والانقياد، ولذلك قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

- وبهذا نعلم بأن التدبر لا يكون إلا بالتعظيم.

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أعمال الباطن في التلاوة: " **فالأول:** فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .... فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه. **والثاني:** التعظيم للمتكلم فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وإن في تلاوة كلام الله عَزَّوَجَلَّ غاية الخطر".

أما **تفاعل الجوارح**: فيكون بعدة أمور: منها: القشعريرة يشهد لذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الجلود: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢٣] فتأمل كيف ذكر الجلود وتفاعلها بالقشعريرة.

ومنها الأزيز ودمع العين والنشيج: وقد أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الذين تدمع عيونهم عند سماع القرآن فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة:٨٣].

وروى أن رسول الله ﷺ كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ " اقرأ علي قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً " رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: حسبك الآن "

وفي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : " وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن " ..

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمر بالآية من ورده بالليل فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضاً ..

وعن ابن أبي مليكة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صحبت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من مكة إلى المدينة، فكان يصلي ركعتين، فإذا نزل قام شطر الليل ويرتل القرآن حرفاً حرفا، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب.

وروي عن بعضهم أنه يغشى عليهم، وبعضهم يصعق، ولكن ذلك لم يكن في الصحابة، قالت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: " ما كان أحد من السلف يغشى عليه، ولا يصعق عند قراءة القرآن، وإنما يبكون ويقشعرون، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله ".. .

ومنها السجود: وقد أثنى الله على الذين يخرون سجداً إذا ذُكِّروا بآيات ربهم أو تليت عليهم:

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨]

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ١٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

[الإسراء: ١٠٩].

وتأمل كيف شرع السجود عند هذه الآيات كأنه تفاعل من المستمع بحضور المشهد ودخوله مع الموصوفين، وهو من التفاعل الدال على التدبر لأنه امتثال واقتداء.

قال الإمام **الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلام نفيس حول التفاعل مع الآيات قلباً ولساناً وجوارحاً:" تأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة: فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت.

وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته.

وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كذكرهم لله عَزَّ وَجَلَّ ولداً وصاحبة يغض صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم.

وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها.

وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها.

فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه:

فإذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ ﴾ [يونس:١٥] ولم يكن خائفاً كان حاكياً.

وإذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٤ ﴾ [الممتحنة:٤] ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً.

وإذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢ ﴾ [إبراهيم:١٢]

فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة.

فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان ... " .

- وأما العلم فالمقصود به أمران:

الأول: العلم بما تضمنته الآيات من المعاني والدلالات.

الثاني: العلم بما تضمنته الآيات مما يلزم الامتثال له من الأوامر والنواهي، وما يلزم الاتعاظ به من الوعد والوعيد، والعبر والسنن الإلهية.

ويشهد لذلك:

١- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال **السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية: " ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم. وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعُلِم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها"(٤٣١).

٢- ما ورد عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه مكث في تعلم سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مكث في تعلمها ثماني سنين(٤٣٢).

٣- أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إذا سمعت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه (٤٣٣).

قال الغزالي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: " إن سمع قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وقصص الأولين علم أنها لم ترو للتسلية والسمر، وإنما للعظة والاعتبار، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي

---

(٤٣١) تفسير السعدي ٦٣١/١.

(٤٣٢) أخرجه البيهقيّ في الشعب ١٨٩٩/٦، ١٩٠٠.

(٤٣٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢٠٠/٤ رقم ١٠٣٣

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وأمته، لذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود ١٢٠] ".

وأما الامتثال فهو يشمل العمل والسلوك، وهو ثمرة الإيمان وعاقبة التدبر.

والقرآن - بكونه مثاني - مليء بالأساليب المحفزة للامتثال والعمل، ومنها أسلوب الأمر والنهي، وأسلوب الجزاء والعقاب، وأسلوب الوعد والوعيد، وأسلوب الترغيب والترهيب، وهذه الأساليب وغيرها دالة على أن القرآن أنزل للامتثال والعمل، وهذا يؤكد لنا أن التدبر لا يكون إلا بالإقبال على القرآن بنية الامتثال والعمل.

وهذا هو منهج النبي ﷺ والسلف الصالح، وغاية مرادهم من القرآن، ويشهد له:

١- ما أخرجه مسلم عن سعد بن هشام بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقلت يا أم المؤمنين: أنبئيني عن خلق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ . قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : ألست تقرأ القرآن قلت: بلى. قالت

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : فإن خلق نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان خلقه القرآن.
فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا :ألست تقرأ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ ﴾[المزمل:١] قلت: بلى. قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : فإن الله عَزَّ وَجَلَّ افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حولا وأمسك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة.

- ففي هذا الحديث دلالة على منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع القرآن وهو التخلق بأخلاقه، والعمل بأوامره، ولذا حين نزلت عليه سورة المزمل عرف حقيقة الأمر وقدّره، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة».

٢- ويشهد لذلك أيضاً ما أخبرت به عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : " كان خلقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه".

يصدق ذلك القرآن بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

٣- وروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال له رجل هيّه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب حتى هم به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩] وإن هذا من الجاهلين. يقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: والله ما جاوزها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ).

٤- وما روي عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن).

٥- وقال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (كان الفاضل من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به).

٦- وقال **أبو عبد الرحمن السلمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أحد تلاميذ الصحابة: إنما أخذنا القرآن من قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً.

٧- وقال **الحسن البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل).

وقد أكد السلف والعلماء على أن يكون هذا هو حال حامل القرآن وتاليه بحيث يظهر أثر القرآن عليه خلقاً وعملاً ومن ذلك:

١- قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرِّطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبِصمْته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا، ولا ينبغي له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً ".

٢- عن **الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن).

٣- قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أخلاق حملة القرآن: " يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه ، - همته متى أكون من المتقين؟- متى أكون من الخاشعين؟ - متى أكون من الصابرين؟ - متى أزهد في الدنيا؟- متى أنهى نفسي عن الهوى؟ ".

فهذا يؤكد لنا أن القارئ للقرآن لابد أن يكون مستصحباً في تلاوته نية الامتثال والعمل وهذا هو التدبر.

تنبيه

إنّ التأثر البدني من سماع القرآن، كالقشعريرة التي تصيب الإنسان والخشوع الذي يلحقه - قد يكون بسبب التدبر وقد لا يكون. فالتدبُّر عمليّة عقليّة تحدث في الذهن، والتأثر انفعالٌ في الجوارح والقلب، فهذا التأثر بسبب التدبر.

وقد يكون تأثر الإنسان بسبب روعة القرآن ونظمه.

المبدأ الثاني: الموضوع:

- **معنى موضوع العلم:**

موضوع كلّ علم : ما يبحث فيه عن عوارضه الذَّاتيّة

(موضوع كلّ علم) شرعيًّاً كان أو عقليًّاً : **(ما)** أي الشيء الّذي **(يبحث فيه)** أي في ذلك العلم **(عن عوارضه)** أي عوارض موضوعه **(الذَّاتيَّة)** أي الأحوال العارضة للذّات، دون العوارض اللَّاحقة لأمر خارج عن الذَّات.

ومسائل كلّ علم معرفة الأحوال العارضة لذات موضوع ذلك العلم:

- موضوع علم الطّب مثلاً : هو بدن الإنسان، لأنَّه يبحث فيه عن الأمراض اللَّاحقة له، ومسائله : هي معرفة تلك الأمراض.
- موضوع علم النَّحو : الكلمات، فإنَّه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء. ومسائله : هي معرفة الإعراب والبناء.

- موضوع علم الفرائض التَّركات، فإنَّه يبحث فيه من حيث قسمتها، ومسائله : هي معرفة حكم قسمتها.

والعلم بموضوع علم ليس بداخل في حقيقة ذلك العلم كما قلنا في بدن الإنسان والكلمات والتَّركات.

إذا علمت ذلك : فالعوارض الذَّاتيَّة هي الَّتي تلحق الشيء لما هو - أي لذاته - كالتَّعجُّب اللَّاحق لذات الإنسان، أو تلحق الشَّيء لجزئه، كالحركة بالإرادة اللَّاحقة للإنسان بواسطة أنَّه حيوان، أو تلحقه بواسطة أمر خارج عن المعروض مساوٍ للمعروض، كالضَّحك العارض للإنسان بواسطة التَّعجُّب.

وتفصيل ذلك : أنَّ العارض إمَّا أن يكون لذات الشَّيء، أو لجزئه، أو لأمر خارج عنه.

والأمر الخارج : إمَّا مساوٍ للمعروض، أو أعمّ منه، أو أخصّ، أو مباين.

أمَّا الثَّلاثة الأول - وهي العارض لذات المعروض، والعارض لجزئه، والعارض المساوي - فتسمَّى أعراضاً ذاتيّة؛ لاستنادها إلى ذات المعروض.

أمَّا العارض للذات : فظاهر.

أمَّا العارض للجزء: فلأنّ الجزء داخل في الذّات، والمستند إلى ما في الذّات مستند إلى الذّات في الجملة.

أمَّا العارض للأمر المساوي : فلأنّ المساوي يكون مستنداً إلى ذات المعروض، والعارض مستند إلى المساوي، والمستند إلى المستند إلى الشَّيء مستند إلى ذلك الشَّيء، فيكون العارض أيضاً مستنداً إلى الذّات.

والثَّلاثة الأخيرة العارضة لأمر خارج غير مساوٍ للمعروض تسمّى أعراضاً غريبةً؛ لما فيها من الغرابة بالقياس إلى ذات المعروض.

ثمَّ تارة يكون الأمر الخارج أعمّ من المعروض، كالحركة اللَّاحقة للأبيض بواسطة أنَّه جسم، وهو أعمُّ من الأبيض وغيره. وتارةً يكون أخصَّ، كالضحك العارض للحيوان بواسطة أنَّه إنسان، وهو أخصُّ من

الحيوان. وتارة يكون مبايناً للمعروض كالحرارة العارضة للماء بواسطة النَّار(٤٣٤).

وموضوع التَّدبُّر هو القرآن الكريم، كما هو معلوم، وهذا ظاهر في نصوص الآيات الّتي توجّه التَّدبُّر للقرآن الكريم؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ (النِّساء : ٨٢)، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ (ص : ٢٩)، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ (محمَّد : ٢٤)، حتَّى في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ (المؤمنون : ٦٨)، ذهب المفسّرون إلى أنّ معنى القول هو القرآن(٤٣٥).

والمعنى في ذلك ظاهر أيضا، فالقرآن العظيم : كلام اللَّه تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

---

(٤٣٤) شرح الكوكب المنير، ابن النَّجّار الفتوحي.

(٤٣٥) انظر : تفسير ابن كثير (٥/٤٨٣)، ومعالم التَّنزيل للبغويّ(٥/٤٢٣)، وتفسير السَّعدي ص٥٥٤.

مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ (التَّوبة : ٦)، وليس كلام الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ككلام أحد، وهو محفوظ كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ (الحجر:٩)، فحتَّى السُّنَّة المتواترة لم تحفظ كل ألفاظها، بل روي كثير منها بالمعنى، فالتَّأمُّل فيها ليس كتدبُّر القرآن، فضلاً عمَّا دونها.

والقرآن قطعيّ الثبوت، ولم يختصّ كلام آخر بمثل هذا، فحتّى سنة النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - وهي أرفع كلام البشر حفظاً - فيها الصّحيح والضّعيف، فما بالك بما دونها؟! ولهذا ولغيره خُصّ القرآن الكريم بالتَّدبُّر.

فالمطلوب هو تدبُّر معانيه، والتَّأمُّل في دلالاته، والنَّظر في أحكامه، وليس هذا لغيره من الكلام مهما بلغت منزلته، وهذا أحد أسباب شرف علم التَّدبُّر؛ إذ موضوعه أشرف الكلام، وهو كلام الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ، ولا يمنع ذلك من تدبُّر سنة النَّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، ولكن جرت عادة العلماء أن يجعلوا للسنَّة : التأمل والتَّفكُّر، ويجعلوا للقرآن الكريم : التَّدبُّر.

المبدأ الثالث: نسبة علم التَّدبُّر إلى العلوم الأخرى:

أمَّا نسبة علم التَّدبُّر إلى العلوم الأخرى فهو علم من العلوم الشَّرعيَّة المختصَّة بالقرآن الكريم، والتَّبصُّر والتَّأمُّل فيه.

المبدأ الرابع: اسمه:

علم التَّدبُّر، علم تدبُّر القرآن.

المبدأ الخامس: واضع علم التّدبُّر:

أصل التَّدبُر وقواعده علمٌ قديمٌ بدأ مع نزول القرآن الكريم، فقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، وأثنى على من تدبَّر كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، كما لا يخفى على المتأمل النماذج المتواترة عن سيد الخلق نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهناك أقوال وإشارات وتنبيهات من الصَّحابة والتَّابعين على بعض القواعد والأصول، ومع بداية عصر التَّدوين كانت هذه الأصول والقواعد مبثوثة في كتب أهل العلم، ولا سيّما كتب التَّفسير وعلوم القرآن، فقد كان علم التَّدبُّر جزءاً من التَّفسير.

من أقدم من وجدتُّه استخدم هذا المصطلح هو ابن برَّجان(٤٣٦) في كتابه (تنبيه الأفهام إلى تدبُّر الكتاب والتَّعرُّف على الآيات والأنباء

---

(٤٣٦)أبو الحكم ابن برّجَان: عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي، متصوف غالٍ، له كتاب عين اليقين، وشرح أسماء الله الحسنى، وغيرهما، توفي سنة (٥٣٦هـ) بمراكش، ينقل عنه ابن عطية والبقاعي في تفسيريهما كثيرا، وهو غير محمد بن برجان التابعي الراوي عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره. انظر ترجمته في: لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، (٤/١٣-١٤)، وفوات

العظام)[٤٣٧]، وكتابه هذا كتاب تفسير لم يكتمل، وأكثر كلامه فيه على طريقة أرباب الأحوال والمقامات.

وفي وقتنا الحاضر لقي التَّدبُّر اعتناء لا بأس به مقارنة بالعصور السَّابقة، سواء على مستوى التأليف أم التّدريس أم المؤتمرات والملتقيات أم إنشاء المؤسَّسات ، وإن كان ما زال قليلاً في حقّ هذه القضيّة الكبرى.

الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، (٣٢٣/٢)، والأعلام، خير الدين الزركلي، (٦/٤).

(٤٣٦) طبع بتحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلميّة، بيروت.



تزخر السَّاحة العلمية بالمؤلفات المعنيَّة بتدبر القرآن الكريم، ما يؤكِّد العناية بالقرآن الكريم عامَّة، والاهتمام بتدبر القرآن الكريم خاصَّة.

وتتسم تلك المؤلفات بالتَّنوع في تناول موضوع تدبر القرآن الكريم، من حيث اختلاف زوايا النَّظر في الموضوع، ومن حيث تعريف مفهوم التدبر والمصطلحات ذات العلاقة، ما دعا إلى رصد تلك المؤلفات، ودراستها عن قُرب.

وإليك بعض هذه المؤلفات التي وقفت عليها، وقد رتبتها هجائياً بعد دراسة فاحصة متأنّية لها:

- أبرز أسس التَّعامل مع القرآن، أ.د. عيادة أيُّوب الكبيسي، دار البحوث للدِّراسات الإسلاميَّة وإحياء التُّراث (دبي).
- إتحاف القاري بوسائل التدبر لكلام الباري، لعبدالرحمن بن عبد العزيز الدهامي، طبعته مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ، وهو كتاب رائع، وفيه جهد كبير.
- الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، أ.د. عبد اللَّه بن عبد الغني سرحان، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).
- أسوار العفاف : قبس من سورة النُّور، د. عصام بن صالح العويد، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرِّياض).
- إضاءات حول تدبر القرآن، د. عبدالله بصفر، دار نور المكتبات (جدَّة).
- أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجيَّة في التَّدبُّر والتدبير، طه جابر فياض العلواني، دار السَّلام (القاهرة).

- أفلا يتدبرون القرآن، أ.د. ناصر بن سليمان العمر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).
- أفلا يتدبَّرون القرآن، حسن عز الدين الجمل، دار الفكر العربي (القاهرة).
- أفلا يتدبرون القرآن، د. أسماء بنت راشد الرويشد، مدار الوطن (الرِّياض).
- أفلا يتدبرون القرآن، هشام السَّيِّد المغاوري وعبد الرَّؤف حسن خليل، مدينة الطيبات العالمية للعلوم والمعارف (جدَّة)
- انشراح الصدور في تدبر سورة النور، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، دار العاصمة، (الرياض).
- بدائع المعاني: (آيات الصيام: تدبر وتحليل)، للدكتور عبد المحسن بن عبدالعزيز العسكر، صادر عن الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَشر والتَّوزيع (الرِّياض) ١٤٣٠هـ.
- التِّبيان في تدبُّر القرآن، أ.د. أحمد عيسى المعصراوي و أ.د. عبد الكريم إبراهيم صالح، دار السَّلام (القاهرة).

- تحريك الجنان لتدبر وتوقير أم القرآن، د. عصام بن صالح العويد، من إصدارات الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرياض).
- تحقيق الوصال بين القلب والقرآن، د. مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ للنَّشر والتَّوزيع والتَّرجمة (القاهرة).
- تدارك بقية العمر في تدبر سورة العصر، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللَّاحم، دار العاصمة (الرِّياض).
- تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، د. رقية طه العلواني، (رأس الخيمة).
- تدبر القرآن الكريم ودوره في النهوض الحضاري في المجتمعات الإسلاميَّة، فؤاد عبد الرحمن البنَّا، مؤسَّسة نفت (اليمن).
- تدبر القرآن الكريم وقفات ولفتات، د.عبد الله الرحيلي.
- تدبر القرآن من علامات الإيمان، وليد بن محمد سلامة، دار ابن حزم (القاهرة).
- تدبر القرآن وأثره في تزكية النُّفوس، د. محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الاستقامة (القاهرة).

- تدبر القرآن، الشيخ د. صالح بن فوزان الفوزان، دار القاسم للنشر، (الرياض).
- تدبر القرآن، سعيد عبد العظيم، دار الخلفاء الراشدين (الإسكندرية).
- تدبر القرآن، لسلمان بن عمر السنيدي، وله ملخص له في كتيب صغير، وكلاهما صدرا عن مجلة البيان، وكتاب السنيدي هو محاولة جادة في وضع لبنات علم أصول التدبر.
- تدبر القرآن: تحرير وتأصيل، بحوث الملتقى الأول لتدبر القرآن، طبعته الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.
- تدبر القرآن الكريم: مفهومه، أساليبه، أسبابه، آثاره، د. فهد الوهبي، بحث منشور في مجلة الدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.
- تدبر القرآن الكريم : دوافعه وموانعه، رسالة ماجستير للشيخ عبداللطيف التويجري في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٣٦هـ.

- تدبُّر القرآن الكريم عند الإمام ابن القيِّم ، رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرِّياض).
- تدبُّر االقرآن الكريم وأثره في تزكية المسلم، إبتسام حسين عبد الحفيظ المحبشي، رسالة ماجستير في جامعة الإيمان(اليمن).
- تدبر قرآن، أمين أحسن إصلاحي، وهو تفسير بلغة الأوردو، في ثلاثة مجلدات.
- التَّدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم : قراءة في المنهجين التجميعي والكشفي، علي آل موسى، دار كميل (بيروت).
- التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير: دراسة بلاغية تحليلية على آيات من الذكر الحكيم، للدكتور عبدالله عبدالغني سرحان، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم مركز تدبر، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض) ١٤٣١هـ.
- تدبر سورة الفرقان، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.

- تدبر سورة الكهف، أ.د. ناصر العمر، مؤسَّسة ديوان المسلم (الرياض).
- تدبر سورة الكهف، د. رقية طه العلواني.
- تدبر سورة النُّور، أ.د. ناصر العمر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).
- تدبر سورة يوسف، أ.د. ناصر العمر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).
- تدبر في أمثال القرآن، مصطفى عبد اللَّه حسين أحمد، (القاهرة).
- التدبر في سور القرآن الكريم : سورة الفاتحة وسورة البقرة، سامية طنطاوي، دار الكتّاب الحديث (القاهرة).
- التَّدبر : مفهومه وأركانه وأنواعه، د. خالد بن عثمان السَّبت، مجلة البحوث الإسلامية، عدد ٩٩ (ربيع أول – جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ).
- التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، للشيخ محمد المغراوي، وقد صدر حديثًا في أربعين مجلدًا.

- التَّعبير القرآني، د. فاضل السَّامرائي، دار عمَّار (عمَّان).
- تعلم القرآن الكريم وتعليمه وتدبره، تأليف: أحمد حسين عبد الكريم، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، وهو من سلسلة بعنوان: (كيف يُحيي القرآن الكريم المسلمين).
- تعليم تدبر القرآن الكريم، للدكتور هاشم الأهدل، صدر عن مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي بجدة.
- تفسير سورة الحمد مع تطبيق عملي لقواعد تدبر القرآن الكريم، منى محمد الشافعي، دار اليسر (القاهرة).
- ثلاثون مجلسا في التدبر، مجالس علمية وإيمانية، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، لعدة مشايخ، ثلاثة أجزاء، من إصدارات الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).
- جماليات النَّظم في قصة المراودة في يوسف، د. عويض بن حمود العطوي، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

- حتى نتدبر منهاج الله، د. عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي، (الرياض).
- الحدائق الحسان في تدبر آي القرآن، عبد المحسن بن إبراهيم العمران، مطابع الفسطاط الحديثة (الرياض).
- الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، طبعته دار العاصمة (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
- حصاد سبع سنوات من التَّدبُّر : مجلد يجمع التَّدبُّرات في الأجزاء السَّبع لكتاب " ليدبَّروا آياته " مرتَّبة ومفهرسة، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرياض).
- الخارطة الذهنية للقرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجا، الطريقة الأسهل للتدبر والحفظ معا، د. إبراهيم بن عبدالله الدويش، مركز بناء للاستشارات التربوية والتعليمية.
- الحياة من جديد (دعوة لتدبر القرآن)، للدكتورة أسماء الرويشد.
- الخطاب القرآني المعاصر : دعوة لتدبر القرآن العظيم، جمال نصَّار حسين، دار الإسراء (عمَّان).

- دعوة إلى تدبر القرآن الكريم: كيف؟ ولماذا؟ لمختار شاكر كمال، مؤسسة الرسالة، الشركة المتحدة، بيروت.
- دعوة القرآن إلى التَّدبُّر من خلال الفاصلة القرآنيَّة، د. محمود شعبان إبراهيم مصطفى، رسالة دكتوراة في جامعة الأزهر (مصر).
- دليل فهم القرآن المجيد، أحمد بن مسفر العتيبي، مكتبة الرُّشد (الرِّياض).
- ربح أيام العمر في تدبر سورة العصر، أ.د. سليمان بن إبراهيم الَّلاحم، مقالة في مجلة جامعة الإمام، العدد: ٣٩،رجب ١٤٢٣هـ، ص: ١٦٩-١٩٨.
- شيفرة القرآن الكريم : ثورة في عالم التَّدبُّر والتَّفسير القرآني، ماجد حسن الحنبلي، عمَّان.
- الصوارف عن فهم وتدبُّر القرآن الكريم، د. محمد بن يوسف الجوراني أبو العالية.
- ضوابط أصولية في تدبر القرآن، يوسف أحمد البدوي، مجلة الجمعية الفقهية السعودية.

- طريقك إلى الاستمتاع بالقرآن : دراسة موضوعيَّة لألفاظ التِّلاوة والتَّدبُّر والتَّرتيل في الكتاب العزيز، عبد الرَّحمن بن محمد البردعي، دار طيبة الخضراء (مكة).
- علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره : منهج في تدبر القرآن، أحمد خالد يوسف شكري وعمران سميح نزال، دار الفرقان وجمعيَّة المحافظة على القرآن الكريم (عمَّان).
- العودة إلى القرآن : لماذا وكيف، د. مجدي الهلالي، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة (القاهرة).
- فقه قراءة القرآن، سعيد يوسف، مكتبة السُّنَّة (القاهرة).
- فن التدبر ، للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويد، من إصدارات مركز تدبر الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرياض).
- في رحاب القرآن، محمد مصطفى أمين أبو هاشم، دار النُّور المبين (عمَّان).
- في رحاب تدبر القرآن الكريم، مختار شاكر كمال، دار الفاروق، الأردن (عمَّان)، ٢٠٠٩م.

- قبسات من الكتاب والسنة: تدبر وظلال (٣ أجزاء)، د. عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي، الرياض.
- قبسات من تدبر القرآن الكريم، مختار شاكر كمال، دار الفاروق، الأردن (عمَّان).
- القراءة والتِّلاوة والتَّدبُّر والتَّرتيل (من سلسلة المفهومات القرآنية)، د. عبد الرَّحمن حللي، دار الملتقى (سوريا).
- القرآن الكريم والأصول في تدبُّره : تمعنات في تعاليمه وخصائصه، د. محمد حسين صفوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنَّشر (بيروت).
- قواعد التدبر الأمثل للقرآن الكريم، للشيخ عبدالرحمن حبَنكة الميداني، مجلد من مطبوعات دار القلم في دمشق، ذكر فيه سبعا وعشرين قاعدة لتدبر القرآن، مرسلة من غير ترتيب، وأغلبها قواعد في التفسير، وليس في التدبر.
- قواعد قرآنيَّة : خمسون قاعدة في النَّفس والحياة، د. عمر بن عبد الله المقبل، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

- القواعد والأصول وتطبيقات التَّدبُّر، د. خالد بن عثمان السَّبت، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).
- الكنز الثمين من تدبر العلَّامة محمد بن صالح العثيمين، ناصر القطامي، مجموعة آيات للإعلام القرآني (الرِّياض).
- كيف نتدبر القرآن، فواز زمرلي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
- كيف ننتفع بالقرآن الكريم: (خطوة نحو تدبر أمثل)، د. أحمد البراء الأميري، مؤسسة الريان، بيروت.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السَامرائي، دار عمَّار (عمَّان).
- ليدبروا آياته (حلقات برنامج ليدبروا آياته)، أ.د. ناصر العمر،من إصدارات الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).
- ليدبروا آياته (حصاد عام من التدبر)، سلسلة تصدر من الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، تسعة مجموعات هي حصاد رسائل

جوَّال تدبر التَّابع للمركز، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرِّياض).

- مبحث جليل على آية من التنزيل، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مطبعة المدني ، وتوجد منه نسخة في مكتبة الحرم النبوي الشريف وهو تفسير لهذه الآية رد فيه على المؤولة في العقيدة، والمتعصبة في الفقه.
- مبادىء أساسية لفهم القرآن، أبو الأعلى المودودي، الدَّار السعوديَّة للنَّشر والتَّوزيع (جدة).
- مبادىء تدبُّر القرآن الكريم، د. عبد المحسن بن زين المطيري، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرياض).
- متعة التَّدبُّر، د. إياد قنيبي وفريق العمل، دار بداية للنَّشر والتَّوزيع.

- مجالس القرآن : مدخل إلى منهج تدارس القرآن العظيم وتدبره من التلقي إلى التَّزكية، فريد الأنصاري، ألوان مغربيَّة للنَّشر والتَّوزيع (مكناس)، ومطبعة النَّجاح الجديدة (الدَّار البيضاء).
- مجالس قرآنيَّة : وقفات بيانيَّة ودلالات تربويَّة، د. عويض بن حمود العطوي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).
- المختارات من المناسبات بين السور والآيات، إبتسام بنت عمر العمودي، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).
- مداخل أساسية لتدبُّر القرآن، محمد محمد خليفة، قوت الأبرار للنَّشر والتَّوزيع (الاسكندرية).
- مدارج الحفظ والتَّدبُّر : أيسر الوسائل لحفظ القرآن الكريم وتدبُّره، أ.د. ناصر العمر، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).
- المدخل إلى الدراسات القرآنية: مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به، لأبي الحسن الندوي، دار الصحوة، القاهرة.

- المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، د. عصام العُويِّد، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرياض).
- مشروع الحياة من جديد (دعوة لتدبر القرآن)، د. أسماء الرويشد، مدار الوطن (الرياض).
- معارج التفكر ودقائق التدبر (تفسير تدبُّري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النُّزول وَفق منهج كتاب " قواعد التَّدبُّر الأمثل لكتاب الله ")، لعبد الرحمن الحبنكة الميداني، من إصدارات دار القلم بدمشق.
- معالم لفهم القرآن الكريم، د. عمر يوسف حمزة، مركز الكتاب (القاهرة).
- المعين على تدبُّر الكتاب المبين، سعد أحمد حنتوش، مركز المعين.
- المعين على تدبر الكتاب المبين، لمجد مكي، وهو تفسير تدبري مختصر في مجلد، دار نور المكتبات (جدة).

- مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة : عشرة مفاتيح لتحقيق التَّدبُّر الأمثل، د. خالد اللاحم، دار المنهاج، الرياض.
- مفاتيح فهم وتدبُّر القرآن الكريم وتحقيق النَّجاح في الحياة، سعيد غبد العظيم، دار الإيمان (الإسكندريَّة).
- مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم، د. صلاح عبد الفتَّاح الخالدي، دار القلم (دمشق).
- مفهوم التدبر: تحرير وتأصيل (أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم)، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم الذي نظمه مركز تدبر في الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.
- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٧هـ.
- مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن، د. محمد بن زيلعي هندي، صدر عن معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، بحث محكم.

- مقرّر تدبر القرآن الكريم للدّراسات العليا، إشراف أ.د. محمد بن عبد العزيز العوجي رئيس فريق إعداد المنهج المقرَّر، دار طيبة الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، المملكة العربية السَّعودية،(مكة المكّرمة).
- مناهج معاصرة للتدبر، نايف الزهراني.
- من أجل تدبر القرآن، سلمان السنيدي، مجلة البيان، وهو اختصار كتابه

السابق (تدبر القرآن،) كتبه لطلاب تحفيظ القرآن.

- منزلة التَّدبُّر، جمال القرش، مكتبة طالب العلم.
- منهج تدبر القرآن الكريم، أ.د. حكمت بن بشير ياسين، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، وهو كتاب ذكر فيه وسائل التدبر فقط.
- منهج الإمام محمد بن عبدالوهاب في تدبر القرآن، لمحمد آل عابد، دار الطرفين.

- منهجيَّة التَّدبُّر في القرآن الكريم وتطبيقاتها في مجال التَّربية العقليَّة لطالبات المرحلة الثَّانويَّة، إيمان زكي أسرة، رسالة ماجستير في كلِّيَّة التَّربية لجامعة أمِّ القُرى (مكَّة).
- مواجهة الصَّدمات النَّفسيَّة في سورة مريم، فوزية الخليفي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرياض).
- المواهب الرَّبَّانيَّة من الآيات القرآنيَّة، الشَّيخ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).
- نحن والقرآن : مقدمات في أصول التَّدبُّر : دراسة منهجيَّة نقديَّة في علم التَّفسير، مصطفى بو هندي، مطبعة النَّجاح الجديدة (الدَّار البيضاء).
- النَّص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التَّدبُّر : مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التَّدبُّر القرآني، د. قطب الريسوني، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة (المغرب).

- نظرات في كتاب الله الحكيم، بسَّام جرار، مركز نون للأبحاث والدِّراسات القرآنيَّة.
- نفائس التدبر، جمال إبراهيم القرش، الدار العالمية للنشر والتوزيع (الإسكندريَّة).
- نمِّ تفكيرك في تدبُّر القرآن الكريم : إجابة أكثر من خمس مئة سؤال على مهارة المقارنة والاستدلال والاستنباط، جمال القرش، الدَّار العالميَّة للنَّشر والتَّوزيع (الإسكندريَّة).
- هكذا عاشوا مع القرآن : قصص ومواقف، د. أسماء بنت راشد الرويشد، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الحضارة).
- هدايات القرآن الكريم : صياغة معاصرة لأكثر من عشرة الآف هِداية "بصائر للسائرين وتذكرة للمتدبرين".
- وسائل عملية لتدبُّر القرآن، عبد اللَّطيف التويجري، مجلَّة البيان (الرِّياض).
- وقف التَّدبُّر : معناه وأنواعه وأحكامه، د. محمود بن عبد الجليل رزون، مكتبة العلوم والحكم، (مصر – محافظة الشَّرقيَّة).

- يا بنيّ : موعظة لقمان لابنه، د. عويض بن حمود العطوي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).
- القرآن: تدبر وعمل، إعداد مركز المنهاج للاشراف والتدريب التَّربوي، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.
- القرآن: تفسير وتدبر وعمل، مختصر المنهاج لتفسير ابن كثير، إعداد مركز المنهاج للاشراف والتدريب التَّربوي (الرياض).

المبدأ السادس: حكم الشَّرع في التَّدبُّر:

تدبُّر القرآن فضيلة دعا الشّارع إليها، ورغّب فيها الرّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وجعل الله الهداية والنّجاة في ثمرة التّدبُّر وهي التّذكُّر والاتباع، وهو واجب في الجملة على أهل الإيمان، وهم مأمورون به؛ لأنَّهم أهل الانتفاع، وكلُّ واحدٍ منهم بحسب قدراته وطاقاته الإدراكيّة القابلة للاكتساب والزّيادة، فلا يعذر أحد بعدم التَّدبُّر، بل إنَّ التَّدبُّر المأمور به في القرآن عام؛ يشمل المنافقين، والكفّار، والمؤمنين؛ فالآيات نزلت ابتداءً في المنافقين والكفَّار، وكلٌ منهما وردت فيه آيتان ، تآمرانهم بالتَّدبُّر، فإن كان التَّدبُّر قد أمر به المنافقون والكفَّار؛ فالمؤمنون به أولى وأحرى، ولكن المؤمنين ينقسمون في التَّدبُّر إلى أربعة أنواع بحسب المتدبّر:

١- تدبُّر عامة المسلمين:

والمقصود به نظرهم في القرآن، وفهمهم ما يمكن فهمه والعمل به؛ وهذا أمر واجب على كلّ الأمة، بحسب الطَّاقة، وقدر الاستطاعة، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فالواجب الّذي يلزم كل مكلّف من

التّدبُّر هو ما يقوم به معرفة الله ومعرفة رسوله ودينه الذي لا يقبل غيره، وهو الغاية من سماع القرآن وبلاغة المكلّفين، فالتّدبُّر يقصد به النّظر في عموم الأمر ودبره، ويعتبر وسيلة لغاية أعظم، وهي غاية نزول القرآن، وهو إن دلّ فإنّما يدل على أنّ التّدبُّر وسيلة وأنّ الهدف منه ما جاء ظاهراً في أكثر آيات التَّدبُّر، وهو: الإيمان والتّباع وتصديق الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ واليقين بأنّ القرآن من عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن هنا فأنّ الواجب من التّدبُّر: ما يحصل به الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ، والتصديق بكتابه، واتّباع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وإذا لم يتحقق ذلك إلا بأنواع أخرى من النّظر كالتّفكُّر في الآيات الأفقيّة والنّفسيّة وغيرها، تعيّن منها ما يحصل به اليقين.

فإذا تحقق ذلك الهدف بالنّظر في تدبُّر القرآن تعيّن ذلك، لفهم معاني آيات الكتاب العزيز، وعاب على المنافقين والمشركين إعراضهم عن تدبُّر القرآن والتّفكُّر فيه وفي معانيه.

ولذا حذَّر العلماء من ترك التّدبُّر، وأنّه يوقع فيما نهى الله عنه، فالقرآن عربي يُفهم عن طريق اللسان وأنزل للتدبُّر وحثّ الله جَلَّ وَعَلَا

على تدبره، بل وأمر بذلك، وهذا واجب أن يتدبر القرآن لأجل أن يأخذ الهدى منه لأن القرآن جعله الله جَلَّوَعَلَا هاديا للتي هي أقوم، وهذا عام يشمل العقيدة، يعني يشمل الأخبار والأحكام، ففي الأخبار : القرآن يهدي للتي هي أقوم، وفي الأحكام : القرآن يهدي للتي هي أقوم، فمن أراد الهدى فهو في القرآن في كتاب الله جَلَّوَعَلَا من أراد إصلاح النفس فهو في القرآن، من أراد بيان الإيمان فهو في القرآن، من أراد الأحكام فهي في القرآن، والسُّنّة مبيّنة للقرآن وشارحة له ودالة عليه ومفسرة له.

٢- تدبُّر العلماء:

والمقصود به نظرهم في القرآن بحسب ما أوتوا من علوم شرعية ولغويَّة، تعطيهم قدرة أكبر على الفهم والاستنباط والنَّظر، ليستخرجوا كنوزه، ويعملوا بها ويبلغوها، وهذا واجب على أهل العلم، فهو فرض كفاية.

٣- تدبُّر أهل التَّخصُّص:

وذلك أنَّ كلّ متخصّص في فن أو علم، كاللُّغة، والطّب، والسّياسة، وغيرها يستنبط من القرآن وقفات تدبُّريَّة لا يجدها غيره؛ لأنّ تخصُّصه يفيده في إبراز بعض المعاني.

٤- تدبُّر أهل الإيمان:

وهو التَّدبُّر الّذي يحصل لأهل الإيمان، وأصحاب التَّقوى والزُّهد والورع، وهو ما يحصل لكثير من المسلمين في أوقات الصّفا، وارتفاع الإيمان، والخلوات مع ربّ السماوات، وعندما نتأمّل بعض استنباطات العلماء في التفسير تجد أنّها فتح من اللَّه تعالى وتوفيق، يقول شيخ الإسلام :" قد فتح اللَّه عليَّ في هذا الحصن في هذه المرّة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن "(٤٣٨).

جماع الأمر في ذلك : أنَّ الكتاب والسُّنَّة يحصل منهما كمال الهدى والنُّور - بشرط - لمن تدبّر كتاب الله وسنّة نبيّه، فالواجب التَّدبُّر، وهو

---

(٤٣٨) ذيل الطّبقات، ابن رجب الحنبلي، (٣٤٤/١).

من أفضل ما يعين الإنسان على معرفة وفهم مقاصد الشَّريعة، والأصول الكليَّة في هذا الديّن العظيم، فإنَّ النيّة مطية كما قيل، وإنما الأعمال بالنّيات، فإذا صدق العبد في نيته وفي طلبه للحق؛ فتح الله له الحق ويسّره له، لكن إذا كانت نيّته مشوبة، أو غير خالصةٍ؛ فإنّه لا يُوفّق لإصابة الصّواب. والصّواب أن يحسن النّيّة والقصد.

تنبيه: خطورة القول في القرآن بلا علم:

كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يأخذون هذا القرآن بقوّة، ويعرفون معناه، ويطلبون المعنى الّذي أراده الله جَلَّ وَعَلَا، وكانوا كذلك في غاية الدّقة والحرص، وفي غاية التَّحرُّج وهم يفسّرون الآيات، ويحذَر العلماء أنّه لو قال برأيه في القرآن فأصاب فقد أخطأ، فكان أحدهم عندما يفسّر القرآن يتّقي أن يخوض في آيةٍ ليس عنده علم بها، ويخشى أن يأثم حتّى وإن كان قال برأيه المجرد صواباً.

المبدأ السابع: مسائل علم التَّدبُّر:

إنَّ الطرائق والأساليب التي ذكرها العلماء في تدبر الآيات؛ ترجع إلى أربعة أصول:

الأول : دلالات الألفاظ.

الثاني : الوحدة الموضوعية للسورة.

الثالث : علم المناسبات.

الرابع : دلالة اللغة بجميع علومها.

فهذه أصول تدبر القرآن، ونكون بذلك قد حصرنا جميع مسائل التَّدبُّر إن شاء اللَّه تعالى.

ولعلِّي أفرد لكل نوع من هذه الأصول بحثاً مستقلّاً إن يسر اللَّه تعالى وأعان.

المبدأ الثامن: استمداد علم التَّدبُّر:

وأمَّا استمداد علم التَّدبُّر فمن عدة علوم، منها:

- علم التَّفسير.
- أصول التَّفسير.
- علوم القرآن.
- علوم اللُّغة العربيَّة.
- أصول الفقه.

المبدأ التاسع: فضله:

للتدبر من النتائج والثمرات ما هو في غاية النفع، فهو شأن العالِمين الذين يعقلون آيات الله ويتفهمونها، ومعلوم أن شرف الشيء بشرف متَعلَّقه، ولما كان التدبر يتعلق بكتاب الله تعالى، صار من أشرف الأمور وأَجلِّها وأفضلها.

قال الآجري ﵀:« والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبُّره، أحب إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة، وأقوال أئمة المسلمين» [٤٣٩].

إن من يتدبر القرآن الكريم حق تدبره، لا تكاد آية منه تسلمه إلى أخرى، من عظيم ما يستشعر فيها من عظمة الله، وعظيم ما يبصر في نفسه من التقصير في حق الله.

---

(٤٣٩) أخلاق حملة القرآن ص: ١٦٩.

المبدأ العاشر: ثمرات التَّدبُّر:

ثمرة علم التَّدبُّر هي أنفس وأجلّ ثمرة، فالإنسان يسعى حثيثاً تجاه السَّعادة في جميع شؤونه الرُّوحيَّة والإجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والسّياسيَّة، وغيرها من جوانب الحياة، ولا يوجد كتاب يفي بجميع هذه المتطلّبات، ويهدي لأحسنها إلّا القرآن الكريم؛ ولقد صنَّف العلماء في الإعجاز التَّشريعي في القرآن ما يجلّي هذا ويقرره، والإنسان إنَّما خلق في هذه الحياة ليحقق العبادة، وبيان العبادة على أكمل وجه إنَّما هو في القرآن.

تكمن أهميَّة التَّدبُّر في الفوائد والثِّمار التي يقطفها العبد نتيجة تأمُّله وتدبُّره لآيات الله، وتتنوَّع تلك الثَّمرات : من عقديَّة، وعمليَّة، وعقليَّة مهاريَّة، وسلوكيَّة تربويَّة، ونشير لبعضها:

١- هو أقوى الأسباب لترقيق القلب وتليينه.

٢- الاستجابة لأمر الله تعالى بذلك.

٣- الوقوف على معرفة الله ومعرفة الحلال والحرام.

٤- عمل المرء بكتاب الله، وتطبيقه في واقع الحياة.

٥- يحقق إنابة النَّفس لربّها وتوبتها من معاصيها.

٦- تحصيل الهداية وتوابعها.

٧- الشّفاء لما في الصُّدور.

٨- القناعة في الدُّنيا والتَّعلُّق بالآخرة والشَّوق إليها.

٩- التدبر يورث اليقين، ويزيد الإيمان ويجدده، ويورث الثَّبات على الحقّ.

١٠- التَّدبُّر يشحذ الهمم ويشحن النُّفوس نحو الخير، ويبعدها عن الشَّر.

١١- العلم والمعرفة.

١٢- هو طريق إلى العمل بما في القرآن من المأمورات، والكف عن المنهيات.

١٣- هو سبيل إلى الاعتبار والاتعاظ بأمثاله وقصصه.

١٤- وأنه يحمل على محاسبة النفس ومراجعتها.

١٥- وهو الطريق إلى معرفة محَاب الله ومساخطه، وأوصاف أوليائه وصفات أعدائه.

١٦- وبه تكون معرفة الطريق إلى الله تعالى.

إلى غير ذلك من الثَّمرات الّتي لا يمكن إحصاؤها، ولكل قوم من هذا الكتاب نصيب.

ولا شكَّ أنَّ القرآن تكمن بركته في أمور كثيرة منها : كثرة أوامره ونواهيه، وتنوّع مواعظه وزواجره، والاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، وتعقُّل أمثاله المضروبة وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، من أجل أن يرعوي العبد فيستدرك ما وقع له من تقصير، ويزداد من الإقبال والتَّشمير في طاعة اللَّه تعالى لتحصل له السَّعادة في الدَّارين، فالقرآن بحر زاخر من الخيرات، وهبة من الرحمن للعالمين، فهو يعطيك معان غير محدودة في كلمات محدودة، وهذا البحر الزَّاخر المملوء بالمعاني غير المحدودة لا ولن نستطيع أن نخرج دره إلّا بالتَّدبُّر.

فإنَّ تدبر كلام الله والعيش معه والنَّظر في المعاني المتجددة الّتي تجود بها الآيات القرآنية فيما يصلح حياة النّاس ضمن القواعد والضوابط الشَّرعيَّة الَّتي يفهم بها كلام اللَّه، يقطع الطريق أمام كلّ من يريد أن يحمّل النُّصوص ما لا تحتمل بحجة التجديد، وهم بذلك يستخدمون مصطلحاً شرعيَّاً لترويج منهج فاسد، ولذلك ظهرت باسم " تجديد الخطاب الدّينيّ " مناهج محدثة وأفكار حداثيّة تدعو إلى إعادة فهم النَّص، أو القراءة المعاصرة للنصوص دون مرجعيّة علميّة، بل ولا نزعة إيمانيّة دينيّة.

فإحياء التّدبُّر بين النَّاس بنقائه وصفائه، على منهج أصيل يقف بإذن اللَّه أمام من يريد تمييع ثوابت الدّين تحت هذا المسمى.

تدبر القرآن من أهمّ وسائل زيادة الإيمان، وذلك من خلال مواعظه البليغة الّتي تستثير مشاعره وتؤججها، فيحدث بذلك التَّجاوب بين الفكر والعاطفة، فالقرآن منبع عظيم من منابع الإيمان يفيض على كلّ من يرده، ومن السّمات الّتي سجّلها القرآن الكريم للمؤمنين عموماً والصّحابة خصوصاً أنَّ إيمانهم يزيد ولا ينقص، ووجه زيادة إيمانهم عند سماع القرآن أنهم ألقوا السمع للقرآن، وأحضروا قلوبهم لتدبّره؛

فعند ذلك ازداد إيمانهم ويقينهم، فالتَّدبُّر يُحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة الله لهم، ووجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي وكلّ هذا مما يزداد به الإيمان، وبهذا ندرك أنَّ سبب وصول الجيل الأوّل لهذا المستوى الإيمانيّ هو تدبُّر القرآن وتنفيذ أحكامه، هذا الإيمان كان في قلوبهم أمثال الجبال.

تجد الإشارة إلى أنَّ القرآن الكريم بنى وضبط المقوّم السُّلوكي لدى الشَّخصيَّة المسلمة، بمجموعة الأحكام الشَّرعيَّة النَّاظمة لعلاقات الإنسان الرئيسية الثَّلاث : مع ربّه، ومع نفسه، ومع غيره، حيث جاءت تلك الأحكام إمَّا على شكل قواعد وضوابط كليَّة، تندرج تحتها أحكام لجزئيّات سلوكيّة كثيرة، نحو قاعدة: لا ضرر ولا ضرار، وقاعدة: درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح، وإمّا على شكل أحكام جزئيّة تفصيلية، والتي قنن الفقهاء بموجبها مجموعة النُّظم الإسلاميَّة، التي تعالج كافة شؤون الإنسان وتنظّم علاقاته، وهي نظام العبادات، ونظام الحكم، والنظام الاجتماعي، ونظام الإعلام والتَّعليم، ونظام العقوبات، والمتدبّر للآيات القرآنية المتعلّقة بالتّأصيل والتّقعيد لهذه القواعد والأحكام النَّاظمة للسلوك، سيرى مدى أحقيّتها ونجاعتها وكمالها في تنظيم علاقات

الإنسان وتدبير شؤونه، وتفوقها على الأنظمة الوضعيّة في هذا الجانب، ممّا يدفعه وعن رغبة ورضا لتطبيق تلك الأحكام، وضبط سلوكه بموجبها.

إنَّ الجانب السلوكي يعدُّ ركناً مهمَّاً في تكوين النَّفسيَّة المسلمة؛ لذا فإنَّ القرآن الكريم جعل النَّفسيَّة معياراً لقياس درجة انضباط الشَّخصيَّة ومقدرتها على التغيير، ولهذه الأهميّة العظيمة للسلوك في حياة الإنسان؛ فإنَّ القرآن الكريم وضع مجموعة من الضوابط والمحددات الّتي تجعل سلوك المسلم في حال مراعاتها والتقيد بأحكامها سلوكاً راقياً منظّماً، بعيداً عن الانحراف والتَّطرُّف، مرضياً لله.

حوى القرآن الكريم إطاراً عامّاً للمعرفة والقيم وتصورات أساسية عن المجتمع وغير ذلك، وكان للقرآن الكريم الأثر الكبير في إعلاء قيم المسلمين، وترقية فكرهم وأخلاقهم، وضبط سلوكهم، وتوجيههم نحو التَّأمل والتَّدبُّر سعياً إلى المزيد من العلم والمعرفة؛ مما أثرى الحياة الفكريّة، فإنَّ تدبر القرآن يحول المجتمع إلى مجتمع قرآني؛ عندما يتربى المجتمع على نصوص القرآن ويهتدي بأنواره، فيكون مجتمعاً حيَّاً حياة عزيزة كريمة، وقد فهم سلفنا الصَّالح نصوص القرآن الدَّاعية إلى الاعتصام وعدم التفرق، فحرصوا على تنفيذ هذه النصوص في واقعهم،

فتكوّن منهم المجتمع القرآني الّذي تربّى على منهج القرآن وأسسه ومبادئه وتوجيهاته، فأرسى فيهم القرآن روح التراحم والتواد، ونشر العدل والإنصاف والمساواة، فكان مجتمع السلف بحق خير مجتمع وأسماه وأرفعه، فسلفنا الصالح كانوا أسعد النّاس من النّاحية الأسرية، وكثر الخير في بيوتهم، وقلّت المشاكل الأسريّة بينهم بسبب امتثالهم لأوامر القرآن في علاقة الزّوج بزوجته وأبنائه، وعلاقة الزوجة بزوجها وأبنائها..

وبسبب تحقيق هذا المجتمع القرآني الإيمان، وتحاكمهم إلى شريعة الرحمن، وجدوا ثمرة ذلك كله ألا وهو : الاستقرار والأمن التَّام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم، والنّصر والفتح، والاستخلاف والتمكين، والعزّ والشّرف، حتّى بلغ ملكهم - في فترة وجيزة في أعمار البشر - من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وأصبحوا خير أمَّة أخرجت للناس.

إنَّ من يمتّع نظره في رياض القرآن وآياته لتزداد دهشته حين يرى كيف آخى القرآن بين الدّين والعقل وألّف بينهما، وكيف جعل من عقيدة الإسلام مزيجاً من التّدين الحيّ والارتقاء في سُلّم الحضارة والتّقدُّم، والعجب من ذلك في وحي القرآن، والأغرب بالنّسبة لبقية

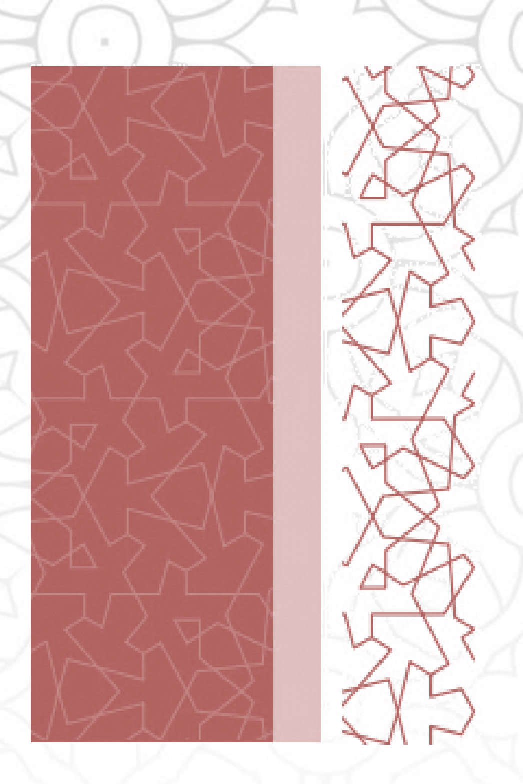
الأديان ما يراه المتدبر لآياته، كيف أنّ القرآن قد جعل من التفكير في الكون والتّتبُّع لمعرفة قوانين الحياة الطبيعيّة وتسخير قواها للإنسان، كيف جعل من ذلك عبادة من أجلّ العبادات الإسلاميّة، وهذه ميزة للإسلام، لم يسبقه إليها دين من الأديان.

وكان سلفنا الصالح أكثر الأجيال فهماً ووعياً لقضية الاستخلاف في الأرض وعمارتها، من خلال تدبُرهم لآيات القرآن الدَّالة على ذلك، وأهميّة التّقدُّم العلميّ كمؤهّل أساس لحمل أمانة الخلافة في الأرض، فلم يجدوا حرجاً من اقتباس العلوم الكونيّة من الطب، والكيمياء، والفلك، والبصريَّات، والرياضيّات وغيرها، من أمم الحضارات القديمة مثل: اليونان، والفرس والروم، وتطوير هذه العلوم بإسهامات بارزة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزاً وتصحيحاً للمسار، حتّى ليخيّل للمطلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن علوم حياتيّة أو معارف حضاريّة، ويشهد لذلك أنّ كتب العلوم والمعارف من طب وكيمياء، وزراعة، وفلك، وغيرها، كانت مكتوبة بلغة القرآن وبفكر أهل القرآن، وكيف كانت تُدرّس في

جامعات أوروبا قرابة ستة قرون - ولا زالت لها قيمتها المعرفيّة والتّجريبيّة.

إنَّ الشَّرط الأساسي في أن يؤتي هذا التَّدبُّر ثمرته في مستقبل الأمَّة تقدُّماً وحضارةً وازدهاراً هو التَّمثُّل النَّاضج المستنير للتَّجارب الفكريَّة الرَّائعة وكفاح العقول الفذَّة في تاريخ الأمَّة، واستلهام نفحات الإبداع في تراث القمم، ثمَّ يمضي الأفذاذ الموهوبون من أبناء الأجيال السَّابقة، يستلون من تحت الغيم خيوطاً كسَنَا الفجر يضيئون بها دروب المجهول الّتي نتعشق عقولهم القداح على أبوابه.

فانتبه رعاك اللَّه فهذا معلم مهم، بل هي قاعدة عظيمة يجب استصحابها دائماً في التَّدبُّر في معاني القرآن حتَّى تفضي بنا إلى أفكار جديدة نبسط بها ميادين المعرفة بسطاً في فهم كلام الله تعالى.





الخلاصة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد: ففي نهاية هذه الدراسة التي يسر الله تعالى إعدادها حول مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم، يمكن أن نخلص إلى أمور وتوصيات مهمة:

لعله اتضح مما سبق ما يأتي:

تآزر دلالة المادة (دبر) مع دلالة الصيغة في إظهار سمات محددة يمكن جمعها فيما يأتي:

أ- النظر في المقاصد والغايات.

ب- التدرُّج، والحدوث، والتجدد.

ج- بذل الجهد.

د- الصبر، والتحمل.

أنَّ أقرب المرادفات للتدبر هو التأويل لاجتماع الكلمتين في دلالة المآل والعاقبة، مع فروق في الوضوح والخفاء.

اختصاص (التدبر) بالقرآن؛ فلم يرد إلّا معه، وهذا يوجب - في نظري - عناية خاصة بالآيات التي ورد فيها التدبر، واقترح أن يكون هناك بحثاً آخر خاصاً بها (تحليلاً، وتفسيراً، وموازنةً) ، ويمكن أن تدرس فيه الفروق بين (النظر، والتفكر، والتأويل، والتدبر) من خلال القرآن، وهذا ما يمكن أن يوجد منهجاً معيناً في محاولة تحدِّد مفهوم هذه المصطلحات.

تنوُّع ما يدل على القرآن مع التدبر، فمرة يذكر القرآن، وهو الأكثر، ومرة يرد القول، ومرة ترد الآيات، ولعل هذا يشير إلى مجالات التدبر، وأنَّ أدناها الآية،وأوسعها القرآن كله، وقد يكون فيه إشارة المقروء والمسموع منه.

يمكن تحديد أسباب أهمية البحث في الأمور التالية:

١- إن التدبر موضوع أساسي له علاقة وثيقة بالقرآن الكريم.

٢- إن التدبر هو المقصود الأعظم من تنزل القرآن العظيم.

٣- إن التدبر نوع مهم من تعلم القرآن، والذي به تنال الخيرية والأفضلية التي بينها رسول الله ﷺ.

٤- الاقتداء بالرسول ﷺ في تدبر كتاب الله.

٥- إن هذا البحث مبني على مراحل منهجية يستفيد منها المتعلمون والمعلمون، والمهتمون بالعملية التربوية عموما.

ومما نخلص إليه أيضا:

١- أن مفهوم تدبر القرآن لا يحد بمعناه اللغوي وهو النظر فيما وراء الألفاظ من المعاني والدلالات، وإنما يمتد إلى مقدمات التدبر وهو حضور القلب واستشعاره، ونهاياته وهو قصد الانتفاع إيمانا وعلماً وعملاً.

٢- أن التدبر مبني على ركنين أساسيين لابد للمتدبر منها:

الأول: الركن النظري بالوقوف مع الآيات والتأمل فيها.

الثاني: الركن العملي بالتفاعل مع الآيات وقصد الانتفاع والامتثال.

٣- أن الفرق بين التدبر وبين التفسير والاستنباط يتحدد بحسب غرض القارئ لكتاب الله تعالى؛ فالمفسر والمستنبط يكون غرضه الوصول إلى المعاني والدلالات، والمتدبر لابد أن يكون مع ذلك مستصحباً قصد الانتفاع والامتثال والعمل.

فهذا الذي يميز التدبر عن التفسير، وهو الفرق الجوهري بينهما، ولذا فيمكن أن يسمى المفسر متدبراً إذا قصد الانتفاع والامتثال والعمل.

٤- أن التدبر واجب الأمة كلها لأنه المقصود من إنزال القرآن كما صرحت الآيات بذلك أمراً به وحثاً عليه، وأن التفسير هو واجب بحسب الحاجة إليه لفهم القرآن والعمل به، والناس فيهما مراتب بحسب رسوخ إيمانهم وعلمهم.

٥- أن منهج السلف الصالح في التدبر وإن كان مبنياً على الركنين جميعاً، لكنه يبرز في الجانب العملي، لأنهم كما قال ابن عمر: (ورزقوا العمل بالقرآن)، وهذا الذي تفقده الأمة اليوم كما قال في تمام كلامه: (وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به).

وأرى أن التدبر كالصورة الواحدة المكونة من عدة أجزاء لا تكتمل إلا بسائر أجزائها، وهو مكون من ثلاثة أجزاء:

١- التدبر قبل التلاوة.

٢- التدبر أثناء التلاوة.

٣- التدبر بعد التلاوة.

ومن لم يحقق هذه الأمور فليس بمتدبر.

التوصيات:

لقد كتب الكثيرون من المهتمين بموضوع تدبر القرآن الكريم، وبين المصنفون من العلماء مفهوم التدبر، وآثاره، ووسائله، والطرق المعينة على تحقيقه، وغير ذلك من المباحث الضرورية المتعلقة بالتدبر.

وسيكون ختامي طرحاً ناحياً نحو اتجاه آخر في مفهوم التدبر، ألا وهو كيف نجعل التدبر علماً يُعَلم، مثل غيره من علوم القرآن، كما نعلم التجويد، أو التفسير، أو كما نعلم القواعد، أو الرياضيات، ونستفيد في ذلك من أبجديات علم المناهج وطرق التدريس وعلم النفس.

فمن الملاحظ في مؤسسات وحلق تعليم القرآن أنه قليلاً ما يعتنى بذا الجانب، فقد تجد الطالب يحفظ كتاب الله كاملا، ولا يعرف معاني آيات من القرآن الكريم، ولا يحسن تدبرها، وربما يمكث المتعلم سنوات في حلقة التحفيظ، مركزا على حفظ حروف الكتاب ولا يقيم آدابه، ولا يتمثله في واقعه سلوكا، وما ذلك إلا لأنه لم يعر هذا الجانب اهتماما، أو لأنه لم يجد معلما يبصره بطرق التدبر وأساليبه العملية، أو لم يتيسر له التتلمذ على يد مرب يحسن التعامل مع قدراته المعرفية، واستعداداته

الذهنية، ويعينه على الرقي الفكري والسلوكي من خلال الوسائل التحفيزية، المادية منها والمعنوية.

وإني أؤكد لك هذه المشكلة التربوية باعتباري أحد المسئولين بإحدى جمعيات تحفيظ القرآن قائلاً لك بأنه:

«لو نظرنا في واقع الحلقات لوجدنا تقصيرًا واضحا في هذا المجال، وأن أكثر الدارسين اقتصروا على التحفيظ دون التدبر والتفهم بسبب ما يأتي:

١- ضيق وقت الحلقة.

٢- كثرة عدد الطلاب.

٣- صغر سن الطلاب.

وظهر لي أن عدم تدبر أكثر الطلاب لقراءة القرآن الكريم من خلال عدم مراعاتهم للوقف والابتداء أثناء تسميعي لهم في الحلقات، أو في الاختبارات والمسابقات، فيقف الطالب وقفًا عجيباً ، ويبتدئ ابتداءً غريباً ، يدل على عدم التدبر والتأمل»

وقد يكون من المعلمين من يحث طلابه على التدبر نظريا، ويردد عليهم هذا التوجيه مرارًا وتكرارا، ويجتهد في ذلك، ولكنه لا يعرفهم بكيفية التدبر وأصوله وخطواته، ولا يراعي التدرج التربوي، ولا النمو المرحلي لهم، وبالتالي تكون توجيهاته قليلة الفائدة، أو بلا أثر يذكر ولا نتيجة تظهر.

يعتبر المعلم المربي ركناً أساسياً في عمليّة التدبُّر، ولكي تؤتي هذه العمليّة التَّعليميّة آثارها، وتبرز نتائجها في سلوك المتعلمين، ينبغي أن يكون المعلم متدبّراً قبل أن يُعلّم التَّدبُّر، إذ إن فاقد الشَّيء لا يعطيه، ولا يعتدل الفرع إذا كان الأصل معوجّاً، إلّا أن يشاء الله.

ولتجاوز هذا القصور التربوي لابد من بناء خطوات ومراحل منهجية في تعلم وتعليم التدبر، معتمدة على ما يفيد من نظريات تربوية معاصرة، حيث تؤكد الاتجاهات التربوية الحديثة على أهمية استخدام أساليب التعليم والتعلم التي تؤكد على إيجابية المتعلم ونشاطه في أثناء العملية التعليمية، وعلى ضرورة تهيئة الظروف الملائمة لجعل المتعلم يكتشف المعلومات بنفسه بدلا من الحصول عليها جاهزة، وعلى أن يتحول دور المعلم من تلقين المعلومات إلى توجيه المتعلم وإرشاده.

ومن تلك النظريات التي ينبغي أن يستفيد منها المهتمون: النظرية السلوكية في علم النفس، والتي تفسر التعلم على أنه استقبال مثير وإصدار استجابة، وتستفيد من نظرية الاقتران الشرطي، وما يتعلق بها من مفاهيم وتطبيقات التعزيز، وكذلك نظرية اكتساب العادات وتدعيم السلوك.

ولابد من إدراك أن التعلم وطرقه لا تقتصر على مرحلة الطّفولة، بل إن هذه الطرق تقوم بدورها في المراحل الأخرى لنمو الكائن الإنساني. وعند إضفاء هذه المفاهيم المعاصرة على التَّدبُّر، يتبين لنا أنَّ معظم هذه الطرق يتيسر الاستفادة منها لتحصيل التدبر، وتعين كثيراً في اكتساب أحد الأشكال الثّلاثة هي

أ- اكتساب سلوك جديد: حيث يكتسب المتعلم نتيجة للخبرة سلوكاً لم يكن ضمن حصيلته السلوكية.

ب- التّخلّي عن سلوك: قد يتخلّى الفرد عن سلوك، عندما يتم إتباع هذا السلوك بعقاب أو نتيجة غير مرغوبة.

ج- تعديل سلوك: بزيادة تكرار السّلوكيّات المرغوب بها، وتقليل من تكرار السلوكيّات غير المرغوب بها.

وبناء على هذه الأشكال التّعليميّة، فإنّ التّدبُّر قد يكون معدوماً لدى المتربّي أو ضعيفاً، فيتعدّل بالتعلّم أو بالتعليم، ليصبح متوافراً أو قويّاً.

وفيما يتعلّق بالتّعلّم حاول علماء النّفس تفسير الطرق الّتي يتبعها الإنسان في تعلمه عملاً جديداً، وهناك بعض الطرق التجريبيّة منها:

أ- المحاولة والخطأ.

ب- التعلم بالبصيرة.

ج- التّعلّم بطريقة التّرابط.

وتحقّق مثل هذه الطرق نتائج إيجابيّة في تقوية الارتباط الوجداني نحو المفاهيم والمعلومات، وهو ما يمكن أن نسمّيه بتكوين الاتجاه الذّاتي نحو تدبر القرآن، وهذا الموضوع يتعلّق بعمليّة التّنشئة الاجتماعيّة

الّتي يسعى المربون لغرسها في نفوس المتعلمين، ويسهم الاتجاه(٤٤٠) في تحديد الوسائل والطُّرق المعينة في تلبية حاجته، فمعرفة الاتجاه وتقويته ضروريان لنجاح العمليّة التّربويّة.

وإليك بعض الوسائل والأهداف الّتي تعين على تنمية الاتجاه نحو التَّدبُّر:

- تنمية محبة القرآن الكريم لدى المتعلم.
- إبراز يسر فهم القرآن.
- غرس اليقين بالنّص القرآني لدى المتعلم.
- إشعار المتعلّم بأنَّ الآية موجهةً إليه.
- ربط القرآن بواقع المتعلّمين.
- تأكيد الغاية من إنزال القرآن.

وإذا أردنا أن نتعامل مع عمليّة التَّدبُّر كغيرها من الجوانب المعرفيّة السّلوكيّة، من حيث توضيح طرق التّدريس والإجراءات المناسبة لتحقيقها، فلابد من العناية بالتَّمهيد التَّربوي، ومراعاة التَّدرُّج في تعليم

(٤٤٠) التجاه هو: الاستعداد الوجداني نحو التّدبُّر ثابتاً يتطلّب القيام بوسائل متنوّعة تدفع المتعلّمين لذلك.

التَّدبُّر، والتَّحضير الجيّد للدرس القرآني، واستخدام أسلوب التَّعلُّم التَّعاوني، والاهتمام بالاستعاذة، وشرح الكلمات والجمل والآيات، وربط أحكام التَّجويد بالمعاني، والموعظة والتَّحذير من الذُّنوب الصَّارفة عن التَّدبُّر، وإدراج حصَّة التَّدبُّر في الدَّرس القرآني، والتَّربية على شكر نعمة التَّدبُّر.

ولا شكّ أنَّ الخطوات التي يقوم بها المعلم سوف يظهر أثرها على طلّابه، بل ويلحظ بجلاء تغيُّر نبرات الصَّوت مع تلاوة الآيات، والوقوف عند بعض المقاطع والكلمات، مما يبين المعنى ويحرّك قلوب المتعلّمين، ويزيدهم خشوعاً، وسيلاحظ المعلّم قبل المشرف أنَّ أداءه يتحسّن كلّما كرّر عرض الآيات واستحضر معانيها، وأداؤه في المرّة الثّانية أفضل من المرة الأولى، والثَّالثة أفضل من الثَّانية، وهكذا، فإنَّ ممارسة المتربي لأنواع القرب والطّاعات، ومرافقته لأهل الباقيات الصَّالحات، وغشيان مجالس الذّكر والحسنات، يقلل من أوقات الانشعال بالملهيات، ويبعد عن أماكن المعاصي والموبقات، وإنَّ لزوم الطّاعات ينير القلوب، ويضفي عليها الأمن والأمان، ويُعطى صاحبها الاطمئنان، ويفهم من معاني القرآن وإرشاداته مايزيده قرباً وإقبالاً على

خالقه ومولاه سبحانه وتعالى، فحين يتربّى الطلّاب على التَّدبُّر، تصبح جلسات تدارس القرآن ثقافة شائعة في المجتمع.

وينبغي أن يكون من أولى مهمات معلمي القرآن، والمسئولين عن تعليم الطُّلاب في المدارس وحلقات القرآن، أن يبينوا لهم آداب القرآن، وآداب حملته والقارئين له، ومن المستحسن أن يقرر كتاب في هذا الموضوع لتدارسه مع الطُّلَّاب، وخاصّة في المستويات العليا من هذه المرحلة، ومن الكتب المناسبة كتاب (التّبيان في آداب حملة القرآن) للإمام النَّووي، وكتاب (أخلاق حملة القرآن) لأبي بكر الآجري.

كما ينبغي أن ينبه المعلم منذ السَّنوات الأولى لتدريس القرآن على مفهوم التَّدبُّر بمعناه العام، وأن يقف المعلم وقفات متعدّدة مع تلك الآيات الّتي تحثُّ على التَّدبُّر وتنهى عن ضده، ففي دروس التّلاوة والتَّجويد والحفظ وغيرها، يذكّر المعلم بين الفينة والأخرى أنَّ الغرض من هذا كلّه هو فهم معاني القرآن، وتدبُّر آياته لكي يعمل بها، ويكون لها أثر إيجابي في الحياة والسُّلوك.

ولابد وأن يبذل المربي جهده لحمل المتربين على التَّدبُّر، وهم في حاجة إلى أن تُزاد دافعيتهم للتَّدبُّر، وأن تتوفر لديهم الرّغبة القويّة والحبّ الشديد له، فذلك أدعى لملازمته، والاستفادة من قراءتهم، ومن أساليب زيادة الدَّافعيّة أسلوب التَّرغيب، وذلك ببيان الفضائل والحسنات الّتي يجنيها المتعلّمون التَّدبُّر، وكذلك بيان الجوانب المَاديّة والمعنويّة، وإنَّ من أولى وسائل ترغيب المتربين في التَّدبُّر أن يحثُّهم المربي على الإكثار من تلاوة القرآن كلما سنحت لهم الفرصة، وأن يخصّصوا أوقاتاً محددة من أيّامهم لقراءة القرآن، وأن يحرصوا على ذلك أشد من حرص قراء الصحف على قراءتها، كما أن يغرس حب القرآن في قلوب طلابه، ويبين لهم فضائله، وأثره في سعادة العالمين، ومن المعلوم أن القلب إذا أحب شيئاً تعلق به، واشتاق إليه، وشغف به، وانقطع عما سواه، والقلب إذا أحب القرآن تلذذ بقراءته، واجتمع على فهمه ووعيه، فيحصل بذلك التدبر المطلوب، وعليه فتحصيل حب القرآن من أنفع الأسباب لحصول أقوى وأعلى مستويات التَّدبُّر، لكن حب القرآن ليس كلمة نقولها باللسان، وإنّما هو شيء في القلب له علامات ظاهرة منها التّشوق له، وكثرة قراءته وتدبُّره، والعمل بما فيه،

والرجوع إليه في كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتنا، فعلى المعلم في المدارس أو في حلقات القرآن أن يبيّن للمتعلّمين أن الله مدح من تدبر القرآن، وأثنى على من يتأثّر به، كما أثنى عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وكذا يؤدي أسلوب التشجيع إلى إثارة النّوازع والقدرات الكامنة في النّفس البشريّة، وتحريك القوى الخفيّة الّتي يمتلكها الفرد ولا يستثمرها البتّة، أو يكون استثماره لها هزيلاً، ولذلك فإنَّ التَّشجيع على التّدبُّر يحفز القوى الذّهنيّة، ويزيل الموانع الفكريّة، وبه يستطيع القارىء العادي، أي غير المتخصص في علوم اللغة أو القرآن أو الشّريعة، أن يحصل على قدر مناسب من التَّدبُّر، فينبغي تعريفه بخصائص القرآن، وتوضيح سهولة الألفاظ والعبارات للقارىء العادي، والتَّربية على دراسة اللغة العربية منذ المراحل المبكّرة، والتعويد على التَّرتيل والتَّغنّي بالقرآن وتحسين الصوت به، والتدبر بعرض القصص القرآني بأسلوب ميسّر، وإلزام الطَّلاب بمصحف المتدبرين، وإقامة الرحلات والبرامج التّرويجيّة الهادفة المعينة على التَّدبُّر، فإنَّ السير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة الّتي لم تألفها العين، ولم يملها القلب، وإنَّ الإنسان ليعيش في المكان الّذي ألفه فلا يكاد

ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه، حتّى إذا سافر وتنقّل وساح، استيقظ حسه وقلبه إلى كلّ مشهد، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة مما كان يمر على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه، وربّما عاد إلى موطنه بحس جديد، وروح جديدة ليبحث ويتأمّل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته، وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلاً عن حديثها، أو كانت لا تفصح له عن شيء ولا تناجيه.

وليعلم أنَّ النضج لدى المتعلم عمليّة ارتقائية تهيئه لمزيد من التَّعلُّم، وتبصّره بالواقع وتعرّفه بطرق الاستفادة من إمكانيّاته وموارده، ولعامل النُّضج أهمّية كبيرة في تحديد أنماط سلوك الفرد، فكلّما كان الإنسان أكثر نضجاً، أحرز مقداراً أكبر من التَّعلُّم، وذلك حين تتكافأ العوامل الأخرى المؤثّرة في التّعلُّم، فتلاميذ المرحلة الإعداديّة يستوعبون مفاهيم أكثر وأعمق تجريداً، كما أنّهم قادرون على اكتساب المهارات الحركيّة، وخاصّة المعقّدة منها بدرجة أكبر من تلاميذ المرحلة الابتدائيّة.

إن التدبر يستحق أن يكون علماً منفصلاً من علوم القرآن، بل من العلوم المعاصرة التي تُفرد لها المؤلفات والكتابات الخاصة، ويستحق أن

تنشأ له المؤسسات التربوية، وتكون مستقلة عن غيرها من الجهات التعليمية، شأنه في ذلك شأن حلقات التحفيظ القرآنية، وهو علم يستحق أن يُطبق عليه منهج المواد الدراسية المنفصلة، والذي «يعني بوضع كل مجال دراسي خاص في مقرر منفصل عن بقية المقررات الدراسية الأخرى، أي أنه يرتب المواد الدراسية على أساس الفصل فيما بينها، بحيث تمثل كل مادة قسماً خاصا من التراث المعرفي الإنساني، ثم توزع هذه الأقسام - بترتيب منطقي- على سنوات الدراسة التي يقضيها الطلاب في السلم التعليمي» فإذا ما أردنا تطبيق هذا المنهج، فإن الأمر يستلزم فصل علم التدبر عن غيره من علوم القرآن.

وخلاصة القول: إنَّ القرآن الكريم يمتاز بمبادىء سامية وقيم رفيعة تجعله ركيزة قويّة لتربية الأفراد وتنظيم المجتمعات، والتّربية هي وسيلة الإنسان لتحقيق أهداف الخالق، ويتضح أن ذلك الأسلوب القرآني المعجز يهدي قارىء القرآن إلى تدبر المعاني، ويجعل الإنسان يهتدي بفكره ويتنقل بعقله في مخلوقات الله وكونه؛ ليصل بنفسه إلى ما يهديه إلى الحق وإلى الصراط القويم.

لقد جرّب المسلمون السّابقون - من جيل الصّحابة وتابعيهم بإحسان - التمسك بالإسلام، فوجدوه كفيلاً بسعادة الروح والبدن، وضابطاً لمصالح الدين والدُّنيا.

والإنسان مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ميزه عن غيره من المخلوقات الأخرى في تكوينه وفب منزلته الرفيعة، وفي المسؤلية التي يتحملها أمام الخالق، الّذي خلقه على هيئة تجمع بين المادة والروح، والحياة في هذه الدنيا مقدمة للحياة الأخرى، والحياة فيها توازن بين الدنيا والآخرة، والمسلم الحق حريص على إقامة التّوازن بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة.

وفي ختام هذه الآثار نستطيع القول: إنَّ القرآن الكريم تضمّن منهجيّة فريدة فيما يتعلّق ببناء الجانب الفكري والعقديّ في الشّخصيّة الإسلاميّة: بدءاً بجعل التّفكير المستنير طريقاً موصلاً للقناعة العقليَّة بحقائق الإيمان، مروراً بالارتقاء بطرق التَّفكير وأنماطه، وانتهاءً بضبط مجالاته وحدوده.

وفي هذه الأيَّام الّتي يواجه فيها المسلمون أشدّ الهجمات الفكريّة الخارجيّة المنحرفة، هُم بأمسّ الحاجة إلى النَّظر في آيات القرآن الكريم

المتعلّقة بشتّى مجالات النَّظر والتَّفكير: وتدبُّرها والتَّفكر في مدلولاتها ومقاصدها؛ لتحصين منظومتهم الفكريّة من الجمود والانغلاق والتّقليد، والارتقاء بطرق تفكيرهم إلى المستوى الّذي يؤهلهم لصناعة الشّخصّية المسلمة الفاعلة في جميع ميادين الحضارة والتّمدُّن؛ ليستحقّوا نبوء المكانة الّتي أرادها الله لهم في قيادة البشريّة ودلالتها على الخير، سواءً على المستوى الفردي أو الجماعي، وذلك ليتحقق بهم ولهم الشهود الحضاري الذي أراد الله لهم أن يبلغوه.

وأخيراً، أود أن أشير في هذا الطرح إلى أنني بحثت في هذا الموضوع المهم، ولكن هذا البحث لم يستوعب كل ما يتصل بهذا التنظير الجديد لموضوع التدبر، وما ذكر فيه من تفصيلات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث، كما أنها قد لا تكون أهمها وأحقها بالدراسة، ولكن الله يسر لي إبرازها لفتح باب المناقشة والدراسة العلمية، وهي قابلة للتعديل والتقويم.

وأحسب أني قد طرقت باباً جديدًا لموضوع قديم، علينا جميعا أن نجتهد فيه، ونحاول ونخطىء وصولاً إلى الصواب، فلكل مجتهد نصيب، ولكل مخطئ توبة، ولا يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

وللخروج بمنهج عملي لهذا الموضوع المهم يمكن أن نخلص إلى توصيات مهمة:

١- أن أعظم ما يجب على أهل العلم بالقرآن والمهتمين به والمؤسسات القرآنية في هذا الوقت هو العودة بالأمة إلى منهج التدبر الأمثل الذي تمثله الجيل الأول من الصحابة والتابعين، وذلك بتوجيههم لأبناء الأمة وأجيالها لتلقي القرآن بقصد الانتفاع والامتثال والعمل مع قصد التلاوة والحفظ.

٢- إقامة لقاءات دورية تجمع النخبة من أهل العلم والتخصص والاهتمام بغرض دراسة الخطط والمناهج العملية للتدبر وسبل تفعيلها، ومن ثم نشرها بين المؤسسات والمدارس القرآنية والتعليمية.

٣- أن يتركز عمل كل منا على تفعيل منهج التدبر العملي الذي تمثل في منهج السلف الصالح، وأن يسعى كل منا لطرح البرامج والمناهج العملية التي تدعم مناهج المؤسسات والمدارس القرآنية القائمة على تحفيظ القرآن الكريم، ليكتمل البناء ويظهر الأثر العظيم للقرآن في الجيل المعاصر.

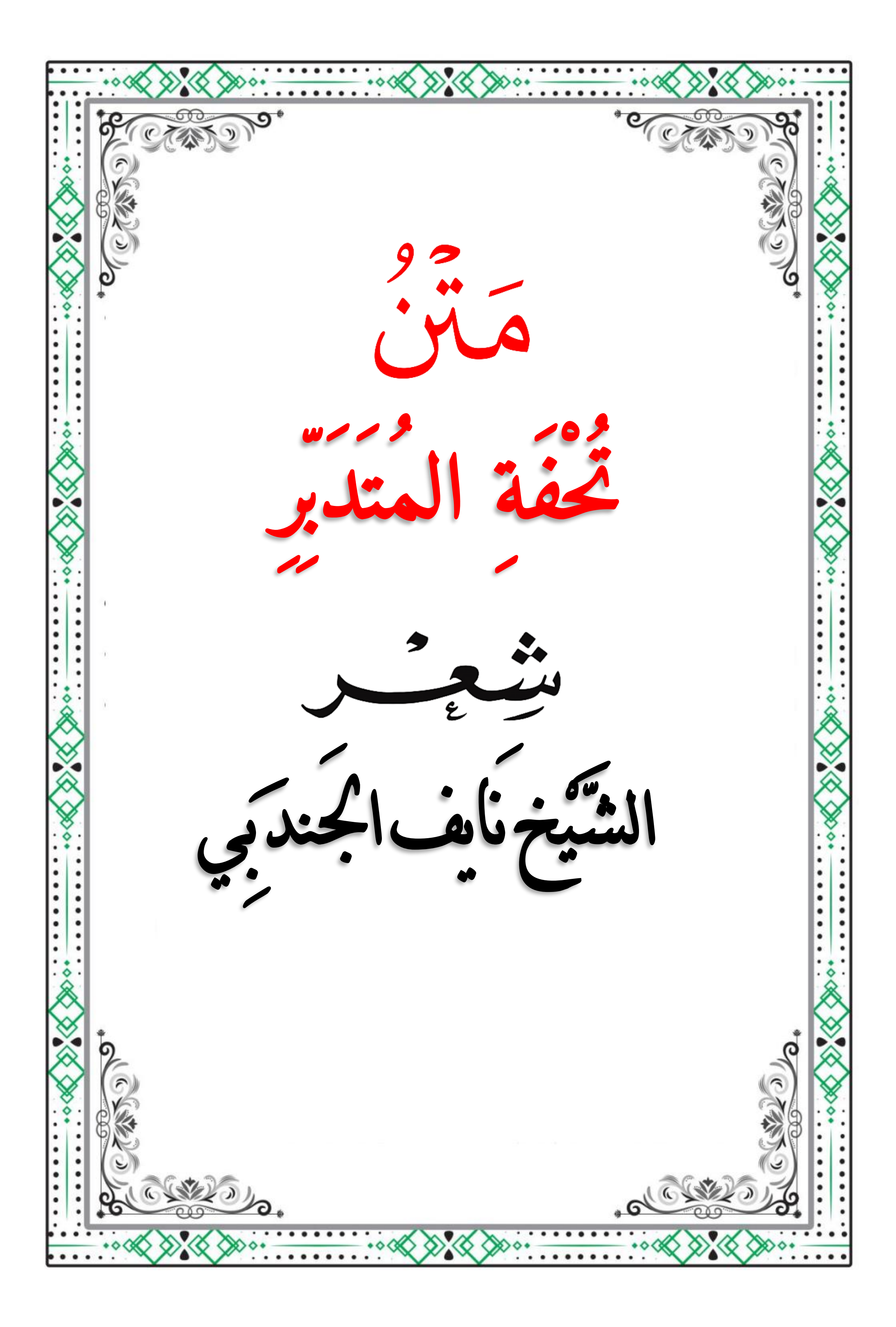
٤- أن يكون من عمل المختصين بالتدبر نشر الوعي بهذا المنهج بالتركيز على نشر الآثار الواردة عن السلف في ذلك مع التوجيهات المناسبة لذلك، وأن يتبنى منهجاً يجمع بين الجانب النظري بالتفسير والاستنباط والجانب العملي بالتوجيه للانتفاع والعمل. بحيث تضمن الرسالة الاستنباطية ما يمكن الاستفادة منه عملاً وسلوكاً.

ففي القرآن العظيم مساحات للتأمل والعظة، تتنوع فيه الدلالات، لكن تبقى اللغة هي الجسر الموصل إلى أسرار النظم القرآني، وهذا التأمل وتلك الأسرار يجب ألَّا تتحول إلى ترفٍ لُغَويّ؛ دون عناية بالهداية، ووصل الناس بكتاب ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ الذي هو عزهم وذكرهم، وفتح الباب أمام الناس، وإيقاظهم على بعض عجائب هذا الكتاب أمرٌ يجب ألَّا يهمل؛ لأنَّ معرفتهم بذلك، وعرضه لهم بأسلوب علمي مقبول؛ سيعظم قدر هذا القرآن في نفوسهم، مما يدفعهم للقيام بحقوقه؛ التي منها: تلاوته، وتعظيمه، والعمل به، وتدبره.

هذا ما يسر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كتابته في هذا المبحث، ولا يزال التدبر بحاجة إلى تدبر، نسأل الله تعالى أن يعقب هذه الخطوة خطوات فاعلة وآثار نافعة للإسلام والمسلمين كما نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن المتدبرين له والعاملين به، وأن يرزق الأمة عودة صادقة إلى كتاب ربها، وتقويم سبيلها به على وفق منهج سلفها الصالح.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





مَتْنُ تُحْفَةِ المُتَدَبِّرِ

شِعْرُ

الشَّيْخ نَايِف الجَندَبِي



تُحْفَةُ المُتَدَبِّرِ

الشَّيْخ نَايف الجَنَدَبِي

مُقَدِّمَة

١. حَمْدَاً لِرَبِّي مُنْزِلِ القُرآنِ
فِيهِ الهُدَى والنُّورُ لِلإِنْسَانِ

٢. سُبْحَانَهُ بِجَلَالِهِ مَا أَعْظَمَه
وَبِهَدْيِهِ وَبَيَانِهِ مَا أَحْكَمَه

٣. يَدْعُو بِرَحْمَتِهِ العِبَادَ إِلَى الظَّفَرْ
بِتَدَبُرِ الآيَاتِ فِي كُلِّ السُّوَرْ

٤. فَهُوَ الطَّرِيقُ إِلَى النَّجَاةِ مِنَ الزَّلَلْ
وَهُوَ الشِّفَاءُ مِنَ المَصَايِبِ وَالْعِلَلِ

٥. ثُمَّ الصَّلاةُ مَعَ السَّلامِ عَلَى الرَّسُولِ
مَنْ بِالكِتَابِ أَنَارَ ظُلْمَاتِ العُقُولِ

تَعْرِيفُ التَّدبُّرِ وَعَلَاقَتَهُ بِالمُصْطَلَحَاتِ الأُخْرَى

٠٦ يَا تَالِيَ الآيَاتِ فِي القُرآنِ

بِتَدَبُّرٍ لِشَوَاهِدٍ وَمَعَانِي

٠٧ إِنَّ التَّدَبُّرَ مَا يَدُلُّ المُبْصِرَا

عَنْ آخِرِ الأَشْيَاءِ فِيْمَا فَكَّرَا

٠٨ أَمَّا اصْطِلَاحَاً فَهْوَ إِمْعَانُ النَّظَرْ

فِيْمَا وَرَاءَ اللفْظِ مِنْ كُلِّ العِبَرْ

٠٩ وَبِمَا يَجِيءُ مَعَ العُلُومِ النَّافِعَه

وَبِكُلِّ أَدْوَاءِ القُلُوبِ النَّاجِعَه

١٠ فِي رَأْيِ أَسْلَافِي امْتِثَالٌ فَالعَمَلْ

فِي كُلِّ مَا يَهْدِيْهِ أَوْ فِيْهِ ابْتَهَلْ

١١. يتناولون مُفصَّلاً بل محكماً

من آخر القرآن فيما أحكما

١٢. يتعاهدون العَشْرَ من آياتِهِ

بِتَدَارُسٍ وتدبُّرٍ لِصِفَاتِهِ

١٣. وكذا علاقَتُهُ مع التَّفسيرِ

بِالكَشفِ عَن مَعَنًى بِلا تَزْوِيرِ

١٤. أمَّا علاقَتُهُ معَ الألفَاظِ

فالكَشْفُ بالتفكيرِ والإلحَاظِ

١٥. وفِي الاصطِلَاحِ البَحْثُ عَنْ أَحْوَالِهِ

فَعَلَى مُرَادِ اللَّه مِن إِنْزَالِهِ

١٦. وَإِذا التَّدبُّرُ ضَرَّ بِالتَّفْسِيرِ

فنردُّهُ مِن بَعدِ كُلِّ جَدِيْرِ

١٧. بَل قُوَّةُ التَّفسير فِي إمعانِ

مِن قُوَّة الإِيقانِ والإِيمَانِ

١٨. وكذا علاقتهُ مَعَ التَّأوِيلِ

فَهِي اكتِشَافُ حَقَائقِ التَّنزِيلِ

١٩. أمَّا عن استنباطِهِ فِي فَهمِهِ

فَالكَشْفُ عن مَعنَى الكلامِ وَحُكمِهِ

٢٠. تأتي عَلاقَتُهُ عَلَى فهمِ الكِرَامِ

بِتَصَوُّرِ المعنَى الخفِيّ مِنَ الكَلَامِ

٢١. تَمضِي عَلَاقَتُهُ مَعَ التَّفْكِيرِ

بِتَقاربٍ يَجْرِي عَلَى التَّيْسِيرِ

٢٢. فهُنا التَّفَكُّرُ فِي الدَّلائِلِ سَائِرٌ

وهُنَا التَّدبُّرُ فِي العَوَاقِبِ نَاظِرٌ

٢٣.وَعَنِ التَّدبُّرِ مَن يُسَائِلُ فِي الخَلَفْ

عَنْ قِلَّهٍ فِي لَفْظِهِ عِنْدَ السَّلَفْ

٢٤.فَهُو الطَّرِيقُ لَهُمْ إِلَى التَّحْقِيقِ

مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ بِكُلِّ طَرِيْقِ

فَضْلُ التَّدبُّرِ

٢٥. فَضْلُ التَّدبُّرِ يَا أَخِيْ مُتَعَلّقُ

فِي فَضْلِهِ فَهُو الكِتَابُ الأَصْدَقُ

٢٦. فَتَدَبُّرُ القُرآنِ فِيهِ فَوَائِدُ

وَمَنَافِعٌ يَرقَى بِهِنَّ العَابِدُ

٢٧. هَذَا طَرِيقُ العَالِمِينَ بِكُنْهِهِ

العَاقِلِينَ بِأَمْرِهِ وَبِنَهْيِهِ

٢٨. وَكَذَا القَلِيْلُ تِلَاوَةً وَتَدَبُّرَا

فَأَحَبُّ لِلرَّحْمَنِ مِمَّن أَكْثَرَا

أَهَمِّيَّةُ التَّدَبُّرِ

٢٩. وتَدَبُّرُ القُرآنِ فِي أقْوَالِهِ

أمْرٌ هُو المَقْصُودُ مِن إنْزَالِهِ

٣٠. فَاللَّهُ أَنْكَرَ مَن يَقُومُ بِهَجْرِهِ

أَوْ لا يُفَكِّرُ فِي مَعَانِي ذِكْرِهِ

٣١. فَيُعَدُّ ذَلِكَ فِي القُلُوبِ ضَلاَلَهَا

أَو تَارِكًا فِي قَلْبِهِ أَقْفَالَهَا

٣٢. إِذْ لا سَبِيلَ إِلَى مَطَالِبِ عِلْمِهِ

إِلَّا التَّدَبُّرُ فِي الكِتَابِ وَفَهْمِهِ

٣٣. فَهُو السَّبِيلُ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمْ

والنُّصْحِ لِلقُرآنِ، والعَمَلِ العَظِيمْ

٣٤. خَيْرُ العِبَادَةِ لِلإِلَهِ تَقَرُّبَا
بِكَلَامِهِ، وأَجَلُّهَا مَا أَوجَبَا

ثَمَرَاتُهُ وَنَتَائِجُهُ

٣٥. ثمراتُهُ يا صاحِبِي ونَتَائِجُهْ
تُقضَى بِهِ لِذَوِي اليَقِينِ حوائِجُهْ

٣٦. فَبِهِ اليَقِينُ يَزِيدُ والإِيمَانُ
وَهُوَ السَّبِيلُ لِما أَتَى القُرآنُ

٣٧. وَهُوَ السَّبِيلُ إِلى المَوَاعِظِ والعِبَرْ
وَهُوَ المُحَاسِبُ لِلنُّفُوسِ مِن الخَطَرْ

٣٨. وَبِهِ نُمَيِّزُ مَا يُحِبُّ اللَّه
مِمَّا يُسَخِّطُهُ وما يرضاه

٣٩.وَصِفَاتِ أحبَابِ الإِلهِ المتقَين

وَصفاتِ أعداءِ الإلهِ المجرمين

٤٠.وهُو المُرقِّقُ للقلوبِ بِشَحْنِها

نُورٌ يجُلِّيهَا إلى تَلِيينِها

مَظَاهِرُهُ وعَلَامَاتُهُ

٤١.أمَّا مظَاهِرُهُ عَلى الأَبْدَانِ

فَحَقِيقَةُ التَّطبِيقِ لِلقُرآنِ

٤٢.فَالأُذْنُ تَفْتَحُ لِلتِّلَاوَةِ سمعَهَا

والعَيْنُ تَذْرِفُ من خُشُوعٍ دَمْعَهَا

٤٣.والقَلْبُ مُنشَغِلٌ بِهِ عَنْ غَيرِهِ

والجِسْمُ مُتَّبعٌ لِما فِي أمرِهِ

مَوضُوعُهُ وَمَطَالِبُ المُتَدَبِّرِينِ

٤٤.موضوعهُ القُرآنُ يَا مُتَدَبِّرُ

فِيهِ مَطَالِبُهُ لِبَعضٍ نَذْكُرُ

٤٥.أُولَى المَطَالِبِ فِي الكِتَابِ تَدَبُّرا

صِدقُ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الوَرَى

٤٦.وَكَذَا اعتِرَاضُ الحَاقِدِينَ لِصِدقِهِ

كِبْرٌ وَكُفْرٌ فِي نَخَامَةِ قَدْرِهِ

٤٧.دُونَ التَّدبِرِ كيفَ يُعرَفُ مُهتَدِي

مَا كَانَ بِالهَدْيِ الصَّحِيْحِ بِمُقْتَدِي

٤٨.بَل لِلتَّدبُّرِ أوجهٌ مُتَعَدِّدَهْ

يَلْقَى بِهَا المُتَدَبِّرُونَ الفَائِدَه

٤٩.مِنْهَا اتِّسَاقُ لِلمَعَانِي فِي السُّوَر

فِيهَا ائتِلَافُ الحُكْمِ مَعْ كُلِّ العِبَر

٥٠.وَكَذَلِكَ التَّأْبِيدُ مِنْهُ لِبَعْضِهِ

بِالصِّدقِ والتَّحقِيقِ فِيهِ لِوعْظِهِ

٥١.لو كَانَ مِنْ غَيرِ الإِلهِ تَنَزُّلَا

لَتَنَاقَضَتْ أَحْكَامُهُ فِيما تَلَا

٥٢.وأبانَ ذَلكَ عَن فَسَادٍ فِي الخبَرَ

كُلَّ الغيوبِ الماضِيَاتِ وَمَا حَضَر

٥٣.وَلَقَدْ تحَدَّى الجِنَّ والإِنسَانَا

أَنْ يأتِيا مَعْ آيَةٍ قُرآنَا

٥٤.فِي نَوعِهِ الثَّانِي الوقُوفُ عَلَى القَصص

وعِظَاتِهَا، فَلنَعْتَبِرْ فِي كُلِّ نَصٍّ

٥٥.وَتَعَقُّلُ الأمثَالِ فِي القُرآنِ

وَوَعِيدِهِ وَالوَعدِ بِالغُفْرَانِ

٥٦.والحَثُّ بِالتَّرغِيبِ والتَّرهِيبِ

لِلعَبْدِ قَبْلَ المَوتِ والتَّعْذِيبِ

٥٧.والثَّالِثُ المُتَدّبِّرُ المُسْتَخْرِجُ

أَحْكَامَهُ فبِنُورِهِ نتوهَّجُ

٥٨.أحكامُهُ يا صاحِ في أنْ تعتَقِدْ

بِجَمِيعِهَا وكَذَا سُلُوكُ المُجْتَهِدْ

٥٩.والرَّابعُ المُتَدَبِّرُ الأَخْبَارِ

فِي جنَّةٍ فِي وَصْفِهَا فالنّارِ

٦٠.فِيمَا يُحِبُّ اللَّهُ مِن أَوصَافِ

وَبِمَا قَلى مِنْهَا مَعَ الإِنْصَافِ

٦١. وَالخَامِسُ المُتَدَبِّرُ القُرآنِ

بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَبَيَانِ

٦٢. فَلَهُ وُجُوهٌ فِي الخَطَابَةِ تُبْهِرُ

إِعْجَازُها لجَوى المُخَاطَبِ يأسِرُ

٦٣. وَهّاجَةٌ بِلَطَائفٍ لُغَوِيّة

فِي أَسْطُرٍ منسُوقَةٍ وَبَهِيّة

٦٤. فِي سَادِسٍ من مطْلبِ المُتَدَبِّرِ

لِطَرِيقَةِ الإِقْنَاعِ لا بِتَجَبُّرِ

٦٥. فِي دَعْوةِ الإِنسانِ لِلرَّحْمَنِ

باللَّينِ والإِقنَاعِ والبُرهَانِ

٦٦. فِي سَابِعٍ أَنّي لَمُسْتَغْنٍ بِهِ

عَن غَيْرِهِ إِلَّا حَدِيثَ نَبِيّهِ

٦٧. فِي ثَامِنٍ مِن أجلِ تليينِ القُلُوب

مُتَدَبِّرٌ يَمْحُو مِنَ القَلبِ الذُّنُوب

٦٨. فِي تَاسعٍ مُتَدَبِّرٌ فَلَهُ امتثَلْ

فِي أَمْرِهِ أو نَهْيهِ فَمَعَ العَمَلْ

أَركَانُ التَّدبُّرِ

٦٩. فثلاثةٌ أَركَانُه مُتَدَبِّرٌ

وتَدَبُّرٌ وكلامُهُ المُتَدَبَّرُ

شُروطُ التَّدبُّر

٧٠.وهُنَا شُروطٌ للتَّدبُّر ناصِحَةْ

مِن أوَّلِ القُرآن بَعْدَ الفَاتِحَةْ

٧١.مِن شَرطِهَا القَلْبُ السَّلِيمُ الخَاشِعُ

فالغيثُ للأَرضِ السَّلِيمةِ زَارعُ

٧٢.معَ الاستِمَاعِ أو القراءةِ بِالحِجَا

والقَلبِ ممَّا يرتَضِيه المُرتَجَى

٧٣.فبِالاستماع إليهِ من آدابِهِ

حَصْرُ الجوَارحِ كلِّها في بابِهِ

٧٤.أمّا القِرَاءةُ بالخشوع تدبُّرا

فهِي الطريقُ إلى تدبُرِ ما يُرى

٧٥.وَلِقَارِئ القُرآنِ أوقاتٌ لَها

جوٌّ بلا شُغلٍ يُشوّشُ حالَها

٧٦.وحُضورُ لبٍ خاشعٍ مُتأثرِ

يَرعى مَقامَ تفكُّرٍ وتدبُّرِ

٧٧.ومَعَ التَّرسُّل فيه والتّرتيلِ

وكذلك التَّكرارُ للتَّنزِيل

٧٨.فَقِراءةٌ بتفُّهمٍ وتفكُّرِ

خيرٌ من الإكثارِ دُون تدبُّرِ

٧٩.ومَن المُعينِ على الكتّاب تدبُّرا

بين القراءةِ والسماعِ تأثُّرا

٨٠.جَنْيُ الفوائدِ من ثمار كتابِهِ

حُبّاً وتعظيماً لمن أوحى بِهِ

٨١.يا مَن تُرتِّلُه لتحصيل الأجُورِ

أو للتبَرُّكِ والدواءِ بلا شعورِ

٨٢.يا من تُرتِّلُه لتحصيلِ الأُجُورِ

أو للتَّبَرُّكِ والدَّوَاءِ بِلا شُعُور

٨٣.هذا كِتَابُ اللَّهِ ليسَ تَمَائمَا

ما كان يوماً للمريضِ طلاسما

٨٤.هذا الكِتابُ مُقدَّسٌ بتدبُّرٍ

وتفكُّرٍ وتأمُّلٍ وتأثُّرِ

٨٥.تقديسُهُ طوعاً معَ التَّطبيقِ

شرعاً يقودُ النَّاسَ للتَّحقِيقِ

٨٦.أنت المُخاطَبُ في كتابِ اللَّهِ

لا تمْرُرَنَّ بِهِ مُرُورَ السَّاهِي

٨٧. كُنْ مُخْلِصاً لِكِتَابِهِ كُنْ مُقْبِلا

مُتَقَرِّباً بِكَلامِهِ مُتَبَتِّلا

٨٨. أمَّا تلاوته فكَانت معْ دُعَا

يَتلُونه حقّ التِّلاوةِ خُشَّعا

٨٩. واجْعَلْه في الأقْوالِ والأفْعَالِ

مُتَنَزِّلا فِي سَائِرِ الأَعْمَالِ

٩٠. وَمِنَ الشُّرُوطِ كَمَا أَتَى المُتَدَبِّرا

ألَّا يكونَ الفَهمُ غَهْماً مُعسِرا

٩١. بَل إِنَّمَا فَهْمٌ عَلَى مِقْدَارِهِ

وَمَعَ اعْتِدَالِ الفَهْمِ فِي أَفْكَارِهِ

٩٢. لَا تَعْتَنِي بِالكَثِيرِ الفَهْمِ

فَأَكُونَ فِي التَّفْسِيرِ كَابْنِ القَيمِ

٩٣. إِنَّ التَدبُّرَ لا يَخُصُّ العَالِمَا

بل لِلجَمِيعِ تَدبُّراً وَتَفَهُّما

قَوَاعِدُ التَّدبُّرِ

٩٤. يا مَنْ أَرَدْتَ الغَوصَ فِي المُتَدَبَّرِ

فَلْتَفْهَمِ الفُصْحَى بِكُلِّ تَبَصُّرِ

٩٥. وَلْتَجْمَعِ الأَقْوَالَ فِي التَّفْسِيرِ

مِنْ كُلِّ فَذٍّ عَالِمٍ نِحْرِيرِ

٩٦. وَاحْصُلْ عَلَى دَرَجَاتِهِ القُصْوَى بِهِ

بِدَلَالَةِ الأَلفَاظِ مَعْ تِبْيَانِهِ

٩٧. فَعُمُومُهَا وَخُصُوصُها وَالمُجْمَلَهْ

وَكَذَلِكَ المَفْهُومُ أَوْ مَا فَصَّلَه

٠٩٨.وَخَصَائِصُ التَّرْكِيبِ فِي آيِ السُّوَرِ

فَمَعَ القِيَاِ عَلَى المَعَانِي وَالخَبَرِ

٠٩٩.وَلِكُلِّ مَالِكِ قَلْبِهِ فِي صَدْرِهِ

وَجَبَ التَّدَبُّرُ فِي الكِتَابِ بِأَمرِ

٠١٠٠. ولِمَن لهُ سَمْعٌ إِلَى مُتَكَلِّمِ

أَيْضاً وَإِلَّا كَانَ مِثْلَ الأَعْجَمِيّ

مَا يُضْعِفُ التَّدبُّر

١٠١. وهُنَا أُمُورٌ تُضْعِفُ المُتَدبِّرَا
فَيَكُونُ لَا سَمْعَاً وَلَا مُتَبَصِّرَا

١٠٢. منها المعاصي والذُّنُوبُ الرَّانِيَه
فتُعِيقُ فَهْمَ الآيَةِ القُرآنِيَه

١٠٣. وَتَخَاطُ وَمَعَ التَّفَحُّشِ فِي النَّظَر
والنَّومُ والأَكْلُ المُسَبِّبُ للضَّجَر

١٠٤. أَو بِانْعِدَامِ وُجُودِ قَلبٍ حَاضِرِ
أَو حَاضِرٌ لَكِنْ بِوَادٍ آخَرِ

١٠٥. فَكَأَنْ يَكُونَ مُحَاسِباً فِي كَمْ وَكَمْ
يَتْلُو بِهُودَ وعَقْلُهُ فِي جُزْءِ عَمْ

١٠٦. أَو بِانْشِغَالٍ بِالحُرُوفِ مَخَارِجَا
أَوْ بِالمُدُودِ تَكَلُّفاً وَتَعَرُّجَا

١٠٧. أَو رَاغِباً فِي قِلَّةٍ عَن فَهْمِهِ
يَلْهُو بِعِلْمٍ آخَرٍ عَنْ عِلْمِهِ

١٠٨. أَو فِي التَّوجُّعِ وَالهُمُومِ المُضْنِيَه
أَو غَيرِهَا تَأْتِي الأُمُورُ المُلْهِيَهْ

١٠٩. أَيْضاً وَمِنْهَا مَا تَصَوَّرَهُ الغَبِيّ
بِخُصُوصِهِ أَدْوَاءَ فِي عَصْرِ النَّبِيّ

١١٠. أَو لَيْسَ حَلَّاً لِلقَضَايَا الحَاضِرَهْ
فَهَذَاكَ غَبَاءٌ لِلعُقُولِ القَاصِرَهْ

١١١. بَلْ مَنْ يَرَى فِي تَرْكِهِ المُتَدَبَّرَا
مُتَوَرِّعاً عَنْ زَلَّةٍ أَو مُفْتَرَى

١١٢. فَهذَاكَ عُذْرٌ غَيرُ مَقْبُولٍ بِهِ
وَأَشَدُّ قُبْحَاً يَا أَخِي مِنْ ذَنْبِهِ

مَنْهَجِيَّةُ التَّدَارُسِ

١١٣. فَتَدَارَسُوا القُرآنَ يَا إِخْوَانِي
لِيَحُفَّكُم بِمَلائكِ الرَّحْمَنِ

١١٤. والخمسةُ التَّاءاتُ للمُتَدَارِسِ
فتُثَبِّتُ القرآنَ عِنْدَ الدَّارِسِ

١١٥. فَالأُوْلَى لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّشْوِيقِ
أَيْضَاً وَعَدِّ الآي وَالتَّوثيقِ

١١٦. أَو ذِكْرِ أَسْبَابِ النُّزُولِ مَعَ العِبَرَ
وَالمكِّ وَالمَدَنِي وَمَوضُوعِ السُّوَرَ

١١٧. أَو تَاءُ تَجْوِيدٍ وَضْبطٍ صَادِحَهْ

بِتَرَسُّلٍ فِيهَا التِّلَاوَةُ وَاضِحَهْ

١١٨. أَو تَاءُ تَفْسِيرٍ وَتَا مُتَدَبِّرِ

فَيَنَالُ مِنْهَا الأَجْرَ كُلُّ مُشَمِّرِ

١١٩. أَو تَاءُ تَزْكِيَةٍ لَهَا الأَبْدَانُ

طَوعٌ بِهَا أَخْلَاقُهَا القُرآنُ

الخَاتِمَة

١٢٠. هَذِي المُتُونُ هِي الدَّلِيلُ تَبَصُّرَا
وَلِمَنْ تَلَا مُتَرَسِّلاً مُتَدَبِّرَا

١٢١. فَلَقَدْ تَقَضَّتْ تُحْفَةُ المُتَدَبِّرِ
فانْظُرْ إِلَيْهَا نَظْرَةَ المُستَعبِرِ

١٢٢. ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى
مَعْ آلِهِ أَهْلِ التَّدَبُّرِ وَالوَفَا

١٢٣. مَع صَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ المُقْتَفَى
وَالمُهتَدِيْنَ بِهَدِيِهِ مِمَّنْ صَفَا

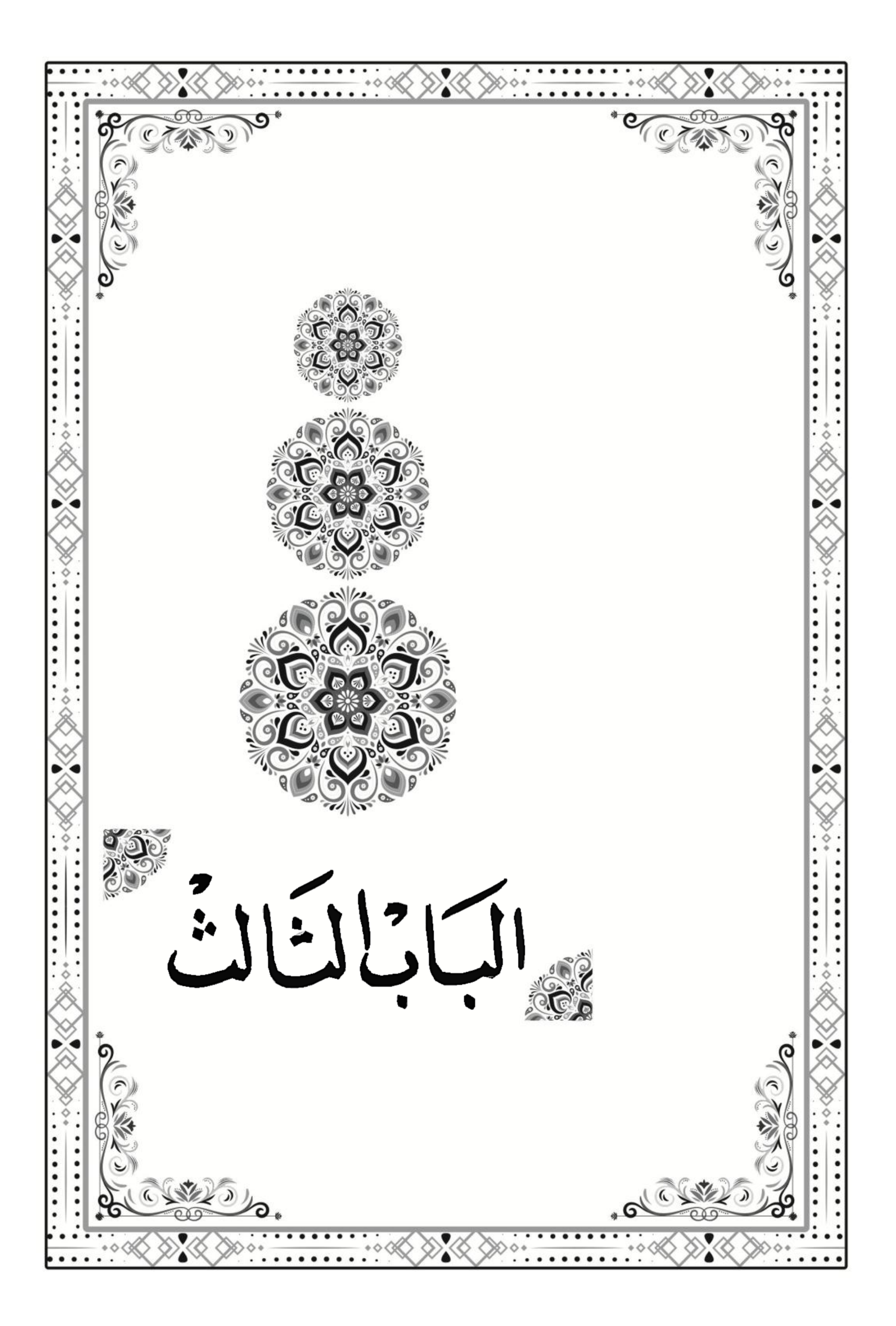
١٢٤. ثُمَّ الخِتَامُ إِلَى رَحِيمٍ أَلْتَجِيْ
أَنْ يَغفِرَ الزَّلاتِ هَذَا مَنْهَجِي

١٢٥. أَن يَقْبَلَ المَنْظُومَ فِي المُتَدَبِّرِ

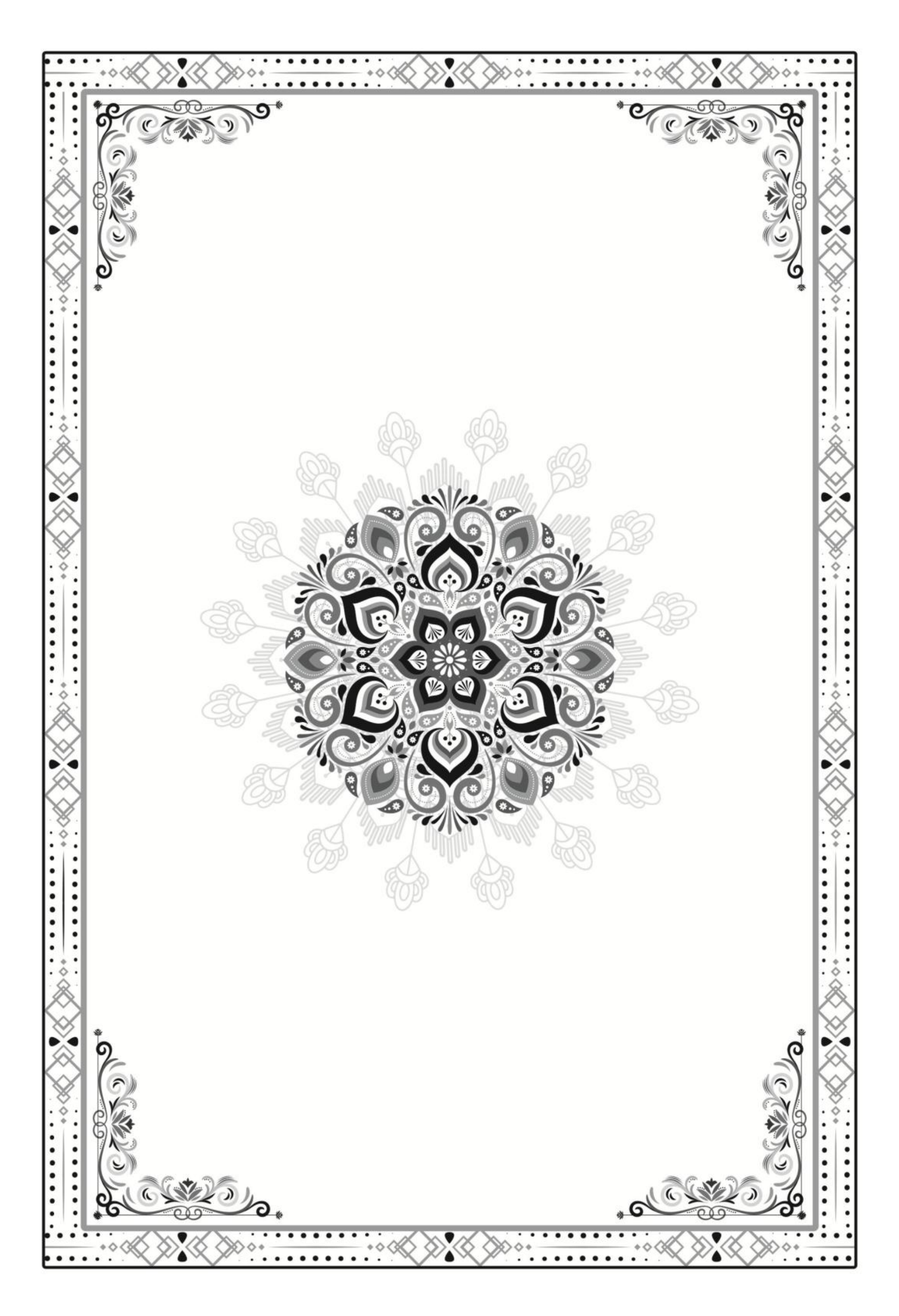
مَعْ نَفْحَةٍ قُدسِيَّةٍ بِتَسحُّرِ





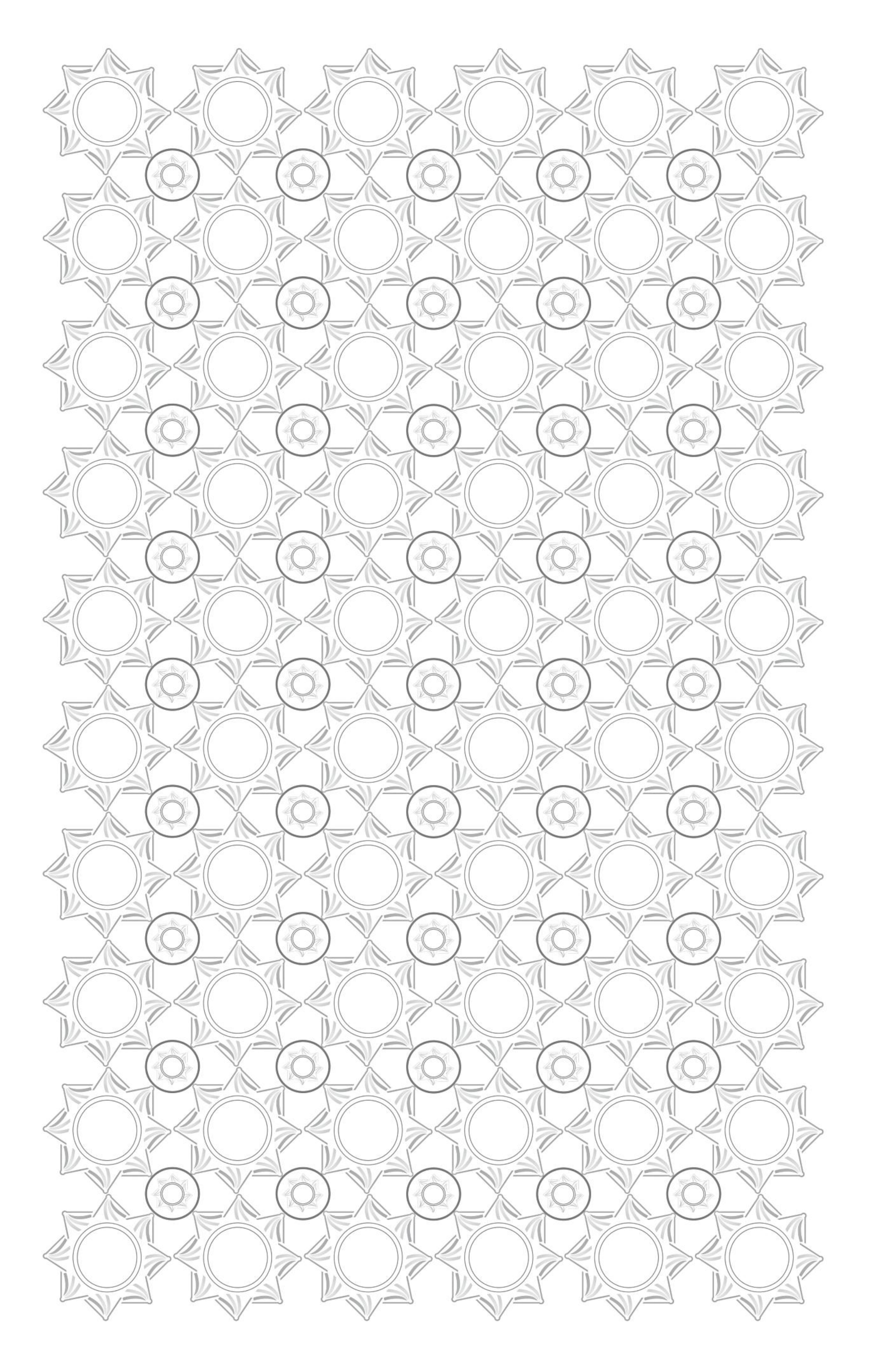


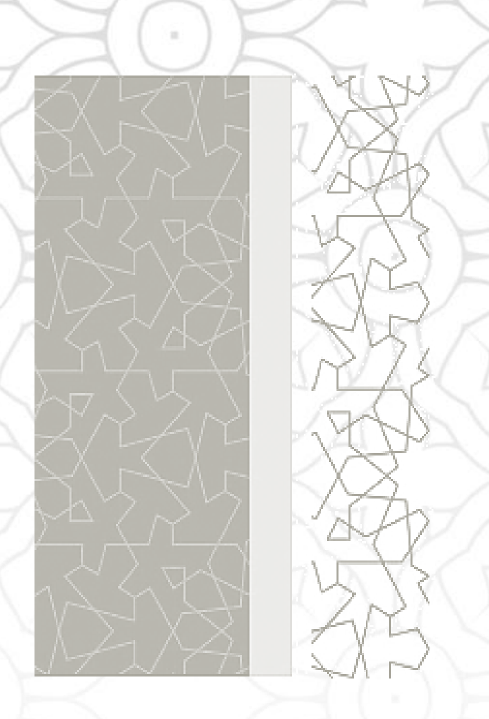
البَابُ الثَالِثُ



البَابُ الثَّالِثُ

آفات مردية





آفَاتٌ مُرْدِيَةَ

لقد أنعم اللهُ عَزَّوَجَلَّ علينا في هذا الزمان بهذه الصحوة المباركة في تدبُّر القرآن الكريم، وهذه النهضة في ميادينه على مستوى التأليف والتدريس والتطبيق، بل قد نشأت بعض المؤسسات العلمية والتربوية أصالةً للعناية بهذا الغرض الشريف، وصار موضوع تدبُّر القرآن حاضرًا في الحلقات القرآنية بعد أن غاب عنها طويلًا.

تدبُّر القرآن.. تلك الكلمة الجميلة التي حجبتها سُحُب الغفلة، وانصرف الناسُ عنها حتى كادت آثارُها تمحي في نفوسهم، بينما كانت علاقةُ بعضهم بالقرآن مقتصرةً على حفظ ألفاظه، وإتقان أحكام تجويده، وعلاقة آخرين مقتصرةً على قراءة حروفه هذًّا كهذِّ الشعر، لا يَتجاوزُ الحروفَ إلى ما وراءها من الهُدى والنور الذي وصف اللهُ عَزَّوَجَلَّ به كتابَه الكريم.

ثم كانت هذه العودة لتنفضَ الترابَ عن هذا الكنز المَغْفُولِ عنه، ولتنقشعَ تلك السحب، ولتَرفعَ الغشاوةَ عن أعينٍ طالما حُرمتْ مِن الاهتداء بآيات القرآن والانفعال والتأثّر بها، وكثُرت المحاضرات والدورات والمؤلفات في مجال تدبُّر القرآن، ثمَّ خرجت مِن ضيق صالات الدرس ومدرجات الجامعات إلى رحابة الأمة الواسعة؛ متخصِّصيها وغير متخصِّصيها، كبيرها وصغيرها، عالمها وجاهلها.

وإنَّ عودة الأمة وانبعاثها إلى مجدها من جديد لن يكون إلا من خلال ذلك الحبْل الذي جعل اللهُ عَزَّوَجَلَّ طرفَه بيده وطرفَه بأيدينا، وهو هذا القرآن العظيم؛ لذا فما زلنا في حاجة إلى مزيدِ توعيةٍ ونشرٍ لثقافة تدبُّر القرآن؛ فإن الصحوة وإن كانت ملحوظةً للمتابع بصورة واضحة، إلا

أنها ما زالت في أولى خطواتها، وإنما أينعت ثمارُ خطواتِها الأولى ببركة هذا الكتاب المجيد الذي جعله اللهُ مباركًا، ولعلَّ في هذه الثمار العاجلة مزيدَ ترغيبٍ وحثٍّ للانطلاق إلى مزيدٍ مِن بثِّ الوعي بشأن تدبر القرآن الكريم.

والانبعاثُ مِن تحت الركام قد يعتريه بعضُ الزلل، ويعتَوِرُه بعضُ النقص، وقد تَعرِض له أعراضٌ تحتاج إلى تقويمٍ وتوجيهٍ وتصحيحٍ، فينبغي إعادةُ النظر والتقويم لما يُطرَح في هذا الباب دوريًّا لتصحيح مسارِه، وتوجيهه التوجيه الأمثل، فإنَّ كل علم معتدّ به كثير المنافع والفوائد، لا يخلو من محاذير تحيط به، تنتج غالباً من تعاطي هذا العلم وصفة أخذه وتلقّيه.

والنّاظر في دنيا النَّاس يجد أنّ بعضاً من الأمور الشّخصيّة، نفسية أو خلقيّة أو عقديّة مذهبيّة أو بيئية اجتماعيّة - تشكّل حجاباً حاجزاً بين أصحابها وبين تعاملهم مع كتاب ربهم تدبراً وفهما؛ لذا من الأهمية بمكان أن نقف مع هذه العوارض والموانع للتّعرُّف عليها وتفاديها أو التّخلُّص منها، وتقديمنا إياها على منهجيّة التّدبُّر من باب التَّخلية قبل التّحلية، وهذا ما سنبسطه فيما يلي:

أولاً: الموانع الشَّخصيَّة:

يقصد بالموانع الشَّخصيَّة: الأمور النّفسيّة أو الصّفات الخلُقيّة الّتي يتّسم بها الشّخص، أو الآراء والمذاهب الّتي يعتقدها وتؤثر سلباً في تعامله مع كتاب الله تعالى، وهي عديدة متنوعة، وأبرزها ما يلي

١- أمراض القلب.

٢- انشغال القلب والجوارح بغير المتلو وشرود الذهن.

٣- قصْر القلب على أوقات أو آيات معيّنة.

٤- توهُّم عدم تنزيل الواقع على القرآن، وقصْره على أحوال انتهت.

٥- ترك التّدبُّر تورُّعاً عن القول في كلام الله بغير علم.

٦- الوقوف عند جمال الصّوت، وانصراف الهمّة إلى تكثير عدد الختمات.

٧- قصْر الهمّة على تحقيق الحروف والمخارج.

٨- تقديم ما دون التّدبُّر من العلوم والمعارف.

٩- الذُّنوب والمعاصي.

١٠- الغفلة عن سماع القرآن.

١١- ضعف تعظيم القرآن، والزيغ والانحراف العقدي.

١٢- القصور في الفهم.

١٣- الفهم الخاطىء لكتاب الله.

١٤- زعم أن القرآن لا يفهمه إلا المتخصّصون.

١٥- الورع البارد.

١٦- الكبر.

١٧- ضعف الإيمان باليوم الآخر.

١٨- ضعف اللغة العربية.

١٩- الصفحات الموجَّهة ونهاية الأرباع والأجزاء.

٢٠- مجالس اللغو.

ثانياً: الموانع الأسريّة والاجتماعيّة :

من المعلوم أنَّ الأسرة والبيئة الّتي ينشأ فيها الفرد لها أثر فاعل في تكوين ثقافته والتأثير عليه سلباً وإيجاباً، فإن كانت البيئة المحيطة مستقيمة دينيّاً وعقديّاً، ناضجة عمليّاً وثقافيّاً، ومتزنة فكريّاً وخُلقيّاً، أنتجت أفراداً أسوياء ناضجين، والعكس بالعكس.

ولا يخفى أنَّ طريقة حفظ القرآن وتعلّمه وتعامل المجتمع معه - تكون ذات أثر فعّال في استجلاء مكنونات النَّص والوقوف على معانيه وأسراره، وقد تكون مانعة من الوصول إلى ذلك، صابغة العقل بصبغة تحجبه عن روح النّص، إمّا بليّ عنقه، أو بإخراجه عن سياقه، أو بحشو تفسيره بالأباطيل والإسرائيليات ... وغير ذلك مما يجعل تفسير القرآن وتدبُّره أمراً شاقّاً على العامّة، خاصّة بطائفة معيّنة من العلماء.

ومن هنا تبرز أهميّة البيئة، وبيان دورها في كونها صارفة من صوارف التَّدبُّر، ويتلخّص هذا الدَّور فيما يلي:

١- تقصير الأسرة في جانب التّدبُّر، وعدم إذكائه وضبطه بين أفرادها.

٢- قَصْر اهتمام المجتمع بحفظ القرآن دون فهم معانيه وتدبّره.

٣- ضعف اللغة العربية وشيوع العاميّة بين أفراد المجتمع.

٤- تقليص المجتمع لدور القرآن الكريم.

٥- الأميّة العقليّة، وشيوع روح التّقليد والتّبعيّة.

٦- التّلهّي بوسائل التقنية والإعلام عن القرآن وتدبُّره.

ثالثاً: موانع منهجيّة:

١- عدم التّصوُّر الصحيح للقرآن الكريم.

٢- التّعبير عن القرآن الكريم بغير أسمائه وصفاته.

٣- قلة العلم بعلوم القرآن واللغة وسائر العلوم الخادمة للتّفسير.

٤- الزُّهد والتزهيد في كتب التّفاسير.

٥- الفهم الخاطىء لمعاني كلام الله تعالى الموقع في حبائل الهوى، والشُّعور بتناقض القرآن، والاعتقاد بمخالفة القرآن للوقائع والحوادث التَّاريخيّة، والافتراء على الأنبياء واتّهامهم بما لا يتصوره مسلم.

٦- اتّباع المتشابهات وترك المحكم من كتاب الله.

٧- الاعتماد على الأحاديث الواهية والضّعيفة عند التّدبُّر، ورد الأحاديث الثَّابتة والصَّحيحة.

٨- الجهل بالنَّاسخ والمنسوخ المفضي إلى الفهم الخاطىء.

٩- الجهل بأسباب النُّزول.

١٠- عدم معرفة مدلولات ألفاظ اللغة العربية، ومخالفة الرَّاسخين في العلم.

١١- تكوين تصوّرات خاطئة عن أقوام من البشر.

١٢- إخضاع الأيات القرآنّية لمخترعات ونظريّات غير مناسبة.

ضوابط في تدبر القرآن الكريم

حث الله عباده على تدبر الوحي والنظر فيه من جميع جوانبه؛ في قصصه وأخباره وأحكامه، وأمر نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن يبين هذا الوحي للناس ليسهل عليهم تدبره وفهم معانيه على وفق مراد الله عَزَّوَجَلَّ، فقال سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد ذكر الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ في مقدمة تفسيره الأوجه التي يعرف بها تفسير القرآن، فقال: "إنها أنواع، منها: ما لا يعلم إلا بتفسير من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره -واجبه ونَدْبِهِ وإرْشاده-، وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيِهِ التي لم يُدرَك علمُها إلا ببيان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ لأمَّته.

وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ له تأويلَه بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصَبها دالَّة أمَّتَه على تأويله.

ومنها: ما لا يعلمه إلا الله، كقيام الساعة، وحقيقة الروح، والنفخ في الصور، ونزول عيسى والدجال، وغير ذلك.

ومنها: ما يعلم تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك إقامةُ إعرابه، ومعرفةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإنّ ذلك لاَ يجهله أحدٌ منهم، وذلك كسامعٍ منهم لو سمع تاليًا يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، لم يجهلْ أنّ معنى الإفساد هو ما ينبغي تركُه مما هو مضرَّة، وأن الإصلاحَ هو ما ينبغي فِعله مما فعلهُ منفعةٌ، وإنْ جَهِل المعانيَ التي جعلها الله إفسادًا، والمعانيَ التي جَعلها الله إصْلاحًا.

فالذي يعلمه ذو اللسان - الذي بلسانه نزل القرآنُ- من تأويل القرآن هو ما وصفتُ مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها

وصفاتها وهيآتها التي خص الله بعلمها نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، فلا يُدرَك علمُهُ إلا ببيانِه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه"(١).

وهذه الأقسام المسلم مطالب بمعرفتها والتوصّل إلى ما يمكنه علمه منها وفهمه؛ وذلك لا يكون إلا بالتدبر، فيسأل عن المشكل فيجاب عليه، ويؤمن بالمتشابه، ويزداد إيمانه بالمحكم، والتدبر لا يكون تدبرًا إلا بعد فهم المعنى، وطلب المعنى يحتاج تأمّلًا وفكرًا، وعدم الفهم يرجع إلى عدة أمور: الجهل بسبب النزول، والجهل باللغة، والجهل بالتركيب الطارئ على الكلمة بسبب السياق(٢).

وهنا يحسن بالقارئ والمستمع أن يتبع القواعد المعتبرة عند أهل العلم في فهم الوحي، وذلك بالرجوع إلى أسباب النزول، ومفردات القرآن، كما يراعي أن القرآن يهتم بالتركيب أكثر من المفردة، فإعجازه هو من جهة التركيب لا من جهة المفردات، "فالقرآن نزل بلسان العرب، وعلى مجاري خطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

(٢) ينظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر (ص: ١٧٩).

والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز"
(٣).

وقد يتكلّمون بالعام يريدون ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، إلى غير ذلك، فلا بد من فهم الكلام على أساليبهم، وإلا كانت عملية التدبّر تعمية على الإنسان، هذا فيما يتعلق بالمعاني والألفاظ (٤).

أما الأمثلة فإن تدبرها يكون بالنظر فيها وفيما تدل عليه كما أرشد إليه القرآن، وهذا كثير في أمثلة القرآن، سواء على البعث أو على التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ولكي يستفيد الإنسان من التدبر لا بد أن يتّصف بهذه الصفات التي ذكر الله في كتابه فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ [ق:٣٧].

قال ابن القيم مؤكدا على هذا المعنى المذكور في الآية: "وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثّر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول

---

(٣) تفسير البغوي (٥/ ٣١٨).

(٤) ينظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٦٣).

الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمّنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أشار إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَي: حيّ الْقلب، وَقَوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعه وأصغى حاسّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ أَي: شَاهد القلب حَاضر غير غَائب، قَالَ ابن قُتَيْبَة: استمع كتاب الله وَهُوَ شَاهد القلب والفهم، لَيْسَ بغافل وَلَا ساه، وَهُوَ إشَارَة إِلَى المَانع من حُصُول التأثير وَهُوَ سَهو القلب وغيبته عَن تعقل مَا يُقَال لَهُ وَالنظَر فيه وتأمله، فَإِذا حصل المُؤثر وَهُوَ القُرآن، وَالمحل القَابل وَهُوَ القلب الحَي، وَوجد الشرط وَهُوَ الإصغاء، وانتفى المَانع وَهُوَ اشتغَال القلب وذهوله عَن معنى الخطاب وانصرافه عَنهُ إِلَى شَيْء آخر؛ حصل الأَثر وَهُوَ الانتفَاع والتذكر "[٥].

---

(٥) الفوائد (ص: ٤).

تحسين الصوت بالقرآن:

" المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي فالقرآن ينزه عن هذا، ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: حدثنا نعيم بن حماد، عن بقية بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزاري: سمعت شيخا يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: (اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين، ويجيء قوم من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم) [٦].

---

(٦)تفسير ابن كثير (١/ ٦٤). والحديث ضعّفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١١٨)، وقال الذهبي في الميزان ١/ ٥٥٣: "منكر".

فإذا فهم المسلم القرآن على نحو ما أنزل به من عادة العرب في ألفاظهم وكلامهم، وسلك به سبيل ذلك؛ أصاب المعاني الصحيحة له، وإذا حسَّن به صوته على طريق العرب اكتمل تأثير القرآن في قلبه، وعلى جسده، فتحقّق فيه معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد يقع للناس تداخل بين معنى التدبّر والتأثّر، فيجعلونَ القشعريرةَ التي تصيبُ الإنسان والخشوعَ الذي يلحقُه بسبب تأثير القرآن عليه هو التدبرُ، وليسَ الأمرُ كذلك، فالتدبرُ عمليةٌ عقليةٌ علميّة تحدثُ في الذهن، والتأثُرُ انفعالٌ في الجوارح والقلب، وقد يكونُ بسبب التدبر، وقد يكونُ بسب روعة القرآن ونظمه، وقد يكونُ بسبب حال الشخص في تلكَ اللحظة (٧).

فالقشعريرة الحاصلة للإنسان هي أثر من آثار تأثير القرآن، بينما التدبر معنى آخر لا يتأتى للإنسان إلا بعد فهم المعاني في تراكيبها

---

(٧) ينظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر (ص: ٢٠٤).

الخاصة، والتي تختلف من سياق إلى سياق، وكل كلمة في سياق تفيد معنى ودلالة غير الذي تفيده في موضع آخر.

توصيف اللطائف القرآنية الشائعة في ممارسات التدبر:

وإن مما عَرَض لمسيرة التدبُّر:

الانحصار في اللطائف القرآنية كثمرة من ثمرات التدبر، ولا يلزم أن يكون ذلك تصريحًا، بل إنّ الممارسات التنفيذية والأمثلة المضروبة والتطبيقات العلمية تكشف وجهَ هذا الانحصار، والذي تجلَّى مظاهرُه في عدة أمور، منها:

- أن إطلاق كلمة التدبُّر صارت تنصرف عند كثيرٍ من الناس إلى ذكر هذه اللطائف القرآنية دون غيرها.

- وكذلك فإنَّ كثيرًا من الكتب المؤلفة في تدبُّر القرآن ركَّزت على أن يكون ناتجها لدى القارئ استنباطَ المعاني الخفية، واستخراجَ اللطائف الدقيقة.

- ثم إنّ كثيرًا مِن الدورات التدريبية التي تُعقد في المؤسسات العلمية والتربوية في العالم الإسلامي تكاد تنحصر مجالات تطبيقها في الورش العملية على هذا الأمر.

- وصار المريدُ لتدبُّر القرآن لا يَعُدُّ نفسَه متدبرًا إلا إذا أخرج مثل هذه اللطائف والفوائد، فإذا عجز عن ذلك ولم يُحسِنه - ولا يُحْسِنُ هذا كلُّ أحد- عدَّ نفسه غيرَ متدبّرٍ، واتَّهم نفسه بكلِّ ما يُذكر من آفاتٍ في عوائق التدبُّر.

- ولا شكَّ أنّ استنباط اللطائف والفوائد داخلٌ إجمالًا في التدبُّر، وإنما الإشكال في حصر التصوُّر عن التدبُّر في هذا الأمر؛ لذلك نريد أن نقف وقفةً مع هذه القضية لنُجيب عن هذه الأسئلة: هل هذا هو تدبُّر القرآن الكريم؟ وهل هذا هو المأمورُ به، اللازمُ لكلِّ أحد؟ وهل لا يُعَدُّ المرء متدبرًا إلا إذا تمكَّن من الوقوف على هذه المعاني الدقيقة؟ ولكن قبل أن نُدْلف إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، فإننا في حاجة إلى وقفة مع توصيفٍ لهذه اللطائف القرآنية، وإنزالٍ لها في منزِلها العلميِّ من علوم القرآن الكريم.

الناظرُ في نماذج اللطائف القرآنية التي تُنشر في الكتب تحت هذا العنوان، وفي تطبيقات دورات تدبُّر القرآن، وكذلك على مواقع التواصل الاجتماعي يجد أن الغالبَ عليها ذكرُ المعاني الخفية في الآيات، وتتنوَّع هذه المعاني في علاقاتها بمعنى الآية، إلا أنّ الجامعَ لها هو الخفاء، لا

المعنى الظاهر للآية، ولنضرب مثالًا لذلك: في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤].

- إن قال قائل: (يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إخبارًا عن الملك حين تحقَّق براءةَ يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ونزاهةَ عِرضه مما نُسب إليه، قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ أي: أجعله من أخصَّائي وأهل مشورتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: خاطبه الملكُ وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلِم ما هو عليه من خُلُق وخَلْق وكمال، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي: إنك عندنا قد بَقِيتَ ذا مكانة وأمانة). فهذا لا يُعدُّ تدبُّرًا على المعنى الشائع للتدبر؛ بل هو بيانٌ للمعنى الظاهر للآيات، فهو خارج عن المراد من ممارسات تدبُّر القرآن الكريم، وإن كان هو الأساس الذي يُبنى عليه.

- أما إن قال قائل: (لما أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ إظهارَ فضل يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وشرفه على أهل زمانه كلِّهم؛ أظهر للمَلِك وأهلِ مصر مِن علمِه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماءُ التعبير، فحينئذٍ قدَّمه ومكَّنه وَسلَّم إليه خزائنَ الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حُسن

وجهه وجمال صورته، ولمَّا ظهر لَهُ حُسنُ صورة علمه وجمالُ معرفته أطلقه من الحبس ومكَّنه فِي الأرض، فَدلَّ على أن صورةَ العلمِ عند بني آدم أبهى وأحسن مِن الصورة الحسّية، ولو كانت أجملَ صورة).

فمعنى تفضيل صورة العلم عند بني آدم على الصورة الحسيَّة داخلٌ في التدبُّر على المعنى الشائع، حيث أنّ فيه تجاوزًا للمعنى الظاهر للآية إلى معنى خفيٍّ مِن ورائه.

ثمَّ إنَّ كثيرًا ممَّن كتب في تدبر القرآن يجعله قسيمًا للتفسير، وربما صَنَّف في ضوء ذلك ما يُذكر من الفوائد القرآنية إلى تفسير وتدبُّر، وهذا أبين في التوضيح عن المراد، وإن اختلفت بعض التطبيقات العملية عن ذلك، وأدرجت ما هو بيان لمعنى الآية تحت عنوان التدبر.

وهذا المعنى الخفيُّ ينزل عليه اصطلاحُ (الاستنباط) عند جملةٍ من أهل العلم، كما نسبه **النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٦٧٦هـ) إلى العلماء في قوله: «قال العلماء: الاستنباط استخراج ما خَفِي المراد به من اللفظ»، وبقريب مِن هذا عرَّفه **الجرجاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٨١٦هـ) في التعريفات بقوله: «استخراج المعاني من النصوص، بفَرْطِ الذِّهن وقُوَّة القريحة».

وكان معنَيَا الخفاء وإعمال الذهن حاضرَينِ في كثيرٍ من تعريفات أهل العلم ممَّن قصد إلى تعريف الاستنباط مِن المفسرين وغيرهم، ويُمكن مراجعة مبحث: تعريف الاستنباط من القرآن وعلاقته بالتفسير، من كتاب: (منهج الاستنباط من القرآن الكريم)؛ فقد استعرض عددًا من التعريفات للاستنباط، وقام بتحليلها وذِكر الملاحظات عليها.

إذن؛ فالتوصيف الأقرب لأكثر هذه اللطائف القرآنية التي نتوجَّه إليها أنظار المعتنين بالتدبر هو الاستنباط، ويُمكن القول من خلال ذلك أن طريق الوصول إلى المعنى المستنبط هو التدبُّر، أي أن المعاني المستنبطة هي ثمرة من ثمراته.

ولا شكَّ أنّ هذا العمل من أشرف الأعمال وأجلِّ القربات، وقد قال **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٧٥١هـ): «قد مدح اللهُ تعالى أهلَ الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم»، إلا أنَّ له ضوابطَ وشروطًا ينبغي التنبُّه لها، وإلا فقد كان الاستنباط الخاطئ بذرةَ ضلال كثير من أهل البدع والأهواء؛ إما جهلًا بتفسير الآية ابتداءً، أو قلّة العلم بلغة العرب وأساليبها في الخطاب، أو غفلة عن طرق الاستنباط الصحيح،

أو غير ذلك من الأسباب، فلا بدَّ من التنبُّه للضوابط العاصمة من الزلل في الاستنباط، والتأكيد عليها عند تناول هذا الباب.

في تدبر القرآن الكريم

ونعود على بدءٍ، فنسأل: هل تقتصر ثمرات التدبر على استنباط المعاني الخفية واللطائف القرآنية؟! سنحتاجُ هنا إلى أن نرجع إلى التوجيه الإلهي إلى التدبُّر، والنظر في سياقاته التي ورد فيها في القرآن الكريم، والتي ينبغي أن تُمثِّل المنطلقَ الأولَ في فهم مراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من ذلك، ومن خلالها تُدرَك الثمرات المرجوَّة مِن المتدبِّرِ الممتثِلِ لهذا التوجيه الإلهي.

- ورد التدبُّر في القرآن الكريم بصيغتي: (يتدبرون) و(يَدَّبَّرُوا)، وكلاهما ورد في موضعين، وقُرئت الثانية في أحد موضعيها: (تَدَبَّروا)، فلنقف مع سياق المواضع الأربعة، مع تسليط الضوء على بعض المراد منها مما له تعلُّق بموضوعنا:

١. الموضع الأول: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: **٨٢**].

الناظرُ في سياق الآيات قبلها يجد أنه في المنافقين، والآية قبلها: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ

وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ [النساء:٨١]، وهي في المنافقين باتفاق المفسرين، كما ذكر ذلك ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٥٤٢هـ).

وفي هذه الآية الكريمة توقيفٌ وتوبيخٌ للمنافقين على عدم تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروه لتبيَّن لهم أنه من عند الله -عزَّ وجل-.

٢.الموضع الثاني: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]

والناظر في سياق الآيات قبلها يجد أنها في المنافقين أيضًا، قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٠-٢٣].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٥٤٢هـ) في أول تفسير هذه الآيات:

«هذا ابتداءُ وصفِ حالِ المؤمنين في جِدّهم في دين الله وحرصهم على

ظهوره، وحالِ المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد دين الله وأهله».

وفي هذه الآية الكريمة توقيفٌ وتوبيخٌ للمنافقين على عدم تدبرهم القرآن كسابقتها، وبيانُ أنَّ الحالَ المقابلة لحال مَن تدبَّر القرآن حالُ مَن أُوصد قلبُه بالأقفال.

٣. الموضع الثالث: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وسياق الآيات قبلها وبعدها في ذكر الكفار، فقبلها: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾ [المؤمنون: ٦٦-٧٠]. ففي هذه الآية توقيف وتوبيخ للكفار على عدم تدبرهم القول الذي هو القرآن الكريم الذي يتلوه عليهم رسول الله - ﷺ -.

٤. الموضع الرابع: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، هكذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٣٠هـ): (لِتَدَبَّرُوا) بالخطاب مع تخفيف الدال.

وهذه الآية عامة لجميع الخلق، والآية قبلها: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: ٢٨].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٥٤٢هـ): «وظاهرُ هذه الآية يُعطي أنّ التدبّر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذن أفضل من الهذِّ، إذ التدبّر لا يكون إلا مع الترتيل»، وفي الآية أيضًا بيانُ مَن ينتفع ويتذكَّر بالقرآن، وهم أولو الألباب.

ما هو التدبُّر الذي أمر اللهُ عَزَّوَجَلَّ به عبادَه؟

- ونحتاج هنا أن نقف وقفة مع مادة التدبر في سياقها القرآني، ونتساءل: ما هو التدبر الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ الناس به؟ وما هو التدبر الذي عاب على الكفار والمنافقين عدمَ فعلِه والإعراضَ عنه؟ لا يُعقَل أن يكون الجواب هو ما يتبادر إلى الذهن إذا ما أطلق التدبُّر من

استنباط الفوائد، والوقوف على اللطائف القرآنية، فمثل هذا لا يُخاطَب به الكفار والمنافقون! ومثل هذا لا يُذَمُّ فاعلُه هذا الذَّم، ولا يُتوعَّد عليه هذا الوعيد!

- لقد جعل اللهُ عَزَّوَجَلَّ التدبُّرَ داعيًا لهم إلى معرفة أنَّ القرآن من عند الله واليقين بذلك: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: **٨٢**].

لقد جعل اللهُ عَزَّوَجَلَّ التدبُّرَ سببًا من أسباب إنزال القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:**٢٩**]، لقد جعل اللهُ عَزَّوَجَلَّ قسيمَ المتدبرين مَن أغلقت قلوبهم بالأقفال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:**٢٤**].

إنَّ الأمر بالتدبر أوسع من فكرة استنباط الفوائد واللطائف، وإن كانت من ثمراته، إلا أنها ليست ثمرته الوحيدة، بل ليست الأصل في المراد من الخلق بتدبر القرآن، كما هو ظاهر هذه الآيات الكريمة.

وربما أخذَنا هذا إلى الكلام في تحرير معنى التدبر ومدلولاته، وهذه المسألة وإن كانت ذات أهمية في بحث المسائل المتعلقة بالتدبر،

والاجتهاد في وضع منهجيات عملية له، إلا أنها يجب أن يكون لها أثرٌ ظاهرٌ في المضامين المختارة تحت عنوان التدبر، وأثرٌ ظاهرٌ في المنهجيات المقترحة والجوانب التطبيقية، وهذا ما غاب عن العديد مما وقفتُ عليه في كتب التدبر.

كثيرٌ من كتب التدبر تبدأ أولًا ببيان أهمية تدبر القرآن بذكر الآيات التي تعرضنا لها قبلُ، وذِكر الأحاديث النبوية الدالة على فضل التدبر ومكانته، وأقوال السلف في ذلك، ثم إذا انتقلت إلى الجواب عن سؤال: (كيف؟)، وصاغت الخطوات العملية للتدبر فإنَّ المنتج النهائي لهذه الخطوات غالبًا ما يقتصر على كيفية استنباط الفوائد بأدوات الاستنباط وعن طريق معرفة الدلالات المختلفة، وهذا المنتَج غير المقصود ابتداءً من النصوص التي ذكرها المؤلفون في بادئ الأمر.

وكثيرٌ من كتب التدبر تستعرض التعريفات للتدبُّر لغةً بالنظر إلى أصل مادته ودلالة تصريفه، وشرعًا بحسب وروده في القرآن الكريم وذِكر أقوال المفسرين في معنى التدبر في الآيات الأربعة المذكورة، ثم لا يكون هذا التعريفُ منطَلَقًا بعد ذلك في الإجراءات العملية والمقترحات التنفيذية لتحقيق التدبُّر، مما يدلُّ على أن الإشكالية لا

تقتصر فقط على تحرير المراد بالتدبُّر، بل تنسحب إلى تأثير هذا المراد فيما يُعرض بعد ذلك من ذكر أدواته وخطواته العملية في الكتب المؤلفة في هذا الباب، والتي تحتاج إلى دراسة جامعة تستقصي ما أُلّف في هذا الباب -خاصة في جانب التنظير-، وتقوم بتحليل هذه الكتب وعقد الموازنات بينها؛ تصحيحًا لمسار التنظير في هذا الباب، وضبطًا له.

والذي نخلُص إليه في هذا المقام: أنَّ التدبر الذي تعبَّد الله عَزَّوَجَلَّ به عباده، وأمر به جميعَ الخلق مؤمنهم وكافرهم ليس هو استنباط الفوائد والمعاني الخفية من الآيات! بل الشأن أعظم من ذلك وأوسع، وما قصرُ دلالةِ التدبر على هذا المعنى إلا تضييقٌ لهذا الأفق الواسع من ثمرات التدبر الغنَّاء وعطاءاته التي لا تنقطع.

ثمرات أُخرى للتدبُّر سوى اللطائف القرآنية:

- خلصنا فيما سبق إلى أنَّ استنباط الفوائد واللطائف القرآنية هو ثمرة من ثمرات التدبر، وليس هو التدبر، وليس الثمرة الوحيدة له، وأن المتدبِّر قد يتدبر القرآن، ثم لا يُخرج مثل هذه الفوائد، بل ربما لا يُحسن إخراجها، ولكنه قد أصاب غيرها من ثمرات التدبر، وكم من رجلٍ لا يُحسن أن يقول مثلما يقول الناس من اللطائف والفوائد، ولكنَّه أكثر تدبرًا من غيره ممَّن قد يتكلَّف في ذكر الفوائد، ويقع في أخطاء علمية في استنباطه من القرآن الكريم.

- إن الإنسان قد يتدبَّر القرآن فيثمر عنده مزيدَ علم ولو بالمعنى الظاهر دون استنباط معانٍ خفية، وهل كانت دعوة المنافقين لتدبر القرآن إلا لذلك؟! ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فإذا تدبروه ولم يقفوا عند ألفاظه فقط علموا أنه لا اختلاف فيه، وأنه من عند الله عَزَّوَجَلَّ .

- وقد يتدبَّر القرآن فيُثمر عنده اليقينَ بما علم قبل ذلك، وترسيخَ ما سبق له علمه، ولعلَّ هذا من أغراض تكرار الحديث عن صفات الله

عَزَّوَجَلَّ وأفعاله في القرآن، وعن اليوم الآخر والجنة والنار، فالقارئ وإن علم كلّ ذلك، إلا أنه متى تدبَّر ازداد يقينه، واليقين من الإيمان يزيد وينقص.

- وقد يتدبَّر القرآن فيُثمر عنده تأثرًا وانفعالًا بآياته، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، فهؤلاء قرأوا القرآن أو قُرِئ عليهم، ففهموا معانيه وتدبَّروها، فأثمر عندهم هذا التأثر والانفعال بالآيات، فهؤلاء متدبرون ولو لم يزيدوا على معنى الآيات الظاهر بشيء، ولو لم يستنبطوا معانيَ خفيةً من الآيات.

- وقد يتدبر القرآن فيثمر عنده عملًا، فمن قرأ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، ففهم معناه وتدبَّره، واتصف بنعت الصابرين في الآية، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون إذا نزلت به مصيبة، مدركًا

لمعناها، مؤمنًا بها فقد تدبَّر القرآن وإن لم يُدلِ بدلوه في ذكر اللطائف القرآنية الخفية.

إنَّ حصر مفهوم التدبر في استخراج الفوائد القرآنية واللطائف الخفية هو في الحقيقة أسرٌ يحرم المتدبِّر من آفاقٍ واسعة من ثمرات جنةِ التدبُّر الغنَّاء، فينبغي للمتدبر أن يُحرِّر تصوُّره من هذا الأسر، وأن يحيا تدبُّر القرآن في معناه الصافي النقي الذي يراه في صفات مَن أثنى الله عليهم في كتابه، ويقرؤه في أخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام والصالحين من هذه الأمة.

وليس هذا تقليلًا من شأن الاستنباط من القرآن الكريم، أو العناية باللطائف القرآنية كما هو بيِّن في الكلام من أوله إلى آخره؛ إنما هو تصحيح لمفهوم وسَّعه الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه، ثم ضيَّقته بعض الممارسات الخاطئة، فَحَرَمَتْ وحُرِمَت!

الناس في فهم كلام الله تعالى أصناف مختلفة: فصِنْف رزقه الله الفهم في كلامه، وحُسن الإدراك لمعاني آياته؛ فهذا على خير عظيم، فإنْ أضاف إلى ذلك أن يُعلِّمه مَن لا يَعلَمه؛ فهذا بأسنى المنازل

وأرفعها، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه». وصِنف لا علم له بمعاني كلام الله، وهذا أحد ثلاثة رجال: رجل يطلب العلم من مظانّه، ويجالس أهله، ويقتبس من نورهم، فذلك متعلِّمٌ على سبيل النجاة، لاحقٌ - إن شاء الله - بأهل الخير ما لزم طريقهم، واتّبع سبيلهم.

ورجل لا شغل له بمعاني القرآن، ولا همّة له في طلبها، قد رضي من الغنيمة بأجر التلاوة وتحصيل الثواب؛ فذلك حظُّه من كتاب الله.

وشرُّ الثلاثة رجل يخبط في معاني القرآن على غير هدى، ويتكلم في كتاب الله بغير بيِّنة؛ فذلك الكذب على الله، وليس لمقترفه من عاقبة إلّا الضلال في نفسه، والإضلال لعباد الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: ١٨].

وليس يَسلَم من هذه الأصناف كلِّها إلّا رجلٌ تكلم بعلمٍ أو سكت بورعٍ وحلم، وهذا واضح لا إشكال فيه.

ولكن معاني كلام الله تعالى ليست على درجة واحدة من الوضوح والخفاء، بل الأمر كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على أربعة أوجه: «وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلّا الله تعالى».

والإشكال هنا في أن الحدود بين هذه الأنواع ليست واضحة جليّة لكل أحد، وأكثر الناس إنما يطلب العلم فيما خفي عليه وأشكل، دون ما ظهر له واتضح، وههنا يكمن الخطر، خاصة بالنسبة لعامة الناس في سعيهم إلى تدبر القرآن الكريم، فإن كثيرًا ممَّا تراه العامَّة ظاهرَ المراد واضحَ المعنى ليس كذلك، بل قد يكون المراد منه غير ما يبدو لأول النظر، وغير ما يظهر لبادئ الرأي، وبهذا تكون المعاني المتصورة في الأذهان مجرد أوهام لا حقيقة لها.

والوهم دائمًا شرٌّ من الجهل، فإن الجاهل قد يطلب العلم ليُزيلَ عن نفسه معرَّة الجهل، والواهم لا يرى بنفسه حاجة إلى التعلُّم، فهو راضٍ بما عنده من العلم، لا يبغي عنه حِوَلًا، ولا يطلب به بَدَلًا.

ومنشأ هذا الوهم إجمالًا: اعتقادُ الناظر في القرآن وضوحَ المعنى وعدمَ حاجته إلى التفسير والبيان، ولذلك أسباب تفصيلية كثيرة تفوت العدّ والحصر، ذلك أنها أمور راجعة إلى الناظر في معاني القرآن، وأخطاء الناظرين غير محصورة، وقد ترى في كل غلط سببًا أو أسبابًا، ولو ذهبنا نستقصي كلَّ سبب يؤدي إلى الغلط لطال الأمر وعظم الخطب، ولكنَّا نُشير إلى أهمِّها وأشهرها؛ تذكِرةً للسامع والمتكلم، وتحذيرًا للخائض والمتكلِّف، مع التمثيل على كل منها بما يبينه ويزيده جلاءً.

من أسباب الغلط في فهم معاني القرآن:

١. الغفلة عن أصول الدين والاعتقاد:

مِن أسباب الغلط في فهم كلام الله تَبَارَكَوَتَعَالَى غفلةُ المرء عن أصول الإسلام الثابتة، وهو ما قد يوقعه في تفسير يخالف تلك الأصول المستقرة من حيث لا يشعر.

ومن ذلك مثلًا: قوله تعالى مخاطبًا الملائكة: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣٣]، فقد يظن ظانٌّ أن الملائكة قد تكتم عن الله عَزَّوَجَلَّ

شيئًا أمَرهم ببيانه أو سألهم عنه، وهو غلطٌ شديدٌ مخالفٌ لأصل واضح من أصول الاعتقاد، وهو عصمة الملائكة الثابتة بنحو قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨]، وغير ذلك من الأدلة؛ ولأن الملائكة - وهم بمنزلة القرب من الله والمعرفة به - ليس يخفَى عليهم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مطّلع على خفايا الصدور وخلجات النفوس، بحيث لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فكيف يحاولون الكتمان وهم يعلمون ذلك حقَّ العلم؟!

قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «ليس المعنى أنهم كتموا عن الله؛ لأن الملائكة أعرف بالله وأعلم؛ فلا يكتمون الله شيئًا، وإنما المعنى أنه هجس في أنفسهم شيءٌ لم يُظهره بعضهم لبعض، ولا أطلعه عليه.

وقيل: الكاتم إبليس، كتمَ عداوته لآدم منذ رآه مخلوقًا، فيكون من خطاب الجمع، ويراد به الواحد نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤]»

ومن ذلك: قوله تعالى في قصة ولَدَيْ آدم: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [المائدة:٢٩]، فقد يُفهم منه خطأً أن القاتل يحمل إثم قاتله مع إثم نفسه، وهو معنى فاسد مخالف لما هو ثابت في الدين من أنّ أحدًا لا يحمل وِزر أحد، كما دلّ عليه صريح قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ ولذا قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غير جائز أن يكون آثامُ المقتول مأخوذًا بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرَّم وسائر آثام معاصِيه التي ارتكبها بنفسه، دون ما ركبَه قتيلُه».

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «معنى: (بِإِثْمِي) بإثم قتلي، (وَإِثْمِكَ) الذي من أجله لم يُتقبَّل قربانُك».

٢. ضعف المعرفة بلُغة العرب وأساليبها في التعبير:

مِن أهم أسباب الغلط في فهم كتاب الله تعالى الجهل بلُغة القرآن الكريم أو القصور في معرفتها، فإن القرآن كتاب العربية الأكبر، وليس يفهمه حقَّ الفهم إلّا رجلٌ تمرّس بأساليب العرب وطرائقهم في التعبير، وأتقن لغتهم في مفرداتها وتراكيبها إتقانًا.

فأمّا رجل قليل البضاعة من علوم اللغة وآدابها فلا يمكن أن يفهمه حقَّ الفهم، أو يدرك مقاصده حق الإدراك، بل سيخرج غالبًا بمعانٍ مغلوطة، ودلالاتٍ فاسدة، بعيدة كل البُعد عن مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كلامه وآياته.

ومنذ قديم الزمن تفطّن السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى خطر العُجمة والجهل بلسان العرب على المسلمين، وتأثير ذلك في فهم القرآن والسُّنة.

فعن الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أهلكَتْهم العُجمة، يتأوَّلون القرآن على غير تأويله»، ويُروَى: «أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية فيَعْيَى بوجوهها حتى يفتري على الله فيها».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنما خاطب اللهُ بكتابه العربَ بلسانها، على ما تَعرِف من معانيها... فَمَن جَهِل هذا من لسانها - وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السُّنة- فتكلّفَ القولَ في علمهما تكلُّفَ ما يَجْهَل بعضَه، فكانت موافقته الصواب - إن وافقه - غير محمودة، وكان بخطئه غير معذور».

وتواترت عبارات العلماء داعية إلى تعلُّم العربية والتضلُّع فيها، وعدم الاكتفاء بالقليل منها؛ قال أبو إسحاق الشاطبي في (الاعتصام): «فعَلى الناظر في الشريعة والمتكلِّم فيها أصولًا وفروعًا ألّا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيًّا أو كالعربي في كونه عارفًا بلسان العرب، بالغًا فيه مبالغ العرب أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء ومَن أشبههم وداناهم، فإن لم يبلغ ذلك فبحسبه في فهم معاني القرآن التقليد، ولا يحسن ظنه بفهمه دون أن يسأل أهل العلم».

ولنضرب لذلك مثالًا، هذا دعاء من أدعية القرآن، اعتاد كثير من الناس أن يلهجوا به في صلواتهم وفي غيرها، ظانّين أنه من دعاء الخير والبِر، وهو خلاف ذلك تمامًا، أعني قوله تعالى على لسان شعيب

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩]، فهذا دعاء رجلٍ كذّبه قومه وسخروا منه، وتوعدوه بالطرد والإخراج فاستغاث ربَّه عليهم، وسأله أن ينتقم له منهم، فاستجاب الله دعاءه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف: ٩١]، فكيف يكون مثل هذا دعاء خير وبِر؟! أم كيف يدعو مسلم بمثل هذا على قومه وهم مسلمون؟!

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : «كان شعيب كثير الصلاة، فلما تمادَى قومه في كفرهم وغيِّهم، ويئس من صلاحهم، دعا عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩]، فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة».

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وأصل (الفتح) في كلام العرب: النصر، والقضاء، والحكم. يقال منه: (اللهم افتح بيني وبين فلان)، أي: احكُم بيني وبينه».

قال يحيى بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وكان النبي إذا سأل اللهَ أن يحكم بينه وبين قومه بالحق؛ هلكوا».

وأيضًا قد يترتب على هذا الضعف بمعرفة اللغة وأساليبها تفسير القرآن على المعاني الدارجة بين الناس، ومن ذلك: غلط كثير من الناس في فهم قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران:٤١]، حين يظنون أن المراد بالعشي وقت الليل، وليس هو بمعناه، جاء في تهذيب اللغة: «العشيّ: آخر النهار.

وقيل: إذا زالت الشمس إلى أن تغيب. فإذا غابت الشمس فهو العِشاء. وصلاتا العشِيّ هما الظهر والعصر، عن أبي هريرة قال: صلَّى بنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ إحدَى صلاتي العشيّ، وأكبر ظني أنها الظهر... ثم ذكر الحديث».

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : العشيّ: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، كما قال الشاعر:

فلا الظل مِن برد الضحى تستطيعه ولا الفيء مِن برد العشيّ تذوق

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومنه قول القاسم بن محمد: ما أدركتُ الناس إلّا وهم يصلُّون الظهر بِعَشِيّ».

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢]، قد يتوهَّم القارئُ لأول وهلة أن قوله: (تحسونهم) بمعنى الإحساس، وليس كذلك؛ بل هو من الحَسِّ بغير ألف، وهو بمعنى الإفناء والقتل، كما قال المفسرون.

٣. حمل كلام الله تعالى على اصطلاحات العلماء الحادثة:

من أسباب الغلط كذلك حمل كلام الله تعالى على اصطلاحات العلماء الحادثة بعد نزول القرآن بقرون متطاولة، وقد ضرب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلك مثل بلفظتي: (مكروه) و(لا ينبغي)، وكيف أنهما قد اختصَّا في الاصطلاح الحادث بما ليس بمحرَّم وتركُه أرجح من فعله، مع أنه «قد اطَّرد في كلام الله ورسوله استعمالُ (لا ينبغي) في المحظور شرعًا وقدَرًا، وفي المستحيل الممتنع؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ

ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقوله على لسان نبيّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «كذبني ابن آدم وما ينبغي له، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له»، وقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»، وأمثال ذلك، وقال تعالى عقيب ذِكر ما حرَّمه من المحرمات من عند قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ

وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا ۝٣٦ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولٗا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهٗا ۝٣٨﴾ [الإسراء :٢٣ -٣٨] ، إلى آخر الآيات ؛ ثم قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهٗا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وفي الصحيح: «إنّ الله عَزَّوَجَلَّ كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

ومن ذلك أيضًا: لفظ التأويل الوارد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٞ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧] ونحوه، فقد يظن ظانٌّ أن المراد به هذا الاصطلاح المتأخر للعلماء الذي يعنون به: (صَرْف الكلام عن ظاهره إلى معنى يحتمله)، وليس كذلك، قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ : «وأما معنى (التأويل) في كلام العرب، فإنه التفسير والمرجع والمصير».

وقال الواحدي رَحِمَهُٱللَّهُ : «قوله تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ﴾. التأويل: التفسير، وأصله في اللغة: المرجع والمصير، ثم تسمى (العاقبة):

(تأويلًا)؛ لأن الأمر يصير إليها. و(التفسير) يسمى: (تأويلًا)، وهو قوله: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨ ﴾ [الكهف: ٧٨]؛ أي: بعلمه وتفسيره؛ لأن التأويل: إخبار عما يرجع إليه اللفظ من المعنى.

٤. ترك النظر في أسباب النزول:

من أسباب الغلط في فهم مراد الله تعالى ترك النظر في أسباب النزول، فإن لها دورًا مهمًّا في بيان معنى الآية والمراد بها، وإهمالها مُوقعٌ في الغلط، ومُفضٍ في أحوال كثيرة إلى معانٍ فاسدة، يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن معرفة مقاصد العرب إنما مدارها على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب، من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالَين، وبحسب مخاطبَين، وبحسب غير ذلك.

وإذا فات نَقْلُ بعض القرائن الدالة؛ فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه.

ومعرفة الأسباب رافعة لكل مُشكِل في هذا النمط؛ فهي من المهمَّات في فهم الكتاب بلا بد، والجهل بأسباب التنزيل مُوقع في الشُّبَه والإشكالات، ومُورِد للنصوص الظاهرة مَورِد الإجمال حتى يقع الاختلاف».

وشاهد ذلك ما رُوي «أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، فقدم الجارود على عمر فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : إن قدامة شرب فسَكِر، فقال عمر: مَن يشهد على ما تقول؟ فقال الجارود: أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يشهد على ما أقول، وذكر الحديث.

فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : يا قدامة إني جالدُك، قال: والله لو شربتُ كما يقولون ما كان لك أن تجلدني، قال عمر: ولِمَ؟ قال: لأن الله يقول: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾ [المائدة: **٩٣**]. فقال عمر: إنك أخطأتَ التأويل يا قدامة، إذا اتقيتَ اللهَ اجتنبتَ ما حرَّم اللهُ.

وفي رواية: فقال عمر: ألَا تردُّون عليه قوله؟ فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : إن هؤلاء الآيات أُنزِلْنَ عذرًا للماضين وحُجةً على الباقين،

فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرَّم عليهم الخمر، وحجة على الباقين؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]، ثم قرأ إلى آخر الآية الأخرى، فإنْ كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر. قال عمر: صدَقْتَ».

٥. الغفلة عن أحوال العرب وعاداتها وقت نزول القرآن:

من أسباب الغلط في فهم كلام الله تعالى الغفلة عن أحوال العرب وعاداتها وقت نزول القرآن، فإنّ لها حُكمَ أسباب النزول، ولكنها أسباب عامة غير مختصة بشخص معيَّن أو واقعة بعينها، ولمعرفتها أهمية كبرى في فهم النص القرآني، وعدم إدراكها مُوقع في إشكالات كثيرة. وممن التفتَ إلى هذا الأمر الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الموافقات)؛ وذلك إذ يتحدث عما ينبغي لطالب علم القرآن أن يحيط به فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومن ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثَمَّ سبب خاص لابد لمن أراد

الخوض في علم القرآن منه، وإلّا وقع في الشُّبَه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها».

ذلك أن تلك العادات دائمة التغير عبر الأزمان، والنص إنما يُفهم حقَّ الفهم في سياقها، وبالغفلة عنها يَنْبَهِمُ معنى النص، ويلتبس المراد منه؛ ولذا كانت معرفة أحوال العرب وعاداتها زمن نزول القرآن مُعِينة على الفهم الصائب والتفسير الصحيح دون إشكال.

ومن ذلك: قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ ﴾ [البقرة: ٤٦].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله -جل ثناؤه- عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه (يظن) أنه ملاقيه، والظن: شك، والشاكُّ في لقاء الله عندك بالله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تسمِّي اليقين (ظنًّا)، والشك (ظنًّا)؛ نظير تسميتهم الظلمة (سدفة)، والضياء (سدفة)، والمغيث (صارخًا)، والمستغيث (صارخًا)، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمي بها الشيء وضده.

ومما يدل على أنه يسمَّى به اليقين، قولُ دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج   سراتهم في الفارسي المسرد

يعني بذلك: تيقنوا ألفي مدجج تأتيكم.

وقول عميرة بن طارق:

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم   وأجعل مني الظن غيباً مُرَجَّما

يعني: وأجعل مني اليقين غيباً مرجمًا.

والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن (الظن) في معنى اليقين أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية».

فانظر إلى أهمية معرفة أحوال العرب وعاداتها زمن نزول القرآن، وكيف أنها مُعِينة على الفهم الصائب والتفسير الصحيح دون إشكال.

٦. قصر النظر على بعض القرآن دون بعض:

من القواعد الثابتة عند المفسرين قاعدة أن القرآن يُفَسِّر بعضُه بعضًا، وأن أَولى ما فُسِّر به القرآن هو القرآن، فما أُجمِل في موضع بُيِّن في موضع آخر.

وهي قاعدة لا غنى عنها لكل دارس وناظر في القرآن الكريم، فإن النظرة الجزئية للقرآن تعطي القارئ معانيَ ناقصة حينًا، ومشوَّهة حينًا، وباطلة تمامًا أحيانًا أخرى!

وقد نبّه العلماء كثيرًا إلى خطورة انتزاع الآيات من سياقها، والاستشهاد بها منفردة عما يفسرها ويبيّنها من آيات أُخَر في سورتها، أو في سور غيرها من القرآن الكريم.

يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وما ضلَّت الخوارج إلّا بتعلُّقهم بآياتٍ ما، وتركوا غيرها، وتركوا بيان الذي أَمَره الله عَزَّوَجَلَّ أن يبين للناس ما نُزِّل إليهم وهو رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، ولو أنهم جمعوا آي القرآن كلَّها وكلامَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ وجعلوه كُلًّا لازمًا، وحكمًا واحدًا، ومتبعًا كله، لاهتدوا» ويتحدث أيضًا الشاطبي عن منشأ البدع والخرافات فيردُّه إلى مِثل ذلك، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها إلى بعض، فإنّ مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تأخذ الشريعة كالصورة الواحدة، تحتسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامّها المرتب على خاصّها، ومُطْلَقها المحمول على

مقيّدها، ومُجملها المفسَّر بمبيِّنها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها، لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلّا بجملتها؛ لا من دليل منها أيّ دليل كان، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل فإنما هو توهُّميّ لا حقيقي!».

ولنضرب لذلك مثالًا يبين عظيم خطر هذا الأمر وشدة أهميته.

الشفاعة في القرآن الكريم:

كَثُر الكلام قديمًا وحديثًا حول قضية الشفاعة، وأنكر بعضُهم وقوعها يوم القيامة، واستشهد لإنكاره بآيات من القرآن الكريم ذاته، يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «احتج المانعون بقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[المدثر: ٤٨]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾[الانفطار: ١٩]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قال أبو محمد: قول من يؤمن بالشفاعة أنه لا يجوز الاقتصار على بعض القرآن دون بعض، ولا على بعض السنن دون بعض، ولا على القرآن دون بيان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الذي

قال له ربه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤]، وقد نص الله تعالى على صحة الشفاعة في القرآن فقال تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾[مريم: ٨٧]، فأوجب عَزَّوَجَلَّ الشفاعة لمن اتخذ عنده عهدًا بالشفاعة، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾[سبأ: ٢٣]؛ فنَصَّ تعالى على أن الشفاعة يوم القيامة تنفع عنده عَزَّوَجَلَّ ممن أذن له فيها ورضي قوله، ولا أحد مِن الناس أولى بذلك من محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ؛ لأنه أفضل ولد آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ .

فقد صحَّت الشفاعة بنص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصحَّت بذلك الأخبار المتواترة المتناصرة بنقل الكوافّ لها، فصحَّ يقينًا أن الشفاعة التي أبطلها الله عَزَّوَجَلَّ هي غير الشفاعة التي أثبتها عَزَّوَجَلَّ ، وإذ لا شك في ذلك فالشفاعة التي أبطل عَزَّوَجَلَّ هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلَّدون في النار، قال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ

عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ و ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: ٣٦]، نعوذ بالله منها» .

فمن هذا المثال نرى المنكرين للشفاعة قد أتوا إلى الآيات التي تنفي الشفاعة فضربوا بها تلك التي تُثبتها، وقضوا بنفي الشفاعة مطلقًا، ولو أنصفوا لجمعوا الآيات بعضها إلى بعض، وتدبَّروا في سياق هذه وسياق تلك، وعلموا أنّ النفي إنما ورد في شأن الكافرين، وأنّ إثباتها إنما هو للمؤمنين. لكن النظرة الجزئية غالبًا ما تخدع صاحبها، فإذا به يرى من الحقيقة جانبًا وتخفى عليه جوانب، ويظهر له شيء وتغيب عنه أشياء.

فالغلط إنما يأتي من تضييق مجال النظر، وقصر الاطلاع على بعضٍ دون بعض، فأمّا إذا ضُمَّت أطرافه وجُمِعَت متفرقاته، ونُظِر فيه ككلٍّ واحد متكامل، فحينها يَرى المرء أنه يُتمِّم بعضُه بعضًا ولا ينقض بعضُه بعضًا.

يقول د. محمد عبد الله دراز: «فعندما نريد أن نقدِّر جمالَ لوحةٍ مرسومةٍ، لا ينبغي أن نحصر نظرتنا في جزء ضيق منها، حيث لا نجد إلّا ألوانًا متنوعة تتجاور أو تتنافر أحيانًا؛ بل يجب أن نرجع قليلًا إلى

الوراء، ليتسع مجال الرؤية ونحيط بالكل في نظرة شاملة تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التراكيب».

سبل الوقاية والعلاج من الفهم الخاطىء في التَّدبُّر:

هناك ضوابط يجب أن يراعيها كل من أراد تدبر وفهم القرآن الكريم كي تكون تلاوته وتدبره على بصيرة؛ تأتي ثمارها كل حين بإذن ربها، ومن هذه الضوابط ما يلي:

أولاً: جمع الآيات القرآنية أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها.

ثانياً: جمع الأحاديث النبوية الثابتة أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها.

ثالثاً: الرجوع إلى أقوال العلماء عند تدبر الآيات.

رابعاً: معرفة مدلولات ألفاظ الكلمة القرآنية.

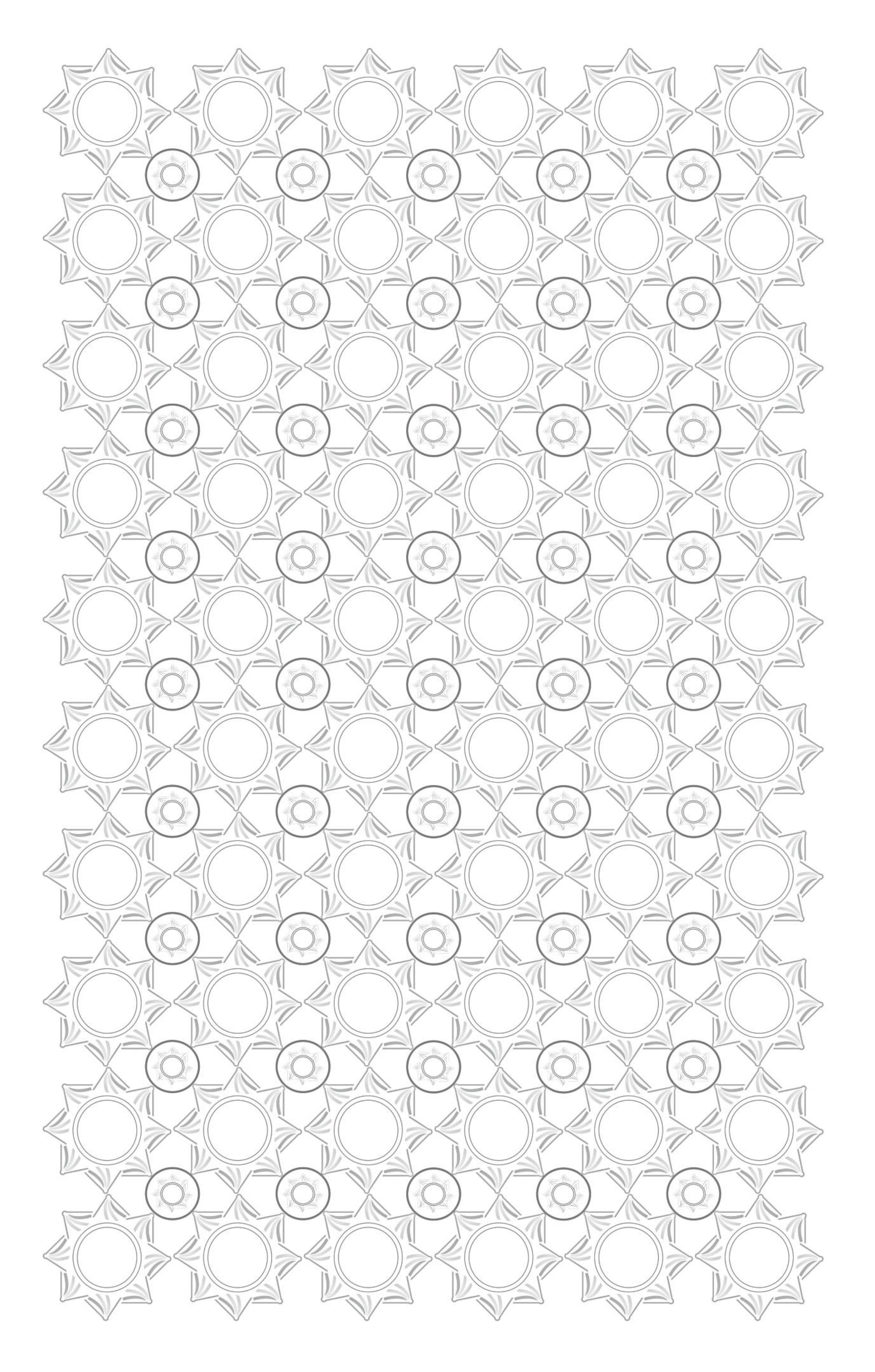
خامساً: مراعاة السياق الذي وردت به اللفظة والجملة القرآنية.

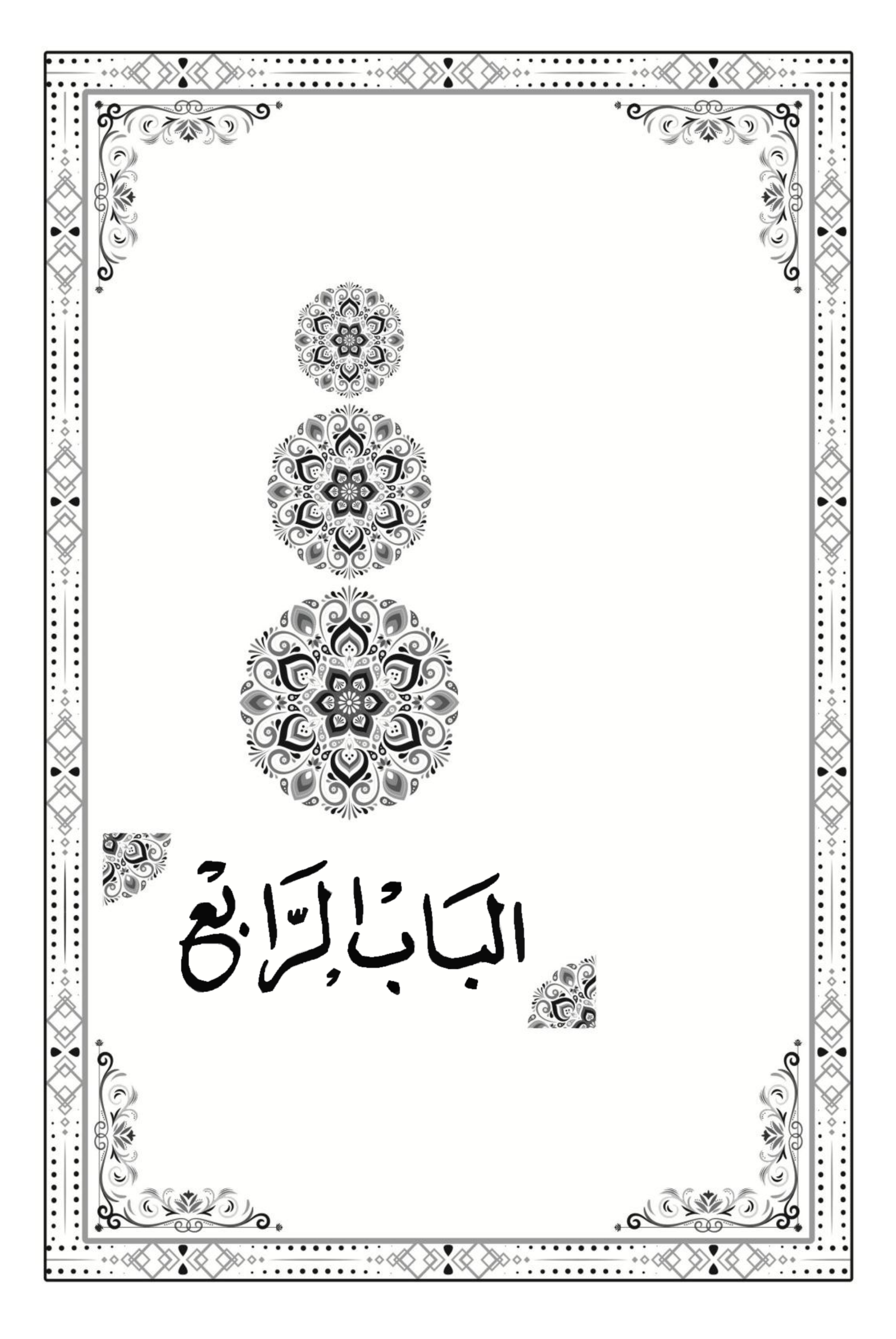
سادساً: معرفة أسباب النزول تعين على فهم النص القرآني.

سابعاً: معرفة النَّاسخ والمنسوخ يعين على فهم القرآن فهماً دقيقاً.

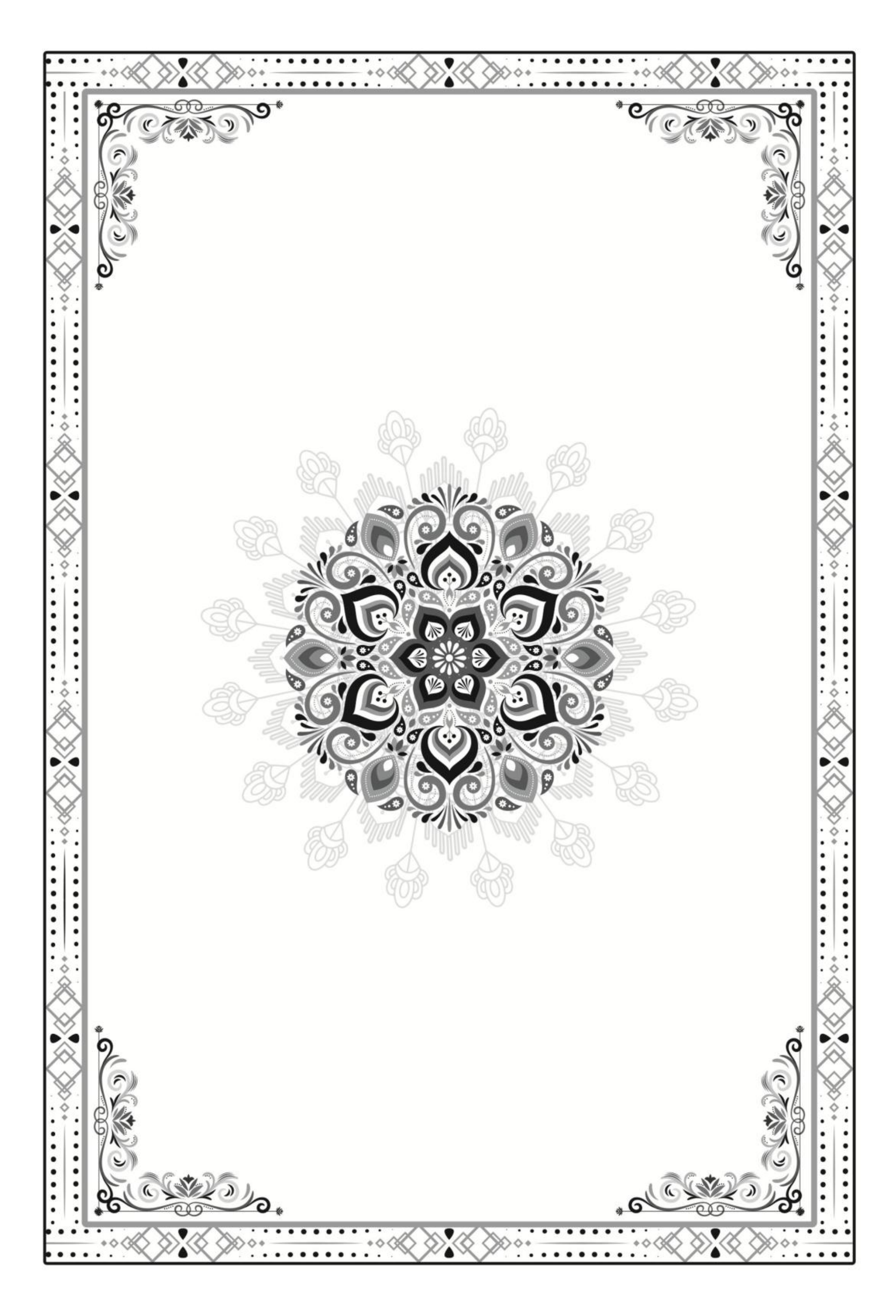
ثامناً: التجرد من الأهواء والتصورات والنظريات السابقة.

وختامًا: فلا يخفَى ضرورة السعي إلى تصحيح الفهم لمراد الله عَزَّوَجَلَّ من كلامه، وتجنُّب أسباب الخطأ في فهمه، وقد تبيَّن مما سبق بعض هذه الأسباب التي يقع بها الغلط في فهم معاني القرآن الكريم، والتي جاءت على سبيل التمثيل لا الحصر، مع التمثيل لكلٍّ منها؛ نصيحةً لكتاب الله ولعامّة المسلمين، ونسأل الله أن يرزقنا حُسن الفهم لكتابه، وحُسن العمل به.



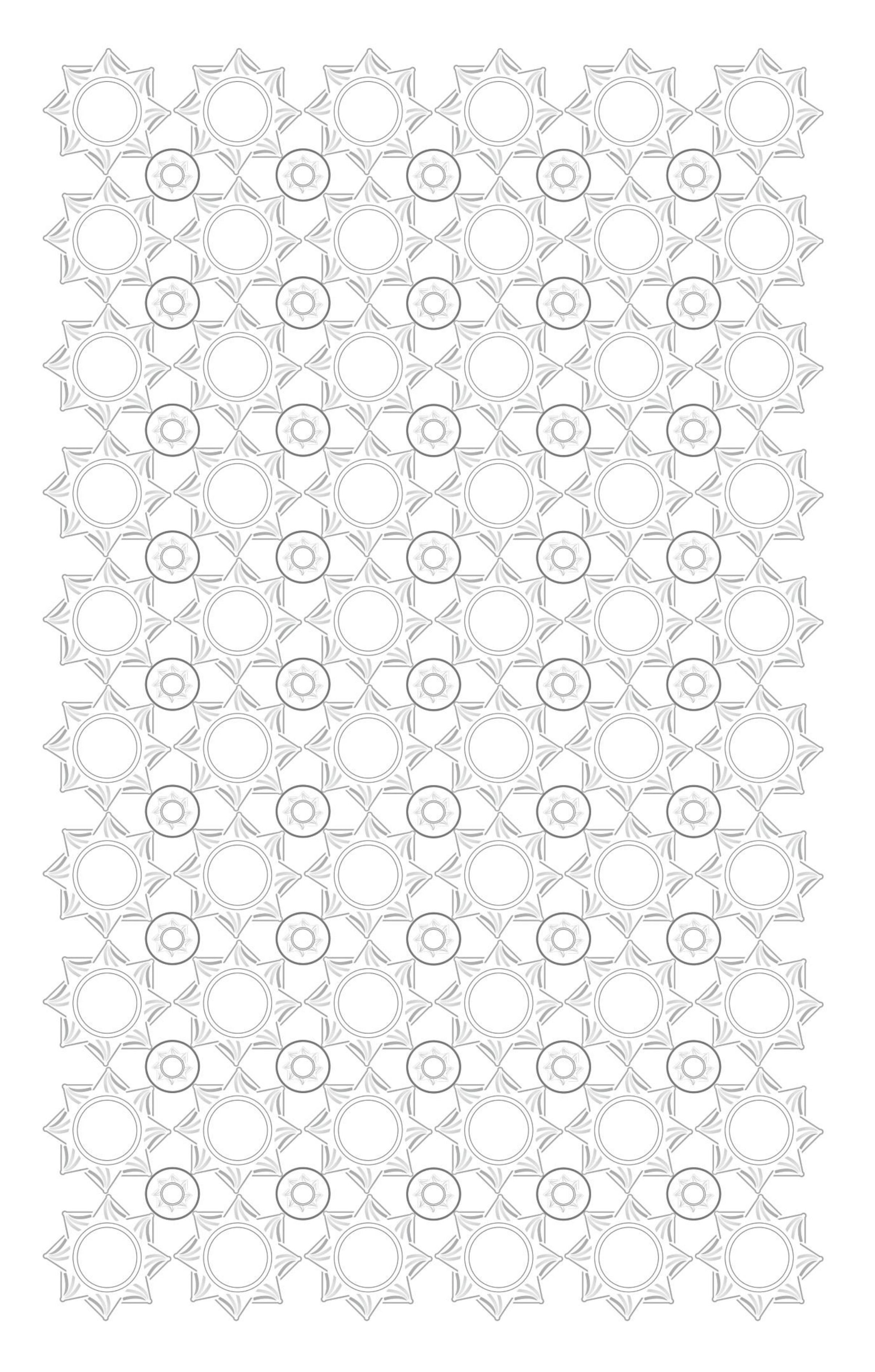


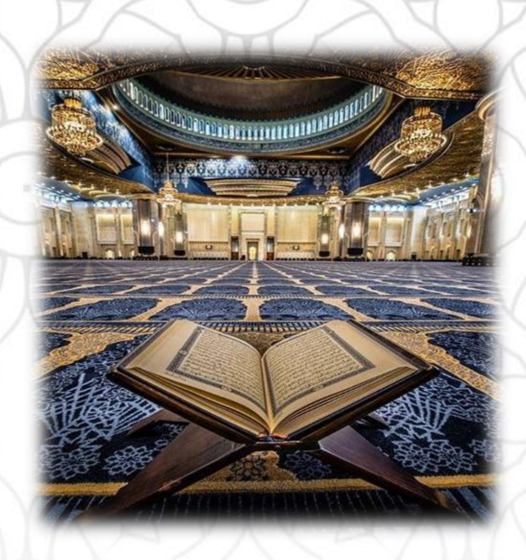
الباب الرابع



البَابُ الرَّابِعْ

كيف السبيل إلى التفاعل مع كلام رب العالمين والتأثر به؟





كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى التَّفَاعُلِ مَعَ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ ؟

في خِضَمِّ الواقع الذي نعيش فيه، كثيرًا ما يحتاج المسلم إلى الشعور بالطمأنينة والسكون، وذلك لا يتجلَّى إلا مع الخلوة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ، هذه الواحة الغَنَّاء؛ ليرتشف من مَعِينها الصافي، ويتنفس من أريجها الزّاكي؛ لينعم بطمأنينة النفس وراحة القلب وسلامة الصدر، ولِمَ لا؟! وقد خَلا بكتاب ربه عَزَّوَجَلَّ الذي فيه شفاء ورحمة وموعظة للمتقين.

ولكن لا يشعر بأثر القرآن وهَدْيه إلا مَن تفاعل مع كلّ آية يقرؤُها أو يسمعها، وأدرك أن كلّ آية تحمل رسالة من الله عَزَّوَجَلَّ ينبغي عليه أن يرعي لها قلبه وعقله قبل سمعه وبصره.

تخيّل أننا الآن نسير سويًّا مع بني إسرائيل في ممشى بقلبِ بحرٍ عظيم ضربه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعصاه فانفلق، فكان كلّ فِرْقٍ كالطود العظيم!

أو أننا نقف في ساحة شاسعةٍ لنرى رجلًا يُقذف في نارٍ عظيمة، ثم لا يلبث أن يخرج منها بسكينةٍ بالغة، ليُقبِل على قومه تارة أخرى يدعوهم ويأمرهم وينهاهم!

أو أننا نرى أوصال طير ممزقة مُفرّقة تهفو بعضها إلى بعض؛ لتلتئم وترفرف مقبلةً على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا ناداها!

تخيّل أننا نطوف بين جبال ثمود فنرى ناقةً تخرج من صخر أحدها، أو نتجول في ضواحي بيت لحم فنرى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُبرئ الأكمه والأبرص، ويَستحيل الطينُ في يده طيرًا يسبح بحمد الله في جوِّ السماء!

تأمّل قدر العظمة التي يستشعرها مَن عاين هذه المعجزات! قدر الدهشة التي تسكن صدره، والإعظام الذي يملأ فؤاده، والعَجَب الذي يُذهب عقله! أتدري شيئًا؟!

- القرآن أعظم من كلّ هذا، وأعجب، وأكثر إدهاشًا!

- القرآن أعظم المعجزات التي أُرسل بها خاتم الأنبياء وأفضلهم عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهذا يدركه من صحّ عقله، وطَهُرَ قلبُه؛ لذلك لما أعرض المشركون عن القرآن ظُلمًا وعُلُوًّا، وسألوا النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يأتيهم بآيةٍ مادية كبعض آيات الأنبياء السابقين التي ذكرناها، قال لهم ربهم جَلَّ وَعَلَا : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

هل هناك ما هو أعظم أو أجلّ أو أحكم أو أرحم أو أبْيَن من القرآن ليكون معجزة وآية؟!

تخيّل أن في غرفتك عصا موسى، أو في ساحة منزلك ناقة صالح عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ؛ مصحفك الذي أمام ناظريك هذا، والذي قد يكون علاه التراب، أعظم وأجَلّ وأشدّ إعجازًا.

ولو قلّبتَ الطرف في أمر القرآن لوجدتَ أن العظمة تكتنفه من كلّ جانب.

فانظر إلى عظمة مصدره ونقله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]، تأمل هذه السلسلة النورانية التي جاء منها القرآن إليك، ثم قل لنفسك: بَخٍ بَخٍ، أن شرّفها الله بسماعِ كتاب هذه حاله، والإيمانِ به.

تأمل في جلالة لغته وجمال بيانه؛ نَظْمه أحسن من الدُرّ في النِّظام، ألفاظه الزُّلال أو أرقّ، يسبي السمع ويملك القلب، تحدّى بفصاحته ملوك البيان وأمراء البلاغة أن يأتوا بمثله حُسنًا وبهاءً، أو بعَشْر سور منه، بل سورة واحدة، بل أن يجتمعوا كلّهم على ذلك وأن يَدْعُوا إنسهم وجِنّهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، لكن

لمَّا أدركوا حقيقة إعجازه عجزت أَلْسُنُهم عن المجاراة، فهل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزًا؟!

أرادت قريشٌ من شيخها وفصيحها الوليد بن المغيرة أن يذُمَّ القرآن وينكره، فقال: «وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلَى عليه، وإنه ليَحْطِم ما تحته».

وتأمل عِظَم تأثيره في النفوس، ولطف نفوذه إلى القلوب؛ جاء عتبة بن ربيعة إلى النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليجادله في دينه، ويَدْعُوه إلى ترك ما هو عليه، فلما أنهى عَرْض صفقته، قال له النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : (أَفَرغتَ يا أبا الوليد؟ اسمَعْ منِّي: ...)، فلم يزد النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على أن تلا عليه صدر سورة فصلت؛ وإني لأرجو أن تقرأ صدر السورة وتتساءل ما الذي وقع في قلب الرجل؟!

أَنْصَتَ الرجل إلى تلاوة النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، ثم لم يزد على أن قام من مجلسه متغيّر الوجه، متبدّل الحال، فلمّا كلّم قومه فيما وقع في قلبه، قالوا له: «سحرك واللهِ يا أبا الوليد بلسانه».

فالقوم قد رأوا تأثيرًا لا يعرفون له مرادفًا في معجم المعرفة البشرية سوى السحر أو نحو ذلك، تأثيرًا يبدّل الحال، ويغيّر الطبع، ويطهّر القلب، وقد كانوا يخافون من تطهير القرآن على سواد قلوبهم، وعمى أهوائهم، يسيرون على طريق إخوانهم الأقدمين ومَن شابههم في كلّ عصرٍ وحين: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢]، فكان رؤوس الكفر يتواصَون فيما بينهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، فإنكم لو سمعتموه حق السمع وفتحتم له أبواب أفئدتكم، غزاها وأنار ظلماتها وألان قسوتها.

مَرَّ جُبَيَر بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالنبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يصلي، وكان جُبَير يومئذ على الكفر، فسمع النبيَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقرأ سورة الطور، يقول: «فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ

خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧]، قال: كاد قلبي أن يطير».

دعك من تأثيره على قلوب البشر، حتى الجن، حارت عقولهم وخُلبت أسماعهم:﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾﴾.

وكذلك الملائكة، ما تطيق انقطاعًا عن القرآن أو نأيًا عنه؛ قرأ أُسيد بن الحُضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ القرآن ذات ليلة بصوته النديّ الشجيّ، فكان كلما قرأ رأى في السماء مثل الظُّلة فيها أمثال السُّرُج، فلما قصّ على النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: (تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأْتَ لأصبحَتْ يراها الناس ما تستتر منهم).

حتى الجمادات: الصخر، الجبال: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا علمتَ ذلك أيقنتَ أن هناك أقوامًا يصدق فيهم -حقًّا- قول ربنا: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا

يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ [البقرة: ٧٤].

وإن شئتَ تأمّل في عِظَم أثره في حياة الناس، في دنياهم وآخرتهم، وهو سراج الكون الذي أضاء به من بعد ظلمة: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا وغيره: «يعني بالنور: القرآنَ».

انظر كيف بدّل وجه الأرض، وغزا ربوع الدنيا، كيف عمد إلى خَلْقٍ كانوا أذلّ قوم، يسجدون للحجارة ويَدْعُونها ويسألونها، يسفكون الدماء، فصيَّرهم خير الناس هديًا، وأحسنهم سمتًا، وأعقلهم قولًا، وأعدلهم حكمًا، وأعزّهم ذِكرًا، مَلّكهم رقاب الملوك، ومَكّنهم من قلوب العباد.

إِي واللهِ، صدق رسول الله عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : (إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين).

انظر كيف يشفي الصدور ويداوي الهَمَّ ويبدد وحشة الحزن؛ ولأجْل ذلك قال النبي عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : (ما أصاب عبدًا هَمٌّ ولا

حزنٌ، فقال اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أَمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علّمتَه أحدًا من خلقك، أو استأثَرْتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي. إلا أذهبَ اللهُ همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا).

وإنْ شئتَ أَدِرْ بصرك في إحكام تشريعه، وجلال أحكامه، التي ما زالت الأمم يجتمع فلاسفتها وعقلاؤها قرنًا بعد قرنٍ على أن يأتوا بمثل ذلك، وما بلغوا معشاره، وانظر إلى شمول قوانينه واتساعها، تارة في أحكام الجهاد والدماء، وأخرى في الصلاة والزكاة والصدقة، ثم تجده يتكلم عن المواريث والحقوق المالية، ثم تسمعه يتكلم عن حقوق الزوجين، وأخلاقيات التعامل بينهما في الاجتماع والافتراق، وكلّ ذلك بلفظ بهيّ، وموعظة بالغة.

وإن شئت تأمل عظمة حفظ الله وتدبيره له، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، قامت أمم وسقطت أمم، مرت القرون تلو القرون، والقرآن باقٍ

محفوظ، متلوٌّ مسموع، معمورة به المساجد، مضيئة به ظلمات الليالي، جاريةٌ به دموع المآقي، قد جمع الله على خدمته أشرف خلقه في كلّ زمان، وتأمل مئات الأسماء المرقومة على كتب التفسير وعلوم القرآن المطبوعة فقط، تجدهم أحدَّ الناس من كلّ زمنٍ ذهنًا، وأرفعهم قدرًا، وأعلمهم بالمعقول والمنقول.

وبعد كلّ ذلك، تأمل يُسْره على الألسنة والأسماع والقلوب، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر:١٧]، هذا القرآن الذي أعجز الفصحاء وأدهش الأدباء، واجتمع على بيانه وتفسيره واستخراج كنوزه العلماء من كلّ فنّ، هو هو الذي تراه في يد بائعة الفجل البسيطة التي تمر عليها صباحًا في طريقك إلى العمل، وتجدها تستمتع بتلاوته وتلتذ بحلاوته، يتهدّج صوتها حينًا، وتنهمل عينها أخرى، وما تشبع أبدًا! كيف تشبع وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «لو طهرتْ قلوبُكم ما شبعَتْ من كلام ربكم»؟!

يا خالة، أتعرفين ما (غسّاق)؟ أم تدركين ما (مجذوذ)؟ هل انتبهتِ أن ههنا كناية؟ وأن (إنّ) ههنا لما اجتمعت مع اللام أفادت توكيدًا شديدًا؟ الخالة قد لا تعرف شيئًا من ذلك، لا تفقه كثيرًا من

لسان العرب، لكنها تحسن لغة القلوب الصافية والفِطَر الطاهرة، فوقع بها في فؤادها ما قد لا يفهمه كثيرٌ من العالمين بفنون اللسان.

بل قد تجد مِنَ الأعاجم مَن لا يفهم أكثر لفظ القرآن، ثم إذا قرأه قراءة المؤمن بعظمته وجلال المتكلم به وجدتَ هيبة الخشوع تعلوه، ولمستَ فيه تأثرًا بالغًا يصل إلى شغاف قلبك، ورأيتَ سكينة نورانية لا تخطئها البصيرة.

وهذا كلّه غيض من فيض، ويسير من كثير، هذا شيء مما في القرآن المسطور بين دفتي مصحفك، أعلمتَ الآن شيئًا من أسباب كونه أجلَّ من طير إبراهيم، وأعظمَ من عصا موسى، وأعجبَ من ناقة صالح، على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم؟!

أصناف الناس في التعامل مع القرآن:

والناس في تعاملهم مع القرآن أصناف وأنواع: فمنهم مَن يهتم بكثرة التلاوة، ومنهم مَن يهتم بإقامة الحروف وضبط المخارج، ومنهم مَن كلُّ همِّه تجميل صوته والتغني بالقرآن، ولكن ربما نسي أكثر هؤلاء أهمّ شيء وأعظم شيء، ألا وهو التفاعل مع آيات القرآن الكريم، فربما يمرّ الواحد على الآية تِلو الآية بقلبٍ غافلٍ ساهٍ، ثم يشتكي بعد ذلك: لماذا لم أشعر بحلاوة القرآن برغم أني أداوم على القراءة، ولم ألبث أن أنتهي من ختمة حتى أبدأ في أخرى؟!

لم يفطن هؤلاء إلى حقيقة مهمّة، ألا وهي: أن أكثر الناس استمتاعًا بالقرآن مَنْ علم أن هذا القرآن يتكون من (مبانٍ) و(معانٍ)، فهو ليس مجرد حروفٍ ومبانٍ تتحرك بها الألسنة، بل إن روح القرآن هي المعاني، وأنه لا ينبغي أن ينشغل المسلم بضبط المباني وينسى التفاعل والتفكّر في المعاني.

فالقرآن ليس مجرد نصّ جامد أنزله الله عَزَّوَجَلَّ لمجرد القراءة والحفظ، بل القرآن روح للأرواح، ونور للقلوب، وحياة للأبدان؛ فقد

قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

وهذا القرآن لو أُنزِل على الجبال لخشعت وتحطّمت من خشية الله -عزّ وجلّ-، فقد قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١].

ولن يتجلّى أثر القرآن على النفس إلَّا بتدبر آياته ومعرفة المقاصد والمعاني، وهذا أعظم ما ينبغي أن يراعيه المسلم عند التعامل مع القرآن، فمع عظيم أجر قراءة القرآن، كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاَلِهِۦوَسَلَّمَ : (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) ، إلَّا أن تدبّر القرآن والتفاعل مع معانيه أعظم أجرًا وفضلًا؛ لأنه المقصد والمطلب الأول الذي من أجله أُنزِل القرآن، فقد قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩]،

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]،

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤].

وقد ذمَّ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من يقرؤون القرآن لمجرد القراءة ولا يتفاعلون معه، فقال عن هؤلاء: (سَيَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ).

تفاعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع القرآن:

لقد علّمنا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كيف يكون التفاعل مع القرآن، فقد كان إذا مرَّ بآية من آيات العذاب تعوَّذ بالله، وإذا مرَّ بآية رحمة سأل الله من رحمته، وإذا مرَّ بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مرَّ بآية ثناء على الله أثنى عليه، وإذا مرَّ بآية سجدة سجد.

فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صلّيت مع النبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة فافتتح الْبَقَرَةَ... إِذَا مَرَّ بِآية فيها تسبيح سَبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإِذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ»، وزاد النسائي بلفظ: «إذا مرّ بآية عذاب وقف وتعوَّذ».

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قمتُ مع رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ...» .

وكثيرًا ما كانت تذرف عيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويخشع قلبه عند سماع القرآن، فعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأْ عَلَيَّ القُرآنَ)، قلتُ: يا رسول الله، أقرأُ عليك،

وعليك أُنزِل؟! قال: (إني أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي)، فقرأتُ عليه سورة النِّساء، حتى جئتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤٠]، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: (حَسْبُكَ الآن)، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان.

تفاعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع القرآن:

ولقد كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يعرفون أن هذا القرآن رسالة من الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم، فكانوا كثيرًا ما يتفاعلون معه، ولا تمرّ عليهم الآية إلا بعد تدبُّرها، والوقوف على مقصودها، وكيفية تطبيقها؛ فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما نزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحابه رضوان الله عليهم، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثم بَرَكُوا على الرُّكَب، يسألون النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ التخفيف في المؤاخذة بما تحدث به نفوسهم، فنسخ الله هذه الآية وأنزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ويقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

تربية القرآن لأمهات المؤمنين :

ما أحوجنا في هذه الأيام إلى التربية القرآنية، ما أحوجنا أن نرجع إلى القرآن في وقت أصبحت تتقاذفنا كثير من الدعوات المضللة لا سيما فيما يتعلق بالمرأة المسلمة، فإنَّ الحرب على الفضيلة والعفاف والطهر في هذا العصر قد شبَّ أوارها، وارتفعت ألسنة نارها، حتى اكتوى بها المسلم والكافر، والتّقي والفاجر، وعظم دُخانها حتى غطى الأفق، وأعمى المُقل في المحاجر، وإنّي على يقين من ربي عَزَّوَجَلَّ أنه لن يُطفىء لهبها، ويبرد حرَّها، إلَّا ماء الوحي، ولن يبدد سحائب ظلماتها إلا نور السماء يتنزل من النور سبحانه إلى ظلمات الأرض، وقد أنزل الله آيات العفة والنُّور في كتابه النور، على نبيّه النور صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فكلُّها (نُورٌ على نُورٍ)، ولكن الشأن كلّ الشأن فيمن يهتدي إلى فهم وتدبر هذا النور العظيم ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ لما فيها من الأحكام الكثيرة المتعلقة بالنساء، المؤدي حفظها وعلمها إلى غاية حفظهنّ عن كل فتنة وريبة كما

هو ظاهر لمن تدبرها، وهي بينة واضحة ، والقرآن كله بيّن، لكن هنا فيها بيان فوق البيان، فأحكامها واضحة معلّلة، ليس فيها أدنى التباس، فليس فيما تنزلت من أجله من متشابه القرآن شيء، لأن قضايا الأعراض، وحمايتها من الدنس، ليست من المسائل التي يقال فيها (اختلف العلماء) ، نعم يختلفون في تقدير الوسيلة الموصلة إلى الغاية، وتبعاً لذلك يختلفون في حكم الوسيلة، فيختلفون مثلاً : هل تغطية الوجه للمرأة أمام أجنبي عنها واجبة أم مستحبة ؟ لكن لو تبيّن أن (كشفه) موصلٌ يقيناً أو بغلبة ظنّ ظاهرة إلى الفاحشة، فلا خلاف بينهم في تحريمه، بل لو قُدر أنّ تغطيته مآلها كذلك فالتحريم قولٌ واحد عند كل فقيهٍ، ولأجل ألّا تقع الأعراض ضحيّة الخطأ والصواب، وتضطرب طرائق المربّين بحثاً عن العلاج، تكرر التأكيد والتبيين أشد البيان، فويحُ من تركها واستعاض عنها بغيرها من تجارب البشر، طلباً للطُرق (الإيجابيّة) فيما يزعم، فلو أفاد منهما وجعل ذِه تبعاً لتلك لأحسن وأجمل.

إنَّ بيضة العفة لن يحميها من لُعاب الوالغين فيها إلّا حزم خازم، وتنكيلٌ بالغٌ في الدنيا قبل الأخرى، وإن حفظ الفروج لا يكون إلّا بحفظ الجوارح وتحصينها، فالعفة في حقيقتها قضيّة قلبية وجدانية،

ووسيلته تقوية العلم اليقيني بمراقبة اللَّه، وغرس محبة العفة، والإقناع بشرف الفضيلة باستعمال أسلوب الإقناع من خلال تعليل الأحكام.

ذلك أننا في زمان أصبحت المرأة فيه سلعةً رخيصة توضع على أغلفة المجلات بأوضاع فاتنة، وألبسة غير محتشمة.

لقد صارت المرأة يروج بها السلع المختلفة، وصارت توضع طعمًا لربما في مواضع الاستقبال هنا وهناك؛ من أجل أن تجذب النفوس الضعيفة، فيحصل الاتجار بالفضيلة والشرف والعفاف.

إننا في زمان تعالت فيه الأصوات التي تنادي وتطالب بخروج المرأة التي هي نصف المجتمع كما يزعمون، وأن المجتمع كالطير لا يحلق إلا بجناحين، وأننا لا يمكن أن نتقدم أو نتطور أو نزاحم الأمم المتحضرة بحال من الأحوال، إلا إذا أخرجنا المرأة من قرارها وبيتها، ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾ [الكهف من الآية:٥].

لقد وُجد من يقول بأن ما يقرره علماؤنا في دروسهم ومحاضراتهم وفي فتاواهم لا يبنى إلا على أوهام لا على أدلة واضحة صحيحة صريحة

يوقَف عندها، بل إن بعض المنتسبين للدين أو العلم أو الدعوة صار يردد كلامًا ما كنا نسمعه قبل ذلك، ذلك أنه صار يطرح طرحًا نشازًا، طرحًا غير مألوف في وقت الهزيمة.

يقولون: إن قاعدة سد الذرائع وإن صورة الحجاب التي عليها كثير من المسلمات في بلادنا كل ذلك ليس ثمة دليل صريح عليه، وأن عمل المرأة مع الرجل جنبًا إلى جنب ليس ثمة ما يمنع منه شرعًا، وأن علينا أن نطرح ما دلت عليه الأدلة الصريحة الواضحة من الكتاب والسنة فحسب! وهؤلاء لا شك أنهم مغالطون، ذلك أنهم يتكلمون بغير علم، أو أنهم يعلمون ويضللون الناس.

إننا في زمن أصيبت فيه كثير من النفوس بما أصيبت من الضعف والتراجع، وصرنا نرى من يطالب بمراجعة المواقف، فماذا نراجع؟ نراجع ديننا؟ نراجع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أم نراجع ماذا؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما أحوجنا في مثل هذه الأيام إلى أن نرفع رؤوسنا، ونقول بملء أفواهنا: إن المنهج الذي رسمه القرآن هو المنهج، وإن الفهم الذي ينبغي أن يفهم به هذا القرآن إنما هو فهم السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ما أحوجنا إلى تكثيف الخطب والمقالات والكتابات والمحاضرات وألوان المدارسات في مثل هذه الأيام؛ فنحن -والحمد لله- كثير، وقد خرَّجت الجامعات الشرعية التي تحمل المنهج الأصيل منذ عشرات السنين أجيالًا متتابعة ممن يحملون العلوم الشرعية، فهذا أوانهم، فينبغي أن يظهر صوتهم دون تلك الأصوات النشاز التي ليست من العلم في قليل ولا كثير غالبًا، حتى صار يتكلم أهل الصحافة وغيرهم، يتكلمون ويفتون بالمسائل الكبار من غير تورع، ومن غير تقىً لله عَزَّوَجَلَّ لأن الفاحشة إذا فارت في القلب طغت على نور العقل؛ فقلما يردعها تذكر الآخرة إلا عند عبادٍ لله مخلصين، بينما بأس الدنيا من الجلد والفضيحة وخوف نبذ المجتمع ينزع الله به ما لا ينزع بالقرآن، وقد تعامل القرآن مع الوالغين في الأعراض بألسنتهم بحجج عقليَّة، ونداءٍ إيمانيّ، وصرامة شديدة، في الوصف والجزاء والشرط، حتّى إنه يتخايل لك حيناً أنّ تهديدها للألسنة الوالغة أشدُّ مما هددت به الفروج الزانية، فـ(الفرج)

جريمته مع بشاعتها هي واحدة، فإذا تناقلتها (الألسنة) صارت ثقافة شائعة فانتهكت الآف الفروج المحرّمة.

ومن البدهي أن ليس للإشاعات نمط واحد لا تتجاوزه، بل يدخل فيها شائعات البريد الإلكتروني، ومنتديات الإنترنت، ومواقع اليوتيوب، والفيسبوك، وتويتر، والتشات، والدردشة، ورسائل الجوال، والماسنجر، ونلحظ أنّ بعضهم إذا اختلف مع رجل أو امرأة في عقيدة أو فكرٍ أو منهجٍ ونحوها استباح من مخالفه كل عرض، وظنَّ أنَّ هذه المخالفة تسوغ له بهتانه، بل حيناً يحتسب الأجر عند اللَّه - بزعمه - لأن مخالفه عدو للَّه، وله نصيب وافرٌ منها أيضاً ذاك الكذَّاب الذي رأى ظِنَّةً فصيرها مَيِنَّة، فأخذ يثير الظنون الفاسدة بين الناس، ومن المعلوم أن القول لما لم تقبله القلوب، وتمحِّصه العقول أصبح مجرد حركة للأفواه لم تتأمل عُقابها.

لقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآيات التي يربى بها بيوت الأشراف، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب من الآية:٣٢].

﴿ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: إن نفي المماثلة هنا يدل على رفيع المنزلة وعلو الشرف.

﴿ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: أي أنكن أشرف من غيركن من النساء، وأعلى مقامًا، وأرفع درجة، فهذا الذي دل عليه نفي المماثلة.

﴿ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: دل ذلك على أن بيوت الأشراف، والبيوت الرفيعة، والبيوت الكريمة يصلح لها من التربية ما لا يصلح لغيرها، وأنهم ينبغي أن يكونوا في مقامات وأفعال وأقوال وأحوال تليق بمنازلهم الشريفة.

ثم انظر هذا التعليق، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: وهذا هو الأرجح من أقوال المفسرين -والله تعالى أعلم- في موضع الوقف في هذه الآية؛ لأن الوقف فيها يحتمل موضعين﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: أي: أنتن أشرف من غيركن من النساء، ثم يكون الكلام: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٢]، والأحسن أن

يكون هكذا - والله تعالى أعلم- ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾:

لأن نفي المماثلة لأحد من النساء إذا كان ذلك مع تقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال بعده:﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾:

إن كنتن أشرف من غيركن مع تحصيل التقوى، أو في حال تحصيل التقوى، فينبغي ألا تخضعن بالقول فيؤدي ذلك إلى أمور لا تليق.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: لستن كغيركن إن كنتن متقيات، وهذه التقوى تتطلب أخلاقًا من الأفعال والأقوال والأحوال، ينبغي أن تكون الواحدة منكن متحلية بها.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، ولاحظ هذا التعبير ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾: المتبادر أن يقال: (فلا تُخْضِعْنَ القول) لأن الإخضاع إنما يكون للقول - للكلام- يكون الكلام خاضعًا، تَخضَع في قولها، تُخضِع قولها، هذا هو المراد، والله تعالى أعلم.

لكن لماذا نسب الله عَزَّوَجَلَّ الخضوع إليهن، وأضافه إلى ذواتهن فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٢] لماذا لم يقل: (فلا تخضعن القول) كما هو المتبادر؟ يقال: لما للظاهر من الملازمة

مع الباطن، فالظاهر ملازم للباطن؛ وذلك أن المرأة إذا تغنجت وتكسرت في كلامها ورققته، وأظهرت التأنث للرجال في قولها ومنطقها، فإن ذلك يورثها خنوعًا في ذاتها وتكسرًا، وانكسارًا أمام الرجال، وخضوعًا ببدنها؛ وذلك للملازمة بين الأمرين.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، لأن إخضاع القول يورث خضوع البدن، يورث التكسر في البدن، يورث إخضاعه للرجال، فلا تخضعن بالقول.

وخضوع المرأة بقولها يكون بصور شتى: يكون حينما تختار المرأة الألفاظ والعبارات التي لا تصلح إلا لزوجها، فتتكلم بها، سواء في الهاتف، أو عبر الإنترنت، أو تتكلم بها مباشرة مع البائعين مع الطبيب، ومع غيرهم، فتتكلم وتتخير من الألفاظ ما لا يصلح إلا مع الزوج، فهذا من الخضوع بالقول.

ويكون الخضوع بالقول أيضًا حينما تتكلم بألفاظ لا عيب فيها، ولكنها تنطق وتؤدي هذه الألفاظ وتعبر بها بشيء من الغنج، وبشيء

من الرخاوة، وبشيء من تمييع القول وتليينه للرجال الأجانب، ثم تحصل بعد ذلك النتيجة المتوقعة التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية.

قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: الفاء هنا تدل على التعليل، وهي مشعرة به، وهي تدل أيضًا على التعقيب.

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: الطمع هو انجذاب النفس، وميلها إلى الشيء الذي تشعر أنه قريب المأخذ والمنال؛ فالمرأة إذا تغنجت وزينت الكلام مع الرجال ولينته ورققته امتدت إليها النفوس الضعيفة، وطمع بها الذئاب، وصاروا يرون أنها قريبة المأخذ، وأنها في متناولهم، وأنها ممكنة لمن طلبها.

﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾من هو الذي في قلبه مرض؟ غالبًا يعبر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بهذا التعبير، ويراد به النفاق، وقد يراد به ضعف الإيمان، إلا في هذا الموضع، فالمراد بهذا الوصف هنا هو من كان فيه ميل محرم إلى النساء، قلبه ينجذب انجذابًا محرمًا إلى النساء، يلتفت قلبه إلى النساء؛ ليقارف معهن ما لا يليق مما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ كالزنا ونحوه، هذا الذي في قلبه مرض.

وبهذا نعلم أن أولئك الرجال الذين يضعون الشباك ليصطادوا النساء تارة عند المدارس - مدارس البنات- وتارة في أسواق النساء، وتارة عبر شبكة الإنترنت، أو غير ذلك، هؤلاء بنص كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من الذين في قلوبهم مرض، ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

وإذا كان ذلك مقولًا لأمهات المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُنَّ فغيرهن من باب أولى؛ ولكن قد يفهم من هذا النهي عن الخضوع بالقول أنها ترد على الرجال، وتكلم الرجال برد غليظ، وبكلام جاف مع غلظة وشدة، فبين الله عَزَّوَجَلَّ أن ذلك غير مراد، فقال: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٣٢﴾ [الأحزاب من الآية:٣٢]، فالقول المعروف لا يكون فيه فضاضة وغلظة ترد على الرجل كأنها مغضبة، والقول المعروف لا تخضع فيه المرأة وتتغنج وتنعم كلامها وترققه مع الرجال الأجانب، والقول المعروف لا تخير فيه المرأة الألفاظ التي لا تصلح إلا مع زوجها، أو لربما محارمها، هذا هو القول المعروف، يشمل هذه الأوصاف الثلاثة.

ثم لما أدبهن الله جَلَّوَعَلَا بالقول والكلام كيف تتكلم الواحدة منهن مع الرجال الأجانب، علمهن أدبًا آخر فقال: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب:٣٣].

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: فيه قراءتان متواترتان، الأولى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ وهي قراءة عاصم ونافع، والقراءة الثانية: ﴿وَقِرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ بكسر القاف، وبعض أهل العلم يقولون: إن معنى القراءتين واحد، فهو من القرار، وبعض أهل العلم يفرق بينهما وهذا التفريق ليس بين القولين فيه منافاة، ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ من القرار، من قرَّ الماء في الحوض، أي استقر، فتكون مستقرة، باقية غير خراجة ولا ولاجة، لأن المرأة التي تكثر الخروج في أول نهارها وفي آخره، لا يقال إنها قارة في البيت.

والقراءة الأخرى، ﴿وَقِرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ فسرها جمع من الأئمة - أئمة التفسير- بمعنى الوقار، وقرن من الوقار، والمعنيان متلازمان، إذ أن وقار المرأة المسلمة يكمن في قرارها في بيتها، وذلك أن المرأة إذا كانت خراجة ولاَّجة فإن ذلك يكون على حساب وقارها ولا بد، وهذا أمر مشاهد، فإن المرأة الخراجة الولاَّجة يكون فيها من الجرأة ما لا يكون في غيرها عند النساء القارَّات في البيوت.

والمرأة إنما تمدح - حتى في كلام العرب وأشعارهم، ولربما وصفت بالقاصرة: أي التي تعكف في بيتها فلا تخرج منه ولا تراها الشمس- يمدحونها في أشعارهم، ومن أراد أن يقف على شيء جيد من ذلك فليراجع كتاب (الرحلة إلى حج بيت الله الحرام) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فله كلام جيد وأشعار جميلة في مثل هذا المعنى.

فالمقصود أن الوقار مقترن بالقرار، المرأة يكون وقارها على قدر قرارها، أما إذا كان خروجها لعمل تختلط فيه بالرجال الأجانب، فإن ذلك يمسح ماء وجهها، سواء كانت تعمل بائعة، أو كانت تعمل مسوِّقة، أو كانت تعمل في مكان تطبب فيه الرجال، أو تخالط الرجال بأي صورة من الصور، فإنها مهما كانت محافظة، أو تحاول أن تحافظ على حشمتها فإن وقارها يتناقص ولا بد.

وقَرْن، وقِرْن في بيوتكن، ثم قال بعده ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]، فالمرأة المتبرجة كيف تكون كذلك؟ يقال: بكثرة الخروج أن تكون خراجة ولاجة، ويكون ذلك أيضًا بالتكشف والتهتك باللباس والتعري أمام الرجال، ويكون ذلك

بمزاحمة الرجال بالأسواق ومخالطتهم في أماكن العمل، يكون إذا كانت بائعة في الأسواق، إذا كانت هذه المرأة تعمل في كل مجال يتاح لها من غير حياء ولا حشمة ولا مراعاة للآداب الإسلامية؛ كل ذلك يكون من تبرجها.

ومن تبرج المرأة أن تسير في وسط الطريق، وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ النساء عن السير في وسط الطريق،فقال عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ليسَ للنِّساءِ وسطُ الطَّريقِ»، ولقد أدركنا النساء في بعض النواحي يتشقق جانب عباءتها؛ لأنها إذا رأت رجلًا في الطرق التصقت بالحائط، وكانت الحوائط يومئذ مبنية من الطين ويخالطه - أعزكم الله - التبن من أجل أن يتماسك الطين، فلكثرة ما تلتصق المرأة بالجدار يتمزق جوانب عباءتها، وقد رأيت ذلك بعيني.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: الجاهلية هي حالة نفسية وواقعية وشعورية بعيدة عن الله عَزَّوَجَلَّ لا تهتدي بالوحي، هي حياة منسوبة إلى الجهل، هي فكر منحرف شاذ بعيد عن هدى الله عز وجل الذي بعث به أنبياءه ورسله

عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ هذه هي الجاهلية، وانظر وتأمل كيف أضاف الله عَزَّوَجَلَّ التبرج إلى الجاهلية.

حدثني عدد من القريبات بقولهن: المرأة التي تضع عباءتها فوق رأسها، وتلبس القفاز، وتضع الخمار الكامل على وجهها من غير تلاعب بنقاب ونحوه يصفونها بأنها قديمة، وأنها متخلفة، وأنها رجعية، وأنها مقبورة، وأنها لا تعيش عصرها وزمانها، وأنها قد دفنت شبابها وجمالها، وأنها صارت في عالم غير العصر الذي تعيش فيه!

أقول: الله عَزَّوَجَلَّ أضاف التبرج إلى الجاهلية، فهو من أعمال الجاهلية، فمن هي المرأة الجاهلية، أو التي فيها خصلة من خصال الجاهلية؟ من هي المرأة المتخلفة؟ من هي المرأة الرجعية؟ هي المرأة التي تكون متبذلة، متبرجة متهتكة أمام الرجال الأجانب، وأما اللباس والحشمة والنقاء والطهر والعفاف فليس ذلك من أمر الجاهلية في شيء، فالتهتك والعري ليس شيئًا إلا من عمل الشيطان؛ هو الذي يدعو إليه، ويحض عليه، ويأمر به، فكل امرأة متهتكة -في عصرنا هذا وفي غيره من الأعصار- هي مستجيبة لأمر الشيطان؛ قد جعلت أمر الله عَزَّوَجَلَّ وراءها ظهريًا.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: وكفى بذلك قبحًا أن ينسب إلى الجهل وإلى الجاهلية.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: كيف كانت المرأة تتبرج في ذلك الزمان؟ غاية ما ذكره المفسرون أنها لربما وضعت خمارها على رأسها، ثم جعلته من خلفها فيبدو موضع القلادة، ولربما بدا موضع المقدم من شعرها، هذا هو تبرج الجاهلية الأولى، فأين التبرج الذي يفعله اليوم عارضات الأزياء؟! أين التبرج الذي يفعل في مشارق الأرض ومغاربها على شواطئ البحار، وفي البرك وفي غيرها من أماكن القذر والتبذل والاستخفاف بكل ألوان الشرف والعفة والطهارة؟! أين هذا مما يفعله كثير من بنات المسلمين - هدى الله الجميع وردهن إلى دينه ردًا جميلًا - في صالات الأفراح، وفي المناسبات من إبداء الأجساد والتعري بصور مغرية تغري النساء الحاضرات؟! هذا كله من عمل الشيطان.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: وكعادة القرآن إذا نهى عن شيء أمر بما يعمر القلوب، وبما تشغل به الأوقات بما ينفع، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣].

ليست القضية أن ننهى الناس، لا تفعلوا كذا، هذا لا يجوز، هذا يحرم، هذا بدعة، هذا منكر.. الخ، هذا أمر مقصود لغيره كما قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس مقصودًا لذاته، وإنما المقصود لذاته هو أن تعمر القلوب بطاعة الملك المعبود جل جلاله أن نعمر قلوب الناس بالإيمان، وبمحبة الله عَزَّوَجَلَّ والقرب منه، ونعمر القلوب بألوان الأعمال القلبية التي يكون المؤمن بها على الحال اللائقة التي تصلح للعبودية، أو لتحقيق العبودية مع الله جَلَّجَلَالُهُ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: نحن نقول للنساء: وقرن في بيوتكن؛ لكن المشكلة في عصرنا هذا إذا بقيت المرأة في بيتها ماذا تصنع؟ تبقى أمام شاشة، أو أمام كاميرا تتعرى فيها تعريًا كاملًا أمام ذئاب قد اصطفوا واجتمعوا ينظرون إليها بخبث وغدر، وهي تتبذل

أمامهم بكل مهانة عبر الإنترنت؟! تبقى في بيتها تقلب طرفها بين تلك القنوات التي تسلبها دينها وعقيدتها وإيمانها وعفافها! تبقى في بيتها تقلب المجلات الهابطة! تبقى في بيتها تعبث بسماعة الهاتف فيصطادها ذئاب البشر!

ولهذا يقال في هذا الزمان: ينبغي على المرأة التي لا يوجد في بيتها ما يشغلها، وليس لها رصيد من تقوى الله عَزَّوَجَلَّ يردعها ويمنعها، ينبغي لها أن تذهب فتخرج لتلتقي بأخوات عبر المراكز الصيفية النسائية، وعبر حلق التحفيظ، وجمعيات تحفيظ القرآن، والأنشطة الطيبة الموثوقة التي يقوم عليها الخيرات من الداعيات إلى الله عَزَّوَجَلَّ .

تخرج المرأة التي لا تجد الكفاية في هذا الجانب في بيتها، وتخرج المرأة التي لا يوجد لدى الداعيات من يعوض مكانها إذا غابت، فتجتهد ولتتقِّ الله في خروجها وتقلل منه ما استطاعت، فتخرج لتنفع الأخوات، وتعلم ما تحتاج إليه المسلمات، أما من وجدت كفايتها وما احتاج أخواتها إليها فإنها تبقى في بيتها.

هذا هو أمر الله عَزَّوَجَلَّ فأين أولئك الذين يدعون إلى فتح المجال أمام المرأة لتعمل في المصنع والمتجر وأماكن التجميل النسائية والصيدليات وغيرها من ألوان الأعمال التي تكون فيها أجيرة عند الآخرين؟ يقولون: إن نصف المجتمع معطل! الله يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وأنتم تقولون: نصف المجتمع معطل؟! ما هي حقيقة العمل في نظر هؤلاء المخادعين الذين يكذبون على الناس؟ حقيقة العمل عندهم أن تكون أجيرة عند غيرها، وأما التي تعمل في عملها الأصيل فترضع الصغير وتمرض المريض وتقوم على شؤون الدار، وتقوم على شؤون الزوج، وتقرأ كتاب الله جَلَّوَعَلَا وتشتغل بطاعته، فهذه عاطلة عندهم، وعندئذ يخدعونها ويستغفلونها ويستجرون قدمها حتى تخرج، فإذا خرجت حصلوا بغيتهم ومقصودهم بإفسادها، وإذا فسدت المرأة فسد المجتمع، نعم، ثقوا أنه إذا فسد النساء فسد الرجال، إلا من رحم الله وعصم، وهذا أمر مشاهد في العالم.

وأمر آخر مشاهد يرد به على هؤلاء الأفاكين الكذابين، وهو أن بلاد المسلمين قد مرت بمثل ما تمر به بلادنا هذه قبل أكثر من مائة سنة، مروا بنفس الخطوات، وقام دعاة إلى أبواب جهنم، يرددون

نفس الكلام، الذي يردده بعض الكُتَّاب في أيامنا هذه، فخرجت المرأة من قرارها وعفتها وحشمتها، وصارت تعمل في كل مكان صارت تعمل في كل مكان بلا استثناء، فهل تحضرت تلك الشعوب الإسلامية؟ هل صارت تلك الدول العربية في مصاف الدول المتقدمة؟ لقد أظهرت الإحصائيات ما يندى له الجبين حيث إن مستوى الاقتصاد لهذه الدول مجتمعة لا يعادل دولة أوربية واحدة ليست من الدول الكبرى وهي إسبانيا، الإنتاج المحلي لا يعادل دولة واحدة من دول أوربا، دول مجتمعة، يجمعها لغة واحدة ودين واحد، وعقيدة واحدة، لا تعادل دولة من دول أوربا، وليست الدول الكبرى.

النساء خرجن في الدول العربية منذ أكثر من مائة سنة، وأصبحن جدات - أعني أولئك المتبرجات- وصارت الواحدة تعمل في كل عمل مهين مشين، فهل صاروا في مصاف الدول المتقدمة؟ أبدًا، هل انتهت مشكلة البطالة عندهم؟ أبدًا، إنما يجمعهم وصف واحد في نظر عدوهم، بل هم يرددون هذه العبارة: العالم الثالث، العالم المتخلف.

الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء

الزكاة، لماذا خص الصلاة والزكاة؟ يمكن أن يقال والله تعالى أعلم: إن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، ويمكن أن يقال: إن سعادة العبد دائرة بين أمرين: الأول: حسن الصلة بالله عَزَّوَجَلَّ والثاني: الإحسان إلى الخلق، ورأس الصلة بالله، وحسن الصلة بالله هو الصلاة، ورأس الصلة بالخلق والإحسان إلى الخلق هو الزكاة، أن يحسن الإنسان إليهم بماله.

﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾: انظر كيف عبر الله عَزَّوَجَلَّ -كما هي العادة في القرآن-: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، ما قال: (وأدين الصلاة)، وهذا فيه جواب كبير لسؤال يطرح دائمًا، ولربما نسمع إجابات بعيدة، لربما نسمع من يقول: بأن الصلوات كالدواء إذا أخذت في أوقاتها أدت الثمرة ولو بعد حين.

نقول: لا حاجة لهذا الكلام، الله قال: ﴿ وَأَقِمْنَ ﴾، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، الحكم في قول لله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، أي: لأن الصلاة تنهى؛ لأن (إنَّ) تدل على التعليل، أقم الصلاة؛ لأن

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، الحكم أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والوصف إقام الصلاة، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، معنى هذا الكلام أنه على قدر أداء الصلاة - على قدر إقامة الصلاة - يكون تأثيرها في نفس المصلي، هذا هو الجواب، والله تعالى أعلم.

هنا الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: فإذا أقامت المرأة الصلاة ما الذي يحصل؟ صار بقاؤها في بيتها خيرًا لها؛ لأن إقامة الصلاة تنهاها عن الفحشاء والمنكر، فلا تدخل في حال أو تلابس أمرًا لا يليق، لا تمتد يدها إلى الهاتف فتحادث محادثة محرمة، لا تخضع بالقول في الرد على الهاتف، لا تستخدم هذه الشبكة استخدامًا غير لائق، لا تغتاب أحدًا في بيتها، لا تكذب، لا تخون زوجها، لا تفعل شيئًا يشينها مما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ عليها، كل ذلك يحصل إن تحقق إقامة الصلاة.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: هذا فيه وعد، وفيه بشرى لهن في ذلك الوقت؛

لأنهن فقيرات آنذاك يطالبن بزيادة النفقة، فأي زكاة تؤدى؟! فهذا يدل على أن الله سيوسع عليهن حتى يخرجن الزكاة.

ثم بعدما خص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهي من طاعة الله ورسوله، عمم بالأمر بطاعة الله ورسوله فقال: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: بالقرار في البيت، بالحشمة، بحفظ حدود الله عَزَّوَجَلَّ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحفظ شرائع الإسلام، كل هذا داخل في طاعة الله وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

ثم علل تلك التوجيهات فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ [الأحزاب من الآية:٣٣]: كل ذلك، كل هذه التوجيهات، حصرها بهذه العلة، والحصر بـ(إنما) يعد من أقوى صيغ الحصر، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾: والرجس: هو كل قذر ودنس وأذى من القذر المعنوي والقذر الحسي، كل دنس أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن ينزه بيت نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عنه، كل ما يدنس الفضيلة، كل ما يدنس

الشرف، كل ما يدنس الدين، كل ما يدنس الأخلاق أراد الله أن يذهبه عن أهل بيت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وهو أرفع البيوت.

فمن أراد أن يعرف الحصانة التي يمكن أن تحصن بها المجتمعات الإسلامية، من أراد أن يعرف السياج الحقيقي المتين الذي يمكن أن تحفظ به المرأة المسلمة والأسرة المسلمة، فهو فيما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وهو اللطيف الخبير يكون بذلك، بقرار النساء في البيوت، واشتغالهن بطاعة الله وطاعة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ، وإذا احتاجت إلى خروج أو إلى محادثة للرجال، فإن ذلك يكون على قدر الحاجة، بأقصر عبارة، وبأحسن أداء مما لا يعيبها ولا يقدح في حيائها وحشمتها وعرضها وشرفها.

هذه زوج إبراهيم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ماذا قالت حينما بشرها الملائكة بالولد؟ عبرت بلفظتين اثنتين قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات من الآية:٢٩]: ذكرت علتين الواحدة منهن تكفي لمنع الإنجاب، الأولى الكبر حيث ينقطع رجاء المرأة من الإنجاب، والثانية العقم، ﴿قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، فما تكلمت بكلام طويل كثير، وهكذا أدب المرأة المسلمة، تختصر في الكلام، لا تطيل إذا استفتت في

الهاتف، لا تطيل إذا تكلمت مع البائع، لا تطيل إذا احتاجت إلى أن ترد على الهاتف، وإنما تتكلم بالكلام الوجيز المختصر الذي تختار فيه العبارة اللائقة من غير خضوع بالقول.

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾: فإذا حققت المرأة المسلمة هذا المعنى ذهب عنها الرجس والدنس مما يقذر الفضيلة وما يقذر الشرف والطهر، كل ذلك يذهب عنها إذا تخلقت بأخلاق القرآن، وتحلت بهذه الآداب التي أدبها الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بها.

هذا أمر مقرر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ لا مرية فيه، فليس من بنات أفكار البشر، وليس من اجتهاداتهم، ولا قول لأحد مع الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور:٥١]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب:٣٦].

فلا تثبت قدم الإسلام إلا على قاعدة التسليم لأحكام الله عَزَّوَجَلَّ .

وهنا مسألة أصوليّة عظيمة، وجب أن ننبه عليها ونشير إليها، وهي أن: حِياطة الطُّهر لابد فيها من إعمال قاعدتين اثنتين : " سدّ الذريعة "

و " مراعاة الحاجة " فالأولى تَقي والثانية تُبْقِي، الأولى تَحُوط والثانية تُنفِّس.

وإهمال إحدى القاعدتين مآله إلى شيوع الفاحشة في الذين آمنوا.

فإهمال الأولى، تركٌ لذئاب الشهوة من داخل النفس وخارجها تمزِّق العفَّة تمزيقاً.

وإغفال الثانية – بزعم الغيرة – سيحبس النفوس هُنيهة ثم ترقب متى يتفجر البركان؟

ولذا اتفق الفقهاء على أنَّ المرأة إذا تميزت بحسنها أو كثر الفساق في مجتمعها من دون رادع عن الطمع فيها، فإنه يجب على المرأة أن تستر زينتها، سواء كانت في وجهها أو في غيره عند خوف الفتنة الظاهرة عليها كما هو واقع كثير من أحوالنا.

كما جاز ما ظهر ضرورةً كالقوام من وراء الجلباب، وما أظهرته الحاجة، كالنقاب للعينين، وهو جائز بالنص والاتفاق، وجاز لها ظهور يديها عند الحاجة لذلك، كتناول شيء أو فتح باب أو أداء مهنة ونحوها، ولم يوجب أحد من الفقهاء القفازين عليها، وجاز ظهور وجهها

عند الشهادة والخطبة والبيع والشراء، إذا احتاجت لذلك عند كافة الفقهاء.

- ومن آيات مراعاة الحاجة عند ضعف الفتنة قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾ (النور : ٦٠).

- فالمسألة هنا رباعية

١- إذا قويت الذريعة وضعفت الحاجة :

كفتاة جميلة لا تحتاج إظهار يديها أو وجهها، أو صوتها رخيم رقيق بطبعه، ولم تحتج للكلام مع أجنبي عنها. فهنا يغلب جانب سدّ الذريعة.

٢- إذا قويت الحاجة وضعفت الذريعة :

كامرأة كبيرة، لا يُشتهى مثلها في العادة، وتحتاج العمل لتغني نفسها ومن تعول، وطبيعة عملها الذي تيسر لها يحتاج لكشف يديها ووجهها، وقد يضاف لهذا أن تكون في بلد لا يُنظر لمثلها

عادةً، ونحو ذلك مما تضعف معه الذريعة، فهاهنا يغلب جانب مراعاة الحاجة.

٣- إذا تقاربتا في الضعف:

وأمثلة هذه تظهر مما سبق، والأصل هنا الستر كما سبق في آية الزينة ويؤيده قوله تعالى في القواعد من النساء ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، فكيف بغيرهن؟!

٤- إذا تقاربتا في القوة :

وهذا الموطن مُشكل، فمثلاً إذا كانت حسنة الوجه واحتاجت حاجة قوية لكشفه، كأن تكون عند الجوازات؛ لتسافر مع زوجها، أو لطبيعة عملها الذي تعول نفسها وأهلها منه، وكانت حصاناً تحفظ نفسها.

فتقول هنا : بأن الأصل وجوب ستر الزينة فلأجل هذا شُرع الحجاب، لكن إن وقع الحرج عليها بسبب ذلك فقد قال الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج : ٧٨)، ويشهد لذلك حديث الخثعمية المشهورة في البخاري وغيره فإنها مع فتنة الفضل بنقابها فلم يأمرها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتغطية عينيها؛ لشدة حاجتها إلى النظر مع ما

يحتاج إليه الحج والسفر من القيام بالخدمة، والعمل الذي يصعب معه تغطية العينين حتى مع وجود الفتنة، وإنما صرف صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ وجه الفضل عنها، فتوجه الأمر بالصرف له لا لها، وهذا هو أرجح الوجوه في تأويل الحديث، والله أعلم.

ومن أساليب الإقناع؛ أن من جادل في جواز إظهار المرأة لزينة وجهها أو ملابسها أو غيرها، فليأت وليفسر لنا آية القواعد، وهي المرأة بلغ بها العمر ألا تَرغَب، ولاتُرغب في النكاح ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ فحكمها من جهة الستر:﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۢ بِزِينَةٖۖ﴾والثياب هنا هي الجلباب الذي يغطي البدن كاملاً عدا الوجه، فتضع الجلباب ويبقى الدرع(القميص) والخمار(غطاء الرأس) بشرط ألا تكون هذه العجوز الآيسة من النكاح مظهرة لزينة لم تعهد في جسدها أو ثيابها أو حُلّيها، ومع كل هذا – من كِبَر السن وعدم التبرج بزينة – يقول الله تعالى ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾، ثم جاء ختام الآية مشوباً بالتهديد ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠﴾.

فما الذي بقي من العذر لامرأة فتيّة شابة تظهر زينتها أمام الرجال الأجانب عنها ؟؟

وهكذا تأتي آيات العفة في كتاب الله لتغلق كل منفذ لأي احتمال عقلي، يمكن أن يكون سبباً في تهاون الرجل أو المرأة في صيانة الشرف والعرض، بل وتحرك العقول لتزداد قناعة ويقيناً بضرورة حياطة العفة من كل دنس.

بل من دقة معالجة القرآن لقضايا العفة ونواقضها وتشديده في هذا الأمر أن جعل المتبع لخطوات الشيطان، والمنساق وراء دعواته؛ آمراً بالفحشاء والمنكر، لما يتبع ذلك من تأثيره في محيطه ومجتمعه، فيكون حال هذا المتبع في المآل كحال الآمر بالمنكر، فجاءت الآية تنبه المجتمع المسلم إلى أمر غايةٍ في الخطورة، وهو أثر سلوك الأفراد في نشر ما يناقض العفة، وينشر الفاحشة ودواعيها بين عموم الناس، ومن آكد المعالجات تأكيد القرآن في تربية الطفل وأهل البيت على آداب الاستئذان، وحفظ حرمة البيوت، فينشأ وقد تعود على الستر وعدم رؤية ما يستحي منه، وما يحرك غرائزه، فيصبح هذا السلوك القويم ديدنه في شبابه وعمره كله، فالعين إذا تعودت على الستر والفضيلة

والابتعاد عن رؤية ما يخدش الحياء والعفة، لن ترضى أن ترى خبيثاً بعد ذلك، وتنفر منه حيثما رأته فمن أسس تربية القرآن للمجتمع ، تربية الأجيال على محبة الطهر، وبغض الفاحشة، ومن طهّر نفسه فهو الطيب، والناس في هذا يتفاوتون:

١- فمنهم المحصن: وهو من حصّن نفسه منها، وإن نازعته شهوته.

٢- وفوقه الغافل : وهو من لم تدُر بخاطره أصلاً.

فغرس محبة العفاف سورٌ عظيم من أعظم أسوار الفضيلة، فلا إله إلا الله ما أعظم بركة العفة في الدنيا والآخرة!.

وما أجمل لو حفظّنا بناتنا أمثال هذه الأبيات الرائقة، للشاعر المبدع خالد صابر

أختاه لا تهتكي ستر الحيـــــاء ولا   تضيّعي الدين بالدنيا كمن جهلوا

تمسّكي بكتــــــاب الله واعتصمي   ولا تكوني كمن أغراهم الأجل

كوني كفـــــــاطمة الزهراء مؤمنة   ولْتعلمي أنها الدنيـــــا لها بدل

كوني كزوجات خير الخلق كلهم	من علم النـاس أن الآفة الزلل
من صانت العرض تحيا وهي شـامخة	ومن أضاعته ماتت وهي تنتعل
كل الجراحات تشفى وهي نــــافذة	ونافذ العرض لا تجدي له الحِيلُ
أختاه إنّا إلى الرحمــــــــان مرجعنا	وسوف نُسأل عما خانت المُقل
أختاه عودي إلى الرحمن واحتشمي	ولا يغرنّك الإطــــراء والدجل
توبي إلى الله من ذنب وقعــــت به	وراجعي النفس إن الجرح يندمل

من الأمور المؤثرة في حفظ الأعراض، وتثبت غرس الفضيلة في نفوس الفتيان والفتيات، قناعتهم العقلية الراسخة بفضل العفة وشرفها، ودناءة الفاحشة وخساستها، فحين النقاش بينهم وبين منتكسي الفطرة، يعلو منطقهم وتغلب حجتهم، وتكون مواقفهم قويةً مدعومةً بدليل العقل الذي يُذعن له كل عاقل، فإذا أردنا أن نبني أسوار العفة حول أبنائنا وبناتنا ونأمرهم بالطهر ونناهم عن ضده؛ لابد أن نتعلم كيف نعلل؟

- فحين نوجههم لبعض الصداقات المفيدة، أو الاشتراك بحلقات تحفيظ القرآن، أو حضور بعض الأنشطة المفيدة لهم، وما شابهها مما فيه حفظ لهم عن أصدقاء السوء الذين تكثر بينهم الفواحش؛ فيجب أن نعلل ذلك تعليلاً مقنعاً قريباً من أذهانهم وطريقة تفكيرهم.

- وحين نمنعهم من بعض الزملاء، أو الزيارات، أو الأماكن، أو القنوات، أو أنواعٍ من الجوالات، أو بعض مواقع الإنترنت، أو نحوها؛ يجب أن نعلل ذلك تعليلاً مقنعاً قريباً من أذهانهم وطريقة تفكيرهم.

- وإذا حذرناهم من رؤية أو سماع أو قراءة ما يخدش حياءهم؛ لابد أيضاً أن نعلل ذلك بطريقة مقنعة لهم.

أو أثنينا على شخص، أو موقف حدث، أو ذممناهما؛ فوضح للمتلقي العلة في الحالين، فمثلاً هناك أشخاص مشاهير من الرجال أو النساء لهم شعبية جارفة من المغنين، أو اللاعبين، أو الأثرياء، وأخلاقهم سيئة، وثوب طهارتهم مُدنّس بقصص مشهورة، أو مقاطع فيديو، أو صور هابطة، وفي مثل هذا الموقف يجب أن نكون مؤهلين بدرجة عالية من

وسائل التأثير والإقناع، لأن صورة واحدة أو مشهداً فاتناً من هؤلاء قد يهدم تربية سنوات.

أيضاً عند الثواب أو العقاب أذكر العلة واضحة بدون لبس، والأمثلة في هذا كثيرة جداً وإنما قصدت الإشارة لا الحصر.

والأصل في التعليل؛ أن يكون بالوعد والوعيد والجنة والنار، وطمعاً في رضى المولى وخشية من غضبه.

ويقع الخطأ الكبير منا في تربيتنا لمن تحت أيدينا حين نفر من منهج القرآن إلى مناهج حادثة، نكثر فيها من استخدام مصطلحات (مستوردة)، زاعمين أن رحى (التربية المؤثرة تدور عليها)، فتارة ينادى بما يسمى بـ (الإيجابية)، وأخرى (التحفيز)، وثالثة(الإقناع)، وهذه كلها طرائق(حق) لو اكتفت بحيزها اللائق بها، أما أن تزاحم أو تُقدَّم على منهج التربية بالمحبة والرجاء والخشية، وبالوعد والوعيد والجنة والنار والقيامة والساعة والطامة والقارعة والحاقة والزلزلة ... التي امتلأت بها السور المكية، فخطأ جارف وضلال يلوح، وويحُ من ترك منهج تربية

القرآن، واستعاض بغيرها من تجارب البشر طلباً للطرق (الإيجابية) فيما يزعم، ولو أفاد منهما وجعل هذه تابعة لتلك لجمع الحسنيين.

وهذه المسألة جليلة كبيرة القدر جداً، قد خفي على كثير من أهل القرآن وجه الصواب فيها، فوقعوا في خلاف منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ومنهج أصحابه رضوان الله عليهم.

ومنهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في تعليم أصحابه القرآن هو تعليم الإيمان أولاً قبل تعليم الأحكام، وهي داخلة ضمن القاعدة المشهورة عند السلف في التعليم: (العالم الرباني : هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره).

من تأمل النصوص في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فإنه يخرج بنتيجة لا شك فيها أن من مقاصد الشارع في تربية المرأة المسلمة أن تبتعد عن مواطن الرجال أعظم ابتعاد؛ لأنه كلما كانت المرأة أبعد عن مواطن الرجال فهو خير لها. صلاة المرأة في بيتها خير لها من المسجد: ما هي أشرف البقاع وما هي أحب البقاع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وما هي أبغض البقاع إلى الله التي يغرز الشيطان فيها

رايته؟ أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق، وهي التي يغرز الشيطان فيها رايته، كما أخبر بذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، ولذلك فإن الشارع قصد إبعاد المرأة المسلمة عن مواطن الرجال حتى ولو كانت تلك الأماكن مساجد الله، فضلًا عن أن تكون أسواقًا يجتمع فيها الناس لأمورهم الدنيوية، ومن النصوص الدالة على ذلك ما أخرج الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان بإسناد حسن من حديث أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها جاءت إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقالت: "يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك"، امرأة أبي حميد في زمن الصحابة كيف تخيل -يا عبد الله- أن تخرج هذه المرأة وغيرها من نساء الصحابة للصلاة مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في المسجد النبوي؟ ما ذلك اللباس الذي تلبسه؟ ما مقدار الحشمة التي تحلى بها مثل تلك الصحابية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ؟ قالت: "إني أحب الصلاة معك"، تريد أن تخرج لأحب البقاع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فماذا كان الجواب؟ قال: «قَدْ علِمْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ الصلاةَ معي»، إنها ما خرجت لتتلذذ بصوت الإمام الجميل، وما خرجت لتتعرض للرجال،

وما خرجت للفرجة لترى الزحام، وما خرجت لتخرج مما تسميه كثير من النساء اليوم كبتًا في البيت.

قال: «قَدْ علِمْتُ أنَّكِ تُحبِّينَ الصلاةَ معي»، لكن قال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وصلاتُك في دارِك خيرٌ مِن صلاتِك في مسجدِ قومِك وصلاتُك في مسجدِ قومِك خيرٌ مِن صلاتِك في مسجدي».

صلاتها في البيت أفضل من الصلاة في مسجد الحي، وصلاتها في مسجد الحي أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو في المسجد الحرام خلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك الزمان، فأمَرَت فبُني لها مسجدٌ في أقصى شيءٍ مِن بيتِها وأظلَمِه وكانت تُصلِّي فيه حتى لقيَتِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأخرج أحمد والطبراني في الكبير وابن خزيمة في صحيحه والحاكم من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «خيرُ مساجدِ النِّساءِ قَعرُ بيوتِهِنَّ».

وأخرج عنها الطبراني في الأوسط بإسناد حسن أنها قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «صَلاةُ المرأةِ في بيتِها خيرٌ مِن صلاتِها

في حُجرتِها، وصلاتُها في حُجرتِها خيرٌ من صلاتِها في دارِها، وصلاتُها في دارِها خيرٌ من صلاتِها خارجٍ».

وعند أبي داود بإسناد صحيح من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تَمنَعوا نساءَكُم المساجِدَ وبيوتُهنَّ خيرٌ لَهُنَّ».

وعند الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «المرأةُ عَورةٌ»: المرأة عورة ولو خرجت متحجبة، فأين الذين يقولون: ما المانع أن تخرج الداعيات عبر القنوات الفضائية لتقدم بعض البرامج الدعوية؟ أين الذين يقولون: ما المانع أن نوجد قناة للمرأة تخرج فيها المرأة الداعية وتوصل صوتها ليسمعها العالم، بدلًا من أن يتكلم أولئك المضلات الفاتنات المفتونات؟! نقول: المرأة عورة، وينبغي أن نفقه هنا معنى كلمة عورة، العورة كل شيء يحتاط له، ويحترز له، ويتخوف من ناحيته.

فالعورة تطلق بإطلاقات متعددة يجمعها هذا المعنى، فالمرأة يتخوف عليها ويحتاط لها، والشارع قصد الاحتراز للمرأة وحفظها

وصيانتها، فكيف يقال: تخرج في القنوات الفضائية بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة؟ نقول: ماذا تقصد بقولك أن صوت المرأة ليس بعورة؟ هل تقصد أنه يحرم أن يسمعها الرجل، لا يحرم أن يسمعها الرجل بدليل هذه الآيات: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب من الآية:٣٢]، لكن إذا قيل: صوت المرأة عورة بمعنى أنه يحتاط له، فهذا صحيح، فكيف يطالب أن تلقي محاضرات يسمعها الرجال؟ والرجل إذا سمع صوت المرأة تحركت نفسه، لأنها - ولا بد- محلٌ ركبها الله عَزَّوَجَلَّ تركيبًا يميل الرجل إليه ميلًا طبيعيًا، والعكس صحيح.

فأقول: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «المرأةُ عورةٌ، فإذا خرَجَتْ اسْتَشْرَفَها الشيطانُ»: ما معنى استشرفها الشيطان؟: هل المعنى أنه هم بها، وأغرى بها؟ أم أنه حرك النفوس المريضة لأولئك الذين تمتد أنظارهم إلى النساء الذين إذا رأوا امرأة أو سوادًا من بعيد التفتوا يغريهم الشيطان، فينظرون إليها ولو كانت محجبة، لذلك ليس للمرأة أفضل من دارها حيث لا ينظر إليها الرجال ولا تمتد إليها نفوسهم.

يقول عليه الصلاة والسلام: «وإنَّها إذا خرَجتْ استشرَفها الشَّيطانُ وإنها لا تكونُ أقربُ إلى اللهِ منها في قعرِ بيتِها».

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ أنه قال: «ما صلَّتِ امرأَةٌ صلاةً أحبَّ إلى اللهِ مِن أشدِّ مكانٍ في بيتِها ظُلمةً»، فكيف بخروجها تبيع في الأسواق؟ الصلاة في أكثر مكان في بيتها ظلمة، كيف تكون بائعة؟ كيف تشتغل في الشركة؟ كيف تشتغل في المستشفى؟ كيف تكون مقدمة برامج؟ وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أيضًا: "النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبته، وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضًا، أو أشهد جنازة، أو أصلي في مسجد، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها" وإسناده حسن عند الطبراني.

وثبت عنه مرفوعًا كما عند أبي داود وابن خزيمة: «صلاةُ المرأةِ في بيتِها أفضلُ مِن صلاتِها في حُجرتِها، وصلاتُها في مَخدَعِها أفضلُ مِن صلاتِها في بيتِها».

صلاتها في مَخدعها ويقال: مُخدَعها، ما المراد به؟ البيوت قديمًا كانت غرفة المرأة فيها غرفة صغيرة يوضع فيها نفيس المتاع، فهذا هو مخدعها، بمعنى أنها تصلي في غرفة بداخل غرفتها، فهذا أفضل من

صلاتها في بيتها، والمراد بـ(بيتها) في هذا الحديث -والله أعلم- أي في غرفتها - ما نسميه اليوم غرفة المرأة- فصلاتها في ذلك المكان في داخل الغرفة أفضل من صلاتها في الغرفة التي في بيتها.

«صلاةُ المرأةِ في بيتِها أفضلُ مِن صلاتِها في حُجرتِها»: والمراد بالحجرة في الحديث -والله تعالى أعلم- ما نسميه اليوم بالصالة، وهو المكان الذي تطل عليه الأبواب أي أبواب الغرف.

فالمقصود أن المراتب بهذا الشكل، صلاتها في تلك الغرفة التي داخل غرفتها، أفضل من صلاتها في غرفتها -التي هي بيتها هنا- وصلاتها في غرفتها -أي في بيتها- أفضل من صلاتها في حجرتها –أي في الصالة- «وصلاتُها في حُجرتِها خيرٌ من صلاتِها في دارِها»: والمقصود بدارها يعني في البيت والذي نسميه الآن المنزل فنائه وبنائه، كل ذلك يقال له: دار، فانظر هذا التقسيم داخل المنزل، كم هي مراتبه؟ مخدعها وبيتها وحجرتها ودراها، أربع مراتب في المنزل، ثم يلي ذلك مسجد الحي، ثم يلي ذلك جامع الحي، ثم يلي ذلك الصلاة في المسجد الحرام أو مع النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هذا في عبادة، فكيف إذا كان الخروج للأسواق أو للمنتزهات التي فيها الاختلاط والسفور وألوان الردى تتبعها

أنظار من لا يخافون الله عَزَّوَجَلَّ ولا يتقونه يتمتعون بالنظر إليها، وهذا الذي قصده الشارع في تربية المرأة المسلمة.

وقد رأى ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ النساء في المسجد الجامع، فكان يخرجهن من المسجد يوم الجمعة، ويقول: "اخرجن إلى بيوتكن خير لكن" وعلى كل حال فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ نهى عن منع النساء من شهود الصلاة في المساجد.

وفي زماننا قد تحتاج المرأة المسلمة فيه إلى حضور مجالس الخير والذكر والعلم، وألوان من الأنشطة الموثوقة الطيبة، ولا بأس إذا كانت المرأة فقيرة أو محتاجة أن تعمل، وإلا فالأصل أن تعطى من بيت مال المسلمين ما يكفيها، وخاصة إذا كانت أرملة فقيرة فينبغي أن تكفى فلا تحتاج إلى الخروج؛ لكن ما هي نسبة هؤلاء بالنسبة إلى عموم النساء؟ لا شك أنهن قلة، لذلك لا داعي لأن تخرج الغنية والفقيرة من النساء للبحث عن الأعمال بطريقة مسعورة، حتى صارت النظرة إلى المرأة التي لا تعمل نظرة انتقاص؛ وهذا انتكاس في المفاهيم والعياذ بالله.

إن المرأة التي تحتاج إلى العمل لا مانع أن تعمل بحشمة فيما يلائمها، فتكتسب إن لم يوجد من يعولها؛ لكن للأسف الشديد من الذي أصبح يتنافس على الوظائف من النساء؟ الأغنياء منهن ذلك أنك تجد المرأة غنية، وأهلها أغنياء، وتجد أنها تذهب إلى عملها ربما مئات الأميال أحيانًا عن بيتها مع سائق، ولربما في أماكن داخل الصحراء تتعرض للأخطار والحوادث وهي غنية، بل لربما كان أهلها من الأثرياء، ومع ذلك فهي تحتج أنها درست سبع عشرة سنة، ثم تبقى في بيتها، وهذا لا يليق ولا يصح من وجهة نظرها!

لا بأس إن كان لديها فضل وقت فتذهب مع الأخوات الصالحات في أنشطة تبني ولا تهدم، فهكذا علمنا القرآن، وهكذا أدبنا القرآن، ونحن يجب علينا أن نستجيب لأمر الله عز وجل؛ لأن هذا هو مقتضى الإيمان.

والنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ماذا قال لأزواجه في حجته - حجة الوداع- قال: «هذِه ثمَّ ظُهورَ الحُصرِ»: ما معنى هذه ثم ظهور الحصر؟ المعنى أي والزمن الحصير ملازمة، بمعنى أنها لا تخرج لا لحج ولا لعمرة، ولا لغيره.

وقد قيل لسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: "قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي، فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت"، يقول الراوي: "فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها": هؤلاء أمهات المؤمنين المستجيبات لأمر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ليس على النساء غضاضة في أن تكون مكفية، بل هذا هو منتهى الإكرام للمرأة، والعرب في أشعارهم يمدحون المرأة التي يسمونها نؤوم الضحى؛ لأنها امرأة مترفة في نظرهم، ويوصفون المرأة بأنها لم ترها الشمس، ويضربون المثل للحياء الشديد بالعذراء في خدرها، ما رآها رجل، وما رأت رجلًا، وما كلمت رجلًا أجنبيًا، تكون درة مصونة محفوظة لا يتمتع بالنظر إليها كل آسر وكاسر.

إن العاقل من وعظ بغيره، انظروا إلى العالم من حولكم، الذين يكتبون في الصحف ويطالبون ويقولون: إن قيادة المرأة للسيارة يغنيها عن مآسٍ كثيرة، فلا تحتاج إلى السائق، وهذا له تكاليف باهظة.. الخ، وهذا كذب؛ ففي البلاد التي من حولنا صار النساء يقدن السيارات أليس كذلك؟ هل استغنوا عن السائقين؟ أبدًا، وإنما كانت النتائج

عكسية، حينما يقولون: إن خروج المرأة ينعش الاقتصاد، إذا خرجت للعمل، والحقيقة أن الإحصاءات العالمية التي أخرجتها الأمم المتحدة أثبتوا أن المجتمعات التي تعمل فيها النساء أجيرات يكلف اقتصاد تلك البلاد ما يقارب ثلاثين بالمائة يكون عبئًا على الاقتصاد.

الذين يقولون: إن التقدم لا يمكن إلا بخروج المرأة تعمل جنبًا إلى جنب مع الرجل، وخرجت تلك النساء، هل صاروا في مصاف الدول المتقدمة؟ هل صاروا من الأمم المتحضرة؟ أبدًا.

النساء التي خرجن وزاحمن الرجال في كل مكان، هل حصلن الرفعة والشرف والمكانة، أم أن الواحدة منهن تقول: ارجعوني إلى أنوثتي، ارجعوني إلى بيتي، أريد أن أكون ملكة كملكات الشرق -تعني المرأة المسلمة- أليس كذلك؟ ألم تصبح المرأة في مجتمعاتهم سلعة يعبث بها الرجال، وتشعر أنها مهددة في كل لحظة ولا تشعر بالأمان، وتبحث عن رجل يأخذ عفتها وشرفها ويستمتع بها، ثم يلفظها ثم يكون ملجؤها إذا ذهب جمالها وشبابها إلى دور العجزة، أليس هذا هو واقع النساء هناك؟ المرأة عندنا يقوم على شؤونها أبوها وأخوها ووليها ومحرمها، وينفق عليها وجوبًا ويحفظها، ويوفر لها ما تحتاج إليه بكل احترام

وتقدير، فهي أمنا أو أختنا أو زوجتنا أو قريبتنا، هكذا تمثل المرأة، فنحن نحترمها غاية الاحترام؛ لأنها تمثل لنا هذه الوشيجة، وهذا أمر ينبغي أن نفهمه جيدًا؛ لئلا نخدع، لئلا

تستزل قدم بعد ثبوتها، ثم نندم، ولا ينفع الندم عندئذ.

ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾ [الأحزاب:٣٤]: هذا ما تشتغل به المرأة المسلمة في بيتها، إقام الصلاة إيتاء الزكاة، طاعة الله ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ﴾: اذكرن بقلوبكن، واذكرن بألسنتكن بالتلاوة، واذكرن -أيضًا- بالحال والفعل والعمل بالقيام بوظائف العبودية، فكل هذا من الذكر.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: ولم يقل: ما يتلوه جبريل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أو ما تتلوه الواحدة منكن، أو ما يتلوه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ليعم ذلك جميعًا.

﴿مَا يُتۡلَىٰ﴾: وما قال: ما ينزل؛ لأن بعض القرآن نزل في غير بيوت أزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾: من القرآن والسنة فتشتغل بذلك تعلمًا وتفهمًا وتدبرًا وتلاوة وحفظًا وعملًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾: اللطيف: هو الذي يعلم دقائق الأشياء، فيعلم خلجات النفوس، وما تنطوي عليه القلوب، ويعلم المرأة التي تخضع لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وتستجيب، والمرأة التي تمرد وتقول: لماذا تكون المرأة محكومة بهذه الأحكام؟ ويعلم ما تفعله المرأة وهي داخل دارها -في بيتها- من حلال وحرام.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾: والمعنى الآخر للطيف من اللطف، أي أن هذه الأحكام من لطف الله عَزَّوَجَلَّ ورأفته ورحمته بالمرأة المسلمة؛ لئلا يلحقها العنت، لئلا تشقى.

والخبير: هو الذي يعلم بواطن الأشياء، فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم دقائق الأشياء، ويعلم بواطنها ولا يخفى عليه شيء، فلا يجوز لأحد أن يستدرك

على الله عَزَّوَجَلَّ ويقول: إن هذه الأحكام لا تصلح لهذا القرن في هذا الزمان، أو الزمان قد تغير، أو المرأة ينبغي أن تقتحم جميع المجالات، وتثبت جدارتها ووجودها، والحقيقة والصواب أن تثبت المرأة جدارتها ووجودها بتربية الأجيال.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب:٣٥]: بدأ بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى، الإسلام هو إسلام الظاهر، تلتزم المرأة بالحجاب، تلتزم بالحشمة، تلتزم بشرائع الدين الظاهرة.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: فيكون ذلك مع خضوع الباطن، وانقياد القلب وتسليمه وإقراره واعتقاده، تكون مقتنعة منقادة بقلبها، لا لأن أباها أو أن زوجها يفرض عليها هذه الأمور، فلا تستطيع أن تهتك وتلبس عباءة مخصرة، أو تتعرى بصورة من الصور، بل عن قناعة وإيمان تعتز بهذه الأمور.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾: القنوت بجميع استعمالاته ومعانيه -كما قرر الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة مستقلة في معنى القنوت- أن القنوت هو دوام الطاعة، فلا تلتزم بالقفازات والحجاب وأحكام الإسلام أسابيع ثم ترجع عن ذلك، يكون ذلك طفرة، ثم بعد ذلك يحصل لها الضعف والتراجع والانتكاس، بل القنوت هو دوام الطاعة حتى تلقى الله عَزَّوَجَلَّ ، أن تبقى بالحشمة والحجاب والعمل الصالح والإيمان والكف عما لا يليق مما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ وتدوم على ذلك حتى تلقى ربها.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾: الصدق في الاعتقاد، الصدق صدق الباطن بأن يكون الإنسان على حال مرضية في باطنه، يعتقد الحق ويؤمن به وينقاد له، ويكون الصدق أيضًا بالقول فيتكلم بالحق وينطق به ولا يتكلم بالباطل ويلبس على الناس، أو يعترض على أحكام الله عَزَّوَجَلَّ بل تلتزم الصدق.

﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾: ويكون الصدق أيضًا بالعمل والظاهر، فلا تظهر عملًا باطنها يخالفه، ويكون الصدق بالحال فلا تكون في حال غير متوافقة مع مكنونات نفسها.

﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾: صدق الحال، وصدق المقال، وصدق العمل، وصدق الظاهر، وصدق الباطن، كل هذا من الصدق.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ﴾: هذه الأمور تحتاج إلى صبر، تحتاج إلى صبر في سماعها؛ لأن النفوس قد مزجت فيها الأهواء وركبت معها تركيبًا يمازجها.

والشريعة كما قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "قد وضعت على خلاف وزان داعية الهوى"، فالهوى يجلبك من جهة، والشريعة تريد أن ترفعك من الهوى، فسماع الحق أحيانًا يتأذى منه الإنسان، المرأة التي عندها هوى حينما تسمع هذه القضايا والأحكام تتأذى وتتألم كأنها سهام توجه إليها.

إن الإنسان يحتاج إلى صبر لتفهم هذه الأمور، ويحتاج إلى صبر في العمل والتطبيق؛ لأنه يعاب وينتقد وينتقص ويذم ويجد من

يحرضه إلى الباطل والمنكر، والنفس تدعوه إلى الإخلاد إلى الشهوات والراحة والدعة، فيحتاج إلى صبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ويحتاج إلى صبر عن معصيته.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾: والخشوع يكون بالتذلل والخضوع والاستكانة لله رب العالمين، كل هذا بالتدرج، والإنسان لا يصل إلى مرتبة الخشوع إلا إذا ارتاض باطنه بالإيمان، وأصبح مطوعًا لنفسه بألوان المجاهدات، كما قال بعض السلف: "كابدت الصلاة عشرين سنة، وتلذذت بها عشرين سنة"، وآخر يقول: "كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت لي"، فالقضية تحتاج إلى مزيد من بذل الجهد، فكلما تزداد مجاهدة كلما تمكن من النفس، فإذا استقامت النفس وخضعت حصل الخشوع، فإذا رأيته ذكرت الله عَزَّوَجَلَّ وإذا وقعت عينك عليه أحببته، وهذه مراتب عالية في الإيمان.

ثم بعد ذلك يبرهن على إيمانه، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾: كلمة صدق تدل على قوة وثبوت في الشيء، الصداق -صداق المرأة- لماذا قيل له صداق؟ لأنه حق ثابت لها، الصدقة لماذا قيل لها: صدقة؟ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «والصَّدَقةُ برْهانٌ»: أي تبرهن على صدق

دعوى الإيمان، كما أن بذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ يقال له: شهادة، المال حبيب إلى النفوس، وإخراجه يحتاج إلى مجاهدة:

لَوْلا المَشَقّةُ سَادَ النّاسُ كُلُّهُمُ   أَلجُودُ يُفْقِرُ وَالإقدامُ قَتّالُ

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾: والصوم والصبر متلازمان، وهو عبادة لا يطلع عليها أحد، فلا يدخلها الرياء، إلا إذا تصنع أمرًا ظاهراً صحبه، ولذلك كان من شرف الصوم أنه لا يدخله الريا، وهكذا الأعمال القلبية أيضًا، لا يدخلها

الريا؛ لأن الريا متعلق بالنظر والرؤية، لكن يدخله السمعة، يتحدث أنه صام.

والله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ⑩﴾ [الزمر:١٠]: والله يعطي الصائم أجره غير منقوص كما في الحديث القدسي: «إِلَّا الصَّومَ، فإِنَّهُ لي وأَنا أجزي بِهِ».

﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾: انظر إلى هذا الترتيب كيف ذكر الصوم والصبر والخشوع، ثم ذكر حفظ الفرج، من كان بهذه المثابة فهل يقارف ما لا يليق؟ أبدًا.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ يقول: «يا معشرَ الشبابِ، مَن استطاع منكم الباءةَ فلْيَتزَوَّجْ، ومَن لم يَسْتَطِعْ فعليه بالصومِ فإنه له وجاءٌ»: فالصوم والمقصود إكثاره وإدمانه -كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ يورث كسر الشهوة، وهو كسر مؤقت، يورث كسر الشهوة إذا داوم الإنسان عليه وأكثر منه، وأدمن على الصيام، لا من يصوم يوم ويفطر أسبوع، هذا قد لا يؤثر فيه كسر هذه الشهوة.

﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾: يحفظ فرجه عن مقارفة ما لا يليق، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝﴾ [المؤمنون:٥-٧]: كل مقارفة ببذل الشهوة في غير الزوجة وملك اليمين فهي محرمة، سواء كانت بالزنا أو ما دونه بنص كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وحفظ الفرج يشمل حفظ العورات، فلا تبدى أمام الناظرين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النور:٣٠]: والذي عليه عامة المفسرين، وهو قول كبير المفسرين - ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ والآية تشمل المعنيين والله أعلم- أن قوله في سورة النور: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾: أي عن إبدائها للأنظار، يغضوا من أبصارهم فلا ينظرون إلى عورات الآخرين، ويحفظوا فروجهم فلا يبدونها للناظرين، ويشمل حفظها أيضًا عما لا يليق من مقارفة ما لا يحل، فحفظ الفروج لا يكون إلا بحفظ الجوارح، فـ(البصر)، و(السمع)،و(اللسان)،و(القلب)،و(الأيدي)،و(العورة)،و(الرجل)، و(الرأس) من قوله " خُمرهنّ " و(النحر) و(الصدر) من قوله "جيوبهنّ" هذه تسع جوارح نصّت عليها النور.

عجباً من أجل خلخال من رجلِ امرأةٍ يتكلم اللّٰه ! نعم إنّها العفّة.

العرض في سورة القرآن كقلب المدينة الحصان، لن تتسلل إليها الأيدي الخائنة إلا بغدرة خوّان من داخلها، فإذا غَدرت ثُلمَ في جدار العفّاف ثُلمة.

وأثر هذه الجوارح على العفة أو ضدها واضح، لا يحتاج إلى برهان، ولذا اتفق الأئمة الأربعة على :

تحريم مسّ يد المرأة الأجنبيَّة الشَّابة المشتهاة في العادة، بل ذهب المالكيّة والشّافعية إلى تحريم مصافحة العجوز، وقد جربنا الاعتذار بأدب عن مصافحة النساء، وكنَّا نقول لغير المسلمات : زوجي لا تحب منّي ذلك، ومقصود المؤمن هو اللَّه أولاً، ثم ما للحلية من الحق في صون العهد والمعاملة بالمثل، فكان ذلك يلقى إكباراً واضحاً منهنّ، فأين هذه النظرة الإنسانيّة المجرَّدة من خلال العقل والعاطفة السالمين من كُدرة هذا الزمان؛ من نظرة منهزمي المنهج ما بين مفتٍ يتتبع المزالق أو ليبرالي يرى دينه عاراً عليه.

واتفقوا أيضاً على حرمة الخلوة بها؛ لكون ذلك سبباً ظاهراً للفساد.

وعلى حرمة كشف المرأة وجهها إذا خيف عليها خوغاً ظاهراً.

وعلى حرمة تعطرها بما يجد الرجال الأجانب رائحته منها، أو تغنجها بالكلام أو بالرسائل أو تكسُّرها بالمشي أو غمزها بالعين ونحو ذلك.

والذي نحتاجه من (النور) هو النور القلبي، لاذي يضيء لهذه الجوارح طريقها .. أين تمضي ؟ وأين تقف ؟ فإنّ المضي دائماً هلاك، والوقوف دوماً فناء.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾: حفظها بسترها وحفظها عن المقارفة المحرمة.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾: لا توجد عبادة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قرنت بالكثرة كالذكر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] ﴿فَاذْكُرُوا اللَّـهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء من الآية:١٠٣]، لماذا؟ لأن الذكر خفيف على اللسان، لا يحتاج إلى هيئة معينة أن تذكر وأنت قائم أو مستقبل القبلة أو قاعد، وأنت قائم وأنت على جنب بل في كل الأحوال، ولقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يذكر الله على كل أحواله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

فذكر الله لا يتطلب مشقة، وله أجر عظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ ولهذا إذا أمر الله به غالبًا يقرنه بالكثرة، فهنا قال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ : ووصف المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، وذكر الله الكثير

يشمل ذكره باللسان، وذكره بالقلب بطرح الغفلة، فلا يكون غافلًا مضيعًا مفرطًا، ويشمل ذكره أيضًا بالعمل، وهو من أجلِّ الذكر بالقيام والقعود في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والمشي إلى المساجد وما إلى ذلك، ويشمل ذكره بالحال، كل هذا من ذكره تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾: هذه اللفظة أَعَدَّ تدل على عناية بالمعَدّ، أعد الله لهم ماذا؟ ﴿مَّغْفِرَةً﴾: ونكَّرها هنا، تعظيمًا لها، فإن التنكير يأتي في كثير من الأحيان للتعظيم، مغفرة: أي عظيمة، وإذا قلت: رب اغفر لي فالمراد؟ هذا يشمل شيئين اثنين الأول: الستر، والثاني: الوقاية، ومنه المغفر الذي يضعه المقاتل من الحديد فوق رأسه كالقبعة؛ لأنه يقيه ضرب الحديد ويستر رأسه، أي يغطيه، فأنت إذا قلت: يا رب اغفر لي، اللهم اغفر لي، فأنت تسأل شيئين اثنين: الأول: أن تستر فلا تفتضح، أي يسترك الله في الدنيا والآخرة، والأمر الثاني: وهو أن يقيك الله عَزَّوَجَلَّ التبعة -تبعة الذنب والمعصية- فلا تؤاخذ بها، فالستر والوقاية، أن توقى شؤم الذنوب وتبعات المعاصي والمخالفات.

والأجر العظيم كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد دل على ذلك نصوص كثيرة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

هذه الكلمات قبْسة من مشكاة نور القرآن ورشفة من شهده، فتلك الآيات لم يبتدىء العظيم في القرآن العظيم سواها بتعظيم. هي آيات الطهر والعفة والفضيلة، تغسل قوب المؤمنين والمؤمنات غسلاً، فما تُبقي فيها دنساً، وهي حين أنزلت، أنزلت لتبني أسواراً خمسةً شاهقةً متينةً، تحوط العفّة وتحمي الطهر. العِرض فيها كقلب المدينة الحَصان، لا يعلى على أسوارها، ولا يُستطاع لها نقْباً، فلن تتسلل إليها الأيدي الخائنة إلا بغدرة خوَّان من داخلها، فإذا غدرت جارحة فقد ثلم في جدار العفة ثُلمة. فمن أجل العفاف تنزلت آيات العفاف .. ولأجل العفاف صارت أسواراً للعفاف، فيا أيّها الداعية الموفق ..

إن رفعت شعلة النور من آيات العفاف للناس، وكشفت لهم عن معانيها، وهديتهم إلى سبيلها، وربيتهم على آدابها، وأدخلتهم في حصونها، فأبوا بعد ذلك إلا الانغماس في أُتون الفواحش، والعيش في ظلمات الرذائل، فلا عليك ولا تبخع نفسك أسفاً عليهم، فللّه الحكمة البالغة،

والكلام في هذه الآيات كلام يطول به المجلس، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، وكان المقصود هو المذاكرة والعيش مع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في خط القلم لتلك الأحرف وبث هذا البوح الذي نحتاج فيه إلى مثل هذه الذكرى، فهذه مشاعري أهديها لكم، لا حرمني اللَّه دعائكم ودِفْق مشاعركم، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر لي ولكم أجمعين...

التأثّر بالقرآن الكريم؛ وسائله وثمراته:

إنّ إعجاز القرآن الكريم لم يتوقف عند روعة الألفاظ وجمال المعاني، بل هناك وجه آخر من أوجه الإعجاز ربما يغفل عنه كثيرٌ من الناس، ألَا وهو الإعجاز التأثيري للقرآن، والمقصود به ذلك الأثر الظاهر أو الباطن الذي يتركه القرآن على قارئه أو سامعه؛ فتارة تذرف العيون، وتارة توجل القلوب، وتارة تقشعر الأبدان، وغير ذلك من الآثار العملية التي لا يُحدثها في النفس إلّا القرآن، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣].

يقول الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مِن أبرز مَن كتَب في إعجاز القرآن: «في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلّا الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن - منظومًا ولا منثورًا - إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذّة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا

أخذَت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلَق، وتغشّاها الخوف والفرَق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها» ولقد لفَت اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الأنظارَ إلى هذه القوة التأثيرية للقرآن، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

يقول ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ : «يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن، ومبيّنًا علوّ قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: فإنْ كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدّع من خوف الله عَزَّوَجَلَّ ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألّا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟!».

ولقد عاب الله على مَن لا يتأثر بالذِّكر وأعظم الذِّكر القرآن، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢]، وذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن ذلك من أوصاف المشركين

والمنافقين، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

صور من التأثّر بالقرآن:

ولقد ضرب لنا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ المثل الأعلى في التأثّر بالقرآن، فكان إذا سمعه رَقّ قلبه وذرفت عينه؛ لعلمِه بعظمة القرآن، فعن ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (قال لي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرآنَ»، قلتُ: يا رسول الله، أقرأُ عليك، وعليك أُنزِل؟! قال: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى جئتُ إلى هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، قال: «حَسْبُكَ الآنَ»، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان).

ولقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أيضًا يتأثرون عند سماع القرآن تأثرًا عظيمًا، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى المرض وملازمة الفراش عندما

استمع إلى بعض الآيات التي تحدّث عن يوم القيامة، فعن جعفر بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرج يعسّ بالمدينة ليلةً ومعه غلام له وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فمرّ بدار رجل من المسلمين فوافقه وهو قائم يصلي، فوقف يسمع لقراءته، فقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾

حتى بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ [الطور:١-٨] ، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قسَم ورب الكعبة حقّ، فاستند إلى حائط فمكث مليًّا، فقال له عبد الرحمن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: امضِ لحاجتك، فقال: ما أنا بفاعل الليلة إذ سمعتُ ما سمعتُ، قال: فرجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.

لماذا لا نتأثّر بالقرآن؟

بعد هذا العرض السابق، يدور هذا السؤال في خلد كثيرٍ منّا، لماذا لا نتأثر بالقرآن؟ وما العوائق التي تحجبنا عن التأثر بالقرآن كما تأثّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؟ ويمكن أن نُجمِل بعض الأسباب التي تحُول بيننا وبين التأثر بالقرآن، فيما يأتي:

أولًا: طول الهجر للقرآن: فإن طول الهجر للقرآن يولّد فجوة كبيرة تحُول بين القلب والتأثر به، ويعدُّ من أعظم الذنوب التي يرتكبها المسلم؛ لذلك يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة ويشتكي لربه هذا الهجران، فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

ثانيًا: مرض القلب وقسوته: فالقلب هو المخاطَب الأول بالقرآن، ولن ينتفع بآيات القرآن ومواعظه وعِبَره إلّا القلب السليم، أمّا القلوب التي أمرضتها الذنوب واستولت عليها الشهوات المحرّمة فلن نتأثر بالقرآن، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

ثالثًا: الغفلة والانشغال بالمُلهيات: فالإنسان الذي استولت عليه الدنيا وزخارفها لم ولن يشعر بأثر القرآن، ولن يتذوق حلاوته، بل سيتقلّب حاله بين الغفلة والإعراض: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء:٢،٣].

رابعًا: عدم الاهتمام بمعرفة التفسير: فعدم الاهتمام بمعرفة معاني القرآن وتفسيره يحجب القلب عن التأثّر به، فكيف يتأثّر القلب بما لا يفهمه؛ لذلك فقد قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التفسير: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذُّ بقراءته؟!».

كيف نتأثر بالقرآن؟

وبعدُ أيها القارئ الكريم، بعدما تعرَّفنا على بعض الأسباب التي تحُول بيننا وبين التأثر بالقرآن، أسوق بين يديك بعض الوسائل التي تُعِين على التأثر بالقرآن:

أولًا: تجديد العهد بالقرآن: إنّ تجديد العهد بالقرآن والعودة إليه والمداومة على قراءته هي أولى الوسائل وأعظمها أثرًا؛ لذلك على العبد أن يجاهد نفسه على ذلك وأن يصبر على مشقة ذلك؛ لأن هذه المشقة -إنْ وُجدت- هي نتيجة بُعد العهد بكتاب الله، لذلك عليه أن يستمر ولا ييأس، وليكن على يقين أنّ مَن داوَم على قرع الباب يوشك أن يُفتَح له، وأنَّ دوامَ نزول قطر الماء على الحجر يُحدِث فيه أثرًا لا محالة، فما بالك بأثر كلام الله على القلوب إذا داوم العبد عليه؟

ثانيًا: حضور القلب عند التعامل مع القرآن: ينبغي للمسلم أن يجتهد في استحضار قلبه عند التعامل مع القرآن وإفراغه من الصوارف التي تحجبه عن التأثر بالقرآن، فقد قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: ٣٧]، ومما يساعد

على ذلك استشعار أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المتحدِّث بهذا القرآن، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعَك، واحضر حضور مَن يخاطبه به مَن تكلَّم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله».

ثالثًا: الجهر بتلاوة القرآن: فالجهر بتلاوة القرآن يساعد على يقظة القلب ومِن ثمَّ التأثر بالقرآن، بخلاف ما لو قرأ المسلم سرًّا، فإنه يكون أقرب لشرود الذهن وانصراف القلب، ولقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يحب أن يجهر بالقرآن، فعندما سُئل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالليل قال: «كان يقرأ في حجرته، فيَسمع قراءتَه مَن كان خارجًا» .

رابعًا: استشعار المسلم بأنه مخاطَب بكلّ آية: فمِن أعظم أسباب التأثر بالقرآن أن يستشعر المسلم بأنه هو المقصود بهذا الخطاب، وأن كلّ أمرٍ أو نهي هو مأمور به، فلقد فطن أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لهذا الأمر جيدًا، ومن ذلك ما ورَدَ عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، أنه قال: «لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ [الحجرات: ٢]، جلس ثابت بن قيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فسأل النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سعدَ بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟»، قال سعد: إنه لَجاري، وما علمتُ له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني مِن أرفعكم صوتًا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ : «بل هو من أهل الجنة».

خامسًا: الحرص على تدبر آياته ومعرفة معانيه: فتدبُّر آيات القرآن ومعرفة ما غمض من معانيه بالرجوع إلى كتب التفسير؛ من أعظم أسباب التأثر به والشعور بحلاوته في القلوب؛ لأن ذلك هو الأصل الذي أنزل الله القرآن لأجله، فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

ولقد كانت هذه طريقة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ، يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : «كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

سادسًا: استخراج المواعظ والعِبر من قصص القرآن وأمثاله:

فالقرآن يحوي الكثير من القصص والأمثال، والعاقل مَن تدبَّرها وتأمَّلها واستخرج ما فيها من العبر وتأثَّر بما فيها من المواعظ؛ لأن هذا هو الهدف الذي من أجله ذَكَر اللهُ هذه القصص والأمثال، فقد قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١١]، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ [إبراهيم:٢٥]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أيضًا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر:٢١].

يقول ابن قدامة رَحِمَهُٱللَّهُ: «ينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأنّ القصص لم يُرَد بها السَّمَر، بل العِبَر، فليُتنبه لذلك».

سابعًا: عدم المبالغة في الانشغال بالإقامة للحروف: فبعض المسلمين يُسرِف في الاهتمام بإقامة حروف القرآن ومع ذلك لا يترك مساحة ولو صغيرة للتدبّر والفهم؛ وذلك لأنه غفل عن كون القرآن يتكوّن مِن مَبانٍ ومَعانٍ، والمباني وسيلة للهدف الأعظم وهو فهم المعاني؛ لذلك لا ينبغي أن يكون شغلنا الشاغل إقامة المباني على حساب تدبّر المعاني، فلقد عدَّ ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك أحد مداخل الشيطان التي تحجب عن فهم القرآن، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ولْيتخلَّ التالي من موانع الفهم، مثل أن يخيّل الشيطان إليه أنه ما حقّق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى».

ثامنًا: الحرص على قيام الليل بالقرآن: فإنّ قيام الليل من أعظم العبادات وأحبها إلى الله، وأكثرها حضورًا للقلب؛ لذلك إن أراد المسلم التأثر بالقرآن فعليه أن يقوم الليل به، وهذه وصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ١-٦].

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أنّ قيام الليل هو أشد مواطأةً بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي: أجمعُ للخاطر في أداء القراءة وتفهّمها مِن قيام النهار».

ثمرات التأثّر بالقرآن:

وبعد أن وقفنا على أهم الوسائل التي يتحقق بها التأثّر بالقرآن الكريم، فلنعلم أن القارئ للقرآن يجني الكثير من الثمرات بتدبُّره وتأثره بالقرآن، ومن ذلك:

الثمرة الأولى: زيادة الإيمان: فالعبد المؤمن الذي يحسن التعامل مع القرآن، يزداد إيمانًا وإقبالًا على الله ويمتلئ قلبه توكُّلًا وبِشرًا وسرورًا، فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤].

الثمرة الثانية: صلاح القلوب: فالقرآن الكريم أعظم أدوية القلوب أثرًا في إزالة أمراض الشهوات والشبهات، ولِمَ لا وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «هذا القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهَوات الصادّة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبُهات القادحة في العلم اليقيني، فإنّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة».

الثمرة الثالثة: الإقبال على طاعة الله: فالإقبال على الطاعات وشحن الهمم للقيام بها من أعظم الآثار العملية التي يحدِثها القرآن، فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ، قيل: «أي: تلين إلى العمل بكتاب الله والتصديق به».

الثمرة الرابعة: زيادة خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : فإنّ التأثّر بالقرآن وتدبّر ما فيه من الحديث عن عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته من أعظم أسباب زيادة خشيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، يقول الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «لو كان المخاطَب بالقرآن جبلًا، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثّر بخطاب القرآن تأثُّرًا ناشِئًا من خشيةٍ لله، خشيةٍ تُؤَثِّرها فيه معاني القرآن».

الثمرة الخامسة: تهذيب السلوك والأخلاق: إنّ انعكاس القرآن على سلوك المسلم من أعظم الثمرات المرجوّة، فبعد فهم القرآن وتدبره يأتي التخلُّق بأخلاقه والاهتداء بهديه كما كان حال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فالسيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا : عندما سُئلت عن خُلقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، قالت للسائل: ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: «خُلق نبيّ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان القرآن». ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدهم ليقول قرأتُ القرآن كلَّه، ما يُرى له القرآنُ في خُلق ولا عمل».

أثر القرآن في تغيير الإنسان:

منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وقبل أن ينعم الله عَزَّوَجَلَّ على البشرية بأعظم نعمة، وهي: إنزال القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ، ما كان العرب إلّا شَراذِمَ متفرقة وقبائلَ متناحرة، ثم بين عشية وضحاها صاروا إخوة متحابّين، ورفاقًا متآلفين، يفدي بعضهم بعضًا بالغالي والثمين!

وقد نصّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في القرآن على هذه النعمة، فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كانوا يتقاتلون على الناقة والشاة، ثم ما لبثوا أن آثر بعضهم بعضًا على نفسه، ونزل فيهم قول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩].

لم يكن لأحدهم ولاءٌ إلا لقبيلته التي ينصرها في الباطل قبل الحقّ، ولم يكن في وسع أحدهم إلا الاستجابة لصراخ أخيه في القبيلة، بلا برهان ولا بينة على قوله، كما قال الواصفُ لهم:" لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانًا " ثم ما كان منهم بعد الإسلام إلا أن صار أحدهم ينصر الحقّ ولو كان مع غير قبيلته، امتثالًا لأمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وكانت العصبية القبلية دينهم، فإذا بهم يُجاهِد أحدُهم مع إخوانه في الإسلام ولو كانوا من غير قبيلته، بل ولو لم يكونوا من العرب بالأساس!

فكان المسلم الأوسي يقاتل بجوار المسلم الخزرجي، بجوار المسلم القرشي، بجوار المسلم الحبشي، بجوار المسلم الرومي، بجوار المسلم الفارسي، كلهم ذابوا في بوتقة واحدة، يقاتلون يدًا واحدة حتى لو كان عدوهم هو قبيلة أحدهم.

كانوا يتفاضلون فيما بينهم بالمال والجاه وكثرة العدد والولد وجمال الخِلْقَة وقوة البدن، ثم أصبحت التقوى هي معيار التفضيل، والذي لا يعلمه إلا الله، بعد أن سمعوا كلام ربهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

كانوا ينتقصون ويكرهون النساء والبنات، حالهم في ذلك كما أخبر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩].

ويحتقرونهن ولا يعتبرونهن شيئًا، ثم أكرموهن وورثوهنَّ، وأعلوا قدرهن، كيف لا وقد فرض الله عَزَّوَجَلَّ لهن نصيبًا في آيات المواريث، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء: ٧].

كان سعي أحدهم وكَدُّهُ طول عمره في تحصيل أكبر قدر من المال والإبل والغنم والعلوّ في الأرض، ثم أصبح منتهى أمل أحدهم أن يُطْعَن في سبيل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ طعنة تنقله إلى منازل الشهداء،

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣].

كان ليلهم مع شرب الخمور وتمايل الغانيات وفعل المنكرات، فصاروا لا يبيتون إلا وقد صفّوا أقدامهم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ، يناجونه في جوف الليل، وقد تركوا الغانيات والخمور، وقد كانوا يفرطون في حياتهم التي بين جنوبهم ولا يفرطون فيها!

كانوا لا يعتبرون العبيد شيئًا، وكان العبد أهون على سيده من شراك نعله، ثم أصبح بعد الإسلام أخًا مساويًا له في الحرمة، بل قد يفوقه ويعلوه إن كان أكثر منه في التقوى والإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

والسؤال الآن: ما سبب كلّ هذه التغيرات والتحولات وغيرها مما يحيّر الألباب؟ والإجابة على ذلك بشيء واحد: إنه أثر القرآن في تغيير الإنسان.

هذا القرآن الذي أعاد بناء شخصياتهم وفقًا للمنهج الرباني، ولا يراد بذلك مجرد الحفظ والترديد لآيات القرآن، وإنما القصد أن يكون القرآن منهج حياة، وخط سير لا يحيد عنه الإنسان.

تأملوا هذا المنهج الرباني التربوي، الذي جاء تفصيله في حديث جُنْدُبِ بن عبد الله بن سفيان البَجَلِيّ العَلَقِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنَّا فِتْيَانًا حَزَاوِرَةً (جمع حَزَوَّر، وهو الغلام لم يبلغ وقد قارب) مَعَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ». فتأمل قول الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ»، وتدبر كيف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ علّمهم الإيمان قبل القرآن، فلما تعلموا القرآن ازدادوا به إيمانًا. ثم هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوضح المنهج المقابل، فيقول: «وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»، فحريٌّ بنا أن نجعل هذا الحديث مركزًا للمنهج التربوي الذي نأخذ به أنفسنا وأبناءنا وبناتنا وأهلينا. ولم لا؟!

أليس هو المنهج الرباني والأسلوب النبوي في التربية، الذي تكلم به من لا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ؟! وما فائدة أن يكون

الإنسان قادرًا على ترديد القرآن كلّه من الفاتحة إلى سورة الناس، ولكنه في الواقع يسير عكس المنهج التربوي للقرآن تمامًا؟! وحال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خير مثال يُحتذى به، إذ كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يهتمُّ بالجانب العملي، ويقدّم الناحية التطبيقية، فأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -رضي الله عنها- حينما سئلت عن خُلُقِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لم تجد سوى أن تقول: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ».

فالقرآن في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان واقعًا عمليًّا، فمثلًا لمَّا نزل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر:٣]، كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يمتثل ذلك، كما أخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : «يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ».

وهكذا كان جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، كما جاء وصفه في الأثر الرائع عن أبي عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، وَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ، فَإِنَّا عُلِّمْنَا الْعَمَلَ وَالْعِلْمَ».

فتأملوا هذا الفرق بين هذا المنهج وبين ما وضحه الصحابيّ جُنْدُبِ بن عبد الله بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن حال مَنْ كان بعدهم، قال: «وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ».

فهناك فارق بين المنهجين:

المنهج الأول: وهو القائم على الاهتمام بالفهم والعمل.

المنهج الثاني: وهو القائم على الاهتمام بالحفظ والترديد، حتى إن كان بغير العمل، أو حتى بغير فهم!

ولا ريب أنَّ المؤمنين المتقين يتبعون المنهج الأول؛ ولا علاقة لهم بمن يرددون القرآن ولا يفهمونه، ومن ثَمَّ لا يتأثرون به، هؤلاء الذين ذمّهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجميع أصنافهم؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾ [النساء: ٧٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ

أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

العامل الأول من عوامل تأثير القرآن: التدرج: وذلك كما جاء الخبر في الحديث عن يوسف بن ماهك، قال: إنِّي عند عائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا ، إذ جاءها عراقيٌّ، فقال: أَيُّ الكَفَنِ خير؟ قالت: «وَيْحَكَ، وما يضرُّك؟!»، قال: يا أم المؤمنين، أَرِيني مصحفك؟ قالت: «لِمَ»؟ قال: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غيرَ مُؤَلَّفٍ. قالت: «وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟! إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ ، وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿ **بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦** ﴾ [القمر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ»، قال: فَأَخْرَجَتْ له المصحف، فَأَمْلَتْ عليه آيَ السُّوَرِ.

فلنتأمل هذا الأثر العظيم عن أمِّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا ؛ إذ فيه بيان المنهج الرباني القائم على التدرّج في التأثّر بالقرآن، فهذا الرجل العراقي

جُلُّ هَمّه في ترتيب المصحف، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟!»، لأن المهم هو ما نستفيده من الآية من أحكام، لنعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على بصيرة، ولنعمل بها في حياتنا، كما أمر الله خالقنا.

فكان بناءُ شخصية الإنسان المسلم في المرحلة الأولى من الإسلام متعلِّقًا بجانب العقيدة، والرقائق، والحديث عن الجنة والنار، والساعة، والصراط، ومشاهد يوم القيامة، وثواب المتقين، وعقوبة المجرمين، حتى إذا ترسخت العقيدة في القلوب، وصارت الجنة والنار كأنهما رأي العين، أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آيات الأحكام، وبيَّن فيها الحلال والحرام.

وفي عصرنا الحديث يوجد مَن يسلكون سبيل الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، ولكن على غير هذا المنهج، فيبدؤون الناس بالأمر والنهي، والحلال والحرام، قبل أن تترسخ خشية الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب، وقبل أن تنغرس في صدورهم الرهبة من النار، والرغبة في الجنة، فتكون النتيجة كما أخبرت أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا،... لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا».

ومن هنا ننتقل إلى مجال آخر من مجالات التدرج؛ فالتدرج في القرآن لم يكن قاصرًا على الأحكام الشرعية؛ بل كان القرآن أيضًا منهجًا ربَّانيًّا متدرجًا لإعداد النبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ للرسالة.

قال الفيروز ابادي رَحِمَهُٱللَّهُ : «اتَّفقوا على أَنَّ أَوّل السُّور المكّية ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: ١]، ثمَّ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم:١]، ثمَّ سورة المزمِّل، ثمَّ سورة المدَّثِّر،...» .

فقبل أن يُنَزِّلَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر:١-٢]، كانت التهيئة والإعداد لتحمل هذه المسؤولية الكبيرة، فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل: ١- ٥].

وهذه لفتة رائقة تؤكد أنّ الهدف الأسمى من قيام الليل هو ترتيل القرآن وتدبّر معانيه، ومن ثم تتم تربية قائم الليل، وتأهيله لحمل أعباء الدعوة، وليعينه القرآن على تحمل كلّ أذى في سبيل الدعوة؛ كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾

[المزمل: ١٠]، فأكد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآية الكريمة أن القرآن مُعينٌ لمن يقوم به الليل على تحمّل الأذى في سبيل الدعوة.

العامل الثاني من عوامل التأثير: الترتيل: إذ ليس القصد تحقيق أكبر عدد من الختمات، وذلك أن الأمر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جاء بترتيل القرآن، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ : ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ٤]؛ وهكذا كانت قراءة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ .

واتبعه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ؛فقد كان ترتيل القرآن سبباً لحرمان أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ والأشعريين من النوم؛ وذلك أن القرآن متى دخلت محبته القلب خرجت منه كلّ محبة تصرفه عن كلام ربّ العالمين، وأول أثر للقرآن على صاحبه أنه يحرمه النوم الطويل.

جاء عن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ؛ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: (إِنِّي لَأَعرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ...).

فأيُّ شرفٍ لهذه الشخصيات الإيمانية، هؤلاء الذين تُعْرَفُ بيوتهم، وتُميّزُ من بين البيوت، كما يميّز البشر النجوم المضيئة في السماء المظلمة، وما ذلك إلا بالقرآن؛ ليس كما في عصرنا الآن الذي فيه بيوت تُعرفُ بسماع المنكرات.

وقد عاب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَنْ اهتمَ بكثرة القراءة وعدد الختمات على حساب ترتيل القرآن؛ حيث جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: قرأتُ المُفَصَّلَ الليلةَ في ركعةٍ. فقال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ، إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ».

لقد ظنّ الرجل أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيفرح ويُثني عليه عندما يعلم بأنه يقرأ المفصل كلّه في ركعة واحدة! ولكن المفاجأة كانت في شدة إنكار ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه؛ إذ أعلمه أن العبرة ليست بكثرة الآيات؛ بل بترتيلها، وتدبر معانيها، وفهم مراميها.

وهذا ينقلنا إلى العامل الثالث: التدبر: إنّ تأثر الإنسان بالقرآن لا يمكن أن يتم حقيقة إلا بتطبيق القرآن، والتطبيق الصحيح للقرآن لا يتحقق إلا بعد فهم آيات القرآن، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩]؛ فمن أخذ القرآن بهذا المأخذ الرباني، وتدبَّر آيات القرآن، فعساه أن يحقق ذلك الأثر الإلهي للقرآن.

تأملوا أثر القرآن على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: بكاؤه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عند سماع القرآن، وتأثره بمعانيه؛ كما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-؛قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأْ عَلَيَّ). قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: (فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:٤١]؛ قَالَ: (أَمْسِكْ). فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ».

ولم يكن أثر القرآن على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ مقتصرًا على دموع العين؛ بل كان يؤثر في أعماله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، فالقرآن كان

يرفع من درجة السخاء النبوي، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».

فانظروا ذلك الأثر العملي لمدارسة القرآن، وكيف كان الأثر في مضاعفة الاستعداد الجبلّي للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ للنفقة؛ فهكذا تكون الثمرة الحقيقية لتدبر القرآن برفع مستوى إيمان العبد، ومضاعفة أعماله الصالحة.

وقد يقول قائل: ولكن هذا الأثر للقرآن يحدث للطائعين المتقين، ولكن أين العصاة من ذلك؟!

تأمل هذه القصة: سُئِل ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : عن ابتداء طلبه العلم، فقال: «كنت شابًّا أشرب النبيذ، وأحبّ الغناء، وأطرب بتلك الخبائث، فدعوتُ إخوانًا حين طاب التفاح وغيره إلى بستانٍ لي، فأكلنا وشربنا حتى ذهب بنا السُّكْر، فانتبهت آخر السَّحر فأخذت العود أعبث به وأنشد:

ألم يأن لي منك أن ترحما   ونعصي العواذل واللُّوَما

فإذا هو لا يجيبني إلى ما أريد، فلما تكررت عليه بذلك، وإذا هو ينطق كما ينطق الإنسان: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦]؛ قلتُ: بلى، يا رب! فكسرت العود، ومزقت ظروف النبيذ، وجاءت التوبة بفضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بحقائقها، وأقبلت على العلم والعبادة».

وقد أثّر القرآن في عامة المشركين؛ كما جاء ذلك في الحديث عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا ؛ أنها قالت: «لَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، فرده ابنُ الدَّغِنَةِ وأجاره من المشركين؛ فقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. فَقَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ، وَلاَ القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ (أي: يزدحمون عليه ليسمعوه)،

يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلاَةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الاِسْتِعْلاَنَ،...».

فانظر كيف كان القرآن يؤثر في عامة المشركين حتى النساء والأطفال!

وأخيرًا... أفلا ننتبه إلى المعاتبة الربانية الحانية التي كانت سببًا في توبة الكثيرين من الغافلين الذين لم تقض الغفلة على بقية من خير في قلوبهم؟! ألم يأن لنا أن نستحي من المعاتبة الربانية في قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦]؛ أما آن للمؤمنين أن تخشع

قلوبهم لذكر الله، فتلين عند سماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتطيعه! فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: «إنّ الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾».

- وإليك بعض الوسائل المُعِينة على تحقيق التفاعل والتعايش مع القرآن:

* **انتزاع بعض الأوقات للخلوة بالقرآن**: ينبغي على المسلم أن يتخير الأوقات المناسبة لتدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ، حيث يفرغ ذهنه وقلبه من الصوارف التي ربما تَحُول بينه وبين الخشوع والتفاعل مع كلام الله عَزَّوَجَلَّ ، وينبغي أن يَعْلَم بأن الأمر ليس صعبًا كما يظنّ بعض الناس، فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٢٢ ﴾ [القمر:٢٢]، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «أي: ولقد يسّرْنا وسهّلْنا هذا القرآن الكريم وألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم».

* **التعوُّذ بالله من الشيطان الرجيم:** لأن هذا التعوذ يُعين العبد لا محالة على حضور قلبه وخشوع جوارحه، فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

- ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «الشيطان يجلب على القارئ بخَيْلِهِ ورَجِلِهِ، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ منه».

* **الحرص على معرفة ما غمض من الكلمات والمعاني:** وذلك بالرجوع إلى كتب التفسير المشهورة عند أهل العلم، والمعروفة بسلامتها من الاعتقادات المخالفة، مثل: تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير البغوي، ومن الكتب المعاصرة: تفسير السعدي، وتفسير ابن عاشور وغيرها من التفاسير، وذلك ليتسنى له معرفة الرسالة التي تتضمنها كلّ آية.

ولقد كان ذلك دأب السلف الصالح، حيث كان الواحد منهم إذا مرَّ على الآية لا يتركها حتى يتدبرها ويفهم معانيها، وإلَّا لا يعدّ لها أجرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ فقد نقل الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض السلف قوله: «آية لا أتفهّمها، ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثوابًا».

* **استشعار المسلم بأنه مخاطَب بكلّ آية من القرآن:** ينبغي للمسلم عند قراءة القرآن أو الاستماع له أن يستشعر أنه هو المقصود بهذا الخطاب وأنه موجّه له، وأن كلّ أمر أو نهي هو مأمور به، فلقد فطن أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لهذا الأمر جيدًا، ومن ذلك ما روي عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، أنه قال: «لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ ﴾ [الحجرات:٢]، جلس ثابت بن قيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فسأل النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سعدَ بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فقال: (يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكَى؟)، قال سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ،

فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : (بل هو من أهل الجنة).

* الحرص على التطبيق والعمل بعد القراءة والفهم: فإن التطبيق والعمل بعد القراءة والفهم لَهُوَ المقصدُ الأساسُ لنزول القرآن الكريم، وهو من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣- ١٢٤].

فالعمل بعد القراءة له أهمية كبيرة وهو أمر لطالما نعى السلف على إهماله وعدم رعايته والانشغال فقط بالقراءة دون العمل، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أُنْزِل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا درسه عملًا، وإنّ أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يُسْقِط منه حرفًا، وقد أسقط العمل به»، ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ عن التدبر: «والله ما

تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأتُ القرآن كله، ما يُرَى له القرآنُ في خُلقٍ ولا عملٍ».

ها قد علمتَ، فماذا أنت بفاعل؟

فسَلْ نفسك، ما فعلتَ في هذه المعجزة التي بين يديك كلّ يوم؟ هل عظَّمتها بما تستحق أم هضمتَ حقها وهجرتَ حروفها؟

هل أعملتَ معاول الجد في تهيئة وادي الصدر ليجري القرآن ربيعًا لقلبك؟ أم سألتَ الله ذلك ثم بنيت سدودًا من الصدود، وحواجز من الهجران، حتى توشك زهرة قلبك أن تذبل إذْ مُنعَتْ عنها الحياة، وحُجِبَتْ عن النور؟

لو تأمل العاقل ما ذكرناه وأكثر لمَا فرّط في القرآن أبدًا، لمَا انقطع عن رسالة ربه إليه، لمَا شبع من قراءته اليوم بعد اليوم، يطهّر بذلك قلبه، وينفي عنه به أدران الدنيا، ويُضيء به ظلمات الحياة.

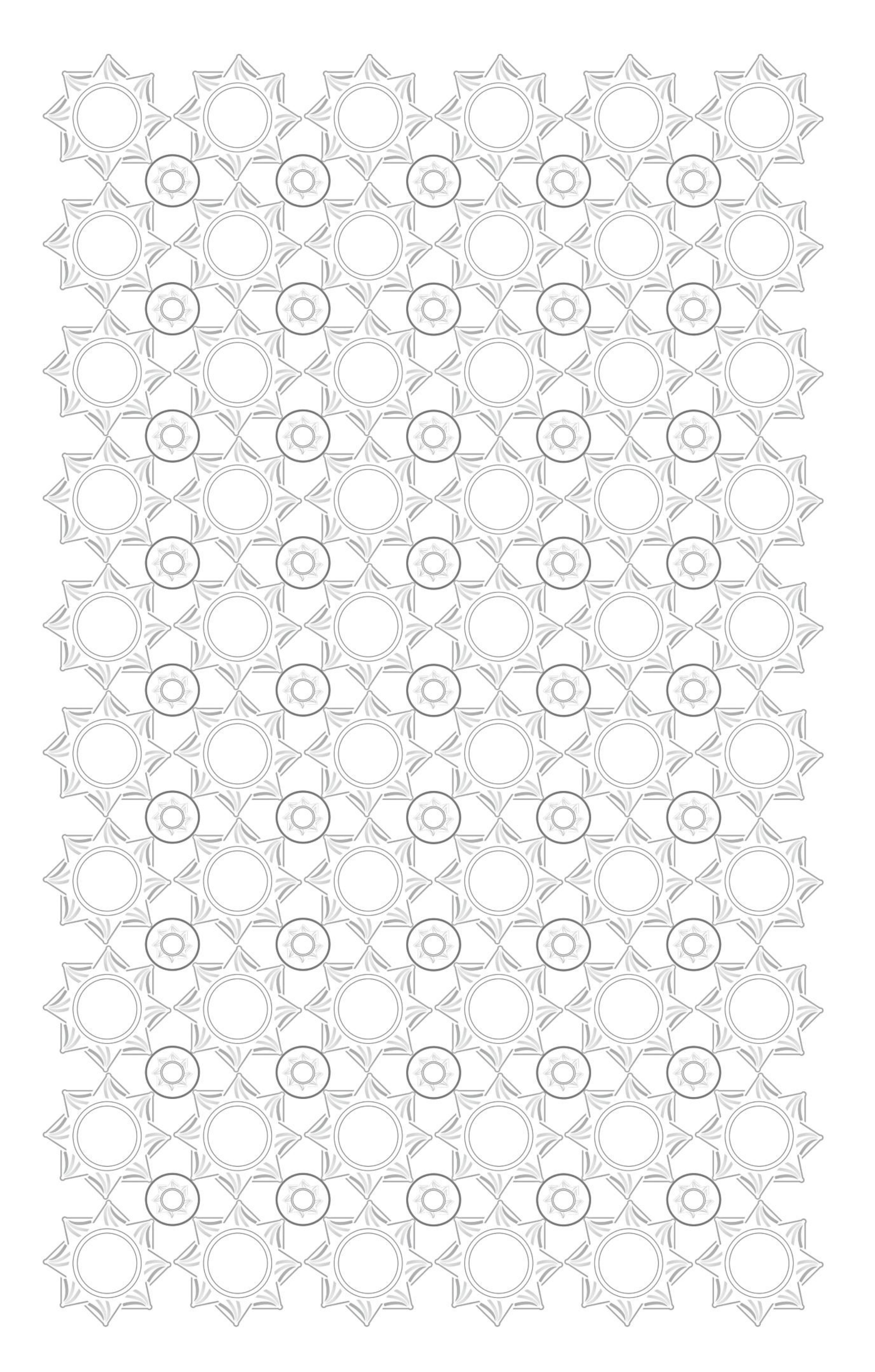
لو استشعر المؤمن هذه العظمة وذلك الجلال، لانشغل بالقرآن تلاوة، وحفظًا، وتدبرًا، وتخلّقًا، وعملًا؛ وكلما فعل فُتحت له أبوابٌ من الأنوار والأسرار والفتوحات والهدايات لم يكن ليتصورها أبدًا، وقد

سطر لنا التاريخ أخبار أقوامٍ من أهل العلم، اشتغلوا بالقرآن زمنًا حتى قد يظنّ الظانُّ أنهم قد بلغوا منتهى درره، وغاية كنوزه، ولُجَّة بحره، ثم لمَّا طالت خلوتهم بالقرآن في نهاية أعمارهم قال قائلهم وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»!

وختامًا أيها القارئ الكريم، هذه مجرد نبضات حول التفاعل مع القرآن أردتُ من خلالها أن أدقّ ناقوس الإنذار؛ لينتبه المسلمون لبعض أخطائهم في التعامل مع أعظم رسالة وصلت إليهم، هذه الرسالة التي إن أحسنوا التعامل معها نالوا شرف الدنيا وعزَّ الآخرة، ولِمَ لا؟! وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في خطبته يوم حجة الوداع: (وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله)

فنسأل الله أن يردّنا إلى القرآن مَرَدًّا جميلًا، وأن يجعلنا من العالِمين العامِلين، والحمد لله ربّ العالمين.


منظومة
فتق الأذهان بتدبُّر القرآن
للشيخ: حامد الإدريسي



منظومة فتق الأذهان بتدبُّر القرآن

نظمها الشيخ: حامد الإدريسي

المقدمة

١- سبحان من أرشدنا لشكره ... وخصنا من خلقه بذكره

٢- وجعل القرآن بالفصيح ... من لغة العُرْب بلاد الشيح

٣- ليتبدر أولو الألباب ... ويدركوا مقاصد الكتاب

٤- فقوله سبحانه بحار ... في كنهها عقولنا تحتار

٥- أحمده لنعمة القرآن ... فهي أجل نعم الرحمان

٦- وأشرك الحمد مع الصلاة ... على النبي فاضل الصفات

٧- وآله معادن العلوم ... وصحبه مجامع الفهوم

٨- وبعد هذا النظم للقواعد ... بها تدبر كلام الواحد

٩- فلج بها عوالم المعاني ... وغص بها لدرر المثاني

١٠- وقبلُ إن واجب القرآن ... سمع وحفظ يا أولي العرفان

١١- وتتلوَ الحروف بالإتقان كيما تكون من أولي الإيمان

١٢- ثم التدبر لآي أحكمت كما بصاد ومحمد ثبت

١٣- كي لا يغلّ القلب بالأقفال ويسلم العقل من الضلال

١٤- هذا ولن ينفع إلا العملُ مع احتكام بالكتاب يحصلُ

١٥- فاعمل أخي بما قرأت واجتهد في أن تعيش بالهدى عيش الرغد

معنى التدبُّر في اللغة والاصطلاح

١٦- انظر إلى عاقبة الأمور بالفكر في المبدأ والمصير

١٧- فذا تدبر يفيد الرشَدا في الفعل والقول وحال سُدِّدا

١٨- وأهل هذا الشأن قالوا حده إعمال فكر في الكتاب قصده

١٩- مع نظر في عقب الأمور وذا عليه غالب الجمهور

٢٠- تأمل المعنى مع التبصر هذا الذي يقوله الزمخشري

٢١- لكنما الطيَّار قد قسَّمهُ إلى قراءة وما أفهمَهُ

٢٢- لفظٌ من المعنى مع التأثُّرِ فعملٌ يجنيه بالتفكر

٢٣- فللتدبُّر إذن ركنان فكر وفعل فهما سيان

٢٤- وقد يكون قبل فهم المعنى توصلا لما أراد المولى

٢٥- وقــد يكــون بعــده تنزيــلا تحققــا تعمقــا تمثيــلا

٢٦- وذا مــع التفســير يبــدوان متفقــين بــل همــا شــيئان

٢٧- وفرقــوا بينهمــا بمــا يــلي بالجــزم والخشــوع ثــم العمــل

٢٨- وقــد يقــول قائــل ومــن أكــون وهــل أقــول في الكتــاب بالظنــون

٢٩- فــذاك تلبيــس مــن الشــيطان لــكي تكــون هاجــر القــرآن

٣٠- وغايــة الأمــر اتصــال المعــنى بالفكــر ثــم قلبــك المعــنّى

فصل في فضل تدبر القرآن

٣١- يــا مؤمنــا بمــا الرحيــم أنــزله في ســورة القتــال أمــرا عللــه

٣٢- في صــاد والنســاء ثــم المؤمنــون مستفهمــا بأفــلا يدبــرون

٣٣- فافتــح أخي أقفــال قلبــك الــتي ذكرهــا ســبحانه في الآيــة

٣٤- ولتدبــر القــران إنمــا أنــزله الرحمــن كي تقتحمــا

٣٥- فتتعــب الفكــر وتمعــن النظــر وتكشــف الســر وتســبر الخــبر

٣٦- فذلــك الذي يفيــدك العمــل ويجعــل القــرآن منــك كالحلــل

٣٧- تلبســها خلقــا وعلمــا عمــلا تســمو بهــا إلى منــازل العــلا

٣٨- ولا تكــن كمــن أقــام أحرُفــا وهجــر المعنــى ففاتــه الشــفا

٣٩- نــص عليــه الحســن البــصريُّ التابـــع العالـــم والمـــرضيُّ

٤٠- وقــال أنــزل الكتــاب للعمــل فجعلــوا ترتيلــه هــو العمــل

٤١- أخي تدبــرْ كي تنــل مــن لذتِــهْ ولترتشــفْ أنــوارَهُ مــن غرفتــه

٤٢- فبالتدبُّـــر تـــداوي القلبـــا وتدفــع الغــم وتنــفي الكربــا

٤٣- وهــو اقتــداء بالرســول الأكــرم صــلى عليــه الله مــن معلــم

٤٤- وذاك مــن صفــات أهــل العلــم تفاوتــوا بــه في عمــق الفهــم

٤٥- وهــو مــن التــدارس المعتمــدِ في قــوله مــا اجتمعــوا في مســجد

٤٦- وهــو على قــدر الفهــوم يــدرك فـــأمي وعالـــم محنـــك

٤٧- كل ينـــال مـــن كلام الله إلا المنافـــقٌ وإلا الـــلاهي

٤٨- فاحــرص عــلى تدبُّــر القــرآن واجعلـــه مـــن وردك كل آن

فصل في تدبُّر الرسول ﷺ

٤٩- وكيــف لا يكــون خــير الخلــق أكثرهـــم تدبـــرا بحـــق

٥٠- كأنـــه في ســـمته قـــرآن يمــشي ويهــدي حــاله البيــان

٥١- وقــام ليلــة بآيــة فقــط يخــشى على أمتــه مــن الســخط

٥٢- وذرفـــت عينــا حبيـــب الله لمــا تلــى عليــه عبــد الله

٥٣- وهكــذا الأسـيف كان دمعــه يغلبـــه إذا يـــؤم جمعـــه

٥٤- واســتنبط السـبقَ لأهـل الهجـرةِ تحـت السـقيفة بأجـلى حُجـةِ

٥٥- وهكــذا الفــاروق حــين ســمعا والطــور قــام للجـدار خاشـعا

٥٦- وعاده النــاس مريضــا شــهرا لــم يعرفـــوا له دواءً يـــدرى

٥٧- عثمــان قــال لــو قلوبنــا زكــت فلــن تراهــا مــن قــرانٍ شـبِعَتْ

٥٨- وهكــذا علي حــين اســتخرجا أقــصر حمــل بالدليــل اســتنتجا

٥٩- والحــبر قــال ســورة تلوتهــا في ليلــة تجــول بي فكرتهــا

٦٠- خــير مــن الختمــة تلــو أختهــا هــذّا كهــذ العُــرب في ســمرتها

٦١- وهكــــذا الصحابــة الكـــرام بعـــشر آي عملـــوا وقامـــوا

٦٢- ونــال الــبر منهــمُ مــن أنفقــا ممــا أحــب وبــه النــار اتقــا

٦٣- فانظــر إلى آثــار هــذا الــوحي في أنفـــس تدبـــرت بـــوعي

فصل في مفاتيح التدبر

٦٤- هــاك مفاتيــح لهــذا الأمــر أولهــا تعظيــم قــدر الذكــر

٦٥- فهــو كلام الله ذي الجــلال فاقصــد إليــه كامــل الإقبــال

٦٦- واســتجلب الخشــوع بالترتيــل مــع ســؤال الفتــح والقبــول

٦٧- وليـس أنفـع مـن القيـام ... بالليـل حيـث جلـوة الأفهـام

٦٨- فـذا الكتـاب يمنـع المنامـا ... قـد رفـع الله بـه أقوامـا

٦٩- تحـيَّنِ الأوقـاتَ والأماكنـا ... وكـن لسـيرة الرسـول حاضنـا

٧٠- فـهي المثـال والمنـار والهـدى ... بهـا تنـال في التدبـر المـدى

٧١- فتعـرف الأسـباب والأحـوالا ... وتفهـم السـياق والأمثـالا

٧٢- ولا غـنى في البـاب عـن مدارسـة ... فاصمـد لهـا في زمـرة منافسـة

٧٣- وانظـر إلى المصحـف داوم النظـر ... وكـرر الآيـة لا تخـش الضجـر

٧٤- فـذا كتـاب كلـه كنـوز ... فدونـك الكـنز ومـا تحـوز

٧٥- وارجـع إلى التفسـير للتثبـت ... مـن الـلآلي وعلى الدرب اثبـت

٧٦- والجـأ إلى الله بالاستغفـار ... فـذاك بـاب الفتـح والإيثـار

فصل في الملكات التي يحتاجها متدبر القرآن

٧٧- أولهـا لسـان هـذا الـحيِّ ... أهـل الفصاحـة قـوم النـبي

٧٨- فإنمـا نأخـذ مـن كتابهـم ... بقـدر مـا نأخـذ مـن لغتهـم

٧٩- مـن أجـل ذا تدبـروا القرآنـا ... حـتى الذيـن رفضـوا الإذعانـا

٨٠- فـكان منهـم مـن يبيـت واقفـا ... يختلـس السـمع بليـل خائفـا

٨١- ومَن يعُدْ بعد سماعه النبي بوجه غير وجهه الذي نمي

٨٢- ألا تراهم خروا للأذقان إذ سمعوا النجم على الكفران

٨٣- فهكذا القرآن حين يسمعه ذو اللغة الفصحى يكاد يصرعه

٨٤- فاحفظ أخي من شعرهم ونثرهم فهو السبيل لاقتباس فهمهم

٨٥- واحذر أخي تدبر الأعاجم فإنه للعُود غيرُ عاجم

٨٦- وثانيا ملكة التأمل فبعثر الأفكار بالتساؤل

٨٧- واستنبط المعاني بالقياس ولتضرب الأخماس في الأسداس

٨٨- وثالثا ملكة الخيال بها تجول في الفضاء العالي

٨٩- فتركب السفين في أصحاب نوح وتحضر الموقف والصحْف تلوح

٩٠- وتبصر اللهيبَ والزبانية -عين اليقين- والقطوفَ الدانية

٩١- فبالخيال يستثار الوجد فيقشعر ويلين الجلد

٩٢- ورابعا ملكة التنزيل فاربط بها الحادث بالأصيل

٩٣- وانزل بها للناس في معاشهم كي يحكي القرآن عن زمانهم

٩٤- وبعد هذا خذ من العلوم فكل علم يشف من كلوم

فصل في قواعد تعين على التدبر

٩٥- أما إذ استجمعت بعض ما ذكر فخذ قواعد بها تُجلى العبر

٩٦- فابحث من السورة عن مقصدها وما يثنى بالذكر في آياتها

٩٧- فربما كانت لمقصد ظهر وربما يخفى على ذوي البصر

٩٨- فاطلبه في مواطن النزول أو في اسمها كالشرح في التمثيل

٩٩- وقصة النصارى بعد البقرة وحاطب إذ جاء في الممتحنة

١٠٠- ومطلع السورة قد تلفيه يشير للمقصد أو يبديه

١٠١- وربما تكرر الكلام كالذاريات رزقها يرام

١٠٢- وربما أفادك الختام كالنصر في الصف به إعلام

١٠٣- ودونك البحار في الدلالةِ دلالة الألفاظ عينِ الغايةِ

١٠٤- تفصيلها تلفيه في الأصول والعلم ذاكَ سلم الوصول

١٠٥- وبعده تناسب الاياتِ كأن يجي ختامها يواتي

١٠٦- أوتأتيَ الآية بعد أختها فعند ذاك تستبين ما بها

١٠٧- وانظر الى النسبة ما بين السور خذ في الصراط والكتاب معتبر

١٠٨- وهكذا الفتح تليها الحجرات إذ تم ما للصحب فيها من صفات

١٠٩- وبُدئ الوحي بسورة العلق وبان في القدر مقام اتسق

١١٠- وانظر إلى اقتران كلمة بما يفيد معنى قد أضيف بهما

١١١- وانظر إلى يمين ذي الجلال قد فصلت كقطع اللآلي

١١٢- وانظر إلى السياق والسباق تظهر لك التقوى بين الطلاق

١١٣- وتدرك الصلاة في والوالدات وتفرق المعاني في والمحصنات

١١٤- فارق بذي القواعد المنازلا وادخل فباب الله ليس مقفلا

فصل في ضوابط التدبر

١١٥- خذ من معاني الوحي ما قد وافقا تفسير أهل العلم ممن سبقا

١١٦- مما يجوز من كلام العرب فغير ذا ضرب من التسييب

١١٧- واحذر فطير الرأي حتى ترجعا لكتب أهل الشان ممن جمعا

١١٨- العلم مع منهج خير السلف واحذر من الإعجاب باب التلف

فصل في موانع التدبر

١١٩- ويمنع التدبُّر العصيان والكبر والبدعة والطغيان

١٢٠- وكيف يدرك كلام الله الغافلُ المعرض عنه اللاهي

١٢١- وكيف يدرك كلام الله من يترك المحكم لاشتباه

١٢٢- وكيــف يــدرك المعــاني أعجــمي أعــرض عــن لغــة خــير الكلــم

١٢٣- ومــن يــرى أن الــكلام ليــس له يجعــلُ حجــةَ الكتــاب مهملــه

١٢٤- ومــن أضــاع عمــره في اللهــو أفســد قلبــه ســماع اللغــو

١٢٥- ولا يشــغلك الحــرف والمخــارج واللحــن والصــوت وذي المباهــجِ

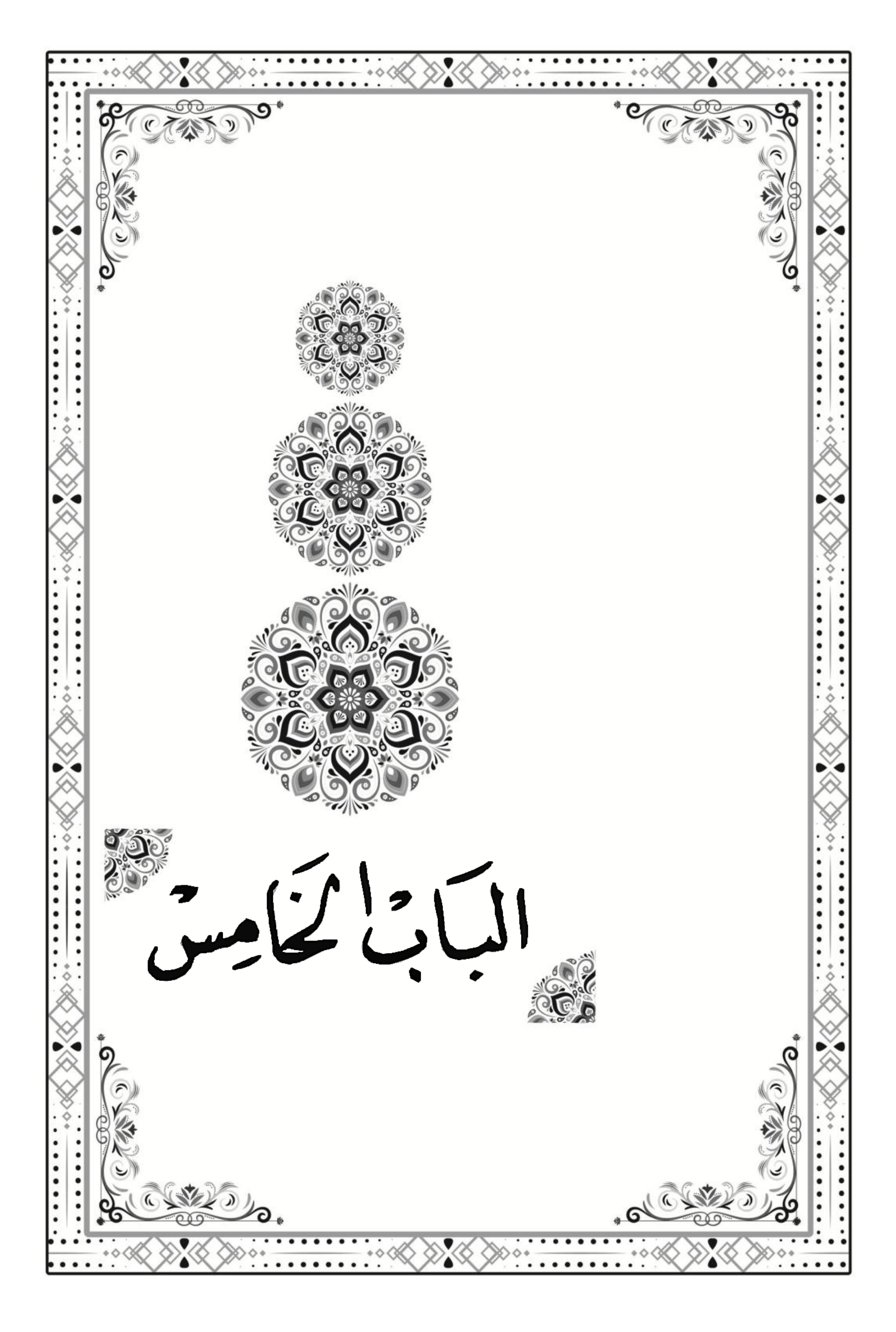
١٢٦- لا تقطعــنْ معنــاه بالأجــزاء والصفحــات ذا مــن الأدواء

١٢٧- واحــذر أخي تعجــل المعــاني فمــا العجــول رب هــذا الشــان

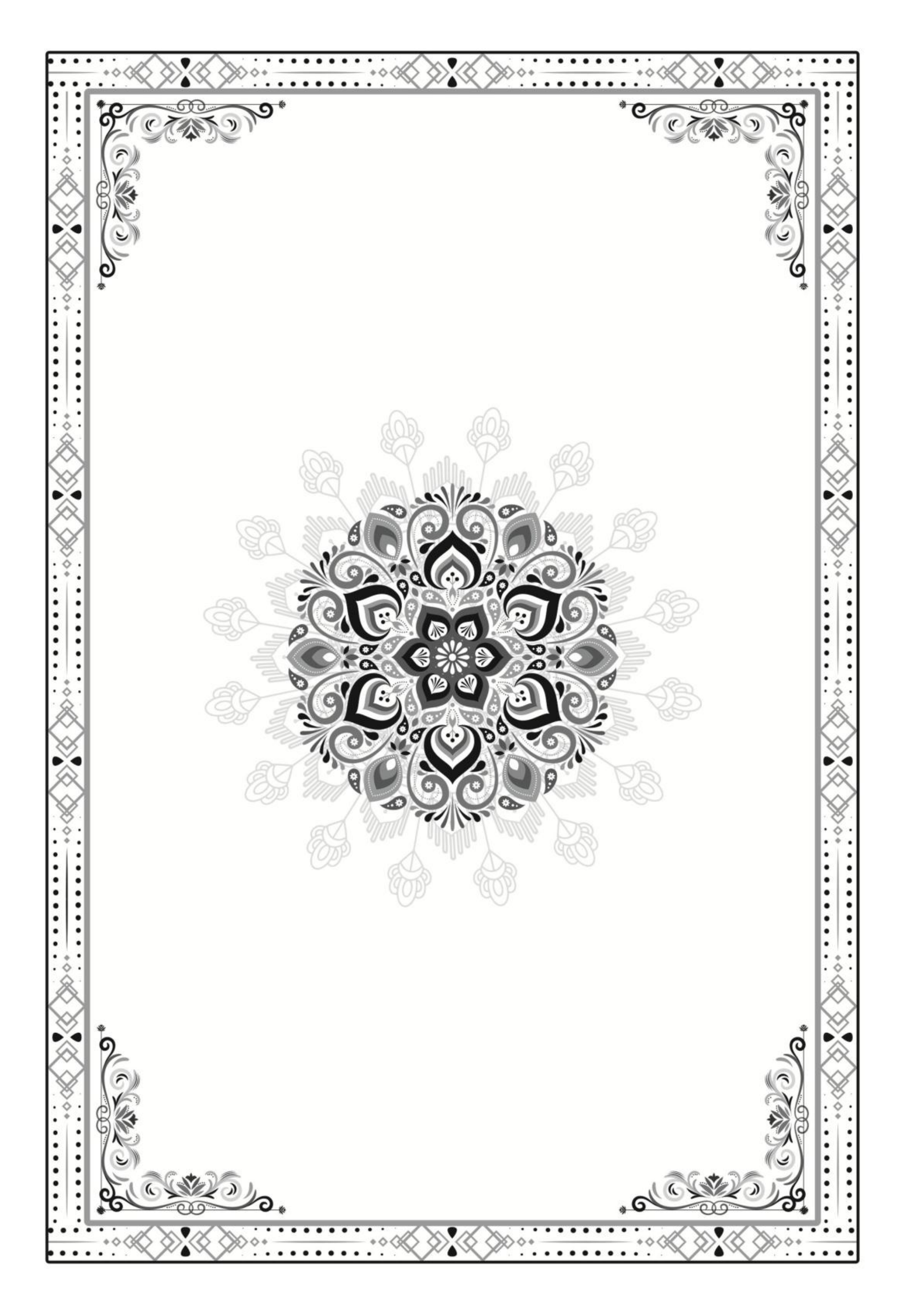
١٢٨- والــورعَ البــارد أن تقــولا لســت أقــول في الكتــاب قــولا

١٢٩- فهـــذه موانـــع التدبُّـــر فــاشرح إلــهي الصــدرَ بالتفكُّــرِ

١٣٠- وصــل يــا رب على المعلــم صلاتــك الــتي تــرضى وســلِّم



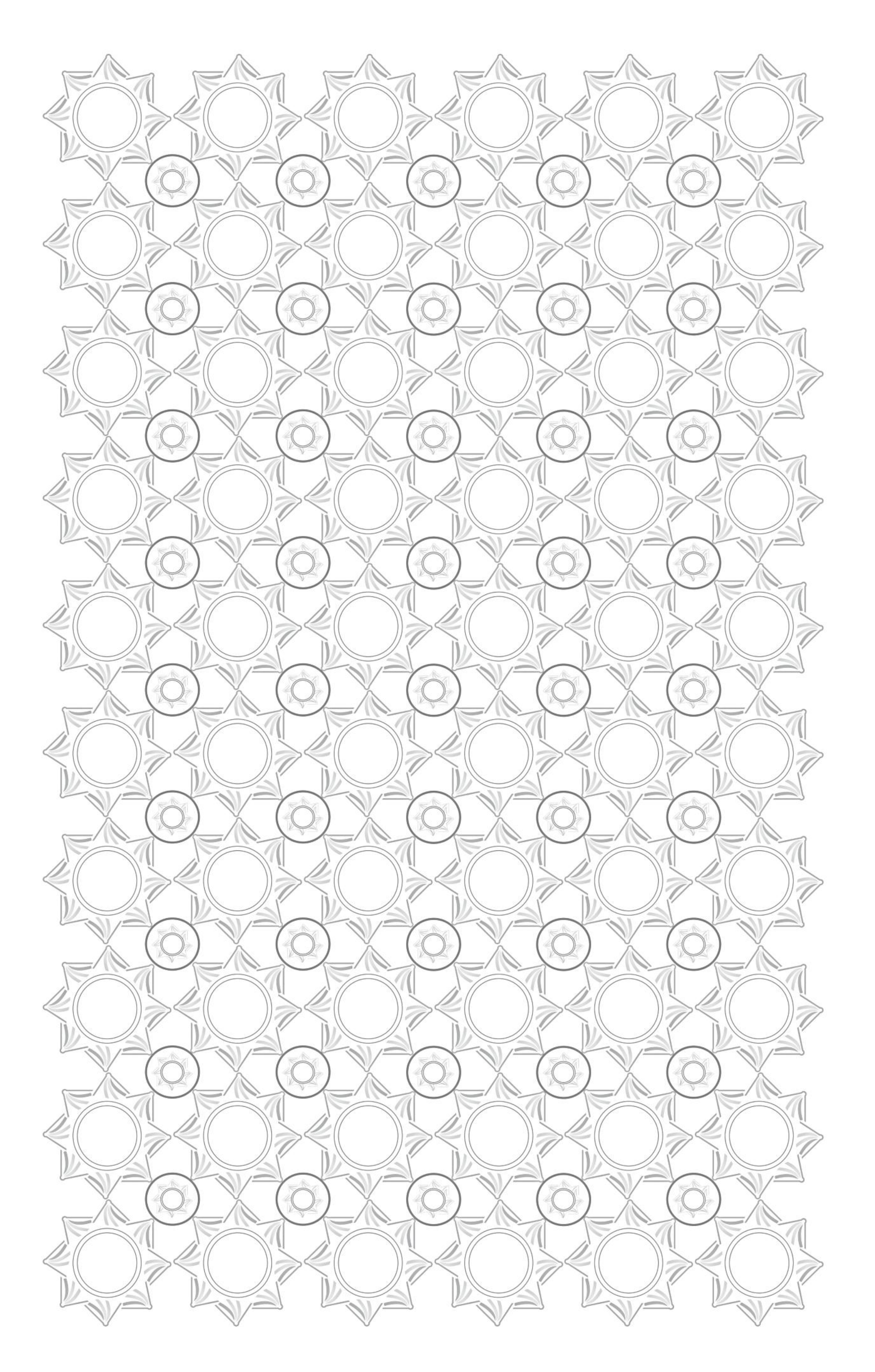
البَابُ الخَامِسُ







الحفظ الحفظ يا طالب العلم





كفاية المتحفظ

الحفظ الحفظ يا طالب العلم

تمهيد

تمرُّ على طالب العلم أزمنةٌ ذهبيَّةٌ لتحصيله المعرفي، يتهيَّأ له فيها من سعة الوقت وانصراف الشواغل ما يكون عونًا له على الخَطْوِ واسعًا في طريق تحصيله .. هذه الأزمنة هي ما يبرهن على صدق طلبِه إنْ هو استغلَّها، ومتى ما فرَّطَ في هذه الأزمنة المهداة كان ذلك طعنًا في عدالة جدِّيته.

عليه في هذه الأزمنة: أن يسعى في تكثيفِ تحصيله، وسدادِ ديونه العلمية، أن يقلِّب دفتر المهام، ويقيِّدُ ما عسى أن ينجزه من مشاريعٍ وأعمال، ثم يبسطَ سجادة قراءته، ويبدأ في تسجيل أرباحه العلمية دون فتور.

وأحق شيء يخشى فواته طالب العلم في تلك الأزمنة الذهبية لتحصيله العلمي الحفظ، فالحفظ نعمة من الله، يُنعِم بها على مَنْ شاء من عباده، فيُوفِّقْه لحفظ النصوص واستحضارها متى شاء.

ولقد رأيتُ لِلمُتفقِّهين مِنَ العَصرِيِّين جَدلًا واسعًا في قضية حِفظ المُتونِ، وأهمِيَّتها لِطالب العُلوم والفُنون، فمنهم مَنْ فرَّط فيه، وأبعَدَ النُّجعةَ، فجَحدَه، كالغماري الكَبير الذي قال: إنَّه جُنون! وأغرَبَ بَعضُهم فزَعَمه مَهزَلة القُرون!

ومنهم مَنْ أفرَطَ فيه حتى ادَّعى أنَّ مَنْ لم يَعتَنِ به فلا حَظَّ له مِنَ الفَهْم، وحتى قال قائلُهم: إنَّ مَن لم يَحفَظْ مَتْنًا فهو مُثَقَّفٌ وليس مِن أهلِ العِلْم!

وقد ظهر لي قَوْلٌ وَسَطٌ، لعَلَّه يَحسمُ النِّزاعَ بَيْنَ الخصمَيْنِ، ويَرفعُ الخِلافَ الضَّاربَ أطنابه بيْنَ الفَريقَيْنِ، وهو أنَّ الذي يَختصُّ في فَنٍّ واحد، فلستُ أُحبُّ له الاشتغالَ بحِفظ مَتْنٍ فيه، بل هذا لا غِنى له عن إمعانِ النظر في مُطوَّلاتِ كُتب الفنِّ الذي اختصَّ به، وتجريدِ فوائدِها، وتخليصِ زوائدِها.

وأمَّا مَنْ أقبَلَ على الفُنون فهذا الذي يَحسُنُ به حِفظُ مَتْنٍ في كُلِّ فنٍّ منها، فإنَّ المُتونَ - كما قال أهلُ العِلْمِ- تَضبط له شَواردَ القواعدِ، وتَجمَع عليه زوائدَ الفوائدِ، وهي بحقٍّ زِنْبيلُ العِلْمِ الذي يَجتمع فيه أُصولُ العِلْمِ وأحسَنُه، كما يَجتمع في الزِّنبيلِ أجوَدُ التَّمر وأطيبُه، ولله در مَنْ قال:

والعِلْمُ في حِفظِ المُتونِ وإنَّها | لِلطَّالبِ الشَّوَّافِ خَيرُ فَلاح
يَحْلــو بها لُبُّ الذَّكيِّ ويَهتَدي | لِمَعارفِ الوَحْيَيْنِ بالإفصاح

والواقع أنك لا تجدُ عالِمًا يُزَهِّدُك في حِفظِ المُتونِ، ويَرغَبُ بك عنها، ولستَ ترى مَن يَصُدُّك عنها إلَّا وهو عاجزٌ عن حِفظِها، وإن كانتْ عُقول الوَرى مُتفاوتةً في فَهْم العُلوم وحِفظِها واستِيعابِها، فمِنَ الناس مَنْ لا يتَّجه له الحِفظ، حتى إذا حاوَلَه فكأنَّه يُعالجُ جَبلًا، لكنَّه

حاذِقُ الفَهْمِ، آيةٌ في قَنْصِ المَعاني واستِنباطِها، وحَلِّ مُشكِلاتِها، وفكِّ مُقْفلاتِها، كالجلالِ المحلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فإنَّه رامَ حِفظَ صفحةٍ مِن مَتْنٍ، فَمَرِضَ أُسبوعًا، وقد كان ذِهنُه يَثْقُبُ الماسَ؛ لِجَوْدة فَهْمِه! وكإينشتاين، عَبقريِّ الرِّياضيَّاتِ، وأبي الفيزياءِ الحديثة، فإنَّه كان تَقَدَّمَ للعمَلِ مُدرِّسًا، فعَقَدوا له اختِبارًا، سَقطَ فيه، ولم يجْتَزْ منه إلَّا الرِّياضيَّاتِ! ونظائرُ هذا كثيرةٌ.

وبكلِّ حالٍ فلا غَناءَ لِطالبِ العُلوم عنِ الحِفظِ إذا فَهِمَ ما يَرومُه منَ الفُنون، فشأنُ الحِفظ - كما قال العلَّامةُ التَّوْزيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

إذا لم تكُنْ حافظًا واعيًا ... فعِلمُكَ في البَيْـــتِ لا يَنفَعُ
وتَحضُرُ بالجَهْلِ في مجْلِسٍ ... وعِلْمُكَ في الكُتُبِ مُسْتَودَعُ
ومَنْ يَكُ في دَهْرِهِ هكذا ... يَكُنْ دَهْرَهُ القَهْقَـرى يَرْجِعُ

وقد قالوا: إنَّ لِلحِفظ أسرارًا لا يَعرفها إلا الحُفَّاظُ، ومِن هنا كان قَولُ حُفَّاظ أهلِ الحَديثِ مِنَ الأئمَّةِ الكِبارِ في عِلَلِه، مُقَدَّماً على قَولِ شُيوخ العَصر فيه إذا اختلَفوا، مهما كان الشُّيوخُ قد توَسَّعوا في الاطِّلاع

على طُرُقِ الأخبارِ وأسانيدِها، والسِّرُّ فيه أنَّهم باحثون، والأوَّلون حُفَّاظ.

ولا رَيبَ أنَّ المُتفقِّه - سواءٌ كان عالمًا أو مُتعلِّمًا- لا غِنى له عنِ استِحضارِ ما يَحتاجُه مِنَ العُلومِ والفوائدِ حالَ الدَّرسِ أوِ المُناظرةِ، أو المُذاكرةِ، وهذا لا يتهَيَّأُ له إلَّا بالحِفظِ المُتقَنِ، وبهذا يتَفاوتُ العُلماءُ، ويتميَّزُ الفُضَلاءُ، وقد قال الله تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأخبَرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عن قَبضِ العِلْمِ بقَبضِ أهلِه في الخبَرِ المَشهورِ المُتَّفقِ عليه، وهذا لا يتأتَّى إلَّا لِلحُفَّاظِ الذين بمَوتِهم يَموتُ العِلْمُ، ألَا تراه ذَكَر أنَّ اللهَ تعالى لا يَقبِضُه انتِزاعًا، ينتَزِعُه مِن صُدورِهم، فنبَّه على حِفظِ الصَّدرِ بذلك، وقد نَظَمَ قاضي صَفدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الخبَرَ في أوائلِ (نَظْمِ مِنْهاجِ النَّوويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ) له، فقال:

وقدْ قَضى اللهُ القَضـاءَ وأبرَما ... أنْ يُقبَضَ العِلْمُ بقَبْضِ العُلَمـا

ويتَّبعَ الناسُ رُؤوسَ الجهّـلِ ... أفْتَوْا بـــلا عِلْمٍ وغَيرِ نَقْلِ

ضَلُّوا ولِلخَلْقِ فقد أضَلُّـــوا ... هُناكَ أنواعُ البَـــلا تَحِلُّ

وإنَّ ذا فيما أظُنُّ قد دنـــا | لِآفةٍ ماتَ كَثيرٌ في الفَنـــا
كانوا إذا جَنَّ الظَّلامُ قـــاموا | وإنْ رَأَوْا ما يَكرَهون نـــاموا
كانوا نُجومًـــا يُقتَدى بنورِهِمْ | فأفَلوا عنَّـــــا إلى قُبورِهِمْ
ووَصَلوا إلى نَعيمِ الجَنَّـــــــةِ | وا أسَفـــي عليهِمُ ووَحشَتي
ولم نَرَ مِن بعدِهِمْ مَن يَظهَــرُ | إلَّا أُناسًـــا شَأنُهمْ لا يُذكَرُ
إنْ عَلِموا لم يَعمَلـــــوا بعِلْمِهِمْ | هَمُّهمُ الدُّنيـــا فلا تَعْبأْ بهِمْ

وقال صاحبُ (الرَّحبية):

والثُّلُثانِ وهما التَّمـــــــــامُ | فاحْفَظْ فكُلُّ حافظٍ إمـــامُ

ولهذا قال الأستاذُ أبو سهل الصُّعلوكيُّ (كان يُقال: العِلْمُ ما دخَلَ معكَ الحَمَّامَ) يُريدُ: الحِفظَ، وهكذا قال عبدُ الرزَّاقِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كُلُّ عِلْمٍ لا يَدخُلُ معكَ الحَمَّامَ فلا تَعُدَّه).

وقال بَعضُ الفلاسفة: (العِلمُ ما إذا غَرِقَتْ سفينتُك يَسْبَحُ معك).

يقول: العِلْم هو المَحفوظُ، ذكر ذلك أبو هِلالٍ العَسكريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغَيرُهما، وأشار إلى هذا المعنى الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِه:

عِلْمي معي حيثُما يَمَّمْتُ يَتبَعُني ... قَلبي وِعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ

إنْ كنتُ في البيت كان العلمُ فيه معي ... أوكُنتُ في السُّوقِ كان العِلْمُ في السُّوقِ

وقال غَيرُه:

ليس بعِلْمٍ ما وَعى القِمَطْرُ ... ما العِلْمُ إلا ما وَعاه الصَّدْرُ

فأمَّا مَنْ يَجمع العِلْمَ ويكتُبُه في طُروسِه وكَراريسِه، دون أنْ يتَعانى حِفظَه، حتى إذا ذهَبَتْ كُتُبُه وكَراريسُه، ذهَبَ عِلْمُه، فبَقيَ لا يَدري شيئًا، وإذا حضَرَ في مَجْلسٍ فتكلَّمَ فيه الفُضَلاءُ والحُفَّاظُ، لم يَزِدْ على أنْ يقولَ كُلَّما سمِعَ فائدةً: هذه الفائدةُ في كِتابِ كذا، وهذا البيتُ في مَبحثِ كذا، فيَنكَشِفُ بَهرَجُه، وينكَبُّ زَغلُه، ويُفتَضَحُ حالُه، فيُضْحي كمَن قيل فيه:

استَودَعَ العِلْمَ قِرطاسًا فضيَّعهُ ... فبِئْسَ مُستَودَعُ العِلْمِ القَراطيسُ

وأنشد ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

رُبَّ إِنسانٍ مَلا أَسْفـــــاطَه	كُتُبَ العِلْمِ يَعُدُّ وَيَحُـــــطْ
وَإِذَا فَتَّشْتَهُ عَن عِلِمِهِ قَـــالَ	عِلْمِي يا خليلي في السَّفَـــطْ
في كَرَارِيسَ جِيـــادٍ أُحرِزَتْ	وَبِخَطٍّ أَيِّ خطٍّ أَيِّ خـــطْ
فإِذَا قُلتَ لهُ هـــــاتِ إِذَنْ	حكَّ لَحْيَيْهِ جَمِيعًا وَامْتَخَـــطْ

ولأبي حامدٍ الغزاليّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حِكايةٌ لَطيفةٌ في هذا المعنى، نقلَها عنه أسعد الميهني ، يَحسُنُ بنا إيرادُها وسياقُها في هذا المَقامِ، وذلك أنَّه رحَلَ إلى جُرجانَ، وعلَّق عن أبي نَصرٍ الإسماعيليّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تعليقةً) فلمَّا عاد إلى طُوسَ، قُطِعتْ عليهِمُ الطَّريقُ، قال: وأخَذَ العيَّارون جميع ما معي ومَضَوْا، فتبِعتُهم، فَالْتَفتَ إليَّ مُقدِّمهم، وقال: ارجِعْ، وَيْحَكَ، وَإِلَّا هلَكتَ.

فقُلتُ له: أَسأَلك بالذي ترجو السَّلامةَ منهُ، أَنْ تُرُدَّ علَيَّ تَعليقَتي فَقَط، فما هي بشيءٍ تَنتَفِعون به.

فقالَ لي: وما هي تَعليقَتُك؟ فقُلتُ: كُتُبٌ في تلك المِخلاةِ، هاجَرتُ لِسَماعِها وكِتابَتِها ومَعرفةِ عِلْمِها.

فَضَحِكَ وقال: كيفَ تدَّعي أنَّك عَرَفتَ عِلْمَها، وَقد أخَذْناها منك، فتجَرَّدتَ مِن مَعرِفَتِها، وبَقيتَ بلا عِلْمٍ؟! ثمَّ أَمَرَ بعضَ أَصحابِه، فسَلَّمَ إليَّ المِخلاةَ.

قال الغزاليُّ: فقُلتُ: هذا مُسْتَنْطَقٌ، أنطَقَه اللهُ لِيُرشِدَني بهِ في أَمري، فلمَّا وافَيتُ طُوسَ، أَقبلتُ على الاشتِغالِ ثلاثَ سِنينَ، حتَّى حفِظتُ جميع ما علَّقتُه، وصِرتُ بحيثُ لو قُطِعَ عليَّ الطَّريقُ لم أتَجَرَّدْ مِن عِلْمي.

ذكَرَها ابنُ السبكيِّ في (الطبقات).

وعَدمُ الاعتناءِ بحِفظ الدُّروس مِن أعظَمِ ما يَصُدُّ الطلبةَ عنِ العِلْمِ، ولهذا يتركُ أكثرُهم الطَّلَبَ، ويَجفو العِلْمَ ويَهجُرُه؛ لِأنَّه يَستَشعِرُ أنَّه لا يُحصِّلُ منه شيئًا، وما ذاك إلَّا لِتكاسُلِهم عن تحفُّظِه ومُذاكَرتِه، واتِّكالِهم على السَّماعِ مِنَ الشُّيوخ حالَ الدَّرسِ؛ لِأنَّ الواحِدَ منهم - كما قال الشَيخُ الحافِظُ عَبدُ المَجيدِ اليوسفي البغداديُّ المُفتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان ضريرًا- لا يُريدُ أن يُتعِبَ نَفْسَه في الحِفظِ، وكان يقولُ: الطلبةُ نوعان: (مُتَمَنٍّ ومُتَعَنٍّ) يقولُ: بَعضُهم يتعبُ ويَتعانى الطَّلَب، لكنَّه لا يُحصِّلُ

شيئًا، والآخرُ يتمَنَّى العِلْمَ ويُريدُ تَحصيلَه دون أنْ يُتعِبَ نَفْسَه، وكِلاهما لا يُحصّلُه، لأنَّه لا يَحفَظُ ما يُلقى عليه منه.

وتَراهم يجلسون عِنْدَ الشُّيوخِ، ويبدأُ أحَدُهم بدرس الفِقه مثلًا، حتى إذا بلَغَ أوائلَ الطَّهارةِ، هجَرَ مَجلسَ الشيخِ، فإذا فتَّشتَ عن حالِه وسألتَه، قال لك: لا طائلَ منه، ولا فائدةَ في دَرْسِه، ويتحوَّلُ إلى درسِ شيخٍ آخَرَ، وتراه قَبْلَ حُضورِ مجلسِ الشيخِ شَديدَ الثَّناءِ عليه، مبالِغًا في تعظيمه، فإذا مضى أُسبوعان على حُضورِه دَرْسَه، هجَرَه بدَعْوى أنَّه لا يُحصّل شيئًا، وقد شاهَدْنا مِن هؤلاء كثيرين ؛ وما ذاك إلَّا لِأنَّهم لا يَحفَظونَ ما يُلقى عليهم مِنَ الدُّروسِ.

ومِن هنا قال شُعبةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - كما في (النُّبلاءِ) وقد رأى مَجلِسَه امتَلَأ بالطَّلبةِ: (تُرى هؤلاء كُلُّهم يخرجون مُحدِّثين؟ ثم قال: لا يَخرُجُ منهم خَمسةٌ! يَكتُبُ أحَدُهم في صِغَرِه، ثم إذا كَبِرَ تَرَكَه)!

يُريدُ: أنَّه يترُكُ حِفظَ ما جَمَعه مِنَ الشُّيوخِ مِنَ العِلْمِ فيَذهبُ عليه، أو يَذهَلُ عنه بكَثْرةِ الصَّوارِفِ والشَّواغِلِ، أو يَعجزُ عن حِفظِه، ولا

يُرِيدُ أَنْ يُتعِبَ نَفْسَه به، وبالتالي يَستَشعِرُ أَنَّ زَمانَه الذي قَضاه في الطَّلبِ قد ذهَبَ هَدَرًا دون طائلٍ، فيَترُكُ الطَّلَبَ ويَهجُرُه.

وقد سُئِلَ شيخي المُحدِّث طارق عوض الله المِصري عن سَبب قلَّةِ النابغين في العِلْم، مع كثرةِ الطَّلبةِ وازدِحامِهم في مَجالِس الشُّيوخِ، فأجابَ بالعامِّيَّةِ: (لِأَنَّهم سَمِّيعَة) يُرِيدُ: أَنَّهم لا يَعتَنون بحِفظِ ما يُلقى عليهم مِنَ الدُّروسِ، ويكتفون بالسَّماعِ.

وأخرَجَ مُسلِم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الصحيح) عن يَحيى بنِ أبي كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: (لا يُستَطاعُ العِلْمُ براحةِ الجِسْمِ)، ووقَفتُ في بعضِ المجاميع على النُّكتةِ في إخراجِ مُسلِمٍ هذا الأَثَرَ في بابِ المواقيتِ مِن (كتابِه) ومَعلومٌ أنَّ هذا ليس موضوعَه ولا محَلَّه، قالوا: لِأنَّ مُسلِمًا كان قد رحَلَ وتعِبَ في تَحصيلِ الحَديثِ الذي قَبلَه، فلمَّا كتَبه في موضِعه مِنَ (الصحيح) تذَكَّرَ رحلتَه وتَعَبه في سَماعِه، فكتَبَ أَثَرَ يحيى بنِ أبي كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا بعَقِبِه، تَذكِرةً وتَسليةً لِنَفْسِه، وعِبرةً لِمَن يأْتَسي به مِن بَعْدِه، فهذا سِرُّ ذلك.

وقد ذكَرَ البديعُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مَقاماتِه) عن عيسى بنِ هِشامٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (كُنتُ في بعضِ مَطارِحِ الغُرْبةِ مُجتازًا، فإذا أنا برَجُلٍ يقولُ لآخَرَ: بِمَ أدرَكتَ العِلْمَ؟ وهو يُجيبُه فقال: طَلَبتُه، فوجَدتُه بَعيدَ المَرامِ، لا يُصادُ بالسِّهامِ، ولا يُقسَمُ بالأزلامِ، ولا يُرى في المَنامِ، ولا يُضْبطُ باللِّجامِ، ولا يُورَثُ عنِ الأعمامِ، ولا يُستَعارُ مِنَ الكِرامِ، فتوَسَّلتُ إليه بافتِراشِ المَدَرِ، واستِنادِ الحَجَرِ، وردِّ الضَّجَرِ، ورُكوبِ الخَطَرِ، وإدمانِ السَّهَرِ، واصطِحابِ السَّفَرِ، وكَثرةِ النَّظرِ، وإعمالِ الفِكَرِ، فوجَدتُه شيئًا لا يَصلُحُ إلا لِلغَرْسِ، ولا يُغرَسُ إلَّا في النَّفْسِ، وصَيدًا لا يقع إلَّا في النَّدْرِ، ولا يَنْشَبُ إلَّا في الصَّدْرِ، وطائرًا لا يَخدَعُه إلا قَنصُ اللَّفظِ، ولا يعْلَقُه إلَّا شَرَكُ الحِفظِ، فحَمَلتُه على الرُّوحِ، وحبَسْتُه على العَينِ، وأنفقتُ مِنَ العَيشِ، وخَزَنتُ في القَلبِ، وحرَّرتُ بالدَّرسِ، واستَرَحتُ مِنَ النَّظرِ إلى التحقيقِ، ومِنَ التحقيقِ إلى التعليقِ، واستَعنتُ في ذلك بالتوفيقِ، فسمِعتُ مِنَ الكَلامِ ما فَتَقَ السَّمعَ، ووصَلَ إلى القَلْبِ، وتغَلغَلَ في الصَّدْرِ).

فقُلتُ: يا فَتى، ومِن أينَ مَطلَعُ هذه الشَّمسِ؟ فجَعَلَ يقولُ:

إسكندريَّةُ داري لو قرَّ فيها قَراري   لكنَّ بالشامِ ليلي وبالعراقِ نَهاري

وقد ذكَرَ أبو هِلالٍ العَسكريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أبا تَمَّامٍ الشاعِرَ قَصَدَ بعضَ رُؤساءِ الشامِ، فأنشَدَه قصائدَ، ثم أعادَها عليه مَقلوبةً، فعَجِبَ الرئيسُ مِن حِفظِه وقال: كيف تمَكَّنتَ مِن حِفظِ ما أرى؟ فقال أبو تَمَّامٍ: (أفادَنيه الطَّلَبُ، وحَفَّظنيه السَّهر).

قال أبو هِلالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (نِعْمَ المُعلِّمُ الدَّرسُ! ونِعْمَ المُعينُ السَّهَرُ! ونِعْمَ الدَّليلُ السِّراجُ! ونِعْمَ القائدُ اللَّيلُ! ونِعْمَ الـمُذَكِّرُ الكِتابُ).

والإشكالُ الذي يَعتَري مُعاناةَ حِفظِ المُتونِ إنَّما هو عَدَمُ فَهْمِ ما يُحفَظُ، وقد رأيتُ أعجَميًّا يَستَظهِرُ (كافيَّةَ ابنِ الحاجِبِ) ولا يُحسِنُ النَّحْوَ!

وذكَرَ الحافِظُ ابنُ كَثيرٍ في (تاريخِه) أنَّ العَلَّامةَ صَدْرَ الدِّينِ بنَ المُرَحَّلِ كان يَلحِنُ، مع أنَّه كان يَحفظُ (مُفصَّلَ الزَّمَخشَريِّ)!

وكان لِإمامِ الحَرَمَيْنِ في مَجلِسِه رَجُلٌ يَحفظُ كُتُبَ الشافعيِّ ونُصوصَه، لكنَّه لا يَدري الفِقهَ ومَعانيه، فكان الإمامُ رُبَّما استَحضَرَ منه ما استَعْصى عليه مِن نُصوصِ الشافعيِّ، فكانوا يُسمُّونه (حمار الشافعية)!

وقد كان السَّلفُ يستعينون بالعَمَل على الحِفظِ، كما قالَه وَكيعٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغَيرُه، ومُرادُهم بذلك ليس مُجرَّدَ العَمَل بما عُلِمَ؛ فإنَّ مِنَ العِلْمِ ما لا يتهيَّأُ العَمَل به لِلطَّالبِ، كالفَقيرِ كيف يَعمَلُ بأحكامِ الزكاةِ والبُيوعِ والحَجِّ! وإنَّما مُرادُهم أيضًا الاستعانةُ على حِفظِ العِلمِ بالعِبادةِ، وكَثرةِ النوافلِ، مِن قيامِ اللَّيلِ، وذِكرِ اللَّهِ، واجتِنابِ المَعاصي، ونحوِ ذلك.

وأيضًا عَدَمُ إحكامِ الحِفظ واستدامتُه من جهة أُخرى، وقد ذكَرَ ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الحَثِّ على حِفظِ العِلْمِ) أنه تأمَّلَ على المُتفقِّهةِ أنَّهم يُعيدون الدَّرسَ مرَّتَيْنِ أو ثلاثًا، فإذا مرَّ على أحَدِهم يومان نَسيَ ذلك، فإذا افتَقَرَ إلى شيءٍ مِن تلك المسألةِ في المُناظرة، لم يَقدِرْ عليه، فذهَبَ زمانُه الأوَّل ضايعًا، ويَحتاجُ أنْ يبتَدئَ الحِفظَ، والسَّببُ أنَّه لم يُحكِمْ حِفظَه.

ونقَلَ هو أيضًا أنَّ أبا إسحاقَ الشيرازيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يُعيدُ الدَّرسَ مِئةَ مرَّةٍ، ويُعيدُه أبو الحَسنِ إلكيا الهراسُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَبعينَ مرَّةً.

وقال الفقيهُ الحَسَنُ النيسابوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لا يَحصُلُ إليَّ الحِفظ حتى يُعادَ خمسينَ مرَّةً، وحكى أنَّ فقيهًا أعاد الدَّرسَ في بَيتِه مِرارًا، فقالت له عجُوزٌ: قد واللهِ حَفِظتُه أنا!

فقال لها: أعيديه! فأعادَتْه.

فلمَّا كان بَعْدَ أيامٍ قال لها: أعيدي ذلك الدرسَ؟ فقالت: ما أحفَظُه.

فقال: إنِّي أُكرِّرُ عدَّ الحِفظِ لِئلَّا يُصيبَني ما أصابَكِ.

والذي يَنبغي: عَدَمُ الإكثارِ مِنَ المَحفوظِ، بحيث يَصعُبُ عليه تَثبيتُه ومُراجَعتُه، وقد كان أبو حنيفةَ وهو فقيهُ الدُّنيا، لا يزيد على أنْ يَحفظ في اليَومِ ثلاثةَ مَسائلَ.

وقال أبو منصورٍ الأزهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مُقدمةِ تَهذيبِ اللُّغة): (قليلٌ لا يُخزي صاحِبَه، خَيرٌ مِن كَثيرٍ يَفضَحُه)؛ وذلك لِأنَّ الإكثارَ مَظِنَّةُ العِثارِ.

وقد ذكَرَ الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه حضَرَ هو وأبو عُبَيدةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عِنْدَ الفَضلِ بنِ الرَّبيعِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، قال: فقال لي: كم كِتابُكَ في الخيَلِ؟ فقُلتُ:

مُجلَّدٌ واحِدٌ، ثم سأل أبا عُبَيدةَ عن كِتابِه في الخيَلِ فقال: خمسونَ مُجلَّدًا!

فقال له: قُمْ إلى هذا الفَرَسِ وأمِسْكْ عُضوًا عُضوًا منه وسَمِّه. فقال: لست بَيْطارًا، وإنَّما هذا شيءٌ أخَذَته عنِ العَرَبِ.

فقال لي: قُمْ يا أصمعيُّ وافعَلْ ذلك.

قال: فقُمتُ وأمسَكتُ ناصيةَ الفَرَسِ، وشَرَعتُ أذكُرُ منه عُضوًا عُضوًا، ويَدي على ذلك العُضوِ، وأُنشِدُ ما قالَته العَرَبُ، إلى أن فرَغتُ منه.

فقال: خُذْه. فكُنتُ إذا أرَدتُ أنْ أغيظَ أبا عُبَيدةَ رَكِبتُه إليه.

وقد قال ابنُ النحاسِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

اليومَ شيءٌ وغدًا مثلُــــــــه مِن نُخَبِ العِلْمِ التي تُلتَقَــــطْ

يُحصِّلُ المَرءُ بها حِكْمَـــــــةً وإنَّما السيلُ اجتِماعُ النُّقَــطْ

وسأل فقيرٌ رَجُلًا بخيلًا، فأعطاه فِلْسًا، فاستَقَلَّه الفَقيرُ، وقال: فِلسٌ! فقال البَخيلُ:

لا تَهزَأَنْ بالفِلْسِ قَـــطْ واحزَنْ عليه إذا سَقَــــطْ

ثمّ اجتَهِدْ في جَمعِـــــــــــهِ   إنَّ السُّيولَ مِنَ النُّقَـــــطْ

وقد ذكَرَ أبو عُمَرَ بنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (جَامع بيَانِ العِلمِ وفَضلِهِ) عنِ الزُّهريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (لا تُكابِرِ العِلْمَ؛ فإنَّ العِلْمَ أوديةٌ، فأيُّها أخَذتَ فيه قطَعَ بكَ قَبْلَ أنْ تَبلُغَه، ولكن خُذْه مع الأيامِ واللَّيالي، ولا تأخُذِ العِلْمَ جملةً؛ فإنَّ مَن رامَ أخْذَه جُملةً ذهَبَ عنه جُمْلَةً، ولكنِ الشيءَ بَعْدَ الشيءِ مع الأيامِ واللَّيالي).

ومِمَّا يَغلَطُ فيه كَثيرٌ مِن طلبةِ العُلوم، فَرْطُ النَّهْمةِ في الاطِّلاع على كُلِّ جديدٍ، والتفتيشُ عن حديثِ العِلْمِ الذي لم يَقِفْ عليه، قَبْلَ أن يُحكِمَ حِفظَ ما كتبه واطَّلع عليه، وقد قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (مِن تَلبيسِ إبليسَ على الطَّلبةِ أنَّهم يَنهَمون على شِراءِ الكُتُبِ ثم لا يُطالِعونَها).

وقال الخَليلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (الاحتِفاظُ بما في صَدْرِك أَوْلى مِن دَرْسِ ما في كِتابِك).

وكان ابنُ مَهديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: (لَأنْ أعرِفَ عِلَّة حديثٍ عِندي أحَبُّ إليَّ مِن أنْ أستَفيدَ عِشرينَ حَديثًا ليستْ عِندي).

وقد ذكَرَ الأُصوليُّون مِن شُروط المجُتَهِد أنْ يتصوَّرَ أغلبَ مسائلِ الفُنونِ التي هي أدواتُ الاجتهادِ، ويستَحضِرُها في ذِهنِه، وهذا إنَّما يَتمُّ ويَنضَبطُ في الأغلبِ بحِفظِ مَتنٍ في كُلِّ فَنٍّ، بحيث يَسهُلُ عليه عَرْضُ المسائلِ على ذِهنِه، وبالتَّالي تَصورُّها واستِحضارُها وقتَ الحاجةِ، ومِن هنا قصَّرَ كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ في هذه الأعصارِ عن دَرْكِ الاجتهادِ، حتى اضطرَّهمُ الواقعُ إلى أنْ يتسامحوا في بعضِ شُروطِ المجُتَهِد، فاستَبدَلوا شرطَ حِفظِ وتصور الأحكام والعلوم التي هي من آلاتِ المجُتهِدِ، باشتراطِ القُدرةِ على البَحثِ في الكُتُبِ والتمكُّنِ منه، فقال بعضُهم -كالدكتور الأشقرِ وغَيرِه-: لا يُشتَرطُ في المجُتهِد أنْ يكونَ حافظًا لجُملةِ الأحكامِ ومسائلِ العُلومِ التي هي مِن آلاتِ الاجتهادِ، بحيث يَستَحضِرُها ويتصَوَّرُها في ذِهنِه، بل يكفي أنْ تكونَ لديه مكتبةٌ تحوي أُصولَ كُتُبِ هذه العُلومِ، ويتمكَّنَ مِنَ البَحثِ فيها واستِخراجِ الأحكامِ منها.

وهذا مخالف لما قرره جمهور أهل العلم؛ فإنَّ الأوائلَ كان عِندَهم مِن تصانيفِ العُلومِ ما يفوقُ الوصفَ، مع عُلُوِّ مَلَكَتِهم في البحثِ، ورُتبتِهم فيه، وتمكُّنِهمُ التَّامِّ منه، ما لا يتهيَّأُ لِلمُعاصرين بعضُه، ومع هذا

اشتَرطوا الحِفظَ، ولذا تمكَّنوا مِنَ استِنباطِ الأحكامِ للنَّوازِلِ في عَصرِهم، وتَخريجِ أحكامِ الحوادِثِ على القَواعِدِ.

ومن مُعوِّقاتِ هذه الطريقة ومَزالِقِها، الاقتصارُ على حِفظِ المَتْنِ والرُّكونُ إليه، دونَ استِشراحِ ألفاظِه واستِخراجِ فوائدِه، فيَظُنُّ أنَّه بحِفظِ المَتْنِ قد حَصَّلَ نهايةَ الفَنِّ، وليس كذلك، بلِ المَتْنُ أوَّلُ الطريقِ وبدايتُه، وهو إنَّما يَضبِطُ لك أُصولَ الفَنِّ، بحيث لا تَذهَبُ عنك، فلا بدَّ بَعْدَ إحكامِ حِفظِه مِن الإقدامِ بعَزمٍ على استِشْراحِه وفَهْمِ مسائلِه، وستَجِدُ أنَّ كُلَّ جُملةٍ مِنَ المَتنِ تَحوي فوائِدَ جمَّةً، وكُلَّ عبارةٍ أو لَفظةٍ منه إنَّما هي مسألةٌ مِن مسائلِ الفَنِّ الكِبارِ التي تُجْرى مُجْرى الأُمَّهاتِ والأُصولِ، وستُوقِنُ أنَّ حِفظَ المَتْنِ قد سهَّل عليكَ استِحضارَ مُطوَّلاتِه وشُروحِهِ الحاويةِ لِفوائدِه المُنتَشِرةِ المَطويَّةِ في غُضونِ ألفاظِه، بحيث يرتبطُ عِندَك كُلُّ لفظةٍ منه أو عبارةٍ بشرحِها، فإذا عرَضتَ على ذِهنِك ألفاظَ المَتْنِ وعباراتِه، سهُلَ عليك استِذكارُ شَرحِه واستِحضارُه؛ لأجْلِ الارتباطِ وعَدمِ الانفِكاكِ بَيْنَ المَتْنِ وشرحِه، وهذا أحد أسرارِ حِفظ المُتونِ التي لا يَلمَسُها إلَّا الحُفَّاظُ المُجرِّبون.

ولْنضربْ مثلًا لذلك بكِتابِ اللهِ العزيزِ، الذي لا مِثلَ له، فإنَّه دون رَيْبٍ قد حَوى أُصولَ العُلوم، ومِن هنا شَرَطَ الشافعيُّ - وتَبِعَه أبو العبَّاسِ بنُ تَيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المُجتهِدِ حِفظَه كُلَّه، دون الاقتصارِ على حِفظِ الخمسمِئةِ آيةٍ مِنَ الأحكامِ، لكنَّ الحافظَ له لا يُحكَمُ له بالعِلْمِ، ولا يُقضى له به، حتى يَفهَمَ معانيَه، ويتعَقَّلَ أغراضَه ويُدرِكَ مَراميَه، وهذا إنَّما يتمُّ له بتفسيرِ ألفاظِه وفَهْمِ معانيها، وسيجدُ أنَّ كُلَّ لفظةٍ إذا استَحضَرها، فإنَّه يَرِدُ على ذِهنِه ما يتعلَّقُ بها مِنَ التَّفسيرِ، ويَستَذكِرُه، وهكذا القَولُ في مُتونِ الحديثِ والسُّنَّةِ، فألفاظ المَتْنِ بمنزِلةِ الفِهرسِ لِمسائلِ الفَنِّ التي يَستَذكِرُ بها فوائدَه وعُلومَه.

وقد ذكَرَ الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تاريخه) عن الحافظِ الكبيرِ أبي الحَسَنِ الدَّارقطنيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي قيل إنَّه أحفَظُ أهلِ الإسلامِ، أنَّه حين أملى (عِلَل الحديثِ) كانت أطرافُ الأحاديثِ مكتوبةً عِنْدَه على شَكلِ أسئلةٍ قد أعَدَّها أبو مَنصورٍ الكرخيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فيكتُبُ مثلًا: حديثُ الأعمشِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي وائلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في كذا، وحديثُ هِشامٍ عن عُروةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في كذا.. وهكذا، فيكشِفُ الدَّارقطنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنِ الحديثِ

في الأوراقِ ويتأمَّلُه، ثم يندَفعُ في إيرادِ طُرُقِه والكلامِ على عِلَلِه مِن حِفظِه.

فكأنَّه بهذا التأمُّلِ يستَذكِرُ الكلامَ على الحديثِ وطُرُقِه، ويجمعُ أطرافَه وذُيولَ مباحِثه، تمامًا كألفاظِ المَتْنِ التي تُقيِّدُ لك مسائلَه وتَعقِلُ لك مباحِثَه.

ولا بدَّ لِمَن حَفِظَ مَتْنًا مِنَ استِشراحِه، واستِذكارِ فوائِدِه، واستِحضارِها، وإلَّا فإنَّ مُجرَّدَ الاقتصارِ على حِفظِ المَتْنِ لا يَصيرُ به الحافِظُ فقيهًا عالمًا، وإنَّما هو ناقِلُ فقهٍ وعِلْمٍ، كما قاله أبو عبدِ اللهِ العبدريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والعِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولْيكنِ الأمرُ عِنْدَك نَظيرَ الدراسةِ في مرحلةِ المتوسطةِ أو الثانويةِ، التي كنا نتلقَّاها في مدارِسنا في موادِّ الهندسةِ والرِّياضياتِ والفيزياءِ والكيمياء، فكنا نحفَظُ القانونَ العامَّ لِلقاعدةِ أو النظريَّةِ، ثم نقومُ بدراسةِ شَرحِه وحلِّ ما يتعلَّقُ به مِنَ المسائلِ.

فكذلك المُتونُ، وضَعْ في خاطِرِك أنَّك لا بُدَّ أنْ تكونَ قادرًا على حلِّ مُشكلاتِ المَتْنِ وفكِّ مُقفَلاتِه، فبه تَملِكُ زِمامَ العِلمِ ومقاليدَه.

فإنْ قَصَرَ بك جَوادُ الحِفظِ لِألفاظِ المُتونِ؛ لِأنَّه دون رَيْبٍ يستغرِقُ زمانًا أكثرَ وجهدًا أكبرَ، فلا أقَلَّ مِن سُلوكِ هذه الطريقِ التي ذَكَرَها ابنُ بدرانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المدخل) قال: (واعلَمْ أنَّ لِلمُطالَعةِ ولِلتَّعليمِ طُرُقًا ذَكَرَها العُلماءُ، وإنَّنا نُثبِتُ هنا مَا أخَذْناه بالتجربةِ، ثمَّ نَذكُرُ بعضًا مِن طُرُقِهم؛ لِئلَّا يَخلوَ كِتابُنا هذا مِن هذه الفوائدِ، إذا تمَهَّدَ هذا، فاعلَمْ أنَّنا اهتَدَيْنا بفضلِه تعالى أثناءَ الطَّلبِ إلى قاعدةٍ، وَهِي أنَّنا كُنَّا نأتي إلى المَتْنِ أوَّلًا، فنأخُذُ منه جُملةً كافيةً لِلدَّرسِ، ثمَّ نشتَغِلُ بحَلِّ تلك الجُملةِ مِن غيرِ نظَرٍ إلى شَرْحِها، ونُزاوِلُها حتى نَظُنَّ أنَّنا فهِمْنا، ثمَّ نُقبِلُ على الشرحِ، فنُطالِعُه المُطالَعةَ الأُولى؛ امتِحانًا لِفَهْمِنا، فإنْ وجَدْنا فيما فهِمْناه غَلَطًا صحَّحناه، ثمَّ أَقبَلْنا على تفَهُّمِ الشرحِ على نمَطِ ما فعَلْناه في المَتْنِ، ثمَّ إذا ظنَنَّا أنَّنا فَهِمْناه، راجَعْنا حاشِيَته - إنْ كان له حاشيةٌ - مُراجعةَ امتحانٍ لِفِكرِنا، فإذا علِمنا أنَّنا فَهِمنا الدرسَ ترَكْنا الكِتابَ واشتَغَلنا بتصويرِ مَسائلِه في ذِهنِنا، فحَفِظناه حِفظَ فَهْمٍ وتصوُّرٍ، لا حِفظَ تراكيبَ وألفاظٍ، ثمَّ نجتهِدُ على أداءِ معناه بعباراتٍ مِن عِنْدِنا غَيرَ مُلتزمين تراكيبَ المُؤلِّفِ، ثمَّ نذهبُ إلى الأستاذِ؛ لِلقراءةِ، وهنالك نمتَحِنُ فِكرَنا في حَلِّ الدرسِ، ونُقوِّمُ ما عساه أنْ يكونَ به مِنَ اعوِجاجٍ،

ونوَفِّرُ الهِمَّة على ما يورِدُه الأستاذُ مما هو زائدٌ على الـمَتْنِ والشرحِ، وكُنَّا نرى أَنَّ مَن قرأَ كِتَابًا واحِدًا مِن فنٍّ على هذه الطريقةِ، سَهُلَ عليه جميعُ كُتُبِ هذا الفَنِّ ومختصراتُها ومُطوَّلاتُها، وثبَتَتْ قواعِدُه في ذِهنِه).

والحِفظُ مِن جهةِ المحفوظِ نَفْسِه نوعان: حِفظُ ألفاظٍ وتراكيبَ، وهو الأغلبُ على المغاربةِ وأهلِ الحديثِ، وحِفظُ معانٍ، وهو الـمَعرفةُ، كما قاله الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغَيرُه، وهو الأغلبُ على الـمَشارقةِ والفُقهاءِ.

ومِن هنا قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإسحاقَ بنِ راهوَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وقد عَجِبَ مِن حِفظِه -: (لو كُنتُ أحفَظُ كما تَحفظُ، لغَلَبتُ أهلَ الدُّنيا)، يُريدُ: حِفظَ الحديثِ على رَسْمِ أهلِه، وهو السَّردُ، كما قاله البَيْهَقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ولهذا كان إسحاقُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يهتدي لِمَا يهتدي إليه الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الفقهِ والمعاني والاستِنباطِ.

ولذا قال الفَخرُ الرَّازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كلمةِ الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (الفَهْمُ غَيرُ الحِفظِ، والحُكَماءُ يَقولونَ: إنَّهما لا يَجتَمِعان، على سَبيلِ الكَمالِ؛ لِأنَّ

الفَهْمَ يَستَدعي مَزيدَ رُطوبةٍ في الدِّماغِ، والحِفظَ يَستَدعي مَزيدَ يُبوسةٍ، والجَمعُ بَيْنَهما مُحالٌ).

وقد كان في أصحابِ القاضي أبي بكرٍ الباقلانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، القاضي عبدُ الوهَّابِ البغداديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مِن مَشارقةِ المالكيَّةِ، وهو ناصِرُ مَذهبِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لبراعَتِه في النَّظرِ والاستِدلالِ واستِنباطِ المَعاني، وكان فيهم أبو الحَسَنِ القابسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حافِظُ المَذهَبِ مِن مَغارِبَتِهم، فكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: (أحَدُهما يَنصُرُه، والآخَرُ يَحفَظُه).

ولهذا قدَّمَ المالكيَّةُ في تَشهيرِ المَذهبِ وتَحقيقِه قَولَ المَغاربةِ؛ لِأنَّهم أضبطُ في حِفظِه وتَحقيقِ قَولِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بخِلافِ المَشارقةِ الذين هم أقعَدُ في الاستِدلالِ له، وهذا في الأغلب؛ ولذا قال ناظم (الطلحيَّةِ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ورَجَّحوا ما شَهَرَ المَغـــــارِبهْ والشَّمسُ بالعراقِ ليستْ غاربهْ

وقد قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ليس العِلْمُ ما حُفِظَ، إنَّما العِلْمُ ما نَفَعَ) يُريدُ: أنَّ مُجرَّدَ الحِفظِ دون فَهْمٍ لا ينفعُ، حتى يَفهَمَ ويَعيَ ما يَحفظُ،

وليس مُرادُه صَدَّ الطَّلبةِ عنِ الحِفظِ، كما توَهَّمه بعضُ العاجِزينَ الـمُتكاسِلين عنه.

وإنَّما يحصُل الانتِفاع بتحصيلِ ما يُمكنُ مِنَ النوعَيْنِ، والاقتصارُ على واحدٍ منهما يُورِثُ العالِمَ قُصورًا في فنِّه، وخَلَلًا في عِلْمِه، ونقصًا في مَقامِه، وقد ذَكَروا أنَّ حَنبليًّا مِنَ الحُفَّاظِ حضر عِندَ الشيخِ نظامِ الدِّينِ القاهريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان يستروِحُ إلى تحقيقِ العُلومِ وفَهْمِها دون حِفظِها، فجَرَى البحثُ في مسائلَ مِنَ العِلْمِ ممَّا يحتاج إلى نَقْل، فسكتَ القاهريُّ، وقال الحنبليُّ: طاح مَقامُ النَّظرِ، وجاء مَقامُ الحِفظِ، حتى جاءت مسألةٌ تحتاج إلى بحثٍ ونَظرٍ، سكتَ الحنبليُّ، فقال القاهريُّ: طاح مَقامُ الحِفظِ، وجاء مَقامُ النَّظرِ.

ولذا قَلَّ أنْ تجدَ عالِمًا مُحقِّقًا لا يحفظ، دَعْ عنك أهلَ الحَديثِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين الحِفظُ صَنعتُهم، وتأَمَّلْ حالَ النُّظارِ مِنَ الـمُتكلِّمين، كالفَخرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، والغزاليِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وإمامِ الحرمَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ونُظرائِهم، تَجِدْهم حُفَّاظًا يُملُون عِلْمَهم مِن صُدورِهم، كما أملى إمامُ الحرمَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (التلخيص في الأصول) مِن (تقريب القاضي) بمكةَ، شرَّفها اللهُ، وكان الفَخرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستظهرُ (الملخَّص في الأصول)

للقاضي عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان يكونُ دائمًا في كُمِّه، وكان هو وأبو الحَسَنِ الآمديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحفظان (المستصفى) وكان القاضي الباقلانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُملي كُتُبَه التي فيها عِلْمُه وعِلْمُ المُخالِفين، والرَّدُّ عليهم، مِن صَدْرِه ، وقال الرويانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (لو احتَرَقتْ كُتُبُ الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، لَأمليْتُها مِن حِفظي).

ولـمَّا أعدَمَ الـمُوحِّدون نُسَخَ (الـمُدوَّنة) وهي الأُمُّ في مَذهبِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وأرادَ مَنْ بَعدَهم بعدَ زوالِ مُلكِهم إعادَتَها، لم يَجدوا لها نُسخةً، فأمْلاها عليهم الفقيهُ أبو الحَسَنِ بنُ أبي العشرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن حِفظِه، ثم عثروا لها على نُسخةٍ مُتقَنةٍ مُجوَّدةٍ، فقابلوها بإملاءِ أبي الحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فلم يَجدوا فَرْقًا بيْنَ النُّسختَيْنِ إلَّا في الواوِ والياءِ، ونظائرُ هذا كثيرةٌ جدًّا، ولذا يَجدُ الناظرُ في تراجِمِ كثيرٍ مِن الفُقهاءِ أنَّه كان يُضرَبُ به الـمَثَلُ في حِفظِ مَذهبِه.

وقد كان الفُقهاءُ يأخذون على الطلبة الحِفظَ، ويتشدَّدون فيه، ولا يتسامَحون، وذكر ابنُ النَّجارِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تاريخه) أنَّ أبا الخيَرِ القزوينيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان بَليدَ الذِّهنِ في الحِفظِ، وكان في مدرسةِ الإمامِ محمدِ بنِ يَحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحِبِ الغزاليِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان مِن عادتِه أنَّه

يستعرضُ الفُقهاءَ كُلَّ جُمُعةٍ ويأخذ عليهم ما حَفِظوه، فَمَن وجَدَه مُقصِّرًا أخرَجَه مِنَ المدرسة، فوجد القزوينيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك، فأخرَجَه، فخرَجَ لَيلًا وهو لا يدري أين يذهبُ، فنامَ في أتونِ حَمَّامٍ، فرأى النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، فتفَلَ في فَمِه مرَّتَيْنِ، وأمَرَه بالعَوْدِ لِلمدرسةِ، فعادَ ووجَدَ الماضي مَحفوظًا، واحتَدَّ ذِهنُه، وقد وقع نظيرُ هذه الحكايةِ لِلتفتازانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ووقع نَحوُها لكنْ مع النَّوويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِأُستاذِنا الدكتورِ الـمُتكلِّمِ محمد رمضان عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فكان عجبًا في استِحضارِ مَذاهبِ الـمُتكلِّمين والأُصوليِّين وأدلَّتِهم ومباحِثِهم.

وهذا شيءٌ لا يُقاسُ عليه، وإنَّما غرضُنا من ذِكرِه التنبيهُ على حِفظِ الفُقهاءِ، وهو إنَّما يَحصُل ويقع بتَكرارِ الـمَحفوظِ تَكرارَ مَن يفهم، ومُداومةِ النظرِ في الكِتابِ الذي يريد حِفظَه، ألَا ترى أنَّ أُمَّ هِشام بِنْتَ حَارِثَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كما في صَحيحِ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَفِظتْ (سورة ق) مِن فَمِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مِن كثرةِ ما كان يُكرِّرُها في خُطبةِ الجُمُعةِ.

وقد ذكَروا أنَّ أبا عُثمانَ الحيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يُديمُ النظرَ في (الـمُستخرَج على مُسلِمٍ) لِأبي جعفرِ بنِ حِمدانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فكان إذا جلس لِلوعظِ يقولُ في بعضِ الحديثِ: رُوِيَ.

وفي بعضِه: قال: فنظروا فإذا به قد حَفِظَ الكِتابَ حتى مَيَّزَ بَيْنَ صَحيحِه وسَقيمِه.

وحَكَوْا عن العلَّامةِ تاجِ الدِّينِ الفزاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كان يُديمُ النظرَ في (شرح التنبيه) حتى حَفِظه حِفظًا مُتقنًا، فكان رُبَّما أحالَ عليه مِن حِفظِه بالجُزء والورقةِ.

وذكروا عن الرئيس أبي عليِّ بنِ سينا أنَّه نظرَ في كِتابِ (ما وراءَ الطبيعة) لأبي نَصرٍ الفارابيِّ أربعين مرَّةً، حتى حَفِظه ولم يَفهَمْه؛ لِوُعورتِه.

وكانت فاطمةُ بنتُ العبَّاسِ تستَشكِلُ على شيخ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في درسِه؛ لِأنَّها كانت تُديمُ النظرَ في (المُغني) لِابنِ قُدامةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى استظهرَتْه، فكان يَستعِدُّ لها.

وكان ابنُ تَيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُديمُ النظرَ في (المحلى) لابنِ حَزمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، حتى قال الصفديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تاريخه): (كان يحفظُه عن ظَهرِ قَلبٍ، فلو شاء لَأملاه مِن حِفظِه بما فيه مِن الشَّناعةِ والثَّلْبِ).

وحكَوْا عن ابنِ رسلانَ الخوارزميِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قرأ (شرح المهذب) لِأبي بكرٍ الصيدلانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ و(تفسير الثعلبي)، حتى حفِظَ جُملةَ ما فيهما، فكان إذا سُئلَ يجيبُ على البديهةِ منهما، ويَذكُر مِن حِفظِه الخِلافَ والمَذاهبَ والأقوالَ والأدلَّةَ مِن غيرِ خَطأٍ.

وأملى النوويُّ على أصحابِه مسألةً مِنَ (الوسيط) لِلغزاليِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فراجَعوهُ فيها، فقال: (تراجعونني في الوَسيطِ، وقد قرأتُه أربَع مِئةِ مرَّةٍ).

ولـمَّا تنازعَ الناسُ في فضلِ العلَّامةِ عبدِ القادرِ المكيِّ الطبريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فحَلَفَ بعضُهم بالطَّلاقِ إنَّه ليس بمكةَ أحدٌ أعلمُ منه، واختلَفَ العُلماءُ في حِنثِه، فأجاب الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والسنباطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعَدَمِ الحِنثِ، وعلَّلوه بسَعةِ عِلْمه وكثرةِ محفوظِه، حتى إنَّه إذا سُئلَ في الفقهِ أجابَ في الحالِ مِن (شرح الرافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أو(الروضة) وإنْ سُئلَ في الأُصولِ أجابَ مِن (مُختصر ابنِ الحاجبِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أو (مُختصر البيضاويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ).. وهكذا التَّفسيرُ والحديثُ وغَيرُها مِن الفنونِ، وهذا لِأنَّه كان يُديمُ مُطالعة هذه الدواوينِ حتى رَسَخَتْ في ذِهنِه.

وحدَّث العلَّامةُ المُختارُ بنُ بونا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نَفْسِه، أنَّه في حداثَتِه استُغلِقَ عليه فَهْمُ النحو وحفظُه، فخرج مِنَ الدرسِ باكيًا، لِتعنيفِ المُعلم إياه على تقصيرِه، فاستند إلى شجرةٍ يفكرُ في شأنِه، فرأى نملةً تحمِلُ رزقَها وتحاولُ أنْ ترقى به جِذعَ الشجرةِ، فعدَّ لها سبعَ مرَّاتٍ وهي ترقى ثم تقع، ثم تعودُ فتحمِلُه وترقى، وهكذا حتى حصل لها ما أرادت، ففَهِم أنَّ تَكرارَ المُحاولة يفتحُ المُقفلَ والمُغلقَ مِنَ الفَهْمِ والحِفظِ، ومِن هنا قال أديسون -وهو الذي ابتكر المِصباحَ بعدَ ألْفِ تجربةٍ-: (العبقريةُ تَكرارُ المُحاولةِ).

ويحصل الحِفظُ أيضًا بالتعوُّدِ عليه بكثرةِ ممارسته وعدم قطعِه حتى يسهُلَ عليه، وقد حكى أبو هِلالٍ العَسكريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي السمح الطائِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: كان الحِفظُ يتعذَّرُ علَيَّ حين ابتدأتُ أرُومُه، ثم عوَّدتُه نَفْسي، إلى أن حفِظتُ قصيدةَ رُؤبةَ (وقاتِمِ الأعماقِ خاوي المُخترَقْنْ) في ليلةٍ، وهي قريبٌ مِن مِئتَيْ بَيتٍ.

وأيضًا فالمخطوطُ نَفْسُه يتفاوتُ في سرعة الحِفظ وإحكامِه، فحِفظُ الشِّعرِ المَنظومِ ليس كحِفظِ النَّثرِ، والواجبُ على المُعتَنين بالتحصيلِ والطلبِ مُراعاةُ ذلك مِن جهةِ الوقت والجهد.

وقد ذَكَر الذهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابنُ السبكيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغَيرُهما أنَّ أبا الفَضلِ الهمذانيَّ الأديبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا وَرَد نَيْسابورَ، وتعَصَّبوا له، ولقَّبوه بَديعَ الزَّمانِ، أُعجِبَ بنَفْسِه، إذ كان يحفظُ المئةَ بيتٍ إذا أُنشِدتْ بينَ يَدَيْه مرَّةً، ويُنشِدُها مِن آخِرِها إلى أوَّلِها مقلوبة، فأنكر على الناسِ قَولَهم: (فُلانٌ الحافِظُ في الحديثِ)، ثم قال: وحِفظُ الحديثِ ممَّا يُذكَر؟! فسمع به الحاكمُ بن البيِّع رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فوجَّه إليه بجزءٍ، وأجَّلَه جُمُعةً في حِفظِه، فردَّ إليه الجزُءَ بعدَ الجُمُعةِ، وقال: مَنْ يحفظُ هذا؟ محمدَ بنَ فُلانٍ، وجعفرَ بنَ فُلانٍ عن فُلانٍ! أسامي مختلفة وألفاظ متباينة! فقال له الحاكم: فاعرَفْ نَفْسَك، واعلَمْ أنَّ حِفظَ هذا أضيقُ ممَّا أنت فيه.

ويتفاوتُ المَحفوظُ أيضًا بحسَبِ رغبةِ ومَيْلِ الطالب إلى العِلْمِ وشَغفِه به ونَهْمَتِه فيه، وقد ذكَرَ أبو الحَسَنِ الأخفشُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ النَّظَّامَ قال: لو تفرَّغتُ لِلعَروضِ لَحفِظتُه في يومَيْنِ. قال: فلمَّا تفرَّغَ له لم يحفَظْه في شهرَيْنِ!

في حين أنَّ أبا جعفرِ بنَ جَريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحكَمَ العَروضَ في ليلةٍ، وذلك أنَّه سألَه سائلٌ عن وزْنِ بيتٍ، فلم يَعرِفْه، وطلَبَ مِنَ السائلِ أنْ يُمهِلَه حتى الصباحِ، ثم استعارَ عَروضَ الخليلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن صاحبٍ له،

وبات ينظُرُ فيه حتى قال: أمسَيتُ لا أدري العَروضَ، وأصبَحتُ عَروضيًّا.

ونظيرُه أنَّ أبا بكرِ بنَ الأنباريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُئلَ عن تأويلِ رُؤيا، ولم يكنْ له بهذا الفَنِّ دِرايةٌ، فاستَمهَل السائلَ حتى الصباحِ، وذهبَ فاستعارَ كِتابَ الكرمانيِّ في التعبيرِ، وأحكَمَه في ليلةٍ واحدةٍ، حتى صارَ مُعبِّرًا.

لكنَّ هذا الحِفظَ - أعني حِفظَ المُطوَّلاتِ مِنَ الكُتُبِ- الذي يُذكَرُ عن بعضِ أهلِ العِلْمِ، المُرادُ منه في الأغلبِ الحِفظُ الذي هو المَعرفةُ بفوائدِ الكِتابِ، والذي يتولَّدُ مِن كثرةِ تَكرارِ النَّظرِ فيه، وإدامةِ قراءتِه، وقد قال ابنُ السبكيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة بعضِ مَن قيل: إنَّه يستَظهِرُ (كِتابَ سيبَوَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ): إنَّ هذا لا يكاد يُتَصوَّر أنَّه الحِفظُ عن ظَهرِ قَلبٍ باللَّفظِ، وإنَّما المُرادُ حِفظُ معاني الكِتابِ وفوائدِه بدوامِ النظرِ فيه.

وهذا كما قال المزنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّه قرأ (رسالة الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ) خمسَمِئةِ مرَّةٍ، ومنه قَولُ البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سُئِل عن دواءٍ لِلحِفظِ:

(لا أعلَمُ دواءً لِلحِفظِ أنفَعَ مِن نَـهْمَة الرجُلِ، ومُداومةِ النظرِ، وكثرةِ المُراجعةِ).

ولذا تجِدُ أنَّ كثيرًا مِنَ العُلماءِ قد غلب عليه النظرُ في كِتَابٍ مُعينٍ حتى عُرِفَ به، لِأنَّه شُغِفَ به، ومال إليه، فداوم عليه، حتى حفِظَه، أو كاد، كما تقدَّمَ ذِكْره، ولذا يقول أبو العبَّاسِ بنُ سريجٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مختصر المزنِيّ):

سميرُ فؤادي مُذْ ثلاثين حِجَّـــةً ... وصَيْقَلُ ذِهْني والـمُفَرّجُ عن همِّي

وقال أبو الحَسَنِ الفالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الجمهرة) لِأبي بكرِ بنِ دريدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وقد كان يحفَظُها ويمتَلِكُ نُسخةً مُجوَّدةً منها، فلمَّا افتَقَر باعها، وأنشَدَ:

أَنِسْتُ بها عشرين حَوْلًا وبِعْتُهـا ... فقد طالَ شَوْقي بَعْدَهـا وحَنيني

وما كان ظَنِّي أنَّني سأبيعُهــــا ... ولو خلَّدَتْني في السُّجونِ دُيــوني

ولكِنْ لِضَعْفٍ وافتِقـارٍ وصِبْيَةٍ ... صِغـــارٍ عليهم تَستَهِلُّ شُؤوني

فقُلتُ ولم أملِكْ سَـــوابِقَ عَبرَةٍ ... مَقـــالَةَ مَشْوِيِّ الفـؤادِ حَزينِ

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالِكٍ ... كرائمَ مِن رَبٍّ بِهِنَّ ضَنيــــنِ

والخبرُ بتمامِه عِندَ ياقوتٍ في (الأُدباء) والسيوطيِّ في (المزهر) وغَيرِهما، والحاصِلُ منه أنَّه داومَ على مُطالَعَتِها عشرين سنةً! فكيف لا تَرسَخُ معانيها، فضلًا عن ألفاظِها في ذِهنِه؟!

وكان لهم طريقةٌ في تَجريدِ فوايِدِها وحِفظِها، وذلك أنَّهم يَعمَدون عِندَ مُطالعتِها إلى وضعِ خطٍّ أو علامةٍ على الفوائدِ التي لا غِنى لِلعالِمِ عن حِفظِها بألفاظِها، كالشّعرِ والنُّصوصِ ومَذاهبِ الناسِ .. ونَحوِ ذلك، فيُجرِّدون المُطوَّلاتِ منها، ويُخلِّصونَها، بحيث ينقَسِم الكِتابُ عِندَهم إلى قسمَيْنِ: ما تحتَه خَطٌّ، أو علامةٌ، وهو لِلحِفظِ بلفظِه، وما هو مُهملٌ، وهو الكلامُ الذي هو شرحٌ لِلمعنى، بحيث يُكتَفى بفَهْمِه وتأديَتِه عِندَ الحاجةِ بلَفظِه هو، دون الحاجةِ إلى لفظِ المُصنِّفِ، فإذا كرَّرَ على الكِتابِ مرَّةً أُخرى، فإنَّه يُطالِعُ ما تحتَه خَطٌّ أو علامةٌ، ويُداوِمُ على النظرِ فيه، ومُراجعتِه، حتى يَرسَخَ في ذِهنِه ويُحكِمَ حِفظَه.

والحِفظُ مِن جِهةِ طرائقِه ووسائلِه نوعانِ: حِفظُ التَّكرارِ، الذي هو هذا، وهو الأغلبُ على الناسِ، حتى مِنَ الحُفَّاظِ الكِبارِ، كما مرَّ عنِ البُخاريِّ وغَيرِه، وحِفظُ الأذكياءِ، وهو بالتأمُّلِ في معاني الكِتابِ حتى يفهَمَه، كما حَفِظَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيةَ (كِتابَ سيبَوَيْهِ) وفهِمَه بتأمُّلِهِ

مِرارًا، وذَكَرَ السخاويُّ وغَيْرُه عنِ الحافِظِ ابنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كان يحفظُ حِفظَ الأذكياءِ، وأنَّه تأمَّل (مُختصر البيضاويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ) فحَفِظه.

ويمكن أن يَجمَعَ بَينَ النوعَيْنِ، ويَستَعمِلَ الطريقتَيْنِ، وذلك بحسَبِ ذِهنِ الحافظِ، فإنَّه قد يَستَرِوحُ لهذا النوعِ دونَ الآخَرِ، وبحسَبِ المَحفوظِ نَفْسِه، فإنَّ مِنَ الكُتُبِ والعُلومِ ما يكفي حِفظُه بالتأمُّلِ، ومنه ما لا يتأتَّى إلَّا بتَكرارِه، ولهذا ذَكَروا في طريقةِ الحِفظِ أنَّه تارةً يرفعُ صَوتَه بالمَحفوظِ، حتى يَرسَخَ، وهو حِفظُ التَّكرارِ، كما قال أبو هِلالٍ العَسكريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّه (يرفعُ صَوتَه بالدرسِ، حتى يُسمِعَ نَفْسَه، فإنَّ ما سمِعَتْه الأُذُنُ رسَخَ في القَلبِ، ولهذا كان الإنسانُ أوعى لِمَا يسمَعُه منه لِمَا يقرَؤُه)، وحكى عن أبي حامدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كان يقولُ لِأصحابِه: (إذا دَرَستُم، فارفَعوا أصواتَكم؛ فإنَّه أثبَتُ لِلحِفظِ، وأذهَبُ لِلنَّومِ).

وتارةً يقرأ ويُطالِعُ بصَمتٍ، وبالنظرِ في المَحفوظِ، دون أنْ يُحرِّك شفتَيْه به، فيَرسَخُ ما تأمَّلَه، ولا سيَّما إذا كان المَقروءُ ممَّا يَغلِبُ عليه الفَهْم دونَ الحِفظِ، كما حكاه ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وتفسيرُ ذلك عِندَ الأطبَّاءِ أنَّ الدِّماغَ يَلحَقُه مِنَ الإعياءِ والجَهدِ باشتِغالِ جارِحتَيْنِ مِنَ الجوارِحِ التابعةِ له، أكثَرُ ممَّا يلحَقُه مِن ذلك باشتِغالِ جارحةٍ

واحدةٍ، ولذا حكى أبو هِلالٍ أنَّهم كانوا يقولون: (القِراءةُ الخفيَّةُ لِلفَهْم، والرَّفيعةُ لِلِحفظِ والفَهْم).

أنت أيُّا الراغب في اللَّحاق بتلك النَّجائب عليك أن تُراعي جملة من الأمور لتأمن العثار بإذن الله وتصل إلى مطلوبك بأقرب طريق وأسلمه، فمن هذه الأمور

هذا العمل – الحفظ – يتطلب جُهداً في تثبيته، كما يتطلب جُهداً آخر في مراجعته ومذاكرته، وذلك كله يستدعي أوقاتاً طويلة؛ فلتكن لك فيه نية صالحة لتؤجر من جهة، ومن جهة أخرى تسلم من الوزر الذي يرجع به أهل المقاصد السيئة من الرياء والسُّمعة، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فلا تجمع بين عناءين: عناء في الدنيا، وعناء في الآخرة.

هناك أمور تعين على الحفظ، وهي متنوعة، **إليك منها عشرة أمور تعينك على الحفظ:**

الأول: أن تراعى أحوال الذهن، فالذهن، والنفس له حالات من الإقبال، والإدبار، وهذا أمر مدرك، حتى في القضايا النفسية، من

الحزن، والكآبة، والارتقاء، وإشراق النفس، حينما يحلق الإنسان عالياً في بعض الأوقات، هي مثل ما يضعون في الرسم البياني، هكذا، النفس أحيانا تهبط، وأحياناً ترتفع، أحياناً لا يستطيع أن يقرأ مطوية، وأحياناً يريد أن يلتهم المجلدات، فهذه الأحوال تمر على النفس، والأوقات تتفاوت، فحينما يكون الذهن مكدوداً، ومجهداً فإنه لا يصلح للحفظ، ولذلك في الأيام الماضية - أيام الاختبارات - تأتي رسائل من بعض الإخوان، بعضهم يقول: أنا متفوق في دراستي، بحيث دائماً أحصّل المعدل الكامل، يعني: بعضهم أربعة من أربعة، فيرسل أحياناً رسالة في أيام الاختبارات، ويقول: أنا الآن لا أستطيع أن أقرأ شيئاً، فيطلب الدعاء من هذا، وهذا، متوقف، لماذا ؟ بعضهم لربما يبكي، يظن أنه أصابه شيء، والواقع أنه ما أصابه شيء، لكن هذا أمر يحصل للنفس، حتى إن من لطف الله بالإنسان أنه إذا غلبه الإجهاد، والتعب، أو الألم، والمرض انفصل عنه العقل، فأغمي عليه، وغُيب، فلا يشعر بالآلام، هذا من لطف الله .

هكذا الذهن إذا أجهد، فإنه لا يحتمل، إذا كان الإنسان مشغولاً مشوشاً لعارض، من حزن، وفرح، أو نحو ذلك، فإنه لا يكون مهيأً

للحفظ، حينما يعود الإنسان من عمله، ويريد أن يحفظ، فإنه قد لا يتمكن، ويطول عليه الزمان، ولم ينجز شيئاً يذكر، ولذلك يحتاج الإنسان أن يتحرى الأوقات التي يكون ذهنه فيها متهيئاً للحفظ، هذا لابد منه، وأن يتحرى الأوقات، والأمكنة التي تقل فيها الصوارف، والشواغل، والمشوشات، ما يحفظ في دكان في السوق، أو يحفظ - كما يقال - في أماكن الأنهار، وما إلى ذلك من الأصوات المزعجة، أصوات السيارات، أو نحو ذلك.

وهذا أمر بين، وقد ذكره أهل العلم في كتبهم، وشروحهم، ونبهوا عليه، وذكروا الأوقات التي يحسن فيها الحفظ، والأوقات التي يحسن فيها المراجعة، والأوقات التي يحسن فيها الفهم.

كما يقول الخطيب البغدادي - رحمه الله - : أجود الأوقات الأسحار، يعني: للحفظ، ثم بعدها وقت انتصاف النهار، وبعد ذلك ذَكر أول النهار، وقال: إن حفظ الليل أصلح من حفظ النهار، وذكر أماكن الحفظ: الغرف العلوية أفضل من السفلية.

وهكذا في كل مكان بعيد عما يلهي، ويشوش الأذهان، ونهوا المتحفظ أن يحفظ بحضرة النبات، والخضرة، وهذا يقال أيضاً لمن يريد أن يحفظ القرآن، أو يقال لمن يريد أن يفهم في دراسة، أو نحو ذلك.

أنت بحاجة أن تجمع الذهن، ولهذا فإن المجربين يقولون: كلما كان المكان ليس فيه ما يشوش فهذا أفضل، وكلما كان أضيق فهو أدعى إلى الحفظ، ولهذا بالإمكان أن يقترب الإنسان جدًّا من الجدار لتكون المساحة التي تراها العين ضئيلة؛ لأن العين تصب في القلب المشاهد التي تراها، والقلب هو محل الحفظ، فيحصل له تشويش، وانشغال.

فهذه الأشياء التي تَرِد عليه، أو يضع الجوال بجانبه، ويتكلم، ويقرأ كل رسالة تصل، فإن ذلك يأخذ شُعباً من قلبه، فلا يجتمع عليه، فيطول عليه وقت الحفظ، ولذلك تجد الإنسان أحياناً يريد أن يحفظ شيئاً يسيراً، فيجلس مدة طويلة، بينما يمكن أن يُحفظ هذا بعشر دقائق.

بل لربما يقرأ الإنسان صفحة واحدة، ويجلس مدة طويلة من الزمن، وإذا نظر يجد أنه كأن لم يقرأ الأسطر الأولى، فيرجع، وثانية، وثالثة، لماذا؟

لأنه في مكان غير مهيَّأ، يجلس في الصالة مع أهله، ويسمع بأُذنٍ الحديث، وينظر بعينٍ إلى الكتاب، ولا يحصل له كبير مطلوب، وهكذا قالوا: إن أوقات الجوع أفضل من أوقات الشبع.

كما ذكر ابن جماعة أن أفضل وقت للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة، والمذاكرة الليل.

لكن هذه تختلف من زمان لآخر، ومن شخص لآخر في حياتنا المعاصرة.

نحن حينما نسهر عامة الليل، ثم بعد ذلك نقرأ في كلام الخطيب، أو ابن جماعة أن أفضل وقت للحفظ الأسحار، فنحن نخطئ حينما ننزل ذلك الكلام على حالنا، وواقعنا، من ينام بعد صلاة العشاء فإنه يكون في وقت السحر في غاية اليقظة، والنشاط، أما الذي ينام في الواحدة،

أو ما قارب ذلك فإنه لا يكاد يستيقظ لصلاة الفجر، فكيف تريد منه أن يحفظ؟.

وهكذا فيما يقال بعد صلاة الفجر، إذا كان الإنسان يتأخر، ويسهر فإنه يكون في ذلك الوقت في حال من مغالبة النوم، والتعب، والإرهاق لا يخفى، لكن ذلك يقال لمن يبكر في نومه.

وأظن أن وقت الأسحار في زمانهم يشبه وقت الظهر في زماننا في الإجازات؛ لأن كثيرًا من الطلاب إنما يصحو وقت الظهر، فيكون ذهنه في هذا الوقت في غاية الصفاء، وهكذا تتقلب الأمور، وتتغير الأحوال، بحسب ما نزاوله من أعمال، وحسب ما يطرأ علينا من أحوال، وأمور.

الثاني: مما يعين على الحفظ، وأختصره لك اختصاراً: التحق بالبرامج الموجودة الناجحة المجربة، فقد سلك هذا الطريق سالكون قبلك، وتخرجوا فيه، فعليك بهذا المَهْيع، ولا تتطبب على نفسك؛ لأن الكثير لربما يتحمس، ويضع له برنامجاً، ولربما بالألوان، ويتحمس في أول الإجازة، أو أول ارتفاع الهمة، وفي كل وقت، وفي كل حين يريد أن

يحفظ كذا، وفي الساعة الفلانية، ثم هذه الشحنة من النشاط، والهمة تستمر معه لربما أسبوعًا، أو عشرة أيام، أو أكثر، ثم بعد ذلك يبدأ بالهبوط، والنزول، ويعرض له من العوارض، والشواغل، وهو أمير نفسه، هو الذي يقرر: الآن تستريح، الآن أنت مرهق تنام، الآن تزور فلانًا، الآن تذهب إلى المكان الفلاني، وهذا يرِد عليه في وقت حفظه، وهذا يزوره، وهذا يتصل عليه، ونحو ذلك، ويضمحل الوقت، ولم يخرج بكبير طائل، وتمضي السنون، ثم يلوح الشيب في مفارقه، وفلان هو فلان الذي عرفناه قبل عشر سنوات، وقبل عشرين سنة.

فأقول: اختصر على نفسك الطريق، تريد حفظ القرآن، ادخل في برنامج جيد من هذه الحلقات مجرب معروف جاد، سواء في الإجازة، أو غير الإجازة، في البرامج المكثفة، أو في غير البرامج المكثفة، ضع لك خطة في هذه الإجازة خمسة أجزاء، وهكذا، تريد أن تحفظ المتون، قل: في هذه الإجازة سأحفظ المتن الفلاني، والفلاني، والفلاني، وفي الإجازة القادمة كذا، وكذا، وكذا.

هناك برامج موجودة، ما عليك إلا أن تسجل فيها، ستجد نفسك بعد خمس سنوات قد حفظت كثيراً من كتب العلم في السنة، وغيرها

من المختصرات في العلوم المتنوعة، هذا هو الطريق باختصار، أمّا التطبب، والحماس، والجدول الذي بالألوان فكل هذا عما قريب يتلاشى.

كم رأينا من الناس، وكم رأينا من المتحمسين عبر السنين، وفي كل مرة نلقاه: أريدك في موضوع خاص، ثم يسأل السؤال نفسه الذي يسأل عنه دائماً قبل سنين، متخرج من كلية الشريعة قبل عشر سنوات، ولا زال يسأل أريد برنامجًا أبدأ من الصفر، أنا الآن مصمم، وهكذا.

ثم بعد ذلك يصل إلى مرحلة إحباط، ويأس، ويشعر أن هذا الأمر بعيد المنال، لا يمكن أن يُحصَّل، وقد سمعت بعضهم خرج عن طوره في بعض المرات، وقال: هذه أشياء مثالية، هي مثالية بالنسبة إليه، لكن هؤلاء الذين دخلوا في هذه البرامج حصّلوا، نحن نرى من حفظوا الكتب الستة، ومن حفظوا من متون العلم، وقد رأيت أطفالاً في بعض البلاد المجاورة، رأيتهم يحفظون أشياء يطول الوقت بتعدادها، وهم يسردون حتى إنك تتعجب، كيف يتمكن الإنسان في هذا السن الصغير أن يجمع ذلك في قلبه؟!.

أقول: هذا من أنفع الأشياء، والحمد لله، البرامج موجودة، وهي تتطور، وتنتقل من حال إلى حال أحسن منها.

أمّا حفظ المتون فتوجد برامج كثيرة هنا، وهناك، وحديثنا هذا في هذا الطرح الذي أطرحه أظنه جديداً، ولم أسمعه قبل ذلك، ولكن أظن أنه نافع، ومفيد، وهي فكرة لعلها تنفع، قابلة للمناقشة، والحوار، والتفكير، والتأمل.

لكن يمكن لكل واحد منا إذا رجع أن يقلب النظر، يفكر بعيداً عن الحماس، والعاطفة، ثم بعد ذلك يقرر لنفسه.

الثالث: مما يتعلق بالأمور المعينة على الحفظ هو أن يكون لنا فقه في نظرنا، ومراعاتنا، ومعالجاتنا لأحوال الأذهان.

أي عضو من أعضاء الإنسان إذا تُرك، لو وُضع إنسان على سرير مدة طويلة لا يتحرك، ما الذي يحصل لأعضائه؟ تضعف، ولربما تتكلّس عظامه، ولا يستطيع أن يثني رجله، ولا يده، ولربما أيضاً يحصل وهن بأجهزته الداخلية الرئة، القلب، وما إلى ذلك، وهذا معروف إذا كان الإنسان لا يتحرك، يجلس شهوراً في مكان لا يتحرك، فإن ذلك يوهنه،

ويقضي على عافيته، وتتولد له من العلل، والأوصاب أضعاف ما أقعده بأول أمره.

فالذهن إذا تُرك من غير معالجة فإنه يحصل له شيء من ذلك، حتى يصير إلى حال من البلادة، هذا في الحفظ، وفي الفهم.

لكن لما كان الحديث عن الحفظ، نقول: نحتاج إلى شيء من الفقه، الذهن إذا كان لم يعتد على الحفظ فإنه يتعب في أول أمره كثيراً.

ولذلك أقول للإخوان عادة في بداية البرامج التي يلتحقون فيها - برامج حفظ القرآن - : كثير من الذين يلتحقون في هذه البرامج يتساقطون في الأسبوع الأول، ويشعرون أنهم دخلوا في أمر لا طاقة لهم به، ولا قدرة لهم عليه، لو صبروا لحصّلوا، وظفروا بإذن الله ففي البداية الذهن بطيء الحركة لم يعتد، واسألوا المجربين، ثم ما يلبث حتى يشتد، ويقوى، فإذا صبر الإنسان، وواصل فإن الذهن يتوقد حتى إنه يستطيع أن يحفظ الأشياء في ربع المدة التي كان يقضيها.

لربما يُطلب منك حينما تلتحق ببرنامج في حفظ الصحيحين مثلاً أن تحفظ ثماني عشرة صفحة، تجد الكثير ممن التحقوا بهذا البرنامج في

الأسبوع الأول لربما يجلس من بعد الفجر إلى العاشرة، والحادية عشرة ليلاً، وهو لا يكاد ينجز ما طلب منه، هذا في الأسبوع الأول، ولكن بعد مضي أسبوع، أو عشرة أيام ستجد أن بعضهم يحفظ، وينهي ذلك جميعاً الظهر، أو قبله، أو بعده بقليل، هذا شيء مشاهد.

ولربما حضر بعضكم في هذه البرامج، وحصل له ما أذكره الآن، في الأسبوع الأول، لربما يكون متوتراً، بل وُجد من لم يتمكن من الإنجاز في الأسبوع الأول، فأُخرج من البرنامج، فلم يرض لنفسه أن يرجع من غير الأمر الذي نهضت همته له، فبقي لكن مع نفسه، استأجر في مكان مجاور، واتفق مع أحد المحفظين بصفة شخصية أن يراجع له، وأن يسمع منه، فجاء، وقد حفظ البرنامج في النهاية معهم، الإصرار، والصبر.

التلكؤ يكون في البداية، وبعد ذلك ينطلق الإنسان، ولهذا فإن الاستبيانات التي توزع على الإخوان لتقيس المقدار الذي يعطى لهم في كل يوم للحفظ هي لا تعكس الصورة الحقيقية التي يمكن أن تطبق في كل مكان، بل ولا على هؤلاء؛ لأنك حينما توزع هذه على برنامج الأسبوع الأول فإنهم قد يرون ذلك كثيراً، لكن حينما تقوى الأذهان

نفس المقدار بعد مدة يرون أنه قليل، ويطالبون بالزيادة، وهذا شيء نشاهده في الدورات المنهجية في حفظ المتون.

والطريق، والحل في مثل هذا من أجل ألا يعود الذهن إلى حال من الضعف ثانية أن يستمر الإنسان دائماً على الحفظ، والمراجعة، سائر العام، فلا يترك حتى يبرد، ثم يرجع الإنسان في الإجازة القادمة، وهو يريد أن يحفظ ثانية، فيحتاج إلى دورة جديدة فيها نفس المعاناة السابقة.

ومما يحتاج إلى تلطف، وفقه في النظر إلى حال الأذهان - وهي قضية ذكرها أهل العلم - : أنك إن تلكأت في كلمة، وأنت تراجع في كتاب الله أو في شيء من كتب العلم التي تحفظها فلا تبادر، أو لا يبادر من يسمع منك الرد، والتنبيه، انتظر، وحاول مرة، وثانية، وثالثة، فإنك إن بادرت، أو بودرت بها فإن الذهن يصدأ، لا يتمكن من الاستحضار، والاستخراج، فيكون كليلاً فدواؤه هو أن يعصر مرة بعد مرة حتى يستخرجها، ويظفر بها.

الرابع: مما يعين على الحفظ: حاول أن تربط بين الأشياء من جهة المعنى، فالأبواب الفقهية مثلاً المياه، الطهارة، ثم بعد ذلك تأتي الصلاة، المواقيت، الأذان، إقامة كذا، كيف رتبت بهذه الطريقة، اربط من أجل أن تتقن.

وكذلك في حفظ القرآن، وفي حفظ المتون، الله - تبارك وتعالى - ، ذكر في خاتمة هذه الآية شيئاً يتعلق بالتعقل، ثم بعد ذلك التفكر، ثم بعد ذلك التذكر، فتربط بين هذه الأشياء، يعني: الإنسان يعقل الأمور، ثم يتفكر، ثم يحصل له الذكرى **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾** [الكافرون: ١-٦].

لربما بعض الناس يصعب عليه حفظها، لكن هي مثال لغيرها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الآن أنا على دين غير الدين الذي أنتم عليه ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ الآن أنتم تقيمون على الشرك ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ في المستقبل لن أتحول إلى دينكم

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لن تتحولوا إلى ديني في المستقبل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لو نظر إنسان إليها بهذه الطريقة ما يخلط، وما ينسى.

وهكذا أيضاً أحياناً تكون الكلمة غريبة على الإنسان، فيمكن أن يربطها بكلمة مألوفة، أتذكّر أننا سافرنا إلى بلد، ولا نعرف الطرق، ولا نعرف الأماكن، واسم الفندق فيه صعوبة، أتذكر أن اسمه أطلنطي، فقال لي صاحبي: إذا ذهبت تذكّر المحيط تذكُر اسم الفندق، ربط جيد.

وأهل العلم عندهم شيء من هذا، ونبهوا عليه، يروى عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه أتى أبا موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فأمره بشيء من أمره، ثم قال: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أسأل الله الهدى، والسداد، أذكر الهدى بهداية الطريق، وأذكر السداد بتسديدات السهم. كانوا يزاولون السهام، وهو أمر مألوف عندهم.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: البيت المعمور في السماء بحذاء الكعبة، وحرمٌ بحذاء الحرم، وما بين الحرمين حرم، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة، اسمه الضُّراح، يقول لسعيد بن جبير: وإن نسيت فاذكر الخيل تَضْرح.

الخيل مألوفة لهم، وهذه اللفظة بالنسبة للخيل مألوفة، إن نسيت اسم ذلك البيت الضُّراح، وهكذا ينبغي أن نتذكر بعض الأمور.

الخامس: مما يعين على الحفظ، وهو التفطن للمطعومات، والمشروبات، هناك أشياء لها أثر إيجابي، مثل الزبيب على الريق، يقوي الحفظ، اللبان المر، وهناك أشياء لها أثر سلبي، مثل الحوامض، الحوامض أثرها سلبي على الإنسان تضعف حافظته، التفاح الحامض، اللبن الحامض، وما أشبه ذلك كما أن بعض الأشياء تؤثر أيضاً مثل الشبع، فالحفظ أوقات الجوع أفضل، وأنجع من الحفظ أوقات الشبع.

السادس: مهما استطعت أن يجتمع في الحفظ اللسان، والقلب، والعين، والأذن، فتتواطأ هذه جميعاً على التحصيل، فتحفظ بهذه الطريقة في أقصر مدة، وهذا الذي نطبقه الآن في دورات حفظ المتون.

يعرضون شاشة فيها المقطع أربعة أبيات، أو أربعة أسطر، ثم بعد ذلك تردد هذه بصوت جيد، بطريقة ترتاح إليها النفوس، يردد، وهم يرددون معه، مرات معدودة محسوبة، ثم بعد ذلك ينقطع الذي أمامهم

من الكتّابة فيبقى الصوت فيرددون معه، ثم ينقطع الصوت، فيبقون يرددون هم، ثم بعد ذلك يتفرقون كل خمسة عندهم مجموعة مثلاً يرددون معاً، فأول مجموعة تنتهي أولاً تُحسب لها نقاط، فتحصل منافسة فيبدؤون يسمعون، هذه مجموعة انتهت اليوم هي الأولى، وهذه الثانية، وهذه الثالثة، وهذه الرابعة، فيعزمون في اليوم الثاني كل مجموعة تعزم على أن تنجز أولاً.

السابع: مما يعين على الحفظ هو تقوى الله، وهذا أمر لا يخفى.

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعـــاصي

وأخبرني بأن العلم نـــــورٌ ونور الله لا يُهدى لعـــاصي

القلب يحتاج إلى أن يفرغ، ويكون محلا صالحاً للعلم، وإذا كان القلب مليئًا بالأدناس، والمدنسات، والأرجاس فإن ذلك يحول بينه، وبين العلم .

الثامن: العمل بهذا العلم، وكلام أهل العلم بذلك كثير، وقد جاء عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع قال: كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به.

التاسع: اعتماد نسخة واحدة يحفظ منها، ويراجع، ليرتسم ذلك في ذهنه، سواء كان من حفظ القرآن، أو كان من حفظ المتون، نسخة واحدة من أجل أن يكون ذلك كالمطبوع في القلب، كأنك تتصور الأسطر، أين بداية الصفحة؟ هي الكلمة الفلانية، ويأتي بعدها كذا، فهذا أدعى إلى الضبط بإذن الله.

العاشر: فهم المعنى، إذا استطعت أن تفهم المعاني فهذا أعون لك على الحفظ.

وهذه الخطة ينبغي أن يُلحظ فيها جملة من الأمور أذكر منها سبعة، والأفضل في هذه الخطة، أو الخطط في العلم أن لا يضعها الإنسان لنفسه، وإنما توجد برامج يشرف عليها من له شيء من التجربة، ثم بعد ذلك يلتحق بها الناس.

أولاً: أن نتذكر أن العلوم، أو الفنون، وما وضع فيها من المصنفات، والكتب، والمختصرات من منظوم، ومنثور على ثلاثة مستويات: الأول: للمبتدئين، والثاني: للمتوسطين، والثالث: للمتقدمين، وهذا أمر معروف، إذا كان الأمر كذلك فما هو المطلوب؟

عامة البرامج التي تطرح للناس عادة، الذي يحصل فيها أنه يحصل عصف ذهني كما يقول الإداريون، ماذا نطرح في هذه الدورة؟ ثم يكتبون مجموعة من المتون يتفقون عليها، وينزل إعلان لها، ثم بعد ذلك يلتحق بها الطلاب، ويبدؤون يحفظون.

الخطوة التالية لبرنامجكم ما هي؟ قالوا : هذه بعد ذلك، قبل الإجازة القادمة - إن شاء الله - نفكر فيها، والطلاب هؤلاء الذين التحقوا بالبرنامج لو سألتهم: ما هي الخطة العلمية لك؟ التحقت في هذه الدورة، لكن ماذا بعد؟

قال: والله إلى الآن أنا التحقت بهذه الدورة، ولا أدري ماذا يكون بعد ذلك.

هذا خطأ، ويطوِّل الطريق، هذا الطريق الذي يمكن أن يتخبط فيه الإنسان يمكن أن يختصر له اختصاراً.

فأقول: يفترض أن تكون هذه الخطة كاملة: المستوى الأول، والثاني، والثالث، فيعرف الطالب المتون التي ستطرح في هذه الخطة.

مثل الدراسة في الجامعة مقررات تنزل في كل مرة، ويسجل منها ما يريد، فهذا البرنامج هل المراد منه أن الطلاب يحفظون المستوى الأول كاملاً، ثم المستوى الثاني كاملاً، ثم المستوى الثالث كاملاً، ثم ماذا تكون النتيجة بعد ذلك؟

النتيجة بعد ذلك أننا جعلنا هؤلاء يحفظون في كل فن ثلاثة متون، وهذا لم يقل به أحد - فيما أعلم - من أهل العلم.

أهل العلم عادة يقولون: على طالب العلم أن يحفظ في كل فن متناً، ولكن لما كنا نسير من غير خطة علمية فإننا نسير هكذا في شيء من البرنامج الضبابي، ولا يدري الواحد منا إلى أي شيء يفضي به ذلك، إلى أين سينتهي، ما هو المنتهى في هذا البرنامج؟ ليس هناك شيء في الأذهان.

ولذلك فإن الطريقة الصحيحة فيما أظن هي أن نقول: هذا هو البرنامج في مراحله الثلاث، وكل إنسان له حاله، وظروفه، وتخصصه، واشتغاله، وقدراته العقلية، والحافظة القوية، أو الضعيفة، فماذا تريد؟

هذا إنسان يقول: أنا غير متخصص في العلوم الشرعية، لكن أريد أن أحفظ بعض المتون للمبتدئين، أريد أن أحفظ الأربعين النووية، أريد أن أحفظ كتاب الأصول الثلاثة، لا بأس.

وذاك إنسان يقول: عندي حافظة قوية، متوقدة، وأنا طالب علم، ومتفرغ، ومتخصص في العلوم الشرعية، وأريد أن أتقن في جميعها.

فهذا هل من الصحيح أن نقول له: احفظ عمدة الأحكام في الحديث، ثم بلوغ المرام، ثم منتقى الأخبار، وفي أصول الفقه احفظ الورقات، واحفظ مراقي السعود، وفي مصطلح الحديث احفظ البيقونية، واحفظ النخبة، واحفظ الألفية للسيوطي، أو للعراقي، ونقول له: في النحو احفظ الأجرومية، واحفظ مُلحة الإعراب، واحفظ ألفية ابن مالك، كل هذا؟!.

إذا حفظ ألفية ابن مالك، فما حاجته في الأجرومية، أو في ملحة الإعراب؟ وإذا حفظ مراقي السعود في أصول الفقه فما حاجته للورقات؟.

لذلك أقول: يمكن أن يختار طالب العلم، قد يقول بعضهم: أنا أريد أن أصل إلى المستوى الأخير في فن واحد، والباقي أحفظ في المستوى الأول فقط، لكن يكون عنده تصور ماذا يريد في النهاية؟

فيقول: أنا في الحديث أريد أن أحفظ الألفية للعراقي، أو للسيوطي، ولا أريد أن أحفظ ما قبلها، لكن في العلوم الأخرى أريد أن أحفظ متناً مختصراً في المستوى الأول فقط.

لكن الطريق المطروحة عادة التي يلتحق بها الطلاب هو إعلان عن المستوى الأول مثلاً، ثم يلتحقون، ثم بعد ذلك يحصل عصف ذهني السنة القادمة القائمون على البرنامج يطرحون مستوى آخر، ثم يلتحق به الطلاب، ثم عصف ذهني بعده، وتُطرح أشياء، ثم يلتحقون بهذا البرنامج.

ولا أعني بهذا أن الإنسان يبدأ بالكتب المتقدمة، يعني: لو أنه قال: أنا أريد أن أحفظ الكتب التي تكون في المستوى الثالث، ما أريد أن أكرر في الحفظ، ليس معنى ذلك أنه يبتدئ بها في طلب العلم،

لا، يستشرح ما قبلها، ولكنه يدخر الحفظ لتلك؛ لأنه يقفز، ويختصر المراحل، هذا ما يقول به أحد، أنا أتحدث عن الحفظ فقط.

فالقضية ليست قضية حفظ فقط، وإنما لها متطلبات أخرى - كما سيأتي - فيما يتصل بالمراجعة، ولهذا فإن بعض هؤلاء الذين حفظوا من غير خطة صحيحة يضطرون في النهاية إلى النسيان، يقول: أنا أريد أن أنسى نظم الورقات مثلاً، أو نظم النخبة، أو أريد أن أنسى الملحة؛ لأني قد حفظت الألفية.

لكن نحن لا، احفظ تحفة الأطفال في التجويد، فيحفظها، ثم نفكر ماذا نطرح له في المرة القادمة، هل القضية هي إشغال؟ ثم نقول: احفظ الجزرية، فيحفظها مع تحفة الأطفال! وكان بالإمكان أن يحفظ الجزرية، ويكتفي بها.

ثانياً: قد يسهل الحفظ، لكن العبء الأكبر هو المراجعة التي ينبغي أن تلازمك سائر العمر، متى ستراجع؟ إذا كنت حفظت القرآن، وحفظت مجموعة من المتون، فقد تستغرق منك المراجعة اليومية إذا كنت تراجع من القرآن ثلاثة أجزاء، أو أربعة، أو خمسة في اليوم، مع

متون حفظتها في الحديث، وفي غيره، قد تحتاج منك إلى أربع ساعات، وأعرف من يراجع في اليوم أربع ساعات.

فلابد أن نحسب حسابًا لقضية المراجعة، ووقت المراجعة معه، المراجعة مملة، الإنسان عادة يتهيأ للأمور التي تكون جديدة طارقة، أما الأمور التي يعيدها فإنه يستثقلها عادة، ولابد أن نحسب حساباً لذلك.

ليست المشكلة في الحفظ، وإنما المشكلة في المراجعة .

ثالثاً: العادة أن حفظ النظم أسهل من حفظ النثر، فينبغي على طالب العلم أن ينظر في الأسهل بالنسبة إليه؛ لأن الناس يتفاوتون إن كان ذلك الأسهل إليه فإنه يمكن أن يقدمه، والنبي ﷺ ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ولكن يعتور حفظ المنظومات آفتان - ولهذا يحتاج الإنسان أن يرجح - :

الآفة الأولى: وهي أنك حينما تنسى في النظم يصعب أن تستحضر المعنى، يفوت غالباً، وأما بالنسبة للنثر فإنك إن نسيت العبارة، أو الجملة أتيت بها بمعناها، يعني: في أقل أحوالك تكون مستظهراً، ولهذا نقول للذين يثبطون طلاب العلم أحياناً عن حفظ الصحيحين، والالتحاق

بالبرامج، أو حفظ كتب السنة، ويقولون: هذه مدة قصيرة، وتُنسى، نقول لهم: لو لم يكن لهؤلاء إلا قضاء الأوقات التي لربما تُقضى في النوم مع سنة رسول الله ﷺ التي لربما يموت كثير من طلاب العلم، ولم يقرأ هذه الكتب مجرد قراءة، فهذا يرددها حتى يستظهر، افترض أنه لم يحفظ، يستظهر، فهذا خير كثير، فالنثر يمكن أن يستظهره بالترداد، يعني: إن نسي النص جاء بالمعنى، ولكن النظم قد لا يستطيع أن يورد ما يريد إذا نسي البيت، هذه آفة، وهي معروفة.

الآفة الثانية: النظم يحتاج إلى أوزان، وقوافٍ، ومثل هذا قد يضطر معه إلى شيء من حشو الكلام؛ ليستقيم له النظم، وقد يضطر معه إلى لون من التعسف، والاختصار من أجل أن يستقيم له النظم، فيصعب على من نظر فيه فيحتاج إلى فك، وشرح، فهو، وإن كان أسهل في الحفظ إلا أن فيه ما فيه من هذه الأمور.

هل الأفضل حفظ المتون شديدة الاختصار؟

رابعاً: بعض المتون شديدة الاختصار جدًّا، تكثر فيها الضمائر، ولربما كانت صعبة العبارة، فهل ذلك يكون الأولى، والأفضل في الحفظ؟

مع أن هناك من المتون ما هو أسهل، ولا يحتاج إلى جهد يسير من أجل حفظه، وفهمه، المتون الصعبة كثيرة الضمائر صعبة في حفظها، صعبة في فهمها، صعبة في مراجعتها، بل هي أثقل ما تكون على طالب العلم.

وأعرف من تحولت عنده أوقات المراجعة لتلك المتون إلى حال من الاكتئاب، فإذا كان الإنسان في الأعمال الصالحة كما قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن الشارع من مقاصده الاستمرار، والدوام على العبادة، فإن أثقل العبد على نفسه بألوان من النوافل، ربما يستثقل هذه العبادة، ويكرهها، فكيف بحفظ المتون؟ فيختار الإنسان المتن الأسهل في حفظه، ومراجعته، وفهمه .

بعض العلوم قد يكفي فيها الفهم، ما تحتاج إلى حفظ لسهولتها، ووضوحها.

العلوم الشرعية مترابطة، فنحن نجد في هذه المتون العلمية أبواباً متشابهة، تجد الناسخ، والمنسوخ في علوم الحديث، وفي علوم القرآن، وفي أصول الفقه، تجد في منظومة الزمزمي في علوم القرآن أشياء كثيرة من التجويد، وتجدها أيضاً في الجزرية، وفي تحفة الأطفال، وقل مثل ذلك في أبواب من اللغة: الحقيقة، المجاز، المترادف، إلى غير ذلك، تجدها في أصول الفقه، وتجدها في علوم القرآن، وتجدها أيضاً لو حفظت أشياء في اللغة، فهل يحسن بطالب العلم أن يحفظ هذه جميعاً حينما يمر بها في كل فن في كل متن؟ أو أنه يوفر على نفسه جهداً في الحفظ، وجهداً في المراجعة، فيحفظ في كل فن ما هو أصلي فيه، وما كان مستعاراً من فن آخر فإنه يُحفظ في ذلك الفن، يعني: أحفظ منظومة الزمزمي مثلاً في علوم القرآن جاءتني أبواب في التجويد لماذا أحفظها هنا؟ أحفظها في الجزرية، أبواب في علوم القرآن: العام، والخاص، المطلق، والمقيد، المنطوق، والمفهوم إلى آخره، لماذا أحفظها في علوم القرآن؟ أنا سأحفظها في أصول الفقه، لماذا التكرار؟

وإذا طبقت هذا فإنك ستختصر على نفسك كثيراً في طريقك في الطلب، والتحصيل، والحفظ، والمراجعة، ويسهل عليك الكثير من الأمر الذي شق على غيرك، لكن الذي يمنع من هذا أحياناً الجهل، أو عدم التبصر في الأمور، وعدم التخطيط لها، الإنسان لم يتفطن، يقول: ما تفطنت بهذا، وأحياناً يمنع منه الحماس، والاندفاع في أول الأمر، وهذا يكون عادة عند الشباب في أول أمرهم، يريد أن يحفظ المنظومة من أول بيت إلى آخر بيت، لو كانت ألف بيت، أو أكثر، عنده عزيمة قوية، لكن لو حسب الحسابات فيما بعد، متى سيراجع؟ فإنه قد يغير رأيه، ولكنه قد لا يتغير الآن قد تغيره الأيام، والليالي، وقد تذكرون هذا الكلام في يوم من دهركم، تغيره الأيام، والليالي، فلذلك يحسن بالإنسان أن ينظر في هذه الأشياء.

والذي تميز به هذه البرامج التي نطرحها الآن، ولا أعلمها موجودة في مكان آخر بهذه الطريقة هو: أننا نميز ما يُحفظ، وما الذي يحسن بك أن تحفظه؟ وما الذي لا يحفظ؟ وما الذي يكون قليل الأهمية؟ وما الذي يحفظ في فن آخر؟ كل هذا بعلامات معينة.

من الملحوظات أنه لا يلزم أن نحفظ المتن من أوله إلى آخره، ونراعي في الحفظ الأمور الأربعة التي ذكرتها مجملة، أشياء أحيانا تكون غلطًا في الاعتقاد، أو في العلم، وضمن النظم، لماذا أحفظها؟ الخلل في العقيدة في هذا النظم، الناظم أشعري، وجاءت أبيات تتعلق بقضية من القضايا غير صحيحة، فلماذا نحفظ؟ وهناك أشياء لا فائدة من حفظها، مثل الحشو في ثنايا المنظومة أحياناً، أو المقدمة، أو الخاتمة، فلماذا أحفظ عشرة أبيات في المقدمة في كل فن، والخاتمة؟.

وهناك نوع ثالث، وهو ما يكون بالنسبة إليك تحصيل حاصل، يعني: هذه القضية مفهومة، ما تحتاج إلى حفظ أربعة أبيات في هذه الجزئية، ليس هناك تقاسيم، ولا أنواع، ولا ضوابط يمكن أن تُنسى، قضية بدهية معروفة، فلماذا تُحفظ؟ اترك هذه الأبيات، وأحياناً هذه القضية تكون في فن آخر - كما قلت - فدعها للفن الآخر، فما يبقى فيما عندك أحياناً في بعض المنظومات إلا القليل مما يمكن أن يحفظ.

رابعاً: من هذه المعالم: ينبغي أن نبدأ بحفظ القرآن أولاً.

وهذه القضية لا أحتاج أن أطيل فيها، نقول هذا لمن يريدون أن يحفظوا المتون، نوصيهم أن يحفظوا القرآن أولاً، لكن بالنسبة لمن يريدون أن يحصّلوا العلوم الشرعية، وأن يتفقهوا، وأن يدرسوا كذا، هؤلاء يسمعون أحياناً هذه العبارة القرآن أولاً، ولكن هذه العبارة بهذا الإطلاق تحتاج إلى شيء من المناقشة، والتفصيل.

فحفظ القرآن يستغرق عليه ساعتين، أو ثلاث ساعات، أو نحو ذلك، وماذا يفعل بعشرين ساعة؟ نقول له: تفقه، واحضر في دروس العلم، ومجالس العلم، وتعلم، ويُفرَّق بين الصغير الناشئ الصبي، وبين غيره، مما يحتاج إلى أن يتفقه، وأن يعرف الأحكام التي تتعلق به، لكن بالنسبة إلى حفظ المتون نقول بكل اطمئنان: إن الأَولى، والأجدر بالإنسان أن يتم حفظ القرآن أولاً، ثم بعد ذلك يشتغل بالمتون، ولهذا أخرنا هذه البرامج في حفظ المتون قصداً من أجل أن تُخرِّج الحلقات الجادة التي بدأت - ولله الحمد - تؤتي ثمارها بشكل واضح، أن تخرِج دفعات من طلاب العلم، بعد ذلك يمكن أن يُبسط لهم برنامج علمي في

الحفظ، لكن منذ البداية أكثر طلاب العلم لا يحفظ القرآن، ثم نأتي ببرنامج لحفظ المتون؟ هذا في نظري غير جيد.

خامساً: يحسن لطالب العلم أن يحفظ في كل فن متناً إن تيسر.

لكن يحذر أن يكون هذا الحفظ، والاشتغال صارفاً عن مراجعته للقرآن، لابد من برنامج من شريف أوقاتك للقرآن، تردد كلامًا للبشر في متون في أصول الفقه، أو النحو، أو نحو ذلك، وتنسى القرآن، فهذا الكلام غير صحيح.

سادساً: بعد حفظك للقرآن تبدأ بالأهم.

والعلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لم يتفقوا على شيء في ذلك، النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن أهم العلوم الفقه، والنحو، ثم الحديث، والأصول، ثم الباقي على ما تيسر.

ويرى ابن جماعة أن الأولى الاشتغال في العلوم المتعلقة بالقرآن من التفسير، وسائر علومه، كذلك في الحديث، وعلومه.

ويرى الشيخ أحمد الشاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الترتيب بالنسبة للعلوم، وحديثه: أن يبدأ أولاً بالصحيحين، ثم السنن، كالسنن الأربع، وصحيح

ابن خزيمة، وابن حبان، والسنن الكبرى للبيهقي، ثم الكتب الجامعة المؤلفة في الأحكام كموطأ مالك، وكتب ابن جُريج، وابن أبي عَروبة، وسعيد بن منصور، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ثم كتب العلل، ثم يشتغل بكتب رجال الحديث، وتراجمهم، وأحوالهم، ثم يقرأ في كتب التاريخ، وغيرها.

والعلماء تتفاوت أنظارهم، وهذا أمر لا غرابة فيه، والإنسان عادة إذا تخصص في فن فإن ذلك الفن يستحوذ على جهده، وتفكيره، ولربما يرى أنه أولى من غيره، وأجدى، وأنفع.

سابعاً: لا ينبغي أن نكتفي بالحفظ، بل نستشرح ما حفظناه.

ولذلك يحسن أن يعقبه مباشرة شرح لهذه المتون، ونحن في هذه البرامج عندنا ما يوازيها، وهي الدورات العلمية المنهجية التي تُشرح فيها الكتب، والعلوم، ويُعطَى للإخوان الذين يحفظون يختار لهم، ويُعطَى لهم من أسهل الشروح المسموعة، بلا تطويل، ولا استطراد، ولا إغراق في الخلاف، يُعطَى لهم من أسهل الشروح المقروءة، نقول لهم: اقرءوا، وستختبرون فيها، لا يكون الحفظ من غير فهم .

لابد من دوام المذاكرة، والمراجعة ليثبت حفظه، وإلا نسيه.

هذا الكأس إذا ملأته بالماء، ووضعته في الشمس، ستأتي وقد نضب ما فيه من الماء، فالأذهان هكذا، يذهب، ويزول، ويتلاشى ما حفظه الإنسان، فيحتاج إلى مراجعة.

قال الزهري: "آفة العلم النسيان، وقلة المذاكر.

وقيل للأصمعي: كيف حفظت، ونسوا؟ قال: درست، وتركوا.

ولذلك كان العلماء يوصون بالمذاكرة، والمراجعة، والمرافقة في الدرس.

وقد جاء عن الخليل بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "كن على مدارسة ما في صدرك، أحرص منك على مدارسة ما في كتبك".

وكان الزهري يرجع إلى منزله، وقد سمع حديثاً كثيراً، فيعيده على جارية له من أوله إلى آخره كما سمعه، ويقول: لا، إنما أردت أن أحفظه.

وقال عبد الله بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرائض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي.

وكان إسماعيل بن رجاء يجمع صبيان الكُتّاب فيحدثهم لئلا ينسى حديثه.

وجاء عن إبراهيم النخعي: إذا سمعتَ حديثاً فحدث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك.

لكن نحن نحضّر الدرس، أو نقرأ، أو نحفظ، ثم يكون آخر العهد، ولذلك تجد الطلاب يدرسون في الكليات الشرعية، وكثير منهم يتخرجون موظفين، ليسوا بعلماء، والسبب أنه يحضر الدرس من غير أي تحضير، ولا يعرف ماذا سيقال، ثم لا يراجع، وإذا جاء وقت الاختبار قرأ في المذكرات، ثم كان آخر العهد، كيف يتخرج عالماً؟.

وكان عطاء الخرساني إذا لم يجد أحداً أتى المساكين، فحدثهم يريد بذلك الحفظ.

الحفظ الحقيقي هو الإتقان كما جاء عن الإمام أحمد، وعبد الرحمن بن مهدي.

وقد جعل ابن المنادي في كتابه متشابه القرآن الحفاظ على مرتبتين:

الأولى: الماهر، وجعل علامته الإتقان، وسرعة الرجوع عن الخطأ، أو أنه يتفطن لخطئه مباشرة، فيرجع، إذا تجاوز رجع.

الثانية: المتماهر، وهو من يقع في الخطأ، ولا يشعر به، أو يتشكك به، فيقرؤه ثانية بغير صواب، يقول: وما عدا هؤلاء فمتحفظون، وليسوا بحفاظ.

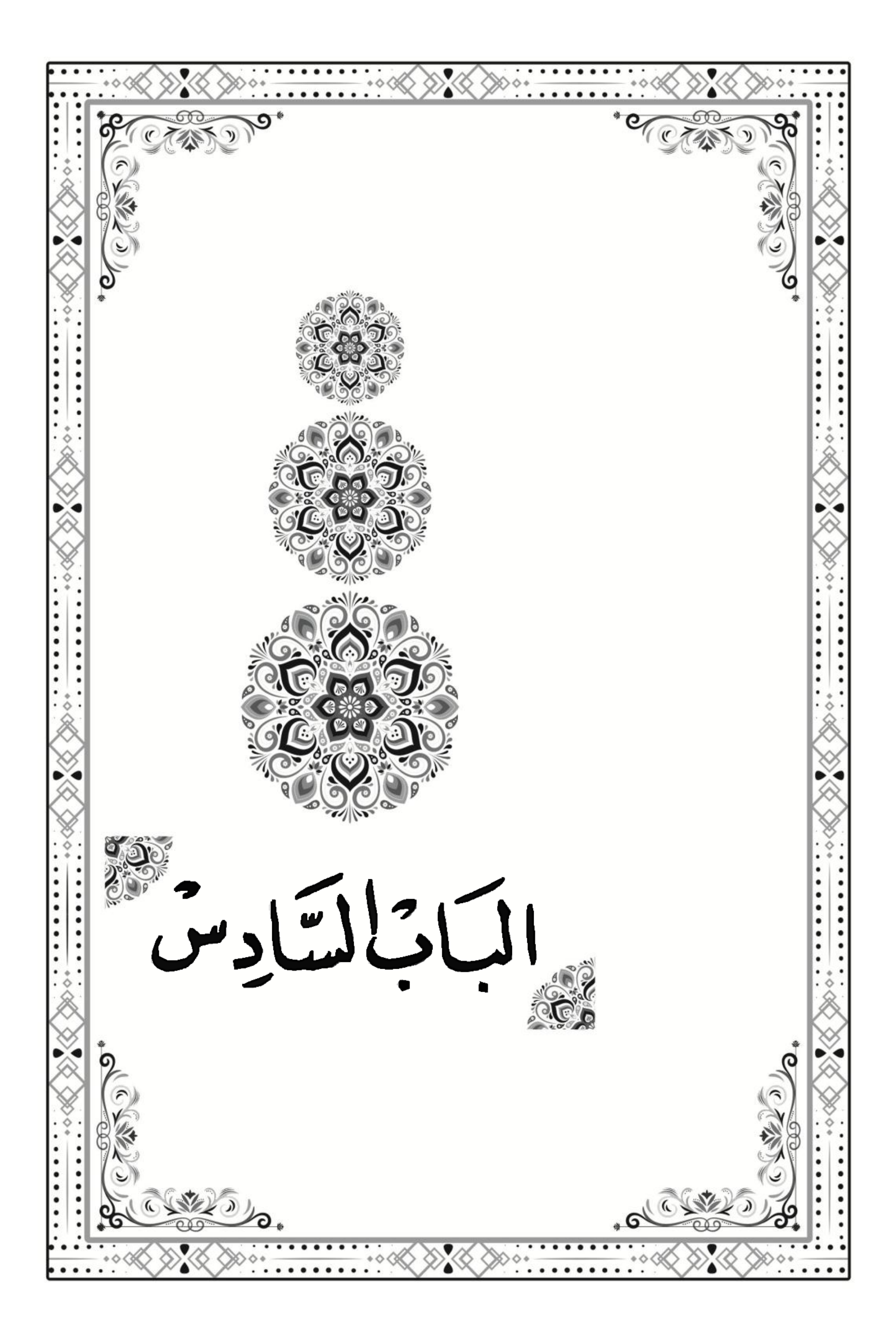
حذاري أن يكون ما حفظته سبباً لشيء من الأدواء المردية.

كالعجب، والغرور، والتعاظم في النفس، فيرى أنه قد حفظ أشياء، ولربما بعضهم يتكلم عن بعض أهل العلم.

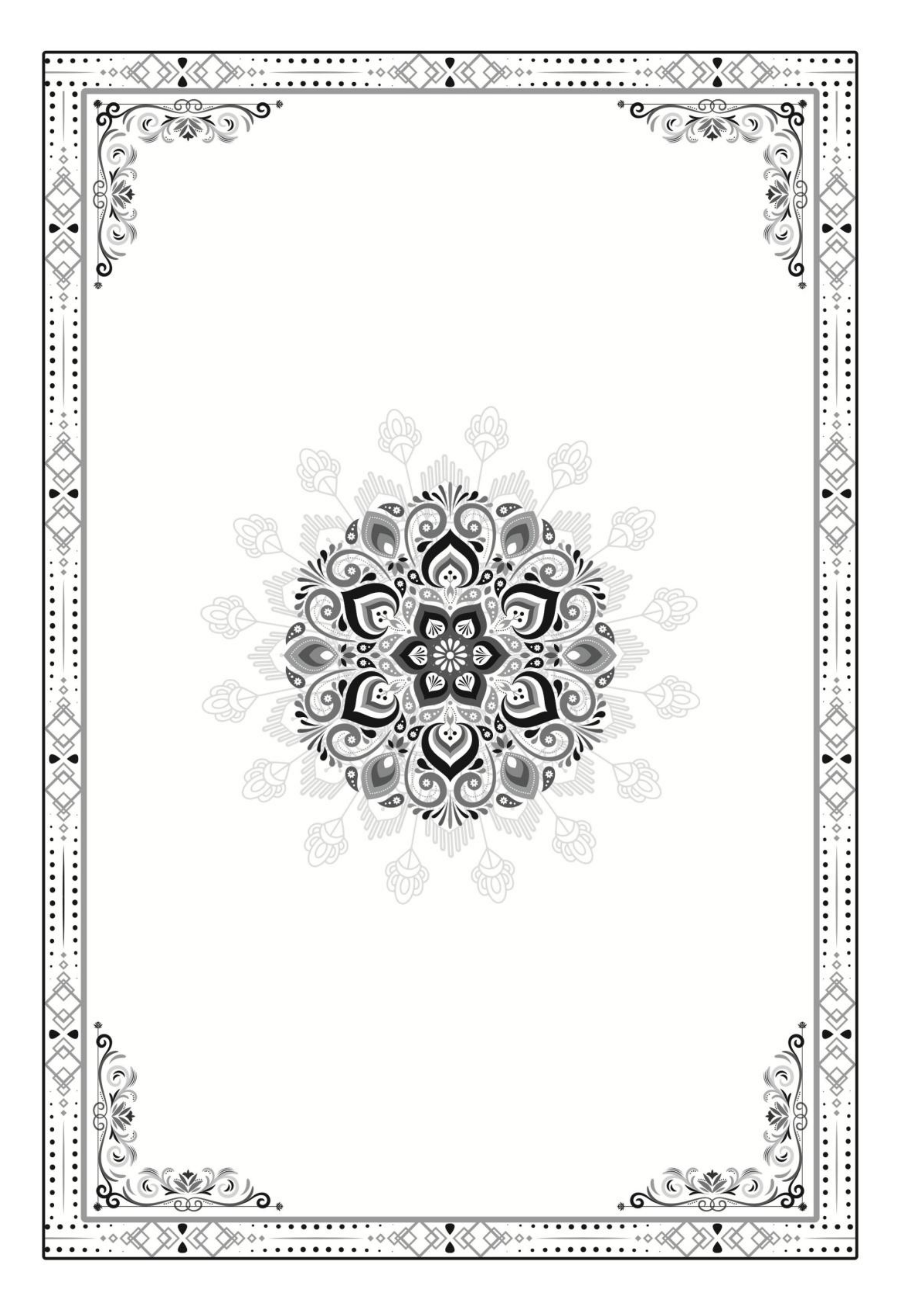
وكم من إنسان حفظ كثيراً، ولكنه لم يكن بعد ذلك شيئاً يذكر، فليست العبرة بأن يحفظ الإنسان، وإنما العبرة بتوفيق الله - تبارك وتعالى - ، الذي فوق كل شيء، فالعبد يسأل ربه أن يسدده، وأن يهديه،

وأن يصلح قلبه، وعمله، ونيته، ولا يلتفت إلى نفسه، ولا يتعاظم، ومن حصل له ذلك فلينظر في تراجم الأئمة الحفاظ، كيف كانوا يحفظون، الواحد منهم آية في الحفظ؛ لئلا يغتر.

وهذا آخِرُ ما قصَدتُ جَمْعَه وبيانَه في التنبيهِ على مَقامِ الحِفظِ لِلعِلْمِ ومُتونِه، والحَثِّ على الاعتناءِ بذلك، نصيحةً لِنَفْسي، ولِطلبةِ العِلْمِ مِن أبناءِ جِنْسي، وتَذكِرةً لِلمُؤتَسي، ونَسألُ اللهَ التوفيقَ والإعانةَ وحُسْنَ العاقبةِ.



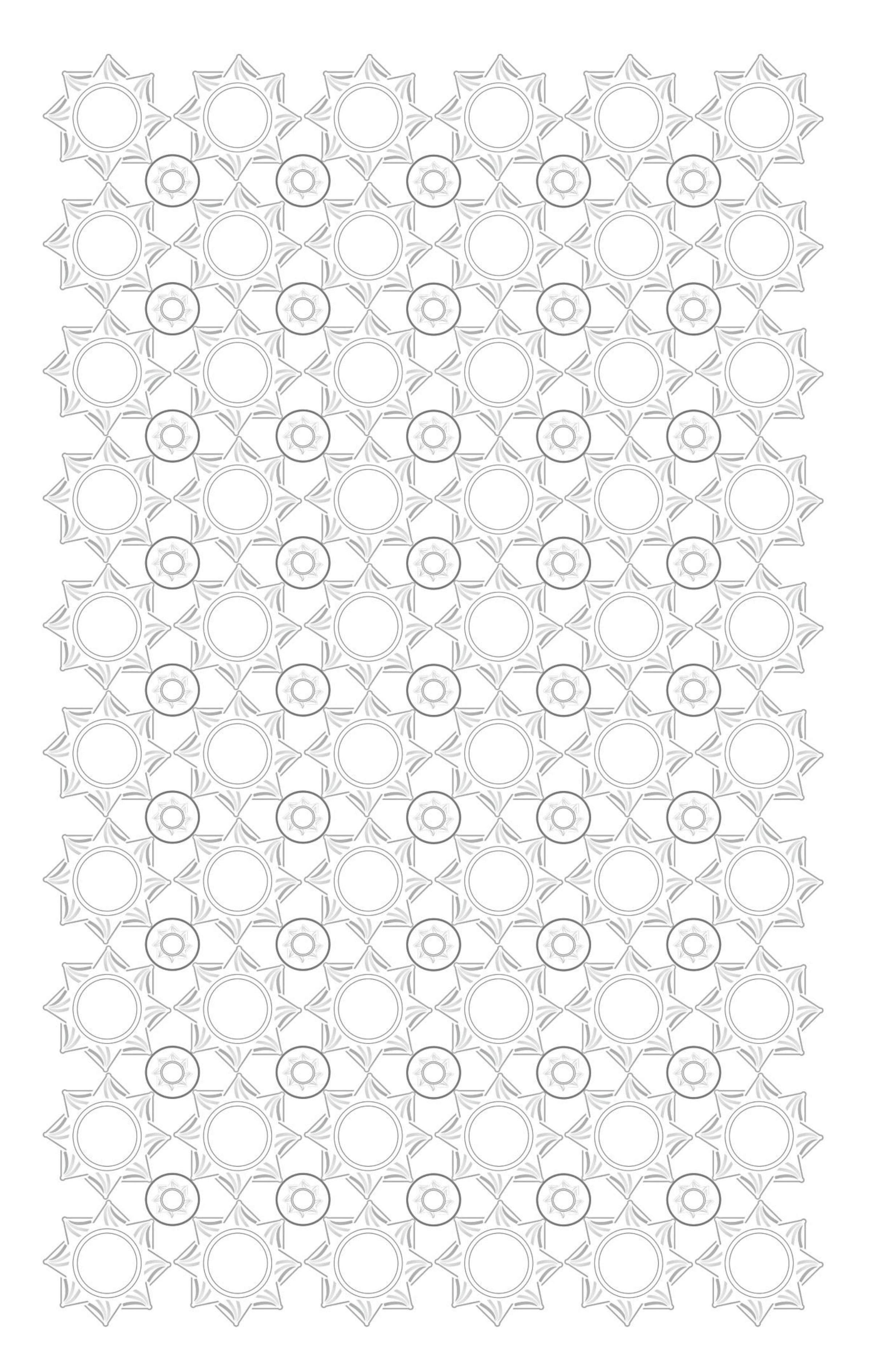
البَابُ السَّادِسُ



البَابُ السَّادِسْ

مُخْتَصَرُ الكَلَامِ

أَيْسَرُ الوَسَائِلِ لِحِفْظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَتَدَبُّرِهِ



توطئة:

بيّن اللَّه سبحانه وتعالى أنَّ أهل الحفظ هم أهل العلم، وفي هذا حثٌّ على الحفظ، وفي الحديث : " إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب " [(٨)]، واتفق العلماء على وجوب حفظ ما تقوم به الصَّلاة، واتفقوا على أنَّه يجب أن يكون في الأمة من يحفظ القرآن، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وأمَّا طلب حفظ القرآن فهو مقدم على كثير ممَّا تسميه الناس علماً، وهو إمَّا باطلٌ أو قليلُ النَّفع، وهو أيضاً مقدَّمٌ في حقِّ من يريد أن يتعلم عِلمَ الدِّين من الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقِّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنّه أصل علوم الدِّين" [(٩)].

---

(٨) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٩٤٧)، والترمذي في السنن (٢٩١٣)، والدارمي في السنن، (٥٢١/٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢٠٣٧)، والطبراني في المعجم (١٢٦١٩)، وصحّحه الترمذي والحاكم، وحسَّنه حسين أسد في تحقيق الدارمي، وضعفه الألباني في تحقيق الترمذي، والأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٩) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٥٤/٢٣).

وطرق بيان العلم وإيضاحه للنَّاس متنوعة، لا تنحصر في طريق واحد، ومن جملة ذلك : السؤالات، الَّتي يُراد منها الاستفهام عن شيء ما، وهو أصلٌ واردٌ في القرآن والسُّنَّة، فكم من آية تُستَفْتَحُ بِـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، كقول الله تعالى :﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ (البقرة:١٨٩)، وكذلك كان من هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في التعليم إلقاء السُّؤال، وبوَّب على ذلك البخاريّ [١٠]وغيره، ورويت فيها أحاديث صحاح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ .

والأسئلة - كيفما دارت - ترجع إلى نوعين:

- أحدهما : سؤالات المعلِّم التي يُلقيها على المتعلمين.
- والآخر : سؤالات المتعلمين التي يرفعونها إلى معلِّميهم.

---

(١٠) بَوَّبَ البُخَاريّ : (باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم).

وجماع مقصود السؤالات يرجع إلى أصلين جامعين:

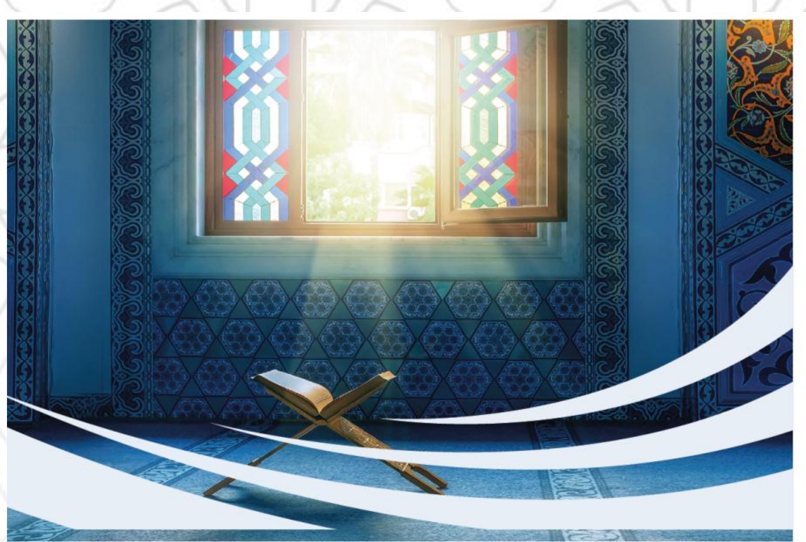
- أحدهما : إيصال العلوم.
- والآخر : تنشيط الفهوم.

فتارة يكون السؤال والجواب أوفق في إيصال العلم لأحد.

وتارة تحرك النفوس والأفهام إلى إدراك شيء من العلم بإلقاء السؤال والجواب فيه.

وهذا المبحث متخصص، مسلوك في سؤالات مخصصة، يجيب على كثير من الأسئلة التي توجَّه لي حول الأسلوب الأمثل لحفظ القرآن، وإتقانه، والموانع التي تحول دون تحقيق هذه الغاية العظيمة، بعد أن بسطنا القول حول تدبر القرآن وثماره، كما أن فيه بيان للطريقة التي تيسِّر حفظ القرآن وإتقانه؛ نظراً لقوة العلاقة بين التدبر والحفظ، وأثر كل منهما على الآخر، فأرجو أن يكون هذا الجواب موقداً للأذهان، وموقظاً للوسنان، ومنبهاً لما ينبغي أن يشتغل به كل حريص منا.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الصدق والإخلاص، وحسن القول والعمل، وأن يبارك في هذا المشروع المبارك الذي هو مشروع الأمة جمعاء، وأن يجزي خير الجزاء كل من ساهم في هذا المشروع بأيِّ جهد حسي أو معنوي؛ فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهل صلح أولها إلا بالكتاب والسنة تدبراً وعملاً، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.




أَيْسَرُ ٱلْوَسَائِلِ لِحِفْظِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ وَتَدَبُّرِهِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَمَنَحَهُ جَزِيلَ الْإِحْسَانِ، وَشَرَّفَهُ بِنُطْقِ اللِّسَانِ، وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ، وَسَهَّلَ عَلَيهِ حِفْظَ الْقُرآنِ، نَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ وَرَثَةِ هَذَا الْكِتَابِ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِجَمْعِ وُجُوهِ قِرَاءَاتِهِ وَتَحْرِيرِ طُرُقِهِ وَرِوَايَاتِهِ، وَشَرَحَ صُدُورَنَا بِتِلَاوَتِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَآنٍ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَفِظُوا الْقُرآنِ، وَنَقَلُوهُ إِلَيْنَا مُتَوَاتِرًا فَصَانُوهُ عَنِ التَّحْرِيفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَأَقَامُوا إِعْرَابَهُ كُلَّهُ مِنْ رَفْعِهِ وَنَصْبِهِ وَجَرِّهِ وَجَزْمِهِ، وَاجْتَهَدُوا فِي تَحْقِيقِهِ وَتَرْتِيلِهِ وَحَدْرِهِ، وَبَيَّنُوا الْفَرْقَ بَيْنَ فَتْحِهِ وَإِمَالَتِهِ، وَمَدِّهِ وَقَصْرِهِ وَأَجَادُوا فِي بَيَانِ إِظْهَارِهِ وَإِدْغَامِهِ وَتَحْقِيقِهِ وَتَسْهِيلِهِ، وَنَقَلُوا مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ قَطْعِهِ وَوَصْلِهِ، وَنَقَلُوهُ إِلَيْنَا رَطْبًا غَضًّا وَأَدَّوْهُ لَنَا صَرِيحًا مَحْضًا، وَبَيَّنُوهُ فِي الآفَاقِ طُولاً وَعَرْضًا، فَأَحْرِزْ بِهِمُ وَبِفِعْلِهِمُ الْجَمِيلَ حِرْزَ الأَمَانِي، وَقَابِلْهُمُ بِوَجْهِ الْفَرَحِ وَالتَّهَانِي، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد:

فإنَّ طلب تعلُّم تلاوة القرآن الكريم، وكيفيَّة حفظه، ومراجعته، وملازمته والمداومة عليه؛ من الأعمال الجليلة، والعبادات العظيمة، والأماني الغالية عند المسلمين.

وإنَّ أكثر المسلمين يتمنى حفظ القرآن الكريم، لكن بعضهم مجرد أماني؛ فلا يسعى لذلك جاداًّ، ويأخذ بالأسباب المؤدية إليه، والأماني رؤوس أموال المفاليس، وآخرون جادُّون في رغبتهم بحفظ القرآن الكريم، ساعون لذلك، وهم على قسمين:

١- قسم سلك الطرق الصحيحة للحفظ فوُفِّق له، وأصبح من حفاظ كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

٢- قسم آخر يسعى لذلك، ولكن سرعان ما يتوقف عن تحقيق غايته، ومن أسباب ذلك أنه لم يسلك الطرق الصَّحيحة للحفظ، فيصبح كالمنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى؛ ولذا سأذكر أهم الوسائل العملية التي تيسر الحفظ لمبتغيه، وهي وسائل أفدتها من تجارب متنوعة لكثير من الحفاظ، ثم عرضتها على بعض المتخصصين فأفادوني بما يرونه، ولا شكَّ أنَّ الفروق الفرديَّة لها أثرها في سرعة الحفظ وإتقانه.

ومن أهم تلك الوسائل :

أولاً: تعاهد النّيّة ومجاهدة النّفس في تصحيحها.

ثانياً: الاجتهاد في سلوك سبيل الطَّاعة، وتجنُّب كل طريق يؤدي إلى المعصية.

ثالثاً: الدَّافع الذَّاتي والعزيمة الصَّادقة.

رابعاً: اغتنام الشَّباب وسنوات الصّغر.

خامساً: اغتنام أوقات النَّشاط والفراغ.

سادساً: اختيار المكان المناسب عند الحفظ.

سابعاً: الواقعيّة في مقدار الحفظ اليومي.

ثامناً: مشاركة الحواسّ عند الحفظ.

تاسعاً: تحديد طبعة واحدة للمصحف.

عاشراً: ضبط النّطق.

حادي عشر: الحفظ المترابط.

ثاني عشر: فهم المعاني.

ثالث عشر: الحفظ المتقن.

رابع عشر: التَّدقيق في الآيات المتشابهة.

خامس عشر: الحفظ الجماعي أداة للمداومة.

سادس عشر: تعاهد القرآن.

سابع عشر: الحفاظ على هذه الرتبة العالية الشريفة واستحضار عاقبة التفريط.

وبعد هذ التطواف الذي رمنا من خلاله تجلية أهمية الحفظ لدى طالب العلم، وجب السؤال:

- من منكم حلم حياته حفظ القرآن كاملاً؟

- من منكم حقاً حفظ القرآن كاملاً في حياته؟

- لماذا لا نحفظ كتاب الله؟

وإليك إجابات الغالبية :

حفظ القرآن الكريم .. حلم حياتي .. أمنية عظيمة .. هدف أسمى .. ويبررون ذلك بقولهم .. إن في حفظ القرآن الكريم .. الثواب والأجر العظيم .. الرفعة في الدنيا والآخرة .. الشفاعة يوم القيامة .. الأنس في القبر ..حلة الكرامة وتاج الكرامة .. الارتقاء في درجات الجنان .. شفاء لما في الصدور..

ثم إذا سئلوا من منكم يحفظ كتاب الله كاملاً ؟ فلا يجيب أحد !!

ثم إذا سئلوا.. لماذا لا نحفظ كتاب الله ؟ فيتعذرون بالكثير من الأعذار! فالبعض يتعذر بكثرة المشاغل وانعدام الوقت .. العمل .. الدراسة.. الأولاد .. والبعض الآخر يلوم والديه لأنهم لم يلحقوه

بدروس حفظ القرآن .. والبعض الآخر يلوم السن .. وآخرين يلومون النظام المدرسي.. والبعض الآخر يلوم الذاكرة وضعف التركيز .. وتطول قائمة الأعذار .. وجميع تلك الأعذار .. واهية .. لأنها لا تمثل السبب الحقيقي لعدم الحفظ ..

السبب الحقيقي لعدم حفظ كتاب رب الأرباب .. كلمة واحدة .. إبليس

إبليس تشكل لنا وتمثل لنا في هيئة الأعذار التي ذكرناها سابقا"

- لماذا لا نحفظ كتاب الله ؟ إن النجاح في حفظ كتاب رب العالمين .. ٩٠% منه أسباب نفسية .. ١٠% فقط مهارات وتقنيات.

السر الاول : شغف ورغبة مشتعلة لحفظ كتاب الله:-

القرآن الكريم حياتي، حفظ القرآن أولوية في حياتنا، حفظ القرآن حلم حياتنا، حفظ القران مشروع تخرج .. مشروع تخرج من الدنيا بامتياز ، لا يهدأ لي بال إن لم أنجز حفظي اليومي والموعد الجنة إن شاء الله.

وإليك أربع منازل تذكّرها عند حفظ القرآن ، وكل ما شعرت بالتقاعس ذكر نفسك بها:

١- خيرية تعلم كتاب الله :- فمن تأمل هذا علم أن خير الناس من عاش مع القرآن متعلما ومعلما كما روى عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال : **(خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ)** رواه البخاري في صحيحه. قال أبو عبد الرحمن السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا، فكان يعلم القرآن من زمن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى زمن الحجاج.

٢- أهل القرآن هم أهل الله وخاصته: ففي الحديث الذي رواه أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :(قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إن لله

أهلين من الناس ، قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: هم أهل القران ، أهل الله وخاصته) .. رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح.

الله اكبر .. يا لهذا اللقب .. أهم أهل الله وخاصته .. يا لها من منزلة وأي منزلة .. هم خاصة الخاصة .. هم أهل الله .. وهل يعذب الله أهله .. لا والله..

وفي هذا الحديثِ يُخْبِرُ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: "إنَّ للهِ أَهْلِينِ مِن النَّاسِ"، أي: أهلًا مِن النَّاسِ هم أولياؤُه وأحبابُه؛ ف"أهلين" هم الأهلُ، جُمِعَ بالواو والنون على غَيرِ قياسٍ، وجمعَه هنا إشارةً إلى كثرتِهم، فقال الصَّحابةُ رضِيَ اللهُ عنهم: "يا رسولَ اللهِ، مَن هم؟" فقال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "هم أهْلُ القُرآنِ"، أي: حَفَظَةُ القُرآنِ العامِلونَ به، الذين يتْلونَه آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، وإنَّما يكونُ هذا في قارِئِ القُرآنِ الَّذي انتفَى عنه جَورُ القلْبِ، وذهَبَتْ عنه جِنايةُ نفْسِه، وتطهَّرَ مِن الذُّنوبِ ظاهرًا وباطنًا، وتزيَّنَ بالطَّاعةِ؛ فلا يكفي مُجرَّدُ التِّلاوةِ؛ ليكونَ مِن أهْلِ القُرآنِ، حتَّى يعمَلَ بأحكامِه، ويقِفَ عندَ حُدودِه، ويتخلَّقَ بأخلاقِه، كما قال

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٢١﴾ [البقرة:١٢١]، "أهْلُ اللهِ وخاصَّتُه"، أي: وهم أولياءُ اللهِ الَّذين اختَصَّهم بمحبَّتِه، والعنايةِ بهم؛ سُمُّوا بذلك تعظيمًا لهم، كما يُقال: بيتُ اللهِ، وذلك أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخُصُّ بعضَ عِبادِه، فيُلْهِمُهم العمَلَ بأفضْلِ الأعمالِ، حتَّى يرفَعَ درجاتِهم فوقَ كثيرٍ مِن النَّاسِ؛ ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [البقرة: ١٠٥].

وفي الحديثِ: بيانُ فَضيلةِ حِفْظِ القُرآنِ، والقيامِ بما فيه مِن أحكامٍ وأوامِرَ ونَواهٍ. وفيه: ترغيبٌ كبيرٌ في أنْ يكونَ الإنسانُ مِن أهلِ القرآنِ، وفي هذا إشارةٌ إلى ذَمِّ مَن هجَرَ القُرآنَ ونَسِيَه؛ فهجرُ القُرآنِ عاقبتُه وخيمةٌ في الدنيا والآخرةِ، وهجْرُه يَشملُ هجْرَ التلاوة والحفظِ، وهجْرَ التدبُّرِ والعَملِ، والتَّحكيمِ إليه، والاستِشفاءِ به، فالقرآن هو الروح، والبدن بلا روح فهو جثَّة يجب أن يبادر إلى مواراتها في التراب.

٣- يشفع القرآن لأهله وحملته يوم القيامة: ففي الحديث - عن ذكوان السمان أبو صالح قال : سمعتُ أبا هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول : اقرءوا القرآنَ، فإنَّه نِعْمَ الشفيعُ يومَ القيامةِ، إنَّه يقول يومَ القيامةِ : يا ربِّ حَلِّه

حِلْيَةَ الكرامةِ . فيُحلَّى حِليةَ الكرامةِ، يا ربِّ اكْسُه كسوةَ الكرامةِ . فيُكسى كسوةَ الكرامةِ، يا ربِّ ألبِسْه تاجَ الكرامةِ يا ربِّ ارْضَ عنه فليس بعد رضاكَ شيءٌ. رواه الحاكم والدارمي بسند صحيح.

عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّه يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ ....رواه مسلم .

هذا الحديث دليل على فضل تلاوة القرآن ، وعظيم ثوابه وأنه شفيع لأصحابه يوم القيامة في دخول الجنة .. وعن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا رواه مسلم.

هذا اليوم العصيب ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ الكل يقول

نفسي نفسي، أما صاحب القران فعنده خير شفيع .. وخير صاحب .. القران الكريم ..

- لماذا أحفظ القرآن الكريم؟

أحفظ القرآن لأنه

● أعظم القربات الى الله:

ففي الحديث الذي رواه أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :" قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إن لله أهلين من الناس ، قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: هم أهل القران ، أهل الله وخاصته "

●رفعة في درجات الجنة:

حيث يقالُ لصاحبِ القرآنِ : اقرأْ وارقَ ورتِّلْ كما كنتَ ترتلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتَك عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها. رواه أحمد وأبو داوود والنسائي بسند صحيح.

●يوم القيامة يشفع القرآن لأهله وحملته:

ففي الحديث عن ذكوان السمان أبو صالح قال : سمعتُ أبا هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول : اقرءوا القرآنَ ، فإنَّهُ نِعْمَ الشفيعُ يومَ القيامةِ ، إنَّهُ يقول يومَ القيامةِ : يا ربِّ حَلِّهِ حِلْيَةَ الكرامةِ . فيُحلَّى حِليةَ الكرامةِ ، يا ربِّ اكْسُه كسوةَ الكرامةِ . فيُكسى كسوةَ الكرامةِ، يا ربِّ ألبِسْه تاجَ الكرامةِ يا ربِّ ارْضَ عنه فليس بعد رضاكَ شيءٌ ..

●حافظ القرآن مع السفرة الكرام البررة:

فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ قال : مَثَلُ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ، وهو حافِظٌ له مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَةِ، ومَثَلُ الذي يَقْرَأُ، وهو يَتَعاهَدُهُ، وهو عليه شَدِيدٌ فَلَهُ أجْرانِ. رواه البخاري

فَنَجِدُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ أخبَرَ بفضْلِ تلاوةِ القرآنِ وحفظِه والاشتغالِ به في أحاديثَ كثيرةٍ.

وفي هذا الحديثِ تَروي عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عَنِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ أنَّه قال: مَثلُ الَّذي يقرأُ القرآنَ، وهو حافظٌ له مع السَّفرَةِ الكرامِ البَررةِ،

فالحافظُ لِلقرآنِ منزلَتُه مع السَّفَرةِ الكرامِ البررةِ، وهمُ الرُّسلُ، وقيل: الملائكةُ، أمَّا مَن كان يقرؤه فيتعاهدُه وهو عليه شديدٌ؛ لضعْفِ حفْظِه، فإنَّ له أجرينِ أجرًا لِقراءتِه وأجرًا لِعنائه وما يُلاقيه مِن شِدَّةٍ في حفْظِه، وليسَ المرادُ أنَّ أجْرَه أكثرُ مِن أجْرِ الماهر، بلِ الأوَّلُ أكثرُ، ولذا كان مع السَّفَرةِ فالحافظُ لا يصيرُ كذلك إلَّا بعد عناءٍ كثيرٍ ومشقَّةٍ شديدةٍ غالبًا.

●حفظ القرآن الكريم رفعة في الدنيا والآخرة:

ففي الحديث" أنَّ نَافعَ بنَ عبدِ الحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعُسْفَانَ، وَكانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَعْمِلُهُ على مَكَّةَ، فَقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أَهْلِ الوَادِي، فَقالَ ابْنَ أَبْزَى، قالَ: وَمَنِ ابنُ أَبْزَى؟ قالَ: مَوْلًى مِن مَوَالِينَا، قالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلًى؟ قالَ: إنَّه قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإنَّه عَالِمٌ بالفَرَائضِ، قالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَما إنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قدْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ "صحيح مسلم.

●حافظ القرآن يقدم في قبره :

- فإنه بعد معركة أحد وعند دفن الشهداء كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يجمع الرجلين في قبر واحد ويقدم أكثرهم حفظاً، كما في صحيح البخاري .

●حافظ القرآن أولى أن يغبط:

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال : لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ له، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا فَهو يُهْلِكُهُ في الحَقِّ، فقالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ.

●حفظ القران تأس بالسلف الصالح.

●حفظ القران ميسر للناس كلهم.

●حافظ القرآن هو أولى الناس بالإمامة والإمارة.

●حافظ القرآن أكثر الناس تلاوة له.

●حامل القرآن يستحق التكريم.

- حفظ القران شفاء للصدور.

السر الثاني : الإخلاص - التوكل - الدعاء

قبل الشروع في الحفظ .. يجب أن نتوقف لمراجعة نياتنا .. لماذا أحفظ القرآن الكريم ؟

هل أحفظ ابتغاء وجه الله .. ابتغاء الأجر والثواب .. رغبة في الدرجات العلى .. طمعاً في أن أكون من سكان الفردوس الأعلى

أم لأرائي به الناس ..... ليقال عني حافظ .... أبتغي به الشهرة ....

يقول رب العالمين في الحديث القدسي : قالَ اللَّهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: " أنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ".

يا الله .. ضاع الأجر .. ضاعت الدرجات .. ضاعت الشفاعة .. ولم يبق للإنسان إلا التعب

السر الثالث: لا للأعذار .. الحفظ مسئوليتك أنت وحدك

توقف عن سرد الأعذار ، واشرع بالحفظ، في اللحظة التي تأتي بها بعذر لعدم الحفظ.. لعدم حفظ الصحفة في اليوم .. للتوقف عن المراجعة باستمرار ..في تلك اللحظة .. ابليس قد فاز في معركته معنا .. ولن ينفعنا ابليس يوم القيامة .. قال الله تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾

ومن الأعذار الاعتقاد الذاتي لدى أحدهم بضعف الذاكرة ، وتقدم العمر ...الخ - لا نتعلل بالذاكرة الضعيفة .. العمر .. الوقت.. إبليس يتشكل بهيئة أعذار، نشتكي ونشتكي .. ونتساءل عن الحلول لمشاكلنا .. مشاكلنا المالية .. مشاكلنا الاقتصادية .. مشاكلنا السياسية .. مشاكلنا الاجتماعية .. ونستشير الكثير الكثير طلباً للحلول .. نستشير الأهل والأصدقاء ..الأصحاب والأطباء .. لماذا لا نستشير القران ؟ لماذا نغفل عن القران ؟

ووجب هنا التنبيه إلى فائدة هامة ألا وهي : أن المخ يفهم التحديد.

المخ عنده ترليون خلية، كل خلية أقوى من جهاز كمبيوتر، فالإنسان يموت وهو لم يستخدم حتى أحسن قدراته العقلية ، والله سبحانه سيسألنا يوم القيامة.

ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلَّا أنْفَقْتُ

فيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هو جَوادٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ. رواه مسلم

لكن أين ذهبت هذه القدرات؟

في غيبة ونميمة وكلام لا ناقة له ولا زمام ولا طائل من ورائه والعمل و...الخ

- الإنسان العادي يقدر أن يحفظ الصفحة في أقل جزء من الثانية، لكنه يقول لا أستطيع فلا يحفظ.

السر الرابع: دمج الحواس الخمس

فكلما كثرت الحواس في عملية التعلم .. كلما تذكرنا بطريقة أفضل، كل منا يملك خمس ٥ حواس إلا أن كلاً منا يفضل حاسة على الأخرى في عملية التعلم والمذاكرة

١- فمثلاً الشخص الذي يفضل التعلم بالصور والأشكال والألوان .. يعتمد على حاسة البصر بشكل رئيسي في التعلم ..

٢- والشخص الذي يحب سماع الأصوات المختلفة بطبقات مختلفة ونغمات مختلفة .. يعتمد اعتماداً رئيسياً على حاسة السمع في عملية التعلم.

٣- وهناك من يعتمد على الأحاسيس والمشاعر وتجربة الأمور .. فهو يعتمد اعتماداً كبيراً على حاسة اللمس والتذوق والشم ... وجمعناها في ما يعرف بحاسة الإحساس .

فلكل منا حاسة معينة رئيسية إلا أن قوة التعلم والحفظ المذاكرة تتضاعف عند دمجنا لتلك الحواس معاً في عملية التعلم، ولكن كيف ؟

أولا: اختيار المصحف :

كيف أختار المصحف؟!!

- عند اختيارك للمصحف تأكد من أن خلفية المصحف صفراء اللون أو خضراء، لماذا؟ لأن هذه الخلفية تجعل الحفظ أسرع ، فأسوأ شيء للمخ الكتابة السوداء على الصفحة البيضاء ؛ لأن المخ يحب الألوان.

هناك خمس مصاحف أوصي بها:

١- لفظ الجلالة يكون فيه باللون الأحمر (الله-هو- ربكم..)

٢- المصحف المجود الذي به ٦ ألوان ، غنة قلقلة ادغام..

٣- الموضوعي المفسر.. يكون لون خلفية الآيات على حسب المعنى.

٤- المصحف الذي تكون أول كلمة في الآية باللون الأحمر، لأننا عندما نحفظ ننسى الآية التي تليها.. فاللون الأحمر يلتقطه المخ.

٥- المصحف المعطر.. كلما تفتحه تشم رائحة عطر

اشتر خمس مصاحف من نفس الشكل؛ لأنه مع الوقت ستتغير طريقة خط المصحف ويصعب عليك المراجعة، كذلك حتى يكون المصحف معك دائما .. واحد في الجيب.. واحد في العمل.. في البيت.. السيارة ..بيت الأهل، اجعل المصحف في متناول يدك دائما.

بعد اختيار نصف صفحة : يرجى ملاحظة ما يلي:

النفس العميق بين كل قراءة للآية والقراءة الأخرى :

من أهم الأمور التي تعين على الحفظ بزمن قياسي، إن ذلك النفس كما أوضحنا سابقا يقطع حبل الأفكار السلبية .. يخلص النفس البشرية من التوتر والقلق في ذلك الحين ، يساعد على الدخول في مرحلة الألفا .. مرحلة التعلم المثالية .. يهيئ العقل لاستقبال آيات الذكر الحكيم ..يصفي الذهن من التشتت ..يزيد نسبة تركيز الامن يقوي الذا كرة ...

كل تلك الأمور مهمة جدا إذا أردنا أن نحفظ بزمن قياسي ونسترجع الآيات بطريقة أفضل من الطرق التقليدية

يمسك المصحف ٤٥ درجة أعلى يسار العين اليسرى بحيث يكون الوجه مستقيم ولكن العين تكون ناظرة أعلى اليسار (موقع التذكر البصري) بالنسبة لمن يكتب بيده اليسار فيمسك المصحف ٤٥ درجة يسار العين اليمنى ، هذه الوضعية تتيح للعين تذكر واسترجاع الصفحات بطريقة بصرية أفضل، مثلا تذكر لون حائط المدرسة التي كنت تدرس فيها.. سترى عينك تتوجه لليسار حتى تتذكر.

لا تنسى أن تتنغم بصوتك عند القراءة الأولى للسطر , إن تنغم الصوت له أثر كبير في الحفظ .

استخدامك يدك اليسرى في رفع المصحف ولا تتجه بوجهك نحو اليسار، الوجه يبقى في وضعيه الاستقامة ولكنها العين هي التي تتجه أعلى اليسار.

لا أحبذ مسك المصحف بالطريقة التقليدية .. والتي غالبا ما يكون المصحف أسفل الوجه .. عندها يكون الإنسان معرضا للحديث مع نفسه (نحن نتكلم مع أنفسنا ٥٠٠٠ كلمة في اليوم) والكلام مع النفس يؤدي إلى السرحان وإلى التشتت وانشغال العقل بغير الحفظ مما يبطئ عملية الحفظ بصورة كبيرة ...نأخذ السطر الأول إذا المعنى اكتمل. إذا لم يكتمل أزيد كلمة أو أنقصها حتى يكتمل المعنى. أقرأ بصوت شجي أسمعه، وخذ راحتك، كل ما كان الصوت أعلى كان أفضل ،ويكون الصوت مرة طالع ومرة نازل، الآن خذ نفس عميق ، ثم أغلق المصحف، وانظر جهة الأحاسيس عكس الاتجاه تماما أسفل ولهذا هو موضع النظر في الصلاة مكان السجود ، هذا الموضع يستجلب مشاعر الخشوع والطمأنينة.

خلاص الآن حُفظ السطر.. مرة واحدة تقرأها ومرة تسمعها.. وعندك يقين بأنها حفرت في الذاكرة.

بعد حفظ السطر الأول نشرع بحفظ السطر الثاني كما فعلنا بالسطر الأول.

بعد الانتهاء من حفظ السطر الثاني، يتم تسميع السطر الأول والثاني معا قبل الانتقال إلى السطر الثالث وذلك لربطهما معا ... فالقاعدة في هذا الباب تقول: ربط الآيات بعضها البعض مقدم على حفظ آيات جديدة ، الربط أهم من الحفظ الجديد، وتكون وضعية الرأس إلى أسفل مغمض العينين حاضر القلب .

يشرع بحفظ السطر الثالث على حده، ثم يتم تسميع السطر الأول والثاني والثالث معا، وهكذا مع جميع الأسطر.

تنبيه هام:- عند توقفك عن آية بسبب نسيانها فلا تفتح المصحف إلا بعد إحدى الخطوتين :

١- حاول تذكر صورة المصحف وذلك بأن توجه عينيك نحو أعلى اليسار، (تذكر بصري).

٢- حاول تذكر الصوت وذلك بأن توجه عينيك نحو منتصف اليسار (تذكر سمعي).

إذا لم تجد تلك الخطوات نفعا، يمكنك بعدها أن تفتح المصحف لتذكر الآية .. مهم جدا أن لا تعوّد عقلك على فتح المصحف ... إن كل كلمة في المصحف محفورة في العقل اللاواعي وآلية استرجاعها ليست بالصعبة إذا تعلمنا كيف نخاطب عقولنا بطريقة أفضل ..

كلما تقاعست عن حفظ كتاب رب العالمين، عليك بتخيل مراتب ودرجات حفظة القرآن الكريم .. قل لنفسك لماذا زهدت فيما عند الله؟ هل فعلا أستحق لقب أهل الله وخاصته؟ ألا أريد الشفاعة يوم القيامة؟

- قم وانتفض، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم فإنه يسير على من يسره الله عليه، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾..﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ ﴾.. تقرأ كتاب أو أخبار .. استشعر أحسن الحديث.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (استشعر الشفاء) علاج للتوتر ولأمراض العصر.

أيضا" من أسرار الحفظ: الاسترخاء (التهيئة النفسية) فهو :

☑ سر من أسرار التعلم الحديث .

☑ سر من أسرار الحفظ السريع .

☑ سر من أسرار التفكير الإبداعي.

☑ سر من أسرار اتخاذ القرار الفعال .

لا تحفظ إلا وأنت في حالة من الاسترخاء والهدوء النفسي ... إننا للأسف نقضي معظم أيام تعلمنا ومذاكرتنا ونحن متوترين، ونحن في أقصى حالات القلق في أعلى درجات الضغط النفسي ولهذا السبب فنحن لا نستخدم قدراتنا العقلية حيث تطغى حالة التوتر والمشاعر السلبية على قدرتنا للحفظ والتعلم والمذاكرة الفعالة .

ننتقل الآن إلى موجات المخ: فإن للمخ أربع موجات ، أو إن شئت أن تسميها ذبذبات، وتمثل السرعة واليقظة التي يكون عليها المخ .

حيث يمر المخ بأربعة مراحل من التركيز:

المرحلة الاولى : مرحلة البيتا:

مرحلة تمتاز بالإدراك الواعي فالعقل في أهبة الاستعداد، متحفز تماما للدفاع عن النفس .. لأي خطر.

وبالتالي فان العقل في قمة التوتر والتشتت وكثرة الأفكار حيث تبلغ سرعة ذبذبات المخ من ١٨ إلى ٤٠ شوطا في الثانية .

ونخلص بأنه لا تصلح هذه المرحلة إطلاقا للحفظ أو المذاكرة أو حتى اتخاذ القرارات، هذه المرحلة تتأثر كثيرا بالأفكار السلبية والتحدث مع الذات السلبي، لذلك فإن معظم قراراتنا خاطئة لأننا نتخذها في هذه المرحلة.

وكذلك فإن حفظنا يتسم بالبطء، لأننا للأسف نحفظ ونتعلم في هذه المرحلة عالية التوتر والقلق.

المرحلة الثانية: مرحلة الألفا:

مرحلة تتصف بالاسترخاء والهدوء النفسي ..تتصف بالسكون .. بالخشوع..

بالاطمئنان .. والتأمل الجميل .. إننا نصل إلى هذه المرحلة بطريقة طبيعية عدة مرات في اليوم فمثلا :

عندما تخشع في الصلاة وتستحضر ما تقرأ فالقلب حاضر والنفس مطمئنة.

عندما تشرع في النوم فالإنسان يرخي جميع عضلات جسده وأفكاره .

عندما تستمع إلى موعظة أو خطبة مؤثرة تدمع لها العين .

عند قراءتنا للقرآن بتدبر وتمعن.

إن مرحلة الألفا هي المرحلة التي تمكننا من الحفظ والتذكر السريع ...

إن مبادئ التعلم الحديث تقوم على استخدام قدرات الإنسان في مرحلة الألفا، فالعقل في تلك المرحلة يتصف بصفاء الذهن وحضور القلب واطمئنان النفس .

المرحلة الثالثة : مرحلة الثيتا:

مرحلة رائعة أيضا تتصف بالاسترخاء العميق، يدخلها الإنسان بصوة طبيعية عند نومه وقد تستمر إلى بعض الوقت (بعض الدراسات تقول أول ٤٥ دقيقة) بحيث لا يعي ولا يسمع ما يحدث في العالم.

المرحلة الرابعة: مرحلة الدلتا :

نسميها الموتة الصغرى، فهي مرحلة عميقة من النوم لازلنا نجهل الكثير من أسرارها.

- الآن قبل أن نبدأ الحفظ يجب أن نعود أنفسنا على الاسترخاء الجميل وندخل في مرحلة الالفا، ولكن كيف ؟

- السر في التنفس العميق ، وما هو التنفس العميق ؟

التنفس العميق:

إننا للأسف لا نحسن التنفس بطريقة صحيحة، ومعظمنا يتنفس بسرعة ومن أعلى الصدر ما يسمى بالتنفس السطحي.. تنفس التوتر ، أتريدون أن تعرفوا السر الحقيقي وراء تأثير التنفس العميق على التركيز والذاكرة ؟ - إليكم الآتي :

- في المعدل الطبيعي يفكر الإنسان في اليوم ٦٠ الف فكرة، المشكلة ليست في كثرة الأفكار، ولكن في نوعيه تلك الأفكار، للأسف فإن أكثر من ٨٠% من تلك الأفكار سلبية، أفكارنا للأسف تقودنا للتوتر والقلق والخوف والحزن ندم على الماضي، أو قلق على المستقبل، في تلك الأثناء نخسر وقتنا الحالي تلك الأفكار هي السبب الرئيسي للأمراض النفسية، وكثير من الأمراض العضوية؛ لأن التفكير السلبي وما يتبعه من توتر وقلق يمنعنا من التعلم .

في لحظة التنفس العميق يتوقف فيها التفكير السلبي، و يتم تفريغ العقل من تلك الأفكار ومن ثم يهيئ العقل لاستقبال ما هو آت من غير تشويش أو قلق أو توتر، فالعقل في أتم الاستعداد لاستقبال المعلومات فتمكن من حفظ الصفحة من القرآن في سبع دقائق أو أقل، وإنه لتتميز تمارين الاسترخاء بخاصية مهمة جدا فدائما الزفير أطول من الشهيق، فالزفير يكون ببطء شديد ، ويستحب أن يخرج الهواء من الفم...

وقد تعلمت التمرين الآتي من الدكتور إبراهيم الفقي:

وهو من أسرع التمارين للتحضير للدخول في مرحلة الألفا ، حيث يأخذ الإنسان الشهيق لمدة ثانيتين ، ثم يحبس الهواء لمدة ثانية ، ثم يخرجه بالزفير من الفم لمدة ٤ ثوان .

إن هذا التنفس يشعرك بالاسترخاء، وسريعا يمكنك أن تستخدم مضاعفاته مثلا: ٤٢١٦، فتأخذ الشهيق لمدة ٤ ثوان تحبس الهواء لمدة ثانيتين، وتقوم بالزفير لمدة ١٦ ثانية .. السر في أن يكون الزفير ببطء شديد، وأطول من المدة التي تم أخذ النفس بها عن طريق الشهيق .

إن تكرار هذا التنفس ٧ إلى ١٠مرات يهيئك للدخول في مرحلة الألفا ... فالتمرين يأخذ دقيقة إلى دقيقتين، وصفته على هذا الوجه :

- نفس عميق، زفير بطيء من الفم..
- نفس عميق، زفير بطيء من الفم..
- نفس عميق، زفير بطيء من الفم..

حتى الصلاة افعل فيها هذا التمرين وفي أثناءه تذكر نعم الله عليك وتذكر من ستقابل.

وإليكم تلكم المعلومة النفيسة فدراسات الذاكرة تقول" كل حدث في حياتنا

يحفظ في العقل اللاواعي في المخ "

تخزن بالصوت والصورة والحواس الخمس، التذوق والشم والأحاسيس كل حدث في حياتنا حفظ.

فإننا إن تساءلنا :

-كم واحد قرأ القرآن ولو لمرة واحدة في حياته؟

الكل قرأه.. كل قراءة قرأتها تم تخزينها.. كل حرف كل كلمة كل سطر..

فكل واحد منا حافظ لكتاب الله لكن عليه أن يسترجع هذا الحفظ، ألا تلاحظون إذا أخطأ الإمام في صلاة التراويح ننتبه للخطأ مع أننا نكون غير حافظين للسورة التي يقرأها.

إذن معناه أنا حافظ، إذن البشرى السارة هي أننا كلنا حفظة لكتاب الله ... الله أكبر نحن حفاظ.. ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ هذا هو الفرح الحقيقي.

وتلكم معلومة أخرى نفيسة :

فإنه يحدث التذكر في أقل من جزء من ألف من الثانية، الجزء من الألف من الثانية هو كل الوقت الذي تستغرقه العناصر التي تشكل الذاكرة وهي الرؤية والصوت والشم والانفعال، هذا التذكر يستمر إلى الأبد.

إن التلفاز ووسائل الاعلام والاجهزة الحديثة أثرت سلبا" على التركيز وذهبت الفطرة السليمة التي من خلالها يتم الحفظ من أول مرة، ولقد كان السلف والتابعون يحفظون القرآن والأحاديث من أول مرة لأن فطرتهم سليمة، كتب محفوظة في الصدور وليس في السطور ، فهذ الإمام النووي يقول :

" أول العلم حفظ كتاب الله "

سر وقاعدة هامة: المراجعة :

المراجعة الدائمة تثبت الحفظ بل هي أهم من الحفظ، بل إني لأقول المراجعة هي الحفظ، ففي الحديث عند مسلم عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ (تَعاهَدُوا

هذا القُرآنَ، فَوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَهو أشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها).
وَلَفْظُ الحَديثِ لِابْنِ بَرَّادٍ.

إننا حال كوننا مع القرآن الكريم لفي رحلة تستمر من المهد إلى اللحد، رحلة تستمر إلى آخر لحظات حياتنا، ورفيق الدرب في هذه الرحلة "القرآن الكريم"، ومراجعته هي صمام الأمان لتلك الرحلة.

إننا بعد سماعنا لمعلومة ما، أو مشاهدتنا لعرض ما، أو حفظنا لدرسنا ننسى ٨٠% من ذلك الموضوع أو ذلك الدرس خلال ساعة إلى ٢٤ ساعة ... اقرأ العبارة مرة ثانية، فمثلاً: بعد حفظنا للصفحة من القرآن خلال جلسة ما في أقل من يوم سوف يصعب علينا استرجاع ٨٠% من ذلك الحفظ. والسبب في ذلك بسيط جدا، وهو أن عقل الإنسان يعمل بمبدأ الأولويات، فمثلاً عند الحفظ يكون العقل موجهاً "توجيها كليا" للحفظ، وعند تركه والانشغال بغيره، فالعقل البشري يرى أن الأولويات الآن ليست للحفظ وإنما لمشاغل أخرى فيقوم بتجهيز ملفات أخرى لكي نتعامل مع الظروف الجديدة، وملف الحفظ يتأخر قليلا.

هذه القاعدة يجب الانتباه لها وتأملها طويلا، إنك إذا قضيت ما يربو عن ٤٥ دقيقة في حفظ الصفحة أو قضيت ٥دقائق فبعد ساعة إلى يوم سوف تنسي ٨٠% من ما حفظته. ولذلك كنت أقول مراراً وتكراراً :

لا تستغرقوا وقتاً طويلاً في بادئ الأمر في حفظ الوجه من المصحف، الحفظ يثبت بمراجعة ما تم حفظه مراراً وتكرارًا"

١- المراجعة الخماسية:

عند حفظنا لوجه من المصحف مثلاً - أو حفظ أي معلومة أو استذكار درس للمرة الأولى- فهناك خمس مراجعات يجب أن تتم حتى يثبت الحفظ وينتقل إلى الذاكرة طويلة المدى، ويصبح الحفظ على اللسان :

- المراجعة الأولى بعد ساعة من الحفظ .

- المراجعة الثانية بعد يوم من الحفظ.

- المراجعة الثالثة بعد اسبوع من الحفظ.

- المراجعة الرابعة بعد شهر من الحفظ.

- المراجعة الخامسة بعد ٣ أشهر من الحفظ.

بعد خمس مراجعات المعلومة تنتقل إلى الذاكرة طويلة المدى وتصير المعلومة تلقائية وتكون حاضرة للاسترجاع في أي وقت، وهذه الطريقة عامة ويصلح تطبيقها على كل ما يراد حفظه، وإني لأنصح الطلبة والطالبات على أن يتبعوا هذه القاعدة في دراسة المواد المدرسية، بحيث يقضوا أوقات متباعدة بين المراجعات لتثبيت المعلومات.

٢- المراجعة السباعية:

ولقد قمت بتعديل القاعدة السابقة لكي تتناسب أكثر مع شدة تفلت القرآن على النحو الآتي :

ووسمتها " **المراجعة السباعية كأئمة الحرم**":

- احرص على مراجعة الصفحة على الأقل سبع مرات، فعند حفظك لوردك اليومي (مثلاً صحفة في اليوم).

- وإني دوما أقترح أن يتم الحفظ أول الصباح، ففي الحديث في مجمع الزوائد ، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال : " اللهمَّ بارِكْ لِأُمَّتي في بُكورِها ".

وفي روايةٍ "بورِكَ لأمَّتِي في بكورِها"(١١)

وإليكم هذه القاعدة المهمة:

"حدد وقتاً معيناً دائماً للحفظ وقتاً مقدساً لا يمسه أي ظرف"، فإنك إذا ما حددت وقتاً للحفظ فلن تحفظ، ثم بعد الانتهاء من الحفظ راجع، "خذ وقتا" وراجع حفظك قبل مرور ساعة على حفظك.

اقرأ بحفظك الجديد في الصلوات وفي كل حين، مثلاً عند انتظارك إشارات المرور .. عند انتظار طبيب الاسنان .. عند انتظارك للصلاة ..وهكذا، لكن أهم تلك المراجعات الثلاثة التالية:

---

(١١)و فيه علي بن عابس وهو ضعيف .أخرجه أبو يعلى (٥٤٠٦)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (٢٤٤/٣)، والطبراني (٢٥٧/١٠)(١٠٤٩٠) والرواية: أخرجها أبو يعلى (٥٤٠٩).

١- أول مراجعة وتكون قبل مرور ساعة على الحفظ : لا تترك حفظك الجديد لأكثر من ساعة بدون مراجعة، فإن هذه المراجعة لها كبير الأثر في تثبيت الحفظ.

٢- قبل النوم: إن من أهم المراجعات للحفظ مراجعة قبل النوم، فقبل نومك احرص كل الحرص على أن تكون مراجعة حفظك همك الأول، ولا تنم إلا وأنت قد راجعت الحفظ، حتى يتسنى للعقل اللاواعي تكراره وتخزينه طوال مدة النوم وعند استيقاظك ستجدها حاضرة لك إن شاء الله.

فإن الدراسات أثبتت أن للنوم خاصية عجيبة في تثبيت الحفظ، ففي إحدى الدراسات تم تقسيم مجموعة من الأطفال إلى مجموعتين، وتم إعطاء كل مجموعة ١٠٠معلومة للحفظ ومن ثم ذهبت المجموعة الأولى للعب، وذهبت المجموعة الثانية للنوم، وعند انتصاف اليوم أقيم اختبار وكانت النتيجة أن وجدوا أن المجموعة التي ذهبت للعب استرجعت ما يقارب الـ١٥ معلومة فقط، وأما المجموعة التي ذهبت للنوم فقد تمكنت من استرجاع ٥٦ معلومة فاستنتجت الدراسة بأن النوم بعد المذاكرة من أهم عوامل تثبيت الحفظ .

٣- عند الاستيقاظ من النوم :

أيضاً تلك من أهم المراجعات، فلا تبدأ بحفظك الجديد دون مراجعة حفظ اليوم السابق، إن المراجعة بعد يوم من حفظ المعلومة من أهم الأمور التي تعين على التذكر الطويل المدى .

يجب أن لا تقل عدد المراجعات لذلك الحفظ عن ٣ على أقل تقدير، مع الانتباه إلى ضرورة سماع الآيات طوال اليوم عن طريق الأشرطة أو الـ CD، فالأفضل سماع حفظ الاسبوع طوال ذلك الأسبوع، فإذا افترضنا أننا سوف نحفظ خمس صفحات في ذلك الأسبوع فإننا سوف نسمع تلك الصفحات طوال الوقت، حيث إنه من ضمن الأمور المجربة أن سماع الآيات يقوي ويثبت الحفظ أيضا.

٤- المراجعة الأسبوعية: ويفضل أن تكون يوم إجازة - يوم مخصص لمراجعة الاسبوع -، والأفضل أن يتم تسميع حفظ الأسبوع في حلقة للحفظ، فالحفظ مع الجماعة والتواصي بالحفظ الأسبوعي له أكبر الاثر في الصبر على الحفظ واستمراره (فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) وفي الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي أن عرفجة بن شريح

أو ضريح أو شريك قال : (رأيتُ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ وهو على المنبرِ يخطبُ النَّاسَ فقال : إنَّها ستكونُ بعدي هنَّاتٌ وهنَّاتٌ، فمن رأيتموه فارق الجماعةَ أو يريدُ تفريقَ أمرِ أمَّةِ محمَّدٍ كائنًا من كان، فاقتُلوه فإنَّ يدَ اللهِ على الجماعةِ، وإنَّ الشَّيطانَ مع من فارق الجماعةَ يركُضُ) أشار عبد الحق الإشبيلي في المقدمة أنه صحيح الإسناد.

- ثم إن الدراسات تقول : إذا شعر الانسان أنه يوجد من يراجع جودة عمله يتحسن أدائه من ٢٠% إلى ٨٠%.

٥- المراجعة الشهرية :

لا ينبغي لذي لب حاذق يدرك قيمة هذه النعمة الكبيرة نعمة حفظ القرآن لكريم أن يترك الحفظ القديم لأكثر من شهر من غير مراجعة، لذلك أقترح أن يخصص يوم الجمعة لمراجعة الحفظ القديم، وإذا زاد مقدار الحفظ عن عدة اجزاء فقسمه على أكثر من جمعة.

٦- المراجعة السنوية:

رمضان شهر المراجعة السنوية فرمضان شهر القرآن قال الله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ فالمراجعة الدائمة هي المفتاح لتثبيت الحفظ ... المراجعة الدائمة .. ما حيينا ..

سر آخر :

" حدد هدفا وضع خطة" إذا فشلت في التخطيط فقد خططت للفشل"

إن أهم الأمور التي تعينك على تحقيق حلم حياتك بحفظ كتاب الله هو أن تضع خطة واضحة للحفظ. فمعظمنا للأسف لا يحسن التخطيط ، بل إن أكثر من ٩٧% من البشر ليس لديهم خطة مكتوبة لأهدافهم في الحياة ..فإنه عند كتابة الهدف ٩٠% سيتحقق بإذن الله، وبالنسبة لحفظ القرآن الكريم فإن وضع هدف واضح وخطة واضحة تتطلب الأمور الآتية :

" يجب أن يكون الهدف إيجابا " أي لا يصاغ بصيغة النفي فمثلاً، يمكن أن يكون الهدف "أريد أن أحفظ القرآن الكريم" وليس مثلاً " أريد أن لا أنسي القرآن الكريم " .

يجب أن يكون في الوقت الحاضر، بمعنى آخر عند صياغة هدف ما يجب عدم استخدام كلمة سوف أو حرف السين قبل الفعل فمثلا "لا تقل سوف أحفظ القرآن الكريم ولكن قل "أنا أحفظ القرآن الكريم" أو"أنا أحفظ القرآن يوميا" أو "أنا بصدد حفظ القران الكريم" فكلمة سوف تسوف تحقيق الهدف، وتصبح كل يوم تقول سوف أحفظ، وبعد شهر تقول سوف أحفظ وهكذا... فالعقل اللاواعي لا يدرك أهمية الهدف ما دام بصيغة المستقبل .

لماذا تريده ؟

بدأنا هذا الفصل بسؤال وهو : لماذا تريد حفظ كتاب الله ؟

إذا لم تكن الأسباب قوية وعظيمة فلن يتم تحقيق الهدف، وأوردت الكثير سابقا عن درجات ومنازل الحفاظ وذلك ليزداد استشعارنا بأهمية الموضوع.

حدد النتيجة بالتحديد:

- ماذا سوف ترى وتسمع وتشعر عندما تحقق الهدف ؟

ارسم صورة في منتهى الجمال لشخصك وأنت في أبهى وفي أجمل صورة عندما تحقق الهدف وصفته أنه يمكن قياسه وبالنسبة لحفظ القرآن الكريم من السهل قياسه بحيث أننا لاحقا" سنحدد وردا يوميا للحفظ يمكن من خلاله قياس تحقيق ذلك الهدف ..

حدد الوقت :

فالهدف من غير تحديد وقت الانتهاء منه هو مجرد وهم، كل هدف يجب أن يربط بفترة انجازه والانتهاء منه ، يجب عليك من الآن أن تحدد المدة التي سوف يستغرقها حفظ كتاب الله.

يجب أن يكون الهدف ذاتيا :

يجب أن يكون نابع من ذات الشخص، ليس هدفا لإرضاء والديك أو المجتمع أو الأسرة .

حدد الموارد التي تريدها والعوائق التي سوف تقابلك:

فالهدف من غير عائق لتحقيقه ليس هدفا حقيقيا ، وإنما سميت أهدافا واحلاما لأنها صعبة المنال ، وحتى نكون واقعيين أكثر يجب أن نتوقف قليلا قبل البدء في الحفظ وذلك لكي نحدد العوائق والصعاب التي ممكن مواجهتها ، ومن تلك الموارد .. الصحبة الصالحة والتسميع لدى حلقة أو شيخ كما سوف نذكر قريبا.

حدد تأثير تحقيق الهدف على البيئة المحيطة :

وبمعنى آخر انتبه أن تفرط في حقوق من حولك وأنت منهمك وأنتِ منهمكة في حفظ كتاب الله، حفظك لكتاب الله لا يقتضي هجرك للدنيا واعتزالك عن العمل، يجب أن لا تتأثر البيئة المحيطة بك، فحقوق الأشخاص القريبين منك، وأعمالك اليومية، وصحتك، وتمارينك الرياضية، يجب أن لا تتأثر بتحقيقك لهذا الهدف .

كتابة الهدف في كل مكان :

سر آخر من أسرار تحقيق الهداف واستنهاض قدرات العقل اللاواعي، أكتب هذا الهدف في كل مكان، أكتب أنا أحفظ القرآن

الكريم بأذنه تعالى في كل مكان يصل إليه ناظريك، الآن أكتب في ورقة جميع الأسباب التي دفعتك لحفظ كتاب الله، هذه الورقة ستكون معك .. لا تفارقك ليل نهار .. قم بقراءتها على الأقل ١٠مرات يوميا، اقرأها صباحا ومساء حتى تتشبع نفسك وجوارحك بهذا الهدف.

أيضا قم بعمل لوحة أكبر من تلك القصاصة والصقها على باب غرفتك، وأخرى على مكتبك، وثالثة على مقود سيارتك، وأخرى على جهاز الكمبيوتر حتى يختلط هدفك بلحمك وعظمك، أكتبها وألصقها في كل مكان حتى لا ينفك هذا الهدف عن مخيلتك، ضعها خلفية في جوالك، على سطح مكتب حاسوبك، إن لهذه العملية أعظم الأثر في ترسيخ الهدف في أعماق العقل اللاواعي حتى يصبح تحقيق هذا الحلم سمة رئيسية من سمات شخصيتك.

من العوامل المساعدة على الحفظ:

- الفهم طريق الحفظ.
- اختيار وقت الحفظ.
- القراءة في النوافل.
- القراءة في كل آن.

- تحديد نسبة الحفظ كل يوم.
- لا تجاوز سورة حتى تربط أولها بآخرها لابد وأن تراجع السورة كاملة بعد ختمها.
- كافئ نفسك بعد حفظ كل جزء ... امدح نفسك .. اهدي نفسك شيء تحبه .. وكل ما كان انجازك أكبر اجعل المكافأة أكبر..
- التزم بحلقة للحفظ أو التسميع لدى شيخ حافظ او مجموعات حفظ.
- اغتنم المواسم: العطل والإجازات ... رمضان.. الخ.
- لا تجاوز مقررك اليومي حتى تجيد حفظه تماماً
- الدعاء وخاصة في أوقات الإجابة.
- العناية بالمتشابهات.. ومن وازع تجربتي فإني أنصح بعدة كتب أفادتني كثيراً جداً وسأقوم بتجليتها لكم وهي على النحو التالي :

- الآيات المتشابهات: التشابه اللفظي للآيات"حكم وأسرار- فوائد وأحكام".

- الإيقاظ لتذكير الحفاظ بالآيات المتشابهة الالفاظ .
- المتشابهات من كلمات القرآن .
- دليل الحفاظ في متشابه الألفاظ .
- دليل الطلاب إلى متشابه الكتّاب .
- دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم .
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني .
- متشابه القرآن العظيم .
- إغاثة اللهفان في ضبط متشابهات القرآن.
- معجم المتشابهات لألفاظ القرآن الكريم للزواوي.
- متن "هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتّاب "الموسومة بالسخاويّة".

- احرص على الغذاء الصحي
- مارس الرياضة: فإن العقل السليم في الجسم السليم ، واللياقة البدنية تزيد اللياقة الذهنية ، والرياضة تقلل من

فرص الإصابة بالسرطان وتقلل الإصابة بالسكري ، وأيضا الرياضة للأطفال تؤدي إلى توسيع الآفاق في القراءة والكتابة والحساب ،الرياضة مهمة ؛ لأنها تزيد القدرة الذهنية وتحفز الذاكرة وتقاوم مظاهر تقدم العمر.

قاعدة مهمة:

تحتاج في اليوم للمشي ١٠آلاف خطوة أو ٣١ دقيقة جري، فـ١٠ آلاف خطوة تساوي مشي ٤ كيلومتر وتحتاج تقريبا" ساعة و ٤٥ دقيقة" في المعدل الطبيعي الإنسان يمشي بدون ما يركز ٣ آلاف الى ٥ آلاف خطوة (دون أن يشعر) يبقى الخمسة آلاف الأخرى اجتهد عليها..

طريقة الحفظ بالاستماع:

- اقسم المصحف أجزاء وسور.
- اختر أكثر من قارئ بأصوات جميلة.
- إذا كانت نهايات آيات السور مختلفة يجوز اسمعهم لنفس القارئ.

- إذا سمعت الوجه من المصحف ٢٠ الى ٣٠مرة ستحفظ بالسماع دون الرجوع إلى المصحف.
- اختيار قراء سريعين وصوتهم مميز مثل: الشريم، والسديس، وسعد الغامدي، وعبدالله الخياط، ومحمد أيوب، و ياسر سلامة، والجهني، والمعيقلي، والقحطاني، والثبيتي، وعلي بن موسى العسيري، وأسامة الغانم..
- اسمع كل سورة بقارئ مختلف لكن إذا كانت نهايات السور مختلفة مثل سورة مريم وطه والأنبياء اسمعهم بنفس الصوت مثل السديس حتى إذا سمعنا الآية نعرف في أي سورة من الصوت نفسه

وبذلك تجتاز تحدي المتشابهات، وتحدي ربط الآية بالسورة.

- عند تحديد ٥ أوجه لحفظهم خلال الأسبوع اختر قارئ معين واسمع هذه الأوجه خلال الأسبوع من ٢٠ إلى ٣٠ مرة ستجدون أنفسكم حافظين وبدون الرجوع للمصحف

والمراجعة تكون أسهل بكثير والحفظ أقوى بكثير، والتجارب خير دليل.

- إذا لم تجد وقت للحفظ خصص وقت للاستماع وستحفظ بإذن الله تعالى ، بإذن الله نختم القرآن ونفوز بمعركتنا مع الشيطان ،" لا تيأس ... لا تتوقف أبدا ... لا تتقاعس".

وإذا تقاعست في يوم عوض في اليوم الذي يليه حافظ على صحبة الصالحين الحفاظ القراء، حافظ على حلقات الحفظ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

بين الجوانح في الأعمـــــاق سكناهُ فكيف أنسى ومن في الناس ينساهُ

وكيف أنس حبيباً كنتُ من صغرى أسير حسنٌ له جلت مزايـاهُ

هذا الحبيبُ هو القـرآنُ عشتُ له منذُ الصبا وأنا ولهان أهــواه

ولم أزل أرتجي حسن الختـام به عـساه يشفـع لي في يوم ألقاهُ

التزم السرية أثناء الحفظ لكي لا يدخلك الغرور بنفسك. اشكر الله على نعمة الحفظ، وكلما حفظت احمد الله وأطلب المزيد منه.

عليك باستمرارية دون انقطاع ودون تسويف ودون ترحيل للمحفوظ ودون ملل من السقطات والصوارف، فالسقطات والشعور بالإحباط طبيعي لكن المشكلة حين يصاحب سقوطك شعور بالفشل، شجع نفسك على المثابرة وحب التحدي ومواجهة الأمور واعلم أنك قادر على مواجهة المصاعب والسيطرة عليها، فهذا أمر سيمر بكل مريد للحفظ وهو أمر وارد وليس هناك نجاح بدون هذه السقطات فلا جزع من السقوط ولا تلكؤ ولا مانع من طلب المساعدة من الغير, المهم بقاء العزيمة والصدق مع الله والثقة بالنفس بعد توفيق الله تعالى والشعور بالحاجة له تعالى، وبعونه مع الاستمرار، وأخص الاستمرار بالذكر لأنه مطلب أساسي في إنجاز هذا المشروع الضخم- أعظم مشروع في الحياة- ستصل إلى مرامك ويتبلغ بغيتك بإذن الله، والزم الحفظ على التدريج، فالحفظ اليومي المنتظم خير من الحفظ المتقطع، والحفظ البطيء الهادي أفضل من السريع المندفع، ومما يُروى عن الزهري أنه قال:" من طلب العلم جملة فاته جملة ، وإنما يدرك العلم حديث وحديثان".

مهما أعطيت من وقتك للقرآن فلن ينقص هذا الوقت! بل على العكس ستكتشف دائماً أن لديك زيادة في الوقت.

أي أننا لو أنفقنا كل وقتنا على سماع القرآن فسوف نجد أن الله سيبارك لنا في هذا الوقت وسيهيئ لنا أعمال الخير وسيوفر علينا الكثير من ضياع الوقت والمشاكل، بل سوف تجد أن العمل الذي كان يستغرق معك عدة أيام لتحقيقه، سوف تجد بعد مداومة سماع القرآن أن نفس العمل سيتحقق في دقائق معدودة!!

فإن أفضل دواء لقلوب أصابها القسوة فلا تلين ولا تخشع، وأعين أجدبت فلا تذرف ولا تدمع، ونفوس وصدور ضاقت وحصرت وتكدرت فلا تطاوع داعي العمل ولا تتبع؛ أن يقبل العبدُ على كتاب ربه، ففيه النور والهدى والرحمة والشفاء، وعجبا لمن تصرمت عليه السنون، وتقطعت به الحيل وبجواره الدواء والخلاص وهو غافل عنه.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وإن أولى الخطوات أن تطور العلاقة بهذا الكتاب، وأن توثق الصلة به، وأن ينظر إليه على أنه كتاب هداية ورشاد وفلاح في الأمور كلها.

ويتبع ذلك عمليا أن يتلى الكتاب ويرتل ترتيلا، يجتمع فيه حسن الأداء وحضور القلب، وفهم المتلو وتدبر معناه.

ومما يعين على الفهم ويحققه ويرسخه أمران:

الأول: فهم معاني المفردات التي يتركب منها الكلام.

فلا يمكن أن تفهم قوله تعالى (ومن شر غاسق إذا وقب) دون إدراك معنى الكلمتين (غاسق) و(وقب).

قال الراغب في (المفردات) ص٥٤: "أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية: تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبِنِ في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم".

وهذه المفردات يرجع فيها إلى لغة العرب التي نزل بها القرآن، سوى بعض المفردات التي صار لها اصطلاح شرعي خاص بها كالصلاة والإيمان والنفاق وغيرها.

وأولى من يرجع إلى كلامه في بيان هذه المفردات: الصحابةُ الأطهار، لأنهم جمعوا بين مزيتين، وحازوا فضيلتين، إحداهما: معاصرة التنزيل ومشاهدة الوقائع، والأخرى: كونهم عربا أقحاحا لم تشبهم لكنة أو لحن.

الأمر الثاني: النظر في المأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه والتابعين في تفسير الآيات.

وهذا النظر نافع جدا من جهتين:

إحداهما: إدراك معنى المفردة سواء من جهة اللغة، أو من جهة الاستعمال الشرعي.

والأخرى: الاطلاع على سبب النزول.

وهذا في غاية الأهمية لفهم الآية على وجهها، والطريق إليه موقوف على النقل.

ولقد كانت تشكل علي بعض المفردات في القرآن الكريم، فأرجع إلى بعض المراجع لبيان مبهمها، وكشف غامضها، فلا أجد أحيانا ما يشفي العليل، ويروي الغليل، فرأيت أن أضع مختصرا لنفسي، أجمع فيه ما تفرق، وأحرص أن يكون محررا يضم خلاصة ما كتبه السابقون، وحبره المحققون، مما يحتاج إليه لفهم المفردة، دون الكلام المبهم، أو الاستطراد بتفاصيل الاشتقاق والأوزان لكن بالجملة هناك كتاب نافع وجمع بديع لأخينا الشيخ فايز بن سيَّاف السّريح أهيب بطالب العلم ألَّا يفوّت حفظه وإدامة النَّظر فيه فهو جدٌّ نافع.

يعد الاستحضار والانتزاع من القرآن في موضوع ما؛ ملكة قلّ من يتقنها حتى من حفاظ القرآن، وقد رأينا بعض المشايخ تميز بهذه الصفة، وهم قليل، ولو أردت أن أضرب مثالا يكون كالاختبار لأحدنا، وقلت:

– اذكر الآيات الواردة في الأمر بتوحيد العبادة .

– اذكر الآيات الواردة في الجبال - مثلا -.

فلينظر كل واحد منا قدر الآيات التي استحضرها دون مراجعة أو بحث أو طول وقت ، بل تأتيه بديهة قريبة المأخذ ، بحيث يستطيع إيرادها لو كان يرتجل خطبة أو كلمة في ذلك الموضوع ، ثم يقوّم نفسه في هذا الأمر.

ومن الأمور التي تفيد في تحصيل هذه الملكة :

١. إتقان حفظ القرآن:-

فالحفاظ اليوم كثير، ولكن أين منهم المتقنون ؟

ويعجبني في هذا ما أخرجه الخطيب في (الجامع) عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال :"الحفظ الإتقان".

٢. التدريب العلمي :-

وذلك بمراجعة الآيات في كل موضوع يطرقه أحدنا في درس أو كلمة أو خطبة ، ويستودع ذلك مخزن صدره وسويداء قلبه .

وأنصح في هذا الباب ابتداء بكتاب (رياض الصالحين) فإنه جمع أصول أبواب العلم والدين ومهمها، وطريقته أنه يصدر كل باب ببعض

الآيات فيه، فليعتن بذلك طالب العلم ويمرن نفسه بمراجعته كثيرا، ثم ينتقل إلى معاجم الموضوعات القرآنية .

٣. التدريب العملي:-

وذلك بالممارسة والتطبيق فيما يلقيه من درس أو كلمة أو خطبة أو غيرها ، ويحرص على حشد الآيات وإيرادها أثناء تناوله للموضوع الذي يتحدث عنه، ومراجعة ذلك وتسديده مرة بعد أخرى .

ومن عجيب ما وقفت عليه في هذا الباب ماحكاه الماوردي قال: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله:(خير الأمور أوساطها)؟، قال: نعم، في أربعة مواضع قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ وقوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾ وقوله تعالى :﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (من جهل شيئا عاداه) ؟ قال : نعم في موضعين، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (احذر شر من أحسنت إليه)؟، قال: نعم، ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ ﴿٧٤﴾﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (ليس الخبر كالعيان)؟، قال: في قوله تعالى﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (في الحركات البركات)؟ قال: في قوله تعالى :﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (كما تدين تدان)؟، قال : في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

قلت: فهل تجد فيه قولهم: (حين تقلي تدري)؟ قال :﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

قلت: فهل تجد فيه: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)؟، قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قلت: فهل تجد فيه: (من أعان ظالما سلط عليه)؟، قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

قلت: فهل تجد فيه قولهم: (لا تلد الحية إلا حية)؟، قال : قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

قلت: فهل تجد فيه: (للحيطان آذان)؟، قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾.

قلت: فهل تجد فيه: (الجاهل مرزوق والعالم محروم)؟، قال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ٧٥﴾.

قلت: فهل تجد فيه: (الحلال لا يأتيك إلا قوتا والحرام لا يأتيك إلا جزافا)؟، قال :﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٣﴾.

المنهج النبوي في تعليم القرآن الكريم

أولا: أسلوب التلقي والمشافهة بالقرآن تعلما وتعليما:

ويتضمن هذا العنصر كيف كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يتلقى القرآن ويشافهه ملك الوحي به، كما يتضمن كيف كان يتلقاه عنه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مشافهة وسماعا منه؛ وذلك بعض ما تضمنه أول باب عقده أمير المحدثين أبو عبد الله البخاري في جامعه الصحيح تحت عنوان: "باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقول الله جل ذكره: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ ثم ساق حديث "إنما الأعمال بالنيات"، وأردفه بحديث أول ما نزل عليه من سورة العلق وهو بغار حراء، ودخوله على خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعرضه الأمر عليها

ومواساتها له، ودخولها على ورقة بن نوفل وقول ورقة له: "هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى"[١٢].

ثم ذكر حديث ابن عباس في قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ وقوله: "كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ يعالج من التنزيل شدة " ثم فسر قوله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ﴾ وقال: "فكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ كما قرأه"[١٣] ثم ذكر البخاري حديث ابن عباس قال: "كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه بالقرآن في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ أجود بالخير من الريح المرسلة"[١٤].

---

(١٢) صحيح البخاري: باب كيف كان بدء الوحي: ١/٥ - ٠٧.

(١٣) صحيح البخاري: ١/٠٧.

(١٤) صحيح البخاري: ١/٧ - ٠٨.

ويهمنا من هذه المقدمة عند البخاري ما جاء في هذا الحديث من قوله: "يلقاه بالقرآن" وقوله: "فيدارسه القرآن" ففي "يلقاه" و"يدارسه" بيان لمعنى التلقي والمشافهة بالقرآن وتكرار القراءة من أجل تثبيت الحفظ، قال العلامة الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن: التلقي هو الاستقبال والأخذ، ولقيته بكذا: إذا استقبلته به. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾.

وقال الإمام الواحدي في "التفسير البسيط" في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ أي: أخذها عنه وتلقنها، والرجل يلقى الكلام فيتلقاه، أي: يلقنه فيتلقنه.

قال: ويقال: لقَّيته الشيء فتلقَّى، أي: عرَّضتُه لأن يراه فتعرض له، ثم صار التلقي بمعنى: الأخذ، لأن الإنسان إنما يستقبل ما يحرص عليه. قال: وجميع أهل اللغة والمعاني فسروا التلقي ههنا بالأخذ والقبول،

ومنه الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يتلقى الوحي من جبريل، أي: يتقبله ويأخذه"(١٥)

وهذه المعاني من التلقي والأخذ والاستقبال والقبول والتلقُّن كلها تعرب عن معنى واحد، وهو الوسيلة الشفوية التي كان يتم بها الاتصال بمصدر الوحي، والمشافهة تتضمن معنى التلقي، إلا أنها أخص منه من جهة الدلالة على كيفية التلقي والأخذ، وفي لسان العرب لابن منظور: "شافهه: أدنى شفته من شفته فكلمه، وقال الجوهري: المشافهة: المخاطبة من فيك إلى فيه" (١٦).

وجاء ذكر القراءة والتلقي بهذا الوصف في عدد من روايات الصحابة الذين سمعوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بغير وساطة أحد، فنصوا على ذلك تنبيها منهم على أنه أعلى مراتب الرواية للقرآن، فروى

---

(١٥) انظر التفسير البسيط لعلي بن أحمد الواحدي:٢/ ٤٠١- ٤٠٤.

(١٦) انظر معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية للأستاذ عبد العلي المسؤول: ١٤٩ - ١٥٠.

البخاري في صحيحه عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود قال: قرأت من في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بضعا وسبعين سورة"(١٧)

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي نقلا عن كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان لأبي بكر بن الأنباري بسنده عن ابن مسعود قال: "قرأت من في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ- اثنتين وسبعين سورة أو ثلاثا وسبعين سورة، وقرأت عليه من البقرة إلى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذٗى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ "وقال أبو إسحاق – يعني السبيعي- وتعلم عبد الله بقية القرآن من مجمع بن جارية"(١٨)

(١٧) البخاري فضائل القرآن: ٢٢٨/٣.

(١٨) الجامع لأحكام القرآن ١٥/٥٠-٥١.

وأخرج أحمد في مسنده عن ابن عباس أن أبي بن كعب قال لعمر: "إني تلقيت القرآن ممن تلقاه – وقال عفان: ممن تلقاه من جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو رطب"[19].

ومثله في المستدرك أنه قال لعمر: "إني تلقيت القرآن ممن تلقاه من جبريل وهو رطب"[20].

وفيه أيضا من حديث ابن مسعود قال: "كنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في غار فنزلت عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فأخذتها من فيه، وإن فاه رطب بها"[21].

ومن قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ والمشافهة بها في مثل هذه الوقائع وكذلك فيما كان عليه هديه في القراءة في الصلاة تسنَّى لقراء الصحابة أن يأخذوا عنه القراءة وصفا وكيفيات أدائها. وقد وصل إلينا

---

(١٩) المسند ١١٧/٥.

(٢٠) المستدرك على الصّحيحين لأبي عبد الله الحاكم النّيسابوري: ٢٢٥/٢.

(٢١) المستدرك: كتاب التفسير ٢٥١/٢.

الكثير من الأحاديث والآثار التي تصف قراءته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ومنها في كتاب فضائل القرآن من صحيح البخاري في "باب مد القراءة" وفيه عن قتادة قال: "سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: كان يمد مدا". وفي رواية أخرى عن قتادة أيضا قال: "سئل أنس: كيف كانت قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: كانت مداء، ثم قرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم"[٢٢].

ومن حديث أم سلمة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في المستدرك وفضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام أنها نعتت قراءة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا"[٢٣].

---

(٢٢) البخاري: باب مدّ القراءة ٣/٢٣٤- ٢٣٥.

(٢٣) المستدرك ١/٢٣١٠/٢٣٢ فضائل القرآن لأبي عبيد ١/٣٢٥.

وفيهما عنها قالت: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقطع قراءته ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (٢٤).

وفي كتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصل طويل في هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به. قال فيه: كان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حزب يقرؤه، ولا يخِل به، وكانت قراءته ترتيلا، لا هذا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفا حرفا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، فيمد ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ويمد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، وكان يتعوذ قبل القراءة، وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه.

---

(٢٤) المستدرك ١/٣١٠ فضائل القرآن ١/٣٢٥.

وكان يقرأ القرآن قائما، وقاعدا، ومضطجعا، ومتوضئا، ومحْدثا، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة"[٢٥].

ومن هذا الهدي النبوي عرف علماؤنا معظم الضوابط التي نصوا على وجوب الالتزام بها في القراءة والتجويد أو استحسان ذلك لأنه السنة فيها كما دلت عليه نصوص الشريعة.

كما أن علماء القراءة من أئمة المتقدمين أصلوا له من الآثار الواردة في جزئياته وكلياته. ومن أهم مستنداتهم في ذلك حديث عرض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على أبي بن كعب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقد أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ومسلم في كتاب فضائل الصحابة من حديث أنس بن مالك أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال لأبي بن كعب: إني أمرت أن أقرأ عليك، أو قال: إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ

---

(٢٥) زاد المعاد ١/٤٨٢- ٤٨٣

﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ①﴾ فقال: أو سماني؟ قال: نعم، فبكى". وفي رواية: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، فقرأ عليه.

وفي كتاب السبعة في القراءات لأبي بكر بن مجاهد البغدادي في إسناده لقراءة نافع بن أبي نعيم قال: "وقال أبو هريرة: قرأت على أبي بن كعب، وقال أبي، عرض علي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ القرآن وقال: أمرني جبريل أن أعرض عليك القرآن".

ثم ساق ابن مجاهد بسنده عن عاصم بن أبي النجود القارئ قال: قلت للطفيل بن أبي بن كعب: إلى أي معنى ذهب أبوك في قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ له: أمرت أن أقرأ القرآن عليك؟ فقال: ليقرأ علي فأحذو حذو ألفاظه. قال ابن مجاهد: وقال أيضا محمد بن إسحاق الصنعاني عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال: "معنى الحديث: أن يتعلم أبي قراءة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يتعلم قراءة أبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ "(٢٦)

(٢٦) السبعة في القراءات: ٥٥.

ولفظ أبي عبيد في كتاب فضائل القرآن: "معنى هذا الحديث عندنا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إنما أراد بذلك العرض على أبي: أن يتعلم أبي منه القراءة ويستثبت فيها، وليكون عرض القرآن سنة، وليس هذا على أن يستذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ منه شيئا بذلك العرض"(٢٧)

وينبغي أن ننتبه هنا إلى أن قراءته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما قرأه على أبي بن كعب من القرآن ليس فيه من الجديد الذي يلفت النظر إلا نزول الأمر به من عند الله بخصوص أبي بن كعب دون غيره، ومن تأمله وجد فيه ذلك المعنى الخاص الذي نبه عليه أبو عبيد، وهو "أن يكون عرض القرآن سنة" بمعنى أن يحذو كل قارئ حذو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في العرض على مقرئ أو أكثر حتى تستكمل الرواية جانبي الكمال والوفاء وذلك بقراءة المقرئ على القارئ تلقينا له وتعليما، وقراءة القارئ على المقرئ عرضا وتثبتا وتحقيقا وتوثيقا، وإلا فلا

(٢٧) فضائل القرآن ١٨٩/٢ - ١٩٠.

خصوصية لأبي في قراءة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ عليه القرآن أو ما أمر أن يقرأه عليه، فقد قرأ النبي القرآن على عدد لا يحصى من الصحابة، أي: أنه أسمعهم إياه، وأملاه على كتاب الوحي، وفيهم عثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم. على أنه قد جاءت روايات أخرى لا ترقى إلى درجة الصحيح بوب لها الحافظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي في كتابه "فضائل القرآن" تحت عنوان: "باب في قراءته عليه الصلاة والسلام على عمر بن الخطاب، وأسند الحديث عن سمرة بن جندب قال: "إن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ قال لنا يوما: إني قد قيل لي أن أقرأ على ابن الخطاب، فدعاه وأمره أن يحضر القرآن إذا أنزل ليقرأه عليه"(٢٨).

وقال أيضا: "باب في قراءته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ على ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وأسند الحديث عن علقمة قال: قال عبد الله بن مسعود: سألت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ أن يقرأ علي سورة من القرآن، فقال: لا

---

(٢٨) فضائل القرآن ٥٧.

أدخل المسجد حتى أقرأ عليك إن شاء الله، قال: فجاء حتى أدخل قدمه اليمنى في المسجد وبقيت اليسرى، ثم قام فقرأ علي"[٢٩].

وهذا الأسلوب هو الجاري اليوم في معظم مؤسسات تعليم القرآن، ولا سيما في حلقات تعليم قواعد التجويد، ويقوم عادة على قراءة المعلم للآية أو الجزء منها إلى موضع الوقف الصالح فيقف عليه، ويردد المتعلم فردا أو أكثر ما سمعه على هذه الهيئة، مستوفيا لمخارج الحروف وصفاتها، ومتبعا لما لقنه المعلم، فإذا شعر المعلم أنه لم يحرر ذلك في أدائه عاد إليه فكرره أكثر من مرة حتى يتيقن أداءه.

وأصل ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: " كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ قال جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ

---

(٢٩) فضائل القرآن ٥٧- ٥٨.

عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ كما قرأه"[٣٠] فبيّن الله في هذه الآيات لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ طريقة تلقي القرآن وآداب تعلمه، عليه أن يصبر وينصت لقراءة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتى ينتهي، والمقصود هنا ليس حفظ النص فقط، بل تلقّى القراءة أيضا وتعلم صفتها وهيئة أدائها[٣١].

ومن هذه الأحاديث والآثار استفاد العلماء اشتراط التلقي والمشافهة في القراءة، وربطوا صحة التحمل فيها بالسماع والعرض على الشيوخ المتقنين، وهكذا جاء اشتراط العزو في تعريف القراءة عند الحافظ ابن الجزري في قوله في تعريف القراءة في كتاب "منجد المقرئين ومرشد الطالبين": " القراءة هي عِلم بكيفية أداء كلمات القرآن معزوّا لناقله" فقوله: "معزوا لناقله" قيدٌ معتبرٌ في صحة التعريف لها.

---

(٣٠) البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر ٢٩/١.

(٣١) انظر كتاب سنن القراء ومناهج المجودين للدكتور أبي مجاهد عبد العزيز الفتاح: ٢٣ - ٢٤.

وقال في تعريف المقرئ: "والمقرئ: العالم بها رواها مشافهة"

وهذا تشترك فيه الرواية مع الدراية.

والقارئ المبتدئ – يعني في الرواية لها – من شرع في الإفراد إلى أن يفرد ثلاثا من القراءات.

والقارئ المنتهي: من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها"[٣٢]

يعني على هذه الصفات.

ومنها استفيد معنى العرض من القارئ على المقرئ، وقراءة المقرئ على القارئ تلقينا للرواية، وقال الإمام البخاري في كتاب العلم من الجامع الصحيح محتجا لقراءة الطالب على الشيخ: "باب ما جاء في العلم وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا ۝١١٤﴾ والقراءة والعرض على المحدث، ورأى الحسن والثوري ومالك القراءة جائزة، واحتج بعضهم في القراءة على العالم بحديث ضمام بن ثعلبة قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ آلله أمرك أن نصلي الصلوات؟ قال: نعم، قال: فهذه قراءة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أخبر ضمام قومه بذلك فأجازوه. واحتج مالك

(٣٢) منجد المقرئين: ٣٢ - ٣٣.

بالصَّك يقرأ على القوم فيقولون: أشهدنا فلان، ويقرأ ذلك قراءة عليهم، ويقرأ على المقرئ فيقول القارئ: "أقرأني فلان"(٣٣).

وقال المحقق ابن الجزري في ترجمة أبي بن كعب في غاية النهاية في طبقات القراء: "هو سيد القراء بالاستحقاق، وأقرأ هذه الأمة على الإطلاق، قرأ على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ القرآن العظيم، وقرأ عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بعض القرآن للإرشاد والتعليم. ثم ذكر حديث أبي وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ له: أمرني جبريل أن أقرأ عليك القرآن"(٣٤).

وتأسيسا على هذا المعنى من أخذ أبي لدقائق الأداء ومطابقته لقراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كما تقتضيه الشهادة النبوية له بأنه أقرأ الصحابة، يتأكد موجب هذا الحرص الذي نقرأ عنه عند أئمة الأداء من المتقدمين في عدم التساهل مع الآخذين عنهم في شيء من الإخلال بما هو مطلوب في تجويد الأداء من الدقة في إخراج كل

---

(٣٣) صحيح البخاري: كتاب العلم: ١/٢٢.

(٣٤) غاية النهاية: ١/٣١ رقم ١٣١.

حرف من حروف الهجاء من مخرجه، مستوفيا لصفاته، آخذا حقه ومستحقه.

وقد أسند ابن مجاهد في كتاب السبعة عن حمزة بن حبيب الزيات أحد أئمة القراء السبعة وإمام قراء الكوفة قوله: "إن لهذا التحقيق – يعني في القراءة – منتهى ينتهي إليه، ثم يكون قبيحا، مثل البياض له منتهى ينتهي إليه، وإذا زاد يصير برصا، ومثل الجعودة – يعني في الشعر – لها منتهى تنتهي إليه، فإذا زادت صارت قططا"(٣٥).

ومن هنا أنكر ابن مسعود على من أسقط المد في قراءته، وعلى آخر خالف الرواية في الإمالة، محتجا عليه بقراءة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ بخلاف ما قرأ به. حكى الحافظ ابن الجزري في باب المد والقصر من كتاب "النشر في القراءات العشر" قال: "كان ابن مسعود يقرئ رجلا، فقرأ الرجل: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ مرسَلة، فقال ابن مسعود: ما هكذا أقرأنيها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ فقال: كيف أقرأكها يا أبا عبد

(٣٥) السبعة: ١٦.

الرحمن؟ فقال: ﴿ ۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ فمدها. رواه الطبراني في الكبير، وهو حديث جليل حجة ونص في هذا الباب، ورجال إسناده ثقات"(٣٦).

وروى الحافظ أبو عمرو الداني في طبقات القراء والمقرئين وأسنده عنه المحقق ابن الجزري في "النشر" في باب الإمالة بالسند إلى زر بن حبيش قال: "قرأ رجل على عبد الله بن مسعود (طه) ولم يكسر، فقال عبد الله (طه) وكسر الطاء والهاء، فقال الرجل (طه) ولم يكسر، فقال عبد الله (طه) وكسر الطاء والهاء، فقال الرجل (طه) ولم يكسر، فقال عبد الله (طه) وكسر، ثم قال: والله لهكذا علمني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال ابن الجزري معقبا عليه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهو مسلسل بالقراء"(٣٧).

(٣٦) النشر: ٣١٥/١ - ٣١٦.

(٣٧) النشر ٣١/٢.

ومن هذه الآثار وأمثالها استنبط المؤلفون في تجويد القرآن ما دونوه من قواعد وأحكام أدائية ألزموا بها القارئ والمقرئ، وفي ذلك يقول الإمام أبو مزاحم الخاقاني (ت: ٣٢٥هـ) في التجويد:

٥ أَيَـــا قَـــارِئَ الْقُـــرْآنِ أَحْسِـــنْ أَدَاءَهُ
يُضَـاعِفْ لَـكَ اللهُ الْجَزِيـلَ مِـنَ الْأَجْـرِ

٦ فَمَـا كُلُّ مَـن يَتْلُـو الْكِتَـابَ يُقِيمُـهُ
وَلَا كُلُّ مَـن فِي النَّـاسِ يُقْـرِئُهُمْ مُقْـرِى

٧ وَإِنَّ لَنَـا أَخْـذَ الْقِـرَاءَةِ سُـنَّةٌ
عَـنِ الْأَوَّلِـينَ الْمُقْـرِئِينَ ذَوِى السَّـبْرِ

٨ فَلِلسَّـبْعَةِ الْقُـرَّاءِ حَـقٌّ عَلَى الْـوَرَى
لِإِقْـرَائِهِمْ قُـرْآنَ رَبِّهِـمُ الْـوِتْرِ

٩ فَبِـالْحَرَمَيْنِ ابْـنُ الْكَثِـيرِ وَنَـافِعٌ
وَبِالْبَصْـرَةِ ابْـنٌ لِلْعَـلَاءِ أَبُـو عَمْـرِو

١٠ وَبِالشَّـامِ عَبْـدُ اللهِ وَهْـوَ ابْـنُ عَامِـرٍ
وَعَاصِـمٌ الْكُـوفِيُّ وَهْـوَ أَبُـو بَكْـرِ

١١ وَحَمْـزَةُ أَيْضًـا وَالْكِسَـائِيُّ بَعْـدَهُ
أَخُـو الْحِـذْقِ بِـالْقُرْآنِ وَالنَّحْـوِ وَالشِّـعْرِ

١٢ فَــذُو الْحِــذْقِ مُعْــطٍ لِلْحُــرُوفِ حُقُوقَهَــا
إِذَا رَتَّــــلَ الْقُــــرْآنَ أَوْ كَانَ ذَا حَــــدْرِ

١٣ وَتَرْتِيلُنَــــا الْقُــــرْآنَ أَفْضَــــلُ لِــــلَّذِى
أُمِرْنَــا بِــهِ مِــن مُّكْثِنَــا فِيــهِ وَالْفِكْــرِ

١٤ وَإِمَّـــا حَـــدَرْنَا دَرْسَـــنَا فَمُـــرَخَّصٌ
لَنَــا فِيــهِ إِذْ دِيــنُ الْعِبَــادِ إِلَى الْيُسْــرِ

١٥ أَلَا فَـاحْفَظُوا وَصْـفِى لَكُـم مَّـا اخْتَصَـرْتُهُ
لِيَـدْرِىْ بِـهِ مَـن لَـمْ يَكُـن مِّـنكُمُ يَـدْرِى

١٦ فَــفِى شَرْبَــةٍ لَــوْ كَانَ عِلْــمِى سَــقَيْتُكُمْ
وَلَـمْ أُخْـفِ عَـنكُمْ ذَلِـكَ الْعِلْـمَ بِـالذُّخْرِ

١٧ فَقَــدْ قُلْــتُ فِى حُسْــنِ الْأَدَاءِ قَصِــيدَةً
رَجَــوْتُ إِلَــهِى أَن يَحُــطَّ بِهَــا وِزْرِى

١٨ وَأَبْيَاتُهَــا خَمْسُــونَ بَيْتًــا وَوَاحِــدٌ
تُــنَظَّمُ بَيْتًــا بَعْــدَ بَيْــتٍ عَلَى الْإِثْــرِ

١٩ وَبِـــاللهِ تَـــوْفِيقِي وَأَجْـــرِى عَلَيْـــهِ فِي
إِقَامَتِنَـــا إِعْـــرَابَ آيَاتِـــهِ الزُّهْـــرِ

٢٠ وَمَـــن يُقِـــمِ الْقُـــرْآنَ كَالْقِـــدْحِ فَلْـــيَكُن
مُطِيعًـــا لِأَمْـــرِ اللهِ فِي السِّـــرِّ وَالْجَهْـــرِ

٢١ أَلَا اعْلَـــمْ أَخِي أَنَّ الفَصَـــاحَةَ زَيَّنَـــتْ
تِـــلَاوَةَ تَـــالٍ أَدْمَـــنَ الدَّرْسَ لِلذِّكْـــرِ

٢٢ إِذَا مَـــا تَـــلَا التَّـــالِي أَرَقَّ لِسَـــانَهُ
وَأَذْهَـــبَ بِالْإِدْمَـــانِ عَنْـــهُ أَذَى الصَّـــدْرِ

٢٣ فَـــأَوَّلُ عِلْـــمِ الذِّكْـــرِ إِتْقَـــانُ حِفْظِـــهِ
وَمَعْرِفَـــةٌ بِـــاللَّحْنِ مِـــن فِيـــكَ إِذْ يَجْـــرِى

٢٤ فَكُـــنْ عَارِفًـــا بِـــاللَّحْنِ كَيْمَـــا تُزِيلُـــهُ
فَمَـــا لِـــلَّذِى لَا يَعْـــرِفُ اللَّحْـــنَ مِـــنْ عُـــذْرِ

٢٥ وَإِنْ أَنـــتَ حَقَّقْـــتَ الْقِـــرَاءَةَ فَاحْـــذَرِ الـــزْ
زِيَـــادَةَ فِيهَـــا وَاسْـــأَلِ الْعَـــوْنَ ذَا الْقَهْـــرِ

٢٦ زِنِ الْحَـــرْفَ لَا تُخْرِجْـــهُ عَـــنْ حَـــدِّ وَزْنِـــهِ
فَـــوَزْنُ حُـــرُوفِ الذِّكْـــرِ مِـــنْ أَفْضَـــلِ الْـــبِرِّ

ومثله لعلم الدين السخاوي في أول قصيدته "عمدة المفيد" في قوله:

يا من يروم تلاوة القـــــرآن ويرود شـــأو أئمة الإتقـان

لا تحسب التجويد مدا مفرطا أو مد ما لا مد فيـه لـــوان

أو أن تشدد بعد مد همــــزة أو أن تلوك الحرف كالسكران

أو أن تفـــوه بهمزة متهوّعـا فيفر سـامعهـا من الغثيـان

للحرف ميزان فلاتك طاغيا فيه ولا تك مخسر المـــيزان[٣٨]

ومن المأثور في هذا عن الإمام نافع بن أبي نعيم إمام القراء بالمدينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما ذكره الحافظ أبو عمرو الداني في كتاب التحديد لحقيقة الإتقان والتجويد قال: "جاء رجل إلى نافع فقال: خذ علي الحدر – يعني سرعة القراءة – قال نافع: ما الحدر؟ ما أعرفه، أ سمِعنا، فقرأ الرجل، فقال نافع: "حدرنا أن لا نسقط الإعراب، ولا نشدد مخففا، ولا نخفف مشددا، ولا نقصر ممدودا، ولا نمد مقصورا، قراءتنا قراءة أكابر أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ سهل جزل، لا نمضغ

(٣٨) انظر كتاب قصيدتان في تجويد القرآن لأبي مزاحم الخاقاني ولعلم الدين السخاوي ص ١٨ - ٢٣.

ولا نلوك، نسهل ولا نشدد، نقرأ على أفصح اللغات وأمضاها، ولا نلتفت إلى أقاويل الشعراء وأصحاب اللغات، أصاغر عن أكابر، مَلِيّ عن وَفِيّ، ديننا دين العجائز، وقراءتنا قراءة المشايخ، نسمع في القرآن ولا نستعمل فيه الرأي، ثم قرأ نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ (٣٩).

(٣٩) التحديد: ٩٣.

ثانياً: الحفظ في السطور بعد الحفظ في الصدور

وكما تم حفظ القرآن بالتلقين في الصدور، فقد تم عن طريق الكتابة حفظه في السطور. وقد تكفل المولى عَزَّوَجَلَّ لهذه الأمة بحفظ كتابها عليها بلا نقصان ولا تحريف فقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ كما تكفل لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بجمعه له وقراءته وبيانه فقال سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾ .

وقال: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢ ﴾ كما قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾ فهو محفوظ في السماء، ومحفوظ في الأرض على السواء. محفوظ في الصدور، ومحفوظ في السطور، ولهذا يسمى قرءانا لجمعه في كليهما، ويسمى كتابا لجمعه بخط القلم، تنبيها على الصفتين، وإظهارا للمزيتين، لما هو معلوم مما قيل عن القلم من أنه أحد اللسانين. وقال سبحانه في معرض المنة على رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ ﴾ فذكر التلاوة التي

هي الوسيلة الأولى للجمع والحفظ، وذكر الخط باليمين الذي هو الوسيلة الأخرى وجمع بينهما في أول ما نزل من القرآن في أوائل سورة العلق، في قوله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

وكذلك تم استقبال الوحي مما كان ينزل بكلتا هاتين الوسيلتين ليتحقق منهما معا ضمان الله الذي لا يخيس، بأن يحفظ القرآن غضا طريا كما نزل لا يطوله نسيان، ولا يتطرق إليه زيادة أو نقصان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾. وكتب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بعض من كان يحضره من السابقين الأولين، وكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب أول الدعوة وغيرهما ممن كان يكتب له، إذ لم تكن الحاجة أول الأمر إلى الكتابة بقدر ما كانت إلى التلقي والمشافهة، ثم ظهرت الحاجة إلى تأليف ما كان ينزل منجما،

حيث كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول "ضعوا هذه الآية في سورة كذا في الموضع الذي يذكر فيه كذا"(٤٠).

وفي حديث زيد بن ثابت عن المرحلة المدنية قال: "كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نؤلف القرآن من الرقاع"(٤١).

وقد اتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كتابا للوحي وغيره أحصى العلماء منهم ما يربو على الأربعين، ودلت الآثار العديدة على أنهم كانوا يؤمرون بكتابة ما كان ينزل عند نزوله، وكانوا أيضا يكتبون لأنفسهم منه صحفا للقراءة فيها ولإقراء غيرهم.

وفي كتب السيرة عند ابن إسحاق وغيره ذكر لصحيفة خباب بن الأرت، وهو من أوائل معلمي القرآن بمكة، وتذكر قصة إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن سبب إسلامه أنه بلغه إسلام أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، فذهب فاقتحم عليهما المنزل، فإذا عندهما قارئ يقرأ عليهما سورة طه وقد كتبها في صحيفة، وكان القارئ

---

(٤٠) انظر البرهان للزركشي: ١/٢٩٤.

(٤١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/٦١١.

خباب بن الأرت، فما زالت أخته به تهدئ من روعه وتكفّ من سَورَةِ غضبه حتى سمع من القارئ ما قرأه عليه من صدر هذه السورة، فلم يلبث أن خرج مسرعا يسأل عن موضع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فدُلَّ عليه فأعلن إسلامه(٤٢).

وهكذا كان لهذه المدونات الجزئية من صحف القرآن أثر في تبليغ القرآن وإسماعه لمن لم يحضر نزول الوحي، أو لم يتأت له الاجتماع برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في بيته وغيره، إذ كانت قريش قد بالغت في بث الرَّصَد على من يأتيه أو يسأل عنه، وكانت لا تكفّ عن حصاره وأذاه إيذاء أصحابه وأتباعه بمختلف الوسائل طوال المرحلة المكية.

ويظهر أنه عليه السلام قد أذن في وقت مبكر من زمن الدعوة بكتابة الصحابة لما كان ينزل من القرآن حتى حمله معهم المهاجرون إلى الحبشة، فقرأوا منه على النجاشي فأسلم. كما كانت هذه القطع المكتوبة المتفرقة في بيوت الصحابة وسيلة من وسائل تعليم القرآن الكريم، ووسيلة لتعاهده وحفظ الجديد منه، كما سوف تعتمد في الجمع الثاني

---

(٤٢) انظر سيرة ابن هشام: ١/٢٨٢ - ٢٨٣.

للقرآن في صدر خلافة أبي بكر عند كتابة المصحف بعد موقعة اليمامة التي استشهد فيها سبعون أو أكثر من القراء في وقائع حرب مسيلمة الكذاب متنبئ بني حنيفة.

وزيادة في توجيه الهمم إلى القرآن وحده في هذه المدونات الجزئية، نهى رسول الله ﷺ عن كتابة ما سوى القرآن من حديثه أو غيره.

قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في كتاب "تقييد العلم" وهو يتحدث عن مزايا التقييد للعلم بالكتابة: "ومن عجز عن الحفظ قلبه نخطّ علمه وكتبه، كان ذلك تقييدا منه له، إذ كتابه عنده آمن من قلبه، لما يعرض للقلوب من النسيان، ويتقسم الأفكار من طوارق الحدثان، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمْحُه "فحمل جماعة من السلف كتابة العلم على ظاهر هذا الخبر، وكرهوا أن يُكتب شيء من

الحديث وغيره في الصحف، وشددوا في ذلك، وأجاز آخرون منهم كتابة العلم وتدوينه"[٤٣].

ثم أسند الحديث بأسانيد عن أبي سعيد الخدري من طرق، وفي بعضها قوله: "استأذنت وفي بعضها قوله:"استأذنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الكتاب، فأبى أن يأذن لنا".

ثم روى الخطيب عن أبي نضرة قال: قلت لأبي سعيد الخدري: أكتبِنا، قال: أتجعلونه مصاحف تقرأونها؟ كان نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يحدثنا فنحفظ عنه، فاحفظوا عنا كما حفظنا عن نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ"[٤٤].

قال الخطيب: "فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول إنما هي لئلا يضاهى بكتاب الله غيره أو يُشتغل عن القرآن بسواه ... كما نهي عن كتابة العلم في صدر الإسلام وجِدَّتِه لقلة الفقهاء في

---

(٤٣) تقييد العلم: ٢٠.

(٤٤) تقييد العلم ٣٦ - ٣٨.

ذلك الوقت والمميزين بين الوحي وغيره، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن"(٤٥).

وتعتبر بداية كتابة القرآن في قطع الأديم والألواح والعظام واللخاف في صدر الدعوة هي الانطلاقة الأولى لبداية تعليم القرآن الكريم تلقينا وتدوينا وحفظا، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هو المعلم الأول، إذ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وهو أفصح من نطق بالضاد، فكان يملي على كتَّابه، وهم يكتبون على وفاق ما يفهمونه من ألفاظه به، ويستفاد ذلك من مثل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾، وقوله في سورة البقرة: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ فقوله: ﴿يَتْلُواْ﴾ وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ متضمن لتعليم القراءة والكتابة إذ كانوا يستفيدون كيفياتها من بيانه وحسن أدائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(٤٥) تقييد العلم ٥٧.

وقد قدمنا قول ابن مسعود لمن أسقط المد في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ أقرأه إياها بالمد، فاستفاد ذلك ابن مسعود من قراءته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ حيث زاد في إشباع الحركات ومد بها صوته، وهذا أمر يستفاد منه أيضا كيفية كتابتها، ولا شك أن الذين كانوا يكتبون له الوحي كانوا يتحرون ألفاظه في مثل هذا لفظا وخطا، وكذلك فعل زيد بن ثابت في كتابة المصحف الأصلي بتكليف من عثمان حين قال عثمان للكتاب الأربعة ليُمل سعيد – يعني ابن العاص – وليكتب زيد"[٤٦]،وذلك بعض ما دل عليه قول عثمان للثلاثة القرشيين وهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسان قريش" قال: "واختلفوا في التابوت، فقال زيد: (التابوه) وقال الثلاثة القرشيون: (التابوت)

---

(٤٦) انظر كتاب المصاحف لابن أبي داود ٢٣ - ٢٤.

فأمر عثمان أن يكتب بلسان قريش"[٤٧]. وعلى هذا كان كتاب الوحي من الخلفاء الأربعة فمن بعدهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الطليعة الأولى للقراء كما كانوا هم الطليعة للمقرئين والمعلمين والكتاب.

وكان صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، ينبه عليهم وينوّه بهم بالقول والفعل، فيستكتبهم ويعهد إليهم بالتعليم، ويثني على قراءاتهم، ويأمر بأخذ القرآن عنهم، ويرغبهم في القيام بهذه الوظيفة لما فيها من الثواب، ويفضل صاحب القرآن ومعلمه على جميع الصحابة فيقول: "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله"[٤٨].

وكان يسأل الوفد من أصحابه: أيهم أكثر قرآنا؟ فيُؤَمِّرُه عليهم"[٤٩].

وحتى عند مواراة شهداء المعركة، كان يقدم في الدفن إلى جهة القبلة أكثرهم قرآنا[٥٠].

---

(٤٧) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٨٢/١: باب نزول القرآن بلسان قريش.

(٤٨) فضائل القرآن لأبي عبيد: ٢٧٢/١.

(٤٩) فضائل القرآن لأبي عبيد ٢٧١/١.

ويقول فيما رواه عنه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"(٥١).

ويثني على أناس بأعيانهم وعلى قراءتهم كما أثنى على الأشعريين بأنه يعرف منازلهم بالليل بكثرة قراءتهم وتهجدهم بالقرآن(٥٢).

ويثني على كبيرهم أبي موسى الأشعري بقوله: "لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود" ويأمر ابن مسعود بالقراءة عليه فقرأ سورة النساء حتى بلغ منها الآية ٤١: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾.

وقال في ابن مسعود: "من سره أن يقرأ القرآن كما أنزل، فليقرأه بقراءة ابن أم عبد"(٥٣).

---

(٥٠) ينظر كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد: باب إعظام أهل القرآن وتقديمهم وإكرامهم ١/٢٧٠ - ٢٧٥.

(٥١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن: ٩/٧٤.

(٥٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: ٥/٨٠.

(٥٣) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر رقم الحديث ٤٢٥٥ - ٤٣٤٠.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بهذا التنويه بأعيانهم، والتنبيه عليهم بأسمائهم يرشد إلى الأخذ عنهم والتعلم منهم، وكان في الوقت ذاته يعمل على تأهيلهم وإعدادهم لتولي منصب القيادة في مشيخة الإقراء، سواء في عهده، أم في عهد خلفائه من بعده، كما أنه كان يهيئ نفوس أصحابه لتقديمهم، والاقتداء بهم، والقبول منهم، والاعتراف لهم بالسبق وزيادة الفضيلة على ما صح عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول عن أبي بن كعب "سيد المسلمين"(٥٤).

وقد أشار إلى كثير مما ذكرناه هنا الحافظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي في تنبيهه على فضل حفظة القرآن من الصحابة فمن بعدَهم وتأصيله لمطلوبية حفظ القرآن الكريم في الشريعة، وفرضيته على الأمة على وجه الكفاية، فقال في صدر كتابه "فضائل القرآن وخصائص تُلاته وحملته" في فصل طويل:

"وبعد فإن هذا الكتاب ألفته في فضائل القرآن وتلاوته وفضل تُلاته وحملته، "وقد سماه الله بالقرآن والفرقان ... ونوه بذكر حملته من

---

(٥٤) انظر الإصابة لابن حجر: ٣٢/١.

حفظته، ورفع من شأنهم، فقال – عز من قائل – ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ومعنى كونوا ربانيين: كونوا علماء حكماء بتعليم الكتاب ودرسكم إياه، وجعلهم مغبوطين في الأنبياء، والسالفة من الأمم قبل أن أظهروا ... وفوض إليهم الإمامة والإمارة، وقطع لهم بحق معلوم في بيت المال لم يقطعه كذلك لغيرهم، وجعلهم خير الأمة وأفضلهم، وخيارهم وأشرافهم، واتخذهم أهلين من بين خلقه، وخواص من بين عباده، واستدرج النبوة من بين جنوبهم من غير وحي إليهم، وجعل حرمتهم على المؤمنين كحرمة أمهاتهم عليهم احتراما ومبرَّة ... ومن وراء جميع ما ذكرته خص علماءهم بخلَّة مستخلصة لهم دون غيرهم من علماء الشريعة، وهي ائتمام الأمة بهم في كتابه عن آخرها على اختلاف نِحلها ومذاهبها من غير نزاع ولا مخالفة، فأعظم بهن من فضائل وخصائص وأكرم، وقال أبو أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اقرأوا القرآن، ولا تغرنكم هذه المصاحف فإن الله لا يعذب بالنار قلبا وعى القرآن"(٥٥).

---

(٥٥) انظر فضائل القرآن لأبي الفضل الرازي: ص٢٧ وما بعدها.

وقد نبه بعض فضلاء المهتمين بدراسة المنهج النبوي في تعليم القرآن العظيم – وهو الشيخ الدكتور أنس أحمد كرزون – في كتابه "صحابة رسول الله وجهودهم في تعليم القرآن الكريم والعناية به" على أن تعليم القرآن تكليف وتشريف، وأن الصحابة – رضوان الله عليهم – أدركوا أنهم يحملون رسالة عظيمة، واستشعروا المسؤولية الكبيرة بقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لهم: بلغوا عني ولو آية[٥٦]، فبذلوا كل طاقتهم لتعلم القرآن وتعليمه، وسارع كل منهم إلى تبليغ وتعليم ما سمعه من آيات القرآن، وهم يدركون أن تعليم القرآن تكليف وتشريف، فالقرآن العظيم أنزله الله سبحانه على خاتم رسله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فحمل هذا التكليف أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ ولبى الرسول الأكرم أمر ربه عَزَّ وَجَلَّ بتبليغ القرآن وتعليمه للناس وتلاوته عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ

(٥٦) جزء من حديث في صحيح البخاري برقم ٣٢٧٤.

﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾. قال: بيد أن هذا التكليف الإلهي لرسوله لا يقتصر على التبليغ والبيان، وإنما يشمل التعليم والتربية وتزكية نفوس الصحابة الكرام بهدي القرآن العظيم.

وهذا ما نبه المولى سبحانه عليه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾.

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لطائف المعارف – ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعني بالكتاب: القرآن، والمراد: ويعلمهم تلاوة ألفاظه، ويعني بالحكمة: فهم معاني القرآن والعمل بما فيه، فلا يكتفي بتلاوة ألفاظ الكتاب حتى يعلم معناه، ويعمل بمقتضاه، فمن جمع له ذلك كله فقد أوتي الحكمة: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٦٩﴾.

فالحكمة هي العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح، وهو نور يقذف في القلب يفهم به العلم المنزل من السماء، ويحض على اتباعه والعمل

به، ثم قال ابن رجب: ومن قال: الحكمة: السنة فقوله حق، لأن السنة تفسر القرآن وتبين معانيه، وتحض على اتباعه والعمل به"[٥٧].

ثم قال الشيخ أنس أحمد كرزون: "وقد ربى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أصحابه الكرام على هذا المنهج القويم، وحملهم تلك الرسالة ليؤدوها لمن بعدهم، ويبلغوها للقاصي والداني، وسارع الصحابة الكرام للقيام بهذه المهمة، فتعلموا القرآن وعلموه، فكانوا كالأرض الطيبة شربت الماء فانتفعت وأنبتت العشب والزرع الكثير فنفعت الناس. أجل لقد قام أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتعليم القرآن الكريم بأوفى ما بلغت إليه الطاقة البشرية في حياتهم ومجتمعهم على بصيرة من أمرهم، وهدى من ربهم، فهداهم الله وهدى بهم، وكانوا هم الأصل الذي يرجع إليه في مختلف البلدان بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والنبع الذي تتفجر منه عيون الإيمان واليقين، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك الذين أخرج الله بهم الناس من

---

(٥٧) ينظر لطائف المعارف من الوظائف لابن رجب الحنبلي: ٩٣.

الظلمات إلى النور، فلهم في عُنُق كل مؤمن ومؤمنة منَّة وفضل يستوجب الشكر(٥٨).

---

(٥٨) صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وجهودهم في تعليم القرآن الكريم للدكتور أنس أحمد كرزون ٧٩ - ٨٢.

ثالثا: حلق تعليم القرآن الكريم في العهد النبوي وأسلوب التلقين والعرض:

كان الهدف الذي يسعى إليه تعليم القرآن الكريم في المنهج النبوي الشريف هدفا واضحا، وهو بناء شخصية المسلم المؤمن الملتزم بدينه، وكان القرآن الكريم هو محور العمل اليومي، وما يتجدد منه من الآي والسور هو الذي يرسم منهج الحياة، ويحرس القيم الجديدة لدى الأمة من الزيغ، ويهدي إلى التي هي أقوم، ومن ثم فقد كان العلم والإيمان فيه قرينين لا يفترقان، فكلما تجدد العلم بنزول الجديد من القرآن، تجدد معه الإيمان فازداد قوة، وإشراقا وعملا.

ولهذا كان ترسيخ الإيمان مقدما على تعليم القرآن ليتذوق القلب حلاوة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ويبادر برغبة وصدق إلى تعلمه وحفظ آياته والعمل به.

ودليل ذلك ما رواه ابن ماجة عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ونحن فتية حزاورة[٥٩]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا"[٦٠].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان، يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه، يقولون: قرأنا فمن أقرأ منا؟ وعلمنا فمن أعلم منا؟ فذلك حظهم، وفي رواية أولئك هم شرار الأمة"[٦١].

وأخرج الإمام أبو بكر البيهقي في سننه من طريق القاسم بن عوف البكري قال: "سمعت عبد الله بن عمر يقول: لقد عشنا بُرهة من دهرنا، وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فنتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ولقد رأينا اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن

---

(٥٩) جمع حزور، وهو الغلام إذا قوي واشتد.

(٦٠) سنن ابن ماجه رقم ٦١.

(٦١) فتح الباري لابن حجر: ٢٥١/١.

قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ينبغي أن يوقف عنده منه ينثره نثر الدقل"(٦٢).

إنها الصورة التي تعكس لنا المنهج النبوي في جوهره وصفائه، وتضع أيدينا على المشكل الذي بدأت نُذُره تظهر في أواخر عهد الصحابة بسبب اختلال هذه المعادلة، وبداية انقلاب الموازين بافتراق الإيمان عن القرآن، وظهور نسق جديد في تعليم القرآن لم يعد يلتقي فيه دفء الإيمان وبشاشته التي استقرت في نفوس الصفوة الأولى من الصدر الأول من السابقين الأولين إلى الإسلام والذين آووا ونصروا وساروا على ذات المنهاج، مع روح القرآن الكريم السارية الحية، ونوره المشرق الوهاج الذي يزود حياة الإيمان بالمدد الإلهي الذي يفجر طاقتها ويحفظها من الضلال والحيرة، ويهديها سبل السلام. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(٦٢) سنن البيهقي: باب البيان أنه إنما قيل يؤمهم أقرؤهم ١٢٠/٣ - المستدرك للحاكم: ٣٥/١.

يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾.

وتلك هي المنظومة التربوية الهادية الأولى التي أينعت وآتت أكلها في جيل الصحابة الكرام، فمثلوا من خلالها طلائع الخيرية لخير أمة أخرجت للناس، وإنما جاء ذلك في نظرنا ثمرة للمنهج النبوي الذي سلكه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في البلاغ والبيان، حيث رباهم بالقرآن على الإيمان، وزاوج بينهما عن طريق الأسلوب الذي اتبعه معهم، والهدي الذي سار عليه في تعليم آي القرآن وترسيخ قيم الإيمان، فكان يلقنهم القدر اليسير من القرآن ثم لا يجاوزونه حتى يتفقهوا فيه علما، وحتى يباشروه عملا، وذلك ما يستفاد من الأثر الذي أخرجه ابن سعد وابن جرير الطبري وغيرهما من حديث أبي عبد الرحمن السلمي قال: "حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعا"(٦٣).

---

(٦٣) طبقات ابن سعد ١٧٢/٦، جامع البيان للطبري ٣٥/١.

وفي غاية النهاية عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نتعلم من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، فما نتعلم العشر التي بعدهن حتى نتعلم ما أنزل الله في هذه العشر من العمل"(٦٤).

وروى الإمام ابن جبارة الهذلي في كتاب الكامل في القراءات عن عثمان بن سعيد ورش عن نافع: أنه "كان من هيبة نافع كان القارئ إذا قرأ عليه لم يملك نفسه، ولهذا ما كان يزيد أحدا على عشر"(٦٥).

وروى أبو يعقوب يوسف الأزرق عن ورش قال: "لما دخل ورش المدينة للقراءة على نافع، كان نافع يؤخذ عليه السَّبَق بالليل، فنام ورش في مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فلما أتى نافع عند الأذان وصلى ركعتين، أخذ ورش السَّبَق فقرأ عشرا، فسمع المهاجرون والأنصار قراءته، فما زال كل واحد يهبه سَبَقه حتى قرأ مائة آية" نقله الهذلي في كامله(٦٦).

---

(٦٤) غاية النّهاية ١/٤٥٩ رقم ١٩١٤.

(٦٥) الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها ٤٢ - ٤٣.

(٦٦) الكامل: ٤٩.

ومن هذا الهدي والمنهج النبوي أخذ الإمام أبو مزاحم الخاقاني قوله عن القدر الذي يسنّ الالتزام به في عرض المتعلمين على شيوخ الإقراء أثناء العرض الجزئي في وقت التعليم:

وحكمك بالتحقيق إن كنت آخذا على أحد أن لا تزيد على عشر [٦٧]

إنه أسلوب من التدرج والتيسير تأتى معه في خلال عهد التنزيل الذي لا يتجاوز في فترتيه المكية والمدنية ثلاثة وعشرين عاما، تربية الأمة وبناء المجتمع المؤمن، على عقائد الإيمان، وحقائق القرآن، وتخريج جيل من الناس "أناجيلهم في صدورهم" كما جاء في حليتهم، يلتقي فيهم العلم بالقرآن، وتشرق في قلوبهم أنوار الإيمان، فلا يمضي إلا القليل بعد هجرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى المدينة حتى يتحول المسجد النبوي ورحابه إلى مدرسة للقرآن، ومحضن لأهل الصفة، وملتقى يوميّ لعلماء وقراء المهاجرين والأنصار يتفقهون في حلقاته، ويتلقنون القرآن آناء الليل وأطراف النهار، في حركة دائبة تغذيها بشاشة الإيمان، وطراوة ما كان يجِدّ ويتنزل من آي القرآن، فما التحق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ بالرفيق الأعلى

(٦٧) الخاقانية البيت رقم ٠٢٨.

حتى بلغ رسالة ربه، وأدى هذه الأمانة إلى حملتها من أمته، وهم خلفاؤه من بعده الذين فتحوا بهذا القرآن أقطار الأرض، وبلغوا بدعوته في عقود يسيرة أطراف المشرق والمغرب، فكانوا أرحم الفاتحين، وحاملي راية هداية أنوار القرآن إلى العالمين.

كما أقاموا المساجد والجوامع والمكاتب ودور القرآن في كل مصر، وأصبحت بيوت المسلمين في البلاد المفتوحة ولها دويّ بالقرآن كدوي النحل قراءة وتلاوة وتعلما وتعليما ونشرا وكتابة وتدوينا. ويواكب كل ذلك على مستوى الصغار إنشاء مكاتب وملحقات بالمساجد لتأديب الصغار في سائر الجهات والأمصار، وقد كان الخلفاء الأولون أكثر عناية بالناشئة من الأجيال الصاعدة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة ودمشق وحمص وفلسطين ومصر واليمن وغيرها من البلاد المفتوحة، فكانت البِعثات من القراء والدعاة تنتدب إليها للقيام بوظيفتي التعليم والدعوة، مما كان له أثره في توطيد الإسلام في تلك الأقطار، وترسيخ عقائد الإيمان، ودخول القرآن إلى كل بيت، وإشاعة التعليم القرآني في كل الأحياء تحت رعاية الدولة، وبدعم من بيت مال المسلمين، مما كان له بالغ الأثر في سرعة اندماج هذه الأقطار، وتوحيدها تحت راية

القرآن، والإسراع بحركة تعريبها، وزوال الأمية عن رجالها ونسائها، وشيوع الثقافة الإسلامية في أرجائها.

وقد وصف الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور هذه الحقبة من عمر الدعوة الإسلامية في كتابه عن التعليم العربي الإسلامي الذي سماه بمقطع من القرآن، وهو قوله تعالى:﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ فقال: "كان العرب أمة أمية، وخاصة أهل تهامة والحجاز ونجد: مواطن الكلام الفصيح، ومنابع الشعر البليغ، فما كان فيهم من يعرف الكتابة إلا أفذاذ متفرقون، منهم نفر بمكة، كان منهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلي بن أبي طالب. ووقع في كتب السيرة أن فداء بعض الأسرى الذين أسروا ببدر كان بأنْ يُعلّم كل أسير عشرة من غلمان الأنصار الكتابة، فإن تعلموا كان ذلك فداء الأسير...".

"فلما جاء الإسلام عُنِي العرب بتلقي الدين، واحتفلوا به احتفالا عظيما، فشُغِلوا بتلقّيه، وكان رياضة أنفسهم، وقانون معاملتهم، فذلك أول تعليم نافع تلقوه، وكتب عليهم يومئذ حفظ ما تيسر لهم (أي: ما يقدرون عليه) من القرآن، وكان الاهتمام بجمع القرآن كله حفظا عن ظهر قلب غاية ما تسمو إليه الهمم، فكان كل ما ينزل من القرآن في

مكة يعيه رجال من كتاب الوحي وغيرهم مثل مصعب بن عمير الذي بعثه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ إلى المدينة قبل الهجرة ليعلم القرآن ويصلي بالناس.

وكان عبد الله بن مسعود ممن صرف عنايته إلى تحصيل ما يستطيع من القرآن، وقد جمع على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد الأوسي وأبو الدرداء من الأنصار" ثم قال: وإلى ذلك أيضا صرفت عناية الخليفتين أبي بكر وعمر حتى جمع القرآن بالعراق على عهد عمر سبعمائة رجل، فما ظنك بغيره كما حكى الطرطوشي في كتاب "بدع الأمور" وأعطى عمر للناس غير المهاجرين والأنصار وأبنائهم من بيت المال بمقدار عندهم من القرآن"[٦٨].

---

(٦٨) كتاب أليس الصبح بقريب ٢٨ - ٢٩.

رابعاً: المعلمون من الصحابة ونظام الحلق القرآنية:

ولقد كان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يحث على التعلم والتعليم بإبراز فضائل القرآن وما أعد الله تعالى من الثواب الجزيل لطالبه وقارئه ومعلمه ومتعلمه. وكتب الحديث وفضائل القرآن حافلة بأحاديثه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك وهي بالعشرات.

فمن ذلك ما أخرجه مسلم عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ونحن في الصفة "فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطحان أو إلى العقيق (٦٩) فيأتي منه بناقتين كوماوين (٧٠) في غير إثم ولا قطيعة رحم؟ فقلنا يا رسول الله نحب ذلك. قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلّم أو يقرأ آيتين من كتاب

---

(٦٩) هما موضعان بالمدينة المنوّرة.

(٧٠) يعني ممتلئتين سمنا.

الله عَزَّوَجَلَّ خير له من ناقتين وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل"[٧١].

وفي الاستيعاب لابن عبد البر من حديث أبي القمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كنا في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِلَقَاً نتحدث، إذ خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من بعض حجره، فنظر إلى الحلق، ثم جلس إلى أصحاب القرآن، فقال: بهذا المجلس أُمرت"[٧٢].

وفي الطبقات الكبرى لابن سعد من حديث مطرّف أنه دخل على عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال له: "إنا كنا ضلالا فهدانا الله، وكنا أعرابا فهاجرنا، يقيم مقيمنا بتعليم القرآن ويغزو الغازي، فإذا تقدم الغازي أقام بتعليم القرآن وغزا المقيم".

---

(٧١) صحيح مسلم رقم الحديث ٨٠٣.

(٧٢) الاستيعاب ٤/١٦٤.

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: وهو يحدث عن أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وعن شأنهم: "كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقا حلقا يقرؤون القرآن، ويتعلمون الفرائض والسنن"[٧٣].

وكان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يأمر القراء منهم بتولي تعليم الحديثي عهد بالهجرة إلى المدينة جماعات وأفرادا. وقد عقد العلامة المغربي الشيخ عبد الحي الكتاني في كتابه "التراتيب الإدارية" باباً في منتهى الأهمية تتبع فيه أسماء المعلمين من الصحابة للقرآن الكريم فذكر منهم:

١- عبادة بن الصامت "وكان يعلم أهل الصفة القرآن"[٧٤].

٢- وأبان بن سعيد بن العاص "دفع إليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وردان جد الفرات بن يزيد

لما أسلم ليَمُونَهُ ويعلمه القرآن"[٧٥].

---

(٧٣) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢٠٤/٣.

(٧٤) التراتيب ٤٠/١.

(٧٥) التراتيب ٤١/١.

٣- أبو عبيدة بن الجراح: دفع إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أبا ثعلبة الخُشني قال أبو ثعلبة: لقيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقلت يا رسول الله ادفعني إلى رجل حسن التعليم، فدفعني إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم قال: دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك".

٤- مصعب بن عمير من بني عبد الدار، هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى ليعلم الناس القرآن ويصلي بهم، بعثه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع الاثني عشر أهل العقبة الثانية ليفقه أهل المدينة ويقرئهم القرآن، فنزل على أسعد بن زرارة" "وهو أول من سمي المقرئ"(٧٦).

٥- معاذ بن جبل: خلفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعد فتح مكة بها مع عتاب بن أسيد يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن(٧٧).

---

(٧٦) التراتيب ١/٤١ السيرة النبوية للحافظ مغلطاي ٣٠.

(٧٧) التراتيب ١/٤١.

وقال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب عن معاذ: "بعثه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ قاضيا على الجَنَد من اليمن "يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم"(٧٨).

٦- عمرو بن حزم الخزرجي النَّجاري: "استعمله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ على نجران ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن"(٧٩).

٧- رافع بن مالك الأنصاري، روى الزبير بن بكار في أخبار المدينة أن رافع بن بكار لما لقي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ بالعقبة أعطاه ما نزل عليه من القرآن في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة، ثم جمع قومه فقرأ عليهم في موضع قال: وعجب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ من اعتدال قلبه"(٨٠).

---

(٧٨) التراتيب ١/٤٣.

(٧٩) التراتيب ١/٤٣.

(٨٠) التراتيب ١/٤٣.

٨- زيد بن ثابت الأنصاري كاتب الوحي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال زيد: "حفظت سبع عشرة سورة من القرآن قبل هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فلما هاجر قرأت عليه، فأعجبه ذلك"[(٨١)] ثم صار كاتبا للوحي، فإذا غاب أبي بن كعب كتب زيد، وقد لزمه ابن عباس وحفظ عليه القرآن، ومات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو لم يتقدم في حفظه لصغر سنه. وفي البخاري قال ابن عباس: توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم يعني المفصل"[(٨٢)].

٩- وقال زيد بن ثابت قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ "تعلم لي كتابة اليهود، فإني لست آمنهم على كتابي، قال: فتعلمتها في سبعة عشر يوما"[(٨٣)].

---

(٨١) المستدرك للحاكم ٤٣١/١.

(٨٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن: ٢٣٣/٣.

(٨٣) التراتيب ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

١٠- وفي الحلية لأبي نعيم عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه "ذكر سبعين رجلا كانوا إذا جنهم الليل أووا إلى معلم لهم بالمدينة يدرسون القرآن"[٨٤].

١١- وفي الاكتفا في سيرة المصطفى للكلاعي قال: "أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أسرى غزوة بدر من كان منهم يعرف الكتابة أن يعلم عشرة من الغلمان ويخلي سبيله قال: فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمة الأنصار"[٨٥].

١٢- وفي الاستيعاب لابن عبد البر عن عبد الله بن سعيد بن العاص الأموي أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أمره أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة، وكان كاتبا محسنا"[٨٦].

---

(٨٤) حلية الأولياء ١٢٣/١.

(٨٥) كتاب الاكتفا ٨٤/٣ ومثله في الكامل للمبرد ١٥٤/١.

(٨٦) الاستيعاب ٣٦٦/٢ بجانب الإصابة لابن حجر.

١٣- وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: "علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن"(٨٧).

١٤- الشفاء أم سليمان بن أبي حتمة كانت قارئة، قال أبو داود في سننه يروي بسنده عنها قالت: "دخل علي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأنا عند حفصة فقال: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة"(٨٨).

١٥- وولدها سليمان بن أبي حتمة كان قارئا، وفي الطبقات الكبرى لابن سعد "أنه ولاه عمر بن الخطاب الصلاة بالنساء في تراويح رمضان بالمسجد النبوي"(٨٩).

١٦- وفي الاستيعاب عن الواقدي في ذكر عبد الله بن أم مكتوم المؤذن قال: "قدم المدينة مع مصعب بن عمير بعد بدر بيسير فنزل

---

(٨٧) التراتيب الإدارية ٤٨/١.

(٨٨) سنن أبي داوود والنملة: قروح في البدن تخرج في الجنب كما اللسان: نمل.

(٨٩) الطبقات ١٥٠/٤.

"دار القراء". وفي تاريخ المدينة لعمر بن شبة مثله، وأنه نزل دار القراء، وهي دار مخرمة بن نوفل[٩٠].

١٩- وروى ابن ماجة والدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: "خياركم من تعلم القرآن وعلمه، وأخذ بيدي فأقعدني مقعدي هذا أقرئ"[٩١].

وقد نشأ في الأمصار المفتوحة زمن الراشدين نظام الحلق القرآنية في المساجد، ويقال إن أول من أحدثه أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما ولي الإمارة بالعراق في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

حلقة أبي موسى الأشعري بمسجد البصرة بالعراق:

وهو الصحابي الجليل عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري اليماني، هاجر إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عند فتح خيبر، وحفظ القرآن وعرضه على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وكان من نجباء الصحابة. وكان من

---

(٩٠) تاريخ المدينة ١١٦/٢.

(٩١) سنن ابن ماجه رقم الحديث ٢١٣ سنن الدارمي رقم الحديث ٣٣٣٩.

أطيب الناس صوتا بالقرآن، سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قراءته بالليل فقال: لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود، وقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: لو علمت أنك تستمع إلي لحبرته لك تحبيرا، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رآه قال ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده[٩٢].

وقد ولاه عمر أميرا على البصرة، ومات عمر وهو وال عليها، وأوصى من يلي بعده أن يقره على ولايته سبع سنين فأقره عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكان القراء من أهل البصرة يسمون مصحفه "لُباب القلوب".

وقد كثر الآخذون للقرآن عنه في المسجد الجامع بالبصرة كثرة بالغة، فكان يجلسهم حلقا حلقا، ولذلك قيل عنه: إنه أول من أحدث الحِلق للقراءة في المساجد.

---

(٩٢) غاية النهاية ٤٣٣/١ ترجمة ١٨٥١.

أخرج الطبراني في الكبير بسند على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال: "كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ(٩٣).

وروى عبد الرحمن بن مهدي بسنده عن أبي رجاء قال: "كان أبو موسى – يعني الأشعري يعلمنا القرآن خمسا خمسا"(٩٤).

توفي أبو موسى سنة ٤٤ وقيل بعدها (٩٥).

وكانت لعدد آخر من كبار الصحابة والتابعين حلق مماثلة في مساجد الأمصار الكبرى في المدينة ومكة والشام والعراق، ومنها: حلقة الصحابي الجليل أبي الدرداء: عويمر بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بدمشق.

---

(٩٣) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٣/١.

(٩٤) رسالة التنبيه على الخطأ والجهل والتمويه لأبي عمرو الداني (مخطوطة).

(٩٥) غاية النهاية ٤٤٣/١.

أقدم أضخم محضرة في زمن الصحابة لأبي الدرداء في مسجد دمشق.

قال الحافظ الذهبي في ترجمة أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ت ٣٢هـ).

"قال سويد بن عبد العزيز: كان أبو الدرداء إذا صلى الغداة في (جامع دمشق) اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفا، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك.

وكان ابن عامر[٩٦] عريفا على عشرة – كذا قال سويد – فلما مات أبو الدرداء خلَفه ابن عامر.

---

(٩٦) هو عبد الله بن عامر اليحصبي إمام أهل الشام في القراءة وأحد القراء السبعة وأقدمهم وفاة توفي سنة ١١٨ هـ، ترجمته في معرفة القراء الكبار للذهبي: ٦٧/١ وغاية النهاية لابن الجزري ٤٢٥/١ - ٤٢٦ ترجمة ١٧٩٠.

وعن مسلم بن مِشْكَم قال: قال لي أبو الدرداء: اعدد من يقرأ عندي القرآن. فعددتهم ألفا وستمائة ونيّفا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وكان أبو الدرداء يكون عليهم قائما، وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"(٩٧).

وقال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: "إن أبا الدرداء هو الذي سن الحلق للقراءة"(٩٨).

حلقة أبي عبد الرحمن السلمي شيخ الإمام عاصم بن أبي النجود الكوفي بمسجد الكوفة بالعراق.

وكانت بالكوفة حلقة أبي عبد الرحمن المقرئ. وهو عبد الله بن حبيب السلمي، قرأ على أبيّ بن كعب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي

(٩٧) معرفة القراء الكبار ٣٨/١ - ٣٩.

(٩٨) سير أعلام النبلاء ٢٤٩/٢.

طالب وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . وقال أبو إسحاق السبيعي: "كان يقرئ الناس في المسجد الأعظم بالكوفة أربعين سنة"(٩٩).

وعن أبي عبد الرحمن أنه جاء وفي الدار جلال وجزر قالوا: بعث بها عمرو بن حريث، لأنك علمت ابنه القرآن، قال: ردوها، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجرا".

وقال عاصم بن أبي النجود: "كنا نأتي أبا عبد الرحمن ونحن أُغيلِمة أيفاع، فيقول: لا تجالسوا القُصاص غير أبي الأحوص"(١٠٠). وكان الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرأ عليه(١٠١).

وكان أبو عبد الرحمن السلمي يروي قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ويقول: "ذاك الذي

---

(٩٩) سير أعلام النبلاء ٢٦٧/٤.

(١٠٠) سير أعلام النبلاء ٢٧١/٤.

(١٠١) سير أعلام النبلاء ٢٧٢/٤.

أقعدني هذا المقعد"[١٠٢]. وتوفي رحمه الله سنة ٧٤هـ وقيل سنة ٧٣هـ.

وعن إسماعيل بن أبي خالد قال: كان أبو عبد الرحمن – يعني السلمي – يعلمنا القرآن خمس آيات قال: وكان يقرئنا عشرين بالعشي، ويعلمنا أين الخمس؟ وأين العشر؟"[١٠٣].

---

(١٠٢) غاية النهاية ٤١٣/١ - ٤١٤ ترجمة ١٧٥٥.

(١٠٣) رسالة التنبيه للداني (مخطوطة) ٤٧/١.

خامسا: إنشاء الكتاتيب في الصدر الأول لتعليم القرآن للصغار والمشارطة عليه:

ويبدأ هذا الطور من تاريخ تعليم القرآن للناشئة الصغار مما بعد الهجرة النبوية، إلا أنه لم تكن مؤسسات خاصة فيما يبدو إلا في وقت متأخر، وربما ظهرت أوائله في العهد النبوي. وفي كتاب زاد المعاد لابن القيم قال في حديثه عن بيعة العقبة الأولى: "فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق"(١٠٤).

وقد أرخ له العلامة محمد الطاهر بن عاشور في كتابه في التعليم الإسلامي بالسنة الثامنة من الهجرة أو بعدها حيث يقول: "ولما حدث في المدينة بعد فتح مكة صبيان من أولاد المسلمين مثل عبد الله بن عباس وأسامة بن زيد(١٠٥) وعبد الله بن الزبير أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

(١٠٤) زاد المعاد ١/١٠٠.

(١٠٥) ما ذكره عن أسامة بن زيد من كونه بعد فتح مكة من الصبيان لا يصح، لأن فتح مكة كان في السنة الثامنة بعد الهجرة، وقد عقد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

أن يتعلموا" وقد روي عنه أن تعليم الصبيان كتاب الله يطفئ غضب الله، وعن ابن عباس أنه قال: ختمت المحكم على عهد رسول الله" يعني المفصل من القرآن، وهو من سورة الحجرات إلى آخر سورة الناس"(١٠٦).

وقال ابن عاشور بعد هذا في كتابه: "وفي العتبية من سماع عيسى عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك مرفوعا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قدَّر لمن يعلم الهجاء ثمانية دراهم، وذكر ما زاد على ذلك من سور القرآن، قال: وقال غيره عن مالك: إذا انتهى الصغير إلى حد الكتب في اللوح بالقلم وأحسن الكتب فللمعلم ثمانية دراهم، وكذلك في التلقين بلا لوح"(١٠٧).

لأسامة الراية وجعله أميرا على الجيش بعد غزوة مؤتة قبل وفاته في أول السنة الحادية عشرة وسنه يومئذ تفوق السابعة عشرة.

(١٠٦) كتاب أليس الصبح بقريب ٢٩.

(١٠٧) أليس الصبح بقريب ٤٦.

قلت: قوله في العتبية عن مالك مرفوعا إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قدّر لمن يعلم الهجاء ثمانية دراهم" يدل على أن الكتاتيب كانت معروفة في المدينة في العهد النبوي، وكانت تتولى تعليم الصغار.

ومن تتبع أخبار هذا الطور في كتب التاريخ والسير يقف على شواهد كثيرة على ذلك، وأن ما ظهر في عهد الراشدين إنما كان امتدادا لما بدأ في عهد النبوة.

وقد نوه العلامة ابن خلدون في مقدمته للقرآن الكريم عند الأمة الإسلامية عموما من إعطائه موضع الصدارة والأولوية في التعليم، وخاصة فيما كان عليه الحال في الصدر الأول فقال: "اعلم أن تعليم الولدان القرآن شعار الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض فنون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات"[١٠٨].

---

(١٠٨) مقدمة ابن خلدون ٥٣٨.

قلت: هكذا فطن العلامة ابن خلدون إلى أهمية تعليم القرآن للولدان لما يسبق منه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن" وتلك التفاتة منه إلى عمق المشكلة التي سبق التنبيه عليها، وهي وقوع الانفصام بين الإيمان والقرآن، مما جر بالأمة إلى الواقع المتردي الذي تعيش فيه، مما يقتضي وجوب العودة إلى المنهج النبوي وأساليبه في التعليم والتزكية بالقرآن والإيمان والعلم والعمل؛ وذلك أمر يجب أن نبادر إليه في مؤسساتنا ومعاهدنا حتى نعيد الأمر إلى نصابه، ونردم الهوة التي ما تزال تزداد اتساعا يوما بعد يوم بفعل المؤثرات والفلسفات المختلفة في عصرنا.

ولذلك يحتاج تعليم القرآن الكريم والمؤسسات الشرعية إلى الدعم الدائم ليواصل أداء رسالته والقيام بوظيفته في الأمة وفق المنهج النبوي في التعليم والتزكية.

وإنما القصد بالدعم الإعانة على الطاعة، وتفريغ أولئك المعلمين والمشرفين على المؤسسات للقيام بهذا الواجب الكفائي عن المسلمين،

"ولأن هذا من مسؤولية الدولة المسلمة في الدعوة إلى الله وحماية حوزة الدين، ولو لم تقم الدولة المسلمة بواجبها في ذلك بسد هذه الثغرة، كان ذلك تقصيرا منها وإخلالا لا مفر من ظهور آثاره في كيانها ومنظومة قيمها التي تؤمن بها، كما أنه ينتج خللا ظاهرا لا شك فيه في النهوض بالواجب الشرعي في تبليغ رسالة الإسلام وحفظ الدين الحق الذي هو أحد الكليات الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها ورعايتها.

وكذلك يجب أن يخصص من وفر الدولة وميزانيتها قسط وافر لرعاية هذه المؤسسات ودعمها وتجهيزها وإمدادها بالكفاءات العلمية والتعليمية، والضرورة الشرعية تحتم أن يبذل لمعلمي القرآن والعلوم الشرعية من حديث وفقه وتفسير وتجويد وعربية ما يقوم بهم عطية من بيت مال المسلمين أو من مال الدولة المعنية حتى يتفرغوا للتعليم، فهذا جائز عند جماهير الفقهاء قديما وحديثا، لأنه ليس بعوض، وإنما القصد منه الإعانة على ما هم بصدده.

وهو في حكم ما يعطى لأئمة المساجد والمؤذنين من بيت مال المسلمين، في مقابل تفرغهم عن شغلهم الخاص بأداء واجب كفائي نيابة عن باقي المسلمين.

ونظيره أخذ خليفة المسلمين ونوابه وأعوانه وقضاة المسلمين وعمالهم من بيت المال ما يفي بحاجتهم، لاشتغالهم بواجبات أعمال الخلافة وتدبير شؤون الدولة عن أعمالهم الخاصة وأسباب معاشهم، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعطي المجاهدين ومن لهم قدم صدق في الإسلام من بيت المال، كل على قدر سابقته وما قدمه لجماعة المسلمين من المنفعة(١٠٩).

وعلى مثل هذا نبه الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن فقال: " ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين وعليه إعانته وإلا فعلى المسلمين، لأن الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ولي الخلافة وعيّن لها لم يكن عنده

---

(١٠٩) ينظر كتاب التّكسُّب بالقرآن وأخذ الأجرة عليه: دراسة مقارنة لمحمد مصطفى شعيب: ٣٠ - ٣١.

ما يقيم به أهله، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أين أنفق على عيالي؟ فردوه وفرضوا له كفايته"(١١٠).

وبذلك يمكن أن نضع الأسس لتعليم قرآني ناجح يعيد جمع كلمة الأمة ووحدة صفها حتى تستعيد مكانتها ومتانتها وقوتها واستحقاقها لمقام الشهادة الذي انتدبها ربنا عَزَّوَجَلَّ له في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾.

---

(١١٠) الجامع لأحكام القرآن ١/٣٣٦.



التجويد يُجمِّل قراءة القرآن، ويزيِّنها، ويُظهِر معانيها، قال ابن الجزري رحمه اللَّه (ت ٨٣٣هـ): «التجويد حلية التلاوة، وزينة القراءة»[١١١].

وتعريف التجويد: إعطاء الحروف حقها، من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف.

قال أبو عمرو الداني رحمه اللَّه (ت ٤٤٤هـ): « فتجويد القرآن: هو إعطاء الحروف حقوقها، وترتيبها مراتبها، ورد الحرف من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكلِه، وإشباع لفظه، وتمكين النطق به على حال صيغته وهيئته، من غير إسراف ولا تعسّفٍ، ولا إفراط ولا تكلف»[١١٢].

---

(١١١) النّشر في القراءات العشر (٢١٢/١).

(١١٢) التّحديد في الإتقان والتّجويد (ص: ٧٠).

وكذا قال محمد ابن الجزري رحمه الله (ت: ٨٣٣هـ)[(١١٣)].

حِرْصُ العُلَمَاءِ عَلَى إِصْلَاحِ الأَلْسُنِ فِي قِرَاءَةِ القُرْآنِ

إصلاح الألسن، ومنعها من اللّحن، يتحقق بأمرين

١- عدم تغيير أصلِ ألفاظ اللُّغة أو أوزانِها، بما يخالف نظم الكلام العربيّ وتراكيبِه.

٢- عدم تغيير طريقة النطق بحروفه بتكلُّف وزيادة، أو تقصيرٍ ونقص، ومن ذلك: الزيادةُ في المدود والغُنَّات، أو تفخيم المرقق، وترقيق المفخَّم، أو اختلاس الحروف، ونحو ذلك.

وقد حرص العلماء على إصلاح الألسن المائلة، وحذروا من بقاء بعض الناس على اللحن؛ لأنه نقص وعيب.

قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨هـ): «فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربيّ؛ ونصلح الألسن المائلة عنه؛ فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنَّة؛ والاقتداء بالعرب في خطابها.

---

(١١٣) النّشر في القراءات العشر (٢١٢/١).

فلو ترك النَّاس على لحنهم كان نقصاً وعيباً، فكيف إذا جاء قومٌ إلى الألسنة العربيَّة المستقيمة والأوزان القويمة، فأفسدوها بمثل هذه المفردات والأوزان المفسدة للِّسان النَّاقلة عن العربيَّة العرباء؟!».

اخْتِيَارُ مُعَلِّمِ القُرْآنِ

اختيار معلم القرآن أساس في صحة تعلم القرآن، فيشترط أن يكون المعلِّم من أهل العلم بالقراءة.

١- قال مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت ٤٣٧هـ): «يجب على طالب القرآن أن يتخير لقراءته ونقله وضبطه أهل الديانة والصيانة والفهم في علوم القرآن، والنفاذ في علم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن، وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم.

فإذا اجتمع للمقرئ صحة الدين، والسلامة في النقل، والفهم في علوم القرآن، والنفاذ في علم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن كملت حاله، ووجبت إمامته»(١١٤).

---

(١١٤) الرعاية (ص ٨٩)

أفضل طريقة لتعليم القرآن الكريم:

١- أن يعلّمه المعلّم مخرج الحرف الصحيح، من غير تكلف في نطق الحرف.

أ- قال أبو محمد عبد الله ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ): «الغلام الرَّيِّض [١١٥] والمستأنِف[١١٦] للتعلم، نختار له: أن يؤخذ بالتحقيق عليه من غير إفحاش - في مد، أو همز، أو إدغام -؛ لأن في ذلك[١١٧] تذليلاً للسان، وإطلاقًا من الحبسة، وحلاً للعقدة، وما أقلّ من سلم من هذه الطبقة في حرفه من الغلط والوهم»[١١٨].

ب- قال مكي بن أبي طالب: «القراء يتفاضلون في العلم بالتجويد، فمنهم من يعلمه رواية وقياسا وتمييزًا، فلذلك للحاذق الفطن.

---

(١١٥) أي: المذلَّل، والمراد: الصَّبيّ المهيَّأ للتّعلُّم. تاج العروس (٣٧٠/١٨).

(١١٦) أي: المبتدئ.

(١١٧) أي: بالتحقيق عليه من غير إفحاش.

(١١٨) تأويل مشكل القرآن (ص٤٣).

ومنهم من يعلمه سماعًا وتقليدًا، فذلك الوهن الضعيف، لا يلبث أن يشك، ويدخله التحريف والتصحيف، إذ لم يبن على الأصل، ولا نقل عن فهم.

قال: ونقل القرآن فطنة ودراية أحسن منه سماعًا ورواية.

قال: فالرواية لها نقلها، والدراية لها ضبطها وعلمها.

قال: فإذا اجتمع للمقرئ النقل والفطنة والدراية، وجبت له الإمامة، وصحت عليه القراءة، إذا كان له مع ذلك ديانة»[١١٩].

ج- قال ابن الجزري رحمه الله (ت ٨٣٣هـ) في بيان نوع التحقيق الصحيح في القراءة: «التحقيق يكون لرياضة الألسن، وتقويم الألفاظ، وإقامة القراءة بغاية الترتيل، وهو الذي يستحسن ويستحب الأخذ به على المتعلمين.

من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط - من تحريك السواكن، وتوليد الحروف من الحركات، وتكرير الراءات، وتطنين النونات بالمبالغة في الغنات -»[١٢٠].

---

(١١٩) الرعاية (ص ٨٩ - ٩٠).

د- قال ابن الجزري رحمه الله (ت ٨٣٣هـ): «ولا أعلم سبباً لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد، ووصول غاية التَّصحيح والتَّشديد: مثل رياضة الألسن، والتَّكرار على اللفظ المتلقَّى من فم المحسن[121]»[122].

٢- أن يكرر المتعلّم الحرف الذي يصححه المعلم.

قال العلامة أبو الحسن الصفاقسي رحمه اللَّه (ت ١١١٨هـ) في بيان طريقة العلماء المحققين في النطق بالهمزة: «وقد كان العالمون بصناعة التجويد ينطقون بها سلسة، سهلة برفق، بلا تعسف، ولا تكلف، ولا نبرةٍ شديدةٍ، ولا يتمكن أحدٌ من ذلك إلّا بالرياضة، وتلقّي ذلك من أفواه أهل العلم بالقراءة»[123].

---

(١٢٠) النّشر في القراءات العشر (٢٠٦/١).

(١٢١) أي: المعلم.

(١٢٢) النّشر في القراءات العشر (٢١٣/١).

(١٢٣) تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين (ص٤٧).

التَّكَلُّفُ فِي قِرَاءَةِ القُرآنِ

التكلف في قراءة القرآن: إظهار الكلفة في قراءته، مع مشقة تناله في ذلك(١٢٤).

وهناك ألفاظ يرجع معناها إلى التكلف وهي: التعسف، والتنطع، والتشدق، والتفيهق، والغلو؛ وبيان معانيها ما يلي:

١- التَّعَسُّف: بمعنى التكلف، وبينهما فرق بحسب أصل اللغة؛ فالتكلف: ارتكاب الأمر الشاق، والتعسف: الأخذ على غير الطريق، ولمَّا كان التعسف غير خال عن التكلف استعملوه في معناه(١٢٥).

٢- التَّنطُّع: يطلق على كلِّ قول أو فعل فيه تكلُّف.

وأصله: التصنع من نِطع الفم؛ أي: أقصاه، ويكون غالبًا على وجه التكبر(١٢٦).

---

(١٢٤) المفردات في غريب القرآن (ص ٧٢١)، لسان العرب (٣٠٧/٩)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٤١٨/٣).

(١٢٥) شرح المقد مة الجزر ية ا طاش ك بري زاده (ص١١٥)، ال عين (٣٣٩/١).

٣- التَّشدُّق: التكلف في الكلام بملء شدقه، تعاظمًا واستعلاءً على غيره.

مأخوذ من الشِّدق وهو: جانب الفم.

فالمتشدِّق متكلِّف في الكلام؛ لأنه يلوي به شدقه للتفصح(١٢٧).

٤- التفيهق: التوسع في الكلام بفتح الفم؛ ليميل به قلوب الناس وأسماعهم.

مأخوذٌ من الفَهَق وهو: الامتلاء والاتساع(١٢٨).

٥- الغلو: التَّشدد، ومجاوزة الحدّ(١٢٩).وهو المعنى الجامع لما تقدم.

---

(١٢٦) تهذيب اللّغة (١٠٥/٢)، لسان العرب (١٣/١).

(١٢٧) شرح سنن أبي داوود لابن رسلان (١٦٧/١٩)، النّهاية في غريب الحديث (٤٥٣/٢)، تحفة الأبرار شرح مصابيح السُّنَّة (٢٣٤/٣).

(١٢٨) شرح المشكاة للطيبي (٣١٠٦/١٠)، الميسر في شرح مصابيح السُّنَّة للتوربشتي (١٠٥٠/٣).

(١٢٩) النّهاية في غريب الحديث (٣٨٢/٣)، الصحاح (٢٤٤٨/٦)، المصباح المنير (٤٥٢/٢).

أَنْوَاعُ التَّكَلُّفِ فِي قِرَاءَةِ القُرآنِ

ذكر العلماء رحمهم الله أمثلةً للتكلف في قراءة القرآن الكريم، ويشترك معها في الحكم كل ما كان من جنسها أو فوقها في وجود معنى التكلف، ومما ذكره العلماء من الأمثلة:

١- تقعير الفم: المبالغة في إخراج الحروف من أقصى الفم(١٣٠).

٢- تعويج الفكّ: ميل الفك عن هيئته المعتادة، فتميل به الحروف التي لا إمالة فيها (١٣١).

٣- تمضيغ اللسان - لوك الحروف - : أن يبالغ في إخراج الحروف، فيمضغ الحروف مضغًا، كمن يمضغ الطعام والعلكة(١٣٢).

٤- التعسف في شِدَّة إخراج الحروف.

---

(١٣٠) دراسات في علم اللُّغة (ص٢٠٧). الصّحاح تاج اللُّغة (٧٩٧/٢) الفائق في غريب الحديث (٤٤٤/٣).

(١٣١) مقاييس اللُّغة (٧٩/٤).

(١٣٢) بيان العيوب لابن البناء (ص ٣٨).

٥- تمطيط الشَّدِّ: تطويل زمن الحرف المشدد عن مقداره المحدد[١٣٣].

٦- التهوع بنطق الهمزة: أن يتكلف في إخراجها من أقصى الحلق فيصير كالمتهوع - وهو المتقيِّئ -[١٣٤].

فيجب أن يخرجها سهلة من غير لكز[١٣٥] ولا شدٍّ[١٣٦].

٧- تشديد الهمزة المتطرفة بعد المدِ في حال الوقف عليها، نحو: «السماء»، والواجب النطق بالهمزة ساكنة من غير تشديد.

٨- المبالغة في تكرار الراء.

٩- حصرمة الراءات: إخفاء تكريرها إذا كانت مشدَّدةً، فتكون شبيهةً بالطَّاء[١٣٧].

---

(١٣٣) الصّحاح (٥٣٧/٢).

(١٣٤) العين (١٧٠/٢)، الصّحاح (١٣٠٩/٣).

(١٣٥) اللَّكز: الدفع، أي: من غير تكلف في إخراج الهمزة بدفعها. تاج العروس (٣١٩/١٥).

(١٣٦) التمهيد في علم التّجويد (ص ١٠٨)، الإيضاح في القراءات (ص ٣٤٥)، التحديد في الإتقان والتّجويد (ص٧٣).

١٠- تصفير الصَّادات: إطالة الصفير عند الصاد الساكنة، أو المبالغة في بيانه مبالغة بيّنة حتى مع الحركة.

١١- الإفراط في الإشباع - المد- : الزيادة في المد على المقدار المحدَّد.

١٢- مد ما لا مدَّ فيه: الزيادة في الحركات بحيث يتولد منها حرف مد لا وجود له.

١٣- تطنين النونات أو الغنات: المبالغة في زمن الغنة(١٣٨).

١٤- الطغيان في ميزان الحرف: زيادة الزمن المعتاد في النطق بالحرف، فيتَّكئ على السَّاكن أو المشدَّد، أو يزيد في مقدار الحركة، ونحو ذلك.

١٥- الإلحاش في الإدغام: التكلف في بيانه، أو الزيادة في غنة النون والميم عند إدغامهما، فيختل ميزان الحروف أو الصوت.

---

(١٣٧) النّشر في القراءات العشر (٢١٩/١).

(١٣٨) النّ شر في ال قراءات الع شر (٢٠٦/١)، التّنب يه ع لى اللّحن لل سعيدي (ص٢٧٧).

١٦- الإفحاش في الإضجاع: الزيادة في إمالة الحرف الممال فيصبح كسرة خالصة أو قريبًا منها، أو إمالة ما لا إمالة فيه بسبب المبالغة في الترقيق.

١٧- تسمين الحروف: تفخيم الحروف المرققة، أو المبالغة في تفخيم الحروف المفخمة(١٣٩).

١٨- الوسوسة في إخراج الحروف، وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها.

١٩- إعادة الكلمة: تكرارها من غير موجب طبيعي، أو مراعاة لمواضع الوقف والابتداء.

٢٠- ترعيد الصوت: اهتزاز الصوت بالقراءة كأنه يرتعد من برد(١٤٠).

٢١- تقطيع المد: أن يرفع صوته بالمد ثم يخفضه أو العكس.

ويكثر ذلك فيمن يتكلف القراءة بالتطريب والألحان(١٤١).

---

(١٣٩) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري (١٠٣/١).

(١٤٠) الموضح في التّجويد (ص ١٥١).

(١٤١) بيان العيوب لابن البنّاء (ص ٣٨ - ٣٩)، الموضح (ص١٥٢).

٢٢- قراءة النغم والتَّمطيط: القراءة بالمقامات المصطنعة، والألحان الموضوعة، فيقع من أصحابها: قصر الممدود، ومد المقصور، وتحريك الساكن، وتسكين المتحرك، وهمز المخفف، وتخفيف المهموز، ونحو ذلك[١٤٢].

سبب التكلف في قراءة القرآن:

١- تعلم تلاوته على من لم يعرف طبع اللغة، ومن أقوال العلماء في ذلك:

أ- قال أبو محمد عبد الله ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ): «وقد كان الناس يقرؤون القرآن بلغاتهم، ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار، وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلف[١٤٣]، فهفوا في كثير من الحروف، وزلوا فأخلوا»[١٤٤].

---

(١٤٢) بيان العيوب لابن البناء (ص ٤٤).

(١٤٣) أي: ليس عندهم لغة متقنة لا بالطّبع ولا بتكلّف تعلم اللُّغة.

(١٤٤) تأويل مشكل القرآن (ص٤٢).

ب- قال أبو القاسم الأنصاري القرطبي رحمه الله (ت٤٦١): «والقراءة هي على طباع العرب تحسُن وتزين بألسنتهم»[١٤٥].

ج- قال أبو شامة المقدسي رحمه اللَّه (ت ٦٦٥هـ): «والكلام في المخارج إنما هو على حسب اشتقاق الطبع، لا على التكلف»[١٤٦].

٢- عدم الأخذ عن المحقّقين في نطق الحروف، فلا يكفي وجود الإسناد عند المقرئ، بل لابد من إحكامه العلم بأقوال العلماء في طريقة النطق بالحروف على قانون العرب وسليقتهم، ومن أقوال العلماء في ذلك:

أ- قال أبو عمرو الداني رحمه الله (ت ٤٤٤هـ): «وقراء القرآن متفاضلون في العلم بالتجويد والمعرفة بالتحقيق، فمنهم من يعلم ذلك قياسًا وتمييزا، وهو الحاذق النبيه، ومنهم من يعلمه سماعا وتقليدًا، وهو

---

(١٤٥) الموضح في التّجويد (ص ١٥٣).

(١٤٦) إبراز المعاني من حرز الأماني (ص ٧٤٦).

الغبي الفهيه[١٤٧]، والعلم فطنة ودراية آكد منه سماعا ورواية. وللدراية ضبطها ونظمها، وللرواية نقلها وتعلمها»[١٤٨].

ب- قال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ): «أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء في هذه البلاد وما التحق بها: هو إطلاق التفخيمات والتغليظات على طريق ألفتها الطباعات، تُلُقِّيَت من العجم، واعتادتها النبط[١٤٩]،واكتسبها بعض العرب، حيث لم يقفوا على الصواب ممن يرجع إلى علمه، ويوثق بفضله وفهمه»[١٥٠].

٣- عدم العلم بمقاصد الشريعة في النهي عن التكلف، بتعسير ما يسَّره اللَّه، وضيَّق ما وسَّعه اللَّه.

---

(١٤٧) الفَهِيهُ: الرَّجُل الَّذي ينسى. لسان العرب (٥٢٥/١٣).

(١٤٨) التّحديد في الإتقان والتجويد (ص٦٩).

(١٤٩) النَّبطُ: جِيلٌ من النّاسِ كانوا يَنزِلُونَ سَوادَ الْعِرَاقِ، ثُمَّ اسْتُعمِلَ في أَخْلَاطِ النَّاسِ وَعَوَامِّهِم. المصباح المنير (٥٩٠/٢).

(١٥٠) النّشر في القراءات العشر (٢١٥/١).

قال أبو محمد عبد الله ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ) في سبب التكلف في تعليم القرآن: «حَمْلُه[١٥١] المتعلمين على المركب الصعب، وتعسيره على الأمة ما يسره الله، وتضييقه ما فسَّحه»[١٥٢].

لِمَاذَا يَسْتَحسِنُ بَعْضُ النَّاسِ قِرَاءَةَ القُرآنِ بِالتَّكلُّف؟

استحسن بعض الناس قراءة القرآن بالتكلف لأمرين:

١- ظنوا أن قراءة القرآن بالتجويد لا تحقق إلّا بمشقة وصعوبة.

٢- ظنوا أن التكلف في القراءة، والتطويل في تعلمها دليلٌ على الإتقان والحذق في القراءة.

قال أبو محمد عبد الله ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ) في سبب استحسان بعض الناس قراءة القرآن بالتكلف: «وليس ذلك إلّا لما يرونه من مشقتها وصعوبتها، وطول اختلاف[١٥٣] المتعلم إلى المقرئ فيها.

---

(١٥١) أي: المعلِّم.

(١٥٢) تأويل مشكل القرآن (ص٤٢).

(١٥٣) أي: تردد. تاج العروس. (٢٥١/٢٣).

فإذا رأوه قد اختلف في أمّ الكتاب عشرًا[١٥٤]،وفي مئة آية شهرًا، وفي السبع الطّوال حولاً.

ورأوه عند قراءته مائل الشّدقين[١٥٥]،دارَّ الوريدين[١٥٦]،راشحَ الجبينين[١٥٧]،توهَّموا أن ذلك لفضيلة في القراءة وحذق بها»[١٥٨].

أَدلَّةُ النَّهيِ عن التَّكلُّف

جاء الإسلام بالنهي عن التكلف في جميع الأمور، ومن الأدلة على ذلك:

---

(١٥٤) أي: عشر ليالٍ. والمراد: أن المعلّم إذا مكث عشر ليالٍ يعلّم المتعلّم فاتحة الكتاب.

(١٥٥) الشّدق: جانب الفم. الصّحاح (١٥٠٠/٤).

(١٥٦) درَّت العُرُوق: إذا امتلأتْ دَمَاً. تهذيب اللُّغة (٤٣/١٤).

(١٥٧) أي: متعرّق الجبينين، والجَبينُ فوقَ الصُّدغ - والصُّدغ ما بين العين والأذن -، وهما جَبينَانِ عن يمين الجبهة وشمالها. الصّحاح (٣٦٥/١، ١٣٢٣/٤).

(١٥٨) تأويل مشكل القرآن (ص٤٢).

١- أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أنه ليس من المتكلفين، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾.

٢- قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما:

«يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا» متفق عليه[١٥٩].

قال العيني رحمه الله (ت ٨٥٥هـ): «قوله: «يسِّرا ولا تعسِّرا» أي: خذا بما فيه اليسر، وأخذهما ذلك هو عين تركهما للعسر.

قوله: «وبشِّرا»: أي بما فيه تطييب للنفوس.

«ولا تنفِّرا»: من التنفير، يعني: لا تذكرا شيئًا يهربون منه، ولا تقصدا إلى ما فيه الشدة»[١٦٠].

---

(١٥٩) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم (٣٠٣٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٣- قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولن يُشادَّ الدّين أحد إلَّا غلبه» رواه البخاري[١٦١].

قال ابن حجر رحمه الله (ت ٨٥٢هـ): «والمعنى: لا يتعمَّق أحد في الأعمال الدّينيّة ويترك الرّفق إلَّا عجز وانقطع فيغلب.

قال ابن المُنيِّر: في هذا الحديث علم من أعلام النبوَّة، فقد رأينا ورأى النَّاس قبلنا أن كل متنطّع في الدّين ينقطع»[١٦٢].

٤- قال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هلك المتنطّعون - قالها ثلاثًا - » رواه مسلم[١٦٣].

قال النووي رحمه الله (ت ٦٧٦هـ): «أي: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم»[١٦٤].

---

(١٦٠) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥١/٢٤)، (٢٨١/١٤).

(١٦١) كتاب الإيمان، بابٌ الدين يسر، رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٦٢) فتح الباري لابن حجر (٩٤/١).

(١٦٣) كتاب العلم، باب هلك المتنطّعون، رقم (٢٦٧٠).

(١٦٤) شرح النّووي على مسلم (٢٢٠/١٦).

٥- قال النووي رحمه الله: «باب النهي عن التكلف، وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾، وعن عمر رضي الله عنه قال: نهينا عن التَّكلف. رواه البخاري»(١٦٥).

-٦سبب هلاك الأمم السالفة الغلو في الدين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إياكم والغلو، فإنما هلك منْ كان قبلكم بالغلو في الدِّينِ» رواه أحمد(١٦٦).

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه (ت ٧٢٨هـ): «والغلو في الدين، عام في جميع أنواع الغلو، في الاعتقاد والأعمال، والغلو: مجاوزة الحد»(١٦٧).

(١٦٥) رياض الصّالحين (ص٤٦٤).

(١٦٦)في المسند، برقم (٣٢٤٨).

(١٦٧) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٢٨/١).

أَقوال العُلَمَاء فِي النَّهيِ عن التَّكلُّف فِي قِراءةِ القُرآن:

حذر العلماء من التكلف في قراءة القرآن، ومن أقوالهم في ذلك ما يلي[168]:

١- قال عبد الله العكبري رحمه الله: «سمعت رجلاً يسأل أحمد[169] (ت ٢٤١هـ) ما تقول في القراءة بالألحان؟

فقال ما اسمك؟ قال: محمد.

قال: أيسرُّك أن يقال لك: يا موحَّد - ممدودًا -.

قال القاضي أبو يعلى: هذه مبالغة في الكراهة» [170].

٢- قال أبو محمد عبد الله ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ) - في بيان بعض تكلفات القراء -: «إفراطه في المد والهمزة والإشباع. وإفحاشه في الإضجاع والإدغام»[171].

---

(١٦٨) وهي مرتّبة على تاريخ وفياتهم.

(١٦٩) ابن حنبل رحمه الله.

(١٧٠) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤٦٧/١)، الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر للخلّال (ص٧٩).

٣- قال أحمد بن نصر المقرئ رحمه الله (ت ٣٧٣هـ): «الإسراف في التحقيق الخارج عن التجويد معيب مذموم»[١٧٢].

٤- قال أبو الحسن السعيدي (ت ٤١٠هـ): «واللحن الخفي لا يعرفه إلّا المقرئ المتقن الضابط، الذي تلقن ألفاظ الأستاذين المؤدِّي عنهم، المعطي كلّ حرف حقه، غير زائد فيه ولا ناقص منه.

المتجنِّب عن الإفراط في الفتحات، والضمات، والكسرات، والهمزات، وتشديد المشدِّدات، وتخفيف المخفَّفات، وتسكين المسكَّنات، وتطنين النونات.

وتفريط المدات وترعيدها.

وتغليظ الراءات وتكريرها.

وتسمين اللامات وتشريبها الغنة.

وتشديد الهمزات وتلكيزها»[١٧٣].

---

(١٧١) تأويل مشكل القرآن (ص٤٢).

(١٧٢) التّحديد في الإتقان والتجويد (ص٩٢).

(١٧٣) التّنبيه على اللّحن الجليّ واللّحن الخفيّ (ص٢٨).

٥- قال الإمام مكي بن أبي طالب رحمه اللَّه (ت ٤٣٧هـ) - في صفة أداء الهمزة-: «ولا يتعسَّف في شدَّة إخراجها إذا نطق بها»[١٧٤].

٦- قال أبو عمرو الداني رحمه اللَّه (ت ٤٤٤هـ): «فتجويد القرآن: هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتمكين النطق به على حال صيغته وهيئته.

من غير إسراف ولا تعسُّف، ولا إفراط ولا تكلف»[١٧٥].

٧- وقال أيضًا رحمه اللَّه: «اعلموا أن التحقيق الوارد عن أئمة القراءة حده: أن توفّى الحروف حقوقها؛ من المد إن كانت ممدودة، ومن التمكين إن كانت ممكنة، ومن الهمز إن كانت مهموزة، ومن التشديد إن كانت مشددة، ومن الإدغام إن كانت مدغمة، ومن الفتح إن كانت مفتوحة، ومن الإمالة إن كانت ممالة، ومن الحركة إن كانت متحركة ومن السكون إن كانت مسكنة.

---

(١٧٤) الرعاية (ص١٤٥).

(١٧٥) التّحديد في الإتقان والتّجويد (ص٧٠).

من غير تجاوز ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف.

فأما ما يذهب إليه بعض أهل الغباوة من أهل الأداء: من الإفراط في التمطيط والتعسف في التفكيك والإسراف في إشباع الحركات وتلخيص السواكن، إلى غير ذلك من الألفاظ المستبشعة والمذاهب المكروهة نخارج عن مذاهب الأئمة وجمهور سلف الأمة، وقد وردت الآثار عنهم بكراهة ذلك»[١٧٦].

٨- قال أبو القاسم الأنصاري القرطبي رحمه الله (ت ٤٦١هـ): «الحدر: وهو القراءة السهلة السمحة المرتلة، العذبة الألفاظ، اللطيفة المأخذ، التي لا يخرج بها عن طباع العرب وعما تكلمت به الفصحاء.

وأما التجويد: فهو أن يضيف إلى ما ذكرته في الحدر: مراعاة تجويد الإعراب، وإشباع الحركات، وتبيين السواكن، وإظهار حركة المتحرك؛ بغير تكلف ولا مبالغة»[١٧٧].

---

(١٧٦) التّحديد في الإتقان والتّجويد لأبي عمرو الدّاني (ص٨٩).

(١٧٧) الموضح في التّجويد (١٥٢- ١٥٣).

٩- قال أبو علي ابن البناء الحنبلي رحمه اللَّه (ت ٤٧١هـ) في بيان أن القراءة المحمودة لا تكلف فيها: «المضي على سنن واحد، يقبله الغائب والشاهد، لا تمضيغ ولا تضجيع، ولا تمطيط ولا تقطيع، ولا علوَّ صوت ولا خفوت، ولا خروج من نطق إلى سكوت»(١٧٨).

١٠- وقال أيضًا رحمه اللَّه: «يجب على قارئ القرآن أن يأتي بحروف القرآن في وزن عادل، وترتيب متماثل.

يجعل مفتوحَ الحروف ومنصوبها لَبِقَةَ التَّعالس(١٧٩)،خفيفة التوالي.

ومضمومَها ومرفوعَها إشارةً لطيفة.

وكذلك مكسورهَا ومخفوضها حركةً خفيفة(١٨٠).

---

(١٧٨) بيان العيوب الّتي يجب أن يجتنبها القرّاء (ص٣٩).

(١٧٩) اللباقة: الحذق. والعَلْس: الذَّوق. أي عالية في الذَّوق جميلة لا تكلُّف فيها. الصّحاح تاج اللُّغة (١٥٤٩/٤) تاج العروس (٢٧٧/١٦).

(١٨٠) في المطبوع: خفية، ويبدو أنها تصحيف، فالمصنّف يراعي السّجع في مقاطع كلامه.

ولا يجاوز الممدود منزلته، ولا يقصر بالمقصور عن درجته»
.(١٨١)

١١- قال ابن الجوزي رحمه الله (ت ٥٩٧هـ): «وقد لَبَّس إبليس على بعض المصلين في مخارج الحروف، فتراه يقول (الحمد الحمد)، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة.

وتارة يلبِّس عليه في تحقيق التشديد.

وتارة في إخراج ضاد المغضوب، ولقد رأيت من يقول: المغضوب فيخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد – أي: في حد القراءة -: تحقيق الحرف فحسب، وإبليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس من إبليس»(١٨٢).

١٢- قال علم الدين السخاوي رحمه الله (ت ٦٤٣هـ):

لا تحسب التجويد مداً مفرطاً أو مدّ ما لا مدّ فيه لِـــوَانِ

---

(١٨١) بيان العيوب الّتي يجب أن يجتنبها القرّاء (ص٤١).

(١٨٢) تلبيس إبليس (ص١٢٦).

أو أن تشدّد بعد مدٍ همـــــزةَ أو أن تلوك الحرفَ كالسكرانِ

أو أن تفـــوه بهمزة متهوِّعـاً فيفِرّ سامعُها من الغَثَيـــانِ

للحرف ميزانٌ فلا تَك طاغيـاً فيه ولاتكُ مُخْسِرَ الميـــزانِ

١٣- قال أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت ٦٦٥هـ): «الباب السادس: في الإقبال على ما ينفع من علوم القرآن، والعمل بها، وترك التعمق في تلاوة ألفاظه، والغلو بسببها»[١٨٣].

١٤- وقال أيضًا رحمه الله: «فقد تجاوز بعض من يدعي تجويد اللفظ إلى تكلف ما لا حاجة إليه، وربما أفسد ما زعم أنه مصلح له»[١٨٤].

١٥- قال شيخ الإسلام رحمه الله (ت ٧٢٨هـ): «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن: إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها.

والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط، وغير ذلك.

---

(١٨٣) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلّق بالكتاب العزيز (١/١٩٣).

(١٨٤) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز (١/٢١١).

فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه»[١٨٥].

١٦- قال برهان الدين الجعبري رحمه الله (ت ٧٣٢هـ):

كم قارئ يُرِينْك سمتَ مجوّدٍ ... ما يعرف التحريك من إسكان

قد ظنَّ تجويدَ القران تشدُّقا ... وتمَايلاً وتنَفُّخ الوَدجَــــان

فغدا يشَدُّ الحرف جاهِدَ نفسِــه ... ويَمُدُّ مَرتَعداً أخَا إ ثخَانِ

فَالنُّكر في تَرتيله وإذا أتَى بالحدر ... لم يُسمع سَوى أرْنان[١٨٦]

١٧- قال الذهبي رحمه الله (ت ٧٤٨هـ):«فالقراء المجوِّدة: فيهم تنطع وتحرير زائد يؤدّي إلى أن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف، والتنطع في تجويدها، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة.

---

(١٨٥) مجموع الفتاوى (١٦/٥٠).

(١٨٦) عقود الجمان في تجويد القرآن (ص٢٦).

ويخلّيه قوي النفس مُزدريًا بحفاظ كتّاب اللَّه تعالى، فينظر إليهم بعين المقت، وبأن المسلمين يلحنون، وبأن القراء لا يحفظون إلّا شواذ القراءة.

فليت شعري أنت ماذا عرفت؟! وماذا عملت؟!

فأما عملك فغير صالح.

وأما تلاوتك فثقيلة عريّة من الخشعة والحزن والخوف، فاللَّه تعالى يوفقك، ويبصرك رشدك، ويوقظك من مرقدة الجهل والرياء.

وضدهم قراء النغم والتمطيط: وهؤلاء من قرأ منهم بقلب وخوف قد ينتفع به في الجملة.

فقد رأيت منهم: من يقرأ صحيحًا، ويطرب، ويبكي.

ورأيت منهم: من إذا قرأ قسَّى القلوب وأبرم النفوس وبدَّل الكلام.

وأسوؤهم حالاً: الجنائزية[(١٨٧)]»[(١٨٨)].

---

(١٨٧) أي: الذين يقرؤون في العزاء.

(١٨٨) زُغل العلم (ص٢٧).

١٨- قال ابن القيم رحمه اللَّه (ت ٧٥١هـ): «الأئمة كرهوا التنطع، والغلوّ في النطق بالحرف، ومن تأمَّل هدي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وإقراره أهل كلّ لسان على قراءتهم، تبيَّن له أن التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحرف ليس من سنَّته»(١٨٩).

١٩- قال محمد ابن الجزري رحمه اللَّه (ت ٨٣٣هـ): «ليس التَّجويد بتمضيغ اللَّسان، ولا بتقعير الفم.

ولا بتعويج الفكّ، ولا بترعيد الصَّوت.

ولا بتمطيط الشَّد، ولا بتقطيع المد.

ولا بتطنين الغنَّات، ولا بحصرمة الرَّاءات.

قراءة تنفر عنها الطّباع، وتمجها(١٩٠) القلوب والأسماع»(١٩١).

---

(١٨٩) إغاثة اللّهفان (٢٩٩/١).

(١٩٠) أي: تتركها بسرعة. مقاييس اللّغة (٢٦٨/٥)، تاج العروس (١٩٩/٦).

(١٩١) النّشر في القراءات العشر (٢١٣/١).

٢٠- وقال أيضًا رحمه اللَّه: «روينا عن حمزة الذي هو إمام المحققين أنه قال لبعض من سمعه يبالغ في ذلك: أما علمت أن ما كان فوق الجعودة فهو قطط[١٩٢]؟

وما كان فوق البياض فهو برص؟

وما كان فوق القراءة فليس بقراءة؟»[١٩٣].

٢١- وقال أيضًا:

مكملا من غير ما تكلُّف   باللُّطف في النطق بلا تعسُّف[١٩٤]

٢٢- قال أحمد ابن الجزري رحمه اللَّه (ت ٨٣٥هـ): «وقوله «بالعربي»[١٩٥]: أي بلفظ العرب من اللغة العربية ل باللفظ العجمي.

---

(١٩٢) الجَعْد: ضد السَّبْط، والسَّبط من الشَّعر: المنبسط المسترسل. والقَطَط: شديد الجعودة. والمراد: أن المبالغة في القراءة تفسدها. النّهاية (٣٣٤/٢)، (٢٧٥/١).

(١٩٣) النّشر في القراءات العشر (٢٠٦/١).

(١٩٤) المقدمة الجزريّة، البيت رقم (٣٢).

(١٩٥) يشير إلى قول محمد ابن الجزري في "طيّبة النّشر":

ويقرأ القران بالتحقيـــق مع   حدر وتدوير وكل متبع

من تفخيم الألفات، وتصفير الصادات.

وتطنين النونات، وتسمين الحروف.

وترعيد المدات»[١٩٦].

المبَالَغَةُ فِي تَكرير الرَّاء المشدَّدةِ

القارئ المتمكن يلفظ الراء مشددة تشديدا يرتفع بها اللسان ارتفاعا واحدا، من غير مبالغة في التكرار أو الحصر.

وقد نبه العلماء على أمرين في الراء:

الأمر الأول: المبالغة في تكرار الراء المشددة:

١- قال ابن الجزري رحمه الله (ت ٨٣٣هـ) في تكرار الراء: «وقد توهَّم بعض النَّاس: أنَّ حقيقة التَّكرير ترعيد اللّسان بها المرة بعد المرة، فأظهر ذلك حال تشديدها كما ذهب إليه بعض الأندلسِيين.

مع حسن صوت بلحون العرب مرتلا مجودا بالعربي

(١٩٦) شرح طيبة النّشر (ص٣٤).

والصواب: التحفظ من ذلك بإخفاء تكريرها، كما هو مذهب المحققين»[١٩٧].

٢- وقال أيضًا رحمه الله:

....   وأخف تكريرًا إذا تشدَّدُ[١٩٨]

٣- وقال أيضًا رحمه الله: «يجب أن يتحفظ من إظهار تكريرها لا سيما إذا شددت»[١٩٩].

٤- قال الإمام علم الدين السخاوي رحمه الله (ت ٦٤٣هـ):

والراء صن تشديده عن أن يرى   متكررًا كالراء في الرحمان[٢٠٠]

٥- قال محمد ابن بلبان الحنبلي (ت ١٠٨٣هـ): «مما يجب على القارئ: إخفاء تكرير الراء؛ لأنه حرف قابل له، ويتأكد ذلك إذا كانت

---

(١٩٧) النّشر في القراءات العشر (٢١٩/١).

(١٩٨) شرح طيّبة النّشر (ص٣٣).

(١٩٩) شرح طيبة النّشر (ص٣٣).

(٢٠٠) جمال القرّاء وكمال الإقراء (ص٦٦٤).

مشددة، لأنَّ القارئ إذا لم يتحرَّز من ذلك جعل من الحرف المشدد حروفا، ومن المخفف حرفين، وكل ذلك غير جائز.

وطريق السلامة من هذا المحذور: أن يلصق اللَّافظ ظهر لسانه على حنكه لصوقا محكمًا مرة واحدة بحيث لا يرتعد، لأنه متى ارتعد حدث من كل رعدة حرف»[٢٠١].

قال عبد الفتاح المرصفي رحمه الله (ت ١٤٠٩هـ:) التكرير: «ارتعاد طرف اللسان عند النطق بالحرف.

ومعنى وصف الراء بالتكرير: أنها قابلة له، وليس المراد منه الإتيان به كما هو ظاهر، وإنما المراد به: التحرز منه واجتنابه، وخاصة إذا كانت الراء مشددة.

فالواجب على القارئ حينئذ: إخفاء هذا التكرير، لأنه متى أظهره فقد جعل من الراء المشددة راءات، ومن المخففة راءين.

والتكرير في المشددة أحوج إلى الإخفاء من التكرير في المخففة»[٢٠٢].

---

(٢٠١) بغية المستفيد في علم التّجويد (ص٤٦).

الأمر الثاني: إخفاء تكريرها إذا كانت مشددة.

١- قال ابن الجزري رحمه الله: «وقد يبالغ قوم في إخفاء تكريرها مشددة، فيأتي بها محصرمة شبيهة بالطَّاء، وذلك خطأ لا يجوز.

فيجب أن يلفظ بها مشددة تشديدا ينبو بها اللسان نبوة واحدة - وارتفاعا واحدا -، من غير مبالغة في الحصر والعسر نحو: الرحمن الرحيم، وخر موسى»(٢٠٣).

٢- وقال أيضًا رحمه الله: «ليس التجويد بتمضيغ اللسان ... ، ولا بحصرمة الرَّاءات»(٢٠٤).

رفع الصوت وخَفضهُ فِي قِراءةِ القُرآن

قراءة القرآن عبادة عظيمة تؤدى بخشوع وتدبر، قال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾، ورفع الصوت في قراءة القرآن وخفضه ينافي الأدب مع هذه العبادة.

---

(٢٠٢) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري (١/٨٨).

(٢٠٣) النّشر في القراءات العشر (١/٢١٩).

(٢٠٤) النّشر في القراءات العشر (١/٢١٣).

ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته ويخفضه في قراءة القرآن في الصلاة أو خارجها، بل كانت قراءته خاشعة، وسار على هذا المنهج النبوي الصحابة رضي الله عنهم، وقد دل على هذا الآتي:

١- قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾، قال ابن عبَّاس في قوله:﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره»[٢٠٥].

٢- عن مطرف عن أبيه رضي اللَّه عنه قال: « أتيت النَّبي صلى اللَّه عليه وسلم وهو يصلي، ولجوفه أزيز[٢٠٦] كأزيز المرجل، يعني: يبكي» رواه النسائي[٢٠٧].

٣- عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: «لمَّا ثقل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم جاء بلال يوذنه بالصلاة، فقال: مروا أبا بكر أن يصلي

(٢٠٥) تفسير ابن كثير (٤٢٨/٣).

(٢٠٦) أي: صوتٌ كصوت القِدْرِ إذا غَلَى. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧٩١/٢).

(٢٠٧) كتاب السهو، باب البكاء في الصّلاة، رقم (١٢٢٧).

بالناس، فقلت: يا رسول اللَّه! إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع النَّاس» متفق عليه[٢٠٨].

٤- قال عبد اللَّه بن شداد رحمه اللَّه (ت ٨٢هـ): «سمعت نشيج[٢٠٩] عمر، وإني لفي الصفّ خلفه في صلاة، وهو يقرأ سورة يوسف، حتى انتهى إلى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦﴾»[٢١٠].

ترديد الآية الواحدة

قراءة القرآن عبادة محضة، والخير في اتباع هدي النبي صلى اللَّه عليه وسلم، قال تعالى: (وإن تطيعوه تهتدوا)، وترديد الآية لها أحوال:

---

(٢٠٨) البخاري، كتاب الأذان، باب الرجل يأتمُّ بالإمام ويأتمّ النّاس بالمأموم، رقم (٧١٣)، ومسلم، كتاب الصّلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالنّاس، رقم (٤١٨).

(٢٠٩) أي: صوت معه ترجيع كما يردد الصّبيّ بكاءه في صدره وهو بكاء فيه تحزن لمن سمعه. مشارق الأنوار (٢/٢٨).

(٢١٠) رواه عبد الرّزاق في المصنف، رقم (٢٧٤١).

١- لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ردَّد آية وهو إمام - سواء كان إمامًا في الفريضة، أم في النافلة – ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يردد الآية في الفريضة؛ لاستفاض النقل بذلك، كما أن فيه إطالة ومشقة على المأمومين، وأنه مظنة للرياء.

٢- ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يردد الآية الواحدة في قيام النافلة في الليل وهو منفرد، وليس خلفه مأمومون.

٣- للقارئ خارج الصلاة أن يكرر الآية الواحدة.

وقد دل على ما تقدم ما يلي:

١- قال أبو ذر رضي الله عنه: «قام النَّبي صلى الله عليه وسلم بآية حتّى أصبح يردّدها والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾»[٢١١].

٢- قال ابن جريج رحمه الله (ت ١٥٠هـ) قال: قلت لعطاء رحمه الله: «أرأيت إن رددت شيئا منه؟ قال: أكره ذلك في الصلاة، فلا

---

(٢١١) رواه ابن ماجه رقم ١٣٥٠.

تردد منه شيئا في التطوع والمكتوبة قال: قلت: أرأيت إن عرضت على إنسان فرددت؟ قال: إنما يكره ذلك في الصلاة»(٢١٢).

٣- قال أبو العَباس جعفر المستغفري رحمه الله (ت ٤٣٢هـ): «باب من كره ترديد الآية في الصلاة»(٢١٣).

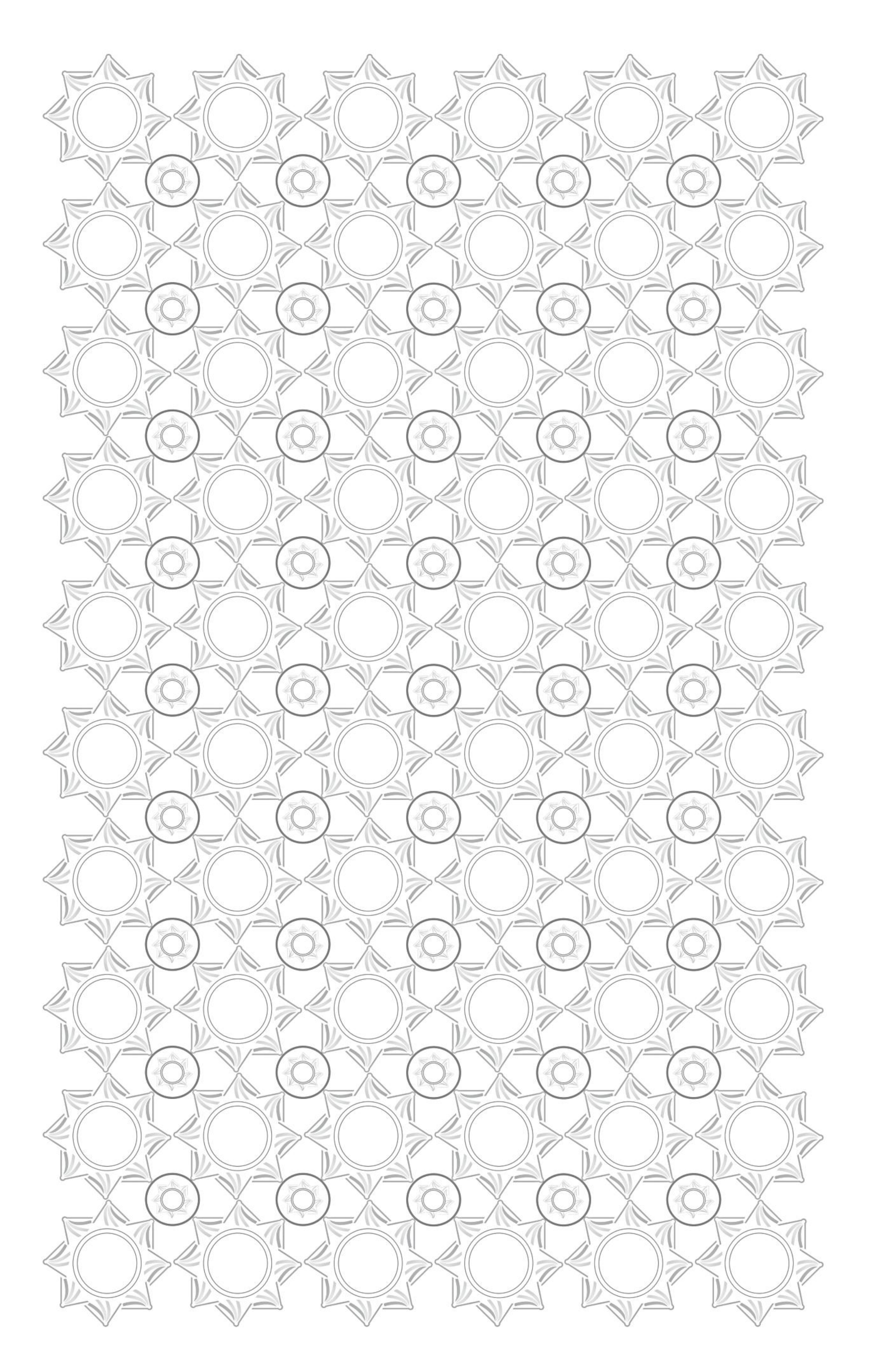
٤- قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في صلاة الليل ما لم يثبت في صلاة الفجر، فمن ذلك أنه كرر قول الله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ كررها إلى الصباح، وهو يصلي، وكذلك كان لا يمر بآية رحمة إلّا سأل، ولا آية تسبيح إلا سبح، ولا آية وعيد إلّا تعوذ، ففي صلاة الليل أشياء مشروعة لا تشرع في الفريضة، مثل هذه»(٢١٤).

---

(٢١٢) فضائل القرآن للمستغفري، رقم (٦٢) (١/١٦٤).

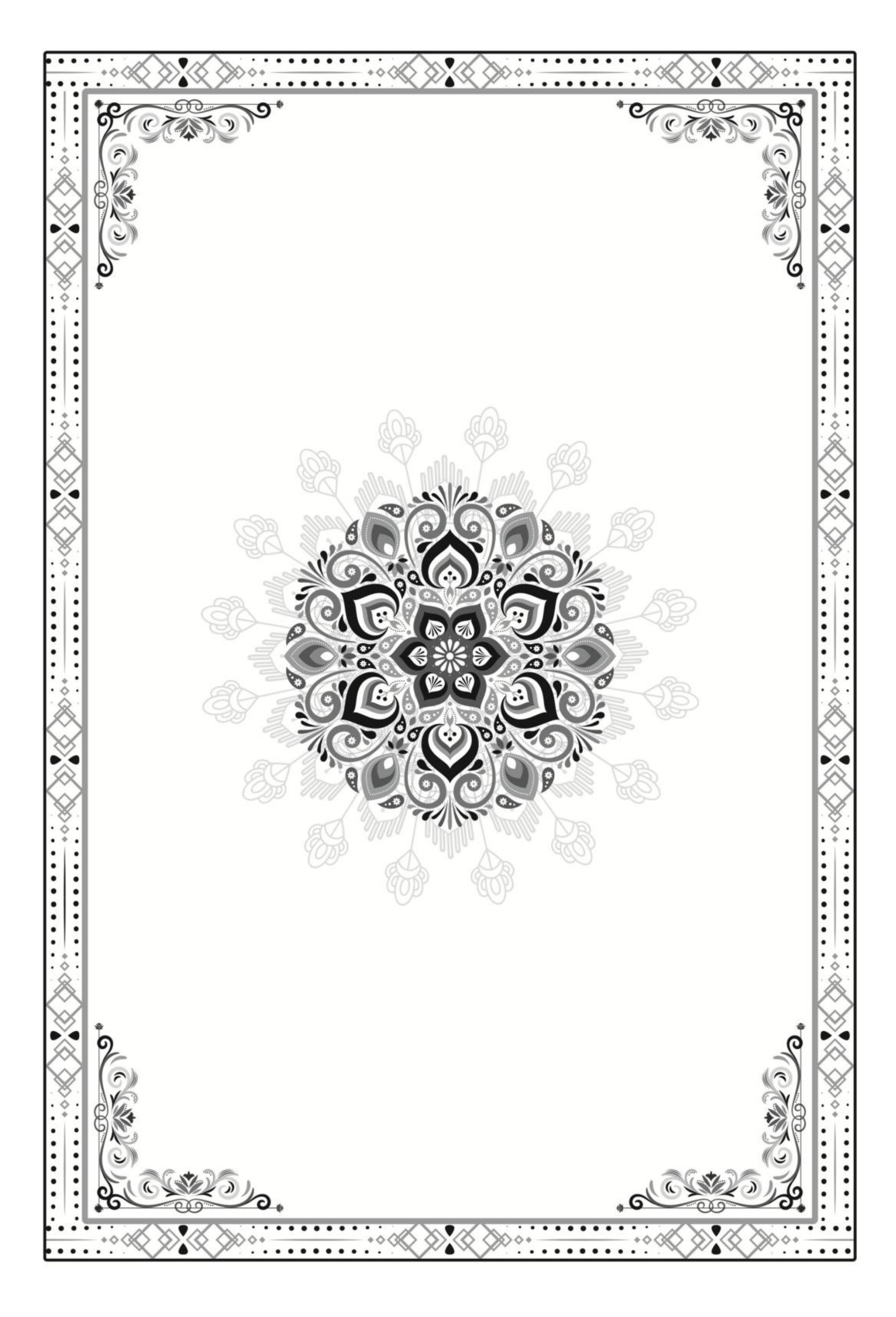
(٢١٣) فضائل القرآن للمستغفري (١/١٦٤).

(٢١٤) جلسات رمضانية للعثيمين (٢٠/١٠).





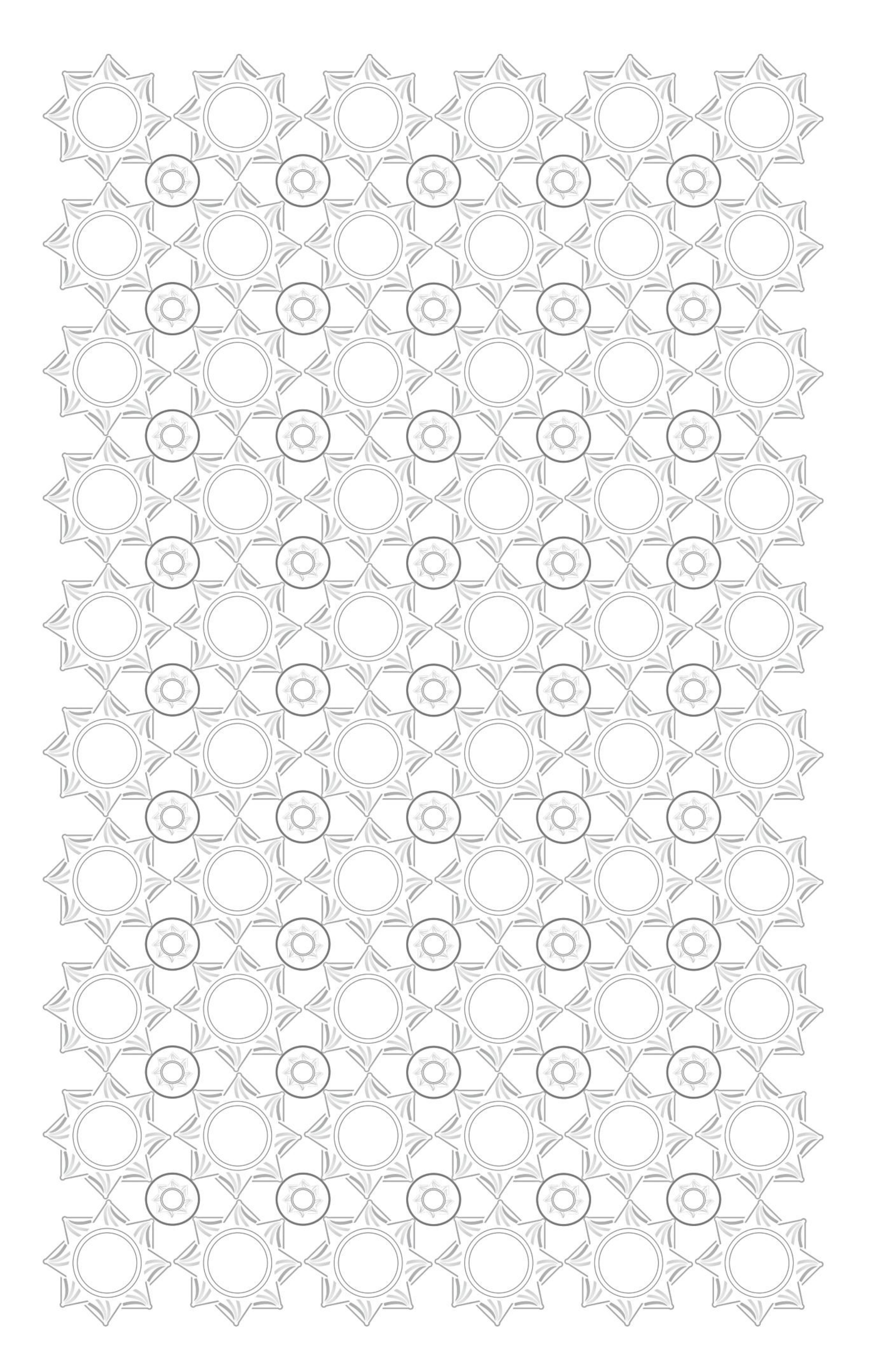
البَابُ السَّابِعُ



البَابُ السَّابِعُ

الحفظ والتدبر

فِي حَيَاةِ الآلِ وَالأَصْحَاب



البَابُ السَّابِعُ

الحفظ والتدبر

فِي حَيَاةِ الآلِ وَالأَصْحَاب

إن علم القرآن العظيم: هو أرفع العلوم قدرا، وأجلها خطرا، وأعظمها أجرا، وأشرفها ذكرا، وإن أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وإن أجمع ذلك لباغيه، كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

فهذا القرآن الكريم كلام ربِّنا العظيم، ما تبلغ القلوب أن تنقاد لهديه؟، وما يسع الألباب أن تحيط بعلمه؟ وما عساها الأقلام أن تكتب

في فضله؟، فهو الكتاب الذي قال فيه أعداؤه لمَّا سمعوه من النبي: " إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته" (٢١٥) ، وما أبلغ ما ورد في وصفه في بعض الأحاديث: " كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذِّكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم " (٢١٦) .

---

(٢١٥) المستدرك للحاكم، (٣٨٧٢)، وقال: على شرط البخاري. ورواه ابن جرير في التفسير، (٢٩/١٥٦)،مرسلاً.

(٢١٥) سنن الترمذي، (٢٩٠٦)، ت : شاكر، وقال الألباني : ضعيف.

وإن أول من أدرك أهمية القرآن في حياة المؤمن آل رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وهم أهل الكتاب حقا، كانت به كفايتهم، إن الله ﷻ اختار لكتابه أمة وعته، وأحبته وصدقته، فنزل القرآن إلى جذور قلوبها، ففتحت قلوبها للقرآن واطمأنت لموعظة الرحمن، حتى إذا تغلغلت تلك الآيات في الجنان، قادت أهلها إلى المحبة والرضوان؛ فهم الذين شهدوا التنزيل، وعاينوا وقائع الوحي، نزل عليهم يعلمهم ويجيبهم ويربيهم، ففقهوه ووعوه، وعظموه وقدموه، فكان نبراس حياتهم، وأسوة معاشهم. آل النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، الذين اصطفاهم الله واجتباهم لرؤية منازل القرآن وحوادثه ومعاركه، فكان القرآن ينزل على النبي والكل يراه، والكل يعلمه ويشاهده، فحققوا القرآن بالعمل، وما توفي رسول الله ﷺ إلا وكل واحد منهم قرآن يمشي على وجه الأرض، فكانت هذه الأمة مع كتاب الله، التي سهرت ليلها وأظمأت نهارها، رهبان الليل وفرسان النهار، بـ قال الله وقال رسول الله ﷺ .

وإذا أحب الله العبد رزقه أن يسير على نهجهم، فما مات أصحاب رسول الله ﷺ إلا وخلفوا أشباههم من التابعين، ومن

الأئمة المهديين المحبين لكلام رب العالمين، توفي أصحاب النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وآله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد أن تحكم القرآن في قلوبهم، وترجم في قوالبهم، فغرسوا هذا القرآن في أتباعهم، والسائرين على نهجهم بإحسان.

غرس الصحابة والآل رضوان الله عليهم كلام الله في قلوب التابعين، رجاً لا ونساء، صغارا وكبارا، حتى أحبت القلوب القرآن من أصحاب رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، لأن الله تبارك وتعالى جمع للصحابة في القرآن خصلتين، قل أن تجتمع لإنسان في الدنيا: خصلة العلم بالقرآن، والعمل به وتطبيقه أمام العيان.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " أولئك أصحاب محمد، كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلُّفا، اختارهم الله لصحبة نبيّه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " [٢١٧]، وهؤلاء أهل بيته الطيبون الطاهرون، معدن الرسالة وبيت

---

(٢١٧) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، (٩٧/٢).

النبوة، فيهم العلماء والعباد والمجاهدون، وطبقتهم الأولى من الصحابة، ففيهم علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ابن عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وصهره وخليفته الراشد، وفيهم فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا البضعة النبوية والجهة المصطفوية، وفيهم الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ريحانتا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وسيدا شباب أهل الجنة، وفيهم العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ صنو أبيه، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ترجمان القرآن وحبر الأمة، وأزواج النبي أمهات المؤمنين، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ثم من تلاهم من أئمة العلم والهدى والورع في الطبقات اللاحقة من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أجمعين. قد أوصى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بهم خيرا، فكان توقير أهل العلم لهم، والاعتناء بعلمهم وهديهم؛ مما توافرت شواهده.

كان أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وآله مع القرآن بقلوبهم، سهروا معه، فكان الواحد منهم تبكيه الآية، وتفرحه الآية، يعيش الوعد والوعيد والشوق والتهديد، فكانوا مع القرآن على الحقيقة، عاشوا مع هذا القرآن، إذا تليت عليهم آيات الجنان طارت قلوبهم شوقا إلى الروح والريحان، إذا تلا الواحد منهم آيات الجنان كأنه يقطف من ثمارها،

ويتكئ على أرائكها، وينظر إلى أشجارها وثمارها وأنهارها، فما أعظمها من أمة، وإذا تلا الواحد منهم الآية التي فيها ذكر النيران، وغضب الواحد الديان، صعق كأن زفير النيران بين أذنيه.

أمة أحبت كتاب الله صدق المحبة، فلما رأت رسول الله يذكرهم به، ويعظهم به، علموا أنه القول الفصل، وأنه الجد لا الهزل الذي يحتاج لمن يحمل همومه وغمومه، ويبادله مشاعره وأشجانه وأحزانه، فإذا أردت أن تنظر إلى جيل القرآن في أبهى صوره، وأجمل حلله، فانظر إلى تلك الأمة المصطفاة، واقرأ عن سيرة أصحاب المصطفى وآله.

إذا قرأت في سيرتهم لا تدري أتعجب من علمهم بالقرآن! ومعرفتهم لكلام الرحمن!

إذا قرأت سيرتهم لا تدري أتعجب من عملهم بكلام الله، أم بمعرفتهم بأحكام الله وشرائع الله، أم بوقوفهم عند حدود الله وزواجر الله، تعطرك السيرة، وتنفحك السريرة، فتجد الصدق الذي لا كذب فيه، والحب الذي لا شائبة فيه.

وهذا المبحث الذي بين أيدينا ما وضع إلا لأجمع فيه هذه الباقة العطرة من الصحابة وأهل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وأرصد بعض جوانب علاقتهم بالقرآن، وكيف تعاملوا مع القرآن، وكيف أثر القرآن في حياتهم؛ فأنتج هذه القدوات الصالحة التي تعتبر النموذج المثالي لتطبيق مبادىء الإسلام وتفعيلها في الحياة.

ورغم أن محورية القرآن في حياة الآل والأصحاب تبدو مسلمة بدهية؛ إلا أننا في أمس الحاجة لتلمُّس بعض جوانب ذلك التأثير، بما يعود علينا بفائدة التأسي والاعتبار فَرضي اللهُ عن السابقين منهم واللاحقين، والمتبوعين منهم والتابعين، من أهل الحرمين، والهجرتين، والمسجدين، والقبلتين، والكّابين، والبيعتين، والأربعة والعشرة، وأهل بدر البررة، والذين تبوأوا الدار والإيمان، وأهل العشرين الغزوة والثمان وعن البعوث والجنود، وأهل حجة الوداع والوفود وعن الذين جاؤوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم. واعلم، أنَّه لا يجتمع حب الأصحاب والآل، إلا في قلوب عقلاء الرجال.

لم يكن اهتمام الصحابة ﷺ منصبا على حفظ القرآن دون فهمه، فمع اهتمام الصحابة الشديد بالقرآن، والحرص على تلاوته كل يوم، والإكثار من مدة المكث معه، إلا أن هذا لم يدفعهم للإسراع في حفظ الآيات، باعتبار أن من أهم أهداف التلاوة هو الزيادة المستمرة للإيمان، وتوليد الطاقة الدافعة للعمل، وفي نفس الوقت فإن هدف الحفظ يختلف، فالذي يحفظ ألفاظه لابد وأن يدرك معانيه، ويعمل بما تدل عليه حتى يُصبح حاملاً حملاً صحيحًا لهذه الألفاظ ولا يكون ممن عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: ٥] وكان للصحابة اهتمام بعلم التفسير، وكانوا يعقدون المجالس الخاصة لتدارس القرآن، وكان الصحابة يحثون على تعلم التفسير، وكان لهم اهتمام بمن ينبغ في علم التفسير منهم، وثناء عليه.

لذلك نجد التمهل وعدم الإسراع هو سمة الصحابة في حفظ القرآن، وليس أدل على ذلك من قول أبي عبد الرحمن السُّلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ،

وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا ، وزاد في رواية الفريابي: وأنه سيرث القرآن من بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا، وأشار بيده إلى حنكه.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يدركون قيمة القرآن وأنه ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل: ٥]، فتعظيم الصحابة رضي الله عنهم للقرآن من الوضوح بمكان كبير، وآثارهم خير شاهد على ذلك، فالكتاب هو " كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظرا وعملا، لا اقتصارا على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة، ويجد

نفسه من السابقين في الرعيل الأول "[218] إن القرآن كان بمثابة القبس الذي نزل على قلوب تلك الثلة فأشعل نور الإيمان فيها، حتى إنهم بكوا حين انقطع الوحي، وكانوا يحذرون أهل القرآن من الانشغال عنه، لقد كان القرآن المجيد حادي الصحابة والآل في العمل، ولم يكن أحدهم يقرأ القرآن لا يجاوز ترقوته، بل كان ينفذ إلى قلوبهم، فتنفعل جوارحهم للعمل.

لم يكن حظهم من القرآن مجرد القراءة فحسب، بل كانوا يحذرون من تلك الحال، وقد نهج الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم نهج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في معاهدة القرآن الكريم بتلاوة المحفوظ في صلاة الليل.

تحمل صحابة النبي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - أمانة حفظ القرآن، فكان منهم فريق عظيم جدا من حملة القرآن وحفاظه، وقد تعدى الاشتغال بحفظ القرآن حتى بلغ طبقات النساء، يقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كنا صدر هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلاً عليهم،

---

(٢١٨) الموافقات، الشاطبي (٤/١٤٤).

ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن، حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به.

ولقد أخبرهم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بذلك حين قال: «يخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن» .

لذلك لما بدأ المسلمون في عصر التابعين يقبلون على حفظ القرآن بشكل مختلف عما كان يفعله الصحابة، ازداد تحذير الصحابة لهم وتخويفهم من خطورة حمل ألفاظ القرآن دون إدراك معانيه ومعرفة أحكامه، والعمل بما تدل عليه آياته.

فقد جمع أبو موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذين حفظوا القرآن في الكوفة، وكان عددهم يبلغ قرابة الثلاثمائة، فعظَّم القرآن، وقال: «إن هذا القرآن كائن لكم ذخرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن اتبعه القرآن زجَّ به في قفاه فقذفه في النار».

وعندما جاء رجل إلى أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال له: إن ابني قد جمع القرآن، فانزعج أبو الدرداء وقال له: اللهم اغفر. إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع .

وكيف لا يقول هذا، وهو القائل: أخاف أن يقال لي يوم القيامة علمت أم جهلت؟ فأقول: علمت. فلا تبقى آية في كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا و تسألني فريضتها. تسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ وتسألني الزاجرة: هل ازدجرت؟!

وكان يقول:" لو أعيتني آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فلم أجد أحدًا يفتحها عليَّ إلا رجلاً بِبَرْك الغماد لرحلت إليه ". فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع .

إن الأساس لإقراء القرآن، هو قراءته على أهله أولا، وقد أخذ الصحابة عن مبلغ القرآن مباشرة، فهم أقرب طبقات السند القرآني، فقد قرؤوه على الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وقرأه الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ على جبريل، وقرأه جبريل على رب العالمين عَزَّوَجَلَّ ، وكان الصحابة يقرؤون على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ، فعن شقيق بن سلمة

رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ، قال: خطبنا عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فقال: " والله لقد أخذت من في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم"، قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت رادا يقول غير ذلك[219].

وكانت تلاوة القرآن، ومجالس السماع القرآني من هدي أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ ، فقد كان عمر رضي الله عنه إذا رأى أبا موسى قال: " ذكرنا ربنا يا أبا موسى" فيقرأ عنده، وهذا كان سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها وأئمتها، كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ: كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي وأمثال هؤلاء.

وكان أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ إذا اجتمعوا، أمروا واحدا منهم أن يقرأ القرآن، والباقي يستمعون، ولهذا السماع من المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا

---

(٢١٩) رواه البخاري (٥٠٠٠)، ومسلم(٢٤٦٢).

يسعه خطاب، ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان" ولم تكن قراءة أبي موسى إلا قراءة عالم لعلماء يتفهمون عن طريق هذا السماع كلام ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينزلونه على أدوائهم فتحدث الأثر المطلوب.

وقد كان الصحابة يحرصون على تعليم القرآن للناس، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: " بعثني الأشعري إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فقال لي: كيف تركت الأشعري؟ قلت: تركته يعلم الناس القرآن، فقال: أما إنه كيس! ولا تسمعها إياه "(٢٢٠).

وعن الأعمش، قال: مر أعرابي بعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وهو يقرئ قوما القرآن، أو قال: وعنده قوم يتعلمون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: " يقتسمون ميراث محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ "(٢٢١).

---

(٢٢٠) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/٣٩٠).

(٢٢١) فضائل القرآن، لأبي عبيد (٥١)، وجامع بيان العلم (٢/٩٧٢).

وكانوا يوصون بتعليم الأبناء القرآن، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: " عليكم بالقرآن فتعلموه، وعلموه أبناء كم، فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظا لمن عقل"[٢٢٢].

وكان تعليم القرآن مقدما على غيره للمهاجر، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رجلا، فكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن"[٢٢٣]، وفي رواية عنه: "عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن"[٢٢٤].

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، يستخدمون عدة أساليب في رفع همم طلابهم، فقد كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أصبح خرج أتاه الناس إلى داره فيقول: على مكانكم"، ثم يمر بالذين يقرئهم القرآن، فيقول: " يا

---

(٢٢٢) فضائل القرآن (٥٢)، والمحرر الوجيز(١/٣٨).

(٢٢٣) رواه أحمد في المسند(٢٢٧٦٦)، وأبي نعيم في معرفة الصحابة(٤٨٣٣).

(٢٢٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤/٣٤١)،(٢٠٨٤٣).

فلان بأي سورة أنت؟" فيخبرونه، فيقول: " بأي آية فيفتح عليه الآية التي تليها، ثم يقول تعلمها فإنها خير لك مما بين السماء والأرض"، قال: فيظن الرجل أنها ليست في القرآن آية خير منها، ثم يمر بالآخرفيقول له مثل ذلك حتى يقول لذلك كلهم.

ومن شواهد الإقراء أيً ضا، ما ذكره محمد بن كعب القرظي، قال: " جمع القرآن في زمان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وعبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وأبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وأبو أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وأبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كتب إليه يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن أهل الشام قد كثروا وربلوا وملؤوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم، فدعا عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أولئك الخمسة فقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم، إن أجبتم فاستهموا، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لنتساهم، هذا شيخ كبير لأبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وأما هذا فسقيم لأبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فخرج معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

وأبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ابدؤوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلقن فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين. فقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وخرج أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى دمشق، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى فلسطين، وأما معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمات عام طاعون عمواس، وأما عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فصار بعد إلى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يزل بدمشق حتى مات"[٢٢٥].

وكانوا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يرشدون طلابهم إلى الطريقة المثلى لحفظ القرآن الكريم ومراجعته ومعاهدته، وهذا من نتائج تجاربهم وثمار تحصيلهم واجتهادهم: ومن ذلك قول أبي العالية رفيع بن مهران الرياحي: " تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإنه أحفظ لكم"[٢٢٦].

---

(٢٢٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى(٣٥٦/٢).

(٢٢٦) حلية الأولياء(٢١٩/٢).

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: كعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا"(٢٢٧).

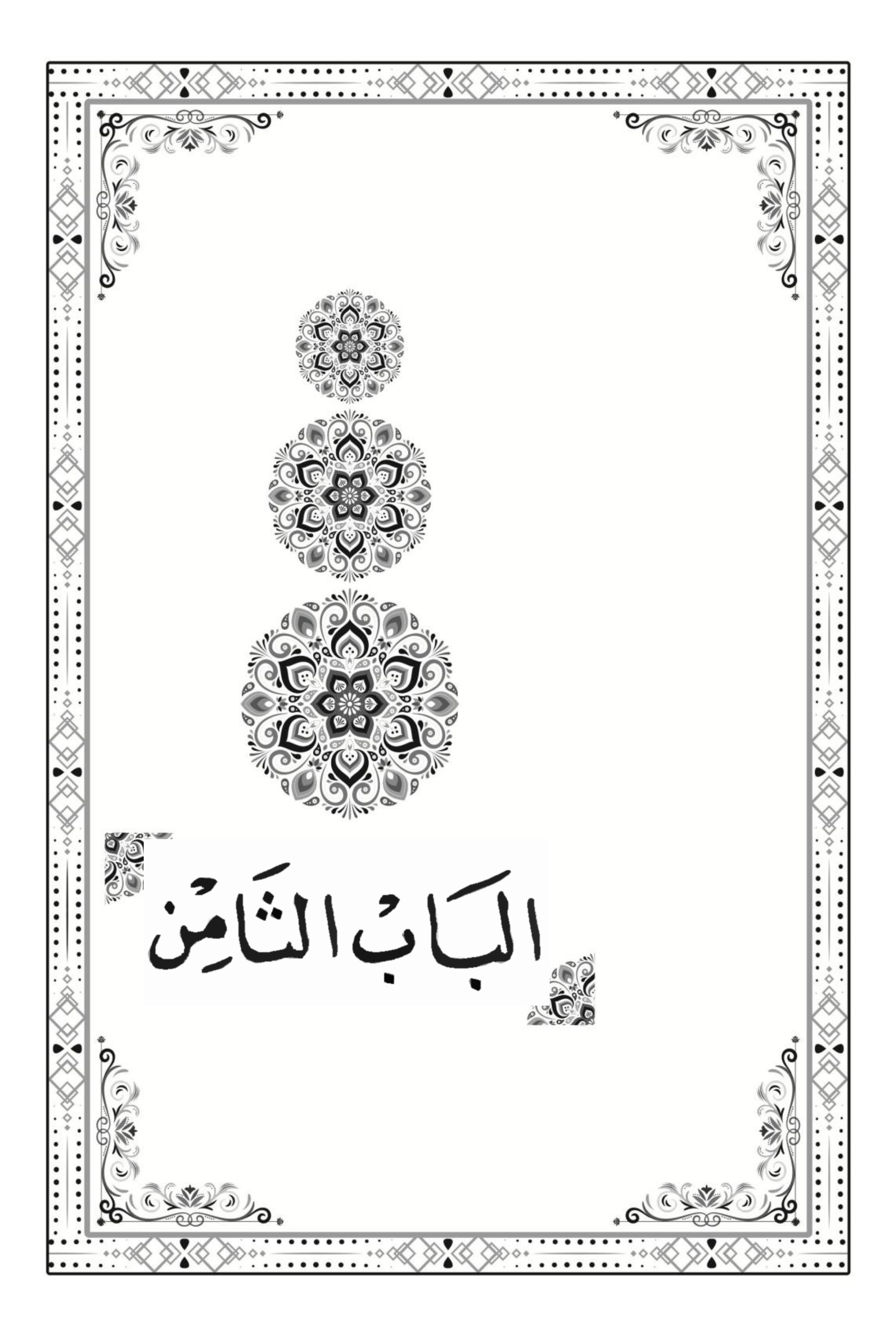
وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"(٢٢٨).

فهذا هديهم رضوان الله عليهم في إقراء القرآن، وإرشادهم لطلابهم، وعملهم بهديه في ذلك، ولذلك حازوا الخيرية التي وعدوا بها.

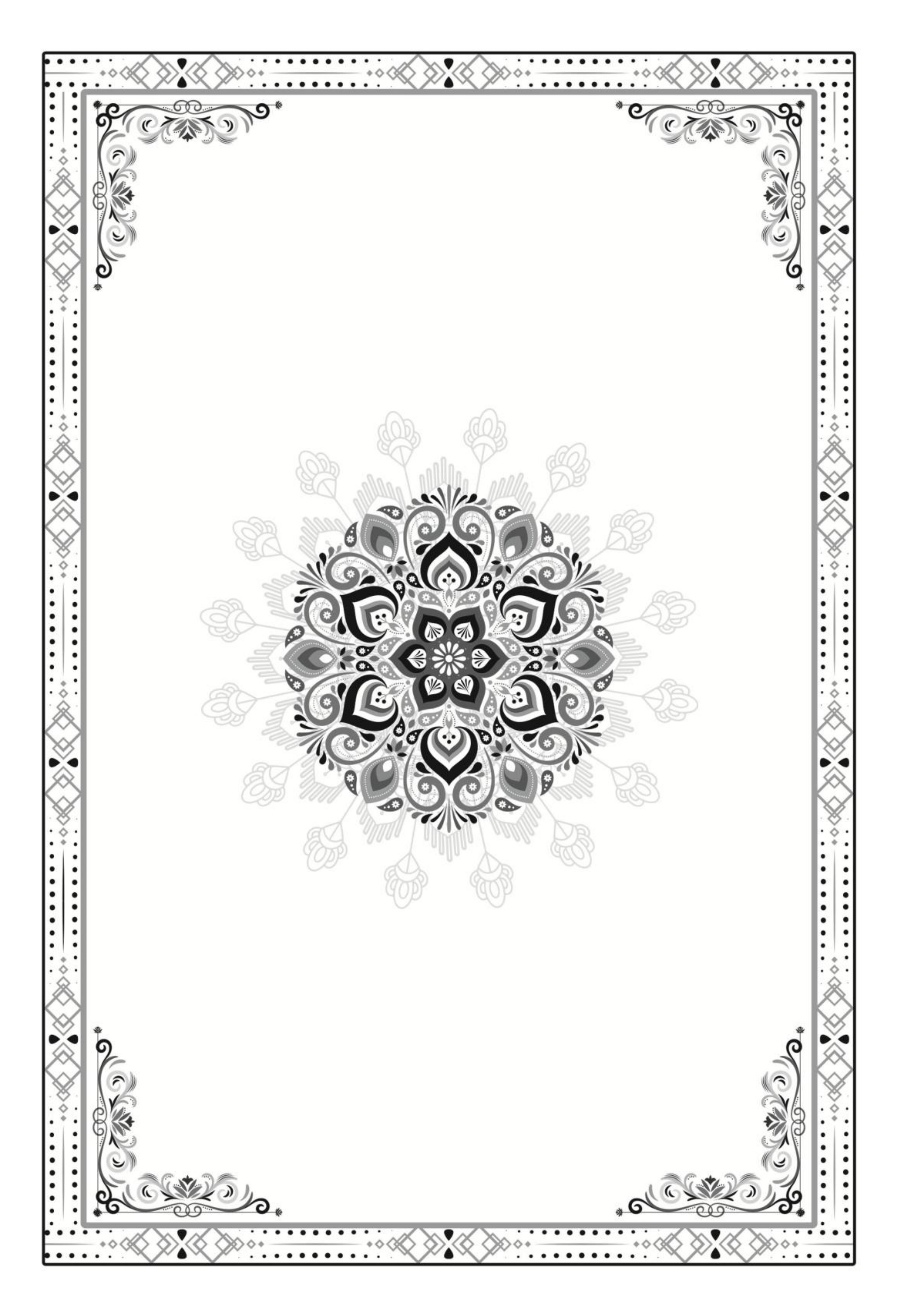
---

(٢٢٧) ابن تيمية، مجموع الفتاوى(٣٣١/١٣).

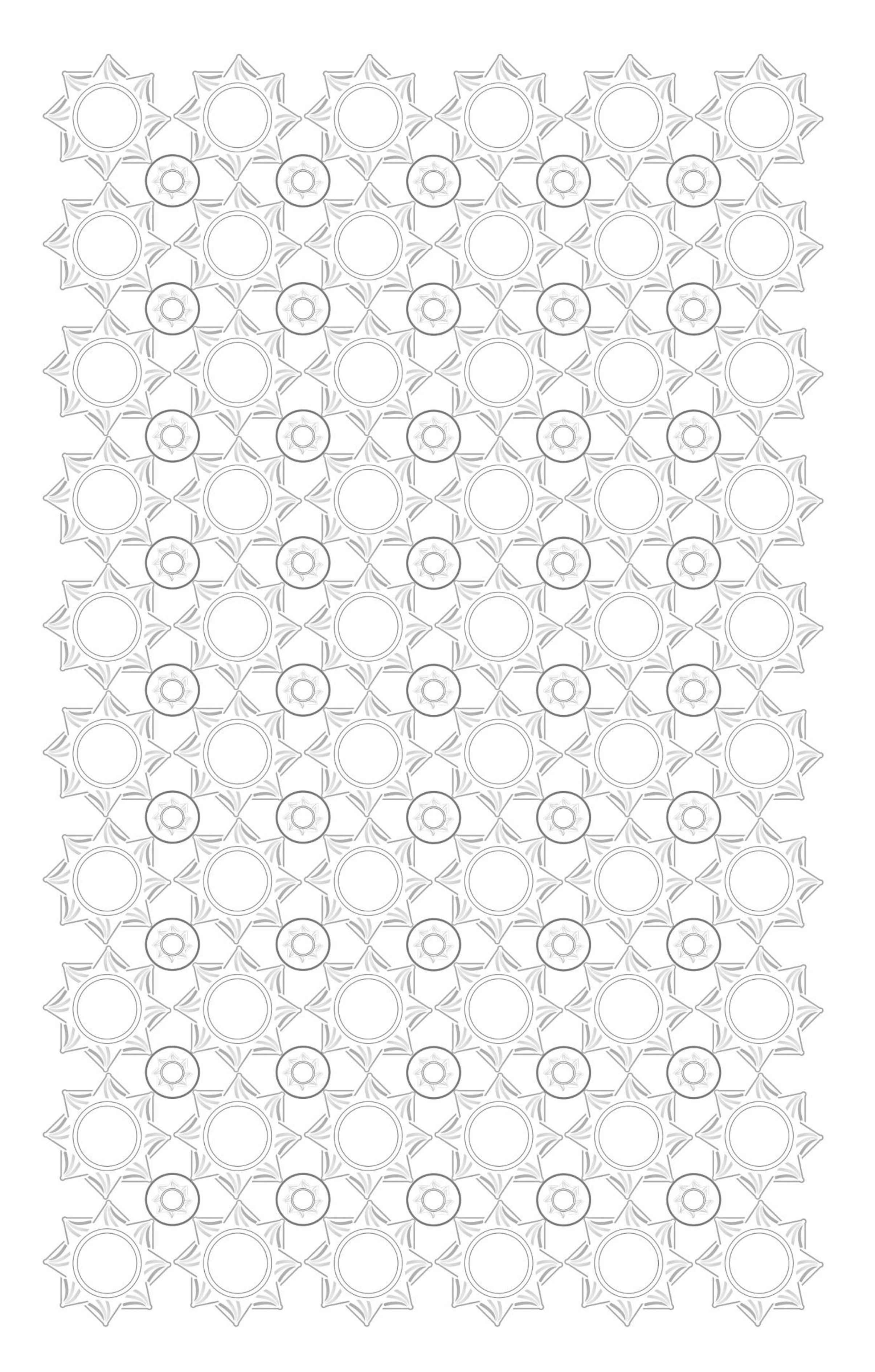
(٢٢٨) تفسير الطبري(٧٢/١)، تفسير ابن كثير(٨/١).

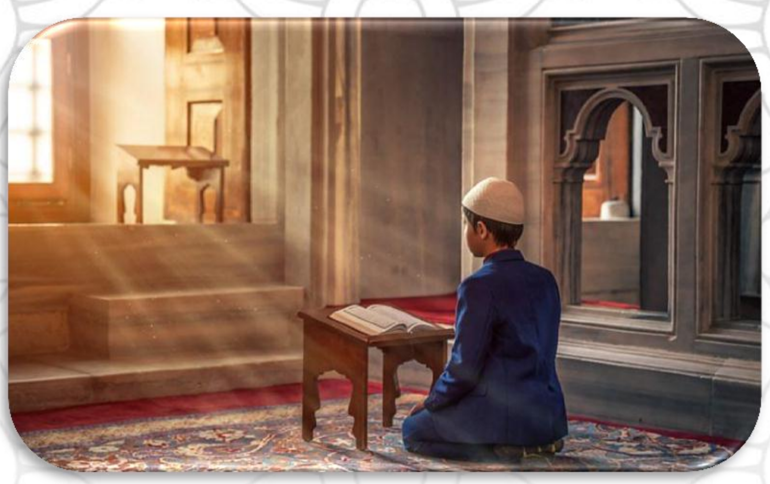


البَابُ الثَامِنُ




البَابُ الثَامِنْ
تَنْوِيرُ الْعُقُولِ وَالْأَذْهَانِ
فِي تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ الْقُرآن





تَنْوِيرُ الْعُقُولِ وَالأَذْهَانِ فِي تَعْلِيمِ الأَطْفَالِ الْقُرْآنَ

تربية النشء على كلام الله كأنه عليهم أنزل:

كثير من الآباء يرفعون هذا الشعار عند محاولة تنشئة أبنائهم على كلام الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهو شعار رائع -لا ريب- وهو المقصد الأسمى من الإقبال على كلام ربنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لكنه يتضمن في طيّاته الخلاف الذائع بين ثنائيتي: حفظ القرآن وتدبره، كأن بين الحرص على إحكام الصياغة بحفظ الألفاظ مع تحصيل روح المعنى بتدبره تعارض أو تضارب!

وينقسم أصحاب هذا الهدف في رحلة تطبيقهم لقسمين:

١. القسم "التقليدي": الذي يعتقد أن الاهتمام بلفظ القرآن فقط! المهم أن تتلى حروفه وتحفظ ألفاظه وحسب، وحتى طرق الحفظ والتلاوة المعمول بها تكون من الرداءة والرتابة، بحيث يظل الحافظ كلما راجع كأنه يحفظ من جديد، فلا فقه روح الكلام، ولا حتى احتفظ بنصه في قلبه!

كثير من طرق الحفظ والتلاوة المعمول بها تكون من الرداءة والرتابة، بحيث يظل الحافظ كلما راجع كأنه يحفظ من جديد.

٢. والقسم "الثوري": الذي ينطبق عليه مثل من يريد اختراع العجلة من بدايتها، بدل البناء عليها وتطويرها، وهو الصنف الذي ينتشر ذات اليمين والشمال في توليف منهجيات وتجربة طرق "إبداعية"، والطريف أن كثيراً منها قد يكون مستورداً من الخارج، وحجتهم في ذلك أن الطفل ينبغي ألا يحفظ بدون فهم كالببغاء! وينتهي بهم المطاف وقد شبَّ الطفل عن الطوق، وفات من جوهر عمره التكويني

الكثير، فإذا به لا فهم، ولا حتى حفظ، بل لعلّه أكثر حيرة وذبذبة في التعامل مع القرآن من الصنف الأول!

وبيت القصيد يكون في طلب الأسباب المتعلقة بالمقصد، أي البدء بفهم ذلك الشعار ومقتضياته ومنهجيته هو، لا منهجيتنا المتخيلة من جهتنا نحن.

بداية، نجد أن النموذج الذي وصل لدرجة أن يقرأ القرآن كأنه عليه أنزل ليس ممتنعاً، بل عندنا فيه سابقة بالفعل، يمكن القياس عليهم واتباع نهجهم اتباعاً حقيقياً صادقاً، لا هو متحجر كالصنف الأول، ولا تائه كالصنف الثاني.

وذلك النموذج لا يقتصر فقط على جيل الصحابة الذي بالفعل كان القرآن ينزل عليهم ليتحركوا به، بل على أجيال تالية من التابعين، وتابعي التابعين الذين -من حيث المبدأ- كان نزول القرآن بالنسبة لهم سابقاً للحركة به كما الحال معنا، وإن اختلفت كثير من ظروفهم عن ظروفنا؛

لغلبة المادية وعلائق الدنيا على قلوبنا في المقام الأول، ثم ضعف طلبنا للعلم الراسخ بالدين، والاكتفاء بتوارث الفهم السطحي وصور التدين.

لكن كل ذلك لا ينفي المنهجية الأصيلة للغرس التربوي لأي عقيدة في النفس؛ لأن النفس الإنسانية ومراحل ترقيها في المدارك هي واحدة منذ بدء الخليقة، فالطفل في سنوات عمره الأولى حتى الخامسة -تقريباً- تكوينه الإدراكي يعتمد في المقام الأول على التشرّب والتلقّي والمحاكاة.

فبدلاً من محاولة عناد هذه الطبيعة، والإصرار على إفهامه ما لن يعقل حقيقةً، يتم التركيز في هذه المرحلة على تلقيه للفظ القرآن ونصه، بالحفظ المنضبط تجويداً وترتيلاً، وما يحفظه في هذه السن يرسخ رسوخ الجبال بالضرورة، ويمكن البناء السوي عليه من بعد، فإذا اتسعت مداركه بما يكفي، صارت التربة ممهدة البذور، وهنا يبدأ التفهيم الأولي لغريب الألفاظ ومعاني المفردات، مع الربط المبسّط بشؤون الحياة المختلفة.

ثم حين يشتد عود النبتة تكون فترة الإيراق بتعميق فهمه للكلام، ومطالعة تفسير أولي، والإكثار من الربط بالحياة والتحاكم إليه في مختلف الشؤون، وهكذا كلما نضج في المدارك تعمق في الفهم، بكل سلاسة ومنهجية.

والميزة العظمى لهذا التحفيظ التربوي أنه ينمي لدى الطفل مدارك تلقائية وملكات فطرية، يستعصي على الوالدين إكسابها له حين ينضج بالفعل، ويتشكل طبعه لاحقاً.

لعل أهمّها أن تكون اللغة عنده لساناً، وتصير أذنه قياسية، وهذه الطريقة الأساس في التنشئة على الفصحى، ثم القواعد هي صياغة لاحقة لممارسات فعلية، لذلك حين يدرس النحو لا يجده إلا تطبيقاً سلساً لما يمارسه هو تلقائياً، بعكس منهجية قصر القواعد على ألسنة معوجة، فلا ينضبط اللسان وتظل القواعد منفصمة عن التطبيق، وباللغة تنشأ لدى الطفل طلاقة الأسلوب، وقدرة التعبير، وكلما ترقى في تعلم بلاغات

القرآن والحديث، وكذلك يرسخ تكوينه الفكري، وتنطلق طاقات الخيال والإبداع بما يتربى على التدبر والتفكر والربط بين الأمور.

هذه كلها ملكات لا تكتسب بالتلقين، وإنما بالتربي عليها والنشأة في أحضانها، وتفيؤ ظلالها الطبيعية على الطبيعة.

فإذا لم يحفظ الطفل المتن في سنوات الحفظ، جاءت سنوات التربية والفهم على جوف خاوٍ، وكيف تنبت نبتة في أرض ليس فيها بذورها؟! وتوهم إمكانية فهم القرآن على وجهه بغير حفظ لفظه ينتج عنه ما يقع فيه كثير من الوعّاظ والخطباء من نقل كلام الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ -بالمعنى- ومهما نقل المعنى صحيحاً فهو لا يضاهي ذكر الصياغة اللفظية، خاصة ونحن نتكلم عن صياغة "ربانية"، فتأمل!

ومما يؤسف له أن ساداتنا من العلماء والسلف الصالح قد أفنوا أعمارهم في حفظ كلام الله، والعناية به شرحاً وبياناً وتفسيراً، وتتبع سند كلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وتحقيقه وتوثيقه، ثم نتهاون بهذا الإرث العظيم، ويكون حظنا منه أن ننقله بالمعنى دون المتن، وحتى

المعنى يكون في الغالب مستقى بالتوارث أو بالظن العام. فلا تعبّدنا لله بنص الكلام ولا حتى بمعناه!

لم تنشأ إشكالية الحفظ والتدبر إلا بسبب التذبذب في الغرس التربوي للقرآن بما يتوافق مع المرحلة العمرية، فهو ليس فقط حفظاً أعمى يتحجر عند ذلك، ولا يبنى عليه بعد ذلك، ولا هو معانٍ هائمة لا قرار لها، بل هو غرس تربوي، لذلك من منّ الله عليه بهذه المنهجية ينتفي لديه هذا الإشكال، ويكون أسعد الخلق حظاً بما يحمل من كلام الله في صدره ويفهمه في قلبه، فيصدر عنه تلقائياً في أفعاله، ويستحضره ليتحاكم إليه في كل شؤونه.

كيف تكون التنشئة على الهوية العربية واللسان العربي؟

النشأة على العربية هويّة ولسانًا تتطلب أوّلًا تشرّب الناشئ لها مَلَكةً، أي كجزء من كيانِه وتكوينه الطبيعي، يجده في نفسه تلقائيًا دون تكلّف استدعائه بين الحين والحين.

هذه الملكة تتأتى من مجاراة اللسان الحاضر في بيئة حاضنة، لا التكلّف التدريبي لها لبضع ساعات! لذلك تسيء غالب أساليب التربية الحديثة حين تختزل شأن العربيّة وشأن التربية معًا في مجرّد "التدريب على التحدّث بالفصحى"، فتُشرّح العربيّة علميًّا لمجموعة أصوات وحروف، كل غايتها أن تتقن نطقها وتحسن التلفّظ بمخارجها ؛ أو تحوّلها لـ "حزمة" أدوات مهارية من "قواعد" النحو والبلاغة وأساليب الإنشاء تحفظها وتطبقها، وتلك غاية عربيّتك!

وأما النشأة العربية المعنيّة في هذا المقام، فقِوامها ذائقة العرب والحس العربي، الذي ينشأ تبعًا لمخالطة كلام العرب نفسه قبل قواعد ذلك الكلام.

وقواعد العربية أصلًا وُضِعت تالية لكلام العرب ومبنيّة عليه.

وتكون هذه المخالطة بمعايشة العرب في كلامهم أدبًا وفكرًا: في شعرهم ونثرهم، وفي قصصهم ونوادرهم ومروءاتهم، وفي تعابيرهم واصطلاحهم عند الغضب والرضا والجِدّ والهَزْل، وفي سِيَرهم وتراجمهم وتاريخ أيامهم قبل وبعد الإسلام، وفي متونهم التي أصّلوا فيها فكر العربية عربيًا، كالمعاجم ومُلَح البلاغة وشوارد الحكم.

الحس العربي ينشأ تبعًا لمخالطة كلام العرب نفسه قبل قواعد ذلك الكلام. وقواعد العربية أصلًا وُضِعت تالية لكلام العرب ومبنيّة عليه.

بمثل هذه المخالطة ينشأ الناشئ متشرّبًا لما يُسمّى روح العربية وسِرّها، ويعتاد العربية اعتيادًا يُنبِت عقلَه ويُوقِد ذهنه ويُجَوّد قريحة الفهم والتصور عنده، ويؤثر كذلك بالضرورة في بنيته الكلية تأثيرًا بيّنًا: خُلقًا وسَمتًا وديانة.

فإذا استقامت جذور الهوية العربية في نفس العربي، تفاوت بعدها الأفراد في درجات البيان والبلاغة، وإن تمكّنوا جميعًا من الفصاحة والإبانة بلسان سليقي طبيعي.

ثم إذا تعلّم ذلك المتشربُ للسان العربية وروحِها قواعدَها لاحقًا، صاغت له ما كان قام في نفسه بالفعل من معاني البيان، وثبَّتت عنده ما انضبطت عليه أذنه بالسليقة من نشاز اللحن وانسجام الإعراب.

وتحضرني قصة أمير الشعراء أحمد شوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين كان ينشغل في أثناء عروض المسرحيات التي يحضرها بتأليف قصيدة أو نظم أبيات عفوية، فإذا لَحَن المُمثّل في أداء بيت أو نطق عبارة، رفع شوقي رأسه مُستنكرًا في الحال، مع أن الناظر إليه يَحسَب أنه كان مُستغرقًا فيما يؤلّف استغراقًا يمنعه من التدقيق! فكان يقول في ذلك: "اللحن في اللغة كالمِسمار في الأذن" ، أي لا بد أن يلفتك تلقائيًا دون تكلف تدقيق، حتى لو لم تكن عالمًا بالموضع الإعرابي للكلمة فإنك تقف بالسليقة والذائقة على حقها من الرفع أو النصب أو الجر في الكلام.

فذلك مثال على من مَلَك العربية مَلَكة. وخلافه من فهم قواعدها كفهمه للرياضيات، واستوعب صورتها كاستيعابه للمُجسّمات، وخلا من جوهر الاتصال بها في روحها الفطريّة وسرّها البياني.

إن عقيدة العربية عندنا وكرامتها يجب أن تنزّهها عن أن تكون قضية رَطَانة ببعض الفصحى المُتكلَّفة لمجرد التباهي بالرطانة لا بالعربية .

كأنما الشأن التَّلمّظ بمجموعة ألفاظ مشكولة لا بُنيان هُوِية معمورة. وكل رطانة مُتكلِّفة مُتَقعِّرة للفصحى دون تصور متكامل وهوية كامنة وراءها وقعها كالمسمار في الأذن، ويصدُق عليها قول نبينا المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: "إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يبغِضُ البَلِيغَ من الرجالِ، الذي يَتَخَلَّلُ بلسانِهِ، تَخَلُّلَ البقرةِ بلِسانِها" [رواه الترمذي].

والمقصودُ مَنْ يَتكلَّفُ ويُكْثِرُ الكلامَ ويَتفاصَحُ بِه ويَتشدَّقُ على النَّاسِ، فيُقلِّبُ لسانَه في فَمِه وبينَ أسنانِه تَلذُّذًا بالكلامِ، كما تَفْعَلُ ذلك البقَرةُ تَلذُّذًا بالطَّعامِ!

ويظل للعربية لسانًا وكِيانًا كرامة لا تُدانَى وأصالة لا مِراء فيها، يصيب منها اليوم كلٌّ بحسب همته وعنايته، ومدى التفاته للجذور قبل الظهور.

ومن أحب اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أحب رسولَه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومن أحبّ رسولَه العربيّ أحبّ العرب، ومن أحبّ العربَ أحبّ العربيّة، ومن أحبّ العربيّة عُني بها، وثابر عليها، وصرف هِمّته إليها.

- وإذا جئنا للتطبيق العمليّ، فأولى أركان التنشئة العربية ربط الطفل بكتاب ربه، وأولى حبائله حفظ كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، دون الدخول في جدل عقيم مع قضية فهم الكلام قبل حفظه أم حفظه قبل فهمه. فالحفظ لا ينفي الفهم، لكن الفهم له درجات ومراحل، كما سيلي بيانه في البند التالي.

- ويلي ذلك إشراب الناشئة روح العربية وذوقها وسَمْتها، بما هو مبثوث في مكارم العرب ومروءاتهم قبل مجيء الإسلام، الذي تمّم

فيهم مكارم الأخلاق حين هداهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به، ونفى عنهم خبائثها مما لا يرتضيه رب العباد.

ويراعى تَجنّب مرويات التاريخ من منظور وتأليف النصارى والمستشرقين ومُحدَثِي المؤرخين.

وبما هو مبثوث في هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في سيرته وأحاديثه.

وبما في سير وتراجم أعلام الأمة خاصة عبر أزمان انبساط حُكم الخلافات الإسلامية.

- ثم اللسان العربي شِعراً ونثرًا.

وفي شعر العرب ومنثوره ما هو ميسور للناشئة، كأشعار شوقي للأطفال وأشعار المروءات، وقصص كليلة ودمنة (الأصليّة لا المختصرة المبسطة بلغة منزوعة الدَّسَم!)، وقصص التراث.

ومن مؤلّفات الأطفال الحديثة سلسلة الينابيع وسلسلة السنابل من نشر دار (أبو الهول)، وسلاسل المكتبة الذهبية والزرقاء وسمير الطفل

من نشر (مكتبة مصر)، وسلسلة المكتبة الخضراء التي لا تخلو من تأثر في قصصها بالمقتبسات والأفكار الأجنبية.

- ثم الفقه بالصورة بمستوى يناسب النشء حتى يتشكّل في ذهنه مفهوم التصور الشرعي لهذا الوجود، ويتدرّج فيه لحين اكتماله.

أثر حلقات تحفيظ القرآن الكريم في تربية النَّشىء:

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ (الإسراء:٩).

أخي الوَالِد ! أختي الوالدة ! إنّ جزءاً أساسيّاً من مسئوليّة الوالدين عن أولادهم أن يُهيّئوا لهم النشْأة الطيّبة، والأجواء الإيمانيّة النقيّة، التي يجدون فيها القدوة الحسنة، وينعمون بالصحبة النافعة الصالحة، ويتنسّمون الروح الخالية من أيّ عكرٍ أوْ كدَر.

ولا شكّ أنّ حلقات تحفيظ القرآن الكريم المنتشرة في جميع الأحياء هي خيرُ ما يتحقّق فيه ذلك على أكمل وجهٍ وأتمّه، فهي محْضن إيمانيّ تربويّ ، يحقّق للفتى والفتاة الناشئين مزايا كثِيرة، وينمّي شخصيّتهم نموّاً سويّاً متوازناً، ونحن نعدّد هنا أهمّ هذه المزايا، ولا نسْتطيع إحصاءها:

١. فهي تهيّئ لهم القدوة الحسنة، والتوجيه السليم، والتربية الإيمانيّة على يد أساتذة ومربّين من أهل القرآن الذينَ هم أهل اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخاصّتهُ . وما أحوج الناشئ والناشئة إلى أن يروا أخلاق القرآن وآدابه، تتجسّد فيمن يتلقّون عنهم القرآن، ليأخذوا عنهم العلم والعمل معاً ..

٢. وحلقات القرآن تهيّئ للفتى والفتاة الصحبة الصالحة، لأتراب لهم ينشئون النشأة الصالحة التي يبْحث عنها الآباء والأمّهات، وقد لا يجدونها في كثير من الأوساط الاجتمَاعيّة، وإنّ كثيراً من الآباء والأمّهات يحارون كيف يهيّئون لأبنائهم وبناتهم تلك الصحْبة، ولكنّها بحمد الله تعالى متوفّرة في أجواء حلقات القرآن الكريم على أحسن صورة بإذن الله تعالى.

٣. وحلقات القرآن تهيّئ للناشئين العلم الشرعيّ بأحكَام دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تتسرّب إليهم المفاهيم والأفكار المنحرفة عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، التي تغزو بلاد المسلمين بلا هوادة .. وقلما ينجو منها الناس ، فكيف بالبعيدين عن العلم والعلماء .؟

٤. وحلقات تحفيظ القرآن الكريم هي المحضن التربويّ لغرس قيم الإسلام ومبادئه وآدابه، فحفظ القرآن الكريم والتربية على أخلاق القرآن وآدابه صنوان، لا ينفكّ أحدهما عن صاحبه، فأيّ والد أو والدة لا يريد أن يرى في سلوك أولاده البرّ به وحسن المعاملة، والبعد عن العقوق، ومظاهره الكثيرة المتفشّية.؟! وما أكثر ما نسمع الشكاوى المريرة من الآباء والأمّهات عن عقوق أولادهم، وإساءاتهم التي قد تبلغ حدّ الضرب والإهانة، مع أنّهم يحسنون إليهم كلّ الإحسان، ثمّ لم يرَوا منهم إلاّ الإساءة والعُقُوق .. وعندما يلتفتون بدقّة إلى أسباب ذلك يرون : إهمال التربية القويمة منذ الصغر من جهة، وترك الأولاد إلى رفاق السوء يعيثون بهم فساداً وإفساداً من جهة أخرى ..

٥. وانتساب الناشئ إلى حلقات القرآن الكريم وانتظامه فيها سببٌ من أهمّ أسباب تفتّح مداركه العقليّةِ، ونموّه المعرفيّ المبكّر، وظهور طاقاته الإبداعيّة، وتفوّقه الدراسيّ على أقرانه، وهذا أمر ملاحظ مشهود، بخلاف ما يظنّه خطأ بعض الآباء والأمّهات

من خلاف ذلك، فيمنعون أبناءهم وبناتِهم عن الالتزام بحلقات القرآن، وهي سرّ نجاحهم وتفوّقهم، فيخسرون بذلك دينهم ودنياهم .. إنّ القرآن الكريم كتاب هداية معجز، وهو منزّل بلسان عربيّ مبين، وفيه من العلوم والمعارف الدينيّة، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والحضاريّة ما لا يعرف لكتاب غيره، فمن أراد النموّ اللغويّ المبكّر، والذوق اللغويّ السليم فدونه كتاب الله تعالى، ومن أراد العلوم والمعارف، والثقافات والآداب على اختلاف أنواعها، وتعدّد مناحيها واتّجاهاتها فدونه كتاب الله، ومن أراد أن يتّصل أوّلاً وآخراً بسبب من عناية الله تعالى وثيق، وباب لا يغلق من أبواب العطاء والتوفيق، فليصل سببه وسبب من يلوذ به، ويريد له الخير من أبنائه وبناته بكتاب الله تعالى. ألم يقل النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: " خيرُكُم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وعلّمَه "(٢٢٩). ولا ينبغي أن تفهم هذه الخيريّة على

---

(٢٢٩)رواه البخاري والترمذي عن علي رضي الله عنه ، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن عثمان رضي الله عنه ، ورواه ابن ماجة عن سعد ، بلفظ خياركم .. انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس ٤٧٢/١ .

نحو واحد من أنحائها، فتكون قاصرة على جانب الأجر والمثوبة، معزولة عن الخيريّة في الجوانب الأخرى التي منها مصالح الدنيا ومطالبها. ومثل ذلك أيضاً قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ: " أهلُ القُرآنِ هُم أهلُ اللهِ وَخَاصّتُهُ "(٢٣٠). ولكنّ ذلك رهن بتلقّي القرآن الكريم للفهم والعمل، والحرص على التأدّب بآدابه والالتزام بهديه في كلّ شأن ..

٦. وحلقات القرآن تربّي الناشئ على الجدّ وعلوّ الهمّة، وتعوّده على تنظيم حياته وحفظ أوقاته، وتربّي فيه الشعور بالمسئوليّة، والقدرة المبكّرة على تحمّلها، فلا عجب أن كان شباب القرآن رجالاً مكتملين، وهم في أعمار الزهور، وفتياناً ناضجين وهم أبناء بضع سنين .. ومن ثمّ فإنّ جماعات تحفيظ القرآن الكريم في كلّ بلد من بلاد المسلمين هم حماة حصون الأمّة من داخلها، وإنّ العمل الذي تضطلع به لهو العمل الرائد المبرور، الذي

---

(٢٣٠)رواه النسائيّ وابن ماجة وأحمد والدارميّ عن أنس t مرفوعاً ، وصحّحه الحاكم ، وقال : إنّه روي من ثلاثة أوجه عن أنس وهذا أمثلها . انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس ١/٢٩٣/ .

تستحقّ عليه كلّ شكر وتقدير، وإنّ للقائمين عليها من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من المثوبة والأجر ما لا يدخل تحت تصوّر أو حصر ..

وبعد، فإنَّ هدايةَ الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ تفرض على كلّ مؤمن ومؤمنة أن يجعلَ أولاده قريبين من هَذه الهدَاية الإلهيّة يحظون ببركاتها وخيراتها ، وتفيض عليهم أنوارها وأسرارها ..

نسأل الله تعالى أن يوفِّق الآباء والأمّهات والمربّين إلى أن يولوا كتاب الله تعالى ما يليق به من العناية والاهتمام ، ليتحقّق انبعاث هذه الأمّة من جديد، وأن يجعل أبناءنا وبناتنا ببركة القرآن العظيم قرّة عين لنا في الدارين، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

أَفْكَارٌ لِتَحْفِيظِ الْقُرْآنِ لِلأَطْفَالِ:

الفكرة الأولى: اقرأ القرآن أمامه (غريزة التقليد) هذه الفكرة تنمي عند الطفل حب التقليد التي هي من فطر الله التي فطر الإنسان عليها ، بخلاف لو أمرته وهو يراك تفعل ذلك .

الفكرة الثانية : قم بإهدائه مصحفا خاصا به (غريزة التملك) إن إهدائك مصحفا خاصا لطفلك يلاقي تجاوبا مع حب التملك لديه وإن كانت هذه الغريزة تظهر جليا مع علاقة الطفل بألعابه فهي أيضا موجودة مع ما تهديه إياه.

الفكرة الثالثة : اجعل يوم ختمه لجزء من القرآن يوما مميزا من إقامة حفلة واستدعاء لأصدقائه لتهنئته ..وتقديم هدية له .. هذه الفكرة تربط الطفل بالقرآن من خلال ربطه بشيء محبب لديه لا يتكرر إلا بختمه جزءاً معيناً من القرآن.

الفكرة الرابعة : قص له قصص القرآن الكريم فالطفل يحب القصص بشكل كبير، فليكن قصك عليه قصص القرآن مشبعاً بمفرداتٍ وأسلوبٍ تناسب وتلائم فهم ومدركات الطفل.

الفكرة الخامسة : أَعِدَّ له مسابقات مسلية من قصار السور(لمن هم في سن الخامسة أو أكثر) تلك المسابقات تكون بينه وبين إخوته أو بينه وبين نفسه.. كأسئلة وأجوبة متناسبة مع مستواه.. فمثلا يمكن للأم أن تسأل ابنها عن : كلمة تدل على السفر من سورة قريش؟ أ،- رحلة فصلين من فصول السنة ذكرا في سورة قريش؟ ج : الشتاء و الصيف ..

- اذكر كلمة تدل على الرغبة في الأكل؟ ج: الجوع، أو اذكر الحيوانات المذكورة في جزء عم أو في سور معينة ؟ وهكذا بما يتناسب مع سن و فهم الطفل.. ومن ثم نتطور في الأسئلة بما يناسب عمر وفهم طفلك .

الفكرة السادسة : اربط له عناصر البيئة بآيات القرآن من هذه المفردات: الماء / السماء / الأرض / الشمس / القمر / الليل / النهار / النخل / العنب / العنكبوت/ وغيرها. يمكنك استخدام الفهرس أو أن تطلب منه البحث عن آية تتحدث عن السماء مثلا وهكذا.

الفكرة السابعة : مسابقة أين توجد هذه الكلمة فالطفل يكون مولعا بزيادة قاموسه اللفظي. فهو يبدأ بنطق كلمة واحدة ثم يحاول في تركيب

الجمل من كلمتين أو ثلاث لتكن معينة له في زيادة قاموسه اللفظي و تنشيط ذاكرة الطفل بحفظ قصار السور والبحث عن مفردة معينة من خلال ذاكرته.

الفكرة الثامنة: اربطه بالوسائل المتخصصة بالقرآن وعلومه (القنوات المتخصصة بالقرآن، الأشرطة، الأقراص، المذياع ، وغيرها...)

الفكرة التاسعة : قم بشراء أقراص تعليمية والتي بدورها تساعد على القراءة الصحيحة ، والحفظ من خلال التحكم بتكرار الآية وغيره...

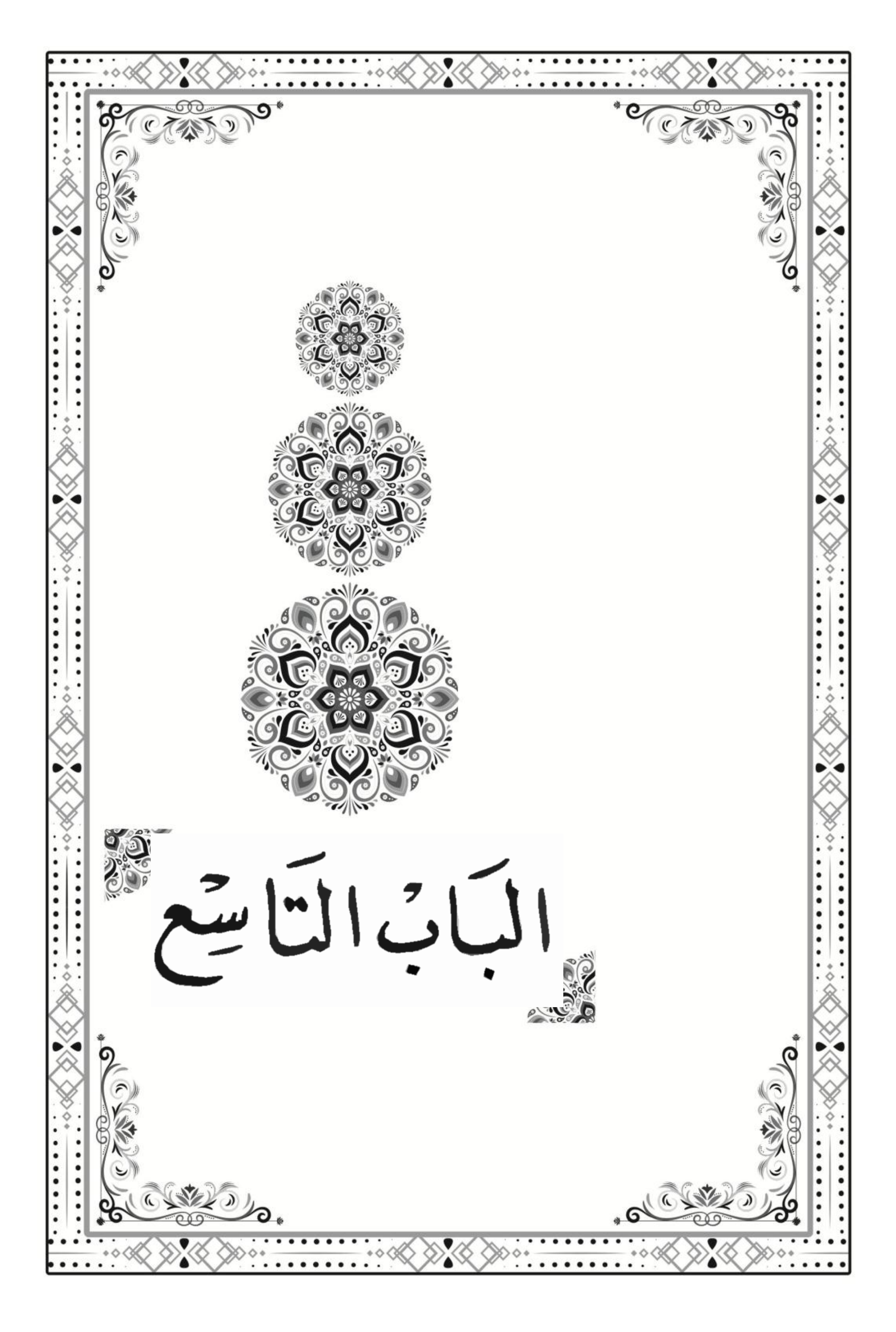
الفكرة العاشرة :شجعه على المشاركة في المسابقات (في البيت / المسجد / المكتبة/ المدرسة/ البلدة.....) إن التنافس أمر طبيعي فطري عند الأطفال ويمكن استغلال هذه الفطرة في تحفيظ القرآن الكريم.

الفكرة الحادية عشر: سجل صوته وهو يقرأ القرآن فهذا التسجيل يحثه ويشجعه على متابعة طريقه في الحفظ بل حتى إذا ما نسي شيء من

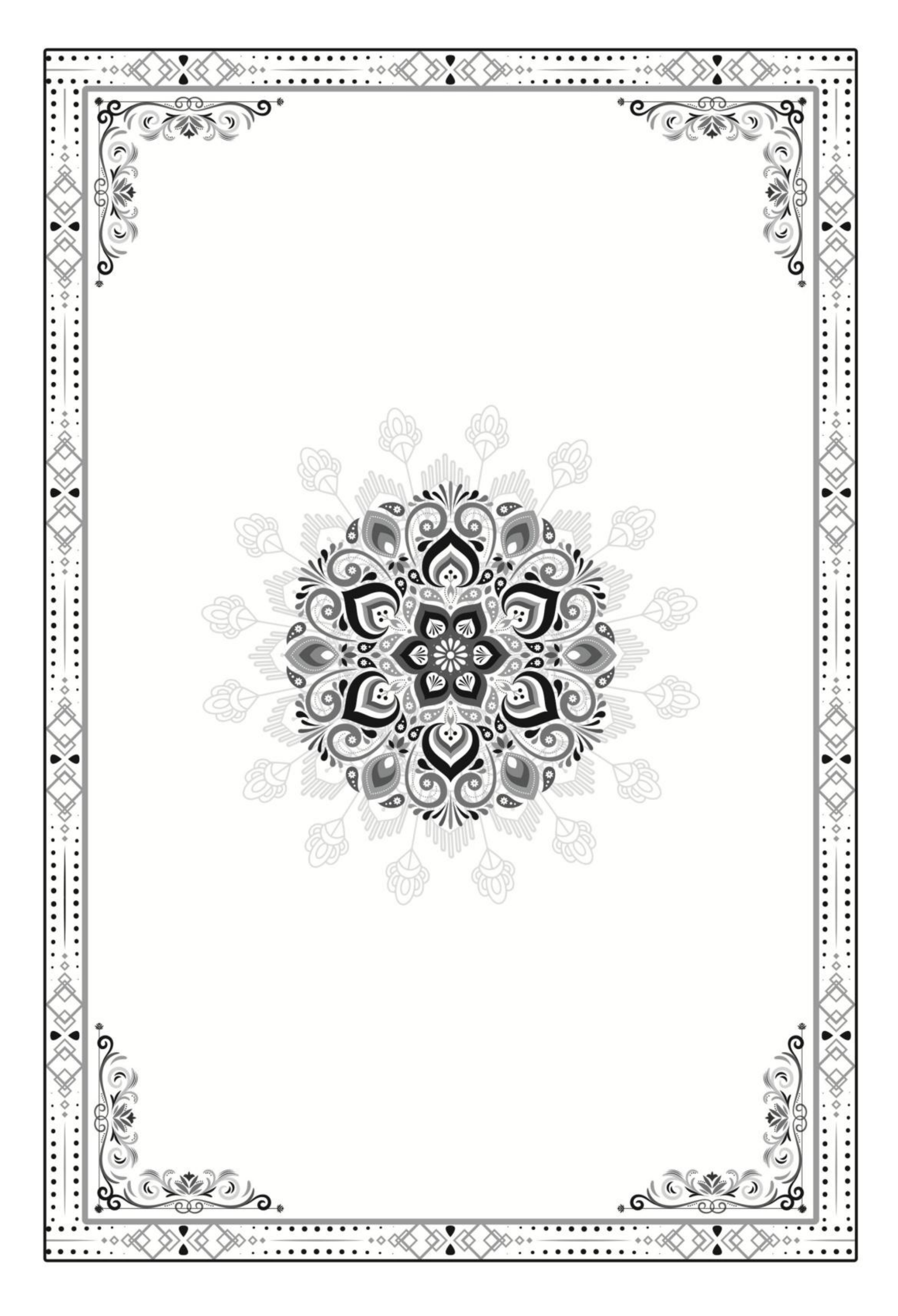
الآيات أو السور فإن سماعه لصوته يشعره بأنه قادر على حفظها مرة أخرى.

الفكرة الثانية عشر: شجعه على المشاركة في الإذاعة المدرسية والاحتفالات الأخرى، مشاركة طفلك في الإذاعة المدرسية - خصوصا في تلاوة القرآن- تشجع الطفل ليسعى سعيا حثيثا في أن يكون مميزا ومبدعا في هذه التلاوة .. خصوصا إذا ما سمع كلمات الثناء من المعلم ومن زملائه..

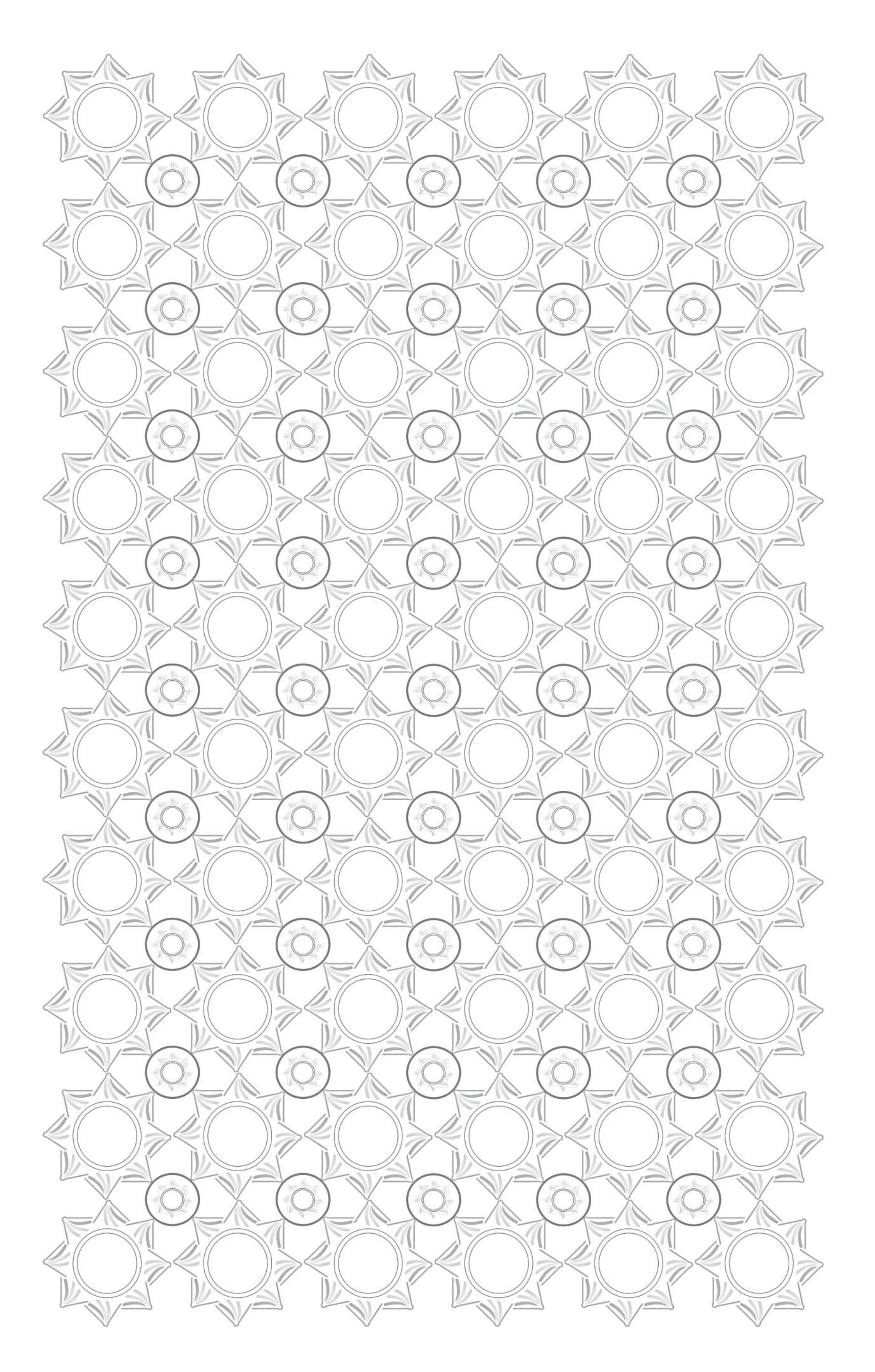
الفكرة الثالثة عشر: استمع له وهو يقص قصص القرآن الكريم ينبغي حين يقص الطفل شيئا من قصص القرآن مثلا أن ننصت إليه ونتفاعل معه ونصحح ما قد يقع منه في سرد القصة بسبب سوء فهمه للمفردات أو المعاني العامة.

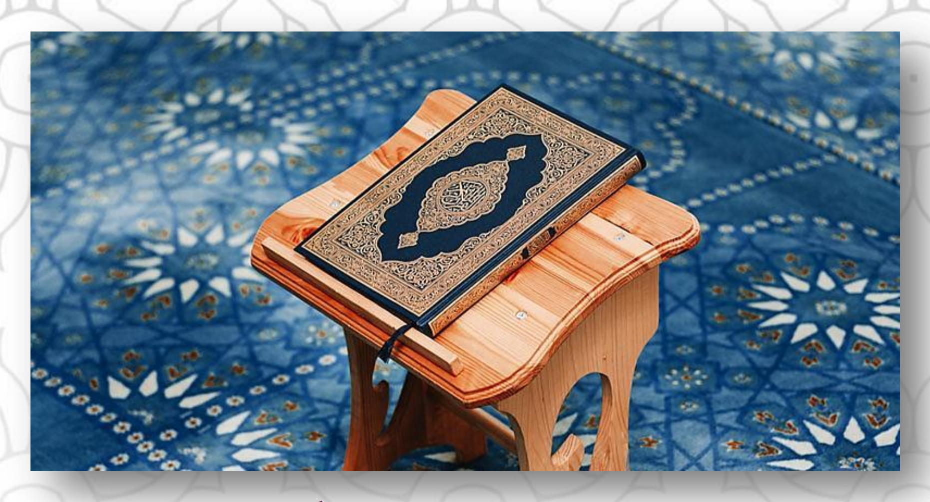


البَابُ التَاسِعُ




الباب التاسع
المدخل إلى
متشابهات القرآن
ضوابط وعلامات لتمييز المتشابهات من آيات الله البينات





المدخل إلى متشابهات القرآن

ضوابط وعلامات لتمييز المتشابهات من آيات الله البينات

الحمد لله العزيز الوهاب، مالك الملوك ورب الأرباب، هو الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ، هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ، وأودعه من العلوم النافعة، والبراهين القاطعة: غاية الحكمة وفصل الخطاب وخصصه من الخصائص العلية، واللطائف الخفية، والدلائل الجلية، والأسرار الربانية، العجب بكل عجب عجاب وجعله في الطبقة العليا من البيان،

حتى أعجز الإنسان والجان، واعترف علماء أرباب اللسان بما تضمنه من الفصاحة والبراعة والبلاغة والإعراب والإغراب ويسر حفظه في الصدور، وضمن حفظه من التبديل والتغيير، فلم يتغير ولا يتغير على طول الدهور وتوالي الأحقاب وجعله قولا فصلا، وحكما عدلا، وآية بادية، ومعجزة باقية: يشاهدها من شهد الوحي ومن غاب وتقوم بها الحجة للمؤمن الأوّاب، والحجة على الكافر المرتاب وهدى الخلق بما شرع فيه من الأحكام، وبيّن الحلال والحرام، وعلّم من شعائر الإسلام، وصرّف من النواهي والأوامر والمواعظ والزواجر، والبشارة بالثواب، والنذارة بالعقاب، وجعل أهل القرآن أهل الله وخاصته، واصطفاهم من عباده، وأورثهم الجنة وحسن المآب.

إنّه كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ليس له بديل في بديع نظمه، وجزالة لفظه، ولا في فصاحته وبلاغته، ولا في حكمه وأحكامه، ولا في جمال تركيبه وحسن أسلوبه.

فقد أنزله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ معجزة لنبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ تحدّى به أرباب الفصاحة والبلاغة من كفّار قريش فعجزوا أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، أنزله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا

فيه من الحقّ بإذنه، ولمّا قرئ على أرباب الفصاحة والبلاغة من كفّار قريش أسلم بعضهم على الفور لمعرفتهم أنّه ليس من كلام البشر، إنّما هو من كلام رب العالمين، أنزله قرآنا عظيماً، وذكراً حكيماً، وحبلاً ممدوداً، وعهداً معهوداً، وظلّاً وارفاً، وصراطاً مُستقيما، فيه معجزات باهرة، وآيات ظاهرة، وحجج صادقة، ودلالات ناطقة، أدحض به حجج المبطلين، ورد به كيد الكائدين، وقوى به الإسلام والدين.

أنزله على خاتم الرسل صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ ، المبعوث بالرّحمة، من رفع الله به أعلام الحق، وأحيا به معالم الصدق، ودمغ به الكذب ومحا آثاره، وقمع به الشّرك وهدم مناره، ولم يزل يعارض ببيناته أباطيل المشركين حتّى مهد به الدين، وأبطل به شبه الملحدين.

إنّه الكتاب العظيم الّذي لا كان ولا يكون مثله، هو سفينة النّجاة، ومشعل الهداية، وحصن الأمن والسّلامة، وبحر الحكم ومعدن كل فضيلة، إنّه الموكب العظيم الّذي يحمل البشريّة ويقودها إلى ما فيه خيرها ونحرها وسعادتها في الدارين.

فسبحان مولانا الكريم الذي خصنا بكتابه، وشرفنا بخطابه، فيا له من نعمة سابغة، وحجة بالغة، أوزعنا الله الكريم القيام بواجب شكرها، وتوفية حقها، ومعرفة قدرها، وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ.

وصلاة الله وسلامه، وتحياته وبركاته وإكرامه، على من دلنا على الله، وبلغنا رسالة الله، وجاءنا بالقرآن العظيم، وبالآيات والذكر الحكيم، وجاهد في الله حق الجهاد، وبذل جهده في الحرص على نجاة العباد، وعلم ونصح وبيّن وأوضح حتى قامت الحجة، ولاحت المحجة، وتبين الرشد من الغيّ، وظهر طريق الحق والصواب، وانقشعت ظلمات الشك والارتياب. ذلك: سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي، القرشي الهاشمي، المختار من لباب اللباب، والمصطفى من أطهر الأنساب، وأشرف الأحساب، الذي أيده الله بالمعجزات الظاهرة والجنود القاهرة، والسيوف الباترة الغضاب، وجمع له بين شرف الدنيا والآخرة، وجعله قائدا للغرّ المحجلين والوجوه الناضرة، فهو أوّل من يشفع يوم الحساب، وأوّل من يدخل الجنة ويقرع الباب، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وأصحابه الأكرمين، خير أهل وأصحاب، صلاة زاكية نامية، لا يحصر

مقدارها العدّ والحساب، ولا يبلغ إلى أدنى وصفها ألسنة البلغاء ولا أقلام الكتّاب.

فلنكثر الشّكر لله الّذي أثابنا بهذه المكرمة، وشرّفنا بهذه الفضيلة على سائر الأمم، ولنرغب في جميل الثّناء عليه، إذ جعل كتابه في الدُّنيا يشرف خافض الأحساب، ويعلي منا قدر أولي الاقتار، ويرفع منا منزلة أحداث الاسنان، ثم أدخر لهم في الآخرة عنده الحظّ الجزيل، والنائل الفضيل، من القرب والزلفى، والارضاء والرحبى، وبيد الله الفضل يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم.

أما بعد،

فإنّ علم القرآن العظيم: هو أرفع العلوم قدرا، وأجلها خطرا، وأعظمها أجرا، وأشرفها ذكرا، وإنّ للحفظ أسباباً من تأتّى لركوب مسالكها، بما نصف له من تسهيل استعلائها فمنهم من ينتهي بإذن الله إلى حيث مراده، في أقرب زمان، بأسهل سير ومرام. وإن الله أنعم عليّ بأن شغلني بالقرآن الكريم وتعلّمه ، وشغفني بتفهم معانيه وتحصيل علومه، فاطلعت على مسالك الناس - إذ إن كل أحد سلك طريقا نحاه،

وذهب مذهبا ارتضاه، - فرأيت أهل القرآن أوفر الناس حظا وأرفعهم قدرا وأعظمهم أجرا وأشرفهم ذكرا، فرغبت في سلوك طريقهم، والانخراط في مساق فريقهم، وقد امتن الله علي أن أردفت تلك النفائس الّتي تشد إليها الرحال، وتضرب بها الأمثال، وترخص في تحصيلها كرائم الأموال؛ فإنها معقد الآمال، ومتنافس كرام الرجال، وإنها لحلية في جيد الترتيل تستوجب الثناء الجزيل والذكر الجميل، وهكذا عهدي بك يا طالب العلم أن تكون باذلاً للخير مبادراً نفَّاعا.

وكل امرىء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

بعض فوائد المتشابه:

الحثّ للعلماء على النَّظر فيه: الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائقه، فإنّ استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب إن كان مما يمكن علمه.

إظهار التَّفاضل وتفاوت الدّرجات: إذ لو كان القرآن كله محكماً لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره.

ابتلاء العباد: بالوقوف عنده والتّوقف فيه، والتّفويض والتّسليم، والتّعبُّد بالاشتغال به من جهة التّلاوة كالمنسوخ، وإن لم يجز العمل بما فيه، وإقامة الحجة عليهم، لأنّه نزل بلسانهم ولغتهم وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم وهذا يدلّ على أنّه نزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنّه الّذي أعجزهم عن الوقوف على معناه.

أنّه يوجب مزيد المشقّة: في الوصول إلى المراد منه، وزيادة المشقّة توجب زيادة الثَّواب.

أنَّ القرآن إذا كان مشتملاً على المتشابه: افتقر إلى العلم بطريق التأويلات، وترجيح بعضها على بعض، وافتقر في تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علوم اللّغة، والنّحو، والمعاني، والبيان، وأصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يحتج إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان في إيراد المتشابه هذه الفوائد الكثيرة.

علم توجيه المتشابه اللفظي في القرآن:

علم [توجيه المتشابه اللفظي في القرآن]، لم أقف على أحد وضع حدودا وقواعد لضبطه غير الدكتور فاضل السامرائي، حيث نجد بعض القواعد متناثرة على استحياء في بعض كتبه، وإليكم ما وقفت عليه من محاولة أحد المعاصرين للتقعيد للمتشابه اللفظي في القرآن الكريم:

الضبط بالتقعيد للمتشابه اللفظي في القرآن المجيد:

هذا عنوان كتاب لطيف وضعه مؤلفه [فواز بن سعد] للحَفَظَة والْقُرَّاء، واجتهد فيه أن يضبط قواعد تساعد الْقُرَّاء والحفظة على عدم الوقوع في الخطأ والنسيان، وقسم هذه القواعد إلى قسمين: قواعد عامة، وقواعد خاصة.

والقواعد الخاصة هي موضع بحثنا، إذ وضع فواز سعد ثماني عشرة قاعدة، ضبط بها الآيات المتشابهات، لتجنب الخطأ والغفلة والنسيان، ولعل بعض هذه القواعد التي ضبطها المؤلف للحفظة والْقُرَّاء يساعد في توجيه بعض مسائل المتشابه اللفظي في القرآن، ويبرز ذلك في كثير من هذه القواعد، وإليكم نبذة حول بعض هذه القواعد:

القاعدة الأولى: [الترتيب الهجائي]

قال فواز سعد يوضح هذه القاعدة: "يسميها البعض [الترتيب الألفبائي]، والمقصود أنك إذا وجدت آيتين متشابهتين فإنه في الغالب تكون بداية الموضع المتشابه في الآية الأولى مبدوءا بحرف هجائي يسبق الحرف المبدوء به في الموضع الثاني من الآية الثانية وبالمثال يتضح المقال"ثم مضى يعرض نماذج وأمثلة تثبت ذلك، وقد أكثر من التمثيل لهذه القاعدة، ومن الأمثلة التي ساقها:

- قول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]،

- وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]،

فقد اختلفت الآيتان في لفظي: يَرْجِعُونَ ويَعْقِلُونَ ولو تأملنا سنجد اختلاف الحروف بدأ من الحرف الثاني في كلتيهما، ففي الأولى حرف [الراء] وفي الثانية حرف [العين] والراء تسبق العين في الترتيب الهجائي، وعلى هذا النمط ساق فواز سعد باقي الأمثلة.

القاعدة الثانية: [العناية بالآية الوحيدة]

"وتتعلق هذه القاعدة بالمواضع التي تشابه فيها كثير من الآيات حيث يكون بينها تماثل تام عدا آية واحدة تنفرد عنها في جزء من الآية... مع التنبيه على أنه في الغالب تكون الآية الوحيدة هي الآية الأولى بين المواضع المتشابه".

وقد مثل لهذه القاعدة بعشرين مثالا، منها:

- "قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، بدون الباء في [مَنْ] مع الفعل المضارع [يضل] هي الوحيدة في القرآن، وما عداها بالباء مع الفعل الماضي [ضل] كما في النحل والنجم والقلم".

القاعدة الثالثة: قاعدة [الواو قبل الفاء]

وهذه القاعدة تتعلق بالآيات المتشابهات وتبدأ بالعطف إما بـ [واو] أو [فاء]، فالقاعدة أن الأغلبية في القرآن الكريم أن الأسبقية تكون للآيات التي تبدأ بالواو قبل الفاء، وهذه القاعدة – كما أشار المؤلف – لها مستثنيات قليلة. وقد مثل لها بعشرين مثالا، منها:

- "قول الله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]،

- وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]"

القاعدة الخامسة: [الضبط بالزيادة للموضع المتأخر]

كثير من الآيات المتشابهة يكون بالموضع المتأخر منها فيه زيادة على المتقدم وقد يأتي خلاف ذلك، ولكننا كما أشرنا نضبط الأكثر ونترك المستثنى الأقل.

وقد مثل لهذه القاعدة بتسعة عشر مثالا من القرآن، **أولها:** قول الله تعالى في قصة صالح في سورة الشعراء: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وجاء بعدها في قصة شعيب ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ".

القاعدة السادسة: [العناية بما تمتاز به السورة]

ككثرة دوران الكلمة أو الجملة في السورة، وقد مثل لذلك ببعض السور التي تميزت بخصيصة عن غيرها مثل:

- دوران كلمة [أرسل] وما اشتق منها في سورة الأعراف، مثل: [من المرسلين، فأرسلنا، أن أرسل، يرسل، ...] وهكذا.

- كثرة دوران كلمة [الظلم] وما اشتق منها في سورة الأنعام مثل: [يظلمون، أظلم، بظلم، الظالمون، ظلموا، ...].

- كثرة دوران [أهل الكتاب] في المائدة، و[أهل القرى] في الأعراف.

وساق المؤلف لتلك القاعدة أمثلة عديدة وأنماط متنوعة من السور التي اختصت بدوران لفظ ما أو تركيب ما.

والمتأمل في القواعد التي بناها فواز سعد سيجد أنه اعتمد اعتمادا كبيرا على كتب المتشابه اللفظي للقدامى في ضبط هذه القواعد، فمن ذلك

قاعدة [العناية بما تمتاز به السورة]

فيما يعنى باختصاص سورة بدوران كلمة ما ومشتقاتها قال فواز سعد في: كثرة دوران كلمة [العمل] وما اشتق منها في سورة الجاثية، ودوران كلمة [الكسب] وما اشتق منها في سورة الزمر: قال:

"ومن ثَمَّ لا تخلط بين قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية: ٣٣]، مع قوله تعالى في الزمر: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا

كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨]، قال الكرماني: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وقع بين قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠] الزمر. فناسب،

أما الجاثية فقد وقع قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، بين قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية:٣٣]، نخصت كل سورة بما اقتضاه".

وفي نفس القاعدة وفيما يخص كثرة دوران كلمة [جعل] في سورة الزخرف وجَّه فواز سعد مسألة اختصاص آية طه: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه: ٥٣]، بـ وَسَلَكَ

واختصاص آية الزخرف: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف: ١٠] بـ جَعَلَ

قال: "والضابط أن الآية الثانية في سورة الزخرف لكثرة دوران [جعل] في السورة وما اشتق منها"، ولو رجعنا إلى [ملاك التأويل]

للغرناطي، و[البرهان] للكرماني، و[فتح الرحمن] للأنصاري، سنجد أنهم قد نوهوا إلى مثل ذلك في توجيههم لهذه المسألة.

ويبرز بوضوح تأثر فواز سعد بالقدامى في استنتاجه لهذه القواعد باعتماده على توجيهات علماء المتشابه اللفظي السابقين في مواطن عديدة من كتابه، وإن شئت فراجع اختصاص سورة النحل بحذف النون في [لم يك، لا تك]،

وراجع مسألة اختصاص سورة هود بالعطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٦٦،٨٢] وفي غيرها العطف بالواو.

ونكتفي بما تقدم من التفصيل الموجز في القواعد التي ضبطها المؤلف، وإليكم رءوس هذه القواعد:

القاعدة الرابعة: الضبط بالربط بين الموضع المتشابه واسم السورة

القاعدة السابعة : الضبط بالحصر

القاعدة الثامنة: الضبط بالجملة الإنشائية.

القاعدة التاسعة: الضبط بجمع الحرف الأول من أوائل الكلمات المتشابهة.

القاعدة العاشرة: الضبط بالشعر.

القاعدة الحادية عشرة: الضبط بربط الكلمة المتشابهة مع اسم السورة بالحركات.

القاعدة الثانية عشرة: الضبط بالتنكير والتعريف

القاعدة الثالثة عشرة: الربط بين السورتين فأكثر

القاعدة الرابعة عشرة: الضبط بربط الزيادة بالآية أو السورة الطويلة

القاعدة الخامسة عشرة: الضبط بالتأمل للمعنى في الموضع المتشابه

القاعدة السادسة عشرة: الضبط بمعرفة موضع الآية في المصحف القاعدة

السابعة عشرة: الضبط بالصورة الذهنية القاعدة

الثامنة عشرة: الضبط بالمجاورة والموافقة.

ولا يحتاج الناظر في تفصيلات هذه القواعد لطول نظر حتى يرى أن المؤلف لم يعمم هذه القواعد، وإنما كان في أكثر القواعد التي ضبطها يشير صراحة إلى أن ذلك هو الغالب، وأن للقاعدة استثناءات لكن البناء على الأكثر وليس على المستثنى، وقد مر بنا بعض هذه الإشارات في النُّقُول التي نقلناها عن كتاب فواز سعد، فلم يزعم أنها قواعد ثابتة، تجري على كل النماذج والأمثلة المشابهة، بل هو الكثير الغالب.



٢٦ قاعدة

في ضبط المتشابه اللفظي في القرآن

ملخصة من كتاب الشيخ فواز بن سعد الحنين



١ - الترتيب الهجائي

في سورة البقرة: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ والثانية في نفس السورة: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ الراء تسبق العين.

٢ - العناية بالآية الواحدة

في سورة آل عمران (٤٧): ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ موضع واحد وباقي المواضع في المصحف: ﴿غُلَٰمٌ﴾.

٣ - الواو قبل الفاء، والباء قبل الميم

في سورة آل عمران: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ وفي سورة الزمر: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الواو قبل الفاء.

٤ - الربط باسم السورة

في سورة البقرة: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ وفي آل عمران: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ فالتاء المربوطة مناسبة لاسم سورة البقرة.

٥ - الضبط بالزيادة للموضع المتأخر

في سورة التوبة: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾ وفي سورة هود: ﴿تَضُرُّونَهُۥ﴾ فالنون الزائدة للسورة المتأخرة.



٦ - العناية بما تمتاز به السورة

في سورة طه: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ وفي سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ جعل في الزخرف لكثرة ورودها في السورة.

٧ - الضبط بالحصر

تقديم اللهو على اللعب لم يرد إلا في موضعين: الأعراف والعنكبوت، وباقي المواضع اللعب على اللهو.

٨ - الضبط بالجمل الإنشائية

في سورة البقرة: ﴿بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ وفي سورة الحج: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾ لا اعتكاف في الحج.

٩ - جمع الحرف الأول من أوائل الكلمات المتشابهة

في سورة آل عمران: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ ثم: ﴿أَلِيمٞ﴾، ثم: ﴿مُّهِينٞ﴾ تضبطها بكلمة (عام) أوائل كل كلمة.

١٠ - الضبط بالشِّعر

في سورة الشعراء: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ﴾ بعدها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ بيت: ما أنت إلا أولًا في الظلة والواو في الثاني بها لحكمة.



١١ - ربط الكلمة المتشابهة مع اسم السورة بالحركات

في سورة الصافات: ﴿يُنزَفُونَ﴾ وفي سورة الواقعة: ﴿يُنزِفُونَ﴾ الزاي المفتوحة مع الصافات، والمكسورة مع الواقعة.

١٤ - ربط الزيادة بالآية أو السورة الطويلة

في سورة الأنفال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ وفي الحجر: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾، التي فيها الزيادة سورة الأنفال لأنها أطول من الحشر.



١٢ - الضبط بالتنكير والتعريف

في سورة مريم: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ ثم جاء: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ المنكّر يسبق المعرّف.



١٣ - الربط بين السورتين فأكثر

قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ جاء بعدها: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ وذلك في سورتي البقرة والأنبياء.



١٥ - تأمل المعنى

في سورة القصص: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وفي الصافات: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، في قصة إسماعيل صبر على البلاء.

١٦ - معرفة موضع الآية في المصحف

قوله: ﴿نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ إذا جاءت في الصفحة اليمنى، وقوله: ﴿ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ إذا جاءت في الصفحة اليسرى.



١٧ - الضبط بالصورة الذهنية

في سورة الذاريات: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ من الأسفل إلى الأعلى: أرض، إنسان، ثم سماء.

١٨ - الضبط بالمجاورة والموافقة

في سورة الرعد: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ ثم جاء بعدها: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ توكلت فيها تاء فجاء معها متاب.

١٩ - الموافقة بين الموضع المتشابه وأول السورة

في سورة الإسراء: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وفي سورة الكهف: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ فالمضمومة مع الإسراء بدأت بضمة (سُبحان) والكهف المفتوحة بدأت بفتحة (الحَمد).

٢٠ - الموافقة بين فواصل الآي

في سورة هود ختمت الآية: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ﴾، أما في التوبة ختمت الآية: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ فالآية التي قبلها وبعدها ختمت بميم.

٢١ - الضبط بالتقسيم والتجزئة

في سورة البقرة: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ اجتمعت ثم جاءت الأولى ﴿أَبَىٰٓ﴾ في الحِجر، والثانية ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ في سورة (ص).



٢٢ - الضبط بالتذكير والتأنيث

في سورة النحل: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ وفي سورة المؤمنون: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ المذكر سبق المؤنث.



٢٣ - مفتاح السور

في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ وفي سورة الكهف: ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ﴾ قدم الناس لمناسبة السين مع الإسراء.



٢٤ - الوسط بين الطرفين المتشابهين

في سورة البقرة: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ثم: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ثم ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فالمحسنين وسط بين المتقين.



٢٥ - الاكتفاء بالمذكور الأول عما بعده

في سورة هود: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ ثم: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾، فاكتفي بذكر الدنيا في الموضع الأول.

٢٦ - الضبط بأحكام التجويد

في سورة آل عمران: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وفي الأنفال: ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾ فالغنة في آل عمران مقدمة.

الأمثلة التي في هذا الملخص قليلة جدًا، والرجوع إلى كتاب (الضبط بالتقعيد) مهم جدًا



تلخيص وتصميم ماجد الروقي

والسؤال الآن

هل يمكن ضبط قواعد محددة يقاس عليها توجيه المتشابه اللفظي؟

إن الاجتهاد في ضبط المتشابه بقواعد أمر محمود، لا بأس به، لكن بالبحث في القواعد وجدنا أن هذه القواعد غير مطردة، ولا تضبط كل الأمثلة التي تدخل تحتها، إنما المؤثر والموجه الأول للآية هو المنزل الذي نزلت فيه، والسياق الذي درجت فيه، هذا السياق يختلف من منزل لآخر، فأَنَّى لنا أن نضع قاعدة لآيات ما، نزلت في منازل شتى، تضبط توجيهها في منازلها جميعا، إن ذلك أمر غير وارد.

ولا يَحْسُنُ بالباحثين في توجيه المتشابه اللفظي أن يبالغوا في التقعيد لتوجيه المتشابه اللفظي، إذ لا يمكن ذلك على إطلاقه، إننا قد نحدد للتفسير أنواعا، من تفسير بالرواية والأثر، وبالدراية والرأي، وإشاري، وعلمي، ويمكننا أن نضع ضوابط عامة للتفسير، وضوابط عامة يجب توافرها في المفسر ذاته قبل أن يهم بالتفسير، لكننا لا يمكننا أن نضع للقرآن الكريم سوره وآياته قواعد كقواعد اللغة تضبط تفسيره ضبطا، كذلك توجيه المتشابه اللفظي، لا يمكننا أن نضبطه بقواعد، إذ

أن الآيات المتشابهات جزء من كتاب الله العزيز، الذي يطلع علينا ما بين الفينة والأخرى بالجديد اللطيف، فالقرآن الكريم قديم في ذاته، جديد متجدد في روحه ومعانيه، فإن من أعظم إعجاز هذا الكتاب تجدده بتجدد الأزمان، وكأن ما بقي من أسرار القرآن ومكنوناته أكثر مما كُشِفَ لنا، وكأن ما خفي منه أكثر مما وقفنا عليه من أسرار ومعارف وعلوم، فبين حين وآخر يجود هذا الكتاب -بِقَدَر- بما يشاء على مَنْ أراد الله به خيرا وفضلا، فَيَمُنُّ الله عليه ببعض فُيُوض كتابه العزيز.

ويمكننا أن نحدد الأسباب التي تحول دون وضع قواعد محددة مطلقة تضبط توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وهي ما يلي:

١- الآيات المتشابهات لفظا جزء من القرآن الكريم الذي لم يقعد في تفسير آياته أحد إلى اليوم، إذ لا يمكن ذلك، فيمكن وضع ضوابط عامة لتفسير القرآن، وشروط يجب تحققها في المفسر، أم أن نضع قواعد تضبط تفسير عدد ما من الآيات، بينها رابط ما، فلا يمكن ذلك.

٢- الآيات المتشابهات وإن تشابه لفظها، فإن الآية تحمل معنى جديدا آخر في كل منزل تنزله.

٣- السياق الذي تنزل فيه الآيات المتشابهات هو صاحب الدور الأول في تحديد المعنى الذي تحمله الآية.

٤- قد نتفق بعض مواطن المتشابه اللفظي في بعض الجوانب اللغوية الصرفية الدلالية بما يوحي أن هناك ضابطا ما يجمعها، لكن حقيقةً لا يمكن إطلاق هذا الضابط، فيكون عاما لكل المواطن، وما ذلك إلا لاختلاف السياقات التي سيقت فيها الآيات المتشابهات.

٥- اختلاف الرؤى والنواظر، فما يراه أحد العلماء، قد لا يوافقه فيه غيره، فيرى رأيا آخر، وهذا قائم؛ إذ نتسع دائرة تفسير كتاب الله العزيز يوما بعد يوم، فيكشف عن بعض مكنونه وأسراره من لآيات المتشابهات.

حين لآخر، لذا لا يمكن ضبط قاعدة لتوجيه الآيات المتشابهات، وهي بعض أسرار هذا الكتاب.

٦- الكثير من آيات المتشابه اللفظي تدخل تحت المتشابه الذي هو ضد المحكم، إذ لم يستطع أحد أن يكشف عن أسرارها ومكنونها.

الْقَوَاعِدُ الْعَامَةُ لِضَبْطِ الْمُتَشَابِهَاتِ

إنَّ من أعظم المنن وأكرمها ، انشغال العبد بكتاب ربه ،وتلذذه بتلاوته ، ومحبته لأهل الله وخاصته ؛ أهل القرآن والإيمان.

والانشغال بحفظ كتاب الله ومدارسته له أجر عظيم .. ومن حفظ كتاب الله ستثقل الأمانة في عنقه فبعد أن كان الحفظ مندوب إليه، أصبحت المراجعة واجبة عليك أخي الحافظ .. حتى لا يتفلت القرآن منك .. فهو أشد تفلتا من الأبل في عقلها .. كما ذكر رسولنا ﷺ..

ولكن قد تواجهك أخي وأختي ما يشكل عليك في الحفظ وتلتبس عليك الآيات لتشابهها ..

فأحببت إخواني أن أفيد نفسي أولاً وأفيدكم معي بهذه القواعد التي ستعينكم بإذن الله على إتقان حفظك ..

فهيا بنا يا إخواني نرتشف رشفة يسيرة من بحر هذا العلم ونشد من أزرنا ونتعاون معا لنصل بإذن الله لحفظ متقن لكتاب الله ..

وسأستعين الله بأن أردف بعض الأمثلة لنتدرب عليها معا راجيا تعاونكم معي ولا تيأسوا من أول عثرة ..وتذكروا أن العثرة ربما تقفز بك

مسافة أطول من خطواتك المترددة ..فلا تلتفت ورائك وامض قدما للأمام ..

- نشرع الآن بالقواعد العامة والضوابط التامة التي تعين بإذن الله عز وجل على ضبط المتشابهات .

أولاً : الإخلاص لله تعالى :

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إنما يحفظ الرجل على قدر نيته)

- وقال ابن المبارك : (أول العلم النية) وهذا في جميع الأعمال ..

ثانيًا: كثرة القراءة والمراجعة الدائمة للقرآن الكريم:

ففي الحديث عند مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -(تعاهَدُوا هذا القُرآنَ، فَوالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَهو أشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها). وَلَفْظُ الحَديثِ لابْنِ بَرَّادٍ.

ثالثاً: الالتزام بالقراءة في مصحف واحد:

أي طبعة محددة .. وذلك ليتسنى للمراجع حين النسيان أن يتذكر موضع الآية . والإنسان يحفظ بالنظر كما يحفظ بالسمع ..

رابعا: حضور القلب والذهن حال القراءة :

فالشرود الحاصل عند البعض سبب للتشتت وعدم الإتقان .. ويستحسن ممن نسي آية أن يعود فيقرأ ما قبلها بتدبر.. فإن ذلك ربما أذكره الآية التي نسيها ..

يقول ابن الرومي :

وتالٍ تَلا يومـاً فأُنسِيَ آيـــــــة فأعيت عليه حين رام انتهازَهـا

فكرَّ على ما قبلهـــــا متدبــــــرا فثاب له فكرٌ فأفضى مجازَهـا

فشبهتُه بابن السبيـــــل تعرَّضت له وهْدة فاستصعبت حين رازهـا

فتقهقر عنها قِيس عشرين خُطــوة فجاش إليها جيشة فأجـازهـا

خامساً: قراءة كتب المتشابهات وتدوين الفرائد والفوائد والنظر الدائم فيها:

فقد يسر الله لك من السابقين واللاحقين من كفاك المؤونة واختصر عليك الزمن والجهد فما عليك إلا حسن الاختيار والانتقاء الجيد للكتب ،ثم جمع هذه الفوائد والفرائد وخصوصا ما تحتاجه منها ..وأسرد إليك من وازع تجربتي عدة كتب أفادتني كثيراً جداً وسأقوم بتجليتها لك وهي على النحو التالي :

- **الآيات المتشابهات "التشابه اللفظي للآيات حكم وأسرار - فوائد وأحكام "**
- **الإيقاظ لتذكير الحفاظ بالآيات المتشابهة الالفاظ .**
- **المتشابهات من كلمات القرآن .**
- **دليل الحفاظ في متشابه الألفاظ .**
- **دليل الطلاب إلى متشابه الكتاب .**
- **دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم .**
- **كشف المعاني في المتشابه من المثاني .**
- **متشابه القرآن العظيم .**

- **إغاثة اللهفان في ضبط متشابهات القرآن.**
- **معجم المتشابهات لألفاظ القرآن الكريم للزواوي.**
- **متن " هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب "الموسومة بالسَّخَاوِيّة ".**

سادساً : الدراسة على المتقنين والإفادة من علمهم وتجربتهم:

فمن أعظم الفوائد التي ستجنيها من ذلك .. إزالة المعلم للبس الحاصل عند الطالب ..

سابعاً: الدعاء والالتجاء إلى الله بالعون والإتقان فإنه خير معين ومسؤول

فقبل أن تطلب السبب المادي حري بك أخي أن تلجأ إلى ربك أن ييسر لك الأمر ويحببه لك ويسهله .

قال مطر الوراق : (في قوله تعالى :﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ أي : فهل من طالب علم فيعان عليه)

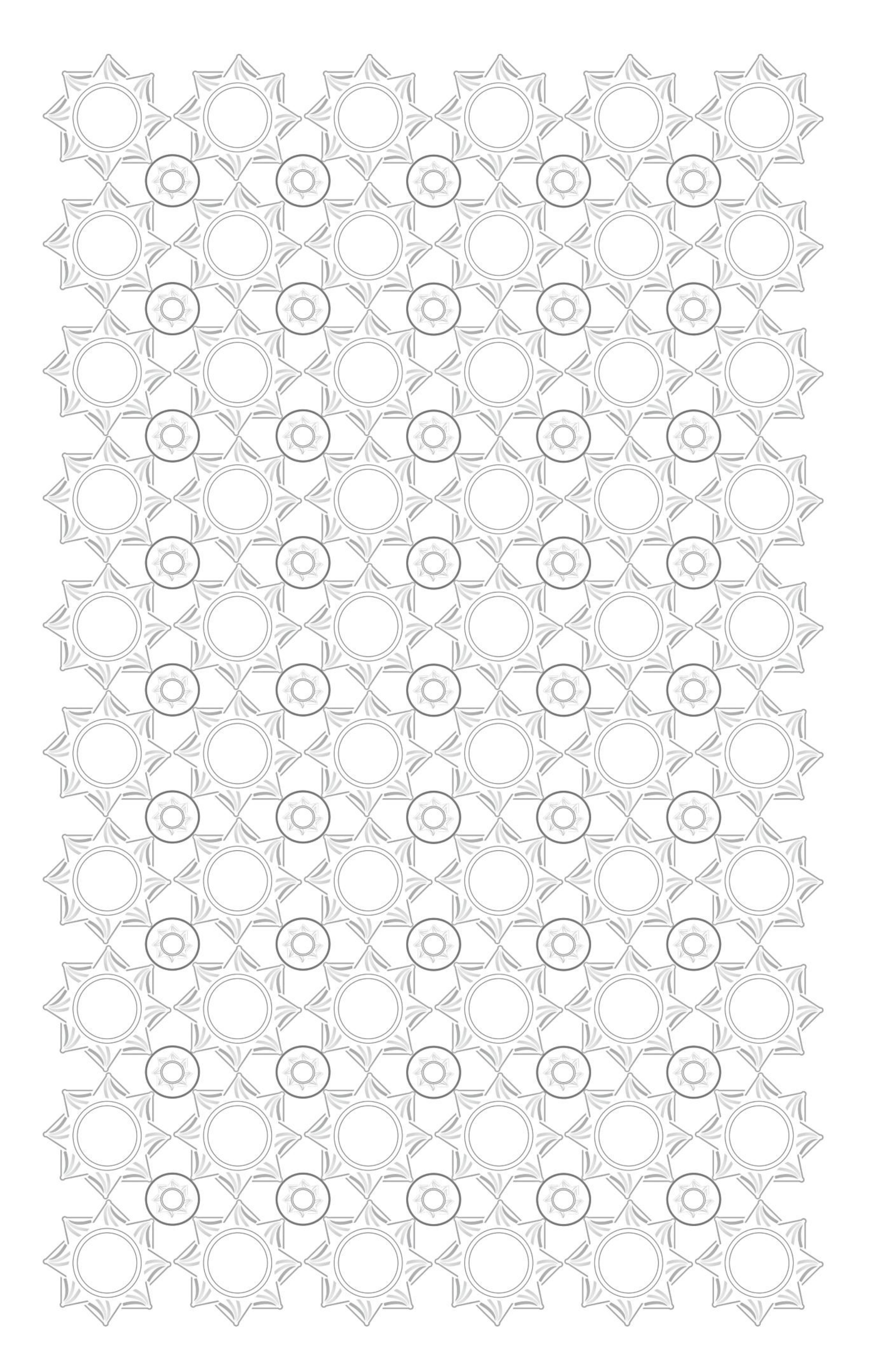
ثامناً: ترك المعاصي والذنوب :

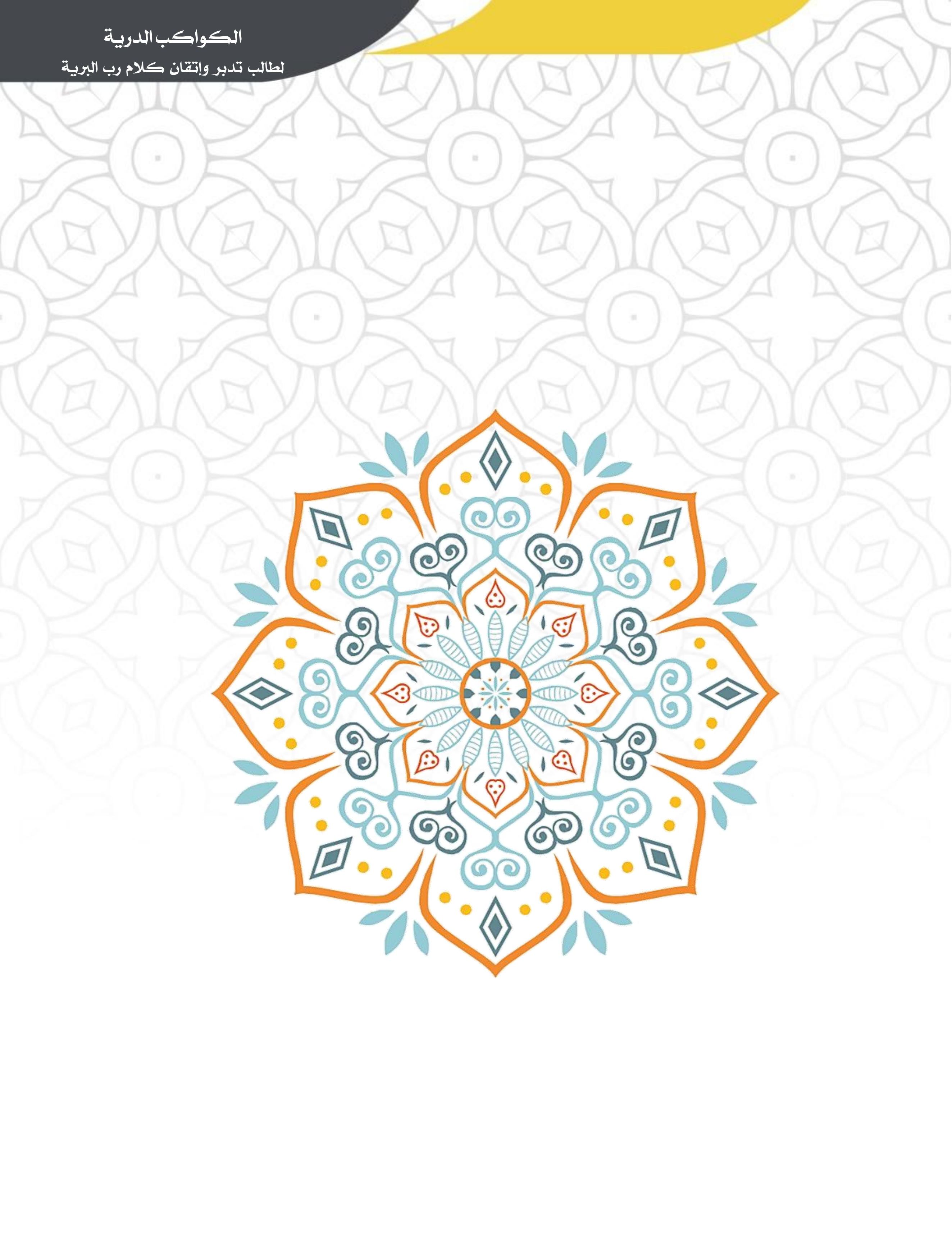
فقد سئل مالك ابن أنس - رحمه الله - هل يصلح لهذا الحفظ من شيء ؟؟ قال : (إن كان يصلح له شيء فترك المعاصي !!).

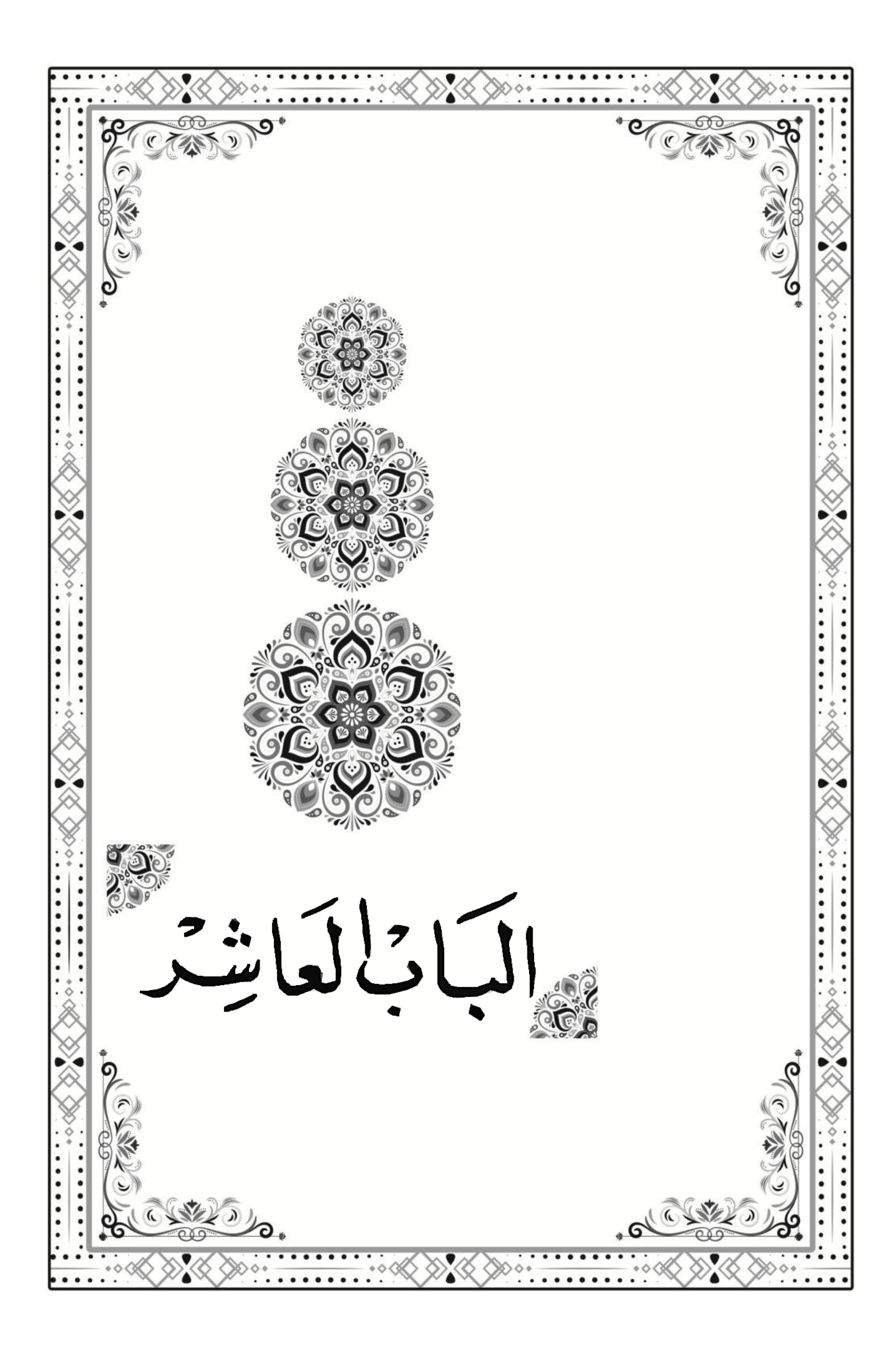
- وكتب رجل إلى أخ له : (قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم).

وقد روى ابن المبارك عن الضحاك بن مزاحم أنه قال : (ما من أحد تعلم القرآن فنسيه إلا بذنب يحدثه، لأن الله تعالى يقول في ذلك : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠ ﴾ وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب).

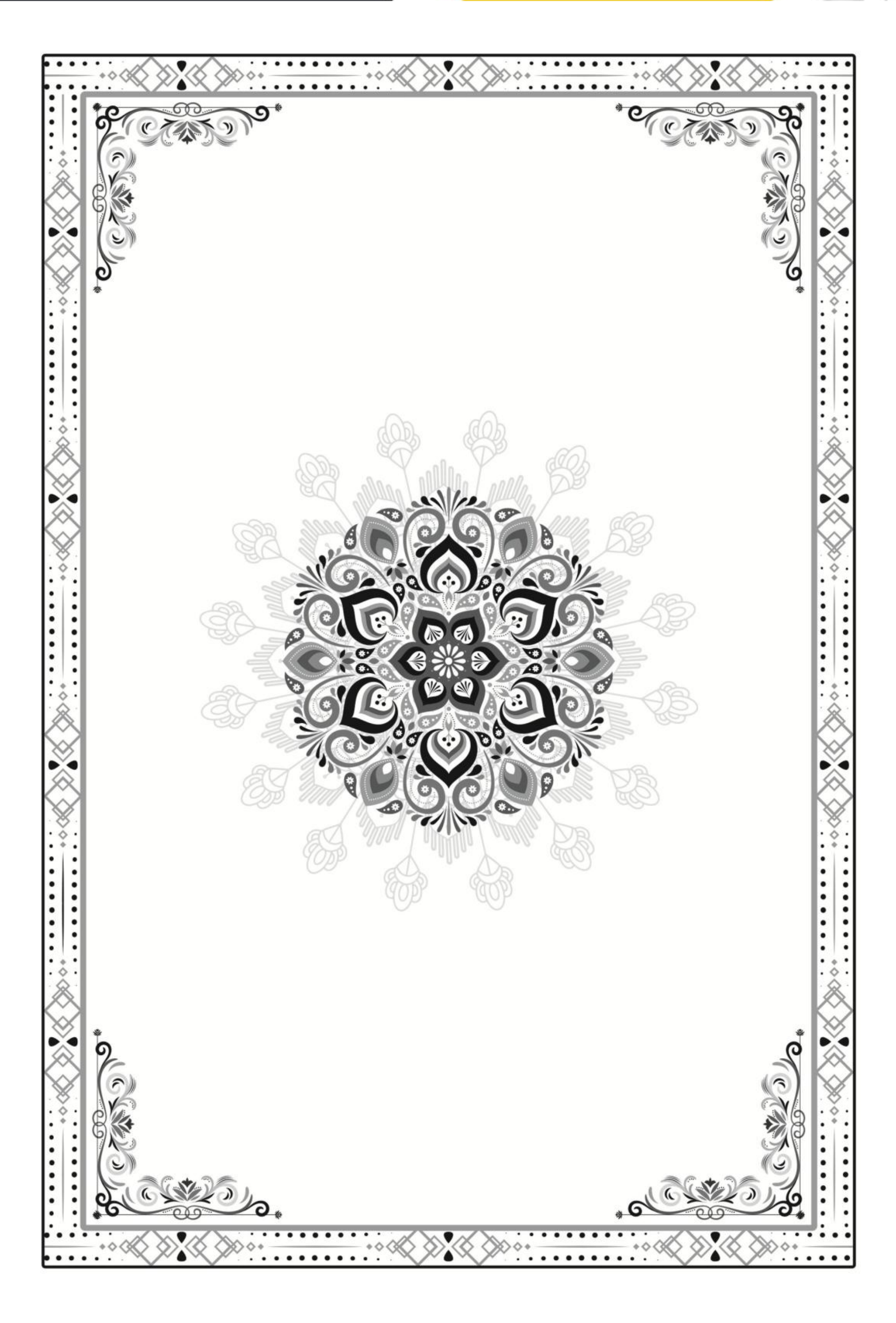
وإليكم الآن " جدول تفصيلي لمدرسي الحلقات وطالبي حفظ وإتقان القرآن الكريم " وهو منهجية مقترحة رمت به محاولة مراعاة أحوال الراغبين لحفظ كتاب رب العالمين ، أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه مقبولاً عنده بمنه وكرمه إنه جواد كريم.







البَابُ العَاشِرُ

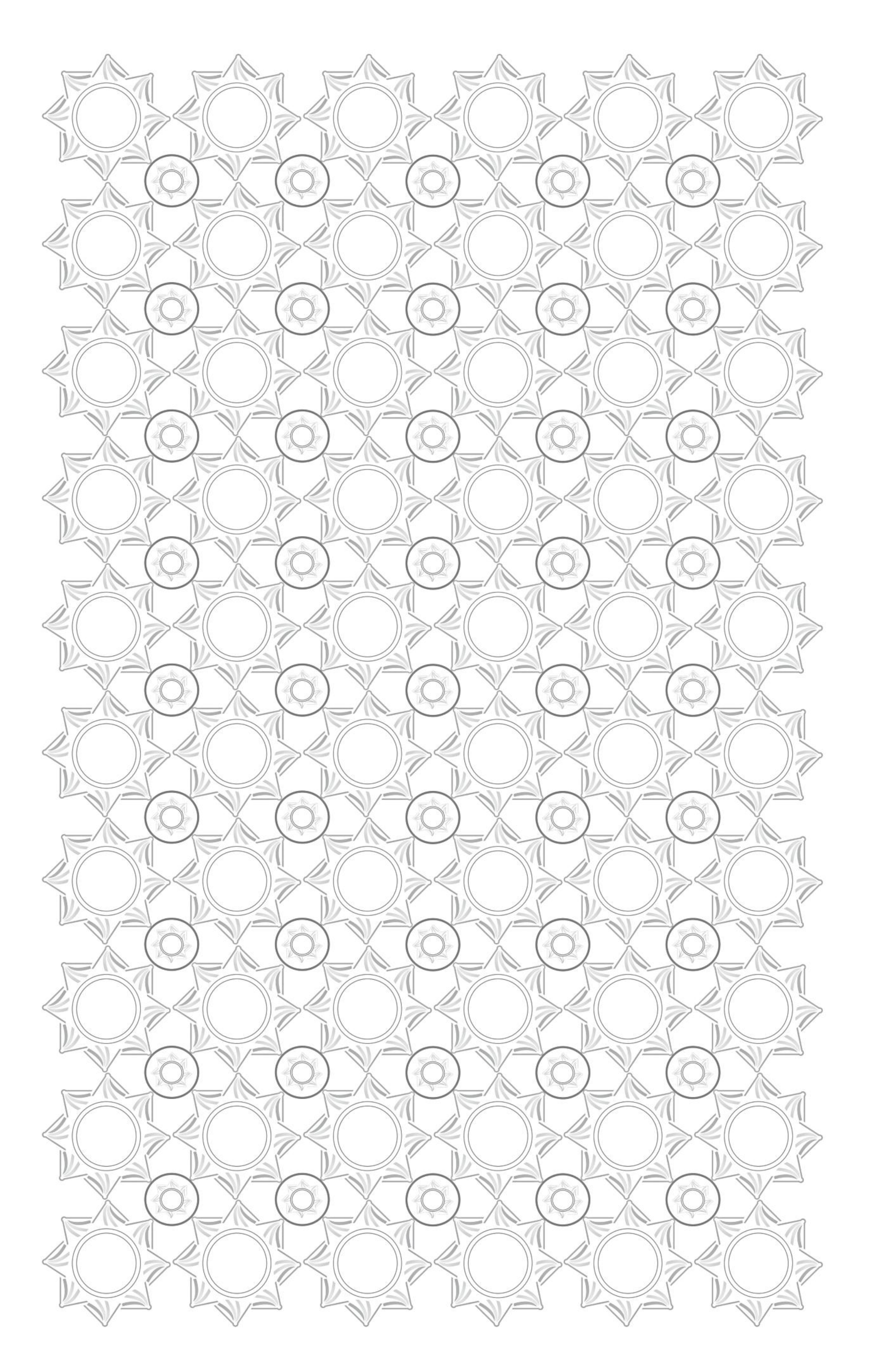




جدول تفصيلي

لمدرسي الحلقات وطالبي حفظ وإتقان القرآن الكريم

المنهج المقرر في حلقات القرآن الكريم







جَدْوَلٌ تَفْصِيلِيٌّ

لِمُدَرِّسِي الْحَلَقَاتِ وَطَالِبِي حِفْظِ وَإِتْقَانِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

ٱلْمَنْهَجُ ٱلْمُقَرَّرُ فِي حَلَقَاتِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

الحمد لله الذي من علينا بنعمة العقل والتدبر، ووهبنا منة النظر والتفكر، وتفضل علينا بالفهم والتذكر، وأمرنا بالعظة والاعتبار، وأكرمنا بالاستنباط والاختيار، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد..

تَحفِيظُ القُرآن الكَرِيم بالتّكرَار

لمحة عن طريقة التَّحفيظ بالتكرار:

التَّكرار هو: الإعادة المستمرَّة لما يُلقّنه المعلّم للتَّلاميذ.

ويمكن القول بأنَّ طريقة التَّكرار جاءت في مدارسة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، وعرضه اليومي للتّلاوة عند نزول القرآن الكريم، والصَّلوات والنوافل، حفظاً لكتاب الله.

وبالنّسبة لتحفيظ الحديث فقد كان يكرّر الكلمة ثلاثاً حتَّى يُفهَم عنه، ففي حديث أنس بن مالك :(أنَّ النَّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثاً حتَّى تُفهمَ عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلَّم عليهم، سلَّم عليهم ثلاثاً)، رواه البخاريُّ، وعند التّرمذيّ من حديث أنس :(كان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ، يعيد الكلمة ثلاثاً لتُعقل عنه).

وكانت في عصر - الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ - حيث استمرّ التَّنافس في استظهار كتاب الله وحفظه، والتَّسابق إلى مدارسته، وتفهمه، والتّفاضل فيما بينهم كلّ بمقدار ما يحفظه منه.

وسار السَّلف - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - على ذلك إذ لم يكن من وسيلةٍ للحفظ، والإتقان سوى الحفظ بطريق التَّكرار، وكان الموفّق عندهم من جعل الزّمان مصروفاً إلى الإعادة، والحفظ، والتّثبيت، وترسيخه في الذّهن، والمراجعة، والتّلاوة، والمراقبة، والاستدعاء، وبيان المعنى، والعمل به، وفهمه، وتدبُّره، فآفة العلم ترك الجدّ، والتَّكرار، والإعادة فيها ما يبعث على طمأنة النَّفس، ومقاومة كثرة النّسيان، وعدم هروب النَّفس من المداومة، ومقاومة السّأم والملل، وكذلك ما يبعث على العبادات، والمداومة عليها، وممّا نقل عنهم في ذلك قول بعضهم :

وإذا ما حفظت شيئاً أعده	وإلى درسه على التَّأبيد
ثمّ أكّده غاية التأكيد	ثمّ علقه كي تعود إليه
وإذا أمنت منه فواتا	فانتدب بعده لشيء جديد
معَ تكرار ما تقدَّم منه	اعتناء بشأن هذا المزيد

ومن أشكاله المعهودة : إعادة الدّرس ١٠٠ مرّة أو الإعادة مئتين، ويزيد كلّ يوم كلمة، وغيرها، ولا يخفى صعوبة تحديد شكل معيّن لهذا المكرّر لكلّ واحد، إذ يرجع التَّكرار بطبيعة الحال إلى الشَّخص نفسه، وقدرته، وحاجته.

وقد عُرف عند المعاصرين بوصفه طريق تدريس يتربّى الأبناء من خلالها على الصَّلاح، والخِصال الكريمة دون إكراه، وكأسلوب من أساليب الحفظ الأساسيّة الَّتي بدونها لن يحصل الحفظ المتقن، وله دور في عمليَّة التَّذكر، والاستيعاب الشَّامل والمتعدّد المستويات، والتّأثير الإيجابي خاصّة عندما يكون بعقلانيَّة، وفاعليَّة.

وقد سار عليه المعاصرون بجهدٍ متواصلٍ، وعزيمة قويّة، ومثابرة دائمةٍ، وكثرة دعاء الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وعمل به، حتّى حفظوا به القرآن الكريم، وبقيّة العلوم اَّللازمة، وبقي إلى اليوم على أنَّه طريقة تقليديّة، لا زالت متّبعة في بعض المدارس في جميع أنحاء العالم، تعدّ من أقدم الطُّرق، الَّتي لا يمكن الاستغناء عنها، والَّتي لا زال يوليها أصحاب الطّرق التَّدريسيَّة اهتماماً خاصاً، بوصفها أساساً لنجاح عمليَّة التَّعلُّم.

قد يتطلَّب التَّحفيظ أشكالاً أخرى : ومثله في ذلك مثل طريقة الفهم، والتَّأمُّل، والحفظ، والمذاكرة، والمطارحة، والمناظرة، والسُّؤال، فمن خلال دراسة بعض الشَّخصيَّات لا يعتمدون على التّكرار وحده، وإنَّما ينعشون أشكالاً مختلفة من التَّرابط أثناء التَّكرار بهدف تعميق الحفظ ممَّا يسهلّ الاسترجاع.

ومن أشكاله المعهودة عندهم : الطَّريقة الكليَّة الَّتي تكون بتكرار الصَّفحة من أوّلها إلى آخرها، والطَّريقة الجزئيّة، وتكون بتقسيم المراد إلى خمسة أسطر، ثمَّ تكرارها حتَّى الحفظ، والطَّريقة المشتركة وتكون بالجمع بين الكليَّة والجزئيَّة، فيقرأ المحدد دفعة واحدة، ويكره حتَّى يربط بين أجزائه وغير ذلك من الطرق الكثيرة المعروفة في كتب التَّحفيظ، والتَّربية الإسلاميَّة.

إنَّ التَّحفيظ بطريقة التَّكرار من تراث الأمَّة العملي البنَّاء، ولذا يجب اعتمده أساسيّة في العملية التّعليمية، والتّوسُّع في إعداد برامجه، وتبنّيها، وتطويرها.

وإليكم هذه الخطة المقترحة ، فهذا جدول تفصيلي لحفظ كتاب الله الكريم ومراجعته ، أعددته ليكون مساعداً لمدرسي حلقات تحفيظ القرآن الكريم على القيام بمهمتهم في تحفيظ طلابهم ومراقبة سير الحفظ والمراجعة على أتم وجه .

*** تنبيهات مهمة حول الجدول** :

١) هذا الجدول معد في الأصل للمدرسين ، لكن يستحسن إعطاء كل طالبٍ جدولَ الأجزاء الخمسة القادمة من مكان حفظه الحالي ليكون على علم بما هو مطلوب منه .

٢) تمت مراعاة التدرج في الحفظ ، حيث يقوم الطالب في البداية بحفظ ما يعادل نصف صفحة يومياً ثم يتدرج حتى يصل إلى صفحة وربع تقريباً كل يوم ، حسب مرحلة الطالب وحسب صعوبة الآيات.

٣) حاولت - بقدر الإمكان - أن يتناسب التقسيم مع المعاني وارتباط الآيات ببعضها .

٤) لتلافي مشكلة انتقال الطالب من صفحة إلى أخرى غير التي تليها فقد تم ربط كل صفحة (في الحفظ) بأية أو أكثر من الصفحة التي قبلها والصفحة التي بعدها .

٥) بعد كل خمسة أيام من الحفظ هناك يوم لتسميع كل المحفوظ في هذه الأيام الخمسة وفي هذا اليوم يعفى الطالب من الحفظ الجديد و من المراجعة كذلك .

٦) هناك اختبارات متعددة على النحو التالي :

أ/ اختبار بعد كل نصف جزء يحفظه الطالب (أو ما يعادله في السور الطويلة).

ب/ اختبار بعد كل جزء يحفظه الطالب (أو ما يعادله).

ج/ اختبار بعد كل خمسة أجزاء يحفظها الطالب ، وبعد إكمال الطالب لحفظ القرآن الكريم يتم اختباره في الأجزاء العشرة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم في القرآن الكريم كاملاً .

٧) بالنسبة للمراجعة فقد تم فيها التدرج أيضاً من صفحة يومياً إلى ثلاث صفحات يومياً ، وقد تكررت مراجعة الأجزاء الخمسة الأولى

(من الناس إلى الأحقاف) أربع مرات ، وتكررت مراجعة الجزئين السادس والسابع ثلاث مرات ، بينما اقتصر تكرار بقية الأجزاء في المراجعة على مرتين فقط .

٨) للحصول على أفضل النتائج يفضل إلزام الطالب بتكرار المقرر عليه في اليوم (١٠٠) مرة على الأقل حتى ولو كان ذلك في غير وقت الحلقة ، ويكون التكرار بعد الحفظ .

- كما يستحسن إعطاء الطالب جائزة عند انتهائه من اختبار جزء ونجاحه في ذلك .

أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه مقبولاً عنده بمنه وكرمه إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ولا تنسونا من صالح دعائكم.

اليوم	الحفظ		المراجعة		ملحوظات وتوجيهات
	من	إلى	من	إلى	
١	سورتا الفاتحة والناس		-	-	
٢	سور الفلق والإخلاص والمسد		سورة الناس		
٣	النصر	الكافرون	الفلق		
٤	الكوثر	الماعون	الإخلاص		
٥	قريش	الفيل	المسد		
٦	تسميع من سورة الناس إلى سورة الماعون				
٧	الهمزة	العصر	النصر		
٨	التكاثر	القارعة	الكافرون		
٩	العاديات	الزلزلة	الكوثر		
١٠	البينة		الماعون		
١١	سورتا القدر والتين		قريش		

١٢	تسميع من سورة قريش إلى سورة البينة			
١٣	العلق		الفيل	
١٤	الشرح	الضحى	الهمزة	
١٥	الليل		العصر	
١٦	الشمس		التكاثر	
١٧	البلد		القارعة	
١٨	تسميع من سورة القدر إلى سورة الشمس			
١٩	الفجر ١	الفجر ١٦	العاديات	
٢٠	الفجر ١٧	الفجر ٣٠	الزلزلة	
٢١	اختبار في نصف جزء عم (من الناس إلى الفجر)			
٢٢	الغاشية		البينة	
٢٣	الأعلى		القدر	
٢٤	تسميع من سورة البلد إلى سورة الغاشية			
٢٥	الطارق		العلق	
٢٦	البروج ١	البروج ١٠	التين	

٢٧	البروج ١١	البروج ٢٢	الشرح	
٢٨	الانشقاق ١	الانشقاق ١٥	الضحى	
٢٩	الانشقاق ١٦	الانشقاق ٢٥	الليل	
٣٠	تسميع من سورة الأعلى إلى آية ١٥ من سورة الانشقاق			
٣١	المطففين ١	المطففين ٢١	الشمس	
٣٢	المطففين ٢٢	المطففين ٣٦	البلد	
٣٣	الانفطار		الفجر	
٣٤	التكوير ١	التكوير ١٤	الغاشية	
٣٥	التكوير ١٦	التكوير٢٩	الأعلى	
٣٦	تسميع من آية ١٦من سورة الانشقاق إلى آية ١٤من سورة التكوير			
٣٧	عبس ١	عبس ٢٣	الطارق	
٣٨	عبس ٢٤	عبس ٤٢	البروج	
٣٩	النازعات ١	النازعات ٢٦	الانشقاق	
٤٠	النازعات ٢٧	النازعات٤٦	المطففين	
٤١	النبأ ١	النبأ ٢٠	الانفطار	

٤٢	تسميع من آية ١٥ من سورة التكوير إلى آية ٤٦ من سورة النازعات				
٤٣	النبأ ٢١	النبأ ٤٠	التكوير		
٤٤	اختبار في نصف جزء عم (من الغاشية إلى النبأ)				
٤٥	اختبار في جزء عم كاملاً (من الناس إلى النبأ)				
٤٦	المرسلات ١	المرسلات٢٨	عبس		
٤٧	المرسلات٢٩	المرسلات٥٠	النازعات		
٤٨	الإنسان ١	الإنسان ١٨	النبأ		
٤٩	الإنسان ١٩	الإنسان٣١	الناس	الكافرون	
٥٠	القيامة ١	القيامة ٢١	الكوثر	العصر	
٥١	تسميع من النبأ إلى الإنسان				
٥٢	القيامة ٢٢	القيامة ٤٠	التكاثر	الزلزلة	
٥٣	المدثر ١	المدثر ٣١	البينة	التين	
٥٤	المدثر ٣٢	المدثر ٥٦	الشرح	الشمس	
٥٥	المزمل ١	المزمل ١٦	البلد	الفجر	
٥٦	المزمل ١٧	المزمل ٢٠	الغاشية	الطارق	

٥٧	تسميع من القيامة إلى آية ١٦ من سورة المزمل			
٥٨	الجن ١	الجن ٩	البروج	الانشقاق
٥٩	الجن ١٠	الجن ١٩	المطففين	الانفطار
٦٠	الجن ٢٠	الجن ٢٨	التكوير	عبس
٦١	اختبار في نصف جزء تبارك (من المرسلات إلى سورة الجن)			
٦٢	نوح ١	نوح ١٦	النازعات	
٦٣	نوح ١٧	نوح ٢٨	النبأ	
٦٤	المعارج ١	المعارج ٢٨	المرسلات	
٦٥	المعارج ٢٩	المعارج٤٤	الإنسان	
٦٦	الحاقة ١	الحاقة ١٢	القيامة	
٦٧	تسميع من آية ١٧ من سورة المزمل إلى نهاية سورة المعارج			
٦٨	الحاقة ١٣	الحاقة ٢٩	المدثر	
٦٩	الحاقة ٣٠	الحاقة ٥٢	المزمل	
٧٠	القلم ١	القلم ١٨	الجن	

٧١	القلم ١٩	القلم ٣٩	نوح		
٧٢	القلم ٤٠	القلم ٥٢	المعارج		
٧٣	تسميع من سورة الحاقة إلى آية ٣٩ من سورة القلم				
٧٤	الملك ١	الملك ٩	الحاقة		
٧٥	الملك ١٠	الملك ٢١	القلم		
٧٦	الملك ٢٢	الملك ٣٠	الملك		
٧٧	اختبار في نصف جزء تبارك (من نوح إلى الملك)				
٧٨	اختبار في جزء تبارك كاملاً (من المرسلات إلى الملك)				
٧٩	التحريم ١	التحريم ٥	الناس	الكافرون	
٨٠	التحريم ٦	التحريم ٩	الكوثر	العصر	
٨١	التحريم ١٠	التحريم ١٢	التكاثر	الزلزلة	
٨٢	الطلاق ١	الطلاق ٣	البينة	التين	
٨٣	الطلاق ٤	الطلاق ٧	الشرح	الشمس	
٨٤	تسميع من آية ٤٠ من سورة القلم إلى نهاية سورة التحريم				
٨٥	الطلاق ٨	الطلاق ١٢	البلد	الفجر	

٨٦	التغابن ١	التغابن ٧	الغاشية	الطارق	
٨٧	التغابن ٨	التغابن ١٣	البروج	الانشقاق	
٨٨	التغابن ١٤	التغابن ١٨	المطففين	الانفطار	
٨٩	المنافقون ١	المنافقون ٦	التكوير	عبس	
٩٠	تسميع من سورة الطلاق إلى سورة التغابن				
٩١	المنافقون٧	المنافقون ١١	النازعات		
٩٢	الجمعة ١	الجمعة ٥	النبأ		
٩٣	الجمعة ٦	الجمعة ١١	المرسلات		
٩٤	اختبار في نصف الجزء (من التحريم إلى الجمعة)				
٩٥	الصف ١	الصف ٧	الإنسان والقيامة		
٩٦	الصف ٨	الصف ١٤	المدثر		
٩٧	الممتحنة ١	الممتحنة ٣	المزمل		
٩٨	الممتحنة ٤	الممتحنة ٧	الجن		
٩٩	الممتحنة ٨	الممتحنة ١٠	نوح		
١٠٠	تسميع من سورة المنافقون إلى سورة الصف				

١٠١	الممتحنة ١١	الممتحنة١٣	المعارج	
١٠٢	الحشر ١	الحشر ٥	الحاقة	
١٠٣	الحشر ٦	الحشر ٨	القلم	
١٠٤	الحشر ٩	الحشر ١٢	الملك	
١٠٥	الحشر ١٣	الحشر ١٩	التحريم	
١٠٦	تسميع سورة الممتحنة كاملة			
١٠٧	الحشر ٢٠	الحشر ٢٤	الطلاق	
١٠٨	المجادلة ١	المجادلة ٤	التغابن	
١٠٩	المجادلة ٥	المجادلة ٨	المنافقون	
١١٠	المجادلة ٩	المجادلة ١٢	الجمعة	
١١١	المجادلة ١٣	المجادلة ١٩	الصف	
١١٢	تسميع سورة الحشر كاملة			
١١٣	المجادلة ٢٠	المجادلة ٢٢	الممتحنة	
١١٤	اختبار في نصف الجزء (من الصف إلى المجادلة)			
١١٥	اختبار في الجزء كاملاً (من التحريم إلى المجادلة)			

١١٦	الحديد ١	الحديد ٦	الحشر	
١١٧	الحديد ٧	الحديد ١٠	المجادلة	
١١٨	الحديد ١١	الحديد ١٥	المرسلات	
١١٩	الحديد ١٦	الحديد ١٩	الإنسان والقيامة	
١٢٠	الحديد ٢٠	الحديد ٢٢	المدثر	
١٢١	تسميع سورة المجادلة كاملة			
١٢٢	الحديد ٢٣	الحديد ٢٦	المزمل	
١٢٣	الحديد ٢٧	الحديد ٢٩	الجن	
١٢٤	الواقعة ١	الواقعة ٢٦	نوح	
١٢٥	الواقعة ٢٧	الواقعة ٥٦	المعارج	
١٢٦	الواقعة ٥٧	الواقعة ٧٤	الحاقة	
١٢٧	تسميع سورة الحديد كاملة			
١٢٨	الواقعة ٧٥	الواقعة ٩٦	القلم	
١٢٩	الرحمن ١	الرحمن ١٨	الملك	
١٣٠	الرحمن ١٩	الرحمن ٣٢	التحريم	

١٣١	الرحمن ٣٣	الرحمن ٤٥	الطلاق		
١٣٢	الرحمن ٤٦	الرحمن ٦١	التغابن		
١٣٣	تسميع سورة الواقعة كاملة				
١٣٤	الرحمن ٦٢	الرحمن ٧٨	المنافقون		
١٣٥	اختبار في نصف الجزء (من الحديد إلى الرحمن)				
١٣٦	القمر ١	القمر ٨	الجمعة		
١٣٧	القمر ٩	القمر ١٧	الصف		
١٣٨	القمر ١٨	القمر ٣٢	الممتحنة		
١٣٩	القمر ٣٣	القمر ٤٦	الحشر		
١٤٠	القمر ٤٧	القمر ٥٥	المجادلة		
١٤١	تسميع سورة الرحمن كاملة				
١٤٢	النجم ١	النجم ٢٣	الناس	قريش	
١٤٣	النجم ٢٤	النجم ٣٢	الفيل	الزلزلة	
١٤٤	النجم ٣٣	النجم ٦٢	البينة	الضحى	
١٤٥	الطور ١	الطور ١٦	الليل	الفجر	

١٤٦	الطور ١٧	الطور ٢٨	الغاشية	البروج
١٤٧	تسميع سورة القمر كاملة			
١٤٨	الطور ٢٩	الطور ٣٨	الانشقاق	الانفطار
١٤٩	الطور ٣٩	الطور ٤٩	التكوير	عبس
١٥٠	الذاريات ١	الذاريات ١٩	النازعات	النبأ
١٥١	الذاريات ٢٠	الذاريات ٣٤	التحريم	
١٥٢	الذاريات ٣٥	الذاريات ٤٦	الطلاق	
١٥٣	تسميع سورة النجم كاملة			
١٥٤	الذاريات ٤٧	الذاريات ٦٠	التغابن	
١٥٥	اختبار في نصف الجزء (من القمر إلى الذاريات)			
١٥٦	اختبار في الجزء كاملاً (من الحديد إلى الذاريات)			
١٥٧	ق ١	ق ١١	المنافقون	
١٥٨	ق ١٢	ق ٢٦	الجمعة	
١٥٩	ق ٢٧	ق ٣٧	الصف	
١٦٠	ق ٣٨	ق ٤٥	الممتحنة	

١٦١	الحجرات ١	الحجرات ٦	الصف	
١٦٢	تسميع سورة الطور كاملة			
١٦٣	الحجرات ٧	الحجرات ١٠	المجادلة	
١٦٤	الحجرات ١١	الحجرات ١٣	الحديد	
١٦٥	الحجرات ١٤	الحجرات ١٨	الواقعة	
١٦٦	الفتح ١	الفتح ٧	الرحمن	
١٦٧	الفتح ٨	الفتح ١١	القمر	
١٦٨	تسميع سورة الذاريات كاملة			
١٦٩	الفتح ١٢	الفتح ١٦	النجم	
١٧٠	الفتح ١٧	الفتح ٢٤	الطور	
١٧١	الفتح ٢٥	الفتح ٢٧	الذاريات	
١٧٢	الفتح ٢٨	الفتح ٢٩	التحريم	
١٧٣	اختبار في نصف الجزء (من ق إلى الفتح)			
١٧٤	محمد ١	محمد ٩	الطلاق	
١٧٥	تسميع سورتي ق والحجرات			

١٧٦	محمد ١٠	محمد ١٥	التغابن	
١٧٧	محمد ١٦	محمد ٢٣	المنافقون	
١٧٨	محمد ٢٤	محمد ٣١	الجمعة	
١٧٩	محمد ٣٢	محمد ٣٨	الصف	
١٨٠	الأحقاف ١	الأحقاف٧	الممتحنة	
١٨١	تسميع سورة الفتح كاملة			
١٨٢	الأحقاف ٨	الأحقاف١٢	الحشر	
١٨٣	الأحقاف١٣	الأحقاف١٦	المجادلة	
١٨٤	الأحقاف١٧	الأحقاف٢٣	ق	
١٨٥	الأحقاف٢٤	الأحقاف٣٠	الحجرات	
١٨٦	الأحقاف ٣١	الأحقاف ٣٥	الفتح	
١٨٧	اختبار في نصف الجزء (من محمد إلى الأحقاف)			
١٨٨	اختبار في الجزء كاملاً (من ق إلى الأحقاف)			
	تسميع سورة محمد كاملة			
١٨٩	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار			

<table>
<tr><td>١٩٠</td><td colspan="3" rowspan="4">يعطى الطالب فرصة
لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار
يعطى الطالب فرصة
لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩١</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٢</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٣</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٤</td><td colspan="3">اختبار شامل في الأجزاء الخمسة
(من الناس إلى الأحقاف)</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٥</td><td>الجاثية ١</td><td>الجاثية ١١</td><td>محمد</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٦</td><td>الجاثية ١٢</td><td>الجاثية ٢٠</td><td>الأحقاف</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٧</td><td>الجاثية ٢١</td><td>الجاثية ٢٩</td><td>الحديد</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٨</td><td>الجاثية ٣٠</td><td>الجاثية ٣٧</td><td>الواقعة</td><td></td></tr>
<tr><td>١٩٩</td><td>الدخان ١</td><td>الدخان ٢١</td><td>الرحمن</td><td></td></tr>
<tr><td>٢٠٠</td><td colspan="3">تسميع سورة الأحقاف كاملة</td><td></td></tr>
<tr><td>٢٠١</td><td>الدخان ٢٢</td><td>الدخان ٤٢</td><td>القمر</td><td></td></tr>
<tr><td>٢٠٢</td><td>الدخان ٤٣</td><td>الدخان ٥٩</td><td>النجم</td><td></td></tr>
<tr><td>٢٠٣</td><td>الزخرف ١</td><td>الزخرف ١٤</td><td>الطور</td><td></td></tr>
</table>

٢٠٤	الزخرف ١٥	الزخرف٢٥	الذاريات	
٢٠٥	الزخرف ٢٦	الزخرف٣٥	المرسلات	
٢٠٦	تسميع سورتي الجاثية والدخان			
٢٠٧	الزخرف ٣٦	الزخرف ٥٠	الإنسان	
٢٠٨	الزخرف ٥١	الزخرف ٦٢	القيامة	
٢٠٩	الزخرف ٦٣	الزخرف ٧٦	المدثر	
٢١٠	الزخرف ٧٧	الزخرف ٨٩	المزمل	
٢١١	اختبار في نصف الجزء (من الجاثية إلى الزخرف)			
٢١٢	تسميع سورة الزخرف كاملة			
٢١٣	الشورى ١	الشورى ١١	الجن	
٢١٤	الشورى ١٢	الشورى ١٦	نوح	
٢١٥	الشورى ١٧	الشورى ٢٣	المعارج	
٢١٦	الشورى ٢٤	الشورى ٣٥	الحاقة	
٢١٧	الشورى ٣٦	الشورى٤٦	القلم	
٢١٨	تسميع سورة الشورى إلى آية ٣٥			

٢١٩	الشورى ٤٧	الشورى ٥٣	الملك	
٢٢٠	اختبار في نصف الجزء (سورة الشورى)			
٢٢١	اختبار في الجزء كاملاً (من الجاثية إلى الشورى)			
٢٢٢	فصلت ١	فصلت ١٢	ق	
٢٢٣	فصلت ١٣	فصلت ٢١	الحجرات	
٢٢٤	فصلت ٢٢	فصلت ٣٠	الفتح	
٢٢٥	فصلت ٣١	فصلت ٣٩	محمد	
٢٢٦	فصلت ٤٠	فصلت ٤٨	الأحقاف	
٢٢٧	تسميع من الشورى ٣٦ إلى فصلت ٣٩			
٢٢٨	فصلت ٤٩	فصلت ٥٤	الحديد	
٢٢٩	غافر ١	غافر ٩	الواقعة	
٢٣٠	غافر ١٠	غافر ٢٠	الرحمن	
٢٣١	غافر ٢١	غافر ٢٧	القمر	
٢٣٢	غافر ٢٨	غافر ٣٥	النجم	
٢٣٣	تسميع من فصلت ٤٠ إلى غافر ٢٧			

٢٣٤	غافر ٣٦	غافر ٤٤	الطور		
٢٣٥	غافر ٤٥	غافر ٥٢	الذاريات		
٢٣٦	غافر ٥٣	غافر ٦٠	الجاثية		
٢٣٧	غافر ٦١	غافر ٦٧	الدخان		
٢٣٨	غافر ٦٨	غافر ٧٨	الزخرف ١	الزخرف ٤٢	
٢٣٩	تسميع من غافر ٢٨ إلى غافر ٦٧				
٢٤٠	غافر ٧٩	غافر ٨٥	الزخرف ٤٣	الزخرف ٨٩	
٢٤١	اختبار في نصف الجزء(من آية ٤٠ من غافر إلى نهاية فصلت)				
٢٤٢	الزمر ١	الزمر ٦	الشورى ١	الشورى ١٥	
٢٤٣	الزمر ٧	الزمر ١٦	الشورى ١٦	الشورى ٣١	
٢٤٤	الزمر ١٧	الزمر ٢٣	الشورى ٣٢	الشورى ٥٣	
٢٤٥	الزمر ٢٤	الزمر ٣٥	ق		
٢٤٦	الزمر ٣٦	الزمر ٤١	الحجرات		
٢٤٧	تسميع من غافر ٦٨ إلى الزمر ٣٥				
٢٤٨	الزمر ٤٢	الزمر ٤٨	الفتح		

٢٤٩	الزمر ٤٩	الزمر ٥٩	محمد	
٢٥٠	الزمر ٦٠	الزمر ٧٠	الأحقاف	
٢٥١	الزمر ٧١	الزمر ٧٥	الزمر ٣٢	الزمر ٥٢
٢٥٢	اختبار في نصف الجزء (من آية ٣٢ الزمر إلى آية ٤٠ غافر)			
٢٥٣	اختبار في الجزء كاملاً (من آية ٣٢ من الزمر إلى نهاية فصلت)			
٢٥٤	تسميع من الزمر ٣٦ إلى الزمر ٧٠			
٢٥٥	ص ١	ص ٢٠	الزمر ٥٣	الزمر ٧٥
٢٥٦	ص ٢١	ص ٢٩	غافر ١	غافر ٢٢
٢٥٧	ص ٣٠	ص ٤٧	غافر ٢٣	غافر ٤٠
٢٥٨	ص ٤٨	ص ٦٦	غافر ٤١	غافر ٦٣
٢٥٩	ص ٦٧	ص ٨٨	غافر ٦٤	غافر ٨٥
٢٦٠	تسميع من الزمر ٧١ إلى ص ٦٦			
٢٦١	اختبار في نصف الجزء (من سورة ص إلى آية ٣١ من سورة الزمر)			
٢٦٢	الصافات ١	الصافات ٢٦	فصلت ١	فصلت ٢٩
٢٦٣	الصافات ٢٧	الصافات ٥٣	فصلت ٣٠	فصلت ٥٤

٢٦٤	الصافات ٥٤	الصافات ٨٢	الجاثية	
٢٦٥	الصافات ٨٣	الصافات١١٣	الدخان	
٢٦٦	الصافات ١١٤	الصافات ١٣٢	الزخرف ١	الزخرف ٤٢
٢٦٧	تسميع من ص ٦٧ إلى الصافات ١١٣			
٢٦٨	الصافات ١٣٣	الصافات ١٥٧	الزخرف ٤٣	الزخرف ٨٩
٢٦٩	الصافات١٥٨	الصافات١٨٢	الشورى ١	الشورى ١٥
٢٧٠	يس ١	يس ١٥	الشورى ٣٢	الشورى ٥٣
٢٧١	يس ١٦	يس ٣٠	ق والحجرات	
٢٧٢	يس ٣١	يس ٤٥	الفتح	
٢٧٣	تسميع من الصافات ١١٤ إلى يس ٣٠			
٢٧٤	يس ٤٦	يس ٥٩	محمد	
٢٧٥	يس ٦٠	يس ٧٣	الأحقاف	
٢٧٦	يس ٧٤	يس ٨٣	الزمر ٣٢	الزمر ٥٢
٢٧٧	اختبار في نصف الجزء (سورتا الصافات و يس)			
٢٧٨	اختبار في الجزء كاملاً(من سورة يس إلى آية ٣١ من الزمر)			

٢٧٩	فاطر ١	فاطر ٧	الزمر ٥٣	الزمر ٧٥	
٢٨٠	فاطر ٨	فاطر ١٢	غافر ١	غافر ٢٧	
٢٨١	تسميع من يس ٣١ إلى فاطر ٧				
٢٨٢	فاطر ١٣	فاطر ٢٤	غافر ٢٨	غافر ٥٢	
٢٨٣	فاطر ٢٥	فاطر ٣٢	غافر ٥٣	غافر ٨٥	
٢٨٤	فاطر ٣٣	فاطر ٣٩	فصلت ١	فصلت ٢٠	
٢٨٥	فاطر ٤٠	فاطر ٤٥	فصلت ٢١	فصلت ٣٨	
٢٨٦	سبأ ١	سبأ ٨	فصلت ٣٩	فصلت ٥٤	
٢٨٧	تسميع من فاطر ٨ إلى فاطر ٤٥				
٢٨٨	سبأ ٩	سبأ ١٥	الجاثية		
٢٨٩	سبأ ١٦	سبأ ٢٣	الدخان		
٢٩٠	سبأ ٢٤	سبأ ٣٣	الزخرف ١	الزخرف ٤٢	
٢٩١	سبأ ٣٤	سبأ ٤٢	الزخرف ٤٣	الزخرف ٨٩	
٢٩٢	سبأ ٤٣	سبأ ٥٤	الشورى ١	الشورى ١٥	
٢٩٣	اختبار في نصف الجزء (من آية ٢٤ من سبأ إلى نهاية فاطر)				

٢٩٤	تسميع من سبأ ١ إلى سبأ ٤٢				
٢٩٥	الأحزاب ١	الأحزاب ٨	الشورى ٣٢	الشورى ٥٣	
٢٩٦	الأحزاب ٩	الأحزاب ١٧	يس ١	يس ٤٠	
٢٩٧	الأحزاب ١٨	الأحزاب ٢٤	يس ٤١	يس ٧٠	
٢٩٨	الأحزاب ٢٥	الأحزاب ٣١	يس ٧١	الصافات ٢٤	
٢٩٩	الأحزاب ٣٢	الأحزاب٣٦	الصافات٢٥	الصافات ٧٦	
٣٠٠	تسميع من سبأ ٤٣ إلى الأحزاب ٣١				
٣٠١	الأحزاب ٣٧	الأحزاب٤٤	الصافات٧٧	الصافات١٢٦	
٣٠٢	الأحزاب ٤٥	الأحزاب٥١	الصافات١٢٧	الصافات١٨٢	
٣٠٣	الأحزاب ٥٢	الأحزاب٥٥	ص ١	ص ٣٣	
٣٠٤	الأحزاب ٥٦	الأحزاب ٦٣	ص ٣٤	ص ٨٨	
٣٠٥	الأحزاب ٦٤	الأحزاب ٧٣	الزمر ١	الزمر ١٠	
٣٠٦	اختبار في نصف الجزء (من آية ٣١ الأحزاب إلى آية ٢٣ سبأ)				
٣٠٧	اختبار في الجزء كاملاً (من آية ٣١ الأحزاب إلى نهاية فاطر)				
٣٠٨	تسميع من الأحزاب ٣٢ إلى الأحزاب ٦٣				

٣٠٩	السجدة ١	السجدة ١٢	الزمر ١١	الزمر ٣١	
٣١٠	السجدة ١٣	السجدة ٢١	الزمر ٣٢	الزمر ٥٢	
٣١١	السجدة ٢٢	السجدة ٣٠	الزمر ٥٣	الزمر ٧٥	
٣١٢	لقمان ١	لقمان ١٢	غافر ١	غافر ٢٢	
٣١٣	لقمان ١٣	لقمان ٢٠	غافر ٢٣	غافر ٤٠	
٣١٤	تسميع من الأحزاب ٦٤ إلى لقمان ١٢				
٣١٥	لقمان ٢١	لقمان ٢٩	غافر ٤١	غافر ٦٣	
٣١٦	لقمان ٣٠	لقمان ٣٤	غافر ٦٤	غافر ٨٥	
٣١٧	اختبار في نصف الجزء(من آية ٢٢ لقمان إلى آية ٣٠ الأحزاب)				
٣١٨	الروم ١	الروم ١١	فصلت ١	فصلت ٢٩	
٣١٩	الروم ١٢	الروم ٢٢	فصلت ٣٠	فصلت ٥٤	
٣٢٠	الروم ٢٣	الروم ٣٠	الأحزاب ٣١	الأحزاب ٤٣	
٣٢١	تسميع من لقمان ١٣ إلى الروم ٢٢				
٣٢٢	الروم ٣١	الروم ٣٩	الأحزاب ٤٤	الأحزاب ٥٤	
٣٢٣	الروم ٤٠	الروم ٤٧	الأحزاب ٥٥	الأحزاب ٧٣	

٣٢٤	الروم ٤٨	الروم ٥٣	سبأ ١	سبأ ١٤	
٣٢٥	الروم ٥٤	الروم ٦٠	سبأ ١٥	سبأ ٣١	
٣٢٦	العنكبوت ١	العنكبوت١١	سبأ٣٢	سبأ ٤٨	
٣٢٧	تسميع من الروم ٢٣ إلى الروم ٦٠				
٣٢٨	العنكبوت ١٢	العنكبوت ١٩	سبأ ٤٩	فاطر ١١	
٣٢٩	العنكبوت ٢٠	العنكبوت ٢٧	فاطر ١٢	فاطر ٣٠	
٣٣٠	العنكبوت ٢٨	العنكبوت ٣٥	فاطر٣١	فاطر٤٥	
٣٣١	العنكبوت ٣٦	العنكبوت٤٣	يس ١	يس ٤٠	
٣٣٢	العنكبوت ٤٤	العنكبوت ٥١	يس ٤١	يس ٧٠	
٣٣٣	تسميع من العنكبوت ١ إلى العنكبوت ٤٣				
٣٣٤	العنكبوت٥٢	العنكبوت ٦١	يس ٧١	الصافات ٢٤	
٣٣٥	العنكبوت ٦٢	العنكبوت ٦٩	الصافات ٢٥	الصافات ٧٦	
٣٣٦	اختبار في نصف الجزء (من آية ٤٦ العنكبوت إلى آية ٢١ لقمان)				
٣٣٧	اختبار في الجزء كاملاً (من ٤٦ العنكبوت إلى ٣٠ الأحزاب)				
٣٣٨	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار				

٣٣٩	يعطى الطالب فرصة				
٣٤٠	لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار				
٣٤١	يعطى الطالب فرصة				
٣٤٢	لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار				
٣٤٣	اختبار شامل في الأجزاء الخمسة (العنكبوت إلى الجاثية)				
٣٤٤	القصص ١	القصص ٩	الصافات ٧٧	الصافات١٢٦	
٣٤٥	القصص ١٠	القصص ١٧	الصافات١٢٧	الصافات١٨٢	
٣٤٦	القصص ١٨	القصص ٢٥	الأحزاب ٣١	الأحزاب ٤٣	
	تسميع من العنكبوت ٤٤ إلى القصص ١٧				
٣٤٧	القصص ٢٦	القصص٣٢	الأحزاب٤٤	الأحزاب ٥٤	
٣٤٨	القصص ٣٣	القصص٤٠	الأحزاب ٥٥	الأحزاب ٧٣	
٣٤٩	القصص ٤١	القصص ٤٧	سبأ ١	سبأ ١٤	
٣٥٠	القصص ٤٨	القصص ٥٦	سبأ ١٥	سبأ ٣١	
٣٥١	القصص ٥٧	القصص ٦٤	سبأ ٣٢	سبأ ٤٨	
٣٥٢	تسميع من القصص ١٨ إلى القصص ٥٦				

٣٥٣	القصص ٦٥	القصص ٧٥	سبأ ٤٩	فاطر ١١	
٣٥٤	القصص ٧٦	القصص ٨٠	فاطر ١٢	فاطر ٣٠	
٣٥٥	القصص ٨١	القصص ٨٨	فاطر ٣١	فاطر ٤٥	
٣٥٦	اختبار في نصف الجزء(من ٥١ القصص إلى ٤٥ العنكبوت)				
٣٥٧	النمل ١	النمل ١٤	العنكبوت ٤٦	العنكبوت٦٣	
٣٥٨	النمل ١٥	النمل ٢٤	العنكبوت ٦٤	الروم١٥	
٣٥٩	تسميع من القصص ٥٧ إلى النمل ١٤				
٣٦٠	النمل ٢٥	النمل ٣٧	الروم ١٦	الروم ٣٢	
٣٦١	النمل ٣٨	النمل ٤٥	الروم ٣٣	الروم ٥٠	
٣٦٢	النمل ٤٦	النمل ٥٨	الروم ٥١	لقمان ١١	
٣٦٣	النمل ٥٩	النمل ٦٦	لقمان ١٢	لقمان ٢٨	
٣٦٤	النمل ٦٧	النمل ٨٢	لقمان ٢٩	السجدة ١١	
٣٦٥	تسميع من النمل ١٥ إلى النمل ٦٦				
٣٦٦	النمل ٨٣	النمل ٩٣	السجدة ١٢	السجدة ٣٠	
٣٦٧	اختبار في نصف الجزء (من ٥٦ النمل إلى ٥٠ القصص)				

٣٦٨	اختبار في الجزء كاملاً (من٥٦ النمل إلى ٤٥ العنكبوت)				
٣٦٩	الشعراء ١	الشعراء ٢٢	الأحزاب ١	الأحزاب ١٥	
٣٧٠	الشعراء ٢٣	الشعراء ٤٢	الأحزاب ١٦	الأحزاب ٣٠	
٣٧١	الشعراء ٤٣	الشعراء ٦٢	النمل ٥٦	النمل ٧٦	
٣٧٢	الشعراء ٦٣	الشعراء ٨٦	النمل ٧٧	القصص ٥	
٣٧٣	تسميع من النمل ٦٧ إلى الشعراء ٦٢				
٣٧٤	الشعراء ٨٧	الشعراء ١١٣	القصص ٦	القصص ٢١	
٣٧٥	الشعراء ١١٤	الشعراء١٤٠	القصص ٢٢	القصص ٣٥	
٣٧٦	الشعراء١٤١	الشعراء١٦٤	القصص ٣٦	القصص ٥٠	
٣٧٧	الشعراء ١٦٥	الشعراء ١٨٤	القصص ٥١	القصص ٧٠	
٣٧٨	الشعراء١٨٥	الشعراء٢٠٩	القصص٧١	القصص٨٤	
٣٧٩	تسميع من الشعراء ٦٣ إلى الشعراء ١٨٤				
٣٨٠	الشعراء ٢١٠	الشعراء٢٢٧	القصص ٨٥	العنكبوت١٤	
٣٨١	اختبار في نصف الجزء (من ١١١ الشعراء إلى ٥٥ النمل)				
٣٨٢	الفرقان ١	الفرقان ٩	العنكبوت ١٥	العنكبوت٣٠	

٣٨٣	الفرقان ١٠	الفرقان ١٩	العنكبوت ٣١	العنكبوت٤٥	
٣٨٤	الفرقان ٢٠	الفرقان ٢٩	العنكبوت ٤٦	الروم ٥	
٣٨٥	الفرقان ٣٠	الفرقان ٣٧	الروم ٦	الروم ٣٢	
٣٨٦	تسميع من الشعراء ١٨٥ إلى الفرقان ٢٩				
٣٨٧	الفرقان ٣٨	الفرقان ٤٧	الروم ٣٣	الروم ٦٠	
٣٨٨	الفرقان ٤٨	الفرقان ٥٧	لقمان ١	لقمان ٢٨	
٣٨٩	الفرقان ٥٨	الفرقان ٦٨	لقمان ٢٩	السجدة ٢٠	
٣٩٠	الفرقان٦٩	الفرقان ٧٧	السجدة ٢١	الأحزاب ١٥	
٣٩١	اختبار في نصف الجزء(٢١ الفرقان إلى ١١٠ الشعراء)				
٣٩٢	اختبار في الجزء كاملاً (٢١ الفرقان إلى ٥٥ النمل)				
٣٩٣	النور١	النور١١	الأحزاب١٦	الأحزاب٣٠	
٣٩٤	تسميع من الفرقان ٣٠ إلى الفرقان ٦٨				
٣٩٥	النور ١٢	النور ٢١	النمل ٥٦	النمل ٨٨	
٣٩٦	النور٢٢	النور٢٨	النمل٨٩	القصص ٢١	
٣٩٧	النور ٢٩	النور ٣٢	القصص٢٢	القصص ٤٣	

٣٩٨	النور٣٣	النور٣٨	القصص٤٤	القصص٧٠	
٣٩٩	النور٣٩	النور٤٧	القصص ٧١	العنكبوت ٦	
٤٠٠	تسميع من الفرقان ٦٩ إلى النور ٣٨				
٤٠١	النور٤٨	النور٥٦	العنكبوت ٧	العنكبوت٣٠	
٤٠٢	النور ٥٧	النور ٦٠	العنكبوت ٣١	العنكبوت٤٥	
٤٠٣	النور ٦١	النور ٦٤	الفرقان ٢١	الفرقان ٥٠	
٤٠٤	اختبار في نصف الجزء (٢١ النور إلى ٢٠ الفرقان)				
٤٠٥	المؤمنون ١	المؤمنون ١٩	الفرقان ٥١	الفرقان ٧٧	
٤٠٦	المؤمنون٢٠	المؤمنون٣٠	الشعراء١	الشعراء٤٨	
٤٠٧	تسميع من النور ٣٩ إلى المؤمنون ١٩				
٤٠٨	المؤمنون ٣١	المؤمنون ٤٤	الشعراء٤٩	الشعراء ١١١	
٤٠٩	المؤمنون ٤٥	المؤمنون ٦١	الشعراء١١٢	الشعراء١٧٥	
٤١٠	المؤمنون ٦٢	المؤمنون ٧٥	الشعراء١٧٦	الشعراء٢٢٧	
٤١١	المؤمنون ٧٦	المؤمنون ٩١	النمل ١	النمل ٢٦	
٤١٢	المؤمنون ٩٢	المؤمنون١٠٧	النمل٢٧	النمل٦٣	

٤١٣	تسميع من المؤمنون ٢٠ إلى المؤمنون ٩١				
٤١٤	المؤمنون١٠٨	المؤمنون١١٨	المؤمنون١	المؤمنون٢٧	
٤١٥	اختبار في نصف الجزء (من بداية المؤمنون إلى آية ٢٠ من النور)				
٤١٦	اختبار في الجزء كاملاً (من بداية المؤمنون إلى ٢٠ الفرقان)				
٤١٧	الحج ١	الحج ٧	المؤمنون ٢٨	المؤمنون ٥٩	
٤١٨	الحج ٨	الحج ١٦	المؤمنون ٦٠	المؤمنون ٨٩	
٤١٩	الحج ١٧	الحج ٢٤	المؤمنون ٩٠	المؤمنون١١٨	
٤٢٠	الحج ٢٥	الحج ٣١	النور ١	النور ٢٠	
٤٢١	تسميع من المؤمنون ٩٢ إلى الحج ٢٤				
٤٢٢	الحج ٣٢	الحج ٣٩	النور ٢١	النور ٣١	
٤٢٣	الحج ٤٠	الحج ٤٨	النور ٣٢	النور ٤٣	
٤٢٤	الحج ٤٩	الحج ٥٧	النور ٤٤	النور ٥٨	
٤٢٥	الحج ٥٨	الحج ٦٥	النور ٥٩	الفرقان ٢	
٤٢٦	الحج ٦٦	الحج ٧٣	الفرقان ٣	الفرقان ٢٠	
٤٢٧	تسميع من الحج ٢٥ إلى الحج ٦٥				

٤٢٨	الحج ٧٤	الحج ٧٨	الفرقان ٢١	الفرقان ٤٣	
٤٢٩	اختبار في نصف الجزء (سورة الحج)				
٤٣٠	الأنبياء ١	الأنبياء ١١	الفرقان ٤٤	الفرقان ٦٧	
٤٣١	الأنبياء ١٢	الأنبياء ٢٥	الفرقان ٦٨	الشعراء ١٩	
٤٣٢	الأنبياء ٢٦	الأنبياء ٣٦	الشعراء ٢٠	الشعراء ٦٠	
٤٣٣	الأنبياء ٣٧	الأنبياء ٤٦	الشعراء ٦١	الشعراء ١١١	
٤٣٤	تسميع من الحج ٦٦ إلى الأنبياء ٣٦				
٤٣٥	الأنبياء٤٧	الأنبياء٥٨	الشعراء١١٢	الشعراء١٥٩	
٤٣٦	الأنبياء٥٩	الأنبياء٧٣	الشعراء١٦٠	الشعراء٢٠٦	
٤٣٧	الأنبياء ٧٤	الأنبياء ٨٢	الشعراء ٢٠٧	النمل ١٣	
٤٣٨	الأنبياء ٨٣	الأنبياء ٩١	النمل ١٤	النمل ٣٥	
٤٣٩	الأنبياء ٩٢	الأنبياء ١٠٢	النمل ٣٦	النمل ٥٥	
٤٤٠	تسميع من الأنبياء ٣٧ إلى الأنبياء ٩١				
٤٤١	الأنبياء ١٠٣	الأنبياء ١١٢	الحج ١	الحج ١٥	
٤٤٢	اختبار في نصف الجزء (سورة الأنبياء)				

٤٤٣	اختبار في الجزء كاملاً (سورتا الحج والأنبياء)				
٤٤٤	طه ١	طه ١٦	الحج ١٦	الحج ٣٠	
٤٤٥	طه ١٧	طه ٣٩	الحج ٣١	الحج ٤٦	
٤٤٦	طه ٤٠	طه ٥٤	الحج ٤٧	الحج ٦٤	
٤٤٧	طه ٥٥	طه ٦٦	الحج ٦٥	الحج ٧٨	
٤٤٨	تسميع من الأنبياء ٩٢ إلى طه ٥٤				
٤٤٩	طه ٦٧	طه ٧٩	الأنبياء ١	الأنبياء ٢٤	
٤٥٠	طه ٨٠	طه ٨٩	الأنبياء ٢٥	الأنبياء ٤٤	
٤٥١	طه ٩٠	طه ١٠١	الأنبياء ٤٥	الأنبياء ٧٢	
٤٥٢	طه ١٠٢	طه ١١٤	الأنبياء ٧٣	الأنبياء ٩٠	
٤٥٣	طه١١٥	طه ١٢٧	الأنبياء ٩١	الأنبياء ١١٢	
٤٥٤	تسميع من طه ٥٥ إلى طه ١١٤				
٤٥٥	طه ١٢٨	طه ١٣٥	المؤمنون ١	المؤمنون ٢٧	
٤٥٦	اختبار في نصف الجزء (سورة طه)				
٤٥٧	مريم ١	مريم ١٥	المؤمنون ٢٨	المؤمنون ٥٩	

٤٥٨	مريم١٦	مريم٢٦	المؤمنون ٦٠	المؤمنون ٨٩	
٤٥٩	مريم ٢٧	مريم ٤٠	المؤمنون ٩٠	المؤمنون١١٨	
٤٦٠	مريم ٤١	مريم ٥٥	النور ١	النور ٢٠	
٤٦١	تسميع من طه ١١٥ إلى مريم ٤٠				
٤٦٢	مريم ٥٦	مريم ٦٧	النور ٢١	النور ٣١	
٤٦٣	مريم ٦٨	مريم ٨٠	النور ٣٢	النور ٤٣	
٤٦٤	مريم ٨١	مريم ٩٨	النور ٤٤	النور ٥٨	
٤٦٥	اختبار في نصف الجزء (سورة مريم)				
٤٦٦	اختبار في الجزء كاملاً (سورتا طه ومريم)				
٤٦٧	الكهف ١	الكهف ١٢	النور ٥٩	الفرقان ٢	
٤٦٨	الكهف ١٣	الكهف ١٨	الفرقان ٣	الفرقان ٢٠	
٤٦٩	تسميع من مريم ٤١ إلى الكهف ١٢				
٤٧٠	الكهف ١٩	الكهف ٢٢	طه ١	طه ٣٧	
٤٧١	الكهف ٢٣	الكهف ٢٩	طه ٣٨	طه ٦٤	
٤٧٢	الكهف ٣٠	الكهف ٣٦	طه ٦٥	طه ٨٧	

٤٧٣	الكهف ٣٧	الكهف ٤٦	طه ٨٨	طه ١١٣	
٤٧٤	الكهف ٤٧	الكهف ٥٤	طه ١١٤	طه ١٣٥	
٤٧٥	تسميع من الكهف ١٣ إلى الكهف ٤٦				
٤٧٦	الكهف ٥٥	الكهف ٦٣	مريم ١	مريم ٣٣	
٤٧٧	الكهف ٦٤	الكهف ٧٦	مريم ٣٤	مريم ٦٤	
٤٧٨	الكهف ٧٧	الكهف ٨٥	مريم ٦٥	مريم ٩٨	

٤٧٩	الكهف ٨٦	الكهف ٩٨	الحج ١	الحج ١٥	
٤٨٠	الكهف ٩٩	الكهف١١٠	الحج ١٦	الحج ٣٠	
٤٨١	تسميع من الكهف ٤٧ إلى الكهف ٩٨				
٤٨٢	اختبار في نصف الجزء (سورة الكهف)				
٤٨٣	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار				
٤٨٤					
٤٨٥					
٤٨٦					

٤٨٧	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار				
٤٨٨	اختبار شامل في الأجزاء الخمسة (من القصص إلى الكهف)				
٤٨٩	الإسراء ١	الإسراء ٨	الحج ٣١	الحج ٤٦	
٤٩٠	الإسراء ٩	الإسراء ١٩	الحج ٤٧	الحج ٦٤	
٤٩١	الإسراء ٢٠	الإسراء ٣٠	الحج ٦٥	الحج ٧٨	
٤٩٢	الإسراء ٣١	الإسراء ٤٠	الأنبياء ١	الأنبياء ٢٤	
٤٩٣	الإسراء ٤١	الإسراء ٥٢	الأنبياء ٢٥	الأنبياء ٤٤	
٤٩٤	تسميع من الكهف ٩٩ إلى الإسراء ٤٠				
٤٩٥	الإسراء ٥٣	الإسراء ٦٠	الأنبياء ٤٥	الأنبياء ٧٢	
٤٩٦	الإسراء ٦١	الإسراء ٦٩	الأنبياء ٧٣	الأنبياء ٩٠	
٤٩٧	الإسراء ٧٠	الإسراء ٨١	الأنبياء ٩١	الأنبياء ١١٢	
٤٩٨	الإسراء ٨٢	الإسراء ٩٣	الكهف ١	الكهف ٢٠	
٤٩٩	الإسراء ٩٤	الإسراء ١٠٢	الكهف ٢١	الكهف ٣٤	
٥٠٠	تسميع من الإسراء ٤١ إلى الإسراء ٩٣				
٥٠١	الإسراء ١٠٣	الإسراء ١١١	الكهف ٣٥	الكهف ٥٣	

٥٠٢	اختبار في نصف الجزء (سورة الإسراء)				
٥٠٣	اختبار في الجزء كاملاً (سورتا الكهف والإسراء)				
٥٠٤	النحل ١	النحل ٩	الكهف ٥٤	الكهف ٧٤	
٥٠٥	النحل ١٠	النحل ١٨	الكهف ٧٥	الكهف ٩٢	
٥٠٦	النحل ١٩	النحل ٢٧	الكهف ٩٣	الكهف١١٠	
٥٠٧	النحل ٢٨	النحل ٣٥	الإسراء ١	الإسراء ١٧	
٥٠٨	تسميع من الإسراء ٩٤ إلى النحل ٢٧				
٥٠٩	النحل ٣٦	النحل ٤٤	الإسراء ١٨	الإسراء ٣٨	
٥١٠	النحل ٤٥	النحل ٥٦	الإسراء ٣٩	الإسراء ٥٨	
٥١١	النحل ٥٧	النحل ٦٥	الإسراء ٥٩	الإسراء ٧٥	
٥١٢	النحل ٦٦	النحل ٧٤	الإسراء ٧٦	الإسراء ٩٦	
٥١٣	النحل ٧٥	النحل٨٠	الإسراء ٩٧	الإسراء١١١	
٥١٤	تسميع من النحل ٢٨ إلى النحل ٧٤				
٥١٥	النحل ٨١	النحل ٨٨	طه ١	طه ٣٧	
٥١٦	النحل ٨٩	النحل ٩٤	طه ٣٨	طه ٦٤	

٥١٧	النحل ٩٥	النحل ١٠٣	طه ٦٥	طه ٨٧	
٥١٨	النحل ١٠٤	النحل ١١١	طه ٨٨	طه ١١٣	
٥١٩	النحل ١١٢	النحل ١١٩	طه ١١٤	طه ١٣٥	
٥٢٠	تسميع من النحل ٧٥ إلى النحل ١١١				
٥٢١	النحل ١٢٠	النحل ١٢٨	مريم ١	مريم ٣٣	
٥٢٢	اختبار في نصف الجزء(من آية ٥١ من سورة النحل إلى نهايتها)				
٥٢٣	الحجر ١	الحجر ١٨	مريم ٣٤	مريم ٦٤	
٥٢٤	الحجر ١٩	الحجر ٣٥	مريم ٦٥	مريم ٩٨	
٥٢٥	الحجر ٣٦	الحجر ٥٦	النحل ١	النحل ٢٦	
٥٢٦	الحجر ٥٧	الحجر ٧٩	النحل ٢٧	النحل ٤٢	
٥٢٧	تسميع من النحل ١١٢ إلى الحجر ٥٦				
٥٢٨	الحجر ٨٠	الحجر ٩٩	النحل ٤٣	النحل ٦٤	
٥٢٩	اختبار في نصف الجزء(من بداية الحجر إلى آية ٥٢ النحل)				
٥٣٠	اختبار في الجزء كاملاً (سورتا الحجر والنحل)				
٥٣١	إبراهيم ١	إبراهيم ٦	النحل ٦٥	النحل ٧٩	

٥٣٢	إبراهيم ٧	إبراهيم ١٢	النحل ٨٠	النحل ٩٣	
٥٣٣	إبراهيم ١٣	إبراهيم ٢١	النحل ٩٤	النحل ١١٠	
٥٣٤	إبراهيم ٢٢	إبراهيم ٢٧	النحل ١١١	النحل ١٢٨	
٥٣٥	تسميع من الحجر ٥٧ إلى إبراهيم ٢١				
٥٣٦	إبراهيم ٢٨	إبراهيم ٣٤	الحجر ١	الحجر ٣١	
٥٣٧	إبراهيم ٣٥	إبراهيم ٤٣	الحجر ٣٢	الحجر ٧٠	
٥٣٨	إبراهيم ٤٤	إبراهيم ٥٢	الحجر ٧١	الحجر ٩٩	
٥٣٩	الرعد ١	الرعد ٦	الكهف ١	الكهف ٢٠	
٥٤٠	الرعد ٧	الرعد ١٥	الكهف ٢١	الكهف ٣٤	
٥٤١	تسميع من إبراهيم ٢٢ إلى الرعد ٦				
٥٤٢	الرعد ١٦	الرعد ٢٠	الكهف ٣٥	الكهف ٥٣	
٥٤٣	الرعد ٢١	الرعد ٣٠	الكهف ٥٤	الكهف ٧٤	
٥٤٤	الرعد ٣١	الرعد ٣٦	الكهف ٧٥	الكهف ٩٢	
٥٤٥	الرعد ٣٧	الرعد ٤٣	الكهف ٩٣	الكهف١١٠	
٥٤٦	اختبار في نصف الجزء(سورتا الرعد وإبراهيم)				

٥٤٧	يوسف ١	يوسف ٦	الإسراء ١	الإسراء ١٧	
٥٤٨	تسميع من الرعد ٧ إلى الرعد ٤٣				
٥٤٩	يوسف ٧	يوسف ١٥	الإسراء ١٨	الإسراء ٣٨	
٥٥٠	يوسف ١٦	يوسف ٢٣	الإسراء ٣٩	الإسراء ٥٨	
٥٥١	يوسف ٢٤	يوسف ٣١	الإسراء ٥٩	الإسراء ٧٥	
٥٥٢	يوسف ٣٢	يوسف ٣٨	الإسراء ٧٦	الإسراء ٩٦	
٥٥٣	يوسف ٣٩	يوسف ٤٥	الإسراء ٩٧	الإسراء١١١	
٥٥٤	تسميع من يوسف ١ إلى يوسف ٣٨				
٥٥٥	يوسف ٤٦	يوسف ٥٣	الرعد ١	الرعد ٩	
٥٥٦	يوسف ٥٤	يوسف ٦٤	الرعد ١٠	الرعد ١٨	
٥٥٧	يوسف ٦٥	يوسف ٧٢	الرعد ١٩	الرعد ٣٤	
٥٥٨	يوسف ٧٣	يوسف ٧٩	الرعد ٣٥	إبراهيم ٥	
٥٥٩	يوسف ٨٠	يوسف ٨٧	إبراهيم ٦	إبراهيم ١٨	
٥٦٠	تسميع من يوسف ٣٩ إلى يوسف ٧٩				
٥٦١	يوسف ٨٨	يوسف ٩٨	إبراهيم ١٩	إبراهيم ٣٣	

٥٦٢	يوسف ٩٩	يوسف ١٠٦	إبراهيم ٣٤	إبراهيم ٥٢	
٥٦٣	يوسف ١٠٧	يوسف١١١	النحل ١	النحل ٢٦	
٥٦٤	اختبار في نصف الجزء (من ٥٣ يوسف إلى نهايتها)				
٥٦٥	اختبار في الجزء كاملاً (من ٥٣ يوسف إلى نهاية إبراهيم)				
٥٦٦	هود ١	هود ٨	النحل ٢٧	النحل ٤٢	
٥٦٧	هود ٩	هود ١٦	النحل ٤٣	النحل ٦٤	
٥٦٨	تسميع من يوسف ٨٠ إلى هود ٨				
٥٦٩	هود ١٧	هود ٢٣	مريم ٦٥	مريم ٩٨	
٥٧٠	هود ٢٤	هود ٣١	النحل ١	النحل ٢٦	
٥٧١	هود ٣٢	هود ٤٠	النحل ٢٧	النحل ٤٢	
٥٧٢	اختبار في نصف الجزء (يوسف ١ إلى ٥٢) و (هود ١ إلى ٣٧)				
٥٧٣	هود ٤١	هود ٤٩	النحل ٤٣	النحل ٦٤	
٥٧٤	هود ٥٠	هود ٦٠	النحل ٦٥	النحل ٧٩	
٥٧٥	تسميع من هود ٩ إلى هود ٤٩				
٥٧٦	هود ٦١	هود ٦٨	النحل ٨٠	النحل ٩٣	

٥٧٧	هود ٦٩	هود ٧٧	النحل ٩٤	النحل ١١٠	
٥٧٨	هود ٧٨	هود ٨٦	النحل ١١١	النحل ١٢٨	
٥٧٩	هود ٨٧	هود ٩٣	الحجر ١	الحجر ٣١	
٥٨٠	هود ٩٤	هود ١٠٢	الحجر ٣٢	الحجر ٧٠	
٥٨١	تسميع من هود ٥٠ إلى هود ٩٣				
٥٨٢	هود ١٠٣	هود ١١٣	الحجر ٧١	الحجر ٩٩	
٥٨٣	هود ١١٤	هود ١٢٣	هود ١	هود ١٩	
٥٨٤	اختبار في نصف الجزء (٣٨ هود إلى نهايتها)				
٥٨٥	اختبار في الجزء كاملاً(من بداية هود إلى ٥٢ يوسف)				
٥٨٦	يونس ١	يونس ٨	هود ٢٠	هود ٣٧	
٥٨٧	يونس ٩	يونس ١٥	هود ٣٨	هود ٥٣	
٥٨٨	يونس ١٦	يونس ٢١	هود ٥٤	هود ٧١	
٥٨٩	تسميع من هود ٩٤ إلى يونس ١٥				
٥٩٠	يونس ٢٢	يونس ٢٦	هود ٧٢	هود ٨٨	
٥٩١	يونس ٢٧	يونس ٣٤	هود ٨٩	هود ١٠٨	

٥٩٢	يونس ٣٥	يونس ٤٣	هود ١٠٩	يوسف ٤
٥٩٣	يونس ٤٤	يونس ٥٤	يوسف ٥	يوسف ٢٢
٥٩٤	يونس ٥٥	يونس ٦٤	يوسف ٢٣	يوسف ٣٧
٥٩٥	تسميع من يونس ١٦ إلى يونس ٥٤			
٥٩٦	يونس ٦٥	يونس ٧٢	يوسف ٣٨	يوسف ٥٢
٥٩٧	يونس ٧٣	يونس ٨٢	يوسف ٥٣	يوسف ٦٩
٥٩٨	يونس ٨٣	يونس ٩٢	يوسف ٧٠	يوسف ٨٦
٥٩٩	يونس ٩٣	يونس١٠١	يوسف ٨٧	يوسف ١٠٠
٦٠٠	يونس١٠٢	يونس١٠٩	يوسف ١٠١	يوسف ١١١
٦٠١	تسميع من يونس ٥٥ إلى يونس ١٠١			
٦٠٢	اختبار في نصف الجزء (من ٣١ يونس إلى نهايتها)			
٦٠٣	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار			
٦٠٤				
٦٠٥				
٦٠٦				

٦٠٧	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار			
٦٠٨	اختبار شامل في الأجزاء الخمسة (من الإسراء إلى يونس)			
٦٠٩	التوبة ١	التوبة ٧	الرعد ١	الرعد ٩
٦١٠	التوبة ٨	التوبة ١٥	الرعد ١٠	الرعد ١٨
٦١١	التوبة ١٦	التوبة ٢٢	الرعد ١٩	الرعد ٣٤
٦١٢	التوبة ٢٣	التوبة ٢٧	الرعد ٣٥	إبراهيم ٥
٦١٣	التوبة ٢٨	التوبة ٣٣	إبراهيم ٦	إبراهيم ١٨
٦١٤	تسميع من يونس ١٠٢ إلى التوبة ٢٧			
٦١٥	التوبة ٣٤	التوبة ٣٧	إبراهيم ١٩	إبراهيم ٣٣
٦١٦	اختبار في نصف جزء (التوبة من ١ إلى٤٧ و يونس من ١ إلى٣٠)			
٦١٧	اختبار في ما يعادل جزءاً (التوبة من١إلى٤٧ و يونس كاملة)			
٦١٨	التوبة ٣٨	التوبة ٤١	إبراهيم ٣٤	إبراهيم ٥٢
٦١٩	التوبة ٤٢	التوبة ٤٨	يونس ١	يونس ١٤
٦٢٠	التوبة ٤٩	التوبة ٥٦	يونس ١٥	يونس ٢٥
٦٢١	التوبة ٥٧	التوبة ٦٣	يونس ٢٦	يونس ٤٢

٦٢٢	تسميع من التوبة ٢٨ إلى التوبة ٥٦				
٦٢٣	التوبة ٦٤	التوبة ٦٩	يونس ٤٣	يونس ٦١	
٦٢٤	التوبة ٧٠	التوبة ٧٤	يونس ٦٢	يونس ٧٨	
٦٢٥	التوبة ٧٥	التوبة ٨٢	يونس ٧٩	يونس ٩٧	
٦٢٦	التوبة ٨٣	التوبة ٨٩	يونس ٩٨	يونس ١٠٩	
٦٢٧	التوبة ٩٠	التوبة ٩٤	التوبة ١	التوبة ٩	
٦٢٨	تسميع من التوبة ٥٧ إلى التوبة ٨٩				
٦٢٩	التوبة ٩٥	التوبة ١٠٠	التوبة ١٠	التوبة ٢٠	
٦٣٠	التوبة ١٠١	التوبة ١٠٧	التوبة ٢١	التوبة ٣١	
٦٣١	التوبة ١٠٨	التوبة ١١٢	التوبة ٣٢	التوبة ٤٠	
٦٣٢	التوبة ١١٣	التوبة ١١٨	هود ١	هود ١٩	
٦٣٣	التوبة ١١٩	التوبة ١٢٣	هود ٢٠	هود ٣٧	
٦٣٤	تسميع من التوبة ٩٠ إلى التوبة ١١٨				
٦٣٥	التوبة ١٢٤	التوبة ١٢٩	هود ٣٨	هود ٥٣	
٦٣٦	اختبار في نصف جزء (سورة التوبة من ٤٨ إلى نهايتها)				

٦٣٧	الأنفال ١	الأنفال ١٠	هود ٥٤	هود ٧١	
٦٣٨	الأنفال ١١	الأنفال ١٨	هود ٧٢	هود ٨٨	
٦٣٩	الأنفال ١٩	الأنفال ٢٦	هود ٨٩	هود ١٠٨	
٦٤٠	الأنفال ٢٧	الأنفال ٣٥	هود ١٠٩	يوسف ٤	
٦٤١	تسميع من التوبة ١١٩ إلى الأنفال ٢٦				
٦٤٢	الأنفال ٣٦	الأنفال ٤١	يوسف ٥	يوسف ٢٢	
٦٤٣	الأنفال ٤٢	الأنفال ٤٧	يوسف ٢٣	يوسف ٣٧	
٦٤٤	الأنفال ٤٨	الأنفال ٥٤	يوسف ٣٨	يوسف ٥٢	
٦٤٥	الأنفال ٥٥	الأنفال ٦٣	يوسف ٥٣	يوسف ٦٩	
٦٤٦	الأنفال ٦٤	الأنفال ٧١	يوسف ٧٠	يوسف ٨٦	
٦٤٧	تسميع من الأنفال ٢٧ إلى الأنفال ٦٣				
٦٤٨	الأنفال ٧٢	الأنفال ٧٥	يوسف ٨٧	يوسف ١٠٠	
٦٤٩	اختبار في نصف جزء (سورة الأنفال)				
٦٥٠	اختبار في ما يعادل جزءاً(الأنفال ، والتوبة من ٤٨ إلى نهايتها)				
٦٥١	الأعراف ١	الأعراف ١٣	يوسف١٠١	يوسف ١١١	

٦٥٢	الأعراف١٤	الأعراف ٢٥	التوبة ٤١	التوبة ٥٤	
٦٥٣	الأعراف ٢٦	الأعراف ٣٢	التوبة ٥٥	التوبة ٦٨	
٦٥٤	الأعراف ٣٣	الأعراف ٣٩	التوبة ٦٩	التوبة ٧٩	
٦٥٥	تسميع من الأنفال ٦٤ إلى الأعراف ٣٢				
٦٥٦	الأعراف ٤٠	الأعراف ٤٧	التوبة ٨٠	التوبة ٩٣	
٦٥٧	الأعراف ٤٨	الأعراف ٥٤	التوبة ٩٤	التوبة ١٠٦	
٦٥٨	الأعراف ٥٥	الأعراف ٦٤	التوبة١٠٧	التوبة ١١٧	
٦٥٩	الأعراف ٦٥	الأعراف ٧٢	التوبة١١٨	التوبة١٢٩	
٦٦٠	الأعراف ٧٣	الأعراف ٧٩	يونس ١	يونس ١٤	
٦٦١	تسميع من الأعراف ٣٣ إلى الأعراف ٧٢				
٦٦٢	الأعراف ٨٠	الأعراف ٨٦	يونس ١٥	يونس ٢٥	
٦٦٣	اختبار في نصف جزء (الأعراف من ١ إلى ٨١)				
٦٦٤	الأعراف ٨٧	الأعراف ٩٣	يونس ٢٦	يونس ٤٢	
٦٦٥	الأعراف ٩٤	الأعراف١٠٢	يونس ٤٣	يونس ٦١	
٦٦٦	الأعراف١٠٣	الأعراف١١٤	يونس ٦٢	يونس ٧٨	

٦٦٧	الأعراف١١٥	الأعراف١٢٦	يونس ٧٩	يونس ٩٧	
٦٦٨	تسميع من الأعراف ٧٣ إلى الأعراف ١١٤				
٦٦٩	الأعراف١٢٧	الأعراف١٣١	يونس٩٨	يونس ١٠٩	
٦٧٠	الأعراف١٣٢	الأعراف١٣٩	التوبة ١	التوبة ٩	
٦٧١	الأعراف١٤٠	الأعراف١٤٥	التوبة ١٠	التوبة ٢٠	
٦٧٢	الأعراف ١٤٦	الأعراف ١٥١	التوبة ٢١	التوبة ٣١	
٦٧٣	الأعراف١٥٢	الأعراف١٥٦	التوبة ٣٢	التوبة ٤٠	
٦٧٤	تسميع من الأعراف ١١٥ إلى الأعراف ١٥١				
٦٧٥	الأعراف١٥٧	الأعراف١٦٠	الأنفال ١	الأنفال ١١	
٦٧٦	اختبار في نصف جزء(الأعراف من ٨٢ إلى ١٥٩)				
٦٧٧	اختبار في ما يعادل جزءاً (الأعراف من ١ إلى ١٥٩)				
٦٧٨	الأعراف١٦١	الأعراف١٦٦	الأنفال ١٢	الأنفال ٢٥	
٦٧٩	الأعراف ١٦٧	الأعراف ١٧٤	الأنفال ٢٦	الأنفال ٤٠	
٦٨٠	الأعراف١٧٥	الأعراف١٨٠	الأنفال٤١	الأنفال ٥٢	
٦٨١	الأعراف١٨١	الأعراف١٨٨	الأنفال ٥٣	الأنفال ٦٩	

٦٨٢	تسميع من الأعراف ١٥٢ إلى الأعراف ١٨٠				
٦٨٣	الأعراف١٨٩	الأعراف١٩٨	الأنفال٧٠	الأعراف١١	
٦٨٤	الأعراف١٩٩	الأعراف٢٠٦	الأعراف ١٢	الأعراف ٣٠	
٦٨٥	الأنعام ١	الأنعام ١٠	الأعراف ٣١	الأعراف ٤٣	
٦٨٦	الأنعام ١١	الأنعام ٢٠	الأعراف ٤٤	الأعراف ٥٧	
٦٨٧	الأنعام ٢١	الأنعام ٣٠	الأعراف ٥٨	الأعراف ٧٣	
٦٨٨	تسميع من الأعراف ١٨١ إلى الأنعام ٢٠				
٦٨٩	الأنعام ٣١	الأنعام ٣٧	الأعراف٧٤	الأعراف٨٧	
٦٩٠	اختبار في نصف جزء (الأعراف من ١٦٠ إلى نهايتها والأنعام من ١ إلى ٣٥)				
٦٩١	الأنعام ٣٨	الأنعام ٤٧	التوبة ٤١	التوبة ٥٤	
٦٩٢	الأنعام ٤٨	الأنعام ٥٣	التوبة ٥٥	التوبة ٦٨	
٦٩٣	الأنعام ٥٤	الأنعام ٦٠	التوبة ٦٩	التوبة ٧٩	
٦٩٤	الأنعام ٦١	الأنعام ٦٩	التوبة ٨٠	التوبة ٩٣	
٦٩٥	تسميع من الأنعام ٢١ إلى الأنعام ٦٠				

٦٩٦	الأنعام ٧٠	الأنعام ٧٥	التوبة ٩٤	التوبة ١٠٦	
٦٩٧	الأنعام ٧٦	الأنعام ٨٣	التوبة ١٠٧	التوبة ١١٧	
٦٩٨	الأنعام ٨٤	الأنعام ٩٢	التوبة ١١٨	التوبة ١٢٩	
٦٩٩	الأنعام ٩٣	الأنعام٩٧	الأعراف ٨٨	الأعراف١٠٤	
٧٠٠	الأنعام ٩٨	الأنعام ١٠٥	الأعراف١٠٥	الأعراف١٣٠	
٧٠١	تسميع من الأنعام ٦١ إلى الأنعام ٩٧				
٧٠٢	الأنعام ١٠٦	الأنعام ١١٣	الأعراف١٣١	الأعراف١٤٣	
٧٠٣	اختبار في نصف جزء (الأنعام من ٣٦ إلى ١١٠)				
٧٠٤	اختبار في ما يعادل جزءاً(الأعراف من ١٦٠ إلى نهايتها والأنعام من ١ إلى ١١٠)				
٧٠٥	الأنعام ١١٤	الأنعام١٢١	الأعراف١٤٤	الأعراف١٥٥	
٧٠٦	الأنعام ١٢٢	الأنعام١٢٧	الأعراف١٥٦	الأعراف١٦٣	
٧٠٧	الأنعام ١٢٨	الأنعام١٣٥	الأعراف١٦٤	الأعراف١٧٨	
٧٠٨	الأنعام ١٣٦	الأنعام١٣٩	الأعراف١٧٩	الأعراف١٩٠	
٧٠٩	تسميع من الأنعام ٩٨ إلى الأنعام ١٣٥				
٧١٠	الأنعام ١٤٠	الأنعام١٤٤	الأعراف١٩١	الأعراف٢٠٦	

٧١١	الأنعام ١٤٥	الأنعام ١٥٠	الأنعام ١	الأنعام ١٨	
٧١٢	الأنعام ١٥١	الأنعام ١٥٣	الأنعام ١٩	الأنعام ٣٥	
٧١٣	الأنعام ١٥٤	الأنعام ١٥٨	الأنعام ٣٦	الأنعام ٥٢	
٧١٤	الأنعام ١٥٩	الأنعام١٦٥	الأنفال ١	الأنفال ١١	
٧١٥	تسميع من الأنعام ١٣٦ إلى الأنعام ١٥٨				
٧١٦	اختبار في نصف جزء (الأنعام من ١١١ إلى نهايتها)				
٧١٧	المائدة ١	المائدة ٣	الأنفال ١٢	الأنفال ٢٥	
٧١٨	المائدة ٤	المائدة ٦	الأنفال ٢٦	الأنفال ٤٠	
٧١٩	المائدة ٧	المائدة ١١	الأنفال ٤١	الأنفال ٥٢	
٧٢٠	المائدة ١٢	المائدة ١٤	الأنفال ٥٣	الأنفال ٦٩	
٧٢١	المائدة ١٥	المائدة ١٨	الأنفال ٧٠	الأعراف ١١	
٧٢٢	تسميع من الأنعام ١٥٩ إلى المائدة ١٤				
٧٢٣	المائدة ١٩	المائدة ٢٦	الأعراف ١٢	الأعراف ٣٠	
٧٢٤	المائدة ٢٧	المائدة ٣٢	الأعراف ٣١	الأعراف ٤٣	
٧٢٥	المائدة ٣٣	المائدة ٤٠	الأعراف ٤٤	الأعراف ٥٧	

٧٢٦	المائدة ٤١	المائدة ٤٣	الأعراف ٥٨	الأعراف ٧٣	
٧٢٧	المائدة ٤٤	المائدة ٤٧	الأعراف ٧٤	الأعراف ٨٧	
٧٢٨	تسميع من المائدة ١٥ إلى المائدة ٤٣				
٧٢٩	المائدة ٤٨	المائدة ٥٣	الأنعام ٥٣	الأنعام ٦٨	
٧٣٠	اختبار في نصف جزء (المائدة من ١ إلى ٥٠)				
٧٣١	اختبار في ما يعادل جزءاً (الأنعام من ١١١ إلى نهايتها ، والمائدة من ١ إلى ٥٠)				
٧٣٢	المائدة ٥٤	المائدة ٦١	الأنعام ٦٩	الأنعام ٨١	
٧٣٣	المائدة ٦٢	المائدة ٦٦	الأنعام ٨٢	الأنعام ٩٤	
٧٣٤	المائدة ٦٧	المائدة ٧١	الأنعام ٩٥	الأنعام ١١٠	
٧٣٥	المائدة ٧٢	المائدة ٧٧	الأنعام ١١١	الأنعام ١٢٤	
٧٣٦	تسميع من المائدة ٤٤ إلى المائدة ٧١				
٧٣٧	المائدة ٧٨	المائدة ٨٥	الأنعام ١٢٥	الأنعام ١٣٧	
٧٣٨	المائدة ٨٦	المائدة ٩٢	الأنعام ١٣٨	الأنعام ١٤٦	
٧٣٩	المائدة ٩٣	المائدة ٩٦	الأنعام ١٤٧	الأنعام ١٥٤	

٧٤٠	المائدة ٩٧	المائدة ١٠٥	الأنعام ١٥٥	الأنعام ١٦٥	
٧٤١	المائدة ١٠٦	المائدة ١٠٩	الأعراف ٨٨	الأعراف ١٠٤	
٧٤٢	تسميع من المائدة ٧٢ إلى المائدة ١٠٥				
٧٤٣	المائدة ١١٠	المائدة ١١٥	الأعراف ١٠٥	الأعراف ١٣٠	
٧٤٤	المائدة ١١٦	المائدة ١٢٠	الأعراف ١٣١	الأعراف ١٤٣	
٧٤٥	اختبار في نصف جزء (المائدة من ٥١ إلى نهايتها)				
٧٤٦	يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار				
٧٤٧					
٧٤٨					
٧٤٩					
٧٥٠					
٧٥١	اختبار شامل في الأجزاء الخمسة (من التوبة إلى المائدة)				
٧٥٢	النساء ١	النساء ٥	الأعراف ١٤٤	الأعراف ١٥٥	
٧٥٣	النساء ٦	النساء ١٠	الأعراف ١٥٦	الأعراف ١٦٣	
٧٥٤	النساء ١١	النساء ١٢	الأعراف ١٦٤	الأعراف ١٧٨	

٧٥٥	تسميع من المائدة ١٠٦ إلى النساء ١٠				
٧٥٦	النساء ١٣	النساء ١٧	الأعراف١٧٩	الأعراف١٩٠	
٧٥٧	النساء ١٨	النساء ٢٢	الأعراف١٩١	الأعراف٢٠٦	
٧٥٨	النساء ٢٣	النساء ٢٤	الأنعام ١	الأنعام ١٨	
٧٥٩	النساء ٢٥	النساء ٣٠	الأنعام ١٩	الأنعام ٣٥	
٧٦٠	النساء ٣١	النساء ٣٥	الأنعام ٣٦	الأنعام ٥٢	
٧٦١	تسميع من النساء ١١ إلى النساء ٣٠				
٧٦٢	النساء ٣٦	النساء ٤٢	المائدة ١	المائدة ٥	
٧٦٣	النساء ٤٣	النساء ٤٧	المائدة ٦	المائدة ١٣	
٧٦٤	النساء ٤٨	النساء ٥٧	المائدة ١٤	المائدة ٢٣	
٧٦٥	اختبار في نصف جزء (النساء من ١ إلى ٥١)				
٧٦٦	اختبار في ما يعادل جزءاً (المائدة من ٥١ إلى نهايتها و النساء من ١ إلى ٥١)				
٧٦٧	النساء ٥٨	النساء ٦٣	المائدة ٢٤	المائدة ٣٦	
٧٦٨	النساء ٦٤	النساء ٧٠	المائدة ٣٧	المائدة ٤٥	

٧٦٩	تسميع من النساء ٣١ إلى النساء ٦٣				
٧٧٠	النساء ٧١	النساء ٧٦	المائدة ٤٦	المائدة ٥٧	
٧٧١	النساء ٧٧	النساء ٨٢	المائدة ٥٨	المائدة ٧٠	
٧٧٢	النساء ٨٣	النساء ٨٨	المائدة ٧١	المائدة ٨٢	
٧٧٣	النساء ٨٩	النساء ٩٢	المائدة ٨٣	المائدة ٩٥	
٧٧٤	النساء ٩٣	النساء ٩٦	المائدة ٩٦	المائدة ١٠٨	
٧٧٥	تسميع من النساء ٦٤ إلى النساء ٩٢				
٧٧٦	النساء ٩٧	النساء ١٠٣	المائدة ١٠٩	المائدة ١٢٠	
٧٧٧	النساء ١٠٤	النساء ١١٢	الأنعام ٥٣	الأنعام ٦٨	
٧٧٨	النساء ١١٣	النساء ١١٦	الأنعام ٦٩	الأنعام ٨١	
٧٧٩	اختبار في نصف جزء (النساء من ٥٢ إلى ١١٣)				
٧٨٠	النساء ١١٧	النساء ١٢٤	الأنعام ٨٢	الأنعام ٩٤	
٧٨١	النساء١٢٥	النساء ١٣٠	الأنعام ٩٥	الأنعام ١١٠	
٧٨٢	تسميع من النساء ٩٣ إلى النساء ١٢٤				
٧٨٣	النساء١٣١	النساء١٣٧	الأنعام ١١١	الأنعام ١٢٤	

٧٨٤	النساء١٣٨	النساء١٤٤	الأنعام ١٢٥	الأنعام ١٣٧	
٧٨٥	النساء١٤٥	النساء١٥٢	الأنعام ١٣٨	الأنعام ١٤٦	
٧٨٦	النساء١٥٣	النساء١٥٩	الأنعام ١٤٧	الأنعام ١٥٤	
٧٨٧	النساء ١٦٠	النساء١٦٦	الأنعام ١٥٥	الأنعام ١٦٥	
٧٨٨	تسميع من النساء ١٢٥ إلى النساء ١٥٩				
٧٨٩	النساء ١٦٧	النساء ١٧١	النساء ١	النساء ١٠	
٧٩٠	النساء ١٧٢	النساء ١٧٦	النساء ١١	النساء ١٤	
٧٩١	اختبار في نصف جزء (النساء من ١١٤ إلى نهايتها)				
٧٩٢	اختبار في ما يعادل جزءاً (النساء من ٥٢ إلى نهايتها)				
٧٩٣	آل عمران ١	آل عمران ١١	النساء ١٥	النساء ٢٣	
٧٩٤	آل عمران ١٢	آل عمران ١٧	النساء ٢٤	النساء ٣٣	
٧٩٥	آل عمران ١٨	آل عمران ٢٥	النساء ٣٤	النساء ٤٤	
٧٩٦	تسميع من النساء ١٦٠ إلى آل عمران ١٧				
٧٩٧	آل عمران ٢٦	آل عمران ٣٢	النساء ٤٥	النساء ٥٩	
٧٩٨	آل عمران ٣٣	آل عمران ٤١	النساء ٦٠	النساء ٧٤	

٧٩٩	آل عمران ٤٢	آل عمران ٤٩	النساء ٧٥	النساء ٨٦	
٨٠٠	آل عمران ٥٠	آل عمران ٥٨	النساء ٨٧	النساء ٩٤	
٨٠١	آل عمران ٥٩	آل عمران ٦٦	النساء ٩٥	النساء ١٠٥	
٨٠٢	تسميع من آل عمران ١٨ إلى آل عمران ٥٨				
٨٠٣	آل عمران ٦٧	آل عمران ٧٤	النساء ١٠٦	النساء ١٢١	
٨٠٤	آل عمران ٧٥	آل عمران ٨٠	المائدة ١	المائدة ٥	
٨٠٥	اختبار في نصف جزء (آل عمران من ١ إلى ٨٣)				
٨٠٦	آل عمران ٨١	آل عمران ٨٤	المائدة ٦	المائدة ١٣	
٨٠٧	آل عمران ٨٥	آل عمران ٩٢	المائدة ١٤	المائدة ٢٣	
٨٠٨	آل عمران ٩٣	آل عمران١٠١	المائدة ٢٤	المائدة ٣٦	
٨٠٩	تسميع من آل عمران ٥٩ إلى آل عمران ٩٢				
٨١٠	آل عمران١٠٢	آل عمران١١٠	المائدة ٣٧	المائدة ٤٥	
٨١١	آل عمران١١١	آل عمران١١٧	المائدة ٤٦	المائدة ٥٧	
٨١٢	آل عمران١١٨	آل عمران١٢٧	المائدة ٥٨	المائدة ٧٠	
٨١٣	آل عمران١٢٨	آل عمران١٣٦	المائدة ٧١	المائدة ٨٢	

٨١٤	آل عمران١٣٧	آل عمران١٤٥	المائدة٨٣	المائدة ٩٥	
٨١٥	تسميع من آل عمران ٩٣ إلى آل عمران ١٣٦				
٨١٦	آل عمران ١٤٦	آل عمران ١٥١	المائدة ٩٦	المائدة ١٠٨	
٨١٧	آل عمران١٥٢	آل عمران١٥٥	المائدة ١٠٩	المائدة ١٢٠	
٨١٨	آل عمران١٥٦	آل عمران١٦٣	النساء١٢٢	النساء١٣٤	
٨١٩	اختبار في نصف جزء (آل عمران من ٨٤ إلى ١٥٧)				
٨٢٠	اختبار في ما يعادل جزءاً (آل عمران من ١ إلى ١٥٧)				
٨٢١	آل عمران١٦٤	آل عمران١٧١	النساء١٣٥	النساء١٤٧	
٨٢٢	آل عمران١٧٢	آل عمران١٧٩	النساء١٤٨	النساء١٦٢	
٨٢٣	تسميع من آل عمران ١٣٧ إلى آل عمران ١٧١				
٨٢٤	آل عمران١٨٠	آل عمران١٨٥	النساء١٦٣	النساء١٧٦	
٨٢٥	آل عمران١٨٦	آل عمران١٩٣	آل عمران ١	آل عمران ١٥	
٨٢٦	آل عمران١٩٤	آل عمران٢٠٠	آل عمران ١٦	آل عمران ٢٩	
٨٢٧	البقرة ١	البقرة ١٨	آل عمران ٣٠	آل عمران ٤٥	
٨٢٨	البقرة ١٩	البقرة ٢٥	آل عمران ٤٦	آل عمران ٦١	

٨٢٩	تسميع من آل عمران ١٧٢ إلى البقرة ١٨				
٨٣٠	البقرة ٢٦	البقرة ٣٣	آل عمران ٦٢	آل عمران ٧٧	
٨٣١	اختبار في نصف جزء (آل عمران من ١٥٨ إلى نهايتها والبقرة من ١ إلى ٢٩)				
٨٣٢	البقرة ٣٤	البقرة ٤٦	آل عمران ٧٨	آل عمران ٩١	

٨٣٣	البقرة ٤٧	البقرة ٥٤	آل عمران٩٢	آل عمران١٠٨	
٨٣٤	البقرة ٥٥	البقرة ٦٠	النساء ١	النساء ١٠	
٨٣٥	البقرة ٦١	البقرة ٦٦	النساء ١١	النساء ١٤	
٨٣٦	تسميع من البقرة ١٩ إلى البقرة ٦٠				
٨٣٧	البقرة ٦٧	البقرة ٧٤	النساء ١٥	النساء ٢٣	
٨٣٨	البقرة ٧٥	البقرة ٨٢	النساء ٢٤	النساء ٣٣	
٨٣٩	البقرة ٨٣	البقرة ٨٦	النساء ٣٤	النساء ٤٤	
٨٤٠	البقرة ٨٧	البقرة ٩١	النساء ٤٥	النساء ٥٩	
٨٤١	اختبار في نصف جزء (البقرة من ٣٠ إلى ٨٨)				

٨٤٢	اختبار في ما يعادل جزءاً (آل عمران من ١٥٨ إلى نهايتها والبقرة من ١ إلى ٨٨)				
٨٤٣	البقرة ٩٢	البقرة ١٠٠	النساء ٦٠	النساء ٧٤	
٨٤٤	تسميع من البقرة ٦١ إلى البقرة ٩١				
٨٤٥	البقرة ١٠١	البقرة ١٠٣	النساء ٧٥	النساء ٨٦	
٨٤٦	البقرة ١٠٣	البقرة ١١٠	النساء ٨٧	النساء ٩٤	
٨٤٧	البقرة ١١١	البقرة ١١٧	النساء ٩٥	النساء ١٠٥	
٨٤٨	البقرة ١١٨	البقرة ١٢٣	النساء ١٠٦	النساء ١٢١	
٨٤٩	البقرة ١٢٤	البقرة ١٣١	آل عمران١٠٩	آل عمران١٢١	
٨٥٠	تسميع من البقرة ٩٢ إلى البقرة ١٢٣				
٨٥١	البقرة١٣٢	البقرة١٣٩	آل عمران١٢٢	آل عمران١٤٠	
٨٥٢	البقرة١٤٠	البقرة١٤٣	آل عمران١٤١	آل عمران١٥٣	
٨٥٣	اختبار في نصف جزء (البقرة من ٨٩ إلى ١٤١)				
٨٥٤	البقرة١٤٤	البقرة١٤٨	آل عمران١٥٤	آل عمران١٦٥	
٨٥٥	البقرة١٤٩	البقرة١٥٧	آل عمران١٦٦	آل عمران١٨٠	

٨٥٦	البقرة١٥٨	البقرة١٦٤	آل عمران١٨١	آل عمران١٩١	
٨٥٧	تسميع من البقرة ١٢٤ إلى البقرة ١٥٧				
٨٥٨	البقرة١٦٥	البقرة١٧١	آل عمران١٩٢	آل عمران٢٠٠	
٨٥٩	البقرة ١٧٢	البقرة ١٧٧	البقرة ١	البقرة ٢٩	
٨٦٠	البقرة ١٧٨	البقرة ١٨٤	البقرة ٣٠	البقرة ٥٧	
٨٦١	البقرة ١٨٥	البقرة ١٨٧	النساء ١٢٢	النساء ١٣٤	
٨٦٢	البقرة ١٨٨	البقرة ١٩٥	النساء ١٣٥	النساء ١٤٧	
٨٦٣	تسميع من البقرة ١٥٨ إلى البقرة ١٨٧				
٨٦٤	اختبار في نصف جزء (البقرة من ١٤٢ إلى ١٩٠)				
٨٦٥	اختبار في ما يعادل جزءاً (البقرة من ٨٩ إلى ١٩٠)				
٨٦٦	البقرة ١٩٦	البقرة ١٩٩	النساء ١٤٨	النساء ١٦٢	
٨٦٧	البقرة ٢٠٠	البقرة ٢٠٦	النساء ١٦٣	النساء ١٧٦	
٨٦٨	البقرة٢٠٧	البقرة٢١٣	آل عمران ١	آل عمران١٥	
٨٦٩	البقرة٢١٤	البقرة٢١٧	آل عمران ١٦	آل عمران ٢٩	
٨٧٠	البقرة٢١٨	البقرة٢٢١	آل عمران ٣٠	آل عمران ٤٥	

٨٧١	تسميع من البقرة ١٨٨ إلى البقرة ٢١٧				
٨٧٢	البقرة٢٢٢	البقرة٢٢٨	آل عمران٤٦	آل عمران٦١	
٨٧٣	البقرة٢٢٩	البقرة٢٣١	آل عمران٦٢	آل عمران٧٧	
٨٧٤	البقرة ٢٣٢	البقرة ٢٣٤	آل عمران ٧٨	آل عمران ٩١	
٨٧٥	البقرة٢٣٥	البقرة٢٣٩	آل عمران٩٢	آل عمران١٠٨	
٨٧٦	البقرة ٢٤٠	البقرة ٢٤٦	البقرة ٥٨	البقرة ٧٦	
٨٧٧	تسميع من البقرة ٢١٨ إلى البقرة ٢٣٩				
٨٧٨	اختبار في نصف جزء(البقرة من ١٩١ إلى ٢٤٥)				
٨٧٩	البقرة ٢٤٧	البقرة ٢٤٩	البقرة ٧٧	البقرة ٩٣	
٨٨٠	البقرة ٢٥٠	البقرة ٢٥٣	البقرة ٩٤	البقرة ١١٢	
٨٨١	البقرة ٢٥٤	البقرة ٢٥٧	البقرة ١١٣	البقرة ١٣٤	
٨٨٢	البقرة ٢٥٨	البقرة ٢٦٠	البقرة ١٣٥	البقرة ١٥٣	
٨٨٣	البقرة ٢٦١	البقرة ٢٦٥	البقرة ١٥٤	البقرة ١٧٦	
٨٨٤	تسميع من البقرة ٢٤٠ إلى البقرة ٢٦٠				
٨٨٥	البقرة٢٦٦	البقرة٢٧٠	آل عمران١٠٩	آل عمران١٢١	

٨٨٦	البقرة٢٧٣	البقرة٢٧٤	آل عمران١٢٢	آل عمران١٤٠	
٨٨٧	البقرة٢٧٥	البقرة٢٨٠	آل عمران١٤١	آل عمران١٥٣	
٨٨٨	البقرة٢٨١	البقرة٢٨٣	آل عمران١٥٤	آل عمران١٧٣	
٨٨٩	البقرة٢٨٤	البقرة٢٨٦	آل عمران١٧٤	آل عمران١٩٤	
٨٩٠	تسميع من البقرة ٢٦١ إلى البقرة ٢٨٦				
٨٩١	اختبار في نصف جزء (البقرة من ٢٤٦ إلى نهايتها)				
٨٩٢	اختبار في ما يعادل جزءاً (البقرة من ١٩١ إلى نهايتها)				
٨٩٣	-		آل عمران١٩٥	البقرة ١٦	
٨٩٤	-		البقرة ١٧	البقرة ٣٧	
٨٩٥	-		البقرة ٣٨	البقرة ٥٧	
٨٩٦	-		البقرة ١٧٧	البقرة ١٩٠	
٨٩٧	-		البقرة ١٩١	البقرة ٢١٠	
٨٩٨	-		البقرة ٢١١	البقرة ٢٢٤	
٨٩٩	-		البقرة ٢٢٥	البقرة ٢٣٧	
٩٠٠	-		البقرة ٢٣٨	البقرة ٢٥٢	

٩٠١	-	البقرة ٢٥٣	البقرة ٢٦٤	
٩٠٢	-	البقرة ٢٦٥	البقرة ٢٧٧	
٩٠٣	-	البقرة ٢٧٨	البقرة ٢٨٦	
٩٠٤	-	البقرة ٥٨	البقرة ٧٦	
٩٠٥	-	البقرة ٧٧	البقرة ٩٣	
٩٠٦	-	البقرة ٩٤	البقرة ١١٢	
٩٠٧	-	البقرة ١١٣	البقرة ١٣٤	
٩٠٨	-	البقرة ١٣٥	البقرة ١٥٣	
٩٠٩	-	البقرة ١٥٤	البقرة ١٧٦	
٩١٠	-	البقرة ١٧٧	البقرة ١٩٠	
٩١١	-	البقرة ١٩١	البقرة ٢١٠	
٩١٢	-	البقرة ٢١١	البقرة ٢٢٤	
٩١٣	-	البقرة ٢٢٥	البقرة ٢٣٧	
٩١٤	-	البقرة ٢٣٨	البقرة ٢٥٢	
٩١٥	-	البقرة ٢٥٣	البقرة ٢٦٤	

٩١٦	-	البقرة ٢٦٥	البقرة ٢٧٧	
٩١٧	-	البقرة ٢٧٨	البقرة ٢٨٦	

٩١٨	**يعطى الطالب فرصة لمراجعة الأجزاء الخمسة التي حفظها ويتأهب للاختبار**	
٩١٩		
٩٢٠		
٩٢١		
٩٢٢		
٩٢٣	اختبار شامل في الأجزاء الخمسة(من النساء إلى البقرة)	
٩٢٤	يعطى الطالب فرصة	
٩٢٥	لمراجعة أول عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار	
٩٢٦	يعطى الطالب فرصة	
٩٢٧	لمراجعة أول عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار	
٩٢٨	يعطى الطالب فرصة	
٩٢٩	لمراجعة أول عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار	

٩٣٠	يعطى الطالب فرصة	
٩٣١	لمراجعة أول عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار	
٩٣٢	يعطى الطالب فرصة	
٩٣٣	لمراجعة أول عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار	
٩٣٤	اختبار شامل في الأجزاء العشرة (من الناس إلى العنكبوت)	
٩٣٥	يعطى الطالب فرصة	
٩٣٦	لمراجعة ثاني عشرة أجزاء حفظها	
٩٣٧	ويتأهب للاختبار	
٩٣٨	يعطى الطالب فرصة	
٩٣٩	لمراجعة ثاني عشرة أجزاء حفظها	
٩٤٠	ويتأهب للاختبار	
٩٤١	يعطى الطالب فرصة	
٩٤٢	لمراجعة ثاني عشرة أجزاء حفظها	
٩٤٣	ويتأهب للاختبار	
٩٤٤		

٩٤٥	اختبار شامل في الأجزاء العشرة(من القصص إلى يونس)	
٩٤٦	يعطى الطالب فرصة لمراجعة ثاني عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار يعطى الطالب فرصة لمراجعة ثاني عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار يعطى الطالب فرصة لمراجعة ثاني عشرة أجزاء حفظها ويتأهب للاختبار	
٩٤٧		
٩٤٨		
٩٤٩		
٩٥٠		
٩٥١		
٩٥٢		
٩٥٣		
٩٥٤		
٩٥٥		
٩٥٦	اختبار شامل في الأجزاء العشرة(من التوبة إلى البقرة)	

٩٥٧	يعطى الطالب فرصة	
٩٥٨	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٥٩	يعطى الطالب فرصة	
٩٦٠	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٦١	يعطى الطالب فرصة	
٩٦٢	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٦٣	يعطى الطالب فرصة	
٩٦٤	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٦٥	يعطى الطالب فرصة	
٩٦٦	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٦٧	يعطى الطالب فرصة	
٩٦٨	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٦٩	يعطى الطالب فرصة	
٩٧٠	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٧١		

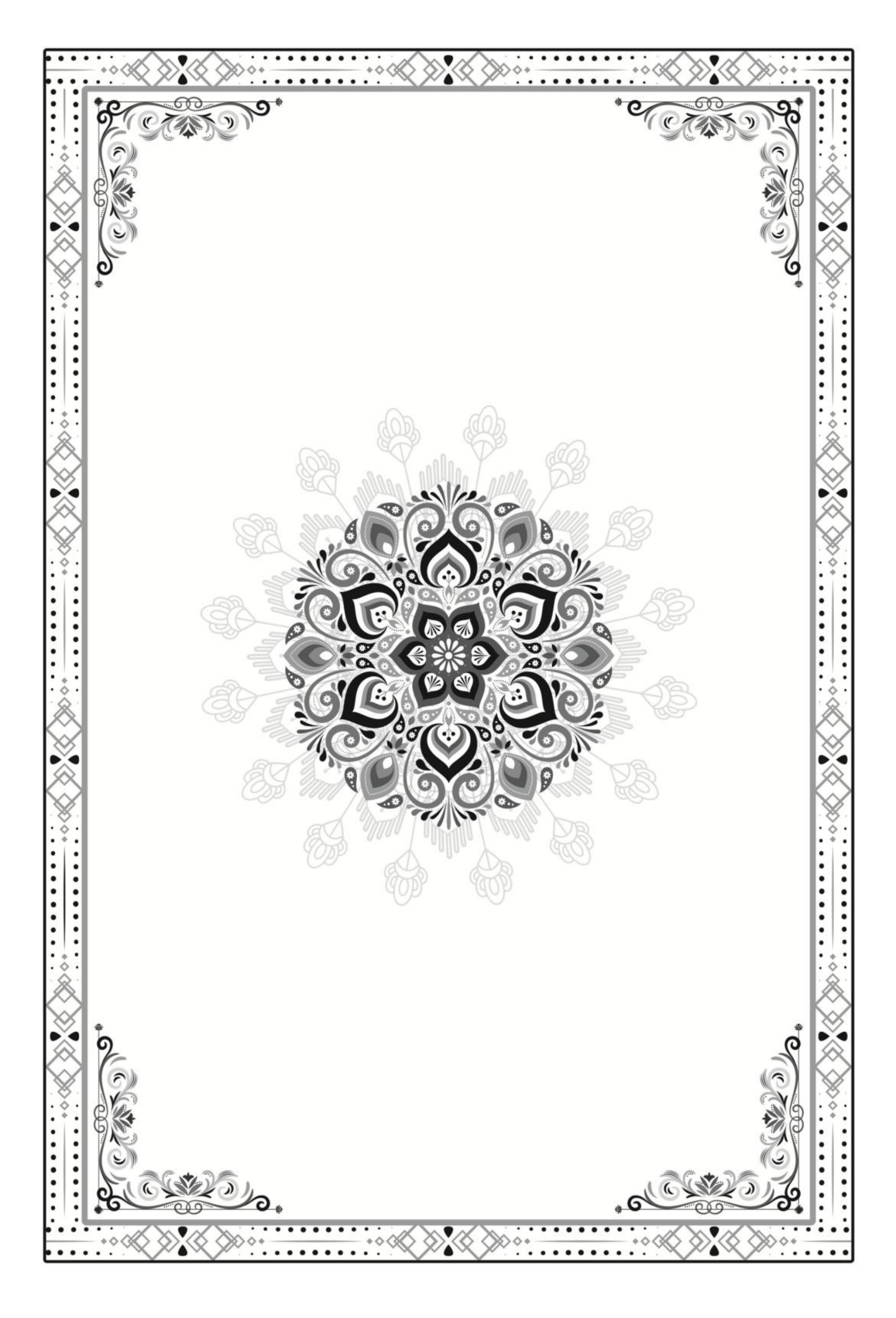
٩٧٢	يعطى الطالب فرصة	
٩٧٣	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٧٤	يعطى الطالب فرصة	
٩٧٥	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٧٦	يعطى الطالب فرصة	
٩٧٧	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٧٨	يعطى الطالب فرصة	
٩٧٩	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٨٠	يعطى الطالب فرصة	
٩٨١	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٨٢	يعطى الطالب فرصة	
٩٨٣	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٨٤	يعطى الطالب فرصة	
٩٨٥	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٨٦		

٩٨٧	يعطى الطالب فرصة	
٩٨٨	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٨٩	يعطى الطالب فرصة	
٩٩٠	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٩١	يعطى الطالب فرصة	
٩٩٢	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٩٣	يعطى الطالب فرصة	
٩٩٤	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٩٥	يعطى الطالب فرصة	
٩٩٦	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٩٧	يعطى الطالب فرصة	
٩٩٨	لمراجعة شاملة لجميع الأجزاء التي حفظها ويتأهب للاختبار النهائي	
٩٩٩		

١٠٠٠	اختبار شامل للقرآن الكريم (من الفاتحة إلى الناس)	
	تم بحمد الله	




معراج

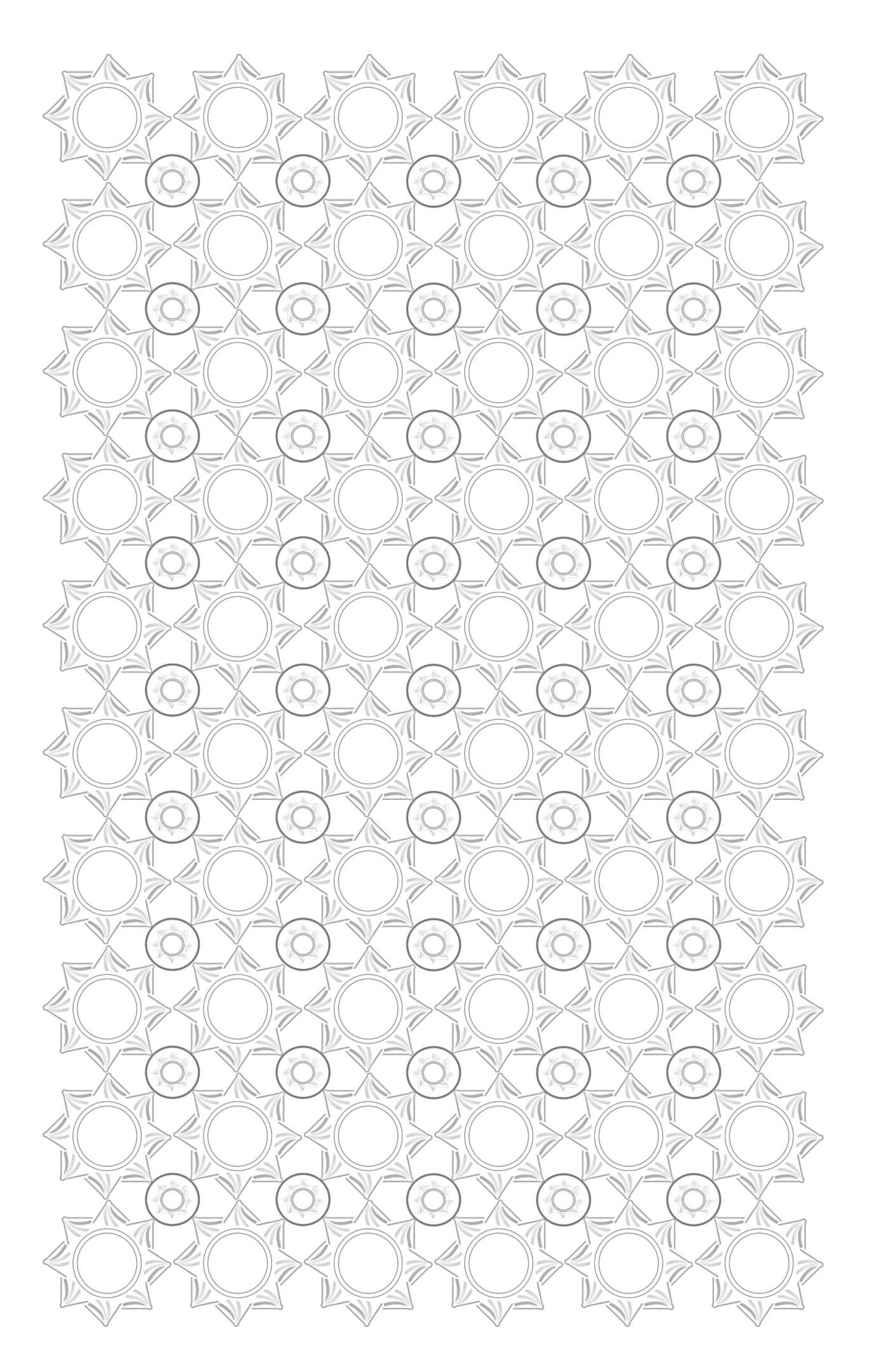




بَعضُ الفوائِدِ والنُّكاتِ العِلميَّةِ

مَواعِظ عِلميَّة منهجيَّة وتربويَّة

لِلارتِقاءِ بمُستوى طَالِب العِلم الشَّرعي



توطئة:

الحمد لله الّذي جعل طلب العلم من أجلّ القربات، وتعبَّدنا به طول الحياة إلى الممات، الحمد لله الّذي أنار قلوب أوليائه، وفاضل بالعلم والإيمان بين خلقه، والصّلاة والسّلام الأتمّان الأكملان على نور الهدى، وسيد المرسلين، وإمام العلماء الرّبانيين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، وبعد؛

فإن من أهم ما يبادر به اللبيب شرخ شبابه، ويدئب نفسه في تحصيله واكتسابه، حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة، وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة، أهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء؛ لعلمهم بمكارم أخلاق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابِه، وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف.

وإن من خير ما يعين على المعرفة والتحلي بآداب العالِم والمتعلم، ما صنَّفه الإمام الرباني؛ أبو زكريا يحيى بن شرف النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مطلع كتابه الفذ «المجموع شرح المهذب» فدون فيه تقدمة مباركة في ما ينْبغي لطالب العلم والعالِم والمفتي والمستفتي أن يسلكوه في حياتهم العلمية، ومعاشاتهم العملية؛ حتى يرتقوا في صفوف العلماء العاملين الربانيين السابِقين؛ فيكونوا والحال هذه، منارة وأسوة ومشاعل علم وعمل، من الحرص على العلم والتأدب بآدابِه وأخلاقه، والتفاني العجيب في الحرص عليه، وبذل الغالي والنَّفيس في تحصيله.

كانوا ونِعم ما كانوا، قدوة صالحة للعلماء والمتعلمين؛ فطابت الدنيا بعبير سيرهم، وشنّفت الأسماع بجميل حكاياتهم.

فأين نحن من مواقف سلفنا في الصبر والتحمل في أحوال طلبة العلم اليوم، إلا من رحم الله.

فإنا قد بِتنا في عصر وإلى الله المشتكى نشكو فيه الضعف المزري في صفوف طلبة العلم وبعدهم عن حسن سمته وهديه والتخلق بأخلاقه وآدابه؛ الذي يسبغه على أهله، كما كان في أزمان سابقة و "لقد تواردت موجبات الشرع على أن التحلي بمحاسن الأدب، ومكارم الأخلاق، والهدى الحسن، والسمت الصالح؛ سمة أهل الإسلام، وأن العلم وهو أثمن درة في تاج الشرع المطهر لا يصل إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن آفاته، ولهذا عناها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إما على وجه العموم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص؛ كآداب حملة القرآن الكريم، وآداب المحدث، وآداب المفتي، وآداب القاضي، وآداب المحتسب، وهكذا، والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلك طريق التعلم الشرعي[(١)].

فجاءت هذه المنتقيات النَّافعة الماتِعة، لتخبر طلبة العلم الحريصين عليه: «أن طالب العلم إذا بذل جهده في الطلب والتحصيل وتحمل

---

(١) حلية طالب العلم للشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ص ١٣٨.

المشاق والمتاعب ، وغالب الصعاب والعقبات، لا يخيب الله مسعاه، ولا يهضم النَّاس حقه، ولا يتخلف عنه التفوق والنُّبوغ، فالنُّبوغَ صبر طويل.

وأما من ترجى الأماني، وصاحب التواني، واستروح الراحة، واستحلى الرفاهية، واستلذ المطاعم، واستجَمل الملابس، واستحب النوم الطويل، وشغلته تقلبات الفصول عن الأخذ والتحصيل، فما أبعد العلم منه، وما أنفره عنه.

فأبصر بصرني الله وإياك الهدى: «أن كثيرا من العلماء الذين ملأ طيب ذكرهم المشارق والمغارب، وأوتوا مواهب ذاتية فذة، وطاقات علمية نادرة، وعبقرية عجيبة مدهشة، قد نمت فيهم هذه الفضائل، وتزايدت هذه المزايا، حينما شعروا أنهم يبذلونها في خدمة الشريعة وأتباعها، ونصرة الإسلام ونشره؛ فغمرهم شعور الرضا، وشرف المقصد والغاية، ورأوا أن ما هم عليه من الفقر والجوع والنَّصب، والتقشف في الملبس والمسكن: جزء من النَّعيم

العاجل، الذي لو علم به الملوك؛ لقاتلوهم عليه بالسيوف، فطابت نفوسهم، وجادت مواهبهم، ورأوا أن الفناء في هذه السبيل هو الطريق الأمثل لرضوان الله، فلله درهم، ولله ما نالوا عاجلا وآجلا [(٢)].

ولتعلم يا رعاك الله أنّي شغفت بالقراءة في كتب أدب الطلب وكان لي بها اعتناء بالغاً منذ زمن بعيد، فقمت بجردها جرد الباحث النّهم المتشوّق للنهل من معينها الصّافي وعذبها النّمير، ولنفاسة ما عاينت مما سطّرته أنامل العلماء وجادت به قرائحهم كنت أدون فرائد فوائدهم مجرّداً لها منتخباً مختصرا، حتى اجتمع لديّ منها سفر كبير في كنّاشتي، فعمدت للجمع بينها مرتبا جيد عقدها مهذّبا لها رجاء بثّها ليعم نفعها، وإنه شقّ علي عزوها لقائليها كونها كتبت في أزمان متباعدة بغرض انتقاء أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر، وإني أحاول جاهداً تنقيحها بسبر تلك الدرر اللّوامع والوقوف على قائليها رجاء عزوها وأرجوا أن

---

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٣٥٧.

يكون قريبا، فليجُد أصحابها عليّ بجود صفحهم وليحسنوا الظنّ بي فهو من شيمهم، فها هي بين يديك أسطر من النقل والعقل الفكر اجتهدت في نظمها لتصبح عقوداً متفرّقة ودرّة مزهرة متلألأة، تتحلّى بها العقول والأفكار، وتكون سلوة للطلاب تستمتع بها الأسماع والأفواه والأبصار، ليست فصولاً ولا أبوابا مترابطة، بل هي أسطر ونكات كل منها يأبى إلّا أن يكون عقداً بنفسه ... أقدّمها أول مرة مطبوعة لإخواني القرّاء الفضلاء، بعد أن عشت معها في الحلّ والترحال، فرأيتني وأنا أعيد قراءتها مرّة تلو مرّة، أسعد بقراءتها؛ فأتفهّم معانيها، وأعتبر بمضامينها، فلذَّتْ لي درسا، وطابت سمعا، وعظُمت وقعا، فبثُّ أثبت فائدة هناك تناسب المقام، أو تعليقاً يوضّح المرام، أو تصويباً يرفع الملام، فجاءت بحمد الله كالصّبابات على وثيق بعض العبارات، تعلوها إشراقات وأيّ إشراقات؛ لحلاوة النّقل، على نفيس الأصل، فالحمد لله أولاً وآخرا، وظاهراً وباطناً.

فليُهنِك العلم يا أُخيَّ بما فيها، فلك غنمها، وعلى أخيك الضّعيف غرمها وضعفها، ولا تبخل عليّ بنصيحة صادقة، ومشورة فائقة، ودعوة في ظهر الغيب رائقة.

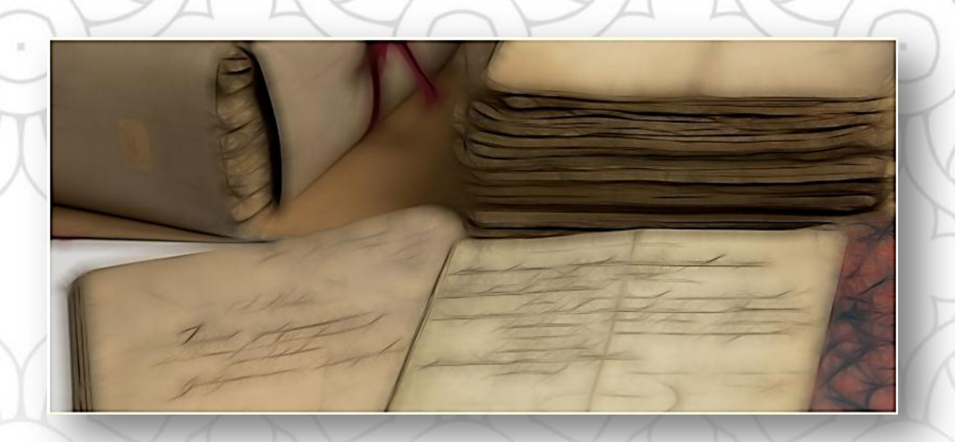
فرضوان الله على تلك الأجساد الّتي بنت لنا هذه الأمجاد، وأشادت بدمها ونور عيونها وشعلة عقولها: ما خضع لفضله وتفوقه كل عدو وصديق.

وبارك الله في شبابنا المتعلّم، وجعل فيه من يخلف أولئك العلماء: علما وعملا وسيرة، ونشرا للعلم، وتأليفا فيه، وذوبانا في تحصيله، ومكَّن لهم نصر كلمة الحق في الأرض؛ لتقربهم العيون، وتستنير بهم العقول، وتستروح بهم القلوب والأرواح، وبذلك فليفرح المؤمنون.

وهذا أوان الشروع في المقصود، وبيان ما يتبع ذلك من مكملات التدرج في مدارج التعلم، مما لا غنية عنه لمن يروم النهل من كتب التراث.

فلعل هذا الجمع النَّافع يأخذ بأيدي العالِمين والمتعلمين، والمفتين والمستفتِين نحو الرشاد والسداد.

فاللهَ أرجو أن أكون قد وفقت في تجلية ذلك، مع حسن العمل فيه، إنه سبحانه خير مسؤول، وهو بكل جميل كفيل، واللهُ يقول الحق وهو يهدي إلى سواء السبيل. والحمد للهِ الذي بنِعمته تتم الصالحات.



بَعْضُ الفَوَائِدِ وَالنُّكَاتِ العِلْمِيَّةِ

مَوَاعِظُ عِلْمِيَّةٌ مَنْهَجِيَّةٌ وَتَرْبَوِيَّةٌ

لِلارْتِقَاءِ بِمُسْتَوَى طَالِبِ العِلْمِ الشَّرْعِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غير خاف عليك يا طالب العلم موضوع هذا الفصل؛ فعنْوانه يخرج لك خبء مكنُونِه، فإن اللهَ تبارك وتعالى جعل لكل مقصد شريف أصولاً ومفاتيح، ورتب على الأخذ بها الوصول لأعلى المراتِب وبلوغ غاية المناصب، ونيل أحسن ما فيه، وحوز أسمى معانيِه.

وإن من أسمى المقاصد الشريفة، وأعلى الرتب المنيفة: العلم النَّافع، ولا سبيل إليه إلا بالسير في مدارج تحصيله، والرقي في معـارج تكميله.

فإنَّ أولى ما يتنافس فيه المتنافسون، وأحرى ما يتسابق في حلبته المتسابقون : العلم الشَّرعيّ فهو الكفيل الضَّامنُ بالسَّعادة البَاطِنَة والظَّاهرة، والدَّليلُ الآمنُ إلى خيري الدُّنيا والآخرة.

للهِ كم رفع العلم أناسا ما حازوا من الدنيا إلا فتاتا من فتات، وكم خفض الجهل أناسا نالوا من الدنيا الحظ الكبير، والرزق الكثير، بيد أنهم حرموا العلم المنير.

وأدلُّ شيء على ذلك، أنَّ اللَّه عَزَّوَجَلَّ قد اختصَّ من خلقه من أحبَّ، فهداهم للإيمان، ثمَّ اختصَّ من سائر المؤمنين من أحبَّ؛ فتفضَّل عليهم فعلَّمهم الكتاب والحكمة، وفقَّههم في الدّين، وعلَّمهم التأويل، وفضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كلِّ زمان وأوان؛ رفعهم بالعلم، وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والحقُّ من الباطل، والضَّارُّ من النَّافع، والحَسَنُ من القبيح.

إنَّه العلم النَّافع والعمل الصَّالح اللَّذان لا سعادة للعبد إلَّا بهما، ولا نجاةَ لهُ إلَّا بسببهما، فمن رُزقهُما فقد فاز وغَنِم، ومن حُرمهما فقد خسر وغَرِم، وهُما مورد انقسام العباد إلى مرحومٍ ومحرومٍ، وبهما يتميَّز البرُّ من الفاجر، والتَّقيُّ من الغَوِيّ، والمؤمن من المنافق، والظالم من المظلوم، وهاك حقاً : " خصلتان لا تجتمعان في منافق : حُسنُ سَمتٍ، ولا فقهٌ في الدِّين " ! [٣].

ناهيك، أنَّ السَّمَاواتِ والأَرضَ ما قامتا إلَّا بالعلم، بل ما بُعثَ الرُّسُل، وما أنزلت الكتب، وما فُضِّل الإسلام على غيره إلَّا به، وفوق ذلك، ما عبد اللَّهُ، ولا عرف الإيمان من الكفر إلَّا به!

فشمِّر يا طالب العلم، سائلاً اللَّه تعالى: الإرادة الصَّادقة، والعلم النَّافع، واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالعلم والإيمان، فإنَّه لا يستطاع العلم براحة الجسد، ولا يُطلبُ بالتَّمَنِّي والتَّحلِّي، وقد قيل: من طلب الراحة ترك الرَّاحة، إنَّها العزيمة الصَّادقة، والهمة العالية، ولا يحزنك فاتر العزيمة، ودعيُّ العِلمِ، فلعلَّك باخعٌ نفسك عليهم أَسَفا؟!

---

(٣) أخرجه التِّرمذي (٢٦٨٤)، وهو صحيح.

فقد رأينا كثيراً من طلاب زماننا قد استطابوا الدَّعة، واستوطؤوا مَركب العجز، وأعفوا أنفسهم من كدِّ النَّظر، وقلوبهم من تعب الفكر ... فلعمري أين منال الدَّرَك بغير سبب، وأين نوال البِغيَةِ بغير آلة؟ فإنَّ دون ما يشتهون خرْطُ القتاد، وبين ما يتمنَّون بَرْكُ الغِمَاد!

فطالب العلم الحقّ هو من يأنس بالبحث في العلم أشدَّ من أنسه بالحديث عن العلم، وكثير من المنتسبين للطلب إنَّما هم طلَّابُ حديث عن العلم لا طلَّاب بحث فيه، ثمَّ إنَّ طلاب العلم ليسوا على شاكلة واحدة من حيث التَّهيُّؤ النفسيّ والاستعداد الذّهنيّ، والنَّظر في المسائل لابدَّ أن يكون مراعياً لذلك، وهذا يجعل لكل طالب شيئاً من الاجتهاد في تحديد وسائل تحصيله، ويصيِّر من النماذج الوسيليَّة السابحة في الفضاء العلميّ مجرَّد مقترحات ونماذج للتحصيل، لأنَّ التَّكوين العلميّ الراشد ليس محتاجاً لإجابات مفصَّلة جاهزة عن سؤال الوسائل، والحوائج العلميَّة لطالب العلم تجدد كلَّما ترقَّى في سُلَّم التَّحصيل، فليست الخطَّة العلمية مما يكتب بمداد الحبر بل إنَّما تتخلَّق بعرق الإنجاز، وعليه فمن الغلط على العلم وعدم النُّصح لطلَّابه كثرة الإتيان بـ(أفعل) التَّفضيل دون سبقها بـ(من) التبعيضيَّة حين الحديث عن مقترحات التَّحصيل

ونماذجه، كحفظ العلم وضبطه، والتَّرقِّي في تحصيله، والتَّلقِّي عن أشياخه العارفين به، ومذاكرة الأقران النَّابهين، واستشراحُ ومدارسةُ المتون والكتب المعتمدة عند أهل كلِّ فن .. هذه ونحوها هي محكمات الوسائل، فإنَّ أشدَّ ما يقطع على طالب العلم طريق تحصيله هو الإيغال في البحث عن إجابة لسؤال الوسائل، فإيَّاك وإيَّاه، وغالبُ من رأيتهم من أشدَّاء طلاب العلم ساروا في طلبهم بلا منهج في التَّرقِّي على نحو ما تحويه الخطط المنهجيَّة التي ازدحمت بها كتب المعاصرين والمواقع الشَّبكيَّة، وإنَّما لم أقل كلَّ من رأيت تخفيفاً للدَّهشة! وليس معنى ذلك أنَّهم ساروا متخبِّطين، لكنَّهم لم يسيروا وفقَ برنامجٍ مُعلَّب مقدَّم من غيرهم، بل نظروا في حقيقة العلم، وعُنُوا بمحكم الوسائل، وعبَّدوا طريق تحصيلهم بما لا يتمانع مع ظروفهم وطباعهم وقدراتهم، دون إغراقٍ في سؤال الوسائل وهدرٍ للزَّمان بالبحث في ذيوله ومتعلَّقاته، أمَّا من صرف زهرة طلبه في ملاحقة سؤال الوسائل، فهو بذلك إنَّما يسير نحو سرابٍ من العلم يظنُّ فيه حياةً لطلبه، حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئا.

ولا شيء يَحفِزُ على طلب العلم بعد ابتغاء مرضاة اللَّه تعالى، وتلمُّح ما أعدَّه اللَّه لأهل العلم وطلبته في الآخرة مثلُ ترويض النَّفس على

حبِّ العلم والرَّغبة فيه، ولا أعون على الإقبال عليه من امتلاء القلب والتياعه شوقاً له، وتحرُّكِ الحواس واضطرابها من فرط الشهوة في طلبه، وكلُّ حركة في العالم فإنَّما يبعثها الحبُّ، فهو أصل كلِّ حركة في العالم، ومع أنَّ هذا شأن الموجودات كلّها، إلَّا أنَّه في العلم أمكن وأعمق أثراً، وذلك أنَّ حبَّ الشيء يُحرّك النَّفس ضرورة إلى العلم به، وكلَّما ازداد حبُّ المرء للشَّيء نزعت نفسه إلى مزيد من العلم به، لأنَّ العلم هو الذي يسوق إلى المحبوب، وهو الذي يُعبِّد الطريق للوصول إليه، أمَّا لو خلا القلب عن حبّ الشيء فلن تقوم بصاحبه الحاجة إلى أن يعلم أوصافه وعلائقه ولا ما يدنيه منه، ولن يشتعل في وجدانه من الشوق ما يحرّكه تجاهه، وإذا كانت النَّفس تقبل على العلم بما تكرهه لتكون على بصرٍ بمفسدته فتسعى بعد ذلك في إتقانه، فإنَّها تكون أعظم إقبالاً على ما تحبِّه ابتغاء مصلحته ولذَّته، لأنَّ انسياق النَّفس إلى مصالحها ولذَّاتها أطوع لطبعها وأسمح لطلبها، ثم إنَّ الرَّغبة في العلم ومحبته فوق كونها حافزة على طلبه، فإنها تكاد تكون شرطاً في تحصيله والتَّحقُّق به، ولن يبلغ الطَّالب من العلم حقائقه وأسراره حتَّى تكون الكلمة الحسناء أشرف عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوَّم أحبَّ إليه من المال

المكوَّم، وأنت حين تقلِّب طرفك في كتب السير والتَّراجم فإنَّك خارج لا محالة بشيء يقرع سمعك أشبه بهاتفٍ ينادي : إنَّك لن تكون عالماً حتَّى يصير العلمُ شهوةً من شهواتك؛ لأن المرء ربَّما كان عالماً وهو لا يجد من لذة العلم وشهوته إلا النَّزر اليسير، وإنَّما حسبه منه المجاهدة والمصابرة على لأوائه في سبيل تحصيل منافعه دون أن يذوق ما يغني من عُسيْلَته، فلن يكون المرء عالماً حتَّى تقوم فيه شهوة العلم، وتكون - زيادة على ذلك - غالبة على شهواته الأخرى، ولذلك؛ فإن جدَّ بك السَّير في طلب العلم ولم تجد للعلم لذَّة تلامس شغاف قلبك وغِلافه فخُذ بوصيَّة الحكيمة أمِّ سفيان، فإنَّها لمَّا بعثت ابنها سفيان ليطلب العلم قالت له: (اذهب، فاطلب العلم حتى أعُولَك بمغزلي هذا، فإذا كتبت عدَّةِ عشرةِ أحاديث فانظر: هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه، وإلا فلا تتعنَّ)، فأخذ سفيان بوصيَّة والدته، ووجد في نفسه زيادة فاتَّبع، فكان بعد ذلك الثَّوريّ[٤] وكما أنَّ حبَّ العلم شرط تحصيله، فكذلك حبُّ متعلقاته ووسائله، ومنها حبُّ كتبه، والتَّهالك على اقتنائها، فحُبُّ العلم متى ما كان صادقاً فإنَّه يسوق ضرورة إلى حبّ متعلَّقاته ووسائله وكلّ ما

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٧ : ٢٦٩).

يتصل به بسبب من الأسباب، فحُبُّ الشيء يوسّع من دائرة السَّعي لتشمل الشيء ومقدماته، فكم في طلب العلم من أنَّات وأوجاع، ولكنَّها عند المحبين أنَّات معسولة وأوجاع معشوقة، يجدون لحرارة طلبه حلاوة، ولمشقة نواله برداً، فعشَّاق العلم مع ما يعالجونه من مشقَّة التحصيل إلا أنهم أعظم شغفاً وعشقاً له من كلّ عاشق بمعشوقه، فإذا ما جدَّ المرء في تحصيل المطالب العالية وترقَّى في طلب كمالاتها فلابدَّ وأن يسوقه ذلك إلى العلم، فهو جوهر المطالب وغايتها. فإنه تبلغ الحال بطلاب العلم أن يستحيل العلم جزءاً لا يتجزَّأ من حواسِّهم بعد أن كانوا يطلبونه بها، ثمَّ إذا كان الطالب المحبُّ منتجاً للعلم باثًّا له صار ما كان منه من قول أو فكر أحبَّ إليه من جميع ما ملكه وحصَّله من نِعَم الدُّنيا وملذَّاتها، فحبّب إلى نفسك العلم حتى تلزمه وتألفه، ويكون هو لهوك ولذَّتك وسلوتك وبُلغتك، واجعل طلبك للعلم تفاعلاً بينك وبينه، بينك وبين أهله، بينك وبين طلَّابه .. لا تقتصر في تحصيله على وسيلة واحدة، بل ازدد من وسائله وذرائعه دون ملل ولا كلل، اقرأ، وتأمَّل، واحفظ، واكتب، ولخّص، واشرح، وحاور، وناظر، وابحث، واستشكل، وانتقد، وما شئت وراء ذلك، فإنَّ ذلك كلَّه مما يُذكي نار حبِّك للعلم، ويجعل بينكما

علاقة حميمة لا تملك معها أن تفارقه، فلا تغادر وسيلة إلا التقيت بأخرى، وما تخرج عن سبيل إلا دخلت في آخر، ولتكن حياتك العلميَّة حافلة بالمنجزات الواصلة بينك وبين مسائل العلم، بذلك يدوم الحبُّ، وتعظم المودَّة، وتنال اللَّذة، ولتجعل طلبك للعلم روحاً سارية في محيطك، مجالسِك، أقرانك .. كن بالعلم، منه وإليه .. إذا وردت مجلساً فليكن لسانك بالعلم ناطقاً، بُثَّ في من حولك بهجة العلم وأذقهم لذَّته، واسع قدر طاقتك للتَّخفف من العلاقات الطاردة لحديث العلم المجافية لمسائله، فإنَّه إذا استحضر الطالب وعورة العلم ومشقة طلبه لم يجد مركباً يبلغ به نهايات غايته إلَّا مركبَ المحبَّة، فالعلم بعيد المسلك غائرُ المطلب، ومتى ما عريَ طالبه عن محبَّته انصرف عنه، ومتى ما تمكَّنت من قلبه محبَّته أقبل عليه أبداً وزاد إليه اشتياقه، ومن ظفر من الطُّلَّاب بهذا الاشتياق كان أحرى بملازمة العلم والمصابرة على تحصيله مهما توعَّرت سبله، فإنَّ العلم باتّساع فنونه وانتشار موضوعاته يفرض على طالبه أن يكون واعي التحصيل بصيرَ التَّلقّي، وكثير من طلاب العلم يملكون الكثير من القدرات والأدوات والأوقات، لكنَّ هذا الكثير يتيه حينما يفقد الطالب ذلك الوعي وتلك البصيرة، فإنَّ فقدانهما مما

يعثّر التحصيل ويعسّره، ومن ذلك الوعي أن يعرض الطالب نفسه على مسالك الطَّلب وملكاته لينظر في حظّه منها، والغفلة عن ذلك تفقده كثيراً مما كان خليقاً به أن يتمثَّله، وقد لا يشعر بذلك، ولا يشعر بفقده ذاك الشعور.

واعلم رعاك اللَّه، أن جمهرة من أهل العلم قد حازوا قصب السَّبق في خدمة هذه الجادَّة العليَّة، ورسم بصائرها لشادي العلم من خلال تواليف علميَّة، ومصنفات مستقلَّة ... غير أنني لما رأيت شأنها بين أهل زماننا في نقصان، ومدارستها في نسيان، وكاد يذهب رسمها، ويعفو أثرها، عندها أحببت أن أرمي بسهم في رياض العلم، مساهمة منّي في رسم معالم الرحلة السنية لطلاب المدارج العليَّة، يوم نادى كثير ممن تجب علينا إجابتهم في إحياء هذه الجادة وتبصير ناراتها ... فعساني آخذٌ بيد من رام إرث الأنبياء إلى باب العلم والشرَّف والسؤدد، بسبيل قريب، ونظر أريب، مما سيقرب الطريق للمبتدي، ويبصِّر السبيل للمنتهي، وما كنت مستنكفاً إيراد تلك المعالم والمدارج العلمية والتوجيهات والتقويمات الدرية التي تقتضيها ممحوض النَّصيحة، وممحوض الأمانة، فإنَّ النَّاس أحوج إلى العلم منهم إلى الطَّعام

والشراب، لاسيَّما هذه الأيام التي نطق فيها الرُّويبضة، ونعق بينها غراب الصَّحافة، مع نفثات المُرجفين، وتخذيل المتعالمين! فعليك يا هذا: بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنَّهم يدلُّوك السبيل، واحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات، فإنهم يضلوك الطريق! ولا تنس قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ " من كان مستنّاً، فليستن بمن قد مات فإنَّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة "!

ومهما يكن، فلا تحزن يا طالب العلم، على ظهور الجهل، وقلَّة العلم، وقبض العلماء، واتخاذ الناس رؤوساً جُهَّالاً فضلوا وأضلوا ... فيا هذا عليك بزاد الأنبياء، وغذاء العقلاء : علم ينفع ، وعمل يُرفع.

وقد جعل الله لك يا طالب العلم مخرجاً، فكن رابع أربعة : عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محبّاً. وأعيذك بالله أن تكن الخامس فتهلك: وهو معاداة أهل العلم، أو بُغضهم!

وهاك من شذات العلم وفضائله، ما قاله معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : " تعلّموا العلم فإنَّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة! لأنَّه

معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والدَّليل على السَّراء والضَّراء، والزين عند الأخلاء، والقرب عند الغرباء.

يرفع اللَّه به أقواماً فيجعلهم في الخلق قداةً يقتدى بهم، وأئمة في الخلق تقتصُّ آثارهم، ويُنتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبهم؛ بأجنحتهم تمسحهم، حتَّى كل رَطب ويابسٍ لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها؛ لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضَّعف.

يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالسة الملوك، والدَّرجات العلى في الدنيا والآخرة، والفكر به يُعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع اللَّه عَزَّوَجَلَّ، وبه يعبد اللَّه عَزَّوَجَلَّ! وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء ".اهـ.

ومن مستجاد ما قيل في فضل أهل العلم، ما خطَّته يد الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه "أخلاق العلماء"، إذ يقول عنهم : " فضلهم عظيم،

وخطرهم جزيل، ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة. هم أفضل من العبَّاد، وأعلى درجة من الزُّهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصرون ....! فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظَّلام أبصروا " اهـ. فإلى الموعود، وإلى للَّه ترجع الأمور، والعاقبة للتَّقوى.

فلأجل هذا؛ أحببت أن أطرق هذه الجادة العلميَة؛ عساني أدلُّ السَّالك، وأحثُّ الهمم إلى طرق باب العلم، دونما إعياء وكلالٍ، وطول وملال، قد لا يُحصِّلُ شادي العلم فيه كبير فائدة، أو عظيم عائدة، أو غيره من مباغي العلم ومناراته؛ مما ندَّت عنه أكثر أطاريح أهل زماننا؛

لجهلهم بطرائق الطلب ومدارجه الآخذة برقاب العلم؛ فنًّا بعد فن، وباباً قبل باب، وهكذا دواليك ممَّا هو طوع يديك؛ فإننا لم نزل (للأسف!)، نرى كثيراً من أهل زماننا ممن تصدَّر للعلم والتعليم؛ لا يستأخرون ساعة في تعسير العلم على المبتدئين، وتنفير المقبلين عليه، وذلك بتفريع أصوله، وتشقيق فروعه، ما يقضي بقطع الطريق على طالب العلم، وحرمان الكثير من دروس العلم. فتارة نجدهم يتوسَّعون لهم في المختصرات، وتارة يتكلفون لهم في الكلمات، فلكم الله يا طلاب العلم من زَبَد المدرسين، وسوالب المتفيقهين!

فلا يضيق صدرك يا طالب العلم بما هنا؛ فكل ما رسمته لك في تلك المعالم، لم يكن زبداً يقذفه طيش الفكر، أو رذاذات يلفظها رأس القلم ... بل إنها معالم سَلَفيَّة، وتجارب علميَّة، قد فرضتها الأمانة العلميَّة والنَّصيحة الأخويَّة! فإنَّه لا يهتز للعلم إلا نفوس أبية، قد ارتاضت على الأنفة والعزة، وعلو الهمة والقدر، وأنفت من معرة الجهل، ومراتع الذلّ والهوان، وسئمت تيه الحيرة والتَّبعيَّة المقيتة!

هناك بعض الطلائع العلميَّة، نسوقها بين يدي كل من رام السعي حثيثاً وراء مدارج تلقي العلم، وحسبك أنها مقدمات وتنابيه سابقة،

وبصائر سائقة للطالب قبل الشروع بجادته السوية للأخذ بتلك المسالك التوضيحية.

لذا؛ يستحسن بطالب العلم أن يعيرها اهتماماً، وأن يجعلها لرحلته وجادته إماماً، كل ذلك كي يسهل عليه السير، ويقرب منه الخير، والله من وراء القصد!.

وهذه تسلية لطالب العلم ممن قلَّ في أرضه أو بلدته: أهل العلم الكبار، أو تغيبت مجالس العلم بينهم، أن يتذكر والحالة هذه أن علم السلف كان: بقلب عقول، ولسان سؤول!.

أوصيك يا وريث الأنبياء أن تلزم الجادة في الاستقامة على منهج السلف عقيدة ومنهجاً، وأن تأخذ بآداب الطلب، وسنن العلم والحلم، وخفض الجناح، ودماثة الأخلاق، وأن تتدثر بثياب التواضع، وسمة أهل العلم، فذلك المتناهي في الفضل، العالي في ذرى المجد، الحاوي في قصب السبق، الفائز بخير الدارين، إن شاء الله.

كما أوصيك أن ترفع يا طالب العلم رأساً بعمل ما علمت، وأن تصبر على الدعوة إلى الله تعالى، إذ الصبر شرط في نيل كل عزيز وغال، فلا

يراك اللَّه يا طالب العلم إلَّا: متعلماً أو عاملاً، مجاهداً أو مجتهداً، فإنَّ السلف مجمعون على أنَّ العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًّا، حتَّى يعرف الحقَّ، ويعمل به، ويعلّمه، فمن علم وعمل وعلَّم؛ فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السَّماوات، وأعيذك بالله يا طالب العلم من علم المنافق!، وقد قيل : " علم المنافق في قوله، وعلم المؤمن في عمله".

واعلم أنَّ العلم نصفان :

نصف: ما حوته قماطر العلم؛ ابتداء بالوحيين (الكتاب والسنَّة) وما تخرَّج منهما، أو حام حولهما، وانتهاء بما تضمَّنته تلك الشذرات من تنابيه وعزائم ... إلخ.

ونصف: هو قولك لما لا تدري : لا أعلم، ولا أدري!، فقد اتفقت كلمة أهل العلم أنَّ العالم إذا أخطأ: (لا أدري) فقد أصيبت مقاتله! فحذارَ حذارَ يا طالب العلم من تنكب سنن أهل العلم السَّالفين فيما لا علم لك فيه، بأن تقول: لا أدري، فما أبردها اليوم على الكبد، وما أحرَّها يوم المردّ! فإن كان العلم بـ(لا أدري) نصف العلم، فهي واللَّه الجهل كُلُّه إذا جُهلت! .

كما أوصي نفسي وإيَّاك يا طالب العلم؛ بألا تنس نصيبك العلميّ، وزادك الإيمانيّ من قراءة وجرد كتب أئمة السَّلف؛ فهي واللَّه السَّمعُ والبصر، فهي قبلة العلم النَّافع، والعمل الصالح ... فحرام على شادي العلم أن يتبصر علماً دونها، وأن يتسنَّن عملاً غيرها! ومن قبل ومن بعد؛ فعليك يا طالب العلم باقتناء وقراءة جميع كتب الربَّانيين أهل السنة والجماعة، اصبر نفسك عليها، ولا تعد عيناك عنها، فمنها المبتدى وإليها المنتهى بعد الكتاب والسنة، وكتب سلف الأمة المحققين، كما أوصي طالب العلم المبتدي والمنتهي على حد سواء؛ بأن يكون لك (ورد علمي) في كل سنة أو سنتين على أقل تقدير وأضعف حال، وذلك بدوام النَّظر والقراءة لبعض الكتب العلميَّة التي لا يسع طالب العلم أن يجهلها أو يتجاهلها، لا سيما ممن تصدر للفتوى والتعليم، ورام التأليف والتحقيق ....!.

كما أوصي عامة المسلمين من غير طلاب العلم الشرعي ممن لا يعلمون كثيراً من معالم وحقائق الدين بأن يأخذوا الكتاب بقوة وينهلوا من معين دينهم الصافي، وما ذاك إلا أن أعداء الدين لم يزالوا ينفثون سموم أفكارهم، ويبسطون ألسنتهم في عقيدة وأخلاق المسلمين من قبل

ومن بعد، لا سيما أننا نعيش أيَّاماً حالكة مهلكة؛ حيث ظهر فيها الجهل، وقل العلم، وندَّ الحق، وعلا الباطل، وكثر الخبث...! لأجل هذا وغيره؛ فقد حقَّت النصيحة الإيمانية بأن تشمل العامَّة من المسلمين يستعينوا بها على فهم الدين، وتكون لهم حصناً منيعاً من عادية الأفكار المشبوهة، والثقافات الدخيلة السائمة في قنوات الإعلام هنا وهناك.

ومهما يكن؛ فهذه شذرات سلفية تنبؤك بما وراءها، فخذها بقوة، واشدد عليها المئزر؛ فإنَّ مثلها تعقد عليها الأنامل، والله حسبي وهو نعم الوكيل!

إن إدراك العلوم والإحاطة بمقاصدها قائم على حسن ترتيبها، وبديع نظامها، وإن معرفة الترتيب من أظهر الأعوان على درك مضمون العلوم القطعية، فإنَّ طالب العلم في قراءته وحفظه وغشيانه مجالس العلم أوَّل طلبه يطلب تحصيل مادَّة العلم، تصوّرا وتصديقاً، فهو في كلّ علم يسعى ابتداءً في تلقُّف موادِّه وتحصيل مسائله ودلائله .. هذه مرحلة أولى في طلب العلم، ولهذه المرحلة ملكات إذا حصَّلها وراض نفسه بها كانت أرض بنائه العلمي صلبة لا تزيلها عن صلابتها عوادي الأيَّام، ومن أخصّها: قوَّة الحفظ، وحسن الفهم، وسرعة التَّصور وسلامته، تعقبها

مرحلة يُعنى فيها بدرس ما جمعه، ثم ينطلق إلى ما وراء ذاك المجموع ملاحقاً بقيَّة المسائل والدَّلائل بحاسَّة متجددة تجمع وتُقوّم وتستثمر ، وها هنا ملكات تتخلَّق وتنمو متى ما التفتَ إليها الطالب وجدَّ في تحصيلها ورعايتها .. من أخصّها: التَّحليل، والتَّركيب، والمقارنة، والتَّقويم، ثم تأتي من بعد ذلك مرحلة الإنتاج بملكاتها من حسن الإبانة عن العلم، وجَودة تصويره، وفقه تعليمه، وإتقان كتابته وتدوينه، وليس من لازم هذا التوزيع لهذه الملكات أن تستقلّ كلُّ مرحلة بملكاتها، فلا يخلو الطَّالب في مبتدأ طلبه من تحليل ومقارنة وتقويم، كما لا يخلو في المراحل اللَّاحقة من حفظ وفهم وتصوُّر، لكنَّ القصدَ من هذا التَّمييز الإشارة إلى أنَّ كمَّ ذلك وكيفه يختلف باختلاف ظروف الطالب العلميَّة، فمن جهة الكمّ يكون في أوَّل أمره أكثر عناية بالجمع منه على أن يكون دارساً مستشكلاً، ومن جهة الكيف فليس الجمع في أوَّل التحصيل كالجمع في آخره، حيث يكون الجمع موجَّهاً، لا سيَّما إن كان الطالب قد توفَّر على علم من العلوم وأراد التَّخصص فيه، فلا يكاد يحفل من المسائل إلا بما تعلَّق بتخصصه، وإذاً، فهذا الفصل بين المراحل تجريديّ يراد به تصوُّر وظيفة كل منها، لا أن تكون كلُّ

مرحلة ناسخة لملكات ما قبلها، ولا أن تكون السابقة عريّة عن ما بعدها، فإنَّ هذا من شأن الأجسام لا العقول، فإنَّ واردات العقول تتكامل، وطوارىء الأجسام تتزاحم، فإذا قبل الجسم صورة وشكلاً كالتربيع مثلاً فليس بإمكانه قبولُ شكل آخر من تدوير وتثليث حتَّى يفارقَ شكله الأوَّل، وليس كذلك العقل، ففي كلّ مرحلة تحصيليَّة تزداد صورة العلم في عقل الطَّالب، قوَّة وتمكُّناً، وتتنامى ملكاته ولا تتبدَّل، ولذلك كانت كل مرحلة علميَّة تُمدُّ ما بعدها من مراحل، وليست كذلك الأجسام فإنَّها تطرد غيرها وتنسخ ما قبلها، والقصد مما تقدَّم أن يمتحن الطالب مسيرته بما حصَّله من ملكات العلم وصناعاته، لا أن يسير في طلبه على غير هدى، فليست الغاية أن يكون سالكاً فحسب، لكن في أن يبلغ بقدمَي تحصيله ذُرى التحقيق العلمي والنبوغ المعرفيّ، فإنَّه إذا فَقِهَ الطَّالب تلك المدارات العامَّة لمراحل التَّحصيل، وأدرك تشعُّب العلم واتساع آماده، فإنَّ عليه أن يوطّىء أكناف عزمه وهمّه لتقحُّم عقباته، ويأخذ من المجاهدة والمصابرة بحظّ وافرٍ، فإن المسيرة العلميَّة حافلة بالمشاق، مُترَعَةً بالهموم، ولا تأتي على طالب العلم مرحلة إلا والتي بعدها أشقّ منها، وقلّ ما تراه يخلِّف عقبةً من البلاء

إلا صار في أخرى، فحتَّى ولو كان معتدل المسير في ابتداء طلبه إلا أنَّ أواخر الأمور لا تبقى على وفق طلب أوائلها، بل تنسلُّ عن الضبط، وهذا مع ما يلحقه من همّ يملأ قلبه ويعنِّي عقله إلا أنَّه أمارة تقدُّم علميّ، فكلَّما اشتدَّ عود الهموم العلميَّة بطالب العلم كان ذلك دالّاً على صدق طلبه، وعوناً له على الإيغال في تحصيله، ولو يعلم طلاب العلم ما في الهموم العلميَّة والمشاقّ المعرفيَّة ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليها لاستهموا، ولأتوها ولو حبواً، ولضجَّت قلوبهم إلى الله تعالى أن يكرمهم بالمزيد منها، فالهموم مقدماتٌ - في أحيان كثيرة - لنعم مخبوءة، وكلَّما تضاءل الهمُّ واضمحلَّ فترت عزائم الطلبة، وكلَّت سواعد عقولهم، ونضبت مياه أمانيهم، وإذا انطوى فؤاد الطَّالب على ذلك وامتلأ به يقينه فليعلم أنَّ جمع الهمّ على العلم وتجريده له مقدمة التحصيل وخاتمته، ولا شيء يُنالُ – طال الفكر فيه أو قصر – إلا بتجريد الفكر في جهة الطلب.

والعلم عزيز، ومن عزته نفرته من الهموم المشاركة، ولا سيما هموم الدنيا وسطوة الأحداث المحيطة، وكلَّما كان الطالب أملك لهمِّه كان أحظى بالنُّبوغ في علمه، فلابدّ له من حيازة همه وجمع خاطره، فإنَّ

رأس ماله جمع الخاطر، وإجمام القلب، واستعمال الفكر، ومن هنا ففلاح طالب العلم مرهون بمدى استطاعته على تقليص هموم دنياه والتقليل من نفوذ محيطه عليه، وحين يطالع السير والتراجم بحثاً عن أحوال العلماء للاقتداء بنهجهم فلا يقف بصرُه عند حدود الأوصاف المثبتة بالحروف، بل ليتعد إلى ما وراء ذلك، إلى انصرافهم عن الهموم المتشاكسة، والنَّأي بأنفسهم عن الاستغراق في الأحداث المحيطة، فقد كانت بين أئمة العلم والهموم الدنيوية والأحداث المحيطة بهم مسافة فاصلة، تُطوى حيناً وتُمدُّ أحيانا، وما حصَّلوا تلك المسافة إلا لأنهم يملكون ذواتهم، وبذلك نالوا من العلم ما نالوا.

لا يتحدّث الطالب عن رَهَق هذا الزمان، وتزاحم همومه، وتواتر مشغلاته، واضطراب أحواله، لكن لِينظر في مسافاته، فالأحداث الآن كهي في الزّمان الغابر، لكنَّ المسافات ليست كالمسافات! فجمع الهمّ إذا هو الخلاص لطالب العلم من مطرقة تشعّب العلم وسندان الأحداث المحيطة، وهو الشّرط الّذي بتخلّفه تنحلُّ عُرى التّحيل العلميّ.

ومن أشدّ موانع الهمّ من الانجماع والعلم من الاجتماع: تقطيع التّحصيل وتعثّره، فالعلم يحتاج من طالبه مواظبة ليرتاض به، بذلك

يجمع همه، ويثبت علمه، وتُضبط معارفه .. فمن ثبت نبت، وإلا فما أسرع علمه إلى الأفول ونبته إلى الحطام! ولاتقاء ذلك فعلى طالب العلم أن يعتاد العلم ويديم النَّظر فيه ويألف ملابسته، أيّاً كان نوع الملابسة، تعلّماً وتعليماً، قراءة وحفظاً، سماعاً وحضوراً، وبقدر اتصال الطالب بالعلم وارتباطه بمصادره تدنو منه مسائله، وتتهادى إليه حقائقه، ويكون حضورها في ذهنه أبقى، لمواظبته عليها وارتياضه بها، فكلّما كان الطالب أكثر مراساً للعلم وأشدّ معالجة له كان أمكن فيه وأحذق له ممن لم يبلغ رتبته من المعالجة، وهذا شأن المعارف كلّها، فإن للمختصّ بها المعالج لها من الإحاطة بلبّها وأطرافها ما ليس لغيره، ولو كان هذا الغير أعظم استعداداً وأرجح أهليّة، ثم إن اتصال الطالب بالعلم هو القيد الذي يحفظ به علومه متى ما شدّ قيده برباط الاعتياد، فالملازمة سبيل الاعتياد، والاعتياد قيد المحفوظات النَّادّة والمعلومات الهاربة، ومن فقه منزلة الاعتياد وارتاض بها لا يلبث حتّى يصير يطلب الاعتياد ذاته، ولو لم ينل منه تحصيلا.

وكما أنّ تقطُّع التحصيل يمنع الهمّ من الانجماع فكذا تنقُّلُه، فإنَّ تنقُّل التحصيل من كتاب لآخر قبل استتمام الأول - إن لم يكن باعثه

إلّا الملل وإخوانَه - يشتت الهمّ ويشرّد العلم، وكذا القول في التنقُّل بين المعلّمين والفنون والرسائل.

ها هنا تقنيات يستعين بها الطالب على جمع الهم، وهي وُصلةٌ له إلى أن يكون كلُّ همّه موقوفاً على العلم، منجمِعاً عليه، فإنّ من طبائع الأشياء - ولا سيّما ما تعلّق منها بالعلم وتحصيله - أن لا تأتي دفعة واحدة، بل حتّى تساعف بها الأيام، وتتآزر على تكوينها التّجارب المتعاقبة، منها

التَّركيز على الإنجاز اليومي بقطع النَّظر عن نهايات المشاريع، ومُنجَزُ طالب العلم حينئذ يكون بما حصَّله في يومه، وأيُّ تفريط واقع في أيّ يوم فهو معدود من العثرات الّتي لا تجبر، وهذا التركيز يُضُرُّ به ويشوش عليه كثرةُ انتقال بَصَر الطالب إلى مستقبل أيامه، لا سيَّما المشاريع الّتي تمتد شهوراً أو أعواماً، فإذا ما جعل مقياس مُنجزه العلميّ راتباً يوميّاً، كان في ذلك عونٌ له على حفز عزيمته وجمع همّه كلّ يوم، وهكذا حتّى يرتاض بذلك، ويكون مؤهلاً من بعد لإدارة مشاريعه العلميّة الكبرى، فإنّ رأس مال الإنجاز هو الجد والمصابرة والإنجاز المنتظم.

ومن تلك التقنيات: الانقطاع المرحليّ إلى مشروع علميّ متكامل يحقّق به طالب العلم قفزةً معرفيَّةً في أحد مجالات العلم والمعرفة، وإنّ من الفاضل لطالب العلم أن يدسّ في أعطاف مشاريعه العلميّة بين زمن وآخر قفزة معرفيّة ذات مبدأ ومنتهىً يحقّقُ بها مُنجزاً معرفيّاً مكتمل الأركان، أيّا ما كانت ماهيَّة تلك القفزات، قراءةً أو حفظاً أو تأليفاً أو تعليماً، وخاصَّةُ هذه القفزات أنها تجعل موقعَ المشروع من ذهنيّة طالب العلم ذا حظوة، لتماسكه بسبب قرب إنجازه واتّضاح حدوده، وهي كذلك تروّضه تدريجيّاً على الانقطاع للعلم وجمع الهمّ عليه، وقد درج كثير من أعلام المعرفة على ذلك، وجعلوا للقفزات المعرفيّة موقعاً في خارطة تحصيلهم، فنالوا بانقطاعهم لها مكتسبات جليلة.

قال أبو هلال العسكري: "اجتهد في تحصيل العلم ليالي قلائل، ثمَّ تذوَّق حلاوة الكرامة مُدَّة عمرك، وتمتَّع بلذَّة الشَّرف فيه بقيَّة أيَّامك، واستبْق لنفسك الذّكر به بعد وفاتك".

لتكن وصيَّة أبي هلالٍ هذه نصب عينيْ مُريد القفزات، ثمَّ ليعلم أنَّ للقفزات فقهاً ينبغي عليه مراعاته لتؤتي قفزته ثمرتها .. وفقهها مجسَّدٌ في ثلاثة أمور:

الأوّل: لتكن في قفزة محدودَ المصادر، ولا تشتّت قفزتك بكثرة منافذ المطالعة، فالانقطاع المرحلي بحاجة إلى مزيد تركيزٍ وتكثيفٍ للنّظر في مساحات محدودة.

الثّاني: أعدَّ مُتَّكأً القفزة بعناية، أبلِغ في ترتيبه وتطييبه، خلّصه من مكدّرات العصر، وسائل التّواصل الاجتماعي، افعل كلَّ ما يعينك على إنجاز مشروعك، ولو كلّفك الكثير، ولا تكن شحيحا، فالاقتصاد الصحيح أن تنفق في ما تحتاج إليه كلّ مبلغ مهما يكن كبيرا، وإيّاك أن تشتري شيئاً لا تحتاج إليه مهما يكن متدنّيا.

الثّالث: لتكن أيّام قفزتك كالشركاء المتشاكسين، يقايض بعضُها بعضاً .. لا تُجر بينها عقود تبرُّع، ولك في أجزاء يومك مندوحة عن بسط اليد السفلى لبقيّة الأيام .. إذا فاتك نصيب الفجر فأدّه الظهر، أو نصيب العصر فأدّه المغرب، ولا تؤجّل، فإنّما سيلُ العثرات اجتماع نقط التّأجيل.

إنَّ من شغل أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل لابُدَّ أن يفطم نفسَه عن بعض شهواتها، ويحبسها عن الأمور الّتي يشتغل بها أترابه

ومعارفه من الملاهي ومجالس الرَّاحة وشهوات الشَّباب، فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلك اللَّذَّات والخلاعات وجد في نفسه بحكم الشَّباب وحداثة السّنّ وميل الطَّبع إلى ما هناك مرارة، واحتاج إلى مجاهدة يردُّ بها جامح طبعه ومتفلّت هواه ومتوثّب نشاطه، ولا يتمُّ له ذلك إلا بإلجام شهوته بلجام الصّبر ورباطها بمربط العفّة.

وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس من كان في زاوية من زوايا المساجد ومقصورة من مقاصر المدارس، لا ينظر إلا في دفتر، ولا يتكلم إلا في فن من الفنون، ولا يتحدّث إلّا إلى عالم أو متعلّم، وأترابه ومعارفه من قرابته وجيرانه وذوي سنه وأهل نشأته وبلده يتقلّبون في رافه العيش ورائق القصف، وإذا انضم لذلك الطالب إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النّفس عن شهواتها مرارة أخرى هي إعواز الحال وضيق المكسب وحقارة الدخل فإنّه لابدّ أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه، لكنّه يذهب عنه قليلا قليلا، فأول عقدة تنحلّ عنه من عُقد هذه المرارة عندما يتصور ما يؤول به الأمر وينتهي إليه حالُه من الوصول إلى ما قد وصل إليه من يجده في عصره من العلماء، ثمّ تنحلّ عنه العقدة الثّانية بفهم المباحث وحفظ المسائل

وإدراك الدّقائق، فإنّه عند ذلك يجد من اللَّذَّة والحلاوة ما يذهب بكل مرارة، ثمّ إذا نال من المعارف حظّا وأحرز منها نصيباً ودخل في عداد أهل العلم كان متقلّبا في اللَّذَّات النَّفسانيّة الّتي هي اللَّذَّات بالحقيقة، ولا يعدم عند ذلك من اللّذَّات الجسمانيّة ما هو أفضل وأحلى من اللّذّات الّتي يتقلّب فيها كلّ من كان من أترابه، وهو إذا وازن بين نفسه الشَّريفة وبين فرد من معارفه الّذين لم يشتغلوا بما اشتغل به اغتبط بنفسه غاية الاغتباط، ووجد من السرور والحبور ما لا يقادَرُ قدره.

يفتقد طالب العلم في هذا الزَّمان ذلك المحيط الطّاهر، يوم أن كان يدرُجُ إلى مكتبته، يقرأ ويحفظ ويكتب دون أن يعلم به أحد، دون أن يغرّد بفائدة من هذا الكّاب أو ذاك، دون أن يصوّر صفحات مما بين يديه من الكتب ليزج بها في أحد مجموعات المحادثة الواتسابية أو القنوات التلجرامية، دون أن يشتغل قلبه بالتفكير في طرق إعادة إنتاج ما يحصّله عبر برامج التّواصل الحديثة .. كانت تلك اللّحظات من أشدّ لحظات تحصيله طهراً وصفاءً، كانت النّيّة أحسن تجرداً، والهمّة أكثر صدقاً، والهمُّ أمكن انجماعاً، والعزيمة أكثر نفوذاً، كان الوقتُ خالصاً للطلب والتّحصيل، خالصاً لمتين العلم، قبل أن تكدّر صفاءه برامج التّواصل ..

والآن، فقد اضطرَّه الأمر إلى أن يكون كلُّ شيء مكدّرا لا صفاء فيه، شائعا لا خصوصية فيه، أو هكذا أحبّ له أن يكون.

كان الخروج جامع المعوقات عن التحصيل، فإذا أغلق الطالب دونه باب مكتبته تخلّص بذلك من كلّ العوائق .. والآن، فقد أصبحت حياته كلُّها خروجاً، ولو كان في جوف كتابه، ولا يؤرقني شيء حين أُجري خاطري مع هذا الموضوع كما يؤرقني التّأمُّل في المآلات، ورمي البصر إلى عواقب الأمور، ولطالما تذكرت قول عروة بن الزبير:" إنّا كنّا أصاغر قوم، ثمّ نحن اليوم أكابرُ، وإنّكم اليوم أصاغرُ قومٍ، وستكونون كباراً، فتعلّموا العلمَ تسودوا به قومكم، ويحتاجون إليكم"، أدْرَكَ عروة ذلك، فجمع همّه وتوفّر على العلم حتّى بلغ الإمامة فيه، لكنّ طالب العلم إن ظلّ على ما هو عليه من هذا الجَري مع ما يصرفه عن مشروعه فلن تفترق حاله في كبر ولا صغر، ولن يبلغ من علم الشّريعة مبلغاً يبلغ التّحقيق فيه، ويحتاجه النّاس.

إنَّ ضبط مختصر في فنّ ما فهماً وحفظاً أساسٌ لا يستغني عنه مَن أراد إحكام مسائل ذلك الفنّ، وطالب العلم الذي يَدخُل أو يُدخَل في

المطولات والتَّفاريع قبل ضبط مختصرٍ لن يتأتَّى له الفهم على وجهٍ صحيح، ومن أضاع أوائل الأمور أضاع أواخرَها، كما قال الأوَّل:

إذا ضيَّعت أوَّل كلِّ أمرٍ أَبَت أعْجازُه إلا التواءا

فليت مدارسنا وجامعاتنا وسائر مؤسَّساتنا التَّعليميَّة تتنبَّه إلى ما آل إليه الأمرُ في التَّعليم من البعثرة والشَّتات جرَّاء هذه المناهج المتَّبعة في طريقة التَّعليم فيها، فتعيد النَّظر بدراسات جادَّة مبنيَّة على طريق العلماء في الاعتماد على المتون المُحكَّمة قبل الدخول في المُطوَّلات، وعلى الفهم والحفظ معاً لإحكام كلّ فنّ قبل التَّصدُّر للتدريس والفتوى، وإلَّا فالاستخفافُ والاستهانة والتَّعالي والجراءة على الفتوى بلا علمٍ أوَّلُ ما تَجنيه هذه المؤسَّساتُ من الدارسين فيها.

إنَّ العلم الشَّرعي، لا يكون شرعيًّا مقبولاً إلَّا إذا خلُص من العوائق والعلائق، وسَلِمَ من الدَّسائس والحوائل، فعند ذلك؛ فليعلم الجميع : بأنَّ العلم الشرعي له عوائق كثيرة تقطع السَّير على طالب العلم، وتفسد عليه الطلب، والقصد، كما أنَّها محبطة لصالح الأعمال، ومجلبة للحرمان والخسران؛ ومن أحاطت به فقد أوبقت دينه ودنياه؛ فنعوذ

بالله من علم لا ينفع، ومن عمل لا يرفع، ومهما قيل؛ فإنَّ العوائق كثيرة لا تنتهي إلى حدّ ولا عدّ، فإن سألت عن جامع الغوائل وأصلها، فهما أمران (مُرَّان)، ما ابتلي بهما أحد إلا هُتك ستره، وافتضح أمره، ورقَّ دينه، وحرم خيرُه، نعوذ باللَّه من كل السوء!

الأول: حبُّ الدُّنيا، فهو بيت الدَّاء، وناموس السِّفلة والرعاع، ومبلغ رأس علم الخالفين، وسوق المتعالين، فعياذاً باللَّه منها! فيا طالب العلم؛ الحذر الحذر من حبِّ الدنيا، فإنه إذا جر الطبيب الدَّاء إلى نفسه فكيف يداوي غيره؟!

فإنك إن طلبت العلم على وجهه فإنَّ طلب العلم يدلك على الهرب من الدنيا، لا على حبها، أما أهل زماننا فشيٌ آخر، فقد فتنتهم الدنيا بقصورها ومراكبها وهم حتَّى ساعتي هذه ما بين غفلة أو تغافل، وجهل أو تجاهل بالفتن العاصفة بالعباد والبلاد فإلى اللَّه المشتكى، وعليه التكلان!.

والثَّاني: الدخول على السَّلاطين وأهل الدنيا، وهما عائقان مهلكان، فهذا الثاني الموت الأسود، والحور بعد الكور، إلا من سلمه الله،

وقليل ما هم، فعياذاً باللَّه منه! فيا طالب العلم، الحذر الحذر من الدخول على السلاطين، وأهل الدنيا! ومهما يكن، فلا تذهب نفسك يا طالب العلم عليهم حسرات، فإنه لما مات شيخ الإسلام وقدوة العلماء سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، قال بعض العلماء : " معشر أهل الهوى كلوا الدنيا بالدين، فقد مات سفيان! " [٥] ، يعني : ما بقي بعده أحد يستحيا منه !، قلت : فإن لم يكن سفيان، فاللَّه أحق أن يستحي منه! ولا يهولنَّك يا طالب العلم ما هنالك من نوابت نكدة لم تزل تسعى جاهدة في إحياء مخالفة مسالك علماء السلف الصالح في الدخول على السلاطين والأمراء، وذلك بدفع طلاب العلم إلى مراتع الشَّهوات، ومهالك الشبهات، ليهيموا في وادي تُضُلِّلٍ، مما قد تعصف بما بقي من عزة أهل العلم! وذلك من خلال دعوات عريضة مريضة!، وتصانيف بتراء داعية مضامينها وعناوينها إلى الدخول على الأمراء والسلاطين، ولو بشرط : الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر!، فاحذر يا طالب العلم، وانج بعلمك، وفر بدينك فإنه رأس مالك، واعلم إن هذا الشرط كان عند

---

(٥) انظر شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم لابن رجب، (١/٥٥).

السلف عزيزاً عسيراً، أمَّا اليوم فأدعياء الشرط كثير، والعاملون به نزر يسير، لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة!

وما ذكرناه هنا، من عدم الدخول على السلطان فليس بدعاً من القول ولا هجرا، وما كان حديثا يفترى؛ بل هو من جادة كثير من السلف وأئمة الدين، وإن كان للدخول عليهم من حتم أو مندوحة على بعض أهل العلم؛ فكما يلي :

أولاً: أن يكون الدخول على السلطان من باب أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وإلا فلا.

ثانياً: أن يكون الدخول عليه من باب التَّذكير والموعظة، وإلا.

ثالثاً: أن يكون الدخول عليه من باب إجابة دعوة السلطان، وذلك فيما لو أمره ولي الأمر بالدخول والمجيء، وإلا فحسبك! فإنا وإياك؛ لن ننس "ومن أتى أبواب السلطان افتتن"، و "إيا كم وأبواب السلطان؛ فإنه قد أصبح صعبا هَبوطا"، وإياك أن تخدع فإن ذلك خديعة إبليس، والسلطان داء، والعالم طبيب، فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه

فاحذره، فاحذر أن يرحبوا بك فتميل إليهم ميلاً عظيما، والسلام عليك يا طالب العلم والعزَّة!

كما أوصيك أن تحذر يا طالب العلم من الاشتغال والنَّظر في دركات الهُون والدُّون، من علوم أهل زماننا، وما هم فيه من شارات وضعيَّة، وألقاب جوفاء، ما أنزل الله بها من سلطان أو برهان، اللهم هوىً وظنوناً يتغشون بها مجالس العلم، ليستبيحوا بها زهرة الحياة الدنيا، إلا ما رحم ربي!

واعلم يا رعاك الله: إنَّ العلم ما جاء عن الكتاب، والسُّنَّة، وأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا ما أجمع عليه سلف الأمة، ومن اشتغل بغيره فليس ممن أراد الله به خيراً أصالة لا حِوالة؛ لأن الخير يكون في العلوم الشرعية أصالة، وفي غيره من علوم الدنيا يكون تباعا. وعليه، فاعلم إنَّ هذه العلوم الطبيعية وغيرها مما هي من علوم الدنيا (الطبيعة، الهيئة، الرياضية، الهندسة، الطب وغيرها) التي لم تزل تزداد يوماً بعد يوم؛ بأنها ليست من العلم الشرعي بشيء، كما أنه لا يضر الجهل بها، ولا ينفع العلم بها، بل هي علوم دنيوية؛ المقصود منها عمارة الدنيا!

واعلم يا رعاك اللَّه، أنَّ العلم إذا أطلق، فإنه لا يصدق إلا على العلم الشرعي فضلاً وكمالاً، أجراً ومآلاً، عزاً وحالاً ...! وما سواه من علوم الدنيا، فهي علوم مقيدة بما تضاف إليه من حِرَفٍ ومِهن وفِكر ... كعلوم الطبيعة، والفلك، والهيئة، والحساب، والصناعات، والرياضيات، والهندسة، والأحياء، والكيمياء ، والفيزياء، والجغرافيا، وعلم الأرض (الجيولوجيا)، وعلم التجارة، وعلم السياسة، وكذا حِرف النّجارة، والفلاحة، والصناعة، والحياكة ..إلخ، فعند ذلك، كان من الخطأ البيّن رصف تلك العناوين الرابضة فوق بعض الكتب العلميَّة، والأطاريح الجامعيَّة كقولهم : العلم والإيمان، العلم والإسلام، الإيمان محراب الطب، الدين والعلم التجريبي، القرآن والإعجاز العلمي ... وغيرها مما هو من زبد العلوم الدخيلة، والانهزام الجاثم على عقول وأقلام كثير من كتَّاب المسلمين هذه الأيام! وما ذاك الخطأ الدَّارج هنا وهناك إلا لكون القوم قد ظنوا بأنَّ العلم شيء، والدين شيء آخر! لذا نجدهم يفرقون بين الدين والعلم، وما علموا أن الدين الإسلامي هو العلم، والعلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم! فإنَّ حال هذه العلوم الدنيوية، بل أكثر العلوم الصحيحة المطابقة للعقل والتجربة، فإنَّه لا يضر الجهل بها

شيئاً، كما أنَّه لا ينفع العلم بها! لذا، فلا يهولنَّك يا طالب العلم ما يتجارى به أهل زماننا في تسويق هذه العلوم الدنيوية، مع زخرف من الشارات والألقاب في صروح الجامعات، وما يقذفه الإعلام العائم فوق براكين من الثقافات الغربية، كل ذلك محاكات ومشابهة لمخلَّفات الاستعمار(الدَّمار) الغربي! ومهما قيل، فلن يتعدَّ أصحاب هذه العلوم الطبيعية وغيرها(مما هي من علوم الدنيا) مكانتهم من العلم، فهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، بل هذا مبلغهم من العلم، كما أنها علوم يشترك فيها كل إنسان وجان(المؤمن منهم والكافر)! ومع هذا فليس لهم فيها من الأجر شيء، اللهم إلا إذا جعلوا من هذه العلوم والصناعات قربات، بعد استحضار قصد ونيات! كنيَّة: التعاون بين المسلمين، كما ينويه النجار والفلاح وغيرهما من أهل الحرف والمهن، ومهما يكن، فالأجر والخير: في العلم الشرعي أصل وغاية، وفي غيره من علوم الدنيا طارىء ووسيلة! وأخيراً، فإننا لا نقول بطرح العلوم الدنيوية(الطبيعية والتجريبية) جملة وتفصيلا، كلا! بل للتفصيل اعتبار ومأخذ، فالناس طرفان ووسط، كما يلي:

الطَّرف الأوَّل: من أفرط فيها إفراطاً أخرجها من حدّها ومنزلتها إلى التقديس والغلو، فرفعها فوق غيرها من العلوم، لا سيَّما العلوم الشَّرعيَّة، وأهل هذا الطَّرف فيهم غلُّو وإسراف مذمومان!

الطَّرف الثَّاني: من عنده تفريط وتقصير فيها، حتَّى قطع بعضهم بحرمتها، ومنهم من صرَّح بخلوّها من الخير والفائدة رأسا، وأهل هذا الطرف فيهم تفريط وإجفاف مذمومان!

الوسط: من قال بأنها علوم مباحة: فمنها ما هو حلال مقبول، ومنها ما هو حرام مردود، ففيها الخير والشر كغيرها من العلوم الدنيوية، والناس إلى الخير منها في حاجة وطلب، لا سيما في عمارة الأرض، وصلاح الدين والدنيا، فهي من باب الوسائل، وللوسائل أحكام المقاصد، وهم مع هذا لا يخرجونها عن حدها وحجمها، فلا يذهبون بها إلى الغلو ولا إلى التفريط، كما أنهم لا يسامون بها العلوم الشرعية، فضلاً عن أفضليتها، فلها قدرها وتقديرها، واللَّه أعلم .

وبالجملة فالعلم بكلّ فن خيرٌ من الجهل به بكثير ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة، ودع عنك ما تسمعه من

التشنيعات، فإنها كما قدمنا لك شعبة من التَّقليد، وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم: حاكم عليه بما قد يكون لديك من العلم، غير محكوم عليك، واختر لنفسك ما يحلو! وإني لمحذرُك كل الحذر من النَّظر إلى هذه العلوم الدنيوية بعين الإفراط والانبهار، أو الانصراف بها عن تعلُّم واجبات الأحكام الشرعيَّة مما لا يُعذر المسلم بجهلها، ومن آخر نحسات أدعياء العلم الشرعي هذه الأيام، أنَّ نابتة منهم لم تزل تنفخ في روع شباب المسلمين بعض العلوم التجريبية، الوافدة من مستنقعات الفكر الغربي (الكافر)، ضاربين بعلوم وكتب السلف الصالح عُرْضَ الحائط، مزاحمين ما كان عليه المسلمون من الأمر الأوَّل: إنها العلوم الإداريَّة، والنَّفسيَّة (البرمجة العصبية اللغويَّة)، وغيرها! فليت شعري؛ هل نسي هؤلاء (المنهزمون) أنَّ الأمة الإسلامية هذه الأيام في حال لا ينادى وليدها؟ من جهل بدينهم، وتفرق بينهم، وضعف لديهم ...؟ فإن كانوا على علم بهذا؛ فلماذا هذه العلوم الدخيلة التي تُرَوَّجُ وتُسَوَّقُ بين شباب المسلمين؛ حتَّى أخذت (للأسف!) أخاديد في قلوب بعض طلاب العلم؟! ولا تنس يا رعاك الله! ما فعله المأمون يوم عرّبت في عهده علوم اليونان، والفلسفة من اليهود والنَّصارى والهند: مثل الطب،

والحساب، والطبيعة، والمنطق ... فلمَّا درسها النَّاس، وتناقلوها فيما بينهم؛ ظهرت بسببها البدع والأهواء، وضلَّ وابتعد الناس عن علم النُّبوة ... فعندها كان الضلال والانحراف، والشرُّ الكبير، والفساد العريض! لأجل هذا؛ كان عليك أن تقف بخوفك عند هذا العلم، لا سيَّما إذا علمت أنَّ الذين ضلُّوا وأضلوا بهذه العلوم الوافدة وقتئذ: هم من العلماء!، فكيف والحالة هذه إذا علم الجميع أن معظم الذين يتجارون وراء هذه العلوم النَّكدة، ويتقاطرون على دوراتها: هم الشباب من أبناء المسلمين؛ فالله الله فيهم! ولا يخفاك يا رعاك اللَّه؛ أن الأمة بعامة تعيش هذه الأيام جهلاً بدينها، لذا كان الأولى بنا أن نسعى حثيثاً في عودة الأمة إلى دينها أولاً، ثم إذا كان في الأمر متسع فعندئذ يكون للكلام في مثل هذه العلوم الوافدة شيء من البسط والتحرير! فكل يد مدت إلى هذه العلوم الوافدة لتنبشها بعد أن أُقبرت، وأصبحت عظاماً نخرة، فليس لها أن تروجها بين أبناء المسلمين، ظناً منها أن الأسماع في صمم، وأنَّ العيون في سبات، وأنَّ الأقلام والأنامل لا تجتمعان؟! ألم يأن لنا أن تخشع قلوبنا لما يذكره أهل هذه العلوم التجريبية من الغرب والشرق على حد سواء؟ فلم يزل عقلاؤهم حتى ساعتي هذه وهم

يصيحون بخطورة هذه العلوم في غير ندوة، أو لقاء، أو دورة تدريبية!

فلا ينبغي لطالب العلم أن يقتصر على علم دون علم قدر الإمكان، كمن يقتصر على علم فقه الفروع الفقهيَّة، ويهمل فقه الأصول الإيمانية، والأحوال القلبية، فاستكثر من العلوم الشرعية ما أردت وتبحَّر في الدقائق ما استطعت، وجاوب من خالفك وعذلك وشنَّع عليك، بقول القائل:

أَتَانَا أَنَّ سَهْلاً ذَمَّ جَهْلاً ... عُلُومَاً لَيْسَ يَعْرِفُهُنَّ سَهْلُ

عُلُومَاً لَوْ دَرَاهَا مَا تَلاهَا ... وَلَكِنَّ الرِّضَى بِالجَهْلِ سَهْلُ

بما أنّ علوم الشَّريعة روابط متّصلة، يتعلّق بعضها ببعض، ولا يستغني منها علمٌ عن غيره، فلا يمكن تسجيل نتيجة فيها والمرء متعلّق برابطة دون أخرى، وفي الوقت نفسه فإنَّ من العسير جدّاً أن يشرف المرءُ على كافّة الروابط، بلْهَ التّحقُّق من صدقها واختبار سلامتها .. نحن إذاً أمام ضرورتين: ضرورة التَّوسُّع، وضرورة التّخصُّص!

التَّاريخ العلميّ يُوقف المطالع على تفسير نشوء المفاهيم ومراحل تطوّرها، ومن هنا كان أداة رئيسةً لفهمها وتحليلها وتقويمها، كما أنّ العلم

بإشكال المفاهيم يُعدُّ أداة مُثلى لتحريض الذّهن على معالجتها والبحث في أغوارها، لأنّ العلم بإشكالها يحرّك الذّهن إلى مطلوب، وبفراغ الذّهن عن أيّ استشكال تتوقف حركته .. لأيّ شيء يتحرّك؟!

ومفهوم التّخصُّص من تلك المفاهيم الّتي اتّسم البحث فيها بضعف الإحاطة بتاريخها وإشكالها، ولأنّه من المفاهيم الفاعلة في مختلف الحقول العلميّة، فقد تباينت الرؤى حوله وفي مدى الحاجة إليه، بل امتدّ البحث فيه ليبلغ محزَّ النَّظر في مشروعيّته المنهجيّة، وما ذلك إلّا لكون مفهوم التّخصُّص لم ينضبط عند المختلفين فيه، سواء كان ذلك لأسباب خارجة عن ماهيّة المفهوم متعلّقة بتاريخه، أو لأسباب داخليّة تتعلّق بإشكال مفهوم التّخصُّص وتمثيله معادلة صعبة ليس من الهيّن حلُّها.

وحتّى نقترب من نظرة سواء عن التّخصص فلنمهّد بأنّ من المعلوم أنَّ مصدر العلوم كلّها هو الوحي، ولم يكن المسلمون في العهد الأوّل يعرفون هذه العلوم بتصنيفها الحالي، بل كانت العلوم عندهم لُحمةً واحدة، ووشائج مترابطة، والعلم كان هو الفقهَ في الدّين بشتّى موضوعاته، وإن كانت بعض العلوم تمثّل على هيئة اهتمامات عند

بعض علماء الصّحابةرَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، فلمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ اختصاص بالحلال والحرام، ولابن عبّاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا اختصاص بالتّفسير، ولزيد بن ثابت اختصاص بالفرائض، وهلّم جرّا .. لكنّ هذه الاختصاصات كانت في ذهنيّة ذلك العهد تمثّل اهتماماً بموضوعات داخل علمٍ، ولم تكن تظهر بصفتها اختصاصات تحيّز هذه الموضوعات لتكون علوماً مفردةً بمناهج مستقلّة.

يمكننا القول بأنّ التّخصُّص في هذه الحقبة لم يكن قسيماً للتَّوسُّع، لأنّ التّوسُّع مرتبط بمفهوم المصادر وتعدُّدها، والمصادر حينذاك منضبطة المفهوم، ولم تكن إلّا الكتاب والسُّنَّة، فلم تكن ثنائيّة التّخصُّص/ التّوسُّع حاضرة على هيئة متضادّة، لأنّ وحدة المصدر وانضباطه في عهد الصحابة كان يقتضي من عالمهم وطالبهم أن يتّجه إليه بكلّيّته وإن أرخى فكره ووسَّع نظره في جوانب منه.

أمَّا في الأزمنة الّتي تلت زمنهم فقد صار للمصدر الموّحد فيها فروع مولّدة، وهذا ما حدا ببعضهم إلى أن يستقلّ بفرع اغتراراً بتحيُّزه عن مصدره الأصل، ولظنّه إمكانيّة التّحقيق فيه إذا ما اعتزل به، وهنا مربط الفرق.

أمَّا لماذا تولّدت هذه الفروع المصدريَّة واستقلّت، فللجواب عن ذلك جملة معطيات كان لمجموعها إسهام في نشوء هذه الفروع، أو بعبارة أدقّ: إسهام في استقلالها، وإلّا فنشوءها مرتبط بنشوء المصدر الأم، وما هي إلّا تمثُّلات لجوانب منه.

من تلك الأسباب اشتهار بعض العلماء بعلوم معيّنة مع درايتهم بغيرها إلّا أنّ طلّابهم عنُوا في المقام الأوّل بالنّهل مما اشتهر به أشياخهم، ولذلك تجد مثلاً جمهور الأحرف المنقولة عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا متعلّقة بالتّفسير، وجمهور ما نقل عن عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ متعلّقا بالفقه، مع إمامة ابن عبَّاس في الفقه وإمامة عليّ في التّفسير، وهذا التمايز الكمّي له أثر ولابُدّ في التّصنيف العلميّ، وذلك ساعد في اتّساع رقعة التّخصُّصات المختلفة، فكان لابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مدرسة تفسيريّة مكيّة، وكان لعليّ مدرسة فقهيّة كوفيّة.

ثمّ إنّه مع مرور الأزمنة وتعاقب الأجيال ظهرت على السّطح ثغرات علميّة استدعت سدّها بإحالة العلوم الّتي كانت في العهد الأوّل ملكات لتكون صناعات، ففساد اللّسان أفضى إلى تصنيع علوم اللُّغة،

واختلال نظام الاستدلال أفضى إلى تصنيع علم أصول الفقه، وبدءُ فشوّ الكذب كان تمهيداً لتصنيع علوم الحديث.

وهذه العلوم في حقيقتها غايات من الوحي أو وسائل إليه، فلم تكن يوماً أجنبيّة عنه، لكنَّ تأخُّر تدوينها وتصنيعها أفرزه نضوب الملكات عند أهل الزّمان اللّاحق، فلم يكن تدوينها في أوّل الأمر فضولاً واختياراً مسرَّحا عن قبضة الحاجة، بل كان سدّا لثغرة واستجابة لمثير.

والسّبيل إلى الخلاص من إعضال هذه المعادلة هو: كلّما تعقّد المفهوم لديك فاضرب على وتر التّمييز بين مراتبه، وأنزل كلّ مرتبة منزلتها الّتي تستحقها، فما انضبط لديك فاعتمده، وإلّا فسرّحه إلى بقعة الإمكان، وإذا نظرنا في ثنائيّة التّخصُّص/ التّوسُّع وما كان عليه علماء الإسلام فلا يمكننا أن نصادم التّاريخ ونطلق القول بأنّ طريقة السّلف كانت هي التّوسُّع العلمي وعدم الاعتراف بهذه الحدود العلميّة والصّناعات المعرفيّة، كما لا يمكننا إطلاق القول بأنّ طريقتهم هي التّخصُّص العلمي المحض، بل كانت ثنائيّة التّخصّص/ التّوسُّع خاضعة لاعتبارات نسبيّة تمتزج فيها القدرة الذّهنيّة بالحاجة المعرفيّة بالحقل العلميّ بيئة وطلّابا وعلماءَ، ويمكننا من حيث الإجمال تقرير أمور:

الأمر الأوّل: أنَّ العلماء كلّهم مقرون باتّساع العلم، وتشعُّب أوديته، وأنّ أحداً ليس بمقدوره التّسلُّط على شتّى مسائله بالفقه والدّراية، ولذلك تنوّعت كلماتهم في حلّ هذا الإعضال بحسب المحذور الذي انقدح في أذهانهم، فمنهم من قدّر أن اتساع العلم ربّما أدّى ببعض الطلبة إلى المسارعة في تحصيله والعبّ منه لتطويقه، فتكلّم بما يرشد هذا التّحصيل المتعجّل، وأنّ العلم لا يتطامن لمثل هذه المسارعة والمعاجلة، ومنهم من قدّر أن اتساع العلم ربَّما أغرق الطالب في لجه، وقذف به في مهامه أوديته، فأوصى بأن يتجه اهتمامه إلى أنفعه، ومنهم من أوصى طالب العلم بأن يُعنى بدقائق العلوم ربّما جرف الطالب عنها، وأغراه بمجانبتها، ومنهم من قدّر أنّ اتساع العلم ربّما أغرى الطّالب بأخذ نُتف من جوانبه دون تحقيق لمسائله، وأنّ هذه النّتف تكفي للوقوف على حقائق العلم، وأن ينال المرء منزلة العالميّة.

الأمر الثّاني: أنَّ تمييز العلوم وتصنيفها لم يكن محلّ نقد عند العلماء، فهو ضرب من التراتيب العلميّة الّتي تقرّبها الحاجة وتدنيها مظنّة النّفع والضّبط، وإنّما كان محلّ نقدهم هو التّوجه إلى علم من العلوم مع الإعراض عن سائرها، لأنّ الإعراض فرع عن الجهل بحقيقة هذه

العلوم الّتي تحيّزت، وأنّها كانت كتلة واحدة، آخذاً بعضها بحجز بعض، وإنّما فتّتها ما تقدّم ذكره.

الأمر الثّالث: أنَّ العلوم وإن كانت بادئ الأمر متّحدة فذلك لا يعني أنّ كلّ علم لا يتأتّى فهمُ مسائله إلّا بالنّظر في غيره، فإنّ التمييز الحاصل بين العلوم كان تمييزاً واعياً، ملاحظاً للمصدر الأساسي والفرع التخصُّصي، ومن هنا أمكن أن يكون لكلّ علم اختصاص بحدود منهجيّة لا اعتباطيّة، وبالتّالي أمكن أن يكون لكل علم مختصُّون قاصرون عن حذق باقي العلوم، وإني إذ أقرر هذا فهذا لا يعني مدحا ولا ذمّا، ولكنّه توصيف لما لا يمكن أن يزن النّظر في مفهوم التّخصص وإشكاله.

فهناك مساحات في كل علم يمكن الإشراف عليها والتحقيق فيها مع قصور النّظر والتحقيق في بعض العلوم الأخرى، كما أنّ هناك مساحات لا يمكن التّحذُّق فيها إلّا بتجاوز حدود التّخصص، أمّا التحقيق في كلّ علم على وجه الكمال فلا يكون إلا باتّساع النّظر ليشمل سائر العلوم.

وإنّما قرّرت هذا الأمر لأنّك تجد في علماء الإسلام من كان إماما في فنّ مع قصوره في علوم أخرى، وهذا وإن جرّ النّقص عليه في جوانب من أبحاث تخصصه إلّا أنه لم ينزع عنه الإمامة فيه.

إذا تقرّر أنَّ العلم أكبر من أن يحاط به، وأنّ العلماء لأجل ذلك أوصوا طالب العلم بعدم مكابرته وعدم تطلُّب الاستيلاء عليه جملة واحدة، وأن يعنى بأنفعه وأحسنه، وأن لّا يضيع في مفاوزه حتّى لا يفوّت عليه مقصوده منه، وأنّ عليه إذا طلب أن يدقق، لئلا يضيع دقيق العلم، وأنه لن يبلغ أن يكون عالما إذا كان يتخيّر الأحسن من كلّ شيء، فهذا شأن الأدباء، وإنّما العلم بتحقيق النّظر في المسائل وتحريرها، وإذا تقرر أنّ من المعيب مع ذلك أن يُقبل الطالب بكليّته على علم مع الإعراض عن سائر العلوم، إذا تقرّر هذا وذاك، فما القدر المجزئ الّذي يحصل به طالب العلم الأنفع والأحسن، ويبلغ به أن يكون عالماً، ويخرج به من معرَّة الإعراض المفضي إلى الجهل؟

الذي يتلقّاه الطالب ليس مجرّد العناوين الكبرى، ولا رؤوس المسائل، بل الكلّيات الّتي من شأنها أن تكون كاشفة للجزئّيات، فيتعلّم الكليّات بالفعل، أمّا الجزئيّات المنتشرة فبالقوة القريبة، ثمّ إنّ التّوسُع

ولو بقدر من ضرورة اعتدال الطالب في نظره العلميّ، وبذلك ليدرك حق اليقين أنّ العلم أوسع دائرة من ضيق تخصُّصه، فمن جناية التّخصص المعزول عن الطالب، ظنُّه أنَّ خبرته بتخصُّصه تمكّنه من مختلف مجالات المعرفة، فيستطيل بضيق تخصُّصه على اتّساع العلوم، فيأتي بعد ذلك بالعجائب، ومن جهة أخرى فإنّ التَّخصُّص كثيراً ما يحرّض المتخصّص على الإزراء بسائر العلوم وأهلها.

وإياك والتخصص (الجامعي!) وما أدراك ما هو؟ إنَّه من التشبه المقيت والموروث العلمي الوافد، يوم قضت الأقضية في زماننا، بنُبوغ نوابتَ في صفوف أهل العلم قد ألبسوهم ثياب التَّخصُّص، وتوَّجُوهم ألقاباً وشاراتٍ مهلّلَة؛ فانتفخوا في العلم وهم خَواء، ونابذوا التعالم وهم سواء، يوم قصُرت هممُهُم وبلغت علومهم من العلم الشرعيّ جوانب ونُتفاً علميَّة، حاملين في شهاداتهم الجامعيَّة تَجزئةً وتقطيعاً لعُلُوم الشَّريعة، وتغييباً لطائفة منها عن أحكام فقه الواقع، وقضايا الأمة المصرية؛ فلا علم بلغوه، ولا عمل نالوه، ولا واقع فهموه! وإمَّا ينزِغنَّك يا طالب العلم شيء من هذا الوافد الغربيّ، فاستعذ باللَّه السَّميع العليم منه، ولا تطرقنَّ له باباً فإنَّه من أبواب الجمود العلمي! حيث جاء بتدسُّس إلى أمتي

بثياب التشويه العلمي ليلتبط بخطاه في مسارح الجامعات الإسلامية، ليفسد حرث ما بقي من العلم الشَّامل، ويهلك نسل ما بقي من العمل الكامل.

واعلم يا رعاك الله أنَّ التخصص العلميّ (الجامعيّ) قسمان: محمود، ومذموم.

فأمَّا التخصص المحمود: فهو من جمع صاحبه بين القدر الواجب من العلوم الشرعية (الغائي منها والآلي)، وبين التَّوسُّع والتَّفنن في علم ما.

وهذا، هو الذي أتي صاحبه من العلوم الشرعية نصيب وافر تبرأ به الذمة ويسقط به الطلب، مع تخصص وتفنن في أحد العلوم الشرعية، فتراه إذا كان فقيهاً (مثلاً): قد أخذ علوم الغاية والآلة: القدر الواجب الذي يساعده على فهم دينه بعامة، وبالفقه خاصَّة، إلَّا أنَّه مع هذا قد اجتهد في فن الفقه، وبرَّز فيه، حتَّى عُرف به ولقِّب باسمه، فعندها، كان التحصيل العلميّ عند السَّلف يأخذ بعلوم الشَّريعة جملة وتفصيلا، مع تفاضلٍ ونبوغٍ في فن دون آخر، فهم لا يقبلون في معالم وقواعد وأسس علوم الشريعة نصيباً دانيا، ولا تفاضلاً شائناً، بل تراهم قد

أخذوا من العلوم الشَّرعيَّة القدر الواجب (الغائي منها والآلي)، مع توسُّع في بعضها، أو كلّها لا سيما المجتهدون منهم، ومنه تعلَم قول المتقدمين: فلان أصولي، فقيه، نحوي، لغوي، مفسّر، محدّث، قارئ، مشارك، أي: أنَّه قد أخذ من العلوم الشرعية الحد الأدنى مما يسقط به واجب العلم، بحيث أصبح عنده شموليّة في العلوم الشرعية، ومع هذا تجده قد برَّز وظهر واشتهر في فن أو أكثر، فعندئذ يلقب عند أهل العلم بأشهرها من فنون العلم الشرعيّ: كالفقيه، أو الأصولي، أو النحوي، أو المفسر، أو المحدث، وهكذا ... إلخ.

وأمَّا التخصص المذموم: فهو من لم يجمع صاحبه بين ما ذكرناه آنفاً، اللهم إنه توسع وتفنن في علم مَّا (الغائي منها أو الآلي)، دون غيره من العلوم الشرعية، فتراه إذا كان فقيهاً (مثلاً): لم يأخذ من علوم الآلة، وعلوم الغاية: القدر الواجب الذي يساعده على فهم دينه بعامة، وبالفقه بخاصة، بل غاية ما عنده أنَّه يحسن مسائل الفقه! ومنه تعلم قول المتأخرين: فلان أصولي، فقيه، محدث، نحوي، مفسر، قارئ، دعوي، واعظ ... إلخ، فعند ذلك كان كلامي هنا عن أصحاب هذا التخصص، فكن على ذُكْر! فإنَّ أصحاب التخصص العلمي (المذموم) لم ينفكوا عن

أخطاء شرعية وآثار سيئة؛ قد دفعت الأمة الإسلامية(لا سيما هذه الأيام) إلى مفاوز مهلكة، ومزالق علميَّة، يكفي بعضها لمسخ ما بقي من تراث أمتنا الإسلامية، فمن ذلك: أنَّ التخصص العلمي الحادث بقسميه(الغائي والآلي)، كما هو جار في خطة تعليم بلاد المسلمين الآن؛ قد أخذ منحىً خطيراً في تقطيع أواصر التَّرابط بين علوم الشَّريعة، وتقسيمها إلى أجزاء علميَّة ومتفرقات متناثرة هنا وهناك؛ لا يجمعها جامع البتَّة، فعندها كان الأثر السيئ على الحياة العلمية والأحكام الشرعية لدى طلاب العلم هذه الأيام، يوضحه؛ أنَّه لمَّا أزفت الآزفة، وأقبلت الفتن في مسارب مهلكة، منقادة لتُعيدَها حرباً صليبيَّة يهوديَّة على الإسلام والمسلمين في بلاد فلسطين وأفغانستان والعراق وغيرها، وكذا ما هناك من هجوم سافر على أخلاق المسلمين، ومناهجهم الشرعية، إلى غير ذلك من قضايا الأمة العصرية ... ونحن مع هذا كله لم نزل نرى كثيراً من أرباب التَّخصُّص يعتذرون عن تخاذلهم وتراجعهم عن عدم المشاركة في الذَّب عن قضايا أمَّتهم بحجَّة النَّزعة البائسة التي راجت في سوق أهل العلم باسم : التَّخصُّص العلميّ! يوضّحه: أنَّ الفقيه منهم (مثلاً) ممن له مجموعة من التآليف الفقهيَّة، والتحقيقات الجامعيَّة التي نالت مرتبة

الشَّرف ... ما زال يعتذر عن المشاركة في قضايا أمَّته الإسلاميَّة: بأن ما يدور هنا من تخصُّصه، وهذا ما نجده في الأعمّ الأغلب منهم! هذا إذا علمت للأسف إنَّ أمثال هذا الفقيه من أهل زماننا قد تجاوزت أعدادهم المئات، وقس على هذا: صاحب العقيدة، والتَّفسير والحديث، واللُّغة وغيرهم.

ومهما يكن؛ فلا تعجب يا طالب العلم إذا علمت أنَّ القوم كانوا صرعى التخصصات العلميَّة، ونتاج الوافد الغربي، والله المستعان على ما يصفون! كما كان من آخر سوالب التخصص الجامعي هذه الشارات والألقاب الجامعية!؛ التي دفعت طائفة من المنتسبين إلى قبيل العلم الشرعي، ممن تشاغلوا بهذه الأسماء، وانساقوا جرياً وراءها السنين الخواليا، إلى دخولات العطالة المغلَّفة باسم: الحصانة الجامعيَّة، فماذا كان؟! ويكأنَّ القوم؛ لم ينصروا حقا، ولم يكسروا باطلاً: فلا أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر، ولا جهاداً ولا اجتهاداً؛ بل رأينا من بعضهم من كان مجداً في الطلب والطاعة؛ حتى إذا أوحى إليه شياطين الإنس والجنّ بأهميَّة هذه الشارات والألقاب ... إذا به يصبح فاتر العزيمة، ذابل الطاعة، قليل الاجتهاد والمجاهدة؛ أمَّا إذا سألت عن

الزهد وجلد الطَّاعة، وهيبة أهل العلم وورعهم: فلا تسأل؟ فتلك أمَّة قد خلت، إلا ما رحم ربي، وقليل ما هم! وهكذا حتَّى أصبح أهل العلم الشرعي في هامش الذَّاكرة الإعلامية، وفي زوايا الجامعات العلميَّة، وذلك للأسف باسم: التَّخصص الجامعي!

فجماعة منهم ظنّوا أنهم قد بلغوا من العلم ما لا يحتاج معه إلى مزيد قراءة واطلاع، فقنعوا بما أحرزوه من ألقاب!! وشهادات!! ومناصب ووجاهة!!

فما هو إلّا أن حاز اللّقب حتّى أعرض عن الطّلب، وقد كان يدّعي العكس، يقول: دعوني أضع همّ اللّقب ثم أمعن في الطّلب! فما باله انقلب!!

ويا ليته وقف هنا فحسب، لكنّه اتّكأ على أريكته وعرّض الوساد، وتنمّر على العباد، وانسلخ من طلب العلم إلى طلب الدُّنيا، فأصبح اللّقب حينئذ خديعة يخدع بها المرء نفسه وغيره.

ولو كانت الألقاب تؤخذ عن أهليّة واستحقاق، لهان الخطب وانقطع الخِطاب، لكن العكس هو الواقع، فأصبحت أحياناً تُباع

وتُشترى، وأحياناً تُعطى لبحوث هزيلة، وأحياناً لبحوث منقولة عن غيرها، وهكذا في سلسلة نكِدة من التّخاذل العلميّ، فهل يوثق بعد هذا بشهادة أو لقب؟! لكن بعض الصالحين لم يستطع التّخلّص من ضغط الواقع في اعتبار هذه الألقاب السّحريّة؟! كلّ شيء، فمع يقينه أنها لا شيء إلّا أنّه - دائماً - لا يستطيع أن يكتب اسمه دون أن يسبقه باللقب، وتالله لو وضع قبل اسمه ما شاء من ألقاب وشارات لما أغناه ذلك شيئا! ولكنّه اللّقب، فمتى سُلِب سُلِبَ معه كلُّ شيء.

وبعض هؤلاء يعبر بطريقة أخرى، فحالما يحصل على شهادة اللّقب إلّا ويسارع بوضعها في مكان بارز في مكتبته محاطة بإطار جميل، ولسان حاله يقول: لله درّي! لقد بلغت مرتبة الرّاسخين!!.

وكم من شهادات يغرُّ جمالها وقيمتها النَّقش الذي في إطارها

وجماعة منهم قنعوا بمتابعة ما تتسارع شركات الحاسوب في إنتاجه، من أقراص تحوي العشرات بل المئات من الكتب في جميع الفنون! وظنّوا أنّ هذه تُغني عن شراء الكتب واقتنائها ومطالعتها ودَرسها! وما علم هؤلاء (أو علموا ولكن ...) أنهم قد استسمنوا ذا ورم ونفخوا في

غير ضَرَم، فأنزلوا هذه الآلة الصّمّاء منزلة ليست لها، ووطّنوها مكاناً ما ينبغي لها، أرادوا بها -وهيهات- أن يسبقوا الرّكب، ويحقّقوا المسائل، ويستدركوا على العلماء، أرادوا كلّ ذلك بلمسة على زر! فيالله العجب! وأعجب منه: أن ينسبوا كلّ ذلك الفضل إلى أنفسهم متوهّمين وموهمين؛ فجنوا بذلك على أنفسهم؛ إذ حسبوا أنّهم على شيء، وعلى العلم، وعلى النّاس!!.

لا يفهم من هذا أنّ الحاسوب لا قيمة له ولا فائدة منه، بل له فوائد كثيرة تُقدّر بقدرها ولا تعدوا طَورها، ولست هنا لتعديد محاسنه ولا لتبيين مزاياه!!.

واعلم أنَّ فهم علوم الآلة على قسمين:

القسم الأول: فهم واجب، وهو ما يسقط به الطلب وتبرأ به الذمة، وهو القدر الذي يشترك فيه عامة أهل العلم، وهذا القسم لا يجوز لطالب العلم القصور فيه ... كما أنَّه سلاح طلاب العلم في التَّعامل مع كتب أهل العلم الفقهيَّة منها والعقيدة والحديث والتفسير وغيرها؛ فبهذا

القدر منها يستطيع معرفة لغة واصطلاح القوم في فنونهم، وما زاد على هذا الحدّ فهو فضلة لا يحتاجه إلَّا من رام مراتب الاجتهاد!

القسم الثاني: فهم مستحب، وهو الإحاطة بغالب علوم الآلة المختصرات منها والمطولات، بحيث لا يترك منها شاردة ولا واردة إلا وقد أحاط بها في الجملة، وهذا القسم في حقيقته هو من مسالك طلاب منازل الاجتهاد، ممن علت همتهم وتاقت نفوسهم ليقفوا في مصافّ أئمة الاجتهاد، كالأئمة الأربعة وغيرهم، ولتعلم أنَّ كثيراً من أهل التخصص في أصول الفقه قد غالوا وكابروا هذا العلم، وهم مع هذا لا يتجاوزون في قراءاتهم كتب الفقه المدونة، هذا إذا علمنا أنَّ الاجتهاد المطلق في زماننا مندثر بين أهله منذ زمن بعيد؛ فلا حول ولا قوة إلَّا بالله! فإنَّ التخصص والتَّفنن في علوم الآلة لا يكون إلا لمن رام درجة الاجتهاد، وإلا وقعنا في حيص بيص، وهذا لا نجده عند أهل التخصص من أهل زماننا! فإذا علمنا أنَّ علوم الغاية من مقاصد الشريعة، وأن علوم الآلة من الوسائل، والحالة هذه كان من الخطأ البين، والفساد الواضح أن نُغلّب جانب الوسائل على المقاصد، وإلا كنا مغالين متكلفين! وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النَّحو، وصناعة

المنطق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً، وأكثروا من التَّفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة، وربما ذكروا مسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذّات، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟ فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها، ولا يستكثروا من مسائلها، وينبه المتعلم على الغرض منها.

واعلم أنَّ العلاقة بين علوم الغاية والآلة علاقة طرديَّة، لا سيما من جهة الوسائل، فعندئذ كلما ازداد طالب العلم من علوم الآلة، كان عليه أن يزداد من علوم الغاية ضرورة، وإلا كان هذا تناقضا بينا، وخللاً واضحا في الطلب والقصد، ومنه نعرف حينئذ: الحنث العظيم الذي لم يزل يتناقله أهل التخصص العلمي هذه الأيام، يوم نراهم لا يتقيدون بهذه القاعدة الطرديَّة بين علوم الغاية والآلة، فتجد أحدهم قد طال به العمر في تحصيل: أصول الفقه(مثلاً) وهو لا يحسنه طلاب العلم المبتدئين، أو مقلدو المذهب، وهذا الصنيع منهم مما يزيدنا يقيناً بأن التخصص العلمي: زغل في العلم، ودسيسة في الطلب، وآخرون من ورائهم قد تخصصوا في التخصيص؟!، حيث تجد بعضهم قد تخصص

في علوم القرآن مثلا، إلا أنه لا يحسن من علوم القرآن إلا: دراسة مناهج المؤلفين في التفسير، وطرائق التفسير الصحيح منها والباطل، وعلم القراءات، وإعجاز القرآن، ولربما ليس لبعضهم من العلم إلا تحقيق مخطوطة لبعض علوم القرآن ... كل ذلك للأسف كان منهم على حساب علوم الشريعة بعامَّة!

أمَّا محدثو زماننا فأمر لا ينادى وليده، فأكثرهم للأسف إلا ما رحم الله، لا يحسن من علوم الحديث إلا: مصطلح الحديث، ابتداء بالبيقونيَّة، ومروراً بنخبة الفكر، وانتهاء بمقدمة ابن الصلاح، ونظم ... إلخ، وقد زاد الطين بلة؛ أن أكثر محدثي زماننا (زعموا) ليس لهم من علوم الحديث: إلا تخريج الحديث، ودراسة مناهج المحدثين في كتبهم، ولربما ليس لبعضهم من العلم إلا تحقيق مخطوطة لبعض علوم الحديث ... كلُّ ذلك للأسف كان منهم على حساب فهمهم وعلمهم وحفظهم للحديث النبوي بخاصة، ناهيك على حساب علوم الشريعة بعامَّة! ونفر آخر منهم ممن مسته وخزات التخصص: قد أشغل نفسه وطلابه ببعض الدورات الإداريَّة، والبرامج العصبيَّة، واللَّه المستعان على ما يصفون!

وإياك وفضول المباحات، وما أدراك ما فضول المباحات؟ إنها المهلكات، فإذا كان الماء والنار لا يجتمعان، فكذلك طلب العلم لا يجتمع مع فضول المباحات، ولا يكاد! فإنَّ التوسع في هذه المباحات بريدك يا طالب العلم إلى الانقطاع أو الفتور، كما أنها مجلبة للمعاصي! فيا للأسف!، لقد توسع كثير من طلاب العلم من أهل زماننا في فضول المباحات؛ مما أبعدهم عن التحصيل، وربما انقطع بهم الطلب، وهم بعد لم يتغرغروا بالعلم! فالحذر الحذر يا طالب العلم من فضول المباحات، فكان من خالصة الذكرى أن يحذر طالب العلم من فضول المباحات، وأن يطوي بساطها طيًّا، لا سيما ممن رام مراتب العلماء، ومنازل الحكماء! فاحذر يا طالب العلم: أن يمسك قرح الترف والسرف؛ فإنهما مذمومان شرعا وعرفا، وإياك والتَّنعم؛ فإنَّه يورث التَّخنُّث (عياذاً بالله!)، فإنّي رأيت ثلاثتها مجامع الفضول والتَّبسُّط، ومنابع التَّرهل والرّقّة، فاحذر، وإلا فالطريق مسدودة والبلغة مفقودة، فدون ما تمنى خرط القتاد!

طالب العلم التَّقي المخلص الصادق لا يزال يقرأ، ويطالع، ويقلب الكتب النافعة؛ قاصداً بذلك البحث عمَّا يرضي ربه، ويقربه إليه،

وليس قصده مجرد زيادة المعلومات، وإشباع رغبته ونهمته في القراءة والحفظ والرسوخ العلمي؛ فثمرة العلم العمل فصحح نيتك يا طالب العلم واطلبه لحاجتك إليه كحاجتك إلى ما به قوام نفسك وذاتك، لا لمجرد حبك للعلم وتلذذك به، فشتَّان بين النيَّتين!!

بعد أن صححت يا طالب العلم قصدك في طلب العلم، ابذل قصارى جهدك في طلب أهمّ العلوم وأوجبها، ألا وهو العلم باللَّه تعالى، وقد غفل عنه الكثير من طلاب العلم، فحرموا بسبب ذلك خيراً عظيماً، وكنزاً ثميناً، فكلَّما ترقى طالب العلم في العلم ومعرفة حق اللَّه عليه، ومعرفة عيوبه، وقارن حاله بحال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ والسلف الصالح : ازدرى نفسه وأيقن أنه مقصر مفرط، فتزكو نفسه بالتواضع سجيَّة لا تكلُّفا، وتعلو همَّته في طلب الرّقي في العبادة والورع وحسن الخلق والتقوى، وهذا من أعظم ثمار العلم باللَّه تعالى فإنه إذا عظم علمه بالله ذاق حلاوة الإيمان ولذة الطاعة، وأهل العلم الصادقون ينوون في طلبهم للعلم معرفة الله والقرب منه ورضاه، فلذلك أفلحوا ووفقوا وسعدوا، وجلُّ العلوم لا تراد لذاتها؛ بل هي وسيلة إلى غيرها، سوى العلم باللَّه تعالى، فالعلم بوحدانيته تعالى وأنّه لا إله إلا هو مطلوب لذاته،

وإن كان لا يكتفى به وحده، لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما:

١- أن يعرف الرّب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.

٢- وأن يعبد بموجبها ومقتضاها.

فكما أنّ عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته، وإن البعض ممن يدرس كتب العقيدة أو يدرسها: لا يتبادر إلى ذهنه إلّا العناية بالعقيدة النّظرية العلميّة، ولا شكّ في أهميّتها وفضلها، ولكن قلّ من ضمّ إلى ذلك العناية بالعقيدة العمليّة، الّتي هي الأعمال والأحوال القلبيّة، من صدق التّوكُّل على الله تعالى، ومحبته، ورجائه والخوف منه، والإقبال عليه، والتضحية لأجله.

فنجد من يتقن معنى الحبّ علماً نظريّاً، ولا يتقن معنى الحبّ عملاً وحالاً، فترى قلبه لم يستنر بحبّ الله محبةً تطغى على كلّ محبوباته، ولم يذق طعم الأنس به، والرضا به رباً، وهذا خلل في العقيدة.

ولو جهل رجل التفاصيل الموجودة في كتب العقيدة، ولم يعرف سوى الفرض عليه، كمعنى التوحيد، وخطر الشرك ومعناه، ولكنه عالم

بالعقيدة العمليّة، كإخلاصه لله، وصدقه معه، وتوكله عليه، وبغضه للشرك وأهله، وحبه للتوحيد وأهله: لسعد ونجح وأفلح ونجى.

ولو كان عالماً بالتفاصيل الموجودة في كتب العقيدة، وحفظها، ولكن قلتّ عنايته بالعقيدة العمليّة لكان على خطر، وقد يكون علمُه حجة عليه في عدم عمله بما علم.

ولعلّ السبب الأعظم - والله أعلم - الّذي جعل بعض المسلمين لا يوفّق في الاهتمام بالعقيدة العمليّة، هو عدم إصلاحه لِمَا بينه وبين الله تعالى، فتجده بارعاً في العلم النّظري، لكنّه مخفِق ومقصّر في التّطبيق والعمل، والله المستعان.

وعنايتك - أخي طالب العلم - بجانب العلم بالله سبحانه، له ثمراتٌ وفوائد كثيرة جداً، من أهمّها:

١- أنّه السبيل الوحيد لفلاحك ونجاتك في الدُّنيا والآخرة، فلو جمعت علوم الدُّنيا كلّها وجهلت هذا العلم لم تنفعك يوم القيامة.

٢- أنّه الطريق الصحيح لصلاح قلبك، وسلامته من الأمراض والآفات، الّتي ابتُلي بها كثير من النّاس.

فمنذ أن وقفت على كلام شيخ الإسلام ابن تيمية تغيرت نظرتي تجاه العلم؛ حيث كنت أظنّ العلم هو العلم النّظري، فلذا كنت أستكثر منه، وكنت في غفلة عن صلاح قلبي، والعناية به، والتعلق بالله، والبحث عن العلم به سبحانه.

أمّا الآن: فقد اعتنيت بالعلم بالله تعالى، وأصبح أكثر همّي وشغلي هو صلاح قلبي وسريرتي، تربية ومجاهدة ومحاسبة؛ لأصل للغاية العظمى، وهي معرفة ربي، وتعظيمه ومحبته.

فإذا استنار قلبك بالعلم بالله ومعرفته، خرج منه كلّ تعلّق بالدّنيا، والالتفات إلى الخلق، وحبّ الشّهرة، وأصبح همّك رضا الله تعالى والإقبال إليه.

قال أحد طلاب العلم: قد كنت في بداية طلب العلم أفرح إذا استفتاني النّاس، وكان من أعظم أمنياتي أن أجمع علماً يؤهلني للفتوى والإجابة على أسئلة النّاس، وإذا اتصل عليّ سائل وأنا في مجلس، شعرت بالفرح وهم يروني أفتي وأجيب على أسئلة النّاس، حيث بلغت في العلم منزلة شريفة، جعلت النّاس يستفتوني.

قال: وبعد أن منّ ربي عليّ بمعرفته والأنس به: ذهب عنّي كلّ هذا بحمد الله، وإذا اتصل عليّ أحد المستفتين طلبتُ منه أن يتصل عليّ بعد الخروج من المجلس، وأخاطبه بعبارة لا يفهم منها من حولي أنّ المتصل من المستفتين.

وطّن نفسك على أن تُعلّم وتتعلّم، وتنصح وتُنصح، وتنقد وتُنقد، فطالب العلم لا يزال يتعلّم حتّى يموت، ولو بلغ من العلم والسّنّ ما بلغ، وبعض طلّاب العلم ممن بلغ في العلم أو المنصب ما بلغ، تجده يوطن نفسه على أنّه ينصح ويعظ ويعلّم وينتقد، ولكن لو نقده أحدٌ أو نصحه أو وعظه أو علّمه: استنكف ولم يفرح ولم يتقبل ذلك بصدر رحب، وهذا خلل يجب أن يُعالج.

فوطّن نفسك يا طالب الموفّق إلى أن تلقى ربّك على أن تحرص أن تُعلّم وتتعلّم، وتنصح وتُنصح، وتنقد وتُنقد، وبهذا تزكو نفسك، ويصلح قلبك، ويكبر عقلك، ويبارك في علمك وعمرك وأثرك بعد وفاتك.

واعلم أنّ أعظم أسباب استنكاف بعض طلاب العلم عن تقبل النّصح والنّقد البنّاء، اقتصار المرء على ما يعلمه، فظنه كافياً: استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة، والمذاكرة تبيّن له خطأه، وربما كان معظماً في النفوس، فلم يتجاسر على الرّد عليه، ولو أنّه أظهر الاستفادة لأهديت إليه مساوئه فعاد عنها، فقل لمن حولك بصدق: رحم الله من أهدى إليّ عيوبي.

قد يواجه طالب العلم حدّة وصلابة في التّعامل من بعض المشايخ، وهذا قد يكون لأجل رغبتهم في تربية طالب العلم على الجدّ وتعظيم العلم، وقد يقول في نفسه حينها:

ليت مشايخنا يستعملون معنا اللّين والرّفق، ويبتسمون في وجوهنا، ويسألون عنّا إذا افتقدونا.

فهذا شيء من المشاعر الّتي تُخالج قلوب معظم طلاب العلم، والأهمّ من ذلك هو ألّا ينسى هذه المطالب حينما يمنّ الله تعالى عليه بالرّسوخ والجلوس للتعليم، وإلقاء الدروس، واستقبال المستفتين.

فليُعامل طلابه وعموم النّاس بالبشر، والحلم، والرّحمة، والأخلاق الحسنة.

وبذلك يكون قد استفاد من علمه بتهذيب أخلاقه، ويكون أهلاً لأن يكون قدوةً يُقتدى به، فيُؤثّر على النّاس بأخلاقه، وسمته، وهذا أشدّ تأثيراً من الكلام النّظري.

ومن أعظم ما يجنيه من ذلك: حبّ النّاس له، وسعيهم في خدمته، ونشر علمه.

مما يزيد طالب العلم همّة ونشاطاً: تذكره بين الفينة والأخرى لحالته قبل اشتغاله بالعلم، فيتذكّر كيف كانت اهتماماته وطموحاته، وبما كان يقضي جلّ ساعات يومه وليلته، وكيف كانت علاقته بربّه، وعلاقته مع والديه وإخوانه وقرابته وعموم مجتمعه، وكيف كانت نظرته للحياة الدُّنيا، وغفلته عن الآخرة، فكلّما تذكّر مثل هذه الأمور وقارنها بحاله بعد اشتغاله بطلب العلم، رأى الفرق الكبير، والبون الشاسع بينهما، كما بين اللّيل والنّهار، من الظّلمة والإسفار، فيتبيّن له بجلاء محض فضل الله عليه، أن اصطفاه وشرح صدره لأنفس ما تقضى به الأعمار، وتثّقلّ به

موازين الحسنات يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ولا جاه، فيزداد رغبةً وهمّةً ونشاطاً وفرحاً وابتهاجاً بطلب العلم، والصبر على ما يلقاه في سبيل ذلك.

فما يسعه إلّا أن يقول: لك الحمد أن هديتني وعلّمتني وأنقذتني، فالفضل لك وحدك، والخير منك وحدك، فلولا توفيقك لَما أُلهمت الحقّ والعلم، ولولا فضلك لَما حُبب إلى العلم.

العلماء هم ورثة الأنبياء، وخير العلماء بعد الأنبياء هم صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ورضي عنهم أجمعين، اتّصفوا بصفتين كانتا عندهم على وجه التمام والكمال، وقد اختلفا بعدهم شيئا فشيئا، فلم توجدا مجتمعين في فئةٍ بعدهم.

أولاهما: القدرة على تذوق أبنية الكلام تذوقاً نافذاً إلى أعمق البيان الإنساني، وقد أوتوا من ذلك قدراً يفوق كلَّ تصوُّر، كأنه سجية فطروا عليها ابتداء بلا تثقيف مؤسس على الدراسة والتعليم.

وثانيتهما : أن فطرة الإسلام عندهم نقية نقاء يدعو إلى التسليم بلا تردُّد ولا نزاع، فهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في غنىً عن أي ميزان يحتكمون إليه للنظر

والاستنباط، وإيمانهم وجلال النبوة في قلوبهم وقلة ما يواجههم من المسائل – وهذا لا يخرج في غالب الأحيان عن دائرة النصوص الصريحة – كل ذلك يدعوهم إلى الإمساك عن كثير مما خاض فيه من بعدهم.

ثم اتسعت فتوح الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فجدَّت أمور تقتضى النظر والاجتهاد، وكانت المعرفة أساسا لنشأة حضارة كاملة المرافق والأركان، وإن اجتهاد الأئمة المجتهدين في تتبع معاني الكتاب والسنة لمِمَّا يحيّر العقول، وقد دونوا علما كبيرا من أدق العلوم مسمى بعلم أصول الفقه مستقلا عن علم الفقه يبحث في طرق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، والآثار المؤلفة في ذينك العلمين مع علم الحديث كنوز الإسلام لا تفنى جِدَتها ولا تبلى جِدَّتُها، فهي معجزة نبي الإسلام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللاحقة بمعجزاته في حياته، بل إن مساعي أئمة النحو في سبيل خدمة لغة القرآن التي لا يوجد لها مثيل في خدمة أية لغة - للاحتفاظ بالفصحى مصونة عن التغيير - من معجزات الإسلام أيضا، وهذه المعجزات العلمية لا تقل عن معجزة فتوح الإسلام بل تفوقها، وكثيرا ما يذكرها الكتاب العصريون حين لا يذكرون

هذه المعجزات الدينية المدنية. وقد تجمعت مسائل الفقه في شريعة الإسلام مما نزل من الوحي في أمهات القضايا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومما فصله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وبينه في أحاديثه، وما تبع هذا وذاك من أقوال الصحابة والتابعين وآراء الأئمة المجتهدين الذين شرحوا وعللوا وأبرزوا النظائر والمتشابهات وضبطوا القواعد والفروق بما لا يرقى إليه أي تشريع أو قانون، فجاءت شريعة الإسلام آية مفردة في التدقيق الفقهي وتفريع المسائل واستخلاص الجزئيات ببيان ومنطق أساسه عمق الفهم والتفقه في دين الله بالكتاب والسنة وجودة الاستنباط.

وما المذاهب الفقهية الأربعة التي كتب الله لها أن تبقى إلا مدارس مثلت مناهج استنباط الأحكام في شريعة الإسلام، وكان أساسها فتاوى الصحابة والتابعين وما أثر عنهم في فهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، واستخلاص مناهجهم في العلم والنظر.

وقد حكمت شريعة الإسلام متمثلة في هذه المدارس الأربعة المسلمين طوال ثلاثة عشر قرنا، وكانت القانون الوحيد بينهم يعتمدونه في كل ما يلم بهم من النزاعات، أو يحدث لهم من القضايا في الأحوال

الشخصية والمعاملات والمضاربات المالية والجنايات والعقوبات وأحوال السلم والحرب وما يتبعها من معاهدات واتفاق مع سائر الدول شرقا وغربا، كل ذلك مع التقديس لها والتسليم بها تقديسا وتسليما يوجبهما الإيمان بالله وبكتابه ورسوله.

ولقد كان الفقه الإسلامي من أكبر العوامل في بناء هذه الوحدة الإسلامية، وكان من أمتن الأسس فيها، وهذا ما أدركه أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم فوجهوا سهامهم للنيل منه وتنفير المسلمين بأساليب هي غاية في المكر والدهاء، كقول كبيرهم جولد تسيهر في كلامه عن اجتهاد فقهاء الإسلام وما بذلوه في التمحيص: (فإنه تبعا لهذه الجهود الموصوفة المبالغ فيها سادت في العراق روح التدقيق والتفصيل، وضاع في هذا التدقيق الممل والشروح المقفرة وتخيل إمكانات لا تحصل والعناية بإيجاد مسائل من الحيل مع الخيال الجريء والتدقيق المبالغ فيه ضاع في ذلك شرح كلام الله ...)!

فإذا لم يبق لهذا الفقه حياة وإذا ما صار أمره إلى أن يصبح رسوما وأحاديث فقد أوشك المسلمون يومئذ أن يعمهم الله بالفرقة، وأن يُقطّع أمرهم بينهم، وأن يتناكروا فلا يعرف بعضهم بعضاً ولا يرجع آخرهم

لأولهم ولا يهتدي لاحقهم بسابقهم، ويومئذ لا تغني عنهم تلك الدعوة الجوفاء التي يتصايح بها من يزعمون أنهم يدعون إلى الوحدة الإسلامية وهم يسكتون عن المعاول الهدامة التي تنقضُّ على أسس هذه الوحدة وتعمل فيها هدما وتخريبا.

هذا وإن أول صدع في هذا البناء المحكم كان في بدء القرن الرابع عشر الهجري، إذ تناول ذم الشيخ محمد عبده بمصر كل الكتب التي كانت تدرس في الأزهر على اختلاف أنواعها، من بلاغة، وفقه، ونحو، وبقية علوم العربية والدين طلبا لإصلاح التعليم في الأزهر، وذاع هذا الطعن، وتناقلته ألسنة المحيطين به من صغار طلبة الأزهر وطلبة المدارس وغيرهم من الطوائف، فكانت هذه أول دعوة لإسقاط تاريخ طويل من التأليف وما كتبه علماء الأمة المتأخرون إسقاطا كاملا، يتداوله الشباب بألسنتهم، مستقرا في نفوسهم وهم في غَضارة الشباب، لا يطيقون التمييز بين الخطأ والصواب، وهي في حقيقتها صد صريح عن هذه الكتب، يورث الازدراء، ويُغرى بالانصراف عما فيها، ويحمل على تحقير أصحابها، ويورث الاستهانة بها، والاستهانة داء وبيل يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم.

وكان ما كان.. وظلت الاستهانة سارية الأثر إلى هذا اليوم! وسقطت نظريات طالبي الإصلاح بَدَدَاً، لأنها لم تقم على أساس صحيح من العلم والنظر، ولم يبق منها إلا شيئان:

الأول: ما طفحت به كتب بعض هؤلاء ومن تأثر بمدرستهم من الاستهزاء والسخرية والاستهانة بعقول القدماء من أسلافنا، والحط من أقدارهم، والغض من حصيلة جهودهم وإخلاصهم في التثبت والمعرفة، وهذا كله مفض إلى طرح هذا الذي تركوه لنا وراء ظهورنا، وإلى الإعراض عنه بلا تبين ولا نظر، وهذا هو الداء الوبيل.

الثاني: التحريض السافر لشباب مفرغين من أصول ثقافتهم الممتدِّ تاريخها على مدى ثلاثة عشر قرنا على العبث بهذه الأصول، والكذب عليها بحصائد الألسنة التي لا تستمد بيانا من عقل مستنير يتورع عن الخوض في أمور لا يعرفها حق المعرفة، وهذا أيضا وبيل آخر يسرع إسراع النار في هشيم النبت.

وإن كل من دعا طلاب العلم إلى الإعراض عن الكتب التي قعدت القواعد، ومحصت الكتب التي تعد أصلا في علم لم يسبقهم إلى

مثله سابق، وحثهم على الرجوع إلى الأصل وحده دون استعانة بمن قعدوا قواعد العلم وقتلوه بحثا وتنقيبا، فقد استهان بعقول هؤلاء الأئمة العظام الذين خدموا العلم بإخلاص

وورع جيلا بعد جيل، وعوَّد طلبة العلم أن يستهينوا ويستخفوا بالعلم نفسه، وهذا هو البلاء الماحق لكل فضيلة في طالب العلم، ويخرجه من حيز التواضع في طلب العلم إلى حيز الغرور والتبجح والاستطالة بعلم ليسوا منه في قبيل ولا دبير، وحسن التصرف في العلم هو إكسير التحقيق وجوهر الصّناعة العلميَّة.

إنَّ المنهج الصحيح في الحكم على القضايا أو الأشخاص يجب أن يتوفَّر له شرطان:

١- العلم، بمعنى أن يكون الحكم مبنيًّا على إدراك حقيقة الأمر، وذلك بسَعْي الإنسان الجادّ للوصول إلى الحقيقة بالوسائل الصحيحة، وليس منها الظن، أو الخرص، أو الإشاعة، أو شيوع الفكرة عند الناس، أو الانطباع الشخصي، أو التسليم المطلق للشعارات، أو التأثر بها.

٢- الموضوعيَّة وعدم التحيز في الحكم، ويعبر عنه القرآن بالعدل، فلا يكون متأثراً بالهوى أو العاطفة، ولو كان هوىً مبعثه طبيعة خيرة، أو كانت العاطفة عاطفة نبيلة، فلا فرق في وجوب الحكم بمقتضى العلم بين القريب والبعيد، أو الصديق والعدو، أو المسالم والمحارب، ولا يختلف باختلاف الزمان والمكان أو الظروف الملابسة.

وأرى أن هذا المنهج والعناية به وإشاعته بين الناس وتربية النشء عليه كفيل بالوقاية والعلاج.

كن على يقين يا طالب العلم أنّ التوفيق لا يكون حليفك إلّا إذا صدقت مع الله تعالى، وأخلصت العلم له، واجتهدت في عبادته سبحانه، وصلاح قلبك، ونصح المسلمين، وبذلت الجهد في الدّعوة إلى الله تعالى بما تستطيع.

واعلم بأنّ جلّ القلوب مشحونة بالخبائث والأمراض، وطالب العلم في بداية طلبه للعلم لا يحسّ بها؛ لأنّه مشغول بالطلب والعلم وحضور الدّروس، ولم يجرّب النّاس ويخالطهم ويتصدّر لهم ولأذاهم وحاجاتهم، ولم يتعرّض للمناصب والشّهرة، وكلّ غضوب أو حقود أو

حسود إذا خلا بنفسه وانشغل بها: لم يظهر منه خبث ما انطوى عليه قلبه منذ عهد الطلب وزمن الصّبا والجهل.

وما أقبح أن تظهر هذه الأخلاق الرديئة على من يُشار إليه بالعلم والجاه!

ولا يليق بك أبداً أن تسبقك العامّة إلى الطاعات والفضائل، وإذا سبقتك فما قيمة العلم الّذي تحمله، وما فائدته وما ثمرته؟

واعلم أنّ العلم يُكسب صاحبه العزّة، والقوة، والرّفعة، والحجّة، ولذلك سمّى الله تعالى الحجّة المبنيّة على العلم سلطانا.

فمن لم يلجم سلطان العلم بلجام الإيمان، والتّقوى، والورع، والعمل بما علم: طغى أشدّ من طغيان سلطان اليد، وتاه صاحبه، وأكثر من التّقلّب، والبطر، والغرور، والبغي، حتّى يكون أشدّ تسلّطاً من الحاكم الجائر؛ لأنّ عنده سلطانين: سلطان العلم وسلطان اليد، بخلاف الحاكم الجاهل.

ولو تمكّن من الحكم لربما سعى في الأرض فساداً وظلماً.

والجهل مع التّقوى، خيرٌ وأنفع من العلم بلا تقوى، ولذلك تجد كثيراً من العبّاد والصالحين متواضعين، محبين للخير وأهله، ليس فيهم عجب ولا غرور ولا ازدراء ولا تسلّط، ولا احتقار للآخرين، وهم من عوامّ النّاس.

بخلاف العالم العريّ من التّقوى، فتراه إذا سمع موعظة واعظ ازدراه بلسان حاله أو مقاله، ولم تسمح له نفسه بالجلوس لسماع موعظته، ولو جلس لَما تأثّر وانتفع، ولو كان الواعظ بليغا صادقا.

فاللّهم أعذنا من علم بلا عمل وتقوى.

والموفّق السّعيد في الدّنيا والآخرة ينعم بأنسين عظيمين: أنس العبادة، وأنس التّعلّم والتعليم، ومن لم يأنس بهذين: لم يذق طعم الأنس في حياته ولو ذاق ما ذاق من أصناف الأكل، والتّجوّل في أقطار الأرض، والمتاجرة بالأموال، وتبوئ المناصب العالية، وغيرها من المتع الزائلة.

اعلم وفقك الله أنّ الرُّسوخ الدّينيّ ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: الرّسوخ العلمي النّظري، وهذا الرُّسوخ سهلٌ وكثيرٌ أهله، وإنّك تجد الكثير من طلّاب العلم رسخوا في فنّ من الفنون؛ كالعربيّة والفقه والعقيدة والتّفسير والحديث، وكثير منهم جمع بين هذه الفنون العلميّة الشّرعيّة.

حتّى إنه قد كثر الرّسوخ العلميّ الشّرعيّ في الكفّار المستشرقين، وألّفوا الكتب الّتي قد يعجز عنها كثير من علماء المسلمين.

النّوع الثّاني: الرّسوخ العمليّ الخُلُقي، وهو أصعب من الأول، ولو قارنّا بين كثرة الراسخين علميّا والرّاسخين خلقيّاً، لوجدنا الفرق واضحاً جدّاً، ونسبة الرسوخ الأوّل أكثر بكثير، فهناك الكثير من العلماء وطلّاب العلم؛ ولكن قلّ من تجد منهم صاحب أخلاق عالية: كالصّبر والاحتمال والكرم والشّجاعة والبشاشة والرفق؛ لأنّه ليس هناك ما يدعو إلى العناية بالأخلاق الباطنة والظّاهرة، ولا ما يحفز عليها، فلا وجود لمدارس تعلّم الأخلاق وتمنح الشّهادات والأموال والمناصب

عليها، وليس هناك كذلك ما يحفز الإنسان في نفسه على ذلك؛ لأنّه مشغول بالأمور الظاهرة؛ كالعلم، أو الكسب، أو المنصب، أو اللّهو.

وإنّما يعتني بالأخلاق من علمت همتّه، وكرمت عليه نفسه، وطلب ما عند الله بصدق ويقين، وتمعن في الكتّاب والسُّنّة طلباً للعلم والفهم والاقتداء التّام بمن زكى الله خلقه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ.

النّوع الثّالث: الرّسوخ عمليّ الإيمانيّ، وهو أصعب منهما وقليل أهله، وقلّ من ذاق طعم الإيمان واليقين، وقوّة التّوكُّل، وحسن الرّجاء، والحب العظيم لله تعالى، والأنس به، والفرح به، واللّذة بمناجاته.

والله تعالى يمكن من يشاء في الأول والثّاني، ولا يمكن في الثّالث إلّا من أحبّه وقرّبه إليه، واصطفاه وأخلصه لنفسه.

والرسوخ العلميّ يمكن تحصيله في زمن يسير، حتّى إنّ بعضهم رسخ في علم من العلوم في ثلاثة أعوام فقط، وهكذا بقيّة العلوم، وبعضهم رسخ في علوم كثيرة في أقلّ من عشرة أعوام؛ لأنّ العلم له لذّة عجيبة، فلا

يكاد من ذاقه ينفك عنه، وربّما انشغل به عن كثير من نوافل الطّاعات، والدّعوة إلى الله ونشر العلم.

بخلاف الرّسوخ العملي الإيماني، فلا يرسخ فيه أحد إلّا بعد طول زمن، وكثرة عبادة، وعلم بالله وبأسمائه وصفاته، وتدبّر لكتابه، وصدق لجأ إلى الله، وطول ممارسة وصبر وإلحاح وتعب ومجاهدة؛ لأنّ هذا يخالف هوى النّفس الّتي تميل إلى الدّعة والرّاحة، فلا يمكن أن يذوق العبد حلاوة العبادة وطعم المناجاة والاستمتاع بطول القيام والوقوف بين يدي الله إلّا بعد صبر ومصابرة وتغلّب على أهواء النّفس.

ولذلك تكثر الانتكاسة في القسم الأول والثّاني، أو التذبذب والتّقلّب والفتور.

ولا يكاد يوجد ذلك في القسم الثّالث، فإن وجد فيمن ظاهره العبادة، وحب الخلوة بالله والزهد والخوف والرّجاء: فلا يعني ذلك أنّه قد رسخ في العمل والإيمان؛ فإنّ الإنسان قد يذوق شيئاً من طعم العبادة، ويحبّب إليه العمل ببعض الطّاعات، وليس كلامنا على هذا، فإنّ هذا من قسم العباد الذين قلّ علمهم، وكثرت مجاهداتهم على غير

علم صحيح، وربما كانت حظوظ النّفس حاضرة عندهم، فهم يتعبدون بما يجدون أنفسهم تميل إليه، فقد يضل كثير منهم أو ينتكس أو يبتدع.

وإنّما كلامنا على صاحب الإيمان الصّحيح، المبني على العلم بالله وبشرعه، الّذي لا حظّ له إلّا موافقة رضا ربّه.

والرّسوخ معناه: الشيء الثابت القويّ، فإذا كان فيه تكلُّف فليس رسوخاً.

فالرسوخ العلمي: عبارة عن قوة علميّة في فن معيّن راسخة في النّفس، بحيث يستطيع أن يفتي فيه بسهولة وبلا تكلّف.

والرسوخ الخُلُقي: عبارة عن هيئة راسخة في النّفس، تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورويّة.

والرّسوخ الإيمانيّ: عبارة عن عقيدة ثابتة في النّفس، تصدر العبادات عنها بسهولة ويسر، من غير تكلّف ومجاهدة.

وإنّما قلنا: إنّها هيئة راسخة؛ لأنّ من يفتي في بعض المسائل لا يقال عنه: عالم راسخ؛ بل باحث أو طالب علم، ما لم يكن كذلك في جل المسائل.

ومن يصدر منه بذل المال في النّادر لحاجة عارضة، لا يقال: خلقه السّخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

ومن يقوم ببعض العبادات في بعض الأحوال لا يُقال عنه عابدٌ.

وإنّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة؛ لأنّ من لا يفتي إلّا بعد البحث والرجوع للكتب لا يُقال عنه: عالم راسخ؛ بل باحث أو طالب علم.

ومن يتكلّف بذل المال، أو السكوت عند الغضب بجهد وتكلّف، لا يقال: خلقه السخاء والحلم.

ومن يتكلّف القيام بالعبادات على جهة المشقّة والتّعب لا يُقال عنه عابدٌ، لأنّ الرجل لا يكون عابداً سبّاقاً للخيرات على الدّوام إلّا إذا كان قلبه ممتلئ بالإيمان واليقين الرّاسخ، فيعبد الله تعالى بحبّ ورغبة وإقبال، فلا يشعر بالتّعب والنّصب إلّا ما كان من طبيعة البشر.

وتكلّف الأخلاق والتّعلم والتّعبد يقود إلى الرسوخ فيها؛ فالحلم بالتّحلّم، والعلم بالتّعلّم، فهي أتعاب ومجاهدات في البدايات، لكنّها لذائذ ورسوخ في النّهايات، ومن لم يجاهد لن يرسخ ويقوى يرتفع.

وإذا رسخ الإيمان في قلبك فأبشر بالفتوحات الربّانيّة، والكرامات الإلهيّة، والدّخول إلى الأنس بالله تعالى من أوسع أبوابه.

فاحرص يا طالب العلم على أن تكون راسخاً في هذه الأمور الثّلاثة كلّها، لتكون من المفلحين الفائزين في الدّنيا والآخرة.

طالب العلم ينبغي أن يسبق غيره إلى الصّلاة وإلى صيام الاثنين والخميس أو ثلاثة أيّام في كلّ الشهر على الأقلّ، وإلى قيام اللّيل قبل الفجر بساعة أو نصف ساعة على الأقلّ، وإلى ختم القرآن في الشّهر مرة في أقل تقدير، وإلى سلامة القلب وطهارته، والتّحلّي بمكارم الأخلاق والرّحمة والعفو والصّفح والتماس الأعذار.

فإن سبقك غيرك إلى هذه الفضائل فما قيمة العلم الّذي تحملُه؟ فيا من كان له قلب فانقلب، يا من كان له وقت مع الله فذهب، قيام الأسحار يستوحش لك، صيام النّهار يسأل عنك، ليالي الوصال تعاتبك على انقطاعك.

فيا طالب العلم: كما ميّزك الله بالعلم، فلتتميز بالعمل به، لتشرف وترتفع به في الدُّنيا والآخرة، وإلا أصبح العلم وبالاً وحجّةً عليك، واتّضعت من حيث طلبت الرّفعة به.

وكما تحرص على التّعلّم فاحرص على التّعبّد ما دمت لم تترأس وتنشغل، فقلبك وذهنك في بداية الطّلب في صفاء.

والاصطباغ بصبغة العبادة حتى تكون من العابدين، الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن وأكثر من مدحهم، وحتى تكون العبادة روحك وقرّة عينك: تحتاج إلى مجاهدة وصبر، وفراغ الخاطر من هموم الرّئاسة والمناصب، فإذا لم تقو وأنت في سعة وفراغ، فلا تكاد تقدر بعد ذلك ولو حرصت.

ولا يكاد يعرف إمام في العلم إلّا كان من أعبد النّاس، وأحرصهم على نوافل العبادات.

فينبغي لطالب العلم أن يجتهد في القيام بالعبادات، وأن يسارع إلى الطاعات، وأن يدرّب نفسه عليها، فإن لم يفتح له باب من هذه

الأبواب فلا يؤدي به إلى ترك العلم؛ بسبب أنّه لم يفتح له هذا الباب مع بذل جهده ووسعه.

يجب أن يكون هدفك الأوّل يا طالب العلم رضا الله تعالى، وذلك بصلاح قلبك، وكثرة عبادة الله وشكره وذكره سبحانه.

ويكون هدفك الثّاني: كثرة القراءة والبحث والحفظ، ونفع النّاس، بنشر العلم والخير والبرّ.

وبعض طلّاب العلم - هداهم الله - عكسوا ذلك؛ فأدّى بهم ذلك إلى

أ- قسوة القلب.

ب- وحبّ التصدّر.

ت- وكثرة العلم بلا بركة.

طالب العلم الموفّق في بداية طلبه للعلم يشعر بأنّ العلم هو ألذّ شيء في حياته، ولا يجد شيئاً أمتع ولا ألذّ منه، وغاية مراده إتقان العلم وفهمه والرّسوخ فيه، ثمّ سيقوده العلم إلى العمل به، والقرب من الله تعالى ومعرفته، والإقبال عليه، وذوق طعم اليقين، وأسعد أيّامه يوم أن

يذوق حلاوة اليقين بالله ربّ العالمين، والتّوكّل عليه، وحلاوة العبادة، وخاصّة صلاة الفريضة، حيث يبكّر للصلوات قبل الوقت، فيشعر بعد ذلك بسعادة لا تضاهيها سعادة، وسيأتي عليه حال يقول فيها: إن كنت في الجنة كما أنا عليه الآن من السّعادة والرّاحة والطمأنينة فأنا في عيش سعيد.

وطالب العلم الّذي أمضي عدة أعوام في طلبه، وقد قرأ، وحفظ، وحضر مجالس العلم، ولا يحضر إلى الصلاة مع الأذان أو قلبه، ولم تقرّ عينه فيها، ولم يزدد في كلّ صلاة إيماناً، وأنساً، ويقيناً، وحبّاً، ورجاء، وخوفاً، وخشوعاً، وشوقاً إلى لقاء الله وجنته: فما قيمة العلم؟ وهل يراد من العلم إلّا العمل؟

فليراجع طالب العلم حاله مع صلاته، وليعلم أنه لن يصلح شأنه ويُمكّن وينفع الله به إلّا إذا عظم قدر الصّلاة في قلبه.

فاللّهمّ أذقنا طعم الإيمان، ولذّة الأنس بك، وحلاوة مناجاتك.

إذا طلبت العلم بالطّريقة الصّحيحة الّتي سلكها أهل العلم الرّاسخون: سيُوصلك العلم إلى الله تعالى، وحبّه والأنس به، وحسن عبادته بمشيئة

الله تعالى وتوفيقه، فإنّ العلم يدلُّ على الله من أقرب الطّريق إليه، فمن سلك طريقه ولم يعرج عنه وصل إلى الله.

وسترى خواطرك واهتماماتك تختلف كثيراً عمّا كانت من قبل، حيث كانت خواطرك في بداية الطّلب عن العلم والأخلاق والتّعامل والتّربية، وأمّا بعد أن تسلك الطّريق الصّحيح في العلم، فستضيف إلى ذلك العناية بالإيمان والقلب واليقين والتّعلُّق بالله تعالى؛ لأنّك كنت منكبّاً على العلم، والعلم سيقودك إلى معرفة ربّك وعبادته والقرب منه، والأنس به.

فالعلم وسيلة لأعظم غاية ومقصود، وهو العبادة والطّاعة، فمن قضى عمره في العلم ولم يذق طعم الإيمان وحلاوته ولذة العبادة والطّاعة فما قيمة العلم؟

فاللّهم أذقنا حلاوة الإيمان، ولذة العبادة.

طلب العلم من أعظم أسباب نيل واكتساب حسن الخلق، ومن طلب العلم ولم يكتسب حسن الخلق والتّواضع وهضم النّفس فذاك لخلل في طلبه أو نيّته وصدقه؛ وذلك لأنّ أعظم العلوم: العلم بالله، ودينه،

وسنّة نبيّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومن ازداد علمه بالله وعظمته وحقه عليه، وعلم بما أعدّه من الثّواب للمتمسّكين بشرعه، وبالعذاب لمن خالف أمره: فإنّه سيزداد خوفاً منه، واحتمالاً للأذى لأجله، وسوف يسعى جاهداً في التّخلّص من أمراض القلب والرّياء والعجب ورؤية النّفس والانتقام لها، وسيكون همُّه نصرة دين الله القويم، لا نصرة حظوظ نفسه.

ومن عرف الله تعالى: عرف استحقاقه للحمد والشّكر والعبادة والدحبّ والتّعظيم، وتقصيره في القيام بذلك، فلا يتسلل إلى قلبه هذا العجب ولا الغرور ولا الكبر.

لو استحضر طالب العلم، أو الدّاعي إلى الله، أو العالم، أو الصّالح، قبح ترفعه عن الخلق، وتثاقله في مشيته وحديثه، وعدم بشاشة وجهه: لأقلع عما كان عليه وكره صنيعه؛ فالنّاس لا يقتربون ولا يحبّون من هذه أخلاقه وطباعه، وينظرون إليه نظرة ازدراء أو بغض، وأمّا صاحب البشاشة والتّواضع واللّين: فهو بذلك قد ملك قلوب النّاس، وإذا حضر مجلساً فرحوا به، ورحّبوا به، وخرجوا من عنده منشرحة صدورهم.

قيل لأحد حكماء العرب: ما لك تلقى النّاس ببشر وترحيب؟

فقال: دفع ضغينة بأخفّ مؤونة، واكتساب مودّة بأهون مبذول.

وينبغي أن ترى يا طالب العلم الفضل لمن بادرك بالسّلام، أو سألك عن مسألة، أو طلب منك رأياً، أو شكا إليك همّاً، فافرح به، وأظهر له البشر، فهو يستحق ذلك، فقد اختارك من بين كثير من النّاس، وهو يرى فيك القدوة الحسنة، فكن كذلك، وأبشر بالقبول والتّوفيق.

حيث إنّ بعض طلاب العلم - هداهم الله - يرون أنّ سلام النّاس عليهم من حقهم عليهم، وأنّهم إنّما سلموا عليهم يبتغون شرف السّلام عليهم، وهم يردون السّلام ببرود، ولا يظهرون البشر بسلام النّاس عليهم، وهو من الكبر والتّرفّع وسوء الخلق أعاذنا الله من ذلك.

ويُخشى على أمثال هؤلاء أن يكونوا عند أنفسهم عظماء، وعند الله تعالى محتقرين أذلّاء.

ومن راءى الخلق عبدهم وهو لا يعلم!

وقد رأينا من يراني ولا يدري، فيمتنع من المشي في السّوق، ومن زيارة الإخوان، ومن أن يشتري شيئا بنفسه!

وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطّار.

وأبلغ ن هذا أنّ نبيّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يشتري حاجته يحملها.

وإيّاك يا طالب العلم أن تغترّ وتتكبر لأجل منصبك أو علمك أو جاهك؛ فالنّاس إنما يمدحون - غالبا - الغنيّ لأجل ماله، والأمير أو الوزير لأجل منصبه، والوجيه لأجل وجاهته.

فلا تجعل مدح النّاس لك سبباً في غرورك وتكبّرك، ونفرتك من النّاصحين.

وإيّاك أن يسبقك غيرك إلى السلام؛ بل بادر بالسّلام على من مررت عليه، ومن جلس بجوارك في مسجد أو في أيّ مكان.

ومن القبيح أن يتعزّز طالب العلم، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر النّاس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده

ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنّه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنّه ينبغي أن يخدموه شكراً له على صنيعه؛ بل الغالب أنّهم يبرّونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، فأقلّ مراتب العُجب أن تراه يتوقر عن الضحك في مواضعه، وحصول أسبابه، وعن خفّة الحركات وعن الكلام، كاتماً بعض مشاعره خوفاً من أن تكون سبباً في ذهاب هيبته.

طالب العلم الصّادق أينما كان الخير والنّفع وجدته، فإن دُعي إلى إلقاء موعظة على مجموعة قليلة أجاب، وإن دعي إلى تعليم فتية صغار بادر، لا يبحث عن الكثرة ولا الشهرة، ولا يبالي أكان الحضور وجهاء أم فقراء، مائة أم خمسة، لا يشترط لنفع النّاس شروطاً، يحمل همّ تبليغ الرّسالة لا النّتيجة، فما عليه إلّا البلاغ، يرجو رضا الله لا رضا نفسه وهواه، وحاله كحال ذاك المجاهد الصّادق المخلص الذي قال عنه النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

" طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السّاقة كان

في السّاقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفّع". رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

فلتكن همّتك حينما تلقي كلمة أو درساً أن ترضي ربك وتبرئ ذمتك، ولو لم يحضر عندك إلّا القليل من النّاس.

ولا تهتمّ بما يقال عنك إذا نصحت واجتهدت في تحسين أدائك وأسلوبك، وبذلت وُسعك في البحث والتّحقق من الكلام الّذي ستقوله وتكتبه، ولو أخطأت بعد ذلك فلا عليك، فالله تعالى قد عذرك ولن يؤاخذك؛ بل سيأجرك إن أخلصت وصدقت، فلِمَ يضيق صدرك بمؤاخذة المخلوق، والخالق لن يؤاخذك؟

ولِمَ تحزن لعدم التماس العذر لك من بعض المخلوقين، والمعبود الحقُّ قد عذرك؛ بل وآجرك؟

كن على حذر يا طالب العلم من عدم تزكية علمك، والسّعي الحثيث في نشره بكلّ ما تستطيع وتقدر عليه.

والله تعالى يصطفي من يشاء، ويمنّ على من يشاء، ومن أعظم نعمه على عبده أن يشرفه بحب العلم وفهمه والصّبر عليه.

وجميع ما يتقلب فيه من خيري الدنيا والدين: هو نعمة محضة من الله تعالى بلا سبب سابق يوجب له حقًّا، ولا حول ولا قوة له من نفسه إلّا به.

والله سبحانه هو خالق نفسه، وخالق أعماله الصّالحة، وخالق الجزاء، وإلهامه الإيمان، وهدايته إليه، وتخصيصه بمزيد نعمة حصل له بها: هو من نعمته، وإذا كان كذلك: وجب عليك ألّا تكتم وتبخل بهذه النّعمة وتمنعها غيرك، فنعمة العلم ليست من محض كسبك، وخالص ذكائك، فيجب عليك أن تتصرف فيها بحسب ما يراه من أسدى إليك هذه النّعمة، وهو الله تعالى، وذلك بالعمل به ونشره.

إذا أردت يا طالب العلم أن تقتدي بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: فلا تقتصر على ما ورّثوا من العلم فقط، ب عليك أن تأخذ بما ورّثوا من علم، وعمل، وتربية، وأخلاق، وتعامل، وحرص على نصح النّاس، والصّبر عليهم، والحلم عن المسيء منهم، ومخالطتهم في الخير، والسّعي في جمعهم على البرّ والتّقوى.

فلم يكن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يكونوا معلمين ومفتين فقط؛ بل كانوا مع ذلك مربين للناس بمخالطتهم ونصحهم وغشيان مجالسهم للدعوة إلى الله، والتذكير، والنصح، صابرين على تعليم جاهلهم، وأذى أحمقهم.

فمن غفل من طلاب العلم والعلماء والدعاة إلى الله والخطباء عن جانب التربية والنّصح ومخالطة النّاس لأجل النّفع والصلة ونشر الخير وتقليل الشّر: فقد فاته جانبٌ عظيم من مهمات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكان تفريطه هذا داعياً إلى تمرّد بعض النّاس، واندثار معالم الشّريعة، وانتشار المعاصي.

فكثير من النّاس إن لم يكن أكثرهم لن يستقيموا على الدّين ويثبتوا على الحقّ ويتركوا المنكر بسبب وجود المعلّمين والعلماء؛ بل لأجل وجود من يربيهم، ويخالطهم، ويعاملهم بالحسنى، من النّاصحين من العلماء وطلاب العلم وأهل الخير.

فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما ترك قومه أيّاماً قليلة عبدوا العجل وأشركوا بالله، مع أنّ هارون أخاه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان معهم يعلمهم وينكر عليهم، ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يُعلم، ويربي،

وينصح، ويذكر، ويخالط النّاس، ويتألف قلوبهم، ويصبر على أذاهم، ويحلُم عن سفيهم.

فما أحوج الأمة إلى المربين الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر بالكلمة الطيبة، والقدوة الحسنة، والأسلوب اللطيف.

طالب العلم هو في الحقيقة خادم لدين الله تعالى، وخادم طلاب العلم وغيرهم، بتوصيل العلم لهم، ورحمتهم، وتحبيبهم لله، وتحبيب الله لهم.

وإذا استشعر طالب العلم أنّه خادم في سبيل الله: تواضع وهضم نفسه، ولم يجد في نفسه منّة ولا تفضُّلا على أحد.

فيا طالب العلم ابذل نفسك لله وفي سبيل الله، واجتهد في خدمة النّاس بقلمك ولسانك وجاهك، وتخلص من التّباهي بالأوصاف الّتي يتباهى بها كثير من النّاس، وخاصّة من المنتسبين للعلم، حينها يرفعك الله بصدقك وإخلاصك وتواضعك.

والنّاس لن يحتاجوا إلى شهاداتك، بل يحتاجون إلى طيب تعاملك، ولن يحتاجوا إلى كثرة كلامك، بل يحتاجون إلى حسن فعالك.

اعلم أخي طالب العلم الموفّق أنّ إحسانك للنّاس بالتّعامل الحسن، وبذل العلم بصدر رحب، والبشاشة في وجوههم أمرٌ متحتّم عليك، فإحسانك ببذل العلم، وحسن التّعامل، واهتمامك بمن يسألك ويستفتيك ويطلب منك مساعدته في إصلاح دينه أمرٌ واجبٌ عليك، وهو دليل على وجود الرّحمة في قلبك، والرّاحمون يرحمهم الرّحمن.

وقد ذكر لي رجلٌ بأنّه ذهب لأحد طلّاب العلم فطلب منه أن يعينه على فهم بعض المسائل الّتي يحسنها، فرفض بحجّة أنّه مشغول بالبحوث والتّأليف!

وذهب آخر إلى أحد طلّاب العلم ممن له مكانة وشهرة، فبشّره بأنه بدأ يطلب العلم، وأنّه أصبح يخطب خطبة الجمعة، ويلقي بعض الدّورات الّتي فيها منفعة، فلم يكترث بذلك، ولم يحفّزه، ولم ير منه أيّ تفاعل تجاهه!

وذهب أحد طلاب العلم إلى طالب علم قد سبقه في الطّلب، فطلب منه أن يعطيه رأيه في بحث أعدّه، وأن يرشده وينصح له،

فرفض ذلك، وجاءه بعد ذلك وقد طبع بحثه فأهداه له فلم يكترث بذلك ولم يحفّزه!

قال: فضاق صدري، وتعجّبت من عدم اكتراثه لي وقد أتيته مرّة طالباً المساعدة، ومرّة مبشّرا!

فأين الإحسان، وأين الرّحمة، وأين حبُّ الخير للغير؟

إنّ هؤلاء ونحوهم إنّما جاؤوا راغبين في العلم والتّعلّم، والدّعم والتّحفيز، فحقّهم أن يعانوا، ويهتمّ بهم، لا أن يردّوا.

ووالله إنّ مساعدة هؤلاء، والوقوف معهم، وصناعة الإبداع والهمّة في نفوسهم: خير من العكوف لساعات مع الكتب بحثاً أو تأليفاً، وصناعة طالب علم حاذق قد يكون خيراً من تأليف عشرات الكتب، وإلقاء العشرات من المحاضرات والدّروس.

فارفق يا طالب العلم بالنّاس، وتواضع لهم، وتودّد لهم، واصبر على أذاهم، وخاصّة طلابك الّذين جاؤوا ليستفيدوا من أخلاقك وأدبك قبل علمك.

فكم من شيخ صنع طالب علم حمل رايته، ونشر علمه، وبذل واجتهد ونفع الأمّة أكثر من نفع شيخه، وانتفع النّاس بكتبه أكثر من كتب شيخه!

فما أجمل أن تشكر النّاس على محاسن أعمالهم، ولو لم تجن منها فائدة لنفسك، فهذا الخُلُقُ لا يتخلّق به إلّا النّفوس الشّريفة، كيف وقد سمّى الله تعالى نفسه شاكراً!

فإذا أردت أن تصنع من طلّابك قادة أذكياء نجباء، وأن ترفع همم وعزائم من حولك من الأصدقاء والأقارب والأهل حتّى تناطح السّحاب: فتلمّس الصّفات الحسنة فيهم، وأبرزها واشكرهم عليها، واجتهد في تطويرها وثباتها.

فربّما كانت في أحدهم صفة عظيمة لم يلق لها بالاً، ولكن حينما تبرزها وتذكرها له، وتشكره عليها: يلتفت إليها، ويبدأ في تطويرها والعناية بها، حتى ينتفع بها هو وغيره انتفاعاً عظيماً.

فلا تحتقر كلمةً تبذلها لأخيك، تحمل في طياتها تحفيزاً على خير، وتنبيهاً على صفة وخلق عظيم، فربما أجرى الله تعالى خيراً كثيراً من جرّاء هذه الكلمة.

فقد ألّف لبخاري صحيحه بسبب كلمةٍ سمعها من شيخه إسحاق بن راهويه حين قال: " لو أنّ أحدكم يجمع كتاباً فيما صحّ من سنّة الرّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ" قال البخاري: " فوقع ذلك في نفسي" فألّف كتابه الصّحيح الّذي هو أصحّ كتاب على وجه الأرض بعد كتاب الله.

واسأل نفسك يا طالب العلم متى رأيت صفة في أحد من النّاس فمدحته عليها؟

فهل يعقل أنّ من حولك ومن تخالطهم لا توجد عندهم صفات وأخلاق بارزة؟ هذا لا يعقل.

وإن كنت ترى وتكتم، فهو عيب فيك، وقد يدلّ على حسد في القلب.

فينبغي عليك أن تتلمّس فيمن حولك من أقارب، وأولاد، وأصدقاء، وطلّاب، الصّفات الحنة، والقيم النّبيلة، فتبرزها لهم، وتشكرهم عليها.

فهاك هي المعارج، ونجازها أن يعلم طالب العلم أنّ مبتدأ الأمر ومنتهاه توفيق الله تعالى، فكلُّ ما مضى ذكره من آلات العلم وصناعاته ورياضاته إنّما هي محضُ أسباب، إذا جلّلها توفيق الله تعالى حَيَتْ، وإذا وُكِلَ فيها الطالبُ إلى نفسه خَوَت .. فلا الظروف المحيطة بالطالب من اختلائه بالعلم وانصراف الصّوارف عنه وتهيُّؤ الأسباب المعينة له على التّحصيل، ولا مقوّماته الذّاتيّة من ذكاء وحفظ وغيرها ليس شيء من ذلك بنافعه إذا تخلّفت عنه الرّعاية الإلهيّة والمعونة الرّبّانيّة.

وطالب العلم إذا استحضر ذلك كان طلبه للعلم طلباً لبقاء هذا العلم وديمومته، طلباً لبقاء أنوار الرّسالة الإلهيّة في الأرض، وفي ذلك استبقاء للدنيا واستحياء لأهلها، فإنّه لا بقاء لها إلا ما دامت شمس الرّسالة تضيء أطرافها، فالدُّنيا كلُّها ملعونة ملعون ما فيها إلّا ما أشرقت عليه شمسُ الرّسالة وأسّس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلّا ما دامت

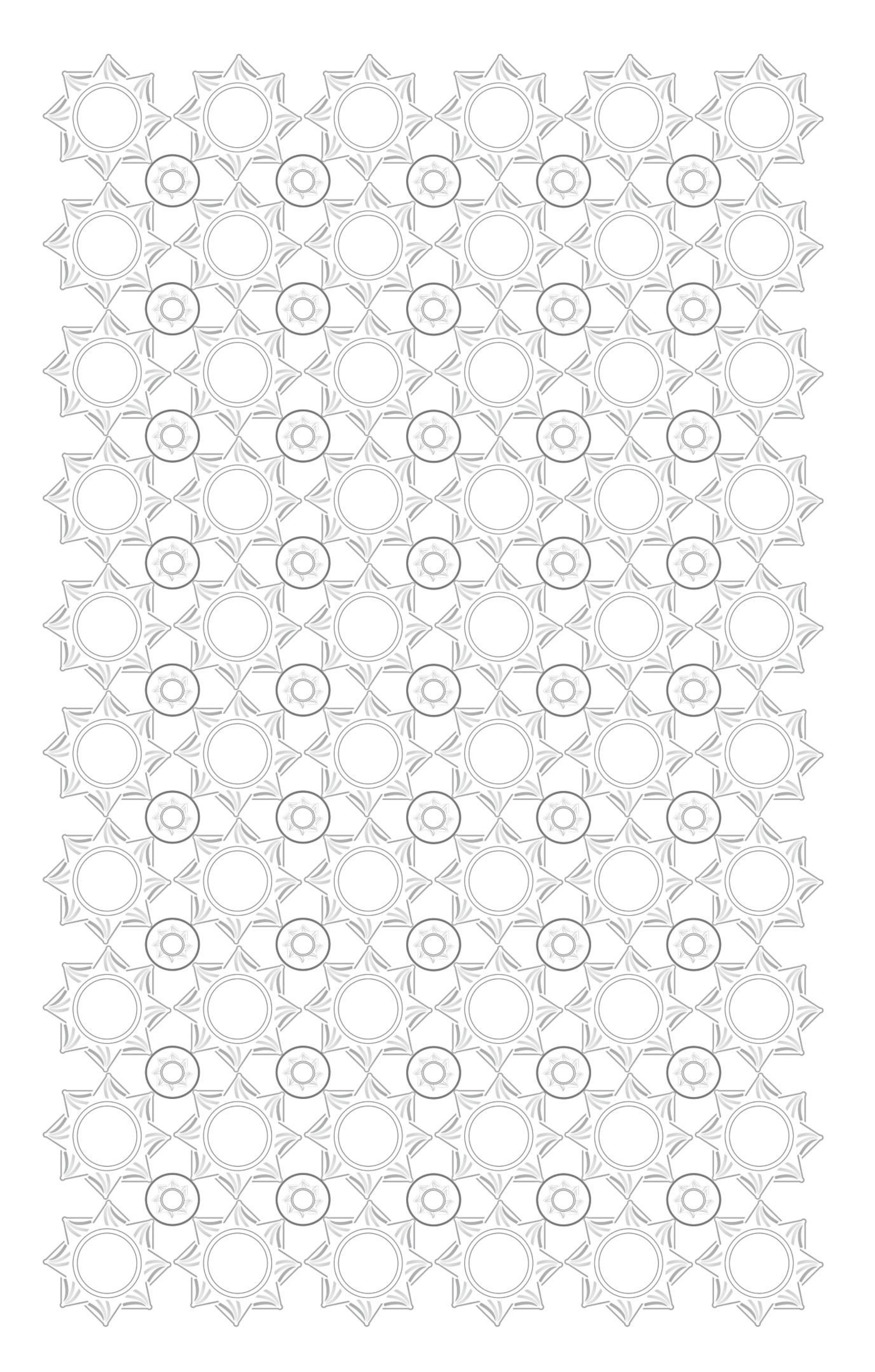
آثار الرُّسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرُّسل من الأرض وانمحت بالكليّة خرّب الله العالم العلويّ والسّفليّ وأقام القيامة.

وقد أفرد البخاري في صحيحه كتاباً للعلم، وعقد فيه باباً ترجمه بـ (باب رفع العلم وظهور الجهل)، ومعلوم ما للبخاري من عظيم الفقه في وضع كتابه وصُنع تراجمه وانتقاء ما يورده تحت كلّ باب من أبوابه، وقد كان من بديع صنعه - وما أجلّ صنائعه!- أن صدّر هذا الباب بقول ربيعة الرّأي: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيّع نفسه.

قد كنت على علم بمقالة ربيعة، لكنّ جلالة أخذت بتلابيب قلبي لما رأيت موقعها من صحيح البخاري، هي رسالة منه لكلّ طالب علمٍ أن كن حافظاً للعلم بطلبك، وضامناً لبقائه باجتهادك، فلا تضيّع نفسك، فإنّ في تضييعها تضييعاً للنّاس، بل تضييعاً للدُّنيا بأسرها .. فاللّهمّ لا تعُقنا عن العلم بعائق، ولا تمنعنا عنه بمانع.

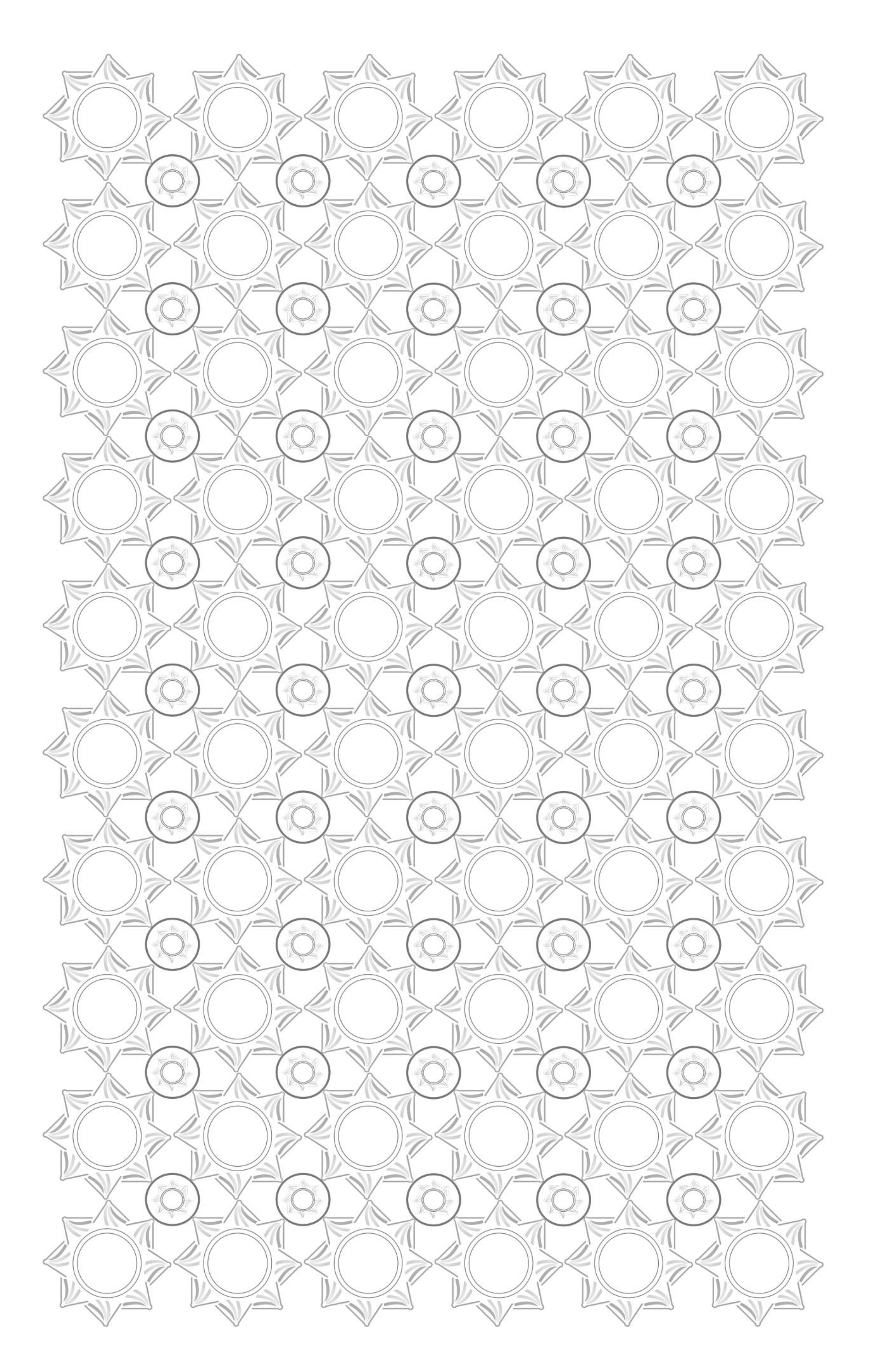
وهكذا فليكن وارثُ الأنبياء، معتمداً في تحصيله العلميّ على الله وحده، متخلّصاً من حوله وطوله وقوته، إذ لا حول له ولا طول ولا قوة إلّا بالله.

هذا ما تيسّر جمعه وطرحه، رغبةً في استنهاض همم طلّاب العلم، بذكر بعض التّجارب والقواعد والنّصائح، الّتي قد تكون سبباً بإذن الله تعالى في نفعهم.






جهد المقل
رسالة
في الطريق إلى ثقافتنا





توطئة:

كانت لكتب العلم مكانة عظيمة في نفوس العلماء، فهي جليسهم الذي لا يمل، ورفيقهم في السفر، ومائدتهم في الجلسات، وأنيسهم في الخلوات، فإنَّ القراءةَ هي الحياة! ولا حياةَ بلا قراءة! فهي الطَّريقُ الأمثلُ: لتثقيفِ الجنَان، وتَقويةِ الفَهْم، وتَوسيعِ المدارك، وزيادةِ العقل، وشَحْذِ الخاطِرِ، وإثراءِ الفِكْر، وحُصُولِ الرَّاحةِ، وذهابِ القَلَق، وتهدئةِ الأعصاب، وتَطويرِ الذَّات، وسَعَةِ النَّظَر، وتَحفيزِ الذِّهْن، وحِفظِ الوقت، وتَمامِ الأُنْس، وعُمْقِ التَّحليل، ودِقَّةِ الاستنباطِ، وقُوَّةِ التَّخيُّل،

وجَلْبِ السُّرور والحبُور، واحتيازِ الفوائد، واقتناصِ الشَّوارِد، وكمالِ المُتعة، وترسيخِ القِيَم، وتَعجُّلِ النَّعيم، وتميةِ الذَّوق، ودَوَامِ البَهجة، وقُوَّةِ التَّركيز، وتَنَامِي اللَّذَّة، وتَلَاشي الضَّجَر، واكتسابِ الخِبْرات، وتمتينِ الأسلوب، وتأخيرِ الخرَف، وطِيبِ العَيش، وإجمامِ الفؤاد، وذهابِ الهمّ، وزوال الغمّ، وتفريجِ النّفس، وتقويةِ الملَكَات، وبلوغِ التّميُّز، والشُّعورِ بالسَّعادة، والوصولِ إلى الإبداع، والتَّرقِّي في مدارج الكمال .. والقراءة من قبل هذا ومن بعد: أداة من أدوات المعرفة، وآلة لتحصيل العلوم والفنون.

لهذا كلّه؛ اجعلها - أيُّها الموفَّق - عادةً وعبادةً..

ولتعلم يا رعاك الله أنّ رأس الثّقافة هو الدّين، ولا تكاد توجد أمّة من خلق الله ليس لها دين بمعناه العام، كتابيّا كان أو وثنيّاً بِدْعَاً لا كتاب له ولا وثن، ولا سبيل إلى أن يكون شيء من ذلك واضحاً في عقل الإنسان إلّا عن طريق اللُّغة لا غير، فالدّين واللُّغة منذ نشأة

الإنسان الأولى متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل، والدّين صاحب السُّلطان المطلق الخفيّ على اللُّغة وعلى النَّفس وعلى العقل جميعاً، سلطان لا ينكره إلّا من لا يبالي بالتّفكير في المنابع الأُول، وأسلوب كلّ أمّة في التّفكير والنّظر منتزع من دينها الّذي تدين به، وإنّ الفساد لم يدخل على ثقافتنا نحن المسلمين دخولاً يوشك أن يطمس معالمها ويطفئ أنوارها إلّا بعد التّصادم الصّامت المخيف الّذي حدث بيننا وبين الثّقافة الأوربّية الحاضرة، بعد أن كان الأوربّيون في قلب أوربّا في جاهليّة جهلاء، همجاً هامجاً، لا دين يجمعهم، حتّى جاء "عصر النّهضة".

إنّ الجديد والتّجديد لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنى إلّا أن ينشأ نشأة طبيعيّة من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة في لأنفس أهلها، ثمّ لا يأتي التّجديد إلّا من متمكّن النّشأة في ثقافته، متمكن في لسانه ولغته، متذوق لما هو ناشيء فيه من آداب وفنون وتاريخ، مغروس تاريخه في تاريخها وفي عقائدها في زمان قوّتها وضعفها ومع المتحدّر إليه من خيرها وشرّها، محسّاً بذلك كلّه إحساساً خالياً من الشّوائب، ثمّ لا

يكون التّجديد تجديداً إلّا من حوار ذكيّ بين التّفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقّدة الّتي تنطوي عليها هذه الثّقافة وبين رؤية جديدة نافذة، حين يلوح للمجدد طريق آخر يمكن سلوكه، من خلاله يستطيع أن يقطع تشابكاً من ناحية ليصله من ناحية أخرى وصلاً يجعله أكثر استقامة ووضوحاً، وأن يحل عقدة من طرف ليربطها من طرف آخر ربطاً يزيدها قوة ومتانة وسلاسة. فالتّجديد إذن حركة دائبة في داخل ثقافة متكاملة يتولّاها الّذين يتحرّكون في داخلها كاملة حركة دائبة عمادها الخبرة والتّذوق والإحساس المرهف.

فاقرأ الآن تاريخك بعين عربيّة بصيرة لا تغفل؛ حتّى تلم بأطراف البلاء الّذي حاق بأمّتك العربيّة الإسلاميّة، وحتّى لا تدخل تحت المعنى الّذي قاله أبو عبادة البحتري

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَعْيُنٌ مَفْتُوحَةٌ وَعُقُولٌ تَجُولُ فِي الْأَحْلَامِ

أ حلام النّهضة، والتّجديد، والأصالة والمعاصرة، والثّقافة العالميّة، وأحلام أخرى كثيرة لا تنقضي، أحلام جعلت صدمة التّدهور مستمرّة متمادية متفاقمة إلى هذه السّاعة الّتي تقرأ فيها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وميادين معركة الثّقافة والعقل ميادين لا تعدّ، بل تشمل المجتمع كله في حياته، وفي تربيته، وفي معايشه، وفي تفكيره، وفي عقائده، وفي آدابه، وفي فنونه، وفي سياسته، بل كلّ ما تصبح به الحياة حياة إنسانيّة كم عرفها الإنسان منذ كان على الأرض.

وما قصدّتُ من ذلك كله إلّا الإغراء بقراءة الكتب، عسى أن تكون خطوة في مسار التّصوّر الصّحيح لحقائق الأمور، ومبلغ نفس عذرها مثل منجح.



من العجيب أنَّ القراءة في الكتب والنَّظر فيها يتقاسم كثيراً من الناس على اختلاف تخصّصاتهم ورغباتهم وميولهم محبة، ولذا ما زال الشعراء يتغنّون بالكتب وحبها ومجالستها، ويستغنون بها عن مجالسة الآدميين، ولعلّي ألمح إلماحات يسيرة بذكر بعض من الأمور والقواعد الّتي ذكرها أهل العلم لمن أراد أن يقرأ كتاباً لكي يفهم الفهم الصّحيح، ولا يكون فهمه خطأً ولا يكون فهمه سبباً لزيغه وضلاله، فإنّ لكل شيء زغل، ولكل شيء يحبّه الآدميُّ ربّما ما يقابله من الضّرر الّذي يقع على نفسه، وقارئ الكتب رُبَّما يريد الصّواب فيقع في الخطأ، وربّما يُريد الهداية فيقع في ضدّها، فليس كلّ راغب في الحق يصل إليه، وليس كلّ مسترشد يُهدى إليه، وإنّما التّوفيق بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إن القراءة مهارة يجب أن يحرص عليها كل مسلم ويجيدها، ولقد حث الإسلام على القراءة لما لها من فوائد جمة للفرد المسلم ومجتمعه على السواء، أما سمعت قول الله تعالى في أول آية أنزلت من القرآن: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾؟

وموضوع القراءة والمطالعة من الأمور التي تستهوي بعض البشر وتجد عندهم قبولا وتشجيعا، بيد أنها تجد عزوفا من آخرين، والمتأمل في ذلك يجد عوامل متداخلة كثيرة تؤثر على حب القراءة والاطلاع إيجابا وسلبا..

ورغبة في المساهمة في هذا الموضوع ووفاء لما تعلمته واستفدته من القراءة والاطلاع ومن باب رد الجميل، كان لزاماً إرداف هذا المبحث، والحقيقة أن فن القراءة علم يحتاج المرء إلى الغوص في كنوزه وسبر أغواره وكشف أسراره، لكي يساعد في تشجيع الناس على القراءة وإنزالها المنزلة اللائقة بها..

يا لذّةً بين كتب العلم أعشقها   لا شيء يعدلها مالٌ ولا سَمَـــرُ

هي الغِذاءُ لروحي بل شِفَا سقمي وَهِي الأنيس إذا ما أقبل القمرُ

وأكسبتني عقولاً للورى ذهبوا   أجسادهم فنيت والعلم مستطرُ

تُعطي الهناء بلا مينٍ ولا كدَرٍ   ولا جدالٍ كما قد يفعل البشَرُ

وما بها مع طويلِ المُكثِ أيُّ أذىً ولا ملالٌ ولا عَتْبٌ ولا ضَجَرُ

والعُمرُ ليس له مِنْ فوته عِوضٌ   وبئس عُمرٌ فَنَى وما له أثَــرُ

أَقْبِل على العلم وابْحَثْ عن مجالسه   فالعِلمُ عزٌّ ومجدٌ كلُّه عِبَـــرُ

كم عالمٍ كان قبل العلم ممتهناً   فإذا به عَلَمٌ كالمزن ينتشـــرُ

واعلم رحمك الله أن الكتاب نعم الأنيس في الوحدة والصديق في الغربة، وليس هناك شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرة من كتاب مفيد.. وهو الرفيق الذي لا يملّك ولا يخدعك، وهو جار مرافق ومعلم نافع، يقرب لك البعيد ويريك القريب، ولولم يكن من فضله علينا إلا حفظه

لأوقاتنا فيما ينفعنا وصونها عما يضرنا من فضول النظر والكلام والمخالطة ومجالسة من لا خير فيه - لكان في ذلك على صاحبه أسبغ نعمة وأكبر منَّة.

ركائز في القراءة:

القراءة: هي عملية التعرف على الرموز المكتوبة لفهم ما ترمي إليه من المعاني، سواء كانت القراءة نظرا إلى الرموز المكتوبة فقط، أو مع تحويلها إلى أصوات مهموسة، أو مسموعة، وهذه الرموز هي الكلمات التي تحمل دلالات معينة، وكلما استوعب الفرد حصيلة معينة من هذه الكلمات ذات الدلالات، كلما اتسع أفقه، وفهم ما يدور حوله، وهذه النافذة المفتوحة على المحيط المحلى للفرد والعالم الخارجي، وهى وسيلة اكتساب المعارف، والخبرات المتنوعة. فإذا كانت الحياة تساعد الفرد

على النمو والتعامل مع الغير، فإن القراءة توسع مداركه، وذلك بنقله إلى آفاق واسعة [٦].

مادة (قرأ) في اللغة العربية مهما تحولت واشتق منها فإنها تفيد في أصل الوضع: (جمع شيء بشيء) أو (ضمه إلى بعضه)، ومن هذا سمى الكلام المكتوب إذا تُلِيَ: (قراءة أو مقروء) لأن القارئ يضم الحروف بعضها إلى بعض، والكتاب الكريم قرآن لأن سوره وآياته مضمومة إلى بعضها البعض [٧].

ثم نقل الكلمة إلى كل ما يتلى وإن لم يلاحظ تَالِيهِ أصل وضعه الذي هو الجمع، فقلنا القراءة وقصدنا ما يتكلم به المتكلم مما هو مكتوب أو محفوظ من مكتوب، وهكذا.

---

(٦)إسماعيل، زكرياء (١٩٩٩)، طرق تدريس اللغة العربية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص ١٦٦.

(٧)الرازي محمد بن أبى بكر (٦٦٠ هـ) "مختار الصحاح"، دار القلم، بيروت، لبنان.

القراءة فنٌ سامق، ومركبٌ ذلولٌ لمريد المعرفة، إلا أن جمهرةً من المثقفين ـ بله غيرهم ـ افتأتوا عن ركائزَ تحكُمُه ، وثوابتَ تضبطه، حتى أصبح مُنْتَجَعاً قليل الكلأ، وَالِجُهُ لصيق الهُزَال العلمي !

لذا : فهذا رسمٌ لشيء من تلك الركائز، بُغْيَة الإصلاح .

الركيزة الأولى: أن الإيغال في بطون الكتب، والإمعان في فهم مقاصد أصحابها، معقودةُ زمامُه بالبِنْية العلمية للناظر قوةً وضعفاً، وهي مُحَصِّلة التَّلقي عن الأشياخ، أو ما هو آيب إليه، ومن ثم: نسطيع (تفسير) إفادة شخص من كتاب أكثر من آخر، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "موافقاته" : "وإذا ثبت أنه لابد من أخذ العلم عن أهله فلذلك طريقان :

أحدهما: المشافهة، وهي أنفع الطريقين وأسلمهما،...

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين، ومدوني الدواوين. وهو أيضاً نافع في بابه بشرطين:

ـ **الشرط الأول:** أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله: ما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، أو مما هو راجع إليه؛ وهو معنى قول من قال: "كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال". والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً، دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد.

ـ **الشرط الثاني:** أن يتحرَّى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين" [٨] .

لذا: نجد العلماء العارفين يحثون المتعلم على تلقف العلوم من أفواه ذوي الذِّكر، حتى تتكون عنده النواة العلمية المطلوبة، والحصانة المانعة

---

(٨) الموافقات: ج١، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

من ولوج حُثالة الأفكار، وزُبالة الأسفار، إلى مسارب النفس، بل "إذا وردت عليه ردَّها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة"[٩].

الركيزة الثانية: مما لا ريب فيه أن الأسلاف الأول أرسخ في العلم قدماً، وَأَسَدُّ فهماً ممن أتى بعدهم، هذا في العلوم المشتركة بين السابق واللاحق، وأصل ذلك: التجربة والخبر.

ـ **أما التجربة،** فهو أمر مشاهد في أي علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ ـ في علمٍ ما ـ ما بلغه المتقدم، وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي أو نظري، فأعمال المتقدمين في إصلاح دنياهم ودينهم على خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في التحقيق أقعد، فتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن ، ومن طالع سيرهم وأقوالهم رأى العجب في هذا المعنى.

---

(٩) مفتاح دار السعادة لابن القيم: ج١، ص ١٤٠ .

ـ **وأما الخبر** ، ففي الحديث: "خيرُ القرونِ قرني، ثمَّ الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهم"، وفي هذا إشارة إلى أن كل قرن مع ما بعده كذلك [١٠].

فابقِ الأولوية لكتب الأوائل الأقدمين؛ قراءةً وفهماً وحفظاً، ولا يُغْتَرَ بما يُرى للمتأخرين من كثرة كلام في كراريسهم ومكتوبهم؛ حيث فتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين ، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض.

وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم؛ كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت، كيف كانوا؟، كلامهم أقل من كلام ابن عباس، وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعوا التابعين: كلامهم أكثر من كلام

---

(١٠) الموافقات: ج١، ص ٩٧ .

التابعين، والتابعون أعلم منهم، فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب، يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد(١١).

ومع هذا التفضيل الإجمالي للأولين فإن الثَّقِف مَن يُفِيد من رُقُم الآخَرِين، في توضيح مسألة، وإلحاق فرع بأصل، ونحوهما.

الركيزة الثالثة: إن فَلْي الكتب، وتأرُّض مكانها، جادةٌ مطروقةٌ، لكن بقصد تحقيق البصيرة عند العمل، ومعرفة السبيل الأقوم عند الواقعة؛ لأن العامل "لا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه" (١٢).

فالنظر الجالب للعمل المفيد هو العلم النافع؛ لأن العلم الحق "هو العلم الباعث على العمل"(١٣)، "والمسكين كل المسكين من ضاع

---

(١١) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب: ص ٩٢-٩٤، تحقيق: مروان العطية.

(١٢) رسالة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية : ص ٤٨-٤٩.

(١٣) الموافقات: ج١، ص ٦٩.

عمره في علم لم يعمل به، ففاته لذات الدنيا، وخيرات الآخرة، فقَدِمَ مفلساً مع قوة الحجة عليه!"[١٤].

ولعل من المناسب أن نبدأ في موضوعنا هذا بمعرفة أسباب العداوة بين القراءة وبعض الناس.

---

(١٤)صيد الخاطر لأبي الفرج ابن الجوزي: ص ١٤٤.

أسباب العداوة بين القراءة وبعض الناس:

إن المتأمل في مجال القراءة ليلاحظ وجود نفور وعداوة - إذا صح التعبير - بين بعض الناس والكتب، وأقول: لا عجب ولا غرابة أن يكون من أسباب تأخر الأمة وعدم تقدمها هجرها للقراءة، فالقراءة هي مصدر الوعي في المجتمعات.

ولقد اهتم علماء السلف اهتماما كبيرا في موضوع العناية بالكتاب، فجمعوا في كتبهم فصولا وأبوابا في أدب طالب العلم مع كتابه، وكيفية النسخ، والحث على الجيد من الورق، وصفة القلم الذي يكتب به والحبر ولونه، إلى غير ذلك من الآداب المتعلقة بالكتاب، كما كان حرص السلف على جمع الكتب عظيما، فهي جليسهم الذي لا يمل، ورفيقهم في السفر، ومائدتهم في الجلسات، وأنيسهم في الخلوات. وكان ابن الجوزي يقول في كتابه صيد الخاطر: (وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من

مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعت على كنز...)

وقالت زوجة الإمام الزهري عن الكتب أنها أشد من الضرة.

وفي عصرنا هذا تجد أكثر الناس يقرءون الجرائد والمجلات وأخبار الرياضة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ويهملون الكتاب المفيد وبالذات الكتاب الإسلامي.

ومما يحزن القلب قول أحد اليهود الخبثاء حين لامه بعض أصحابه من المغضوب عليهم على نشره لتصريح يكشف عن مخططاتهم وأطماعهم، فما كان منه إلا أن قال : اطمئنوا فإن العرب لا يقرءون !!

لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

ولو تأملنا أسباب العداوة بين الناس والقراءة لوجدنا أنها ترجع إلى أمور عديدة منها:

١ـ غلاء أسعار الكتب.

٢ـ عدم معرفة قيمة القراءة وفضلها، وقديماً قيل إن الإنسان عدو ما يجهل.

٣ـ عدم وجود الأقران الذين يحثون ويشجعون غيرهم على القراءة، فالمرء بقرينه.

٤ـ استبدال الغث بالسمين والانشغال عن الكتب المفيدة بقراءة المجلات التافهة والصحف الرياضية وغيرها.

٥ـ علو أسلوب الكاتب في اللغة والمضمون، أو أن يكون مكتوبا بروح انهزامية متأثرة من ضغط الحضارة الغربية.

٦ـ عدم تشجيع القراءة في البيوت وانكباب الطلاب على المقررات الدراسية فقط، بل ومن المؤسف أن بعض الآباء إذا لاحظ وجود كتاب في يد ابنه نهره عن قراءته وأمره بالتزام الكتب المدرسية !.

٧ـ بعض الناس طبيعتهم حركية، يحبون الأعمال التي فيها حركة ونشاط، ولا يحبون الجلوس في مكان واحد لمدة طويلة، ويحبون المشي والذهاب والتنقل، وهؤلاء يحتاجون لتدريب وصبر.

٨ـ عدم معرفة معاني بعض المصطلحات التي تتكرر أثناء القراءة، ومن المهم أن تعرف أخي القارئ أن لكل كتاب مصطلحات ورموز عادة ما تكون موجودة في مقدمة الكتاب حيث يبين الكاتب أسلوبه فيها، ومعرفة تلك المصطلحات من الأمور التي تساعد على القراءة والفهم.

٩ـ الاصطدام بأمور صعبة عند بدء القراءة، ومن ذلك :

أ) قراءة الكتب الطويلة.

ب) قراءة كتب صعبة الفهم.

ج) كثرة الكتب مع الافتقار إلى الخبرة في اختيار الأفضل والمفيد منها.

١٠- ضعف اللغة العربية لدى القُرّاء وعدم فهمهم لمعانيها، ولذلك ينصح بقراءة الكتب المشكولة.

كما أن هناك قاعدة مهمة تقول:

كلما كان الكتاب ألصق بالقرآن والسنة، كان أيسر في الفهم والقراءة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

ويستحسن اختيار كتب أصحاب الأسلوب الرشيق والعبارة السهلة في بدء الأمر، ثم الارتقاء بعد ذلك إلى الأعلى فالأعلى كلما زاد التمكن من اللغة.

ولعله من المفيد أن أشير إلى أنه قد يكون لبعض الكلمات معنيان: لغوي وشرعي، وقد يختلفان تماما. ومثال ذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُسْقِيَ ماءَه زَرْعَ غيره"، وليس المقصود هنا السقيا المعروفة - وهو المعنى اللغوي - ولكن المقصود هو عدم الدخول على المطلقات حتى يطهرن

- وهذا هو المعنى الشرعي - ! ومنه أن رجلا سمع الحديث الذي فيه: "نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ عن الحِلَق قبل صلاة الجمعة"، فلم يحلق رأسه أربع سنوات حتى عرف معنى الحديث المقصود وهو النهي عن حِلَق العلم (جمع حَلَقَة) قبل صلاة الجمعة، وذلك لكي يتفرغ المسلم لتلاوة القرآن وذكر الله.

١١- السرحان، وهو عدم التركيز، وهذه المشكلة يشكو منها كثير من القراء، فيقولون: (نختم الصفحة دون أن نفهم شيئا، وننهي الكتاب دون استيعاب، وننظر في الكتاب والعقل شارد). والسرحان أسبابه كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

١٢- دنو الهمة: نجد بعض الناس وللأسف دني الهمة، راضياً بالدون وكأنه خلق للأكل والشرب والنوم، فهولا يعرف الكتب إلا شكلاً ولا القراءة إلا ذكرا.. ونقول له ولشاكلته:

قد هيؤوك لأمرٍ لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

١٣- الانشغال بالملهيات كالتلفاز والجلسات الفارغة، فتجد أن بعض الناس يجلسون الساعات الطوال أمام التلفاز ويبخلون على أنفسهم بساعة للقراءة، ثم يقولون: ما عندنا وقت، وقد قال الإمام يحي بن أبي كثير: لا يستطاع العلم براحة الجسم.

١٤- عدم فهم القارئ لمعظم ما يقرؤه وإن كان المقروء ليس صعبا، وسبب ذلك الضعف الشديد في الثقافة العامة وعدم اعتياد القراءة أصلا، فقد يمر على هذا الشخص سنوات طويلة لا يقرأ فيها كتابا واحدا.

١٥- الانشغال بأنشطة أخرى.

حلول مقترحة لعلاج مشكلة النفور من القراءة:

إن مشكلة نفور الناس من القراءة مشكلة واقعية تحتاج إلى تعاون وجهد دؤوب لحلها، ولعلي أشير إلى بعض الحلول، ومنها:

١ـ إظهار مكانة الكتب والقراءة وفضلها، وتوضيح أهمية القراءة في حياة المسلمين، وذلك عن طريق الإشارة إليها في خطب الجمعة والدروس والمواعظ.

٢ـ تشجيع القراءة بين الناس وذلك عن طريق:

أ) تكوين مكتبة صغيرة داخل المنزل يراعى فيها أعمار ومستويات الأسرة.

ب) تخصيص حصص للقراءة الحرة في المدارس والاهتمام بالمكتبات المدرسية ودعمها وتشجيع القائمين عليها.

ج) إهداء الكتيبات في المناسبات المختلفة (زواج، عقيقة...) ونحوها.

د) إقامة أسبوع للكتاب على مستوى المدارس والجامعات والأندية الأدبية والرياضية وغيرها.

هـ) الاهتمام بطباعة الكتب وتوفيرها بأسعار مناسبة.

و) فتح مكتبات علمية في المساجد وتشجيع رواد المساجد على القراءة والاطلاع.

٣ـ التدرج في قراءة الكتب فيبدأ بالكتيبات الصغيرة ثم بالشروح والأمهات.

٤ـ استخدام قاموس مختصر في اللغة العربية أو الحديث النبوي، مثل كتاب مختار الصحاح والقاموس الوسيط والمصباح المنير، وكتب غريب الحديث مثل كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام ابن الأثير.

٥- تعلم قواعد اللغة العربية الأساسية، ويمكن الاستعانة بكتب القواعد المستخدمة في المدارس.

٦- قراءة الكتب التي لها علاقة بالواقع وما يحتاج الإنسان إلى معرفته مثل العبادات - كصفة الوضوء والصلاة - أو المعاملات أو الآداب، فإن المسلم عندما يطبق ما يقرؤه في حياته ويجد فائدته ويستشعر مردوده عليه، يدفعه ذلك لمداومة القراءة والمطالعة..

٧- تقييد الفوائد والدروس إما في جانب الكتاب (بالمرسام حتى يسهل إزالتها) أوفي ورقة أو تجميعها وترتيبها في دفاتر ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة.

وليعلم أن هناك كتبا مؤلفة لم تكن في الأصل إلا مجموعة من الفوائد والخواطر التي سجلت، مثل كتاب (بدائع الفوائد) لابن القيم وكتاب (صيد الخاطر) لابن الجوزي وغيرها، فاحرص على تقييد الفوائد فقد تصبح مثلهم.

٨ـ التنويع في القراءة والمطالعة ويكون ذلك بالتنقل بين كتب الفنون المختلفة من السيرة للحديث للفقه للأدب.. وقد ذُكِرَ أَنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان حين يحس من طلابه فتورا – أي تعبًا وملًلا - يقول: (هاتوا ديوان الشعر)[١٥].

---

(١٥)أقول: لا أصل له، لم أجده ومعناه صحيح كما هو ظاهر، وبعضهم يذكره بلفظ (كان ابن عباس إذا مل من الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعر). علقه بهذا اللفظ برهان الدين الزرنوجي – وهومن علماء القرن السادس إذ قد توفي بين (٥٩١ و٥٩٧ هـ) كما أفاد محقق كتابه وانظر كشف الظنون ٣/ ٤٣ وفيه أنه كان حيا قبل ٥٩٣ هـ ولم يُذكَر بجرحٍ ولا تعديل لكن الظاهر أنه من علماء عصره لما احتواه كتابه من فوائد في التربية كما يفيد كلام محقق كتابه هذا الذي لا يُعرَفُ له غيره - في كتابه (تعليم المتعلم طريق التعلم) تحقيق مروان قباني ص ١١٧ دون إسناد، وبين الزرنوجي وابن عباس مفاوز! وهو عنده بلفظ (الشعراء) بدل (الشعر)، وكذا فعل صديق حسن خان في كتابه أبجد العلوم ص ٧٩ بلفظ (الشعر)، وكذا فعل محمد بن منير بن مرسي في كتابه التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية (ص: ٢١٢ ، ص ٢٢٠) نقلا عن الزرنوجي بلفظ الزرنوجي نفسه، وكان بعض السلف يجعل بجانبه منديلا مبلولا لكي يمسح به وجهه عند شعوره بالنعاس. لا أصل له، علقه الزرنوجي

٩ـ إعادة القراءة أكثر من مرة، فإن في ذلك فوائد عديدة، منها استخراج الفوائد الخفية والاستدراكات والمعاني المتعددة. وانظر إلى تفسير القرآن وعلومه، فكلما نظر العلماء في القرآن كتبوا وسطروا المزيد من الكتب والمجلدات فيه، فهو البحر الذي لا ينضب ولا يشبع منه العلماء.

كما أن إعادة القراءة تثبت ما مضى وتزيد في الحفظ والفهم. وينبغي للقارئ إذا قرأ شيئا ولم يفهمه أن يسأل العلماء وطلبة العلم، كما أن عليه أن يلجأ إلى الله ويكثر من الدعاء والاستغفار وقراءة القرآن، فإنه مفتاح للفهم والاستيعاب. وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يدعو:

في كتابه تعليم المتعلم طريق التعلم تحقيق مروان قباني ص ١١٨ حيث قال: (وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل وكان يضع عنده الدفاتر. وكان إذا مل من نوع ينظر في نوع آخر. وكان يضع عنده الماء ويزيل نومه بالماء. وكان يقول: إن النوم من الحرارة). اهـ، وكذا فعل محمد بن منير بن مرسي في كتابه التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية (ص: ٢١٢) إلا أنه زاد في آخره: (فلا بد من دفعه بالماء البارد). اهـ .

(اللهم يا معلم إبراهيم علمني) حيث قال ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ١٩٧/٦): (وَكَانَ شَيْخُنَا كَثِيرَ الدُّعَاءِ بِذَلِكَ، وَكَانَ إذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ يَقُولُ " يَا مُعَلِّمَ إبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي " وَيُكْثِرُ الِاسْتِعَانَةَ بِذَلِكَ) اهـ...

١٠- معرفة مصطلح الكاتب: فمثلا ماذا يعني سكوت ابن حجر في تلخيص الحبير ؟؟ ماذا تعني "نا" و"ثنا" ؟؟ ما مراد الترمذي حين يقول عن الحديث "حسن صحيح" ؟؟ ماذا يعني غريب ؟؟ وهناك كتب ومؤلفات تقرأ لمعرفة أساليب مشاهير الكُتَّاب...

١١- قراءة كتب السِّيَر والتراجم التي تبين مكانة العلماء وجهودهم.

١٢- حل مشكلة السرحان وعدم التركيز، وذلك يكون بطرق عدة منها:

أولا: المجاهدة والصبر والمران على تجنب شرود الذهن، ويكون ذلك بالتجاوب مع القراءة والانفعال سرورا أو حزنا ـ ضحكا أو بكاء.. انظر إلى قراءة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للقرآن، كان يقرأ على مهل ويتدبر الآيات قال الشيخ المحدث عبد الله بن يوسف الجديع في كتابه (المقدمات الأساسية في علوم القرآن ص ٤٤٦): (وأمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها كانت تصف قراءة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أي للقرآن - بأنّها كانت قراءة مفسّرة حرفا حرفا (وذلك في حديث يعلى بن مملك: أنّه سأل أمّ سلمة زوج النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن قراءة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصلاته؟ فقالت: ما لكم وصلاته؟ كان يصلّي، ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يصلّي قدر ما نام، ثمّ ينام قدر ما صلّى، حتّى يصبح، ثمّ نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسّرة حرفا حرفا[١٦].

---

(١٦)أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤، ٣٠٠) والبخاريّ في «خلق أفعال العباد» (رقم: ١٧١) وأبو داود (رقم: ١٤٦٦) والتّرمذيّ (رقم: ٢٩٢٣) والنّسائيّ (رقم: ١٠٢٢، ١٦٢٩) وابن خزيمة (رقم: ١١٥٨) والحاكم (رقم: ١١٦٥)

والبيهقيّ (٣/ ١٣) من طريق اللّيث بن سعد، عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، به.

قال الترّمذيّ: «حديث حسن صحيح»، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط مسلم». قلت: هو صحيح، وليس على شرط مسلم، فإنّه لم يخرّج ليعلى، وإنّما صحّحته تبعا للترّمذيّ، فإنّه صحّحه مع حكمه بغرابته ممّا دلّ على ثقة يعلى عنده، ويعلى لم يجرح من أحد، ولم يرو منكرا). - قلت الحديث إسناده ضعيف ولا يصح منه سوى موضع الشاهد بلفظ (ثمّ نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسّرة حرفا حرفا). لشواهده أما من حيث الإسناد فإن الصواب أن يعلى بن مملك مجهول وتصحيح الترمذي تساهل منه، هذا لو سلمنا بتوثيق الترمذي له، ولذلك ضعف سنده شعيب الأرنؤوط في تحقيقه مسند أحمد ط الرسالة (٤٤/ ١٤٧ ح ٢٦٥٢٦) وذكر شعيب الأرنؤوط هناك لموضع الشاهد من الحديث شواهدَ وصححه بها وأحال على تخريجه في تعليقه على مسند أحمد ح ٢٦٤٥١ و ٢٦٥٨٣، وهذا خلاصة ما ذكره الألباني في أصل صفة صلاة النبي عليه الصلاة والسلام (١/ ٢٩٣ - ٢٩٧) فإنه ضعف سنده لكن لشواهده أورد الألباني موضع الشاهد منه باللفظ الآنف الذكر الذي فيه (أن قراءة النبي عليه الصلاة والسلام كانت قراءة مفسّرة حرفا حرفا). وصححه الألباني في أصل صفة صلاة النبي (٢/ ٥٦٢). -، وأنس بن مالك يذكر أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمدّ بها صوته مدّا (وسياقه عن قتادة، قال: قلت لأنس: كيف

كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان يمدّ صوته مدًّا. أخرجه أحمد (رقم: ١٢١٩٨ ومواضع أخرى) والبخاريّ - أي في صحيحه -(رقم: ٤٧٥٨) وأبو داود (رقم: ١٤٦٥) والنّسائيّ (رقم: ١٠١٤) وابن ماجة (رقم: ١٣٥٣) من طريق جرير بن حازم، قال سمعت قتادة، به.)، ويفسّر أنس ذلك في رواية، فيقول: كانت مدّا، ثمّ قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * يمدّ بـ بِسْمِ اللَّهِ*، ويمدّ بـ الرَّحْمنِ* ويمدّ بـ الرَّحِيمِ* (هذا في رواية صحيحة، أخرجها البخاريّ (رقم: ٤٧٥٩) من طريق همّام عن قتادة.).

كذلك سمع عبد الله بن مغفّل النّبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ قراءة ليّنة يرجّع فيها، يقول: (آآآ) (هذا في حديث صحيح. متّفق عليه: أخرجه البخاريّ (رقم: ٤٠٣١، ٤٥٥٥، ٤٧٤٧، ٤٧٦٠) ومسلم (رقم: ٧٩٤) من طريق أبي إياس معاوية بن قرّة، قال سمعت عبد الله بن مغفّل قال: رأيت النّبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو على ناقته أو جمله وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح، أومن سورة الفتح، قراءة ليّنة، يقرأ وهو يرجّع.

وللبخاريّ في رواية (رقم: ٧١٠٢): قال: ثمّ قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفّل، وقال: لولا أن يجتمع النّاس عليكم لرجّعت كما رجّع ابن مغفّل يحكي النّبيّ صلى الله عليه وسلم، (قال شعبة بن الحجّاج): فقلت لمعاوية: كيف كان ترجيعه؟ قال: (آآآ) ثلاث مرّات.).

فهذه صفة القراءة النّبويّة ترجع في جملتها إلى التّأنّي والتّرسّل في التّلاوة بإعطاء كلّ حرف حقّه ومستحقّه على أكمل وجوهه، ولا يخفى في التّطبيق ما لذلك من الأثر في تدبّر القرآن وفهم معانيه، وهو المقصود من تلاوته.

وهذه الصّفة تفسير للأمر بالتّرتيل الّذي جاء به نصّ الكّاب ..)، إذا مر بآية نعيم سأل الله الجنة وإذا مر بآية عذاب استعاذ بالله من النار وهذا جاء في حديث صحيح في قراءته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في صلاة الليل عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: (صلّيت مع النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، قال: فافتتح البقرة، فقرأ حتّى بلغ رأس المائة، فقلت: يركع، ثمّ مضى حتّى بلغ المائتين، فقلت: يركع، ثمّ مضى حتّى ختمها، قال: فقلت: يركع، قال: ثمّ افتتح سورة آل عمران، حتّى ختمها، قال: فقلت: يركع، قال: ثمّ افتتح سورة النّساء، فقرأها، قال: ثمّ ركع، قال: فقال في ركوعه: سبحان ربّي العظيم، قال: وكان ركوعه بمنزلة قيامه، ثمّ سجد، فكان سجوده مثل ركوعه، وقال في سجوده: سبحان

ربّي الأعلى، قال: وكان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية فيها عذاب تعوّذ (وفي لفظ: استجار)، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه لله عزّ وجلّ سبّح.)[17].

---

(١٧) وهو حديث صحيح ذكره الشيخ عبد الله بن يوسف الجديع في المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص ٥٠٧) ثم قال: (حديث صحيح. أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٩، ٣٩٤، ٣٩٧) ومسلم (رقم: ٧٧٢) وأبو داود (رقم: ٨٧١) والتّرمذيّ (رقم: ٢٦٢) والنّسائيّ (رقم: ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١١٣٣، ١٦٦٤) وابن ماجة (رقم: ١٣٥١) والدّارميّ (رقم: ١٢٨١) من طرق عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن مستورد بن أحنف، عن صلة بن زفر، عن حذيفة.

السّياق لأحمد واللّفظ الآخر لابن ماجة. قال التّرمذيّ: «حديث حسن صحيح».

وله شاهد من حديث عوف بن مالك، وآخر من حديث عائشة، بنحوه.) انتهى

قلت وصححه الألباني في صحيح أبي داود - الأم (٤/ ٢٤ ح ٨١٥) وصححه على شرط مسلم شعيب الأرنؤوط في تحقيقه مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٢٧٥ ح ٢٣٢٤٠)

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: قُمْتُ مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ليلةً، فقام فقرأ سورة (البقرة)، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: " سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة "، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بـ: (آل عمران)، ثم قرأ سورةً سورةً[١٨].

---

(١٨) وهذا صحيح أيضا صححه الألباني في صحيح أبي داود - الأم (٤/ ٢٧ ح ٨١٧) وقال شعيب الأرنؤوط (إسناده قوي) أنظر تحقيقه مسند أحمد ط الرسالة (٣٩/ ٤٠٥ ح ٢٣٩٨٠) وهذا شاهد لطريق حذيفة.

وجاء من طريق ضعيف فيه زيادة منكرة في آخره بلفظ (وويل لأهل النار) وهوعن أبي ليلى قال صليت إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل تطوعا فمر بآية عذاب فقال أعوذ بالله من النار وويل لأهل النار.

ضعفه الألباني في تعليقه على سنن ابن ماجة ح ١٣٥٢ وضعيف أبي داود (١٥٤)

وإذا مر بقوله: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ قال: بلى[١٩].

---

(١٩) قلت: هذا ضعيف جدًا أورده الألباني في السلسلة الضعيفة ح ٤٢٤٥ بلفظ (كان إذا قرأ (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال: بلى، وإذا قرأ (ليس الله بأحكم الحاكمين) قال: بلى)، ثم قال الألباني: (ضعيف جداً) اهـ وخرجه هناك. وفي الباب طريق ضعيف آخر له بلفظ (منْ قرأ منكم: (والتين والزيتون)، فانتهى إلى آخرها: (أليس الله بأحكم الحاكمين) ؛ فليقل: بلا، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: (لا أقسم بيوم القيامة)، فانتهى إلى: (أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى) ؛ فليقل: بلى، ومن قرأ: (والمرسلات)، فبلغ: (فبأي حديث بعده يؤمنون) ؛ فليقل: آمنا بالله ". وقال الألباني عنه: (ضعيف) اهـ أنظر ضعيف أبي داود - الأم (١/ ٣٤٣ ح ١٥٦).

وصح عن النبي عليه الصلاة والسلام قول بعض الأشياء المناسبة لبعض الآيات من ذلك أن كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، قال: " سبحان ربي الأعلى" أنظر أصل صفة صلاة النبي للألباني (١ / ٤٠٧ - ٤١٠)

ثانيا: عدم الانشغال بالمؤثرات الخارجية من الألوان أو الأصوات أو الروائح كالهاتف والجرس والضجيج، ورائحة الطعام وغيرها. ومن المعلوم أن علماء الغرب يقولون إن الموسيقى تساعد على القراءة والتركيز.

ونقول: إن الموسيقى تساعد البقر الهولندي على إنتاج الحليب! كما أن البعض يستمع إلى القرآن الكريم خلال القراءة، والصحيح أن المؤثرات الخارجية تقلل من استيعاب القارئ للمادة التي يقرؤها، وما جعل الله لامرئ من قلبين في جوفه ... كما لا يجوز عدم السكوت والإصغاء لقراءة القرآن وهذا ظاهر ودليله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثالثا: استخدام الألوان والأقلام مثل تلوين الصفحات والعناوين، كل عنوان بلون .. أو إعطاء الأشياء المهمة لونا خاصا كالأصفر مثلا ثم الأشياء الأقل أهمية تعطى اللون الأزرق مثلا ..

وكذلك استخدام المرسام في وضع خطوط أو كلمة "مهم" أو كلمة "راجع للأهمية"، أو وضع تعليق أو سؤال في الجانب أو في أعلى الصفحة، أو ترقيم الأفكار كأن يضع رقم (١) للأفكار الهامة جدا و(٢) للأفكار الأقل أهمية و(٣) لما دون ذلك وهكذا دواليك ..

ومنها الإشارة إلى أرقام الصفحات التي أشارت لنفس الفكرة أو الموضوع، فنقول مثلا: تربية الأولاد ـ أهمية الأم ـ ص ٩، ص ١٢، ص ٥٥... ومنها وضع بطاقة في الكتاب تحوي ملخصا لمحتوياته، أو تلخص الفكرة في عبارة أو كلمات معدودة، أو تكتب ملاحظة عن الفقرات المبهمة أو غير المفهومة، فلو نظرت مثلاً إلى كتاب اقتضاء الصراط المستقيم طبعة محمد حامد فقي، لوجدت التعليقات الجانبية والعناوين والتعريفات اللغوية والشرعية والأدلة.

رابعا: رفع الصوت في القراءة كثيرا ما يساعد على تحسين الأسلوب وتقوية اللغة العربية وخاصة عند قراءة كتب الشعر مثل البيان والتبيين للجاحظ.

وهنا نطرح سؤالا: إذا شغلت أكثر من حاسة ألا تجد فائدة أكثر من القراءة؟

وإذا ركزت كل حواسك في القراءة، ألا تكون الفائدة أكبر ؟

وجوابه أنّ الناس في القراءة على ثلاثة أقسام:

١) قارئ سماعي لا يقرأ إلا برفع الصوت ولا يفهم إلا بهذه الطريقة.

٢) قارئ آلي يحرك شفتيه دون إظهار الصوت.

٣) قارئ بصري لا تسمع له صوتا ولا ترى له حركة، وإنما يتابع ببصره وقلبه.

وقد ذكر الشيخ العلامة الفهامة الفقيه المحدث مشهور بن حسن آل سلمان في بعض دروسه المسجلة أن القراءة تحصل بعضوين هما اللسان والعينان.

فالقراءة على ثلاثة درجات هي:

الدرجة الأولى: القراءة بالعينين واللسان بصوت مسموع فهي أفضل أنواع القراءة لاجتماع ثلاثة حواس فيها هي السمع والبصر والكلام.

الدرجة الثانية: القراءة بالعينين واللسان بتحريك الشفتين بغير صوت – وهوما يسمى بالقراءة الآلية عند بعض المعاصرين فهي أدنى من النوع السابق لاجتماع حاستين فقط فيها وهي البصر والكلام ولا سمع هنا لأنه لا يسمع ما يقرأه.

الدرجة الثالثة: القراءة بالبصر وحده وهذه أدنى أنواع القراءة لأن فيها استعمال حاسة واحدة هي البصر فهذه أدنى أنواع القراءة.

وهذه فائدة عزيزة من فوائد الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان حفظه الله لكن ينبغي التنبه أن هذا هو الغالب وإلا فثمة أناس يكون أحد الدرجتين الثانية أو الثالثة أفضل له وأكبر تركيزا وبهذا يتضح خطأ من يقول أن القارئ الآلي – وهو الذي يقرأ بالدرجة الثانية من القراءة وهي تسمى القراءة الآلية عند بعض المعاصرين - هي أفضل من حيث التركيز وكان الواجب أن يقيد ذلك ببعض الناس لأن ذلك يخالف الغالب من أحوال الناس فإنه كلما اجتمعت في القراءة حواس أكثر كلما زاد التركيز وزادت الفائدة منها والله أعلم.

خامسا: تصويب الأخطاء المطبعية في الكتب وإكمال النقص وتخريج الأحاديث، ويراعى التأكد قبل التصويب من المكتوب.

مثال ذلك: شخص ما قرأ "قال الباوردي" فعدَّلها وكتب "البارودي"...ويجب أن نضع علامة "/" على الكلمة الخطأ ونكتب الصواب فوقها بخط خفيف، كما يراجع الحديث ويبين درجته والأقوال

حوله ... كما يجب التحرز من تصحيح شيء ذهب الكاتب لتخطيئه وهو صحيح.. مثاله أن يقرأ القارئ: "ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَة"، ثم يقرأ حديث: "ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَال"، فيعتقد بخطأ الحديث الثاني ويصححه وهو في الأصل صحيح.

سادسا: ومما يساعد أيضا **كتابة ملخص أو تقرير أو تقويم عام للكتاب** في صفحة ولو على شكل نقاط أو فهارس ونحوها، ووضع هذا التقويم في أول الكتاب أو آخره، ويكون في مثل حجم الكتاب أو أصغر قليلا، وكتابة ملاحظات على أسلوبه، أحاديثه، فهارسه، مقدمته، ترجمة المؤلف، كتب مكملة لموضوعه، ولمن يصلح إهداء أو إعارة هذا الكتاب له...

ومما يساهم في نجاح التلخيص:

١) الفهم.

٢) معرفة حجم التلخيص.

٣) الاقتباس من عبارات الكاتب الأصلية.

٤) عند النقل حرفيا توضع العبارات بين قوسين.

وفيما يلي أمور أخرى تساهم في عملية التركيز:

أ) اتخاذ الجلسة الصحيحة والمريحة، وهي الجلسة المستقيمة والتي يكون الظهر فيها مستقيماً والرأس مائلاً قليلاً للأمام والكتاب مرفوعاً ٤٥ درجة، والقيام بترويض الرجل والقدم والسير بضع خطوات بعد كل فترة زمنية ـ ربع أو نصف ساعة مثلا...

ب) توفير الضوء الكافي عند القراءة : وذلك لجعل العين أكثر ارتياحا

جـ) ينبغي أن يكون الضوء الصناعي الساقط موزعاً بالتساوي على الكتاب، ولا يكون الضوء في جانب أكثر منه في الجانب الآخر.

د) القراءة بعد النوم وعند الاستيقاظ أفضل من القراءة عند النوم.

هـ) إذا كان القارئ يستعمل نظارة طبية فعليه أن يقرأ بها ويترك القراءة بدونها.

أخطاء يقع فيها بعض القراء:

يقع بعض القراء في أخطاء عديدة، لعل معرفتنا لها يساهم في تجنبها، ومنها:

١ـ القراءة لتمضية الوقت دون أن يكون هناك هدف أو غاية.

٢- التقليد الأعمى لكل شيء مكتوب وقبوله دون تمحيص أو نقد.

٣ـ الشك في الحقائق والمعلومات المؤكدة بمجرد أن الشيء المخالف مطبوع.

٤- التضخيم والدعاية لبعض الكتب أكبر من قيمتها، وإعطاؤها منزلة فوق حجمها.

٥- بعض الناس يغير قناعته الفكرية لأدنى شيء يقرؤه. لذلك ينبغي التمهل والتمحيص قبل تبني الأفكار.

٦- القراءة بغرض كشف أخطاء المؤلف وعيوبه - على حد زعمه - فهو يقرأ للنقد دون طلب الفائدة الأصلية للقراءة.

٧- استعجال بعض القراء الثمرة والنتائج وعدم الصبر على القراءة والاطلاع، والرضى بما وصل إليه دون التزود من بقية المراجع.

٨- سرعة القراءة وإنهاء الكتاب في فترة زمنية محددة، وإن لم يستفد منه، والعبرة بالفهم والاستيعاب لا بكثرة الصفحات وإنهاء المجلدات.

٩- الامتناع عن قراءة كتب بعض المؤلفين، إما لوجود خلفية سابقة عن الكاتب أقنعته بأن كتاباته سيئة، وإما لعقيدته أو لبعض كتابات سابقة له.

١٠- عدم الانتباه للتناقضات التي يقع فيها الكاتب في كتابه، وقد يأتي بفكرة في أول الكتاب ثم يأتي بما يخالفها في نهاية الكتاب، وهذا يسبب التباسا لدى القارئ.

١١- الثقة بكل شيء مطبوع من غير تثبت ولا مراجعة، حتى لوكان مصادما للشريعة، ومثاله أن يقول لك شخص: انظر هذا مكتوب في الكتاب الفلاني، ويصدقه ولوكان خطأ.

١٢- اعتقاد بعض الناس أن القراءة هواية يمكن أن يؤديها في أي وقت متى كان عنده فراغ وكيفما شاء، والصحيح أن القراءة غذاء للروح، وعلى المسلم أن يعطيها حقها من التقدير، وأن لا يشغله عنها أي شاغل، بل يحترم مواعيدها ويحرص عليها.

١٣ـ عدم الانتباه لبعض الكتّاب المضلين الذين ينشرون السم في العسل أو يأخذون ما يناسبهم ويوافق هواهم ويتركون مالا يوافق أهواءهم، ومثال ذلك ما قام به بعض الكتّاب في حذف جزء من حديث الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: "لعن الله اليهود والنصارى"، فأثبت هذه الجملة وحذف بقيتها: "اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (٢٠) لماذا حذفها؟ لأن الكاتب يعتقد ببناء القبور على المساجد..

---

(٢٠)قلت: صحيح متفق عليه أنظر صحيح البخاري (٢/ ٨٨ ح ١٣٣٠) وصحيح مسلم (١/ ٣٧٦، ١٩ - (٥٢٩) وهو فيهما في مواضع أخرى وانظر كتاب تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للألباني..

الأخطار التي يتعرض لها الكتاب:

يتعرض الكتاب إلى أخطار عديدة قد يؤدي الجهل بها إلى إنقاص عمره بين أيدينا، ومنها:

١- إبقاء الكتاب مفتوحا أو مقلوبا لفترة طويلة مما قد يعرضه للتلف أو التمزق أو الاتساخ.

٢- فتح الكتاب بقوة أو تقليب الصفحات بسرعة أو بعصبية أو ترطيب الأصابع باللسان عند تقليب الصفحات.

٣- وضع الكتب بعضها فوق بعض، والأصل أن تكون جنبا إلى جنب.

٤- وضع الكتب بشكل مائل في المكتبة، والصحيح أن توضع بشكل قائم.

٥- وضع الكتب كبيرة الحجم فوق الكتب الصغيرة، مما يجعل الكتب الصغيرة عرضة للتمزق والتلف.

٦- احتكاك الكتب أثناء الأخذ والإرجاع، والأفضل وضع شيء بينها يمنع الاحتكاك مثل القماش ونحوه.

٧- تعريض الكتب لما قد يتساقط من الأطعمة والأشربة وخصوصا أثناء السفر والرحلات والقراءة على مائدة الطعام.

٨- الكتابة عليه بأقلام غليظة أو الكتابة عليه بشكل قوي وحاد أثناء التصحيح أو التأشير والرسم على الكتاب أثناء القراءة.

٩- عند استخدام الأقلام السائلة يجب تحاشي الأقلام التي تترك أوساخا أو آثارا على اليد، لأنها تنتقل عند الارتكاز من يد الكاتب إلى الكتاب.

١٠- وضع الكتاب على الأرض مباشرة، والصحيح وضعه على لوحة خشبية حتى لا يتعرض للرطوبة وغيرها من العوامل التي تعرضه للتلف.

١١- إهمال الصفحات التي تعرضت للشق أو الحرق، وعدم الإسراع في رتقها بالشريط اللاصق. وإذا كانت ستتلف فإنه يمكن تصويرها ورمي التالف وإلصاق المصورة.

١٢- تحويل الكتاب إلى بوق (أي لفه على شكل البوق ووضعه تحت الإبط)، أو تحويله إلى صندوق (يضع كل ما هب ودب فيه كالأقلام والمساحات وغيرها).

١٣- رمي الكتاب أو إلقاؤه من أعلى، والصحيح تسليمه باليد حتى لا يتعرض للتمزيق. وهذا الخطأ يقع فيه الطلاب والمعلمون وخصوصا عند توزيع كتب التلاميذ.

١٤- وضع الكتب في الكراتين والاحتفاظ بها في المستودعات أو النوافذ المفتوحة مما يجعلها عرضة للحشرات. والواجب أن يكون الكتاب في مكتبة أو مكان نظيف بعيدا عن الأوساخ والحشرات.

١٥- طي حاشية الصفحة عند الوقوف أو عند اختيار صفحات للتصوير أو البحث، والصحيح وضع ورقة أو كتابة عبارة ـ مثل: بلغنا هنا أو وصلنا هنا ونحوها ـ على ورقة ووضعها في أول الكتاب.

وقد جمع أحد الشعراء الأخطار التي تحصل للكتاب في هذين البيتين:

عليك بالحفظ دون الجمع في كتب فإنَّ للكتب آفاتٍ تفرقها

الماء يغرقها، والنار تحرقها والفأر تخرقها واللص يسرقها

متعة القراءة
مَنظُومَةُ ٱلعَقلِ ٱلمُتَكَامِلِ

أهمية القراءة:

القراءة غذاء الروح والعقل، ويكفيها شرفا أنها أول ما نزل به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على نبينا **محمد** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ. والقراءة لها أهمية كبيرة فى اكتساب المعارف والخبرات، والعلوم التي تنفع الإنسان في حياته، وآخرته على السواء. وتعتبر القراءة مقدمة على الكتابة، إذ يقرأ الإنسان أولاً ثم يكتب، فالإنسان عندما يتقن القراءة أحرفا، وكلمات، وصوراً ذهنية، تقوم اليد برسم ذلك كله على صفحات الدفتر.

إلى جانب ذلك، فإن القراءة تعد من أهم المهارات التي يمكن أن يمتلكها الفرد فى المجتمع، لأنها وسيلة التفاهم والاتصال، والسبيل إلى توسيع آفاق الفرد العقلية، ومضاعفة فرص الخبرة الإنسانية، ووسيلة من وسائل التذوق والاستماع، كما أن لها قيمتها الاجتماعية، فتراث

الإنسان الثقافي والاجتماعي، ينقل من جيل إلى جيل، ومن فرد إلى فرد، عن طريق ما يدون وما يكتب، أو يطبع من كتب بحيث تكون فى متناول كل فرد، وفى أي وقت يشاء، كما أن التواصل عن طريق المادة المكتوبة يمكن أن يساعد على رفع مستوى المعيشة، ويدعم الروابط الاجتماعية، ويساعد أيضا على الذوق، وتعميق العواطف الإنسانية.

وإني لأرى أن القراءة تصنع الإنسان الكامل، وإذا بحث الفرد فى حياة المتفوقين فى حياة البشرية، لوجد أنهم قرأوا فى طفولتهم فأحسنوا فهما وتمثلا، ومن ثم أضافوا آلية من بنات أفكارهم، فحققوا الأصالة والإبداع.

والقراءة واحدة من أهم المهارات اللغوية الأربع، ولها جانبان: الجانب الآلي، وهو التعرف على أشكال الحرف وأصواتها، والقدرة على تشكيل الكلمات والجمل منها، وجانب حركي ذهني يؤدى إلى فهم المادة المقروءة، ولا يكمن الفصل بحال من الأحوال بين الجانبين

الآلي والإدراكي، إذ تفقد القراءة دلالتها وأهميتها إذا اعترى أي جانب منها الوهن، والضعف، فالقراءة تصبح ببغاوية إذا لم يكن القارئ قادر على الفهم، واستيعاب ما يقرأ، ولا يمكن أن تكون قراءة إذا لم يكن قادرا على ترجمة ما تقع عليه عيناه إلى أصوات مسموعة للحروف، والكلمات، والجمل، وهنا يلتقى الجانبان الآلي والإدراكي، لتكون هناك قراءة بالمعنى الدقيق ينطبق ذلك على نوعى القراءة الجهرية والصامتة، فإن كانت الجهرية تحتاج إلى جانب الصوتي والإدراكي معا، فإن القراءة الصامتة تحتاج إلى القدرة على ترجمة المادة المقروءة إلى دلالات ومعان.

والقراءة أسلوب من أساليب النشاط الفكري، وهى عملية يراد بها إيجاد الصلة بين لغة الكلام والرموز الكتابية، وتتألف لغة الكلام من المعاني، والألفاظ الذى تؤدى هذه المعاني، وعلى هذا الأساس فإن عناصر القراءة تتكون من: المعنى الذهبي واللفظ الذى يؤديه، والرمز المكتوب. وقيل إن القراءة هي عملية تعرف الرموز، ونطقها نطقا

صحيحا، أي الاستجابة البصرية لما هو مكتوب، ثم النطق، أي تحويل الرموز المطبوعة إلى أصوات ذات معنى، ثم الفهم، أي ترجمة الرموز المدركة، ومنحها المعاني المناسبة، وهذه المعاني فى الواقع تكون فى الذهن القارئ وليس فى الرمز ذاته، وإن القراءة فى المرحلة الأساسية تختلف فى الواقع باختلاف حلقات التعليم فيها، فهي فى الصف الأول الأساسي تأخذ منحى حاصا يسميها المربين الهجاء.

وعلى الرغم من تنوع الوسائل الثقافية التي تمكن المرء من الاطلاع والمعرفة مثل الإذاعة، والمحاضرات، والإنترنت، إلا أنه يحتاج دائمًا إلى القراءة، لأن القراءة تفوق كل هذه الوسائل، لما تمتاز من السهولة والسرعة والحرية، فلا هي تقيده بزمن معين مثل الإذاعة والمحاضرات، ولا بمكان محدد كالدورات، ولا بجهاز حاسوب كالإنترنت، وعن طريقها يتصل الفرد بغيره ممن تفصله عنهم مسافات الزمان والمكان، ولولا القراءة لعاش المرء فى عزلة عقلية، وبيئة قاصرة. ولا بد من القراءة عند الرغبة فى التعلم. إذ القراءة هي المفتاح

الذى يدخل بواسطته أي شخص إلى مجالات العلوم المختلفة، وربما أدى جهل المرء بالقراءة أو ضعفه فيها إلى فشله فى تلقي العلوم، ومن ثم فشله فى الحياة. والقراءة فوق ذلك أقل وسائل الحصول على المعارف كله، وأبعدها عن الوقوع فى الخطأ.

وهى وسيلة فذة للنهوض فى المجتمع وربطه بعضه ببعض عن طريق الصحافة، والوسائل، واللوائح، والإرشادات، والتعليمات وغيرها. وهى وسيلة مهمة كذلك لبث روح التفاهم والتقارب بين أفراد المجتمع، ويمكن تلمس أهمية القراءة فى المجتمع إذا تصورنا لو أن إحدى الدوائر امتنع موظفوها عن قراءة المعاملات ولو لفترة وجيزة، فالقراءة فى المجتمع أشبه بالتيار الكهربائي ينظم بناءة ويحمل النور إلى أنحائه.

وأرى أن للقراءة دورا مهما فى حياة الفرد، بحيث لا تقتصر الأهمية على الطالب فقط، بل تتعدى ذلك، فالفرد فى جميع مراحل حياته لا يستطيع العيش بشكل طبيعي بدون القراءة، لذا كانت القراءة فى مقتبل العمر من الوسائل التي تساعد الفرد على العيش حياة طبيعية،

ومن خلالها يستطيع اكتساب كافة أنواع العلوم والمعارف التي يحتاجها في حياته.

للقراءة فوائد عديدة لا تخفى على الناس، نذكر منها:

- اتساع المدارك والأفهام.
- الدعوة إلى الله على بصيرة والعمل بالعلم.
- متعة للنفس وغذاء للقلب والعقل والروح.
- معرفة أحوال الأمم الماضية والاستفادة منها.
- معرفة الخير من الشر وطريق السعادة من طريق الشقاوة.
- طلب العلم الشرعي والتفقه في الدين وإزالة الجهل عن النفس.
- سبب للأنس والترويح عن النفس واستغلال وقت الفراغ بما ينفع والسلامة من قرين السوء.
- إنها من أقوى الأسباب لعمارة الأرض والوصول إلى العلوم المؤدية لذلك.

- الدفاع عن الإسلام والكشف عن مخططات الأعداء وأصحاب المذاهب الهدامة والرد عليها.
- القدرة على القراءة الاستيعابية الواعية بالسرعة المناسبة واستنباط الأفكار العامة، والمعلومات الجزئية وإدراك ما بين السطور من معان وما وراء الألفاظ من مقاصد.
- إثراء ثروة التلاميذ اللغوية باكتساب الألفاظ والتراكيب والأنماط اللغوية التي ترد فى النصوص القراءة.
- الاستفادة من أساليب الكتاب والشعراء ومحاكاة الجيد منها.
- ارتقاء مستوى التعبير (الشفهي والكتابي) وتنميته بأسلوب لغوى صحيح.
- توسيع خبرات الطالب المعرفية والعلمية والثقافية بما يكتسبه من بطون الكتب والمجلات والصحف وغيرها من وسائل النشر والإعلام.
- جعل القراءة نشاطا محببا عند الطالب للاستمتاع بوقت فراغه بكل ما هو نافع ومفيد مسل.

- توظيف القراءة فى اكتساب المعارف والعلوم وذلك فى العودة إلى المراجع والمصادر والوثائق والبحوث والدراسات المختلفة.
- تمكن القارئ من تحقيق مردود أفضل نوعا وأكثر كما بجهد أقل وزمن أقصر عند أداءه لأعماله وذلك نتيجة لما توفره مهارة القراءة لديه من اختزال فى الجهد والوقت مع جودة فى الإنجاز.
- مساعدة الطالب على تعلم المواد الدراسية المختلفة فى جميع مراحل التعليم، فالقراءة هي أداة التعليم الأساسية وهي الجسر الذى يصل بين الإنسان والعالم المحيط به، وأن أي إخفاق فى السيطرة على هذه المهارة سيؤدي إلى الإخفاق فى الحياة المدرسية أولا وقد يؤدي إلى الإخفاق فى الحياة.
- تأكيد الصلة وتعزيزها بكتاب الله وسنة نبيه والاعتزاز بما خلفه لنا الآباء والأجداد والأسلاف من تراث فكرى وعلمي وأدبي ولغوي .

- غرس القيم والمثل والمبادئ التي يريد المجتمع إكسابها لأفراده والتأثر بها مما يدفع التلاميذ إلى اعتناقها والدفاع عنها.
- تنمية القدرات العقلية للمتعلمين من: تذكر، تخيل، واستدلال، واستنباط، ونقد، وتحليل.
- تنمية الميل إلى القراءة لدى المتعلمين وإكسابهم العادات القرائية البناء مع مراعاة أداب القراءة فى التعامل مع الكتاب والمادة والقدرة الذوقية على نقد المقروء مع أفكاره وصوره وأساليبه.
- تكوين بعض الاتجاهات الإيجابية لدى الدارسين: الشغف بالقراءة والإحساس بالمتعة والاحتفاظ بالجميل من الصور والأساليب فى ذاكرة المتعلمين.
- تطويع القراءة لنوع المادة القرائية أدبية كانت أم علمية ولغرض القارئ منها.

- إكساب الطالب القدرة على الكتابة الإبداعية فى مجالات الأدب المختلفة من خلال قراءته المتنوعة للنتاجات الأدبية المتنوعة.
- الارتقاء بفهم الطالب وتوسيع مداركه مما يؤهله إلى عمق التفكير والقدرة على الإبداع فى المجالات الحياة كافة.
- الارتقاء بسلوك الطالب من خلال قراءته لسير العلماء من القادة والمفكرين فيتخذ من سلوكهم الإيجابي قدوة يحتذى بها .
- تسهم فى بناء شخصية الفرد عن طريق تثقيف العقل واكتساب المعرفة فعن طريقها يكتسب القارئ: المعارف والمفاهيم والحقائق والآراء والأفكار والنظريات التي تحتويها الكتب والنشرات والدوريات.
- وصيلة الاتصال الفرد بغيره ممن تفصله عنهم المسافات الزمانية أو المكانية.
- تزويد الفرد بالأفكار والمعلومات واطلاعه على تراث الجنس البشرى.

- القراءة وسيلة النهوض بالمجتمع وارتباط بعضه ببعض عن طريق الصحافة والرسائل والمؤلفات والنقد والتوجيه ورسم المثل العليا .
- جعل الأطفال مفكرين باحثين مبتكرين يبحثون عن الحقائق والمعرفة بأنفسهم ومن أجل منفعتهم مما يساعدهم فى المستقبل على الدخل فى العالم كمخترعين ومبدعين لا كمحاكين أو مقلدين.
- حب الأدب واللعب ودعم القدرة الإبداعية والابتكارية باستمرار وحب اللغة .
- القراءة لها دور فعال فى تكوين اهتمامات وميول جديدة لدى الأطفال.

وإنّ من أهمّ الأمور أن يعرف المرء أنّه قاصر بنفسه، ضعيفٌ بذكائه، قويٌّ بالله عَزَّوَجَلَّ، فيُكثر من دعاء الله عَزَّوَجَلَّ، ومن سؤاله وطلبه إياه أن يصوِّب له فهمه وأن ينفعه بما علمه، فإنّ العلم الذي ينفع هو المفضي بخشوع قلبك، وكذا سؤاله الله عَزَّوَجَلَّ أن يهبه من لدنه الإعانة

والتّوفيق والسداد والفلاح والرّشاد، فالله هو المعلّم وهو المفهّم يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ولتعتبر فقد هُدي أقوام وأُضلّ آخرون مع أنّ الكتاب الّذي أرشدهم واحد، فلتلتجأ إلى الله بالدُّعاء ولتقطع العلائق إلاّ منه في الهداية سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فالله هو الموفّق.

ومما ينبغي علمه أن قراءة الكتب وحدها والاكتفاء بها لا تكسب العلم، ويتأكد هذا في العلوم الشّرعيّة ولا غرو فهو من خصائصها، فإنّ العلوم الشّرعيّة لا تُأخذ من الكُتُب وحدها بل لابدّ أن يجتمع مع الكتاب الأخذ عن الأشياخ، فنحن أمة أناجيلها في صدورها نأخذ العلم بالنّقل لا بمجرّد الكتب، والكتب معينة على الفهم، معينة على الاستيعاب وعلى التّكرار وغير ذلك من الأمور، ومن اقتصر أخذه من الكتب فقط فإنّه في كثير من الأحيان لا يوفّق كمال التّوفيق، ولذا من الأمثال السائرة عند كثير من الأوائل أنّ من كان شيخه كتابه كان خطئه أكثر من صوابه؛ لأنّ من يقرأ بالكتاب ربّما تُشكل عليه بعض المعاني فلا يجد من يصحّحها له، ويُعجب بنفسه في اطلاعه ومعرفته،

فحينئذ يكون هلاكه من حيث لا يشعر، ولذا فإنّ من أهمّ الأمور في العلم الشّرعيّ أخذه عن أهله، وثق أنَّ العلم لا ولن ينقطع من المشايخ والمنسوبين للفضل إلى قيام السّاعة، بل انقطاعه يكون على النّقيض من ذلك وهو اتّخاذ الرؤوس الجُهال لفقدهم الأخذ عن العلماء وهو السّلسلة في الإسناد التّلقّي روايةً وفهماً، روايةً ودِرايةً، نقلاً وفهماً، وجميع المعاني يكون فيها النّقل والاتصال، كما أنّ التّعامل مع الكتب وإن كان يكسبك علماً في المسألة لكنّه لا يكسبك ملكة الفتوى، إذ هناك فرقٌ بين الفتوى وبين المعلوم، فليس كلّ معلوم ومحفوظ يفتى به، فإنّ الفتوى لها مسلك وطريقة مختلفة تماماً عن طريقة المحفوظ والعلم، فليس كلّ ما سمعت تكتبه، وليس كلّ ما تكتبه تحدث به، ومعيارك للتّفريق بين ما تتكلم به وما تُفتي به لا تعرفه إلّا بالمجالسة والمذاكرة والتّبصُّر بالقواعد الّتي أوردها العلماء في الفتوى، فكن ذا لبّ وعضّ بالنّواجذ على تلك النّصيحة ففيها فلاحك وبغية طلبتك.

كذا من أهمّ الأمور المعينة على حسن التّعامل مع الكتب معرفة اللّغة وأعني باللّغة اللّغة بمعناها العام، فإنّ العلوم الشّرعيّة إنّما كتبت بالعربيّة ومن لم يُحسن العربية فإنّه لا يمكن أن ينتفع من العلوم الشّرعيّة، ومن أخص ما ينبغي عليك معرفته من اللّغة معرفة المصطلحات عموماً سواء اللّغويّة أو المتعلّقة بالفنّ الذي تقرأ فيه فهي المعول المفضي بك إلى الفهم الصّحيح، فإنّ معرفة مصطلحات الفنّ ولغة القوم واللّغة العربيّة شرطٌ للانتفاع بالعلوم الشّرعيّة وكتبها، ولا يخفى عليك أنّ من شروط الاجتهاد أن يكون المرء عالماً باللّغة ولا أقصد بالمعرفة باللّغة أن يعرف تفاصيلها - وإن كان هذا يحسن به - وإنّما يعرف المعاني الكلّيّة فيها، ويعرف كثيراً من الأشياء الّتي تكون سبباً في اختلاف الفُهوم.

لكي يكون فهمك صحيحاً مصيباً فيه المحزّ لابدّ لك من التّدرُّج في العلوم والقراءة؛ فإنّ بعض النّاس يُعجب بنفسه أو لا يوفّق لمن يدلُّه الدّلالة الصّحيحة للقراءة فيبدأ بكبرى الكتب ومطوّلاتها مطالعة،

فيكون على الحقيقة مثله كمثل المنبتّ لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع، لا هو الّذي انتفع بالكتّاب ولا هو استفاد من وقته باستثماره فيما يفيده ويبنيه ويرقّيه، فكن ربّانيّاً بتعلُّمك وتعليمك صغار العلم قبل كباره؛ فإنّ معرفة صغار العلم يُبنى عليه معرفة الكبار ولابدّ، وإنّ معرفة ما الّذي يُبدئ به قراءة وتعلُّماً وتدرُّجاً بين الكتب والفنون بل في أجزاء العلم الواحد مئنّة من فقه الرّجل وبها يُبنى العلم بعضُه على بعض، وأعيذك بالله أن تفهم من هذا أن تطيل في المقدّمات، فهذا مما لبّس به على كثير من الطلاب وهو لا شك تصوّر فاسد، فإنّ بعض النّاس يُؤتَى ذكاءً فيستطيع أن يجلس في المقدّمات فترة قليلة ثمّ ينتقل بعدها، وسبيلُ العبد إلى مَعرِفَةِ مدى استطاعَتِهِ التّرقّي أشياخُهُ، ولا يبارح خاطرك تذكرك بأنّ العلم أربعة أرباع من تعلّم الرُّبع الأوّل ظنّ أنّه أعلم النّاس - كما هو للأسف حال كثير من النّاس - ، والثّاني إذا تعلّم الرُّبع الثّاني علم أنّه قد فات من العلم شيء، والربع الثّالث إذا تعلّمه علم أن ما

فاته أكثر بكثير ممّا أدرك وحصّل، وأمّا الرُّبع الرّابع فلا يتحصّل عليه أحد لكثرته وطوله وهو أطول الأرباع الأربع.

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنّه ليس كلّ كتاب يُقرأ، فإنّ بعض النّاس يكون عنده سياسة الحريّة في القراءة، نقول أمّا الدّين فإنّه لابدّ أن يُعرف عمن يُأخذ فلا نأخذه إلا من أهله الذين عرفوا به، فلتحذر القراءة في كتب أهل البدع والمجاهيل والّتي على غير هدى فإنها فتنة وباب شرّ كبير يخشى عليك إن فتحته أن تلجه، فإنّ المجاهيل لا يتلقى عنهم علم البتّة، فنحن لا نأخذ العلم عن مجاهيل، أو كلّما جاءنا رجل تركنا ديننا لأجله، فإنّ معرفة الرّجال من الدّين أليس الأسانيد ننظر للصّحيح من الضّعيف باعتبار رجالها؟ فكذلك الكتب فإنّ الكتب هي أسانيد الوِجادات فلابدّ من معرفة مؤلّفيها، والمؤلّف إذا كان عالماً فتّش وحقّق ودقّق فلم ينقل في كتبه كلّ شيء، بخلاف الآخر الذي يكون حاطب ليل كلّما وجد شيئاً أثبته وكلّما وجد نقلاً كثّر به كتابه فيأتي بالصّواب والخطأ وبالغثّ والسّمين معاً، فإنّ كثيراً من الأهواء

الّتي عرضت في زماننا والغلو الذي فشا إنّما كان بسبب كتبٍ مجهولة، فالقلب دائماً أبيض إذا عرضت له أول شبهة استحكمت وبقيت فيه ولم ينسها، ولذا نهى الأئمة عن القراءة في الأحاديث الموضوعة، لذا فإنّنا كما نختار الشُّيوخ الذين نقرأ عليهم فإننا نختار الكتب الّتي نقرأ فيها فليس كلّ كتاب يقرأ، وهذا أصل مهم جدّاً غفل عنه كثيرين، فبعض النّاس كل كتاب يقع في يده يقرأ فيه وهنا تأتي الآفة، فانتبه وكن حذراً منتقياً فانتقاء المرء قطعة من عقلة، حتى لا تتخطفك الطير أو تهوي بك الرّيح في مكان سحيق، فليس كلُّ كتاب أُلّف ولو في أيّ فنّ يُقبل لا في اجتهاد فقهيّ، ولا في أمرٍ خبريّ، ولا في أمرٍ اعتقاديّ.

فإذا سأل سائل كيف نعرف العلماء الّذين يُتلقى عنهم العلم وكذا الكتب وقد كثرت الاختلافات والاتجاهات؟

فأقول لك: إنّ العالم يُعرف بصفات، هذه الصّفات تنقسم إلى قسمين:

صفات لازمة لابدّ من وجودها، وصفاتٌ مرجّحة. وهذه الصّفات مرجّحة عند التّعارض بين من تحقّقت فيه هذه الصّفات اللّازمة.

الصّفات اللّازمة صفتان:

الصّفة الأولى: لابُدّ أن يكون المرء ذا علم.

والصّفة الثّانية: أن يكون ذا دين.

وهما أمران واضحان كلُّنا يعرف أنَّه لا يقلّد في الدّين ولا يسأل ويأخذ العلم إلّا من وُجد فيه وصفان: العلم والدّين، لأنّ فاقد العلم لا يُمكن أن يُعلم من هو فاقدٌ له، فاقد الشّيء لا يمكن أن يُعطيَه وهذا من بدائه العقول أنّه لابدّ أن يكون عنده علم، وأمّا الدّين فلأنّ العلم الشّرعيّ فيه معنى التّديُّن ليس كل من تعلم فهو عالم بل لابدّ فيه معنى الدّين، وأوّل الدّين الدّخول في الإسلام، ثمّ مطلق التّديُّن بعد ذلك. قلت هذا لما؟ لأن بعضاً من الكفّار ألفوا كتباً في الفقه، هناك كتاب اسمه

"التّتمّة الفقهيّة" يقول: قال أبو حنيفة وقال محمد ابن حسن وقال أبو يوسف والرّاجح عندي كذا ويُرجح مؤلفه ماروني ليس مسلماً والكتاب طُبع سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وخمسة قبل المئة ثلاثين سنة ماروني حتّى لا يذكر النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويصلّي عليه يذكر المسائل ويفصل فيها في غير العبادات في المعاملات وفي الجنايات، باعتبار أنّ القضاء عليها.

إذن: ليس العلم مأخوذ، بل لابدّ فيه من الدّين.

كيف نعرف أنّ المرء عالم ومتديّن؟

يعرف بأمور:

الأمر الأوّل: بثناء النّاس عامّة عليه، وقد جاء النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أنس مرّت عليهم بجنازتين فقال: "الأُولى وجبت وقال: الثّانية وجبت، قالوا: وما وجبت؟ قال: الأُولى مرَّت فأثنيتم عليها خيراً فوجبت لها الجنّة، والثّانية مرت فأثنيتم عليها شرّاً فوجبت لها النّار أنتم شهداء الله في أرضه"، الاستفاضة بأنّ المرء معروف بالعلم هذا معتبر.

إذن: أن ترى شخصاً فتبُهر بلسانه وببيانه وبمحفوظاته وهو غير معروف عند النّاس بالعلم كُن في توجُّسٍ منه أنا لا أنفي علمه وإنّما كن في توجُّسٍ منه لأنَّ أمّة محمّد لا تجتمع على ضلالة.

الأمر الثّاني: أن يكون معروفاً بالعلم من أهل العلم، ألم أقل لكم إنّ مالكاً قال: "لم أُفت حتّى شهد لي سبعون معمّماً أنّي أهلٌ للفتوى"، فإنّما يعرف الفضل أهله ويشهد به من تحمَّله، فالعلماء هم اللّذين يستطيعون أن يحكموا أنّ فلاناً عالم أو ليس بعالم، ولذا فيُسأل الأشياخ إن أثنوا على شخصٍ فما أثنوا عليه وهم من أهل الدّين إلّا وهو من أهل العلم أو عنده من العلم ما يستحقّ أن يؤخذ منه وهذا معيار ثاني مهم.

الأمر الثّالث: لكي نعرف هل عنده علم أو لا أن يكون الشّخص معروفاً بتحصيل العلم، العلم لا يأتيك فجأة ليس عندنا كما يدّعي بعض من لا خلاق له أنّ العلم يأتي فجأة فيكون علماً لَدُنّيًا، لا، بل العلم يكون بالتّدرُّج بالتّعلُّم الّذي عُرف من صغره بالجلوس عند العلماء وبالأخذ

عنهم وبالتّعلّم بطريقة أهل العلم المعروفة فهذا معروف عنه أنَّه قد تعلّم، نعم بعض النّاس يستطيع في أيام قليلة أن يُحصّل شيئاً كثيراً لكن لمَّا لم يُعرف بالعلم فليس من أهل العلم لابدَّ من إطالة المُكث فيُعرف بالجلوس عند العلماء يُعرف بالحفظ لابدّ أن يكون حافظاً لكتاب الله وهو أهمّ شيء ثمّ سنّة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بعد ذلك متون أهل العلم.

إذن: لابدّ أن يكون المرء معروفاً بالجلوس عند العلماء وأخذ العلم فترةً طويلةً، وهذا معيار مهم جدّاً.

من المعايير كذلك: أن يكون المرء مع تحصيله للعلم أن يكون ذا عقل، فمعرفة العقل مهم وذلك أنّ الشّخص يستفيد من شيخه في روايته وإسناده وفي فهمه ونقله، وفي فهمه وتدقيقه ويستفيد منه في خُلقه وفي حكمته، فإذا كان الشّيخ ذا عقل وحكمة انتفعت من عقله ربّما أكثر من علمه، وهذا مشهور يذكرون عن بعض أهل العلم أنّه كان انتفع بعقله أكثر من الانتفاع بعلمه لأنّ العالم ليس مجرّد ناقل كالكتب فهو نسخة

من الكتب وإنّما عنده التّنزيل لجزء من العلم هو التّنزيل على الوقائع، وهذه تحتاج إلى العقل بأقسامه الأربع.

إذن: هذه بعض الأشياء الّتي يُعرف بها العالم ولها كتب مفصّلة، وغالباً ما يتكلّم عنها العلماء في أصول الفقه عندما يتكلّمون عن مباحث الاجتهاد والتّقليد.

كيف تعرف الكتّاب؟

يعرف بأمور:

الأمر الأوّل: لكلّ علمٍ كتبٌ جرت عادة العلماء على البداءة بها.

إذن: لكلّ فنّ كتبه.

الأمر الثّاني: لكلّ بلدةٍ ومدرسةٍ كتبها، فلكلّ بلدة عندهم كتب يقرؤونها، ولذا إذا أردت أن تقرأ على مشايخ بلد فلا تقرأ كتّاباً ليس مقروءاً عندهم ولا مشروحاً لأنَّ الكتب تتكرّر في الشّرح فالّذي يشرح

كتاباً ثلاثين مرة أو عشرين مرة إذا شرحه بعد ذلك يكون عنده كما يحفظ الفاتحة من سهولته وعدم الإغراب في فهمه.

إذن: اختيار الكتاب الّذي تقرأه على الشّيخ، لابّد أن يكون مبنيّاً على أمرين: - مبنيّاً على الفن.

- وعلى الكتاب الّذي جرت العادة بالإقراء له في البلد.

وهذا معروف منذ القدم كل بلد عنده كتب يقرؤونها كل المذاهب الأربع كل منطقة من المناطق الّتي ينتشر فيها المذهب يوجد عندهم كتب يعتمدونها بخلاف البلدة الأخرى وهكذا، ولذا فإنّ معيار الكتاب الّذي يُختار مختلف لكن أهم من المعيار الذي ذكرته لك قبل قليل ألّا يكون فيه أشياء رديّة، وأن يكون مؤلفه معروفاً بالعلم وأن يكون الكتاب بالتّدرُّج يبدأ بصغار العلم قبل كباره.

كذلك يجب أن تعلم كيف تقرأ الكتاب فبعض الإخوان يقرأ الكتب بفتح الكتاب فيقرأ مسألة ويترك الباقي فلا يقرأ أول الكتاب ولا

آخره، ولا مقدّماته ولا خواتيمه، فحينئذ يكون تصوّره للمسألة ناقص، وهذه الطّريقة في القراءة كثرت في هذا الوقت وخاصّة مع وجود الموسوعات، فإنّ هذه الموسوعات الإلكترونيّة يبحث فيها المرء فتوجِد له الجزء الّذي يريده فيأخذ هذا الجزء ويترك الّذي قبله والّذي بعده، وهذه الطّريقة في الاجتزاء تأتي بغرائب الأمور فقد يكون المرء اجتزأ كلاماً ناقصاً فيُفهم الكلام على غير وجهه، كذلك فإنّ بعض العلماء حال تأليفهم يبنون ما كتبوه في وسط كتبهم على المقدّمات الّتي أوردوها في أولّها، وبناء عليه فإنك ما لم تفهم الأوّل فلن تفهم الأخير، وربّما هذا الكلام الّذي وقفت عليه أو اجتزأته ليس من كلام المؤلّف وإنّما أراد أن ينقله عن غيره فظننت أنّه كلامه، وهذا كثير في الكّتابات المعاصرة، ولذا فإنّ الفهم الصّحيح لا يتأتّى لك حتّى تقرأ الكتاب كاملاً فتعرف غرض المؤلّف وتعرف مَقصِده، وتَعرف طريقته في التّعبير فإنّ بعض العلماء طريقته إيراده الاستطرادات فيأتي بشرط ثمّ يذكر استطراداً في سطر ونصف ثمّ يأتي بالمشروط، وإنّك لن تفطن

لفهم هذا الأسلوب إلّا إذا اعتدت القراءة من أوّل الكتاب حتّى تعرف طريقة المؤلّف وأسلوبه، فحينئذ تعرف مدى كمال هذه الطّريقة في طريقة هذا الرّجل، ولذا من الأمور المهمّة أنّك إذا قرأت كتاباً أن تبدأ من أوّله وآخره فتبدأ أوّلاً بقراءة مقدّمته وتقرأ آخره وهي: الفهارس؛ لأنّها ستعطيك تصوّراً كاملاً عن الكتاب، فإذا أردت أن تقرأ جزئيّة فاقرأ الفصل الّذي هو فيه كاملاً لكي تفهم هذه المسألة كلّها، وهذا كثير وخاصّة في كتب الشّيخ تقيّ الدين؛ فإننا نجد كثيراً من النّاس يخطأ فهم كلام الشّيخ تقيّ الدّين ويقوّله ما لم يقله وما لم يقصده؛ لأنّه اجتزأ كلامه عن أوّله وعلى سبيل المثال كتاب "بيان تلبيس الجهميّة" فإنّه لا يُفهم حقيقة إلّا بقراءته كاملاً، وعلى هذا فقس فبعض الكتب أيضاً لابدَّ من قراءتها لأنَّها بُنيت كتابتها على فترة زمنيّة معيّنة بناءً على ظروف مخصوصة، فإذا قرأت الكتاب تبيّن لك ذلك، ولذا فإنّ الشّيخ عبد اللّطيف بن عبد الرّحمن بن حسن في كتابه "مصباح الظّلام" قال: "إنّما وجد من كتابة لمشايخ قبله ما كان مبنيّاً على فترة زمنيّة وظروف

معيّنة فلا يصحّ تعميم كلامهم" قال هذا قبل أكثر من مئة سنة، والعجيب أنّ بعض المعاصرين ينقل الكلام الذي بيّنه الشّيخ عبد اللّطيف عنهم ثم يستدلّون به على تكفير أفراد وعلى جواز الخروج على الولاة وعلى شقٍّ لعصا الطّاعة وعلى غيرها من أمور كثيرة والله المستعان؛ وما أوتي هؤلاء إلّا من سقيم فهمهم وفساد استدلالهم وبشاعة إسقاطهم الكلام في غير ما بني عليه من حالات، ولذلك فإنّ بعض الكتب أُلّفت لواقعة معيّنة فلابدّ من معرفة هذه الواقعة، وهناك كتب أُلّفت على أساس أنّها قواعد كلّيّة فتنزّل الأولى منزلتها، وتنزّل الثّانية منزلتها، وإياك أن تجعل ما ألّف على هيئة فتوى أو على هيئة حكم لواقعةٍ بمثابة الحكم الكلّي، ولذا فإنّ من المتقرر في القواعد عند العلماء أنّ "الفقه لا يؤخذ من الفتاوى وإنّما يُؤخذ من الكتب الفقهيّة"، الفتاوى لا يؤخذ منها فقه وإنّما تؤخذ منها مسائل، ولا يؤخذ منها فتوى فقه كلّي؛ إذ الفتاوى تكون لوقائع ونوازل معيّنة، فافطن يا رعاك الله فإن الخطب جللل.

مهارات القراءة:

من المعروف أن القراءة عبارة عن مجموعة من المهارات التي يجب على القارئ الإلمام بها، لكي تكون القراءة سليمة صحيحة، ويمكن حصر تلك المهارات في الآتي!

١. قراءة الكلمات قراءة صحيحة من الناحية المعرفية (بنية الكلمة)، ومن الناحية اللغوية (حركة الإعراب آخر الكلمة) وذلك حسب موقعها فى الجملة.
٢. تغيير نبرة الصوت بحسب المعنى: كالاستفهام والإخبار والطلب.
٣. السرعة القرائية: هي من أهم المهارات التي لا بد للمعلمين والمدرسة والمنهاج من الحرص على تحقيقها.
٤. إكساب التلاميذ عادات القراءة الصحيحة ومهارتها المتمثلة فى سلامة النطق وإخراج الحروف من مخارجها وجودة الإلقاء، وفهم المقروءة والاستماع له.
٥. إثراء معجمات الأطفال اللغوية بالأساليب والألفاظ.

٦. النهوض بالتذوق الجمالي والفني والوجداني عن طريق إكسابهم التعبيرات الراقية والمعاني البارعة والصور الخلابة.

٧. القدرة على استيعاب الكلي للمقروء.

٨. قدرة المتعلم على التركيز وجودة التلخيص للمادة المقروءة إضافة إلى القدرة على التذكر والتحصيل.

٩. التفاعل مع المقروء ونقده.

أقسام القراءة:

- من حيث الغرض:

أغراض القراءة كثيرة جدة، ومما ذكره الباحثون:

١. قراءة التعرف وتكوين فكرة عامة عن موضوع واسع.

٢. القراءة التحصيلية.

٣. القراءة التجميعية.

٤. قراءة المتعة الأدبية والرياضة الفكرية.

٥. قراءة التحليلية النقدية.

٦. قراءة التذوق والتفاعل مع الموضوع.

٧. قراءة التصحيحية.

- من حيث الأداء:

١. القراءة الصامتة.

٢. القراءة الجهرية.

مهارة الفهم: وهي الربط الصحيح بين الرمز والمعنى، وإيجاد المعنى من السياق، واختيار المعنى المناسب، وتنظيم الأفكار المقروءة، وتذكر هذه الأفكار، واستخدامها فيما بعد في الأنشطة الحاضرة والمستقبلة.

فالهدف من كل قراءة هو فهم المعنى أساسا، والخطوة الأولى فى هذه العملية هو ربط خبرة القارئ بالرمز المكتوب، وربط الخبرة بالرمز المكتوب أمر ضروري، ويستطيع القارئ الجيد أن يفهم الكلمات من السياق كما يستطيع فهم الكلمات كأجزاء للجمل، والجمل كأجزاء للفقرات، والفقرات كأجزاء للموضوع كله.

ويتضمن الفهم المهارات الآتية:

- القدرة على إعطاء الرمز معناه.

- القدرة على فهم الوحدات الأكبر كالعبارة والجملة والفقرة والقطعة كلها.

- القدرة على القراءة فى وحدات فكرية

- القدرة على فهم الكلمات من السياق، واختيار المعنى الملائم له

- القدرة على تحليل معاني الكلمات.

- القدرة على اختيار الأفكار الرئيسية وفهمها.

- القدرة على فهم التنظيم الذى اتبعه الكاتب.

- القدرة على تقويم المقروء، ومعرفة الأساليب الأدبية وغرض الكاتب.

- القدرة على الاحتفاظ بالأفكار.

- القدرة على تطبيق الأفكار وتفسيرها فى ضوء الخبرات السابقة.

مستويات الفهم ومهاراته:

١- مستوى الفهم المباشر :

ويقصد به: فهم الكلمات والجمل والأفكار والمعلومات، والأحداث فهما مباشرا كما ورد ذكرها صراحة فى النص، ويندرج تحته مجموعة من المهارات الفرعية، هي:

- تحديد المعنى المناسب للكلمة من السياق.
- تحديد مرادف الكلمة.
- تحديد مضاد الكلمة.
- تحديد أكثر من معنى للكلمة (المشترك اللفظي).
- تحديد الفكرة العامة (المحورية) للنص.
- تحديد الفكرة الرئيسية للفقرة.
- تحديد الأفكار الجزئية، والتفاصيل الدائمة فى النص.

- إدراك الترتيب الزماني.
- إدراك الترتيب المكاني.
- إدراك الترتيب حسب الأهمية.

٢- مستوى الفهم الاستنتاجي:

ويقصد به: قدرة القارئ على التقاط المعاني الضمنية العميقة، التي أرادها الكاتب، ولم يصرح بها فى النص، وقدرته كذلك على الربط بين المعاني، واستنتاج العلاقات بين الأفكار، والقيام بالتخمينات والافتراضات لفهم ما بين السطور وما وراء السطور، ويندرج تحته مجموعة من المهارات الفرعية، وهي:

- استنتاج أوجه الشبه وأوجه الاختلاف.
- استنتاج علاقات السبب والنتيجة.
- استنتاج أغراض الكاتب ودوافعه.

- استنتاج خصائص وأسلوب الكاتب.

- استنتاج الحقائق والمعلومات التي حاول الكاتب حذفها.

٣- مستوى الفهم النقدي:

ويقصد به: إصدار حكم على المادة المقروءة لغويا، ودلاليا، ووظيفيا، وتقويمها من حيث جودتها، ودقتها، وقوة تأثيرها على القارئ، وفق معايير مناسبة ومضبوطة، ويندرج تحته مجموعة من المهارات وهي:

- التمييز بين الأفكار الأساسية والأفكار الثانوية.

- التمييز بين ما يتصل بالموضوع وما لا يتصل به.

- التمييز بين الحقيقة والرأي.

- التمييز بين المسلمات والفروض التمييز بين المعقول وغير المعقول من الأفكار.

٤- مستوى الفهم التذوقي:

ويقصد به: الفهم القائم على الخبرة تأملية جمالية تبدو فى إحساس القارئ بما أحسه الشاعر أو الكاتب، وهو أسلوب لغوي يعبر به التلميذ عن إحساسه بالفكرة التي يرمي إليها النص الأدبي، وللخطة التي رسمها للتعبير عن هذه الفكرة، ويشمل مجموعة من المهارات وهى:

- ترتيب الأبيات حسب قوة المعنى.
- تحديد مواطن الجمال فى التعبير.
- تذوق الأدب الخيالي وفهم مغزاه.
- إدراك الحبكة الدرامية وتطور الأحداث فى القصة.
- الموازنة بين عملين أدبيين أو نصين شعريين من نوع واحد.

٥- مستوى الفهم الإبداعي:

ويقصد به: مستوى من الفهم، يتطلب من التلميذ ابتكار أفكار جديدة، واقتراح مسار فكرى جديد حيث يبدأ التلميذ مما هو معروف من حقائق ومعلومات، ولكنه يرى لها استخدامات جديدة غير تقليدية، أو يرى بين تلك المعلومات والحقائق علاقات مميزة، ويندرج تحته مجموعة من المهارات الفرعية، وهى:

- تطوير أفكار جديدة من خلال أفكار سابقة.
- إعادة ترتيب أحداث قصة أو شخصياتها بصورة مبتكرة.
- اقتراح حلول جديدة لمشكلات وردت فى القصة.
- التوصل إلى توقعات للأحداث.
- توقع نهاية لقصة لم يحدد الكاتب نهاية لها.

وإنِّي لتنقسم القراءة عندي لنوعين: القراءة الاستكشافية، والقراءة للدمج النسقي. وهذا التقسيم في مجمله مُرتبطٌ بتقسيمٍ آخر للنشاطات الإنسانية الجوّانية: الفكر والشعور. لكنه لا يعني بالضرورة الارتباط الكلي والحتمي والحصري لكل نوع من أنواع القراءة بنشاطٍ واحد، بل يعني غلبة نشاط على آخر في كل من نوعي القراءة، وليس تفرُّد الفكر أو الشعور بنوع من أنواع القراءة دون الآخر، فهما أصلًا، وفي الممارسة العملية، لا ينفصلان.

وتصلح النصوص البشريّة المكتوبة في غالبيّتها العظمى للاستكشاف، ولكن أقل القليل فقط هو ما قد يصلُح للدمج. وهذا ينطبق على كل العلوم والمعارف، وعلى كل إنسان، ليس فقط بسبب الطبيعة السطحية لغالبيّة النصوص ولا لحجم التَّناص الهائل فيما بينها، في داخل كل حقل معرفي وبين الحقول المعرفيّة المختلفة، بل لأن حاجة الإنسان الحقيقيّة من المعرفة أقل كثيرًا مما يقوم بتحصيله خلال مراحل التعليم المختلفة، وأكثر انتقائية، فضلًا عن الشظايا التي يقصفها الإعلام

لتكبيله بها، أو ما يعمد لقراءته وتحصيله بشكلٍ حر. إن المعرفة الحقيقية التي يحتاجها الإنسان هي التي تدفع بحركته في الوجود، وتُسهم في تشكيلها، وليست تلك التي يزهو بها ويفاخر بمُراكمتها، فهذه الأخيرة من العلم غير النافع. "العلم" الذي يكبِّل الحركة الإنسانية في الوجود، بأيديولوجيا تتلبس بلبوس العلم.

والقراءة الاستكشافيّة تشمل نوعي القراءة السريعة اللذين لا نُميِّز بينهما في العربيّة: التصفُّح بغرض استخلاص الأفكار الرئيسية، والتصفُّح بتمُّن بحثًا عن فكرة أو إشارة مُعينة شُغل القارئ بها ابتداء. وإذا كانت القراءة في النوعين السابقين لا تكون للنص بكامله، فإن القراءة الاستكشافية عندي تشمل كذلك قراءة النص كاملًا، لمجرد الإلمام بمراد المؤلف أو تكوين فكرة عامة عن موضوع تقتحمه لأول مرة.

ويختلف دمج النصوص نسقيًا عن استذكارها وحفظها عن ظهر قلب. ذلك أن الدمج يُشكِّل الخريطة الإدراكية والرؤية الكونية بشكلٍ واع، أما الحفظ والاستظهار فغالبًا ما يكون ملئًا للصدر بما لا ينفع إلا للتقيؤ في الاختبارات الدوريّة، فضلًا عما يمتصّه العقل الباطن من هذا القذى، بغير وعي؛ ليصنع تحيُّزات لا عقلانية وغير واعية، بل وقد تتنافى بصورة فجّة مع ما يعتقده المرء واعيًا! إن استذكار النصوص عندي تضييعٌ للوقت وتبديدٌ للملكات وإهدارٌ للعمر، بما أنها متوفِّرة أصلًا في مدوّنات؛ لذا أرى الاكتفاء بالإلمام بمظان المعرفة المكتشفة، حتى تحرر القدرات العقلية للإنسان من القيود الضارّة؛ فيستطيع قراءة الكون من خلال النصوص التي يُطالعها، لدمجها إراديًا في وعيه وفي أنساقه القيمية؛ العقلية والشعورية. وما اختياري لهذا النمط من القراءة وتغليبي له إلا لحرصي على عدم تكبيل حركتي في الوجود بفرط النظر، وعنايتي بسلاسة العلاقة بين النظر والعمل، وبين الفكر والشعور.

فأنا لا أستذكر النصوص، ولا أحفظها أو أستظهرها عامدًا عدا النُّصوص والمتون العلميَّة الشَّرعيَّة. ذلك أني لا أعتبر العلم هو نقل المتون من الأوراق إلى صدري أو عقلي، بل هو بناء علاقات جدليّة خاصة مع النصوص. علاقات تُشكِّل إجاباتي الخاصة، وتتشكَّل بها هذه الإجابات؛ لأرى الكون وأتفاعل معه من خلال كل نص، أو من خلال قراءتي له. إنه بحث عن المعنى في كل شيء، وإضفاءٌ للمعنى على كل شيء. ربما لهذا السبب أبغض الدراسة النظامية الروتينية والتقاليد الأكاديمية السخيفة، لأني أشمئز من ربط علاقة سطحية مع أي نص؛ علاقة تحكمها اعتبارات سلطوية، واحتياجات نظريّة أو متوهَّمة تفرضها سُلطة الدولة أو الجامعة أو التنظيم أو العابث بمناهج التعليم النظامي. وأفضِّل على ذلك علاقة حميمة ودائبة تحكمها احتياجات إنسانيّة واجتماعيّة حقيقيّة.

الدمج يُشكِّل الخريطة الإدراكية والرؤية الكونية بشكلٍ واعٍ، أما الحفظ والاستظهار فغالبًا ما يكون ملئًا للصدر بما لا ينفع إلا للتقيؤ في

الاختبارات الدوريّة، وقد ابتكرت طريقتي في قراءة النصوص التي شكلت عقلي ووجداني ومنهجي في النظر. وهي القراءة التي أسميتها، في أولاً، القراءة للدمج النسقي. فهي القراءة التي أدمج بها النص المقروء إراديًا في وعيي، وفي منظومتي القيمية، مجتهدًا لتمثُّله. فأنا أقرأ النص أولًا بترتيب قائمة محتوياته وتسلسُل موضوعاتُه الذي عيَّنه المؤلف، وهذا ليس للاستكشاف السطحي فحسب، بل لأتتبع طريقة تفكير المؤلف وأستوعب منطقه. ثم أقرؤه بعكس ذلك الترتيب، من آخره إلى أوله، وذلك لأقيس تماسُكه وانسجامه الفكري، واتساق النتائج ومدى تعبيرها عن المقدمات. ثم بترتيبي الخاص: حسب أولوية موضوعاته وأقسامه وفروعه في لائحة اهتماماتي الخاصة، وهو ما يفيدني في الوقوف على مدى نضج المؤلف وقوة نماذجه ومرونتها ومقدرتها التفسيرية.

وبهذا، فأنا لا أفكك النص دلاليًا فحسب، بل أفككه تراكيبيًا ومنهجيًا أيضًا، لأعيد ترتيبه وكتابته وإسكانه في وعيي، ومن خلال

تجاربي وخبراتي الحياتيّة، وحسب احتياجاتي وأولوياتي الخاصّة، ورؤيتي للكون.

فإنّي أبحث عن إجاباتي الخاصّة مهما كبَّدني ذلك من عناء، وليس عن إجابات جاهزة تُريحني من عناء البحث والدراسة والاختبار والهضم والتأمُّل والتمثُّل والتفكيك وإعادة التركيب.

القراءة للدمج النسقي هي القراءة التي أدمج بها النص المقروء إراديًا في وعيي، وفي منظومتي القيمية؛ مجتهدًا لتمثُّله وأحيانًا لن يُمكنك الوقوف على معالم المؤثِّر إلا إذا كنت تُكابد مكابدات مشابهة لما مرَّ به. وما ذلك إلا لأني أنسلخ من كل تقليدٍ وكل إجابة؛ لأعيد بناء المحتوى والدلالة وتركيبهما داخل نسقه الخاص، وانطلاقًا من رؤيتي الخاصة، بوجهةٍ مختلفةٍ، وفي غمار حرارة مكابدتي الشخصيّة؛ تدشيناً لتقليدي الخاص. إني أبني سرديّتي الخاصة بعد هضم المدخلات والإفادة منها، وليس برصّ النقول والتعليق عليها كما يفعل المدرسيّون!

لهذا كله، لم أبدد عمري في رص ومراكمة المعارف المتاحة في الكتب. وما ذكرت لك ذلك إلا لتعرف كيف تنتج المعرفة النقدية، وكيف تختبر قدرتها، وكيف تستخدمها.

وطريقتي في قراءة النصوص مرتبطة بطريقتي في تطوير أفكاري، ومن ثم بطريقتي في الكتابة.

أما الانتقال إلى الحوار مع الوحي، فيستلزم قدرًا من المعرفة الشَّرعيَّة التي راكمتها سعة اطّلاعك وتدرج بناءك العلمي وقوتك التّأصيليّة، لسبر غور النصّ وتمثُّله في حركتك، معرفة حدَّها الأدنى ألفة لغة التنزيل. أما الانتقال الأخير، فهو دمج تركيبي للحوار مع الكتاب المنظور في الحوار مع الكتاب المسطور، وهو ما يقتضي ديمومة الحوار مع الكتاب المسطور جنبًا إلى جنب مع الحركة بين صفحات الكتاب المنظور. وحدّه الأدنى حركة الوجدان في السعي اليومي، حركة انفعاليّة تمثَّل الوحي وتعايشه في كل خفقة.

إن طريقة قراءتي للكتب مرتبطة أيضًا باختياراتي من الكتب. ولم أكن لأستطيع اختيار كتاب لأقرؤه بهذه الطريقة، وأدمجه في وعيي؛ لو لم أختر نفسي أولا، وأحسن قراءتها. إن اختيار النفس ومعرفتها وفقه دروبها ينقلك من القراءة العشوائية لكل ما تقع عليه يدك إلى القراءة الغائيّة؛ القراءة التي تُثري وجودك وتزيد إجاباتك عمقًا وتركيبًا، وهو هدف يختلف كليًا عن القراءة لشحذ الأدوات الجدليّة ودعم الحجج السفسطائية وتحقيق العلو الأيديولوجي في الأرض.

إن عرضي لحجتي في هذا الطور لم يكن يهدف لشحذ أدوات الجدل والمناظرة، بل استهدف أصلًا تعزيز الفهم وبلورة التصوّرات. استهدف إجادة قراءة كتاب النفس، أكثر من لوك ما في كتب الكتّاب.

إن جدْل حبل الأفكار حول موضوع ما، جدلًا فذًا متينًا؛ لا يعتمد فحسب على ما تقرأ من النصوص، كمًا أو كيفًا؛ بل يعتمد في

المقام الأول على موقع الموضوع كله على لائحة أولويّاتك، ومدى انفعالك به وتغلغله في مسارب نفسك، ومستوى تشرُّب وجودك له، ومن ثم أثره في حياتك اليوميّة. يعتمد بالأصل على مكابداتك، الحبل من الله، قبل أن يعتمد على المدخلات، أو حبل من الناس. وبما أن الفكر يرتد إلى المحسوسات، ومهما بلغ التجريد فإنه يرتد إلى تجارب الإنسان الحسيّة، إذ لا يُحسن الإنسان إدراك ما لم يُجرِّب ناهيك عن التعبير عنه؛ لذا كانت قلة الحركة/المكابدة تسطيح للفكر، وإساءة قراءة قصديّة للنفس والكون وللنصوص المكتوبة، وباب الولوغ في حمأة ضحالة التصوّرات وطوباويتها.

إنه أنت من يُضفي المعنى على ما يقرأ؛ ليس على دين التفكيكيين السائل القائل بنفي كل مركز، بل بإضفاء الظلال والعمق اللذان يمنحان النص قدرًا من الخصوصيّة في كل قراءة؛ خصوصيّة لا تنفي العام فيه، ولا تقوّضه. لهذا كله؛ فإن قراءة القليل مع هضمه واستيعابه وتمثُّله، خيرٌ من قراءة الكثير واختزانه في ماعون عقلك بغير أثر واع.

إن القراءة للدمج هي في أحد وجوهها عمليّة مراكمة للجزئّيات، وفي وجه آخر صيرورة جلاء للكلّيات. وأنا أظل أراكم الجزئّيات حتى يكتمل النسق وتبرز كلياته، فإذا بالتفاصيل والجزئّيات تسقُط ليبقى الجسد الكُلّي فحسب، أو النموذج في صورته النهائيّة. حينها تخف الحاجة لمراكمة الجزئّيات النظريّة، وقد تنعدم، ليصير للنسق/النموذج حياته الخاصة، فيتطور وينمو من خلال استخدامه عمليًّا في قراءة الوجود وتفسيره، وقد يُفيد أحيانًا من قراءة وتفسير نصوص أخرى ذات صلة.

إن هذه الطريقة في القراءة تربط النظر ربطًا شبه حتمي بالعمل، وترسم من اختلاط عمليّة تحصيل المعرفة بألوان المكابدة مسارًا مُعبدًا للحياة الإنسانيّة على مراد الله. إنها تجعل من القراءة حياة حقيقية على الأرض، وليس حياة خياليّة متوهّمة بين الصفحات.

إن هذه الطريقة في القراءة هي الطريقة المثلى لتحقيق النصيحة المشتهرة عن محمد إقبال رحمه الله: "اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك".

إن كل الكتب التي أقرأها وكل المعارف التي أقوم بتحصيلها لا هدف لها سوى تعبئة أدواتي وزيادة مهاراتي وصقل قدراتي على قراءة القرآن؛ قراءة لا تدمج تعاليمه في وعيي وتعينني على تمثلها فحسب، بل قراءة تدمجني أنا نفسي في الصيرورة التاريخيّة لتحقُّق مراد النص المتجاوز للتاريخ، في الوجود القرآني. وكل قراءة لا تُسهم في تحقق هذا الهدف: عبثٌ محض. وأنا أمارس هذه القراءة، منذ عقد أو يزيد؛ على أمل أن أعبر بها يومًا لأكون من السائرين في ظلال القرآن.

توجيهات عامة في اقتناء الكتب:

دوافع شراء الكتب:

١ـ معرفة قيمتها.

٢ـ الحاجة إليها.

٣ـ البحث العلمي.

٤ـ الإجابة عن أسئلة.

٥ـ الميل النفسي.

٦ـ شهرة الكاتب.

٧ـ لها صلة بواقع القاريء.

٨ـ الغرابة والتشويق الموجودة في الكتاب

٩- إقامة معارض الكتاب بأسعار مغرية.

توجيهات لاقتناء الكتب وإعداد المكتبات:

هناك توجيهات مهمة ينبغي الحرص على معرفتها والاستفادة منها، وإليك عزيزي القارئ بعضاً منها:

١ـ معرفة الكتب الصالحة، وذلك بالحصول على قوائم بالكتب الجيدة من المكتبات أو المراجع التي تشير للكتب النافعة، أو بسؤال أهل الخبرة والبصيرة والقدرة على التمييز واستشارتهم وأخذ رأيهم قبل الشراء، والسؤال عن المكتبات الصالحة لذلك.

وفي هذا المجال يقول الشاعر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوماً وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تلقى كفاح من نأى ودنا ولا ترى نفسها إلا بـــــمرآة

٢ـ الاستعداد الجيد والمسبق لشراء الكتب واقتنائها، ومن ذلك:

أ) إعداد قائمة بالكتب التي ترغب في شرائها.

ب) تحديد المكتبات التي تريد الذهاب إليها.

ج) عمل قائمة بالكتب التي تم شراؤها وأسعارها ومكان الشراء .. الخ.

٣ـ الاهتمام بكتب علوم القرآن والحديث خصوصاً ـ كالتفسير والشروح ـ، وعلوم الشريعة عموماً.

وفي ذلك ما نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله:

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرآنِ مَشْغَلَةٌ   إِلَّا الْحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ

الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا   وَمَا سِوَى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

(٢١)

---

(٢١)قلت: ضعيف جدا لا يصح من قول الشافعي لكنه مشهور عنه في كتب العلماء والله أعلم وهو كلام صحيح المعنى بلا شك وهذا تخريجه: أخرجه السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٢٩٧): أَخْبَرَنَا أَبُوعَبْد اللَّه الْحَافِظ وَغَيره عَن عمر بْن عَبْد الْمُنعم بْن القواس عَن أَبِي مَسْعُود عَبْد الْجَلِيل بْن أَبِي غَالب بْن أَبِي

الْمَعَالِي السرنجاني أَخْبَرَنَا هبة اللَّه بن أَحْمد ابْن مُحَمَّد بْن السماك البروجردي بهمذان أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَن عَلِيّ بْن أَحْمَد بْن يُوسُف الْقرشِي الهكاري أَنْشدني مُحَمَّد بْن عَبْد اللَّه الْفَقِيه الْبَغْدَادِيّ أَنْشدني الْقَاضِي أَبُو الطّيب الطَّبَرِيّ قَالَ أَنْشدني بَعضهم للشَّافِعِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كل الْعُلُوم سوى الْقُرْآن مشغلة ... إِلَّا الحَدِيث وَإِلَّا الْفِقْه فِي الدّين

الْعلم مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدثنَا ... وَمَا سوى ذَاك وسواس الشَّيَاطِين.

قلت: هذا الإسناد ضعيف جدا فيه انقطاع وجهالة عين وضعيف جدا.

القاضي أبو الطيب الطبري قال الذهبي عنه في سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧/ ٦٦٨ ت ٤٥٩): (وُلِدَ: سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ، بِآمُلَ). اهـ

والإمام الشافعي توفي سنة أربع ومائتين (٢٠٤) من الهجرة فمن أنشده لا شك لم يلق الشافعي فهذا انقطاع ظاهر.

وذلك البعض الذي أنشده هل هو واحد أم أكثر لا دليل صريح عليه في السند لأنه لم يقل بعض من المشايخ واللغة تجيز إطلاق البعض على الواحد.

- فائدة: ولا يقال مشائخ بالهمز بل مشايخ بالياء فقد كنت وقعت في هذا الخطأ حيث كنت كتبتها (مشائخ) في تعليقي على هذا الكتاب فنبهني الشيخ أبو معاوية البيروتي في منتدى كل السلفيين حيث نقل عن كناشته التي بعنوان (كناشة البيروتي عند رقم ٥٣٤) ما نصه: (لا تهمز (مفاعل) إلا في : معائش ومصائب، قال الشيخ بكر أبو زيد (ت ١٤٢٩ هـ) رحمه الله في كتابه ((ابن قيم الجوزية: حياته

آثاره موارده)) (ص ٢٢٠ / ط. ٢ – دار العاصمة): ((فائدة: لا تهمز (مفاعل) إلا في: معائش ومصائب، ولهذا فيقال مصايد، ولا يقال مصائد، وما تراه بالهمز فغلط)).اهـ.

- فهذه علة أخرى وهي جهالة عين ذلك الذي أنشده إذ يجوز أن يكون واحدا ثم لو سلمنا أن ذلك البعض جمعا فثمة بينهم وبين الشافعي انقطاع بلا شك لعدم إدراكهم زمان الشافعي لأن من حدث عنهم وهو أبو الطيب الطبري هذا وُلِدَ سنة ٣٤٨ من الهجرة أي بينه وبين الشافعي ١٤٤ عام فمن من مشايخ أبي الطيب الطبري يبلغ هذا السن أو أكثر منه!. وفي الإسناد أَبُو الْحَسَن عَلِيّ بْن أَحْمَد بْن يُوسُف الْقرشِي الهكاري وهو صوفي ضعيف جدًا قال الذهبي في تاريخ الإسلام ت بشار (١٠/ ٥٦٦ ت ١٩٣): (وقال ابن عساكر: لم يكن موثقا في روايته. قال ابن النجار:... وكان الغالب على حديثه الغرائب والمنكرات، وفي ذلك مُتُونٌ موضوعة مركَّبة. رأيت بخطّ بعض المحدّثين أنّه كان يضع الحديث....وقيل: تكلَّم فيه ابن الخاضبة). اهـ. وانظر تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١٨/ ١١٩ ت ٦٥١) ففيه أن المحدثين الذين نقل عنهم ابن النجار هم من أهل أصبهان وأنه كان يضع الحديث بأصبهان.

وعزاه الشيخ سعيد بن علي بن وهف القحطاني في كتابه الاعتصام ص ١٠ لديوان الشافعي، جمع محمد عفيف، ص٨٨، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/ ٢٥٤.

قلت وهو معلق فيهما وقد علقه ابن كثير فقال في البداية والنهاية ط إحياء التراث (١٠/ ٢٧٧): (وَمِنْ شِعْرِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ) اهـ وذكره دون إسناد.

وهو بنحوه - مع اختلاف في بعض كلماته وزيادة بيت- ذكره الفيروز آبادي من شعر شاعرٍ لم يسمِّه حيث قال في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ٤٣٩): (قال الشاعر:

كلُّ العلومِ سوى القُرآنِ مَشْغَلة أَو الأَحاديث من دون الدواوينِ

فبالقرَانِ أُقيمت كلُّ مائلةٍ وبالحديث استقامتْ دولةُ الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سواه فوسواس الشياطين). اهـ

وذكره الإمام ابن الملقن وهو من الشافعية من شعر إمام متأخر! حيث قال ابن الملقن العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٢٩ ت ٣٣٠): (محمد بن عبد الملك بن محمد الإمام أبو الحسن بن أبى طالب الكَرجى، تلميذا الشيخ أبى إسحاق... ومن شعره:) اهـ

فذكره دون إسناد وجاء معلقا في مجلة البحوث الإسلامية (١٩/ ٢٤٣) عن أحد علماء شاش مبهما هكذا!.

وقال ابن القيم رحمه الله:

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فلان

انظر نونية ابن القيم المسماة الكافية الشافية ط مكتبة ابن تيمية (ص: ٢٢٦).

٤ـ الحرص على شراء كتب الأصول وكتب السلف التي لا يغني كتاب عنها، ولا تحشر مكتبتك وتشوش فكرك بالكتب التافهة، ولا سيما كتب المبتدعة، فإنها سم ناقع. وعليك بالكتب المنسوجة على طريقة الاستدراك والتفقه في علل الأحكام والغوص في أسرار المسائل، ومن أهمها كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وعلى الجادة من ذلك من قبل ومن بعد كتب منها ما يلي:

ـ كتب الحافظ ابن عبد البر، وأجلها "التمهيد".

ـ كتب ابن قدامة، وأجلها "المغني".

ـ كتب الذهبي وابن كثير وابن رجب والنووي وابن حجر والشوكاني ومحمد بن عبد الوهاب والصنعاني وصديق حسن القنوجي – وهو صديق حسن خان - ومحمد الأمين الشنقيطي .

٥ـ الحرص على اقتناء الكتب المحققة والطبعات الحديثة وخصوصا الكتب التي حققها العلماء.

٦- اقتناء الكتب الفقهية وكتب الفتاوى التي تعلم المسلم أحكام العبادات.

٧- الحرص على اقتناء كتب الذين عُرِفُوا بفضلهم وشهد الواقع بعلمهم وحسن بلائهم في دين الله، فهؤلاء أبعد الخلق عن غش القراء وتحصيل السمعة والدراهم بتسويد أوراق لا تسمن ولا تغني من جوع.

٨- انتقاء فقرات معينة لقراءتها قبل الشراء للتأكد من حسن المعالجة، وأن المسألة ليست مجرد عناوين جانبية وألوان براقة.

٩- اقتناء الكتب ذات التجليد القوي المتين والتأكد من تماسك الغلاف.

١٠- التأكد من خلو الكتاب من الأوساخ أو أية عيوب في الطبع، كأن تكون الصفحات مطوية أو مقلوبة أو ممزقة ونحو ذلك.

١١- التأكد من عدم وجود نقص في الصفحات.

١٢- عدم الانخداع بالألوان الصارخة والعناوين البراقة والطباعة الجذابة والسعر الرخيص أو المرتفع الفاحش، بل ينبغي النظر في المضمون والتأكد من قيمة المحتوى.

١٣- معرفة اصطلاح المؤلف، وكثيرا ما تكون المقدمة كاشفة عن ذلك، فابدأ من الكتاب بقراءة مقدمته.

١٤- قراءة فهرس الكتب والمراجع قبل شرائها لمعرفة ما تضمنته من الموضوعات ومدى أهميتها.

١٥- عمل دفتر للإعارة في المنزل حتى تسجل فيه الكتب المعارة.

١٦- لا يخلو كتاب من فائدة، ولا يغني كتاب عن كتاب.

١٧- الحرص على نقل الفوائد والدروس. قال يحي بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حكم من يطلب الحديث أن لا يفارق محدثه وقلمه، وأن لا يحقر شيئا سمعه فيكتبه، فقيدوا العلم بالكتابة..

وقال الشاعر ناصحاً القراء على تقييد الفوائد:

العلم صيـــد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الموثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتتركها بين الحدائق طالقة

وعن الإمام الزهري: حضور المجلس بلا نسخة ذُلٌّ..

فيجب على طالب العلم أن تكون له نظرة بعيدة، فإن الحفظ خوان.. قال أبو هريرة رضي الله عنه: (ما من أحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أكثر حديثا عنه مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو بن العاص، فانه كان يكتب ولا أكتب)[٢٢].

---

(٢٢) صحيح آخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٣٤ رقم ١١٣): حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو، قَالَ: أَخْبَرَنِي وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَخِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: (مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ) ثم قال البخاري عقبه: (تَابَعَهُ مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) اهـ.

١٨- إذا حُزْتَ كتاباً فلا تدخله في مكتبتك إلا بعد أن تمر عليه جَرْدًا، أو تقرأ المقدمة أو الفهرس، أو تقرأ مواضع منه، وتضعه مع نظائره في العلم.

وإذا لم تفعل ذلك فربما مرّ زمان وفات العمر دون النظر فيه. ويقترح لذلك تخصيص قسم في المكتبة لوضع الكتب الجديدة التي لم تقرأ.

١٩- عمل عناوين للمكتبة في كل علم حتى يسهل وضع الكتاب في المكان المناسب.

٢٠- مراجعة الكتب الموجودة في المكتبة - ولو بالنظر السريع - والتأكد من صحة ترتيبها.

٢١- تنظيم مكتبة المنزل حتى يسهل الرجوع إليها وتزويدها بالكتب اللازمة من كل صنف، وترتيبها سواء على:

١) المعجم، أو ٢) العنوان، أو ٣) المؤلفين ..

وعند ترتيب الكتب يضع في الأعلى أكثرها قرآنا، فإن استوى كتابان في فن، قدم أكثرهما قرآنا وحديثا، فإن استويا فبجلالة المصنف، فإن استويا فأقدمهما كتابة وأكثرهما وقوعا في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما..

الآداب العامة للكتب:

الكتب هي آلة العلم، وقد كان السلف رضوان الله عليهم يراعون الأدب مع الكتب مراعاة تامة. ومن تلك الآداب:

١ـ تحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكن، شراء أو أجرة أو استعارة.

٢ـ آداب الإعارة: ويستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها. قال وكيع: أول بركة الحديث إعارة الكتب.

وآداب الإعارة عديدة نذكر منها :

أـ شكر المعير والدعوة له بالخير، ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة ولا يحبسه إذا طلبه المالك أو استغنى عنه. ويلاحظ أن من أسباب ضعف الإعارة بين الناس عدم إرجاع الكتب إلى أصحابها وتأخيرها بدون عذر أو سبب.

ب ـ لا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه ولا يكتب شيئا في بياض فواتحه وخواتمه إلا إذا علم رضا صاحبه أو استأذن لذلك، ولا يعيره غيره، ويحفظه من الماء والأوساخ والعبث.

وذكر الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم في مقطع مسجل أن العلماء ذكروا أن من يُخاف منه عدم إرجاع الكتاب فالواجب على المعير أن يرهن مكانه شيئا له قيمة الكتاب ككتاب للمستعير أو شيء آخر له قيمة كتاب المعير وهذه فائدة عزيزة.

والتحقيق في ذلك هو أن ذلك مرتبط بالمصالح والمفاسد المترتبة على ذاك وذلك بحسب حال صاحب الكتاب ونوع الكتاب والأشخاص والأزمان والأماكن.

وهذا أعدل المذاهب فمن خلال اطلاعي اليسير على المسائل الشائكة في حقوق العباد وحتى غيرها أن التفصيل بربطها بالمصالح والمفاسد هو الأسلم والأدق والأليق بعدل الله عز وجل.

وبالقول بذلك راحة وانشراح للقلب عجيبَيْن.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - وكذا تلميذه ابن القيم - كثيرا ما يفعل ذلك فيربط تلك المسائل بالمصالح والمفاسد المترتبة عليها، نص على ذلك الشيخ المحدث الفقيه العلامة الفهامة الرُّحَلة مشهور بن حسن آل سلمان في مجالس متعددة منها شرحه منظومة القواعد الفقهية للسعدي رحمه الله.

فالتحقيق أن الإعارة مرتبطة بالمصالح والمفاسد المترتبة عليها من جهة اليقين أو غلبة الظن بحال المستعير.

فإن كان المستعير من المعروفين بالأمانة لدى المُعير فيعيره الكتاب إن كان المعير غير محتاج للكتاب حال إعارته.

وإن كان المستعير غير معروف بالأمانة لدى المعير فلا يعره كتابا من كتبه فإن كان ولا بد فاعلا يعيره بشرط رهن شيء بقيمة الكتاب مما يملكه المستعير.

قلت والأولى والأحوط والأقرب للحفاظ على الكتب لمن يعيرها أن يشترط رهن شيءٍ من مال المستعير بقيمة كتابه سواء كان المستعير معروفا بالأمانة أو غير معروف.

ولو عمل بهذا المعيرون في زماننا لقل ضياع الكتب وامتهانها.

وهذه الحيطة ذهب لها الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم ونقلها عن بعض أهل العلم

ج ـ يجب على المستعير التعجيل برد الكتب التي استعارها. ومن الأقوال في ذلك:

عن يونس بن زيد قال: قال لي الزهري: يا يونس إياك وغلول الكتب. قال: قلت: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن أصحابها. الغلول: السرقة وهي تطلق غالبا غلى السرقة من الغنيمة

ـ قال الخطيب: ولأجل حبس الكتب امتنع غير واحد من إعارتها.

ـ وعن سفيان رحمه الله قال: لا تعر أحدا كتابا.

ـ وعن الربيع بن سليمان قال: كتب إلي البويطي: احفظ كتبك فإنه إن ذهب لك كتاب لم تجد بركة.

والقول الوسط في الإعارة هو أن تعير من يحفظ الكتاب ويرجعه في وقته .. قال الشاعر:

أيها المستعير مني كتاباً   إن رددت الكتاب كان صواباً

أنت والله إن رددت كتاباً   كنت أُعْطيتَهُ أخذت كتابــاً

د- على المستعير أن يتفقد الكتاب قبل أخذه وقبل رده حتى يتأكد من سلامته.

هـ ـ عمل دفتر إعارة في المكتبة لتسجيل أسماء الكتب المستعارة والمستعيرين.

٣- من ضوابط التأليف والكتابة:

أ- كتابة البسملة في أول الكتاب[٢٣].

---

(٢٣) فالسنة البداءة بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) في الكتب أما في الخطبة فالسنة فيها البداءة بخطبة الحاجة – وهي تبدأ بقوله (إن الحمد لله نحمده....) انظر كتاب خطبة الحاجة للألباني - ودليل سنية البداءة بالبسملة في الكتب أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يكتب أي يأمر من يكتب البسملة في بداية كتبه التي أرسلها إلى ملوك الأرض كملك الروم وملك فارس وغيرهم وكذا في كتاب الصلح بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين المشركين في صلح الحديبية وعلى هذا عمل أبوبكر الصديق في خلافته في كتاب فريضة الصدقة الذي أرسل أنسًا به إلى البحرين وكل هذا في الصحيحين إلا قصة أبي بكر الصديق ففي صحيح البخاري وحده وهذا تخريج ذلك:

أما كتاب النبي إلى هرقل كما في قصة ذهاب أبي سفيان قبل إسلامه وذكره كتاب النبي عليه الصلاة والسلام في حديث ابن عباس فأخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٨ ح ٧) وفيه: (ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ

تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ " و﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾). وعلقه البخاري في الصحيح (١/ ٦٨) عن ابن عباس أخبرني أبو سفيان به، ووصله في الموضع السابق وباقي المواضع الآتية أنظر صحيح البخاري (٤/ ٤٥ ح ٢٩٤١) وصحيح البخاري (٤/ ٤٧) وصحيح البخاري (٦/ ٣٥ ح ٤٥٥٣) وصحيح البخاري (٨/ ٥٨ ح ٦٢٦٠) وصحيح البخاري (٩/ ١٥٧) وأخرجه مسلم في الصحيح (٣/ ١٣٩٣، ٧٤ - (١٧٧٣) في جميعها في الصحيحين من طريق ابن عباس عن أبي سفيان به.

أما كتاب النبي عليه الصلاة والسلام الذي عاهد فيه مع الكفار في صلح الحديبية فأخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٩٥ ح ٢٧٣١): حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ: أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ، يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالاَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ.... قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»... الحديث.

وأخرجه مسلم في الصحيح (٣/ ١٤١٠، ٩٢ - (١٧٨٣) حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ جَنَابٍ الْمِصِّيصِيُّ، جَمِيعًا عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ، وَاللَّفْظُ

ب ـ كلما كتب اسم الله تعالى أتبعه بالتعظيم (تعالى، سبحانه، عز وجل..).

ج ـ عند كتابة اسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ يكتب بعده الصلاة والسلام عليه ويصلي هو عليه بلسانه أيضا. ولا تختصر الصلاة في الكتابة

لإِسْحَاق، أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، أَخْبَرَنَا زَكَرِيَّا، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا أُحْصِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الْبَيْتِ، صَالَحَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا فَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ، السَّيْفِ وَقِرَابِهِ، وَلَا يَخْرُجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَا يَمْنَعَ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، قَالَ لِعَلِيٍّ: «اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»... الحديث. وانظر صحيح مسلم (٣/ ١٤١١، ٩٣ - (١٧٨٤)

أما عمل أبي بكر الصديق فنص على البسملة في أول كتاب فريضة الصدقة الذي أرسل به أنسًا إلى البحرين فأخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ١١٨ ح ١٤٥٤): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ المُثَنَّى الأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنِي ثُمَامَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ، أَنَّ أَنَسًا، حَدَّثَهُ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَتَبَ لَهُ هَذَا الكِتَابَ لَمَّا وَجَّهَهُ إِلَى البَحْرَيْنِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَالَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ... الأثر.

ولو تكررت في نفس السطر أو الصفحة كما يفعل بعض الكتّاب فيكتبون "صلع" أو "صلعم" أو "ص"، وكل ذلك لا يوفي حق الصلاة والتسليم، بل الأولى أن يكتبها كاملة "صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ". وهذا الواجب احتراما للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فليس هذا الأفضل والأولى بل الواجب ذكر الصلاة على النبي كاملة لا مختصرة بـ(ص) أو(صلع) أو(صلعم) ولم يعمل بهذا الاختصار أحد من السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم والأئمة المتقدمين من بعدهم.

د ـ إذا مر بذكر الصحابة كتب "رضي الله عنه"، وإذا مر بذكر أحد من السلف كتب "رحمه الله".

هـ ـ ترك الكتّابة بين الأسطر إلا للضرورة، وتكون بخط خفيف حتى لا تختلط مع غيرها من الكتّابة.

وـ إذا نقل شيئا من كتّاب فليضعه بين قوسين ويشير الى المصدر في كتّاباته، وهذا من الأمانة العلمية في النقل.

ز ـ الإنصاف مع الكاتب ونقده على أساس علمي ونية صادقة والتماس العذر له إذا قصر أو غفل عن شيء.

نماذج من السلف في القراءة والتأليف:

يردد كثير من الناس اليوم أن الغربيين يقرؤون كثيرا، وفي كل مكان، في الحافلات والطرق والأماكن العامة والحدائق وغيرها، ولكننا عندما ننظر إلى المسلمين الأوائل ـ سلفنا الصالح ـ نجدهم قد فاقوا في هذا المجال كل الأمم وضربوا أروع الأمثلة، ونذكر طرفا من هذا الأمثلة :

١ـ قال الحافظ الذهبي عن الإمام ابن الجوزي - رحمهم الله - : (ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل). وقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: (عددت له أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره).

٢- محمد بن القاسم أبوبكر بن الأنباري، مات ببغداد سنة ٣٢٨ هـ عن سبع وخمسين سنة. دخل عليه الطبيب فنظر إلى مائه وقال: هذا يدل على تكلفك أمرا لا يطيقه الناس، فلما خرج تبعه بعض أصحابه، فقال: هو تالف، وما فيه حيلة. فدخل ذلك الرجل فقال له: ما الذي تفعله حتى استدل الطبيب على حالك؟ فقال: كنت أَدْرُسُ في كل جمعة خمس عشرة ألف ورقة !

٣- الحافظ أبي العلاء الحسن بن أحمد الهمداني المعروف بالعطار، شيخ همدان، عمل بهمدان دارا للكتب وخزانة أوقف جميع كتبه فيهما. ومن نوادره التي حفظها لنا التاريخ أنه سافر إلى بغداد وأصبهان مرات ماشيا يحمل كتبه على ظهره، وأنه اشترى كتب الجواليقي وباع داره بستين دينارا.

٤- الإمام محمد بن إسحق الأصبهاني تغرب ٤٠ عاما وعاد ومعه أربعون حملا من الكتب أخذها عن ١٧٠٠ شيخ !

٥- وابن عقدة، أحد حفاظ الحديث، تعدل كتبه حمل ٦٠٠ جمل !

٦- أبوداود صاحب السنن المشهورة، كان له كُمَّان، أحدهما واسع يحمل به الكتب، والآخر ضيق.

٧- ابن القيم في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية" رجع إلى ما يزيد عن المائة من الكتب التي ألفها هو بنفسه! فالله أكبر على علو الهمة وارتفاع الدرجات ..

٨- الخطيب البغدادي وضع فصلاً في أحد كتبه بعنوان "من استوحش الخليط والمعاشر فجعل أنسه النظر في الدفاتر". فإذا كان ذلك في القرن الخامس الهجري فهو في القرن الخامس عشر – وهو القرن الهجري الذي نحن نعيش فيه - أولى وأكبر لما لتأثير الصحبة والأقران على الفرد والمجتمع..

٩- أحد القراء لامته زوجته على كثرة ما ينفق على الكتب فقال يحكي حاله معها:

وقائلة أنفقت في الكتب ما حوت يمينك من مال فقلت دعيني

لعلـــي أرى فيها كتابـــا يدلني لآخذ كتابـــي آمنا بيميني

١٠- ذكر ابن كثير نقلاً عن ابن خلكان في سبب موت أبي العباس الشيباني أنه خرج من الجامع وبيده كتاب ينظر فيه، وكان قد أصابه صمم شديد، فصدمته فرس فألقته في هوة، فاضطرب دماغه فمات في اليوم الثاني رحمه الله ..

١١- ابن حجر رحمه الله قرأ صحيح البخاري في عشرة مجالس، من بعد صلاة الظهر إلى العصر، وصحيح مسلم في خمسة مجالس في نحو يومين وشطر يوم، والنسائي الكبير في خمسة مجالس كل مجلس منها قريب من أربع ساعات. وأغرب ما وقع له في الإسراع أنه قرأ في رحلته الشامية المعجم الصغير للطبراني في مجلس واحد فيما بين صلاة الظهر والعصر.

وفي مدة إقامته بدمشق، وكانت شهرين وثلث، قرأ فيها قريبا من مائة مجلد مع ما يعلقه ويقضيه من أشغاله.

١٢ـ قال الشيخ الشيباني عن العلامة الألباني حفظه الله: ولعل الاهتمام بالحديث أصبح شغله الشاغل حيث كان يغلق محله ويذهب إلى المكتبة الظاهرية ويبقى فيها اثنتي عشرة ساعة لا يفتر عن المطالعة والتحقيق إلا أثناء فترات الصلاة.

ومما سبق ذكره يتضح أن سلفنا - رحمهم الله - ضربوا أجمل الأمثلة في التفوق في هذا المضمار.

أقوال وفوائد:

- ومما نسب إلى الشافعي:

اصبر على مر الجفا من معلم   فإن رسوب العلم من نفراته

ومن لم يذق مر التعلم ساعة   تجرع ذل الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه   فكبر عليــه أربعا لوفاته[٢٤]

- **عن بعض السلف:** من لم يصبر على ذل التعلم، بقي عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة.

- **وقالوا لابن المبارك:** إلى أين ذاهب؟ فقال لهم: ذاهب لأمشي مع السلف، فقالوا له: لقد ماتوا، فقال: علومهم موجودة وسيرهم مكتوبة.

---

(٢٤) ضعيف لا اصل له لم أجد له سندًا! علقه محمد بن عفيف عن الشافعي في ديوان الشافعي الذي جمعه من كتب التراجم وغيرها ص ٢٩.

- العلم يؤخذ من أفواه الرجال لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون ويقولون أحسن ما يحفظون.

- قالوا عن القراءة:

أـ يقول عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ، إلا حكمت عليه واعتقدت أنه أفضل منه عقلا.

ب ـ رؤي أبو أيوب سليمان بن داؤد الشاذكوني من الحفاظ الكبار بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. فقيل: بماذا؟ قال: كنت في طريق أصبهان فأخذني المطر وكان معي كتب ولم أكن تحت سقف أو شيء، فانكببت على كتبي حتى أصبحت وهدأ المطر، فغفر الله لي بذلك.

ج ـ وقال أحد العلماء في الكتاب: إنه حاضر نفعه، مأمون خيره، ينشط بنشاطك فينبسط إليك، ويمل بملك فينقبض عنك، إن أدنيته

دنا، وإن أنأيته نأى، لا يبغيك شرا، ولا يفشي عليك سرا، ولا ينم عليك ولا يسعى بنميمة إليك..

د- أجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل.

هـ - ما حُفِظَ فَرّ، وما كُتِبَ قَرّ. ما حُفظ فر أي هرب أي ذهب فلم ينتفع به من نسيه ومن يأتي بعده!، وما كُتب قر أي استقر في السطور وانتفع به من احتاج إليه كاتبه ومن جاء بعده.

و- اعتياد المخافتة في التكرار، لأن رفع الصوت والجهر يجهد النفس فينقطع عن التكرار، وخير الأمور الوسط.

ز - قال الخطيب البغدادي: أجود أماكن الحفظ الغرف وموضع بعيد عن الملهيات، وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق وضجيج الأصوات، لأنها تمنع من خلو القلب..

ح ـ من أسباب النسيان:

١) المعاصي

٢) الانشغال أثناء القراءة بالرسم والعبث

٣) الإهمال

٤) التداخل.

١- جدول (أ) لحصر الكتب المراد شراؤها

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة	تاريخها	الناشر	مكان النشر	ملاحظات
١							
٢							
٣							
٤							
٥							

٢- جدول (ب) لتسجيل الكتب التي تم شراؤها

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة	تاريخها	الناشر	مكان النشر	السعر	مكان الشراء	تاريخ الشراء	خصم	ملاحظات
١											
٢											
٣											
٤											
٥											


مخطط القراءة اليومي
المعرفة
الكتاب
المجال
عدد الصفحات
وقت الإنجاز
صفحات مهمة
اليوم: ....
التاريخ: ....
مكافأة الإنجاز:




الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

الشهر: ....

الكتاب	تم

اختر كتابًا لتقرأه. سجّل العنوان، واسم المؤلف، وتاريخ بدء القراءة. حين تنتهي من الكتاب، سجّل التاريخ الذي انتهيت فيه، وحدّد للكتاب تقييما نجميّاً، وإذا هجرت الكتاب، دوّن (هـ) في عمود اللون الأدبي.

العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				

العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				
العنوان	المؤلِّف	اللون الأدبي	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
التقييم النجمي	كيف اخترتَ هذا الكتاب؟			
☆ ☆ ☆ ☆ ☆				

العنوان	المؤلف	ضع علامة (✓) عند الانتهاء

تاريخ البدء: ________________

تاريخ الانتهاء: ________________

احتَفِظْ بقائمة بالمرَّات التي قرأت خلالها هذا الأسبوع. سجِّل كل مكان قرأت فيه ومقدار الوقت الذي قضيته في القراءة .

اليوم/التاريخ: ________________

المكان: ________________

مقدار الوقت: ١–١٥ دقيقة ١٦–٣٠ دقيقة ٣١–٤٥ دقيقة ٤٦–٦٠ دقيقة غير ذلك

اليوم/التاريخ: ________________

المكان: ________________

مقدار الوقت: ١–١٥ دقيقة ١٦–٣٠ دقيقة ٣١–٤٥ دقيقة ٤٦–٦٠ دقيقة غير ذلك

اليوم/التاريخ: ________________

المكان: ________________

مقدار الوقت: ١–١٥ دقيقة ١٦–٣٠ دقيقة ٣١–٤٥ دقيقة ٤٦–٦٠ دقيقة غير ذلك

راجع المرات التي قرأت خلالها هذا الأسبوع، وأجب عن الأسئلة التالية:

أين تقضي أطول أوقات القراءة؟

ما الذي تحبه بشأن القراءة في هذا المكان؟

هل تقرأ أكثر داخل المدرسة أم خارجها؟ ولماذا؟

هل تعتقد أن إيجاد الوقت للقراءة صعب أم سهل؟ ولماذا؟

صِف بالتفصيل المكان الذي تفضل القراءة فيه.

ما الذي تعلمته عن عادات القراءة لديك هذا الأسبوع؟

القارئ: ____________________

اذكُر عناوين آخر خمسة كتب اخترت أن تقرَأها، تشمل الكتاب الذي تقرؤه حاليًّا أو أي كتب قد هجرت قراءتها، واشرح كيف اخترتَ كل كتاب.

العنوان: ____________________

المؤلف: ____________________

كيف اخترت هذا الكتاب؟ ____________________

قيِّم الكتاب: رائع جيد مُمِل ما زلتُ أقرؤه هجرت قراءته

العنوان: ____________________

المؤلف: ____________________

كيف اخترت هذا الكتاب؟ ____________________

قيِّم الكتاب: رائع جيد مُمِل ما زلتُ أقرؤه هجرت قراءته

العنوان: ____________________

المؤلف: ____________________

كيف اخترت هذا الكتاب؟ ____________________

قيِّم الكتاب: رائع جيد مُمِل ما زلتُ أقرؤه هجرت قراءته

العنوان: ____________________

المؤلف: ____________________

كيف اخترت هذا الكتاب؟ ____________________

قيِّم الكتاب: رائع جيد مُمِل ما زلتُ أقرؤه هجرت قراءته

العنوان: ____________________

المؤلف: ____________________

كيف اخترت هذا الكتاب؟ ____________________

قيِّم الكتاب: رائع جيد مُمِل ما زلتُ أقرؤه هجرت قراءته

أجب على الأسئلة التالية عن خياراتك في الكتب.

كيف تتعرف على الكتب التي تود قراءتها؟

حين ترى كتابًا أو تسمع عنه، كيف تقرر أنك ترغب أو لا ترغب في قراءة هذا الكتاب؟

هل تهجر الكتب قبل الانتهاء من قراءتها؟ اذكر السبب.

هل أنت موفَّق في اختيارك للكتب التي تقرؤها؟ اذكر السبب.

القارئ: ____________________

فكِّر في القرَّاء الآخرين الذين تعرفهم وكيفية تشارككم الكتب. أجب عن الأسئلة التأمُّلية التالية عن تأثيرك القرائي.

دوِّن فيما يلي أسماء قرَّاءٍ تعرفهم يتحدثون معك بصفة منتظمة عن الكتب والقراءة:

____________________ ____________________

____________________ ____________________

____________________ ____________________

تأمل الكيفية التي تتشارك بها الكتب والقراءة مع القراء الآخرين. اذكر مثالًا على كل حالة تنطبق عليك.

الحصول على ترشيحات الكتب:

____

____

تقديم ترشيحات الكتب:

____

____

إعارة كتبك الشخصية:

____

____

استعارة كتب القرَّاء الآخرين الشخصية:

____

____

الحديث إلى القرَّاء الآخرين حول ما تقرؤه:

إعلانات الكتب:

كتابة العروض النقدية للكتب:

نشر تعليقات على مواقع الإنترنت:

كيف أثَّر القرَّاء الآخرون الذين تعرفهم في قراءاتك؟

كيف أثَّرتَ في القرَّاء الآخرين؟

هل يهمك أن تعرف قرَّاء آخرين تتحدث معهم عن الكتب والقراءة؟
وضِّح السبب.

مراقبة وقت القراءة المستقلة

القارئ: ________

التاريخ: ____	وقت البدء: ____		تاريخ الانتهاء: ____
الدقيقة	القراءة		السلوكيات الأخرى المرصودة
١	نعم	لا	
٢	نعم	لا	
٣	نعم	لا	
٤	نعم	لا	
٥	نعم	لا	
٦	نعم	لا	
٧	نعم	لا	
٨	نعم	لا	
٩	نعم	لا	
١٠	نعم	لا	

التاريخ: ____	وقت البدء: ____		تاريخ الانتهاء: ____
الدقيقة	القراءة		السلوكيات الأخرى المرصودة
١	نعم	لا	
٢	نعم	لا	
٣	نعم	لا	
٤	نعم	لا	
٥	نعم	لا	
٦	نعم	لا	
٧	نعم	لا	
٨	نعم	لا	
٩	نعم	لا	
١٠	نعم	لا	

التاريخ: ____	وقت البدء: ____		تاريخ الانتهاء: ____
الدقيقة	القراءة		السلوكيات الأخرى المرصودة
١	نعم	لا	
٢	نعم	لا	
٣	نعم	لا	
٤	نعم	لا	
٥	نعم	لا	
٦	نعم	لا	
٧	نعم	لا	
٨	نعم	لا	
٩	نعم	لا	
١٠	نعم	لا	

أفكاري:
____
____
____

أفكار القارئ:
____
____
____

الخطة:
____
____
____

مخطط اجتماع نقاش عادات القراءة   التاريخ: ________ مرحلة التقييم: ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦

القارئ	التفضيلات	الانخراط	التسجيل	الالتزام	الاختيار
		المدرسة		مهجور	الترشيحات
مستوى القراءة	مستوى النص	المنزل		الخطة	أخرى

الكتاب الحالي: ____________ أي الكتب هو لهذا العام؟ الكتاب رقم: ______

		المدرسة		مهجور	الترشيحات
مستوى القراءة	مستوى النص	المنزل		الخطة	أخرى

الكتاب الحالي: ____________ أي الكتب هو لهذا العام؟ الكتاب رقم: ______

		المدرسة		مهجور	الترشيحات
مستوى القراءة	مستوى النص	المنزل		الخطة	أخرى

الكتاب الحالي: ____________ أي الكتب هو لهذا العام؟ الكتاب رقم: ______

التفضيلات	هل يفضل الطالب لونًا أدبيًا أو مؤلفين أو سلاسل بعينها؟ ما درجة صعوبة الكتب التي يقرؤها؟
الانخراط	ما مدى انخراط الطالب خلال وقت القراءة؟ هل يقرأ الطالب في المنزل؟
التسجيل	هل يستخدم الطالب دفتر ملاحظات القارئ لتسجيل نشاط القراءة خاصته بدقة؟
الالتزام	هل يهجر الطالب الكتب؟ ما هي خطط الطالب للقراءة في المستقبل؟
الاختيار	كيف يختار الطالب كتبه في الأساس؟

١- هل تعتبر نفسك قارئًا نَهِمًا؛ شخصًا يختار أن يقرأ كثيرًا؟

____

٢- كم تقضي من الوقت، في المتوسط، في القراءة أسبوعيًّا؟

____

٣- كيف تعثر على الكتب التي تودُّ قراءتها؟ (اختر كل الإجابات التي تنطبق عليك.)

☐ مدوَّنات المؤلفين أو مواقعهم الإلكترونية.
☐ قوائم جوائز الكتب.
☐ نادي كتب.
☐ مدوَّنات أو مواقع إلكترونية للعروض النقدية للكتب.
☐ مواقع بائعي الكتب ومطبوعاتهم.
☐ نوافذ عرض متاجر الكتب.
☐ المواقع الإلكترونية للمكتبات ومطبوعاتها.
☐ الدوريات.
☐ المطبوعات المتخصصة في العروض النقدية للكتب.
☐ كتالوجات الناشرين أو مواقعهم الإلكترونية.
☐ الاختيار العشوائي.
☐ ترشيحات الزملاء و/أو أمناء المكتبات.
☐ ترشيحات أفراد الأسرة، والأصدقاء و/أو الطلاب.
☐ مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك، تويتر، جودريدز، شيلفاري، إلخ).
☐ العروض التقديمية في ورش العمل.

مصادر أخرى (حدِّدها من فضلك): ________________________________

____

٤- كيف تشارك الكتب والقراءة مع قرَّاء آخرين؟ (اختر كل الإجابات التي تنطبق عليك.)

☐ لا تشارك الكتب والقراءة مع آخرين.
☐ تتبرع بالكتب أو تقدمها كهدايا.
☐ تقدم شهادات ارتجالية عن الكتب.
☐ تُعير الكتب أو تتبادلها.
☐ تدرس الروايات أو المؤلفين مع الأطفال أو الطلاب.
☐ تشارك في نادي كتب.
☐ تنشر على مدوَّنات أو مواقع إلكترونية.

١٠- ما هي أكبر عقبة تمنعك من القراءة بالقدر الذي تريده؟

- ☐ تكاليف القراءة التي يفرضها العمل أو المدرسة.
- ☐ قلة فرص مشاركة الكتب والقراءة مع القرَّاء الآخرين.
- ☐ قلة المعلومات عن الكتب.
- ☐ لا توجد عقبات في طريقي.
- ☐ الانشغال الشديد.

عقبات أخرى (حدِّدها من فضلك): ______________________________

____

١١- من فضلك، اذكر أية معلومات إضافية عن تجارب القراءة الخاصة بك ترغب في تضمينها:

____

____

____

____

____

____

____

____

____

شكرًا لمشاركتك في هذا الاستبيان عن عادات القراءة. تعليقاتك ستساعد الطلاب المستقبليين.

اسم القارئ: ______________________________

هل تحب القراءة؟

☐ نعم.

☐ لا.

ما مدى براعتك في القراءة في رأيك؟

☐ تحت مستوى الصف الدراسي الذي أدرس فيه.

☐ متوسط.

☐ فوق مستوى الصف الدراسي الذي أدرس فيه.

كم تقضي من الوقت في القراءة خلال أسبوع عادي؟

☐ ٠–٣ ساعات.

☐ ٤–٦ ساعات.

☐ ٧–١٠ ساعات.

☐ أكثر من ١٠ ساعات.

ما هي أكبر عقبة تمنعك من القراءة؟

☐ عدم كفاية الوقت.

☐ عدم توافر مواد قراءة مثيرة لاهتمامي.

☐ عدم وجود مَن أشارك الكتب معهم أو أتحدث إليهم عن الكتب.

☐ لا شيء يقف في طريقي.

ما هي الأماكن التي تفضِّل القراءة فيها؟

١- ________________

٢- ________________

٣- ________________

كم عدد الكتب التي قرأتها هذا العام؟ ________________

هل قرأت عددًا أكبر أم أقل من الكتب مقارنة بالعام الماضي؟

☐ أكبر.
☐ أقل.
☐ نفس العدد تقريبًا.

إذا كان العدد أقل، فوضِّح السبب:

____

____

كيف تعثر على الكتب التي تودُّ قراءتها؟ (اختر كل الإجابات التي تنطبق عليك.)

☐ ترشيحات المعلمين.
☐ ترشيحات أمناء المكتبات.
☐ ترشيحات الأصدقاء.
☐ ترشيحات أفراد العائلة.
☐ إعلانات الكتب.
☐ زيارات المكتبة.
☐ نماذج طلبات شراء الكتب.
☐ متاجر الكتب.
☐ سلاسل الكتب.
☐ المؤلِّفون.
☐ الاختيار العشوائي.
☐ طرق أخرى (حدِّدها من فضلك).

ما أفضل كتاب قرأته هذا العام؟

ما الذي جعل هذا الكتاب بهذه الروعة؟

اذكر خمسة كتب تخطط لقراءتها على مدار الصيف.

١- ____________________

٢- ____________________

٣- ____________________

٤- ____________________

٥- ____________________

اذكر أية كتب تتطلع لقراءتها عند نشرها.

١- ____________________

٢- ____________________

٣- ____________________

٤- ____________________

٥- ____________________

كيف فاجأت نفسك كقارئ هذا العام؟

شكرًا لمشاركتك في هذا الاستقصاء حول تفضيلاتك في القراءة. اقتراحاتك ستفيد الطلاب المستقبليين!

اسم القارئ: ______________________

اذكر الكتب المفضلة لديك:

١- ______________________

٢- ______________________

٣- ______________________

٤- ______________________

٥- ______________________

اذكر المؤلِّفين المفضَّلين لديك:

١- ______________________

٢- ______________________

٣- ______________________

٤- ______________________

٥- ______________________

اذكر أية سلاسل أتممت قراءتها في حياتك:

١- ______________________

٢- ______________________

٣- ______________________

٤- ______________________

٥- ______________________



تمثل معارض الكتب أحد الأحداث البارزة، حيث ينشط الباحثون وطلاب المعرفة لزيارتها والتزوّد من جديد محصولها باستمرار. ولا شك أن ترشيح الكتاب الأفضل في التخصّص أو في إحدى مسائله يظلّ أمرًا قابلًا للاجتهاد، ويتفاوت المرشّحون فيه بحسب رؤيتهم، إلا أنه يظلّ أمرًا مهمًّا ومطلوبًا؛ لما يفيده في تحديد بوصلة اختيار المؤلفات بصورة عامة، وتسليط الضوء على الكتابات البارزة، والتي تمثِّل إضافات نوعية في مسائل التخصصات والمعارف.

ولما كان الدكتور/ عبد الرحمن بن معاضة الشهري قد عقد عدّة محاضرات أسماها بـ«المنتقى من كتب الدراسات القرآنية»، طوّف فيها - من خلال خبرته الممتدة في التخصّص- على ذِكر أهم الدراسات في

مجال علوم القرآن والتعريف بها والتي بلغت (١٠٠) مؤلف، والتعريف بهذه المؤلفات وطبيعة الإضافات التي حوتها، ووجوه إفاداتها للدارس فقد قمت بذكر عناوين هذه المؤلفات التي أشار إليها وعرَّف بها، رغبة في طرح ترشيحات تفيد الدارسين كثيرًا في اختياراتهم للكتب والمؤلفات، لا سيما وأنها صادرة عن أحد المتخصصين البارزين ممن عرفوا بالاطلاع الواسع على الدراسات في التخصّص.

وقد اعتنيت بذكر المؤلفات مُقسَّمة على محاور تبعًا لذات التقسيم الذي درج عليه الدكتور الشهري في محاضراته، ونصصت على طبعاتها التي ذكرها إبّان تعريفاته بالمؤلفات.

أولًا: آداب ومقدّمات:

١. التبيان في آداب حملة القرآن، الإمام يحيى بن شرف النووي. له طبعات عدّة، منها: ط. دار المنهاج.

٢. جمال القراء، فصول في آداب أهل القرآن الكريم، د. إبراهيم الحميضي. ط. دار ابن الجوزي.

٣. المدخل إلى التعريف بالمصحف الشريف، د. حازم حيدر. ط. معهد الإمام الشاطبي.

٤. أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن، د. مساعد الطيار. ط. دار ابن الجوزي.

٥. تحزيب القرآن، د. عبد العزيز الحربي. ط. دار ابن حزم، بيروت.

٦. فضائل القرآن الكريم، د. عبد السلام الجار الله. ط. المكتبة التدمرية.

٧. الصحيح من فضائل القرآن، د. فاروق حمادة. ط. دار القلم، دمشق.

ثانيًا: تجويد القرآن:

٨. التجويد الميسر، مجموعة من العلماء. ط. مجمع الملك فهد.

٩. الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، د. غانم قدوري الحمد. ط. معهد الإمام الشاطبي.

١٠. شرح المقدمة الجزرية، د. غانم قدوري الحمد. ط. معهد الإمام الشاطبي.

١١. سنن القرّاء ومناهج المجودين، د. عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ. ط. مكتبة الدار.

١٢. أبحاث في علم التجويد، د. غانم قدوري الحمد. ط. دار عمار، الأردن.

١٣. تجويد اللفظ في قراءة القرآن الكريم في القرون الخمسة الأولى، د. حسين بن سعد المطيري. ط. كرسي تعليم القرآن الكريم، جامعة الملك سعود.

ثالثًا: القراءات القرآنية:

١٤. مقدمات في علم القراءات، د. أحمد شكري، وآخرون. ط. دار عمار، الأردن.

١٥. القراءات القرآنية: تاريخها، ثبوتها، حجيتها، وأحكامها، د. عبد الحليم محمد قابة. ط. دار الغرب الإسلامي.

١٦. توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية، عبد العزيز الحربي. ط. دار ابن حزم.

١٧. اختلاف القراءات وأثره في الأحكام، د. عبد الهادي حميتو. ط. وزارة الأوقاف البحرينية.

رابعًا: غريب القرآن:

١٨. السراج في بيان غريب القرآن، د. محمد الخضيري. ط. كرسي القرآن الكريم.

١٩. وجه النهار الكاشف عن معاني كلام الواحد القهار، د. عبد العزيز الحربي. ط. دار ابن حزم.

٢٠. التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم. ت. د. ضاحي عبد الباقي. ط. دار الغرب.

٢١. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ت. د. صفوان عدنان داودي. ط. دار القلم.

٢٢. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل. ط. مكتبة الآداب.

خامسًا: التفسير:

٢٣. المختصر في تفسير القرآن الكريم، جماعة من علماء التفسير. ط. مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٢٤. جامع البيان في تفسير القرآن، معين الدين الإيجي، ت. صلاح مقبول أحمد. ط. دار غراس.

٢٥. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين ابن كثير. ط. دار عالم الكتب.

٢٦. أنوار التنزيل، البيضاوي، ت. محمد حلاق. ط. دار الرشيد.

٢٧. المحرر الوجيز، ابن عطية. ط. وزارة الأوقاف القطرية.

٢٨. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ت. زهير الشاويش. ط. المكتب الإسلامي.

٢٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، ت. التركي، ط. دار هجر.

٣٠. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ت. التركي. ط. الرسالة.

سادسًا: علوم القرآن:

٣١. الوجيز في علوم القرآن، د. مشعل الحداري. ط. دار غراس.

٣٢. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، د. عبد الله الجديع. ط. دار الريان، بيروت.

٣٣. المحرر في علوم القرآن، د. مساعد الطيار. ط. معهد الإمام الشاطبي.

٣٤. إتقان البرهان في علوم القرآن، د. فضل حسن عباس. ط. دار النفائس.

٣٥. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ت. مركز الدراسات القرآنية. ط. مجمع الملك فهد.

٣٦. الجامع في أسباب النزول، حسن عبد المنعم شلبي. ط. الرسالة.

٣٧. المحرر في أسباب النزول، د. خالد المزيني. ط. دار ابن الجوزي.

٣٨. علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د. حازم سعيد حيدر. ط. دار الزمان.

٣٩. علوم القرآن، وإعجازه، وتاريخ توثيقه، د. عدنان زرزور. ط. دار الأعلام، الأردن.

سابعًا: أصول التفسير:

٤٠. التحرير في أصول التفسير، د. مساعد الطيار. ط. معهد الإمام الشاطبي.

٤١. علم أصول التفسير، محاولة في البناء، د. مولاي بن عمر حماد. ط. دار السلام، القاهرة.

٤٢. شرح مقدمة ابن تيمية في التفسير، د. مساعد الطيار. ط. دار ابن الجوزي.

٤٣. مختصر قواعد الترجيح عند المفسرين، د. حسين الحربي. ط. دار ابن الجوزي.

٤٤. تفسير القرآن بالقرآن، د. محسن المطيري. ط. دار التدمرية.

٤٥. التفسير النبوي، د. خالد الباتلي. ط. دار كنوز إشبيليا.

٤٦. قواعد التفسير، د. خالد السبت. ط. دار ابن عفان.

ثامنًا: مناهج المفسرين وتراجمهم:

٤٧. مختصر مناهج المفسرين، د. محمد أبو زيد. ط. مكتبة الجيل الجديد، الجمهورية اليمنية.

٤٨. التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي. ط. وزارة الأوقاف السعودية.

٤٩. معجم تفاسير القرآن الكريم، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إي سيسكو)، بيروت.

٥٠. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، د. فهد الرومي. ط. مؤسسة الرسالة.

٥١. معجم المفسرين، عادل نويهض. ط. مؤسسة نويهض الثقافية.

تاسعًا: التفسير الموضوعي:

٥٢. منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم؛ دراسة نقدية، د. سامر رشواني. ط. دار الملتقى، دمشق.

٥٣. مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم. ط. دار القلم، دمشق.

٥٤. التفسير الموضوعي؛ التأصيل والتمثيل، د. زيد عمر العيص. ط. مكتبة الرشد.

عاشرًا: قصص القرآن:

٥٥. تيسير المنان في قصص القرآن، أحمد فريد. ط. دار ابن الجوزي.

٥٦. قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس. ط. دار النفائس.

٥٧. مناهج البحث والتأليف في القصص القرآني، د. أحمد نوفل. ط. دار الفاروق.

حادي عشر: أمثال القرآن:

٥٨. الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر فياض. ط. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ثاني عشر: إعجاز القرآن:

٥٩. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، ت. سيد أحمد صقر. ط. دار المعارف.

٦٠. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي والجرجاني، ت. محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام. ط. دار المعارف.

٦١. النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز. ط. دار طيبة.

٦٢. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي. له طبعات عدة منها: ط. الكتاب العربي.

٦٣. المعجزة؛ إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن، د. أحمد بسام الساعي. ط. المعهد العالي للفكر الإسلامي.

٦٤. التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق، د. هند شلبي. ط. الدار التونسية.

٦٥. الإعجاز العلمي إلى أين؟ د. مساعد الطيار. ط. دار ابن الجوزي.

ثالث عشر: البلاغة القرآنية:

٦٦. نظرات لغوية في القرآن الكريم، د. صالح العايد. ط. دار إشبيليا.

٦٧. زيادة الحروف بين التأييد والمنع، وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. هيفاء عثمان فدا. ط. مكتبة القاهرة.

٦٨. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، د. صالح بن عبد الله الشثري. ط. مجمع الملك فهد.

٦٩. الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية، د. سامي عبد العزيز العجلان. ط. جامعة الإمام محمد بن سعود.

٧٠. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى. ط. مكتبة وهبة.

٧١. التوجيه البلاغي لآيات العقيدة في المؤلفات البلاغية، د. يوسف بن عبد الله العليوي. ط. جامعة الإمام محمد بن سعود.

رابع عشر: متفرقات:

٧٢. رسم المصحف، د. غانم قدوري الحمد. ط. دار عمار، الأردن.

٧٣. المصاحف المنسوبة للصحابة والرد على الشبهات المثارة حولها، د. محمد بن عبد الرحمن الطاسان. ط. المكتبة التدميرية.

٧٤. التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد الطيار. ط. دار ابن الجوزي.

٧٥. مناهج تفاسير آيات الأحكام، د. علي العبيد. ط. المكتبة التدمرية.

٧٦. منهج الاستنباط من القرآن، د. فهد الوهبي. ط. معهد الإمام الشاطبي.

٧٧. منهج المدرسة العقلية في التفسير، د. فهد الرومي. ط. مؤسسة الرسالة.

٧٨. آيات العقيدة المتوهم إشكالها، د. زياد العامر. ط. دار المنهاج، الرياض.

٧٩. التغيُّر الدلالي وأثره في فهم النّص القرآني، د. محمد بن علي الجيلاني الشتيوي. ط. مكتبة حسن، بيروت.

٨٠. القَسَمُ في اللغة وفي القرآن، د. محمد المختار السلامي. ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٨١. سُبُلُ استنباط المعاني من القرآن والسنة، د. محمود توفيق محمد سعد. ط. مكتبة وهبة، القاهرة.

٨٢. المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، د. إبراهيم عبد الرحمن خليفة. ط. مكتبة الآداب، القاهرة.

٨٣. حُسْنُ المَدَد في معرفة فنّ العَدَد، الإمام الجعبري، ت. د. بشير الحميري. ط. مجمع الملك فهد.

٨٤. دفاع واعتذار لمحمد والقرآن، جون دافن ورت. ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٥. قراءة الإمام نافع عند المغاربة، د. عبد الهادي حميتو. ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب.

٨٦. العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد بن إدريس الطعان. ط. دار ابن حزم.

٨٧. ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل، لأبي الزبير الغرناطي، ت. سعيد الفلاح. ط. دار الغرب الإسلامي

٨٨. التضمين النحوي في القرآن الكريم، د. محمد نديم فاضل. ط. دار الزمان.

٨٩. تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين. ط. دار المعارف.

٩٠. دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم، د. عبد المحسن المطيري. ط. دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٩١. التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن، د. منى محمد الشافعي. ط. دار اليسر، القاهرة.

٩٢. الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم؛ دراسة ونقد، د. أحمد محمد الفاضل. ط. دار التدمرية.

٩٣. اختلاف السلف في التفسير بين التنظير والتطبيق، د. محمد صالح سليمان. ط. مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٩٤. استدراكات السلف في التفسير، د. نايف بن سعيد الزهراني. ط. دار ابن الجوزي.

٩٥. علوم القرآن عند الصحابة والتابعين، د. بريك القرني. ط. دار التدمرية.

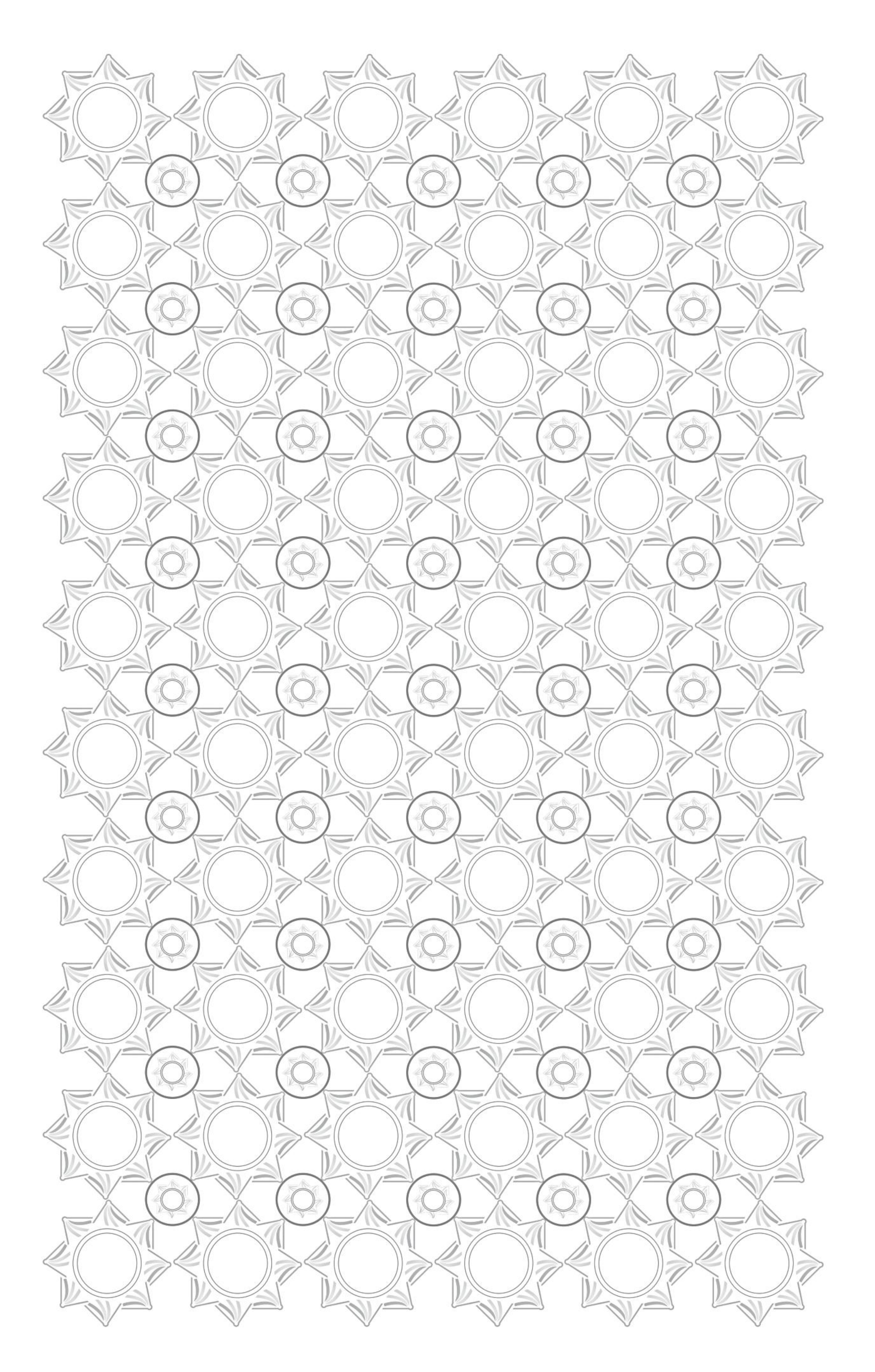
٩٦. أسباب اختلاف المفسرين، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع. ط. مكتبة العبيكان.

٩٧. المجتبي من مشكل إعراب القرآن، د. أحمد بن محمد الخراط. ط. مجمع الملك فهد.

٩٨. مُشْكِل القرآن الكريم، د. عبد الله بن حمد المنصور. ط. دار ابن الجوزي.

٩٩. الآيات المنسوخة في القرآن الكريم، د. عبد الله بن محمد الأمين الشنقيطي. ط. مكتبة العلوم والحكم، المدينة.

١٠٠. من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن، محمد رؤوف أبو سعدة. ط. دار الميمان.



نُزهَةُ المُشتَغِلين

كيف تنجح في إدارة وقتك.. وبالتالي حياتك؟

لا ريب أنَّ الإدارة الفعَّالة على اختلاف تفرّعها ظاهرةٌ بارزةٌ في المجتمعات الحديثة، وبما أنَّ الوقت يُعدُّ أعظم الموارد المتاحة للإنسان، فإنَّ إدارته بمثابة القاعدة الَّتي لا يقوم بنيان إداريّ بدونها، فإنّه ما وجد عملٌ إلّا وكانت الإدارة سبباً أساساً ومقدّمةً لابدّ منها لنجاحه.

إنَّ حاجة أمَّتنا الإسلاميَّة والعربيَّة اليوم لهذا الموضوع عظيمة، ذلك أنَّا نرى بوضوح ما آل إليه واقعنا من إهدار العمر والحياة. فحين نجد العالم الغربيّ يشتد حرصه على الوقت اغتناماً وتنظيماً، نجد أبناء أمَّتنا يبدعون في تضييعه.

ولعلَّ ذلك من أهمّ أسباب انحطاط أمَّتنا اليوم، فاضطرب التّحصيل العلميّ والإنتاج وضَعُف عطاء الفرد على اختلاف المستويات، وتراجع المجتمع بأسره في عالم الفعّالية والإنتاج، وأضحت الأعمار تُهدر في عبث، حتَّى كأنّ مسيرة الزّمن لدينا قد توقَّفت، فنجد

عبارة " قتل الوقت " سائدة على لسان النَّاس، حتَّى أصبح الوقت يمضي فيما لا فائدة منه بل ربَّما يملأ بما يضرُّ في الدُّنيا والآخرة أو بمجرد الفراغ، فانعدم تقييمه وضبطه وتنظيمه، وعمَّت الفوضى واضطربت المواعيد، وأضحت السّنين تمرُّ غير تاركة أثراً إيجابيَّاً لها.

ولقد كان المسلمون في قرونهم الأولى شديدي الحرص على أوقاتهم، فخلَّفوا حضارة سادت العالم، وكانت الحواضر الإسلاميَّة قبلة للعلم والمعرفة، وبلغوا بذلك زمام القيادة من الأمم الأخرى، خلاف حالنا اليوم في ذيل الأمم.

فالوقت إذاً هو أهمّ عناصر الإنتاج، لذا نرى الشَّركات تتنافس على أساس الإنتاج وعدم تضييع وقت الزَّبائن، حتَّى أصبح توفير الوقت محور نجاح الاستراتيجيات التَّسويقيَّة.

ولعلَّ تصحيح مفهوم المقصد من خلق الإنسان ومركزه في الوجود ومسؤوليَّته في الحياة هو البداية لاغتنام وقته، وإنَّ واقع الأمَّة المعاصر يشير إلى أنَّ هذه المفاهيم لم تتبلور في أنفس أبنائها بعد، لذا تخبَّط الرَّكب وتخلَّفت القافلة، وتراجع الإنسان المسلم عن قيادة البشريّة. فإذا

أراد المسلمون أن يكسبوا في المنافسة الحضاريَّة المستقبليَّة، فعليهم توظيف الوقت لطيّ سنوات الفشل الحضاريّ الذي أصابهم خلال عصور الغفلة والسُّبات الفائتة، فإنَّه من السُّهولة بمكان أن نردَّ فشلنا أو تقصيرنا إلى عوامل خارجيَّة قاهرة، لكن هذه دعوة إلى النَّظر في داخل أنفسنا، حيث إنَّ سبباً ضخماً لعدم فاعليتنا يرجع إلى عدم معرفتنا ماذا نريد فعلاً وكيف نحقّق ما نريده، ثمّ عدم استعدادنا لدفع ثَمن ذلك من أوقاتنا وجهودنا للوصول إليه، وهذا ما سأعرضة بتفصيل إن شاء اللَّه تعالى.

ماذا نعني بالوقت ومفهوم إدارته؟

وكيف نديره بصورة منهجيَّة علميَّة وعمليَّة؟

ولماذا نفعل ما نقوم به؟

ذلك أنَّ بعض النَّاس يدركون ماذا يعني وقتهم لهم، لكن إذا عرفوا ذلك قد لا يعلمون كيفية إدارته، وإذا علموا ذلك أيضاً، قد لا يدركون بوعي ماذا يودون القيام به من أهداف، وما هو دورهم في الحياة ولماذا ؟

لذلك سنحاول معالجة تلك الأمور الثَّلاثة:

ماذا:

إنَّ تصحيح نظرتنا نحو الوقت ومفهوم إدارته أمرٌ لازمٌ وضروريٌ لحسن اغتنامه، فالجميع يعلم أنَّ المال يقدَّم ثمناً لشراء العديد من السّلع المتاحة، فيتخيَّر صاحبه ما يريده، ويصرف ماله المحدود محافظاً عليه وجاهداً في عدم تضييعه فيما لا ينفعه من السّلع، وكذلك الوقت فإنَّه أغلى ما أعطيه الإنسان إذ هو الحياة نفسها، وهو ثمن لكل إنجاز، فلا يستطيع فرد بلوغ شيء من غير أن يصرف وقتاً فيه.

لكن بينما يشكّل الوقت أثمن ما يملك الإنسان لأنَّه عمره وحياته، نراه أكثر ما يساء فهمه واستعماله، فالوقت عنصر في كلّ نشاط بشريّ واغتنامه شرط لكلّ نجاح، والكون كلّه في خلقه وعرضه وتدبيره وتسييره وكلّ ما يقع فيه من حوادث مقرونٌ بالوقت، وإنَّ مسيرة الحياة البشريَّة تبدأ بالوقت وتنتهي بالوقت، فعمر الإنسان نفسه موقوت بزمن لا يتعدّاه، وأحداث حياته كلّها مؤقّتة. وإنَّ الشَّيء الذي يشترك فيه كل البشر أنَّ كلاً منّا لديه ٢٤ ساعةً يوميّاً، وسبعة أيّامٍ في الأسبوع، و٥٢

أسبوعاً في العام، ومع ذلك يتباين بشكلٍ كبيرٍ عطاء النَّاس وإنتاجهم، والعامل الأعظم - بعد توفيق اللَّه - في ذلك هو نسبة الانتفاع به واستثماره، حيث باغتنامه تحقّق مصالح الدُّنيا والآخرة، فهو إطار نشاط الإنسان ووعاء كلّ عملٍ. وهنا يكمن الفرق بين من عُمِّر طويلاً ولا يرى لنتاج حياته أثراً من الأعمال والإنجازات، ومن عَمَّر قصيراً وخلَّف وراءه من العطاء ما بلَّغه السَّعادة في الدَّارين.

والوقت يمرُّ على الجميع بسُنَّة كونيَّة لا علاقة للإنسان بها، لكن كيف ندير ما لا تحكُّم لنا به؟ والجواب على ذلك: أنَّنا لا نستطيع أن نصنع أو ندير الوقت، بل لنا الإرادة والحريَّة فيما نقوم به خلال ما وهب اللَّه وخصَّص لنا من الأوقات. فإذا كانت الإدارة تُعنى بتوظيف الموارد المتاحة لتحقيق الأهداف، فإنَّ إدارة الوقت هي عمليَّة تتعلّق بتوظيف مادّة حياة الإنسان لبلوغ مراده، وهذه المادّة هي فسحة عمره من ولادته إلى وفاته. ومن ذا المنطلق فإنَّ إدارة الوقت تتعلّق بإدارة مسيرة الحياة، وما تشتمله من أهداف نصبو لها وسلوكيَّات عمليَّة توصلنا إليها.

كيف؟

بعد تبيان حقيقة الوقت ومفهوم إدارته، ننتقل إلى دراسة المنهجيَّة العلميَّة في كيفيَّة إدارته مشكلاً بذلك الإطار العمليّ في تعاملنا مع الوقت. فبعض النَّاس ليس لديهم أحلامٌ أو أهدافٌ يحيون من أجلها، ولدى آخرين أهداف لكنَّها لا تخرج لعالم الواقع لأنَّهم لا يعلمون كيف يحققونها، هذه الكلمات نروم آملين أن تساعد كلا الفريقين، الأوَّل في تحديد أحلامه والثَّاني في إرشاده إلى كيفية الوصول لها. لذلك فإن ما سنذكره نأمل أن يساعد الفرد أيّاً كان على تحقيق النَّجاح الذي يراه هو نجاحاً من المنطلق النَّظريّ، ثمَّ مساعدته على بلوغه من المنطلق العمليّ. لذلك سأتناول الآليَّة الَّتي بواسطتها يستطيع الفرد إدارة وقته وتحكمه بالحدث المستقبليّ في حياته، وذلك من خلال العمليّة الذهنيّة الّتي تسبق ذلك، وتدعى " التَّخطيط"، وحيث إنَّ التَّخطيط يُعنى بكيفيّة الوصول لمبتغى ما، فسأتعرض لموضوع "الأهداف"، فالتّخطيط لبلوغ الأهداف علمٌ له سلوكياته الإداريَّة المنهجيَّة، إضافةً إلى سلوكيَّاته التَّنفيذيَّة الفعَّالة، وهذا ما سأتعرّض له آنفاً.

كما سأتناول أساليب ومبادىء إداريَّة عالميَّة في استخدامها وصحتها، بلا حدود جغرافيَّة أو مهنيّة لها، صالحة للبيت والمدرسة والجامعة، وللشركة والمؤسسة والدَّولة، وللرجل والمرأة، وللكبير والصَّغير، وللرئيس والمرؤوس، وللتَّاجر ولطالب العلم. كلٌّ بإمكانه استخدامها للوصول لما يريد تحقيقه في حياته. ذلك لأنَّها ليست مجرد نظريات حول ماهية إدارة الوقت، بل إنَّها توفّر الإجراءات العمليّة التطبيقيّة لتعاملنا مع أوقاتنا.

لماذا؟

خلال بحثي في موضوع إدارة الوقت، ومناقشة الموضوع مع المهتمّين وأهل الاختصاص، وجدت أنَّ علاج إدارة أوقاتنا لا تتوقف عند بيان ماذا نعني بإدارة الوقت وكيف نديره، بل لماذا أريد تحقيق هدف ما؟ لذلك عمدت لتبيينه لاعتقادي أهميته، ولقد ندر تناول هذا الموضوع في الدراسات الغربية والعربية.

هذا البعد يشير إلى أنَّ ثمة أسئلة عقليّة عميقة وملحّة توفّر لنا المنطلق الوجداني في تعاملنا مع أوقاتنا.

فهل مجرد المحافظة على الدقائق والسَّاعات، والتَّحكُّم بالأحداث الحياتيّة خلالها، وملء اليوم والذي يليه بالنّشاطات المبرمجة ضمن خطط دقيقة سيوصلنا للفعالية والنجاح في حياتنا؟! وهل تحديدي للأهداف الّتي أحلم بإنجازها، ومن ثم العمل الدؤوب على تحقيقها في عالم الواقع يعد فعلاً نجاحاً؟ ليس بالضرورة ذلك. فإنَّ النَّجاح في تحديد ما تريده ابتداءً لا يقل أهمية عن النجاح في كيفية الوصول إليه، وذلك من خلال تأكدك أنّك لا تدير وقتك فحسب، بل تقود حياتك على بصيرة قبل ذلك نحو الاتجاه الصّحيح.

وإذا كان حديثنا عن الوقت يستدعي حديثنا عن الحياة، فطبيعيٌّ أن أعالج ههنا معنى الحياة والمقصد من وجودي. وبما أنَّ إدارة الوقت تعنى بإدارة الذّات، والقيادة تسبق الإدارة، لزم تبيان توجهي في الحياة، وأين أريد أن أقود مسيرة حياتي، ثم يتبع ذلك كيفية ذلك عن طريق الإدارة. لذلك لابدّ من النَّظر في من أنا وإلى أين أسير؟ وهل لي مهمة خاصّة ودور أعيش من أجله؟ وما هي رسالتي في الحياة؟ لذلك سأتعرض للأصل الذي لا يقوم بنيان سلوكيّ بدونه، وهو المنظومة العقيديّة التي تشكّل بحقيقتها مرآة الأفعال.

سأتناول أثرها في بناء رسالة الإنسان في الحياة، وتصوره نحو الوجود، ذلك أنني على يقين أنَّ مجرد عرض الكيفيّات العمليّة لإدارة الوقت لن تكون ناجعة دون معالجة ما بداخل النّفس من اعتقادات ومفاهيم وأفكار، منبّهاً في دراستي إلى ضرورة التّجديد في بناء رسالة المسلم وتوجهه الواضح في الحياة.

لا يخفى على أحد التوجيه الإسلامي لإدارة الوقت، وإنّه لمن الأهمية بمكان إبراز التوجيه الإسلامي لإدارة الوقت، ذلك أنَّ الحاجة شديدة للتجديد في هذا الباب وإحياء مفاهيم إسلاميّة أصيلة أضحت غريبة عن ثقافتنا حول الوقت وإدارته. إنَّنا نرى الأمَّة الإسلاميّة وقعت في الفصام بين العقيدة والسّلوك الحياتي، فأصبح صاحب العقيدة الإسلاميّة هو نفسه صاحب ثقافة غريبة في جانب كبير من جوانب تفاعله مع وقته.

إنَّ التوجيه الإسلاميّ للثقافة يقوم على ضرورة تأسيسها على أصول الإسلام، عقيدة وشريعة وأخلاقاً ومنهج حياة، وفي ضوء معارف وإنجازات المجتمعات الإسلاميّة السّابقة، وفي ضوء معرفة خلفيات الثّقافة الغربيّة وحقيقتها وظروف نشأتها وأهدافها بعيداً عن

مجرّد الانبهار بها. ذلك أنَ طلب العلم وكسب المعارف أضحى اليوم مساوياً لمجرّد النّقل والاقتباس للقناعات الغربيّة بعيداً عن محاولة الفهم والاجتهادات الشَّخصيَّة للمتعلّم، وأصبح انتماؤنا إلى المعاصرة العلمية والثّقافيّة إنّما هو بالولاء الأعمى للثّقافة الغربيّة وتقليدها، وما هو سوى ترجمات أو في أحسن حالاته إعادة صياغة بالمضامين نفسها، وأخص بالذكر العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.

وإنّنا حينما نتكلم عن إدارة الوقت، فإنّ ذلك متصل بالإنسان: عقيدته وسلوكه وتفاعله في الحياة، ذلك الإنسان الذي يشكل العنصر الأساس في بناء أي حضارة.فإذا كانت الرؤية الإسلاميّة لحياة الإنسان على أنّها ممرّ، وأنَّ انقضاء وجوده على الأرض ليس انتهاءً لحياته، وأنَّ ثمّة حياة بعدها تتعلّق بها.

هذه الرؤية تغيّر من وجهة الفرد في حياته، أهدافه وسلوكياته اليوميّة، بخلاف الرؤية العلمانيّة إلى هذه الحياة على أنّها بداية ونهاية وجود الإنسان.لذلك كان من الضروريّ إعادة صياغة العقول في هذا المجال، وذلك من خلال تصحيح نظرة الإنسان المسلم المعاصر نحو

الكون والحياة، ومن ثمّ تصحيح تفاعله مع وقته، بما يتلاءم وثقافته الإسلاميّة والعربيّة.

بذلك تنسجم المفاهيم الإيمانيّة مع السّلوك العمليّ مشكلة الشّخصيّة المسلمة المتكاملة والمتجانسة.

وحيث إنّ " الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها" [٢٥]، فإنني سأستعرض الفوارق الأساسيّة بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي لإدارة الوقت، وبيان التباين في تفاعل النّاس مع وقتهم تبعاً لذلك. كما سأوضّح كيف نظم الإسلام الأعمال على مدار السّاعة، وكيف تفاعل المسلمون مع الوقت خلال عصور نهضتهم، مبرزاً مفهوماً قرآنيّاً في إدارة الوقت هو مبدأ السباق والمسارعة، مستعرضاً مفهومه ومادته والغاية منه.

وإنّي لأهدف من خلال تلك الكلمات تغيير سلوك الفرد في تعامله مع وقته، فهي تبدأ بالقارىء وتنتهي به، مشتملة على مفاهيم إن

---

(٢٥) أخرجه الترّمذي في سننه، كتاب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم ٢٦٨٧، وأشار الترّمذيّ إلى تضعيفه.

أُخذت بجديّة فإنّها تغيّر حياة الفرد من السّلبيّة وعدم الفاعليّة إلى الإيجابيّة والفاعليّة في الحياة، فهو يركّز على مجال التنمية الذّاتيّة، بحيث تساعد الفرد على أن يقود نفسه نحو التغيير.

ولقد عرضت تلك المفاهيم والنّظريّات في أسلوب يشاركه الخطاب، فيقرّب النّظريّات إلى مفهومه، فقمت أحياناً بمحاورته مخاطباً الضمير والعواطف الوجدانيّة المتمثّلة في أسلوب العقل الأيمن الذي ينظر فيما يريده الفرد وفلسفته الحياتيّة، وأحياناً أخرى مخاطباً القارىء بأسلوب التعليل والتحليل المتمثّل بأسلوب العقل الأيسر في المنهجيّة العلميّة في إدارة الوقت.

إنّ بحثنا في إدارة الوقت يتطلب فهمنا لحقيقة الوقت ابتداءً ، ما هو الوقت؟ سؤال قد يجيب عليه كل فرد بجواب يختلف عن الآخر!

الوقت ليس من الزمن، فالزمن أعمّ من الوقت، والوقت هو جزءٌ معرّف من الزمن، وكلّ شيء قدرت له حيناً فهو مؤقت، وإذا كان الوقت ليس الزّمن كله، الذي هو امتداد العصور والآجال في هذه الدُّنيا منذ بدء خلق اللَّه لهذا العالم وحتّى يشاء الله، فإنّني أعني بالوقت

ذلك الجزء الذي تعيش خلاله في هذه الدُّنيويّة سوى الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة، إنها تلك السّنوات والأشهر والأيام الّتي تعيش في الدار الدُّنيا على كوكب يسمّى الأرض لقدرٍ معيّن من الزمن.

وما العمر إلّا كتاب دفّتاه: الولادة والموت، وصفحاته الأيام، وبانقضاء كلّ يوم تُطوى صفحة من صفحاته يُدوّن فيها أحد أمرين لا ثالث لهما: خير وصلاحٌ تثاب عليه، أو فسوق وعصيان تجازى عليه، كل صفحة تُطوى تدنيك من الخاتمة، حتّى إذا وصلتها كان الرزق قد اكتمل، والعمر قد نفد، وأزف الرّحيل.

وقال الشّاعر:

وما المرء إلّا راكبٌ ظهر عُمره على سفرٍ يفنيه باليوم والشّهر

يبيتُ ويضحى كلَّ يوم وليـــلةٍ بعيداً عن الدُّنيا قريباً إلى القبر

لذلك حينما أطلق كلمة الوقت إنّما أعني وقت الإنسان، أي: عمره الذي يعيشه، وبما أنَّ الوقت هنا هو العمر، فحديثنا عن الحياة، وليست أي حياة، إنّما هي حياتك، فالزمن هو عمر الحياة، وميدان

وجود الإنسان، وساحة ظله وبقائه ونفعه وانتفاعه، فالوقت هو عمرنا من حيث المادة ومن حيث العنصر النَّفسي، فإنَّ حركة الكائن الحيّ تنتهي بانتهاء أجله الّذي يعيش، فانقضاء حياته نتيجة مباشرة لانتهاء المدّة الزّمنيّة المتاحة له في هذه الدُّنيا.

ولعل إطلاق صفة الحياة على قتلة أوقاتهم إطلاق خاطىء، بل إنّ من الأموات من تبقى ذكراهم مخلّدة على مرّ القرون لما خلَّفوا من بعدهم من إنتاج، ألم يُخلّد ذكر الإمام الشّافعيّ وأحمد وأبو حنيفة ومالك وابن تيمية والشّوكاني والأوزاعيّ وابن المبارك وابن حزم وابن كثير ممّن قد لا يمر بعد موت أحدهم يوم إلّا وهنالك من يذكر اسمهم ويتّعظ بنهجهم وينهل من إنتاجهم؟ بينما هنالك أحياء بمعنى أنّهم فوق التّراب، لكنّهم في الحقيقة كالأموات الّتي تستطيع أن تأكل وتشرب وتنام، تجد صفحات أيامهم بيضاء لا في عمل دنيا ولا في عمل دين، ولسان حالهم يقول: إنّنا نقتل وقتنا، وهذا القول صحيح، فإذا كان القلب صمام الحياة - كما يقال – فإنّ الوقت مادة الحياة، وقتله إهداره لتلك الحياة، حيث يعيش المرء انتحاراً بطيئاً.

فالاعتبار بمضي الأيام والعمل الدؤوب خلالها هو شأن الحريص على وقته حرصه على عمره وحياته الدنيا وكذا حرصه على حياته الأخرى، ذلك لأنّ رصيده في مصرف أعماله الذي نماه في أيّامه تتوقف عليه حياته بعد نفاد مصرف أيّامه.

لذا فإنّ أهميّة الوقت تنبع من أهميّة حياتك الّتي تعيشها، فإن كانت تلك الحياة أثمن ما تقيّم، فحفظ الوقت حفظ لها، وقتله إهدار لمعيشتك الّتي أتاحها الله لك، وإنّ إضاعة هذه الأجزاء من الوقت مهما قلّت إضاعة لعمر الإنسان كلّه أو بعضه بحسب ما يضيع من ذلك، ولعلّ الفرد يستصغر تضييع ساعات قليلة، لكنّ الساعات تتبعها الساعات، فتشكّل أيّاماً تضيع سدى جارفة أمامها العمر بأكمله.

إنَّ ساعة من حياتك تعني حصول أربعة آلاف انقباض لعضلات قلبك يضخُّ خلالها ما يقرب من ثلاثمائة لتر من الدّم إلى جميع أنحاء جسدك، وهي تعني أنّ عضلات التّنفس لديك قد انقبضت وانبسطت حوالي ألف مرّة لتستنشق من الهواء قرابة ٥٠٠ لتر من أجل توفير الأكسجين لجسدك، كما تعني تلك السّاعة انطلاق البلايين من الإشارات العصبيّة من الجهاز العصبي المركزي إلى جميع أجزاء الجسم،

وتعني أيضاً موت البلايين من خلايا الجسد وولادة ما يحلّ محلها، هذا بالإضافة إلى تفاعلات كيميائيّة لا تحصى داخل خلايا الجسد وأجهزته وأعضائه المختلفة ... إلخ.

خلال السّاعة نفسها أنت في حركة دائمة، فتدور مع الأرض حول محورها مسافة حوالي ألف كيلومتر(٦٨٢ ميلاً) خلالها، وتدور مع الأرض حول الشّمس بسرعة هائلة تصل إلى مليون وستمائة ألف كيلومتر(٩٠٩ ألف ميل) في السّاعة، وأنت أيضاً تسير في حركة مستمرّة ضمن مجرة درب التّبانة في فلك الله الواسع بسرعة خيالية لا تُتصوّر، فالسّاعة من الزّمن تعني حركة لك على الأرض ومع الأرض ومع المجموعة الشّمسيّة ثمّ المجرّة داخل هذا الكون الّذي لا يعرف منتهاه، غير خالقه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ .

يحصل هذا كله من دون شعور منك ولا حتّى خيار لك في حدوثه، لكن هذه السّاعة من الزمن قد تعني أيضاً لبعض النّاس عملاً مميّزاً وإنجازات هامّة، ولكنّها قد لا تعني شيئاً للآخرين، فتضيع في جلسات لهو أو نوم أو ما شابه ذلك، واغتنام هذه السّاعة أو إضاعتها هو خيارك الأوحد. وهذا هو الفرق بين الفعّاليّة واللافعّالية، وبين الإيجابية

والسّلبيّة في صرف تلك السّاعة من الوقت، فالسّاعة بالنّسبة للإنسان الفعّال لها قيمتها المتميّزة، لا يدعها تمضي من دون أن ينتفع منها. والساعة من الزمن هي نفسها لكلّ البشر، لكنّها بالنّسبة للإنسان الفعّال لحظات تنبض بالحيويّة والنّشاط والإنجازات، وليست لحظات خامدة ميّتة لا أثر لها بعد مُضيّها، وهذا يعتمد على اختلاف تثمين الوقت لدى البشر.

إنَّ جميع المصالح تتأتّى من خلال حسن الإفادة من الوقت، فطلب العلم يحتاج للوقت الطّويل، أليس نيل الشهادة الجامعيّة الأولى يحتاج إلى استثمار ستة عشر عاماً من عمرك تقضيها في الدراسة؟ وطلب الرّزق يحتاج إلى الوقت، أليس التّاجر في محلّه يظنّ بأنّه قد يبيع ويربح أكثر إن كان يومه ٦٠ ساعة بدل ٢٤ ساعة؟ بالمقابل إن لم يستغلّ الإنسان وقته لم يحصل على علم نافع ولا تجارة رابحة ولا عبادة مأجور عليها. لا شكّ أنّك إن لم تداوم على العمل في وظيفتك في الأوقات المحددة ستضيع وظيفتك، وإن لم تصلّ الفجر في وقته بلا عذر سيضيع أجره، وإن لم تسجل في الجامعة وتدرس وتداوم على الحضور لما حصلت على شهادة جامعية، وإنّ إحصاء كل لحظة والاستفادة منها في

عمل نافع دليل رجاحة العقل وحسن فهم الحياة الّتي إن جزّأتها وجدتها لحظات تبع بعضها بعضا، وإنّني أعتقد أنّ من أهم أسباب تراجع أمّتنا الإسلاميّة عدم اغتنام فسحة الوقت، حيث لا يستغل في عمل دنيا ولا في عمل آخرة، فأصبحنا في ذيل الأمم بعد أن كنّا في مركز الرّيادة منها على مختلف الأصعدة، فأصبحت أعمار المنتسبين لهذه الأمّة تضيع هباء منثورا، وكأن عجلة الزّمان توقّفت علينا في بلادنا الإسلاميّة، الجميع يتقدّم نحو هدف ما، ونحن في موكب لا يسير ولا ينهض من مكانه، فتقييم الوقت سمة أساسية للنّظر في تقدّم الأفراد وللدلالة على تطوّر المجتمع.

إنَّ ثمّة حاجة نفسيّة ومطلباً بشريّاً ملحّاً تناولته البشريّة في تاريخها، وهو إيجاد الإنسان معنىً لحياته، ولأي غرض يعيش له، ولماذا وُجد وإلى أين وجهته؟!

برغم تقدُّم البشريّة في مجالات العلوم وأبواب المعرفة، إلّا أنّ جهل الإنسان بنفسه لا يزال مطبقاً، ولقد تخبّطت المذاهب والفلسفات في كُنه الإنسان في هذا الوجود عندما بنت تصورها على

أساس مغاير لحقيقته، وإنّ إدراك حقيقة الإنسان مصدره خالق الإنسان وخالق الوجود، بغير ذلك سيبقى ضائعاً في غفلته.

إنَّ الإنسان اليوم يعيش حياة الغفلة، ولابدّ من إعادة بناء كيانه ابتداء من الغاية من وجوده ومركزه من الكون ودوره في الحياة. وإنَّ أكبر التّحدّيات الحاضرة إعادة تشكيل عقيدة المسلم لكي يدرك من جديد رسالته في الحياة.

لقد خلق الله الإنسان وجعل له تصوّراً واضحاً نحو الكون والحياة، وجعل له منهجاً ودوراً عظيماً في هذا الوجود، لكنّ المدنيّة الغربيّة قد هبطت بقدره فصرفته إلى مجرد الانغماس في إشباع شهواته المادّيّة إلى درجة البهيمية.

الإنسان في التّصوّر الإسلامي له حياة أكبر من مجرد السّنين الّتي يقضيها قبل الموت، والحياة الدُّنيا ليست سوى مرحلة من رحلاته الحياتيّة، وإنّ امتداد حياته إلى ما بعد الموت شرف ومنه خصّ بها الإنسان دون سواه، وفي ذلك إعلاء لوجوده، حيث إنّ انتفاء العدم في حقه تكريم له، فلم يقصره على الوجود الفاني فبشّره بالخلود.

لقد كرّم الله الإنسان لجنسه، فتولّى بنفسه خلق آدم تعظيماً له، وجعله على أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه تشريفاً له، وأودعه قوة عاقلة مدركة، ووهبه إرادة حرّة ومقدّرة على استيعاب أبواب المعرفة والانتفاع بالسنن الكونية، لذلك جعل الله خلق الإنسان الحدث العظيم في تاريخ الخلق، فأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لقدره، فشرف من دان له بالسجود، ولعن من أبى واستكبر.

قصة خلق الإنسان تشير إلى أنَّ الله خلقه ليكرمه لا ليهينه، وليرفع قدره وليعلي منزلته في العالمين، وأهّله لخلافته وأعطاه فطرة وعقلاً يهتدي بهما. لكن فريقاً من هذا المخلوق أبى إلّا أن يهبط من تلك المنزلة الّتي اختارها الله له إلى منزلة من دونه، فطمس معالم الفطرة من نفسه، وطرح رسالته الّتي خلق من أجلها، فانسلخ عن إنسانيّته، واستحقّ بذلك لعنة الله بعد أن أعزّه، فجعل مصيره إلى جهنّم.

لم يوجد الإنسان دونما مقصد، ولم يكن خلقه ضرباً من العبث، بل جاء خلقه بكل تلك الحفاوة والتّكريم ليكون خليفة الله في أرضه، وليحمل رسالة ربّانيّة عجزت السّماوات والأرض عن حملها.

لقد خُلق الإنسان سيداً في الأرض، بعد أن تولّى الله بيديه خلقه ونفخ فيه من روحه تشريفاً له، فسخّر له الكون وما فيه من موارد الطّبيعة وسائر المخلوقات، فجعل النّبات والحيوان والجماد خدمة لوجوده، كما أودع فيه قدرات جسدية وروحية وعقليّة، وجعل له إرادة حرة، فكانت مشيئة الله أن تسلم لهذا الكائن زمام الأرض وتوكّل إليه عمارتها، ذلك ليقوم بمسؤولية الخلافة، وهي الانقياد التّام إلى منهج الله في الحياة، وتنفيذ أمره بين النّاس على وجه يكمّل إنسانيّة هذا الإنسان.

لقد ذلّل الله الكون لخدمة الوجود الإنساني، فجعل ما فيه مسخّرا له، وأوجد ما عداه لمنفعته، فجميع الموجودات موافقة لوجوده، كموافقة اللّيل والنّهار، والشّمس والقمر، والزّمان والمكان، والماء والنّار والهواء. ولقد خلق الله سنناً كونيّة، ومكّن الإنسان من استيعابها والانتفاع منها في مسيرة حياته.

إنّ أساس استخلاف الله للإنسان العبوديّة له، وهي الإذعان لله والانقياد إليه والخضوع له وحبه، وهي تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه، من عقيدة صحيحة وشعائر تعبديّة وقيم أخلاقيّة ومعاملات سلوكيّة،

حتّى تشمل الحياة كلها، والعبادة بمعناها الخاص هي المنبّه للإنسان بخالقه حتّى لا يقبل على العاجل ويغفل عن الآجل، فهي تربطه بربّه وتذكّره بافتقاره إليه، وتولّد لديه شعوراً يتجاوز منافعه ولذّاته الشّخصيّة، لكي يتخطّى كلّ الروابط الدّنيا متّصلاً برابطته العليا مع الله».

والعبادة تسع الحياة كلّها، منهجاً ينظّم حياة الإنسان، ويرشد طريقه إلى الخير، وبها يُقصد صلاح حاله وفلاح مآله، وبها يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، فتصبح الحياة والكون مسرحاً لعبادة الله.

والإنسان يستكمل إنسانيّته بالعبادة، ويسمو في إنسانيّته بقدر عبادته الّتي خُلق لأجلها، كما أنّه ينسلخ من إنسانيّته إذا ما رفضها. وإنّ عزّة الإنسان تكمن في سمو مقصده، فإذا كان مقصده الله استعلى على ما سواه من الموجودات، وكان حقّاً سيد الخلق وسيّد الكون، وهو يزداد قدراً في سموه على غيره كلّما كان همه الله، وكلّما كان حق الله مقدّماً على ما سواه، وأمّا من حصر همّه في إشباع شهوة واتّباع هوى، فقد هبط بذات الإنسان من إنسانيّة ارتضاها الله له إلى بهيمية كسائر الحيوانات.

إنّ المنظومة العقديّة ترشد الإنسان لرسالته الحياتيّة، وتجعل له تصوّراً واضحاً نحو موقعه في الوجود ودوره في الحياة، وإنّ قوة العقيدة وما تحمله من مفاهيم وقِيَم هي القوّة الدّافعة الّتي توقظ النّفوس الهامدة، وتحيي القلوب الجامدة، وتلهب العزائم المتلبّدة، فيعيش الإنسان بها وفي سبيلها، فللعقيدة أعظم الأثر في صياغة الإنسان، فهي تصهر شخصيّته، وتغيّر تفكيره وشعوره ومن ثمّ سلوكه، ولقد أحدثت العقيدة الإسلاميّة انقلاباً لا مثيل له في جيل الصّحابة، وباستطاعتها إحداث التّغيير في عالمنا المعاصر، ولعلّ بعثة المسلمين اليوم من رقادهم لن يكون إلّا بإعادة إحياء العقيدة في نفوسهم الّتي من شأنها أن تفجّر طاقاتهم وتعيد إليهم مكانتهم.

إنّ ما نقوم به هو انعكاس لما نؤمن به، وإنّ رؤيتنا للعالم من حولنا تعتمد على المنظومة العقيديّة الّتي نحملها في أنفسنا، وإنّ المخلوق البشريّ لا يتصرف عادة بطريقة تتناقض مع معتقداته إلا مكرهاً، لذلك لكي نغيّر واقعنا العمليّ يجب أن نغيّر ما بأنفسنا، وذلك بتغيير عالم الغيب من عقائد وأفكار ومفاهيم.

النّمو الذّاتي يتعلّق بعمليّة تبني أو تصحيح المعتقدات والقيم والمفاهيم الّتي يحملها الإنسان في نفسه.

يمكنك تغيير واقع ما تعيشه إلى واقع أفضل إذا اكتشفت المعتقد الخاطىء الّذي يسبب السلوك المؤدي له، ومن ثمّ تعمل على استبداله بمعتقد صحيح، ذلك أنّ العقيدة هي المولّد للسلوك البشريّ.

إنّ عمليّة كسب وتبنّي المعتقدات تأتي من خلال تجارب شخصيّة عاشها الفرد ومعارف اكتسبها، وقد تُبنى المنظومة العقيدية بطريقة لا شعوريّة لدى النّاس فيعيشون واقعاً مغايراً لما يريدون.

إن كان واقع الأمّة الإسلاميّة خلاف الحال الّذي يجب أن توجده عقيدتهم، فإنّ ثمّة انفصام حاصل في شخصيّة أتباعها بين عالم العقيدة وعالم الفعل، وإنّ ذلك دليل على أنّ من ينتسب لهذه العقيدة يدينون لاشعورياً بعقيدة ومفاهيم تخالفها، أو أن هذه العقيدة لم ترسخ في أعماقهم مولّدة عملاً يغيّر واقعهم، وكلتا الحالتين تحصلان نتيجة لتأثيرات البيئة والثّقافات الاستعماريّة الفكريّة والمناهج التّربوية والإعلاميّة.

إنّ التّجديد في السلوك الفردي حتمي لإعادة النّهوض بأمّتنا الإسلاميّة، ولا يحصل ذلك بسوى التّجديد في أصل السّلوك - المنظومة العقيدية -، وإنّ الأمة اليوم بحاجة لتعلم عقيدتها من جديد لاستعادة فعاليتها، ولابدّ من إعادة النّظر في أفكارها ومفاهيمها وقيمها لتدرك سبب ضعفها.

إنّ دراسة التّغيير استشراف للمستقبل، والوصول إليه بناء للمستقبل، والغاية منه إعادة بناء الكيان الإنساني مشتملاً عقله وروحه وخلقه، وفي ذلك تصحيح تصوّره الكلّي نحو الوجود وفلسفته نحو الحياة، بغية تشكيل رسالته وبناء حضارته الإنسانيّة كما أرادها الله له.

إنّ مسلم اليوم يعيش نفسه المغلوب، فهو منهزم في نفسه، يسير تبعاً لخطى غيره، لا لقناعته بمن يتبع من الشّعوب بل لانبهاره بهم، مما يولّد واقعاً من الاستضعاف والتّبعيّة، فتحوّل من قائد لمسيرة ربّانيّة إلى تابع مسلوب الإرادة، فتخبط السلوك ومات الإبداع، ولا خلاص من واقع كهذا إلّا بإعادة بناء رسالته الحياتيّة من جديد.

حيث إنّ إدارة الوقت تُعنى بكيفيّة الوصول لما يريده الفرد، لابدّ أن يسبق ذلك تحديد ماذا يريد ابتداء. لذا لزم قيادة الذّات أن تسبق إدارة الوقت، فالأول تكوين نظري للرسالة الّتي يراد تحققها في الحياة، بينما الثّاني هو ترجمة لتلك الرّسالة للواقع العمليّ.

إنّ الفعاليّة في الحياة لا تتوقّف على مجرّد كم وكيف يصرف الفرد وقته وجهده لتحقيق هدف ما، بل هل ما يبذله يكمن في الهدف المناسب.

لقد منّ الله على افنسان بمنحتين خصّه بهما، وهما المخيلة والعقل، حيث يمكّنه التخيّل من تصوّر واقع معيّن يريده ورؤية نظريّة لمستقبله، ويمكنه التّفكُّر من توجيه حياته وتخطيط أعماله للوصول لذلك المستقبل.

إنّ التّصور الذّهني تحديد الفرد لما يمكنه أن يكون، والرّسالة تحديد لما يريد أن يكون، والخطّة تحديد لاستراتيجية الوصول لذلك.

من أجل مسيرة حياتيّة ناجحة لابدّ من استخدام العقل بكامله، مرتكز القيادة - العقل الأيمن، ومرتكز الإدارة - العقل الأيسر، ذلك أنّ الإنسان النّاجح بحاجة لنمطين مختلفين من التّفكير، الأوّل وضع ذهنيّ

ينظر في فلسفته ورسالته وماذا يريد، ويكون ذلك من مركز الإبداع والاعتقاد والمشاعر - مركز القيادة، وآخر ينظر في كيفيّة الوصول لما يريد، ويحصل ذلك من مركز التفكير التّحليلي والتّخطيط - مركز الإدارة. وإنّ فقدان الوضعيّة الذّهنيّة الأولى ينتج عنه طاقة سلبيّة غير مجدية، وفقدان الثانية ينتج عنه أهداف لا تترجم للواقع، وكثير من النّاس يعيشون في أحد طرفي العقل، غافلين لاشعوريّا عن أهميّة الطّرف الثّاني.

الرسالة تعنى بفلسفة الفرد في حياته، وهي بلورة للغاية الّتي يعيش من أجلها والأولويّات العليا الّتي يريد تحقيقها، لذلك مثل الرّسالة كمثل البوصلة الّتي توجه مسيرة الفرد بالاتجاه الصحيح. ولا عبرة للإهتمام بالوقت وحسن إدارته والمحافظة عليه ما لم يكن هنالك غاية يُغتنم الوقت لتحقيقها، لذلك نرى أنّ الّذين يحيون لغير رسالة هم أضيع النّاس لعمرهم.

تختلف الرسالة الحياتية بين فرد وآخر لتعدد توجهات النّاس، وإنّ ثمة محور معيّن يكون عادة طاغيا على توجّه الفرد، فيرتكز الفرد في حياته على مطلب المال أو المتعة أو الجاه، مما يولّد حياة غير متّزنة،

لذلك من أجل انطلاقة شموليّة ومتّزنة لقيادة الحياة بالاتجاه الصحيح، لابدّ من رسالة تجمع الصّواب في التّوجه في باقة من القيم والأولويّات الحياتّية، فتوجِد قاعدة صلبة للانطلاق منها في مسيرة الحياة المتشعّبة.

حيث أنّ البشر أدنى إلى الهبوط والتّفلت منهم إلى الصعود والتّماسك، وحيث أنّ العقل البشريّ المجرّد قاصر عن الإحاصة بحسن التّقدير، وحيث أنّ الإنسان ضعيف أمام شهواته وهواه، كما أنّه جاهل بحال ذاته، كان لابدّ من وازع يحكم حياته ويقودها إلى الخير والصّلاح، لذلك كانت وصاية الشّارع لازمة عليه.

على كلّ ما أودع الله الإنسان من أمانة الخلافة، وسخّر له الكون من حوله، ووهبه طاقات المعرفة، لم يتركه ليشرّع لنفسه منهجاً للحياة، لهذا لكي يكون الإنسان لنفسه رسالة حاتية لابد أن يكون ذلك على ضوء توجيه الله لحياته، حيث جاء هديه لتحقيق مصالحه في المعاش والمعاد، وذلك إمّا بجلب النّفع له وإمّا بدفع الضرر عنه، حيث إنّ الله تعالى قد وهب الإنسان إرادة حرة، يجب أن تكون كل حركة يقوم بها بقصد وبتوجّه واضح، ولا يحصل ذلك من غير رسالة وغاية يعيش من

أجلها، وإلّا أصبحت حركته عشوائيّة بلا غاية، أو حركة غير إراديّة كحركة الجمادات مثل القمر والرّياح.

أحد الأساليب الّتي تستطيع من خلالها بلورة رسالتك الحياتيّة هي البداءة بالنّهاية في ذهنك، أي استعرض في نفسك نهاية حياتك الدنيا، ومن ثمّ حدّد ما تودّ أن تكون قد حقّقته قبل حصول ذلك، لذلك لابد من استحضار مسيرة الحياة بكاملها، مشتملة الدنيا والآخرة لتحديد رسالتك بشكل متكامل وسليم.

يجب أن لا يكتفى بالتّفكّر بالرسالة الحياتية، بل يجب أن تكتب، وقد تكون عبارة شاملة تحدّد مقصداً وتوجّهاً عامّا لمسيرة الفرد في حياته، والأفضل من ذلك أن تحوي أيضاً بضعة عبارات تمثّل القيم الأساسيّة والأولويّات العليا الّتي يود الفرد أن توجه حياته.

إنّ للإسلام منهج أسبق وأكمل من المنهج الغربي في إدارة الوقت، تميّز عنه بتحقيق التّوازن بين الحياة الدنيا والآخرة وبين حق الله وحق النّفس وحقوق الآخرين.

يمثل الهرم الإنتاجي أهم النّماذج الغربية لإدارة الوقت، وهو يشير إلى أن السلوكيّات اليوميّة تبنى على الأهداف، وإنّ الأهداف تولدها القيم، لكنّ النّظرة الشّموليّة لإدارة الوقت تبقى بتراء إن لم تشتمل على المنظومة العقديّة لأنّها أساس كلّ سلوك بشريّ، لذلك وضعت أنموذجاً أشمل أطلقت عليه شجرة الحياة، ممثلا بجذور الشجرة العقيدة وبثمارها الأعمال، وبساقها الرسالة، وبغصونها وفروعها الأهداف، ولا ريب أنّ العقيدة السّليمة إذا ضربت جذورها في أعماق النّفس لابدّ أن تثمر وتؤدي أكلها بإذن الله.

لقد تطوّر علم إدارة الوقت على أربعة أجيال، الجيل الأول اهتم بحصر الأعمال في جداول، والثّاني اهتمّ بتحديد مواعيدها، بينما الثالث اهتم ببرمجة سلم أولويّاتها، كما اهتمّ بتحديد الأهداف والتّخطيط لبلوغها، والرّابع جاء ليركّز على رسالة حياتيّة تكون موجهّة للحياة على نطاق يسبق ذلك كلّه.

من أجل نجاح الفرد في إدارة وقته، ولذا إدارة حياته لابدّ من النّظر في صحة المنظومة العقديّة الّتي يحملها، ومن ثمّ تحديد رسالته الحياتية على ضوئها، ثمّ تأتي الأهداف تبعاً لما تحدده تلك الرّسالة من

أولويّات وقيم أساسية يحيا الفرد لأجلها ويعيش بها، ولا ترجمة للأهداف بلا تخطيط يبلورها للواقع، ومن ثمّ يأتي السُّلوك العملي تبعاً للخطط، وبذلك يعيش الفرد حياته على توجّه سليم واضح بإذن الله.

إنّ التخطيط هو الآلية الّتي تستطيع من خلالها التّحكُّم بالحدث، وبهذا تتحكم بمسيرة حياتك المستقبليّة.

إنّ وظيفة التّخطيط هي الإجابة على السؤال: ماذا أريد وكيف أحقق ما أريد؟

الخطّة هي النّتاج النّظري لعمليّة التخطيط، وهي الخريطة الّتي تخبرك كيف تصل مما أنت عليه إلى ما تود أن تصل إليه وماذا يتطلّب ذلك من وقت وجهد وموارد مختلفة، فالتّخطيط يتعلّق بالقرارات الحاضرة الّتي تخصّ المستقبل.

إنّ من أهم أسس النّجاح تحديد الأهداف والتّخطيط المنهجي لها والسّعي الدؤوب من أجل تحقيقها.

إنَّ معرفة الفرد ماذا يريد وكيف يصل لما يريد، ثم السير في أيامه تبعاً لذلك يمنحه راحة نفسيّة ويشعره بأنّ لحياته معنى ولأيامه قيمة، وهذا بدوره يقوّي إرادته على العطاء والإبداع المتميّز.

إنَّ حياة الإنسان بمثابة الرحلة الّتي قد تكون لبضعة أماكن، كل مكان له طرقه الخاصّة الموصلة إليه، وإنّ وظيفة التّخطيط هي اختيار المكان المقصود وتحديد الطريق الموصل إليه.

كلّ الأعمال تولد مرّتين: الولادة الأولى عبر التّخطيط، وهو الوجود الذّهني للعمل، والولادة الثّانية عبر التّنفيذ، وهو الوجود المادّي للعمل، وإذا أغفلنا الولادة النّظريّة الأولى - مرحلة تكوين الخطة - تعثّرت الولادة العملية الثّانية - مرحلة تنفيذ الخطة - لأنها نتيجة طبيعيّة لها.

إنّ تفاعل النّاس نحو الحدث الواحد يختلف تبعاً لمؤثّرات شخصيّة تتعلّق بالعنصر الإرثي والعنصر البيئي.

تصرّفات الفرد إنتاج شخصي صادرة عنه بحسب إرادته الخاصّة، وهي إمّا أن تكون انفعاليّة أو بمبادرة شخصيّة.

إنّ أصحاب التّصرُّفات الانفعاليّة ذوات سلوكيّات شخصيّة دفاعيّة، يعللون فشلهم دوماً بالظروف الخارجيّة، ويتمحورون حول التّفاعل مع الأحداث بعد حصولها، بينما نجد أصحاب المبادرة يتصرفون بإرادة قويّة من منطلق أهداف منشودة وسلوكيّات مدروسة تبعاً لتخطيط يسبق وقوع الأحداث.

مع اعتراف الجميع بأهميّة وضرورة التّخطيط لبلوغ حياة ناجحة، إلّا أنّ السواد الأعظم لا يقوم به معتذراً بأسباب عدة، لكن غياب التخطيط لدى الكثيرين سببه أنّ التّخطيط يتطلب تفكيراً استراتيجيّا خارجا عن نطاق ما تتطلبه سلوكيّات اليوم الروتينيّة.

التّخطيط يتطلّب درجة عالية من الحضور الذّهني والأخذ بزمام المبادرة ومقدرة قويّة على التّخيُّل والخروج من عالم الواقع إلى عالم البصيرة لكي يقيّم الفرد حاضره ويرسم مستقبله.

يتصف صاحب التفكير الاستراتيجي بالتّفكير التّحليلي، وبالنّظرة الكلّيّة للحياة، مع اهتمامه الدّائم بالمستقبل وتحمله للغموض وشعوره بالمسؤوليّة.

أحد سبل قيلس درجة تطوّر المجتمع تكمن في دراسة المدى الزّمني الّذي يغطّيه تخطيط أفراده لحياتهم، وكلّما امتدّت فترة التّخطيط هذه كان ذلك دلالة على تطور المجتمع، حيث إنّه من السنن الكونيّة أنّ النتائج مترتّبة على المقدّمات وأنّ الأسباب قائمة على المسببات، وبما أنّه ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، لذا فالتّخطيط واجب شرعيّ وضرورة حياتيّة.

إنّ مهمّة الدّين الكبرى هي إعداد الإنسان لحياة المستقبل، فنرى القرآن الكريم بكليته يوجه أنظار المسلم نحو المستقبل بصورة ما، فيلفت انتباهه نحو غده منبهاً إلى الطرق الّتي توصله إلى النّعيم، ومحدداً الطرق الّتي توصله إلى الجحيم.

إنّ التخطيط هو المهارة الّتي تستطيع بمشيئة الله التحكم من خلالها بالحدث المستقبلي في حياتك، وهذا يحصل حينما يكون لديك أهدافاً تسعى إليها، لذلك قيل بأنّ الهدف هو حدث مخطط له.

يرتكز الهدف ابتداء على النتائج المرجوّة، فهو يحدد أين تريد أن تكون في مستقبل الأيام.

الهدف يعطي معنى لحياة الإنسان ويجعله يغتنم وقته بصورة أفضل، ذلك لأنّه يجعل له غاية واضحة لمصارف جهده وطاقته، فيوجه سلوكيّاته خدمة لهذا المبتغى.

أحد أهم أسباب عدم الاهتمام بإدارة الوقت لدى الكثيرين هو عدم وجود أهداف ذاتيّة لديهم، ذلك أنّه لا غاية في استثمار الوقت إن لم يكن هنالك أهداف.

الحياة من غير أهداف كإبحار السّفينة من غير ميناء تقصده، تاركة العنان للأمواج والرّياح تتقاذفها في مهب الريح، فتصبح مسيرة العمر في تخبّط وتردد في اتجاهات عدة لا تبلغ صاحبها أي نتاج ملموس.

عقل الإنسان مميّز عن غيره من المخلوقات بأنّه يعلل ويبحث عن اتّجاه لمصرف الطّاقة والنّشاط، فإعطاء عقولنا هدفاً واضحاً يعيننا على التّركيز وبذل الطّاقة الموجهة للوصول لما نريد.

حقول تكوين الأهداف عديدة، لكن معظمها يتمحور حول الواجبات الدينيّة، والوضع المعيشي، والمعافاة الجسديّة، والحياة

العائليّة، والعمل الوظيفيّ، وطلب العلم، وهي تختلف بحسب محاور اهتمام كل فرد.

لابدّ من محاسبة الذّات وتقييم مسيرة الحياة بغية تحديد أهدافك، وذلك من خلال قياس نجاحك أو فشلك في مجالات الحياة المختلفة بحسب الأدوار الّتي تعيش كعبد لله، وأب أو أم، ووالد أو ابن، وأخ أو أخت، وكموظّف، وطالب علم وهكذا.

الصفات الأربع للهدف الفعّال هي أن ينسجم الهدف مع المنظومة العقديّة، وأن يقيّد بالكتابة المفصّلة، وأن يحدد له موعد نهائي لإنجازه، وأن يكون واقعيّا بحسب القدرات الشّخصيّة.

إنّ محاور الهدف الثُّلاثة هي الوقت من حيث المدة المتاحة لبلوغه، والجودة من حيث حجمه ودرجة إتقانه، والتّكلفة من حيث الجهد البشريّ والموارد الماليّة الذي يتطلّبه.

إنّ من الأهداف ما هو كبير أو يتطلّب وقتاً لإنجازه، ومنها ما هو صغير أو يتطلّب وقتاً قصيراً لإنجازه، أمّا الأوّل فيدعى هدفاً طويل

المدى أو هدفاً استراتيجياً، وأمّا الثّاني فيدعى هدفاً مرحليّا أو قصير المدى.

التخطيط يُعنى بكيفية الوصول للهدف، وهو عبارة عن إيجاد الجسر الّذي يربط ما أنت عليه الآن والنتيجة الّتي تريد بلوغها.

أهمّ ما تقدمه عمليّة التّخطيط هو تجزئة الهدف إلى مراحل وخطوات تنفيذية مؤقتة ضمن برنامج زمني واضح المعالم.

إنّ تقييم سير العمل خلال مرحلة التّنفيذ مبدأ إداري ضروري، بحيث يصبح سير العمل عبارة عن إجراء متكرر يبدأ بالتخطيط ثم التنفيذ، ثم التقييم بين الحين والآخر، ثم تعديل الخطة تبعاً لذلك وهكذا.

التخطيط مهارة فنيّة ذات منهج علميّ ثابت، وهي عمليّة تواكب مسيرة العمل، فتبدأ بتحديد الهدف ولا تنتهي إلّا ببلوغه.

أهمّ خطوات التخطيط هي توصيف الهدف، وتحديد الوقت المتاح لبلوغه، وتجزئته إلى مراحل، ووضع برنامج زمنيّ لخطواته التّنفيذيّة، وعرض خطّته برسم بيانيّ أو جدول عمل مبوّب، مع تقييم سير العمل خلال مرحلة التّنفيذ.

إدارة الوقت لدى معظم النّاس لا تتعلّق بالتخطيط لبلوغ هدف واحد، لكنّها إدارة أهداف متزامنة، ممّا يؤكد ضرورة اتباع منهجيّة علميّة منظمة لإدارة الأحداث اليوميّة لكي لا تتداخل خطط الأهداف المختلفة فتتعثّر الخطى لبلوغها.

أهمّ أساليب التّخطيط الخاصّة بالأهداف الشّخصيّة ثلاثة: برنامج العمل وجدول التّوقيت الزّمني وبيان العلاقات التسلسليّة، وهي فنون تنظّم خطة العمل بحيث يعرف الفرد ماذا يقوم به في كلّ وقت ولكلّ هدف يسعى له، حيث أنّ بلوغ الأهداف الكبرى يستوجب أن يكون النّشاط اليوميّ متصلاً بما قبله وما بعده، لابدّ للفرد من وقفات دوريّة ليعلم أين هو من خططه، وهو ما أطلقت عليه التخطيط الدوري، ويتوجب حصوله بشكل يومي وأسبوعي وشهري وسنوي.

التّخطيط الدّوري يعني بتقييم العمل خلال الدورة الزّمنيّة الماضية كالشّهر الفائت وتعديل خطة الدّورة الزّمنيّة القادمة كالشّهر المقبل.

أهم أوقات اليوم بضع دقائق عند بداية كلّ يوم تقضى في التخطيط وبرمجة أحداث اليوم، وهو ما يركّز جهود الإنسان على

أولويّات يريد إنجازها، وهذا ما يتوقف عليه تحكم الفرد بحياته إن استمرّ عليه يوماً بيوم، مع كونه أدنى مستوى في إدارة الوقت.

آليات إدارة الوقت مختلفة في أنواعها وأشكالها كالمفكرات والمخططات اليومية الورقية والإلكترونية، وإنّ سر النّجاح في إدارة الوقت يكمن في استخدام آلية واحدة تمكن الفرد من الاحتفاظ بكل مخططاته طويلة المدى واليومية، وتكون في متناول يده في كل مكان وزمان.

إنّ خير ما نستعين به لتحقيق أهدافنا هو الله، وذلك من خلال ملازمة دعائه وتوكلنا عليه والاعتماد على قدرته وتدبيره في كل عمل نسعى له.

إنّ تحقيق معنى التّوكُّل على الله لا ينافي السّعي في الأسباب، ومن عطّل الأسباب لم يصلح توكله، ذلك أنّ الله تعبدنا بالسعي في الأسباب بجوارحنا وبالتّوكلّ عليه بقلوبنا.

إنّ تحقيق أي هدف يستوجب تخطّي الصعوبات وتحمّل الأعباء ومواجهة العقبات، وإنّ حصول الخطأ والفشل المرحلي طبيعي في مسيرة أي نجاح لتحقيق الأهداف العظام.

إنّ عادة التسويف من أخطر أمراض إدارة الوقت، حيث أنّها آفة عظيمة تمنع صاحبها من تحقيق أي هدف، حتى يصبح التسويف سلسلة متصلة من اليوم للغد والّذي يليه من غير الوصول لعمل جادّ.

إنّ النّهوض من مواطن الرّاحة يتطلب بذل ما في الوسع من الجهد والعزم حتّى يُرتقى إلى مواطن أصحاب الهمم العليا، حينها تسمو الأرواح وتعظم الغايات وتسهل المصاعب والمتاعب لبلوغ معالي الأمور وتحقيق عظام الأهداف.

لكلّ إنسان مواطن راحة تصبو نفسه إليها، وهي أحوال ونشاطات لا تتطلب الجهد الجسدي ولا العقلي، وإنّها مواطن الدعة والتّراخي والإخلاد للراحة والمتعة، ومصارف الوقت في تلك المواطن مضيعة له حيث أنّ بلوغ أي هدف يحتاج بذل الجهد ولو كرهته النّفس.

إنّ ثمّة وقتاً يزهد فيه الكثير، لكنه أثمن وقت للإنتاج والعطاء، وهو ساعات الصباح الأولى، إنّها ساعات مباركات، تبلغ طاقة الإنسان خلالها مبلغ الذروة من يومه، وفيها يصفو الذهن وتقل المقاطعات، وتسهل الخلوة مع النّفس للتسديد والتّخطيط.

إنّ لاستمراريّة ضم القليل إلى القليل فعالية كبرى، حيث المداومة اليومية على القيام بالجهد القليل في حقل ما عظيم في تأثيره وفعاليته الإنتاجية على المدى البعيد في مختلف المطالب الحياتيّة.

إنّ التّوازن في صرف الوقت مطلب حيوي لكل إنسان لكي لا يقصّر في واجب أو يغفل عن آخر، ويكون ذلك من خلال تقسيم الأوقات بحسب الواجبات المتعددة.

إنّ السرعة في إنجاز الأعمال تزيد في الإنتاج وتكسب وقتاً لعطاء أكثر، ولحصول ذلك يجب تحديد موعد نهائي لإنجاز كل عمل، ذلك لأنّ أي عمل تمتد فترة تنفيذه لتملأ الوقت المتاح له، وكلّما اتّسع الوقت المتاح لذلك العمل بطأ تنفيذه.

إنَّ أمر الله في المسارعة في الأعمال الصالحة يُراد منه الشروع والمبادرة إليها قبل أن تشغلنا عنها العوائق وقبل فوات الأوان، وهي غير السرعة الّتي تُعنى بإنجاز الأعمال بأقل وقت ممكن، وفي كليهما اغتنام لفسحة العمر في الحياة الدنيا.

إنّ الفرق شاسع بين توجهات المسلمين النظرية وأدائهم العملي في واقع الحياة، لذلك على المربين تدريب جيل المسلمين على المقاربة بين هذا وذاك لتصبح أهدافهم وتوجهاتهم واقعاً لا مجرد أحلام وأماني، فإنّ النوايا والغايات لمعظم المسلمين سليمة وإيجابية لكنّ ترجمتها للواقع العملي فيه خلل.

إنّ الهدف المكتوب بتفصيل عامل أساسي لكي يؤخذ بجديّة، ذلك أن الأهداف العامة المتروكة للذهن لا تخرج للواقع العملي، حتى ولو كتب الهدف ووصّف بجديّة فإنّه يبقى حبراً على ورق ما لم يُخطط لإنجازه ويعمل بحسب ذلك، ولتعلم أن التخطيط طويل المدى بدون التّواصل معه على المستوى اليومي أو الأسبوعي ليس تخطيطاً جاداً؛ لأنّه يفتقر إلى المقدرة على ترجمة تلك الخطة إلى خطوات عمليّة يقام بها خلال الأيام.

لم أجد لتقدم التّحصيل العلمي في الجامعات فائدة تذكر في مجال تنمية المهارات الذاتية/، وخاصة في حقل إدارة الوقت، إذ لم أجد فرقاً يذكر بين حاملي الشهادات الجامعيّة وغيرهم في فعاليتهم في مهارات التخطيط، لذلك لزم تلقّي تلك المهارات في المعاهد ودور التدريب الخارجة عن نطاق الجامعات حتّى الآن، أو إدخال مواد في التنمية الذاتية في الكليات والجامعات على مختلف الاختصاصات.

حتى وإن وُجد هدف مفصل وخطة لإنجازه، فإنّ ذلك لا يعني بالضّرورة النجاح في الوصول له حتى تنفذ الخطة ويقام بالخطوات العملية اللازمة لبلوغ الهدف. فإني قد سبرت أحوال قوم لديهم هدف أو أهداف مكتوبة ويخططون للوصول إليها كما يقومون ببعض الخطوات العملية لإنجازها. وتلك الخطوات العمليّة لا تعني مواصلة المسيرة إلى إنجاز الهدف، فدون ذلك المثابرة وتخطّي عقبات كثيرة، مما يجعل من يصلون لأهدافهم نسبة قليلة جداً ما لم ينجح الفرد بجميع المراحل والخطوات المؤدية لذلك.

إنّ استخدام آلية مهما كانت بسيطة لإدارة الوقت؛ كمفكرة مثلا، دلالة على حرص الفرد على تنظيم أعماله، وهي أبسط أبجديات مهارات إدارة الوقت مع بدائية فعاليتها.

برمجة سلّم الأولويات من أهم مهارات إدارة الوقت، إذ بدون التقيّد به يجرف واقع اليوم الفرد نحو القيام بما هو أسهل من غيره ولا يتطلب تركيزاً طويلاً أو جهداً كبيرا، فيغفل عن الأهم من الأمور.

أعظم ثلاثة أسباب لضياع الوقت بعد استقراء هي الشبكة الإعلامية وضعف التخطيط والفوضى، مما يشير إلى أن على المدربين والمربين أن تكون معالجتهم لتفعيل عطاء الفرد المسلم، من خلال توجيهه نحو الاستخدام الأحكم للوسائل الإعلاميّة وخاصة التلفاز والإنترنت، وتعليمه مهارات التخطيط والتنظيم وحسن إدارة نشاطاته وأعماله.

تشكل كثرة النّشاطات الاجتماعية كالزيارات المتبادلة وكثرة اللقاءات، وكذلك ضعف التكنولوجيا والفوضى وتعقيد الإجراءات الرسمية أسباباً إضافية خاصة بالمسلمين في العالم الثالث في مقابل تلك

الأسباب العالمية الأكثر انتشاراً، كالشبكة الإعلامية وضعف التخطيط والتسويف. وتختلف أسباب ضياع الوقت بين بلد وآخر حسب البيئة والتقاليد الاجتماعية، مما يستدعي أن يعالج المختصون تلك الأسباب الخاصة معالجة اجتماعيّة سلوكية تتناول جذورها، مما يتطلب تضافر الجهود المختلفة بغية تغيير بعض السلوكيات والعادات الاجتماعية التي تنهب أوقات المسلمين لتصبح أيامهم فارغة من أعمال هادفة إلا القليل منها.

توصياتي لأولي الأمر والمربين:

كيف نحمل الجيل الصاعد على اغتنام وقته للنهوض بالمجتمع؟

إنّ الإصلاح في إدارة الوقت يتطلّب توجيه القادة والمربين وأولياء الأمور، وإلى هؤلاء أقدم التوصيات الآتية:

١- تربية أبنائنا وشبابنا على اغتنام أوقات الفراغ وعلى الشح في مصارف وقتهم إلا فيما يحقق للفرد رسالته وينفعه في الدنيا والآخرة، فلقد تجاوز مجموع ساعات اللّاجدية الّتي تصرف في مجرد الراحة واللهو ومشاهد التّلفاز واللقاءات الاجتماعيّة معدل ٧ ساعات يومياً، وهذه ساعات طويلة تغيّر حال الفرد والمجتمع إذا ما اغتنمت. لذلك يجب تصحيح نظرة هؤلاء نحو الوقت كأثمن ما يملكون، فهو العنصر الأساس الذي يجب اغتنامه لنجاحهم وتحقيق مصالحهم.

٢- إشعار المسلمين بمسؤوليتهم تجاه العجز الذي يشعرون به إذ يرى ٤٩% منهم أنهم ليسوا أحراراً في تعاملهم مع وقتهم. فينبغي أن نعلمهم أن حياتهم مجموعة خيارات يأخذها الفرد بوعي أو تتكون له بغير وعي، فهم من يدير دفّة حياتهم من خلال مبادراتهم بتحكُّمهم

بالأحداث والنّشاطات خلال أيامهم. فلهم الخيار والحرية في كيفية صرف أوقاتهم، إمّا إعماراً للعمر بالعمل والعطاء أو عجزاً وفشلاً وهدراً للحياة.

٣- توجيه النّاس نحو الاستخدام الأحكم للتلفاز والإنترنت وتعليمهم مهارات التّنظيم وحسن إدارة أنشطتهم وأوقاتهم، ذلك أننا وجدنا أن أعظم الأسباب لإضاعة الوقت تكمن في الشبكة الإعلامية وضعف التخطيط والفوضى والتّسويف. كما تشكل النشاطات الاجتماعية، كالزيارات المتبادلة واللقاءات لمجرد الحديث اللّاهي سبباً كبيراً لضياع الوقت في عالمنا الإسلامي، مما يستدعي معالجة اجتماعيّة سلوكيّة تتناول جذور ذلك، ومما يتطلب تظافر الجهود بغية تغيير تلك السلوكيات والعادات الّتي تجعل أيامنا فارغة من عمل هادفٍ إلا ما ندر منها.

٤- لا يكفي مجرد حثّ الفرد على اغتنام وقته بل ينبغي توجيهه نحو حمل رسالة حياتية وأهداف واضحة يحيا من اجلها تدفعه نحو اغتنام وقته لبلوغها، فإنّ ٢٧% من المسلمين لا يشعرون بمجرد الندم لضياع

الوقت، ووجدنا أن أهم أسباب ذلك عدم وجود رسالة ولا أهداف في حياة هؤلاء.

٥- للتأكد من نجاح الفرد في حياته لزم توجيهه نحو قيادة ذاته قبل إدارة وقته، لذلك يجب التأّكد من صحة ما يحمل في نفسه من معتقدات ومفاهيم وأفكار. بل حالنا يستوجب إعادة بناء كيان الإنسان المسلم ليخرج من غفلته ابتداء من تكريم الله له، وجعله سيد الخلق، وبما سخّر له من الموجودات والسنن الكونية، لحمل رسالة ربانية، وإلى استعادة المنظومة العقيدية الأصيلة، التي تصحح تصوره لدوره في الكون والحياة، ولماذا وُجد، وإلى أين وجهته، انطلاقاً من كتاب الله وسنة رسوله. وعندما تتضح في نفسه رسالته الحياتية تأتي تبعاً لذلك الأهداف، وعلى ضوئها تتكون لديه قوة دافعة مفجرة لطاقاته، فيصبح سلوكه العملي ترجمة لما يحمله في نفسه. وعندها تحيا الأمة مرة أخرى كما حصل للجيل الأول من المسلمين ذلك أنّ التجديد في عالم السلوك الفرد يجب أن ينتج عن التجديد في عالم الاعتقاد، فما نقوم به هو انعكاس لما نؤمن به، وتغيير ما بالأنفس من أفكار ومفاهيم هو أساس كل تغيير.

٦- عندما سبرنا أهداف مسلمي اليوم وجديتهم في بلوغها، خلصنا إلى الاعتقاد بأنّ ما يرونه أهدافاً هو في حقيقته أمنيات وأحلاماً لا يعملون من أجلها لتصبح واقعاً. فلقد وجدنا أن ٨٣% من المسلمين قالوا بأن لديهم هدفاً أو أهدافاً يودون إنجازها، لكن ٣٤% فقط يكتبونها، وهذا معيار للجديّة في تحقيقها، و٢٨% فقط يخططون لبلوغها، وتتدنّى هذه النّسبة إلى ٢٤% فقط مما قام ببعض الخطوات العملية بغية الوصول لها، فتصبح نسبة من يحقق أهدافه بنجاح ضئيلة جداً. كما وجدنا أن أقل حقل من حقول الأهداف التي يهتمون به هو المتعة واللهو، لكن خالف ذلك بوضوح واقعهم، إذ وجدنا أن الساعات الطوال تمضي يومياً في هذا الحقل. لذلك نرى أنّ الفرق شاسع بين التوجهات النّظرية والواقع العملي، وعلى المربين المقاربة بين هذا وذاك لتصبح الأهداف والتوجهات واقعاً حياتيّاً، وذلك من خلال التدريب على المهارات والآليات التي تجعل بلوغ الأهداف ممكناً، كمهارات تحديد الأهداف بجديّة والتخطيط المنهجي لها والسّعي نحو إنجازها يوماً بيوم.

٧- إنّ إدارة الوقت ليست مجرد المحافظة على الدّقائق والساعات، بل لبها تحديد الفرد ما يريدون تحقيقه بفاعليّة ودقّة؛ لأنّ النّجاح في الحياة يتطلب أن يعلم الفرد بوضوح أهدافه. كما ينبغي حملهم على التخطيط لبلوغ تلك الأهداف. ولا غرابة إذ وجدنا ٦٠% من المسلمين غير راضين عن تعاملهم مع وقتهم، و٤١% يشعرون أنّهم عناصر غير فعّالة في المجتمع، وعندما نظرنا في هؤلاء وجدنا معظمهم لا يقومون بأدنى درجات التخطيط، وهو التخطيط لبرنامج يومهم،. أما على المستوى العام، فإنّ ٣٢% فقط يخططون يومياً أو اسبوعيّاً، ومن لديه خطط طويلة المدى من الباقي لا يتواصل معها على المستوى القصير فتبقى حبراً على ورق. لذلك يجب أن ندرب الفرد على استخدام أسلوب علمي وآلية لإدارة وقته، وعلى أن يكون له وقفات دورية ليقوّم حاضره ولينظر في مستقبله، فيعلم كل صباح أين هو مما يريد تحقيقه وكيف سيقربه يومه من بلوغ أهدافه.

٨- توجيه أولادنا وتربيتهم على تركيز جهودهم من خلال برمجة سلّم أولوياتهم بشكل يومي؛ لأنّ اليوم يمثّل ميدان العمل الفعلي. ذلك أنّه بدون أولويّات يتجه الفرد لاشعوريّا نحو القيام بما لا يحتاج جهداً ولا تركيزاً بل ما تهواه نفسه، وهومما يضيّع الوقت والجهد في سفاسف الأمور. ولقد وجدنا ١٩% فقط هم من يبوبون سلّم أولوياتهم، واعترف ٤٧% أنهم يصرفون أوقاتهم في غير الأهم من الأمور.

٩- توجيه الشّباب إلى العمل بما يتماشى مع مؤهلاتهم واختصاصاتهم ورغبتهم الخاصّة؛ لأنّ ذلك يرفع من درجة الإنتاج والإبداع والحماس تجاه ما يقومون به، فقد وجدنا أنّ معدل الإنتاج الفعلي للعاملين ٤,٧ ساعة يوميا، وينخفض ذلك إلى ٢,٨ ساعة في بعض الدول العربية. أمّا لمن يعمل ضمن اختصاصه فوجدناها ترتفع بنسبة ٣٦%. فالرغبة في مجال العمل من أهم عناصر زيادة الإنتاج والإبداع فيه.

١٠- تنمية الخبرات والمهارات الشخصيّة لكونها أهم سبل زيادة الإنتاج والفاعليّة في الحياة، فقد اعترف ٣٢% أنهم لا يقومون بأي

جهد لهذا الغرض، أمّا من يقوم بذلك فلا يتعدّى مقداره ٤٨ دقيقة يوميّا.

توصيات للأفراد:

كيف تنجح في إدارة وقتك، وبالتّالي حياتك؟

لكي تنجح في إدارة وقتك وإدارة حياتك، اتبع الخطوات المنهجيّة الآتية (يُرجع للفصول السّابقة لمزيد من الإيضاح):

١- الرسالة:

ما هي رسالتك الخاصّة في الحياة؟ إنّه ذلك التّوجه الذي يشكل أعظم الأولويات الأساسيّة الّتي ترى أنّك تحيا من أجلها. اكتب رسالتك هذه بحدود عشرة أسطر.

٢- الأهداف الكبرى:

ما هي الأهداف الكبرى الّتي تريد إنجازها خلال خمسة إلى عشرة سنوات تبعاً لرسالتك؟ يفضل أن لا تتجاوز ثلاثة أهداف، ويجب توصيف كل هدف بدقة بحيث تجعله مقاساً، وضمن جدول زمني، ويتماشى مع قدراتك ورغبتك في هذه المرحلة من حياتك. قد يكون أحدها مبرمجاً ليبدأ بعد عام وينتهي بعد ثلاثة أعوام، والآخر مبرمجاً ليبدأ حالياً وينتهي بعد ثمانية أعوام وهكذا.

٣- الأهداف المرحليّة:

ما هي الأهداف المرحليّة الّتي تريد إنجازها خلال علم؟ قد يكون بعضها أجزاءً مرحليّة من الأهداف الكبرى، ويجب أن تُكتب بدقّة وتفصيل كأعلاه.

٤- خطة العام:

ضع خطة لكيفية الوصول لكل هدف من أهدافك المرحليّة بتفصيل بحيث تجزىء الهدف إلى خطوات عمليّة تقوم بها بشكل منهجي وضمن برنامج زمني يوصلك للهدف، ثم اختمها برسم بياني أو برنامج زمني يوضّح الأجزاء التّنفيذيّة الأساسية الّتي يجب أن تقوم بها في كل شهر (أو في كل أسبوع) من العام للوصول لتلك الأهداف.

٥- خطة الأسبوع:

قم عند بداية كل أسبوع بتحديد المهام الّتي يجب أن تقوم بها في هذا الأسبوع من خلال النّظر في خطتك، ثم وزّع ذلك على أيّام الأسبوع في مفكّرتك أو مخططتك.

٦- البرنامج اليومي:

اصرف عشرين دقيقة صباح كل يوم لمراجعة وتعديل برنامج يومك، مضيفاً مهامّ لم تقم بها في اليوم الفائت ومسؤوليّات عائليّة ومعيشية لهذا اليوم. بعد ذلك سلّم أولويّاتك بحسب درجة أهمّية كل عمل.

٧- التّركيز على الأولويّات:

ركّز على أهمّ عمل في برنامجك ولا تنتقل لغيره أو تغفل عنه حتّى تنهيه، ثم قم بالآخر بحسب سلّم أولويّاتك وهكذا. ولتحرص على وقتك طوال النّهار؛ لأنّه ميدان العطاء الفعلي، واصرف وقتك في كل آن بأهم ما لديك، فإنّ نجاحك في اغتنام أيامك يتبعه نجاحك طوال الحياة، مما ينتج عنه عطاءً عظيماً وإنجازات مميزة.

٨- الوقفات التقويميّة:

ليكن لك وقفات للتقويم والتّخطيط الدوري بحيث تقوّم خلالها الدّورة الزمنيّة الماضية وتخطط للدورة الزّمنيّة القادمة واستثمر بعضاً من الوقت لذلك عند بداية كلّ عام، وعند بداية كل أسبوع، وعند كل

صباح. مثال ذلك: أن تقوم على رأس كل عام بمراجعة رسالتك وأهدافك وتقوّم ما أنجزت من خطتك خلال العام الفائت، ثمّ تحدّد الأهداف المرحليّة للعام الجديد وتضع خطتك لبلوغها وتتابع تنفيذ الخطة كما سبق ذكره.

٩- استخدام آلية لإدارة الوقت:

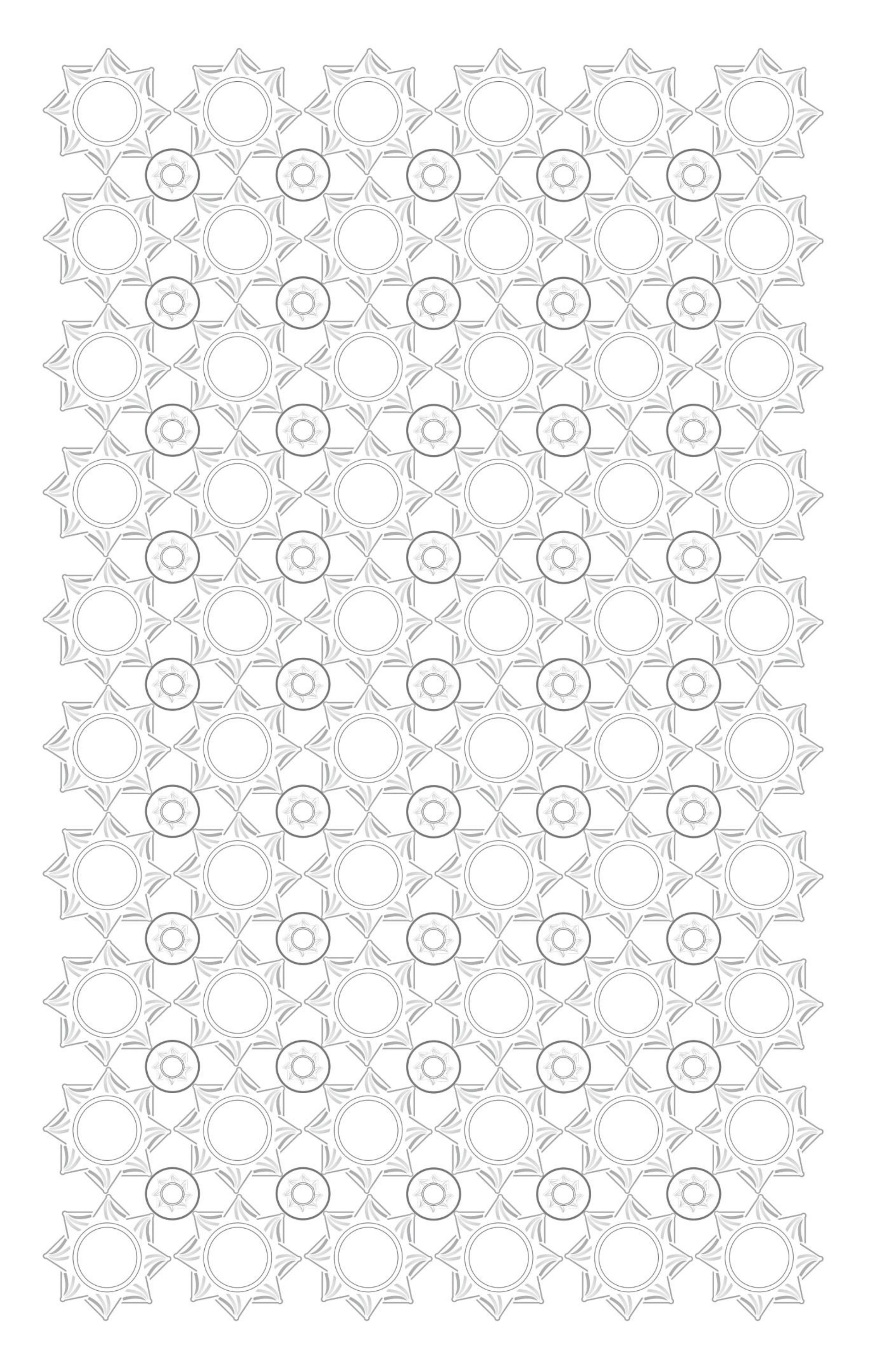
استخدم آلية لإدارة الوقت، وأنصح بمخططة ورقية يومية، تسرد فيها رسالتك وأهدافك وخططتك، إضافة إلى تخصيص صفحة لبرنامج كل يوم وسلّم أولويّاته. ولتحمل مخططتك هذه أينما كنت، ولتستخدمها بمرونة مضيفاً فيها مهام طارئة ومعدلاً برنامجك فيها، وانظر فيها مرات عديدة كل يوم ليتمحور نشاطك حول ما تحمله.

١٠- الاستعانة بالله أولاً وآخرا:

استعن بالله على الدوام، ولا تعجز مهما بلغت العقبات المتوقّعة، بل عليك بالمثابرة والثّبات والحرص على الدعاء.

١١- الإخلاص والصواب:

احرص دائماً على تحقيق شرطي قبول الأعمال: الإخلاص والصواب (المتابعة)، لتنال السّعادة الحقّة في الدارين.



بستان الأخبار

" إنّا صَعُبَ عَلَيْنَا حِفْظَ أَلْفَاظ القرآن، وَسَهُل عَلَينا العمل به، وإنّ من بعدنَا يسهُل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به ".

ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تذاكرت مع صديق لي ما روي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنّه قيل له: إنّ إخوانك يحبُّون أن تدعو لهم؛ فقال: اللَّهمّ آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار. ثمَّ تحدّثوا ساعة، حتّى إذا أرادوا القيام قالوا: يا أبا حمزة، إنّ إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم؛ فقال: تريدون أن أشقّق لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النّار، فقد آتاكم الخير كلّه.

ويبدو أنّ الرّغبة في هذا التّشقيق، الّذي يؤدي إلى التّعدّي في الدُّعاء، فطرة في بني آدم، خصوصاً حين يستَبِدُّ الجهل بالقرآن ولغته وشمول معانيه، فيُستبدلُ الهدي القرآني والنَّبوي الجامع في الدُّعاء بما هو دونه من التّفصيلات.

وكما طلب أصحاب سيدنا أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تجاوز الدُّعاء الّذي علّمنا إيّاه القرآن إلى التّشقيق، فإن ذراري المسلمين اليوم يطلبونها ويُلحُّون في كلّ حين حتّى يُشقّق الإمام في الدُّعاء ويبسط فيه بكلام ما أنزل الله به من سلطان. مُستدراً دموع جمهرة المصلّين، الّذين لا يفهمون القرآن ولا يستطيعون التّفاعل معه؛ اللّهم إلّا بعض آيات العذاب، نعوذ برحمة الله من عذابه.

والحقّ أنّي أعذر ذراري المسلمين في معاناتهم، فقد كنّا نرى فتياناً يفرُّون من حلقات حفظ القرآن الّتي أرسلوهم إليها أهلوهم على عهد صباهم. إذ كان الكتّاب الكريم بالنسبة لهم كلاماً مُطلسماً لا علاقة له بالحياة. فهم لا يتحدّثون لغته، ولا يفهمونها، ولا تمسُّهم وقائعه، بل ولا

يستشعرون له وجوداً حقيقيّاً ملموساً في حياتهم اليوميّة، رغم أن أهليهم ممن يُصلُّون ويصومون ويتحرّون الحلال ويفرُّون من الحرام كما يفرُّ الصحيح من المجذوم، فما بالك بحال من حرموا حتّى هذا الحدّ.

وقد أدركت سبب نفورهم من حفظ القرآن، رغم حبّهم الاستماع إليه، حين فهمت معنى ما صحّ عن سيدنا حذيفة بن اليمان إذ قال: إنّا قوم أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن، وإنّكم قوم أوتيتم القرآن قبل أن تؤتوا الإيمان.

صحيح أنّ أهلهم كانوا يجتهدون قدر طاقتهم للحفاظ على فطرة الله الّتي فطروا عليها بغير تشوّه، وعلى أن يزرعوا في قلوبهم مراقبته سبحانه؛ إلّا أنّ هذا الجهد كان جد قاصرٍ مقارنة بالجهد المبذول في تلقينهم القرآن عنوة. فإنما يحتاج الصّبي إلى التّخلية بتزكية نفسه حُبّاً واختياراً، قبل تحليتها بالعلم بأمر الله ونهيه. يحتاج إلى دفقات هائلة من حُب الله والتّعلُّق به ومعرفة ربوبيّته لخلقه وشهود عظمة ألوهيّته، ويحتاج مع ذلك إلى الاطمئنان الخالِص لصدق النَّبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ وأنّ ما

جاء به هو الحقّ من ربّه، وهو الهدى والنُّور والفرقان؛ حتّى إذا سمع آيات الله وقعت من قلبه موقعها، وتمكّنت منه ونفعه الله بها.

ومن رحمة الله بخلقه أنّ الإيمان لا يحتاج لكثير علم، ولا لتشقيق الكلام واللّغو في الذّات والصّفات؛ بل لإدراك الحدّ الأدنى من المحكمات والاستقامة عليها ظاهراً وباطناً.

إنّها تهيئة القلب حتّى يتلقّى القرآن ويهتدي بأنواره، كتهيئة الأرض للغرس. وقد صار سيّدنا سهلاً التُستري من سادة السّالكين بوردٍ سهلٍ علَّمه إيَّاه خاله. فشرع يُردّده منذ كان في الثَّالثة حتّى تكاثفت المعيّة في وعيه، وتعلُّق قلبه بالله قبل أن يتلقّى كتابه الكريم في السَّابعة.

كذلك حين أدركني قول سيّدنا حذيفة: إنّا آمنّا ولم نقرأ القرآن، وسيجيئ قوم يقرؤون القرآن ولا يؤمنون؛ أدركت أن حفظ القرآن ليس هو الإيمان، وأنّه لا يثبُت لديك وجود الله لتؤمن بقدرته ربّا وحاكميّته إلهاً بحفظ القرآن، وإنّما بحضور القلب والذكر والتّدبُّر في القليل، ثم بإجالة البصر في شواهد الكتاب المنظور كما يؤثر عن بعض

الأعراب سؤاله: كيف عرفت ربّك؟ فقال: إنّ البعرة تدلُّ على البعير، والأثر يدلُّ على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، أفلا تدلُّ على العليم الخبير؟! وهو ليس قياساً منطقيّاً نظريّاً بقدر ما هو إدراك فطريّ سليم لسنن الكون وآليّات عملها.

بل إنّ الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنّة برحمة من الله وفضل، لكن القرآن بلا إيمان لا ينفع صاحبه، وإنّما يصمه بالنّفاق. وذلك كما وَرَدَ في الصّحيحين عن أبي موسى الأشعري عن حضرة النّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: " مَثَلُ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كالأُتْرُجَّةِ: طَعْمُها طَيِّبٌ، ورِيحُها طَيِّبٌ، والذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كالتَّمْرَةِ: طَعْمُها طَيِّبٌ، ولا رِيحَ لَها، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحانَةِ: رِيحُها طَيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: طَعْمُها مُرٌّ، ولا رِيحَ لَها " (٢٦).

وربّما أدّى تعلُّم الصّبيّ القرآن قبل الاهتداء بالإيمان لصدّه عن السّبيل، والعياذ بالله. وهو ما قد يصدقه ما روي عن جندب بن عبد

(٢٦) صحيح البخاري ٥٠٢٠.

الله أنّه قال: كنّا غلماناً حزاورة مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فتعلّمنا الإيمان قبل القرآن، ثمّ تعلّمنا القرآن فازددنا به إيماناً، وإنّكم اليوم تعلّمون القرآن قبل الإيمان. ولهذا لا نزداد به إيماناً، بل ويحتاج ذراري المسلمين لتشقيق دعاءٍ فيه من التّعدّي والغثاثة ما فيه، لتتحرّك قلوبهم حين تمسُّها مطالبات شؤون حيواتهم اليوميّة في أدقّ تفاصيلها. ذلك أنّ قلوبهم لا تحرّك لذكر الله وحده، بل يجب أن يكون هذا الذّكر موصولاً بشؤون معايشهم وأرزاقهم وأموالهم وذريّاتهم.

ولأنّنا كُنّا نؤتى القرآن قبل الإيمان، فقد كانت طريقة تلقينا إيّاه فاحشة الغلط. مخالفة للسُّنّة النّبويّة في ذلك، ولهدي الصّحابة؛ ومن ثمّ ما زال القرآن معدوم الأثر في حيوات ذراري المسلمين، رغم دوام التّغنّي به آناء اللّيل وأطراف النّهار. فإنّما ورثناه وراثةً وشربناه كالماء لم يُجاوز تراقينا، ولم نتعلّم حقيقة العمل به. وقد روي عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وابن مسعودٍ وأُبَيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّ حضرة الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يقرئهم العشر آيات فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتّى يتعلّموا ما فيها من العمل؛ فيعلّمهم القرآن والعمل جميعاً.

لقد جاء هذا القرآن ليربّي أمة، ويقيم لها نظاماً، فتحمله هذه الأمّة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتعلم به البشريّة هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل. ومن ثمّ فقد جاء هذا القرآن مفرقّا وفق الحاجات الواقعيّة لتلك الأمّة، ووفق الملابسات الّتي صاحبت فترة التّربية الأولى. والتّربية تتم في الزّمن الطّويل، وبالتّجربة العمليّة في الزّمن الطّويل. جاء ليكون منهجاً عمليّاً يتحقق جزءاً فجزئاً في مرحلة الإعداد، لا فقهاً نظريّاً ولا فكرة تجريديّة تعرض للقراءة والاستمتاع الذّهنيّ ... وتلك حكمة نزوله متفرّقاً، لا كتاباً كاملاً منذ اللّحظة الأولى.

وهكذا ينبغي أن تربّى الأمّة من بعد، زرافاتٍ ووحداناً فلا يُلقى القرآن جملةً في عقل طفلٍ (ولا بالغٍ!) لا يعقِلُ من أمره شيئاً، فيضيّعه ويصير به كالحمار يحمل أسفاراً. بل مُفرّقاً وعلى مُكث. يُلقى لأرواح أقبلت على الله ابتداءً، مفرّقاً ومُوافقاً لتغيُّر أحوالها ومكابداتها الّتي لا تنتهي.

وفي مثل هذا المعنى قال الزُّهريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من طلب العلم جملةً فاته جملةً، وإنّما يُدرك العلم حديثاً وحديثين. وقد روي أنّ الحسن البصريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنّ هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلّا باتّباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتّى إنّ أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطّت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كلّه ما يُرى القرآن له في خلق ولا عملٍ، بل يقول أحدهم: إنّي لأقرأ السُّورة في نَفَس! والله ما هؤلاء القرَاء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة، متى كانت القُرّاء مثل هذا؟ لا كثّر الله في النّاس أمثالهم.

وذكر مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موطّأه أنّه بلغه أنّ عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلّمها. وتعلُّم العمل بالكتاب الكريم هو حقيقة معنى التَّعلُّم في رواية ابن عمر، وهو كذلك فيما رواه مالك أنّ سيدنا عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نفسه قد تعلّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة.

ومن ثمّ، فليس المقصود ها هنا المعنى الاصطلاحيّ المحدَث للتعلُّم بوصفهِ تحصيلاً نظريّاً ساكناً لا ينفع صاحبه في حياته ولا في آخرته، بل هو التّطبيق العمليّ النّافِذ المفعول والمكابدة المخلصة للاستقامة على الأمر الإلهي. وإنّ "حُفّاظ" القرآن اليوم ليعجبون حين يسمعون أنّ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان الفاضل من خيار أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في صدر هذه الأمّة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، وكان القرآن ثقيلاً عليهم ورزقوا علماً به وعملاً، وإنّ آخر هذه الأمّة يقرؤون القرآن منهم الصّبيّ والأعمى والأعجميّ لا يعلمون منه شيئاً. لكن الكارثة أنّ بعض هؤلاء الحفّاظ والدعاة على أبواب جهنّم يحسب أنّه بذلك خير من الصّحابة أو ند لهم، لأنّه "جاوزهم" وملأ صدره علماً لا يعمل به، لكنّه سيُحاسب عليه. وقد قال أحد حواريّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اعلموا ما شئتم أن تعلّموا، فلن يأجركم الله بعلمه حتّى تعملوا. وقد كان المعصوم الّذي لا ينطق عن الهوى يتعوَّذ من علم لا ينفع.

هذه المخالفة لسنّة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ راكمت على أرواحنا غواشٍ جعلت القرآن غريباً علينا. وما ما بدأت أقترب من رحاب الوحي الإلهي إلّا بعد أن أحببت الشّعر العربيّ في مرحلة الطفولة، وشرعت أحفظ القصيدة تلو الأخرى، وألتهم الشّاعر تلو الآخر؛ مُستمتعاً مُستجيداً ... بل ومحاكياً في محاولات مبتورة لم تكتمل. إذ أنضجت صحبتي لعيون الشّعر العربيّ إيماني بعزّة الإنسان وكرامته على ربّه. حينها فقط بدأ قلبي يتشقّق ويُزهر منه الإيمان ليجِد مُراده في القرآن المُعجز، وراح حاجز الغُربة بيني وبين القرآن يذوب رُويداً رويداً. كلّ ذلك رغم أنّ القرآن لم يَغِب عن بيتنا أبداً. فقد أتمّ الله عليّ حفظه قبل أن أتمّ العاشرة، وأبواي متّعهما الله بالصّحة والعافية ما زالا يرتّلانه آناء اللّيل وأطراف النّهار، وفي الأوقات الّتي يتوقّفون فيها عن التّرتيل كان المذياع يتكفّل بسدّ الثغرة. ورغم ذلك كلّه، كان القرآن غريباً على نفوسنا كما هو غريب اليوم على ذراري المسلمين بعيدٌ عن أفئدتهم نائية عنه حيواتهم، رغم اعتياد آذانهم وعيونهم له. وإنّما اغتربنا

عن الكتّاب الكريم بضحالة الإيمان الّتي تقسو بها القلوب، وكان فساد لغتنا حاجزاً إضافيّاً. ظلمات بعضها فوق بعض.

وفي مرحلة تالية، لَعِبَ الاطّلاع على السّيرة النّبويّة - على حضرة صاحبها أفضل الصّلوات والتّسليمات - دوراً مكمّلاً للشّعر، فبدأت المعاني اللُّغويّة الّتي سبر الشعر غورها تكتسب مدلولات تاريخيّة وتكشف عن التّصورات والأفعال الّتي ارتضاها الله لعباده، ناهيك عن تصوّرات الآبقين من أهل الشّرك وأفعالهم، والأنماط الإنسانيّة لتحقُّق تلك التّصورات جميعاً في عالم الشُّهود. ومع السّيرة النّبويّة لم يعُد القرآن كتاباً ساكناً خامداً في روعي كما كان، ولا صار بياناً "نظريّاً" بارداً لما تعبّد الله به خلقه فحسب، بل صار حياةً كاملةً. صار حياة كاملة أراها تحقّقُ أمامي تاريخيّاً في كلّ آية. حياة موَّارة أبعد ما تكون عن السُّكون. حياة مؤمنة تصدر من الأمر الإلهي، وحياة مُشركة تتفلّت من النّهي الإلهيّ. وقد كان مستحيلاً أن نتكشّف كلّ هذه الأعماق الرحيبة في حال القطيعة التاريخيّة الّتي كنا نعيشها طوال مرحلة الصّبا، رغم النّشأة في محيط "مُتديّن".

وكانت أنضج مراحل الصحبة المتقطّعة للقرآن مع صاحب جامع البيان الّذي أخذ بيدي إلى القرآن. وقد كنت أظنُّ أول عهدي بالإمام الطّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَه أنزل القرآن على واقعي وحياتي (وواقع كلّ مسلم وحياة كلّ مسلم تعرّض لما كتب) حتّى صار التّنزيل جزءاً من هذه الحياة، ثم اكتشفت بعدها أنّه كاد يُعيدني - بإذن الله - أنا الفقير الحقير لأحيا في ظلال القرآن كما تفيأ هو ظلاله. وهي حياة جد شاقّة ما زلت أتفلّت منها ولا أقوى عليها رغم أنّي ما زلت في طليعة العشرين من عمري. إذ أذوق في اللّحظات القليلة الّتي أستقيم فيها كلّ حينٍ معنى ثِقَل القرآن، وثقل تعلُّمه، وثِقل العمل به. لكنّه ثِقلٌ له لذّة، وبه تسري العافية في الرُّوح والبدن؛ إن يسّر الله لك احتمال بعض مشقَّتها.

وقد توازى مع هذه المراحِل في تلقّي القرآن وزيادة تركيبيّة فهمه، مراحل موازية؛ أكثر عمقاً وارتباطاً بالمكابدات الشَّخصيَّة والنُّمو الرُّوحي والعقلي. ففي مرحلة المراهقة تَفْتِنُك أوصاف نعيم الجنَّة حين تتكشَّف لك معانيها. ثمّ تنضج أكثر لتصير أكثر إشفاقاً من أوصاف العذاب وأحوال أهل النّار. وفي المرحلتين أنت ضيّق الأفق تحسَب أنّ القرآن

محض مجموعة من "الأحكام الفقهيّة"؛ افعل ولا تفعل. ثمّ حين يأذن الله بارتقاء سُلّم النُّضج درجة أخرى؛ تكتشف أنّ نسبة آيات الأحكام لا تبلغ أصلاً عُشر الكتّاب، وأنّ هناك أبعاداً أخرى هي الّتي تصوغ الرُّوح والجسد ويصدُر عنها عمل المؤمن، وأنّها هي التّي تُضفي المعنى على آيات الأحكام وتمنحها السّياق. لتغوص درجة أخرى إلى آيات الاعتقاد. فإذا تريَّثت عندها قليلاً للنّظر العقليّ قد يتخطّفك ما يُسمّى بـ "علم الكلام"، وهو لغو لا طائل من تحته إذ انفصل عن أرواح الذّاكرين. فواصل طريقك داخل الكتّاب ولا تلتفت. ساعتها ستتكشَّف لك الأبعاد الحقيقيّة للتّوحيد، وهي أبعادٌ تتجاوز اللّغو الكلاميّ التّافعه، والسفسطات الفلسفيّة المقيتة.

ستشهد التّوحيد يبني الأكوان ويملأ من هَدَى الله من بني الإنسان، فكأنّ الوجود قد قُدّ من صحيح العبوديّة. عند هذه المرتبة يبدأ الذّوق، عندما تُدرك أن التّوحيد ليس محض كلمات باردة يقذف بها اللّسان، وإنّما هو نفخة من روح الله تسري في خلقه، والسّعيد من هداه الله لها. ستشهد الكون يتحرَّك داخل الكتّاب؛ يتحرَّك كله عروجاً إلى

الله. يتعثّر الإنسان المكلّف لكن ما سواه من الخلق لا يتعثّر. يضلّ الإنسان عن غايته ويختار هواه فيسقط ويتصاغر، ليبدو التّائب الآيب كأنّه بطلٌ ملحميّ تحتفي بعودته الملائكة. إذ قاتل نفسه في سبيل الله. ها هُنا تستشعر حياة كلّ الموجودات، إذ تستشعر سلوكها جميعاً إلى الله؛ رغباً ورهباً. في هذه الحال لن تستشعر وحدة أبداً، ولو كنت في بطن حوت؛ فإنّما أنت سالك من بين قوافل مُمتدّة تصعد الطّريق منذ الأزل. وأسعد السّالكين من رضي له ربه تجاوز شعوره سلوك الموجودات إلى استحضار المعيّة الإلهيّة. لتتوالى على وجودك آيات يتصاغر أمامها كلّ شيء، وتذوق بها المعيّة، تأملّ مثلاً: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ ... ستجد أنّ هذه الآيات الكريمات وأمثالها لا تهُزُّ عالمك الصّغير المحدود فحسب، بل هي تُعيد صياغة روحك على الحقيقة؛ فكأنّك تولَد من جديد. وقد تُصيبك آية من هذه الآيات مرَّة

على غير استعداد، فتخرُّ صريعاً كموسى الكليم، لتُدرك معنى ثِقل القرآن ولذّة الحياة به في آن.

وقد صارت أكثر الآيات تأثيراً فيّ بعد أن قطعت بعض المراحل هي الآيات الّتي تكشف حركة الإنسان المؤمن. فإذا كانت آيات حركة الكون في تسليمه مقهوراً شديدة الوطأة، كما في تسبيح الرّعد مثلاً، فإنّ الآيات الّتي تزفُّ الإنسان الّذي أسلم مختاراً أعظم أثراً وأشدّ وطأة. إنّها الآيات الّتي يتجدّد أثرها في روحك كلّما تنزّلت عليك. فهذه العبوديّة الصّادقة الّتي رفعت الإنسان فوق الرّعد والجبال، وسخّرتهما له، جعلت من خضوعه الإرادي لله بطولة ملحميّة ترفعه فوق سائر الموجودات. صار عبداً ربّانيّاً لا إرادة له إلّا ما أراد الله، وهذه هي ذروة القوّة الرُّوحيّة والنّفسيّة الّتي قد يحوزها بشر. أن ينسلخ من إرادته لله، ليصير عبداً ربّانيّاً كامل العبوديّة لله.

ثمّ إنّ عبداً منّ الله على قلبه بهذا التّعلُّق الشّريف بحقيقة الألوهيّة، ووهبه برحمته وحوله وقوّته بعض القدرة على المكابدة للاستمداد من

هذا المعين النُّورانّي، أتُراه ينحدرُ إلى سؤال الرّزق المعيَّن في اللّوح والمكفول لكلّ ذي روح، أم ينشغل بالذّكر وطلب الهدى ونُشدان الرّضا؟

فما سألت الله رزقاً إلّا علمت أنّي أهوي إلى الطّين، وأنّ شهوات الدُّنيا وهمومها قد أثقلتني حتّى نحيّت طلب الرّضا، وشُغلت بطلب المتاع. وما أكثر ما أفعل ذلك، أسأل الله العافية لي ولك.

نصائح لصحبة القرآن

١- قراءة فضائل القرآن، وفضائل أهله، وما أعدّه الله لهم في الآخرة، ويمكن أن تستعين ببعض الكتب التي عنيت بهذه الفضائل :

- أخلاق حملة القرآن لأبي بكر الآجرّي.
- فضائل القرآن لأبي عبيد الهروي.
- مختصر قيام اللّيل لمحمد بن نصر المروزي.

٢- الإلحاح على الله عزّ وجلّ:

لا تترك وقت إجابة، إلّا رفعت يديك إلى الله متضرّعاً داعياً، أن يجعلك بفضله ورحمته من أهله وخاصّته، فإنّه من يُديم طَرْقَ الباب يُوشكُ أن يفتحَ له.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذا أُغلق عليه فهم آية أو مسألة، استغفر الله حوالي ١٠٠٠ مرّة وقال: يا معلّم آدم علّمني، ويا مفهّم سليمان فهّمني.

٣- الإكثار من تلاوة القرآن بصوت مسموع تلاوة هادئة من المصحف:

وذلك لأنّ السّمع والبصر أهمّ منافذ القلب، وأهمّ أدوات العِلم، فإن أكثرت من النّظر في المصحف، ومن القراءة قويَ بصرك وبصيرتك، وصحّ سمعك، وكنت أقرب للانتفاع، وصرت أهلاً للاستفادة.

وكان أغلب السّلف الصّالح يختمون القرآن كلّ أسبوع، وبعضهم كلّ عشرة أيام.

٤- كرّر الآية أو الآيات الّتي وجدت لها تأثيراً في قلبك:

فهذا نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قام ليلة كاملة بآية واحدة ويردّدها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾.

وهذا سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرّ على هذه الآية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ فظلّ يردّدها فوق العشرين مرّة.

وكان ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يقول: قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب.

ولتعلم يا رعاك الله أنّ الإسلام يحتاج إلى جوّ خاص، وطقس خاص، ودرجة خاصة من الحرارة والبرودة، وهو يجمع في وقت بين العقيدة والعمل، والأخلاق والمعاملات، والعواطف والوعي والشعور، والذوق الخاص الذي يحيط بالإنسان ويصوغه في قالب جديد، ولن ترفع الغُثَائية عن الأمة وتقوى القلوب وتزرع فيها الشجاعة ويعالج الوهن ويزهد في الدنيا إلا بالعلماء الكبار الذين ينهضون بالأمة من كبوتها، ويوضحون لها سر النجاح والنجاة، ويعيدون لها مجدها وعزها، ويوجهون طاقاتها، ويستثمرون قدراتها فيما يعيد لها المجد والسؤدد بإذن الله تعالى، فلا تال جهداً في بذر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة، وأقم حجة الله عليهم، وصِل الليل بالنهار، وحرق القلب، وأذب الجسم، وأَهرق دموع

العين ودماء الكبد، أهرقها سيلا مدراراً حتى تبكي بلاد العرب وأبناء الأمة على قصر باعهم وقلة بضاعتهم!، أمسك بتلابيب كل شخص، وقل له: أيها الغزال الضال في صحراء العرب، ويا كرامة العالم وشرف الأمم، ويا أَمل إ براهيم ومحمد - عليهما الصلوات والتسليمات - أين أنت؟! أهذه هي حصيلة دعاء سيدنا عمر بن الخطاب وإنابته بالأسحار؟ ودماء سيدنا مثنى بن حارثة الغزار؟ ودوس أبي عبيد الثقفي وتحطم عظامه؟ ورفع سيدنا سعد بن أبي وقاص راية القتال والجهاد؟ وحرقة سيدنا علي بن أبي طالب وبكائه وتململه وخطابته المثيرة وتأثيره البليغ؟ وعطش سيد الشهداء فلذة كبد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؟ ورخص دماء أهل البيت؟ وتفكير أبي حنيفة وفقهه وتأمله؟ وتعذيب أحمد بن حنبل وتضييق الخناق عليه؟ وحماية ابن الجوزي للسنة والدفاع عنها؟ وتألم الشيخ عبد القادر الجيلي ولوعته؟ أن تخضع لأئمة الضلالة ودعاة الانحراف؟! وتمشي في ركابهم؟! وتكون ذرة تائهة من غبار طريقهم؟! ... انفخ الصور في مقابر الأمّة وأحدث فيها جلبة القيامة وزلزلتها!! فيا لضياع (أهل الحرم) وغفلتهم، ويقظة الأعداء وسهرهم».

وَقَدْ تَعلَّمَ الصَّحابة الكرام من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ثمَّ علَّموا التَّابعين، وعلَّم التَّابعون أتباع التَّابعين، وحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوله، فَنَفَوا عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وما بلغوا ذلك إلّا بالصبرّ والْمُثابرة، والهمّة العالية، والسّير في البلاد، وصبرٍ كصبر الجماد، وتحمُّل المشاقّ، وهجر الرّاحة، وكابدوا المشاقّ الكبيرة، وصارعوا الأهوال العظيمة، ولسان حالهم:

دَبّتَ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا جَهْدَ النُّفُوسِ وَأَلْقَوْا دُونَهُ الأُزُرَا

فَكَابَدُوا الْمَجْدَ حَتَّى ملَّ أَكْثَرُهُم وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبَرَا

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرَاً أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

ليرين الله ما أصنع

رددها بلسانك، واشحن بها قلبك، وارفع بها همّتك، وشُدّ بها عزمك، واستعن بربّك ولا تعجز.

فإن علم الله تعالى من قلبك صدقاً في الإقبال، استقبلك بالمعونة والتّوفيق، وصلاح الحال، وجعل بينك وبين القرآن وصال، لا يُقطع إلى يوم تلقاه سبحانه.

ليرين الله ما أصنع

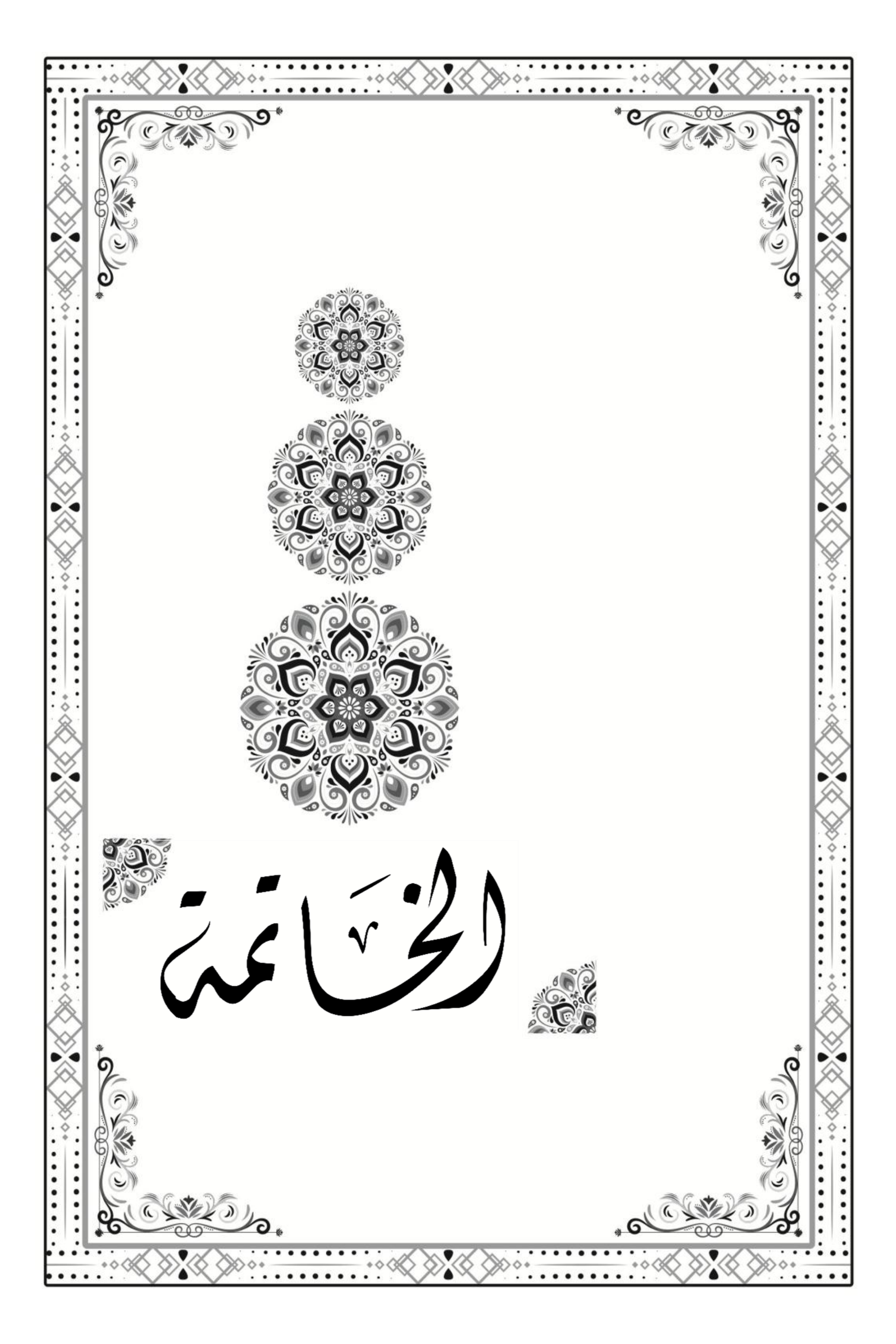
لا تجعل علاقتك بالقرآن بالأمس كعلاقتك به اليوم، ولا تجعل علاقتك به اليوم كعلاقتك به غداً.

ليريّن الله ما أصنع

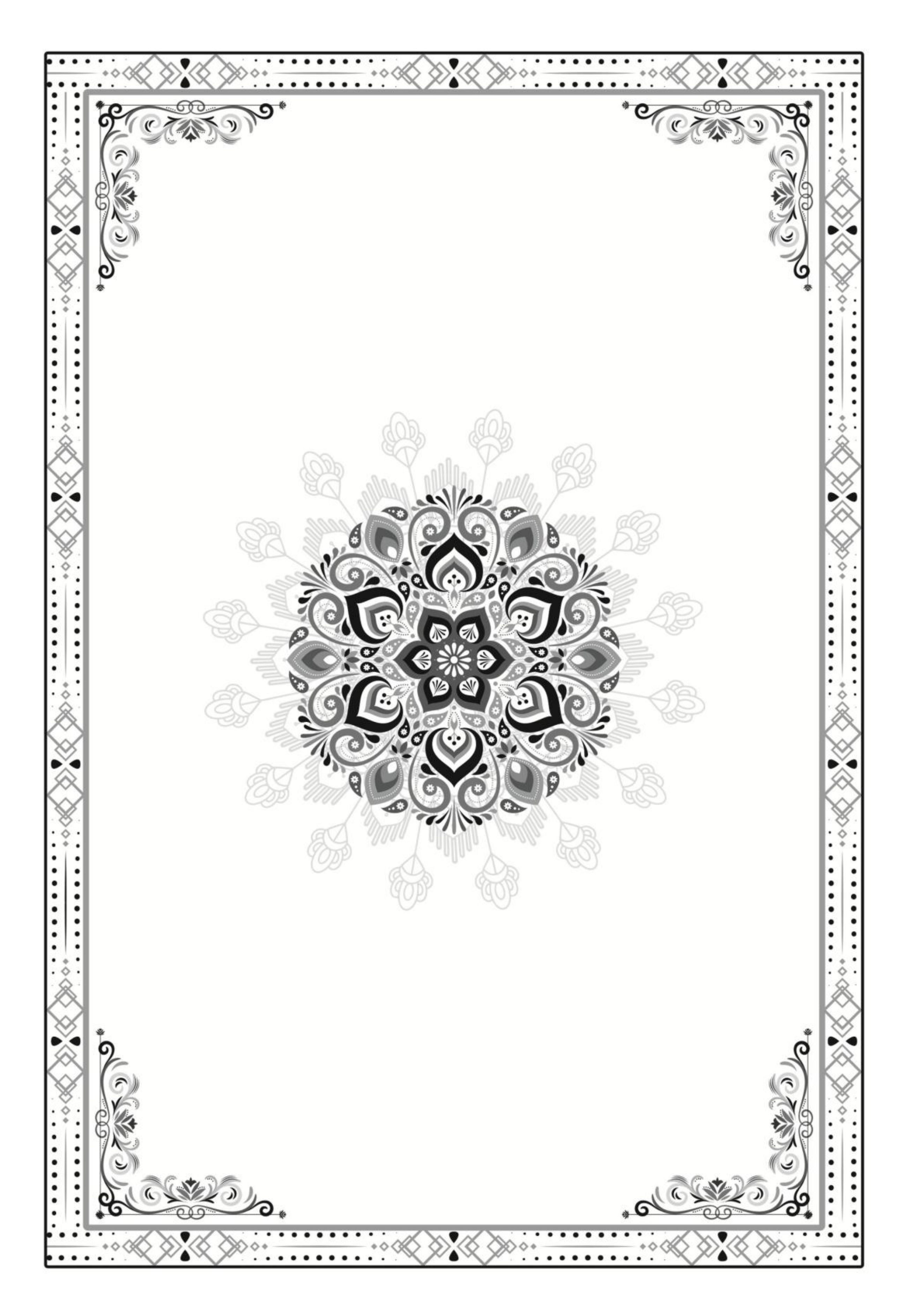
اجعلها نصب عينيك لا تفارقك (في بيتك - في عملك - في جيبك..) ذكّر بها نفسك دائماً ...

فإن كان هذا حالك فاعلم أنّ الله سيبلّغك مرادك.

(جعلني الله وإياك من أهل القرآن العالمين به).



الخَاتِمة





الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي من علينا بنعمة العقل والتدبر، ووهبنا منَّة النظر والتفكر، وتفضل علينا بالفهم والتذكر، وأمرنا بالعظة والاعتبار، وأكرمنا بالاستنباط والاختيار.

الله نحمد على توفيقه وتسديده، ومَنِّه بأن جعلنا أهل توحيده، ونسأله من فضله الجزيل أبلغ مزيده، ونصلّي على نبيّه محمد الصادق في وعوده، النَّاطق بجامع الكلم وسديده، وعلى آله وصحبه المجتهدين في بناء الدين وتشييده، صلاة دائمة ما تلفع عارض ببروده، واختال بين بروقه ورعوده، وسبَّح لله ملك في ركوعه وسجوده، وبعد؛

فإنَّ من أجلّ القُرَبِ والطَّاعات الَّتي ينبغي للمسلم السَّعيُ فيها، والمُسارعةُ إليها، والازديادُ منها؛ الاشتغال بعلوم الشَّريعةِ الغرَّاءِ، معَ

حُسْنِ النِّيَّة، سائراً في ذلك على منهاج النُّبوَّةِ المُحمَّديَّةِ، ومقتفياً آثار السَّلَفِ العليَّةِ.

فيا هناءَ منْ رزقَه اللَّهُ تعالى العلمَ الشَّرعيَّ وحبَّبهُ إليه، فيا لها من فضيلةٍ وأيَّ فضيلةٍ، تاللَّهِ " لوْ لمْ يكُنْ في العلمِ إلَّا القربُ مِنْ ربِّ العَالمينَ، والالتحاقُ بعالِمِ الملائكةِ، وصحبةُ الملإِ الأَعلى، لكفى به فضلاً وشَرفاً، فكيفَ وعزُّ الدُّنيا والآخرةِ منوطٌ به، ومشروطٌ بحصوله.

فهذا جهدي أضعُه بين يدي طلبة العلم، لم آلُ جهداً في تصحيحه والعنايةِ به وخدمته الَّتي تليقُ به، فإنْ وُفِّقتُ فالحمد للَّه الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، وإن أخطأتُ فمن نفسي وقلَّةِ بضاعتي، ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه العظيم.

فيا أيُّها النَّاظر فيه، هذه بضاعة صاحبه المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمُهُ وعقلُهُ معرُوضٌ عليك، لكَ غُنمُهُ وعلى مؤلفه غُرمُه، ولك ثمرته، وعليه عائدته، فإن عَدِمَ منكَ حمداً وشُكراً، فلا يُعدَم مِنكَ مَغفرةً وعُذراً، وإن أبيتَ إلَّا المَلامَ فبَابُهُ مفتوحٌ مَعَ الإكرامِ.

واعلم أيُّها القارىء الكريم أنَّ نتائج الأفكار على اختلاف القرائح لا تتناهى، وإنَّما يُنفِقُ كلُّ أحدٍ على قدر سَعَتِهِ، لا يكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلَّا ما آتاها، ورحم اللَّهُ من وقف فيه على سهوٍ أو خطأٍ، فأصلحه عاذراً لا عاذلاً، ومُنيلاً لا نائلاً، فليس المبرَّأُ من الخَطَل إلَّا من وقى اللَّهُ وعصَم، وقد قيل : الكتَّابُ كالمكلَّف، لا يسلَمُ من المؤاخذةِ، ولا يرتَفِعُ عنه القَلَمُ، واللَّهُ تعالى يقرنُهُ بالتَّوفيقِ، ويرشدُ فيه إلى أوضحِ طريقٍ، وما توفيقي إلَّا باللَّه، عليه توكلت وإليه أنيب ".

ومَا خطَّ كفُّ امرئٍ شيئاً ورَاجَعَهُ إلَّا وعنَّ له تبديلُ مـا فِيهِ

وقال : ذاكَ كذا أولى وذا كذا وإن يَكُنْ هكذَا تَسمُو مَعَانِيهِ

هنا انتهى القول بنا فيما حررناه وانتجز الغرض الذي انتحيناه، واستوفي الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن في كل قسم منه للمريد مقنعا، وفي كل باب منهجا إلى بغيته ومنْزعا.

وقد سفرت فيه عن نكت تستغرب وتستبدع، وكرعت في مشارب من التحقيق لم يورد لها قبل في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير ما

فصل وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه أو مقتدى يفيدنيه عن كتابه أو فيه لأكتفي بما أرويه عما أروِّيه.

وإلى الله تعالى جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه، لما أودعناه من شرف ما أفدناه ونهلناه من معين وحيه، وأسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله، وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله، ويحمي أعراضنا عن ناره الموقدة لحمايتنا كريم عرض دينه، والذّبّ عن حياضه، ويجعلنا ممن لا يذاد إذا ذيد المبدل عن حوض أمينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ، ويجعله لنا ولمن تهمم باكتتابه واكتسابه، سببا يصلنا بأسبابه، وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه، ويخصنا بخصيصى زمرة نبينا وجماعته، ويحشرنا في الرعيل الأول وأهل الباب الأيمن من أهل شفاعته.

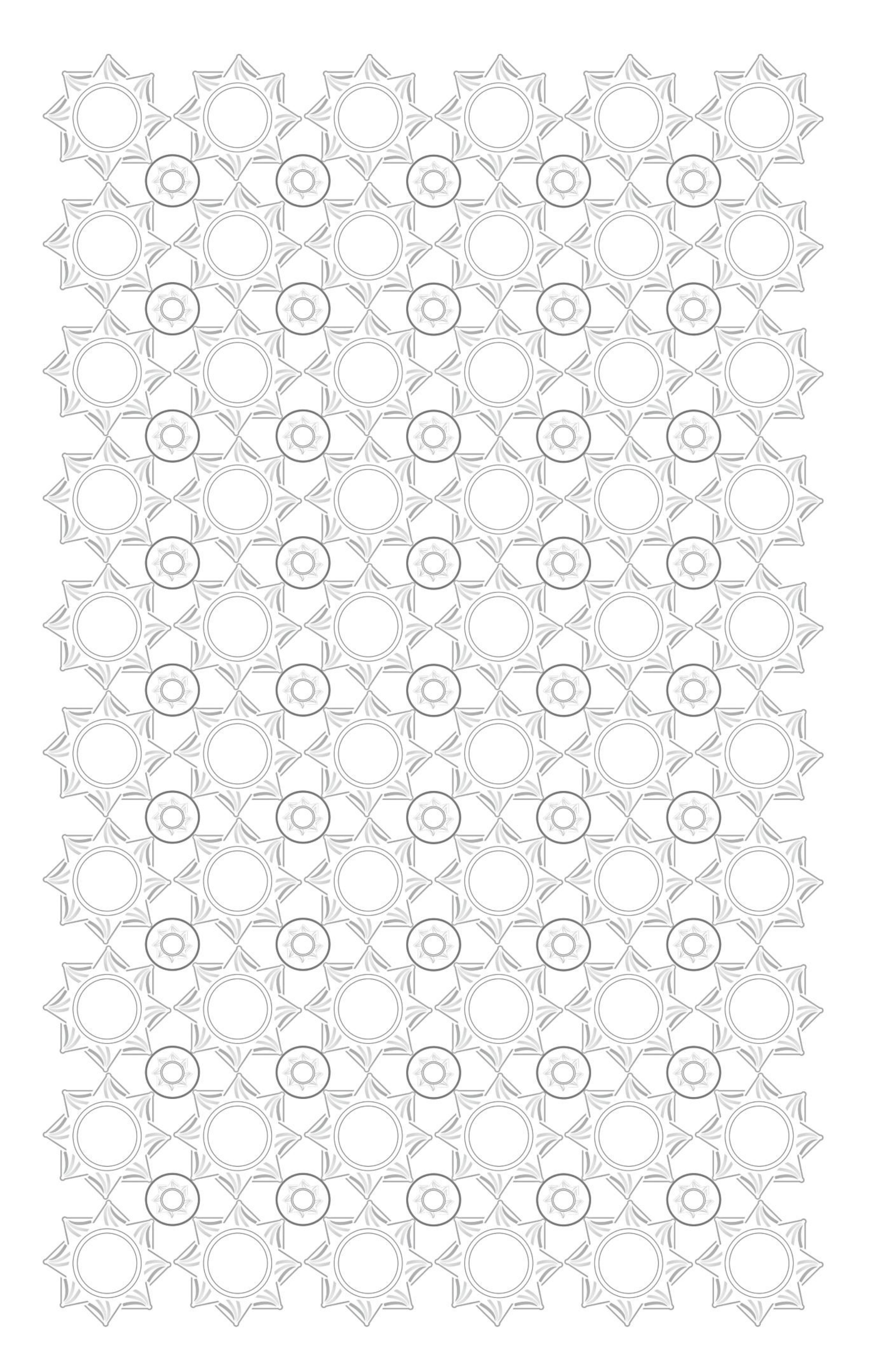
ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جمعه وألهم، وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهم، ونستعيذه جل اسمه من دعاء لا يسمع، وعلم لا ينفع، وعمل لا يرفع، فهو الجواد الذي لا يخيب من أمله، ولا

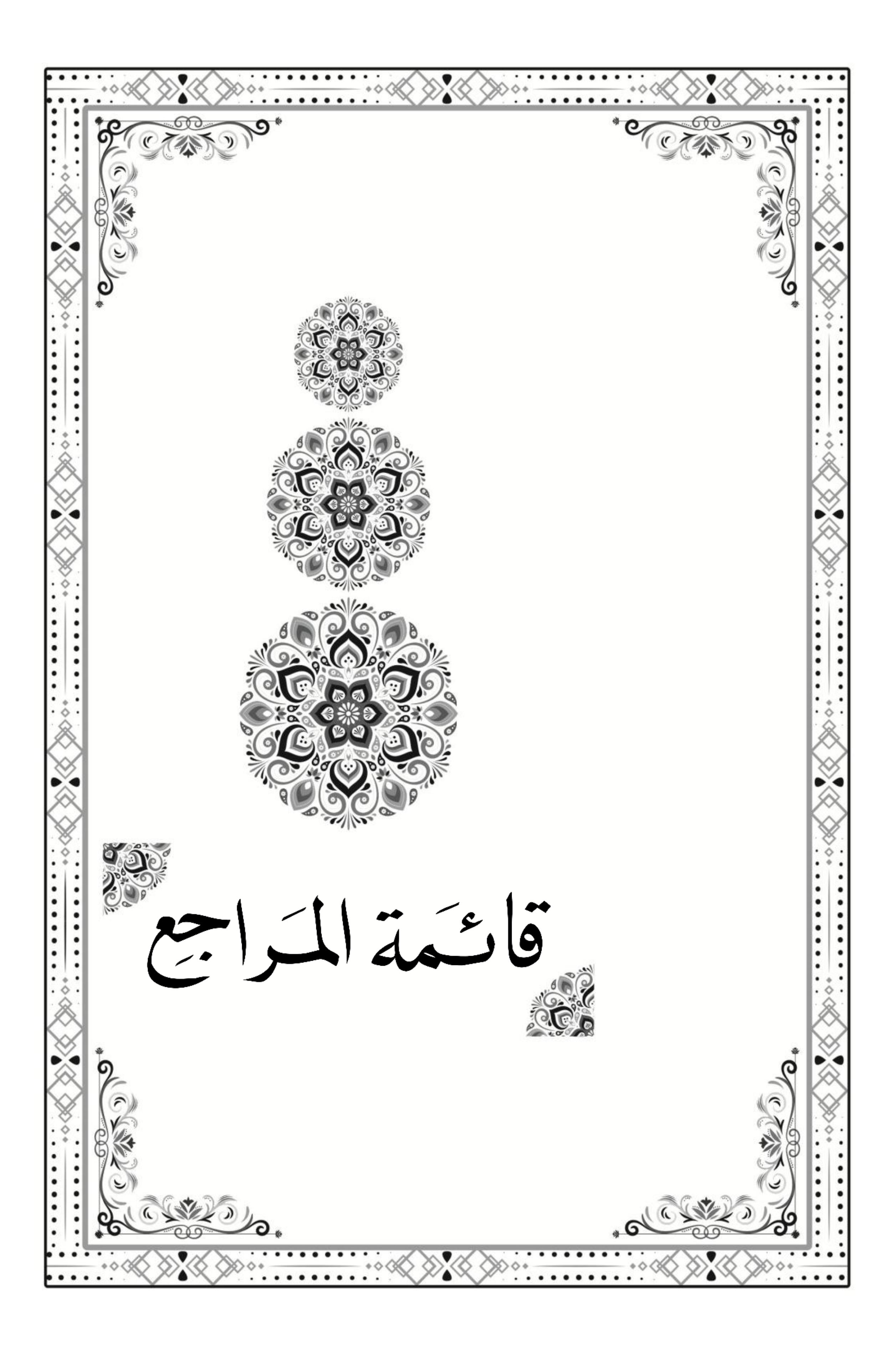
ينتصر من خذله، ولا يرد دعوة القاصدين، ولا يصلح عمل المفسدين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلاته على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرا، والحمد لله رب العالمين.

فَٱللَّهَ أَسْأَلُ أن ينظمني في سلك حملة القرآن، ٱلَّذِينَ يُحِلُّونَ حلاله، ويُحَرِّمُونَ حرامه، ويرعون حدوده، ويجيدون تلاوته، وأن يميتني على حبهم، وأن يحشرني في زمرتهم وتحت لوائهم، فأهل القرآن أهل الله، وسدنته كتابه. وأن يتقبل مني ما قدمت من عمل، وأن يمنحني حسن الختام عند انتهاء الأجل.

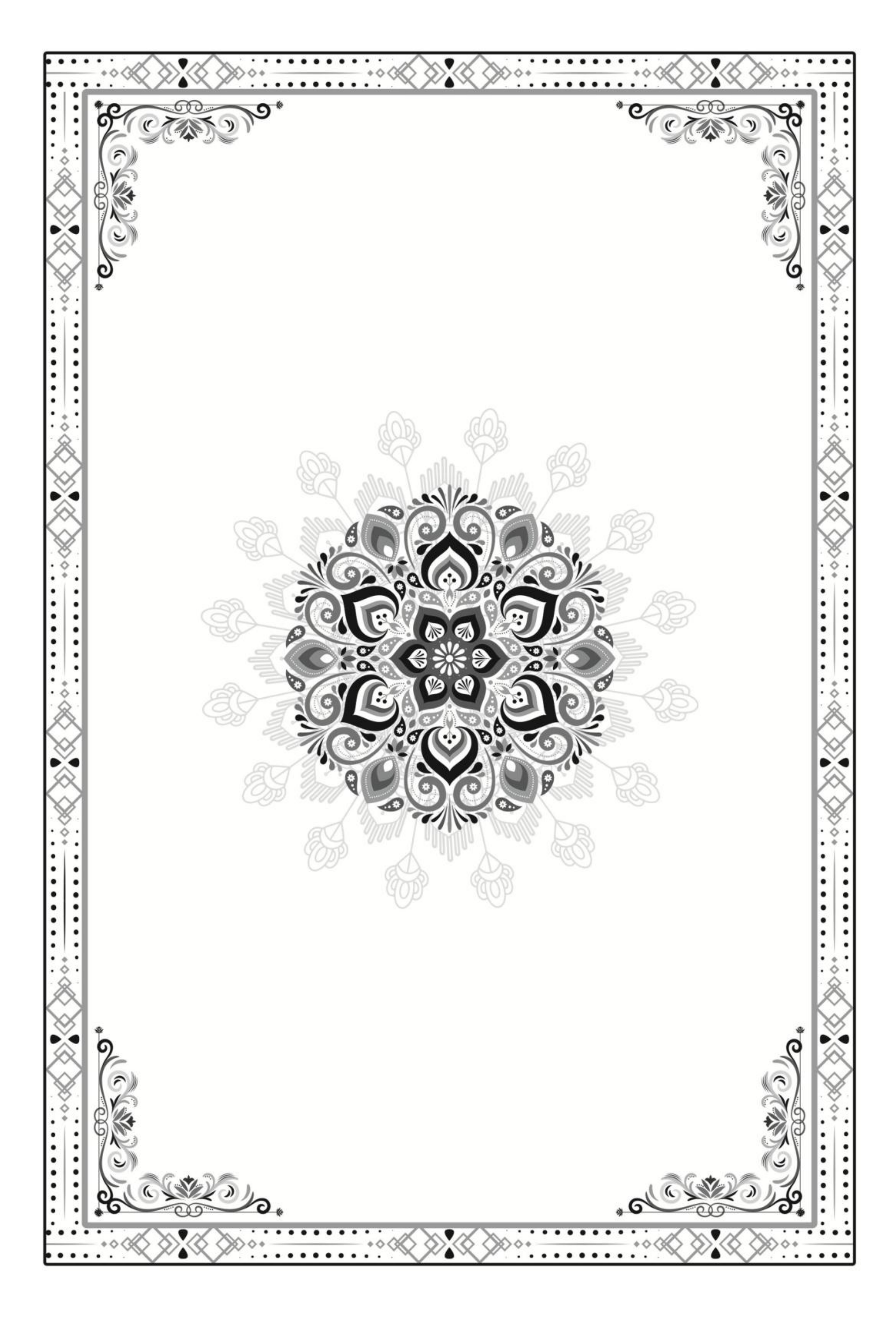
وهذا تمامه وكماله

والله أعلم



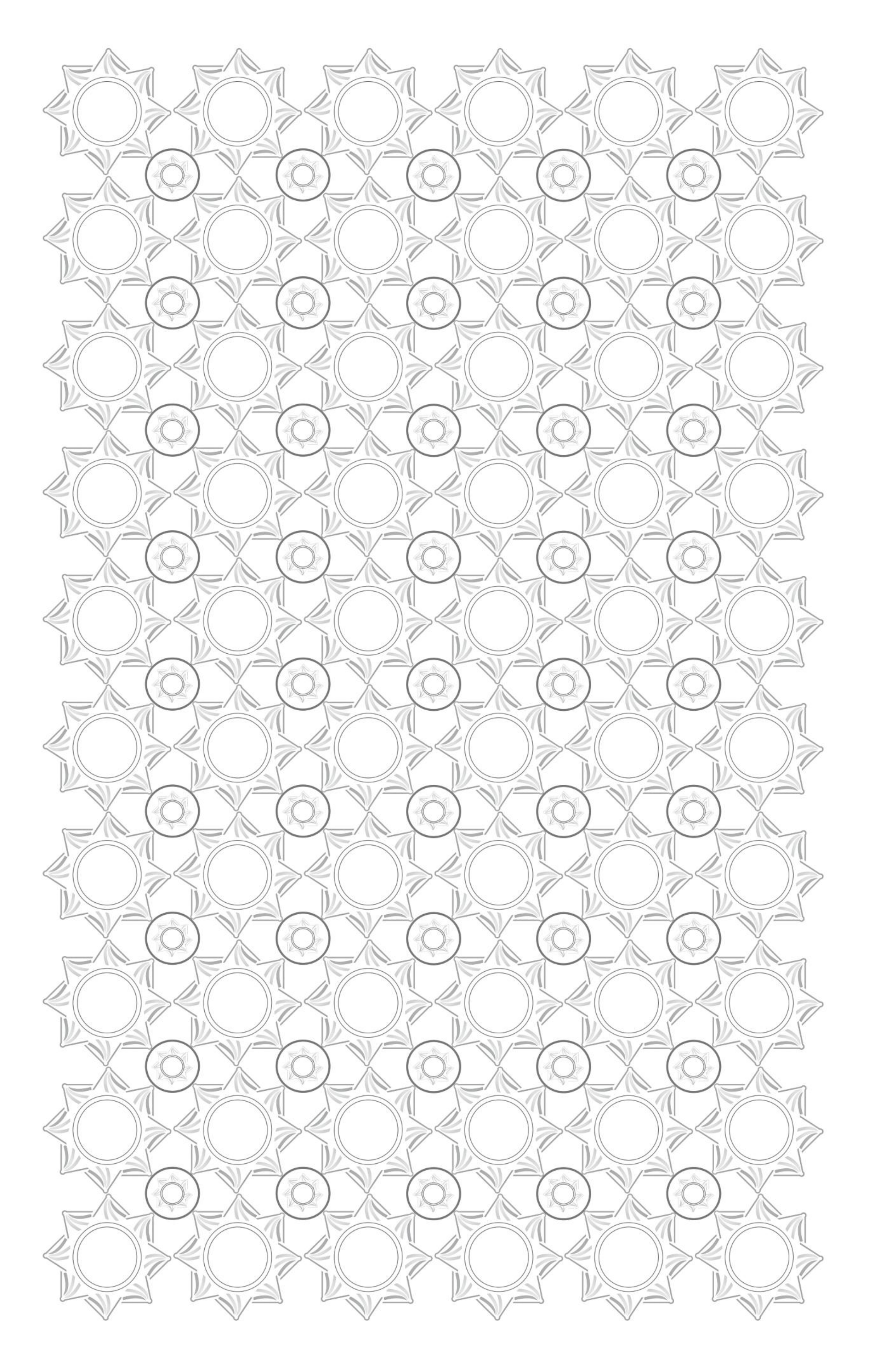


قائمة المَراجِع



قائِمَةُ المَراجِعِ

ثبت المصادر والمراجع



قائمة المراجع

ثبت أهمّ المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (ت: ٨٤٠ هـ)، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن - الرياض - ، ط١ (١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م).

٣. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار التراث، القاهرة.

٤. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق سعيد المندوب، (لبنان : دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٥. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، (دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م) ،ط١.

٦. أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم. د/ عبد القدوس السامرائي، ط/ دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - الإمارات.

٧. أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

٨. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن حبان، ط/ مؤسسة الرسالة - بيروت، ط/ الأولى ١٤٠٨هـ.

٩. إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي - ط/ دار المعرفة - بيروت.

١٠. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ)، تحقيق أ/ طه سعد، ط دار الجيل - بيروت ١٩٧٣م.

١١. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ط١.

١٢. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ)، تحقيق أ/ محمد حامد الفقي، دار المعرفة بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

١٣. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، (بيروت: دار الفكر)، ط٢.

١٤. اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد حامد الفقي، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٦٩هـ)، ط٢.

١٥. إكمال المُعلِم بفوائد مسلم، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي، اعتنى به: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء (مصر)، ط١، (١٤١٩هـ).

١٦. الأخطاء اللغوية الشائعة في الأوساط الثقافية أ/ محمود عبد الرازق جمعة، ص٣٠٩، ط/ الهيئة المصرية العامة ٢٠٠٩م.

١٧. أخلاق حملة القرآن ، الآجري محمد بن الحسين (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق غانم قدُّوري الحَمَد، دار عمار للنَّشر والتّوزيع، عمَّان - الأردن، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٨. أمالي ابن بشران، لأبي القاسم عبد الملك بن بشران، تحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي، ط دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٩. الأمثال في القرآن : محمد بن أبي بكر، النَّاشر : مكتبة الصحابة، تحقيق: أبي حذيفة إبراهيم بن محمد الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٠. البداية والنّهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ط. دار هجر بمصر، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٢١. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبدالله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ).

٢٢. أحكام القرآن للجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٣. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (١٣٩٣هـ)، إشراف بكر بن عبد الله بو زيد، وقف مؤسسة سليمان الراجحي، دار عالم الفوائد.

٢٤. الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية، خرج أحاديثه، وعلق عليه /محمد الشيمي شحاتة، دار الإيمان للطبع والنشر، الإسكندرية.

٢٥. الإمام ابن تيمية وقضية التأويل د/ محمد السيد الجليند، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، السعودية.

٢٦. أيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، توزيع دار الفكر، بيروت،

٢٧. البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تعليق/مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

٢٨. أوراق مؤتمر فهم القرآن مناهج وآفاق الَّذي عُقد في جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن.

٢٩. الآداب الشرعية والمنح المرعية، للحنبلي، أبي عبد اللَّه محمد بن مفلح، (ت ٧٦٣هـ)، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط١، (د.ت).

٣٠. إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم المعروف بـ(تفسير أبي السُّعود)، لأبي السُّعود محمد بن محمد العمادي الحنفي (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣١. إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السُّعود محمد بن محمد العمادي الحنفي (ت ٩٨٢هـ)، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، مطبعة السعادة، مصر.

٣٢. أبرز أسس التَّعامل مع القرآن، أ.د. عيادة أيُّوب الكبيسي، دار البحوث للدِّراسات الإسلاميَّة وإحياء التُّراث (دبي).

٣٣. إتحاف القاري بوسائل التدبر لكلام الباري، لعبدالرحمن بن عبد العزيز الدهامي، طبعته مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ، وهو كتاب رائع، وفيه جهد كبير.

٣٤. الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، أ.د. عبد الله بن عبد الغني سرحان، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض)

٣٥. أسوار العفاف : قبس من سورة النُّور، د. عصام بن صالح العويد، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرِّياض)

٣٦. إضاءات حول تدبر القرآن، د. عبدالله بصفر، دار نور المكتبات (جدَّة).

٣٧. أفلا يتدبرون القرآن: معالم منهجيَّة في التَّدبُّر والتدبير، طه جابر فياض العلواني، دار السَّلام (القاهرة).

٣٨. أفلا يتدبرون القرآن، أ.د. ناصر بن سليمان العمر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٣٩. أفلا يتدبَّرون القرآن، حسن عز الدين الجمل، دار الفكر العربي (القاهرة).

٤٠. أفلا يتدبرون القرآن، د. أسماء بنت راشد الرويشد، مدار الوطن (الرِّياض).

٤١. أفلا يتدبرون القرآن، هشام السَّيِّد المغاوري وعبد الرَّؤف حسن خليل، مدينة الطيبات العالمية للعلوم والمعارف (جدَّة).

٤٢. انشراح الصدور في تدبر سورة النور، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، دار العاصمة، (الرياض).

٤٣. التبيان في آداب حملة القرآن ، أبو زكريا النووي ، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق ،ط١ ١٤٠٣هـ.

٤٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٤٥. أزمة الفهم في الصحوة الإسلاميّة (التشخيص والعلاج)، يوسف فرحات، مؤتمر الإسلام والتحديات المعاصرة، كلية أصول التدبر، الجامعة الإسلامية، غزّة، ٢ - ٢٠٠٧/٤/٣م.

٤٦. الاستدلال الخاطىء بالقرآن والسنة على قضايا الحريّة دراسة نقدية، تأليف: د. إبراهيم ابن محمد الحقيل، مجلة البيان، ط١، ١٤٣٤هـ.

٤٧. الإصابة في تمييز الصّحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، ط١، ١٤١٢هـ).

٤٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ /١٩٩٥م.

٤٩. الاعتصام، الشاطبي، للعلامة المحقق أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، (ت ٧٩٠هـ)، ط٢، تحقيق : أبي

عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الدار الأثرية، عمان، الأردن، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٥٠. بحوث المؤتمر الأوَّل لتدبر القرآن الكريم - الدَّوحة - قطر - شعبان (١٤٣٤هـ)، والمؤتمر الثَّاني لتدبر القرآن الكريم - الدار البيضاء، المغرب- محرَّم (١٤٣٧هـ).

٥١. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، وعادل عبد الحميد العدوي، وأشرف أحمد، (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ط١.

٥٢. بدائع المعاني:(آيات الصيام: تدبر وتحليل)، للدكتور عبد المحسن بن عبدالعزيز العسكر، صادر عن الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَشر والتَّوزيع (الرِّياض) ١٤٣٠هـ.

٥٣. بدائع التفسير الجامع لما فسّره الإمام ابن قيم الجوزيّة، ابن القيم، تحقيق يسري السّيد، صالح الشّامي، دار ابن الجوزي الرياض، ٢٠٠٨م.

٥٤. البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبدالله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط الحلبي بالقاهرة، ١٩٥٧م).

٥٥. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تحقيق أ/ محمد النّجّار، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة ١٩٩٦م.

٥٦. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرّزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزبيدي ، تحقيق عبد العليم الطحاوي ، دار الهداية ، ١٤٠٠هـ .

٥٧. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان.

٥٨. تاريخ دمشق، ابن عساكر، علي بن الحسين(ت ٥٧١هـ)، تحقيق محب الدين العمروني وآخرون، دار الفكر، ط١، ١٩٩٧م.

٥٩. تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون؛ ترجمة هاشم صالح؛ المركز الثّقافي العربي؛ الطبعة الثّانية؛ ١٩٩٦م.

٦٠. التأثّر بالقرآن والعمل به، أ.د. بدر بن ناصر البدر، ط: مدار الوطن بالرياض ١٤٢٨هـ.

٦١. التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، دار المعرفة، بيروت لبنان.

٦٢. التِّبيان في تدبُّر القرآن، أ.د. أحمد عيسى المعصراوي و أ.د. عبد الكريم إبراهيم صالح، دار السَّلام (القاهرة).

٦٣. التجديد في العلوم الإسلاميّة ودوره في حل مشكلات الواقع المعاصر، لابن صغير محفوظ.

٦٤. التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط مؤسسة التّاريخ العربي، بيروت ١٤٢٠هـ.

٦٥. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلاء محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلميّة، بيروت.

٦٦. تحريك الجنان لتدبر وتوقير أم القرآن، د. عصام بن صالح العويد، من إصدارات الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرياض).

٦٧. تحقيق الوصال بين القلب والقرآن، د. مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ للنَّشر والتَّوزيع والتَّرجمة (القاهرة).

٦٨. تحليل مناهج معاصرة للتدبر وتقويمها، د/ نايف الزهراني، بحث منشور ضمن بحوث الملتقى الثاني للتّدبُّر بالرياض ١٤٣١هـ.

٦٩. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشّاف للزمخشري، للزيلعي جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة الرياض ١٤١٤هـ، الطبعة الأولى.

٧٠. التّخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب الحنبلي، ط/مكتبة المؤيد السعودية، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.

٧١. تدارك بقية العمر في تدبر سورة العصر، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللّاحم، دار العاصمة (الرِّياض).

٧٢. تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، د. رقية طه العلواني، (رأس الخيمة).

٧٣. تدبر القرآن الكريم ودوره في النهوض الحضاري في المجتمعات الإسلاميَّة، فؤاد عبد الرحمن البنَّا، مؤسَّسة نفت (اليمن).

٧٤. تدبر القرآن الكريم وقفات ولفتات، د.عبد الله الرحيلي.

٧٥. تدبر القرآن من علامات الإيمان، وليد بن محمد سلامة، دار ابن حزم (القاهرة).

٧٦. تدبر القرآن وأثره في تزكية النُّفوس، د. محمد بن عمر بن سالم بازمول ، دار الاستقامة (القاهرة).

٧٧. تدبر القرآن، الشيخ د. صالح بن فوزان الفوزان، دار القاسم للنشر، (الرياض).

٧٨. تدبر القرآن، سعيد عبد العظيم، دار الخلفاء الراشدين الإسكندرية.

٧٩. تدبر القرآن، لسليمان بن عمر السنيدي، الطبعة الثانية ضمن سلسلة المنتدى الإسلامي ٢٠٠٢م، وله ملخص له في كتيب صغير، وكلاهما صدرا عن مجلة البيان.

٨٠. تدبر القرآن: تحرير وتأصيل، بحوث الملتقى الأول لتدبر القرآن، طبعته الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

٨١. تدبر القرآن الكريم: مفهومه، أساليبه، أسبابه، آثاره، د. فهد الوهبي، بحث منشور في مجلة الدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.

٨٢. تدبر القرآن الكريم : دوافعه وموانعه، رسالة ماجستير للشيخ عبداللطيف التويجري في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١٤٣٦ ،١هـ.

٨٣. تدبُّر القرآن الكريم عند الإمام ابن القيِّم ، رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرِّياض).

٨٤. تدبُّر االقرآن الكريم وأثره في تزكية المسلم، إبتسام حسين عبد الحفيظ المحبشي، رسالة ماجستير في جامعة الإيمان (اليمن).

٨٥. تدبر قرآن، أمين أحسن إصلاحي، وهو تفسير بلغة الأوردو، في ثلاثة مجلدات.

٠٨٦ التَّدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم : قراءة في المنهجين التجميعي والكشفي، علي آل موسى، دار كميل (بيروت).

٠٨٧ التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير: دراسة بلاغية تحليلية على آيات من الذكر الحكيم، للدكتور عبدالله عبدالغني سرحان، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم مركز تدبر، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض) ١٤٣١هـ.

٠٨٨ تدبر سورة الفرقان، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.

٠٨٩ تدبر سورة الكهف، أ.د. ناصر العمر، مؤسَّسة ديوان المسلم (الرياض).

٠٩٠ تدبر سورة الكهف، د. رقية طه العلواني.

٠٩١ تدبر سورة النُّور، أ.د. ناصر العمر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

٠٩٢ تدبر سورة يوسف، أ.د. ناصر العمر، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

٩٣. تدبر في أمثال القرآن، مصطفى عبد الله حسين أحمد، (القاهرة).

٩٤. التدبر في سور القرآن الكريم : سورة الفاتحة وسورة البقرة، سامية طنطاوي، دار الكّاب الحديث (القاهرة).

٩٥. التَّدبر : مفهومه وأركانه وأنواعه، د. خالد بن عثمان السَّبت، مجلة البحوث الإسلامية، عدد ٩٩ (ربيع أول – جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ).

٩٦. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، للشيخ محمد المغراوي، وقد صدر حديثًا في أربعين مجلدًا.

٩٧. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٩٦٦م.

٩٨. تعديل السلوك، لجمال الخطيب، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٩٨٧م.

٩٩. التَّعبير القرآني، د. فاضل السَّامرائي، دار عمَّار (عمَّان).

١٠٠. التعبير القرآني والدلالة النفسية، د. عبدالله الجيوسي، دار الغوثاني، دمشق ، ط٢ ،٢٠٠٧.

١٠١. التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق أ/ إبراهيم الأبياري، ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ.

١٠٢. تعلم القرآن الكريم وتعليمه وتدبره، تأليف: أحمد حسين عبد الكريم، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، وهو من سلسلة بعنوان: (كيف يحُيي القرآن الكريم المسلمين).

١٠٣. تعليم تدبر القرآن الكريم، للدكتور هاشم الأهدل، صدر عن مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي بجدة.

١٠٤. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير للإمام عبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي، جمع وترتيب د/ توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٥. تفسير أبي السعود المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٠٦. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٠٧. التفسير البياني للقرآن د/ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط السابعة.

١٠٨. تفسير التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ـ دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.

١٠٩. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، وبهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، دار الفكر.

١١٠. تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١١. تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، تقديم زهير شفيق، الطبعة الأولى١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١٢. تفسير الشيخ الشعراوي، مطابع دار أخبار اليوم، القاهرة.

١١٣. تفسير الطبري المسمى «جامع البيان في تأويل آي القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - دار الغد العربي، القاهرة.

١١٤. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري - ضبطه وخرج أحاديثه الشيخ زكريا عميرات - الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، دار الكتب العلمية - بيروت.

١١٥. تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١٦. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، مكتبة الدعوة الإسلامية، ١٩٨٠م.

١١٧. تفسير القرآن الكريم المسمى بالسراج المنير للخطيب الشربيني، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت .

١١٨. التفسير القيم لابن القيم جمعه / محمد أويس الندوي، حققه / محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٩. تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

١٢٠. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الإمام الأكبر د/ محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٧.

١٢١. تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، عالم الكتب، بيروت.

١٢٢. تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق نخبة من العلماء، دار الكاتب العربي ١٩٦٧م.

١٢٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ) - تقديم / الشيخ عبد الله بن عبد العزيز، والشيخ محمد الصالح العثيمين - مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

١٢٤. تفسير سورة الحمد مع تطبيق عملي لقواعد تدبر القرآن الكريم، منى محمد الشافعي، دار اليسر (القاهرة).

١٢٥. تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي الغرناطي، وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٢٦. تفسير السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، تفسير الخطيب الشربيني المصري (ت٩٧٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م).

١٢٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) للشيخ/محمد رشيد رضا، ط الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٩٠م.

١٢٨. تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، دار طيبة ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ.

١٢٩. تفسير القرآن العظيم، تحقيق أ/ سامي سلامة، ط دار طيبة ١٤٢٠هـ.

١٣٠. تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الرياض، ط٣، (١٤١٩هـ).

١٣١. تفسير القرآن الكريم، لابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر، ط دار الهلال بيروت ١٤١٠هـ.

١٣٢. تفسير الماوردي(النكت والعيون)، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت.

١٣٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.

١٣٤. التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٠م.

١٣٥. التفكير فريضة إسلاميّة، العقّاد، عباس محمود، نهضة مصر للطباعة، القاهرة.

١٣٦. تقريب التهذيب، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق بشار معروف، دار الرسالة .

١٣٧. تلبيس إبليس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق : د. السيد جميلي، الطبعة الأولى ١٤١٤م، الرياض: دار الهدى.

١٣٨. تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق أ/ محمد عوض، ط إحياء التراث بيروت ٢٠٠١م.

١٣٩. تهذيب مدارج السالكين/ عبد المنعم صالح العلي العربي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

١٤٠. التوقيف على مهمات التعاريف، للشيخ محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان، ط دار الفكر بيروت ١٤١٠هـ.

١٤١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي، تحقيق: فواز بن سعد الصميل، دار ابن الجوزي، ط٥، ١٤٤٠هـ.

١٤٢. ثلاثون مجلسا في التدبر، مجالس علمية وإيمانية، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، لعدة مشايخ، ثلاثة أجزاء، من

إصدارات الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

١٤٣. جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

١٤٤. جامع الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الثّانية، ١٩٧٥م.

١٤٥. الجامع الصحيح المختصر، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري، تحقيق : مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٤٦. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لأبي الفرج عبد الرحمن البغدادي، المعروف بابن رجب الحنبلي، تحقيق ماهر ياسين الفحل، نشر وطباعة دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٤٢هـ.

١٤٧. جامع بيان العلم وفضله - أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري(٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

١٤٨. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

١٤٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٠م.

١٥٠. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، لأحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبي بكر، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٥١. الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، تحقيق / محمد الفاضلي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، المكتبة العصرية، بيروت ٢٢٠٠.

١٥٢. الجواهر الحسان في تفسير القرآن المعروف ب(تفسير الثعالبي)، لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

١٥٣. جماليات النَّظم في قصة المراودة في يوسف، د. عويض بن حمود العطوي، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

١٥٤. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ضبطه الشيخ عبد الرازق المهدي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٥. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ضبطه / محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٦. حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي - ضبطه محمد عبد القادر شاهين، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٧. حتى نتدبر منهاج الله، د. عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي، (الرياض).

١٥٨. الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، طبعته دار العاصمة(الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

١٥٩. الحدائق الحسان في تدبر آي القرآن، عبد المحسن بن إبراهيم العمران، مطابع الفسطاط الحديثة (الرياض).

١٦٠. حصاد سبع سنوات من التَّدبُّر : مجلد يجمع التَّدبُّرات في الأجزاء السَّبع لكتاب " ليدبَّروا آياته " مرتَّبة ومفهرسة، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرياض).

١٦١. الحياة من جديد (دعوة لتدبر القرآن)، للدكتورة أسماء الرويشد.

١٦٢. الخارطة الذهنية للقرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجا، الطريقة الأسهل للتدبر والحفظ معا، د. إبراهيم بن عبدالله الدويش، مركز بناء للاستشارات التربوية والتعليمية.

١٦٣. الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان، خالد بن عبد الكريم اللاحم، مكتبة سفير، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

١٦٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة - مصر، ١٩٧٤م.

١٦٥. حياة الصحابة للدهلوي، شركة الرياض، ط١، ١٩٩٨م.

١٦٦. خصائص القرآن الكريم ، فهد بن عبد الرحمن الرومي ، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط١٠، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

١٦٧. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني تحقيق أ/ محمد علي النجار، ط عالم الكتب بيروت.

١٦٨. الخطاب القرآني المعاصر : دعوة لتدبر القرآن العظيم، جمال نصَّار حسين، دار الإسراء (عمَّان).

١٦٩. دراسات جديدة في إعجاز القرآن د/ عبد العظيم المطعني، الطبعة الأولى١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٧٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي تحقيق د/ أحمد محمد الخراط ـ دار القلم ـ دمشق، ط الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٧١. دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه / الشيخ محمود محمد شاكر، ١٩٨٤م، مكتبة الخانجي، القاهرة .

١٧٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، تحقيق مركز هجر للبحوث، دار هجر، مصر، ١٤٢٤هـ.

١٧٣. الدرر السنية في الأجوبة النجدية الرقمية، تأليف علماء نجد الأعلام، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، موقع مكتبة المدينة الرقمية، ط٦، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٧٤. دعوة إلى تدبر القرآن الكريم: كيف؟ ولماذا؟ لمختار شاكر كمال، مؤسسة الرسالة، الشركة المتحدة، بيروت.

١٧٥. دعوة القرآن إلى التَّدبُّر من خلال الفاصلة القرآنيَّة، د. محمود شعبان إبراهيم مصطفى، رسالة دكتوراة في جامعة الأزهر(مصر).

١٧٦. دلالات التراكيب، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

١٧٧. دلائل النّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، وثّق أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه د/ عبد المعطي فلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت، دار الريّان للتُّراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٧٨. دليل فهم القرآن المجيد، أحمد بن مسفر العتيبي، مكتبة الرُّشد (الرِّياض).

١٧٩. دور القرآن الكريم في تنمية التفكير المنظومي لدى الإنسان، حوامدة، مصطفى محمود، من أوراق المؤتمر العربي الثالث حول الاتجاه المنظومي في التدريس والتعليم، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢م.

١٨٠. الدولة والمجتمع، الدكتور محمد شحرور؛ دار الأهالي للطباعة والنشر في دمشق؛ دون تحديد الطبعة والتاريخ.

١٨١.   ذيل طبقات الحنابلة لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلّي، تحقيق د/ عبد الرحمن العثيمين، ط مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٥هـ.

١٨٢.   ربح أيام العمر في تدبر سورة العصر، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، مقالة في مجلة جامعة الإمام، العدد: ٣٩،رجب ١٤٢٣هـ، ص: ١٦٩-١٩٨.

١٨٣.   الرّسالة، للإمام الشافعيّ، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلميّة، بيروت.

١٨٤.   رسم المصحف دراسة لغويّة تاريخيّة، غانم قدوري الحمد، الجمهوريّة العراقيّة اللجنة الوطنيّة للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

١٨٥.   الرّقّة والبكاء، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا(٢٨١هـ)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم بيروت، سنة ١٤١٦هـ.

١٨٦.   رهبان الليل، د/ سيد حسين العفّاني، ط/ مكتبة العفاني، القاهرة.

١٨٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ـ تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد، الطبعة الأولى، دار الغد العربي، القاهرة.

١٨٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، ط/ دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

رياض الصّالحين، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التّركي، دون طباعة وتاريخ.

١٨٩. زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، خرج آياته أحمد شمس الدين، ط١، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٠. زاد المسير في علم التّفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق محمد زهير الشاويش.

١٩١. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت مكتبة لمنار الإسلاميّة، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

١٩٢. زاد المهاجر إلى ربه (الرسالة التبوكية)، ابن القيم الجوزية، مكتبة المدني، جدة.

١٩٣. الزهد، لابن المبارك، تحقيق أحمد فريد، دار المعارج، ١٩٩٥م.

١٩٤. الزهد، لأبي داوود، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد، وأبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم، وقدّم له وراجعه: فضيلة الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف، ط: دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٩٥. سبل السّلام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٤، ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م.

١٩٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لمحمد بن ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٩٧. سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت.

١٩٨. سنن البيهقي الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرّمة، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

١٩٩. سنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ابن عبد الصّمد(ت ٢٥٥هـ)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٠هـ.

٢٠٠. سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسُّنّة، د/ حسين شرفة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٢٠١. سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النّسائي(ت٣٠٣هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدّة، مكتبة المطبوعات الإسلاميّة، حلب، الطبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ.

٢٠٢. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق : مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

٢٠٣. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.

٢٠٤. صفوة التفاسير/محمد علي الصابوني، طبع على نفقة/ السيد حسن عباس الشربتلي.

٢٠٥. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية، تحقيق د/ علي بن محمد الدخيل الله، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٠٦. الشّخصيّة الإسلاميّة، لتقي الدين النبهاني، ط٣، ١٩٩١م.

٢٠٧. شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، عبد الحيّ بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، دون طباعة وتاريخ.

٢٠٨. شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ويليه ملحق الواسطية، للدكتور/ محمد خليل هرّاس، تعليق العلّامة محمد بن صالح العثيمين، تحقيق

علوي بن عبد القادر السّقّاف، طبعة الدرر السنية، الظهران، ط٩، ١٤٣٨هـ.

٢٠٩. شرح رياض الصّالحين، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض (١٤٢٦هـ).

٢١٠. شرح شافية ابن الحاجب، للشيخ محمد بن الحسن الاستراباذي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١١. شرح صحيح البخاري، لأبي الحسن علي بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

٢١٢. شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١٤، ١٤١٠م.

٢١٣. الشّفا بتعريق حقوق المصطفى، لأبي الفضل القاضي عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ).

٢١٤. الشّمائل المحمّديّة، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة التّرمذي، تحقيق عصام موسى هادي، دار الصديق الجبيل السعوديّة، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٢١٥. شيفرة القرآن الكريم : ثورة في عالم التَّدبُّر والتَّفسير القرآني، ماجد حسن الحنبلي، عمَّان.

٢١٦. الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٤٠٧هـ.

٢١٧. صحيح البخاري ، لأبي إسماعيل محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، مكتبة العبيكان ، الرياض، ط ١٤١٧هـ.

٢١٨. صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ.

٢١٩. صفة الصّفوة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٢٢٠. صلاح الأمّة في علو الهمّة، د/ سيد حسين العفّاني، ط/ مكتبة العفّاني، القاهرة.

٢٢١. صيد الخاطر، لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق هبد القادر أحمد عطا، النّاشر، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢٢٢. الصوارف عن فهم وتدبُّر القرآن الكريم، د. محمد بن يوسف الجوراني أبو العالية.

٢٢٣. ضوابط أصولية في تدبر القرآن، يوسف أحمد البدوي، مجلة الجمعية الفقهية السعودية.

٢٢٤. الضوء المنير على التفسير ، لابن قيم الجوزية، تحقيق علي الصالحي، نبذة عن الكتاب، جمعه علي الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة النور، عنيزة.

٢٢٥. الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري(٢٣٠هـ)، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٢٢٦. طريقك إلى الاستمتاع بالقرآن : دراسة موضوعيَّة لألفاظ التِّلاوة والتَّدبُّر والتَّرتيل في الكتاب العزيز، عبد الرَّحمن بن محمد البردعي، دار طيبة الخضراء (مكة).

٢٢٧. الطريق إلى القرآن، للشيخ إبراهيم السّكران، طبعة مركز الفكر المعاصر بالرياض، ١٤٣٣هـ،.

٢٢٨. عدم تدبّر القرآن، د. ناصر بن سليمان العمر، موقع بصائر.

٢٢٩. عظمة القرآن الكريم، محمود الدوسري، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٦هـ.

٢٣٠. علل النّحو، لأبي الحسن محمد بن عبد الله الشهير بابن الورّاق، تحقيق أ/ محمود الدرويش، طبعة مكتبة الرشد بالرياض ١٩٩٩م.

٢٣١. علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره : منهج في تدبر القرآن، أحمد خالد يوسف شكري وعمران سميح نزال، دار الفرقان وجمعيَّة المحافظة على القرآن الكريم (عمَّان).

٢٣٢. علم التفكير معمار، صلاح صالح، دار ديبونو للطّباعة والنّشر، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٣٣. علوم القرآن في مقدمات التفاسير، محمد صفاء شيخ إبراهيم حقي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٢٣٤. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي - حققه د/ محمد٢٢١ التونجي - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م - عالم الكتب - بيروت.

٢٣٥. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين محمد بن أحمد العيني (ت٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٢٣٦. العودة إلى القرآن : لماذا وكيف، د. مجدي الهلالي، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة (القاهرة).

٢٣٧. عون المعبود شرح سنن أبي داوود، لشمس الحق العظيم آبادي، ط/دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٢٣٨. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي وآخر، طبعة دار الهلال بالقاهرة.

٢٣٩. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .- سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، ط ٤ ، ١٤٠٦هـ.

٢٤٠. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد النّيسابوري (ت بعد ٨٥٠هـ)، تحقيق زكريا عميران، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٤١. غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت، ١٩٥٨م.

٢٤٢. فتح البيان في مقاصد القرآن، للعلامة المحقق صديق حسن خان - دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٤٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني - حققه وخرج أحاديثه سيد إبراهيم، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م - دار الحديث، القاهرة.

٢٤٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني - دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٤٥. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، للعلامة الجمل - طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٤٦. الفروق في اللغة للعسكري، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.

٢٤٧. في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب الطبعة السادسة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار

٢٤٨. الشروق، القاهرة.

٢٤٩. الفتاوى الكبرى، لتقيّ الدّين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق أ/ محمد عطا وآخر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٥٠. فتاوى معاصرة (ج١)، د. يوسف القرضاوي، دار القلم الكويت، ط٣، ١٤٠٨م ١٩٨٧م.

٢٥١. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشّهير بابن رجب، دار ابن الجوزي السعوديّة، الدّمّام ١٤٢٢هـ.

٢٥٢. فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التّفسير، للإمام محمد بن علي بن محمد الشّوكاني (ت١٢٥٠هـ)،

طبعة دار الفكر ودار الطيّب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٢٥٣. فتح من الرحمن الرحيم في بيان كيفية تدبر كلام المنان ، د. أحمد منصور آل سبالك ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، القاهرة.

٢٥٤. الفرق بين التّأمل والتّدبر والتّفكُّر، أ/ خالد الديهان بتصرف، بحث منشور على شبكة المعلومات الدوليّة.

٢٥٥. الفرق والمذاهب المسيحيّة منذ البدايات حتّى ظهور الإسلام، تأليف د. نهاد خيّاط، دار الأوائل، بدون تاريخ.

٢٥٦. فضائل القرآن ، لأبي بكر جعفر الفريابي ، تحقيق د. يوسف عثمان ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٢٥٧. فضائل القرآن، لأبي عبد الله محمد بن الضربس البجلي، ت غزوة بدير، دار الفكر، سوريا، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٢٥٨. فضائل القرآن ، أبو عبيد القاسم الهروي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط٢ ، ١٤١٠هـ.

٢٥٩. فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري، ط/ دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

٢٦٠. فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلّام، تحقيق مروان العطية وآخرين، ط دار ابن كثير، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٦١. الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري.

٢٦٢. فقه قراءة القرآن، سعيد يوسف، مكتبة السُّنَّة (القاهرة).

٢٦٣. الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ، السعوديّة.

٢٦٤. فن التدبر ، للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويد، من إصدارات مركز تدبر الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرياض).

٢٦٥. فهم القرآن بين القواعد الضابطة والمزالق المهلكة، أ.د./ رمضان خميس زكي، بحث منشور على موقع الإسلام اليوم، بشبكة المعلومات الدوليّة.

٢٦٦. فهم القرآن ومعانيه، لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، تحقيق حسين القوتلي، ط دار الكندي، بيروت ١٣٩٨هـ.

٢٦٧. الفوائد، لابن القيم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٢٦٨. في رحاب القرآن، محمد مصطفى أمين أبو هاشم، دار النُّور المبين (عمَّان).

٢٦٩. في رحاب تدبر القرآن الكريم، مختار شاكر كمال، دار الفاروق، الأردن (عمَّان)، ٢٠٠٩م.

٢٧٠. وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق أ/ إحسان عبّاس، ط دار صادر، بيروت ١٩٠٠م.

٢٧١. فيض القدير شرح الجامع الصّغير، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ) المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر (ط ١/١٤٥٦هـ).

٢٧٢. قالوا عن الإسلام، د.عماد الدين خليل، مكتبة صيد الفوائد، قسم ردود وتعقيبات.

٢٧٣. القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التُّراث في مؤسسة الرّسالة محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثّامنة، ١٤٢٦هـ.

٢٧٤. قانون التأويل، القاضي أبي بكر بن العربي، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٢٧٥. قبسات من الكتاب والسنة: تدبر وظلال (٣ أجزاء)، د. عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي، الرياض.

٢٧٦. قبسات من تدبر القرآن الكريم، مختار شاكر كمال، دار الفاروق، الأردن (عمَّان).

٢٧٧. القراءة والتِّلاوة والتَّدبُّر والتَّرتيل (من سلسلة المفهومات القرآنية)، د. عبد الرَّحمن حللي، دار الملتقى (سوريا).

٢٧٨. القرآن محاولة لفهم عصري، د. مصطفى محمود، ط٨، دار المعارف القاهرة.

٢٧٩. القرآن من التّفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الطّليعة، الطبعة الثّانية، ٢٠٠٥م.

٢٨٠. القرآن والمرأة إعادة قراءة النّص القرآني من منظور نسائي، آمنة ودود، ترجمة سامية عدنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٨١. القرآن الكريم والأصول في تدبُّره : تمعنات في تعاليمه وخصائصه، د. محمد حسين صفوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنَّشر (بيروت).

٢٨٢. القرآن: تدبر وعمل، إعداد مركز المنهاج للاشراف والتدريب التَّربوي، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٢٨٣. القرآن: تفسير وتدبر وعمل، مختصر المنهاج لتفسير ابن كثير، إعداد مركز المنهاج للاشراف والتدريب التَّربوي (الرياض).

٢٨٤. قواعد التدبر الأمثل للقرآن الكريم، للشيخ عبدالرحمن حبَنكة الميداني، مجلد من مطبوعات دار القلم في دمشق،

١٤٠٩هـ، ذكر فيه سبعا وعشرين قاعدة لتدبر القرآن، مرسلة من غير ترتيب، وأغلبها قواعد في التفسير، وليس في التدبر.

٢٨٥. قواعد قرآنيَّة : خمسون قاعدة في النَّفس والحياة، د. عمر بن عبد الله المقبل، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٢٨٦. القواعد والأصول وتطبيقات التَّدبُّر، د. خالد بن عثمان السَّبت، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

٢٨٧. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٨٨. الكنز الثمين من تدبر العلَّامة محمد بن صالح العثيمين، ناصر القطامي، مجموعة آيات للإعلام القرآني (الرِّياض).

٢٨٩. كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٢١هـ.

٢٩٠. كيف نتعامل مع القرآن ، د. يوسف القرضاوي، طبعة دار الشروق، القاهرة - مصر، ٢٠١١م.

٢٩١. كيف نتعامل مع القرآن، للشيخ محمد الغزالي، من مقدمة أ/ عمر عبيد حسنة لهذا الكتاب، ط دار نهضة مصر.

٢٩٢. كيف ننتفع بالقرآن الكريم: (خطوة نحو تدبر أمثل)، د. أحمد البراء الأميري، مؤسسة الريان، بيروت

٢٩٣. كيف ننتفع بالقرآن، د/مجدي الهلالي، بحث منشور بمنتديات مكتوب بشبكة المعلومات الدولية.

٢٩٤. كيف نتدبر القرآن، فواز زمرلي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٢٩٥. لباب التأويل في معاني التنزيل، تفسير الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي، المحقق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٩٦. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.

٢٩٧. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، تحقيق أ/ عبد الله الكبير، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

٢٩٨. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، دار ابن حزم للطباعة والنّشر، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٢٩٩. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السَامرائي، دار عمَّار (عمَّان).

٣٠٠. ليدبروا آياته (حلقات برنامج ليدبروا آياته)، أ.د. ناصر العمر،من إصدارات الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتوزيع (الرياض).

٣٠١. ليدبروا آياته (حصاد عام من التدبر)، سلسلة تصدر من الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، تسعة مجموعات هي حصاد رسائل جوَّال تدبر التَّابع للمركز، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٣٠٢. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للشيخ أبي الحسن النّدوي، طبعة مكتبة الإيمان بالقاهرة.

٣٠٣. مباحث في علوم القرآن، لمنّاع القطّان، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٠٤. مبادىء أساسية لفهم القرآن، أبو الأعلى المودودي، الدَّار السعوديَّة للنَّشر والتَّوزيع (جدة).

٣٠٥. مبادىء تدبُّر القرآن الكريم، د. عبد المحسن بن زين المطيري، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنشر والتَّوزيع (الرياض).

٣٠٦. مبادىء تدبر القرآن، لأبي الحسن الندوي، طبعة دار الصّحوة بالقاهرة ١٤٠٦هـ.

٣٠٧. مبحث جليل على آية من التنزيل، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مطبعة المدني ، وتوجد منه نسخة في مكتبة الحرم النبوي الشريف وهو تفسير لهذه الآية رد فيه على المؤولة في العقيدة، والمتعصبة في الفقه.

٣٠٨. متعة التَّدبُّر، د. إياد قنيبي وفريق العمل، دار بداية للنَّشر والتَّوزيع.

٣٠٩. متن الجزرية في معرفة تجويد الآيات القرآنية، للعلامة الشيخ محمد بن الجزري الشافعي، بشرح الشيخ زكريّا الأنصاري، النّاشر/ المكتبة السعيدية، مصر.

٣١٠. مجاز القرآن، لأبي عبيد(٢١٠هـ)، تحقيق محمد فؤاد سزكين، ط١، نشر الخانجي بمصر ١٩٦٢م.

٣١١. مجالس القرآن : مدخل إلى منهج تدارس القرآن العظيم وتدبره من التلقي إلى التَّزكية، فريد الأنصاري، ألوان مغربيَّة للنَّشر والتَّوزيع (مكناس)، ومطبعة النَّجاح الجديدة (الدَّار البيضاء).

٣١٢. مجالس قرآنيَّة : وقفات بيانيَّة ودلالات تربويَّة، د. عويض بن حمود العطوي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٣١٣. المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري(٣٣٣هـ)، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعيّة التّربية الإسلاميّة (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٣١٤. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرّاني، تحقيق أنور الباز - عامر الجزّار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٣١٥. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، لزين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، أ/ طلعت الحلواني، ط الفاروق الحديثيّة ١٤٢٤هـ.

٣١٦. المجموع شرح المهذّب، لمحيي الدين يحيى بن شرف النّووي الدمشقي ٦٧٦هـ، النّاشر دار عالم الكتاب، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

٣١٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطيّة الأندلسي، تحقيق عبد السّلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٣١٨. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ط. دار العلميّة ٢٠٠٠م.

٣١٩. مختار الصّحاح، لمحمد بن أبي بكر الرّازي، تحقيق أ/ محمود خاطر، ط. مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ.

٣٢٠. مختصر قيام اللّيل وقيام رمضان وكتاب الوتر، لأبي عبد الله محمد بن نصر المَروزي، اختصار العلّامة أحمد بن عليّ المقريزي، ط. فيصل آباد، باكستان ١٤٠٨هـ.

٣٢١. مختصر منهاج القاصدين، قدامة المقدسي(ت ٦٨٩هـ)، تحقيق عبد الحميد محمد الدرويش، ط١، (١٤١٩هـ ١٩٩٩م).

٣٢٢. المختارات من المناسبات بين السور والآيات، إبتسام بنت عمر العمودي، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٣٢٣. المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٢٤. مداخل أساسية لتدبُّر القرآن، محمد محمد خليفة، قوت الأبرار للنَّشر والتَّوزيع (الاسكندرية).

٣٢٥. مدارج الحفظ والتَّدبُّر : أيسر الوسائل لحفظ القرآن الكريم وتدبُّره، أ.د. ناصر العمر، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٣٢٦. مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، للإمام ابن القيم بتصرف، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٣هـ.

٣٢٧. المدخل إلى الدراسات القرآنية: مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به، لأبي الحسن الندوي، دار الصحوة، القاهرة.

٣٢٨. المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، د. عصام العُوَيِّد، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرياض).

٣٢٩. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٣٣٠. مسند أحمد، لأحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، طبعة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ.

٣٣١. مشكاة الأنوار، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حققها وقدم لها الدكتور أبو العلا عفيفي، الناشر الدار القوميّة للطباعة والنّشر، القاهرة.

٣٣٢. مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، التبريزي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

٣٣٣. مشروع الحياة من جديد (دعوة لتدبر القرآن)، د. أسماء الرويشد، مدار الوطن (الرياض).

٣٣٤. مصباح الزّجاجة في زوائد ابن ماجة، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري الشّافعي (٨٤٠هـ)، تحقيق محمد المنتقى الكنشاوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثّانية ١٤٠٣هـ.

٣٣٥. المصنّف، لأبي بكر عبد الرّزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثّانية، ١٤٠٣هـ.

٣٣٦. مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة، ط. الدار السّلفيّة.

٣٣٧. معارج التفكر ودقائق التدبر (تفسير تدبُّري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النُّزول وَفق منهج كتاب " قواعد التَّدبُّر الأمثل لكتاب الله ")، لعبد الرحمن الحبنكة الميداني، من إصدارات دار القلم بدمشق.

٣٣٨. معالم أصول الدّين، للرّازي، محمد بن عمر(ت ٦٠٦هـ)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣٣٩. معالم التّنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرّج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثملن جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٤٠. معالم السنن، لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطّابي، ط. المطبعة العلميّة، حلب ١٣٥١هـ.

٣٤١. معالم في الطّريق، لسيد قطب، دار الشروق ١٩٨٣هـ، بيروت.

٣٤٢. معالم لفهم القرآن الكريم، د. عمر يوسف حمزة، مركز الكتاب (القاهرة).

٣٤٣. مع أشراف الأمة حملة القرآن، محمد حسين الرنتاوي، ط٢، ١٤٢٧هـ.

٣٤٤. مع القرآن وحملته في حياة السلف، عبيد بن أبي نفيع الشعبي، دار الوطن، الرياض ط٢، ١٤١٧هـ.

٣٤٥. معاني القرآن، لأبي زكريّا الفرّاء (٢٠٧هـ)، تحقيق محمد علي النّجار، الدار المصريّة للتأليف والنّشر، مطابع سجل العرب (د.ت).

٣٤٦. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، أ.د. محمد حسن جبل، ط. مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠١٠م.

٣٤٧. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطّبراني، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م.

٣٤٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٤٥م.

٣٤٩. المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم بالرّسم العثماني، عبد الله إبراهيم جلغوم، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، المملكة العربية السعوديّة، ط١، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م.

٣٥٠. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، تحقيق أ/ إبراهيم مصطفى وآخرين، ط. دار الدّعوة بالقاهرة.

٣٥١. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق أ/ عبد السلام هارون، ط. دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٥٢. معرفة القرّاء الكبار، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي (٧٤٨هـ)، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٥٣. المعرفة والتّاريخ، لأبي يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ)، تحقيق د. أكرم العُمري، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٣٥٤. المعين على تدبُّر الكتاب المبين، سعد أحمد حنتوش، مركز المعين.

٣٥٥. المعين على تدبر الكتاب المبين، لمجد مكي، وهو تفسير تدبري مختصر في مجلد، دار نور المكتبات (جدة).

٣٥٦. مفاتح تدبر القرآن، د/ خالد بن عبد الكريم اللاحم، الطبعة الثّانية، سفير بالرياض ١٤٢٨هـ.

٣٥٧. مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة : عشرة مفاتيح لتحقيق التَّدبُّر الأمثل، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، دار المنهاج، الرياض.

٣٥٨. مفاتيح فهم وتدبُّر القرآن الكريم وتحقيق النَّجاح في الحياة، سعيد عبد العظيم، دار الإيمان (الإسكندريَّة).

٣٥٩. مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم، د. صلاح عبد الفتَّاح الخالدي، دار القلم (دمشق).

٣٦٠. مفاتيح الغيب، لفخر الدين محمد بن عمر الرّازي، ط. إحياء التّراث العربي، بيروت.

٣٦١. مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦٢. المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالرّاغب الأصفهاني، تحقيق أ/ صفوان عدنان، ط.دار العلم، دمشق ١٤١٢هـ.

٣٦٣. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق محيي الدين ديب مستو وغيره، دار ابن كثير، دمشق.

٣٦٤. مفهوم التدبر: تحرير وتأصيل (أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم)، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم الذي نظمه مركز تدبر في الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

٣٦٥. مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٧هـ.

٣٦٦. مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن، د. محمد بن زيلعي هندي، صدر عن معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، بحث محكم.

٣٦٧. مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرّازي (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٣٦٨. مقرّر تدبر القرآن الكريم للدّراسات العليا، إشراف أ.د. محمد بن عبد العزيز العوجي رئيس فريق إعداد المنهج المقرَّر، دار طيبة الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، المملكة العربية السَّعودية، (مكة المكرّمة).

٣٦٩. مناهج معاصرة للتدبر، نايف الزهراني.

٣٧٠. مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط. عيسى الحلبي بالقاهرة.

٣٧١. منهاج السُّنّة النّبويّة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، ط. مؤسسة قرطبة، ط١.

٣٧٢. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيي بن شرف النّووي، ط. إحياء التُّراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٣٧٣. منهج السَّلف في تلقّي القرآن وتدبُّره، د/ محمد بن عبد الله الربيعة، مقال منشور على شبكة الإنترنت، موقع ملتقى أهل التّفسير.

٣٧٤. المنهج النّبوي في التعليم القرآني، د/ عبد السّلام المجيدي، ط/ جمعيّة المحافظة على القرآن، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٧٥. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشّاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط١ دار ابن عفّان ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٧٦. المواقف، للإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٣٧٧. من أجل تدبر القرآن، سلمان السنيدي، مجلة البيان، وهو اختصار كتابه (تدبر القرآن،) كتبه لطلاب تحفيظ القرآن.

٣٧٨. منزلة التَّدبُّر، جمال القرش، مكتبة طالب العلم.

٣٧٩. منهج الاستنباط من القرآن، د. فهد بن مبارك الوهبي، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي، جدة، ط١، ١٤٢٨هـ.

٣٨٠. منهج السلف في العناية بالقرآن، د. بدر لن ناصر البدر، دار الضياء الخيرية، ط١، ١٤٢٨هـ.

٣٨١. منهج تدبر القرآن الكريم، أ.د. حكمت بن بشير ياسين، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، وهو كتاب ذكر فيه وسائل التدبر فقط.

٣٨٢. منهج الإمام محمد بن عبدالوهاب في تدبر القرآن، لمحمد آل عابد، دار الطرفين.

٣٨٣. منهجيَّة التَّدبُّر في القرآن الكريم وتطبيقاتها في مجال التَّربية العقليَّة لطالبات المرحلة الثَّانويَّة، إيمان زكي أسرة، رسالة ماجستير في كلِّيَّة التَّربية لجامعة أمِّ القُرى (مكَّة).

٣٨٤. مواجهة الصَّدمات النَّفسيَّة في سورة مريم، فوزية الخليفي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرياض).

٣٨٥. المواهب الرَّبَّانيَّة من الآيات القرآنيَّة، الشَّيخ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

٣٨٦. موسوعة نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم، عبد الرّحمن بن محمد بن عبد الرّحمن بن ملوّح، دار الوسيلة للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٨م.

٣٨٧. موطأ مالك بن أنس، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلّق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الثّقافيّة، بيروت ١٤٠٨هـ.

٣٨٨. ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، شمس الدّين محمد بن أحمد الذّهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

٣٨٩. نحن والقرآن : مقدمات في أصول التَّدبُّر : دراسة منهجيَّة نقديَّة في علم التَّفسير، مصطفى بو هندي، مطبعة النَّجاح الجديدة (الدَّار البيضاء).

٣٩٠. نحو عودة صادقة، د. ناصر بن سليمان العمر، ط. دار الحضارة للنّشر والتّوزيع بالرّياض ١٤٣١هـ.

٣٩١. نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النّبلاء، لشمس الدين الذّهبي، تحقيق محمد بن حسن بن عقيل موسى الشّريف، دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٨م.

٣٩٢. النّشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد بن محمد بن علي بن يوسف الدمشقي الشهير بابن الجزري، تحقيق علي محمد الضّبّاع شيخ عموم المقارىء بالدّيار المصريّة، مكتبة الباز، مكة(١٤٢٣هـ).

٣٩٣. النَّص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التَّدبُّر : مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التَّدبُّر القرآني، د. قطب الريسوني، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة (المغرب).

٣٩٤. نظرات في التّربية الإيمانيّة، د. مجدي الهلالي، ط. مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

٣٩٥. نظرات في كتاب الله الحكيم، بسَّام جرار، مركز نون للأبحاث والدِّراسات القرآنيَّة.

٣٩٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط. دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١٥هـ.

٣٩٧. نفائس التدبر، جمال إبراهيم القرش، الدار العالمية للنشر والتوزيع (الإسكندريَّة).

٣٩٨. نمِّ تفكيرك في تدبُّر القرآن الكريم : إجابة أكثر من خمس مئة سؤال على مهارة المقارنة والاستدلال والاستنباط، جمال القرش، الدَّار العالميَّة للنَّشر والتَّوزيع (الإسكندريَّة).

٣٩٩. النّهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٤٠٠. هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتّاح المرصفي، طبعة مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط٢.

٤٠١. هدايات القرآن الكريم : صياغة معاصرة لأكثر من عشرة الآف هِداية "بصائر للسائرين وتذكرة للمتدبرين".

٤٠٢. هكذا عاشوا مع القرآن : قصص ومواقف، د. أسماء بنت راشد الرويشد، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الحضارة).

٤٠٣. هل أنكر ابن جرير قراءة متواترة أوردها، مقال للدكتور مساعد الطّيار، موقع ملتقى أهل التّفسير.

٤٠٤. واقعيّة المنهج القرآني، تأليف توفيق محمد سبع، دار المختار للنشر والتّوزيع، ط٢، ١٩٨٣م.

٤٠٥. وسائل عملية لتدبُّر القرآن، عبد اللَّطيف التويجري، مجلَّة البيان (الرِّياض).

٤٠٦. وقف التَّدبُّر : معناه وأنواعه وأحكامه، د. محمود بن عبد الجليل رزون، مكتبة العلوم والحكم، (مصر – محافظة الشَّرقيَّة).

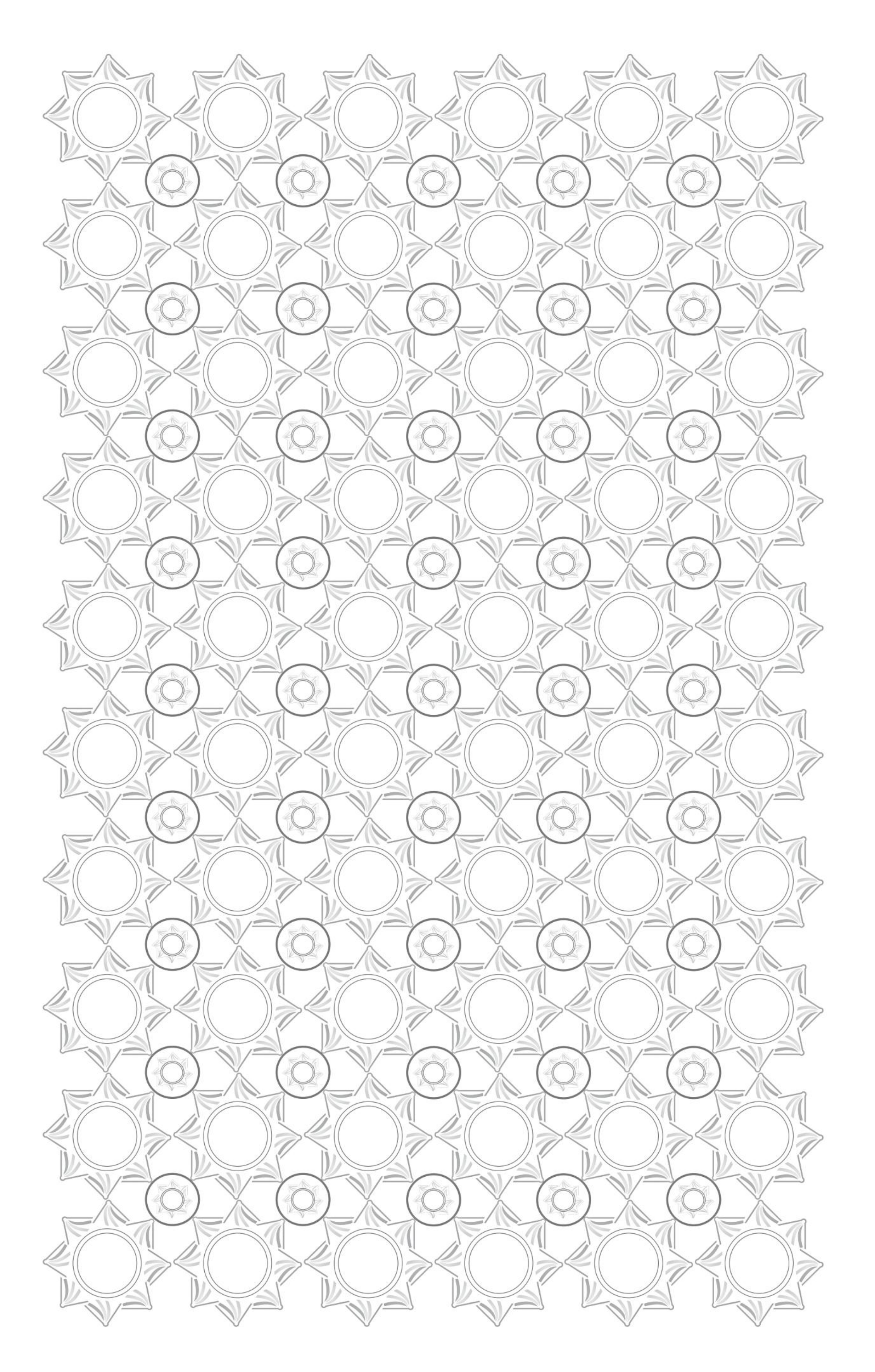
٤٠٧. الوحي المحمّدي، تأليف محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي، ط٨، ١٣٩٨م.

٤٠٨. الوحي والقرآن والنّبوّة، هشام جعيط، دار الطّليعة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.

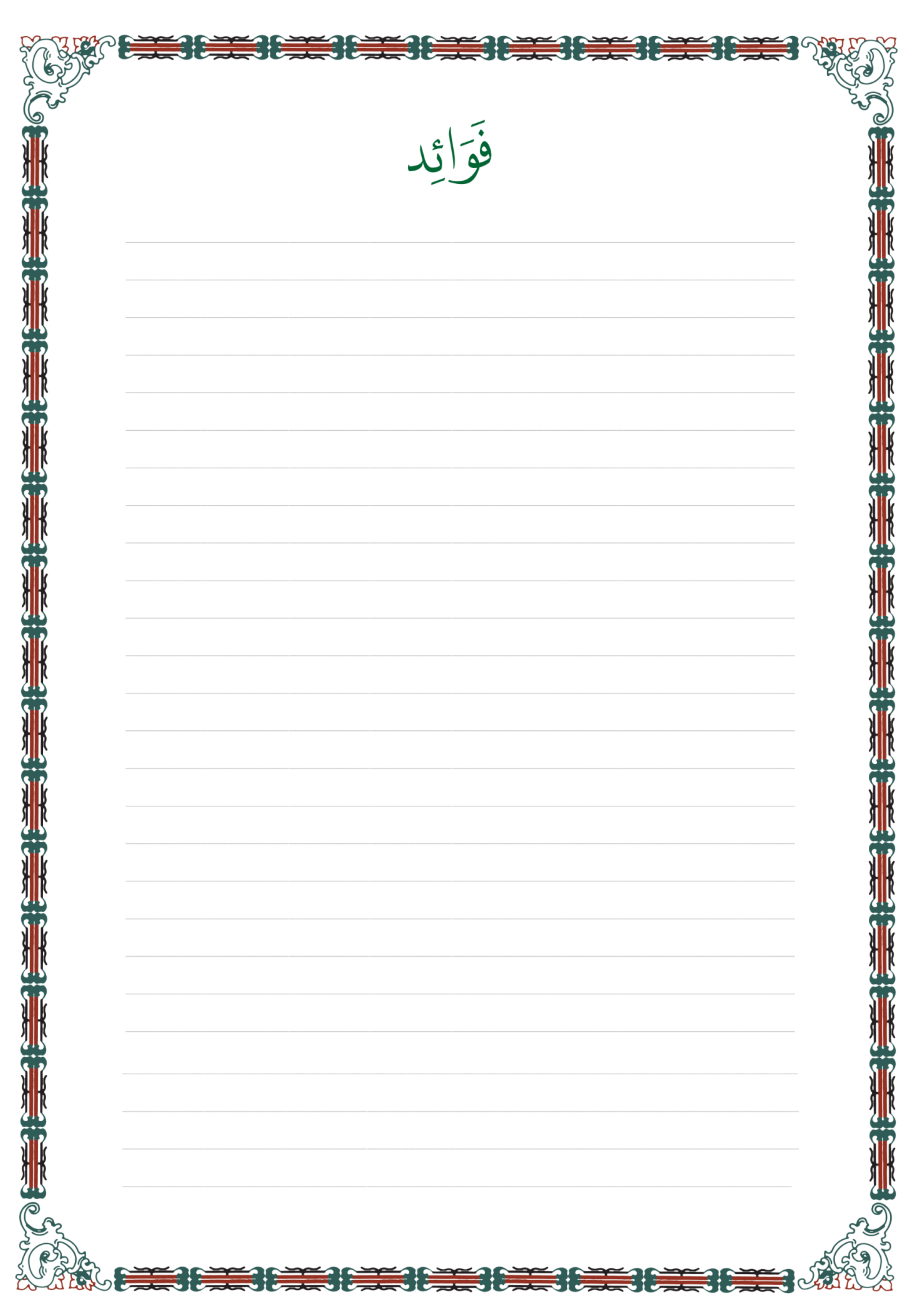
٤٠٩. الوسطيّة في القرآن الكريم، تأليف د. علي بن محمد الصلابي، دار ابن كثير، ط١، ١٤٣١هـ.

٤١٠. يا بنيّ : موعظة لقمان لابنه، د. عويض بن حمود العطوي، الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع (الرِّياض).

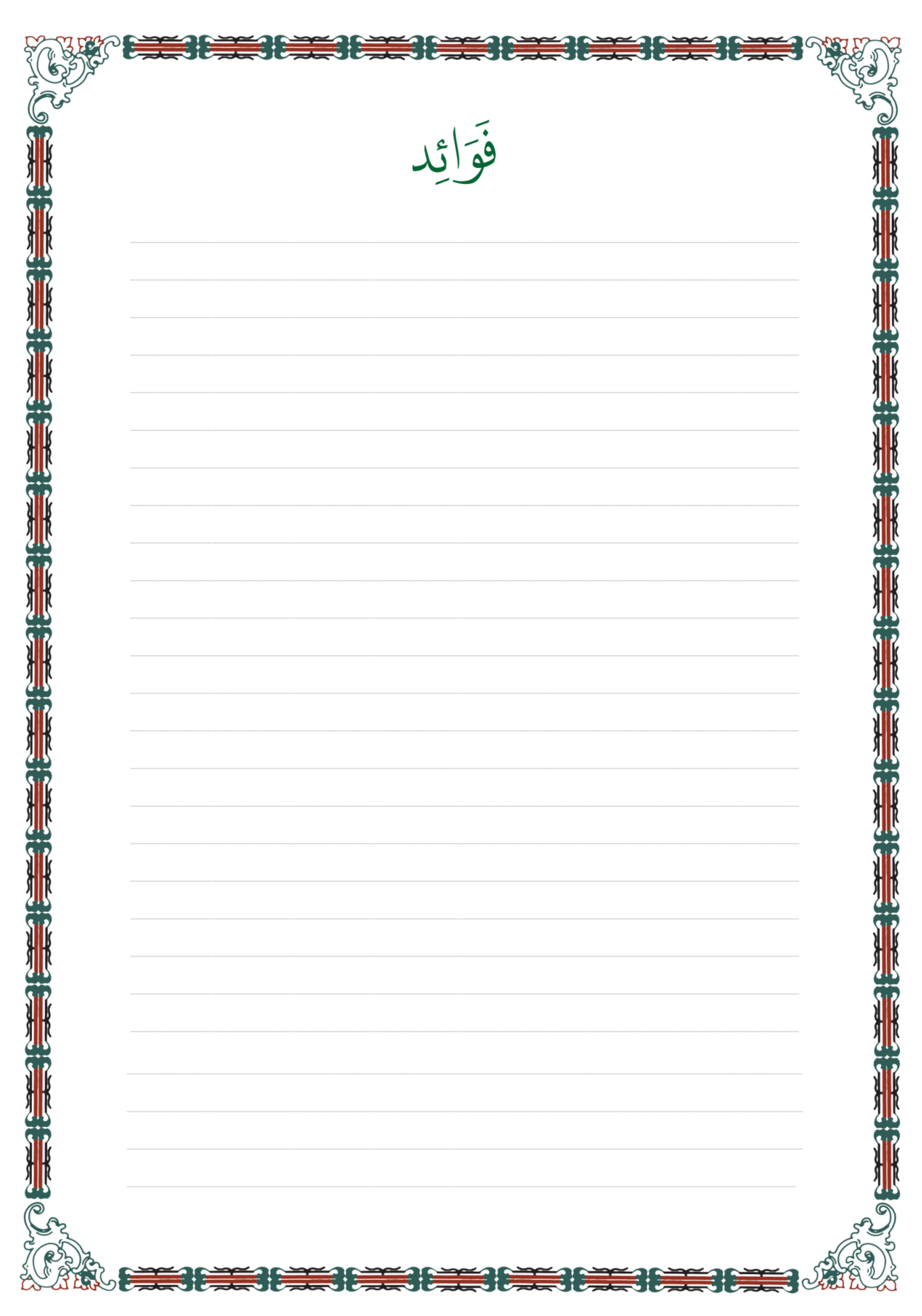




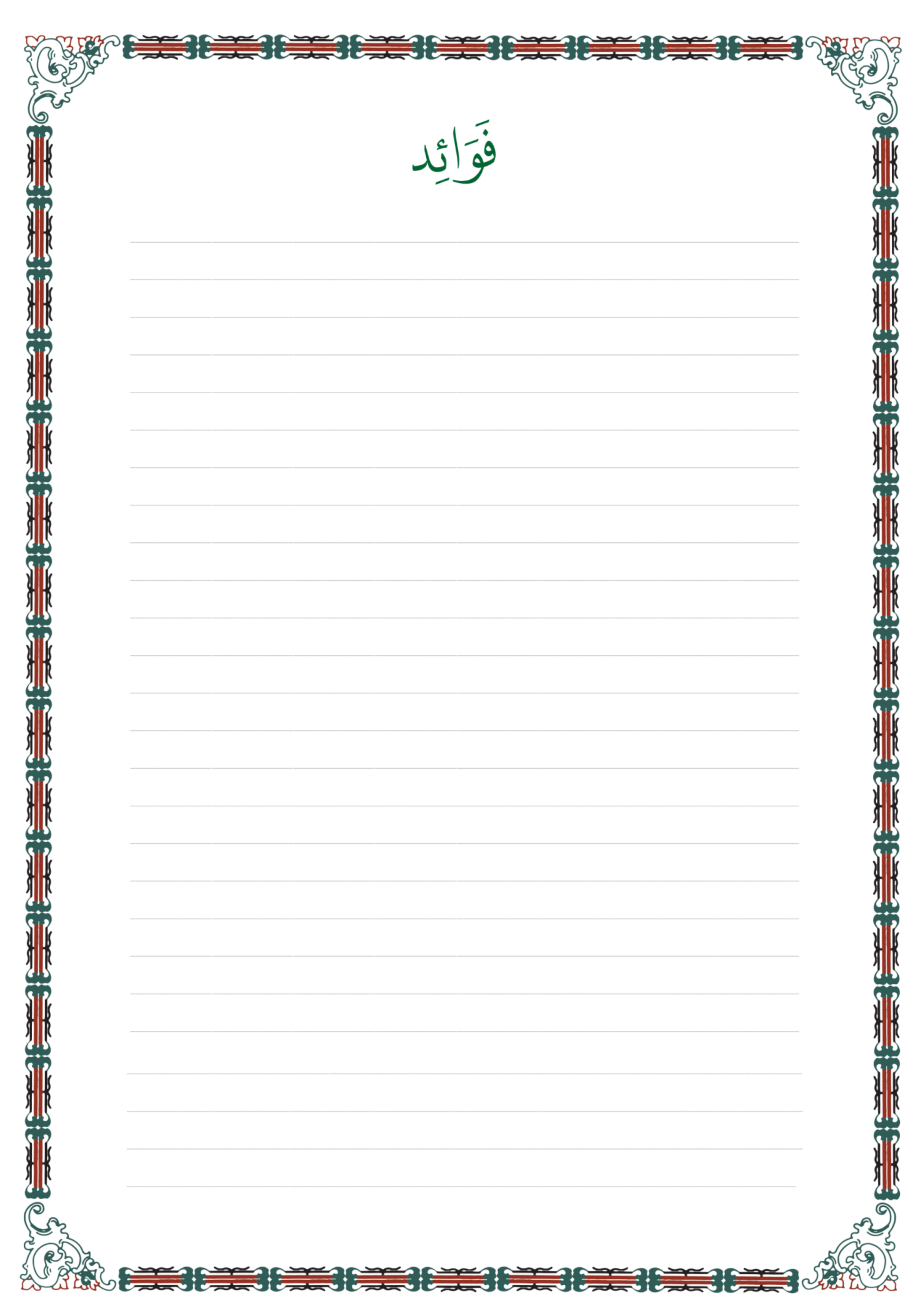




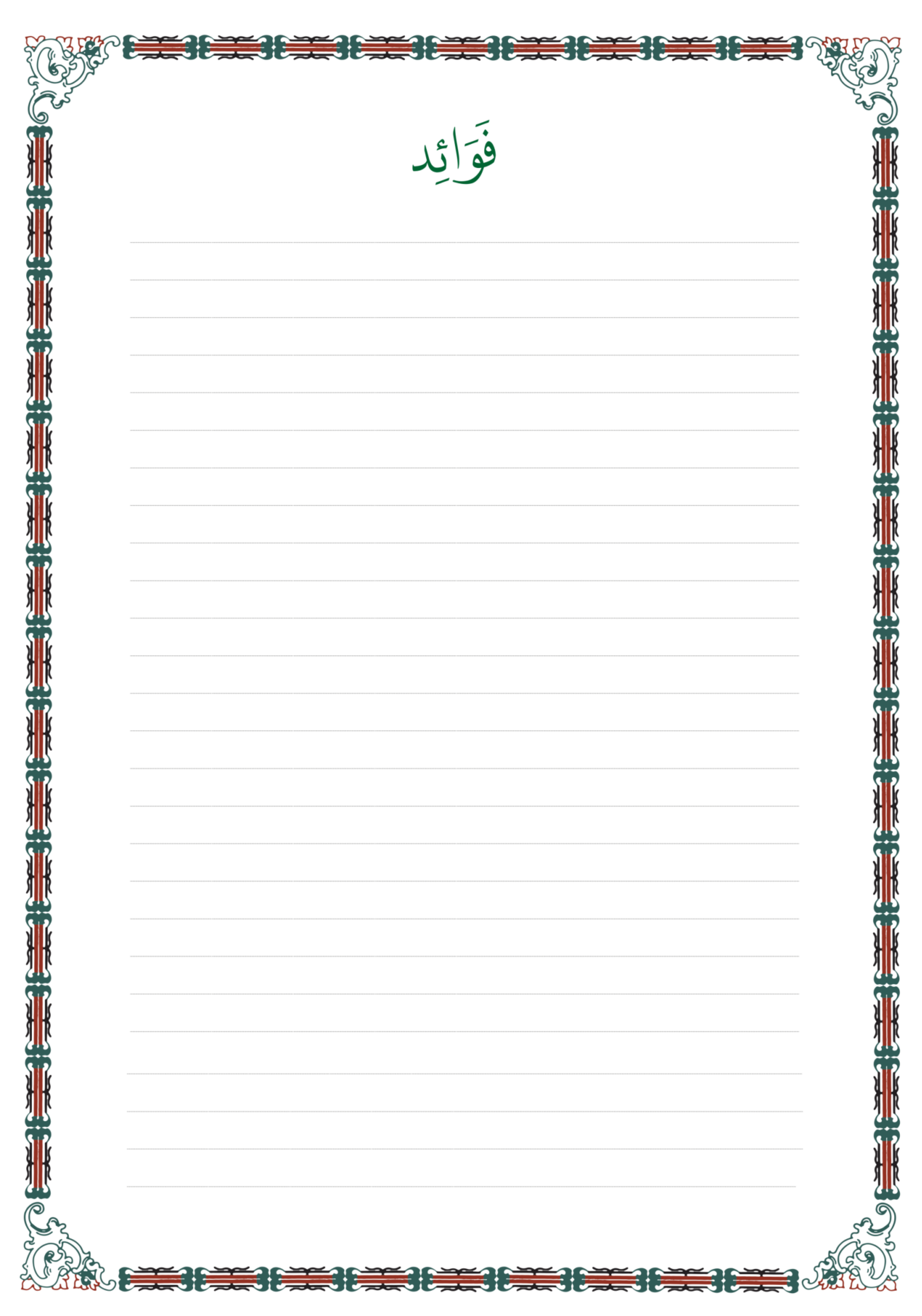
فَوَائِد



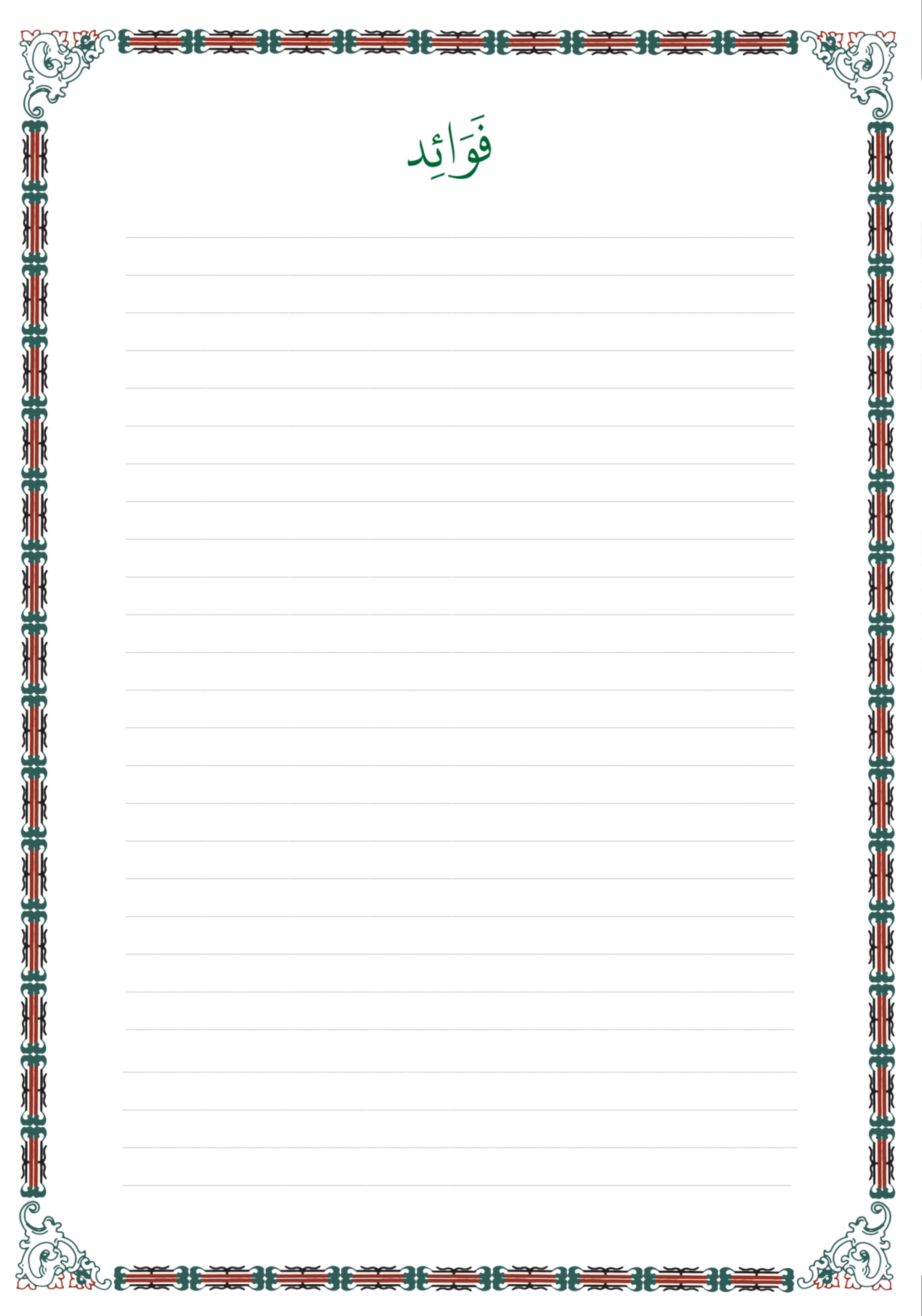
فَوَائِد



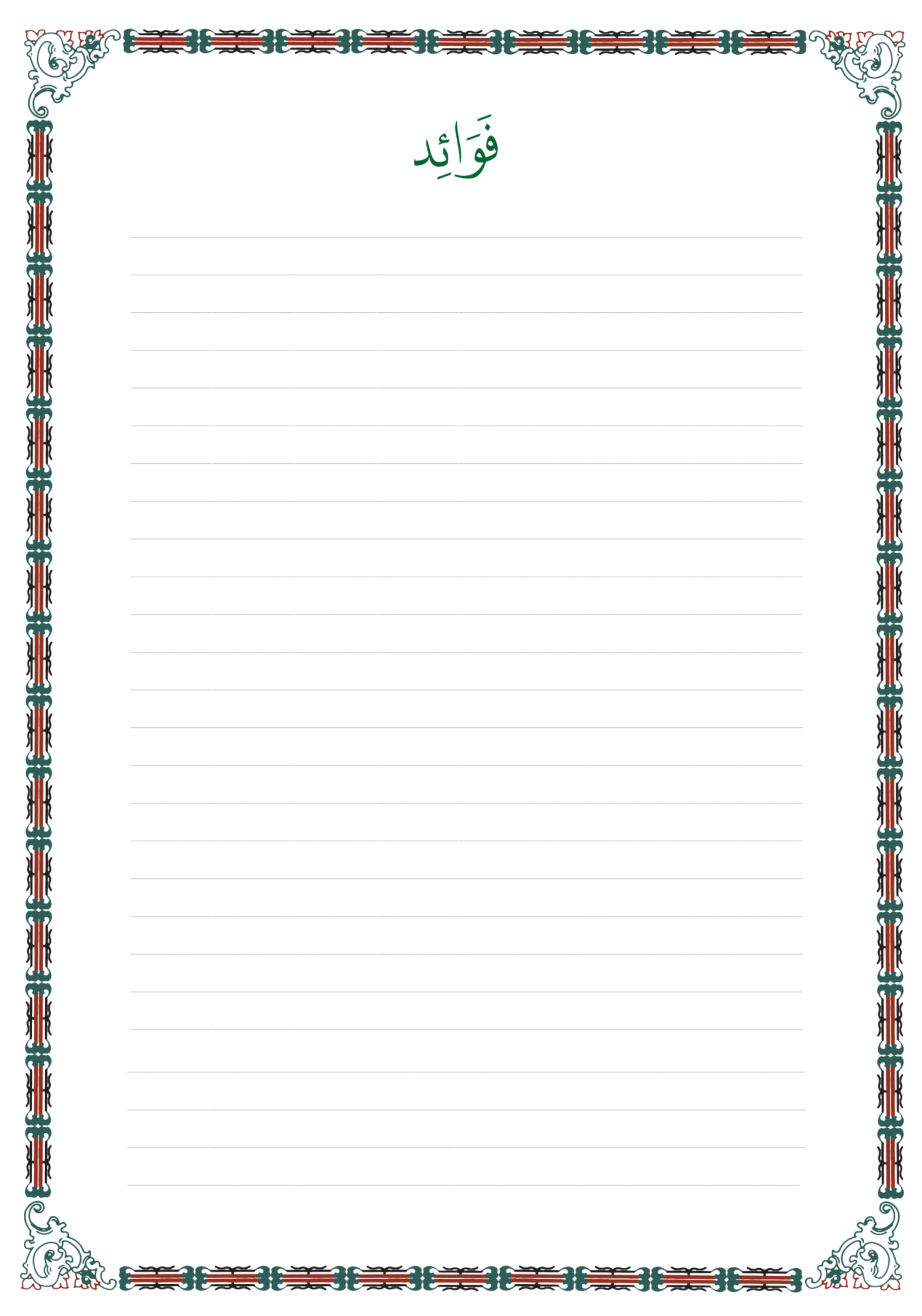
فَوَائِد

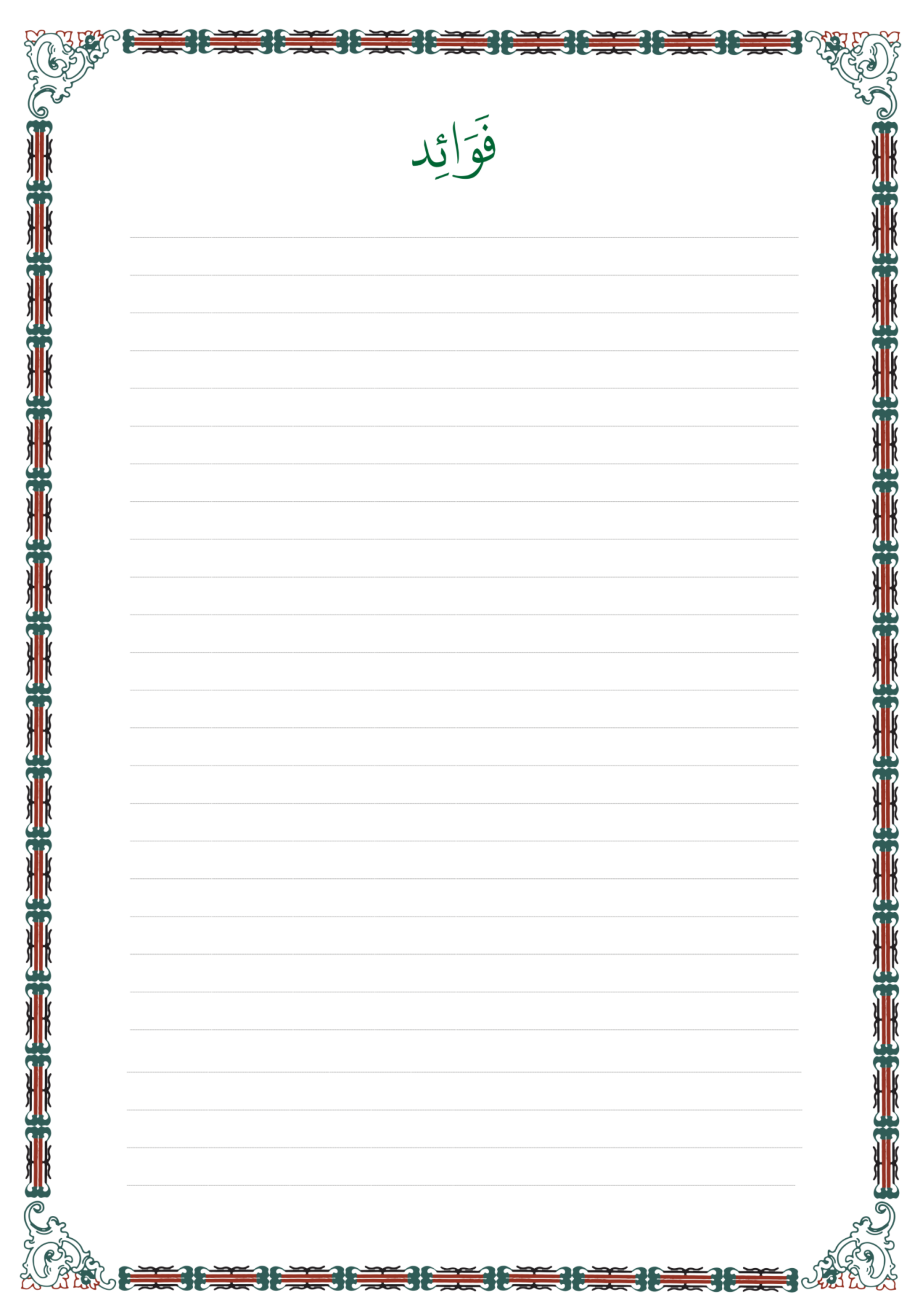


فَوَائِد

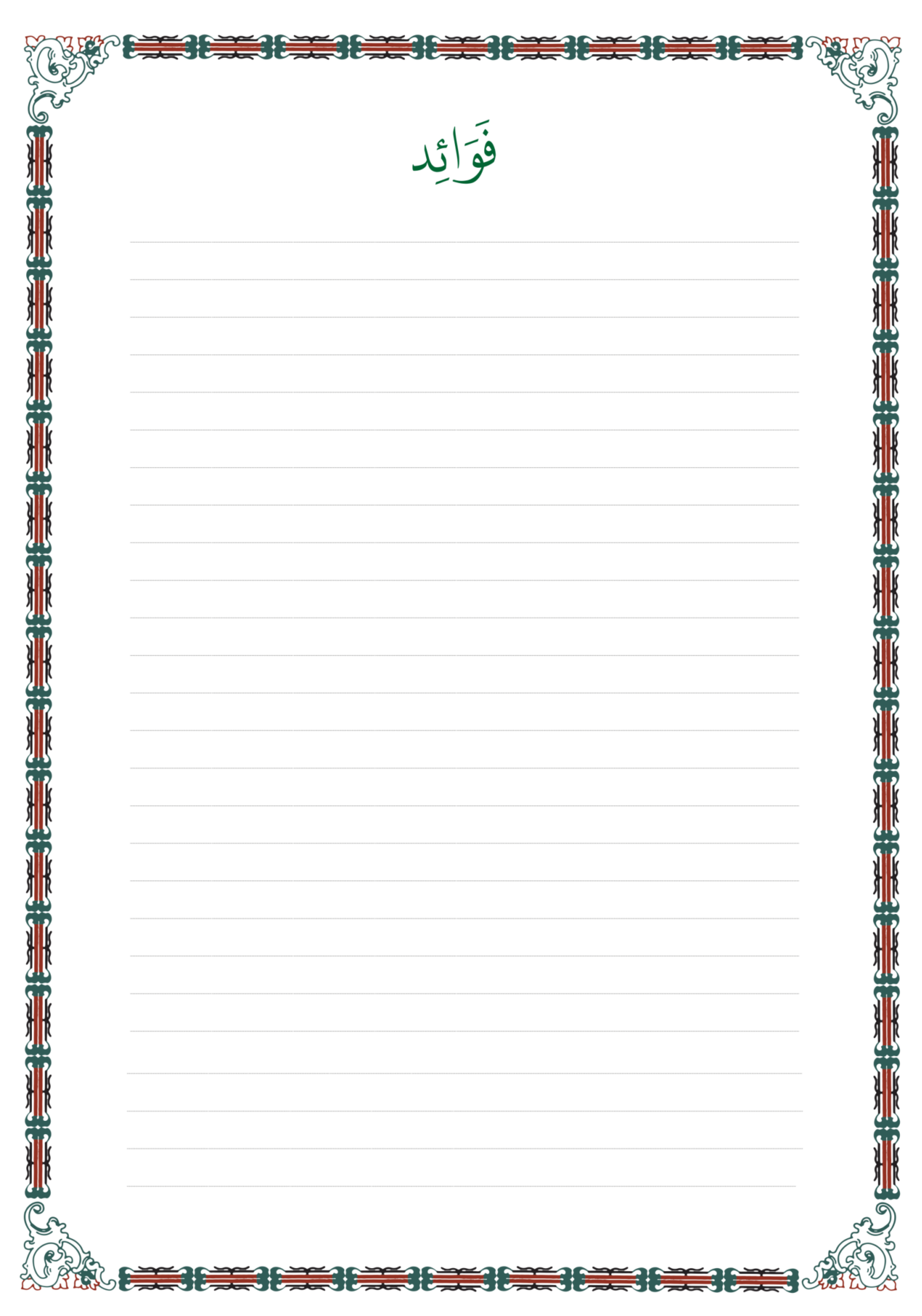


فَوَائِد

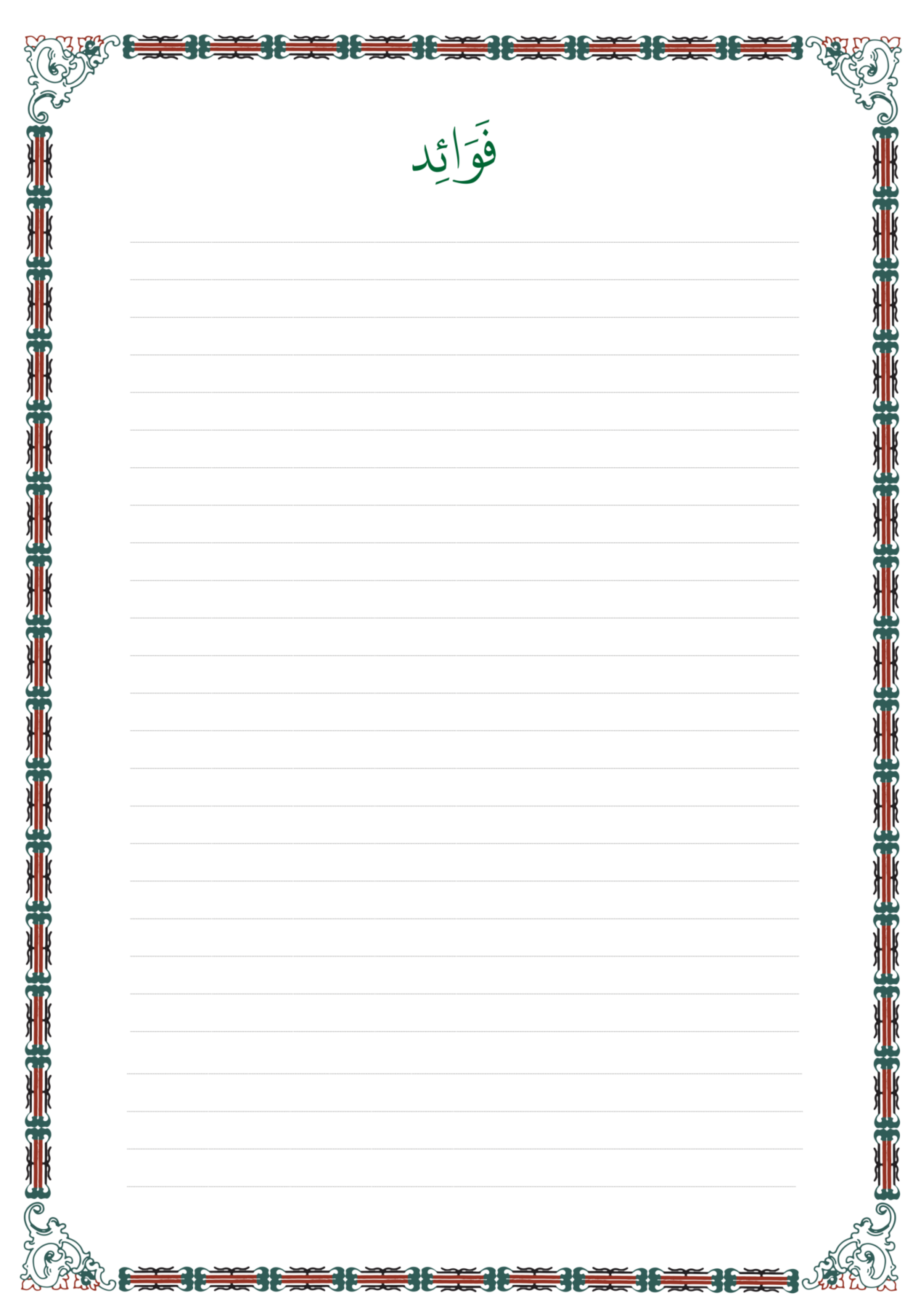

فَوَائِد

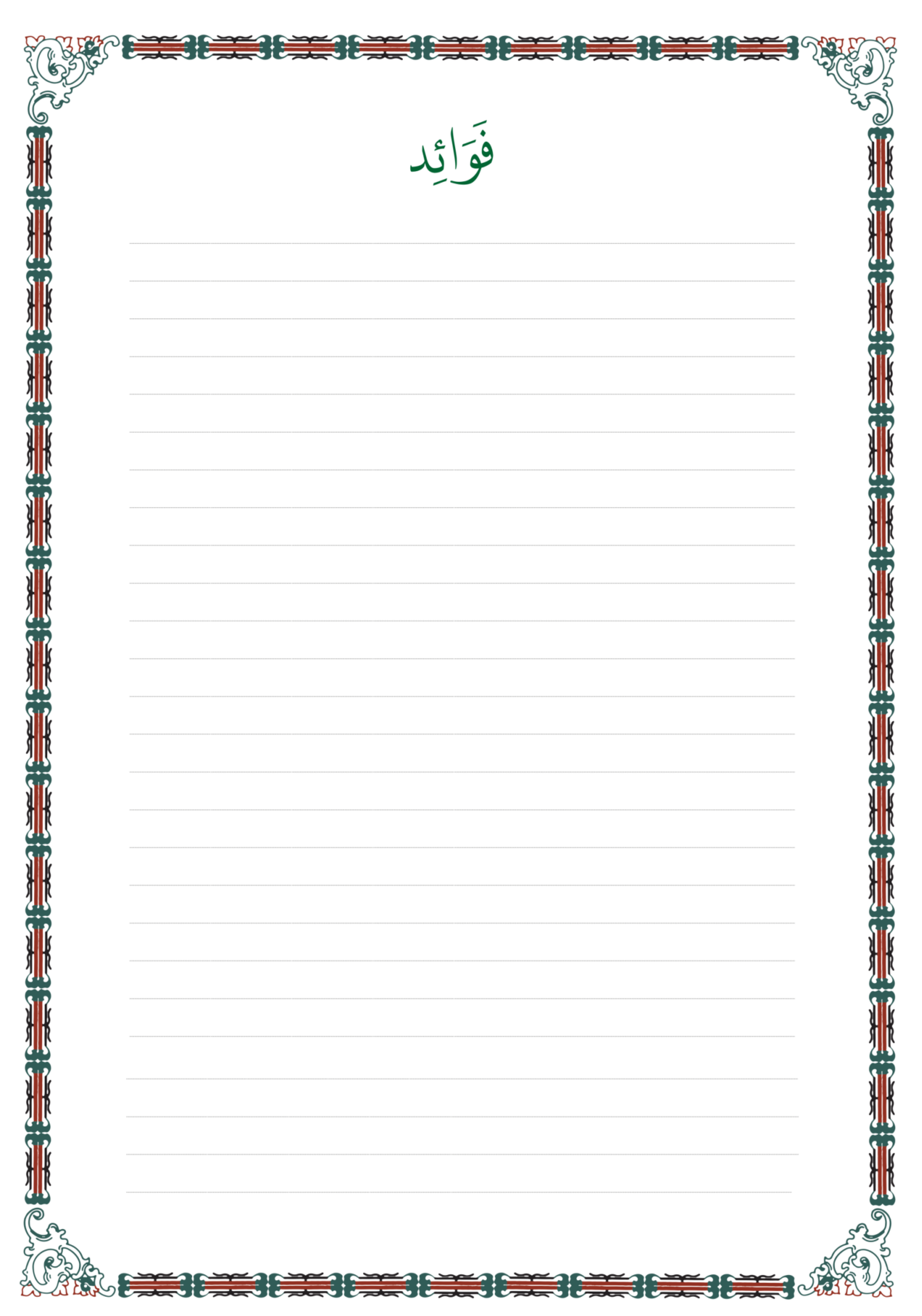


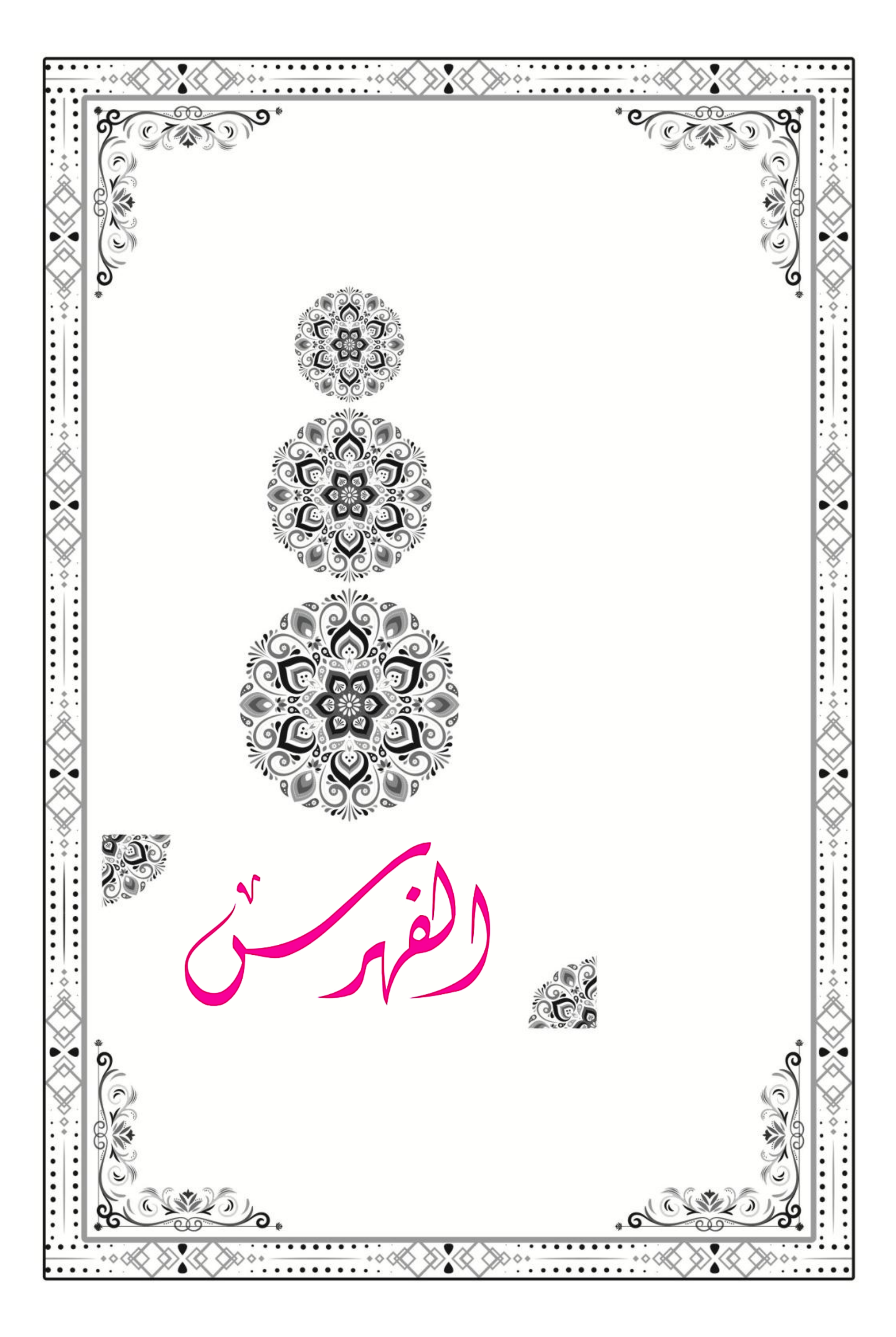
فَوَائِد

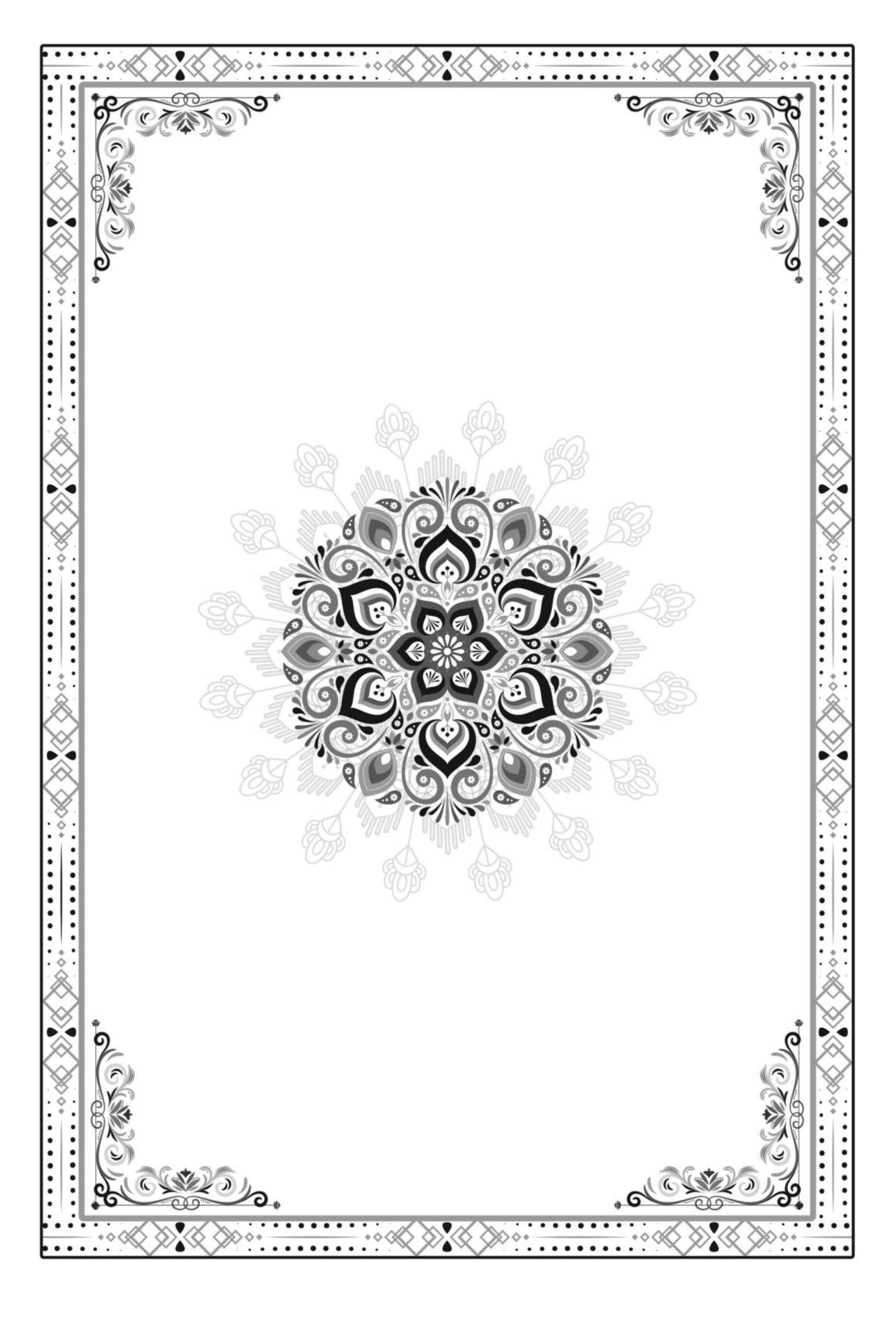


فَوَائِد


فَوَائِد

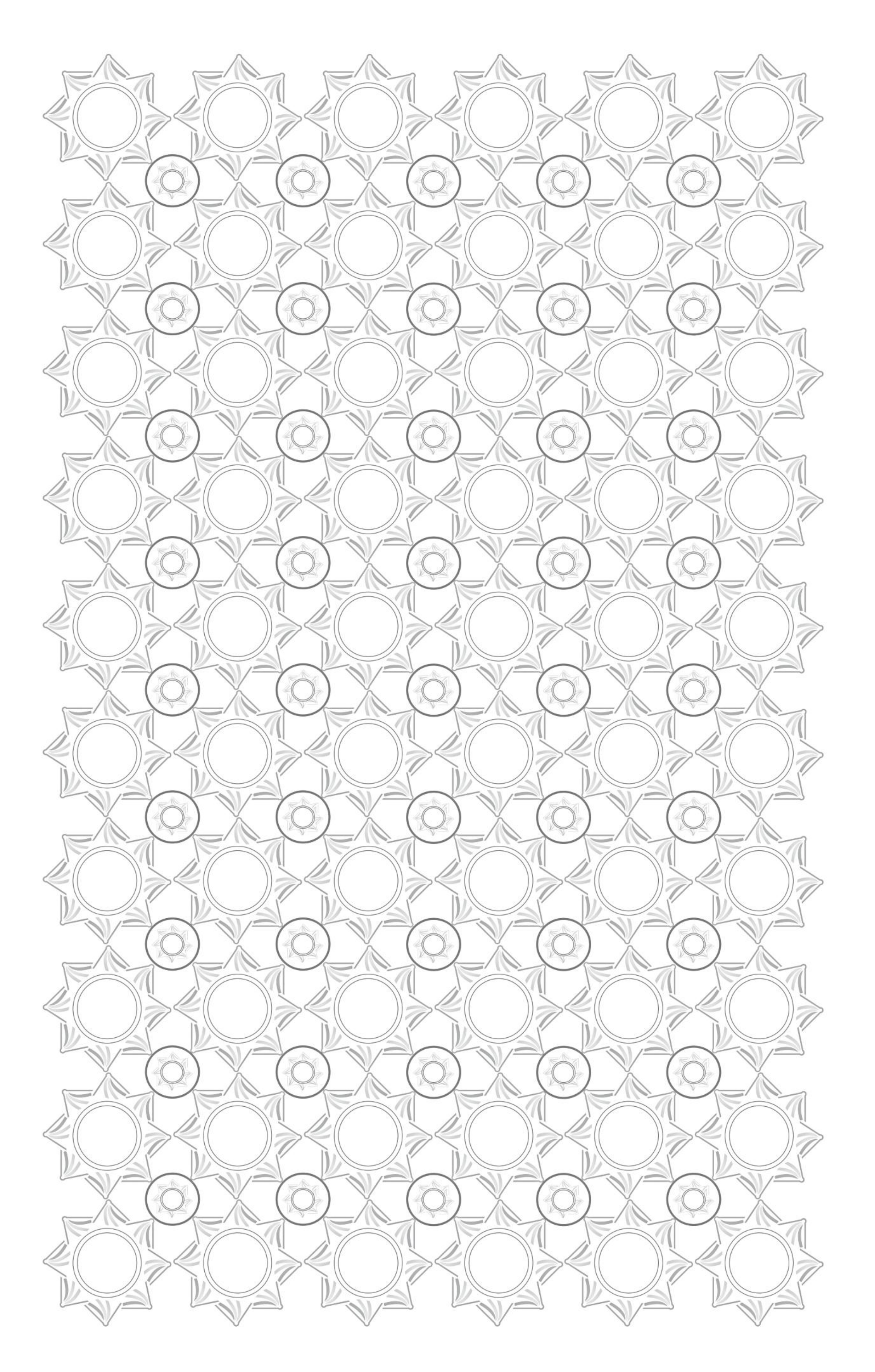

فَوَائِد


الفهرس



مُحتوياتُ الكتاب

فِهرِسُ الموْضُوعَاتِ





عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

كَانَ إِذَا وَصَفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ
لَمْ يَكُنْ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ كَانَ رَبْعَةً
مِنَ الْقَوْمِ وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ وَلَا بِالسَّبْطِ كَانَ
جَعْدًا رَجِلًا وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ وَلَا بِالْمُكَلْثَمِ وَكَانَ فِي الْوَجْهِ
تَدْوِيرٌ أَبْيَضُ مُشْرَبٌ أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ أَهْدَبُ الْأَشْفَارِ
جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتَدِ أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ شَثْنُ
الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي
فِي صَبَبٍ وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا



إننا اليوم لفي زمن كثرت فيه الفتن وتلاطمت فيه أمواج المحن واستحكمت فيه الشهوات وكثرت الشبهات وتعددت المشكلات والتحديات وكثر دعاة البدع والمنكرات وإنه لا خلاص من هذا كله ولا شد لأزر ولا رسوخ لقدم ولا أنس لنفس ولا تسلية لروح ولا تحقيق لوعد ولا أمن من عقاب ولا ثبوت لمعتقد ولا بقاء لذكر وأثر طيب إلا بأن يتجه المسلمون جميعا حكاما ومحكومين شعوبا ودولا شبابا وشيبا رجالا ونساء علماء وعامة اتجاها صحيحا بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم بقلوبهم وقوالبهم إلى كتاب الله، تلاوة وتدبرا وتعلما وتعليما وعملا وتطبيقا، فهو المعين العذب الذي لا ينضب مطلقا ولا يأسن أبدا والكنز الوافر الذي لا يزيده الإنفاق إلا جدة وكثرة ولا تكرار التلاوة إلا حلاوة وطلاوة، بيد أنه لا تمنح كنوزه إلا لمن أقبل عليه بقلبه وألقى إليه سمعه وهو شهيد

فيا أيها المكرم اترك نور الومضة يبرق في عقلك جديدا ويشرق في قلبك إيمانا وتجديدا ويجدد لك مع القرآن عهدا جديدا



مُقرئ بالقراءات العشر وباحث في الدراسات القرآنية والعلوم الشرعية واللغوية

مدير مركز غراس الراسخين للدراسات القرآنية والعلوم الشرعية